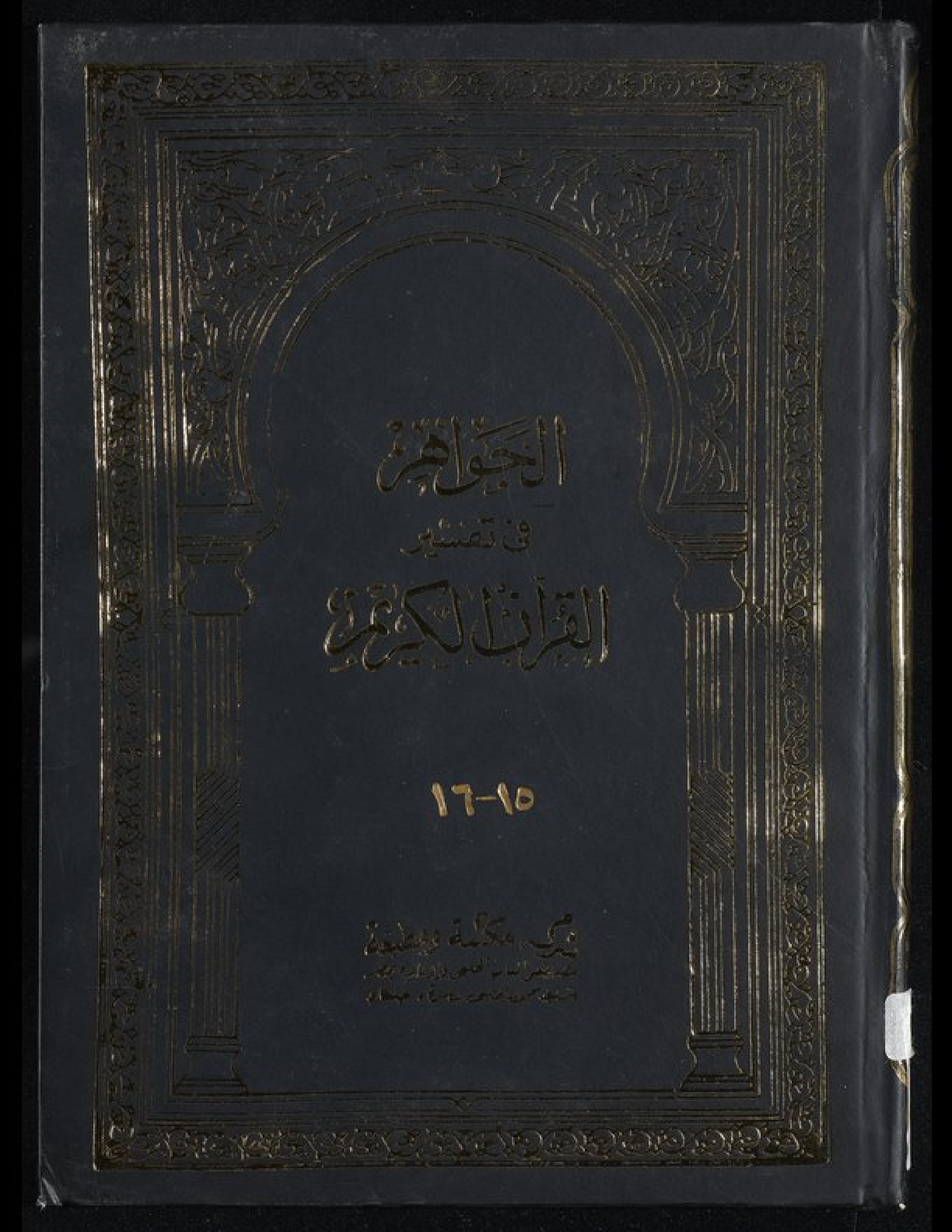

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم
١٥-١٦

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الخامس عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر
عباس شرع محمد أمين عمران

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تفسير سورة الروم ﴾

(وهي مكية إلا قوله تعالى « وله الحمد في السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون » فمدنية

(وآياتها ستون ـ نزلت بعد الانشقاق)

﴿ مقدمة ﴾

(مناسبة هذه السورة لما قبلها)

اعلم أن السورة المتقدمة قد بدئت بالجهاد وختمت به فرد عجزها على صدرها : بدأها بأن الناس لم يخلقوا في الأرض ليناموا على بساط الراحة وإنما خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم وأنهم يلاقون مصاعب ومصائب من الأهل والأصحاب والأمم التي يكونون فيها ، وأخذ يقص ما جرى لنوح وإبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى وما كان من صبر الأنبياء، وخذلان الكافرين وضرب لهم مثلا بالعنكبوت وبينها وبين لهم أن المدار على العقل والحكمة والفهم في القرآن الخ ، وزهدهم في الدنيا وأمرهم بالصبر والتوكل فان الرزق على الله كما رزق الدواب .

فأما (سورة الروم) فقد بدأها بأن محمدا صلى الله عليه وسلم تابع للأنبياء فانه محسن كما أحسنوا ، فاذا كان الأنبياء قد جاهدوا، وصبروا ثم نصروا فان محمدا صلى الله عليه وسلم قد جاهد وصبر ففاز ، فاذا كان آخر السورة هو ملخص ما فيها : أي إن قوله تعالى « والذين جاهدوا فينا » الخ هو ملخص ما جاء في السورة فان أول الروم يفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم مثلهم ، ألا ترى أنه أخبر بأن الروم سيغلبون بعد أن غلبهم الفرس ، وأيضا أمته ستغلب الفرس في تلك الجهة . فهذان (نصران) نصر نبوي علمي ونصر حربي بالفتح .

فأصبحت هذه السورة متممة لما قبلها . ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم على دين إبراهيم أخذ يقرر ويفصل ماذكره إبراهيم في سورة العنكبوت «فانظروا كيف بدأ الخلق» الخ فهنا أخذ يبين ذلك فقال «أو لم يسيروا في الأرض» الخ ، وقال «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ. وفصل ذلك أبهج وأجمل تفصيل فقال «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ. إذن سورة الروم مفصلة لبعض ما أجمل في سورة العنكبوت تارة ومكملة لتاريخ الأنبياء بذكر خاتمهم ونصره تارة أخرى اه .

﴿ تقسيم السورة إلى أربعة أقسام ﴾

(القسم الأول) في تفسير البسملة .

(القسم الثاني) في بعض سر «الم» .

(القسم الثالث) في إثبات النبوة بالإخبار بالغيب وفي العجائب الدالة على الوحدانية من أول السورة إلى قوله تعالى « وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

(القسم الرابع) في تذكير الناس بالنعم وبالنقم ليشكروا الله على الأولى ويخافوه على الثانية وآيات أخرى لمحاجة الجاحدين من قوله «ضرب لكم مثلا من أنفسكم» إلى آخر السورة .

﴿ القسم الأول : في تفسير « بسم الله الرحمن الرحيم » ﴾

استيقظت قبيل الفجر ليلة الجمعة (٦) من شهر سبتمبر سنة ١٩٢٩ ونظرت بهجة النجوم وجمالها وعن عوانس أوانس يقلن لأرواح أهل الأرض (هلم إلينا) وفيهن الثريا ونجوم الجبار والجوسا كن والدنيا هادئة فأعجبني منظرها وبهرني حسنها وأدهشني جمالها وصرت أقول في نفسي إن المناظر الجميلة تسأمها النفس إذا طال أمدها واعتيد نظرها. ولكن هذه الأوانس العوانس والخنس الجوارى الكنس بهجات الطلعة للناظرين وإن كثر الناظرين ووافق المبتدأ الخبر. إن كل مبذول متروك وكل ممتنع محبوب. ولكن هذه الحور المقصورات في السماء تعرض كل ليلة على الناظرين وتتجلى للعاقلين وهم منها لا يسأمون ، وكلما اذدادوا لها نظرا اذدادوا لها حبا .

إن حجرة نومي فوق الدور العلوي من المنزل وأمامها فناء لاسقف له وقد اعتدت في زمن الصيف أن أنام في هذا الفناء لأقابل الهواء الجوي الخالص ولأشاهد الكواكب الجميلة البديعة ، ففي هذه الليالي كلما استيقظت قبيل الفجر شاهدت أربع مجموعات منها تسير من الشرق إلى الغرب . ولا جرم أن للنجوم أسماء اصطلاحية ذكرتها في الأجزاء السابقة وهذه الأسماء تختلف باختلاف الأمم من أهل الصين والهند والبابليين والعرب بحسب ماتتخيله كل أمة من شئونها وما يغلب على خيالها مما لا محل للافاضة فيه كما تسمى عندنا النجوم المجتمعة كعنقود العنب بالثريا ويسميها قوم (الدجاجة وأفراخها) كما تقدم ، فلما كان الأمر كذلك ظهرت لي هذه الكواكب في هذه الليالي بهيئة صحائف كتاب أمسك به صاحبه وطواه في يده وأنا وأهل الأرض في داخل ذلك المطوى وهو يديره حوالينا من المشرق إلى المغرب فأولا تمر الثريا ، ويتبعها من جهة الشرق مجموعة كواكب كونت ماتشبه الزاوية الحادة وملتقى الخطين جهة الغرب وسطح الزاوية جهة الشرق ثم يلي هذه الزاوية مجموعة جميلة من النجوم تظهر بهيئة خط منحن ظريف بديع كقلادة الحسناء أكثر نجومه تشبه (كوكب السها) في قلة ضوئه ، ويتبع هذا الخط من جهة الشرق على بعد يساوي المسافة التي بينه وبين الثريا نجوم شديدة اللمعان من القدر الأول من نجوم الجبار ويسميها العامة في بلادنا بالميزان . ذلك لأنها مكونة من ثلاث نجوم على هيئة خط مستقيم وثلاث أخرى تكون خطا مستقيما مائلا على الأول ، فهذان الخطان يعطيان للخيال صورة ميزان الباعة في بلادنا ، فهو مكون من قضيب يمسكه البائع بيده (في داخله لسان الميزان) وقد علق فيه قضيب آخر

من وسطه يحمل الكفتين ، فهذه أربع مجموعات متتابعات أراها كل ليلة تمر فوق رأسي من الشرق إلى الغرب وأنا ألاحظها وكلما استيقظت كنت أراقب الثريا التي هي قائدتها جميعا فكنت أعرف الوقت تقريبا بها وإن كانت كل ليلة تتقدم جهة الغرب قليلا وكنت ألاحظ نهر المجرة بقرب هذه المجموعات في أكناف السماء ، فهؤلاء وهؤلاء جميعا يظهرن كل ليلة ويسرن فوق رأسي من الشرق إلى الغرب ، فقلت ياسبحان الله هذا كتاب كأنه يشير إلى آية « والسموات مطويات بيمينه » فهذه السماء من السموات مكونة من عوالم الأثير التي لانرى وعدم رؤيتها لا يحرمها اسم الوجود . فهذه العوالم السماوية الموجودة فعلا بحسب مااتفق عليه الناس قد برزت فيها الروائع والبدائع المسماة نجوما وهي متلائمة منتظمة وهنا يعجب الانسان من سقف مرفوع بديع أزرق رصع بالجواهر ولم ير الناس سقفا مرصعا إلا إذا كان من مادة جامدة صلبة . أما السقف الذي لاتراه العيون ولا تتخيله الأفهام وإنما هو أمر أشبه بالخيال فكيف رصع بالجواهر وكيف يثبت مئات الملايين من السنين . إن سقوف منازلنا كلها تتداعى إلى السقوط (وهي متينة البناء قوية المادة) فكيف رأينا هذا السقف الذي هو أرق من الهواء وألطف من الضياء لايعتريه السقوط ولا يحوم حوله الانحلال . إن هذه من معجزات الطبيعة وآياتها البديعة . إن من شأن السقوف أن تثبت وتسكن من يوم وضعها إلى يوم سقوطها . أما هذا السقف فهو فضلا عن دوامه آمادا وآمادا لا يهدأ ليلا ولا نهارا فهو معجز من (وجهين) ثباته مع لطف مادته ودورانه حولنا، وهناك آية ثالثة وهو أنه لوح منقوش بسطور من نور فهو رق منشور ومن أبدع البدائع أن الورق عادة أبيض اللون والكتابة بالمداد الأسود، فالصحائف بيض والسطور سود أما هذه الصحيفة فهي زرقاء، ونقوشها بيضاء زاهرة، إذن هذه الصحائف أبدع وعليها مكتوب بقطع من الألماس ومنظرها أبدع من منظر الحبر، وأي نسبة بين جمال الجواهر وسواد الحبر. فأين الثريا وأين الثرى ذلك يحاكي الحقيقة لأن ماتعيه الكتب إنما هي نقوش دالة على ألفاظ دالة على معان يتخيلها الناس من خلال ذلك السواد الذي يتخلل بياض الورق، ولذلك نرى علوم الناس فيها الحقيقة والخيال والمقطوع به والمظنون . أما مناظر هذه الصحائف السماوية فان جمالها يحكي حقائقها من حيث البهجة والجمال ويشير إلى ماوراءه من أقدار عظيمة وأبعاد هائلة . فهذه الكواكب التي رأيتها الليلة كلها ثابتة، ثم إني فكرت في دورانها حولي كل ليلة وقلت إني أصبحت موقنا بأن كل جسم أو وصف أو حركة في هذه الدنيا الجميلة له غاية . فاذا كان جمال الزهرات وروائحها العطرية لم تخلق إلا لغاية وهي أن تجلب الحشرات بحسن منظرها وعاطر رائحتها لتشرب الرحيق المختوم والعسل المختبئ في أسفل الزهرات، ومتى نالت بغيتها فقد أتمت عملها وهو إلقاح الإناث بواسطة ذرات الإلقاح من الذكور ويكون ذلك العمل مفيدا لنفس النبات ولنفس الحشرات . فاذا كان هذا شأن هذه الدنيا فلا حركة ولا جوهر ولا عرض إلا لفائدة وغاية حميدة ، فما غاية مرور هذه الصحائف الزرقاء المرصعة بالجواهر الثمينة المختلفة الأشكال كل ليلة فوق رأسي في فناء حجرتي ؟ لم يضع في هذا الكون منظر ولا حركة لغير فائدة فكيف تضيع ثمرات هذه الحركات حولي ولم أكد أتم هذا الخاطر حتى وقع في نفسي أن الصحائف على (قسمين) صحائف صغيرة يحركها الناس بايديهم ليقرؤها وصحائف كبيرة وهي هذه السموات المطويات بيمين كاتبها القدير الذي يعلم أن الناس لايقدرون على تحريكها كما قدروا هم على تحريك صحائفهم ليقرءوها فحركها بيده هو فدارت حولهم فلذلك تمر على كل ليلة فجدير بنا أن نقرأها . إن الانسان لضعفه لايدري إلا مايكتبه آدمي مثله ، أما كتاب السموات فهو (وإن كان مبذولا) لم يدرسه إلا قليل هم صفوة الانسان في الأرض ولهذا الكتاب مزية أخرى وهو أنه منبع الهدى ومصدر الرزق؛ أما تأليف الناس فهو هدى ومصدر الرزق آت من غيره فتأليف الله جمع غذاء العقل وغذاء الجسم وهذا من أبدع الاقتصاد في العمل والأحكام

اللهم إنى أخجل أن أرى كتابك مبذولا لى وأنت تديره فوق رأسى كل ليلة وأنا عنه معرض ، كتابك المسطر بالحروف الكبيرة تلك الحروف التى يعجز عن درسها صغار العقول ويفرح بها المفكرون ، هذا الكتاب الذى تشرق سطوره ليلا وتضىء نهارا فاذا قلبته أمامى وأنا عنه ساه فلى الويل كل الويل .

فويل لمن نشر الله له صحائفه فأعرض عنها وهو يقول « والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون » ويقول «وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون» ويقول « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة » الخ وكيف تفتح أبواب السماء لمن تمر صحائفها عليه كل ليلة وهو معرض عن جمالها غارق فى بحار الأحوال المادية لا شعور له بما يراه ولا لذة له فيما يلقاه ، حبس فى المسائل الجزئية والأعمال الحيوية فهو نائم والدهر يقظان ، وما هذه الكواكب إلا حدائق تشاهد الأرواح بعد الموت جمالها وتبتهج بمنظرها ، وليست كل روح أهلا لمرآها ، ولا كل نفس بقادرة على الابتهاج بمنظر حلاها كلا فأكثر النفوس الأرضية عنها لاهية ساهية ولا ترى النفوس بعد الموت إلا ماعشقته فى الحياة .

* إن الطيور على أشكالها تقع * « قل كل يعمل على شاكلته ـ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

هذه نظراتى فى تلك الليلة ، ثم إن الفكر عارضه ماقطعه وأخذت النفس تذكر شئونا أخرى فنظرت النجوم كرة أخرى فلم ألحظ ذلك الجمال ولم أشعر بذلك الكمال فعلمت أن هذه حال جميع الغافلين . إن هذه النجوم لايظهر جمالها وبهجتها إلا لنفوس صفت وعقول خلت ، أما النفوس التى لم تعرف ماهو الجمال ولم تدرك ذلك الكمال واختص عشقها بظاهر الشهوات فهذه نفوس محبوسة وقيل فى أمثالها «فما بكت عليهم السماء والأرض» ويقال لهم على سبيل الاعتبار « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة» الخ. فمن أراد أن تفتح له أبواب السماء فى الآخرة فليعلم أن مفتاحها اليوم معه فليقرأ قوله تعالى : «وزيناها للناظرين» ولينظر اليوم هذا الجمال . وهل شعر بالحسن والجمال وفكر فى هذه العجائب واشتاق إلى معرفة الحقائق وبحث فى هذا الوجود وأصله وما المقصود منه وكيف نظامه وهل الرحمة عامة فيه ؟ ولم كان العذاب فى الدنيا والآخرة حتم على قوم ؟ وإذا كان الله مبدع الأكوان هو الذى خلق هذه العوالم الجميلة ونسقها وأبدعها وجعلها غاية فى الابداع والحسن والاشراق . فكيف يعقل أنه هو نفسه يذيق نفوسنا العدم ويوقعنا فى الندم ويقدر علينا الحسرات تتلوها الحسرات . أفليس هو الفاعل المختار . هذه الخواطر تلتها خواطر ثم أخذتنى سنة من النوم فخيل لى كأنى فى روضة فيحاء جميلة المنظر بهجة فيها من كل فاكهة زوجان ، وبينما أنا أتمتع بمنظرها فى النوم كما كنت أبتهج بمناظر النجوم فى اليقظة ، إذ تمثل لى شخصان من نور أحدهما أكبر من الآخر منظرهما بديع بهيج وهما على هيئة الإنسان فأخذت أفكر فى هذا المنظر ونسيت جمال الحديقة الغناء ، وأخذت أفكر فى أمرهما ولم ظهرا لى ؟ وماالقصد من هذا ؟ فأخذت أصغى لهما لعلى أسمع لهما قولا فأصيب منه حكمة ، فما خطر لى هذا الخاطر حتى سمعت الأصغر يقول لصاحبه : سيدى علمنى مما علمك الله ، فقال سل مابدا لك ، فقال إننا ونحن على هذه الأرض مع الناس كنا نسمعهم يذكرون الله بالرحمة والرأفة اللذين لاحد لهما ، ولكن لماذا نرى الموت والمرض والآلام المختلفة تعترى هذه النفوس الأرضية ، القرآن مبدوء فى كل سورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهكذا الفاتحة فيها « الرحمن الرحيم » . إن الرحمة مكررة فى جميع ركعات الصلاة وفى أول كل سورة والله تعالى يقول «ورحمتى وسعت كل شىء» أليس الأطفال الذين يمرضون ولا ذنب لهم والبهائم التى ترعى فى مراعيها تمرض ، أليس هؤلاء من جملة الأشياء فاذا كانت الرحمة وسعت كل شىء فكيف لم تسع هؤلاء ؟ بل مارأينا أحدا فى الأرض إلا شكا وبكى وأنّ وقال (أين الرحمة ؟) ولذلك قال المتنبى شاعرهم :

كل من فى الكون يشكو دهره ... ليت شعرى هذه الدنيا لمن

إنى لو أردت ياسيدى أن أوفى المقام حقه لأعوزنى لبيانه أيام وليال ، لأن الرحمة وضدها قصتهما قصة الوجود كله ، فاذا استوعبت القول فيهما وجب علىّ أن أستوعب علوم الأمم والأفلاك والأرضين فلأكتف بهذا الايجاز وأنت العالم ، ولقد أوجب الله على الجهلاء أن يسألوا كما أوجب على العلماء أن يعلموا وأنا الجاهل وأنت العالم . فها أنا ذا إليك مصغ والله لايضيع أجر المحسنين .

فلما سمعت هذا القول دهشت من حسن المصادفة وصرت أقول فى نفسى ياعجبا أنا الساعة أفكر فى معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) فى أول (سورة الروم) ولم كررت فى سور القرآن ، ولم ملأ الله السموات بالجمال وهكذا الأرضين ، ولكن الألم والنصب منصبان على كل حى فى هذه الأرض ، فهذا السؤال يوافى فكرتى ويقرب من مطلبى ، فـ« الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » فأمنى لقولهما ومتى رأيت فى القول حكمة حفظته وتلوت « وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » فعسى أن أقتبس من هذا القول حكمة تفهمنى معنى (بسم الله الرحمن الرحيم) التى حرت فى تفسيرها لما تأملت نجوم السماء . هنالك أخذ العالم يفيض من علمه على فتاه فقال له اسمع يا بنى أنت تعلم أن الرحمة مبذولة لكل شىء ولولاها لم يكن موجود لأن الرحمة بها الوجود وضد الرحمة به العدم وكثرة البذل توجب الغفلة . فالناس لما عمتهم الرحمة من كل جانب حتى غمرتهم أصبحوا لا يشعرون بها . ألم تر إلى الناس والأنعام وإلى السمك فهؤلاء فى الهواء وهؤلاء فى الماء ولا يخطر لأحد منهم أنه يعيش فى مادة تحيط به إلا المتعلمين .

إن الجهال من بنى آدم لايعقلون أن الهواء جسم من الأجسام مع أن حياتهم متوقفة عليه ولا يعرف الهواء غالبا إلا بلفت النظر وتوجيه الفكر . فأما العامة فلا يكادون يعرفون أن أنفاسهم التى تصل رئاتهم من جسم موجود ، بل هى عادة اعتادوها ، بل هذه الأرواح التى تعلقت بهذه الأشباح فى الأرض وعقلت وأدركت بعض المتعلمين من بنى آدم لايرون لها وجودا مستقلا عن الجسم بل يزعمون أنها صفة من الصفات الملحقات به تفنى بفنائه فلا وجود لها مستقل . الرحمة عمت الهواء والماء والأرض والأثير والكواكب . الرحمة أحاطت بالناس فى داخلهم وخارجهم فنسيها أكثر الناس . وليس يعقل الرحمة الحقيقية إلا الحكماء وحدهم وأكثر الناس جاهلون ، فقال الفتى ولم لم يعقلها أكثر الناس . قال الأستاذ أنا أبين لك السبب ، إن الرحيم الجاهل تكون رحمته خطرا . فالرحمة إن لم تكن مصحوبة بعلم لم تفد إلا الضرر . ألا ترى رعاك الله أن المرأة تود أن تكون ابنتها متمتعة بأنواع الملاذ والشهوات وبمن تحب وهى من شدة رحمتها بابنها تود لو ترك الدرس والطرس وأرخى لنفسه العنان فى باحات اللعب والمسرات ، أما العلم والدرس فانهما فى نظرها القصير أمران ثانويان ، وكل مؤدب أو ملك أو أمير ترك حبل الأمور على غاربها ولم يضع الأمور مواضعها اختل نظام رحمته وأصبحت تلك الرحمة عذابا واصبا ، ألا ترى إلى ماقرره العلماء أن الناس إذا غمرتهم النعم ولم تؤدبهم النوازل أصبحت تلك الرحمات عارا عليهم وخزيا مبينا وانحطت قواهم وملكتهم البطنة وأصبحوا فريسة لغيرهم .

فعلى هذا لامناص لصاحب الرحمة من أن يكون عليما بمن يرحمهم حتى لاتكون الرحمة سببا للخسران والهلاك إذا لم تكن بحساب والحساب لا يكون إلا بالعلم . فالرحيم العالم هو الذى لايعطى إلا بحساب ليكون عدلا فى عطائه عدلا فى منعه ويكون العطاء إذ ذاك مع المنع أشبه بالنهار مع الليل ، النهار والليل والصيف والشتاء لولا الحساب لكان نظام الأرض خطلا وخطرا ؛ ولكن تعاقب الضياء والظلمة والحر والبرد جعل

أحوال أهل الأرض مساعدة على بقاء الحياة ، فلو لم يكن نهار لم تكن حياة ، ولو لم يكن ليل لاختل نظام الحياة وهلكت النفوس . إذن الرحمة لاتتم إلا بعلم والعلم به يكون البذل والمنع وهناك يكون العدل . إن هذا العدل هو الميزان الذى توزن به الموجودات . والرحمة إذا انفردت بنفسها عن العدل الذى يوجبه العلم كانت لاخير فيها وانقلبت عذابا أليما وهلا كا مبينا قال تعالى «ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما» فانظر لهذا العطف العجيب .

فقال الفتى وهل معرفة العدل يعوزها شد الرحال واقتحام الأهوال وتجشم الأخطار حتى لايعرفه إلا الفضلاء الأخيار ، فقلت إى وربى إنه لحق كما تقول وإليك البيان :

قد علمت أن الرحمة شاملة لكل شىء ولكنها محجوبة عن أكثر النفوس ، ولا ظهور لهذه الرحمة ظهورا حقيقيا إلا للعالم الحكيم وأنه لابد لها من العدل ، ورحمة بلا عدل كجسم بلاروح . وإذن لايعقل الناس الرحمة إلا إذا عقلوا العدل والعدل حارت فيه العقول وتاهت الأذهان . ألم تر إلى ماجاء فى جمهورية أفلاطون وقد تباحث (سقراط) مع تلاميذه وأدلى كل منهم بحجته فى معنى العدل . فمن قائل (إن العدل أن تعطى كل ذى حق حقه) فرد عليه قائلا (وهل يعطى السيف لصاحبه الذى لا يعقل) ومن قائل (إن العدل هو ما اتفق عليه ذوو القوة والجاه وأرباب النفوذ فهؤلاء كل ماقالوه ينفذ والناس لهم مطيعون) فرد عليه قائلا (ليس الحاكم الذى يسخر الجمهور لمصلحته ويتلاعب بهم أميرا بل هو لص) وهكذا ، ولو أن جماعة اللصوص لم يستعملوا نوعا من العدل لانفرط جمعهم وتفرقوا شذر مذر وهم خاسرون .

وهنا ذكر له ماتقدم فى (سورة النحل) فى تفسير قوله تعالى «إن الله يأمر بالعدل والاحسان» فقد جاء هناك ذكر العدل وأنه لا يكون باعطاء الإنسان حقه فرعا أضربه ، وليس يجوز للانسان أن يعطى السيف للمالك الذى اختل عقله ولا أن يقول للذى أشرف على الهلاك الحق لئلا يكون هلاكه . وهنا ذكر أن حاكم الجمهور إذا لم يعدل فيهم وظلم فلسنا نسميه أميرا بل هو لص ، واللذة التى كان يتوهمها فى ذلك لاينالها لأن سعادة كل مخلوق بما اختص به واختصاص الانسان أن تكون نفسه قائمة بما يجب عليها مقومة لجميع صفاتها الخ .

ثم ختم المقال بأن العدل فى الأمة بأن تكون كل طائفة قائمة بما وجب عليها فالصناع والزراع يخضعون للجنود ، والجنود يخضعون لرجال السياسة ، وهكذا الفرد الواحد تكون قواه العقلية محفوظة بنسب خاصة فلاتطغى إحداها على الأخرى فيكون عفيفا شجاعا مفكرا وهنالك يكون العدل ، فالعدل هو الاتزان الذى يكون بين أفراد الأمة وبين قوى الفرد الواحد فكما أن القوة الشهوية لا تطغى على الغضبية بل تخضع لها والقوة الغضبية تخضع للقوة العاقلة فى الفرد هكذا يخضع الزراع والصناع للجند والجند يخضعون لرجال السياسة وهم الفلاسفة .

هذا ماجاء فى كلام أفلاطون يابنى وكل هذا فى تعريف العدل الذى لاتكون الرحمة بدونه إلا وبالا فلو أن ماء النيل فاض على أرض مصر ولم يحط بالجسور والقناطر لأغرق البلاد فهو نعمة انقلبت نقمة لعدم الحواجز والنظام ، وما النظام إلا العدل ، فاذا كان العدل قد استحق هذا الاهتمام من الفلاسفة وقد شغل عقلاء الأمم جميعا فى الأرض وإلى الآن لم يتموا دراسته ، فما بالك بالعدل الإلهى (وبعبارة أخرى) إذا كان أهل الأرض قاطبة لايزالون يدأبون فى البحث عن العدل حتى تنتظم الأمور السياسية فيها وهم إلى الآن لم يهتدوا فكيف تصل العقول إلى العدل الإلهى الذى به تعرف الرحمة وتستقر فى العقول ، إن أهل الأرض قد صرفوا كل قوى عقول عظمائهم إلى تعرف العدل ولم ينجحوا الى الآن تمام النجاح والأرض ذرة صغيرة طائرة فى الجو من عوالم عظيمة لاتحصر فهؤلاء أنفسهم أى الذين فوق هذه الذرة الصغيرة وهى الأرض لم تكف مدارسهم

ولاحكوماتهم لمعرفة العدل الآن فى هذه الأرض الصغيرة إذا رأوه معقدا صعب المنال كثير القيود كثير المسائل فما بالك بالعدل العام فى السموات والأرض ، أفلا يكون أشد تعقيدا وأكثر صعوبة فى الفهم . وهل أتاك نبأ الحرب الكبرى ؟ ألم تقم بعدها أمم أوروبا كلها فقالوا بابطال الحرب ومع ذلك تجد الأمة الانجليزية أعطت اليهود وطنا قوميا فى بيت المقدس إذلالا للعرب وإزاحة لهم فهذا عندهم هو العدل ، وفى هذه الأيام قام اليهود فبدءوا بالهجوم على العرب فلما قاوموهم وعاملوهم بالمثل أخذوا يعاقبونهم فهذا عدل عند أمة فى أوروبا ، لأن هذا رأى القوى والقوى لا راد لما يقضيه عند أهل الأرض وهذا أحد الآراء التى ردها (سقراط) فى محاوراته الأفلاطونية ، فرد الفتى على أستاذه قائلا ياسيدى إنى أعلم أن هذه الأمم الإسلامية لم تقم بما وجب عليها فى استخراج ثمرات أرضها وثمرات عقولها ، فمن العدل أن يعمر الأقوياء تلك الأرضين ، فقال الأستاذ ولكن استعمار الأرضين ليس موقوفا على إهلاك أهل البلاد فلابد من إقامة العدل بأن يرقى أهل تونس والجزائر ومراكش وسوريا وفلسطين لا أن يقف المستعمرون لهم بالمرصاد ويمنعوهم العلم . على أننا الآن لسنا فى مقام شرح مسألة العدل فى الأمم الأرضية ، فاذا كنت أنا وأنت قد تناقشنا فى عدل أهل الأرض وكل منا له غرض يرمى إليه ، فهم إذن من باب أولى ، وهذا إثبات لقولى إن أهل الأرض إلى الآن لم يتمموا أمر العدل ولم تقو عقولهم على استكناه كنهه ، بل نحن أخذنا نتجادل لأجلهم فكيف إذن يصل عقل الإنسان وعقول كثير من الملائكة والأرواح الشريفة إلى حل مشكلة العدل فى العوالم كلها وهو عدل الله ، وإذا رأينا الطبيب يقلع ضرس المريض ويؤلمه أشد الألم ويقطع عضوا من أعضائه والناس والمريض وذووه راضون مستبشرون . وإذا رأينا الأمم يحارب بعضها بعضا فيموت الألوف وألوف الألوف فلماذا هذا ؟ لأن سفير إحدى الدولتين أهين بكلمة فتقول دولته لابد أن أغسل العار وكيف تغسل العار ؟ تغسله بإرسال آلاف من الجيوش يقتل منهم مئات ومن العدومئات فيقول المهاجمون نحن عادلون لأن سفيرنا أهين بحياتنا وهى من الرحمة لابقاء لها إلا بأن يجندل فى ساحات الحرب منها رجال ويقول أعداؤهم هؤلاء ظلمونا فلندافع عن أنفسنا والدفاع عدل ، إذن الحياة التى لا وجود لها إلا بالرحمة توقفت على قتل بعض الرجال كما توقفت حياة المريض على قطع عضو من أعضائه ، إذن قطع بعض أعضاء الجسم عند ظهور سببه وقيام الحرب عند حصول سببها وقتل بعض الرجال من تمام الرحمة فى نظر هذا النوع الانسانى سواء أخطأ القواد والأطباء أم أصابوا فالجروح إذن ونفس الموت من تمام الرحمة والرحمة بغير هذين ضارة مؤلمة كما يضر النيل إذا لم يحفظ بالقناطر وبالجسور .

هذه كلها آراء الناس فى العدل . ومما يدلك على أن آراء الناس فى العدل تتغير من وقت لآخر ومن حال إلى أخرى أمران : (أولا) معاملة أهل الغرب لأهل الشرق التى سنذكرها قريبا . (ثانيا) ماظهر من الميل إلى ترك الحرب فى هذه السنين بعد الحرب الكبرى ففى هذا الشهر (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ ألقى المسيو (بريان) خطابا طويلا فى الساعة ١١ والدقيقة ٥٤ صباحا فى جمعية الأمم قوبل بالهتاف والاستحسان ، فمما قاله :

(إن جمعية الأمم قد قامت بالواجب عليها وإنها جاهدت سنة فسنة لإزالة الحوائل العتية التى كانت قائمة فى وجهها فاليوم لا يحتقرها العالم ولكنه يعطف عليها على أننا نتساءل ماذا عساها تعمل بهذه الثقة التى وضعها العالم فيها ، إن هناك مسائل كبيرة ذات أهمية عظيمة لا يمكن التفادى عنها دون أن تمس الجمعية مسا أدبيا شديدا ، وإنه ليسرنى كممثل للحكومة الفرنسوية أن أتعاون مع زملائى الألمان . ولقد توصلنا الآن إلى أن نعتبر الحرب جريمة تستحق الاستنكار من جميع الأمم والشعوب . فاذا لم تتوصل جمعية الأمم إلى التذرع بالوسائل التى تمحو الحروب لا تكون قد قامت بما يجب عليها القيام به ، والذى يجب أن نتساءل عنه ماذا نحن فاعلون إذا أفضى التحرش والتمسك إلى اشتعال الحرب . إن ماتم فى (مؤتمر لهاى) كان دليل الإرادة الصادقة فى صيانة السلم) .

ثم انتقل إلى الكلام عن نزع السلاح فقال : (إنا قد خطونا فى هذا السبيل خطوة واسعة ولا أظننا نتوصل إلى الاتفاق والوئام بتحرير الرسائل التلغرافية بل الواجب أن ننظر إلى المسائل وجها لوجه لنجد مخرجا لنا من كل مأزق وإذا أردنا نزع السلاح فلا نكتفى من ذلك بالنظر إلى المسائل الفنية بل يجب أن نحل جميع المسائل السياسية بحسن الإرادة المتبادلة بين جميع الدول والواجب فوق ما تقدم أن نلقن الشبيبة كره الحرب وفظائعه، وإنى لأتجه بنوع خاص إلى النساء فأقول للأرامل دافعن عن منازلكن وأسركن والواجب على النساء عامة أن يروين ميدان السلام بدموعهن لا ميدان القتال ، علمن أبناءكن حب السلام وعلمن أبناءكن احترام الأمم الأخرى غير أمتكن هو ذلك الواجب الذى يؤدى فى تعليم الناشئة) .

وذكر الخطيب (مؤتمر لاهاى) فقال (إننا كنا جميعا نضع فكرة المصالحة فوق المسائل المالية ، ثم تكلم عن الاتحاد الاقتصادى الأدنى فقال إن هذه المسألة السياسية لا تتم إلا تحت رعاية جمعية الأمم حتى يكون بين جميع الأمم والشعوب الأوروبية صلات وروابط تسهل اتخاذ القرارات الحاسمة بالإجماع إزاء الحوادث الخطيرة على أن هذه الروابط لا تمس بسيادة أمة من الأمم وإنى أطلب من زملائى أن يعرضوا هذه المسألة على حكوماتهم حتى يصل الجميع إلى حلها فى الجمعية القادمة) .

ثم ذكر حادثة الباخرة (لوتس) فى الأستانة فقال (إن فرنسا لم تجد على نفسها غضاضة فى عرض هذه المسألة على محكمة (لاهاى) فعلى الأمم أن تقيم لأنفسها قضاة لتتفادى عن معارك القتال وعلى الأمم أن توجه أنظارها إلى حل كل مسألة حلا سلميا) .

وختم كلامه بقوله (إننا يوم نعلم الناشئة حب السلام نوحد بين الأمم ولا نبقى وجها للتفريق والانقسام وفى ذلك اليوم تسود المحبة ويسود الأمان بين الأمم جميعا) وبعد هذا الخطاب وقف جميع من فى القاعة يهتفون للمسيو (بريان) ويحيونه .

وقد خطب (المستر مكدونالد) اليوم فى مأدبة الغداء التى أدبها الصحفيون لأعضاء مجلس جمعية الأمم فأشار إلى المفاوضات بشأن نزع السلاح البحرى بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة . فقال (لاريب أن هناك مصاعب فى سبيلنا وأمامنا مسائل من أشد المسائل تعقيدا يجب أن نحلها ولكن مشيئة الشعوب هى القادرة على كل شىء وهى التى يجب أن تقول الكلمة الأخيرة . وعلى كل حال فان مسألة السلم الخطيرة يبطر فيها رجال من رجال السياسة المخلصين) .

وبعد أن تم ما تقدم أخذ يقول (يا بنى هذه هى آراء أهل الأرض المساكين إنهم أولاء عاشوا آلاف السنين ومئات الآلاف وهم يرون الحرب عدلا وهاهم الآن يقولون « إن الحرب ليست عدلا » فالحياة لا تتوقف على الحرب . إذن أمر العدل عند بنى آدم أمر مشكل لا تزال العقول فى أشد الحرج فى حله والعقل الانسانى لابد أنه سيجد كل الجد فى هذه القضية العظيمة عقدة العقد مشكلة المشاكل . إذن العدل عند الناس دخل فيه الحرب والسلم على حد سواء . فالقتل عدل وإبقاء الأرواح عدل عند أهل الأرض . هكذا الجراحات والآلام فى الحروب عدل فى موطن وسلامة الأعضاء وعدم الجروح عدل فى موطن آخر ، إذن العقول الإنسانية قضت أن الحياة يعوزها آلام تنتابها إذ لولا الحروب لم تحفظ الدول (وبعبارة أخرى) إن رحمة الأمم ببقاء حياتها قد تتوقف على موت أو جرح آلاف منها فأصبحت الآلام إذن من شروط الرحمة إذن الرحمة قد تتناول الآلام فنقول : إن ألم الصناع والعمال من حبس الجند لهم عند العقاب وأخذ الضرائب منهم لأجل الجباية وكظم غيظ العاقل وضبط نفسه عند احتدام الغيظ فكل هذه آلام وجبت فى السياسة تارة وفى علم الأخلاق تارة أخرى وهذه كلها آلام) ثم قال (فإذا كان هذا كله معروفا عند الناس مع قلة علمهم وقصور

إدراكهم لأن عقولهم لاتصل إلا إلى مراقيها المناسب الكوكب الذى تعيش عليه فاياك بالعدل العام والرحمة العامة . فقال الفتى إذن أنت تقول إن الله جعل نفس الآلام رحمة مستدلا بأن الناس مع قصر عقولهم بالنسبة للعوالم الأخرى استحسنوا فى مواطن كثيرة العذاب والآلام ، فهى إذن جزء من الرحمة) . فقال الأستاذ نعم فقال أريد أن تشرح لى هذا المقام شرحا مستفيضا لأجل أن أجمع بين قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) وبين آلام بنى آدم والحيوان بحيث تستنير بصيرتى ولا يكفينى أن أقيس رحمة الله على رحمة أهل الأرض فقال الأستاذ اعلم يا بنى أن هذه الأرواح التى خلقت فى هذه الأجسام شريفة فى أنفسها عزيزة وقد أنزلت إلى هذه الأجسام لتنمو فيها وتقوى وهذه الأجسام من الهيولى والهيولى ناقصة ليست كعالم الأنوار والأرواح فكان لزاما لهذه الأرواح أن تقاسى تلك الآلام . فقال الفتى ولماذا لم تبق تلك الأرواح فى برازخها لتستبعد عن تلك الشرور ؟ فقال له لو لم تنزل فى هذه الأجسام ولم تقاس تلك المشاق لبقيت جاهلة ، فالآلام هنا لترقيها فهذه دروس ترقى الأرواح ، فقال الفتى فاذكر لى هذه الآلام التى تعترى أنواع الحيوان . فقال هى ثلاثة أنواع : (الأول) الجوع والعطش عند حاجة الأجساد إلى المادة والغذاء (الثانى) ألم الضرب والصدم والكسر المضر بأجسادها المتلف لهياكلها . (الثالث) الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها .

﴿ الفصل الأول : فى الكلام على الآلام التى تعرض لأبدان الحيوان ﴾

قد قدمنا أن هذه الآلام تنتابها كالجوع والعطش، ونقول الآن: إن هذه الأجسام الحيوانية مركبات من جسم وروح والجسم مركب من أخلاط كثيرة وتلك الأخلاط سريعة الذوبان والسيلان فلابد فى بقائهما من حصولها على المادة والغذاء ، لذلك جعلت لنفوسها آلام عند حاجتها إلى الغذاء والمادة لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسامها فى طلب الغذاء، ولو أن الجوع لم يسلط عليها ولا العطش وأخذنا بظاهر الآراء وقلنا إن الآلام ضد الرحمة وليست منها وعليه لا حاجة إلى آلام الجوع وآلام العطش لزم ذلك أن لا يتغذى الحيوان فيهلك فيكون عدم الألم فى هذا المقام سببا فى الهلاك وهو ضد الرحمة فثبت إذن أن الرحمة تتوقف على الألم وبزواله تنقلب قسوة وإهلاكا . وإذن تبقى هذه إما بلا أجساد تتكمل فيها فتبقى ناقصة وإما بأجسام ناقصة مريضة إلى أجل مانم يعتريها الفناء ، ثم إذا تناول الحيوان الغذاء فلا بد له من لذة كما أنه لابد له من آلام الجوع السابقة وهذه اللذة مقصودة ليأكل مايلائمه مادامت اللذة فاذا أخذ مايكفيه هنالك تقول له تلك اللذة أنا أغادرك وأفارقك . هنالك يترك الطعام وعدم اللذة هو الذى نسميه الشبع فالألم أولا بالجوع لطلب الطعام واللذة ثانيا لتكون كالمستشار لتعاطى أنواع الطعام ثم ذهاب اللذة بالشبع وذلك لإيقاف الآكل عن أكله لئلا يستضر بازدياد تعاطى الطعام .

﴿ الفصل الثانى: فى الكلام على الضرب والكسر والصدم والجرح والحر والبرد والأمراض والأسقام وكل مايضر الجسد ويفسده ﴾

قال : اعلم أن هذه وضعت فى الأجسام لتحيا تلك الآلام على حفظ أجسادها . إن الأجساد فاقدة الحياة فهى والحجر والمدر سواء عاجزة عن جلب النافع ودفع الضار. فاذا رأينا الحجر والمدر رابضة فى أماكنها ساكنة خاضعة لما يعتريها من الكسر والتفتيت وحوادث الأيام والليالى فاننا نرى هذه الأجسام الحيوانية تستيقظ من حال الغفلة وتحس وتشعر بما يضر بأجسادها وتتوقاه تارة بالفرار والانقباض وأخرى بالمجاهدة أو الحيلة ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد فى أقرب زمان وإنما فعلت ذلك النفوس لأجسادها وحافظت عليها لما ركز فيها من حب البقاء والوجود على أتم مايكون لأن هذا هو الخير ومن كراهية الفناء الذى يترتب على

هذا النقص والفناء شر . ومعلوم أنه لا عدم للأجسام ولا للنفوس مادام هذا العالم موجودا فثبت إذن أن الحكمة قضت أن الألم مخلوق فى الحيوان لقصد وحكمة «وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» .

ومن لطف الحكمة العجيبة ماتقدم فى (سورة المؤمنين) من رسم يد الانسان وأن لها (١٢) طبقة فى كل ناحية (٦) طبقات، فالطبقة التى تلامس الهواء من الجانبين هى الجلد وهذا الجلد لا إحساس له وقد كثر أعداؤه من الخارج ، فالنار تحرقه والسكين تقطعه والحر والبرد يهلكانه هناك قيضت له طبقة تليه من الجانبين تحته وهذه الطبقة عبارة عن شبكة من الأعصاب فهؤلاء هم الجواسيس والعيون والبرد ، فمتى لامست نار الجلد أو كسر أو ضرب تسلمت ذلك الإحساس تلك الأعصاب ووصلتها إلى المخ فأمر فى أسرع من لمح البصر أعضاء الحركة بالمسارعة إلى دفع هذا الأذى .

فلما سمع الفتى ذلك من أستاذه قال هذه علوم عجيبة وآيات غريبة عجبت كيف أصبح الاحساس بالضرب والكسر والمرض والجوع والعطش سواء فى أنها رحمة كلها .

وإذا ثبت هذا ثبوتا يقينيا فإننا نصبح سعداء سعادة لا حد لها وأى سعادة للحى أكبر وأجل وأعظم من سعادة امرىء أيقن بأن حياته فى يد رحيم أعطاه الخيرات وجعل الشرور مكملات لهاولولاها لم يكن للخير بقاء ولكنى أريد أن أسألك عما دار بيننا فى أمر أهل الغرب وأهل الشرق . إنك يا سيدى حكمت على أهل أوروبا بأنهم ظلموا المسلمين باحتلال ديارهم فى شمال أفريقيا وإدخال اليهود بلادهم فى فلسطين وأنا أجبتك بأن المسلمين أهملوا فإذا أفهمتنى ذلك كنت أنا من الموقنين حقا ، فقال له يابنى احتلال البلاد المحتل نظامها عدل على شرط أن تقوم عقول أهل البلاد كما تقوم أرضها (وبعبارة أخرى) يجب أن يرقوا أهل البلاد ليكونوا إخوانهم ويصلحوهم ويصلحوا أرضهم وهؤلاء قوم مخطئون لأنهم يجعلون الانسان أشبه بالحيوان المسخر ، فقال الفتى لقد حكمت أن الضرب والكسر والجرح والمرض أمور اقتضتها صفات هذا العالم الذى نحن فيه والإحساس بها عدل من الله ولولا هذا الإحساس لهلكت ، فقال إن المقام ذو وجهين . (الوجه الأول) فعل الله وهذا عدل فإنه إذا ساق أمة قوية لتحتل البلاد الضعيفة فمعناه أنه فعل فيهم مافعله بالحيوان من جوع وعطش وكسر وضرب فهؤلا يجب عليهم أن يستيقظوا بهذا والله عز وجل إذا لم يرسل لهم تلك الأمم نزلوا إلى الحضيض فهذا كالكسر والجرح والجوع ، فهذا الإيلام بإذلال الأمم لهم يراد به جمع كلمتهم (الوجه الثانى) معاملة هذه الأمم لمن دخلوا بلادهم ، فهذه الأمم الأرضية أكثرها ظالمة فظلمها لأنها ظنت أن هذه غنيمة لهم . إذن الله عدل فى إذلال الأمم الضعيفة والأمم القوية ظالمة لأنهم ممن قال الله فيهم «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» .

قال الفتى فهمت ، وما أحسن العلم، وقد بقى لى سؤال واحد وهو هل الفرنجة الذين احتلوا بلاد الشام وشمال أفريقيا وغيرها من بلاد الإسلام يطول أمدهم . فقال كلا ثم كلا . إن الله عز وجل قد أيقظ المسلمين وهذا الإيقاظ سيظهر أثره قريبا ، فقال الفتى لقد تبين لى الآن أن من الناس من سعدوا سعادة دائمة بسبب هذا الإيقان ، وإذا انتابتهم نوائب عثت على عقولهم زمنا ما فإنهم يتذكرون هذه السعادة الدائمة التى لا تفارقهم أمد الحياة بل هم فى حياتهم الدنيا كأنهم فى جنة عرضها السموات والأرض . فقال الأستاذ: الحمد لله رب العالمين لقد فهمت يابنى بسم الله الرحمن الرحيم لم كررت فى أول كل سورة من القرآن والحمد لله رب العالمين .

وما كاد التلميذ يقبل يد أستاذه النورية حتى استيقظت وكتبت ما رأيت . انتهى صباح يوم الأحد (٨) شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ وبهذا تم الكلام على القسم الأول .

﴿ القسم الثانى : فى تفسير «الم» ﴾

لقد تقدم فى سور كثيرة مبدوءة بهذه الحروف ذكر بعض الأسرار التى أبرزها الله فى هذا التفسير لأمم الإسلام تلك الأمم التى حملت أمانة كتابنا المقدس وحفظته حفظا حتى وصلت بها إلينا سالمة فرعى الله هذه الأمم هؤلاء الذين قاموا بحفظ الأمانة وأكثرهم كانوا فى العصور المتأخرة فى ضنك مشين .
وصلت إلينا الأمانة فقرأنا القرآن فسمعنا الله يقول فى أول البقرة «الم» فلم يفتح على كاتب هذا بشىء فى ذلك وما كان ليخيل لى أنى أكتب حرفا واحدا فى أسرار هذه الحروف لأن هناك اتفاقا بل إجماعا عاما أنه لا يعرف هذه الأسرار إلا أناس مخصوصون وهؤلاء إذا ذكروها للناس فالناس لا يعقلون مايقولون لعلوها على الأذهان ، وما كاد تفسير (البقرة) ينتشر بين الأمم الإسلامية حتى رأيت إقبالا عظيما فانشرح صدرى وأيقنت أن الله عز وجل يريد بالأمم الإسلامية مقاما أعلى ومكانا أسمى فأخذت أجمع ماذكره العلماء فى سر الحروف ونظمته فى [ثلاثة أنماط] :

(١) الأول ماقاله الصحابة كابن عباس رضى الله عنهما وذلك راجع إلى العبادة بأن يجعل هذه الحروف مذكرات بأسماء الله تعالى ونحو ذلك ، فإذن هذا الرأى وجه هذه الحروف إلى وجهة الذكر فهو راجع إلى العبادة .

(٢) وجاء قوم بعدهم فقالوا إن هذه الحروف من حيث صفاتها وأحوالها قدظهر للعلماء أنها ذات أمر عجيب ، ذلك أنها هى نصف الحروف الهجائية . ولقد وجدنا أنها قد اشتملت على أنصاف الصفات والأحوال وهذا عجب ، فاذا رأينا أن الحروف منها مجهورة ومهموسة مثلا فاننا نجد نصف المهموسة فى هذه الحروف تماما وهكذا بقية الصفات ، ألا ترى أن المجهورة فى الحروف كلها (١٨ وقد وجدنا نصفها وهو (٩) فى هذه الحروف ، ومعلوم أن الحروف كلها (٢٨) وهذه الحروف التى فى أوائل السور (١٤) إذن هذه الأربعة عشر قد أخذت قسطها تماما من الحروف المجهورة والحروف الشديدة ثمانية منها (٤) فى فواتح السور وهكذا الرخوة والمطبقة .

وبالجملة فهذه الحروف فى أوائل السور وجدنا أنها أخذت النصف من كل قسم من أقسام صفات الحروف وهذا أمر فوق طاقة البشر ، فكيف يكون هذا التنصيف فى أحوال كثيرة لو لم تكن هناك عناية خاصة فهذا يعد معجزة فوق مايتصوره العقلاء .

(٣) وهناك قوم ارتقوا عن هؤلاء فقالوا إن هذه الحروف فيها أسرار فوق ماتقدم فانا نرى أن مفاصل اليدين فيهما (٢٨) مفصلا وكل يد فيها (١٤) مفصلا وهكذا أخذوا يذكرون تشريح الحيوان ويطبقون عليه مثل فقرات الظهر ونحوها ، وهكذا ذكروا أن لغة العرب فيها (٢٨) حرفا منها (١٤) تدغم فى اللام و(١٤) لاتدغم وهى المسماة (الحروف القمرية والشمسية) وهى معروفة عند القراء وهكذا منازل القمر (٢٨) منها (١٤) فوق الأفق و(١٤) تحت الأفق إلى آخر ماسبق لك هناك .

هذا نموذج (الأنواع الثلاثة) من الآراء التى تقدمت فى أول (سورة آل عمران) وهناك أقوام ذكروا حساب الجمل وأخذوا يستنتجون أمورا لاسبيل لذكرها الآن .

لما كتبت هذا فى أول (سورة آل عمران) قامت فى فكرى لم يسعنى كتمانه فكتبته فإن الم ذكرت فى أول «الم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب» الخ ومعلوم أن هذه الآيات جاءت لمسألة اليهود فهم اتكلوا على شفاعة آبائهم وهى أن الله لايعذب أبناء يعقوب إلا تحلة القسم وعلى أنهم لن تمسهم النار إلا أربعين يوما

وعلى أن آباءهم يشفعون لهم فأوعدهم الله عز وجل وسجل عليهم الخزى والعار والبوار وقال فيهم «وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون» ثم انتزع الملك منهم وأسلمه إلى الأمم الاسلامية فكأن «الم» فى أول السورة مذكرة لنا الآن نحن المسلمين بألا نتكل إلا على الله ونجد نحن بأنفسنا فى العلم والعمل والرقى وإلا وقعنا فيما وقع فيه اليهود إذ ظنوا أن هذه الأمانى تنفعهم بلا عمل وهم نائمون ، ومعنى هذا كله أن (الم) جاءت فى أول السورة مذكرة بأمر اليهود وذهاب مجدهم المسبب عن التوانى والكسل وعدم العمل . فالمسلمون إذا بقوا على ما هم عليه من الجهالة فليعلموا أن الله لايبالى بالقوم الجاهلين النائمين . هذا ملخص ماتقدم هناك فاقرأه فانه أوضح وأبين . ولما فكرت فى (سورة البقرة) وجدت أنها كلها جهاد لأن أولها محاجة مع اليهود وتقريع لهم وتوبيخ وفيها الصلاة والصيام والحج وتحريم الخمر والميسر وأحكام الزواج والطلاق وهكذا فهذه السورة فيها أهم علوم الفقه الإسلامى وفيها آية «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف» وآية «ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه» الخ .

ولا جرم أن الجهاد إما ببذل النفس . وإما ببذل المال . وإما بالعلم ، وإما بالعبادات وهكذا ، فالمذكور فى حيز (الم) جهاد الأعداء والجهاد بالعلم ، فانظر هناك تجد مسألة العزير وحماره وكيف يقول الله له «وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير» .

فلما رأيت ذلك هالنى الأمر وعجبت وقلت لقد تبين لى أن هذه الفواتح أشبه بالمفاتيح فاذا أدير المفتاح فى القفل فتح الباب بدليل أننا نجد الآيات التى فى حيز (الم) هى التى نام عنها المسلمون فى القرون المتأخرة وكل هذه الآراء لم أكن لأفكر فيها ولا لأجد أو أبحث لأنها أمور ميئوس منها كما قدمت ولكنها كانت تنقدح فى نفسى و لاتفارقها بلا عناية منى ولا سابقية طلب ووجدت هذه المفاتيح تشير إلى العلوم التى نام عنها المسلمون فالمسلمون اليوم يعوزهم الجد فى معرفة التشريح وغيره كما فى قصة العزير وإبراهيم فاقرأه هناك ويعوزهم أن يتركوا الاتكال على الشيوخ وعلى أنهم مسلمون ثم يناموت وذلك فى (سورة آل عمران) ثم فتح الله بأكثر فواتح السور بعد ذلك فاقرأه فى أول (هود) و (يونس) و (الرعد) و (إبراهيم) و(الحجر) ولم يكن لى عند طبع (سورة مريم) علم بما تشير إليه حروف «كهيعص» وكان المفتوح بها فى سورة أخرى فكتبتها فيها ثم ترى الطاء والهاء فى (طه) وما تشيران إليه من العلوم التى تحتاج اليها هذه الأمة المسكينة وهكذا (طسم) و (طس) فارجع إليها فى (الشعراء) و(النمل) و(القصص) فهناك ترى مثلا الطاء والسين فى (النمل) تشيران إلى الطائر وسليمان وهناك ترى الطيور وأشكالها وعجائبها ومناسبتها لهذا المقام ثم تقرأ (الم) فى سورة العنكبوت فتراها تحرض على معرفة كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، فنظرنا فى بدء الخلق فرأيناه مدهشا لأنا وجدنا العناصر بينها نسب عجيبة فى الجدول المرسوم فيما تقدم فى السورة وقد كشفه (منديليف) الروسى ولقد وضح هناك قريبا غاية الإيضاح فوقفنا على سر تقطع دونه الأعناق ، وهانحن الآن فى (سورة الروم) فوجدناها مبدوءة بنفس (الم) فى المصحف (الم) و (الر) كرر كل منهما فى سور وعند البحث وجدنا المعانى تختلف باختلاف السور فكل سورة فيها معان غير المعانى التى فى السورة الأخرى حتى إن الطاء والسين فى الشعراء وفى النمل وفى القصص تختلف إشاراتها باختلاف السور فاقرأها هناك وهاهنا نجد آية «أو لم يتفكروا فى أنفسهم» الخ وآية «أولم يسيروا فى الأرض» وآية «أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر» .

فحروف (الم) تذكرنا بأن نبحث فى حقائق المخلوقات وأسبابها ونتائجها ونظامها كالبحث المذكور فى تفسير البسملة آنفا فإذا نجد ألم الضرب وألم الجوع وألم المرض لم تخلق لاذلالنا بل خلقت لنفعنا ورحمتنا لأن

الله خلق السموات والأرض بالحق ولو كان خلق هذه العوالم لمجرد إيلام المخلوقات ولم تكن هذه الآلام موصلة إلى سعادات المتألمين لكان هذا العالم مخلوقا بالباطل لا بالحق لأن خلق الحيوان لقصد الايلام لاتتوجه إليه العناية ومن عجب أن يكون تفسير البسملة هنا قد كفانا مؤنة شرحه مرة أخرى وذكرنا أيضا بالتفكر فى أحوال الانسان من فقر وغنى فهى دالة على حكمة الحكيم . ومقصود هذا أن يكون للناس فى أحوال أنفسهم عبرة كما لهم عبرة فيما حولهم وستقرأ فى (سوره لقمان) آية «ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» وآية «ألم تر أن الله يولج» الخ، وآية «ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر» وإشارة (ألم) ترجع إلى التفكر فى النعم من حيث وصولها إلينا وكثرتها وتخصيص طائفة منها بالذكر وهى الشمس والقمر والليل والنهار وتعاقبها ونظيرها الفلك فى البحر ، فهذه نعم عامة ذكرنا الله بها لندرسها وننتفع بها نفعا جسميا وعقليا لقوله فى أول السورة «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» ولاجرم أن هذه هى العلوم المفقودة فى بلاد الاسلام وهاهى ذه اليوم تحيا حياة جديدة فى نفس الزمان الذى ظهرت فيه معانى هذه الفواتح بل المفاتيح كما قدمنا سابقا . وأما (ألم) فى أول (سورة السجدة) فقد أشارت إلى (علمين) علم التاريخ القديم ودراسة الأمم التى ملك أرضها المسلمون فانا نجد أهل مصر والشام والعراق واليمن ونجد وشمال أفريقيا وأهل السودان المسلمين كل هؤلاء يجهلون الأمم التى سكنوا بلادها ، فانا فى هذه الأيام لانعرف فى علوم قدماء المصريين إلا بتعليم الأوروبيين ومعلوم أن (شامبليون) العالم الفرنسى هو الذى كشف حروف لغة قدماء المصريين إذن أهل مصر بلادى لم يعرفوا تاريخ قدماء المصريين إلا من أهل أوروبا معرفة ضئيلة ولكن الله يقول «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم» فنحن نمشى فى مساكن الفراعنة ونجهل علومهم إلا النزر اليسير، وهكذا أهل اليمن لا علم لهم بعلوم سبأ والتبابعة والأمم التى سكنت تلك البلاد وهكذا أهل الشام وأهل نجد وغيرهم فكل هذه الأمم واجب عليها وجوبا كفائيا أن يدرسوا تاريخ الأمم التى كانت فى بلادها لتنتفع بما جربت تلك الأمم ولتحترس مما وقع لها وإلا فلماذا يمشى الناس على الأرض .

إن الجهل أكبر العار «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» فهذه الاشارة فى (سورة السجدة) جاءت لأجل قوله تعالى «أو لم يهد لهم» الخ، وهناك إشارة أخرى وهى الاعتبار بسوق الماء الى الأرض الجرز وهذا الاعتبار لا يتم الانتفاع به إلا بدراسة علم النبات وسائر علوم الطبيعة ومنها الماء وهكذا علم الكيمياء العضوية لأنها تبحث عن العناصر التى دخلت فى تركيب الأحياء النباتية والحيوانية .

هذا مافتح الله به ليلة مساء (١٠) سبتمبر سنة ١٩٢٩ وأنا على شاطىء النيل بجوار مصر القديمة والحمد لله رب العالمين .

﴿ اعتراض على المؤلف وجوابه ﴾

لما اطلع على هذا أحد العلماء الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير قال هذه الفواتح فى هذا التفسير قد ظهر بعض عجائبها ولقد جاء اليوم ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولكن ماوقعت عينى على صفحة من صفحات هذا التفسير فى أى جزء أو سورة إلا وجدت الكلام فى العلوم والمعارف وحث المسلمين عليها فهذا نوع من التكرار حتى إن بعض الناس قال لى إن هذا الكتاب كله ماهو إلا تكرار فقلت حياك الله إن هذا الاعتراض جعلته أنت سلما لفهم الجهال فأما أنت فلا . قال هذا مقصدى . فقلت إن الناس على قسمين جهال وعلماء فأما الجهال فانهم لايجدون لهذه الأقوال لذة ولا طعما بل يأنفون أن يقرءوها وذلك لأنها ليست من طباعهم ولاتوافق أذواقهم فإذا قرءوا موضوعا ثم اطلعوا على نظائره فى الكتاب قالوا إن الكتاب مكرر

(١) ولو كان الأمر كما زعموا لكان النخل والعنب والرمان والتين والبرتقال والتفاح والمشمش والبرقوق

وأمثالها

وأمثالها مخلوقة عبثا وهكذا القمح والذرة والعدس والفول. وبالجملة إن الفواكه والحبوب والخضر أنواع كثيرة وكل نوع يستغنى به قوم عن البقية فاذن البقية مكررة لاقيمة لها .

(٢) ولو كان الأمر كما زعموا لكان القرآن كله مكررا لأننا نجد فيه (٧٥٠) آية كلها فى الكلام على خلق العوالم العلوية والسفلية . فيقول الله تعالى فى (سورة البقرة) «إن فى خلق السموات والأرض» الخ وفى سورة (آل عمران) كذلك مع تنويع فى التعبير وهذه القصص القرآنية مكرر كثير منها فلو كان الأمر كما قالوا لم يسحر القرآن عقول الأمم ولم يعجزهم ولم يكن هو المعجزة الحقيقية فى العالمين .

(٣) ولو كان الأمر كما زعموا لكانت جميع الأمم شرقا وغربا هازئة فى جرائدها ومجلاتها فان الأمة المصرية الآن تطلب من انكلترا استقلالا وهاهم أولاء منذ نحو (٢٠) سنة يكتبون كل يوم فى الجرائد المختلفة والمجلات التى تعد بالعشرات (الاحتلال . الجلاء . السودان . نحن والانجليز . المعاهدة بيننا وبين الإنجليز وهكذا ويكتب الموضوع الواحد فى عشرات الجرائد سنين وسنين والناس يقرءون ويفهمون؛ ولم يقل عاقل إن هذا تكرار . كلا ثم كلا وإنما هذه فكرة يمليها الجهل ويحقرها العلم لأن البلاغة تقتضى القدرة على إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة كالإطناب تارة والإيجاز أخرى والمساواة آونة فاقرأ قوله تعالى «ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك سوط عذاب ، إن ربك لبالمرصاد» .

فها أنت ذا تراه تعالى ذكر قصة عاد وثمود وفرعون فى آيات قليلة وبموازنة هذا بما تقدم فى سورة القصص تجد قصص موسى وفرعون جاء على سبيل الإطناب أما هنا فجاء على سبيل الايجاز وكلاهما جميل فالإطناب للفهم والايجاز للاعتبار والتذكرة كأنه يقول أنتم عرفتم هذه القصص فاعتبروا بها فانى فعلت بهم كذا وكذا؛ ثم قلت: واعلم أيها الأخ أن هذه الأساليب القرآنية لايدركها إلا أولئك الذين درسوا علوم البلغاء وقرءوا كلام العرب ومارسوا النظم والنثر .

ما الناس سوى قوم عرفوا وسواهم همج الهمج

غيره :

علىّ نحت القوافى من معادنها وما علىّ إذا لم تفهم البقر

ولا جرم أن الكلام يختصر ليحفظ ويطنب ليفهم ، ولقد قالوا إن الخطب يستعمل فيها الإطناب بحيث يكون الأسلوب مقبولا محبوبا فيشوق السامعين وانظر إلى قصص الأنبياء كيف ترى كل واحدة منها لم تخل من ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر . ذلك لتصل مقاصد الدين من طرق مختلفة لترسخ فى الأذهان وكلما كانت الطرق أكثر عددا كان ثبات المعنى فى النفس أطول وأقوى وأرسخ . ويقرب من هذا الدعاية فى الأمم ونشر التجارة أو السياسة فيها فلا شىء من هذا يتم إلا بنشره وتكراره بطرق مختلفة حتى يظهر أثره . وانظر إلى ذكر خلق السموات والأرض فانه مذكور فى مواضع كثيرة جدا وله فى كل موضع مقام غير ماله فى الآخر . وانظر إلى فواتح السور والمعانى التى انكشف سرها اليوم على قدر طاقتنا وماتحتمله فطرنا من المعانى . أليس ذلك أسلوبا جديدا لترقية العلوم فى الأمم الإسلامية .

علم الله عز وجل أن أمم الإسلام ستنام عن العلوم أجيالا وأجيالا وتحقر علوم الجمال والكمال فى السماء والأرض وتنبذ العلماء القائلين بها كابن رشد والغزالى أو تجهلهم ولكنها لا تقرأ علومهم فألهم أمم الغرب أن يحتلوا بلادهم تارة ويحاربوهم أخرى وأظهر لهم فى هذا التفسير هذا الأسلوب العجيب أسلوب فواتح السور

الشير كله أوأ كثره إلى علوم الـكائنات وعلوم الأمم،فهذا أسلوب رمزى والرمز له شأن ليس للتصريح بالحقيقة لأن الرمز مشوق لمرموزله . ومتى اطلع المسلمون على هذه المعانى التى ظهرت فى هذه الفواتح لا يستقر لهم قرار ولا يصبرون على العار والجهل والذل المخيم فى بقاع الاسلام ويقولون إن الله جعل هذه الرموز التى ظهرت لنا الآن مفتاحا لعلوم الأمم فلنفتح بها ولندخل من بابها ولندرسها ولم يبق بعد هذا للمسلمين من عذر إذا جهلوا ولا من سلوة إذا كسلوا . وإنى أقول إنهم سيكونون خير أمة أخرجت للناس .

وهذا الرمز مألوف عند الأمم قديما كما قدمته لك فى سورة (آل عمران) وقلت لك ماملخصه :

إن النصرانية لما انتشرت فى (مدينة الاسكندرية) كانت باللغة اليونانية وهى اللغة الرسمية والسمكة فى تلك اللغة اسمها (اكثيث) وهذه الحروف رمز لخمس كلمات يونانية يتركب منها جملة (يسوع المسيح ابن الله المخلص) .

اللفظ اليونانى	الترجمة بالعربية
اكثيث	سمكة
(١) ايسوس	يسوع
(٢) (كريستوس)	مسيح
(٣) ثيو	إله
(٤) يوث	ابن
(٥) ثوتير	مخلص

فكلمة (اكثيث) أى سمكة مركبة من خمسة أحرف يونانية ، فحرفها الأول من كلمة (ايسوس) أى يسوع ، وحرفها الثانى (كريستوس) أى المسيح ، وحرفها الثالث هو الحرف الأول من كلمة (ثيو)أى الله وحرفها الرابع هوالحرف الأولمن كلمة (يوث) أى ابن وحرفها الخامس هو الحرف الأولمن كلمة(ثوتير) أى المخلص فكانت كلمةالسمكة باليونانية تذكاراعندهم ليسوع المسيحابن الله المخلص وكان المسيحيون يحملون صور السمك الصغيرالمصنوع من الخشب والعظم للتعارف فيا بينهم خوفا من الوثنيين الذين كانوا يضطهدونهم ويقتلونهم) انتهى ملخصا من كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) .

اللهم إنك أنت المنعم المعلم اللهم ، اللهم إنك أنت ألهمت الأمم قبلنا أن يكون الرمز أسلوبا من أسلوب العلم ورمزت بهذه الفواتح وألهمت أمثال ابن عباس رضى الله عنهما أن يجعل هذه الحروف رموزا لأسماء الله تعالى بحيث يكون كل حرف رمزا لاسم ، إذن الرمز مقبول عند الأمم قديما وحديثا . إذن ماجاء فى هذا التفسير من بعض أسرار هذه الفواتح له نظائر فى الأمم القديمة وأمم الاسلام . اللهم لك الحمد على نعمة العلم وعلى نعمة التوفيق . فقال صاحبى ياسبحان الله « إن من البيان لسحرا » .

وإن هذا البيان قد سرنى وعرفت أن من يظنون هذا تكرارا فانهم قوم ليس لهم فى هذه العلوم نصيب فهم إما فقهاء جامدون أو نحويون وأدباء قاصرون وهذا الكتاب إنما يعقله أولوا الألباب ، وقيل :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا ... واللحن يفهمه أولوا الألباب

فقلت الحمد لله الذى وفقنى لتبيان هذا المقام وأقنعتك بما ذكرته فيه والحمد لله رب العالمين وبهذا تم الكلام على القسم الثانى من السورة .

(القسم الثالث)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الم * غلبت الروم * فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع
سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله ينصر من يشاء
وهو العزيز الرحيم * وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون *
يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * أولم يتفكروا
فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا
من الناس بلقاء ربهم لكافرون * أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة
الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها
وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم كان
عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون * الله يبدؤ
الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون * ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون * ولم يكن لهم
من شركائهم شفعاؤا وكانوا بشركائهم كافرين * ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون *
فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون * وأما الذين كفروا وكذبوا
بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون * فسبحان الله حين تمسون وحين
تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون * يخرج الحي من
الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن
خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم
أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون *
ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك

لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ * وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

اعلم أن فارسا غزوا الروم فوافوهم بأذرعات وبصرى أو بالجزيرة وهى أدنى أى أقرب أرض الروم من الفرس فغلبوا عليهم وبلغ الخبر مكة ففرح المشركون وشمتوا بالمسلمين وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس أميون وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم فنزلت . فقال أبو بكر رضى الله عنه لايقرن الله أعينكم فوالله لتظهرن الروم على فارس بعد بضع سنين ، فقال له أبى بن خلف كذبت اجعل بيننا الأجل إلى ثلاث سنين فأخبر أبو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال البضع مابين الثلاث إلى التسع فزايده فى الخطر وماده فى الأجل فجعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين ومات أبى من جرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد قفوله من أحد وظهرت الروم على فارس يوم الحديبية فى السنة السابعة من نزول الآية فأخذ (أبو بكر) الخطر من ورثة أبى وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تصدق به ، وقد استدل الحنفية على جواز العقود الفاسدة فى دار الحرب وأجاب غيرهم بأنه كان قبل تحريم القمار ، ويقال إن سبب غلب الروم فارس إذ ذاك أن (شهرمان) وهو القائد الفارسى كان قد أثخن فى الروم قتلا وإهلاكا ، وبينما أخوه (فرحان) يوما يشرب إذ قال لأصحابه رأيت كأنى على سرير كسرى فبلغ الخبر كسرى فكتب إلى (شهرمان) أن يقتل أخاه فأبى وراجعه ثلاثا فعزله وجعل الأمر لأخيه (فرحان) وأمره بقتل أخيه (شهرمان) فلما قدمه للقتل قال له اصبر وأراه كتب كسرى اليه ولمراجعته إياه فتنازل عن الملك وأرجعه إلى أخيه (شهرمان) وأرسل إذن (شهرمان) إلى ملك الروم فتقابلا سرا وحاربا معا كسرى فغلبت الروم فى تلك البلاد وانكسرت فارس ثم إن الروم كانت تملك ريف الشام فغزاهم المسلمون وفتحوا بعض بلادهم فى السنة التاسعة من نزول الآية .

﴿ ملخص هذا التاريخ ﴾

إن الروم غلبتها فارس فى أقرب الأرض إليها ثم غلبتها الروم بعد ذلك بعد سبع سنين وأن الروم المالكة لتلك البلاد قد غلبها المسلمون بعد نزول الآية بتسع سنين ، ولا جرم أن الأمرين معجزة ولا ينافى أحدهما الآخر فإن الروم غلبوا الفرس وغلبهم المسلمون ولذلك قرئت الآية بوجهين .

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) سيأتى أن «الم» تشير إلى التحقق من علم الحكمة وذلك لأن قوله تعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» فيها هذه الحروف مفرقة تارة ومجتمعة أخرى ، انظر فيما سيأتى وفيما سبق آنفا (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) فعلى الأول يقرأ الفعل الأول

بالبناء للمجهول والثانى للمعلوم وعلى الثانى بالعكس ولامنافاة بين القراءتين والقرآن أنزل على سبعة أحرف فهنا حرفان كل منهما لمعنى لاينافى الآخر ثم إن فى ذكر الروم وعدم التعرض لفارس حكمة بالغة وهى أن دولة الروم لاتزال قائمة للآن تناوىء الإسلام فسمى الله هذه السورة باسمها ليكون تذكرة للمسلمين بأنهم لا يزالون يقاتلونكم ويذكرهم بأعمالهم وهاهم أولاء الآن رجعوا إلى الشام كرة أخرى وإلى العراق التى هى أقرب الأرض إلى فارس وعسى الله أن يخرجهم منها كما أخرجهم سابقا ، هذا ماتشير له الآية (لله الأمر من قبل ومن بعد) من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها فمن غلب فهو بأمر الله تعالى وقضائه وقدره أو من قبل أن يغلب المسلمون الروم ومن بعد أن يغلبوهم بأخذ بعض مدائنهم لأن الله عز وجل يداول الأيام بين الناس (ويومئذ) أى ويوم تغلب الروم الفرس أو يوم يغلب المسلمون الروم (يفرح المؤمنون بنصر الله) من له كتاب على من لا كتاب له أو بنصر المسلمين على أهل الكتاب من الروم ومن النصر ظهور المعجزة النبوية بتحقيق هذا الخبر وزيادة اليقين (ينصر من يشاء) نصره على مقتضى الحكمة والنواميس التى سنها الله فى نظام الخليقة (وهو العزيز) ينتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم (الرحيم) بالمؤمنين رحمة خاصة وإن كانت رحمته تعم كل مخلوق (وعد الله) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس أو بظهور المسلمين على الروم (لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الله لا يخلف وعده وإنما كان الناس لايعلمون أن الله لايخلف الميعاد لأن ذلك من الأمور التى تحتاج إلى دقة نظر وبحث وعلم وهذه بواطن الحياة الدنيا إن الحياة الدنيا لها ظاهر كما يرى الناس من أن دولة تغلب دولة فينتصر الفارسى تارة والرومى أخرى والمسلمون آونة وأن يأكل الناس ويلبسوا وما أشبه ذلك من الأمور الجزئية أما القواعد العامة التى يسير عليها نظام العالم فان الناس لايعرفونه لأن حواسهم لاتدرك أمثال ذلك وإنما تدركه العقول والبصائر ومن القواعد العامة أن الله لا يخلف وعده ومنها أنه مامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها وهكذا أما القاعدة الأولى فهى ظاهرة جلية واضحة فى أن النبات والحيوان كل منهما يخرج منه شىء إذا وضع وضعا مخصوصا خلق منه نظيره لا يخطىء ألبتة فالورد والنخل والحنظل يخرج منها حب ونوى متى وضعت فى الأرض خرج منها نظير أصلها ولم يحصل خطأ فى ذلك البتة ولو اختل هذا النظام لسكان العالم الذى نحن فيه لانطاق سكناه ، وأما القاعدة الثانية فهى داخلة فى الأولى لأنه لما خلق الحيوان فى الأرض كان له رزق و لا فلا معنى للخلق ، فيجد الحيوان عند ظهوره فى الأرض وخروجه من بيضته أو من الرحم لبنا معدا لغذائه أو أغذية مناسبة له ثم يترقى بالتدريج فى هذه الدنيا حالا بعد حال ولم يخلف الله وعده مع حيوانه ، فكما سلط عليه الجوع والعطش خلق له الطعام والماء ، وإذا لم يكن فى الأرض ماء فى نهر أو بركة خلق له نبات يقوم مقامهما معا كما جاء فى إحدى جرائدنا المصرية بتاريخ (٥) مارس سنة ١٩٢٥ م . الموافق (١٠) شعبان سنة ١٣٤٣ هـ . تحت العنوان التالى :

(بقر لا يشرب)

فى جزر (هاواى) قطعان عظيمة من البقر والثيران يصدر جانب كبير منها إلى الخارج أو يرسل لحمها مثلجا إلى البلدان التى تستورد اللحم ، غير أن هذه المواشى لم تعتد شرب الماء لعدم وجود أنهر أو برك تلك الجزر فهى تعيش على ماتأكل من الكلأ الأخضر وتعتاض عن الماء بأكل نبات الصبير وهو كثير السائلات شديد الرطوبة اهـ .

هذه البهائم لما خلقت فى تلك الجزيرة التى لاماء فيها كان نفس خلقها على هذا النمط وعدا من [illegible] لها بأنه يغذيها ويسقيها ، ولما لم يخلق لها أنهرا هناك خلق لها شجر الصبير وشجر الصبير يعيش على [illegible] وهو

موجود في بلادنا المصرية ولكن أكثر الناس يجهلون أنه هو الذي يستخرج منه الصبر المشهور في علم الطب وهو مهمل عندنا يزرعونه على المقابر ويكتفي في أكثر حياته بالندى والهواء ، ولكن في تلك الجزيرة جعله الله قائماً مقام الأنهار والبرك وأرشد البقر إليه ليتم وعده الذي وعده لأن غريزة الحيوان تطلب حياة والحياة تطلب قوتاً وماء، فأتم الوعد بذلك للبقر المذكور ، ولعلك تقول إن كل امرئ منا يود أن يبقى إلى الأبد وإذا كان الله في وعده لبقر تلك الجزيرة . فهلا لم يوف وعده لذلك البقر ولنا أن نعيش إلى الأبد وأن تكون حياتنا دائمة ؟ وهلا جعلها دائمة ؟ أقول . هذا هو قوله تعالى (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) لأن الآخرة هي باطن الحياة الدنيا فالناس يعرفون مالديهم من أمور الحياة الدنيا أما أن نفوسهم لها بقاء بعد الموت وأنهم هناك لا يموتون فهذا غائب عنهم مع أنه باطن الحياة الدنيا ، فهذه الحياة لو لم تكن وراءها حياة أخرى لم تكن لها فائدة بل عدمها خير من وجودها وترى الناس عاكفين عليها وهم لايعون بالأخرى لأنها لاتقع تحت حواسهم ولذلك وبخهم فقال (أو لم يتفكروا في أنفسهم) أي أو لم يتفكروا في أمر أنفسهم فليعلموا (ماخلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) تنتهي عنده ولا تبقى بعده (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) لأنهم لم يتفكروا في أنفسهم ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأدركوا أنها غير الجسم . وأن هذا الجسم سيزول وأنها باقية وهكذا السموات والأرض وجميع الأجسام إنما هي ظواهر تزول ويبقى باطنها وسرها وهي العوالم المدبرة لها كما تدبر أجسامنا بأرواحنا . فكفر الناس بلقاء ربهم ناشئ من جهلهم أنفسهم . فاذا علموا أنفسهم وحقائقها أيقنوا بلقائه تعالى والعلم إما بطريق تصفية النفس وإما بطريق الفلسفة وإما بطريق تحضير الأرواح ، وقد مر في هذا التفسير كثير من ذلك ومنه الذي ذكر في سورة البقرة عند ذكر حمار العزير وطير الخليل ، ولكن لابد أن أريك صورة من نفوسنا فيما يلي :

﴿ لطيفة : في قوله تعالى «أو لم يتفكروا في أنفسهم» ﴾

لقد مضى ذكر تحضير الأرواح في سورة البقرة كما قدمنا وقد قلت لك هناك أن هذا العلم فيه الحق والباطل والصدق والكذب وقلت إن المسلمين مقصرون لأنهم أولى بهذا العلم ، فلأدع هذا ولأذكر ماجاء في جرائدنا المصرية من علم الأرواح لتعجب من الحكمة والعلم وكيف تظهر الحقائق اليوم وتأتي الأرواح وتكلم الناس وهذا ماجاء في جريدة السياسة يوم الأحد ٦ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ هـ و ١٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م تحت العنوان التالي :

علم الأرواح

(مقدمة)

لايخفى على الإنسان أنه مكون من (عنصرين) الجسد والروح . والأول فان والثاني باق . وقد اهتم العلماء بالروح وجدوا لكشف أسرارها واجتهدوا لمناجاتها في عالمها الثاني فلاقوا معاناة كثيرة في ذلك ومنهم من نجح ومنهم من أخفق ، ولكنهم توصلوا أخيراً إلى غرضهم ، وإني لمورد شيئاً عن الأرواح وعلمها واكتشافها .

(تاريخها)

أول من اكتشف سر الأرواح هو الدكتور (هايسلوب) وقد قال في كتابه مايأتي (إنه في سنة ١٨٤٨ كان يعيش في مدينة روكستر في انجلترا رجل يسمى الدكتور فوكس وكان له ستة أولاد أكرمهم اثنان

تسمى إحداهما (كيت) والثانية (مارجريت) وفى صيف ذلك العام خرج هو وزوجه وأطفاله وترك فى المنزل البنتين المذكورتين ، ففى الساعة الثامنة مساء سمع هاتان البنتان صوت أوان تتكسر وأمتعة تنقلب فاستولى عليهما الذعر وأخذت الكبرى مسدس والدها من تحت وسادة فراشه وأخذت فى البحث عن مصدر هذا الصوت المزعج فرأت فى الدور الأعلى أوانى المطبخ مكسرة وكذلك بعض الكراسى . ولكن أدهش الأختين أنهما وجدا بعض الأثاث ناقصا وفى الصباح وجدوه فى الدور الأعلى ، ولما كان مساء الغد زاد الصوت وتهشم بعض زجاج المنزل فاضطرت هذه العائلة إلى مغادرة مسكنهم ، وبعد بضعة أيام سمع (السير فوكس) أن هذا المنزل كان مقرا لعصبة لصوص وكثيرا ماقتل فيه رجال ونساء ولكنه لم يدرك السر فى حدوث هذه الأصوات) .

(عملية تحضيرها)

من أكبر علماء هذا العلم (السير أوليفر لودج) الذى اخترع الطريقة التى بها تحضر أرواح الأموات (بينما كان جالسا فى (اسكوتلنده) مع صديقين له حول مائدة خشبية وكان يتكلم فى علم الأرواح ارتفعت إحدى أرجل المائدة فجأة فلم يهتموا بالأمر ثم أخذت ترتفع وتعود إلى مكانها محدثة صوتا كصوت آلة التلغراف ففطن (السير أوليفر) إلى أن الأرواح هى السبب فى رفعها فأخذ يخاطبها باشارة مخصوصة علمها لها وكانت ترد عليه باجابات صحيحة ، وفى سنة ١٨٥٠ اخترع طريقة أخرى لمحادثة الأرواح وهى عبارة عن صحيفة من الورق مكتوبة عليها الحروف الأبجدية على شكل نصف دائرة وتحتها أعداد من واحد إلى عشرة وفوقها مثلث خشبى محمول على ثلاثة أرجل (مائدة صغيرة) وأخذ يعلم الأرواح طريقة استعمال اختراعه هذا فنجح نجاحا باهرا مع العلم بأن المائدتين الكبيرة والصغيرة خاليتان من المسامير) .

(تحضيرها فى فرنسا)

يوجد الآن فى فرنسا فى مدينة ليون امرأة عجوز اشتهرت فى جميع أنحاء البلاد بتحضير الأرواح والتكلم معها ، وكثيرا ما كتبت الجرائد الفرنسية وسردت بعض حقائقها ، وإليك واحدة منها :

فى يوم ١٤ يوليه (عيد الجمهورية الفرنسية) سنة ١٩١٦ أتى لزيارتها جم غفير من وجهاء القوم من مدينتى (ليل وباريس) واحتفت بهم احتفاء عظيما وقدمت لهم فواكه فصل الشتاء فسألها بعضهم من أين الفاكهة؟ فأجابته من جنوب أفريقيا ، فقال لا يمكننى تصديق ذلك لأن طول المسافة كاف لإتلافها . فقالت إنى أحضرتها فى مدة ثانية أو أقل . فقال هذا محال . عند ذلك قامت ودعت ضيوفها إلى غرفة ذات نافذة واحدة خالية من الأثاث سوى بعض كراسى خشبية فى أركانها وأحضرت روحا من الأرواح وطلبت منها إحضار فاكهة من جنوب أفريقيا كالتى أحضرتها فى الصباح وكان الحاضرون فقط يسمعون صوت العجوز ولا يسمعون الرد عليه ، ففى الحال وجدوا أمامهم على المائدة فاكهة على أغصانها ، ولكى يصدقوا أنهم ليسوا فى حلم قدمت لهم بعضها وأكلوا منها فخرجوا معجبين بمهارة العجوز دهشين مما رأوه . وأسرد أيضا بمناسبة ذكرها مايأتى :

إنه فى سنة ١٩١١ زارها أحد وزرائنا السابقين هو وقريب له فطلب منها تحضير روح قريب له مات منذ زمن ليس ببعيد وكان يقصد فى الحقيقة تحضير روح النبى صلى الله عليه وسلم فبدأت عملية التحضير إلا أنها وجدت صعوبة كبيرة وعجزت أخيرا عن إحضارها بعد زمن تزيد عن نصف ساعة وقالت لمعاليه (إن الروح التى تطلبها ليست بروح رجل عادى بل هى روح علوية قد يتعذر على أعظم عالم روحانى تحضيرها ، فلتطلب روحا أخرى فلعلى أحضرها لك) ولما كان هذا الوزير وللأسف يشك فى نبوة سيدنا محمد ﷺ صمم على إحضارها فحاولت ثانية وثالثة أخيرا وقالت (يغلب على ظنى أن الروح التى تطلبها عالية جدا فلا يمكننى أبدا إحضارها وفى

الغالب أنها روح رجل مقرب من الله جدا أو نبى أرسل فى جزيرة العرب فاطلب غيرها) فتبسم وأخبرها بالحقيقة وطلب إحضار روح والده ، ومن تاريخ تلك الحادثة آمن ذلك الوزير وحسن إيمانه .

(تحضيرها فى أمريكا)

نشرت (جريدة الأهرام) فى ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٣ قصة وسيطة تعيش فى نيويورك وقد تناقلتها أيضا التلغرافات اللاسلكية فى أنحاء المعمورة فقالت مانصه :

اشتهرت (مسز تومسون) فى أمريكا كلها بأنها وسيطة لمناجاة الأرواح وقد أقبل عليها الناس من كل فج وصوب فرأوا منها العجائب وآخر ماجرى لها وتناقلته الأسلاك البرقية أنها وعدت (المستر جلاجر) بأن تظهر له روح والدته لحضر فى اليوم الذى عينته له ومعه ثلاثون من أصدقائه رجالا ونساء وكان أول مافعلوه أنهم فتشوا الوسيطة تفتيشا دقيقا وكلفوها بأن تنزع ثيابها وترتدى رداء بسيطا لاجيب فيه ، ولما تحققوا أنها فعلت ذلك ساروا إلى الغرفة المعدة لمناجاة الأرواح ولم يلبثوا إلا قليلا حتى ظهر أمامهم شبح وسار توا إلى (المستر جلاجر) الذى استولى عليه الرعب ولم يعد يقوى على دفعه عنه ، ودارت حينئذ معركة شديدة بين الشبح والمستر جلاجر فخاف الحاضرون العاقبة فأناروا المصابيح الكهربائية ، وما كان أشد دهشتهم لما رأوا فى فم المستر جلاجر قطعة من قماش أحمر تنبعث عنها رائحة طيبة أما الوسيطة فقد جعلت تصيح بملء فيها ثم أسرعت إلى ترك الغرفة .

تبين لنا من هذه القصة مقدرة الأرواح وعدم استحالة رؤيتها ولاتعجب أيها القارىء من رؤية الأرواح بالنظر المجرد مع أنها ليست بمادة بل هى خلقة من نور كما وصفها الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم . ولكن لكى تظهر الروح لك قدرتها تتخذ شكلها الأول الذى يعلق بمخيلة الطالب حضورها وذلك لتثبت وجودها وحضورها أمام المحضر والمتفرجين وقد حدث ويحدث مرارا وقوع مثل هذه الحادثة .

وقد وقعت فى مدينة (نارمن) الحادثة الآتية (إنه فى سنة ١٨٩٥ حدث فى تلك المدينة أن رجلا من أثرياء القوم يدعى المسيو (فيكتور كاشارل) كانت له ابنة جميلة توفيت فجأة يوم قرانها وبعد وفاتها بثلاثة أيام سمع والدها دقا على الباب الخارجى للغرفة لاستقبال ففتح فاذا بطفلة صغيرة تحمل خطابا له رائحة جميلة فتناوله منها وانصرفت فدخل غرفة مكتبه وفض الظرف وقرأ الكتاب وما كان أشد تعجبه لما وجد الخط خط ابنته المتوفاة وإمضاءها ، والكتاب يحتوى على تحياتها القلبية له ولأمها وتوصيتها لهما بالصبر والسلوان ووصف حالتها بعد موتها والنعيم الحال بها وقد ذهب (المسيو شارل) فى اليوم الثانى إلى المجمع العلمى الفرنسى وعرض على أعضائه الكتاب وسرد لهم الحكاية فقال البعض إنه مجنون والبعض الآخر داخله الريب والشك فى صدق هذه الرواية . أما الآن وقد تعددت مثل هذه القصة فلا يبعد وقوعها وستظهر فى القريب العاجل أشياء تختص بهذا العلم مما يدهش العقول ويحير الألباب انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

هذا أقل من كل مما جاء فى العصر الحاضر من علم الأرواح الذى امتلأت به الدنيا إلا بلاد الاسلام فانها هى وحدها الغافلة النائمة الساهية . وإن أردت المزيد فاقرأ [كتاب الأرواح] تأليفى فهو يوضح هذا العلم إيضاحا تاما ويبين مافى هذا المقام من النقص .

فهذا العلم نوع من التفكر فى الأنفس بل هو أهم فكر فيها ، ومتى عرف الناس ذلك وأيقنوا بأن لهم حياة بعد الموت عرفوا سر هذا الوجود وعلموا أن هذه العوالم مخلوقة لمقاصد سامية ونهايات شريفة وحكمة حقة ، وأن الأرواح بعد هذه الدار تكون على ما كانت عليه فى هذه الدنيا شرفا وضعة وعلما وجهلا وصدقا وكذبا فيكون الجزاء على مقتضى سابق العمل ، فان لم يفقهوا هذه الحقائق أفلا ينظرون آثار الأمم التى

قبلهم كيف هلكوا لما كذبوا رسلهم، فليعتبروا بما يرون من عواقب الأمم المكذبة فإننا أهلكناهم لما كذبوا.

فهاهنا (دليلان) دليل تعرفه العقول بالتفكر في النفس، ودليل أقرب منه وهو التفكر في عواقب الأمم المكذبة، فهذا لا يحتاج إلى علم النفس ولا إلى تحضير الأرواح ولا إلى الفلسفة وإنما يحوزه النظر في عواقب الأمم المكذبين فمن عجز عن الأول فكيف يعجز عن الثاني ودلائله مشاهدة في خرائب الأمم الهالكة يراه الأحياء وهم غافلون وهذا هو قوله تعالى (أولم يسيروا في الأرض) إذا عجزوا عن السير في علم النفس (فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) هذا تقرير لسيرهم في البلاد ونظرهم إلى آثار المدمرين من عاد وثمود وغيرهم من الأمم القاهرة الغالبة. ثم وصفهم فقال (كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض) وحرثوها (وعمروها أى المدمرون عمارة (أكثر مما عمروها) أى أكثر من عمارة عمرها أهل مكة (وجاءتهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات الواضحات فلم يؤمنوا وأهلكوا (فما كان الله ليظلمهم) فيدمرهم من غير جرم ولا تذكير (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ عملوا ما أدى إلى تدميرهم في الدنيا (ثم كان عاقبة الذين أساءوا) أعمالهم في الدنيا الخصلة (السوآى) أى العاقبة التي هى أسوأ العواقب في الآخرة هي النار التي أعدت الكافرين، والمعنى ثم كان عاقبتهم إلى آخره ولكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل ولم يجلب للانسان شيء آخر من خارج نفسه وإلا كان ظلما فهؤلاء عاقبتهم الخصلة السوآى (أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أى ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها فملخص ما تقدم برهانان: برهان علم النفس ومنه تحضير الأرواح. وبرهان النظر في آثار الأمم ونتيجة البرهانين قوله تعالى (الله يبدؤا الخلق ثم يعيده) أى ينشئهم ثم يحييهم بعد الموت (ثم إليه ترجعون) للجزاء والعدل. ولقد تقدم في (سورة العنكبوت) عجائب خلق العوالم في قوله « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة » أى ليستدلوا بالنشأة الأولى على الآخرة وقد سار الناس في الأرض وقرءوا العلوم وفهموها واطلعوا على علم الأرواح وفهموا منه بصيصا من علم الآخرة، فاقتران النشأة الآخرة بالنشأة الأولى لتلاحقهما واتصال كل منهما بالأخرى وقد علم الناس في الدنيا أن الوعد لا يخلف كما تقدم. فمواعيد الأيام والشهور والسنين والخسوف والكسوف صارت مفهومة عند علماء الفلك بحيث يمكن الانسان أن يعرف أول السنة وأول الشهر وموعد كسوف الشمس وخسوف القمر بعد مئات الملايين من السنين وهكذا عرف الناس كما أوضحناه في (سورة العنكبوت) كيف نظمت العناصر ورتبت في جداول بحسب ذراتها وكان بين كل عنصر وما فوقه وما تحته وما وراءه وما أمامه نسب هندسية ونسب عددية كالنسب التي في علم الشعر وفي علم الموسيقى وصفات مشتركة مع الصف الرأسي وأخرى مع الصف الأفقي كما أريتكه في الجدول هناك بحيث يعرف علماء الكيمياء العنصر المفقود قبل وجوده ويعرفون مكانه من الجدول المذكور. إنه لافرق بين الأزمنة المستقبلة وبين الأمور المفقودة في أن كلا يعرف قبل وجوده وذلك لحسن النظام والابداع. وإذا كان هذا العالم بهذا الاتقان والنسق فهو منظم له نتائج صادقة معلومة قبل حصولها ومن النتائج رجوعنا بعد موتنا على حسب المقدمات في هذه الحياة وهو قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) ييأسون ويتحيرون كما تقول ناظرته فأبلس إذا لم ينبس ويئس من أن يحتج (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ممن أشركوهم بالله شافعين يجيرونهم من عذاب الله (وكانوا بشركائهم كافرين) يكفرون بآلهتهم حين يئسوا منهم أو كانوا في الدنيا كافرين بسببهم. واعلم أنه قد كتب في المصحف شفعوا، وعلموا بني إسرائيل بالواو والسوآى بالألف قبل الياء إثباتا للهمزة على صورة الحرف الذى منه حركتها. ثم فصل حال الطائفتين المؤمنين والكافرين

فقال سبحانه (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى المؤمنون والكافرون (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فى أرض ذات أزهار وأنهار يسرّون سرورا تهللت له وجوههم وينعمون ويكرمون بالتحف (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) مدخلون لايغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، واعلم أن ملخص ماتقدم أن الأمم يغلب بعضها بعضا ولكل وقت محدود على نظام القانون العام وهو أن لايخلف الميعاد ، ومن القانون العام المذكور أن الحياة الآخرة تعقب الحياة الدنيا . ثم أعقبه (بدليلين) دليل الأنفس والبحث فيها ، ودليل التأمل فى أحوال الأمم . وهاهنا رجع إلى مسألة إن الله لايخلف الميعاد فذكر ذلك فى [ثلاثة مواضع] تعاقب الليل والنهار وأنه لايخلف الوعد فى ذلك . وإخراج الحى من الميت والميت من الحى وأن الأرض تحيا بالنبات بعد موتها باليبس والقحط . وهذه الأدلة الثلاثة ترجع لعدم الإخلاف فى وعد الله . فكما يستدل الناس بأنفسهم وبآثار الأمم على الآخرة يستدلون عليها بعدم إخلاف الميعاد وذلك بهذه الأمور الثلاثة الآتية وقد قدمت لك فى (سورة الأنعام) أن هذا الدليل هو الذى ذكره سقراط لتلاميذه عند الموت إذ استدل على الآخرة أن الضد يعقبه ضده فالمرض والجهل والفقر والذل يعقبها الصحة والعلم والغنى والعز فهكذا يكون بعد الموت حياة فذكرها الله سبحانه هنا فى مقام إبانة الطريق الموصلة إلى النجاة فى الآخرة بالعبادة فى الأوقات الآتية مع الفكر فى تلك الأوقات وتعاقبها . فهاهنا ضرب الطريق بحجر ، فالآية فيها التسبيح والصلاة ومع ذلك يفكر المؤمن فى تعاقب هذه الأشياء وهذا هو قوله تعالى (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أى فسبحوا الله والتسبيح تنزيه الله من السوء والثناء عليه بالخير فى الصلاة وغيرها . وقد سأل نافع بن الأزرق ابن عباس قائلا «هل تجد الصلوات الخمس فى القرآن؟ قال نعم وقرأ هاتين الآيتين وقال جمعت الصلوات الخمس ومواقيتها» قال العلماء وذلك أن قوله «تمسون» صلاة المغرب والعشاء وقوله «تصبحون» صلاة الفجر «وعشيا» صلاة العصر «وحين تظهرون» صلاة الظهر وهذه الأوقات تتبدل فيها أحوال النور ، فمن عدمه بالظلمة وقت المغرب والعشاء إلى ظهوره بالفجر إلى نهاية إشراقه وقت الظهر إلى قرب اضمحلاله وقت العصر ليكون الإنسان متذكرا ربه فى كل ظاهرة من ظواهر الحركات الفلكية ليرى عدم اختلاف الميعاد فيستدل على الآخرة ، وإنما جعلت الركعات سبعة عشر ليكون لكل ساعة من ساعات الليل والنهار ركعة فكأنه يسبح الله فى كل ساعة وبقيت سبع ساعات هى متوسط ماينامه الإنسان كل (٢٤) ساعة . وإنما قرنت الصلاة بأحوال الأنوار الشمسية لأن هذه الأنوار مبدأ كل حياة على الأرض . فالرياح تهب بحرارتها والبخار يثور بإثارتها من البحار والسحاب تساق فى الجو بهذين العملين الناجمين من الحرارة والنبات والحيوان والإنسان كلها نواتج لذلك . والألوان التى يفرح بها الناس ويميزونها بنفس الضوء ، فلا فلك تجرى فى البحر ولا سحاب فى البر ولا حب نأكله ولا فاكهة نتفكه بها ولا ثوب نلبسه ولا حرير نتزين به إلا وحرارة الشمس كانت سببه ولا هداية الطريق إلا بضوء الشمس ولا نظام للطرق فى البحار وفى البر إلا بملاحظة الكواكب المحيطة بكرتنا . إن عبادة أمتنا الإسلامية عبادة تاجها الفلسفة نتائجها الحكمة .

فانظر كيف استبان فى السورة المتقدمة أن ملخص الأدعية الحث على جميع العلوم وانظر كيف كانت أوقات الصلوات مفتاحا لأصولها ومبدأ لأوائلها ونبراسا لطرقها ومهيعا لعجائبها تلك وحدة ثابتة . الشمس واحدة والحرارة والنور منها انبعثا ومنهما تشعبت أنواع الحيوان والنبات مع نظام العناصر السابق بحيث دارت الأفلاك وأرسلت الأشعة إلى هذه العناصر ، وما أشبه الحرارة والنور بالنفس الإنسانية والعقل الإنسانى . فلنا نفوس بها نشتهى وبها نحس وبها نتحرك . فالنفس مبدأ الحس والحركة . ولنا عقول بها ندرك الكليات

هكذا

هكذا الشمس حرارة بها هذه الحركات ، وبها ضوء به يهتدى الناس فى الطرقات ويعرفون الصور والأشكال وهكذا تسمع قول الفلاسفة (النفس والعقل) فقالوا : إن العالم المدبر لنا فيه نفوس وعقول ، فالعقول مدبرة والنفوس محركة أشبه بما رأينا فى الشمس وفى نفوسنا. فما أجمل الحكمة وما أبدع العلم! وذلك بلسان الشريعة للملائكة وهم درجات بعضها فوق بعض . ومنهم الأرضيون والسماويون . وقد ذكر بعض هذا فى (سورة البقرة) وهذا كله مستفاد من هذه الآية «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون» أى تدخلون فى الظهيرة . وقوله «وعشيا» معطوف على قوله «حين تمسون» وأما قوله «وله الحمد فى السموات والأرض» فهى جملة اعتراضية . ومعناه يحمده أهل السموات والأرض ولقد علمت أن أمتنا الإسلامية هى التى اختص نبيها صلى الله عليه وسلم بأن له مقام الحمد وأنه رافع لواء الحمد وقد أمر بالحمد وبشر بأن أمته ستعرف آيات الله كما تقدم فى (سورة النمل) ولا معنى للحمد إلا بعد معرفة المحمود عليه ، فتكون نتيجة ذلك أن أمة الإسلام سيريها الله آياته فتعرفها والآيات هى سائر العلوم . انظر كيف جعل الصلوات تبع الإضاءة والإظلام وكان يمكن أن تكون تلك الأوقات مطلقة يصلى الإنسان كما يشاء فلما قيدها علم أن الضوء والظلمة لهما مزية ، وما مزيتهما إلا أنهما مبادى الحوادث ومبادى العلوم وبهما يعرف أنهما تابعان للشمس وحركتها فيعرف وحدانية الله وحسن نظامه فى خلقه ، ويعرف أيضا أنه لا يخلف الميعاد لا فى الأنوار والظلمات ولا فى نسق العناصر المتقدمة فى الجدول المذكور فى (سورة العنكبوت) «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» فلا تفاوت بين حوادث الأنوار والظلمات من حيث تناسبها وصدق موعدها ولا فى نظام العناصر من حيث وضعها المنتظم الذى اخترعه (منديليف الروسى) وإن كان لم يزل نظامه غير تام لقصور الناس عن الإحاطة به ومع ذلك أمكن أن يعرف ماغاب من العناصر بما حضر منها كما تقدم ، وقوله تعالى (يخرج الحى من الميت) كالإنسان من النطفة (ويخرج الميت من الحى) كالنطفة والبيضة (ويحيى الأرض بعد موتها) بيبسها وهذا يدل كما تقدم عن سقراط دلالة إقناعية على الحياة الأخرى ولذلك قال : (وكذلك تخرجون) من قبوركم على قاعدة أن الضد يتبع ضده . ولما ذكر سبحانه أنه يحيى الأرض بالنبات ويحيى الناس والحيوان ، وأن الضد يعقب ضده ناسب أن يشرح [أحوال الإنسان الأربعة] وهى حال نشوئه وتنوعه إلى ذكور وإناث بينهما محبة ووئام وإلى أمم مختلفة اللغات والأحوال كلها من لون وغيره وإلى تنوع أحوال الأرواح مع الأجسام من حيث اليقظة والنوم . ثم أتبعه بذكر مايحيط به وهما [حالان : الأول] أحوال الجو من مطر وبرد وثلج وصحو وحر وبرد، وأنبارها بالبرق وإنزال المطر . الثانى أحوال العالم كله فإنه كجسم واحد منظم يخدم بعضه بعضا فهم ذلك من نظر إلى أحوال الجو وأحوال الأنفس فى نشوئها وتناسلها ونومها ويقظتها واختلاف لغاتها وألوانها . فالخمسة التى قبل السادس لمعرفته سبحانه وتعالى، ثم أعقبه بالسابع وهو أن من فى السموات والأرض منقادون له ، لأن هذا الانقياد لايفهم إلا بفهم المباحث السابقة عند التحقق منها وهذا قوله تعالى :

(١) (ومن آياته أن خلقكم من تراب) فى أصل الانشاء ، أو فى هذه الحال بتغذيتكم من النبات ، والنبات يتغذى من التراب والهواء والماء وأكثر المواد المركبة فيكم مخلوط مركب من التراب والماء وعناصر أخرى (ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) تنبسطون فى الأرض أى ثم فاجأكم وقت كونكم بشرا تنتشرون فى الأرض .

(٢) (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا) لأن النساء خلقن من جنس الرجال أى من شكل أنفسكم وجنسها (لتسكنوا إليها) يقال سكن إليه إذا مال إليه وذلك لما بين الاثنين من جنس واحد من الإلف والسكون ، ومابين الجنسين المختلفين من التنافر (وجعل بينكم مودة ورحمة) أى جعل بينكم التواد بسبب

الزواج فيحصل الإلف بين الزوجين ويكون الشبق فى حال القوة مدعاة لميل كل منهما إلى الآخر سواء أكان ذلك وقت إرادة النسل أو فى غيره لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام . ولما كان الشباب يتوارى تدريجا والجمال يتبعه تحقيقا كان كلما ولى الشباب توارى معه الجمال . فلا يزال الشباب فى إدبار والجمال فى تغير حتى تجىء الشيخوخة وقد نفدت القوة فى الرجال والجمال فى النساء واستبدل الضعف وتجعد الوجه بهما . أقول لما كان ذلك قانونا مسنونا خلق الله منهما الذرية ذكورا وإناثا ليحصل بينهما التفاهم والتحابب وللمودة للأمر الأشرف وهو التربية والمحافظة على الذرية وحينئذ تظهر أنوار الرحمة التى كانت متوارية وراء ظلمة الشبق والشهوة فلا تزال الرحمة تظهر والشهوة تختفى حتى تظهر شمس الحقيقة الواضحة وهى الرحمة الخالصة بين الزوجين بعد زوال ذلك الظلام الحالك الذى غشى عليهما . وإيضاحه أن محبة الزوج لزوجته أولا تكون لمجرد الشهوة، ألا ترى أنهما يقتتلان إذا لم يصيباها ويتخاصمان ويفترقان فإذا وجدها مريضة أو قبيحة أو رأته هو كذلك حصل النفور بدل المودة، فأما إذا كبرا لاسيما إذا كان لهما ذرية فإنه يحبها وتحبه ولو كان بهما مرض وقد تحقق كل منهما أن صاحبه لا جمال فيه ولا قوة ، فهذا هو الحكمة فى التعبير بالرحمة بعد المودة . إن هذه الحياة جعلت لتمرننا على الأخلاق العالية . ومن أحسن الطرق أن يحس الرجل بحاجة إلى المرأة تمسه هو وتقضى وطره فليس فى أكثر الناس من يتزوج امرأة إلا لقضاء وطره وقليل منهم من يكون أول مقاصده الولد أو المساعدة المنزلية، فالشهوات إذن كالحب يوضع للطير فيصاد به هكذا هذه الشهوات توضع للذكور والإناث ليجتمعوا فتكون الذرية والنظام المنزلى فالنتيجة الحقيقية هى الذرية وبهذه الذرية يتعلمون علم الرحمة والشفقة فلا يكون لهما مقصد إلا ترقية هؤلاء الذكور وهؤلاء الإناث وهذا ليس فيه شىء يرجع إلى نظام أجسامهما كما لم يكن للحيوان منفعة من ذريته . إن نظام هذا العالم راجع فى نهايته إلى أن نتعلم علم الرحمة أى أن تكون نتائج أعمالنا للمنفعة العامة وأول المنفعة العامة تربية الذرية . ولقد أودع فى عقول الآباء أن أبناءهم ينفعونهم فى كبرهم . وهذا أثر من آثار الضعف الإنسانى . فنحن ملزمون أن نربى الأبناء سواء أكانوا ذخرا لنا فى الكبر أم لا . والسائق الذى جعل فى نفوسنا هى الرحمة بهذه الذرية، وضعها الله فى الآباء لتسوقهم الى تربية أبنائهم وهذه مزية شريفة وضعها الله فى الأرض ، فقد تدرج الإنسان من طفل يكفله أبواه إلى قوام على امرأة لمجرد شهواته لأنه ليس أهلا أن يتصف بأن يكون قواما على غيره لأنه لا يزال حديث عهد بالحضانة والتربية فمال إلى من يقضى معه شهوته النفسية ثم ارتقى إلى تربية غيره وكفالته بلا أجر إلا ما تخيله فى نفسه من أن الولد ذكر له أو يقوم بما يحتاج إليه فى الكبر .

إن دراسة هذه النظم مرقية لنوع الإنسان ، فليدرس المسلمون نظام الله فى أرضه فهم مخلوقون فى عالم كله جمال ونظام وحكمة فإن لم يفكروا فلا آخرة ولا دنيا . ولذلك ترى أن الأنبياء والحكماء الذين جاءوا إلى هذه الأرض لإصلاح أهلها قليلون جدا وإنما قلوا لأن هذه الأرض من العوالم المتأخرة فلا تأتى إليها إلا أرواح جاهلة غبية لا تعرف إلا أنفسها وقد غفلت عن نظام العالم العام . فهذه الأرواح الأرضية لما وردت هذا العالم جرت على طباعها وأخذ الله يعلمها الرحمة العامة والمحبة الكلية تارة بنفس النظام الذى يعيشون فيه بأن يظهر للانسان أنه لا سعادة له بدون أمته وأن أمته لا سعادة لها إلا بالأمم ولا سعادة للأمم إلا بالعوالم كلها التى نراها والتى لا نراها وتارة بكلام الأنبياء والحكماء وطلبهم محبة الجميع والاحسان للجميع والتوجه لله الذى هو فوق الجميع ليكون نظره إلى سائر الناس والحيوان نظر حكمة ورحمة عامة . فعلى هذا يكون الأنبياء والحكماء أشرف هذا النوع الانسانى لأنهم خلقوا فيها لاسعاد الجميع واكتفوا من الدنيا بما هو ضرورى فهؤلاء يرون فى أنفسهم عطفا على جميع النوع الإنسانى وعلى الحيوان كما يرى الأب والأم حبا لأبنائهما

ولذلك يقول الله تعالى «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم» فالأنبياء آباء والأمم أبناء ، هذا هو إيضاح معنى الرحمة في قوله «مودة ورحمة» فكن أيها الذكي أبا عليا ولاتقف عند الأبوة الجسمية . كن تابعا للأنبياء والحكماء ولاتقف عند الدرجة الدنيا .

واعلم أن أمة الإسلام يحوزها مرشدون وأنت لم تقرأ هذا التفسير إلا لما في نفسك من حكمة وعلم وشرف وإلا لصدفت عنه وكرهته لأن الانسان لايعشق إلا ما كان من طباعه ، وإذا كان ذلك كذلك فإني أسألك بالله الذي أبدع هذا النظام وسواك وعلمك أن تكون رحمة لهذه الأمة المسكينة الأمة الاسلامية التي تألبت عليها أمم أوروبا وأن تهديها وأن ترشدها فإن مثل هذا التفسير لايقرؤه إلا أكابرها وهؤلاء الأكابر يحرم عليهم أن يناموا فشمر عن ساعد الجد وانشر الحكمة بينهم على قدر عقولهم، فقد نبذا من هذا التفسير أو من غيره أو مما تعرف أنت وانشرها بينهم وحببهم في العلم والصناعات ، ولتعلم أني قابلت العلماء من سائر أقطار الإسلام فألفيتهم جميعا يبكون على هذه الأمة فإن القائمين بأمر الدين منعوها العلم وجميع الأمم حولها يقرءون بعض نظام الله في الأرض وفي السماء .

إن أعداء هذه الأمة ومرشديها قد اتفقوا على إذلالها فأعداؤها بالحرب ومرشدوها بصدالناس عن العلوم . واعلم أن الله أذن للاسلام بالارتقاء والسعادة ، ومن بوادر ذلك نشر هذا التفسير ، وأنا بذلك موقن وسيكون في هذه الأمة حكماء وعلماء وعارفون .

ولتعلم أن الله لم يرسل إلى هذه الأرض من الأرواح العالية إلاقليلا ليوقظوها لايريدون جزاء ولاشكورا كما أن الشمس ترسل أشعتها بلا جزاء من الأرض لها ، هكذا الأنبياء والصديقون قليل ، وإنما قلل الله منهم لأنهم يخلقون في الأرض فينصبوا ويتعبوا ، لأن نظامها مبني على الشهوات وهم أقرب إلى البراءة منها فلذلك يكونون في ألم وتعب مدة حياتهم ليؤدوا الأمانة التي حملوها قبل مغادرتهم عالم الأرواح وهم في عالم الذر ، وليس يفهم هذا إلا بأحد أمرين: إما بصفاء النفس ، وإما بقراءة علم الأرواح ودراسته دراسة تامة .

(٣) (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم) لغاتكم وأجناس نطقكم وأشكاله (وألوانكم) كالسواد في السودان والصفرة في الصين واليابان والبياض في أوروبا وأكثر بلاد الشرق واللون النحاسي كأهل أمريكا الأصليين وذلك في العموم ، والحقيقة التي لامرية فيها أنه لارجل ولا امرأة في الشرق والغرب يشبه لونه لون الآخر ولا نطقه نطق الآخر ، فترى اللغة واحدة واللون واحدا كالعربية والبياض ولكن لاترى وجهين يتحدان بياضا ، ولا لسانين يتحدان منطقا . هكذا صحة الوجوه وشكل الأعضاء كلها كما سيأتي إيضاحه .

(٤) (إن في ذلك لآيات للعالمين) جمع عالم بكسر اللام ولقد نبغ العلماء في فن علم اللغات ومعرفة الحيوان وأصناف الانسان ، ولن يدرك عجائب ذلك ونتائجه حق إدراكه ومعرفته إلا العلماء به وبالاستنتاج منه بحيث يذوقون جمال هذه النظم وتتأثر به نفوسهم فيرون وراء هذا الجمال والنظام والابداع إشراقا به أبدعت هذه العجائب ويرون مادة واحدة أصلها الأثير تنوعت بحركات فكانت هذه المواليد ثم اختص كل مخلوق بصفات بحيث يمتاز عن سواه ثم يدهشون، إذ يرون هذا التمايز والتغاير الجزئي جعل لأجل أن نميز الأفراد بعضها من بعض ، فالاختلاف إنما جاء لهدايتنا المعرفة وفصل الأشياء بعضها من بعض ، فالنتيجة من ذلك هداية عقولنا لمعرفة الأشياء وكذلك الحيوان .

(٥) (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) في النهار بمزاولة أسباب المعاش غالبا فيهما (إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع تفهم واستبصار .

(٦) (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا) أى إراءتكم البرق كايقولون: تسمع بالمعيدى، أى سماعك خوفا من الصاعقة وطمعا فى الغيث أى حال كونكم خائفين طامعين (وينزل من السماء ماء) مطرا (فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) يتفكرون بعقولهم (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى تثبت بلا عمد باقامته وتدبيره وحكمته لأن عوالمنا التى نسكنها ليست فى مكان واحد بل هى تجرى فى الفضاء فالأرض جارية والسحاب يجرى حولها والهواء تبع لها والشجر دائما حولها، وهى والقمر والسيارات التى عائلها يجرين حول الشمس والشمس ولواحقها تجرى حول كوكب آخر يظن أنه هو نجم فى الجاثى على ركبتيه وهو وأمثاله يجرين حول كواكب أخرى وهكذا إلى حيث تنقطع الفكر ونحن على الأرض لاندرى إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة ، فإمساك هذه العوالم وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات الدالة على إله دبرها (ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) معطوف على قوله «أن تقوم» أى ومن آياته قيام السموات والأرض ثم خروجكم من القبور إذا دعاكم دعوة فيقول أيها الموتى اخرجوا وذلك كقوله تعالى: «كن فيكون» .

(٧) (وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) منقادون لفعله فيهم لايمتنعون عنه .

ولما كانت هذه العلوم السبعة توضح «كيف بدأ الله الخلق» وهكذا يعيده وجىء بها كالايضاح أو الاستدلال على قوله تعالى قبلها بقليل «الله يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ أتبعها بما هو كالنتيجة لها فقال (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى يخلقهم أولا ثم يعيدهم بعد الموت وهو هين عليه أو هو أيسر عليه على حسب مارسخ فى عقول المخاطبين أن من فعل شيئا مرة كان أسهل عليه إعادته (وله المثل) أى الوصف العجيب الشأن كالقدرة العامة والحكمة التامة (الأعلى) الذى لايساويه فيه غيره ولا يدانيه (فى السموات والأرض وهو) فى ملكه (العزيز الحكيم) أى فى خلقه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة .

وههنا (خمس لطائف) :

(١) فى قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ .

(٢) فى قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم» .

(٣) فى قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» الخ .

(٤) فى قوله تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا» .

(٥) فى قوله تعالى «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده» الخ .

أما (اللطيفة الرابعة) فلتقرأها فى (سورة الرعد) فهناك شرح الرعد والبرق وهذه الحوادث الطبيعية .

﴿ اللطيفة الأولى: فى قوله تعالى «ومن آياته أن خلقكم من تراب» الخ ﴾

لقد تقدم فى (سورة القصص) ذكر منشأ العالم ومنشأ الإنسان وبيان الثواب والعقاب الذى ظنه حكماء اليونان بعقولهم وأن ذلك معجزة للقرآن لأنهم طابقوا القرآن قبل نزوله وغاية الأمر أنهم أخطأوا المرمى فى بعض التفاصيل كقولهم [إن المجرم من الناس يكون حيوانا ويكون هذا عذابا له] ذلك لأنهم ليسوا أنبياء وقد أقروا بأنهم عاجزون عن إحقاق الحق فى مثل هذه المسائل وذلك فى المحاورة التى ذكرها أفلاطون على لسان (طيماوس) من أتباع فيثاغورس مع سقراط أستاذ أفلاطون وسيأتى ملخص أكثرها فى قوله تعالى «فطرة الله التى فطر الناس عليها» فأريد أن أذكر هنا ماقاله ذلك الفيلسوف فى أمر الانسان وخلقه وصحته ومرضه ذلك لأن مثل هذه الآراء تورث القارىء لهذا التفسير يقينا لايشوبه شك لأن القرآن بهذه الآراء يصبح مطابقا لآراء أكابر حكماء الأمم كسقراط وأفلاطون . وقد تقدم أنى نقلت لك عن علماء أوروبا فى عصرنا

أن

أن أم علوم الفلسفة وهى الأمور العامة كالمادة والنفس والله ، وهكذا لم يصل فيه الأوروبيون الحاليون إلى مرتبة علماء اليونان هذا هو نص كلام سبنسر الفيلسوف الإنجليزى الذى ذكرته فى رسالتى المسماة [مرآة الفلسفة] فإنه أعلن على رءوس الأشهاد أن علماء أوروبا جميعهم عالة على علماء اليونان فى هذه المباحث وأن علماء أوروبا لم يرتقوا إلا فى العلوم الجزئية . ويقول الفيلسوف (ستلانه) المعاصر لنا [إن الدهريين من أوروبا فى زماننا لم يزالوا فى رتبة ديمقراطيس من فلاسفة اليونان] وأقول وهو فى مرتبة وسطى لم يصل لدرجة أفلاطون المحترم رأيه عند فلاسفة أوروبا وعند النصارى والمسلمين وعلماء الاسكندرية الأقدمين قبل الاسلام .

فلأسمعك إذن ماقاله (طيماوس) المذكور لسقراط فى خلق الانسان . ابتدأ فذكر أن الأرض والماء والهواء والنار يستحيل بعضها إلى بعض ، وأنت تعلم أن هذه هى العناصر القديمة ، ومن عجب أن تكون العناصر التى عرفت فى عصرنا ووصلت إلى (٨١) عنصرا أصبحت اليوم يرجع بعضها إلى بعض بعد كشف عنصر الراديوم ، فاعجب لنظام هذا العالم ولتطابق العلوم قديما وحديثا ، ثم قال إن المادة لها صور كثيرة فلايصح أن نعتبر هذه الصور لأننا إذا أخذنا قطعة من ذهب مصورة أشكالا مختلفة لايصح لنا أن نقول هى مثلث أو مربع عند الاجابة عمن سأل عنها . كلا . بل نقول هى ذهب ، فأما الاجابة بشكل من الأشكال فليست حقا هكذا المادة فهى لاتستقر على حال ولا شكل فلنقل هى مادة وهى أصل الوجودات وهذه الأشكال صور موجودات أزلية وهذه مصورة على صورتها والمادة لاصورة لها وهى نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شىء له نسبة ما إلى الوجود المعقول وهى نسبة مبهمة عديمة الادراك . انتهى كلام أفلاطون .

ثم قال (ستلانه) ناقلا عن (طيماوس) إنه جعل تكوينها من أجزاء مختلفة مثلثة مفرطة ومن تركيب المثلثات بعضها ببعض نشأ المكعب ومن تركيب هذه الأجسام نشأت العناصر الأربعة . قال (ستلانه) قلت وهذا القول يطابق ما عليه الطبيعيون فى عصرنا هذا وهو أن أول ماتركب عليه المادة من بلور ومايشاكله يتركب على أشكال هندسية بسيطة تختص كل جسم بشكل معين وهى أصل يجتمع منها الأجسام الأخرى من معدن ونبات ، ثم ذكر الإحساس وكيف ينشأ عن تأثير تلك المثلثات وغيرها فى أجسامنا وشرح اختلاف الاحساس من خشن ولين وبارد وحار ومؤلم وملذ وقال إن الاختلاف فى شكل الأجسام هو سبب اختلاف التأثير فى أجسامنا . وقال : إن الألم إنما ينشأ إذا كان التأثير مفرط القوة ووجدت ممانعة من جهة الآلة وكان التأثير مضادا لطبيعتها فمن اجتماع هذه الأحوال يحصل الألم ، وإذا كان التأثير ملائما للطبيعة تحصل منه لذة ثم قال : ثم الإحساس إذا وقع بسهولة فهو إذن ليس بملذ ولا بمؤلم ، وتكلم عن الحواس بعد ذلك .

ثم تكلم بعد ذلك فى تصوير الإنسان على يد الملائكة فقال إنهم تسلموا النفس الأزلية التى خلقها الله للانسان وألحقوا بها نفسا مائتة جعلوا مركزها فى الصدر ، أما الجزء الغضبى منها ففى أعلى الصدر وأما الجزء الشهوى ففى أسفل البطن [يقول مؤلف التفسير : ومن عجب أنى منذ (٣٠ سنة) ألفت كتاب (جواهر العلوم) وفيه مقالة فى تصوير الإنسان وشرح عقله وجسمه وأنه ملك فى الدماغ له جنود فى القلب وعمال فى البطن ولم أكن اطلعت على أمثال هذا وعسى أن أضمها يوما ما فى هذا التفسير] ولهذا الكلام بقية تقدمت فى هذا التفسير مثل الكلام على الأمراض والأدوية ، ومثل أن أمراض النفس تتبع أمراض الجسم وأن الرياضة البدنية والنفسية يورثان الصحة .

وقد ذكر أن الحيوانات كانوا آدميين نزلوا إلى مراتبهم بسبب شهواتهم ، وأن النساء كانوا رجالا جاروا

وظلموا أو جبنوا فانحطوا إلى مرتبة النساء ، فان هذه الأقوال معذورون فيها لأنهم لم يكن عندهم أشياء فذكروها بخيالهم قائلين إن أصحاب الشهوات يصيرون بهائم وأصحاب القسوة أو الجور يصيرون نساء ليقسموا العذاب على الأخلاق فهذا ليس إلا ضرب أمثال وظنون ، وهم يصرحون بذلك وما عدا هذا فهذا المقال فى تفسير الآية نعمة عظيمة وآية من الله لنا ودلائل على الجمال الإلهى وعلى الاتقان فى الصنع .

اللهم إنك أنعمت علينا بالعلم والفهم ، وإنى أحمدك حمدا كثيرا على هذه النعمة وعلى أن شرحت صدرى ووفقتنى وأبرزت هذه العلوم التى كانت مخبوءة فى بطون الكتب وسيقف عليها المسلمون وسيكون هناك أجيال وأجيال يرقون ويرقون العلوم والأمم الاسلامية .

أيها الذكى . إنى أرى بقلبى كثيرا من شبان الأمم الشرقية سيكون لهم صولة فى العلم وقدم صدق وسيكون فى الشرق وفى الاسلام حركة لايعرف مداها إلا الله وعظماء المسلمين بعد الآن قوم الحيون حكماء نابغون فى العلوم والفنون يرقون شعوبهم ماديا وأدبيا ، فمن ذا الذى يقرأ هذا الموضوع ثم يترك جسمه بلا حركة ورياضة أو يترك عقله بلا تهذيب ولا تعليم . اللهم إنك أنت المنعم وظنى فيك جميل أن ترقى هذه الأمم الآن ولك الحمد فى الأولى والآخرة ولك المرجع والمآب . انتهى صباح يوم آخر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ ﻫ .

﴿ نظرة : فى موازنة محاورة طيماوس وسقراط مع ماورد فى الصلاة فى دين الإسلام ﴾

لقد ابتدأ المحاورة بالكلام على السموات ومبدأ العالم ثم تكلما عن الروح الانسانية وما معها من الحيوانات إجمالا ثم أشار إلى علم الأخلاق وإلى جزاء الناس على التفريط فيها وجعل العقاب بالتناسخ الذى يأباه العلامة (ابن سينا) عقلا والإسلام نقلا ، ولكن هذا ماوصل إليه علم القوم إذ ذاك كما تقدم ، إنما الذى يهمنى الآن أن أنظر نظرة فى الصلاة .

يبتدئ المسلم صلاته قائلا « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » . ثم يقول بعد الركوع «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شئ بعد ، أهل الثناء والمجد أحق ماقال العبد وكلنا لك عبد لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» هذه هى الأدعية التى يقولها المسلم قبل قراءة الفاتحة وبعد الركوع ، كل ذلك وهو واقف .

يقف المسلم فيوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض الخ ، ثم إنه بعد الركوع يقول : إن حمدى لك يملأ العالم العلوى والسفلى ، فالمسلم إذن فى وقوفه فى الصلاة يحصل [أمرين] توجها للذى فطر العالم العلوى والسفلى وبعد التوجه يكون الحمد ، فهو لما توجه فهم أى درس هذا الوجود كما درسه (سقراط) و (طيماوس) ولما درسه علمه والعلم ينتج الحب والحب ينتج تسخير الجوارح بالطاعة واللسان بالثناء . فلذلك تراه بعد التوجه فى أول الصلاة يقول (لك الحمد الخ) وهذا الحمد تابع للعلم والعلم تابع للمعلوم والمعلوم هو مافى السموات ومافى الأرض الخ ، فهو يحمد الله على ماعلمه من عظمته لاعلى ماوصل إليه وحده . كلا لأن الحمد يكون على نعمة وصلت للحامد ولغير الحامد ولذلك كان الحمد ملء السموات وملء الأرض .

فقال صاحبى : المصلى يحمد ربه على العوالم كلها لأنه علمها وعلمها أوجب الحب وتسخير الجوارح ولكن ليس كل مسلم يعلم ماعلمه (طيماوس وسقراط) فكيف يكون ذلك ؟ فقلت إن الصلاة نوع من العلم لأن فيها تذكرة والتذكرة أشبه بالتنويم ، فالانسان بكثرة التكرار ترسخ المعانى فى نفسه وبرسوخها تنقلب إلى عواطف فيكون الحمد إذن على معان فى النفس أشبه بالعواطف التى اتصفت بها النفس . إذن المصلون [قسمان]

قسم

قسم علم كما علم سقراط فهذا حمده حمد حقيق . وقسم لايعلم ولكنه حصلت له حال من تكرار هذه الأدعية فهذا حمده شبه الحقيق وهذا قوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فالعالم بهذه المعانى الموقن بها يكون من الصديقين والصديقون يتبعون الأنبياء ، والأنبياء عاينوا وهؤلاء أيقنوا لأنهم درسوا. أما الآخرون وهم العامة فهم آخر الأقسام فكفاهم الايمان ، فهؤلاء الصديقون هم الذين قال الله فيهم «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها» إلى قوله «إنما يخشى الله من عباده العلماء» فهؤلاء هم العلماء المذكورون فى الآية ، وهؤلاء سيكثرون فى أمة الاسلام بعد انتشار هذا التفسير ، وسيقوم فيهم عبان الأذكياء ويقولون إنه من الجبن والعار والجهل أن نرى (طيماوس) و (سقراط) يهجمان على الحقائق العلوية والسفلية هجوما ولم يسمعوا ماسمعنا من قوله تعالى « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » ولا قوله تعالى «وزيناها للناظرين» ويقولون أيضا (عجبا كيف يقول طيماوس) إن العين إنما خلقت لننظر الكواكب ونعرف الليل والنهار ، ونزيد علما وندرس الفلسفة وهى أجل نعمة أنعم الله بها على الناس ، فنحن أحرى وأحق بدرس هذا العالم ، ولابد من نبذ طرق آبائنا المتأخرين العقيمة ، والسير فى الطرق القويمة «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم» .

هذا مايقوله المسلم فى صلاته وهو فى حال وقوفه ، فإذا جلس المسلم بين السجدتين فماذا يقول ؟ نسمعه يقول « رب اغفر لى وارحمنى وارزقنى واهدنى وعافنى » هذا قول المسلم بين السجدتين ومعلوم أن الجلوس بعد الوقوف . يطلب المسلم الغفران ، أى غفران الذنوب ، ولا جرم أن هذا راجع للتقصير فى الأخلاق وذلك بعد أن أكمل الأمور العلمية وهو واقف ، فهو فى حال وقوفه يدرس العوالم العلوية والسفلية كأنه يدرس السموات والأرض ، فلما أن أتم الدراسة ترك عالم السموات ورجع إلى نفسه كما أن الله خلق العوالم العلوية والسفلية ثم خلق الانسان ، فدعاء الجلوس بين السجدتين راجع لأحوال الانسان خاصة بعد الفراغ من دروس العوالم كلها . هذا هو الذى جاء فى المحاورة . فهما ابتدآ بدراسة العوالم ، ثم ختما الموضوع بالبحث فى أخلاق الانسان وعقابه وثوابه ، إذن مايقوله المسلم فى الوقوف ، وما يقوله فى الجلوس هو ملخص العلوم العلمية والعلوم العملية .

أليس من عجب أن تكون صلاة المسلم هى ملخص علم الفلسفة ، أليس من عجب أن تكون الفاتحة فى أولها هى نفس ماجاء فى أول هذه المحاورة من الكلام على السموات والأرض ونفس ماجاء فى قول المصلى قبل قراءة الفاتحة وهو (وجهت وجهى الخ) وأن يكون آخر الفاتحة هو العبادة والاستعانة والهداية وهو أقرب إلى ماجاء فى الجلوس بين السجدتين من طلب المغفرة على التقصير فى تلك العبادة وفى الانحراف عن صراط الذين أنعم عليهم ، والاقتراب من صراط غير المنعم عليهم والضالين ؟ إذن هذا الدين الاسلامى إنما تظهر ثمراته فى أمم بعدنا وهذا يكون بأحد أمرين : إما أن يرتقى أبناء المسلمين متى قرءوا أمثال هذا التفسير ، وإما أن ينتشر فى أمم أرقى من هذه الأمم ، فدين الاسلام لن يبقى كما هو الآن ، وإنما هو دين أمم ذوى عقول غير هذه العقول ، هو دين أمم يحبون الحكمة ويفرحون بالعلم وتكون هذه الدنيا كلها كتابا يقرءونه .

هذا مافهمته فى صلاة العصر يوم الأربعاء ثانى يوم من شهر شوال سنة ١٣٤٧ هـ الموافق (١٣) مارس سنة ١٩٢٩ م وكتبته عقب الصلاة وقد جاء فى (مجلة الجديد) مانصه :

الانسان آلة ميكانيكية عجيبة

(إحصاء حركة أجزاء الجسم)

ليس فى الأمر غلو ولا مبالغة فان هذه البيانات التى تقدمها هنا لك ستدلك على القوة الهائلة التى ينطوى عليها الجسم البشرى لجسم الانسان يحتوى على (٥٠٠) عضل وهذه العضلات تقوم بتسيير ١٥ كيلو جراما من الدم لتغذية هذه الآلة ومحركها الرئيسى أى (القلب) .

والقلب وقطره لا يزيد على (١٥) سنتيمترا ، ينبض فى الدقيقة الواحدة (٧٠) مرة و (٤٢٠٠) مرة فى الساعة و (٣٦٧٩٢٠٠٠) مرة فى السنة : وفى كل مرة من هذه المرات يقذف القلب فى الشرايين الصغيرة (٤٤) جراما من الدم أى مايبلغ فى اليوم الواحد (٤٤٣٥) كيلو جراما ، ومجموع هذا الدم يمر (٣) مرات فى الدقيقة . وتحتوى الرئة فى الحالة العادية على خمسة لترات من الماء ، ويتنفس الانسان بها (١٢٠٠) مرة فى الساعة وهى تنقى فى أثناء هذه الفترة (٦٠٠٠) لتر من الهواء فتتغذى بها الكرات الحمراء الموجودة فى الدم وتمده بالفيتامين . أما البشرة أو الجلد الذى يغطى اللحم والعضلات والأعضاء الخارجية فتتألف من ثلاث طبقات يتراوح سمكها بين (٣) و (٦) مليمترات وكل سنتيمتر مربع منها يحتوى على (١٢٠٠٠) من المسام التى تفرز العرق الناشىء عن تأثير حرارة الجو . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين »)

جاء فى هذه الآية خلق السموات والأرض ثم تخصيص [أمرين] الألسنة والألوان بالذكر ، إن الذى يسمع هذه الآية لأول وهلة يقول لا حاجة فى معرفة اختلاف الألسن والألوان إلى علم ، فما الداعى إذن لتخصيص العلماء ؟ مع أن ظواهر الألوان معروفة للجاهل والعالم بل الدواب تعرف اختلاف الألوان وتميز الأشجار والزروع بعضها من بعض ، فهذه المعرفة إذن ليست خاصة بالعلماء بل هى عامة لجميع المخلوقات فهى آيات للعالمين بفتح اللام وليست خاصة بالعالمين بكسرها .

هذا مايتبادر للذهن ولكن عند النظر والفهم يرى الانسان أن العامة فى نظرهم إلى هذه الألوان لا يجدون فيها حكمة ولا علما فهم ينظرون لاختلاف الألوان نظرهم لاختلاف مذاق الأغذية من حلوة ومرة وحارة وباردة ، وهذه وتلك لا تهيج فيهم هم ولا علماؤهم معرفة الله ولا حب العالم الأعلى . إن معرفة الجاهل باختلاف الألوان معرفة جاهلة بدليل أنها لا أثر فيها للتذكرة ولا للعبرة ولا الحكمة فان الجهلاء فى كل أمة يعيشون ويموتون ولهم ألوان وزروعهم ولأمتعتهم وهم يرون نور الكواكب ساطعا عليهم ونور الشموس والأقمار وهم أموات فى نهار الحياة عمى أمام أبهج الجمال ، صم أمام أجمل النغمات هؤلاء هم الجهلاء وصغار العلماء فى الأمم كلها مسلمين وغير مسلمين . نبحث إذن عن سر هذه الآية من باب آخر عسى أن نجد مخرجا ونعرف بعض سرها ، وههنا أذكرك أيها الذكى بما مر فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» فانظر هناك عجائب اختلاف الألوان وأنها موضوعة لحكمة والذى عرف الحكمة هم علماء خلقهم الله فى أرضنا صرفوا أعمارهم فى بحث هذه الألوان هل هى مخلوقة لمجرد المصادفة العمياء أم هى موضوعة لغايات محققة ؟ فهناك ترى :

(١) الحيوان الذى رآه بعض العلماء الغربيين فى حديقته لما أخذ يسقطه بالمرآة فى جرة مملوءة ماء وملحا

وأخذت تلك الحشرات تتساقط وتتقبض وتتقلص بشكل بيضاوي وتصبح أشبه بالحصوات المبتلة وكلما تقلصت واحدة منها صارت في أقرب من لمح البصر كحصاة سوداء من الصوان منشقة تصفين صفراء من الداخل كالحصوات هناك فصار هذا العالم لا يفرق بين الحصوات في حديقته وبين تلك الحشرات إلا بشق الأنفس بحيث يحتاج إلى أن يجربها بطريقة اللمس ، أما حاسة النظر فانها لا تميز وإنما اللمس بالمبراة هو الذي كان الطريق الموصل لتمييز الحشرات من الحصوات فأخذ يبحث فما كان ليعثر في تلك الحصوات إلا على القليل من تلك الحشرات فهنالك وثق ذلك العالم بأن هذه الألوان مقصودة لإضلال الطيور الآكلة لهذه الحشرات لأنها إذا قدرت أن تغشه هو فهي على غش الطيور الآكلات لها أقدر .

(٢) ثم انظر هناك (حشرة العصا) فهي بتشبهها بالعصا أمنت من الخطر .

(٣) وهكذا (السوس) الذي أعطى قوة الانكماش عند مسه فلا يفرق الانسان بينه وبين كتل الطين والحجارة في الأرض .

(٤) وهكذا الخنافس التي تشبه حب نبات خاص .

(٥) وهكذا الفراش الذي يقع على الشجر وقد نشر جناحيه الأسمرين الكبيرين اللذين يشبهان الورق الجاف في شكله ولونه (انظر شكل ١٣) من صور المجلد الحادي عشر .

(٦) وهكذا تلك الحشرة التي تقبض أجنحتها حينما تقع على الشجرة فترى كأنها هي نفسها قطعة من عصا مكسورة وفي نهاية الجناحين رقعة صفراء مشابهة لطرف عصا مكسورة حديثا (انظر شكل ١٤) من صور المجلد المذكور .

(٧) وهكذا ترى في (شكل ١٥) من تلك الأشكال هناك في نفس السورة صورة دود الفراش الذي خلق مزوقا بتزويق غير جميل وهو ظاهر ممتاز تتبينه الطيور الآكلة للدود ولكنها لا تأكله ؛ ذلك لأن الذي معنها عن أكله إنما هو كراهة طعمه فهو لما كان طعمه مكروها حفظ من الهلاك واستبان وظهر بهيئته لأعداء الدود وما حفظه إلا علمها بأن طعمه غير مقبول فلو كان طعمه غير كريه لاقتضت الحكمة أن يحفظ بحافظ آخر وهكذا من الأمثلة المذكورة هناك التي بلغت (٣٠) عددا وآخرها صورة حشرة أبي دقيق التي تقع على شجرة البقدونس (انظر شكل ١٦) هناك فانك لا تجد فرقا بين ظواهر شجر البقدونس وبين تلك الحشرات هذا ما تقدم هناك فاقرأه لتفهم قوله تعالى «وما كنا عن الخلق غافلين» وتفهم ماهنا وهو قوله «إن في ذلك لآيات للعالمين» بكسر اللام ومن هذا يستبين لك أيها الذكي أن هذه الآيات لا يعقلها ولا يتأثر بها بحيث تصبح يقينا عنده إلا العلماء الدارسون لها أما غيرهم فـ لا يكون دليلا عنده لأنه لم يدرس الحقائق ولا تظن أيها الذكي أني أفف بك عندما كتبته هناك منقولا عن الكتب الإنجليزية . كلا . وإنما ذكرت ماتقدم لأجعله كالمقدمة لما ستراه هنا من العجب العجاب والسحر الحلال والجمال والنور والعرفان والبهجة .

وستشعر بعدما أسمعك ما أكتبه الآن بأن العلم لاحد له وأن هذه العجائب هي مقصود القرآن الشريف وستعجب من القرآن وكيف يذكر الله فيه العلماء ويخصهم بمعرفة الآيات في الألوان ثم لا يظهر ذلك إلا في زماننا هذا وستبتهج كما ابتهجت أنا وينشرح صدرك بالعلم والمعرفة التي لا لذة تفوقها في هذه الحياة . إن كل مخلوق لا كمال له إلا فيما هو خاص به وكمال الفرس في الجري والكر والفر وكمال السيف أن يكون مرهفا فان نزلا عن مستواهما استعمل الأول استعمال الأتان في حمل الأثقال واستعمل الثاني استعمال السكين ، هكذا الإنسان لا كمال له إلا بالعلم وفيه لذته الخاصة به ، ومتى علم أدرك جمال نفسه وهناك يرى قبل الموت أنه هو عالم جميل مشرق وأن هذه الدنيا نفسها ليست هي تلك الدار المملوءة بالأكدار والأحزان بل يرى الحكمة متجلية

فى الجليل منها والحقير وتتوارى أمامه أنواع النحوس ويشرق هذا الكون له وتبسم له الكواكب والشمس والقمر ، وهناك يرى فى كل ورقة وزهرة وحشرة جمالا ونورا ويصبح هذا الوجود فى نظره جنة عرفان ونور وبهاء ، إذ تحس نفسه بجمال يجهله الناس حوله وهم غافلون وهذا قوله تعالى « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

وهاهنا حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يسألنى فى أمثال هذا المقام فقال . ماذا أعددت لهذا المقام غير ماتقدم فى (سورة المؤمنين) ولم أجد لك إلا مقالا أشبه بالغزل وإظهار السرور بالعلم فما الذى عندك فوق ما تقدم هناك ! لقد ازداد شتياقى لسماعه وهل فيه صور أجمل وأبهى مما تقدم ؟ فقلت إى وربى إنه لحق . فقال

أسرع برد جواب ما أنا باحث عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت لقد علمت فيما تقدم أن الحيوانات حفظت من الهلاك بمشابهتها لما حولها من ورق وزهر قال نعم ؛ قلت فهاهنا سترى أعجب وأبدع ماعرفه العقلاء فى حسن تخلص الحيوان من الهلاك بنفس الألوان ، فهاهنا تقرأ كلام العلامة (الفرد رسل ولاس) فى مقاله المذكور فى المجلد الثانى فى كتاب [علوم للجميع] .

فقد أخذ يبحث فى حيوانات الأقطار الاستوائية فدله اختباره أن فى ألوان الحيوان عجبا لم يكن ليخطر ببال العقلاء . ذلك أن منها ماله صفة تلازمه وبها تتحاماه المهلكات وتتخطاه الردى ويعيش قرير العين فى الغابات وفى نفس الأمكنة التى يعيش فيها ذلك الحيوان يعيش معه حيوان آخر لايتصف بصفته التى بها تهابه الحيوانات الآكلة ولكنه يكون محفوظا من الهلاك مثله لأنه يخلق مشاكلا له فى ظواهر الشكل واللون وبهذا يحصل اقتصاد فى هذه المخلوقات وهذه تسمى [الحماية بالتقليد] .

فقال ظهر من هذا القول أن الحيوان من حيث التقليد على (قسمين) : حيوان له سلاح يحميه . وحيوان آخر لا سلاح له يعيش معه ولكنه يشبهه فى اللون أو غيره ويحمى من الهلاك بهذه المشابهة . فقلت نعم هذا ملخصه . فقال نريد أن نعرف نوع الحيوان الذى له سلاح والحيوان الذى حمى بمشابهته له . فقلت الحيوان الذى يحفظ من الهلاك بسلاحه وغيره يحفظ بسبب مشابهة له فى الصورة أهمه حشرة (أبى دقيق) وقد يكون ذلك فى (الخنافس) وحشرات أخرى وفى الزواحف والطيور . فلنبدأ بالكلام على حشرة (أبى دقيق) .

﴿ حشرة أبى دقيق ﴾

يقول الكاتب : إن فى غابات خط الاستواء كثيرا من حشرة (أبى دقيق) وهى مختلفات أشد الاختلاف فى الحجم والصورة واللون وفى طريق الطيران . فبعضها يطير بسرعة مدهشة وبعضها يطير على طريق التمعج والتلوى ، إذ يرسم فى طيرانه فى الهواء خطوطا متكسرة وكثير منها قد ظهر بألوان بهجة بديعة تسر الناظرين وجمهور كبير منها يكون دائما قريبا من الأرض ولايعلو فى الجو وهو بطىء الطيران ومنها أنواع مزينة بزينة الألوان البديعة فى غير ظاهرها وقد لون ظاهرها بلون الرخام الأسود بحيث لايميزها من رآها لو وقعت على ورقة أو غصن من أغصان الأشجار ، ثم خص أنواعا ثلاثا بالذكر من حشرة أبى دقيق وهى : (دانيدا) و (هيليكونيدا) و (اكريدا) ولنرمز لهذه الثلاثة بهذه الحروف (د) و (ه) و (ك) فهذه الأنواع المسماة بهذه الأسماء تطير فى مكان فتظهر أنواعها وأصنافها لاتخفى وهى ظاهرة الجمال واضحة فلا لونها خفى لتحفظ من الهلاك ولاطيرانها سريع حتى ينجيها من الخطر ؛ بل جمالها الباهر ولونها ظاهر يصحبهما الكسل فى الطيران وعدم الارتفاع إلى الجو وعدم السرعة ولم يظهر لها أى صفة من الصفات التى تخفى به الحيوانات عن العيون وألوان أجنحتها السفلى مشابهة تمام المشابهة لألوان أجنحتها العليا ، وبالجملة لم يظهر فيها أى دليل يدل على قصد الاختفاء وهذه الأنواع الثلاثة كأن بينها تحالفا عجيبا أو كأنها أصناف لنوع واحد من حيث الصفات وأهم صفاتها التى سقنا

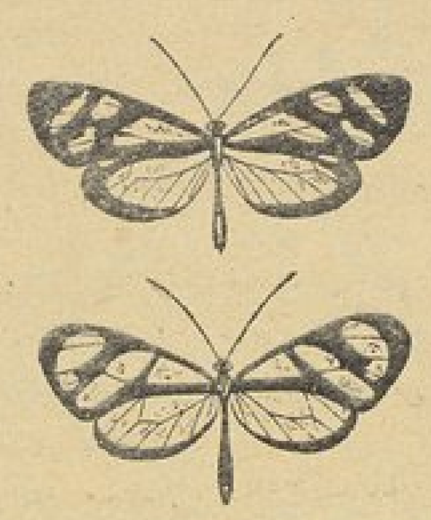
الكلام لأجله هى رائحتها التى تسلطها على أعدائها ، فهذه الرائحة مطردة فى هذه الأصناف الثلاثة ومتى وقع واحد منها بين أصابع صائده يلقى عليه حالا سائلا أصفر قذرا له ريح كريهة حادة حريفة فتلوث جلد صائده بأقبح المستقذرات ، وهذه الحال قد علمت فيما عاش منها فى جنوب أمريكا وهو الذى رمزنا له بحرف (هـ) وفيما عاش منها فى أفريقيا وهو المرموز له بحرف (ك) وفيما عاش منها فى قارة آسيا واستراليا وهو المرموز له بحرف (د) فيما تقدم .

فهذه الأنواع الثلاثة فى هذه القارات الأمريكية والافريقية والأسيوية والاسترالية كلها ذات صفة واحدة فلذلك سميناها متحالفة ، فهذا السائل الأصفر الحريف الحاد كريه ومؤذ للطيور ولكل حيوان يصيد الحشرات وعلى ذلك تكون هذه الأنواع الثلاثة من حشرة (أبى دقيق) فى مأمن من هجوم المهلكات عليها بخلاف غيرها من سائر أصناف حشرة (أبى دقيق) الأخرى .

ومن العجيب أن هذا السائل الحريف الكريه الرائحة لا يختص بالحشرة التامة بل يكون فى دودها الصغير فلا يقربه قانص كما لا يقربها . إذن هذه الأنواع الثلاثة فى أمان وقد أصبحت معلومة لكل ماحولها من الحيوان فأمنت الهاجمة وظهر لها علم يراه من بعيد مايريد مهاجمتها فلا يقدم عليها وذلك العلم هو صورتها الظاهرة ولونها البهج ونوع طيرانها الذى يدل على عدم الاكتراث عما حولها ولذلك تزدحم بها الغابات ويقل من حشرات أبى دقيق الأخرى .

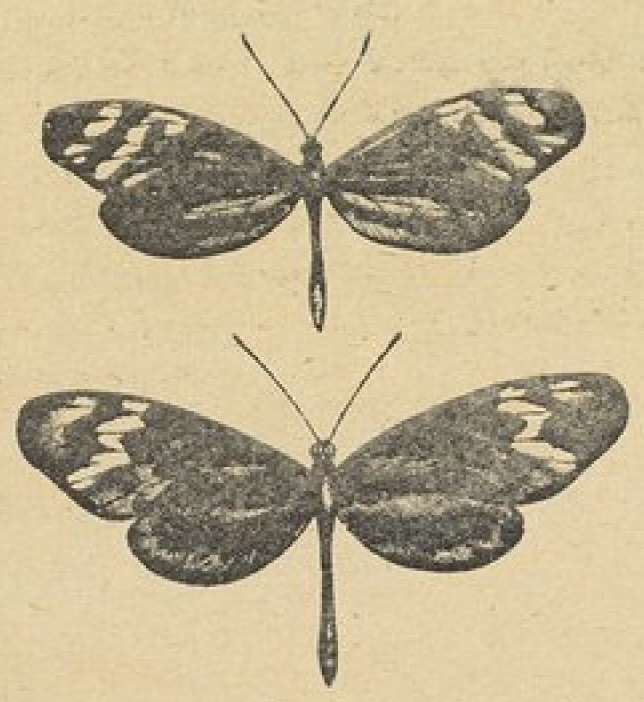
ثم إن النوع المعنون له بحرف (هـ) فى جنوب أمريكا والمعنون له بحرف (د) فى جزائر الملايو تراه فى كل مكان هناك ويندر سواه من حشرات (أبى دقيق) وفى بعض الجهات لا يكون سواه ، ومن أعجب العجب أن هذه الأنواع فى تلك القارات لما أصبحت حشرة طليقة تملأ الأمكنة لا يخلو منها مكان اتخذت العناية الإلهية تلك الأسلحة التى تستعملها تلك ذريعة لحفظ حشرات من أنواع أخرى من (أبى دقيق) بأن تجعلها على هيئتها فتتحاماها المهلكات وتتوارى عنها المزعجات وتخافها الهاجمات .

قد قلنا فيما تقدم إن (هـ) تكثر فى قارة أمريكا وقد كان الذى علم من أصنافها سنة ١٨٧١ م (٤٠٠) صنف وبعدها بسنين بلغ ماعرف منها (٥٠٠) وهذا كما قلنا آمنة من المهاجم فكثرت جدا وهى مختلفات فى اللون ، فمنها الأسود ، ومنها الأزرق ، ومنها المحلى بالصفرة والبياض ، ومنها مازوق بحمرة وصفرة ، ومنها ماهو أحمر منقط بالصفرة وهكذا من بدائع الألوان ، ولكن الأمر الذى يدهش اللب أن يرى العلماء أن صنفا من حشرة أبى دقيق يسمى (ليبتليز) ونرمز له (ل) يرى فى مظهره أشبه بما رمزنا له بحرف (هـ) ولا يشابه من هذا الصنف إلا ما كان معه فى مكان واحد بحيث يتشابهان وهما طائران تشابها تاما وذلك عند نهر (تباجوس) (انظر شكل ١) فى الصحيفة التالية .



(شكل ١ حشرة أبي دقيق المسماة «ليبتليز» التي عند (نهر تباجوس) الأعلى هو الوزير
لا سلاح له ، والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

وهذه بخلاف الحشرة المرموز لها بحرف (ل) التي عند أعلى (وادي الأمزون) فان الحشرة (هـ) ذات الخطوط والنقط الحمر البرتقالية قد اتصفت بنفس وصفها الحشرة التابعة لها المرموز لها بحرف (ل) وفي أعلى الأمزون نرى الحشرة المرموز لها بحرف (هـ) التي تحمل السائل الأصفر ذات لون أسود بسمرة مع خطوط صفر تبعها نوع من الحشرة المرموز لها بحرف (ل) الخالية من تلك المادة وقد تشابها في الحجم واللون والخطوط (انظر شكل ٢) .



(شكل ٢ – حشرة أبي دقيق التي تعيش في أعلى (الأمزون) لا سلاح له والأعلى هو الوزير
والأسفل هو الأمير ذو سلاح)

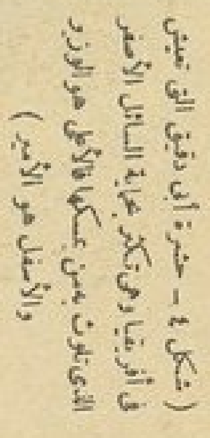
فهذان الشكلان الطائر الأسفل فى كل منهما نلقبه باسم المتبوع أو الأمير أو الأعلى منهما نلقبه باسم التابع أو الوزير ، فالأول يملك السلاح فى كل منهما والثانى لا يملك ولكن بالمشابهة حفظ من الهلاك، ثم إن الحشرة المرموز لها بحرف (هـ) وهو المتبوع أو الملك الكبير الحجم الملون بالسواد والصفرة مع بهجة الجمال فى المظهر يصحبه فى الهيئة المذكورة واللون الحشرة المرموز لها بحرف (ل) أيضا وفى كل من القاميين يتبع الوزير أميره فى مظاهره بلا فرق (أنظر شكل ٣) .

هذا ماعلم فى بلاد أمريكا ، أما بلاد أفريقيا فان فيها النوع المرموز له بحرف (ك) فيما تقدم بكثرة أصنافا وأفرادا والنوع الآخر أفرادا ولكن أصنافه قليلة . فهذا النوع قام فى أفريقيا مقام المرموز له بحرف (هـ) فى جنوب أمريكا ، فمتى وضعت أحد أفراد هذا النوع بين أصابعك سلح تلك المادة الصفراء الحادة الحريفة المنتنة فلوث الجلد فترميه حالا من يدك وعلى ذلك يكثر فى تلك الأقطار وله تابع أو وزير كالذى حصل فى المرموز له بحرف (هـ) فى أمريكا وهذه صورته (شكل ٤) :



(شكل ٣ – حشرة أبى دقيق فى بلاد أمريكا أيضا الأمير أسفل والوزير أعلى)





(شكل ٤ – حشرة أبى دقيق التى تعيش فى أفريقيا وهى تكثر غربة الساحل الأعظم الذى تكون بين شكليها الأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير)

فالأول من أسفل هو الأمير والثانى من أعلى هو الوزير أو هما التبوع ، والتابع والمتبوع هنا هو المرموز له بحرف (ك) كما تقدم وهذا النوع يعيش فى شرق أفريقيا . وأعجب ماعلم فى أفريقيا حشرة تسمى (بلبو) إذا قلدت الحشرة المسماة (دانز) (أنظر شكل ٥) :



(شكل ٥ – حشرة (بلبو) التى قلدت الحشرة (دانز) بقارة أفريقيا)

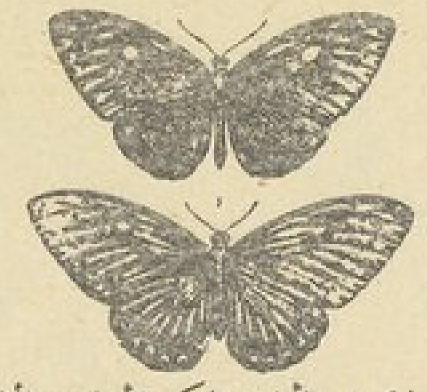
فترى الجناحين مستطيلين مسودين فيهما نقط كثيرة إما زبقية وإما بيضاء فى مقدم الجناحين ، أما مؤخرهما فقد زين بنطاقين عرضين زبقيين . وترى فى جنوب أفريقيا نوعا آخر شديد السواد يعيش فى أماكن مختلفة هناك (انظر شكل ٦) .



(شكل ٦ – حشرة أبى دقيق شديدة السواد بأفريقيا)

وهذا أكبر شكلا وأبهى وأبهر وأشد سوادا محلى بقعتين كبيرتين جدا شديدتى البياض تشغلان أكثر من نصف الجناحين والأعلى هو الأمير أو المتبوع والأسفل هو التابع الذى لا يكلف حمل السلاح والأمير يملك تلك المادة الصفراء القذرة الرائحة الخ وهنا أمر أعجب وذلك أنك سترى فى الشكل السابع والشكل الثامن أمرا عجبا ، فأما الشكل السابع فان الأعلى منه الذكر والأسفل هو الأنثى من الحشرة المسماة بابليو (انظر شكل ٧) :

ومتى تأملت شكل الذكر وشكل الأنثى وجدت فى مقدم جناحى الذكر بهجة اللون الأزرق اللامع المعدنى المحلى بالنقط البيض الضاربة للزرقة . أما مؤخر جناحيه فانهما سوداوان يضربان إلى السمرة أما الأنثى فانها تخالف الذكر كثيرا فانك ترى مؤخر جناحيها محلى بخطوط بيض ضيقة لامعة من الجسم ويقاطعها صف منظم من النقط البيض اهـ



(شكل ٧ – الأعلى هو الذكر والأسفل هى الأنثى وهما فى صناتهما عجيبان بمشابهتهما الذكر والأنثى فى (شكل ٨) الأعلى هو الذكر والأسفل هى الأنثى يعيشان فى ملقا وفى بورنيو)

هذا وصف الذكر والأنثى فى هذا الشكل اللذين عريا من السلاح الذى يطردان به مايريد إهلاكهما وقد أشبها فى ذلك ماله سلاح يطرد به الأعداء، وذلك هو السائل الحاد الأصفر ذو الرائحة الكريهة كما تقدم وهو مافى هذا الشكل الثامن (انظر شكل ٨) .

فهذا ذكر وأنثى فى الشكل الثامن منحا هذا السائل القذر فأخافا كل حيوان يريد بهما سوءا فأعطى الذكر والأنثى فى الشكل السابع كل الصفات الظاهرة فى الذكر وفى الأنثى هنا حتى يكون ذلك سببا فى بقائهما تبعا لماله سلاح وهذا عجب عجاب أن يكون شأن الألوان والأشكال محكما بهذه العناية البديعة العجيبة .

الذكر والأنثى فى الشكل السابع لا قوة لهما على دفع الأعداء أو الحرب فلذلك أعطيا معا هذه المشابهة القوية ليفرا من الهلاك . كل ذلك كنت أكتبه وصاحبى العالم ينظر



(شكل ٨)

إليه ؟ فما قرأ هذا قال أتقول بلا دليل ، أفرأيت إذا كان فى المخلوقات ذكر ذو قوة وبطش وله قدرة على الهرب ولكن أنثاه ضعيفة لاقدرة لها على الهرب من الأعداء فهل كانت هذه المشابهة تختص بها دون الذكر ؟ إذا رأينا ذلك أيقنا أن العناية التى نظمت هذه الأجسام ترعى دقائق الأمور كما ترعى جلائلها ويتساوى عندها العظيم والحقير . نعم إن فى مشابهة الزوجين فى الشكل السابع للزوجين فى الشكل الثامن دليلا ظاهراً وبها عاشا قريرى العين كثيرى النسل سعيدين فى (بورنيو) و (ملقا) وغيرهما ولكن مخالفة هذه القاعدة فى المشابهة وقصرها على مايحتاج إليها يكون أوفى وأتم وإذ ذاك نعرف معنى كون هذه العجائب آيات للعلماء بها لمعرفة الصانع وبدائع حكمته . فقلت له قد كان ماقلته حاصلا . قال وكيف ذلك . قلت (انظر الشكل التاسع) :

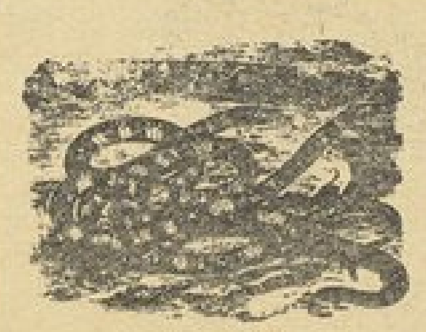


(شكل ٩ ــ الأعلى هو الذكر والأوسط هى الأنثى وتحت الأنثى (حشرة دانيز) وهى ذات السلاح وبمشابهة الوسطى لها صارت محمية من الفتك بها)

فانظر إلى صورة الذكر فهى سوداء محلاة بأربع بقع بيضاوية الشكل بيضاء واضحة محلاة حاشيتها بزرقة زجاجية تسر الناظرين ، أما الأنثى فهى مخالفة له من حيث إنها ملونة بالحمرة البرتقالية المحلاة فى حواشيها بالسواد والبياض وبحزام أبيض يعترض القمة السوداء من داخل الجناح ، فهذه الأنثى خالفت الذكر من نوعها

ووافقت فى لونها حشرة أخرى من غير صنفها والسبب فى ذلك أن الذكر سريع الطيران وهو دائما يعلو فى الهواء مرتفعا. أما الأنثى فانها بطيئة الطيران، بل هى فى أكثر الأوقات لاتبرح مكانها من الأرض إلى الهواء. ولما كانت هذه الأصناف تعيش فى الأرض العراء بعيدا عن الغابات وكانت الأنثى منها لابد لها من أن تضع بيضها على ورق الأشجار كان ذلك مع تقدم معرضها للخطر . لذلك اقتضت الحكمة أن تلون الأنثى بلون الحشرة الثالثة التى أعطيت السلاح المخيف فصار ذلك السلاح حماية لحامله وهيبة لما يشاكله « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

قال صديق العالم : إن هذا العجب عجاب : لقد أقنعنى هذا البيان وأنا به من المعجبين . وبهذا انتهى الكلام على حشرة أبى دقيق ، فلنشرع فى الكلام على الزواحف فنقول (انظر شكل ١٠) :



(شكل ١٠ ــ هذان ثعبانان من ثعابين بلاد أمريكا والمرموز له برقم (١) هو السام والمرموز له برقم (٢) هو الذى لاسم له وقد نجا من الهلاك بالمشابهة)

فهذا الشكل يحوى (ثعبانين) أحدهما وهو المرموز له بعدد (١) ثعبان من ثعابين بلاد أمريكا السامة والثانى هو (٢) مقلده ولاسم له فنجا بالمشابهة وهذه الثعابين رءوسها بيضاوية الشكل أهليلجية وأجسامها محلاة بخواتم أو حلقات تحيط بها من رأسها إلى ذيلها . وهذه الحلقات منها السود ومنها الحمر أو الصفر وبها يكون الثعبان بديعا بهجا ويمتاز عن غيره من الثعابين وهذا أشبه بعلم يحمله الثعبان منذرا كل حيوان يهاجمه أن ارجع فانى أنا صاحب السم وإذن تكون تلك الزينة حافظة لنفس هذا الثعبان ولما يريد قصده بسوء، ويتبع ذلك أن مقلده فى ذلك وهو الثعبان رقم (٢) صار حكمه كحكمه فلا يهاجمه مهاجم وهو يأمن الهلاك . فنمرة (١) هو الملك ونمرة (٢) هو الوزير وهذا الثعبان الذى سميناه وزيرا لا سم له فى فمه، فأما نمرة واحد فهو صاحب السم القاتل لحفظه من الهلاك وحفظه مشابهة فى تلك الهيئة العجيبة «فتبارك الله أحسن الخالقين» .

يقول الكاتب الإنجليزى . وكما أن حشرة (أبى دقيق) التى خلت من سلاح المقاومة وهو السائل القذر ذو الرائحة الحادة بمشابهتها فى شكلها لما أعطى هذا السلاح نجت، هكذا نجا هذا الثعبان الذى لاسم له بمشابهته الثعبان الذى عرف بأنه سام . إن فى (أمريكا) نوعين أو ثلاثة أنواع من الثعابين التى لا سم لهـا وقد نجت بمشابهتها بماله سم منها وتلك المشابهة لها طرق مختلفة وقد عرف منها نحو ثمانية أنواع بها تقلد اللاتى خلت من السم الثعبان الذى له سم .

وهذا الذى فى (شكل ١٠) المتقدم نوع منها ، فالثعبان نمرة (١) يعيش فى بلاد المكسيك محلى بمناطق عريضة سود فوق لون الحمرة وكل منطقة منها مقسمة إلى ثلاثة أقسام بخواتم صفر ضيقة وهذه الأوصاف كلها قد تحلى بها الثعبان الذى لا سم له نمرة (٢) .

ثم قال [نحن ليس فى قدرتنا أن نورد ماهو أكثر غرابة وعجبا « من حيث الألوان المنذرة للأعداء بظهورها ودلالتها على الخطر الذى يجانبها وحمايتها مايقلدها مما لاسلاح له » من الذى أوردناه من الكلام على الثعابين الأمريكية فى هذا المقام] وبهذا انتهى الكلام على الزواحف وتقليدها إتقاء الخطر .

﴿ الكلام على الطيور المقلدات لتتقى الخطر وهى خاتمة الأقسام ﴾

(انظر شكل ١١) فالطير الأعلى على صورة الطير الأسفل وهذا الأخير ويسمى (فيليدن) عادة له جماعة كثيرة العدد قوية البأس فإذا اعتدى على واحد منها معتد اجتمعت تلك الجموع العظيمة وأوردته المهالك ولو كان المهاجم هو الصقر فما بالك بالغراب (انظر شكل ١١) .

هذا ما أردت تلخيصه من كتاب (علوم الجميع) المؤلف باللغة الإنجليزية فى تفسير قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام .



(شكل ١١ – الطير الأعلى هو الوزير والأسفل هو الأمير ، الذى سلاحه أن له جماعة عظيمة تفتك بمن يقصده بأذى فحفظ الأعلى بمشاكلته)

ها هو ذا أيها المسلمون هو السر الذى ظهر اليوم فى الأرض ، وعرفه الناس فى اختلاف الألوان .

﴿ خطاب المسلمين ﴾

أيها المسلمون . هذه الطيور وهذه الزواحف وهذه الحشرات التى رأيتم الأعاجيب فيها قد نقشها الله وزوقها تزويقا يظنه الجاهل لمجرد الزخرف والزينة ولكن العلماء هم الذين بحثوا حتى عرفوا أن الأنواع الثلاثة الممتازة من حشرة (أبى دقيق) قد وهب الله لها هذا السائل القذر الكريه الرائحة لتعمر الغابات فى أفريقيا وآسيا واستراليا وأمريكا ، وقال لها تمتعى برياضى وارتعى فى جنانى أيتها المخلوقات . ثم خلق أصنافا أخرى وجعلها فى كنفها وتحت حمايتها ، ولكنها هى لاتعلم أنها حامية ولا الأخرى تعلم أنها تحت حمايتها . ههنا يعرف العقلاء تخصيص الذكر بالعلماء .

هنالك قال لى صديق العالم : ههنا حق لى أن أناقشك ، أولا : كيف ضاقت الأرض بما رحبت فلم تجد فى تفسير الآية إلا كلام الفرنجة ؟ ، ثانيا : ما الفارق بين عجائب الألوان فى (سورة المؤمنين) عند آية «وما كنا عن الخلق غافلين» وبين عجائبها هنا ؟ ، ثالثا : ما الفوائد العلمية المترتبة على فهم هذه العجائب؟ ، رابعا : ما الفوائد العملية للمسلمين ؟ .

فقلت له : هذه الأسئلة التى أوردتها يظهر لى أنك أردت بذلك إيضاح المقام لأهل العلم فى الإسلام وإلا فما معنى قولك فى السؤال الأول « كيف ضاقت الأرض بما رحبت الخ » إنى موقن أنك عالم أن العلم أمر مشاع بين الأمم ، فالله الذى عمهم بالماء والهواء وضوء الشمس والغذاء، ورحمهم جميعاً هو الذى علم من يشاء العلم منهم ولم يقل أحد من علماء الإسلام أن العلماء مختصون بالمسلمين ، وأنت تعلم أن المسلم أبيحت له الغنائم من مال ومن نساء وغيرهما ، ولا جرم أن مال الكتابى حلال إذا جاءنا فى الغنائم ، ومثل المال التمتع بملك اليمين من هذه الطائفة لاخلاف بين المسلمين فى ذلك. فقال هذا حق. فقلت : فهل يبيح الله لنا الأموال والأعراض فى الغنائم من القوم ويحرم علينا العلم ، العلم علو للنفس وشرف لها ، والمال واللذات من مال إليها وفتنته

ذل وهلاك ، والقرآن كله يذم ذلك ، أما العلم فهو مرغوب ممدوح ، فكيف نستبيح المال ونحرم العلم والنبي صلى الله عليه وسلم حذرنا من الفتنة والوقوع في المهالك من أجل الغنائم والافتتان بها كما تقدم في سور كثيرة فاقرأه في (سورة النحل) عند آية « إن الملوك » الخ ونحوها . إن هذه العلوم قد استثارها آباؤنا في القرون الأولى ومنهم أخذ أهل أوروبا ، فإذا رأينا القوم قد كسوا تلك الأمانة بحلل ، جميلة وأمكننا أن نرجعها جازلنا ذلك بل وجب علينا ونقول هذه بضاعتنا ردت إلينا ـ ها نحن أولاء في القرن العشرين نظرنا فوجدنا أممنا الإسلامية في مجموعها قد انحرفت مئات السنين ونامت ، أفلا يجب على أنا وعلى جميع من هم مغرمون بأمثال ما نكتب الآن أن يبينوا للناس مزايا ديننا ؟ ؛ فقال لي : أهذا واجب عليك وجوبا عينيا ؟ فقلت نعم . قال وما البرهان له ؟ قلت إن هذه العلوم كلها واجبة وجوبا كفائيا والأمة إذا لم يكن فيها أناس يكفونها ما تحتاج اليه وجب عليها أن تربي من تحتاج اليه بمقدار ما تحتاجه ، ومتى قصرت نزل بها الذل والهوان ، وهذا هو الحاصل الآن ، فالذل يحيق بالأمم التي أهملت أي علم أو أي صناعة تحتاج إليها ، والمسلمون حاق بهم الهوان لإهمالهم ذلك . ولقد قال علماؤنا « من وجد في نفسه استعدادا لعلم كعلم الفقه وجب عليه أن يتقنه » يريدون وجوبا عينيا ، فالعينية هنا جاءت من الاستعداد ، فكل من عرفوا ما أكتبه في هذا التفسير ، وكانوا قادرين على أي علم أو أي صناعة ثم ناموا عن ذلك عوقبوا لأنهم يعلمون . فقال : إذن صار ذلك كالحج فقلت : كلا . الحج واجب عيني على كل من استطاع اليه سبيلا ، أما هذه العلوم والصناعات فالأمة مكلفة أن تعين جماعة تراهم أهلا لها وإلا عوقبت الأمة كلها ، ولذلك قال إمام الحرمين كما قلناه مرارا ﴿إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين لعموم نفعه إذا كان وعموم ضرره إذا لم يكن﴾ وعلى ذلك يجب على المسلمين أن يقرؤا علوم الأمم كلها . إن الله عز وجل قد أحاط المسلمين بالمنذرات من جهة ، وبالعلوم من جهة أخرى وسهل لهم سبلها فإذا أعرضوا عنها فهم غير شاكرين وهذا هو كفر النعمة وكافر النعمة ممقوت . إن الله فتح أبواب العلم للمسلمين اليوم فليلجوها . وأما قولك « ما الفارق بين عجائب الألوان في سورة المؤمنين وبين عجائبها هنا ؟ » فأقول العجائب هناك قد أشرت لها في أول هذا المقال ترجع إلى أن الحيوان يشاكل ما حوله من شجرة أو ورقة أو زهرة أو يكون كعصا مكسورة ، فالحيوان بهذه المشاكلة يغش ما يفترسه فيعيش بهذا الإبهام ، أما الذي هنا فإن الحيوان يشاكل حيوانا آخر لا نباتا ولا ورقاً ، هذا هو الفرق بينهما وكلاهما إبداع في التصوير ، وإغراب في الإبداع ، وإحسان في النقش ، وتفنن في ضروب الجمال والسحر الحلال « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

أما السؤال الثالث وهو « ما الفوائد العلمية المترتبة على ذلك ؟ » فهذه الفوائد غير خافية عليك ، فانظر رعاك الله إلى علم لم يكن عند الأمم فأصبحنا ندرس علم التوحيد دراسة لم يحلم بها السابقون ، الله أكبر . هل يبقى عند أحد شك في أحسن الإبداع والنظام فما هذا التفنن والتصنيف والإغراب في الخلق وضروب الحكم . هل بقي بعد هذا زيادة لمستزيد ؟ ألم تر نقوشا سودا وحمرا وصفرا في الثعبان ، وقد شاكل الأعزل من السلاح صاحب السلاح فنجا من الهلاك ، ألم تر الطير الذي لا أقارب له تساعده على القتال قد لون بلون ماله أولئك الأقارب فنجا بنفس هذه المشاكلة ، ثم كيف تلون الأنثى من حشرة (أبي دقيق) بتلك الألوان البديعة التي تشبه أثواب أغنى الغانيات في بلادنا المصرية من حيث التطريز والإتقان ؟ أما ذكرها فلا لأن هذا اللون وضع لها ليحفظها بمشاكلتها لما له سلاح وهو السائل الكريه الرائحة ، ثم كيف رأينا الذكر والأنثى اللذين لا قوة لهما على قهر عدوهما من تلك الحشرات قد شابها الذكر والأنثى مما له سلاح وقد حفظا بتلك المشابهة ، وهل يعرف المسلمون معنى قوله تعالى « أفمن يعلم أن ما أنزل إليك

من

من ربك الحق كمن هو أعمى » إلا بأمثال هـذا ، لم يقل الله أفمن يؤمن بل قال « أفمن يعلم » أليس هذا هو العلم ؟ نعم العلم أفضل من الإيمان وأعلى ، يقول الله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم والإيمان » الخ، وقال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » وهذا هو الزمان الذى يتحتم فيه العلم .

إن المسلمين الذين يكتفون بالإيمان مغرورون ، أليس هذا هو العلم ؟ نعم بمثل هـذا يوقن المسلم إيقانا لا يعتوره شك .

أما قولك « ما الفوائد العملية ؟ » فأقول : إن العلم دائما عد العمل ، والأمة التى لا علم عندها لا عمل لها . اعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأرض من العوالم التى ليست متقدمة ، ومع هذا قد جعل فيها نفوسنا من عالم أعلى فهذه النفوس فى الأرض أشبه بضوء الشمس يختلط بالتراب فهو إذن بين ﴿ عاملين ﴾ عامل الشرف وعامل الخسة ، ولكن لما كان الله حكيما ورحيما كان من الحكمة أن يزعج هذه النفوس بعظائم الأمور وهـذا الإزعاج جاء لها على مقدار نقصها ، والدليل على نقصها إرسالها لهذه الأرض ، فالناس يحسون بالآلام من الحر والبرد والصواعق والزلازل والحشرات الآكلات لزرعنا، والشاربات دماءنا فى فراشنا والأمراض الظاهرة والباطنة . ولما كانت هذه كلها يتلقاها الناس كانوا تارة يحزنون ، وتارة يصبرون وألقى بينهم العداوة والبغضاء، وأثار بعضهم على بعض أمما وأفرادا وأقارب فى النسب وأشباها فى الصناعات والأعمـال والصفات والمساكن . وإنما فعل ذلك لتكون العداوة الموجبة لغليان الدم ، فلا يهدأ لهم بال مع أن المصائب الطبيعية أكثر من هذه ، كل ذلك ليبلو بعضهم ببعض . وهذا الابتلاء ليستخرج قوائم ويستفزهم من الأرض ليعرفوا الحقائق ، ولو كانوا أعلى من ذلك أخلاقا لقل البلاء ولكن البلاء والاختبار عظيم على مقدار نقص هذه النفوس . وإنما جاءت هـذه المزعجات ليرتقوا إلى العالم الأعلى ، فإنهم منه جاءوا وإليه يرجعون .

فلما كانت هذه حال هذا الإنسان خلق فى هذه الأرض التى جعلت الحيوانات فيها على هذا النمط ، فإن أرضنا من طبعها أن ما عليها من الحيوان التى بينها العداوة والبغضاء ، فمنها الآكل ومنها المأكول ، كل ذلك لحكم تقدمت فى هذا التفسير . إذن هذا الإنسان عنصره شريف وقد أثيرت عزائمه بالمزعجات مشاكلة لأنواع الحيوان . وههنا للانسان ﴿ منهجان ﴾ منهج شريف ومنهج خسيس ، فأما النهج الخسيس فهو أن يبقى كالحيوان الذى وجد فى الأرض معه قاتل ومقتول وحاسد ومحسود وهكذا . وهذه المرتبة قال الله له فيها « وخذوا حذركم » ومعنى هذا أن النوع الإنسانى اليوم لا يزال طفلا غرا ، فلن ترى دولة من دول الشرق أو الغرب إلا والنفاق هو المنهج السارى بينهم ، فالوزيران يجلسان معا وتضرب لهما الموسيقى وهناك الجواسيس تبحث عن الحقائق ، فما من أمة إلا ولها جواسيس تتزيا بزى الأمم وتأتى بأخبارها ، فهذه الأمم الآن لم تزد قيد شعرة عن الحيوان فى أخلاقه وعاداته ، فها هى ذه أنواع الطيور والزواحف والحشرات قد رسمت أمامك ورأيت أن الضعيف نجا بسبب مشاكلته القوى، وقد كثر هذا جدا والإنسان لم يزد عن هذه قيد شبر ، فأعظم دولة ترسل من لدنها أناسا مخبرين يتزيون بزى غيرهم ملبسا ولغة وأخلاقا ويتم لهم ما يريدون .

وقد ذكرت فى هذا التفسير ، أن اليابان فى حرب الروس لونوا السفن بلون ماء البحر فلم يهتد إليها الروس فكانوا من الهالكين . إذن الإنسان فى أعلى مراتبه اليوم لم يعمل فى سياسته أكثر مما صنع الزواحف والطيور والحشرات ، فهؤلاء قوم قلدوا الحيوان فيما منح من هذه الصفات المنجية له . أما النهج الأعلى فذلك

أن هذا الإنسان يعلو عن الحيوانية، ويرتقى إلى عادات وأخلاق أرقى فيكون الناس كلهم عاملين فى الأرض مجدين فى منفعة المجموع ، بحيث لا تذر أمة من الأمم فردا من أفرادها بلا عمل ولا أرضا بلا زرع وتصبح الإنسانية أرقى من سابقتها . فقال صاحبي: وهل الله ذكر ذلك فى القرآن ثم إنك تكتب هذا للمسلمين ، وهل للمسلمين فيه دم ذلك ؟ فقلت: إن الله يقول «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس، ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » فالإنسانية كلها اليوم فى الدركات السفلى وكلهم متحاسدون منافقون ، كل دولة تنافق للأخرى وتظهر غير ماتخفى . والله عامل الأمم بهذه المزعجات لعلهم يرجعون عن هذه الأخلاق، أى فى هذه الحياة الدنيا وهذا دليل على أن هذه انسانية لها يوم فى نفس الأرض تكون أرقى منها الآن ويكونون أقرب إلى الإصلاح وذلك هو الزمن الذى ينزل فيه المسيح، وذلك بالصفاء ويزول الدجالون من هذه الدنيا، والدجالون اليوم فى كل الأمم . فقال ولكن يقول الله تعالى « خذوا حذركم » . فقلت: هذا الحذر لا مفر منه فى الأمم الحالية. فقال ولكن المسلمون لا يبالون بأولئك الجواسيس غالبا . فقلت إن الامة الإسلامية التى لا تفقه أحوال الأمم حولها تكون عاصية، فلا بد من معرفتها كل علم وكل صناعة وكل سياسة ولتلبس لكل حال لبوسها. والأمة المسالمة النائمة لابد من هلاكها سريعا، فليشا كلوا الأمم حولهم فى العلوم والسياسات وليبقوا على أخلاق العفة والشرف وحينئذ يرتقون .

فليكن حذرهم فى كل زمان بحسبه ، والجواسيس اليوم يكونون قوما من المتازين فى العلم والأخلاق فهم يحذرون ويكلون النتائج إلى الله بعد أن يحترسوا من كل صغيرة وكبيرة كما تفعل الأمم، وكما هى حال هذه الطيور والحشرات والزواحف فوافق القرآن الطبيعة والشرع الوضع .

فأما ارتقاء الأمم كلها فهذا له يوم معلوم عند الله، فليستعد له المسلمون من الآن والله هو الولى الحميد .

فقال صاحبي: بقى لى سؤال واحد . فقلت ماهو ؟ فقال أراك تستنتج من نفس المناظر الحيوانية والنباتية وتستخرج منها قواعد وعلما وهذا العلم يرجع موافقا للقرآن . فقلت حقا لأن هذه أعمال الله وهذا كلام الله والأمم الإسلامية التى تظن أن فهم ألفاظ القرآن كافية لحياتها تموت بعد قليل ولا تعيش إلا بالعصبية كما قرره ابن خلدون والعصبية تنحل بعد قليل وتذهب . قال نعم . قلت فلابد من قراءة هذا الوجود كله فإن دراسته ترقى العقول وهذه الدراسة نفسها دراسة القرآن ،

إن كل ما تراه إن هو إلا شعائر الله . إن شعائر الله على (قسمين) شعائر للعامة والخاصة وهى كشعائر الحج وشعائر لا يعقلها إلا الخاصة وهى أمثال ماتلوته عليك الآن . أفلست ترى هذه الشعائر العجيبة تسحر العقول وتدهش الألباب وسيكون فى هذه الأمم الإسلامية حكماء عاشقون مربون لها منظمون لشؤنها لما يرون من هذه الشعائر ، فكما أن الأرض كلها مساجد لنا هكذا كل الأرض شعائر لنا ولكن هذه الشعائر لا يعقلها إلا قليل « وقليل من عبادى الشكور » .

وهذه الطائفة هى التى تفهم قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم » إن الأمم اليوم آخذة فى الرقى السريع وقد ركبوا الطيارات وتقاربوا وهم يقولون بالسلام العام فلامناص للمسلمين من الإسراع فى ذلك فإن وحدة الأمم هى التى أشار الله لها هنا فقال « فطرة الله التى فطر الناس عليها » وهذه الفطرة هى التى أذاعها نبينا صلى الله عليه وسلم بأن أمر بلالا أن يؤذن فى الكعبة بين رجالات قريش وهو القائل « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » وهو القائل « اسمعوا وأطيعوا وإن ولى عليكم عبد حبشى » ويقول الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم » الخ فهذا يوم سيأتى وكل آت قريب والفضل فيه للاسلام فليعلم ذلك المسلمون . انتهى مساء الإثنين (٢٤) يونيو سنة ١٩٢٩ .

﴿ بهجة العلم فى حشرة أبى دقيق التى تقدم ذكرها ﴾

اللهم إنك قد أودعت فى عقول الأمم والأفراد بذور العلوم وأبدعت فى استخراجها من الأرض والعوالم حولها ، فها أنا ذا اليوم قصصت قصص حشرة (أبى دقيق) فيما تقدم وأن منها طوائف وطوائف متعاهدات متفقات فى افريقيا وأمريكا وآسيا ، هذه الطوائف تشابهت فى أن لها سلاحاً تحمله وذلك السلاح هو السائل الأصفر القذر للابس وأجسام ما يقصدها بسوء من إنسان وحيوان، وأن هناك أصنافاً من الحشرات تحفظ من الهلاك بسبب المشابهة والمماثلة فى الشكل واللون فتهابها المهاجمات وتخافها وتتحاماها فتكون هى من الباقين المحفوظين من الدمار والموت الزؤام . فهذه قد أذكرتنى بما سمعته فى قريتنا وأنا تلميذ بالجامع الأزهر أيام العطلة الصيفية إذ سمعت الفلاحين يقولون إن فلاناً (من أقاربى) مد يده إلى حشرة (أبى دقيق) فألقت عليه مادة صفراء قذرت يده وثوبه فما أسرع أن أطلقها من يده ففرت فرحة بالنجاة وسعيدة بما لها من السلاح ، فلما أن وفقنى مجيب الدعاء وعرفت هذا أيقنت أن بذور العلم مبثوثة فى العالم كله ، فمن الناس من يجيب داعى الوجدان المنبث فى النفوس من الله ومنهم من يتولى بركنه وهم من الباحثين عن الحقائق ساخرون مستكبرون فهذه الحشرة التى ألقت سائلها الأصفر القذر على ذلك الفلاح فى قريتنا فتحت باباً البحث فى الحشرات ودراستها ولكن لمن فتحته ؟ فتحته فى بلدة لاعلم فيها ولا علماء ، لايأبهون بمثل هذه المفاجآت ولا يشتاقون لبحث مايشاهدون ، ولكن العلم فى الأمم الحية أظهر فى هذه العصور أن هذه الحشرة فرد واحد من طوائف وطوائف فى إفريقيا وأمريكا وغيرها وأنها يعوزها البحث والتنقيب، ولكن الله عز وجل لم يذر الإنسان بلا تذكير فهو قد ذكر أهل بلدتى وغيرهم بهذا فكانوا معرضين لأنهم ليس عندهم لذلك استعداد ، وهكذا ترى الناس يشاهدون شروق الكواكب وغروبها وجمال النجوم فلا يفكرون فيها ، ولكن هناك أناس بحثوا فعرفوا! ويشاهدون أنواع الحيوان فلايفكرون فيها والمفكرون قوم مصطفون ويرى الرجل رؤيا فتقع كما رآها فلا يفكر فى ذلك مع أن هذا مبدأ من مبادئ علم النفس ومفتاح علم بقاء الأرواح ومفتاح معرفة عموم علم الله ولكن لايفطن لهذه المباحث إلا قليل ، فالله جعل بذور العلوم عامة فى جميع الأقطار ، وعند جميع الناس ولا يتفطن لها إلا المفكرون . انتهى والحمد لله رب العالمين .

(درجات العقول وبيان فهمها فى هذه العجائب)

اعلم أيها الذكى أن الله لما أبدع هذا العالم وأبرزه للعقول الإنسانية والغرائز الحيوانية لم يسو بين العقلاء فى درجات الآراء . ذلك لأنه متكبر متعال . إنه تردى بالكبرياء واتزر بالعظمة فليس الجمال البديع معرضاً لكل ناظر ولا مطمعاً لكل باحث، وإذا أردت بياناً لذلك فارجع إلى ما ذكرته لك فى (سورة الفاتحة) من المثل الذى ضربته فترى هناك رجلا وابنه ودابته فى الحقل وكل من الثلاثة له غرض يريده ومقصد يتوخاه فلا مقصد للدابة من الحقل إلا أن تأكل البرسيم ولا غرض للصبى إلا أن ينظر بهجة الزرع وجماله الغض وللفلاح رأى أعلى ثم المهندس فالعالم الطبيعى فالعالم الربانى . هذا المثل قد استوفيت الكلام عليه فى (سورة الفاتحة) . ثم انظر إلى مثل آخر ضربته فى (سورة المؤمنين) عند قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » وهو مثل العميان الست الذين أخذوا يبحثون فى حقيقة الفيل وكل منهم رأى فيه رأياً لايعدو مالمسه بيديه من خرطوم أو ذيل أو ظهر الخ فهذان المثلان فى (سورة الفاتحة) وفى (سورة المؤمنين) يظهران لك أيها الذكى أن هذه الدنيا معرض لكل عقل والعقول مختلفة والصور المعروضات فيها تتجلى لكل عقل بحسب درجته وهيئة

ترينه فكما أن العميان الست في مثال الفيل الذي جاء في كتب الإنجليز عن أهل الهند وذكره الغزالي أيضا من علماء الإسلام حكم كل منهم على الفيل بما أحست به يده، هكذا الكتاب في الشرق والغرب كل يحكم على المحسوسات بما وصل اليه علمه ولا يتعدى طوره، وكما أن السليم البصر إذا رأى الفيل حكم حكما أعلى من حكم هؤلاء العميان وقال إن كل ما قالوه في الفيل حق ولكنها آراء جزئية لا كلية هكذا أولئك الكتاب والمفكرون الذين يقرأ الناس كتبهم في عصرنا الذين أشبهوا هؤلاء العميان الست فوقهم طائفة هم أولو العلم الذين وقفوا على الحقائق وإذا قرءوا كلامهم يعرفون منه درجتهم في العلم ويحكمون عليهم بما كتبوا وكما أن الله عز وجل قال في أهل الجنة والنار « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم » هكذا الناس في الأرض فيهم اليوم طائفة امتازت بسمو العقل وسداد الفكر، فهذه الطائفة اليوم هي التي تعرف « كلا بسيماهم » وهؤلاء أنفسهم يكونون من أصحاب الأعراف يوم القيامة، فأصحاب الأعراف يوم القيامة يكونون في مكان عال مشرق على الطائفتين وهم الآن في الدنيا علوا في منزلة عالية من سمو الفكر وبهذا يميزون الكتاب ويعرفون درجاتهم. هذا ما أردت أن أجعله مقدمة لما ستراه من عجائب الحكمة وبدائع العلم ولتكون أنت من أصحاب الأعراف في هذه الدنيا وتكون موئلا ومرجعا ترجع إليك الأمم الإسلامية في ظلامها الحالك فتهديها إلى سبيل الرشاد.

فهاك ﴿ ثلاث مراتب ﴾ من مراتب الكتاب في عصرنا ﴿ المرتبة الأولى ﴾ اقرأ ما كتبته في (سورة الكهف) عند قوله تعالى ـ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ـ وكيف قال العلامة (وليم) الذي ترجمت آراءه في الألوان « إن دراسة الألوان في الحيوان ليست سهلة الخ » وهناك ظهر العجب العجاب، ثم انظر ما كتبته في (سورة المؤمنين) عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمل الصور والأشكال هناك وكيف استدل أولئك العلماء الغربيون بهذه الصور على أن كل ألوان الحيوان إنما جيء بها لحمايتها وليس ذلك تابعا للوسط، ثم انظر ما كتبته لك هنا وهي الصور المتقدمة مع شرحها وبها عرفنا أن الحيوان قد يشاكل حيوانا آخر أشد بأسا منه فينجو من الهلاك، فإذا رأى أصحاب الأعراف من النوع الإنساني هذه الآراء أيقنوا بأن هذه الحربية من الكتاب طبقة ممتازة لأنهم رجعوا إلى الحكمة العامة في الوجود ودرسوه بعض الدراسة ﴿ المرتبة الثانية ﴾ أن يجعل الكاتب هذه المشاهدات مجرد عجائب وقد غض النظر عن الحكمة العامة وهذه المرتبة تظهر في أمثال ما كتبه صاحب كتاب [عجائب الخلق في الحيوان] وهو المرحوم جورجي زيدان فإنك حين تقرأ ما سأقصه عليك من الكلام على الحشرات الزهرية تجد أنه قد توسط في الأمر فلم يبحث البحث العلمي الذي بحثه علماء الغرب وأن هذه الألوان إنما خلقت لحماية الحيوان ولم يهتد إلى تعليل فهذا يدل على عدم كمال الاطلاع وهذا بيان ما قاله.

﴿ الحشرات الزهرية ﴾

وفق بعض الباحثين في طبائع الحيوان إلى اكتشاف حشرة من قبيل الجنادب اسمها العلمي فاسموماتقس كارولينا تقتات بالذباب ونحوه وتحتال في اقتناص فريستها حيلة غريبة (انظر شكل ١٢) وذلك أن لها يدين مستطيلتين تثنيهما ثني السجود ومنها اسمها عند الإفرنج (الجندب المصلي) وكذلك يسميها أهل الترانسفال ويسميها غيرهم (فرس الشيطان) وهو الاسم اللائق بها إذ ليس فيها من ظواهر الصلاة غير السجود وفيما خلا ذلك فهي دوبية مفترسة وقاهرة على الاحتيال بما يعجز العقل ومدار حياتها اقتدارها

على التظاهر بأى لون أرادته فتقف على الزهرة الحمراء وتتلون بلونها حتى تظنها جزءا منها ، وإذا وقفت على الورق الأخضر تلونت باللون الأخضر ، وإذا كانت الزهرة من عدة ألوان تلونت بها جميعاً (انظر شكل ١٢) .

وقد تقف على الغصن بين الأوراق فتتكيف بما يشبه الزهرة بنتلها وسبلها وأسديتها فتخفى يديها وتدخل رأسها بين الأوراق وتبسط أجنحتها للخارج حتى تشبه الزهرة مشابهة كلية فتخدع الناس فضلا عن الحشرات والذباب فتقع الذبابة عليها أو بجانبها طمعا فى امتصاص الزهرة فتثب هى عليها وتلتقطها بيديها بين ثنيق السجود كما ترى فى الشكل الثالث عشر) .

(شكل : ١٢ صورة الجندب المصلى بشكل زهرة)

ومن غريب طبائع هذه الجنادب أنها تمكث على الأغصان أو بين الأوراق ساعات أو أياما متشكلة بشكل الزهرة لا تبدى حركة تدل على الحياة الحيوانية كأنها تجعل نفسها جزأ من النبات الذى تقف عليه وتتحرك معه بحركة الريح كما تتحرك الزهور ولو كانت فى مكانها بحيث يستحيل على غير المتأمل أن يميزها عن زهور النبات ومنها نباتات عديدة تختلف طبائعها باختلاف الأقاليم أشهرها ما وجدوه أخيرا فى (سنغافوره) و (بورينز) من جزائر المحيط واسمه عندهم دربولانيس وهو الذى نبههم إلى هذه الطبائع فى هذا النوع من الحشرات اهـ



(شكل : ١٣ صورة الجندب المصلى وفريسته فى قبضته)

هذا ما جاء فى كتاب (عجائب الحيوان) وأنت ترى أنه لم يرتق إلى درجة كتاب الأوروبيين الذين بحثوا فى الحقائق واهتدوا إلى أن هذه الألوان لم تكن إلا لأجل حماية نفس الحيوان . ولا جرم أن مثل هذه المباحث لا خير فيها إلا بمثل هذا الاستنتاج فإذا عريت عنه فقد أصبحت جسما خاويا فارغا ولا فائدة منها إلا ما يستفيد الطفل من أعواد الكبريت يوقدها ويفرح بمنظر نارها وما يستفيده من الطيارة التى يرسلها فى الجو وما ذلك إلا مجرد التسلية أما العلم وأما الحكمة فلا والناس فى كل أمة تابعون لآراء كتابهم مشغوفون بتقليدهم فمثل هذا القول الذى انتشر فى مصر وسوريا وبلاد العرب يخرج منه القارئ وهو لم يزد حكمة ولا علما ولا كتابا منيرا وإنما تكون عنده معارف شتى لا تجمعها حكمة عامة تكون هدى للمهتدى ، نعم ما لا يدرك كله لا يترك كله ولكن المتنبى يقول :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا ... كنقص القادرين على التمام

﴿ المرتبة الثالثة ﴾

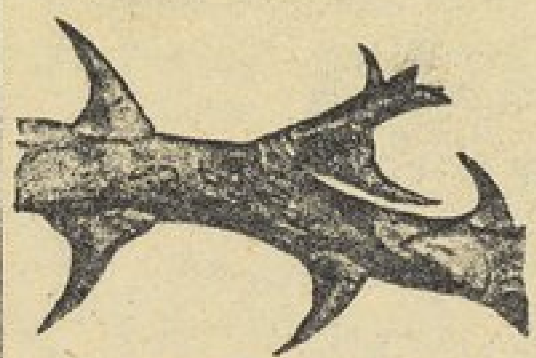
ما جاء فى مجلة « كل شىء » تحت العنوان التالى :

(خداع الحيوان . أمثلة غريبة)

لو حاول أحد الفلاسفة أن يجد أصلا للآداب فى الطبيعة يجعله أساسا للأخلاق العليا لأعجزه ذلك فإن فى الطبيعة من الخداع والمكر والغش ما يدهش له الإنسان ، فبين السمك مثلا سمكة تعيش وكأن على رأسها (طاقية الإخفاء) إذ هى شفافة لا تظهر فى الماء إلا خيالا ضعيفا ، وهى تستعمل هذه الشفوفة فى الاقتراب من فريستها وقتلها ثم التهامها ، والأخطبوط يخدع فريسته بأن يفرز فى الماء سائلا أسود حتى لا تراه ثم يلتف حولها وهى فى عماها فيقتلها ويأكلها ، وبعض طيور الماء يبيض على الشاطئ فلا يبنى عشا لبيضه وإنما يلقيه بين مدر الشاطئ وحصاه فيمتزج لون البيض بهما بحيث إذا مر إنسان أو حيوان لما استطاع تمييز البيض مما حوله ، ومن ضروب الغش التى تتبعها الحشرات مع العصافير وتحتمى بها أنها فى طورها الثانى عندما تخرج من البيض وتصير (دعموصة) تشبه الدودة تكون عندئذ طرية مملوءة بالدهن ليس فيها عظمة والطيور عندئذ تشتهيها لقمة سائغة ولكن هذه الدعاميص تنبت لأنفسها قرونا زائفة ووجها مخيفا وأحيانا تشبه الثعابين فتخشاها الطيور وتنخدع عنها حاسبة أنها شىء آخر غير تلك اللقمة الدسمة من الدهن (أنظر شكل ١٤) و (شكل و ١٥) .



(شكل ١٤ ـ دعموص حشرة واقف بين الغصنين الكبيرين كأنه غصن آخر)



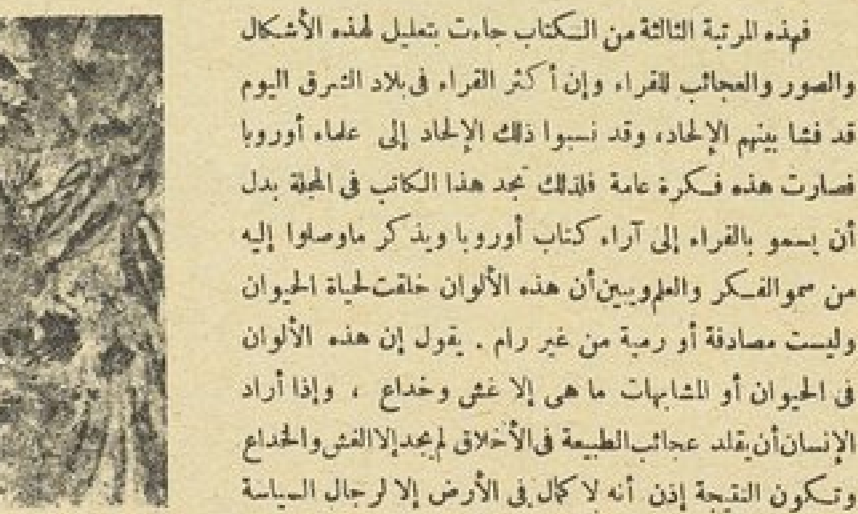
(شكل ١٥ ـ على هذا الغصن حشرات تبدو كأنها غصون شائكة)

والفراش الذى يتطاير فى الربيع حول الزهر يكون أحيانا كثيرة زاهى اللون فتراه العصافير فتحط عليه ولكنه سرعان ما يرى ظلها ويحط على زهرة فيندغم لونه فى لونها فتروح العصفورة وتجىء وهى كالبلهاء لا تراه وقت حصيد القمح نرى آلافا من الجنادب تنفر وتقفز فإذا حطت على الأرض اختفت لأنها غبراء مثل الأرض وأحيانا تعيش الحشرات على الأشجار فتتراءى للناظر كأنها أوراق حرشفية تغطى البراعم ، وبعض الحشرات يشبه غصنا جافا مكسورا ، وأخيرا يعرف كل منا أن الحرباء تتلون بلون الوسط الذى تعيش فيه كى تخفى عن أعين أعدائها فهى خضراء بين أوراق الشجر غبراء على الرمل ، وكل هذا غش وخداع يقصد منه خداع العدو والفريسة معا (انظر شكل ١٦) و (شكل ١٧) .

(شكل ١٦



(شكل ١٦ ـ حشرة تتراءى كأنها ورقة) (فراشة قد أتقنت محاكاة الورقة حتى فى العروق)



(شكل ١٧ ـ حشرات تحاكى الزهر)

فهذه المرتبة الثالثة من الكتاب جاءت بتعليل لهذه الأشكال والصور والعجائب للقراء، وإن أكثر القراء فى بلاد الشرق اليوم قد فشا بينهم الإلحاد، وقد نسبوا ذلك الإلحاد إلى علماء أوروبا فصارت هذه فكرة عامة فلذلك تجد هذا الكاتب فى المجلة بدل أن يسمو بالقراء إلى آراء كتاب أوروبا ويذكر ماوصلوا إليه من سمو الفكر والعلوبين أن هذه الألوان خلقت لحياة الحيوان وليست مصادفة أو رمية من غير رام . يقول إن هذه الألوان فى الحيوان أو المشابهات ما هى إلا غش وخداع ، وإذا أراد الإنسان أن يقلد عجائب الطبيعة فى الأخلاق لم يجد إلا الغش والخداع وتكون النتيجة إذن أنه لا كمال فى الأرض إلا لرجال السياسة والمنافقين والمخادعين والكاذبين وأهل الضلال .

فانظر أيها الزكى لأهل الشرق وأهل الغرب الآن واعجب لهذه المراتب الثلاث مرتبة فى الغرب تقرب من نهاية الحكمة ومرتبتان فى الشرق. إحداهما لاتثبت ولاتنفى. والثانية قلبت العلم جهلا والكمال نقصا وألبست الطبيعة ثوب النقيصة وتركت قراءها حيارى فى الوجود لا يرون إلا ضروب الاختلاس وأفانين الأكاذيب تبعا لما تعلموا من الطبقة الكاذبة الخاطئة وهذه الطائفة يحق لها أن تقول إن المرأة التى ترضع ولدها ابتغاء نفعه لها فى المستقبل ثم تفقدته فإن هذه العاطفة فيها خائنة كاذبة غاشة . فانظر كيف يسمى كتاب الإفرنج هذه العجائب حماية الحيوان وكيف يسميها كتاب الشرق غشا وخديعة . هذا ما أردت أن أبينه الآن فى مراتب الكتاب فى الشرق والغرب . ومن هذا تعرف أيها الذكى لماذا تخاطأ الشرقيون فى الشرق الأدنى فى درجات الرقى إلى العلا ولماذا أسرع الغربيون . فالشرق اليوم قامت عنده فكرة خاطئة جاهلة وهى أن هذا الوجود كله خبط عشواء، وأن هذه الفكرة فكرة الغربيين ويكذبه ما تراه فى هذا التفسير من آراء القوم « إن الله

لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال » .

فانظر أيها الذكى فى هذه المراتب الثلاث ووازن بينها وبين أعمال القراء ، فالذين يقرءون المرتبة الأولى تجدهم قوما جادين فى أعمالهم مرقين لمدنهم لأنهم يعتقدون أن هذا الوجود مبنى على حكمة ونور ، فأما الآخرون فإنهم لا يرون فى هذا الوجود إلا لهوا ولعبا لا عقل فيه يزنه ولا كمال ، فهؤلاء تجدهم فى مصر وسوريا والعراق وكثير من بلاد الشرق لا يعملون عملا نافعا ويضيعون أوقاتهم بلا عمل ويجلسون فى مشارب القهوات ومحل الفرنجة، وهذا هو الذى قعد بالشرقيين ، فكن أيها الذكى نورا لأمتك معلما لها ناشرا الحكمة « لمثل هذا فليعمل العاملون ـ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » .

أتدرى أيها الذكى مم أخذت هذه المراتب الثلاث ؟ أخذتها من قوله تعالى « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ، فجعل الله اختلاف الألوان آيات للعلماء الذين يقربون من المرتبة الأولى ، ومعنى هذا أنه ليس آيات لغيرهم من الطبقة التى لم تفكر وهى الثانية ومن الطبقة التى جعلت هذه الأشكال والألوان غشا وخديعة ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ نور على نور فى آية « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » بكسر اللام ﴾

من القواعد الحكيمة فى النبات أن اختلاف لونه يصاحب دائما اختلاف شكله وورقه وثمره وزمانه ومكانه وجميع أحواله . إذن ليس العجب والابتداء فى الاختلاف خاصا باللون فإن كل اختلاف فيه ابداع وجمال فانظر رعاك الله كيف جعل الله ذكرا وأنثى وجعل آكلا ومأكولا كالنمر والأسد وكالثور والغزال والعنز ، ومن عجب أن هذا التقسيم الأخير لا يختص بنوع ما من الحيوان فهو فى الهواء وعلى اليابسة وفى البحر وكما يكون فى ذوات الأربع والسمك ونحوها يكون فى الحشرات ، ولست أريد الآن أن أذكر إلا ما جلت حكمه وظهر جماله فى الإبداع وهو ما جاء فى جريدة الأهرام فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ م وهذا نصه :

الذئب فى عالم الحشرات

أنشىء حديثا فى انجلترا مفرخ غريب للحشرات تحت اشراف بعض موظفى الحكومة الذين يقضون أوقاتهم فيه يعنون بجيوش من الجنود الصغيرة ذوات الست الأرجل، هى حشرات تفتك بالحشرات التى تتلف المزروعات ، وترسل هذه الحشرات القاتلة إلى مختلف أنحاء الأمبراطورية البريطانية لمساعدة المزارعين على التخلص من شر الآفات . وتجرى تجارب من هذا القبيل فى ولاية كاليفورنيا بأمريكا حيث يقوم الدكتور (ستانلى) أستاذ علم الحشرات فى جامعة (كاليفورنيا) فى مهمة تفريخ ملايين الملايين من بيض الذبابات السابحة بحجم البعوضة وهى من فصيلة الزنبار ويقال الزنبير والزنبور وتضع بيضها فى بيض الحشرات الأخرى المؤذية ومتى تفقس فرخها يضعتها فى البيضة الأخرى وفتك بفرخ الحشرة الأصلية ، وقد اضطر الدكتور (ستانلى) من مدة قريبة أن يرسل مئة ألف بيضة من بيض هذه الحشرات تلبية لطلب مستعجل فى البريد الجوى ضمن علبة صغيرة ، ومن جملة أعداء الحشرات المؤذية للزراعة حشرة تعد من أشرس الحشرات وأبرعها فى ضروب القتال وهى أشبه بقنبلة صغيرة ذات أجنحة لونها كلون الفولاذ الأزرق المصقول يتخلله بقع برتقالية اللون وتعرف بالزنبار الحفار ، ومعروف عن هذه الحشرة أنها تهاجم حشرة أخرى أكبر منها نحو عشر مرات وكثيرا ما تقتحم العنكبوت الكبيرة المعروفة باسم (ترانتولا) فى الولايات الجنوبية الغربية وهذا سبب تلقيبها بصقر الترانتولا ويبلغ طول جسم هذا الزنبار (بوصة) وله خصر نحيف فى دقة الخيط هو فى الحقيقة الصديق الصدوق

الفلاح لأن معظم الحشرات التي يهاجمها هي من الديدان المضرة بالزراعة، وقد كتب المستر (وارد) الإنكليزي العالم بطبائع الحشرات يقول إنه وجد في أحد أجزاء مقاطعة (ديفونشير) ألوفا من (الزنبار الحفار) ولم يعثر بدودة واحدة وقد استدل من ذلك على أن الزنابير أفنت الديدان كلها في العام الماضي وأنثى الزنبار الحفار هي التي تقوم بحفر الوكر وهي التي تقاتل الديدان وتفتك بها وتقع المعارك عادة بجوار الوكر وتبدأ العمل في شهر يوليو عند اشتداد الحر إذ تظل طائرة حتى تهبط على ضفة جدول أو جانب طريق حيث تكون الأرض صلبة قاسية وتشرع في الحفر كما تحفر الثعالب أوجارها أي أنها تنحت التراب بيديها الأماميتين وتقذفه بعيدا بأرجلها الخلفية ويستغرق حفر الوكر الذي يمتد غالبا إلى مدى ثلاثة بوصات طول النهار تقريبا ويكون عادة متسع من الداخل ضيق المدخل . ومتى انتهت من عملها تبحث عن حصوة تصلح سدادة لباب الوكر وقد تمضي ساعة تأتي بحصوة تلو أخرى إلى أن تعثر بالحصوة الملائمة لسد باب الوكر سدا محكما ، وعند ما تتوفق إلى غايتها هذه تجول هذه الصيادة البارعة باحثة عن طرائدها وحينما تشعر الدودة بدنو الزنبار منها تضطرب وتحاول المقاومة فتتقوس وتتفرد وتسرع الزحف لتلوذ بالفرار ولكن أنى لها ذلك والزنبارة تنقض عليها بسرعة البرق الخاطف وتقبض عليها بأرجلها فتكبلها وتداورها إلى أن تتمكن من إدخال حمتها بين مفصلين وهو مركز جهازها العصبي وتلقحها بمادة مخدرة فتشل حركة الدودة ، وقد تلقحها بإبرتها هذه في عدة مواضع لتتأكد من بقائها حية غير قادرة على الحركة مدة أسبوع أو أكثر وقبلما تشرع في جرها إلى الوكر تقلبها على ظهرها لكيلا تستعمل أرجلها للمقاومة ، ومتى وصلت إلى باب الوكر تضع بيضة أو أكثر في جانب الدودة قبلما تجرها إلى داخل الوكر حيث تدخرها مؤونة حية لفراخها عندما تنقف بيضها ثم تنطلق لتأتي بدودة أخرى وهكذا حتى يفرغ بيضها ويمتلىء الوكر وحينئذ تشرع في سد باب الوكر بدقائق التراب التي تحيلها بمادة رطبة من جسمها وبعد ختم الوكر يومين أو ثلاثة أيام يفقس البيض وتخرج منه الفراخ فتأكل من جسم الديدان إلى أن تبلغ أشدها ثم تنسج لنفسها شرنقة تبقى فيها حتى شهر يونيو التالي إذ تخرج من الوكر زنبارا كاملا فتيا لتحل محل آبائها التي يقتلها صقيع الشتاء اهـ .

هذا ما ظهر أثناء طبع هذه السورة من العلم فياليت شعري ماذا يريد الله بهذه الأساليب من الحكمة ؟ وماذا نفهم من هذه العجائب ؟ نفهم أنه يقول لنا : أيها الناس . أيها المسلمون إما أن تتعلموا وإما أن ترحلوا من أرضي ، هل عميتم عن النظر إلى حكمتي أفلا تعقلون ؟ سلطت الدود على زرعكم وقلت لكم «وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم» فهل سلطت الحشرات على زرعكم لإهانتكم كلا . وحق حكمتي ورحمتي التي وسعت كل شيء فكيف تسع رحمتي كل شيء وتتعدى أشرف خلقي فأسلط عليهم كل هوام الأرض والحشرات كلا كلا . وعزتي وجلالي إنما سلطتها عليكم لتدرسوا والدرس يرقي عقولكم ويجعلكم اليوم في جنة العرفان العالية ويرفع نفوسكم عن الدنايا . وقد جاء في الأخبار «تداووا عباد الله فإن لكل داء دواء» فكما جعلت لأمراضكم أدوية جعلت لأمراض نباتكم أدوية ملائمة وما هذا وذاك إلا لإشراق نفوسكم فهي المقصودة

إذا كان هذا الدمع يجري صبابة   على غير ليلى فهو دمع مضيع

اللهم إنا نحمدك على نعمة العلم وعلى بهجة الحكمة فقد علمتنا ما لم نعلم إنك أنت العليم الحكيم

﴿ الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للطيفة الخامسة ﴾

في هاتين اللطيفتين (ثلاثة مقاصد : المقصد الأول) تنوع المادة إلى صور كثيرة (المقصد الثاني) تنوع الصوت إلى لغات كثيرة وكيف كان الثاني نموذجا للأول (المقصد الثالث) كيف كان الترتيب في الآية يشعر بأحسن النظم في المدارس الشرقية والغربية التي هي قائمة الآن .

﴿المقصد الأول : تنوع المادة﴾

اعلم أن هذا المقام وهو مقام العناصر والمقام الثانى وهو الحروف قد ذكرتهما فى (سورة البقرة) بطريق إجمالى ، فلنعد الكرة الآن لترى كيف كانت المادة أصلها عالم رقيق لطيف هو الأثير وهذا العالم لم يره الناس وإنما استدلوا عليه بأدلة طبيعية وكيماوية لانطيل بها ، فرأوا أن هذه المادة منه تفرعت فهذا العالم الشاهد الذى يضىء والذى يستضىء كلاهما يرجعان لمبدإ واحد وهو الأثير . وهذا الأثير نتجت منه للمادة الأصلية والمادة الأصلية هى كل شىء بل أرجعها بعضهم إلى حركات فيه ، وهذه المادة منها ما ينبعث الضوء منه وهى الشموس ومنها شمسنا ومنها مايقبل الضوء كأرضنا . والضوء ماهو إلا حركات منتظمات وبها يكون الحر والبرد الخ ، وتتنوع الحوادث على الأرض . والأرض والهواء والماء ماهى إلا عناصر قد شرحناها فى الجدول السابق فى (سورة العنكبوت) وقد علمت أن لها حسابا ونظاما كما أن سير الكواكب له حساب فالأنوار تأتى إلى الأرض بحساب والعناصر لم تكن إلا بحركات المادة وتنوعاتها ، فتنوع المادة كانت منه العناصر ولا معنى لتنوعها إلا تحرك ذراتها ، فلتعجب من الأمرين ليل ونهار بحساب . عناصر منتظمات من حيث جداولها بحساب فياليت شعرى من كان يظن أن هذا العالم على هذا النظام ، من ذا الذى كان يظن أن عناصر المادة بينها هذه النسب ، تلك النسب التى أوضحتها هناك ، تلك النسب التى قرنت بين عنصر وعنصر بل بين كل عنصر وسائر العناصر .

إن العنصر الواحد له نسبة إلى مافوقه وماتحته فى الجدول . وكل صف منسوب إلى مافوقه وما تحته . ثم هذا العلم وهو علم النسبة بين العناصر حديث ، ولكن ظهرت ثمرته فى معرفة ثلاثة عناصر كانت مفقودة وخواصها التى بلغت (١٨) ومن ذا كان يظن فى هذه المادة الميتة أن حركاتها منتظمة انتظاما أدق من انتظام كل ما نراه من الأوفاق ومن قطع الشطرنج كالبيدق والشاه والوزير وأمثالها . إن الدقة هنا أحكم وأبدع . فهناك حركات الكواكب وخواص العناصر ومن بينها نشأت هذه الحوادث . ولا جرم أن من يعلم خواص هذين يعرف نتائجهما إلى الأبد . إن أدوار الفلك محسوبة معروفة وصفات العناصر معلومة عند مبدعها فنتائجها معلومة كلياتها وجزئياتها . بمثل هذا كان العلماء يقربون إلى الناس علم الله بكل ما كان وكل ماسيكون .

﴿ نتائج العناصر المركبة ﴾

أما نتائج العناصر المركبة فهى واضحة ظاهرة كما تقدم فى أنواع النبات والحيوان ، وهناك ماهو دقيق لا يعرفه إلا الذين برعوا فى علوم الكيمياء وغيرها . ولأقتصر لك على مقال واحد وهو ماجاء فى الأخبار اليوم بجريدة الأهرام فى يوم الخميس (٢) ديسمبر سنة ١٩٢٦ م - (٢٧) جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ هـ تحت العنوان التالى وهذا نصه :

كشف علمى جديد

(استخراج البترول من الفحم)

أثارت الصحف الألمانية ضوضاء شديدة حول الخطبة التى ألقاها الدكتور (فريدريك برجيوس) فى مؤتمر الفحم الدولى فى (بتسبرج) وبسط فيها طريقته الجديدة المسماة ﴿تحويل الفحم إلى سائل﴾ وملخص هذه الطريقة أن الفحم مؤلف من جزء من الهيدروجين و (١٦) جزء من الكربون فى مقابل جزء من الهيدروجين و(١٨) جزء من الكربون فى البترول فيكفى لتحويل الأول إلى الثانى أن تزاد نسبة الهيدروجين إلى الكربون فى الفحم (ضعفين بحيث تصبح (٢) إلى (١٦) لتحول إلى بترول) ولما كان الفحم ليس من

السهل تحويله إلى سائل عمد الأستاذ (برجيوس) إلى تعريض الفحم لضغط يعادل مائة ضعف الضغط الجوى فى حرارة تختلف بين (٣٠٠) و (٣٥٠) بميزان سلسليون، وقد حصل حينئذ على مادة كالعجين صوب إليها الهيدوجين بواسطة طلمبة خاصة بعد رفع الحرارة إلى (٤٥٠) درجة فرأى أن الهيدروجين قد زاد مقداره بالنسبة إلى الكربون ، وأن الفحم بدأ يتحول إلى سائل ، فمن كل طن من الفحم يستخرج بهذه الطريقة (١٥٠) كيلوا غراما من الفازولين و٢٠٠ كيلو غراما من البترول الثقيل و (٦٠) كيلو غراما من الدهون و (٨٠) كيلو غراما من البترول الصافى كما أن هناك سوائل أخرى أقل شأنا فاذن يكون نصف الفحم الذى يعالج بهذه الطريقة يتحول إلى سوائل ، ويقال إن هذه الطريقة إذ نجحت ألمانيا فإن مناجم ألمانيا تزيد قيمتها ثلاثة أضعافها الآن وتستغنى عن كل ما تأخذه من الأمم فإذا نجحت هذه الطريقة ألمانيا تقتصد خمسمائة مليون جنيه (نصف مليار) ويقال إن المستقبل للسوائل القابلة للاحتراق ، وهذه الطريقة ستحدث انقلابا عظيما فى أوروبا بحيث يمكن تدفئة المدن وتوزيع الماء الساخن على المنازل من المعامل التى تحول الفحم إلى بترول بطريقة الأستاذ برجيوس » اه .

هذا ملخص ما جاء فى الجريدة المذكورة ، وأنت ترى أنى ذكرته هنا فى التفسير وربما تعجب من هذه المفارقة فأقول لك . كلا . والله ماهى مفارقة بل هى موافقة أشد الموافقة وإلا فماذا يظهر هذا الكشف اليوم سواء أتم أم لم يتم، كيف ظهر هذا وأنا أحضر التفسير للطبع ، أليس هذا أيها الفطن عين ماذكرته ؟ الله أكبر إنه مثل ضربه الله نفسه لما نطقت به هذه السور ، إنه من أسرار أوائل السور ، أوائل السور فيها الحروف مقطعة وقلنا هنا وفى السورة قبلها أن ذلك يقصد به الرجوع إلى أصول العلوم ، فكما أن الكلام مرجعه الحروف المقطعة هكذا هذه العوالم مرجعها العناصر المختلفة . الله أكبر، ظهر السر المكنون فى القرآن فى آخر الزمان وظهر أن المقصد من هذه الحروف فى أوائل السور أن ندرس هذا العالم ونحلله إلى عناصره ، بل الله يشير بهذا القرآن إلى ما حصل فعلا فى الدنيا ، فالله رب العالمين والعالمون منهم قوم فى الأرض وهاهم أولاء فى ألمانيا وفى غير ألمانيا حللوا المركبات فأرجعوها إلى عناصرها ولما أرجعوها إلى عناصرها استخرجوا منها منافع لهم ولنا ، إن الله خلق عباده وأنزل لهم آخر الأديان وجاء صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم أميا لا يقرأ ولا يكتب فنطق بهذه الحروف وبما جاءت فى أوائله من القرآن هذه السور (العنكبوت والروم ولقمان) و(الم) فى هذه السور كما كررناه مرارا تشير إلى آيات فى السورة اشتملت على الحكمة والبحث فى هذا الوجود كما أوضحته لك فهذه الحروف الحكمة التامة التى ترجع الأشياء إلى أصولها الطبيعية ، والأمم اليوم لا ينتظم لها زرع ولا طب ولا حرب إلا بحساب العناصر كما يعرفه الأطباء وغيرهم . وهذه مسألة الفحم أنظر اليها تجد الفحم هو نفس البترول كلاهما مركب من هيدروجين وكربون واختلفت النسبة . ثم إن ماقدمناه نقلناه عن الجرائد فالظاهر أنه يحتاج إلى تصحيح بعض الأرقام وهذا لا يضير أصل الموضوع فالفحم والبترول يرجعان لعنصرين اختلفت نسبتهما ، ومتى أرجعت النسبة كالمطلوب حول الفحم إلى بترول . وإذا صح هذا أصبح الناس فى رخاء وسعادة ، لماذا هذا ؟ لأن المركبات رجعت لأصلها وهذا هو زمان النور والعرفان الذى تشير له الحروف فى أوائل السور . إن من أجل معجزات القرآن أن يظهر قوم يحللون المركبات إلى عناصرها ويعرفون نسبها ويتصرفون . وهذا هو سر القرآن . أما المسلمون الحقيقيون الذين وعدهم الله بالنصر فهم أولئك الذين يأتون بعدنا ويقرؤون ما كتبته الآن ونحوه فيعلمون حق العلم أن دين الإسلام أفضل وأشرف مما عليه المسلمون الآن وأن هذا الدين يراد به أن يكون المسلم فوق كل علم وكل حكمة .

اللهم إن ديننا هو الدين الذى به تحول أرضك إلى جنات ونعيم باجتهاد علماء هذه الأمة فى علومك التى

خبأتها لهم فى أرضك وإذن تعود الأرض جنة للمسلمين ولغير المسلمين ويكون السلام العام فى الأرض ويكون هذا السلام سببه المسلمون .

هذا هو التنوع فى العناصر . أما التنوع فى غيرها فلقد تبين لك فيما تقدم فى هذا التفسير عند قوله تعالى « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » وكيف كان تنوع الزهرات فى مختلف الأشجار وقد رتبوا النبات على مقتضاه إلى (٢٤) رتبة كل رتبة تحتها أجناس والأجناس تنقسم إلى أجناس أقل منها وهكذا حتى بلغت مئات الألوف من الأنواع . كل ذلك بالتنوع فى الزهر ولا تنوع فى الزهر إلا بتنوع فى الشجر ولا تنوع فى الشجر إلا بما دخله من العناصر فى مواد التغذية التى لا سبيل لها إلا تلك الأنابيب الشعرية التى فى عروق الشجرة والفتحات التى فى الورقات ، فتنوع الفتحات فى الورقات وفى العروق يتنوع بحسبه الغذاء الداخل فى النبات وبمقتضى هذا الغذاء يكون النبات وهذا من أعجب العجب دقة فى الصنع وإبداعا فى الشكل ، وترى أوراق النبات وأشكالها وألوانه وفروعه وطعمه ورائحته ، وطوله ومدة مكثه فى الأرض ومنافعه والأرض التى يصلح فيها ، ومايناسبه من السماد وما يلائمه من الحيوان وما يكون منه من المنافع كالدواء والغذاء واللباس والعطر والزيت واللبن (كما تقدم ذلك) وما أشبه ذلك مما لا يحصى ، كل ذلك قد اختلف فيه النبات اختلافا عظيما وترى أن ألوان النبات على وجه العموم الخضرة ، ولكن المدهش أن خضرة كل نبات لا تشابه خضرة الآخر وانظر إلى نوع الحيوان قد اختلف ذلك الاختلاف وأكثر . ناهيك ما ترى من أن الصنف الأبيض اللون لا ترى منه اثنين يتشابه لونهما ولا شكل وجههما ولا بقية الأعضاء ، ومسألة خطوط الإبهام معلومة فلاتشابه بين إبهامين وهكذا الكرات الدموية ، ولأكتف بما جاء فى بعض المجلات العلمية بمصر تحت العنوان الآتى :

(تحقيق شخصية المجرم)

تعددت وسائل تحقيق الشخصية التى يستعملها المحققون فى اكتشاف أسرار الجرائم العويصة حتى صار من الصعب جدا على مجرم أن يفر من يد البوليس الذى يقتفى أثره . فذوو السوابق لهم الآن سجلات متقنة فيها طوابع أصابعهم وطوابع مسام جلدهم . ومما هو جدير بالذكر عن طابع الأصابع أنه لايتغير ، ولو شيط الجلد بالنار . وقد حاول بعض المجرمين أن يفعل ذلك فلم يمكنه إضاعة معالم أصابعه الثابتة فى السجل . أما مسام الجلد فقد كثر اعتماد المحققين عليها هذه الأيام لأنها أسهل فى المراجعة ، ويمكن أخذها من أى مكان من الكف وطريقة المراجعة أن تكبر صورة الطابع بالفوتوغرافية ثم تطابق الخطوط أو المسام على الأصل ولا يوجد اثنان فى العالم يتفقان فى خطوط الأصبع أو مسام الجلد ، مع أن الصورة الفوتوغرافية للوجه كثيرا ماتختلط بصورة أخرى حتى يصعب تمييز الأصل وذلك لأن الوجوه كثيرا ماتتشابه أما نظام المسام والخطوط فلاتشابه مطلقا عند شخصين . والأوروبيون لعنايتهم بالكلاب ، يحققون شخصيتها الآن بطبع أنفها . فلكل كلب أنف خاص له خطوط ممتازة وكذلك الحال فى سائر الماشية . ومن وسائل التحقيق فحص الدم فإن دم الإنسان يختلف عن سائر دماء الحيوان اختلافا عظيما عند التحليل ولا يتفق إلا مع دم القردة العليا ، فإذا وجدت لطخة دم مهما كان صغر حجمها على ثياب متهم وادعى أنها ليست دم الشخص الذى جنى عليه أمكن عند فحصها معرفة حقيقتها وهل هى دم إنسان أو دم حيوان ؟ وأقرب الدماء إلى الإنسان فى التحليل الكيمائى هى دماء (القردة العليا) وبوليس (نيويورك) يستعمل الآن جملة طرق فى تحقيق شخصية المقتول فإن بعض المجرمين إذا قتلوا أحد الناس أزالوا اللحم عن الوجه وهشموا العظام حتى لاتعرف شخصية المجنى عليه فيضل المحققون فى الاهتداء إلى القاتل ، ولكن فى بوليس (نيويورك) اختصاصيين يضعون على العظم نوعا من الصمغ اللين ويدهنونه

بألوان البشرة الطبيعية فيعود الشخص إلى هيئته الأولى ويمكن بذلك معرفته . أما الاهتداء إلى التزوير فقد كثرت الآن وسائله ، فمن ذلك أنه يوضع تحت الـكرسكوب فيعرف اختلاف الحبر أو توضغط القلم أو مقدار خدشه الورق ، ثم تؤخذ صورة الخط بالفوتوغرافية وتكبر فيعرف عندئذ اختلاف الطريقة فى الكتابة لأنه مهما قلد الإنسان خط أحد الناس فإن طريقته لاتزال ظاهرة فى الكتابة المقلدة . وأيضا يمكن فحص الحبر بتسليط الأحماض عليه فالحبر القديم لايؤثر فيه الحمض كالحبر الجديد وهلم جرا انتهى ولأكتف بهذا القدر فى العناصر .

﴿ عجيبة ﴾

انظر اختلافا لاحدله فى الإشخاص من الانسان ومن كل حيوان وكيف أصبحنا نرى أن كل إنسان مثلا يستحيل أن يشارك غيره فى صفاته الجسمية فتصور بنى آدم من مبدأ الخليقة إلى يوم فناء العالم كيف اختلفوا فى هذه الصفات والخطوط والأشكال ، وقس على ذلك علومهم وعقائدهم وإيمانهم وكفرهم وسعدهم ونحسهم فإذن كل امرىء يكون عالمه منوعا تنوع جسمه كما تنوع لونه وصوته ومسامه . ههنا تجلت وحدانية الله إذ جعل الوحدة سارية فى سائر المخلوقات . فكل منا واحد فى نفسه جسما وصوتا ولونا وعلما وخلقا . فإذا أنا كنت واحدا أفلا يكون خالق العالم واحدا ؟ انتهى المقصد الأول .

﴿ المقصد الثانى ، الكلام على الحروف ﴾

الحروف الهجائية عبارة عن تنوعات الصوت فى الهواء، والصوت إنما حدث من التنفس والتنفس لغرض التغذية فهو فى النبات لمجرد الغذاء، وفى الحيوان له ولبعض الأغراض بتنوعه . وفى الإنسان تكون لغات شتى على مقتضى الأمم وهنا وصل الصوت إلى أقصى منتهاه . فمنه الشعر والنثر فى اللغات المختلفة المتفرعة من اللغات (السامية والطورانية والسنسكريتية)وهذه لها فروع فى الشرق والغرب مثل السريانية والعبرية والحبشية والعربية والآرامية فى اللغة السامية وغير ذلك . فانظر كيف تنوع الصوت الذى لم يدخل فى الرئة إلا لإصلاح الدم إلى مالايعد من الكلمات باللغات المختلفة . وهذه الكلمات بإزاء الموجودات وفى نظيرها صور فى النفوس الإنسانية لمعانيها. فانظر وتعجب من صوت فى الشهيق والزفير يقوم مقام المادة فى احداث صور الموجودات فالمادة قبلت صور الأشياء فى ذاتها، والصوت أحدث هذه الصور فى نفوسنا، إن الصوت قام مقام المادة فكان منه الشعر اللطيف والغزل الرقيق والخطب المؤثرة والقصائد المحررة والأقوال الشارحة والكتب المصنفة والديانات المنزلة والفلسفة الرائعة وكان به نظام الدولة وإقامة العدل والمدن ومحاسن الآداب وتاريخ الأمم وحفظ الذمم وصيانة الحقوق وتعليم الجاهلين وشكر العالمين .

وكما أن للمادة مروجا واسعات وثغور زهر باسمات وحدائق وجنات وأثمارا بهجات هكذا للصوت من القصائد حدائق ومن النثر شقائق ومن الخطب قصور ومن الشعر زهور ومن الحكم ثمار ومن الأمثال فاكهة ورمان ومن الغزل مروج ومن الآيات البينات بروج ، فى المادة شعر رقيق وفى الصوت زهر أنيق . « فيهما من كل فاكهة زوجان . فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » والناس فى حدائقها مقاعد « وجنا الجنتين دان »

واعلم أن الله عز وجل جعل العالم (المادى والمعنوى واللفظى) بينها تناسب واشتقاق وتفرع وانتظام فى ذلك كله ، فإذا رأينا أن الجسم ينقسم إلى نام وغير نام ، والنامى إلى ماله حس وحركة وإلى ماليس كذلك والذى له حس وحركة إما ناطق وإما غير ناطق ، فغير النامى هو المعدن وماله حس وحركة هو الحيوان وماليس كذلك هو النبات والناطق هو الإنسان فيكون هكذا (جسم نام حساس ناطق) فهكذا نرى الكلم

والحكمة معرفة الشيء على ماهو عليه بقدر الطاقة البشرية ، والشيء يقسم إلى العلوم كلها ويتبعها الصناعات فيقال هكذا (الشيء إما علمي وإما عملي) فالعلمي إما علم أعلى كمعرفة الله والأرواح وتقسيم العلوم . وإما علم طبيعي ورياضي فالرياضي يشمل الأرثماطيقي والهندسة والفلك والموسيقى . والأرثماطيقي من هذه الأربعة يشمل الحساب المفتوح وحساب الخطأين والجبر والمقابلة والتخت والميل والدرهم والدينار . والطبيعي يشمل سماع السكيان والسكون والفساد والسماء والعالم والآثار العلوية والمعدن والنبات والحيوان والإنسان . هذا هو القسم العلمي .

أما القسم العملي فهو سياسة النفس وسياسة المنزل وسياسة المدينة . وسيأتي إيضاح ذلك كله وشرحه في (سورة لقمان) مفصلا تفصيلا تاما

فانظر كيف ترى أن الإنسان والحيوان والنبات والمعادن كأنها شجرة لها أصل واحد هكذا العلوم أيضا هي شجرة أصلها الشيء أي الموجود المنقسم إلى علم وعمل . وهكذا ترى العلماء في علم ماوراء الطبيعة يقولون «إن الوجود ينقسم إلى جوهر وعرض . والعرض يكون صفة ومقدارا كالبياض وكالطول ويكون نسبة كالأبوة والنبوة الخ» وفرعوا فروعا شملت كل العلوم فهي من حيث النتيجة كالتقسيم المتقدم بشكل يخالفه وكل الوجود تلازمه الوحدة . فالوجود كله واحد وكل كثرة أوقلة منه يقال لها واحد . فالوحدة تسير مع كل موجود وبوصف بها قليلا أو كثيرا . العالم كله واحد والوحدة ملازمة لكثرته وقلته . أنظر إلى الألوان فهي مثل السواد والصفرة والبياض والنحاسية مثلا كأهل السودان والصين وأوروبا وأمريكا الأصليين حمر الوجوه . انظر كيف ترى أن النوع الأبيض من هذا الإنسان يتفقون جميعا في اللون ولكن يستحيل أن يكون بياض زيد كبياض عمرو وهذا هو العجب بل هذا هو الآية الإلهية . يعم البياض مثلا مئات آلاف الآلاف من الناس ولكن لكل واحد في لونه هيئة تخالف لون الآخر . هذا معنى قوله تعالى «واختلاف ألسنتكم وألوانكم» فهذا هو اختلاف الألوان ومثله اختلاف العلوم واختلاف الأنواع والأجناس كما تقدم

وكما رأيت اختلاف الألوان واختلاف العالم هكذا ترى اختلاف اللغات كاختلاف الأصوات . ليس أحد من الناس يشبه صوته صوت الآخر ولا كلامه ولهجته كلام الآخر ولهجته . يمتاز كل امرىء في لونه وصوته وهيئة كلامه كما امتاز في لونه وإن شارك الناس في البياض والصوت والكلام

هذه هي الحكمة المتقنة التي جاءت في هذه الآية ولولا هذا الجمال لم نميز الأشخاص . فبألوانهم الخاصة وأصواتهم الخاصة ولهجات حديثهم يختلفون فنميزهم لنعيش معهم ، فجل الله الذي أتقن كل شيء وهو الذي أحسن كل شيء خلقه ثم هدى والهداية هنا باختلاف المخلوقات فهو قد حسنها وهدى إليها مع جمالها «فتبارك الله أحسن الخالقين» وبهذا تم الكلام على الاختلاف في الألوان ونحوها .

﴿الاختلاف في اللسان﴾

الإختلاف في اللسان (قسمان) قسم قد تقدم وهو الأمور المتعارفة وقسم شرحه العلماء . وهو (قسمان) قسم لفظي وقسم خطي . فالقسم اللفظي قالوا فيه : إن اللغات تفرعت من أصل واحد إلى لغات مرتقية وغير مرتقية . وغير المرتقية هي (أولا) الزنجية (١) وهي في الأرخبيل الهندي (٢) وفي أواسط افريقيا (ثانيا) الأمريكية التي يتكلم بها أهل أمريكا الأصليون (ثالثا) اللغة المستعملة في البلاد الشرقية الشمالية الأسيوية في جزائر (سفالين) ونحوها (رابعا) اللغة الصينية وهي أحادية المقطع لافرق فيها بين الاسم والفعل والحرف

أما المرتقية فهي إما غير متصرفة وإما متصرفة ، فغير المتصرفة هي اللغات الطورانية كالتركية والمغولية والقفقاسية والإغرانية . واللغة المتصرفة تنقسم إلى (قسمين) الآرية والسامية ، فالآرية هي (أولا)

الجرمانية

الجرمانية وفروعها (١) الايسلاندى (٢) والنرويجى (٣) والسويدى (٤) والدانيماركى (٥) والانجليزى (٦) والهولندى (وثانيا) الصقلابية مثل (١) السربية (٢) والبلغارية (٣) والبوهيمية (٤) والبولونية (٥) والروسية (وثالثا) الهندية (ورابعا) الفارسية (وخامسا) الأرمنية (وسادسا) اليونانية (وسابعا) اللاتينية السكلية .

(فروع اللغة الفارسية ثلاثة)

لغة المادبين ولغة بنى ساسان ، والفارسى الجديد .

(فروع اللغة اللاتينية)

هى (١) الفرنسية (٢) والاسبانية (٣) والبرتغالية (٤) ولغة رومانيا المعروفة الآن فى البلقان . وبهذا انتهى الكلام على اللغات الآرية .

أما اللغة السامية فهى (١) اللغة المصرية القديمة وقد قيل إنها أصل اللغات السامية ، وأقول قد قال لنا معاشر مدرسى اللغة العربية المرحوم كمال بك مؤلف قاموس اللغة المصرية القديمة مانصه :

إن اللغة العربية بحالها اليوم ناقصة ولا يكملها إلا لغة قدماء المصريين التى تزيد عليها كثيرا فانى وجدت العربية مع الحذف والإبدال والتحريف بعض تلك اللغة . وشرح هذا شرحا وافيا رحمه الله .

(٢) واللغة البابلية والآشورية (٣) والحبشية (٤) والحميرية (٥) والسريانية أو الآرامية (٦) والفينيقية (٧) والعربية .

فسبحانك اللهم وبحمدك ، سبحانك ربنا قد علمت وألهمت وأحكمت ونوعت . قلت فى كتابك «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» اللهم إنك جعلت هذا العالم واحدا . لماذا ؟ لأنك واحد وهذه الوحدة جرت مع العالم كله كما جرت مع كل فرد فلقد رأينا امتياز الأشخاص فى كل نبات وحيوان ورأينا امتياز الأصوات والألوان واللغات . جعلت اللهم لكل علم من علوم الحكمة حدودا مخصوصة بحيث ميزنا علوم الطبيعيات وعلوم الرياضيات وفرعنا العلوم الجزئية كما فرعت أنت الجسم الواحد إلى أعضاء والأعضاء إلى أجزاء والأجزاء إلى ذرات صغيرة هكذا رأينا العلوم تختلف فيكون الرياضى كالحساب والطبيعى كالنبات ثم نرى صناعات تفرع على تلك العلوم كالزراعة والبزرة للنبات وكالطب والبيطرة للانسان والحيوان وكالحدادة والنجارة للمعدن والنبات وهكذا مما قدمناه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» وأصل هذه العلوم كلها الشىء . هكذا فى اللغات فقد رأينا نوع الإنسان كما اختلف فى ألوانه وجميع أحواله اختلف فى لغاته وجرت الله. . شوطا كجرى الألوان حتى وصلت إلى نحو خمسة آلاف لغة تقريبا . ففى أوروبا نحو (٥٨٧) وفى آسيا (٩٣٧) وفى أفريقيا (٢٧٦) وفى أمريكا (١٦٢٤) لغة والانجليزية وحدها (٢٥) ألف كلمة ولغة غالا ثمانية آلاف كلمة والعربية (٨٠) ألف كلمة . ويقال إن المستعمل منها عشرة آلاف كلمة والإيطالية (٢٥) ألف كلمة والفرنسية (٣٠) ألف كلمة والإسبانية (٢٠) ألف كلمة : واللغة المستحدثة المسماة (الاسبرانتو) (٣٢٠٠) مادة مقتبسة من اليونانية واللاتينية والجرمانية وقد ألحقوا بها (٣٠) لفظة تركب مع ألفاظها لتدل على نوع المعانى الوضعية وهكذا (١٧) زيادة فى الصيغة لتقوم مقام التصريف فى اللغات الأخرى فتراكيبها ربما تبلغ عشرة ملايين كلمة وإذن تكون أوسع اللغات ثروة .

﴿حكمتان فى تقارب اللغات . الحكمة الأولى فيما يعم اللغات كلها﴾

انتشر العلم وتعددت المعاهد العلمية وأصبح من مميزات القرن العشرين تشعب اللغات وكثرتها حتى إنه يمكن أن يتاح لنا أن نصف هيئة المجتمع بحالته الراهنة من تعدد الألسن المتداولة ، بأنه قريب الاتصال

برج بابل. ومن المعلوم أن كثيرا من هذه اللغات يرجع منشؤها إلى لغة أصلية واحدة، مثلا اللغة اللاتينية تفرعت منها اللغات الاسبانية والبرتغالية والفرنسية والإيطالية والرومانية وتسمى اللغات اللاتينية . وأما الانكليزية والألمانية والنمساوية والهولندية ولغات شبه جزيرة اسكندناوه والدانماركة ، فترجع كل هذه اللغات إلى الأصل الجرمانى .

واللغات التى ذكرت ترجع مع اللغة الروسية واليونانية والفارسية إلى أصل واحد هو مجموعة اللغات الآرية التى تتفرع منها بعض لغات فى الهندوتسمى (الهندية الأوروبية) وبجانب هذه المجموعات توجد مجموعات لغوية أخرى وان لم يكن لها فى عصرنا هذا من الأهمية ما لغيرها من اللغات سالفة الذكر إلا أنها مع ذلك كانت من اللغات الحية فى الأزمنة الغابرة وبعضها للآن مازالت متداولة الأمر الذى يجعلنا نقدر حق قدرها بالرغم من تقادم العهد عليها ونختار منها مجموعة اللغات السامية التى نزلت بعض الكتب السماوية بها وهى لغات بنى سام وأعنى بها اللغات العربية والعبرانية والسريانية والآشورية والآرامية والكلدانية والحميرية والأبهرية الحبشية واللغة المصرية القديمة والقبطية الحديثة وكل هذه يرجع أصلها إلى بنى سام، وبالنسبة لقدم عهد تلك اللغات أصبح من المتعذر تحديد وقت انسلاخها من بعضها إذ كانت قبل التاريخ بآلاف من السنين بيد أنه قد لوحظ بعض التشابه بين هذه اللغات وبعضها فى النطق والمعنى ورسم الأحرف . وأن جل اهتمامنا فى مصر يتجه الى اللغة العربية التى هى لغة القطر واللغة الرسمية للبلاد ، ولا يخفى أن مصر لغة وشعبا هى جزء من بنى سام إلى أن انسلاخها من الساميين كان قبل التاريخ ، انتهى والله أعلم .

﴿الحكمة الثانية فيما يختص ببعض اللغات وبعض الأمم﴾

فقد جاء فى كتاب (المد والجزر) ما يأتى :

قال جماعة من المؤرخين: إن التمدين العربى كان تمدينا إسلاميا صرفا والقرآن مصدر جميع العلوم التى عنى بها المسلمون فى أوج حضارتهم . فلتفسير آياته وسوره وجدت علوم الكلام وعلوم المنطق ولتفهم ما فيه من نظام وتشريع وجدت علوم الشرع والفقه ولم تكن غاية المؤرخين الأولين من العرب إلا تحديد وقت نزوله وتدوين الأحاديث النبوية . ثم أليس الجغرافيون الأول أو علماء المسالك والأمصار هم الذين مضوا من أقاصى أفريقيا وآسيا لتأدية فريضة الحج ثم عادوا يصفون رحلتهم وما رأوه فى البلاد البعيدة من الجديد غير المألوف . ألم يكن غرض علماء اللغة إيضاح ما غمض من آى القرآن وتطبيق قواعد الصرف والنحو على نصوصه ألم تتطلب أرصاد الفلكيين وعمليات الرياضيين لتحديد ساعات الصلاة وتوقيت مواعيد الحج والصوم . ألم تستدع مسائل الوقاية الصحية والنظافة اهتمام الأطباء كما ظلت بعد تحثهم على البحث والتنقيب ، ثم لم يهتم العرب فى ذلك الدور بعلم من العلوم إلا لأن آيات القرآن قضت بمعرفته لاجتلاء معنى غامض أو شرح قول مستغلق ومذاهب علماء الكلام هى التى نبهت أبحاث الفلاسفة ومناظراتهم فكانوا بما نقلوا وما أوجدوا أساتذة الفلسفة الحديثة . سبق القول أن قد اشترك مع العربية لغتان أخريان بكونهما قوميتين نشرتا عقيدة دينية ومذهبا سياسيا بين شعوب مختلفة أى اليونانية واللاتينية فقد كانت اللاتينية مستعملة من كبانيا فى ايطاليا الجنوبية إلى الجزر البريطانية ومن نهر الرين إلى جبل الأطلس . واستعملت اليونانية من أقاصى صقلية الى شاطىء دجلة والفرات ومن البحر الأسود الى تخوم الحبشة ، لكن ما أضيقه انتشارا اذا ما قوبل بانتشار العربية التى امتدت الى أسبانيا وأفريقيا حتى خط الاستواء وجنوب آسيا وشمالها الى ماوراء بلاد (التتر) .

أما اللغة الفصحى فقد استولت على جميع أنحاء الشرق الإسلامى وإن لم تكن لها الغلبة كلغة كلامية على بعض اللغات فى الشرق والشمال فقد أوجدت تبديلا محسوسا فى الفارسية والهندية والهندستانية والتركية

ولغات أفريقيا ولهجات التتر ، كذلك فى اللغات الحديثة المشتقة من اللاتينية أو المقتبسات منها كلمات كثيرة أصلها عربى ، لقد عدت اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنياتهما، فما الذى حفظ العربية حية بعد زوال مدنية العرب بقرون سبعة ؟ إن الذى كان باعثا على تكوين المدنية العربية وهو الذى مازال حافظها إلى اليوم هو القرآن ، لذلك ستظل اللغة العربية حية مادام الإسلام حيا ومادام فى أنحاء المسكونة ثلثمائة مليون من البشر يضمون يدهم على القرآن حين يقسمون . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور .

أقول . أليس من العجب أن الهواء الخارج من الرئتين الذى لم تكن وظيفته إلا إدخال الصالح للحياة وإخراج الضار لها قد نال وظيفة شريفة عالية غالية وهى الإفهام وحمل جميع العلوم وتنوع إلى نحو خمسة آلاف لغة وبعض اللغات قد تبلغ عشرات الألوف من الكلمات، ياسبحان الله قد تنوعت اللغات كما تنوعت المادة لأن اللغات دالة والمادة مدلول عليها فتنوع الدال وتنوع المدلول ولولا حركة هذه الكائنات لم يتنوع الدال ولم يتنوع المدلول .

فياليت شعرى ألا يعلم المسلمون أن هذا هو اختلاف الألسنة والألوان ، أفليس من المخجل المحزن أن نرى أن الباحثين عن اختلاف اللغات هم الأوروبيون ، وأما اختلاف الألوان وتنوع العلوم فقد دون فى كتب أسلافنا ولكن المتأخرون من المسلمين جهلوا النوعين . اللهم إنك جعلت اختلاف اللغات واختلاف الألوان من آياتك والمسلمون ملزمون أن تقوم طائفة منهم بدرس تفرع اللغات وبدرس العلوم وتفرعها والصناعات المرتبة عليها ، وكيف يعرفون أنها دالة على جمال صنعك إلا بعد معرفتها ، اللهم إنك قد بينت على لسان رسولك ولكن المسلمين لا يفكرون ، وهذا التفسير قد وضح فيه كثير مما تركه المسلمون من علم أو عمل والله هو الولى الحميد . انتهى يوم السبت ١٦ من شهر مايو سنة ١٩٢٧ م

﴿ المقصد الثالث فى نظام المدارس المفهوم من هذه الآية ﴾

إذا تأملت فيما كتبناه ألفيت أنى قدمت المادة والكلام عليها على أقسام الحروف ولكن فى الآية قدم الله الألسنة على الألوان . أما تقديمى لذلك فلأن المادة أصل والصوت فرع ، فأما فى القرآن فاسمع ما ألقى عليك :

اعلم أن الله عز وجل علم أننا معاشر النوع الإنسانى لاقبل لنا بجميع الحقائق إلا بالتعلم والتدريج فأعطانا الحروف الهجائية الناتجة من المقاطع الصوتية لنحللها ونركبها أولا حتى ندرب أنفسنا على تحليلها وتركيبها نثرا ونظما وكتابة وفهما وليس يمكن لأحد أن يعرف اللغة حق العلم إلا إذا حلل الكلمات إلى حروفها ورفع ونصب وركب الجمل وعرف نسبها والموازنة بينها .

ـ هذا هو الصراط المستقيم فى تعليم جميع الأمم . يبتدئون بالقراءة والكتابة ولا يشرعون فهم العلوم حتى يتموا اللغة ، والعلوم التى عليها مدار الحياة ترجع إلى العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية وهذه لاتعرف إلا بتحليل الأشياء وإرجاعها لأصلها ولذلك تجد الناس كما أرجعوا الكلمات إلى حروف ليعرفوا اللغة أرجعوا المركبات جميعها إلى عناصر تبلغ (٨٦) فهذا التحليل بدونه لاتعرف حقائق الأشياء ، والذى سهل ذلك على الناس أنهم حللوا الألفاظ أولا فتعودوا على تحليلها فإن الأسهل وهو تحليل الألفاظ مقدم على الأصعب وهو تحليل المادة فى العلوم الطبيعية وحركاتها فى العلوم الرياضية وهكذا يبتدئ الناس بالعلوم الأدبية وفيها النثر والنظم والروايات وهكذا الخرافات التى تمثل فيها الحقائق بصور خيالية وكل ذلك باللغة ثم يشرعون فى العلوم الطبيعية فتستقل العقل استقلالا .

هذا هو نظام المدارس وهذا هو الذى ظهر فى هذه الآية فانه قال سبحانه وتعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » فقدم الألسنة ليفيد تقديمها فى التعليم المدرسى على التعليم الطبيعى المنوه عنه بلفظ « ألوانكم »

ويكون التحليل اللفظي مقدما على التحليل المادي وهذا التحليل مرموز له في أول السورة بلفظ «الم» فكأنه يقول إن اللغة مركبة من حروف هجائية هي هذه (ا ل م) وبتحليلها تدرسونها ولقد قدم سورة العنكبوت إذ ذكر (الم) وجاء فيها «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» وفي هذه السورة ذكر بدء الخلق وإعادته مرتين فقال « الله يبدأ الخلق ثم يعيده » وقال «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده» وفي الآيات التي بين هاتين الجملتين ذكر اختلاف الألسنة والألوان وأنها آيات للعلماء ، وليس يعرف بدء الخلق إلا بالتحليل المرموز له بالحروف المذكورة في أول (سورة العنكبوت) وأول (الروم) فأما الألسنة المدلول عليها باللغات فأمرها ظاهر ، وأما المادة فلا تعلم إلا بذلك وهذه مما يشير اليها (الم) .

ابتدأ الله السورتين بالتحليل ليطلب من الناس تحليل العلوم وتحليل اللغات في الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) جميع العلوم وهكذا إذا سار الناس في الأرض فلا سبيل لعلمهم كيف بدأ الله الخلق إلا بالتحليل المدلول عليه بذلك ، وقد بينت لك تحليل المادة هناك كما أشار لك بلفظ (ا ل م) .

فأما السير الظاهري فانه يستوي فيه الجاهل والعالم ، فكأن الله يقول قبل أن تنطق بحرف من هذه السورة (اسمع التحليل وحلل) فحلل الجمل وحلل الكلمات لتعرف معانيها وتراكيبها وحلل معانيها فلا علم إلا بالوقوف على التفاصيل فذكر الألوان بعد الألسنة ترتيب مدرسي، فأما الذين يقرءون اللغات وهم خلو من العلوم فانهم يكونون قوما خياليين كأهل الأندلس نبغوا في الشعر واللغة وجهلوا العلوم فأخذتهم (أسبانيا) وأذاقوهم سوء العذاب وهكذا أمة الإسلام اليوم لاعلم عندها إلا قليلا وهم خياليون «إلا من رحم ربك» فعليهم أن يدرسوا العلوم الرياضية والطبيعية ، ولعلك تقول هل الترتيب هنا يفيد ماذكرت ؟ إن هذا أمر بعيد ، أقول على رسلك . أين أنت من ذكر خطبة أبي بكر الصديق رضى الله عنه في سقيفة بني ساعدة . ألم يقل للأنصار (نحن المهاجرون وأول الناس إسلاما وأحسنهم وجوها وأكثرهم ولادة في العرب وأمسهم رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم وقدمنا في القرآن عليكم فقال تعالى « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ») واستنتج من ذلك قوله (فنحن الأمراء وأنتم الوزراء . إن هذا الأمر لايصلح إلا لهذا الحي من مضر فان نعق ناعق منكم وقع بين فكي الأسد يجرحه المهاجر ويعارضه الأنصاري).

فانظر كيف استنتج من تقديم المهاجرين على الأنصار أن الخلافة فيهم دون الأنصار . فانظر هذا الأمر الجليل العظيم كيف حرمت منه أمم وأمم من الأنصار في أجيال متعاقبة وحظى بها أبناء قريش . لماذا ؟ لتقديم وتأخير ، فلنقل هنا كذلك وإن العلماء هم الذين يدرسون الألسنة والألوان (وبعبارة أخرى) إن العالم الإسلامي هو من يدرس اللغة تمام الدراسة بعلومها المشهورة ويدرس العلوم الطبيعية بسائر ملحقاتها على ما تقتضيه سنة الدراسة في الأجيال المتعاقبة لأن الحكمة هي معرفة الأشياء بقدر الطاقة البشرية ، فاذا استنتج الصديق من كلمتين خلافة أعظم أمة في العالم فلنستنتج من نظيرتيهما دراسة أعظم أمة في المستقبل إن شاء الله تعالى ، وهي الأمة التي يظهر دينها على الدين كله وهي «خير أمة أخرجت للناس» وعلماؤها هم الذين يدرسون اللغات وسائر العلوم الطبيعية والفلكية .

فإذا قال الله « ومن آياته خلق السموات والأرض » الخ فذلك ابتداء بذكر مامنه الأضواء ثم ما منه العناصر وبإشراق الضوء على عناصر الأرض تظهر المواليد الثلاثة ودراستها بتحليلها إلى عناصرها كالكلمات ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية المناسبة للخامسة .

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله» ﴾

اعلم أن الإنسان له [حالان] حال يقظة وحال نوم ففى حال النوم يرى مزارع وطرقا ومدارس ومساجد وأناسا ويأكل ويشرب ويحارب فاذا استيقظ لم يجد شيئا من ذلك ، فالنوم بالليل يرينا العوالم التى لاحقيقة لها بالنهار فمتى استيقظ الانسان أدرك الأكاذيب الليلية ولا تظن إنى فى مقام الرؤيا الكاذبة أو الصادقة كلا بل كل ماتخيلناه فى المنام فإنا نعده حقيقة ونحن فى تلك الحال ولا يخطر بأنفسنا إذ ذاك غير ذلك ولنا فى المنام تعقل وجهل كما لنا فى اليقظة كذلك . ألا ترى أننا كثيرا مانرى أنا نكلم أصحابنا فى مسائل علمية عقلية عويصة ألم تر أن (ابن سينا) كان يحل أغلب المعضلات العلمية فى حال النوم ، فنحن فى اليقظة نفكر وفى النوم نفكر وفيهما أيضا نأتى بالخيال الكاذب ونكذب فى الحالين ، فحال النوم هى حالنا وحال اليقظة حالنا ونحن نحن فى الحالين ، ثم إن حال النوم تنسخ حال اليقظة كما نسخ النهار الليل فأزال ظلامه ، إن ذلك من آيات الله لأن نفوسنا فى المنام اخترعت أرضا وسماء وعوالم وكل من الناس يخترع هذا الاختراع وهذا أمر عجيب جدا ، نحن فى المنام لانكذب العالم الذى نكون فيه ، نحن نخترع عالما ونعيش فيه ، نسر ونفرح ونحزن فاذا استيقظنا لم نجده . عجبا أفليس هذا مما يذكرنا أن حياتنا بالنهار ربما كانت على هذا المنوال وأن حواسنا اخترعت هذه العوالم فاذا متنا وجدنا هذه العوالم لا أصل لها وأن مانسميه أرضا وسماء وشمسا وقمرا ونباتا وحيوانا ونهرا وجبلا ما أكسبها هذه الصفات إلا حواسنا فاستعبدتنا فاذا متنا كانت لنا حواس أخرى فأدركت هذه العوالم بحال أصدق من هذه . أو ليس هذا هو الذى ظهر فى العلم الحديث فى (نظرية اينشتين) التى قدمنا ذكرها فى هذا التفسير ، فهذا العالم قد نشر نظريته فى أوروبا وقال كما قال غيره قديما وحديثا إن هذا العالم لاشىء فيه مما نراه وأن هذه الدنيا ماهى إلا حركات فى الأثير وباختلاف الحركات كما وكيفا ظهر لحواسنا مانحن ، فيه وإلا فالضوء والحرارة والثقل والخفة والصلابة وأمثالها هى خواص كسبتها المادة بالنسبة لحواسنا لا لها فى نفسها . أو ليس هذا يفهمنا ماروى (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا) .

إن الله يقول هنا « ومن آياته مناكم بالليل والنهار » فاذا أخذ على ظاهر اللفظ عد معجزة لأن هذه هى النظرية الحديثة فإنا بالليل نيام وبالنهار فى يقظتنا نيام لأن حواسنا اخترعت نهارا كما اخترعت مخيلتنا ليلا وهذا يعرفنا قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » ولماذا لانعد هذا معجزة مع أن ظاهر اللفظ يقتضيه ولو على سبيل الرمز الذى هو من أقسام الكناية فنحن ننام بالليل وننام بالنهار مع ملاحظة الكناية فى معنى النوم مادام العلم قد كشفه فهذه معجزة . ومن تأمل قوله تعالى « ألسنتكم وألوانكم » والعالمين جمع عالم (بكسر اللام) رأى أن هذه فيها (ا ل م) على الترتيب مفرقة فى الأولين مجموعة فى الأخير وهكذا (سورة العنكبوت) جاء فيها « أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق » ففيها (ا ل م) وكأنه لما قيل فى أول السورتين (الم) يوقظنا الله لبحث العالم بهذه الإشارة لنكون علماء وتحلل العوالم لنكون حكماء وهذا من أسرار القرآن التى ظهرت فى آخر الزمان واتحدت الوجهة والمعنى والرمز فى السورتين معا والله أعلم . وههنا ثلاث عجائب :

(العجيبة الأولى)

ماجاء فى بعض الصحف المصرية تحت العنوان الآتى وهذا نصه :

(الانتقال الفكرى ـ التلباتيا ـ النظر المضاعف)

(١) جاء فى كتاب (أشباح الأحياء) مايأتى :

كتب لنا المحترم (نومان) من خدمة البروتستانت فى (ديفنبورت) قال « فى شهر إدار سنة ١٨٥٤ كنت

مقيا (بأكسفورد) فاعترانى ذات ليلة ألم شديد فى رأسى اضطجعت على أثره فى فراشى دون خلع ثيابى وكانت الساعة التاسعة ليلا فبعد أن غفوت حلمت بنفسى جالسا فى بيت من تزوجت بها فيما بعد ولما انتهينا من الحديث ذهب كل إلى الرقاد فودعتهم وحملت بيدى الشمعة وانصرفت . ولما بلغت الدهليز لمحت خطيبتى صاعدة السلم وحدها وقد بلغت أعلاه فهرعت إليها بلمح البصر وطوقت خصرها بذراعى وعندها استيقظت وجرس الساعة يدق العاشرة فتأثرت لهذا الحلم إذ كان غاية فى الوضوح وكتبت لخطيبتى أعلمها به وقبل وصول رسالتى إليها جاءنى كتاب منها تقول لى فيه « هل كنت الليلة البارحة مفتكرا فى بجدة نحو الساعة العاشرة فانى عند صعودى السلم للرقاد سمعت همس خطواتك ورائى وأحسست بذراعيك طوقتا خصرى » وقد ذكرتها اليوم الحادث فلم تنسه بعد السنين الطوال اهـ

(٢) وجاء فيه أيضا مانصه . روى لنا (المستر مونتون) سكرتير شركة البسيكولوجية مايأتى :

توليت إدارة المدرسة الكبيرة سنة ١٨٧٢م وهناك صادفت لأول مرة الآنسة التى صارت فيما بعد امرأتى وعندما برحت منصبها أوصيتها لأسباب صوابية بعد مفاتحتها إحدى رفيقاتها فى المدرسة بأمر زواجنا وأن تتجنب مكاتبتهن لهذه الغاية ، وبعد مضى ستة أشهر على زواجنا كنت إحدى الليالى على عادتى قاعدا فى فراشى أقرأ وإذا بامرأتى هبت من رقادها قائلة حلمت أنى ذهبت إلى المدرسة ودخلت غرفة أعرفها فى الطابق الأسفل فرأيت فيها أربع نسوة اثنتان من رفيقاتى والاثنتان الأخريان لا أعرفهما وكن يتحادثن ويضحكن وقد همن بالذهاب للرقاد فتبعتهن ورأيت صديقتى (بيسى) قد دخلت غرفة النوم مع اثنتين من رفيقاتها ثم خلعت ثيابها واضطجعت فدنوت منها وأخذت بيدها قائلة «دومى على صداقتنا يابيسى» ثم استيقظت وأنا متأكدة أنى كنت حقيقة فى مخادع المدرسة ، فقلت لها هذا حلم بسيط وربما كان أوضح من غيره وبعد مدة ذهبت امرأتى لزيارة والدتها فأطلعتها هذه على رسالة جاءتها من إحدى صديقاتها فى المدرسة تلتمس أن تخبرها هل الآنسة ابنتها (وهى امرأتى) حية بعد أم ميتة ؟ فخطر لى أن أذهب بنفسى عند صاحبة التحرير استوضحها عن داعى هذا التحرير ؟ فقالت لى إن الليلة الفلانية كانت راقدة فى غرفة واحدة مع صديقتها (بيسى) وأن هذه صرخت فجأة من الذعر فهرعت إليها لتسألها عن السبب فقالت رأيت الآن أمامى الآنسة (ك) وهى امرأتى قد أخذت بيدى وقالت «دومى على صداقتنا يابيسى» وغابت ، وفى ثانى يوم سرى الخبر بين الرفيقات ، فقال بعضهن هذا حلم بسيط حلمت به (بيسى) فى نومها وقالت أخرى ، كلا . هذه رؤيا فى اليقظة تدل على موت صديقتنا وهذا ماحملهن على إرسال الكتاب لتحقيق الأمر ، ثم استنطقتها عن وجود الرفيقتين اللتين كانتا مع (بيسى) وامرأتى لاتعرفهما وعن موقع سريريهما فى غرفة النوم فكان ذلك كله مطابقا لما رأته امرأتى فى الحلم» اهـ

(٣) ذكر العلامة الروسى (أكساكوف) من مستشارى حكومة القيصر سابقا الحادث الآتى فى كتاب له فى هذا الموضوع ذائع الشهرة . قال مانصه :

(كانت أسرة (ك) مقيمة فى مصيف لها فى (بافلوسك) فى ضواحى (بطرسبورج وهى مؤلفة من الرجل وامرأته وابنة صبية تدعى (فيرا) وغلام فى ريعان الشباب برتبة ضابط بحرى وكان للأخوين تعلق شديد ببعضهما منذ نعومة أظفارهما ، فاتفق للشاب وهو فى المصيف مع أبويه وأخته أن صدر الأمر إليه بالسفر شهرا فى عرض البحار فرافقته آله إلى المرفأ وهناك تعاهد الأخوان على مداومة الذكرى مدة الفراق ومرت الأسابيع والرسائل تتوارد من الشاب تعرب عن سلامته وحنينه إلى اللقاء إلى أن تغير الجو يوما وعصفت الرياح وهاج البحر كأفواه القرب فقلقت (فيرا) وثارت أعصابها وأخذت تتساءل كل لحظة عما حل بأخيها حتى انحرفت

عند المساء صحبها وانزوت فى غرفتها لتستريح . ولما كانت الساعة العاشرة سمع صوت مروع من غرفة الفتاة فأسرعوا اليها فرأوها تتخبط وتصيح متشنجة وقد أصابتها نوبة عصبية ولم يتمكنوا من تسكينها إلا بعد الجهد الجهيد . ولما أفاقت أخبرتهم قائلة «رأيت نفسى وأنا يقظى فى وسط ضباب كثيف والعاصفة تعصف بدوى يصم الآذان وإذا بوميض برق أرانى البحر يعج بأمواجه المزبدة ثم تلا ذلك لمعان نور أحمر رأيت على ضيائه أخى يتخبط فى وسط الأمواج ثم عادت الظلمة وعقبها بعد هنيهة وميض برق آخر رأيت فى خلاله أخى ممددا على صخرة وقد تضرج رأسه بالدم . بالهول» وفى ثالث يوم نقلت الجرائد خبر غرق الباخرة التى كان عليها الضابط الشاب بالقرب من (كرونستاد) فأسرع المسيو (ك) إلى هذا الثغر فوجد ابنه حيا يتألم من جرح فى رأسه فأخبره أنه كان فى إبان اشتداد العاصفة على ظهر الباخرة يهجس بيته وآله وقد وجه فكره خاصة إلى شقيقته يسألها أن تصلى لأجله وإذا بالباخرة ارتطمت بصخرة فارتجت رجة هائلة سقط على أثرها فى البحر وأخذ يعارك الأمواج لعله يتوصل إلى العودة للمركب ، وبعد هنيهة رأى وميض نور أحمر يصحبه صوت طلق مدفع من الباخرة فعلم أن لاسبيل له إليها فسلم أمره إلى الله وأيقن بالهلاك ، وإذا بضبابة لاحت له من بعد وقد تجلى من خلالها شبح أخته (فيرا) تبتسم له وتمد إليه ذراعيها فأخذ يعوم نحو الشبح ولا يعلم كم دام ذلك إلى أن شعر بلطمة فى رأسه وغاب عن الحس ، وفى ثانى يوم رآه بعض الصيادين متمددا على الشط مغمى عليه وفى رأسه جرح بليغ » اه .

(٤) هذا الخبر نشرته (مجلة الأخبار النفسية) فى أحد أعداد سنة ١٨٩١ نقلا عن كتاب أتاها من المسيو (ويلموت) أحد أصحاب المعامل فى مدينة (بريد جبورت) قال ماملخصه :

(أبحرت على الباخرة (سيتى أوف ليمريك) إلى مدينة (نيويورك) فى (٣) تشرين الأول سنة ١٨٦٣ وفى مساء ثانى يوم ثارت عاصفة هائلة دامت تسعة أيام لم نرفى خلالها شمسا ولا نجما ولا مركبا وفى الليلة الثامنة هدأ البحر قليلا فتمكنت من الرقاد لأول مرة من ركوبى الباخرة فحلمت عند بزوغ الفجر بامرأتى التى كنت غادرتها فى (نيويورك) واقفة بباب غرفتى بقميص النوم وقد لحظت وجود شخص أجنبى معى فى الغرفة فترددت هنيهة ثم انسلت نحوى وقبلتنى وبعد أن كلتنى لحظة عادت بهدوء من حيث أتت ، ثم استيقظت حالا فوجدت رفيقى محدقا ببصره إلىّ وهو يقول ما أسعدك تزورك سيدة وتقبلك وأنت نائم ، فاستغربت قوله واستنطقته بإلحاح فأخبرنى أنه كان على أتم اليقظة وقد رأى عيانا مارأيته أنا فى الحلم بكل عوارضه واسم هذا الرفيق (ويليام تيت) وهو رجل رصين صادق الشهادة ومن أهل التقى لايحب الهزل . ولما بلغنا نيويورك بالسلامة اجتمعت بامرأتى فكان أول سؤالها لى: هل تذكر زيارتى لك يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى قلت زيارتك لى ؟ كيف يكون ذلك وأنا بعيد عنك مسافة ألف ميل وأكثر فى عرض البحر ، قالت لا أجهل ذلك إنما يلوح لى أنى رأيتك فى الباخرة ، قلت هذا مستحيل ومع ذلك أخبرينى عما حملك على هذا الظن قالت استحوذ على قلق شديد وقت هبوب العواصف وكنت أفكر دائما فيك وفى الخطر المحدق بك إلى أن كانت ليلة الثلاثاء وقد سكنت العاصفة قليلا فلاح لى الساعة الرابعة أنى سرت إلى لقائك وقد جزت البحر المائج حتى بلغت مركبا وطيئا أسود تتجاذبه المياه فصعدت ظهره وتفقدت الغرف إلى أن بلغت حجرتك وكان فى معيتك شخص آخر متكئا على التخت الثانى الذى فوق تختك أخذ ينظر إلى بتحديق فترددت برهة فى بادئ الأمر ثم دنوت منك وضممتك إلى صدرى وانصرفت . ثم استرسلت امرأتى فى وصف الباخرة وماعليها فكان ذلك مطابقا للحقيقة مع أنها لم تقع عينها عليها بتاتا اه .

(٥) جاء فى كتاب (فلاماريون) مانصه :

كتب إلى من (غاليسيا) المحامى الشهير الدكتور (برونيسلاغابكى) يقول (قرأت من بضع سنين فى مجلة انجليزية عن صديق لجون فرنكلان (وهو أشهر رحالة حاول اكتشاف القطب الشمالى وهلك فى رحلته) يدعى (والوسنو) أنه رأى ليلة فى حلمه الصقع المجهول الذى هلك فيه الرحالة الشهير (فرنكلان) ولما استيقظ صور البقعة التى رآها فى حلمه بكل عوارضها مع القوارب وقطع الجليد والجثث المتجمدة وما جاورها ثم نشر هذه الصورة فى جريدة أمريكية من باب الغرائب ، ولما اكتشفت بعد سنين آثار فرنكلان ورفاقه فى الأصقاع المتجمدة ورسم المصورون مكان الفاجعة جاءت رسومهم مطابقة بالتمام لما كان قد صوره والوسنو . انتهى والله أعلم .

﴿ العجيبة الثانية ﴾

جاء فى إحدى جرائدنا المصرية فى شهر أكتوبر سنة ١٩٢٩ مانصه :

اكتشاف جريمة غريبة بعد عشر سنين

روى مكاتب (الديلى كرونكل) فى برلين أن مزارعا ألمانيا يدعى (فردريك ديكرت) اختفى فجأة منذ عشر سنوات وكان جيرانه يعلمون أنه كان دائما فى نزاع مع زوجته وأولاده وهم ثلاثة فقبض عليهم بتهمة قتل أبيهم ولكن أطلق سراحهم لما لم يجد رجال البوليس بعد البحث والتحرى دليلا يثبت إدانتهم وكان فى القرية نجار قضى السنوات العشر فى البحث عن جثة المزارع دون جدوى إلى أن صرح أخيرا بأنه رأى (فردريك) فى المنام فأخبره أن جثته مدفونة فى مكان معين فى مزرعته . ويقول النجار إن هذه الرؤيا تكررت ثلاث ليال متوالية فلم يسع الرجل إزاء ذلك إلا أن ينهض من فراشه وسط الليل البهيم وأخذ يحفر فى النقطة التى أرشده إليها حتى عثر على هيكل عظمى على عمق أربع أقدام ، ثم واصل رجال البوليس بحثهم بعد ذلك فوجدوا ساعة فضية عتيقة مطمورة بجانب الجثة شهد ساعاتى القرية أنه أصلحها مرة لفردريك ديكرت فألقى القبض مرة أخرى على الزوجة والأولاد الثلاثة فاعترف أحدهم بأنه قتل والده دفاعا عن أمه وهى فى خطر عظيم من جراء اعتداء أبيه وبعد أن قتله دفنه فى هذا المكان مع أمه اهـ .

﴿ العجيبة الثالثة ﴾

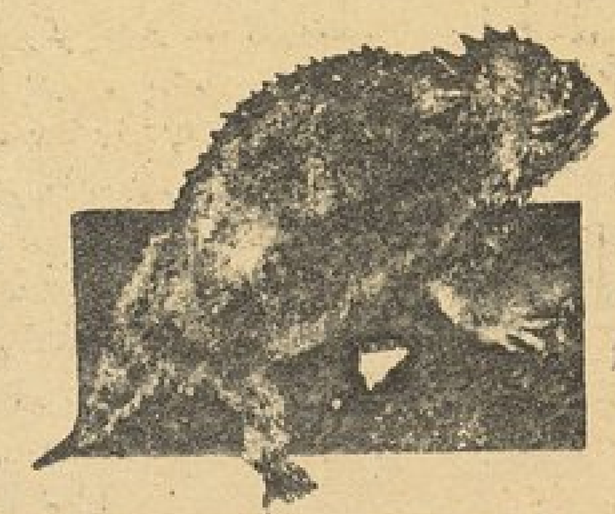
جاء فى مجلة (كل شىء) مانصه :

تشتية الحيوان وهل هى ممكنة للإنسان ؟

(حيوان يبقى (٣١) سنة بلا طعام أو هواء ويظل حيا)

فى هذا العام منذ بضعة أشهر كان العمال فى (تكساس) بأمريكا يكسرون حجرا فوجدوا فى قلبه ضبا صغيرا حسبوه ميتا ولكنه تحرك وسعى وكان هذا الحجر فى بناء مضى على بنائه (٣١) سنة وقد بعثوا به إلى حديقة الحيوانات فى (فيلادلفيا) وهو لا يزال حيا للآن . والمشهور عند الأوروبيين أن الضفادع والعلاجم تبقى حية عدة سنوات وهى محبوسة وأن بعض الأحجار إذا كسرت خرجت منها هذه الأحياء وهى ضامرة الجسم مهزولة اللحم ولكنها حية ، وهذه القصة عن الضب الأميركى لاتزال مثارا للشك بعضهم يصدقها وبعضهم يستبعد بقاء حيوان بلا طعام أو هواء (٣١) سنة . ولكن التشتية حقيقة لايشك فيها أحد فهناك حيوانات كثيرة إذا أحست البرد عند هجوم الشتاء وقل الغذاء واكتست الأرض بالثلج انكفأت إلى جحورها وبقيت طول الشتاء أى نحو خمسة أشهر أو ستة أو سبعة وهى رابضة لاتتحرك ولا تأكل وكلنا يعرف أن الثعابين لاتسعى فى الشتاء بل تنحوى فى جحورها وتبقى كذلك إلى أن تحس الدفء فتخرج . ومشهور عن الدب

فى القطب الشمالى أنه يفعل ذلك وكذلك السنجاب والوطواط والقربان ولكن التشتية ليست عامة بين اللبونات أى تلك التى ترضع أولادها ولكنها تكاد تكون عامة بين الزواحف والحشرات ، وقد فحصت بعض الحيوانات مدة تشتيتها فوجد أن السنجاب الذى يتنفس عادة مدة الصيف نحو (٢٠٠) مرة فى الدقيقة فى وقت التشتيه لايتنفس سوى ثلاث مرات أو أربع فى الدقيقة بل أحيانا لايتنفس سوى مرة واحدة كل دقيقتين ، ومعنى هذا أن الجسم لايحترق منه إلا جزء قليل جدا بحيث أن مائة يوم من أيام التشتية لا تساوى سوى يومين أو ثلاثة من مدة الصيف حين ينشط الحيوان ويسعى . وفى هذه المدة أثناء التشتية يأكل الحيوان نفسه فإذا كان آخر الشتاء نزل وزنه إلى النصف ، وكما يحدث هذا البطء فى التنفس تنزل حرارة الحيوان إلى نحو (١٠) أو (١٢) فوق الصفر ، ونزول الحرارة يجعل الحيوان مستغنيا عن الغذاء إلا أقله ، والمعروف أننا جميعا ننام فى الشتاء أكثر مما ننام فى الصيف وأننا ننزع أنفسنا من الفراش فى الصباح نزعا لأننا نستنيم إلى الدفء ونكره السعى فى البرد ولكننا فى الصيف نبادر بالاستيقاظ ونستطيع كذلك السهر ، ويقال إن الانسان الذى يعيش قريبا من القطب الشمالى يكثر من النوم فى الشتاء بما يشبه هذه الحيوانات التى ألفت التشتية فالإسكيماويون والبوريات وهم المغول الروس يقضون معظم الشتاء فى بيوتهم نائمين لايستيقظون إلا ريثما يتناولون مزعة من شحم الفقمة أو لحم السمك ثم يعودون إلى نومهم ، فالتشتية تكون طبيعية فى الإنسان والحيوان وهى وقوف أو بطء فى الوظائف الفسيولوجية للجسم بل يمكننا من هذه الوجهة أن نقول إن النبات نفسه يعرف التشتية فإنه يتجرد من أوراقه التى هى سبيل غذائه من الهواء ، وإذا كانت (٣١) سنة كثيرة على الضب فإنه مما لايمكن الشك فيه أن الحيوان يمكنه أن يعيش بضع سنوات إذا أحيط بالبرد الشديد وهو نائم نوم التشتية بدون أن يهلك (أنظر شكل ١٨) .



(شكل ١٨ – ضب أميركى يقال إنه قضى (٣١) سنة وهو حى لا يأكل ولا يشرب)

والأسماك التى تعيش حول القطب الشمالى يدركها الثلج أحيانا فتجمد فيه فاذا ذاب عادت إليها الحياة . وفى النيل سمكة مشهورة تدعى (سمكة الطين) إذا انحسر الماء عنها اندست فى الطين فجف عليها وتبقى كذلك جامدة كأن لا حياة بها فإذا جاء الفيضان استيقظت وسبحت .

انظر شكل ١٩ فى الصفحة التالية .

لقد علمت أيها الذكى كيف يكون نوم الإنسان نوما طبيعيا أو صناعيا مما يجعله هائما فى عوالم أخرى تعطيه أخبارا ورؤيا صادقة وأخرى كاذبة، ثم كيف ينام السمك فى الثلج أياما وأياما وأنت إذا قرأت ماجاء فى (إخوان الصفاء) فى هذا المقام وما قصه (اليعسوب) وهو رئيس النحل وملكه (وهو يخطب فى حضرة ملك الجن فى تلك الرواية الخيالية البديعة التى جمعت أوصاف جميع الحيوان وأبانت أصنافه وأشكاله وأخلاقه وعواطفه وتربيته لأولاده وتحننه ورأفته وذكاءه وتصريفه لأمور الحياة) لاعتراك الدهش ولرأيت العجب من (يعسوب النحل) الذى ناب عن الحشرات فى تلك الحضرة وأخذ يبين أن النحل ينام أيام الشتاء، وأن النمل تجمع القوت ولكن لم يقل إنها تنام كالنحل، وأبان أن الجراد فى زمن الشتاء يموت. وأن دود القز ينام أياما ثم يستيقظ والزنابير (الحمر والصفر والسود) تنام أيام الشتاء كالنحل ولكنها لاتجمع لأنفسها قوتا مثله كما تقدم فى السمك النائم فى الثلج ثم تستيقظ فى فصل الربيع، وأما البراغيث والبق والديدان فانها عند تغير الزمان لاتنام بل تموت كما تقدم فى الجراد، فى هذا كله يفسر قوله تعالى هنا «ومن آياته منامكم بالليل والنهار» وذلك لأن النوم بقدر الحاجة فيكون للانسان ساعات ولشرنقة النحل ودود القز ودود سائر الحشرات أياما معدودات كما تقدم فى (سورة طه) وغيرها إذ رأيت أيها الذكى هناك أن جميع الحشرات تنام وهى شرنقة أياما وتنسج على أنفسها كرة تناسبها لافرق فى ذلك بين دود القز والذباب وغيرها من مئات الألوف منها ثم تستيقظ كما يستيقظ دود القز وهذا مشروح شرحا تاما بالصور والأشكال. وعند الاستيقاظ تصبح طائرا يطير فى الجو، ويكون ذلك النوم لنفس النحل ولنفس الزنابير بأنواعها شهور فصل الشتاء وهذا الأخير هو الذى أوضحه كتاب (إخوان الصفاء).



(شكل ١٩ – سمكة متجمدة فى الثلج إذا ذاب عنها عادت إليها الحياة)

هنالك حضر صاحبى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير ولما اطلع على هذا قال: هذا القول حسن فى تفسير الآية، ولكن لو ذكرت لنا نص ما قاله (إخوان الصفاء) فى هذا المقام لكان أتم للفائدة. قلت: قال ثم تكلم النحل وقام خطيبا مذكرا مسبحا، وقال الحمد لله الواحد فاطر السموات وخالق المخلوقات ومدبر الأوقات ومنزل القطرات والبركات ومنبت العشب فى الفلوات ومخرج الزهر فى النبات وقاسم الأرزاق والأقوات نسبحه فى صباحنا بالغدوات ونحمده فى رواحنا بالعشيات بما علمنا من الصلوات والتحيات كما قال الله تعالى «وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم».

أما بعد أيها الملك العادل . يزعم هذا الإنسى بأن لهم علوما ومعارف وفكرا وروية وتدبيرا وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا ونحن عبيدهم فلو أنهم فكروا فى أوامرنا واعتبروا أيضا أحوالنا لبان لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا فى إصلاح شأننا أن لنا أيضا علماوفهما ومعرفة وتمييزا وفكرا وروية وسياسة وتدبيرا أدق وألطف وأحكم وأتقن مما لهم . فمن ذلك اجتماع جماعة النحل فى قراها وتمليكها عليها رئيسا واحدا واتخاذ ذلك الرئيس أعوانا وجنودا ورعية وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوتات المسدسات المتجاورات المكتنفات من غير بركار ومعرفة هندسية كأنها أنابيب مجوفة مسدسة ثم كيفية ترتيبها البوابين والحجاب والحراس والمحتسبين وكيف تذهب فى المرعى أيام الربيع وليالى القمر فى الصيف وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشافرها من زهر النبات ثم كيف تخزنها فى بعض البيوت وكيف تشد رأسها كأنها رءوس البرانى مشدودة بالقراطيس وكيف تبيض فى بعض البيوت وتحضن وتفرخ وكيف تأوى فى بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار وكيف يتقوتون من ذلك العسل المخزون هى وأولادها يوما بيوم لا إسرافا ولا تقتيرا إلى أن تنقضى أيام الشتاء وتجىء أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج النبت والزهر والنور وكيف ترعى كما كانت عام الأول وذلك دأبها من غير تعليم من الأستاذين ولا تأديب من المعلمين ولا تلقين من الآباء والأمهات بل تعلما من الله تعالى ووحيا وإلهاما وإنعاما وتكرما وتفضلا علينا ، وأنتم يامعشر الإنس تدعون علينا بالرقة وأنتم موالينا فلم ترغبون فى فضالتنا وتفرحون عند وجدانها وتستشفون عند تناولها فمن كان ملكا كيف يحرص ويرغب فى فضالة الخدم والخول ونحن مستغنون عنكم ؟ فليس لكم سبيل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وبهتان . وأيضا أيها الملك لو علم الإنسى من حال النمل فإنها كيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتا وأزقة ودهاليز وغرفا وطبقات منعطفات وكيف تملأ بعضها حبوبا وذخائر وقوتا للشتاء ، وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضا مصونا كيلا تجرى إليها المياه ، وبعضها مرتفعا وتخزن الحب والقوت فى بيوت منعطفات إلى فوق حذرا عليها من المطر وإذا ابتل منها شىء كيف تنشره أيام الصحو وكيف تقطع حب الحنطة نصفين وكيف تقشر الشعير والباقلا والعدس لعلمها بأنه لا ينبت مع التقشير ؟ وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلا ونهارا باتخاذ البيوت وجمع الذخائر وكيف تتصرف فى الطلب يوما يمنة ويوما يسرة فى القرية كأنها قوافل ذاهبين وجائين وأنها إذا ذهبت واحدة منها فوجدت شيئا لاتقدر على حمله أخذت منه قدرا ما وذهبت راجعة مخبرة للباقين وكلما استقبلتها واحدة شامتها مما فى فيها لتدلها على ذلك الشىء ثم ترى الكيفية كل واحدة منها على ذلك الطريق الذى جاءته من هناك ثم كيف تجمع على ذلك الشىء جماعة منها وكيف يحملونه ويحترزونه بجهد وعناء فى المعاونة وإذا علمت أن واحدة منها توانت فى العمل أو تكاسلت فى التعاون اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها . فلو تفكر الإنسى فى أمرها واعتبر أحوالها لعلم أن لها علما وفهما وتمييزا ومعرفة ودراية وتدبيرا وسياسة مثل مالهم ولما افتخر علينا بما ذكر .

وأيضا أيها الملك لو تفكر الإنسى فى أمر (الجراد) إنها إذا سمنت أيام الربيع من الرعى كيف تطلب أرضا طيبة التربة رخوة الحفرة وكيف نزلت هنالك وحفرت بأرجلها مخاليها وأدخلت أذنابها فى تلك الحفرة وطرحت بيضها فيها ودفنته وطارت وعاشت أياما وأكلتها الطيور ومات من بقى وهلك من حر أو برد وقت ثم إذا دار عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمنت وباضت مثل عام أول وهذا دأبها وذلك تقدير العزيز العليم ، فليعلم هذا الإنسى أن لنا علما ومعرفة وهكذا أيضا أيها الملك دود القز التى تكون على

رؤوس الأشجار والجبال فانها إذا شبعت من الرعى فى أيام الربيع وسمنت أخذت تنسج على نفسها من لعابها فى رؤوس الجبال شبه العش والسكن ثم تنام أياما معلومة فاذا انتبهت طرحت بيضها فى داخل ذلك السكن الذى نسجته على أنفسها ثم تقبتها وخرجت منها وسدت تلك الثقب وخرجت لها أجنحة وطارت فيأكلها الطير أوماتت من الحر والبرد والريح وللطر ويبقى ذلك البيض فى تلك الجوزات محروزة أيام الصيف والخريف والشتاء من الحر والبرد والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول وتجىء أيام الربيع وتحضن ذلك البيض فى الجوزات وتخرج من ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار وتدب على ورق الشجر أياما معلومة فاذا شبعت وسمنت نسجت على نفسها من لعابها مثل العام الأول وهكذا دأبها أبدا (وذلك تقدير العزيز العليم : الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) إلى أمور مصالحها ومنافعها ، وكذلك أيضا أيها الملك حال الزنابير الصفر والحمر والسود فانها تبنى أيضا منازل فى السقوف والحيطان ومن بين أغصان الأشجار مثل مايفعل النحل وتحضن وتبيض وتفرخ ولكنها لاتجمع القوت للشتاء ولاتدخر لغد شيئا ولكن تتقوت يوما بيوم ماطاب لها الوقت ، فاذا أحست بتغير الزمان ومجىء الشتاء ذهبت إلى الأغوار والمواضع الكنينة الدفئة ومنها مايدخل فى ثقب الحيطان والمواضع الكنينة الحصينة وتنام فيها أيامها طول الشتاء ، وإذا جاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفخ الله تعالى فيما سلم من تلك الجثث روح الحياة فعاشت وبنت البيوت وباضت وحضنت أولادها مثل عام الأول فهذا دأبها (ذلك تقدير العزيز العليم) وكل هذه الأنواع من الحشرات والهوام تبيض وتحضن وتربى أولادها بعلم ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحنن ولطف ورفق ولا تطلب من أولادها البر والمكافأة والجزاء ،

فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم براوصلة وجزاء ومكافأة ويمنون عليها فى تربيتهم إياهم وليس هذا من المروءة والفضل والكرم والجود والسخاء الذى هو من شيم الأحرار الكرام من أرباب الفضل ، وعاقبا يفتخر الإنس علينا إذ ألذما كولاتهم فضالتنا وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز ، فهم فى ما كولاتهم وملبوساتهم تحت متناولنا أيدى النعمة عليهم فكيف يدعون أنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم ، ثم قال النحل أما البراغيث والبق والديدان وما شاكلها من أبناء جنسها فانها لاتحضن ولاتلد ولاترضع ولاتربى أولادها ولاتبنى البيوت ولا تدخر العشب ولاتتخذ السكن بل تقطع أيام حياتها مرفهة ومستريحة مما يقاسى غيرها من برد الشتاء والرياح والأمطار وحوادث الزمان ، وإذا تغير عليها الزمان واضطرب السكان وتغالبت طبائع الأركان أسلمت نفسها للنوائب والحدثان وانقادت للممات لعلمها يقينا بالمعاد وتعلم أن الله تعالى منشئها ومعيدها فى العام القابل فتكون كما أنشأها أول مرة ولا تتقاول ولاتتنكر كما أنكرت الإنس وقالت (أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذن كرة خاسرة) فلو اعتبر هذا الإنسى أيها الملك فيما ذكرت من هذه الأشياء من تصاريف أمور هذه الحشرات والهوام لعلم وتبين له بأن لها علما وفهما ومعرفة وتمييزا ودراية وفكرا وروية وسياسة وتدبيرا . كل ذلك عناية من البارى تعالى ، ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم (أقول قولى هذا وأستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم

فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك بارك الله فيك من حكيم ما أعلمك ومن خطيب ما أفصحك ومن مبين ما أبلغك . انتهى

هذا ما أردت نقله من كتاب « إخوان الصفاء » للدلالة على نوم بعض الحيوان فى الشتاء شهورا كما نام بعض دودة أسابيع كما نام الإنسان ساعات ، فهل لك أن ترى أعجب مما تقدم ، لقد علمت فيما مضى فى هذا التفسير فى مواضع مختلفة أن النبات له حياة وله إحساس وهو أيضا ينام وذلك ظاهر فى زهره المشروح شرحا وافيا فيما تقدم ، إنما الذى يخر له العقلاء سجدا أن يقال أن الحبوب كالقمح والشعير والذرة وهكذا مما لا عد

له تنفس كما يتنفس النبات وكما يتنفس الحيوان وإذا كانت الحبوب تتنفس فعندها نوع من الحياة فالحب حية ولكنها نائمة ، إذن هى كالجنين فى بطن أمه وكأصول الفرخ فى البيضة ، كل هذه عندها نوع من الحياة إذن الحبوب نائمة ، فهاك أن تسمع ماجاء فى إحدى المجلات العلمية وهذا نصه :

الحياة حتى للحب

(كيف يمكنك أن تفسر ماتراه فى كل يوم من الظاهرات الكيميائية)
(كائن حى يعيش ١٠٠٠ سنة)

ترى أن البقول والحبوب تحيط بها أغلفة صلبة ويقرر العلماء أن فى داخل كل حبة منها كائن حى كامن فى نواتها ، فهل تعتقد أن هذا الكائن الحى يمكنه أن يتنفس من وراء هذا الغلاف الصلب ؟ ولاريب فى أن يتنفس الكائن الحى الموجود فى داخل الحبة مثلى ومثلك ولكن بأسلوبه الخاص ، فهو يستمد الأوكسجين من الهواء وبعد أن يتمثل فى جسمه يرسله فى الجو ثانى أوكسيد الفحم أى مثل الإنسان بالضبط ويستمر بفطرته على هذه الظاهرة طالما يبقى فى الحبة ولو أقل جزء من قوتها الحيوية أى أن لم تحطمها بعض الجراثيم أو الحشرات أو تحرق بالنار ، وقد يمتد أجل الكائن الحى الموجود فى الحبة إلى (٨٠٠) سنة ولاينقطع تنفسه الذى تقدم شرحه ، فاذا وضعت الحبة فى تربة صالحة إستمد منها مايلزم من الغذاء وظهر فى الوجود شجرة نضرة اهـ

(زيادة إيضاح قوله تعالى «ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله»)

يقول بعض علماء العصر اليوم إن الحبوب تتنفس ولاعجب فى ذلك فانها تخالف الأحجار والطين . فتلك لاتنفس لها لأنها جماد أماهذه فهى أصل النبات وجرثومته . وهل يكون الحى وهو النبات من غير حى وهو الحب كلا . بل الحب له حياة ضئيلة كحياة النائم . ولما كان نوم الإنسان هو المذكور فى الآية وإنه من آيات الله كان من حقنا أن نقول لافرق بين نوم ونوم فى كونها كلها من آيات الله بل من أعجب آيات الله أن أصبحنا نرى حب القمح الذى نأكله له حياة وقد جعلناه من العوالم النائمة ، إذ من الحكم وعجائب العلم مايفعله هذا الإنسان ، إنه قد نظر فرأى الزنابير (الصفر والحمر والسود) تنام زمن الشتاء كما تقدم ، ورأى بعض الحيوان ينام ببرد الثلج شهورا فماذا فعل ؟ قال فى نفسه . أفلا يمكننى أن أفعل مايفعله الحيوان والحشرات ، ولماذا لا أنام شهورا ؟ هنا لك قام البوذية والبراهمة بهذه التجربة فناموا ستة أشهر ، وقد طلعت على كيفية ذلك فى كتاب (رجايوقا) المترجم من الهندية إلى الإنجليزية ونقلت عنه كثيرا فى هذا التفسير . فماذا يفعل هؤلاء القوم ؟ يحبسون النفس داخلا تارة وخارجا أخرى بالتدريج أطول فأطول حتى تقدر النفس أن تتمكن فى التنفس وهناك تصير الدورة الدموية تحت إدارة الإنسان ، هنا لك متى أراد النوم نام ويبقى نائما ستة أشهر كما قلت لك وهذه قوة من هذا الإنسان قدر بها أن يغير عاداته بنفى النوم ، وهذا قول سبق بعضه فى سورة الإسراء وفيها ذكر التجارب التى ظهرت فى مصر من هذا النوع .

هذه تجارب أهل الهند قديما ولكن الإنسان الحالى نظر نظرة أخرى فقال الطير يطير والأرض والجو مسخرات لى فماذا لا أطير فى الجو ؟ ولماذا لا أفعل فى المادة ما أشاء ؟ ولا أقف مكتوف اليدين أمام الطبيعة فلأغير كل شىء .

هذا ولما كان نوم الانسان يعقبه العمل قال الله تعالى « وابتغاؤكم من فضله » وهذا فتح باب الكلام على الحركة . فهنا (حالان) نوم بعدم الحركة ويقظة بالحركة . وإذن وجب أن نذكر شذرة من كلام الأطباء

فى النوم وفى اليقظة تسهيلا لقراء هذا التفسير فى علم الصحة وتذكرة لمن يتفكرون . فلنذكر أولا ساعات النوم ثم نتبعها بما جاء فى الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان .

﴿ الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه ﴾

جاء فى كتاب (التدبيرات الصحية) الذى ألفه طبيبان مصريان فى علم الصحة للمدارس المصرية مانصه :

﴿ النوم ﴾

الإنسان فى حاجة شديدة إلى النوم لأنه من ضروريات الحياة فلا يحيا بدونه كما دلت على ذلك التجارب فى الحيوانات . فالكلب مثلا لايعيش أكثر من خمسة أيام بدون نوم . والانسان لايمكنه أن يعيش زمنا طويلا من غير أن يأخذ حظه من النوم إذ يتغير لونه ويحصل له آلام فى الرأس وضعف عن مزاولة أعماله لاضمحلال جسمه . وإذا استمر على عدم النوم انصرم حبل حياته .

﴿ أوقات النوم وعدد ساعاته ﴾

يختلف احتياج الجسم إلى النوم باختلاف السن . فالطفل محتاج إلى النوم مدة أطول مما يحتاج اليها الشاب كما يظهر ذلك من البيان الآتى :

الذين سنهم من (٤) إلى (٨) سنوات ينامون من (١٠) إلى (١٣) ساعة .
الذين سنهم من (٩) إلى (١٢) سنة ينامون من (٩) إلى (١٠) ساعات .
الذين سنهم من (١٣) إلى (١٦) سنة ينامون مقدار (١٠) ساعات .
الذين سنهم من (١٦) إلى (٢٥) سنة ينامون مقدار (٩) ساعات .

يقول المؤلف ومعلوم أن الكلام خاص بتلاميذ المدارس ومعلوم أن كبار السن تنقص مدة نومهم ساعة أو ساعتين على حسب السن والأحوال .

فلكى يتمكن الإنسان من نومه المدة اللازمة له يجب أن يعجل النوم حتى يستيقظ من نومه مبكرا فيذهب إلى المدرسة فى الميعاد المحدد لها فاذا أطلت السهر ولم تنم المدة الكافية لسنك ضعف جسمك وعقلك فلا يمكنك فهم دروسك أو القيام بعملك . وإذا أصبت بأرق فاستشر الطبيب ليرشدك إلى مايجب اتباعه كما أنه يجب ألا تكثر من ساعات النوم لأن ذلك يجلب الكسل وضعف الجسم وآلام الرأس وضعف شهوة الأكل فتصبح متأخرا عن اخوانك فى الدراسة لتأخرك فى الذهاب إلى المدرسة وصعوبة فهمك فلا ينتظر منك حينئذ أن تكون نشيطا فى مستقبل حياتك بل تعيش نكدا ، لاتنم عقب تناول العشاء لأن ذلك يسبب الأحلام المزعجة وربما أرقت وقد عرفت مضار الأرق فلا تذهب إلى فراشك إلا بعد مضى ساعتين على الأقل من تناول عشائك وإياك أن تنام عقب الانتهاء من مذاكرتك أو لعبك لأن ذلك ينجم عنه عدم راحتك فى نومك ، فاذا استرحت قليلا نمت نوما هادئا واستيقظت قويا نشيطا ، اغسل وجهك ويديك وفمك وأسنانك وقدميك قبل النوم لكى تنام نظيفا مستريحا وغير ملابسك بسواها من الملابس الخاصة بالنوم ، ويجب أن تنام على جنبك الأيمن .

يجب أن تكون حجرة نومك بحيث يسهل تجديد هوائها بعيدة عن كل محل تنبعث منه رائحة كريهة وأن تنفذ اليها أشعة الشمس نحو ساعتين كل يوم ولا تستعمل مصابيح الغاز أو الزيت أو الشمع فى حجرة نومك وأترك إحدى نوافذها البعيدة عن مرقدك مفتوحة طول الليل ، ولا تخش البرد مادام جسمك مغطى بغطاء كاف للدفء .

(فراش النوم)

يوضع الفراش على شيء مرتفع عن الأرض مثل السرير ليكون الجسم بعيدا عن رطوبة الأرض ويتكون الفراش من حشية (مرتبة) ويحسن أن تكون من القطن فوقها طهارة (ملاءة) من التيل أو القطن لتحفظها من الاتساخ وعليها وسادة مغطاة ولحاف أو قطيفة (بطانية) للغطاء وينصب على السرير كله (ناموسية) للوقاية من الأمراض التي تنتقل بالبعوض .

(تجديد الهواء في قاعات النوم والفراش)

بعد النهوض من النوم صباحا تفتح نوافذ الغرفة جميعها وتنزع جميع أجزاء الفراش وتنشر على النوافذ وتترك القاعة على هذه الحالة نحو ساعتين يكون الفراش فيهما معرضا لأشعة الشمس ثم ينفض الفراش من الأتربة وينقى من الحشرات وغيرها . وبعد تنظيف القاعة جيدا يوضع الفراش على السرير وتقفل النوافذ إلا جزء من نافذة يترك طول النهار مفتوحا ، وقبل ميعاد النوم بساعة تفتح النوافذ ليتجدد الهواء ، ويجب غسل خشب السرير الذي توضع عليه الحشية (المرتبة) كل أسبوع وتعريضها للشمس لتنقى من بيضات بعض الحشرات كالبق المنتشر في كثير من المنازل . انتهى الكلام على النوم وساعاته وما يناسبه .

(الكلام على الحركات المختلفة النافعة لصحة الإنسان تفسيرا لقوله تعالى «وابتغوا من فضله»)

معلوم أن هذا الابتغاء إنما يكون بالحركة فليكن الكلام في أنواعها فنقول جاء في كتاب (قانون الصحة المنزلية) تأليف الأستاذ (جون سايكس) مانصه :

(الرياضة البدنية)

من الحكم المأثورة ماورد (العقل السليم في الجسم السليم) ولذلك يلزم حفظ وظائف الجسم في حالة جيدة باستعمال الرياضة ، فحفظ العقل يكون باستمرار رياضة الجسم ، العضلات غير الارادية تنقبض وتنبسط بنظام خاص وذلك لحفظ وظائفها الطبيعية ، وتفيد الرياضة البدنية جميع الأشخاص مهما اختلفت سنهم إلا أنها تفيد أكثر في سن الطفولية ولذلك يلزم أن تكون الرياضة البدنية جزء مهما من الدراسة للبنين والبنات

(فوائد الرياضة البدنية هي)

(١) جعل العضلات أشد صلابة ومتانة .

(٢) زيادة التنفس وبذلك يزيد فعل الرئتين فتزيد تهوية الدم .

(٣) تقوى القلب وتزيد سرعة الدورة الدموية فتعتدل الحرارة في جميع الجسم .

(٤) تزيد فعل الجلد فيكثر التبخر من سطحه .

(٥) سرعة الهضم وتحريض أعضاء الإفراز والأمعاء والكلى على العمل وبذلك تخرج جميع الإفرازات التي لاتفيد الجسم .

(٦) وأخيرا تنشيط القوى العقلية .

وإذا تمادى الإنسان في الرياضة البدنية وتحمل منها أكثر من طاقته أضر بنفسه كثيرا بدل الفائدة التي كان ينتظرها ولذلك يلزم الإنسان التدرج في التمرينات البدنية حتى يصل إلى الدرجة التي تفيده منها لأن إجهاد الجسم فيها ينجم عنه أضرار عديدة ولاسيما الاجهاد الذي يقوم به المتسابقون في الحفلات ، ولذلك يجب عدم الترخيص بالتسابق إلا لأقوياء البنية والذين تمرنوا على الألعاب تدريجا حتى وصلوا لدرجة الدخول في المسابقة وكلما تنوعت أنواع التمرينات كانت النتيجة مرضية .

﴿ أنواع الرياضة البدنية المختلفة ﴾

يمكن عمل الرياضة البدنية داخل المنازل أو خارجها ، وتمتاز الرياضة خارج المنازل عن التي داخلها بتغيير المناظر ونقاوة الهواء إلا أنه في فصل الشتاء يفضل عملها داخل المنازل ، ولكن يمكن الجمع بين الاثنين بأن يمشي الإنسان مدة من الزمن قدر ساعة يوميا خارج المنزل ويقوم ببعض الألعاب الرياضية داخله كالربع وهو اللعب بالرباع وهي أثقال التمرينات البدنية مدة عشر دقائق بعد حمام الصباح وذلك يفيد سكان المدن على الخصوص لحرمانهم من الهواء النقي . والرياضة البدنية على أنواع كثيرة ، فمنها مايقصد منه التكسب كالتجارة والحرث والحفر وغيرها . يقول المؤلف وهذا قوله تعالى « وابتغاؤكم من فضله » ، ومنها مايقصد منه التسلية والصحة كالتمرينات البدنية .

﴿ العوم والتجديف ﴾

تتحرك أغلب عضلات الجسم في الحركات التي يقوم بها الجسم أثناء العوم ، والعوم يفيد لأنه يقوي البنية ويزيد في نظافة الجسم ويعلم الأطفال الشجاعة والاعتماد على النفس وإغاثة الغرقى ، والذين يحرمون العوم يسرون من التجديف وهو رياضة بدنية صحية تقوي عضلات الأطراف والجذع .

﴿ ركوب الدراجات ﴾

لايفيد الصدر كالتجديف إلا أنه يفيد الإنسان من حيث التمتع بالهواء الطلق ويلزم الاحتراس من إجهاد الجسم في هذا التمرين فانه ربما أضر القلب ، ويجب الامتناع عن صعود الجبال على الدراجات ، ولها ضرر آخر وهو الضغط على الأجزاء المرتخية من جسم الإنسان .

﴿ المشي ﴾

المشي أكثر أنواع الرياضة البدنية استعمالا وفيه تتحرك كثير من العضلات زيادة عن عضلات الساقين ويمتاز عن غيره من التمرينات بالتمتع بالمناظر التي لايمكن الوصول إليها راكبا .

﴿ الجباز والتمرينات الحربية ﴾

تكسب الجسم صحة وتعلم الانسان النظام وتغرس في نفسه الميل للعمل بنظام خاص وتعلمه حب الاجتماع ببني جنسه .

﴿ ركوب الخيل ﴾

ركوب الخيل من أحسن أنواع الرياضة البدنية وأصحها لمن استطاع ذلك ويمكن معه الصيد باستعمال الأسلحة النارية ، ومن الرياضة البدنية كرة القدم والكرة والصولجان والكرة والمضرب والشيش .

﴿ الصلاة ﴾

الصلاة مع كونها فريضة دينية لابد من القيام بها فهي رياضة صحية تكسب الجسم نشاطا وهمة بحركات الركوع والسجود والتسليم اه .

هذا وإني أذكرك أيها الذكي بما ذكرته في علم الصحة في سورة (طه) وفي سورة (الشعراء) فإنك تجد كلاما أوفى وأتم في الرياضة البدنية التي تشعر بها هذه الآية في قوله تعالى « وابتغاؤكم من فضله » انتهى الكلام على القسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

(القسم الرابع)

ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون * وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون * وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون * أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون * وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون * الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون * ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين * فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون * من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب

الكافرين * ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين * الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين * فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير * ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون * فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير * ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون * فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون * ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون * كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون *

(التفسير اللفظى)

قال تعالى (ضرب لكم مثلا) منتزعا (من أنفسكم) أى من أحوالها ، ولا جرم أنها أقرب الأمور إليكم (هل لكم) يا معاشر الأحرار (مما ملكت أيمانكم) من مماليككم (من شركاء فيما رزقناكم) من العقار والمنقول والنقود فتكونون أنتم وهم فيه مستوين يتصرفون فيه كتصرفكم وهذا قوله (فأنتم فيه سواء تخافونهم) أن يستبدوا بالتصرف فيه (كخيفتكم أنفسكم) كما يخاف الأحرار بعضهم من بعض ، المعنى هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم فى أموالكم فيساوونكم فى التصرف فيها ولا تتصرفون فيها إلا بإذنهم

خوفا من لائمة تلحقكم منهم كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده له شركاء. (كذلك) مثل ذلك التفصيل (نفصل الآيات) نبينها بالتمثيل الكاشف للمعاني (لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال (بل اتبع الذين ظلموا) بكفرهم وإشراكهم (أهواءهم بغير علم) جاهلين ولا علم يردعهم ؛ فأما العالم فربما رده علمه إلى الصواب يوما ما (فمن يهدى من أضل الله) أى لا أحد يقدر على هدايته (وما لهم من ناصرين) يخلصونهم من الضلالة والعذاب (فأقم وجهك للدين) فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت عنه يمينا ولا شمالا ، وهذا استعارة تمثيلية للتوجه التام وعدم الميل عن الدين والاهتمام به اهتماما مصحوبا بجد (حنيفا) أى حال كونك غير ملتفت عنه وهذا من بقية التمثيل إلزموا (فطرت الله التى فطر الناس عليها) خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له ولذلك قال: (لا تبديل لخلق الله) أى أن الله خلقهم قابلين للتوحيد والإسلام غير منكرين له لكونه مساوقا للنظر الصحيح فمن غوى منهم فإن الشياطين هم المغوون . وفي الحديث «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء أى مستوية لم يذهب من بدنها شيء هل تحسون فيها من جدعاء ، أى هل تشعرون أو تعلمون بهامن مقطوعة الأذن أو الأنف» وهذا الحديث رواية البخارى ومسلم وعجزها للبخارى وحده ، واعلم أن الإيمان (إيمانان) إيمان فطرى وقد علمته ، فالعقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد فيها فهو أشبه بالمادة التى خلقنا منها وكل ما يغرس فيه من حسن أو قبيح أو شريف أو وضيع ينبت كما تنبت الأرض حنظلا وفاكهة ودواء وسما ، فالأرض نوعت الزروع فيها وهى قابلة لها والنفوس تزرع فيها الديانات والعلوم فتقبلها ، ولكن من صفات الفطرة والخلقة الكونية أن يكون الخير عليها أغلب ، ألا ترى أن نبات الأرض كله يصلح للمراعى فما لا يصلح لأكثر الحيوان يصلح لأقله فالسم قليل والنفع أكثر من الضر هكذا عقول بنى آدم وقد خلقوا كجميع خلق الله فهم تامو بنية الجسم بيض الصحائف فى القلب فقوله عليه الصلاة والسلام «كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء» معناه أن البهيمة تكون كاملة الأعضاء أيام ولادتها هكذا العقل صحيفته بيضاء لم ينقش فيها نقش على بغيرها وكما أن البهيمة لا تجدع إلا بما يجدعها من الخارج هكذا صحيفة العقل لاتدلس بالآراء الفاسدة إلا عن يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين والنصرانيين ولو ترك الطفل وشأنه لعرف وحدانية الله . فهذا الاستعداد والفطرى والإيمان الفطرى لا اعتبار بهما فى أحكام الدنيا وإنما يعتبر الإيمان الشرعى المأمور به . ويروى أنه قيل يارسول الله أفرأيت من يموت صغيرا قال الله أعلم بما كانوا عاملين ومعنى (لا تبديل لخلق الله) أى ما ينبغى أن تبدل فطرة الله أو تغير أى لاتبدلوا دين الله بالشرك ولا تخصوا البهائم فذلك تغيير لخلقها ولا يغير ربك ما جبل عليه الإنسان من شقاوة أو سعادة بل كل ميسر لما خلق له (ذلك) هو (الدين القيم) الحق المستقيم (ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن دين الله هو الإسلام وقوله (منيبين إليه) حال من فاعل أقم أى فأقم وجهك يا محمد وأمتك معك راجعين إليه من أناب إذا رجع مرة بعد أخرى أو منقطعين إليه (واتقوه وأقيموا الصلاة) أدها فى أوقاتها (ولاتكونوا من المشركين) ممن يشرك به غيره فى العبادة ثم أبدل من قوله «من المشركين» قوله (من الذين فرقوا دينهم جعلوه) أديانا مختلفة لاختلاف أهوائهم وقلة عقولهم وقصور إدراكهم إذ سولت لهم أنفسهم أن الاختلاف فى بعض الفروع يوجب الاختلاف فى الأصول (وكانوا شيعا) فرقا مختلفة كأهل البدع فى هذه الأمة (كل حزب بما لديهم فرحون) راضون لأنهم كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه واطمأنوا لما علموا ككثير من رؤساء الطوائف فى الأمة الاسلامية اليوم ؛ يقول الأستاذ لتلاميذه لتكن وجهتكم كذا من أعمال البر ويفهمهم أن من عداهم جهلة غير واصلين لله فتختلف الوجهة ويحقرون غيرهم من أهل دينهم فتتفرق الأمة ولات حين مناص، واعلم أنه لادواء للفرق المتشعبة فى الأمة الاسلامية إلا بنشر العلوم الطبيعية والرياضية لأن هذه متى امتلأت بها

العقول أدركت جمال الله فكل ما جاء بعد ذلك لا يؤثر فيها ولا يفرق وحدة الأمة ، فأما مادامت العقول خاوية والنفوس جاهلة فإن أقل تعليم يحول الإنسان عن بقية الأمة ، فإذا أمر بذكر خاص كسور يتلوها أو عبادة يتجه إليها فإنه يغرم بها ويظن أن كل علم أو عبادة غير ذلك لا يدفع عارا ولا يذكى نارا ولا ينفع جارا فلا وسيلة لاتحاد الأمم الإسلامية إلا بنشر جمال النجوم وجمال النبات وبدائع المعادن ونظام هذا العالم فى مدارس المسلمين فهذه هى « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » فالله خالق هذه العوالم ومتى عرفها الناس صارت معرفتهم متحدة فلا تغير وجهة عقولهم العامة كما لا تغير وجهة السنن التى سنها الله فى خلق العوالم . إن الله هو الذى زين هذه الدنيا وهو الذى خلقها وهو الذى خلقنا ، فعلينا أن ننظر فيما خلق ونفرح بما أبدع ونسر بما أنشأ فلا تغيير لسنة الله فى الخلق فان القانون العام فى نمو النبات وسير الكواكب لا تغير فيه فالعلم به ثابت والذين يعرفونه تثبت عقيدتهم بربهم ويفرحون به فلا يلويهم عن وجهة الأمة العامة صارف لأنهم ثبتوا على الحقائق التى لا تغير وجهتها والله أسأله أن يقيض لهذه الأمة من يرشدهم إلى هذه السبيل إنه سميع الدعاء (وإذا مس الناس ضر) شدة وبلاء (دعوا ربهم منيبين إليه) راجعين إليه (ثم إذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (إذا فريق منهم بربهم يشركون) أى فاجأ فريق منهم بالاشراك بربهم لما عافاهم (ليكفروا بما آتيناهم) أمر للتهديد ثم التفت للمبالغة فقال (فتمتعوا فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم (أم أنزلنا عليهم سلطانا) حجة وعذر أى بل أأنزلنا عليهم (فهو يتكلم) تكلم دلالة (بما كانوا به يشركون) أى بشركهم ويأمرهم به (وإذا أذقنا الناس رحمة) كالنعمة والصحة والثروة والقوة (فرحوا بها) بطروا بسببها (وإن تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم وجهلهم لسنن الحياة وعصيانهم أوامر الدين والحكمة (إذا هم يقنطون) أى فاجؤا القنوط من رحمته (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) فما لهم لم يشكروا فى السراء ويحتسبوا فى الضراء كالمؤمنين فان من فطر هذا العالم على وجه الكمال لا ينزل الشدة بعباده إلا لما يعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير وابتلائهم وامتحانهم وتربيتهم فانه يربيهم بالرحمة ويربيهم بالتعذيب فلو أنهم شكروه عند السراء وتضرعوا له واحتسبوا عند الضراء لكان خيرا لهم ولكانوا منيبين لربهم فى حال الضراء والسراء إن هؤلاء الذين يضرعون إلى ربهم عند الشدة فاذا أزالها عنهم أشركوا به وهؤلاء الذين يبطرون بالنعم ويقنطون عند الشدة ليسوا منيبين لربهم وليسوا ملازمين الفطرة ، فلينيبوا له فى الرخاء والشدة فلا يعوقهم عن الإنابة نعمة تبطرهم بعد شدة ولا شدة تحدث فى قلوبهم اليأس بعد رحمة بل عليهم أن يكونوا له فى السراء والضراء منيبين ، إذا تقرر ما تقدم من أنه تجب الإنابة لله بحيث لا ييأس الإنسان إذا مسه شدة بعد رحمة ولا يبطر إذا زال عنه الضر وتمتع بالرحمة بل يجب أن يكون منيبا فى الحالين أمر أن يكون واصلا للرحم محسنا لغيره إذا أنعم الله عليه كما قال تعالى (فآت ذا القربى حقه) كصلة الرحم ، وقد أوجب أبو حنيفة رضى الله عنه النفقة للمحارم من هذه الآية (والمسكين وابن السبيل) أى المسافر والضيف (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) يطلبون ثواب الله بأعمالهم (وأولئك هم المفلحون ، وما آتيتم) أعطيتم (من ربا) من عطية تتوقعون بها مزيد مكافأة (ليربوا فى أموال الناس) بأن يعطى الرجل غيره عطية ليثيبه أكثر منها فهذا جائز لا حرمة فيها ولكن لا ثواب له يوم القيامة وهذا معنى قوله تعالى (فلا يربوا عند الله) فلا يكثر عند الله بالتضعيف ولا يقبله فان ذلك ليس خالصا لله ويلحق بذلك الرجل يلتزق بالرجل فيخدمه ويسافر معه فيجعل له ربح ماله لالتماس عونه لا لوجه الله تعالى فهذا لا ثواب له (وما آتيتم من زكاة) أى أعطيتم من صدقة (تريدون وجه الله) بتلك الصدقة (**فأولئك هم المضعفون**) أى يضاعف لهم الثواب فيعطون بالحسنة عشر أمثالها ، والمضعفون ذوو الأضعاف من الثواب كالمقوى والموسر

لذى القوة واليسار (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون) وهذا ظاهر ، واعلم أن الآيات المتقدمة دلت على عدم ثبات الناس وأنهم يبطرون فى النعماء وييأسون فى الشدة بعدها وينفقون المال لحطام الدنيا وكثير منهم لايصلون الرحم وانما يبذلون المال لشهواتهم فناسب أن يذكر بعدها أن أهل هذه الأرض مصابون اعتراهم النقص المشين كيف لا وقد (ظهر الفساد فى البر) بالحرب والغارات والجيوش والطيارات (والبحر) بالسفن الحربية والطوربيد والغواصات الخارقة للسفن وقطع الأسلاك البرقية أيام الحرب (بما كسبت أيدى الناس) أى بكسبهم إياه تارة كما تقدم أو بشؤم نقصهم وطبيعة أرضهم وأنهم هكذا خلقوا فى الأرض ليكون ذلك لهم ابتلاء وذلك كالطاعون وأنواع الحمى وتلك الحيوانات الدقيقة التى تسمى بالميكروب فإنها تملأ السهل والجبل وتحدث الأمراض والجدرى والحصباء وهذا ينزل الطاعون فى نوع أو أنواع من الحيوان وكذا النبات فان ماينفع الناس منه يصاب بآفات تعرض له كما يصاب قطن مصر وعنب فرنسا وسائر الأشجار النافعة بالجوائح المهلكة والفاتكات كل ذلك لأن هذا الانسان أودع هذه الأرض وقد استحق هذا لنقصه وذلك لتدريبه وتهذيبه وإلا فلماذا يكون النبات الذى ينتفع به تسطو عليه عاديات الدهر والمدمرات المهلكات من الجوائح ويخلق بجانبه نبات آخر يسطو على غذائه فيهلكه ولا يهلك هو ، ذلك لنقص هذا الانسان ويراد به كماله ، وملخص ماتقدم أن ظهور الفساد فى البر والبحر إما بعمل الانسان وإما بعمل طبيعى خلق لمناسبة نقص الانسان ابتلاء له وامتحانا وقوله تعالى (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه وذلك لأن تمامه فى الآخرة وهذا راجع لأحد القسمين وهو ماكان بفعل الإنسان (لعلهم يرجعون) عما هم عليه (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لتروا منازلهم ومساكنهم خاوية وكيف هلكوا بذنوبهم (كان أكثرهم مشركين) فلذلك أهلكوا بكفرهم (فأقم وجهك للدين القيم) البليغ الاستقامة وهو الإسلام (من قبل أن يأتى يوم لا مرد له) لايقدر أن يرده أحد (من الله) متعلق بمرد أن لايرده الله لأنه أراده (يومئذ يصدعون) يتصدعون أى يتفرقون فريق فى الجنة وفريق فى النار (من كفر فعليه كفره) أى وبال كفره وهى النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) يسوون منزلا فى الجنة ، ثم علل قوله «يمهدون» فقال (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لايحب الكافرين) أثبت المحبة للمؤمنين والبغض للكافرين (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) بالمطر أى ومن آياته إرسال الرياح لتبشركم بالمطر (وليذيقكم من رحمته) بالمطر والخصب (ولتجرى الفلك) بهذه الرياح (بأمره ولتبتغوا من فضله) يعنى تجارة البحر (ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا نعمة الله فيها (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا) بتدميرهم (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مع إنجائهم من العذاب ، وفى ذلك بشارة للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أنهم منصورون وقد تم ذلك فعلا ، وهكذا كل من قام بأمر عام لخدمة الأمة وإسعادها فان الله معه وناصره وإن حقا على الله أن ينصره (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى سمتها (كيف يشاء) سائرا أو واقفا ، مطبقا وغير مطبق ، مسيرة يوم أو أقل أو أكثر (ويجعله كسفا) قطعا تارة أخرى (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) من وسطه (فاذا أصاب به) بالودق (من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) يفرحون بالمطر (وإن كانوا) أى وقد كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر (لمبلسين) لآيسين (فانظر إلى آثار رحمة الله) أثر الغيث من النبات والأشجار وأنواع الثمار (كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك) الذى قدر على إحياء الأرض (لمحيى الموتى) لقادر على إحيائهم (وهو على كل شىء قدير ، ولئن أرسلنا ريحا) حارة أو باردة على الزرع

(فرأوه) أى الزرع (مصفرا) متغير اللون بعد الخضرة (لظلوا من بعده) أى من بعد اصفرار الزرع (يكفرون) يجحدون ماسلف من النعمة وهذا كإيضاح للآية المتقدمة «وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون» فهاهنا أذاقهم الرحمة بالمطر وبه حييت الأرض فلما أرسل الريح على الزرع فاصفر كفروا (فإنك لا تسمع الموتى) وهؤلاء مثلهم لأنهم لايسمعون الوعظ (ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين) وهذا القيد إشارة إلى شدة إعراضهم لأن الأصم إذا أقبل ربما فهم بالإشارة وهؤلاء لا يفهمون بأى طريق (وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى عمى القلوب (إن تسمع) أى ماتسمع (إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) منقادون لأوامر الله (الله الذى خلقكم من ضعف) أى ابتدأكم ضعفاء وجعل الضعف أساس أمركم (ثم جعل من بعد ضعف قوة) إذا بلغتم الحلم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) وهو تمام النقصان (يخلق مايشاء) أى من الضعف والقوة والشباب والشيبة (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على مايشاء (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون) يحلف المشركون (ما لبثوا) فى القبور (غير ساعة) وهذا استقلال لمدة لبثهم فى البرزخ مع طولها، فهاهم أولاء صرفوا فى الآخرة عن حقيقة مدة مكثهم فى البرزخ (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون فى الدنيا عن الحق (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) أى قال الذين أوتوا العلم فى كتاب الله والإيمان بالله للمنكرين لقد لبثتم إلى يوم البعث فى قبوركم (فهذا يوم البعث) الذى كنتم تنكرونه فى الدنيا (ولكنكم كنتم لاتعلمون) وقوعه فى الدنيا فلا ينفعكم علمكم به الآن (فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى ولا هم يدعون إلى مايقتضى إزالة عتبهم من التوبة والطاعة يقال استعتبنى فلان فأعتبته أى استرضانى فأرضيته. أى لاتطلب منهم التوبة التى تزيل الجريمة لأنها لاتقبل منهم (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) يشير بذلك إلى إزالة الأعذار والإتيان بما فوق الكفاية من الإنذار أى ولقد وصفنالهم كل صفة كأنها مثل فى غرابتها وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم الخ (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن (ليقولن الذين كفروا) من فرط عنادهم (إن أنتم) أى ما أنتم يا محمد ومن معك (إلا مبطلون) مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع (يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) لايطلبون العلم ويتمسكون بعقائد اعتقدوها والجهل المركب يمنع العلم (فاصبر) يا محمد على أذاهم (إن وعد الله) بنصرتك وإظهار دينك (حق) لابد من إنجازه (ولايستخفنك) لايحملنك على الخفة والقلق (الذين لايوقنون) بالبعث والحساب.

انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة.

﴿ جوهرة فى قوله تعالى «فطرت الله التى فطر الناس عليها» ﴾

(فى هذه الجوهرة أربع لطائف)

(١) فى فطرة البحث عن أصل العالم والإذعان لخالقه.

(٢) وفى فطرة العلوم الرياضية.

(٣) وفى فطرة العلوم المنطقية.

(٤) وفى فطرة مظاهر المخلوقات.

﴿ اللطيفة الأولى فى البحث عن خالق العالم والإذعان للربوبية ﴾

اعلم أن من فطرة الله تعالى الإذعان للربوبية، فهذه فطرة لاتفارق الناس مركوزة فى النفوس سارية فيها سريان الماء فى العود الأخضر والكهرباء فى كل جسم جامد وغاز وسائل، ومن عجب ما أذكره لك الآن لتدهش كما دهشت أنا حتى أنى لما اطلعت على ذلك هذه الليلة وهى ليلة الاثنين آخر شهر رمضان المعظم

قبل نصف الليل لم أجد بدا من كتابتها فرحا بنعمة العلم وتبيانا لجمال الحكمة الإلهية ، ذلك أن الله يقول «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى» وهذه الآية قد فسرها العلماء (بأحد طريقين) إما بأن هذا تم فعلا وقد نسى الناس ذلك ، وإما بأن هذا مجاز يعرب عن الحقيقة ، وما الحقيقة إلا أن عقل الانسان يشهد بذلك لأن الأدلة فى هذه الكائنات شاهدة بذلك ، فانظر ماذا جرى ؟ رأيت الليلة المحاورة بين أفلاطون وطيماوس ، وطيماوس اسم حكيم من حكماء الفيثاغورسيين جعله أفلاطون المتكلم فى محاوراته ، شرع طيماوس يتكلم فى أنه يبتهل إلى الله أن يلهمه الصواب من القول وأن يساعده هو ومن يسمعه فى حسن الإلقاء منه وإجادة الفهم عنه والقبول ، ثم قال ماملخصه (إن الوجود (قسمان): قسم دائم وليس بحادث وهذا يعرفه العقل لثباته على حال واحدة ، وقسم لا يدرك إلا بتخمين الوهم المشارك بالحس لأنه يحدث ثم يفنى وليس له وجود حقيق ، فهذا لابد له من علة ثم إن الصانع إذا جعل نصب عينيه مالا يتغير قط ، وحاول أن يحاكى صورته وقوته فلابد أن يبلغ مصنوعه درجة عالية من الجمال بخلاف ما إذا جعل نصب عينيه مثلا فانيا فان مصنوعه يبقى دون مرتبة الجمال ، فاذا تقرر هذا فإن أول ماينبغى الشروع فى البحث عن السماء أو العالم أو كيف ماشئتم أن تدعى هو المسألة التى يجب دائما الابتداء بها وهى هذه أعنى هل كان العالم دائما ولم يكن له حدوث أم هو حادث وله مبدأ فأقول إنه حادث ، ومصداقه أن العالم مرئى وملموس ومادى وكل ماله هذه الصفات فهو محسوس ، وكل ماهو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث ، ثم أقول إن كل حادث لابد له من علة ، فاذا سئل من هو صانع العالم وأبوه ؟ أقول إنه يصعب الوجدان ثم إذا وجدناه فإعلام الجمهور به ضرب من المحال ، ثم ينبغى بعد ذلك أن نبحث عن المثال الذى اتخذه صانع العالم عند صنعه إياه هل هو المثال الدائم الغير المتغير أم هذا المثال الحادث فأقول إذا كان العالم جميلا وصانعه أكمل الموجودات فلاشك أنه جعل نصب عينيه المثال الدائم الأفضل ، وإذا كان كلاهما مالا أتجاسر أن أقوله فهو قد اتخذ المثال الأسفل إلى أن قال «إن مابين الوجود والحدوث نسبة مابين الحق والظن ، فلا يعجبك يا سقراط أنى غير قادر على أن أشرح لك الإله ومنشأ الموجودات شرحا شافيا متصلا فى جميع أجزائه ، والأولى أن تقنع بكلامى إذا كان مشبها وألا تنس أن كلا منا المتكلم والمستمع من أبناء البشر فلابد لنا أن نقنع فى مثل هذا الموضوع بما هو أشبه ولا نطلب مافوق ذلك ، ثم شرع يبين أن صانع العالم صنعه لأنه جواد وقد أراد أن يجعله خيرا على قدر الامكان ولا يكون فيه شر على قدر الامكان ، فهو أخذ الأشياء المضطربة فنظمها ثم أبدع العقل فى النفس والنفس فى الجسد ونظم العالم على أفضل صورة وأجمل شكل فلزم من ذلك أن نقول إن هذا العالم موجود متنفس وعاقل أوجدته الحكمة الالهية ؛ وقد اتخذ الله لهذا العالم صورة الحيوان المطلق المشتمل على صور جميع الحيوانات ، فالعالم حيوان عاقل مرئى يتناول سائر الحيوانات ، ثم ذكر تكوين هذا الحيوان من العناصر الأربعة باعتبار ما كانوا يعرفون وقد جعله بشكل كرى ، إذ هو أكمل الأشكال وأفضلها ، ثم ذكر تكوين نفس العالم من العقل والمادة وشىء مشترك بينهما ، ثم أوجد الأيام والليالى عند تركيبه السماء وما هى إلا أجزاء الزمان الماضى والحال المستقبل ، وقد نتوهم لجهلنا أن مثل هذه الأجزاء لها نسبة إلى الوجود الأزلى كلا . فهو موجود أزلى لاغير لأن ماله تعلق بالزمان الماضى وبالمستقبل لايناسب إلا مايتغير فى الزمان ويمر فيه ومنشؤه الحركة ، لكن الموجود الأزلى الذى لاتغير فيه ولا حركة لايمكن أن يذكر فيه ذلك ثم تكوين الأفلاك السيارة وقال إنها أجرام حية ذوات نفوس وبين حركاتها وتقدير الزمان بها وتقسيم الزمان على نسبة هذه الحركات على الأيام والليالى والأشهر والسنين ، ثم تكوين الكواكب ثم لما تم تركيبها جمعها الصانع وخاطبها بهذه الخطبة ، ومما قال فيها (أنتم قد أحدثتكم ومع ذلك أنتم غير مائتين لأن إرادتى أقوى لكم من أن تكونوا قدماء من أصل نشأتكم والآن فانصتوا لى واعلموا ماأريده منكم ، أنه قد بقى أنواع من

الحيوان لم تخلق بعدولو لم تخلق لبقى العالم ناقصا، إذ لم يحتو على جميع أصناف الحيوان وهو لايتم إلا بذلك فلو منحتهم أنا الوجود والحياة لأصبحوا مثلكم لا يموتون ، فاجتهدوا أنتم فى تصوير هذه الحيوانات على حذو مافعلته فى إيجادكم حتى يكونوا قابلين للموت ولا ينقص من العالم شىء ، أما من لهم جزء إلهى من الحيوانات (يريد الإنسان) فهو قادر على الأمر بالخير إذا اتبع وأنا أعطيكم بذره وأصله وعليكم بعد ذلك تأليف الجزء الميت بالجزء الذى لا يموت وجعلهما حيوانات وتنميتهم بالغذاء اللازم وتلقيهم عند موتهم ، ثم ذكر بعد ذلك خلق الأرواح البشرية وأن الإله ركبها من العناصر التى ركب منها نفس العالم الكلية إلا أنها دون ذلك صنعا وكمالا ، ثم جعل الأرواح فى الكواكب . فمنها ماجعله فى الأرض ، ومنها ماجعله فى القمر . ومنها ماهو فى الكواكب الأخرى فأوقفها على نظام العالم وعلى الترتيب الذى اقتضته حكمته وبين لها أن لجميعها أصلا واحدا لافرق بين روح وروح ولكن لاتتظلم من عدم المساواة بينها . ثم شرح لها أنها عند اقترانها بالأبدان انما يلحقها التأثير من الحواس وما يتبعه من شهوة وغضب وخوف . فمن قهرها عاش مستقيما . ومن يذعن لها يكن عديم العدالة . ومن انتفع بحياته لإصلاح ضميره إنما يرجع كوكبه المختص به فيبقى فيه سعيدا . ومن قصر فى ذلك فقد يصير أنثى فى حياة ثانية . فاذا دام على الشر يصير حيوانا على شكل ماعتاده فى حياته من أنواع الخطأ ، فلا يزال يموت وينتقل من بدن إلى بدن إلى أن يرجع إلى الصلاح ويسخر مافيه من العناصر ويجعلها منقادة لرئاسة عقله ثم ذكر تصوير بدن الانسان على يد الله وتصوير الآلات المختلفة فيه من البصر والسمع وغيره الخ . انتهى المقصود منه .

ولما إطلع على هذا أحد الاخوان قال مامناسبة هذه القصة المخالفة للدين لهذه الآية ؟ قلت المناسبة أن الله عز وجل ألهم أفلاطون وهو رجل ليس بنبى ولكنه مفكر بعقله . أو لعله أخذ هذا القول عن نبى آخر فقد ذكر أن الله خلق أرواح الناس فى الكواكب المختلفات وألقى عليها نصائح وحذرها من الخضوع للشهوات فهذا وان لم يكن عليه دليل هو من دلائل النبوة . كيف يلقى الله على قلب رجل قبل الاسلام بنحو (٩) قرون نحوى آية «وإذا أخذ ربك من بنى آدم» الخ .

أفليس هذا من العجب . فأما قولك أنه مخالف للدين فهذا لايضرنا نقله ، بل هو يفيدنا فوائد عظيمة ويبين لنا مناهج أمم قبلنا نقل آباؤنا عنها وأخطؤا فى النقل ، فانظر العجب كيف يقول (إن هذا العالم حادث) فى هذه الجملة . أليس هذا من العجب أن يكون هذا الرأى منقولا بالنص عن نفس أفلاطون وهو عمدة فلاسفة اليونان ثم نسمع آباءنا ينقلون عن صغار علماء اليونان أن العالم قديم . أليس نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية أيام عز الدول الاسلامية كان فيه مصائب ومصائب ، فأين القدم إذن ؟ ألست تراه يذكر أن الزمان لايصدق إلا علينا نحن ، وهذا معقول لأن الله هو الذى خلق الزمان ، إذن من أين جاء لآبائنا مايهزأ به أبو العلاء المعرى بالديانات فيقول فى معنى أبيات .

﴿ إذا كان الإله لازمان له ولا مكان فمعناه ليست لنا عقول ﴾

فاما المخالفة للدين فهى فى أمور منها (أنه جعل الكواكب غير ميتة مع أنها حادثة) فأقول الكواكب عنده تدبرها الملائكة وقد صرح هو بأن العالم كله حيوان حى . وعندهم أن كل كوكب عاقل كأنه انسان فأما ديننا فانه يقول (إن الملائكة تدبر هذه الكواكب) ومن المعقول أن الخطاب لايكون لنفس الأجرام، بل هو للملائكة وهذا لا ينافى ديننا والملائكة كما يقول هو حادثون ولكنهم لايموتون . ومما ذكره أيضا أن الرجل الفاسق مثلا يرجع امرأة أو حيوانا ، فهذا ليس يقينا عنده ، بل هو يقول نحن نكتفى بما هو الأشبه فالقوم ليس عندهم نبى فقالوا باعتبار ماتخيلوه ، والاسلام أتى لنا بأمر مجمل بعد ذلك فذكر جهنم ثم هو ذكر

العقل والنفس والمادة وهذا حسن أيضا . إن سكان الكواكب أى الملائكة المدبرين يستقبلون الأرواح عند موتها وهذا هو نفس ديننا . وهذه الأرواح إن أحسنت رجعت إلى الكوكب الذى خلقت فيه وإن أساءت رجعت إلى حياة تعسة . ولا جرم أن هذا لم يجزم به وإنما قال لنا إنه هو الأشبه لأمثالنا نحن بنى آدم فى الأرض والله ذكر الجنة وأننا نكون فى قصورها إذا صلحت أعمالنا .

وبالجملة إن ذكر هذا القول فى مبدأ العالم وخلق الأرواح والأجسام وتعليم الأرواح قبل خلقها ثم مجازاتها بعد موتها جمع ملخص الكتب السماوية وهذا أمر عجب أن يصدر مثل هذا بالعقل قبل القرآن بنحو (٩) قرون . إن أمثال هذا أعده معجزة القرآن قبل نزوله بل هو ملخص الآيات السابقة فى هذه السورة . فانظر كيف يذكر الله أنه خلقنا من تراب وخلق لنا الأرواح والليل والنهار ونومنا فيهما واستيقاظنا وخلق السموات والأرض والبعث ، فهذه المقالة ترجع فى فحواها إلى هذه الآيات . ولعل هذا القول منقول عن أنبياء كانوا قبله والقرآن مصدق لما قبله من الديانات الحقة اهـ .

﴿ تذكرة ﴾

هذه المقالة كلها تفسير لقوله تعالى « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » إن تفسير الآية اللفظى لايفيد هذه العجائب . فأما ما كتبناه هنا فإنه قد ابتدئ فيه بذكر العالم الإجمالى أولا منذ خليقته ، وذكرت العناصر وعوالم السماء وعوالم الحيوان وعالم الإنسان وماعلاقة الإنسان بربه وماعلاقته بالأرواح المدبرة للكواكب وثم بتركب الإنسان وأنه مركب من مواد مائية أرضية وأمر إلهى دائم وباتحادهما صار هناك أعضاء حس وأعضاء حركة ومكان هو مقر الشهوة وآخر هو مقر الغضب ومنافع جمة فى أعضاء الجسم من فرقه إلى قدمه . ثم ذكر المرض والصحة . فهذا المقال جمع مابين التراب الذى نشأ منه الانسان وبين روحه ثم انتشاره فى الأرض . وبهذا وأمثاله تنشر العقول الخامدة فى الشرق بعد موتها وتبعث من مرقدها ولاتقف عند حد فى العلم والتعليم وارتقاء المدنية . ثم انظر إلى قول أفلاطون على لسان طيماوس : إن المادة لاصورة لها وهى نوع من الوجود عديم الصورة غير مدرك بالبصر مستعد لأن يقبل كل شىء له نسبة ما إلى الوجود المعقول وهى نسبة مبهمة عديمة الإدراك . ووازن هذا القول رعاك الله بما يقوله علماء العصر الحاضر (إن المادة ماهى إلا نقط كهربائية يدور سالبها حول موجبها نحو ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية فى العناصر المعروفة تقريبا وفى النور الشمسى مثلا من (٤٠٠) إلى (٧٠٠) مليون مليون مرة فى الثانية) فهذا الدوران السريع يجعلها دوائر ضوئية وهذه الدوائر الموهومة بكثرتها واختلاف حركاتها تكون منها العناصر المختلفات ثم تكون هذه العوالم العلوية والسفلية فانظره فى (سورة النور) عند آية «الله نور السموات والأرض» فى مقال تحت عنوان (قطرة ماء) فإنك تجد أن العلماء أجمعوا اليوم أن المادة هى ذلك الذى ذكرنا، وأن الذرات بينها خلاء كالخلاء بين الأرض وبين الشمس والقمر . إذن المادة أصبحت أخت العدم قديما وحديثا . وهذا معنى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » ومن عجب أن يتفق العلماء قديما وحديثا على أن المادة معدومة . ويقول علماء العصر الحاضر (إن الأصل هو عالم يسمى الأثير لايرى ولا يحس) إذن لافرق بين المحدثين والقدماء . فالحمد لله على نعمة العلم والحكمة ؛ انتهى عصر يوم الاثنين (١٩) من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ هـ .

(اللطيفة الثانية فى العلوم الرياضية)

هذا ما خطر لى يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٧ هجرية

يقول الله تعالى «الحمد لله فاطر السموات والأرض» فالسماء مفطورة والأرض مفطورة والحيوان مفطور والإنسان مفطور ولكل مخلوق حال خاصة جاءت له من أصل فطرته . وهذه الحيوانات مفطورة على أعمال بغرائزها التى فطرها الله عليها كما ترى الطيور مفطورة على الطيران وعلى بناء الأعشاش وتربية الذرية وبعضها مفطور على التغريد ، وبعض الحشرات مفطورات على الهندسة كالنحل والعنكبوت كما تقدم فى هذا التفسير والإنسان له فطرة أوسع من فطرة الحيوان . إنه مفطور على القياس والاستنتاج والتفكير بحيث يستنتج الأصعب من الأسهل ، والبعيد من القريب ، والغائب من الحاضر ، وعظائم الأمور وجلائلها من أقلها وأضعفها .

ألا ترى رعاك الله أنه استنتج علم الهندسة من أمور معروفات تسهل على عامة الناس وجهلائهم ورعاعهم فتراه يستنتج من هذه القضايا الأولية الآتية أفانين الهندسة وبدائع النظم ، والقضايا الأولية الآتية وهى :

(١) الأشياء المساوية لشىء واحد متساوية .

(٢) إن زيد على المتساوية متساوية صارت كلها متساوية .

(٣) وإن نقص من المتساوية متساوية صارت الباقية متساوية .

(٤) وإن زيد على غير المتساوية متساوية صارت كلها غير متساوية .

(٥) وإن نقص من غير المتساوية متساوية صارت الباقية غير متساوية .

(٦) والتى كل واحدة منها مثلان لشىء واحد بعينه فهى متساوية .

(٧) والتى كل واحدة منها نصف لشىء واحد فهى متساوية .

(٨) والكل أعظم من الجزء .

(٩) وإذا كان شيئان كل واحد منهما أعظم من كل ما الآخر أعظم منه وأصغر من جميع ما الآخر أصغر منه فهما متساويان .

(١٠) والنفى والإثبات لا يجتمعان .

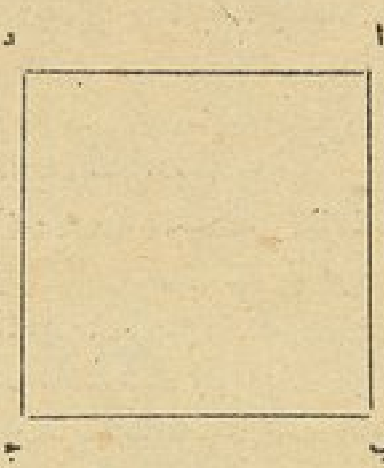
هذه هى القضايا الأولية التى استنتج العلماء منها الأشكال الهندسية فى المقالة الأولى وهكذا فعلوا فى الثانية والثالثة إلى المقالة الثامنة فى الهندسة حتى أنهم بلغوا شأوا عظيما فيها ونظموا المدن والممالك ، كل ذلك من نفس الفطرة . فالفطرة التى بها انبعث النحل والنمل والعنكبوت والأرضة إلى نظم أعمالها وهندستها وسياسة جماعاتها هى التى خلقت فى الإنسان ففتحت له أبواب العلم على مصراعيه مما يشاهده فى غدوه ورواحه مما يعتاده ، غاية الأمر أن الفطرة على [قسمين] فطرة جامدة . وفطرة قوية كاملة . فالفطرة الجامدة هى الكاملة الجامدة التى لا تفكر فيما حولها ، والفطرة القوية الكاملة هى التى تفكر وتستنتج وتستخرج العلوم والمعارف مما حولها . والفطر كلها من الله وقد أرسل الأنبياء ليوقظوا الناس لهذه الفطرة . فإذا سمع المسلم قوله تعالى «فطرت الله التى فطر الناس عليها» اندفع إلى العمل والجد بالتشمير . إذن الديانات جاءت لسوق الفطرة وإيقاظها لا لكسائها وإنامتها . فهذه القضايا التى فى أوائل الهندسة بها استخرج القوم علومهم ونظموا دولهم . هكذا فعل علماء الطبيعة بطرق أخرى غير طرق علماء الهندسة فاستخرجوا من صغائر الأمور عظائمها ، فانظر رعاك الله إلى بعض ما فطر عليه هذا الانسان .

(١) يتبع

(١) يقيس محيط الدائرة وقطرها ويعرف النسبة بينهما .
(٢) يقيس المربع ويستنتج قانونه .
(٣) يقيس المستطيل ويستنتج قانونه .
(٤) يقيس متوازى الأضلاع ويستنتج قانونه .
(٥) يقيس المثلث ويستنتج قانونه .
(٦) يقيس الأشكال المنتظمة المضلعة من مربعة ومخمسة ومسدسة وهكذا .
(٧) يمسح الدائرة ويستنتج قانونها .
(٨) يمسح القطاع ويستنتج قانونه .
(٩) يمسح المضلعات غير المنتظمة ويستنتج قانونها .
(١٠) يمسح السطح الجانبى للاسطوانة القائمة ويستخرج قانونها .
(١١) ثم يمسح السطح الجانبى للمخروط القائم ويستخرج قانونه .
(١٢) ثم يمسح الكرة ويستخرج قانونها .
(١٣) ثم يمسح حجم المكعب ويستخرج قانونه .
(١٤) ثم يمسح حجم متوازى المستطيلات والمنشور القائم والاسطوانة القائمة والاسطوانة المائلة .

هذه المساحات فى علم الطبيعة مركب بعضها على بعض كأنها سلالم ، وهذه درجات بعضها فوق بعض لايعرف الناس أعلاها إلا إذا توصلوا لها بأدناها ، فلا نعرف مساحة الأحجام إلا بمساحات السطوح وكل درجة مرتبة على ماقبلها كما فى أطوار الانسان طفلا ومراهقا وشابا الخ ، وكما فى أحوال الأمم فى رقيها ، وكما فى انتقال الإنسان من حال إلى حال فى أمور الدنيا والدين ، فلأشرح لك أيها الذكى بعض ماتقدم لتنظر فطرة الإنسان وكيف سارت فى السبيل التى سنها الله فيه ، وكيف جاء القرآن مؤيدا لهذه الفطرة وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إنما أرسلهم الله ليوقظوا هذه الفطرة لا ليخمدوها فإيقاظها كما حصل فى العصور الأولى من الإسلام وأما الخمود فهو فى العصور المتأخرة . ومعلوم أن الله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، ومن شأن هذا العالم أن الضد يكون بعد ضده . فإذا كان المسلمون الآن فى حال ضعف فسيكون من بعد ضعفهم قوة . وأى مسلم يقرأ مانكتبه الآن فى هذا التفسير ثم هو لايبذل نفسه وماله فى رقى نفسه والمسلمين . وكيف لايفعل ذلك وقد علم من هذا التفسير بالبرهان العقلى والنقلى أن حب الله عز وجل ورضاه مرتبطان بالتفوق فى البحث والتنقيب والدراسة والنظر فى آيات الله وعجائبه ، ومن أحب أحدا أكثر من البحث فى آثاره وأعماله . وهذه أجسامنا وأجسام العوالم حولنا كلها من آثار رحمة الله . فالمسلم بدراستها يقترب من الله فى كل لحظة ونفس . والتقرب المذكور من (جهتين) جهة العلم الذى اتصف به وجهة العمل وهو لنفع أمته بعلومه ومباحثه إذ يستخرج لهم من صغيرات الأمور كبيراتها ، ويقول المفسرون فى قوله تعالى «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» إن الربانيين هم الذين يعلمون الناس واضحات المسائل من العلم قبل دقيقاتها كما ترى فى علم الطبيعة فعلماء هذا الفن يبتدئون أولا بقياس محيط الدائرة وقياس قطرها فيجدون أن النسبة التقريبية بينهما ($\frac{1}{7}$٣) ثلاثة وسبع ٢٢ على ٧ أو ١٤ ر٣ أى ثلاثة و ١٤ من مائة وهذه النسبة يرمزون لها بحرف (ط) إذن طول المحيط يساوى القطر مضروبا فى (ط) ومعنى هذا أن طول المحيط بمقدار قطره (٣) مرات وسبع مرة إلى آخر ماتقدم . أو طول المحيط يساوى (٢ ط) فى نصف القطر ويرمز لنصف القطر (نق) إذن مساحة المحيط

تساوى (٢ ط) مضروبا فى (نق) . (ثانيا) مساحة المربع . أولا يرسمون مربعا (ابجد) بحيث يكون كل ضلع من أضلاعه (٥) سنتيمترات والسنتيمتر جزء من مائة من المتر ثم يقسمون (ب ج) خمسة أقسام متساوية فيكون كل جزء منها سنتيمترا واحدا . ثم يقيمون من نقط التقسيم أعمدة على الضلع المذكور ، ثم يقسمون الضلع (جـ د) إلى (٥) سنتيمترات أيضا ويقيمون من نقط التقسيم أعمدة عليه فيرون إذن أن المربع الذى تراه أمامك وها هوذا :



مثلا انقسم إلى (٢٥) مربعا صغيرا طول كل ضلع منها سنتيمترا واحدا فكل منها (سم) سنتيمتر مربع . إذن تكون مساحة المربع المذكور تساوى (٢٥) سنتيمترا مربعا (٥ فى ٥) سم ، فتكون النتيجة أن مساحة المربع تساوى حاصل ضرب طوله فى نفسه أى مربع طول ضلعه . (ثالثا) مساحة المستطيل وهو مالم يتساو طوله وعرضه وزواياه قائمة مثل مساحة سطح الباب والشباك ومؤخر الكرسى ويفعلون به مافعلوه فى المربع فينتج أن مساحة المستطيل تساوى حاصل ضرب قاعدته فى ارتفاعه (رابعا) مساحة متوازى الأضلاع فبعد أعمال يجرونها مثل ماتقدم يجدون أن مساحته تساوى حاصل ضرب قاعدته فى ارتفاعه ولا يتم ذلك لهم إلا بعد موازنته بالمستطيل المذكور قبله فهو مبنى عليه فلا حاجة إلى الإطالة فى ذلك ، ومتوازى الأضلاع المذكور لاتكون أضلاعه صانعة زاوية قائمة مع بعضها ويكون كل ضلعين متقابلين متوازيين (خامسا) مساحة المثلث ومساحة المثلث بنوها على مساحة متوازى الأضلاع فيرسمون ذلك المتوازى ويجدون له قطرا يقسمه إلى مثلثين وكل مثلث مساحته نصف مساحة متوازى الأضلاع المتحدمعه فى القاعدة والارتفاع فتكون النتيجة أن مساحة المثلث تساوى القاعدة فى نصف الارتفاع فهو مبنى على متوازى الأضلاع ومتوازى الأضلاع مبنى على المستطيل (سادسا) مساحة المضلعات المنظمة فيرسمون مسدسا مثلا منتظما كمسدسات بيوت النحل ويقسمونه إلى ستة مثلثات متساوية ويستنتجون من ذلك مساحة المسدس المنتظم كله وهو ضرب نصف القطر فى نصف طول المحيط وهذا واضح لأنه إذا كان المثلث يساوى ارتفاعه فى نصف قاعدته وكان عندنا ست أنصاف قواعد ضرب هذه الأنصاف فى نصف القطر وهو الارتفاع المشترك بينها يكون هو مساحة المسدس المنتظم ومثله مساحة جميع المضلعات المنتظمة . ولاجرم أن هذا البرهان منطبق تمام الانطباق على جميع المضلعات المنتظمة فالمخمس ينقسم إلى خمس مثلثات والمسبع إلى سبع مثلثات والقاعدة واحدة وهى ضرب نصف القطر فى نصف طول المحيط (سابعا) مساحة الدائرة ، أنت ترى أن المضلع المنظم قد عرفنا قانون مساحته ، ولا فرق بين ذى الأضلاع القليلة والأضلاع الكثيرة ، وما الدائرة إلا مضلع كثير الأضلاع لانهاية لعدد أضلاعه . إذن فلنقل إن مساحة الدائرة تساوى ضرب نصف القطر فى نصف المحيط كما قلنا فى الأشكال المنظمة إن مساحتها تساوى

نصف القطر فى نصف أضلاعها أو مساحة الدائرة تساوى نصف حاصل ضرب نصف قطرها فى طول محيطها . ومعلوم أن طول المحيط ٢ ط مضروبا فى نصف القطر فيكون هكذا ، مساحة الدائرة تساوى نصف القطر مضروبا فى ٢ ط مضروبا فى نصف القطر على اثنين أو مساحة الدائرة تساوى (ط نق ٢) أى تساوى (ط) فى نصف القطر مربعا فها نحن أولاء احتجنا فى مساحة الدائرة إلى مساحة الأشكال المنظمة وفى مساحة الأشكال المنظمة إلى مساحة المثلث وفى مساحة المثلث إلى مساحة متوازى الأضلاع وفى مساحة متوازى الأضلاع إلى مساحة المستطيل . هذا من جهة ومن جهة أخرى استعملنا أول نظرية وهى مساحة محيط الدائرة وبوضع هذا مع ذلك حدث عندنا نصف القطر المربع فقلنا (ط نق٢) فهذه درجات بعضها فوق بعض كدرجات العلوم ودرجات الارتقاء فى جميع أعمال الحياة كما قال تعالى « لتركبن طبقا عن طبق » وكما قال تعالى أيضا « فليرتقوا فى الأسباب » فهذه أمور مرتبة منظمة أعلاها متوقف على أدناها كما تتوقف آراء الإنسان وعلومه بعضها على بعض . ولاجرم أن الله عز وجل أعطى كل إنسان فى الأرض فطرة مشتركة مع الفطر العامة ولها اختصاص ما فإذا لم يعطلها وفتح الله لها أبواب المعارف ولم يمنعها تقليد أو كسل نالت درجات العلم درجة فدرجة منظمة انتظام هذه الأشكال بعضها على بعض . ولاينال الإنسان العلم الأعلى إلا بعد معرفة الأدنى كما لم يعرف مساحة الدائرة إلا بعد مساحات الأشكال قبلها من محيط الدائرة والمستطيل والمتوازى الأضلاع والمثلث والشكل المنتظم الخ . فاعلم ذلك وأيقن بأنك لاتنال علما إلا بعد أن تعرف ماقبله ولن تنال الأعلى إلا بعد أن تنال الأدنى وإلا خر أعلاها على أدناها وذهب العلم أدراج الرياح . (ثامنا) مساحة القطاع فإذا وجدنا أن مساحة الدائرة تساوى نصف حاصل ضرب نصف القطر فى المحيط فليكن الجزء من الدائرة وهو القطاع يساوى نصف حاصل ضرب نصف القطر فى طول القوس لأن القوس جزء من المحيط وهذا واضح (تاسعا) مساحة المضلعات غير المنتظمة وهذه مبنية على مساحة المثلثات كما بنى ماتقدم عليها فيقسم ذلك الشكل الذى لم ينظم إلى مثلثات ومجموعها تكون مساحة ذلك الشكل . (عاشرا) مساحة السطح الجانبى للاسطوانة القائمة كالأعمدة التى ترى فى المنازل والمساجد ، ولاجرم أننا لو لففنا حول الاسطوانة ورقة ثم بسطناها لم نجدها إلا مستطيلا قاعدته تساوى محيط قاعدة الاسطوانة وارتفاعه يساوى ارتفاعها ومعلوم أن مساحة محيط الدائرة [٢ ط نق] ولم يزدهنا إلا الارتفاع (ع) فتكون مساحة السطح الجانبى للاسطوانة القائمة تساوى [٢ ط نق فى ع] .

(١١) مساحة السطح الجانبى للمخروط القائم لما كان المخروط القائم فى الحقيقة يرجع إلى قطاع دائرة قوسه يساوى محيط قاعدة المخروط ونصف قطره يساوى راسمه وكانت مساحة قطاع الدائرة تساوى نصف حاصل ضرب قوسه فى نصف قطره كانت مساحة السطح الجانبى للمخروط تساوى نصف حاصل ضرب محيط قاعدته فى راسمه أى أن مساحة السطح الجانبى للمخروط تساوى نصف محيط القاعدة فى الراسم أو (٢ ط نق) على (٢) فى الراسم أو (ط نق) فى الراسم وصورة المخروط إشبه بقمع السكر .

(١٢) ثم تمادى القوم فى البراهين فعرفوا أن مساحة سطح الكرة (١٢) تساوى (٤ ط نق٢) و (نق٢) معناه نصف القطر مربعا .

(١٣) وحجم متوازى المستطيلات والمنشور القائم والاسطوانة القائمة يساوى فى جميعها ضرب مساحة القاعدة فى الارتفاع .

(١٤) وحجم المنشور المائل والاسطوانة المائلة يساوى كل منهما ضرب مساحة القاعدة فى الارتفاع .

(١٥) وحجم الهرم القائم يساوى (١ من ٣) من مساحة القاعدة فى الارتفاع ومثله حجم الهرم المائل

(١٦) وحجم المخروط يساوى (١ من ٣) من مساحة القاعدة فى الارتفاع أو ١ (من ٣ ط نق ٢ ع)

(١٧) وحجم الكرة يساوى (١ من ٣) من مساحة السطح فى نصف القطر أو (٤ على ٣ ط نق ٢ فى نق) أو (٤ على ٣) ط نق٣

هذه هى أهم المقاييس فى هذه الدنيا عرفها الناس بالبراهين فاستدلوا بالأقل على الأكثر وبالأسهل على الأصعب وانتقلوا من السطوح المستوية إلى السطوح المنحنية ثم إلى الأحجام المستوية والمنحنية . فبعد أن كانوا يقيسون الباب والشباك أخذوا يقيسون سطوح الهرم وأحجام الكرات العظيمة . وبهذا عرفوا مساحات الكرة الأرضية ومساحات الشمس سطحها وحجمها ومساحاتُ الكواكب العظيمة حتى عرفوا أن بعض الكواكب الصغيرة التى نراها بأعيننا تقدر بحجم الشمس (٢٥) مليون مرة .

هذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها . فطرة وثابة لا تستقر على حال حتى تصل إلى النهايات . يجلس أحدنا فى حجرته مفكرا فيجد روحه تطوف أرجاء العالم برا وبحرا وجوا وسماء وأرضا فى لحظة . فما هذه القدرة ؟ هذه الروح لو خليت وشأنها ولم تقيد بالقيود الأرضية لطارت إلى عوالم أجمل ولكنها قيدت وأوثقت حتى تربى فى هذه الأرض وتدرس هذه الأمور لتكون عونا لها فى مستقبل سفرها «وأن إلى ربك المنتهى» انتهى فى صباح يوم الأربعاء ٢٢ مايو سنة ١٩٢٩

(بهجة العلم فى مساحات هذه الأشكال)

هذا هو النظام الإلهى الجميل الذى يمر عليه أكثر الناس وهم غافلون . يالله ما أجمل فطرنا وأبهجها . هذه «فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » فطر الله أرواحنا على البحث والجد. فماذا نظرت ؟ العوالم فوجدتها ذات سطوح مستوية وأخرى منحنية أخذت تنظر فوجدت السطوح المستوية يمكن الاستغناء عن مساحتها بمساحات خطوطها المستقيمة . فما عليهم إلا أن يربعوا ضلع الشكل المربع فيعرفون المساحة ، ثم نظروا فى محيط الدائرة فوجدوا أنهم إذا داروا حولها كان ذلك نصبا لهم فاكتفوا بقطرها بل بنصف قطرها وضربوه فى اثنين مع الضرب فى النسبة أيضا وقالوا محيط الدائرة يساوى (٢ نق فى ط) بدل أن يقيسوا طول القطر كله ويضربوه فى النسبة التقريبية (ط) فما عليهم إلا أن يضربوا نصف القطر فى (٢) ثم يضربون ذلك فى (ط) واستعملوا هذا الاختصار فى مساحة الدائرة فقالوا (ط نق٢) وفى مساحة سطح الكرة قالوا (٤ط نق٢) فاذا لا مساحة فى محيط الدائرة ولا فى الدائرة ولا فى سطح الكرة إلا لنصف القطر ، غاية الأمر أنهم إما أن يضربوا تلك المساحة فى (٢) ثم فى (ط) وإما أن يربعوا تلك المساحة ثم يضربونها فى (ط) أو فى (٤ط) ولما وصلوا إلى حجم الكرة لم يصنعوا شيئا أكثر من مساحة نصف القطر أيضا وقالوا إن حجم الكرة (٤ من ٣ ط نق٣) ومعنى هذا أنهم لم يحتاجوا فى محيط الدائرة ولا فى الدائرة ولا فى سطح الكرة ولا فى حجم الكرة إلا إلى مساحة نصف القطر وحده وهذا يضرب فى أعداد تقل فى مساحة الخطوط المنحنية وتزيد فى مساحة السطوح وتكون أكثر فى مقادير الأحجام ، ففى حجم الكرة يكعبون نصف القطر ويضربون ذلك المكعب فى النسبة المتقدمة (ط) ويأخذون (٤ على ٣) من ذلك كله فيتم المقصود .

هذه فطرنا الوثابة التى لا تهدأ ولا تفتأ تنتقل من حال إلى حال (وأن إلى ربك المنتهى) (اللهم إن فطرنا أنوار أرسلتها إلى الأرض ونورها مرسل منك فهى تختصر الطريق للوصول إليك .

ها هى ذه وجدت الأجسام حولها محكومة بقوانين فعرفتها وتصرفت فيها وحكمتها . هاهى ذه عقولنا رأت الأرض والسماء والكواكب فحكمتها بالقوانين وجعلت لها وحدة ، وأصبح أحدنا يرى هذه العوالم على (قسمين) : عوالم فى أنفسنا وعوالم حولنا ، أما العوالم التى فى أنفسنا فانما هى قوانا الحيوية من الشهوة والغضب وما معهما من العواطف والأخلاق والرذائل والفضائل ، وأما العوالم التى هى حولنا فهى تلك الأشكال

المنظمة وغير المنظمة ، ثم يرى كل منا أن له (قوتين) : قوة عقلية وقوة إرادية ، فبقوة الإرادة نحكم على شهواتنا وعواطفنا ونهذب أخلاقنا ، وبالقوى العقلية نحكم على المادة ، فإرجاع المساحات المتنوعة إلى مساحة الخطوط المستقيمة بحكم قوانا العاقلة وإرجاع قوة الشهوة والغضب إلى حكم العقل إنما يكون بقوة عزيمتنا وإرادتنا ، إذن الذى حكم العالم الداخلى فى أنفسنا والخارجى فى عوالمنا هما أمران : العلم والإرادة ، والعلم والإرادة فينا من المواهب الإلهية المنبثة من العالم الإلهى الأعلى والله هو الولى الحميد .

(نظرة أعلى فى فطرتنا)

هذا عمل الفطرة فى عواطفنا وفى عوالمنا حكمتهما وجمالهما بالتهذيب فى الأولى والقوانين فى الثانية .
إذن هذه الأجسام الإنسانية وهذه العوالم الجسمية ألواح جعلت لتقرأها أرواحنا بدليل أنا نرى هذه العوالم وهذه الأجسام فى تغير مستمر كما أن الألواح للأطفال تمحى كتابتها ثم تكتب ، فما دام الطفل فى المكتب يدوم الإثبات والمحو فدوام التبدل فى أجسامنا وفى عوالمنا ماهو إلا علوم تظهر لنا فترسم فى أذهاننا ثم تتلوها أخرى ونفوسنا هى الباقية ، ألا ترى رعاك الله أننا نتذكر صورا وأشكالا كنا اطلعنا عليها فى الصغر فنراها الآن كما هى فى أنفسنا ولا وجود لها فى المادة .

سبحانك اللهم وبحمدك أريتنا وعلمتنا ولا سعادة لنا والله إلا بما فى نفوسنا ، أما هذه المادة فما هى إلا ألواحنا وهذه الألواح كما تقدم (فى سورة النور عند آية « الله نور السموات والأرض ») ماهى إلا نقط ضوئية يجرى سالبها حول موجبها وباختلافها تكونت العناصر ومن العناصر كانت المركبات ، إذن هذه المادة أشبه بالصور المتحركة المسماة (السينما) قد صار هذا الخيال عند حواسنا حقائق ثابتة رحمة من الله لنا ليعلمنا حتى نلحق بالعالم الأعلى عالم الكمال والجمال ، لقد أجمع القدماء من علماء الفلسفة والمحدثون ألا وجود للمادة وكل ماتراه ماهو إلا صفات وظواهر كما يعرف هذا من قرأ فن المقولات فى الفلسفة القديمة أو أضواء وكهرباء متكاثفة فى الفلسفة الحديثة والكهرباء والأضواء ترجع إلى حركات والحركات إنما تكون فى الأثير والأثير عالم أقرب إلى عالم الأرواح لا يرى ولا يلمس ولا يحس هذه هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . فطرهم أن يرتقوا فى الأسباب حتى تصل النفوس إلى عالمها فتكون هناك سعادتها وما مثل سعادة الأنفس فى الأرض بالمآكل والملابس والملك والعز والغلبة والقهر بالنسبة للسعادة الروحية إلا كنسبة الجهل إلى العلم أو نسبة العدم إلى الوجود أو نسبة الوجود المادى الموهوم إلى الوجود الروحى المحقق ، وماتنوع اللذات فى عالم المادة إلا ضرب مثل لتنوعها هناك فى عالم الأرواح .

أيها الذكى متى عرفت هذا وأيقنت به فهمت قوله تعالى (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون) فليس ماترونه من التبدل والتغير المستمر محوا وإثباتا لعبا ولهوا بل ذلك تعليم وتدريب لكم وليس تبدل الحوادث عليكم وتعاقبها إذلالا لكم وانتقاما بل تهذيبا وتعليما ، ولم أخلق هذه الفطر الوثابة فيكم إلا لغاية نافعة لكم ، أفلا ترون النحل وكثيرا من الحشرات ها أنا ذا قد كونت لها الأزهار بالألوان الجميلة لغاية حقيقية وهى أن تعشقها تلك الحشرات فتأتى إليها سراعا ثم تشرب منها العسل (لغايتين) : غاية منفعة النحلة ونحوها بحياتها ، وغاية إلقاح النبات بفعل الحشرات فاذا كان هذا فعلى بالفطرة الحيوانية ولا أعطى لها فطرة إلا لغاية نافعة لها ، فهل أعطى الإنسان هذه الفطرة الشريفة التى هى أرقى من فطرة الحشرات إلا لغاية عالية ؟ فاذا طارت النحلة للزهرة الملونة باللون الجميل فنالت العسل بهذه الطريقة أفلا يكون حبكم وغرامكم بالاطلاع على العوالم العلوية والسفلية والبهجة بكشف الكواكب الجديدة فى العصر وعدم وقوف نفوسكم على حال من تلك الأحوال الكثيرة دليلا على أنكم متجهون

إلى حال عالية شريفة تنتظركم ومقام سام شريف ، وهل يكون هذا إلا بالعلم . هذا بعض سر قوله تعالى «ولكن أكثرهم لايعلمون» لأن من يجهل أمر الحشرات وإلقاحها كأغلب أمم الإسلام اليوم فهو حرى أن يجهل أن خلق السموات والأرض مبنى على النظام وأن خلق الإنسان لغاية سامية شريفة عالية وسعادة باقية .

ففز بعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء

﴿ اللطيفة الثالثة فى العلوم المنطقية ﴾

اعلم أن الله عز وجل أعطى كل شىء خلقه فهدى ، فلكل حيوان فطرته الخاصة به بحيث كانت تلك الفطرة كافلة بشئونه العامة والخاصة ، فللنحل فطرة بها بنى بيوته وملأها بالعسل وربى ذريته ، وللعنكبوت نسيجها الخاص بها الذى يكون فيه مأواه وبه يصطاد الذباب وغيره من الحشرات وهكذا مما ظهر فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة . هكذا الانسان له فطرة بها يهتدى لثدى أمه ويمسكه ويمتصه ويبكى عند الجوع ويضحك عند الفرح . وهكذا تسوقه غريزته وفطرته إلى قيامه بشئونه وأعماله جميعها فيستعمل سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه ، كل ذلك بفطرته بلا معلم يعلمه ولا مرشد يرشده ، وقد وجد الناس فى عصرنا أنهم عثروا فى الآثار المتوغلة فى القدم أن الأمم جميعها لها معابد وعبادات وصلوات وتوجهات إلى المعبود ، واختلافهم إنما هو فى أوصافه وعدده ولكنهم جميعا متفقون على وجوده ، إذن الاتجاه إلى موجود له سمو وعلو مسلم به فى الفطرة وهذا معنى قوله تعالى «فطرت الله التى فطر الناس عليها» فإن هذا النوع الانسانى قد اتفق تاريخ أممه على أنهم جميعا كانوا يتسابقون إلى الاستعانة بالموجود الأسمى ، وفطرة الناس منحصرة فى (أمرين اثنين) لا ثالث لهما (الأمر الأول) إنماء الجسم والمحافظة على النسل ، فلا رجل ولا امرأة إلا دأبهما المحافظة على بقاء أجسامهما وتربية ذريتهما ، هذه فطرة فيهما ولولاها لخلت الأرض من نوع الإنسان وهكذا كل حيوان (الأمر الثانى) المحافظة على إسعاد الروح وآية ذلك ماتراه من حفظ العرض والخوف من الشماتة والعار والخزى والذل وما أشبه ذلك وهكذا ماذكرناه من توجهها لمبدع الكون واعترافها به وعموم ذلك فى كل زمان ومكان قديما وحديثا حتى إن الحيوانات عند حدوث الملمات ترفع وجوهها إلى أعلى دلالة على أنها عرفت أن هناك مصدر لوجودها تستغيث به ليس فى هذه الأرض ، إذن الفطرة تشمل أعمال الروح وأعمال الجسم إجمالا ، هذه الفطرة كما ألهمت الصبى التقام ثدى أمه حفزت المراهق والشاب والشيخ أن يتعاطوا الطعام والشراب والزرع والتجارة وجميع أعمال الحياة ، فالناس عاملون فى الدنيا لطلب الرزق بفطرتهم كما تعمل الطير سواء بسواء ، ولقد تجد أمة كالأمة المصرية والعراقية نهرا يجرى كالنيل والفرات فيستعملونه بأن يسقوا أرضهم ويزرعوها وهنا يساعد تلك الفطرة مدربون ومعلمون فيعلم الكبار الصغار كيف يحرثون الأرض وكيف يبذرون البذر وهذا بعينه فطرة بعض الطير تساعد أولادها فى غدوها ورواحها وتكون قدوة لها ، وهذه الفطرة كافية للأمم فى حال بداوتها وفى حال طفوليتها فتكون أعمالهم قليلة وطرق كسبهم أقرب إلى البساطة وكلما كثر عددهم وازداد جمعهم نمت فيهم ملكات التفكير وازدادت طرق الأعمال فاحتاجوا إلى إبراز ما كمن فى فطرهم من فنون العلوم كالهندسة والحساب والجبر ورصدوا النجوم ليعرفوا طرق البر والبحر ، هنالك يستخرجون من الأرض والعوالم المحيطة بهم كنوزا كانت مخبوءة فيها على مقدار استخراج القوى الكامنة فى فطرهم إلى حيز الوجود وذلك بالعلوم الطبيعية والرياضية وغيرها (وبيانه) أن الإنسان يسمع ويبصر للمسموعات والمبصرات ولكل حاسة محسوسات خاصة؛ فالألوان والبعد والقرب والشكل والقدر والسطح وما أشبه ذلك تعرف بالبصر وأنواع الأصوات تعرف بالسمع ، فاذا كان المحسوس لايعرف إلا بحاسة واحدة

وكانت الحاسة سليمة من الآفات فهذه الحاسة صادقة فى حكمها عليه ، ألا ترى أن الصوت إنما يعرف بالسمع أما اللون والشكل مثلا فالسمع لايدركهما هكذا الصوت لايدركه البصر ، إذن هذان كل واحد منهما مختص بحاسة لا يشاركها سواها فى إدراكه . إذن يصدق السمع فى المسموع والبصر فيما اختص به من الألوان ونحوها .

﴿ التفاحة واللبن ﴾

فأما أمثال التفاح واللبن فإنهما لا يختصان بحاسة واحدة . فإذن لا تصدق العين فى حكمها على التفاحة ولا فى حكمها على اللبن ، وبيانه أن الإنسان يشاهد التفاحة فيحكم عادة بأنها تفاحة ، وقد يكون مخطئا لأننا لو صنعنا تفاحة من الكافور ولوناها بلون التفاح ورأيناها ثم شممناها لحكمنا فى أول الأمر خطأ أنها تفاحة مع أن هناك حاستين أخريين يجب أن تشهدا وهما حاسة الذوق وحاسة اللمس فإن حكمتا فيها وإلا فلا . هكذا إذا صنعنا ما يشبه اللبن كالدقيق المخلوط بالماء فالعين تراه ويخيل للعقل أنه لبن فلا بد من حكم القوة الذائقة مع العين ، فهاهنا ثلاث مراتب فى الحكم : حكم بحاسة واحدة وحكم بحاستين وحكم بثلاث حواس . فإذا خالفنا هذه القواعد فإن العقل قد يحكم خطأ . ألا ترى أنه يرى السراب فى وسط النهار فيحكم بأنه ماء والعين صادقة فى أنها رأت لون الماء وهيأته فحكم العقل إذن بأنه ماء خطأ لأن الماء لا يعرف بحاسة البصر وحده فلا بد من انضمام حاسة اللمس إليه ليعرف أنه سائل وحاسة الذوق ليعرف أنه ماء وما دام ذلك متعذرا على من بالصحراء فحكمه معرض للخطأ . هذا مجمل الأدلة وهى فى أحكام الحواس فى محسوساتها .

﴿ مقاييس العقول التى تقيس بها المعانى فتعرف صادقها وكاذبها ﴾

للعقول الإنسانية المنبعثة من الفطرة مقاييس خمسة : مقياس يحكم حكما قاطعا . ومقياس يحكم حكما ظنيا ، ومقياس يقيس ويكون أضعف حكما مما قبله . وقياس يكون أقرب إلى الوهم . وقياس قصد أن يكون حكمه خطأ . فأما المقياس الأول فهو البرهان ، وأما الثانى فهو الجدل . وأما الثالث فهو الخطابة . وأما الرابع فهو الشعر . وأما الخامس فهو السفسطة . أما البرهان فذلك هو المبنى على ماشهدت به الفطرة فى مبادىء أمرها بحيث لا يختلف فيها ولا يشتبه جميع الناس من جهال وعلماء وأغبياء وأذكياء مثل .

(١) إن الواحد نصف الإثنين والكل أعظم من الجزء .

(٢) والشيئان المساويان لشىء واحد متساويان .

(٣) والنفى والإثبات لا يجتمعان .

(٤) وإذا أضفنا شيئين متساويين لشيئين متساويين كان المجموعان متساويين .

(٥) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين متساويين كان الباقيان متساويين .

(٦) وإذا أضفنا شيئين متساويين إلى شيئين غير متساويين كان المجموعان غير متساويين .

(٧) وإذا طرحنا شيئين متساويين من شيئين غير متساويين كان الباقيان غير متساويين .

(٨) وإذا ساوى شيئان نصف الشىء كانا متساويين .

(٩) وإذا ملأ شيئان حيزا واحدا على التعاقب كانا متساويين .

وهكذا مما ذكره (اقليدس) فى أوائل الهندسة ، وهذه وأمثالها هى المسميات أوليات لأنها تعرف فى أوائل العقول ومثلها المحسوسات المتقدمة على شرط سلامة الحواس واستيفاء الشرائط التى أشرنا إليها . وهكذا

ما صدقه التجربة مثل العقاقير الطبية المسهلة والمخدرة والمنومة والمعطية حرارة أو برودة الجسم ، فهذه متى صدقت تجربتها عدت من المقطوع بها . وهذا التواتر الذى شهد به جموع يحكم العقل قطعا بصدقهم كما نقول فى مصر إن فى الأرض بلادا تسمى الصين أو اليابان أو فرنسا أو ألمانيا أو استراليا ومكة والمدينة والمين فهذه نقطع بوجودها وإن لم نرها . وهكذا ما لاحظناه مرارا وعقلناه مثل أن نرى أن القمر إذا كان مقابلا للشمس امتلأ ضوءا وكلما اقترب منها قل ضوؤه ، ومتى كان مقارنا لها لم يكن له ضوء ، فهذا دلنا على أنه استمد نوره منها لأنه لما قابلها أشرق نورها عليه فلما صار بيننا وبينها فلا كان وجهه المشرق فى جهة الشمس لا فى جهتنا ثم تكرر هذا فحكمنا حكما يقينيا كما حكمنا فى المجربات سابقا . وهكذا نلاحظ أن فى باطننا آلاما نسميها جوعا وآلاما نسميها عطشا وأخرى نسميها شبعا وأخرى نسميها مرضا وهى كثيرة لاحد لها ، ونجد لنا غضبا وحسدا وحقدا ورغبة ورهبة وحبا وكراهة فهذه يقينيات .

فهذه كلها إذا جعلت مقدمات فى أدلتنا اليقينية كانت معينة على صدق النتيجة . هذا هو المسمى بالبرهان ويليه فى القوة الجدل .

﴿ الجدل والخطابة والسفسطة والشعر ﴾

أما الجدل فهو ما يستعمله المناظر ان بحيث يورد كل منهما ما يسلم الخصم به كالمسلمات والمشهورات كرجال الدين والمذاهب المختلفة فى كل أمة فهؤلاء يكفيهم فى أدلتهم ما يوجب الظن والترجيح لاغير . وأقل من الجدل الخطابة ، فالخطيب يشوق المستمعين بما يخلب عقولهم فيستعين بالأمثال المشهورة مثلا ويجيبهم فيما يريد بالطرق المتوسطة بين الصدق والكذب كالأسلوب الشعري وهناك ما يقصد به التحسين والتقبيح . ولقد تكفل بهذا فن البيان بأمثال المجاز والكناية والتشبيه والاستعارة التمثيلية وما أشبه ذلك . فهذه كلها يقصد بها جذب المخاطبين بالصور الجذابة ولا يراعى فيها الحقائق والسامع لها قد يعرف كذبها ولكن لها أثر فى النفس وأدناها كلها المغالطة وهى السفسطة التى يستعملها رجال السياسة وأمثالهم بأن يأتوا بأدلة تشبه الحق وقد أرادوا بها باطلا وقد شبهوها بالدينار ، فإن كان ذهبا خالصا فهو مثال البرهان الذى لا يخطر ضده بالبال ، وإن كان فيه زغل لا يعرفه إلا الحاذقون كان مثالا للجدل ، وإن كان زغله يعرف بسهولة كان مثالا للخطابة وإن كان نحاسا كله كان مثالا للمغالطة . وأما الشعر فهو يقصد به التحسين والتقبيح لا البرهان .

فهذا كله ملخص من علم المنطق وعلم المنطق ملح العلوم كلها وما ذكرناه هو أحد قسميه المسمى بالتصديق .
واعلم أن المطلوب علمه :

(١) إن كان أمثال هذه الشجرة أو هذه الدواة فهذا لا يبرهن عليه ولكن سبيل العلم إليه إنما يكون بالتحليل والتحليل قام به علم الكيمياء ، فترى علم الكيمياء قام بتحليل المواد فعرفت فيحللون الماء والهواء ويفصلون العناصر التى حواها كلاهما فيحكمون حكما قاطعا .

(٢) وإن كان نوعا كالإنسان فلا سبيل الحكم عليه بالتحليل ولا بالبرهان ولكن بالتعريف وذلك بالحد أو الرسم المعروفين فى المنطق وذلك بالجنس والفصل القريب فى الأول بأن يقال هو حيوان ناطق أو بالجنس وحده أو بالجنس والفصل البعيد فى الثانى .

(٣) وإن كان المطلوب جنسا فلا حكم عليه بحد ولا بتحليل بل بالقياس كحدوث العالم وكنفع العقاقير وضرها وهكذا فهذه لابد فيها من القياس .

(٤) وإن كان المطلوب إنما هو تمييز الكليات بعضها من بعض فلا سبيل لها إلا بالتقسيم كمعرفة الفرق

يعني المادة ومقاديرها وأعراضها المحسوسة من أوصافها المنظورة والمسموعة والمذوقة والملموسة ومن نسبتها إلى غيرها كالأبوة والبنوة ومكانها وزمانها وفعلها في غيرها وانفعالها لغيرها . فهذا كله لايتم إلا بالتقسيم وله فن يسمى (فن المقولات) من علم المنطق وهو أيضا من الفلسفة العامة . واعلم أن المتعلمين في مدارس العالم قاطبة يستعملون التحليل كما تقدم في علم الكيمياء بسائر فروعها فهذا يورثهم يقينا فيما يزاولونه وبه استنتجوا منافع النوع الإنساني وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإذا رأينا الله فطر الطفل على التقام ثدي أمه وعلى إغماض عينه سريعا إذا أحس باقتراب جسم غريب إليها ، نرى الذين يحللون المواد يعرفون حقائقها بفطرتهم غاية الأمر أن الفطرة في الأول لا تحتاج إلى تعلم لاستخراج ما كمن في أنفسنا ، وهم أيضا يقسمون الكلمة إلى (ثلاثة أقسام) اسم وفعل وحرف وهو من أنواع المنطق المتقدمة ، ونراهم أيضا يقرءون الهندسة وكلها براهين والبراهين أشرف أنواع القياس ، إذن العلوم التي يدرسها الناس مشحونة بعلم المنطق الذي به استخرج الناس المجهول بواسطة المعلوم وهذا الاستخراج سببه الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فإذا فطر الله الناس على استعمال الفاكهة التي يرونها في الجبال بلا زرع هكذا فطرهم على أن يستخرجوا من الأرض بالجد والبحث ما يوازي ما استعملوه بلا جد ولا نصب ، وإذا رأيناهم أجابوا الأنبياء كنبينا صلى الله عليه وسلم إذا أسمعهم دين الفطرة وقرأ لهم القرآن هكذا نراهم استخرجوا بعقولهم وفطنهم من هذا المسموع ومن المعقول الموافق له علوما استبحر بها العمران وارتقت الأمم ، فشجر البادية استعملناه بفطرتنا وشجر حدائقنا استعملناه بعد الجد والنصب بمساعدة فطرتنا والقرآن عرفنا منه حرمة وأد البنات بمجرد سماعه ولكن لا تنظم الأمم ولا الجماعات على طريق القرآن إلا بجد ونصب وإعمال فكر بمساعدة فطرنا .

﴿ مراتب الناس في الاستدلال ﴾

(١) « مرتبة الصبي » إن الصبيان مطبوعون على القياس والاستدلال وتكون نتائجهم مابين صادقة وكاذبة لعدم اختبارهم ، فإذا رأى الصبي نظيره في مكتب أو طريق حكم بأن له والدين وهذا الحكم صحيح لأنه استدلال بالمعلول على العلة لأن المعلول لابد له من علة .

(٢) إذا رأى زوجا وزوجة قال لهما أين ولدكما وهذا الحكم يصدق ويكذب لجواز ألا يكون لهما ولد لأن العلة لا تنتج المعلول إلا إذا استوفت جميع شرائطها والزوجان لايلزم من وجودهما وجود الولد لأنهما يصلحان علة بشرائط خاصة ومتى فقدت لم يصلحا أن يكونا علة .

(٣) وهكذا كما رأى ولدا ظن أن له إخوة كإخوته ودارا ودابة وجوعا وشبعا على حسب ما يقوم بنفسه هو في وقت الاتصاف بذلك ، فإن جاع ظن جميع الأولاد جياعا وهكذا إن عطش وعلى ذلك فقس ولايقلع عن ذلك إلا بعد أن يعقل ويدرك خطأه .

(٤) ومتى كبر وأدرك خطأ تلك القضايا وجد في نفسه بقيتها مثل أن يعتقد أن الطرق كل بلد حين يكون ببلده وهكذا الحر والبرد والصيف والشتاء وهكذا كله خطأ ، ففي الأرض شتاء أيام صيف بلاده وبالعكس وعلى ذلك فقس وذلك يمنعه التعلم .

(٥) إن كل نتيجة لابد لها من مقدمتين فأكثر في كل استدلال منطقي أو هندسي أو غيرهما وقد تكون المقدمات كثيرة جدا مثل قولهم زوايا المثلث تساوي قائمتين لم تكن إلا بعد اثنين وثلاثين شكلا وقولهم مربع وتر الزاوية القائمة مساو لمربع مجموع الضلعين الآخرين لم يتم إلا بعد (٤٧) شكلا وهذا الشكل عندهم يسمى شكل العروس .

(٦) وقد يكتفي في البرهان بالقليل من المقدمات . مثال ذلك الاستدلال على النفس فيقال (كل جسم

فهو ذو جهات) ولاجرم أن هذه مقدمة صادقة لا عوج فيها (وليس يمكن الجسم أن يتحرك إلى جميع جهاته دفعة واحدة) وهذه مقدمة أيضا صادقة فى أولية العقول (وكل جسم يتحرك إلى جهة دون جهة فلعلة ما تحرك) وهذا إثبات النفس ، ويراد بعد ذلك إثبات أنها جوهر لا عرض فيقال (وكل علة محركة للجسم لا يخلو من أن تكون حركتها على وتيرة واحدة فى جهة واحدة مثل حركة الثقيل إلى أسفل والخفيف إلى فوق ، فهذه تسمى علة طبيعية ، وإما أن تكون حركتها إلى جهات مختلفة وعلى فنون شتى بإرادة واختيار مثل حركة الحيوان فتسمى نفسانية) وهذه قسمة عقلية مدركة حسا (فكل علة محركة للجسم بإرادة واختيار فهو جوهر) فالنفس إذن جوهر لأن العرض لا فعل له .

هذا ملخص ماذكره [إخوان الصفا] هنا، وأنا أقول أيها الذكى هذه الألفاظ غريبة على هذا الكتاب وقد طال أمدها ولكن الأمر سهل، فمعنى هذا كله أن الإنسان قد يستدل بمقدمات طويلة وكل مقدمة تحتاج لما قبلها وذلك كأدلة الهندسة فهى متصل بعضها ببعض حتى تبلغ الثالث ولكنها فى آخر أمرها ترجع إلى ما يعرف فى أوائل العقول مثل ماتقدم وقد تكون المقدمات قليلة كأن يقال فى الاستدلال على النفس إن الجسم له جهات ست فلماذا يتحرك إلى جهة دون جهة فلا بد من سبب ، فإن رأيناه تحرك إلى جهة واحدة على وتيرة واحدة سميناه علة طبيعية ، ومعنى هذا أن الذى حرك هذا الجسم ليس جسما بل هو أمر معنوى وإن رأيناه يتحرك إلى جهات مختلفات بإرادته واختياره سمينا ذلك المحرك نفسا وذلك كالحيوان والإنسان ولكن هذه القوة التى سميناها نفسا ربما كانت عرضا أعنى شيئا كاللون والخفة والثقل وإذن يكون تابعا للجسم لأنه من أوصافه فنقول « كل شىء يحرك الجسم بالإرادة والاختيار لابد أن يكون جوهرا » أى إنه ليس عرضا لأن العرض لا فعل له وإلا لجاز أن يكون اللون يعقل ويفهم وهكذا الثقل والخفة وهذا تأباه الفطر الإنسانية .

هذا كله من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فالاستدلال بالبرهان وللمعرفة بالمنطق وتحرى الصدق فى النظريات ، كل هذا من موجبات الفطرة فإذا رأينا قوما يعيشون فى الأكواخ ويكتفون بالصيد ولايعرفون الحرث ولا القناطر ولا الجسور قلنا هكذا رأينا فى الحيوان أمثال الناس ترى ذريتها بغيروجود آبائها أى إن الحيوانية هناك ناقصة . هكذا الإنسانية هنا ناقصة لم تستحكم .وإذا رأينا أناسا شقوا الأرض وزرعوها وارتقوا قلنا هكذا رأينا الطير تحضن بيضها وتربى ولدها وهذا كله سميناه فطرة، فالطير تربى وتحضن بيضها بالفطرة كما أن الجراد ترك بيضه وقضى وحده بالفطرة . هكذا هنا عاش الناس فى الأكواخ بالفطرة مع نفسهم وآخرون عاشوا بالعلم فحرثوا الأرض وزرعوها وشقوا الأنهار ونظموها كما حضنت الطيور البيض وربت أفراخها بالفطرة غاية الأمر أن الفطرة فى الطير والانسان المدنى أكمل من الفطرة فى الانسان الهمجى كما أن الفطرة فى الطير أكمل منها فى الجراد والناموس والذباب . ونسبة الطير إلى الآساد والوحوش أبعد جدا من النسبة بين الإنسان المتوحش وذى المدنية فى عصرنا الحاضر. إذن هذا الدين الاسلامى «فطرت الله التى فطر الناس عليها» فهو دين المتوحشين لأن الوحشية من الفطرة ودين أصحاب المدن العظيمة لأن المدنية من الفطرة ولا تخرجها عن الفطرة ارتقاؤها كما لم تخرج السباع عن الفطرة ارتقاؤها عن الطيور لأنها تحمل ذريتها وترضعها فضلا عن أمثال الجراد والذباب والناموس التى لا ترى ذريتها أصلا ، فهذه الأنعام والسباع من فطرة الله وأهل المدن العظيمة لم يخرجهم عن الفطرة ارتقاؤهم عن الوحشيين، وهذا الدين فيه المواعظ للعامة وفيه البراهين للخاصة إرجاعا إلى ما قلناه ، وفيه عرش بلقيس وملك سليمان كما أن فيه مدح للمؤثرين على أنفسهم والقانعين والفقراء الذين لا يسألون الناس إلحافا اه .

هذا ما فتح الله به يوم الاثنين الخامس من شهر نوفبر سنة ١٩٢٨ م والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الرابعة : بيان فطرة الإنسان فى مظاهر المخلوقات ﴾

(بهجة العلم . يوم شم النسيم — ٦ مايو سنة ١٩٢٩ م)

فى هذا اليوم تبدت لى أعمال فى مزرعتنا التى هى بالقرب من القاهرة وقدذكرتها مرارا فى هذا التفسير يا سبحان الله ، سبحانك اللهم وبحمدك لا تنفد عجائب صنعك ، لقد توجهت لهذا الحقل مرارا وفى كل مرة أشاهد فى طريق عجائب تخالف ما قبلها مع أن الطريق لم تتغير وإنما الذى يتجلى فى كل مرة يكون على حسب الفكرة التى تشغل العقل ، فمرة كنت أتفكر فى العنكبوت التى ضربت خيامها فى تلك الفيافى وقد مر ذلك فى هذا التفسير . ومرة تفكرت فى أمر الحشرات التى تقتل الأشجار . وقد قابلنى هناك بعض عمال الحكومة لإبادتها وقد تقدم هـذا فى أول (سورة الأنفال) والحشرة تسمى (الجبكس) فراجعها هناك .

أما فى هذه المرة فإنى أخذت أفكر فى الفطرة الإنسانية . إن الفطرة الإنسانية جعلت معيارا لهذه العوالم وبيانه أن الانسان لو فكر فى العوالم وكيف تخلق وعلى أى أسلوب توجد ؟ لم يفضل حالا عن حال (وبعبارة أخرى) إن العوالم الحيوانية والنباتية لو خير الانسان فى خلقها وقيل له أيها الانسان أتريد أن تكون كل الحيوانات صغيرة الأحجام أم متوسطة أم كبيرة وهكذا النباتات . وبالنظر إلى ألوانها هل تحب أن تكون كلها بيضاء أم صفراء وهكذا مساكنها أتكون فى الجو أم فى البحر أم فوق اليابسة. وفى أصواتها أتكون غليظة أم دقيقة لطيفة أم متوسطة. لو سئل الإنسان هذه الأسئلة لم تكن له وسيلة فى الإجابة إلا بعلم المنطق إذ يقول إذا سألتمونى عن اختيارى فأنا أفضل ألا يدع خالق العالم حالا إلا أعد لها خلقا فلا يدع الصور الصغيرة ولا الكبيرة ولا المتوسطة فى النبات والحيوان وتشغل هذه الخلائق الهواء والماء واليابسة . إن فطرتى تميل للعدل والعدل يقضى أن تعطى كل مرتبة ما يليق لها . فلا السواد من الألوان مثلا بمتروك ولا الخضرة ولا غيرهما ولا يحرم الماء ولا الهواء من هذه العوالم ويعطى كل مقدارا من الصور الصغيرة والمتوسطة حظه ولتكن جميع الأصوات فى الوجود . فليكن صوت دقيق جدا وليكن متوسط وليكن عال ثم يقول الإنسان بحسب فطرته .

أما من جهة النشوء والارتقاء فأنا أهتم بأنى أرى فى كل مرتبة الخلق المناسب لها . فأرى كل معدن وكل نبات وكل حيوان ، ويهمنى أن أرى جميع الدرجات بعضها فوق بعض لأن فطرتى تشهد أنه لا يصح خلو درجة من درجات الوجود من عوالم تخلق فيها فأرى سلسلة المعادن والحلقة المتوسطة بينها وبين النبات وهكذا النبات يهمنى أن أرى كل درجة من الدرجات السفلى والوسطى والعليا وهكذا الحلقة المفقودة بين النبات والحيوان وهكذا الحيوان أحب أن أرى درجاته متناسبة صاعدة من أسفل إلى أعلى حتى أصل إلى الإنسان وهناك يهمنى أن أرى هناك حلقة بين الحيوان والإنسان .

هذا هو الذى تشهد به الفطرة ومعنى هذا أن مذهب النشوء والارتقاء الذى شرحه (طيماوس الحكيم) فى حديثه مع (سقراط) هو الذى تشهد به الفطرة وهو الذى قال به (داروين) وليس هذا المذهب له بل هو قديم ولكن الفكرة فى حد ذاتها يشهد بها النظام غاية الأمر أن بعض الجهال ظنوا أن القصد من هذا المذهب نفى الألوهية وأنه مذهب حديث ولكنهم لجهلهم الفطرة الانسانية خاب فألهم وضل سعيهم .

إن الفطرة شاهدة بهذه السلسلة التى يقول الله تعالى فيها « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » فليقل

(ماغورون) و (لامارك) ذلك فهما لم يقولا شيئا جديدا وهذا تشهد به الفطرة فالعوالم متناسبة أعلاها مرتبط بأدناها ، هذا أول الأمر وهذا آخره ، وماهذه المحرمات إلا كدرجات الإحساس فى الإنسان التى تبتدئ بالأقل وهو اللمس وترتقى بالذوق فالشم فالسمع فالبصر ، هذه درجات بعضها فوق بعض شهدت بها الفطرة وشهد بها العقل أما كون أعلاها مشتقا من أدناها فأمر يفرح به صغار العلم الذين لايعقلون ، وإنما ذكرت هذا فى هذه السياحة لأنى ماكدت أتوسط تلك الأرض التى بعد بلدة المرج وأنا أمشى فى الخلوات حتى رأيت الجاموس والبقر والمعز والغنم دائبة فى رعيها ساعية فى جلب رزقها من تلك الحشائش الطالعات فى الأرض ، وبينما أنا أرى تلك الأنعام فى مراعيها إذ شاهدت الخطاطيف طائرات فى الهواء ذات اليمين وذات الشمال ، وهكذا أنواع العصافير والقنابر والعصافير المغنية والهداهد ثم الغربان والطائر المسمى بالعز وهكذا أبوقردان . فهذه كلها كنت أشاهدها وهى فرحات طربات مغردات مبتهجات ترتع فى نعيم الحرية والسعادة . ولعمرى كيف كنت أرى الغراب الأسود وأبا قردان الأبيض يطيران وهما مقتربان ولايبغى أحدهما على الآخر كما يبغى البيض فى أمريكا بالولايات المتحدة على السود فيها ازدراء بهم واحتقارا لشأنهم ، حقا «إن الانسان لظلوم كفار»

شاهدت الطائر المسمى بالعز كبير الجثة طويل الأجنحة التى ابيضت من الأمام واسودت من الخلف ولم أره طغى على أبى قردان ولا الغربان ولا العصافير احتقارا لشأنها بل يسعى لاصطياد الحشرات التى خلقت له فلم يعد مارسمته له الفطرة «إن الانسان لظلوم كفار» .

﴿هذه سطور الكائنات﴾

كنت أقرأ هذه السطور المكتوبات التى كتبها الله لى ، كتبها لى وقال اقرأها فتقبلت الهدية من الله وقرأت ماسطره لى سبحانه ، وإنما قلت إن الله سطره لى لأنى نظرت الحيوانات التى أمامى إذا كل واحد منها مهتم بشأنه عاكف على عمله ، ولم أرعلى حسب ماظهر لى أحدا منها مهتما بما اهتممت به فأنا أقول إن الله سطر هذا لى على حسب ماطبعت عليه نفسى ☆ وللناس فيما يعشقون مذاهب ☆ فمن كان من الناس على شاكلتى فيحق له أن يقول إن الكتابة له أيضا . فالسور المكتوبة والقراء يقرءون منها مايوافق عقولهم ، فها أنا ذا أسمع أصوات الغناء من العصافير المغنية كما أسمع نقيق الضفادع فى الماء ، ونعيق الغراب فأرى الاختلاف اقتضاه العدل الذى هو شأن الفطرة ، فى الفطرة وجود جمال الأصوات وقبحها وصغر الأشكال وكبرها وتباين الألوان والأشكال والعادات والأخلاق حتى يتم التوازن ويكون النظام ، فلئن ظهر على الأرض الفيل العظيم الجثة والجمل ذو السنامين ليظهرن النمل الذى رق جسمه ودق صنعه وحسن وضعه وجملت هندسته ، وبينما أنا سائر فى الطريق أنظر هذه العوالم وكأنى فى جنة عرضها السموات والأرض وقد فهمت قوله تعالى «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» إذ رأيت النمل غاديات رائحات (وقد كنت إذ ذاك أكتب فى تفسير سورة النمل عجائب صنعها وبديع إتقانها) فأخذت أتتبعها فوجدت لها منفذين تدخل فيهما تحت نخلة هناك والنملات يسرن فى طريق ذاهبات كأنهن صف الجنود متوجهات إلى ساحات الحرب فأخذت أتتبعها وعددت خطواتى إذا هى خمسون خطوة وفى أثناء تلك الخطوات كانت جماعات النمل تسير فى طريق واحدة لاتتعداها وهن قد ملأنها من أولها إلى آخرها . وبعد هذه المسافة رأيتهن متفرقات يحملن القوت من هنا ومن هناك ويقبلن على هذه الجماعات فى طريقها ويسرن معها على حسب نظامها فوقفت إذ ذاك أفكر فى هذه الجماعات وأقول لقد نقلت فى هذا التفسير فى (سورة النمل) أن أعظم جماعات النمل يوصل عددها إلى (٥٠٠) مليون نملة أما جماعات الانسان فإن أعظمها لم تصل إلى هذا العدد ، وقد تقدم فى هذا التفسير هناك أن للنمل حربا وأسرى وهذه الأسرى تخدم السادات وتطعمها وهذه السادات

يصبح عالة على هؤلاء الأسرى وعليه يصبح السادة عاطلين ويحيق بهم النكال والوبال كما حاق بالإنسان إذا كان من المترفين فتشابه فى الانسان وفى النمل وسائل الهلاك وأبواب العطب وأدلة الخسران .

فظلم جماعات النمل لغيرها واستعمارها مهلك كما يكون ذلك أيضا مفسدة للانسان كما دل عليه حال آبائنا العرب إذ تنعموا فهلكوا وهكذا دولة الرومان ، هنالك نظرت نظرة فى حال هذا الإنسان وقلت قولا حقا يابنى آدم . إن الأرض صنع الله والله متقن الصنع ، أعطى كل شىء خلقه ثم هداه . ليس فى قدرة النمل مدنية أعظم من هذه . إن مدنية النمل محدودة ، ليس فى نمل الشرق قدرة على معرفة نمل الغرب والانتفاع بأعماله بل جماعات النمل المختلفات فى بلدة واحدة لا قدرة لها على منفعة الجماعات الأخرى وليس بين الجماعتين صلة ولا مخاطبة لأنها ليس فى فطرتها ماهوفوق ذلك . أما هذا الإنسان فيظهر لى أنه إلى الآن طفل صغير هو جهول ، إنه أعطى عقلا ولكنه إلى الآن لايزال فى حال التجربة ، أليس من العار أنه لايزيد فى مدنيته عن مدنية النمل فهو ذو حرب وأسرى وظلم ثم ترف ثم هلاك ، إنى أشهد الله وأشهد الناس جميعا وأبرأ من هذه الإنسانية الجاهلة الظالمة الانسانية الفاسقة المشئومة الفرة الجاهلة . وأقول ليس من المعقول أن تفنى هذه الأرض قبل أن يرتقى هذا الإنسان ويصل إلى منتهى درجات الإدراك ولا يكون ذلك إلا إذا أصبحت كل الأمم يساعد بعضها بعضا شرقا وغربا لأن هذا هوالفارق بينها وبين النمل وأمثالها . ليس عند النمل طرق حديدية ولا بريد ولا طيارات ولا مدارس ولا علوم ومع ذلك نرى لها مدنية لم يرتفع عنها هذا الانسان . إن هذا الإنسان لا يزال فى حال الطفولية وجدير بالكتاب والحكماء أن يهدوه إلى فطرته .

هذا مافهمته يوم شم النسيم . ولما وصلت إلى المزرعة وجلست تحت الأثلات بين المزارع والحقول تذكرت أنى منذ أسابيع كنت قد أتيت إلى هذه المزارع وقد مررت بمزرعة نخيل فى الطريق ضحى :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الضحى فى الروضة الفيحاء
فأرى الزهور عوانسا ووجو هـهن أوانسا فى الحلة الخضراء
وغصونهـن موائسا متعانقا ت كل حين فى صفاء ووفاء

فحرك منى هذا النظر ماسكن وأخذت أفكر فى أمر الرياح ومصدرها وأنها آتية بسبب حرارة الشمس التى سلطها الله على الهواء والأرض فجرت الرياح عند خط الاستواء شمالا وجنوبا إلى (٣٠) درجة فى الجانبين وهناك تفرعت كل ريح منهما إلى (فرعين) فرع يرجع إلى جهة خط الاستواء وهى الرياح التجارية وفرع اتجه إلى الجهة القطبية وهى الرياح العكسية أو الضدية . وهناك رياح أخرى تسمى القطبية تهب من جهة القطبين كما أن هناك رياحا تهب من البر إلى البحر ليلا ومن البحر إلى البرنهارا وهناك أخرى تهب من البحر إلى البر صيفا وبالعكس شتاء وهى الرياح الموسمية . فأصل هذا الاختلاف فى الرياح جنوبا وشمالا وشرقا وغربا أمر واحد هو الحرارة فبالحرارة واختلاف طباع الماء والهواء اختلف اتجاه الرياح فكان السحاب والمطر والزرع والشجر وغنت الأطيار وبهرت الأزهار فى سائر الأقطار .

علم الله أن الناس فى هذه الأرض لايحفظون الفطر التى خلقوا عليها لأن طبيعة هـذه الأرض والبيئات والأحوال العادة تقتضى أن يغيروا تلك الفطرة . وما هى الفطرة . هى أن يكون الناس مسلمين ولامعنى للاسلام إلا الانقياد لله ولأوامر الله والله أرسل رسلا كموسى وعيسى ومحمد وأتباع الأنبياء يعلمون أن كل نبى جاء لمنفعة الناس ولم شعثهم فأبت نفوسهم المنحرفة أن تتبع الفطر فقال قوم لانؤمن بمحمد ولابعيسى الخ وقال قوم لانؤمن بمحمد ولكن نؤمن بعيسى وموسى الخ والذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم قالت طائفة منهم نحن ننكره الطائفة الأخرى لأنها تخالفنا فى بعض فروع الشريعة وهؤلاء وهؤلاء مثلهم فى الدين كمثلهم فى أحوالهم العادية

إلا ينعم الله عليهم ثم يصيبهم الضر فيكون اليأس أو يكونون فى شدة فينالون الرحمة فيبطروا وهذا معناه عدم الثبات فخير لهم أن يكونوا مع الله فى الشدة واللين والعسر واليسر فإن كان خيرا حمدوه أو شرا التجئوا إليه ودعوه هكذا فى الدين فإن اليهود آمنوا بموسى وكفروا بمن بعده إذ لم يوافق أهواءهم والنصارى آمنوا بعيسى . وكفروا بمحمد لأنه لم يكن على هوى من يعاشرونهم وهكذا أهل كل مذهب من أهل البدع الإسلامية . إن أهل الأرض يتبعون أهواءهم وأخلاقهم وما اعتادوه لا الحقائق ، كيف لا ونحن نرى أبناء كل أمة يتبعون آباءهم حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة إن خيرا فخير وإن شرا فشر والإسلام لله والخضوع له أن يعجذ كل من نفع الأمم قديما وحديثا وألا تجعل الفروق القليلة سببا فى الافتراق وإلا فكيف افترقت طوائف المسلمين أحزابا وأحزابا وكيف كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم إن ذلك دلالة على عدم الانقياد لله والطاعة له وإلا فإن الناس يقرءون علوم العلماء وأشعار الشعراء وحكم الحكماء فى مختلف الأمم فكيف جعلوا الديانات مفرقة للناس وأصحاب الديانات يحبون الناس كلهم ونصائحهم تنفع الناس قاطبة غالبا بل كيف افترق أتباع الدين الإسلامى فرقا ، أليس ذلك لجهلهم أنهم قد اتحدوا فى القرآن وفى الصلاة وغيرها وفى أكثر الفروع وإنما يختلفون فى أمور جزئية فكيف يفترقون بها إن ذلك كله للجهل الذى طمس على القلوب ومخالفة الفطرة تقتضى النظر الصحيح ، فأهل الأرض إذا اختلفوا فى الدين فإنما ذلك الاختلاف ناجم من تقليهم واتباعهم أهواءهم وعدم نظرهم الصحيح فعليهم أن يسلموا لله وينقادوا له ويكونوا كالمسلمين فهم يؤمنون بكل نبى ، هكذا فلتفعل سائر الأمم ، هذا هو دين الفطرة . وليعلم أرباب المذاهب فى الإسلام أن اختلافهم لا يوجب التفرقة بل هم أمة واحدة . وما دام النوع الانسانى هكذا فإنه كفور بنعم ربه غير شكور يتبع الأهواء . وسيكون له عواقب فى عالم البرزخ والعوالم المتتابعة وهناك يتدرج فى معرفة الحقائق ويعذب الجاحدون ، وينعم الصالحون .

ولا سبيل لسلامة الأمة الإسلامية إلا أن تعم التعليم وتدرس جمات هذه العجائب الأرضية والسماوية ليرسخ فى الأذهان جمال الطبيعة والعجائب الإلهية فتشرق النفوس وتقترب العقول كما قدمناه فى هذا التفسير انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرتان ﴾

(الجوهرة الأولى : فى قوله تعالى « ظهر الفساد فى البر والبحر » الخ)

جاء فى بعض المجلات العلمية مانصه :

(نكبة العالم من الأسنان الدقيقة)

ترى الفأر فتزدريه بل قد تراه غير جدير باحتقارك . ولكن هذا المخلوق الضئيل تعده أقوى دول العالم أروع عدو للجنس البشرى وتشن عليه الحرب العوان فى كل مكان لما ينشأ عنه من الأضرار العظيمة فهذا « السير وليام بول » يقدر ما تحدثه الفيران من الخسائر فى انكلترا بمبلغ ٢٥٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه ولذلك أصدر البرلمان الانجليزى قرارات شديدة فى هذا الشأن . وإذا بلغت الحكومة عن أى شخص بأنه يوجد فى ملكه فيران أرسلت له مندوبا يكلفه باستئصالها فاذا لم ينفذ ذلك أرسلت أشخاصا يقومون بإعدامها وتتخذ ضده الاجراءات القانونية الزاجرة . وقد وضعت الحكومات الأمريكية جوائز لمن يصطادون الفيران وبلغ ما قتلته فتاة فى ولاية « تكساس » فى ستة أسابيع ٧،٣٩٨ فأرا وقد أربى على ذلك ما اصطاده غلام على

مقربة من هنغا لولاية حيث تقل فى نفس للمدة ١٥٫٥٥٠ فأرا . ويقدر ما يتلفه الفأر فى السنة بنحو ١٠ شلنات على الأقل وإذا تناسل فأران لمدة ثلاث سنوات نشأ عنهما ١٨ جيلا ويبلغ عدد أفرادها ٣٥٩٫٨٠٩٫٤٨٢ فأرا . وإذا كانت نكبة العالم من الفيران فى غاية الفداحة من الوجهة الاقتصادية فان ما تلحقه بالجنس البشرى من الوجهة الصحية يعد من أكبر الكوارث لأن الفيران تعيش فى أقذر الأماكن فتخرج من جحورها الملوثة إلى حيث توجد الأغذية فتترك جراثيمها فى مواد الغذاء وتنشرها فى غرف الدور ، ويقرر الطب أن الجراثيم التى تحملها الفيران فى فرائها أفظع أنواع الميكروبات فإن منها جراثيم الطاعون وغيره من محدثات الأمراض ، وتعد ضحايا الجنس البشرى من جراثيم الفيران أكثر عددا من ضحايا الحروب التى ذكرها التاريخ ، فان الطواعين والأوبئة التى كانت تخلى أوروبا من سكانها فى القرون الماضية لم تنشأ إلا من الفيران التى كانت تنقل العدوى ، وقدر ضحايا أحد هذه الطواعين فى يوم واحد (١٠٫٠٠٠) نسمة فى مدينة القسطنطينية فى سنة (٤٠٥) بعد الميلاد ، وكم من مرة حصدت الطواعين أهالى إيطاليا ، ولقد طاف الطاعون أرجاء أوروبا فى القرن الرابع عشر وحصد أهلها حصدا وسمى بالموت الأسود وبلغت ضحاياه (٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠) نسمة وكان من ضحاياه فى الهند وحدها فى سنة ١٨٩٦ نحو (٩٫٠٠٠٫٠٠٠) نسمة .

ويذهب بعض العلماء إلى أن ما يحدثه الفأر من النكبات يرجح على ما يقع من الأسود والنمور والذئاب إلى آخر ما يوجد فى العالم من وحش .

ويرى ساسة الدول وعلماؤها أن مشكلة استئصال الفيران من البلاد يجب أن يعنى بها مهندسو المدن فإنهم إذا كانوا قد عالجوا البيوت الحديثة بأن بنوا سقوفها بطراز مخصوص لا يسمح بعيشة الفأر يجب أن يصنعوا علاجا آخر لأرض المدن بحيث لا يمكن أن تتخذ فيها الفيران جحورا لها . وليس واجب الطبيب فى هذا الشأن بأقل من واجب المهندس ، فقد ظهر أن المدن التى يعنى فيها بالأمور الصحية توجد فيها كميات قليلة من الفيران بخلاف القرى والمدن التى تهمل فيها الشئون الصحية ، ولذلك فاننا نوجه أنظار كل صاحب أسرة إلى استئصال ما فى داره من هذا الحيوان الربيع لأنه لا يختلف فى الحقيقة عن اللص القاتل بيد أنه يقوم بهذين الوظيفتين فى وقت واحد .

﴿ بسبب الفأر أيضا ﴾

يقرر معهد طبى فى انكلترا أن زوجا من الفيران يتناسل فى السنة الواحدة هو وأولاده وأولاد أولاده إلى أن يصيروا فى نهاية العام : (١٠٫٠٠٠) فأر ، وتبلغ قيمة ما يتلفه ألف فأر فى السنة (١٫٥٠٠) جنيه وتقدر خسائر انكلترا من الفيران التى فيها (٧٠٫٠٠٠٫٠٠٠) جنيه كل سنة . انتهى ما جاء فى تلك الصحيفة .

ولما كان الفساد فى البر والبحر ليس مقتصرا على ما جاء هنا بل يتعداه إلى أمور كثيرة وجب أن أذكر لك ما جاء فى كتاب [قانون الصحة المنزلية] ثم أتبعه بجمال العلم والحكمة والإبداع والعجب العجاب ،

الأمراض المعدية

تنتقل هذه الأمراض بالماء والغذاء والهواء والتلقيح ، فمن الأمراض التى تنتقل عادة بواسطة الماء والأغذية: الدوسنتاريا والإسهال والكوليرا والحمى التيفودية وغيرها ، وأحيانا تنتقل اللبن كالقرمزية والدفتريا . ومن الأمراض التى تنتقل بواسطة الهواء أو الملامسة: الحمى التيفوسية والتهاب الرئة وجدرى الدجاج والحصبة والانفلونزا والسعال الديكى والدفتريا والجدرى وغير ذلك ، وهناك بعض أمراض تنتقل بواسطة الناموس

أو البق والبراغيث كحمى الملاريا والحمى الراجعة ، وينتقل الطاعون بواسطة البراغيث من الجرذان . ومن الأمراض التي تنتقل بالتلقيح: الجرح وحمى النفاس وتسمم الدم وجدري البقر وداء الكلب والتيتنوس والقرن والجذام وغيرها ، وتقي الإصابة الأولى ببعض الأمراض المعدية من إصابة أخرى بها إما لأجل مسمى أو غير مسمى وذلك لوجود مضادات للميكروبات المسببة للمرض في الجسم ونشأت من الإصابة السابقة وهذا مايسمونه بالوقاية الطبيعية وعلى نسقها استنبطت الوقاية الصناعية بالتلقيح كما يفعل في طريقة الوقاية من الجدري بتطعيم المادة الجدرية نفسها المحتوية على ميكروباته فتولد في الجسم مضادات تقيه شر الجدري لو أصابه .

﴿ الأمراض المعدية الخطرة ﴾

هذه الأمراض هي: (الجدري . والقرمزية . والدفتريا . والحمى التيفوسية . والحمى التيفودية . وحمى النفاس . والحصبة . والسعال الديكي . والجديري . والنكاف . والأرماد المعدية . والسل . والكوليرا) .

﴿ الجدري ﴾

هو أشد الأمراض عدوى وميكروباته توجد في قشور بثراته ، وينتقل بالملامسة والثياب والفراش وأدواته والهواء وذلك في الخصوص مدة التقلس أو التقشر ، ويسبق الإصابة عادة حمى شديدة مدتها من يومين إلى ثلاثة وقيء و آلام شديدة في الظهر وفي الغالب تظهر البثور في اليوم الرابع ابتداء على الوجه والجبهة ، ثم على الأجزاء الأخرى من الجسم ، ثم تجف وتتقلس ثم تبتدىء في السقوط وذلك من اليوم الرابع عشر من ابتداء الإصابة أو شهر من ابتداء العدوى وجميع مدة الإصابة تكون الحرارة مرتفعة وقد يظهر هذا المرض عند الملقحين أيضا ولكن بحالة خفيفة جدا .

﴿ القرمزية ﴾

مرض معد جدا وتنتشر العدوى على الأخص بالقشور التي تتساقط من الجلد على الملابس أو غيرها من الأشياء التي تمسها . ويظهر المرض بعد العدوى بيومين أو ثلاثة عادة وعلاماته: البرودة والحمى وقيء أحيانا وطفح أحمر وآلام في الحلق ، وقد تخف الحمى والطفح في الثلاثة أو الأربعة الأيام التالية وفي الأحوال الخفيفة يظهر المريض كأنه شفي تماما ولكن يلزم الاحتراس وبالأخص من البرد خوفا من إصابته بمرض في الكلى ويبتدىء تقلس أو تقشر البثرات من اليوم العاشر إلى اليوم الرابع عشر وربما تأخر للأسبوع الثالث أو أكثر ، ويستمر هذا التقشر من أسبوع إلى ثلاثة أو أربعة ويلزم الاحتراس من العدوى في دور التقشر .

﴿ الدفتيريا ﴾

هذا المرض يعدي بافرازات الفم أو الأغشية التي تتكون في الحلق والأنف ، ووسائط العدوى هي التقبيل وأواني الشرب والثياب وأدوات الفرش ، والسعال يكون سببا في العدوى بانقذاف بعض المفرزات والأغشية المعدية في غرفة المريض ثم جفافها على الأثاث والأرض وحينئذ تنتشر في الهواء بالكنس وبذلك تكون سببا للعدوى مدة طويلة من الزمن ، ولذا يجب تطهير غرفة المريض وأثاثها ، ومن المهم جدا أن تجمع كل المفرزات لإعدامها أولا فأولا ، وتحرق أيضا الأقمشة التي كانت تستعمل لمسح الفم والأنف مدة المرض . وتظهر (الدفتيريا) بعد العدوى بغاية السرعة فقد تتكون الأغشية بعد مضي أربع وعشرين ساعة من الاصابة والذين يشكون من ألم في الحلق معرضون للاصابة أكثر من غيرهم ، وبعد الشفاء يصاب المريض أحيانا بمرض في الكلى أو بشلل موضعي أو عمومي أو بغير ذلك . وأهم الوسائط لمعرفة المرض بحث المفرزات بالميكرسكوب (منظار معظم) للتحقق من وجود الميكروب الخاص .

﴿ الحمى التيفوسية ﴾

مرض معد جدا ، ويساعد على انتشاره ازدحام المساكن وإهمال التهوية والنظافة ، ومدة هذا المرض أسبوعان عادة ، ويظهر فيه من اليوم الرابع على الجلد بقع حمراء مستديرة ، وفى نهاية الأسبوع الثانى ينحط المرض بسرعة وينتهى النقه فى آخر الأسبوع الثالث .

﴿ الحمى التيفودية ﴾

يعدى هذا المرض ببراز وبول المصاب ، ولذلك يلزم أن يضاف إلى هذه المفرزات مطهر قوى كحامض الفينيك أو محلول السليمانى لإعدام ميكروبها قبل إلقائها ، وينقل العدوى الماء واللبن إذا اختلط بهما شىء من المفرزات السالفة الذكر ولذلك يجب تطهير ملاءات الفرش أولافأولا بالقائها فى محلول مطهر ثم إغلائها ، ومدة هذا المرض عادة ثلاثة أسابيع ، ومن الصعب معرفته فى دور التفرخ وهومن الأمراض الخطرة بالنسبة لارتفاع الحرارة وبالنسبة لما يحصل أحيانا من انثقاب الأمعاء من تقرحها ولذلك يجب ألا تعطى أغذية صلبة ، ويجب ألا يتحرك المريض إلى أن يدخل فى دور النقه الذى يمكن أن يكون من (٥) إلى (١٠) أسابيع .

﴿ حمى النفاس ﴾

هى مرض خطر تصاب به النساء بعد الوضع ويتجنب حصوله بالاعتناء بالنظافة الشخصية التامة وتعقيم جميع مايستعمل للولادة ، وينشأ هذا المرض من تسمم الدم بميكروبات خصوصية .

﴿ الحصبة ﴾

الحصبة مرض من أمراض الطفولية وأكثر حصولها من السنة الثانية إلى الخامسة وتظهر بعد العدوى بأربعة عشر يوما فيحصل ألم فى الرأس وحمى ثم تظهر فى اليوم الرابع من الإصابة بقع حمراء على الوجه والجسم وتزول فى اليوم السابع أو الثامن بالتدريج وينتهى المرض بسقوط قشور نخالية من الجلد وربما استمر ذلك إلى الأسبوع الثانى أو الثالث وهى تعدى قبل ظهور الطفح وتستمر العدوى على الأقل إلى نهاية الأسبوع الثالث .

﴿ السعال الديكى ﴾

هو مرض شديد العدوى ودور تفرخه من عشرة إلى أربعة عشر يوما ، ويمتاز بشهيق شديد يشبه فى بعض الأحيان صوت الديك وهو معد بواسطة النفس وضرره كالحصبة فى مضاعفات الرئتين ومدة المرض من ثلاثة إلى ستة أسابيع غالبا فى الأحوال العادية .

﴿ الجديرى ﴾

لايعتبر من الأمراض الخطرة ولكنه من الأمراض الشديدة العدوى ، وعدواه تحصل بواسطة الملابس وغيرها ومدة المرض ثلاثة أسابيع على الأقل .

﴿ النكاف ﴾

مرض معد غير خطر ، علاماته ورم فى مقابلة زاوية الفك السفلى فى الغدة النكفية ، ومدته من ثلاث إلى أربع أسابيع .

﴿ الأرماد المعدية ﴾

تنتشر عدوى الرمد الصديدى والرمد الغشائى (الدفتيريا) والرمد الحبيبى بأصولها المعدية التى فى إفرازاتها إذا تلوثت بها الأصابع والمناديل أو أوراق التجفيف أو المناشف أو المخدات وغير ذلك فيجب الاحتراس من ذلك فى المدارس .

﴿ السل ﴾

السل وعلى الأخص السل الرئوى يعدى وينتشر بواسطة البصاق ولذلك يلزم الاحتراس من بصاق المسلولين ، فمتى جف يكون معديا بمروره فى المسالك الهوائية . ولاجتناب العدوى يلزم المريض أن يبصق فى إناء خاص محتو على محلول مطهر قوى ، وإذا بصق المسلول فى منديل يجب إغلاؤه فى الماء أو إحراقه ، ولا يجوز نوم السليم مع مسلول أبدا .

﴿ الكوليرا ﴾

تحصل العدوى فى هذا المرض من انتقال ميكروباته التى فى براز وقىء المصابين . فلا يجوز لمس المواد المذكورة وكذلك ماتلوث منها . وعلاماتها الإسهال والقىء والمغص وتشنج العضلات مع برودة وزرقة فى الوجه واليدين والقدمين ، ويلزم عند ظهور الوباء اتخاذ الاحتياطات الشخصية الآتية .

(١) إغلاء ماء الشرب ومنع استعمال المياه الملوثة .

(٢) تجنب أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة .

(٣) غمر الخضر والأثمار واللحوم فى ماء مغلى مدة نصف دقيقة وقت إحضارها من الخارج ثم طبخها بأسرع مايمكن وأن يوضع الخبز فى الفرن ثلاث دقائق .

(٤) إغلاء اللبن جيدا .

(٥) غسل أوانى الطعام فى ماء مغلى وتنشيفها جيدا بقماش جاف نظيف ، وكذلك تغمر أدوات المائدة من ملاعق وشوك وسكاكين وغير ذلك فى الماء المغلى قبل استعمالها مباشرة .

(٦) تغطى جميع الأطعمة لمنع تلوثها وبالأخص من الذباب .

(٧) تغسل الأيدى جيدا وتنشف بكل اعتناء قبل الأكل .

(٨) يجتنب أكل الأطعمة العسرة الهضم .

(٩) تطهر مراحيض المنزل كل يوم مرة مع الاعتناء بتطهير مقاعدها .

(١٠) يجب تهوية المنزل جيدا كل يوم والاعتناء بنظافته .

(١١) غسل الأيدى جيدا عقب الخروج من المرحاض حالا وتطهيرها اهـ .

ولما اطلع على هذا أحد الأصحاب من أهل العلم . قال هذا حسن ولكن التفسير بهذا انقلب إلى علوم والعلوم لها كتب خاصة ، فإما أنك تعمد إلى مقالات عامة فى أمثال هذا المقام وتذكر مايقوله الأطباء وإن كان منتق مصطفى فإنه ليس مما يلائم التفسير فقلت له : حياك الله أيها الأخ ، أنا أكتب فى التفسير زهرات من العلوم وثمرات من الحكم وهذه الزهرات والثمرات هى المناسبات لتفسير القرآن بل لايتضح المعنى إلا بها

إن لله (كتابين) كتابا كتبه بيده ، وكتابا أملاه علينا بالوحى . والكتاب الذى أملاه علينا بالوحى نتلقاه بأسماعنا ، والكتاب الذى كتبه بيده نراه بأبصارنا ، ومن عجب أن الذى كتبه بيده مجسم ظاهر واضح ومع ذلك الوضوح أصبح عندنا فى غاية الخفاء ، فالذى كشفته أبصارنا مجسما هو الشديد الخفاء والذى سمعته آذاننا نتلقاه ونفهمه ولكن هذا الفهم فهم ضئيل ، نسمع الله يقول إن الفساد ملأ البر والبحر وما السبب ؟ فيقول «بما كسبت أيدى الناس» فالمسلم العادى الجاهل بل كثير من صغار العلماء إذا سمعوها يفهمون المعنى اللغوى ومعنى النحوى يكفى فيه القاموس ويكفى الرجل البدوى الذى يعرف اللغة العربية فى جزيرة العرب ولكن أين الحقائق ؟ إن حقائق أمثال هذه الآية فى الكتاب الموحى به الذى فهمناه فهما ضئيلا لن نعرفها

ولن نعقلها إلا بدراسة الكتاب الذى كتبه بيده وهى هذه الأجسام والصور والأشكال والألوان والأحوال إذن فلندرس هذا الكتاب الذى كتبه الله بيده فنقول : الله أكبر جل الله وجل العلم . هانحن أولاء يا ألله نظرنا فى تلك المشاهد ففرحنا بملك وسعدنا بالنظر إلى حكمتك . وجدناك يا ألله بنيت هذه الطبيعة على صراط مستقيم لاعوج فيه ولا خلل . أنت أيها الذكى قارىء هذا التفسير قد قرأت قريبا الأشكال الهندسية التى يستعملها علماء الطبيعة فماذا وجدت ؟ أقول إنك وجدت فيها صراطامستقيما . إذن الذى يصنعه الله يكون على صراط مستقيم . ألم تر أن مساحة محيط الدائرة ومساحة سطح الكرة ومساحة الكرة ، كل هذه قد رجعت إلى أمر واحد وهو نصف القطر الذى مسحناه فقدمسحنا ماجده ؛ فلوأنك أيها الذكى عمدت إلى قطعة أرض ورسمت فيها دائرة ثم عمدت إلى المحيط ووصلت بين نقطتين منه بخط فهذا الخط هو القطر ونفرضه (٦) أمتار وهذا القطر نصفان كل نصف يصل إلى مركز تلك الدائرة ، ذلك المركز الذى يكون على بعد واحد من ذلك المحيط وهذا القطر وجدنا أن المحيط قدره ثلاث مرات وسبعا ، وبناء عليه قلنا إن طول هذا المحيط يساوى نصف هذا القطر مرتين مضروبا فى ثلاثة وسبع وهو الذى عبرنا عنه بحرف (ط) فيما تقدم ، فإذا أردنا مساحة سطح الدائرة فإننا نربع نصف هذا القطر فيكون (٩) ونضربه فى (٣) وسبع فإذا أردنا مساحة سطح الكرة ضربنا هذا المربع فى (٤) فيكون (٣٦) ثم نضرب هذا كله فى ثلاث وسبع ، فإذا أردنا مساحة حجم الكرة كعبنا (٣) ومعنى هذا أننا نضرب (٩) فى (٣) فيكون (٢٧) وهذا العدد يسمى مكعب عدد (٣) ثم نضربه فى (٣) وسبع فيكون (٨٤) وستة أسباع ونضرب هذا كله فى (٤ على ٣) أى فى واحد وثلث فيكون ذلك مساحة حجم تلك الكرة .

فتبين من هذا كله أن نصف القطر هو الذى يمسح فى الأحوال الأربعة والنسبة باقية وهى ثلاث وسبع وإنما اختلف الأمر فى التربيع والتكعيب ، فنرى نصف القطر يمسح بلا تربيع فى مساحة ذلك الخط المنحنى ويربع فى مساحة الدائرة وسطح الكرة ويكعب فى مساحة حجم الكرة .

تباركت يا ألله هذا هو صراطك المستقيم ، أنت خلقت المادة ، وماهى المادة ؟ ماهى إلا حركات فى شىء يارينا سميناه (الأثير) وما الأثير الذى تخيلناه إلا أمر تشبه بخيالنا ، وهذه الحركات صارت ضوءا وكهرباء والكهرباء بقسميها من الموجبة والسالبة تنوعت فصارت عناصر ، وبالعجب هذه العناصر التى زادت على ثمانين مشروحة فى (سورة العنكبوت) صلحت لأن تكون مواد غازية كالهواء وكالهيدروجين وكالا كسوجين وغيرها ؛ فهذه كلها لاأشكال لها بل هى ذرات متجاورة سميناها غازا وهكذا السوائل بجميع أنواعها من ماء وزيت وعسل وهكذا ، ولا جرم أن أكثر المواد الجامدة الآن يمكن جعلها سائلة وجعلها غازية بأعمال خاصة إذن المادة قابلة لتنوعات لاحصر لها ، فأنواع الغاز خفة وثقلا كثيرة وأنواع السوائل كثيرة ، هكذا أشكال المواد الجامدة فهى لاحصر لها . فأنت يا ألله لما خلقت هذه المادة وعلمت أن أشكالها التى لانهاية لها فى نظرنا ليس منها ما هو أقرب إلى منفعتنا من الأشكال المنتظمة كالخط المذكور والدائرة وسطح الكرة وحجم الكرة أفضت على عقولنا معرفتها وألهمتنا استعمالها فى جميع مرافق الحياة ، وجعلت مساحتها كلها من واد واحد فتعجبنا كيف يكون نصف القطر فى هذه الأحوال الأربعة كافيا فى المساحة وكيف يشترك الخط والسطح والحجم فى مساحة نصف القطر غاية الأمر أنه يكون لا تربيع فيه فى مساحة الخط وربع فى السطح ويكعب فى الحجم . الله أكبر . هذا هو الصراط المستقيم . صراطك الذى أبدعته فى المادة . وهذا سر مصون . نعم هو مصون عن أكثر هذا النوع الإنسانى . إن المهندس وعالم (الميكانيكا) أى فن الحيل وعالم الطبيعة كل هؤلاء يعرفون هذه المساحات وغيرها ولكنهم ينظرون إليها نظر العامة إلى الأوانى التى

يتفعون بها فلا سر فيها ولا حكمة ولكنها أمور طبيعية ، فلا يقولون إن هذه الأشكال مصطفاة مما لايتناهى من أشكال الطبيعة التى هى غير منظمة واستخلصت منها وأخرجت لنا وعلى منوالها رسمنا وصورنا، ولايعجب أكثر هذا النوع الإنسانى من أن نصف القطر قد كان سببا فى معرفة الخط والسطح والحجم مع أن هذه أمور مختلفة فى طبيعتها .

فيا سبحان الله . إن المناسبة بين السطوح والأحجام والخطوط واتحادها فى تقديرها بمساحة نصف القطر كالمناسبة بين النبات والحيوان والإنسان . هذه كلها اشتركت فى التغذية والتناسل والنمو والحس والحركة ولكن الحس والحركة فى الحيوان أرقى والغضب يظهر فى الحيوان والعقل يكون أظهر وأكمل فى الإنسان فما هذا الاشتراك والتكامل فى هذه المواهب إلا كالاشتراك بين الخط والسطح والحجم فى مساحة نصف القطر ويزداد مضاعفة فى السطح ثم فى الحجم كما ازداد الحس فى الحيوان عن الإنسان وازداد الإنسان عقلا ، فعقل الإنسان أرقى من غريزة الحيوان وغريزة الحيوان أرقى من إحساس النبات (المشروح فى هذا التفسير سابقا) فإحساس النبات بسيط وإحساس الحيوان كأنه مربع له وعقل الإنسان كأنه مكعب . فصراط الله واحد فى الطبيعة الجمادية وفى الطبيعة الحية . فالتربيع فى السطوح نظير الغريزة فى الحيوان والتكعيب فى الأحجام نظير العقل فى الإنسان . هذا خلق الله وصراطه . إذن صراط الله واحد .

(الناس خلفاء الله فى الأرض)

ولما كان الناس خلفاء فى الأرض كان عليهم أن يهتدوا بهديه ويسيروا على منواله فى أحكامه . فهاك مافعله الإنسان وما عاقبه الله به فى الحياة الدنيا . انظر ماذا جرى . خلقه فى الأرض وقال لهم « ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » . نظر الله عمل الإنسان فيها ، فماذا فعل هذا الإنسان ؟ أخذ يستخرج النافع من الأرض وارتقى فى الأسباب. فظهر أقوام فى الشرق وفى الغرب وكان منهم بدو وحضر وكلما اجتمعت أمة وكان لهما دولة عظيمة نسوا البادئ الأولى وظنوا أن المدار فى الحياة على التمتع بلا عمل وأخذ الملوك والأمراء والعظماء يستكثرون من السلاح والكراع ويستعمرون الأمم ، ومانتيجة ذلك إلا أن يخرج خلق جديد لاهم له إلا الشهوات وحشد المال وهناك تكون اللذات مقصدهم ، فلا يزالون يتنزلون حتى يرسل لهم من يزيل ملكهم ، والذى يزيل ملك هؤلاء أقوام آخرون أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضارة (مثال ذلك) دولة الرومان فقد أهلكها البطنة والجشع ولم يهلكها إلا أمم بربرية وحشية ودولة الإسلام فإنها لما استفحلت وعظمت وأمنت ونامت أرسل الله لها أمة وحشية وهم (التتار) فأزالوا ملكهم ، وهكذا أهل الأندلس أزال الله ملكهم بقوم أقرب إلى الوحشية منهم وهؤلاء فى سكرهم وخمرهم وعزفهم يعمهون .

فبينما ترى هذا الإنسان فى بداوته مجدا فى عمله قانعا بقوته معتدا بنفسه شهما كريما إذ هو نفسه قد انقض على أهل الترف والنعيم الذين أصبحوا لايصلحون للحياة فاستحوذ على ماعندهم ثم انغمس هو فى النعيم ، وقد أعد الله له قوما آخرين متوحشين فانقضوا عليه فسلبوه ملكه . إن الأمم العربية كانت فى بداوتها همجية فلما أسلمت استحوذت على ملك الرومان والفرس الذين انغمسوا فى الشهوات ولما صار هؤلاء منغمسين فيها كسابقيهم سلط الله عليهم من هم متوحشون . إذن الأمم البربرية فى أوروبا أزالوا دولة الرومان وعرب الحجاز والبين عملوا مافعله برابرة أوروبا فأزالوا دولة الرومان من الشرق مع دولة الفرس . وهؤلاء العرب لما أصبحوا كالفرس وكالروم السابقين اجتاحهم التتار المتوحشون فى الشرق والاسبانيون فى الغرب . وهاهى ذه أوروبا اليوم أصبحت منغمسة فى الترف والنعيم وقد جاء يوم حسابها وهاهى ذه مستعدة لذلك القانون .

وترى أهل الشرق جميعاً قاموا يتملصون من عذابها ويخرجون من حكمها دولة دولة لأن أهل الشرق الأدنى اليوم يريدون أن يأخذوا دورهم .

هذا هو تاريخ هذا الإنسان عامة والمسلمين خاصة ومنهم دولة بني عثمان في بلاد الترك ، فهذه لما أخذت الدول الاسلامية (التي جاءت بعد الأمم العربية تضمحل كالسلجوقية وبعض الدول الفارسية) تنحل بسبب التخمة والترف دخل هؤلاء في الإسلام وهم على فطرتهم الوحشية في الجبال ووضعوا يدهم على الأمم الاسلامية وأذلوا الأمم العربية وحاربوا العجم ولم تقم لهذه الأمم قائمة والتعليم اضمحل وبقي الناس قروناً على ذلك وانتهى الأمر بأن للملوك الذين سموا أنفسهم خلفاء صاروا مترفين منغمسين في الشهوات فظلموا أممهم وظلموا الأمم الاسلامية جمعاء ، فانقضت أوروبا على المسلمين في الحرب الكبرى وزالت الخلافة عقبها .

وإني لأعجب كل العجب أن يكون هذا كله مصداق حديث رواه البخاري في باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب من كتاب الجهاد والسير وفي باب مايحذر من زهرة الدنيا من كتاب الرقاق وفي كتاب [رياض الصالحين] للامام النووي وقد عزاه إلى البخاري ومسلم في صحيحيهما وهذا نصه :

« عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين يأتي بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم ثم قال أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ، فقالوا أجل يارسول الله ، فقال أبشروا وأملوا مايسركم فوالله ماالفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » .

أقول فهل يعرف هذا الحديث إلا من درس التاريخ على النحو الذي نسير به في هذا التفسير . أو ليس هذا الحديث قد جمع كل تاريخ الأمم ، ماتاريخ أمم الأرض ؟ هو تاريخ واحد ، استقلال في البادية ، وشظف عيش ، ثم ميل إلى الحضارة والترف ، ثم ذل وهكذا دواليك ، إن هذا هو تاريخ الأمم وهذا الحديث قد جمعه كله ، إذن ماذا فعل هذا الانسان ؟ خلقت له المواهب وأعطيت له الأرض وقيل له أنت خليفة لربك في أرضه فنسي العهد وجهل المقصود من الحياة وجهل اللذات جهالة ، فكل هذا الإنسان يسعى لأن يكون كالزنابير يأكل عسل النحل أو كالبراغيث والقمل والبق لاتعيش إلا على أجسام الناس والحيوان . الإنسان نسي عقله فهو لايسعى إلا إلى أن يكون مصاصاً للدماء . لافرق بين عباد الوثن وأتباع الأنبياء الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم . وقصارى الأمر وحاداه أن هذا الإنسان يسعى جهلاً أن يكون كالحشرات يعيش من كد غيره بل الحشرات أفضل من هذه الوجهة لأن البرغوث لايعيش على جسم البرغوث بل على جسم نوع آخر كالإنسان : أما الإنسان فحق عليه قول الله «قتل الإنسان ما أكفره» .

أنا اليوم أكتب في تفسير القرآن فكلامي يكون عاماً للمسلمين وغير المسلمين لأن القرآن للناس كافة لا للمسلمين وحدهم فليّ الحق إذن أن أقول قولاً عاماً منطبقاً على الأمم كلها ، فأقول تبين من هذا كله أيها الناس أنكم لم تقوموا بالخلافة حق القيام لأن خليفة الله الذي هو قائم بالقسط في خلق الكرات والسطوح والخطوط ومساحاتها المنظمة والذي فعل ذلك النظام نفسه في المخلوقات النامية ونسقه واحد في الجميع لاتغيير لسنته لايصلح لخلافته من يرجع إلى أخلاق الحشرات في حياته ويكون بعيداً عن الصراط المستقيم . أتدرون ماذا فعل الله بكم ؟ سلط عليكم الآفات في الزراعة وفي حياتكم وأحوالكم جميعها فأمر أنواع البق والبراغيث والقمل أن ترعى أجسامكم والجراد والدود وأنواعاً أخرى سلطت على زرعكم لأني فعلت معكم ماهو أليق بكم وأنتم أهل

« . فأنتم تسعون لأن تأكلوا مال غيركم . هذا هو تاريخكم ، إذن أنتم حشرات كالجراد والقمل فسلطت عليكم هذه المزعجات ظاهرة وباطنة والباطنة هى أنواع الحيوانات القذرية (الميكروبات) التى تولد فيكم الطاعون والحمى التيفوسية والجدرى والقرمزية والدفتريا والحصبة والسعال الديكى والتكاف والكوليرا الخ .

ها أناذا سلطت عليكم هذه المهلكات وأمرت الرياح والماء والفيران وغيرها فنشرت ذلك بينكم ، أفلا تفقهون من عملى هذا فيكم أنى أقول لكم بخطاب مفتوح : (إن لم تتحدوا جميعا يا أهل الأرض على هذه المهلكات المتحدة عليكم فأنتم المقصرون الجاهلون ، وإن اتحدتم جميعا فى الشرق والغرب وتركتم ما كمن فى فطركم سعدتم سعادة لم يحلم بها الأولون) .

ألا ترون أن هذه كلها سلطها عليكم لتفعل معكم مثل فعلكم ، ولو أنكم رجعتم عن هذه الأعمال لرفعت عنكم الضنك . ألا ترون أن الحيات والثعابين السامة لا أخلقها إلا فى المواضع القذرة ، فأما الأماكن التى ليست ملوثة بالقاذورات ولا بها برك ولا مستنقعات فانى أجعل حياتها لا سم فيها ولا أذى . فمن أين يأتى السم والأرض صالحة نقية ؟ فهكذا أنتم يا بنى آدم لو أنكم وجهتم عقولكم لإصلاح النوع الانسانى كله فبدل أن يطرد الانجليز من يكون أسود اللون من أهل أمريكا من مطاعمهم وأماكن لهوهم ولعبهم احتقارا لهم ويترك النوع الإنسانى لتعلم تعليم المتوحشين من السودانيين وغيرهم . يتحدون جميعا على ترقية أرضهم وجعلها جنة دنيوية فبدل هذا كله أخذ كل من وجد فى نفسه قوة منكم يذل غيره ، فلذلك انتقل الملك من أمة إلى أمة ومن دولة إلى دولة ولا سعادة لهذا الإنسان إلا أن يكون كل رجل وكل امرأة فى الكرة الأرضية عاملا أى عمل كان وهنالك تظهر مخبآت هذه العقول ومخبآت هذه الأرض والهواء والماء ، فأما مادام الناس على هذا المنوال فان الماء والهواء — كما تقدم — وجميع ما على الأرض تتعاون على إذلالكم ، فترون الهواء ينقل الأمراض ، ومثله الماء والذباب والبق والفيران والقمل وأنواع الطيور الداجنة . هذه كلها جعلتها عذابا لكم حتى ترجعوا فتتعاونوا جميعا على تطهير أرضكم من أدرانها وعقولكم من جهلها وإلا فلا كرامة لكم عندى ، وأقول لكم (لما جهلتم كتابى الذى كتبته بيدى ولم تفهموا لماذا خلقت الزلازل والحشرات المهلكات والوباء والطاعون وأنواع الأمراض والآفات العارضة) أنزلت عليكم كتابا مسموعا أوحيته إلى رجل منكم فقلت فيه « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » فها أناذا فتحت لكم الباب ووعدتكم بالسعادة العلمية والجسمية فى الدنيا إذا رجعتم ، فها أنا ذا استخلفتكم فى الأرض لأنظر كيف تعملون فأحوالكم يا أهل الأرض اليوم وفيما مضى تنطبق على أحوال الحشرات تارة وعلى أحوال الطيور تارة أخرى ، ففى حال البداوة يكون لكم بعض الشبه بالطيور تأكل بعضها وفى حال التنعم والحضارة تكونون كالوحوش وكالحشرات تعيشون من كسب غيركم وتتركون مواهبكم وأنا ما خلقت خلقا عبثا فأعمالى كلها للحكمة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق » والحق هنا أن تشتغل كل أمة فيما استعدت له وكل فرد فيما خلق له وتكون الأمم كلها متعاونة تعاون أعضاء الجسم الواحد ، وهذا هو العدل الذى رأيتموه فى مساحات الخطوط والسطوح والأحجام ، هنالك تعيش الأمم والأفراد ولا تقتلهم البطنة والبطر ويكون الناس كلهم أمة واحدة كل لكل مساعد وتزول الفوارق الكاذبة التى أزالها الإسلام فأذن بلال على الكعبة بمحضر من قريش بشير صلى الله عليه وسلم بذلك إلى زمان ارتقاء الأمم بعد زماننا إذ يخجل الامريكيون والانجليز من احتقارهم السود لمجرد لونهم ، إذن دين الاسلام جاء لترقية الإنسانية وإزالة الوحشية من نوع الإنسان ، هنالك تمتد آجال الأمم إذ التربية عامة ولا كسل ولا ترف ولا تنعم وإنما هو العلم والعمل وهنالك يكون لكل امرىء عمله ومن خالف قتل فلا أمة تكون عالة على أمة بل تشترك جميع الأفراد والأمم بقوانين صارمة حازمة وهنالك

يكون

يكون السلام العام ولا أحد إذ ذاك يقبل الصدقة لأن كل فرد عامل وغنى بعمله وهذا مصداق الحديث الشريف الذى جاء فيه ماملخصه : إن الصدقة يطاف بها على الناس فلا يقبلها أحد لأن المال يفيض فيضاً ، وإذن يكون الناس فى عملهم خلفاء الله فى الأرض حقاً على صراط مستقيم كصراطه فى مساحة السطح والخط والحجم بهيئة منتظمة لاتتغير . وهنا لاتغير لأحوال الناس من همجية إلى حضارة ، بل يستمر النظام على وتيرة واحدة نظامية كنظام القادير الساحية فيما ذكرناه . انتهى صباح يوم الاثنين (٢٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م .

﴿ الجوهرة الثانية : فى قوله تعالى «فاصبر إن وعد الله حق» الخ ﴾

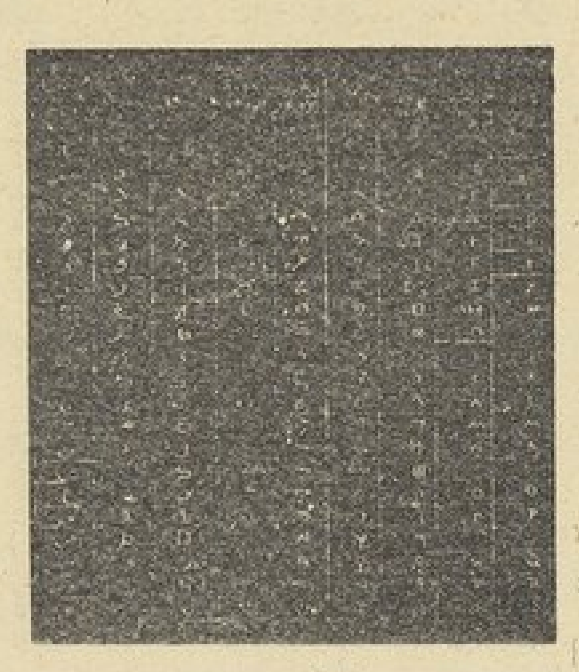
اعلم أيها المطلع على هذا التفسير أن هذا الكلام لى ولك أيضاً فإنك تجد أناساً تقص علمهم الطبيعى والرياضى فظنوا أنهم عرفوا كل شىء فينكرون هذا القرآن وينقصون عليك بعض ماعرفوه فإياك أن تركن إليهم واحذر أن يستخفوك فإن قرآننا طلب منا كل العلوم ، ومتى تحققت العلوم إجمالا وأحكمتها فأنت حكيم وهناك لايخاف عليك من الاستخفاف . إن المتعلم فى هذا الزمان عرضة لهذا الاستخفاف فإن الذين يتبعون دين الإسلام غالبا جهلاء بهذا الموجود فى عصرنا ، فمتى أدركوا شيئاً من العلم ظنوا أنهم عرفوا ماجهله الأنبياء وفاتهم أن القرآن يطلب كل شىء ، فأنصح لكل من تعرض لهذه الفكرة أن يقرأ هذا التفسير ويتأمله ويصبر عليه وحينئذ يستحيل أن يستخفه الذين لايوقنون . إن هذا التفسير به اليقين لشبان المسلمين الذين يعيشون بعدنا وهو الذى كنت أسعى له من مبدإ حياتى .

واعلم أن فى هذا النوع الإنسانى أناساً خلقوا مفكرين وفطروا على عشق الحكمة والعلم فهؤلاء تحدثهم أنفسهم فى اليقظة أوفى المنام بأن يكونوا نوراً لأممهم وأنهم منصورون فهؤلاء يحتاجون للصبر حتى ينالوا مايناسب عقولهم من النفع العام . واعلم أنه كما أن فى الشجر زهراً ينتج ثمراً هكذا فى شجرات الأمم أناس خصوا بالفطرة لنفعها وهؤلاء تحت نظر الله وفى كنفه ومساعدتهم حتم لازم قضتها الحكمة الإلهية لأنهم أشبه بالملائكة وبالشمس والقمر . خلقوا لنفع الناس وهم لامحالة نائلون ما أملوا إذا صبروا على مايمتحنون فى هذا العالم وهذه السورة فيها هذا المعنى لأنه سبحانه وعد نبينا صلى الله عليه وسلم أن الروم ستغلب الفرس ليكون ذلك من دلائل النبوة وهو وعد من الله كما وعدك ووعد المستعدين لنفع الأمم فقال فى آخر السورة (فاصبر إن وعد الله حق) سواء أكان لك أولغيرك ممن فطروا على نفع الأمم العام . وإذا كان وعد الله حقاً فالصبر لابد منه حتى يأتى حينه فاحذر أن يستخفك الذين لايقين عندهم . ولما كان اليقين لايتم إلا بالحكمة وهى تمام العلم أتبعه بسورة تسمى باسم حكيم وهو لقمان عليه السلام ؛ ﴿ فى كلة لقمان (الم) وفى كلة والحكمة ﴾ كذلك فالأولى غير مرتبة والثانية مرتبة فلذلك ولغيره مما يأتى ابتدأها بحروف (الم) انتهى تفسير سورة الروم فى (٨) فبراير سنة ١٩٢٥ والحمد لله رب العالمين .

﴿ استدراك ﴾

قلنا فيا تقدم فى صحيفة (٥٦) من هذا المجلد إن اللغات على (قسمين) قسم لفظى وهو ما كان نهايته السطر السابع عشر من صحيفة (٥٩) وقد فاتنا أن نضع القسم الخطى منها فرأينا أن نضعه فى آخر تفسير السورة إتماما للفائدة وهاهو ذا هذا الجدول (انظر شكل ٢٠) .

(جدول رسم الأحرف العربية والبربائية والافرنجية القديم منها والحادث)
(مأخوذ من أحد النشرات العلمية لبروكش باشا)



(شكل ٢٠)

(تنبيه) الصواب أن خانة (١) هى لكتابة الأحجار وخانة (٢) هى لكتابة الورق لا كما ذكر أعلاه

تفسير سورة لقمان

(هى مكية)

(إلا من قوله تعالى « ماخلقكم ولابعثكم إلاكنفس واحدة إن الله سميع بصير» إلى قوله تعالى «وأن الله هو العلى الكبير» فمدنية)

(آياتها أربع وثلاثون ـ نزلت بعد الصافات)

(وهى أربعة أقسام)

(القسم الأول) فى تفسير البسملة .

(القسم الثانى) فى معنى «الم» .

(القسم الثالث) فى المقدمة وحكم لقمان عليه الصلاة والسلام من أول السورة إلى قوله تعالى «إن أنكر الأصوات لصوت الحمير» .

(القسم الرابع) من قوله تعالى « ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» إلى آخر السورة .

﴿ القسم الأول : فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

اعلم أيها الذكى أنى رأيت فى هذا التفسير عجبا . هذه البسملة قد فسرت فى (سورة الفاتحة) وفى سورة (هود) من الربع الثانى من أرباع القرآن جاء فى تفسيرها الأحاديث الدالة على الرحمة بالحيوان وهنالك قد فصل الكلام تفصيلا فى تلك الرحمة وما يجب على المسلمين من حفظ الحيوان ورحمته والرأفة به ، وجاء فى (سورة الروم) السابقة أمر آخر وهو أن آلام الحيوان من المرض والجوع والسكر وغيرها لم تجعل إلا لرحمتها وفى ذلك تبيان أن تلك الآلام جند من جنود الرحمات الواسعة التى اتصف الله بها . وفى هذه السورة سنسمع فى تفسير البسملة معانى أخرى ، ولماذا هذا ؟ لأن الله عز وجل يريد أن يجعل المعانى متفرقة على أوائل سور كثيرة لئلا يمل المسلم من قراءة كلام طويل فى سورة واحدة لتفسير آية واحدة . وبهذا يعرف بعض السر فى تكرار هذه الآية فى أول كل سورة ، فلأجعل تفسير البسملة هنا مقسما إلى (ثلاثة أقسام : القسم الأول) فى ذكر أسماء الله الحسنى التى منها اصطفى الله ثلاثة أسماء فى آية البسملة (القسم الثانى) فى أن معانى أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى ذاته تعالى وصفاته ، وآيات القرآن مفصلات لتلك المعانى التى تضمنتها الأسماء (القسم الثالث) فى معنى (الله الرحمن الرحيم) وهى الأسماء التى فى البسملة .

﴿ القسم الأول : فى ذكر أسماء الله الحسنى التى اصطفى الله ثلاثة أسماء منها فى البسملة ﴾

روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا إنه وتر يحب الوتر من أحصاها دخل الجنة هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل

القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الأحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخـر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعال البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور » انتهى القسم الأول .

﴿ القسم الثانى والثالث فى أن معانى أسماء الله الحسنى كلها ترجع إلى صفاته تعالى وفى معنى الله الرحمن الرحيم ﴾

ولأقدم مقدمة فأقول : لقد تقدم فى (سورة الروم) عند قوله تعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم » أن اللغات كلها ترجع إلى ثلاثة أقسام : سامية وطورانية وآرية . ومن الأخيرة اشتقت أكثر اللغات الأوروبية والإيرانية ، ومن الطورانية اشتقت لغات الترك والقازان ونحوهما . ومن اللغة السامية كانت الحبشية والعربية وغيرهما ، وبناء عليه تكون اللغة العربية التى نزل بها القرآن وجاءت فيها هذه الأسماء الإلهية من اللغات التى وضعها الناس لما يحتاجون إليه . إذن اللغات موضوعة وضعا أوليا لنوع الإنسان ، وغاية الأمر أنهم لما فكروا بعقولهم ونظروا بأعينهم وجدوا أن هذه العوالم صائرة إلى الزوال بل هى اليوم مذبذبة متغيرة حكموا بأن لها صانعا وساعدهم على ذلك أنبياؤهم ومنهم نبينا صلى الله عليه وسلم وقال لنا إن هذه أسماء الله تعالى فلما نظرنا إليها وجدنا هـذه المعانى التى تطلق علينا لا يجوز أن تطلق على الله تعالى لأنه ليس كمثله شىء وهو السميع العليم ، فهو سميع عليم ولكن ليس علمه وسمعه كعلمنا وسمعنا لأن علمنا مبدؤه بحواسنا وسمعنا أصله بآذاننا وبالأعضاء المتصلة فى داخلها وهكذا لا نسمع إلا إلى أمد محدود ، ولا جرم أن الأعضاء المذكورة وحصر المسموع كلاهما مستحيل على الله فهو ليس جسما كما أن سمعه ليس بمحدود لأنه ليس كمثله شىء ، وهكذا وجدنا أن الرحمة عندنا عبارة عن رقة فى القلب تقتضى التفضل والإحسان ، ولا جرم أن هذه الرأفة نقص ، إن الحيوان ناقص ومنه الإنسان ولهذا النقص وضع فى جبلته الألم لما يراه من ضعف طفله أو جروه أو فلوه فلا دافع لذلك الألم عن نفسه إلا بأن يهيمن على طفله وجروه وفلوه وفصيله ويرضعه اللبن ويشمله بكل رعاية . إذن مبدأ الرحمة عندنا ضعف فينا وهذا الضعف بسببه أنعمنا على ذريتنا فبقيت إلى ما شاء الله بسبب ذلك الإنعام . بل بسبب هذا الضعف الذى نسميه رقة فى قلوبنا قاتلنا الأعداء فأخرجناهم من بلادنا مرحمة بالضعفاء فيها وقدمنا أنفسنا للهلاك وأسلمناها للمنون . وبسببه أيضا قدمنا أموالنا للضعفاء والمساكين إذا رأيناهم فى حالة يرثى لها فلا سبيل لدفع هـذا العذاب عن نفوسنا إلا بأن ننعم على هؤلاء المساكين فنحس بفرح وفوز ونصر وانشراح صدر . إذن أكثر رحمات هـذا الانسان والحيوان راجعة لقصور الفطرة الحيوانية عن الرحمة الحقيقية ، لأن كمال الرحمة عقلا أن تعطى بلا فائدة لك وههنا الفائدة عائدة عليك وهذه الفائدة إما أن تكون فطرية كما تقدم ، وإما أن تكون شرعية جاءت بها الشرائع الإلهية وهى ثواب الآخرة ، فإذا أغدقت النعم على الناس وقصدت ثواب الآخرة وأن الله يعطيك فى الآخرة بدل ما أعطيته الفقير فى الدنيا ، فهذه وإن كانت شرعية جاءت بها جميع الشرائع وأعظمها الاسلام ، فهى لا تزال ناقصة بالنسبة للرحمة التامة التى لا جزاء فيها ولا شكورا وهذه قد قصد فيها الجزاء وربما يتبعه الشكر فى الدنيا من الناس . إذن الرحمة الفطرية المغروسة فى هذا الانسان وفى الحيوان ناقصة لا يتصف بها الله . إذن الرحمة بالنسبة لله تعالى ترجع إلى إفاضة الاحسان وإسباغ النعم على جميع الخلق برا وفاجرا . إذن هذا مجاز لأن حقيقة الرحمة

واجبة لما فطرت عليه نفوسنا، وهي مفطورة على النقص والله هو المتصف بالكمال. إذن الرحمة بالنسبة له واجبة إلى الإنعام وإفاضة الخير مطلقا.

فياسبحان الله. إنك يا الله قد أريتنا هذه المعانى فى مخلوقاتك. إنك يا ربنا لما اتصفت برحمة لم تدركها من نفوسنا أردت أن تظهر لنا آثار هذه الصفة فى المخلوقات وفصلتها لنا تفصيلا. إنك قد أودعت الرقة فى قلوب الأمهات من الانسان والحيوان من ذوات الأربع والطيور وقلت لها أيتها الحيوانات إياك أن تفرطى فى ذريتك أو فى بيضك. فإياك ثم إياك وإلا أنزلت عليك عذابا أليما يستقر فى باطنك وضربتك بمقامع من حديد تجدينها فى باطنك، أيتها المخلوقات إن رحمتى سبقت غضبى، فعليك أن تعطفى على ذريتك، وإلا أنزلت عليك غضبى بالحزن والألم فى أنفسك وأخذت تندبين حظك وتبكين على مافرطت فى تلك الذرية.

إن هذه الرحمة لم أخص بها آكلة الحشائش من الحيوانات، كلا ألم تروا أن الصقور والشواهين والأسود والنمور، تلك الحيوانات التى انتزعت من قلوبها الرحمة على الحيوانات المأكولة وألهمتها أكلها، وما نزعت الرحمة من قلوبها فى ذلك الأكل عبثا وباطلا لأنها لو رحمتها فلم تأكلها لضاعت (مزيتان: المزية الأولى) أن الحيوانات الكاسرة تموت عن آخرها (المزية الثانية) أن الحيوانات التى تأكل الحشائش كالغزلان والبقر الوحشى وغيرها لو لم تأكل بعضها السباع لملأت السهل والجبل وعند ذلك لاتكفيها حشائش الأرض ونباتها وأشجارها، فمن حكمتى أن خلقت تلك الحيوانات الجريئة التى لاتعيش إلا بلحمان هذه الحيوانات لتكون رحمة لأنفسها بالبقاء، والمأكولات بحفظ الموازنة لبقاء ذرياتها متهنئة بسعادتها فى الفلوات، ولو أن الأرض كلها صلحت للزراعة ولم تقم فيها موانع، وكفى الماء لربها لأبدعت الحياة أسلوبا غير هذا الأسلوب) كلها قد فطرت على رحمة ذرياتها كما فطرت عليها آكلات الحشائش، ففى هذه الحيوانات المفترسة اجتمع الضدان رحمة وغضب، ولكن الرحمة سبقت غضبى، فالأم تعطف على أولادها وبهذا العطف تحفظ لهن الغزالة والغزال بقوتها الغضبية ولكن هذا الغضب ليس بالغضب المطلق لأنه لرحمة (اللبؤة) مثلا ورحمة ذريتها ورحمة نوع الغزلان بتقليل عددها لتكفيهم حشائش البرية ولتكون اللحوم للمأكولة متخللة أجزاء (اللبؤة) وأولادها فيمتنع فساد الجو بما يموت من تلك الحيوانات.

وملخص ماتقدم أن الرحمة فى الحيوان رقة والرقة ألم والإنعام على الذرية وعلى المساكين ونحوهم دافع لهذا الألم فهى رحمة ناقصة والرحمة الكاملة تخلو من ذلك كله وهذه ليست فى الأرض وإحسان أكثر المسلمين وغير المسلمين رحمة ولكنها لمقابل فى الآخرة، وهذا أيضا نقص ولكنه كمال بوجه ما فى نوع الانسان والرحمة فى قلوب الحيوانات الكاسرة والمفترسة لأولادها كرحمة الحيوانات المأكولة لأولادها سواء بسواء والحيوانات الآكلة تجتمع فى قلوبها الرحمة على ذريتها والغضب على الحيوانات المأكولة والرحمة سبقت الغضب فى الجميع.

إذن الرحمة فى الأرض واحدة وتنوعت أنواعا شتى، ففى المرأة والناقة والغزالة وفى الحمامة والدجاجة وأنثى الصقور حمل وإرضاع وغيرها، ومحافظة على البيض وعلى الفرخ عند خروجه من البيضة وترى الديك لا يبالى بالبيضة ولا بالفرخ الخارج منها وذلك لأنه مشغول بالقوة الشهوية أما الرحمة فلا لأنها لا حاجة إليها إذ الفرخ قوى عليه ريشه ولكنا نرى ذكر الحمام يساعد أنثاه، لماذا؟ لأنه رأى فرخه خرج ضعيفا لا يقدر على إحضار قوته فركز فى نفسه مساعدة أنثاه فساعدها، إذن الرحمة فى الأرض قد وضعت بقدر «إنا كل شىء خلقناه بقدر».

إن هذه المسألة وحدها تكفى العاقل المفكر أن يعتقد اعتقادا جازما أن الحياة كلها سعادة لأنها مبنية على الحكمة وإذا أصابنا شر أو خير فهو بحكمة، وإلا فلماذا نرى هذا النظام المتقن، رحمة نزعت من قلب

الديك لماذا ؟ لأنها لاحاجة لها وإذا وجدت كانت حملا ثقيلا لافائدة منها ، فهذه وحدها كافية لسعادة القلوب في هذه الأرض . إن العلم اليوم صار شارحا لمعاني أسماء الله الحسنى لأنها معبرات عن صفاته تعالى كالوجود والحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام .

هذا معنى كون الرحمة واحدة وقد تنوعت ، ثم انظر إلى ما بعد هذا من أنواع الرحمات المذكورات في هذا التفسير ؛ انظر إلى السمك المرسوم المشروح في (سورة طه) فإنك ترى أن السمك لايساعد ذكره أنثاه كلا . ولا تعطف الأم على ولدها . كلا . إذن رقة القلب هناك على الذرية وألم الآباء لآلام الأبناء معدومة لماذا ؟ لأن الله تكفل بالأجنة ، فماذا فعل ؟ قال لأنثى السمك (أيتها الأنثى اذهبي إلى قرب الشاطىء وضعي بيضك بقدر وأنت أيها الذكر اذهب إلى ذلك البيض وضع عليه مادتك الشهوية وعيشا أيها الذكر والأنثى في البحر فلا مغازلة ولا خطبة ولا زواج ولا نفقة ولا عدة ولا حيض ولا نفاس ولا أتعاب ولا قضاة ولا محامين ولا تعب ولا نصب ولا سوء معاشرة ولا خيانة بالزنا ولا سفاح ولا ذل مما أوجعت به قلوب بني آدم وأحرقت قلوبهم لحكمة علمتها وعبرة أنزلتها ، ثم أنت أيها الجنين في البيض . أنت الذي جمعت فيك سر الذكر وسر الأنثى قم بسلام ومعك كيس مملوء من الأغذية فكل منه حتى تكبر ثم بعد ذلك استقل استقلالا تاما وكل من أعشاب البحار وأنا البر الرحيم بك ، فإن أكلك غيرك فأنت بنعمتي تربيت وإن أكلت غيرك فهي نعمتي عليك وعلى كل حيوان في البر والبحر) .

فهذه الرحمة التي تراها في صور السمك المذكورة في (سورة طه) قد خلت من المؤلمات التي أودعت في الحيوانات العليا ، لأن الأعلى يكلف بما لايكلف به الأدنى ، كما أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بما لم يؤمر به من دونهم .

وهناك رحمات أخرى في الجراد وفراش القز ودوده إن الجرادة تعيش في الأرض ويقال لها : أيتها الجرادة كلي واشربي هنيئا ولا تدخري كما يدخر النمل والنحل لأنك لاتعيشين إلى العام القادم ، أما ذريتك فأنا المتكفل بها ضعي بيضك حيث شئت في أماكن أعددتها لك ، فإذا جاء أجلك فأنا المتكفل بها أحفظها حتى ترزأ بني آدم في زرعهم وهم يجتمعون ويحاربونك ولكن هيهات فأنت لا تزالين في الوجود مهما فعل الإنسان ، فهذه الحشرات وأمثالها كالبق والبرغوث والذباب وأمثالها لا تحفظ أولادها ولا رقة لها عليها ولا ألم .

فالله عز وجل لما أرانا الرحمة في قلوبنا وفي قلوب الحيوان وعلم قصورنا حين وضعت اللغات وعلم أننا يوما سنتكلم في رحمته تعالى قال: هاؤم اقرءوا رحمتي في سطور الكائنات ، ألم تروا أنها ألم في قلوب الحيوانات العليا ولكن أمثال السمك والجراد والبق قد وجدت الرحمة على أولادها ولكن من عالم آخر غير عالمكم وتدبير محكم غير تدبيركم ، فإذا كنتم علمتم علم اليقين أن الإعطاء قد ظهر في الأرض بلا ألم يصحبه فاعلموا أن ذلك يفهمكم رحمتي ، فرحمتي أسبغتها على العالم وليست كرحمتكم . إذن ظهر سر قول علمائنا رحمهم الله وإن الرحمة تطلق على الله مجازا بحسب وضع اللغة حقيقة بحسب نتائجها لامبادئها » . إذن وضع اللغات السامية والطورانية والآرية وما تفرع منها لم يكن إلا لأحوال هذا الانسان لا لموجود فوق مداركه والله لما أراد أن يعرفنا ذلك وأن أسماءه تعالى لها معان باعتبار الغايات لا باعتبار ما وضعت له اللغة أرانا ذلك في تنويع المخلوقات أمامنا ، وقال لنا هذه رحمتي شملت بها أمثال الناموس الذي ترونه في ماشكم الآسن الذي تحقرونه وأنا الذي شملت البيض الذي يضعه ذلك الناموس برحمتي ولا ألم يصحب تلك الرحمة كالألم الذي تحسونه ليحثكم على الإنعام على الذرية وعلى الضعفاء . إذن أقول إن المعاني التي عرفها العلماء في عقولهم أظهرها الله اليوم

فى هذا التفسير ، والحق يقال أن معانى أسماء الله تعالى المعبرة عن صفاته الوجودية التى اتصفت بها ذاته العلية قد أصبحت تظهر آثارها فى العلوم المنشورة اليوم فى الأرض ، فانظر ببصرك أولا ثم ببصيرتك ثانيا أيها الذكى واقرأ أسماء الله فى الشجر والحجر والبر والبحر والسمك والجراد والحمر والغزال ، انظر بعقلك فسترى ببصيرتك أن الشجر والحجر والشمس والقمر كلها سطور مكتوبات بحبسات بمعانى الأسماء الحسنى والأسماء الحسنى معبرات عن القدرة والارادة والعلم والحياة الخ .

﴿ الرحمة لاحد لها ولا حجر عليها ﴾

لقد عرفت أيها الذكى كيف كانت الرحمة لاملازمة بين إتمامها وبين الألم المسبب لها وقرأت ذلك عجبا فى الجراد وفى السمك المذكورين فى الحديث «أحلت لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال» وهاتان الميتتان قد جاءت فيهما الرحمة بلا ألم ، وقد أحلا لنا ليكون من آثارهما ماجاء فى هذا المقام إذ يتذكر المسلم نعمة العلم التى جاءت مصاحبة لحل الأكل ولاجرم أن الكبد والطحال لهما سر عظيم فى الدورة الدموية التى بها الحياة والحياة تلازمها الرحمة ورقة القلب فكأنه جمع فى هذا الحديث الحيوانات التى فيها محض الرحمة بلا ألم ، والحيوانات التى رحمتها ملازمة للألم ليكون الحديث مذكرا بكل ما كتبناه هنا وإذن هذا الحديث الذى لم يخطر لى فى هذا المقام إلا الآن فيه سر هذا الموضوع كله . إذن هذه المعانى كلها أدمجت فيه ، فإذا كانت الرحمة فى الحيوانات العليا ملازمة لرقة القلب ، فالرحمة فى الحيوانات الدنيا تأتى من الله مباشرة وبطريق ملائكته ولا يجعلها مصحوبة بألم . إذن لاحجر فى الرحمة وطرقها مختلفات ، وهذا اتضح فى هذا المقام وضوح الشمس فى رابعة النهار وهذا كله فى الحيوان العام ، فانظر إلى الرحمة التى أجريت على يد الإنسان . الإنسان سخرت له الأنعام فركبها وأكل لحوم بعضها وقال حين ركبها «سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين» وسخرت له الأرض فهو يزرعها ويستثمر زرعها من نبات وشجر . هذا هو الإنسان ولكن الله يقول له اليوم أنا وإن سخرت لك الإبل والبقر والغنم لتركبها ولتكون زينة لك فليس هذا آخر رحماتى لأن هذه الرحمة مصحوبة بألم . الحيوان سخرته لك وهو رضى بالتسخير لأنه ضعيف الإدراك يخاف منك ويرجو برك له وأنت ذو عقل أيها العبد فلتخرج من هذا الحبس ؛ وإذا كنت أنا قد نوعت فى الرحمة فلم أقصرها على نوع واحد فى الحيوان ، فهكذا أنا سأريكم أيها الناس شئتم أم أبيتم إن سفركم لايتوقف على الدواب بل هكذا قضيت بإظهار آثار النار والكهرباء وحملتكم بهما فى البر والبحر وأن الزرع الذى تزرعونه ليس قاصرا على ماتصنعونه اليوم كما ظهر فى الطبيعة . كلا . ثم كلا . أنتم تسخرون الحيوان لزرعكم كما تسخرونه لسفركم . أنا سخرت الرحمة فى نحو الجراد وفى نحو الغزال فجعلتها فى الأول بلا ألم يصحبها وفى الثانى بألم يصحبها هكذا أنوع فى الزرع فلا أجعله على وتيرة واحدة . فهذه المزارع التى اعتادها آباؤكم لها موازين محدودة وهذه الموازين والأصول متى عرفتموها ووضعتموها فى الماء فى أى أرض كانت ظهر لكم زرع خير من الزرع الطبيعى .

أيها الناس . هذا خلق الله . أنا الذى خلقت الإنسان ، وأنا الذى خلقت النبات ، وأنا الذى ألهمت علماء بقسم (الفسيولوجيا النباتية) بجامعة (كلفورنيا) بأمريكا أن يتوصلوا بالتجارب إلى أن ينتجوا خضراوات وحبوبا وزهورا وفواكه بأقراص كيمائية مركبات من هذه الأجزاء السبع وهى (النيتروجين والفوسفور والمغنيسيا والحديد والبوتاسا والكبريت والكلس والجير) وتلك الأقراص توضع فى الماء فى أحواض خشبية توضع فى أى نقطة من الأرض فى الرمل فى الجبل فوق سقوف المنازل فى أى مكان كان ، وهذه الأقراص المركبات الموضوعات فى ذلك الماء تغذى النبات فيخرج كاملا صحيا نافعا للانسان ليست تلحقه الآفات التى تلحق زرعكم الآن وبه يمكن زرع الأرض كلها ويكون المحصول أضعاف ماعندكم الآن .

أيها الناس . إن هذا العمل عظيم به تزرعون الصحراء حتى أن مصر التى يبلغ مازرع من الأرض فيها جزء من ثلاثين فقط تصبح بهذا العمل جنة أكبر مما هى عليه الآن ٣٠ مرة والثمرات أضعاف أضعاف ذلك كله ، وبهذا تزرعون الأزهار والفواكه فى غير أوانها والقمح والشعير تزيد محصولهما (٥٠) فى المائة تقريبا وبهذا تزرعون الورد فى المنازل فى فصل الشتاء .

أنا أممت هؤلاء العلماء فى أمريكا جربوا خمسة آلاف تجربة فى خمسة أعوام وهذا الكشف وصفه الدكتور (جاريك) رئيس قسم تشريح النبات فى جامعة (كلفورنيا) بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن ، ويقول الدكتور (جاريك) المذكور (إن الحياض التى فيها الماء إذا وضع فوقها أغطية وفيها ثقوب يخرج منها النبات وتتصل جذورها بالماء فى داخلها وتلك الجذور تتغذى بالأقراص المذكورة ، وتلك الأقراص مقدرة فى كل نبات بحسابه لأن أغذية النبات مختلفة مقاديرها باختلاف أنواعه كما تقدم فى (سورة البقرة) فإن محصول سنتين اثنتين يأتى بنفقة تلك الحيضان وهى تعيش ٥٠ عاما وبهذا يمكن زراعة جميع الأراضى القفرة فى العالم كله) . ثم قال (والعمل الذى يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لايبلغ عشر معشار ماتتطلبه خدمة الأرض) .

هذا ملخص المقال المنشور فى العالم وفى مصر يوم الخميس ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م بجريدة الأهرام ولعلك ستراه بتمامه عند قوله تعالى فى (سورة سبأ) «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول» الخ إذتذكر هذه المقالة هناك ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أن التقليد ووقوف العقل فى أمور الحياة الدنيا جهل محض وأننا خلقت فينا العقول لنسير إلى الأمام ولا نقف عند حد ماعرفناه ، ولما وقفت عقولنا خلق الله فى العالم قوما آخرين وقال لهم فكروا وذلك إجابة لأمره تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم إذيقول له «وقل رب زدنى علما» (اقرأ تفسير هذه الآية فى سورة طه) .

﴿المسلمون أولى بهذه العلوم من جميع الأمم﴾

اعلم أن هذه العلوم ورقى الصناعة والزراعة وكشف مخبآت الطبيعة هى الخاصية التى سيختص بها المسلمون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، ألم تر أن المسلم قد أمر أن يتخلق بمايمكنه من صفات الجلال ليقرب من الحق قربا بالصفة لاقربا بالمكان فيأخذ من الاتصاف بها شبها من الملائكة المقربين عندالله تعالى ، ولن يتصور أن يمتلىء القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلى بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لامحالة ، وهذه نصها عبارة الإمام الغزالى ، ولاجرم أن الزراعة التى ظهرت فى أمريكا والتى هى نعمة عامة تعطى ثمرا وحبا وفاكهة وأبا ونعما لاتحصى فى أرض الله الواسعة ولانصب فيها ولا تعب إلا أقل من عشر مايتعب الناس فيه الآن . أقول إن هذه الرحمة من رحمة الله الواسعة التى لاحد لها فهو كما لم يجعل لها حدا فى تربية الأمهات قديما فى ذوات الأربع والطيور والحشرات وجعل من الذرية ماتربى بلا ألم فى نفوس الآباء ولا الأمهات هكذا جعل هناك آلات وأدوات بها نسير من مكان إلى مكان ونسافر حول الكرة الأرضية بغير إجهاد الحيوان الذى سخر لنا بنص القرآن ، وهكذا جعل هناك زرعا لاشقاء فيه ولانصب ولا تعب ولا خوف من حر ولابرد ولا آفات زراعية ولا حرث ولاتنقية حشيش وهكذا مماابتلى به الإنسان وقال أيها الناس هذه نعمى التى أنعمت عليكم بها وألقيتها إلى عقولكم فاقبلوها .

هذه إحدى رحمات الله وإذا قبلها المسلم وعمل بها فقد قرب من الملائكة الذين هم فى قرب ربهم وهذا القرب بالصفة لابالمكان ، وعلى ذلك يكون قول المسلم (بسم الله الرحمن الرحيم) إن لم يكن عنده ولوع بأمثال هذا الذى ذكرناه ولم يحث المسلمين عليه يكون سلوكه ناقصا .

ولما

ولما اطلع على ذلك صاحبي العالم الذي يناقشني في أمثال هذا ، قال ماهذا الذي تقوله ؟ أيتصف المسلم بصفة الله ؟ أليس هذا كفرا ؟ وكيف يكون المسلم ناقصا كما تقول إذا لم يعمل كما تعمل أمريكا ، هذا أمر عجيب. فقلت حياك الله . هذه اعتراضات لفظية يتسلى بها غيرك من صغار العلماء وجميع العامة الذين لايعرفون من ديننا الحنيف إلا الألفاظ وأنا موقن أنك تقول ذلك لأجل تفهيم غيرك فقال: نعم فقلت اعلم أنى لا أكتب مثل هذا إلا وقد أعددت له عدته . قال وماهى عدته ؟ قلت أقوال العلماء فإن الأمم الإسلامية اليوم كلها تتبع ما خطه سلفنا رضى الله عنهم فإذا أسمعناهم ذلك قلنا (قد قطعت جهيزة قول كل خطيب) فقال فاسمعنيه الآن . فقلت العلامة الإمام الغزالى فى كتابه [المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى] ذلك مانصه :

﴿فصل : فى بيان أن كمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته وأسمائه بقدر ما تصور فى حقه ﴾

اعلم أن من لم يكن له حظ من معانى أسماء الله تعالى إلا بأن يسمع لفظه ويفهم فى اللغة تفسيره ووضعه ويعتقد بالقلب وجود معناه فى الله تعالى فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة ليس يحسن به أن يتبجح بما ناله فإن سماع اللفظ لايستدعى إلا سلامة حاسة السمع التى بها يدرك الأصوات وهذه رتبة يشارك البهيمة فيها وأما فهم وضعه فى اللغة فلا يستدعى إلا معرفة العربية ، وهذه رتبة يشارك فيها الأديب اللغوى بل الغبى البدوى ، وأما اعتقاد ثبوت معناه لله تعالى من غير كشف فلا يستدعى إلا فهم معانى هذه الألفاظ والتصديق بها وهذه رتبة يشارك فيها العامى بل الصبى فإنه بعد فهم الكلام إذا ألقى إليه هذه المعانى تلقاها وتلقنها واعتقدها بقلبه وصمم عليها وهذه درجات أكثر العلماء فضلا عن غيرهم ولا ينكر فضل هؤلاء بالإضافة إلى من يشاركهم فى هذه الدرجات الثلاث ، ولكنه نقص ظاهر إلى ذروة الكمال فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين بل حظوظ المقربين من معانى أسماء الله الحسنى (ثلاثة : الأول) معرفة هذه المعانى على سبيل المكاشفة والمشاهدة حتى يتضح لهم حقائقها بالبرهان الذى لايجوز فيه الخطأ وينكشف لهم اتصاف الله تعالى بها انكشافا يجرى فى الوضوح والبيان مجرى اليقين الحاصل للانسان بصفاته الباطنة التى يدركها بمشاهدة باطنه لا بإحساس ظاهر وكم بين هذا وبين الاعتقاد المأخوذ من الآباء والمعلمين تقليدا والتصميم عليه وإن كان مقرونا بأدلة جدلية كلامية . (الحظ الثانى) من حظوظهم استعظامهم ماينكشف لهم من صفات الجلال على وجه ينبعث من الاستعظام تشوقهم إلى الاتصاف بما يمكنهم من تلك الصفات ليقربوا بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان فيأخذوا من الاتصاف بها شبها من الملائكة المقربين عند الله تعالى ، ولن يتصور أن يمتلىء القلب باستعظام صفة واستشرافها إلا ويتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال وحرص على التحلى بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا للمستعظم بكماله فإن لم يكن بكماله فيبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة ولا يخلو عن هذا الشوق أحد إلا لأحد أمرين إما لضعف المعرفة واليقين بكون الوصف المعلوم من أوصاف الجلال والكمال ، وإما لكون القلب ممتلئا بشوق آخر مستغرقا به . فالتلميذ إذا شاهد كمال أستاذه فى العلم انبعث بشوقه إلى التشبه والاقتداء به إلا إذا كان مملوءا بالجوع مثلا فإن استغراق باطنه بشوق القوت ربما يمنع انبعاث شوق العلم ولهذا ينبغى أن يكون الناظر فى صفات الله تعالى خاليا بقلبه عن إرادة ماسوى الله تعالى فإن المعرفة بذر الشوق ولكن مهما صادف قلبا خاليا عن حسكة الشهوات فان لم يكن خاليا لم يكن البذر منجحا (الحظ الثالث) السعى فى اكتساب الممكن من تلك الصفات والتخلق بها والتحلى بمحاسنها وبه يصير العبد ربانيا أى قريبا من الرب تعالى فإنه يصير رفيقا للملأ الأعلى من الملائكة فإنهم على بساط القرب ، فمن ضرب إلى شبه من صفاتهم نال شيئا من قربهم بقدر مانال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق تعالى .

ثم أورد هنا شبهة ترد على خواطر الناس فى كل عصر وهذه الشبهة قد خطرت لبعض قراء هذا التفسير وكتب لى بعض المجلات العلمية معترضا ماقلته فى (سورة الفاتحة) وأجبته إذ ذاك بنحو ما ستسمعه الآن أفلا تعجب من صنع الله أن أرى نفس ذلك الإشكال ذكره الإمام الغزالى وأبدع فى الإجابة وبه استبان أن أكثر شبهات الناس لفظية سببها الجهل المطبق بحقائق العلوم والاكتفاء بالألفاظ والنوم على وساد الراحة الوثير فانظر مايقوله الإمام الغزالى وهذا نصه (فإن قلت طلب القرب من الله تعالى بالصفات أمر غامض تكاد تشمئز القلوب عن قبوله والتصديق به فزده شرحا تكسر به سورة إنكار المنكرين فإن هذا كالمنكر عند الأكثرين إن لم تكشف حقيقته).

هذا هو السؤال وههنا أجاب بما يطول شرحه ولكن سأذكر فحواه وملخصه بعبارات تناسب مانذكره فى هذا التفسير بحيث يألفها ويفرح بها قراؤه فأقول:

اعلم أيدك الله أن للموجودات لا كامل فيها كمالا مطلقا إلا الله فأما ماسواه فهى إما ميتة وإما حية والأحياء [ثلاثة أقسام] قسم أعلى وهم الملائكة، وقسم أوسط وهو الانسان، وقسم أدنى وهو الحيوان. (وبيانه) أن الحى هو الدراك الفعال، فالإحساس والحركة هما اللذان بهما يمتاز الأحياء. ولا جرم أن إدراك الحيوان محدود ناقص. ألا ترى رعاك الله أن الذوق واللمس لا عمل لهما إلا فيما مسهما واختلط بهما وأن الشم والسمع والبصر لاتدرك إلا ماقرب منها وهذا نقص، فالكمال أن يدرك المدرك مالاحد لبعده ويكون القرب والبعد سواء فى إدراكه. هذا من جهة إدراك الحيوان أما فعله فلا يتجاوز الشهوة والغضب، فالحيوان آكل الحشائش والنبات لاحركة له إلا فى طلب قوته وحفظ ولده وكل ذلك من فعل الشهوة وما يتبعها والأسد والنمر بالقوة الغضبية يقتنصان فريستهما وبالقوة الشهوية يزدردانها. إذن عمل الحيوان لايتجاوز هاتين الخصلتين. أما الإنسان فلما كان أرضيا بجسمه سماويا بروحه صار مركبا من بهيمة وملك فهو فى أول أمره بهيمة وفى حال رقيه يرتقى عن مرتبة البهائم بالإدراك فلايقف عند الحس والخيال بل يدرك المعقولات والمعقولات لانهاية لها ومالا يقدر الانسان على إدراكه منها لاحد له ومايقدر على إدراكه منها أيضا لاحد له وإن كان ما يدخل فى الوجود متناهيا وبهذه الصفة يقرب من الملائكة وأعماله إذن لايقصد بهما إلا القرب من الله فهذا قرب من الملك بوجه آخر أما الملك فإدراكه لايقتصر على مالامسه أوقرب منه بل القرب والبعد لاتأثير لهما إلا على الأجسام والأجسام أخس الموجودات وعمل الملك لايكون إلا تقربا لله فلا شهوة هناك ولاغضب كما قدمنا. ارتقاء الانسان فى المعقولات وعمله للصالح العامة تقربا إلى الله كلاهما يقربانه من الملك والملك قريب من الله، وهذا القول يثير شبهة وهى أن العبد يشبه الله والله سبحانه وتعالى ليس كمثله شىء. وهنا أخذ يدحض هذه الشبهة فلأسمعك فحوى عبارته ومقصودها إذ أصوغها لك بالقالب المعروف فى هذا التفسير.

اعلم أيدك الله أن علم البلاغة (ثلاثة) وهى المعانى والبيان والبديع، فلأخص الآن كلامى بعلم البيان وهو محصور فى التشبيه والمجاز والكناية، والتشبيه باب واسع لا آخر له وجميع اللغات تستعمله لتقريب المعانى، والمجاز إما مرسل وإما استعارة مصرحة وإما استعارة مكنية، وهاتان الاستعارتان مبنيتان على التشبيه إذن علم البيان أكثره يرجع للتشبيه، فاذا قلت:

الخد ورد والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم

أو قلت: رأيت فى الدار بدرا. أو قلت: الذى يحمى البلاد له لبد أظفاره لم تقلم

فإنك فى هذا كله لم تخرج عن التشبيه فى المثال الأول، لأن الانسان مشبه بالبدر فى المثال الثانى الذى هو

استعارة مصرحة ومشبه بالأسد تشبيها مطويا فى المثال الثالث وهو استعارة مكنية . إذن التشبيه أصل عظيم فى علم البيان وفى كلام العرب والعجم وهذا أمر مستفيض بين العامة والخاصة ، ولكن الحجاب إنما أسدل على العقول حجبها عن الأمور البديهية ، فانظر رعاك الله إلى قول النابغة يمدح النعمان لما وشى له به قال :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله أيضا :

كأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فهل كان النابغة يعنى بذلك أن النعمان شمس مضيئة فى الثانى وليل مظلم فى الأول ؟ كلا . فالبداهة تقضى خلاف ذلك . وهل الخد هو كالورد فى أخص أوصافه ؟ كلا . ثم كلا . وإنما الخد أشبه الورد فى صفة زائدة على الذات لا أنها هى الحقيقة. ثم إذا قال قائل لأهل أوروبا اليوم: أيها القوم كيف تظلمون الزنوج؟ إن الزنوج آدميون مثلكم فالمثلية هنا رجعت إلى الحقيقة والحقيقة هنا هى الحيوانية والناطقية ، أما كون النعمان كالشمس أو كالليل أو كون الخد كالورد فليس التشبيه هنا راجعا لحقيقة الذات بل لصفات خارجة عنها . إذن التشبيه (قسمان) قسم يكون المدار فيه على الحقيقة الذاتية وهو قليل جدا، وقسم يكون وجه الشبه فيه راجعا لأمور عارضة على الذات وهو الأعم الأكثر . إذن فلنرجع إلى المقصود فنقول : إن الله عز وجل مجهولة ذاته لجميع الناس فمحال أن يدركوها وهكذا صفاته . فالذات والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام كلها لا يعرفها الناس وإنما عرفوها بالقياس على أنفسهم . إن الله عرف بمخلوقاته وفى المخلوقات آثار عرف الناس بها أنه قادر وعالم ولا ريب أن القدرة والعلم لا يعرفهما الناس إلا بالقياس على ما فى أنفسهم ولم يعرفوا ذاته تعالى ولا صفاته على وجه الحقيقة . إن من يعرف الحقيقة يصف بنظيرها وذواتنا وصفاتنا ليست كذات الله وصفاته ، فالصبى إذا أردنا أن نصف له لذة الجماع وجب أن نقول له اصبر حتى تكبر وأنت تعرف تلك اللذة على وجه الحقيقة أو نقول له إنها كالسكر والحلوى التى تأكلها، والمعرفة الأولى حقيقية والثانية ما هى إلا تشبيه، وفرق بين ضرب الأمثال وبين الحقائق ، فاذا قال الإنسان الله قادر فهذا اسم مشتق ومتى عرف المشتق منه عرف المشتق، والمشتق منه هى القدرة وقدرة الله لا نعرفها بالحقيقة كما قدمنا لأنه يستحيل أن نرتقى حتى تكون لنا قدرة مثلها كما يستحيل أن ترتقى نفوسنا حتى تساوى ذات الله . إذن لا نعرف ذاته بالحقيقة ولا نعرف صفاته كذلك فلم يبق إلا التشبيه فنقول نحن لنا قدرة ولنا إرادة ولنا علم وكلام فنقيس كلام الله على كلامنا وعلمه وهكذا كما قلنا للطفل إن لذة الوقاع كلذة السكر ولكن هذا الطفل سيرتقى حتى يصل إلى الحقيقة ، أما نحن فلا . هذا هو الفرق ، على أن النسبة بين الحلوى والسكر وبين لذة الوقاع أقرب جدا من النسبة بين قدرتنا وقدرة الله . وهنا نقول: هل من يقيس لذة الوقاع على لذة السكر الصبى ، أو من يشبه الورد بالخد ، أومن يقول إن هذا كالشمس أو هو كالليل ؟ أراد هؤلاء كلهم أن وجه الشبه راجع للحقيقة الذاتية . كلا . بل الإنسان يقول إن السواد كالبياض فى كونه عرضا ومنظورا ولونا ولا يكون مخطئا وهما ضدان . إذن الضد يشابه الضد ولم يخرجا عن كونهما ضدين ولم ينقص مقدار البياض ولم يتزحزح بسبب هذا التشبيه . هكذا فى مقام الألوهية ، فالتشبيه الذى من هذا القبيل ليس محظورا ولو كان محظورا لكان الناس جميعا مشبهة فانهم موجودون والله موجود ولنا سمع وله سمع ولنا قدرة وله قدرة وهكذا ، فقوله تعالى «ليس كمثله شىء» لا يشمل هذه المشابهة الوصفية التى هى أبعد مما بين لذة السكر ولذة الوقاع وإنما النفى منصب على الاتصاف بالحقائق الذاتية كمثال الزنجى مع الأوروبى فيما تقدم :

﴿ بم يكون قرب العبد من ربه إذن ؟ ﴾

فإذا أقفل على العبد باب معرفة ذاته تعالى وصفاته لأنه لامطمع له في الوصول إلى ذلك فليس له إلا أن يعرف آثار الصنعة . وعلى مقدار مايعرف من الجمال والبهاء والحكمة يكون اقترابه من ربه وبهذه تتفاوت أقدار الناس في معرفة ربهم عز وجل ، فأرفع الناس قدرا وهم الأنبياء والأولياء جميعا يتفاوتون في المعرفة من هذه الوجهة وهم درجات لاحصر لها وتفاوتهم في المعرفة أوسع نطاقا من تفاوت الأغنياء في الملك لأن الأجسام محصورة والمعقولات لا حصر لها ، وهنا بيت القصيد . فالنظر في مصنوعات الله عز وجل كالذي في هذا التفسير وغيره تجعل العبد ربانيا مشرق النفس قريبا من ربه قربا بالصفة لا بالمكان . إن المرأة لاتعرف من زوجها إلا ماوصل لها من المال ومن اللذات المحسوسة . فأما علمه فهي في غفلة عنه وهكذا خادمه . فأما التلميذ فإنه على مقدار ما كسب من علم أستاذه يكون حبه. فإذا كان الأستاذ يعرف عشرين علما والتلميذ عرف علما واحدا فمعرفته له جزئية على مقدار ماعرف وكلما ازداد علما بأن قرأ علوما أخرى عليه ازداد به معرفة وبمقدار المعرفة يكون الحب، وهذه المعرفة بالنسبة لله كما قلنا ليس معناها معرفة الحقيقة بل معرفة آثار الصفات التي تبرعتها الأسماء المشتقة منها لامعرفة نفس الصفات الإلهية كما أن الناس لايعرفون حقيقة الموت إلا إذا ماتوا ولا يعرفون حقيقة الجنة ولذائذها وحورها وقصورها إلا إذا ماتوا ودخلوها لأن أوصاف الجنة ذكرت لنا على مقتضى ما ندرك نحن من اللذات؛ فصورت لنا تلك الصور بالألفاظ على مقدار مانعرف نحن من لذاتنا في الدنيا كما وصفت لذة الوقاع للطفل بالسكر فإذا كانت الجنة التي هي من مخلوقات الله ومن الحوادث لانعرف وصفها إلا بضرب أمثال بعيدة عن حقائقها التي يقربها حديث «في الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر » فكيف بمبدع الدنيا والآخرة فهو أرفع من أن يعرف إلا بضرب الأمثال ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ تذكرة ﴾

مدح أحد الشعراء خليفة من خلفاء بني العباس فوصفه بأنه في الشجاعة كعمرو ، وفي السماحة كحاتم ، وفي الحلم كأحنف ، وفي الذكاء كإياس فقال :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

ثم أحس بأن ذلك ربما يكاد ينتقد فقال :

لاتنكروا ضربي له من دونه ... مثلا عجيبا في الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

فهذا الشاعر شعر بما يشعر به أكابر الحكماء من انتقاد صغار العلماء والعامة على مجرد الألفاظ بلاتحقيق ولا هدى ولا كتاب منير .

وبالجملة فمعرفة ذات الله وحقائق صفاته مستحيلة ، ولا اتساع لمعرفة الله إلا في معرفة أسمائه وصفاته: أي آثارها من عجائب آياته في ملكوت السموات والأرض وخلق الأرواح والأجساد وفي الاطلاع على بدائع المملكة وغرائب الصنعة ممعنا في التفصيل ومستقصيا دقائق الحكمة ومستوفيا لطائف التدبير ومتصفا بجميع الصفات الملكية المقربة من الله تعالى نائلا لتلك الصفات نيل اتصاف لها . هذا ولألخص لك المقام عما يأتي :

(أولا) إن رحمة الناس جعلت مثالا لرحمة الله مع مابينهما من البون البعيد .

(ثانيا) إن العلماء ذكروا أنها في حق الله مجازية لأنها راجعة إلى الغايات وهو الإنعام .

(ثالثا) إن نظام الطبيعة وحسن الصنعة الإلهية فى الإبداع قدجاءت بمقتضى أقوال العلماء إذ جاءت رحمة فى الحشرات ونحوها ولا ألم معها وهكذا الآلات التى بها الانتقال والسفر لا ألم لحيوان فيها فهى رحمة انتفى معها تسخير الحيوان وهكذا اخترع علماء أمريكا لنظام الزراعة الجديد ليس فيه ألم البهائم التى اعتاد أن يسخرها الإنسان .

(رابعا) الكامل التام الكمال ، هو الله والملائكة مبرءون من حصر الإدراك ومن الأسباب المورثات النقص فى العقل كالغضب والشهوة والإنسان إذا أشبههم فقد قرب من ربه وذلك بالمعقولات والنظر فى عجائب الصنعة الإلهية وبكسر الشهوتين .

(خامسا) قرب العبد من الله قرب بالصفة لا بالمكان ، وليس معنى هذا أن العبد مماثل لله فهذا خطأ وإنما المماثلة الممنوعة هى المماثلة فى حقيقة الذات والصفات ، فليس مشاركة العبد لربه فى أنه رحيم وصبور وشكور وسميع وبصير وعالم وقادر وحى وفاعل موجبا للمماثلة وإنما الذى يوجب المماثلة أن يشارك العبد ربه فيما يختص به وهو أنه الموجود الواجب الوجود بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال .

(سادسا) وما تقدم يعرفنا قول الجنيد (لا يعرف الله إلا الله تعالى) وقيل لذى النون وقد أشرف على الموت ماذا تشتهى ؟ فقال أن أعرفه قبل أن أموت ولو بلحظة ، قال الإمام الغزالى (وهذا يشوش على النفوس وإنما الذى يوضح المقام أن تقول إن من يقول لا أعرف الله صادق ومن يقول لا أعرف إلا الله صادق إذ لكل منهما معنى غير معنى الآخر) .

(سابعا) كما لا يعرف الله وصفاته ألبتة لاستحالة الوصول إلى الألوهية فعلا وإنما يعرف بالآثار . هكذا لا يعرف الموت ولا الجنة ولا النار إلا بضرب الأمثال على مقدار عقولنا فإذا متنا عرفنا الموت وأدركنا الجنة ونعيمها ، فأما ضرب الأمثال فليست تفيد علما بل مجرد تخيل كما نتخيل صفات الله بالقياس على أنفسنا .

(ثامنا) نحن الآن فى تفسير البسملة وقد عرفت أيها الذكى معنى الرحمة فى ضمن ما تقدم وأول الأسماء فى البسملة (الله) وهذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين لأنه دال على الذات الجامعة للصفات الإلهية كلها . وسائر الأسماء تدل آحادها على آحاد المعانى من علم أوقدرة أوفعل أوغيره ، وهذا الإسم لا يطلق على غير الله تعالى. فهذان السببان بهما يكون هذا الاسم أعظم هذه الأسماء. ثم إن معانى سائر الأسماء يتصور أن يتصف بها العبد بثبوت منها حتى ينطلق عليه الاسم كالرحيم والعليم والحليم والصبور والشكور وغيره .

والرحمن مشتق من الرحمة وهو أخص من الرحيم ولذلك لا يسمى به غير الله . إذن الرحمن يكون فى السعادة الأخروية لأن العباد لا قدرة لهم عليها، وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء، وأن تكون كل معصية تجرى فى العالم كمعصية له فى نفسه فلا يألو جهدا فى إزالتها بقدر وسعة رحمة لذلك العاصى أن يتعرض لسخط الله تعالى ، وحظه من اسم الرحيم ألا يدع فاقة لمحتاج إلا يسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيرا فى جواره وبلده إلا يقوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أوجاهه أو يسعى فى حقه بالشفاعة إلى غيره فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء وإظهار الحزن لسبب حاجته رقة عليه وعطفا حتى كأنه مساهم له فى ضره وحاجته ، وحظ العبد من لفظ الجلالة التأله . قال الإمام الغزالى (أعنى به أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى لا يرى غيره ولا يلتفت إلى سواه ولا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، وكيف لا يكون كذلك

وقد فهم من هذا الاسم الموجود الحقيقي الحق وكل ماسواه فان وهالك وباطل إلا به ؛ فيرى أولا نفسه أول هالك وباطل كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال «أصدق بيت قاله العرب قول لبيد:

ألا كل شيء ماخلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائل »

فإذا فهمت هذا فاعرف بقية أسماء الله تعالى على هذا النمط مثل أن تقول (الملك) هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاج إليه كل موجود. وهذا المعنى لايتصور فى العبد وأعظم من اقتدوا بالله فى هذا الوصف بقدر طاقتهم (إذا ملكوا شهواتهم وأهواءهم وجميع جوارحهم، واحتاج إليهم الناس فى الهداية ولم يحتاجوا هم إليهم) هم الأنبياء ويليهم الأولياء الذين تعلموا من الأنبياء . قال ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء سلنى حاجتك ؟ حيث قال أولى تقول ولى عبدان هما سيداك قال ومن هما؟ قال الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك وملكتهما وملكاك ، وقال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصنى قال كن ملكا فى الدنيا ملكا فى الآخرة ، ومعنى هذا قطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فإن الملك فى الحرية والاستغناء .

هذا وليس يجوز لى ولا يصح أن أتوسع فى هذا المقام أوأن أفسر بقية الأسماء فإنه خارج عن المقصود لأننا الآن فى تفسير البسملة بطريق خاص غير تفسيرها فى مواضع أخرى من هذا التفسير . ولكن أختم المقال بما وعدت به من أن الأسماء كلها ترجع إلى ذات وسبع صفات فقد جاء فى الكتاب المذكور أن الاسم:

(١) إما أن يدل على الذات مثل (الله . الحق) .

(٢) وإما أن يدل على الذات مع سلب مثل (القدوس والسلام والغنى والأحد) ونظائرها فإن القدوس هو المسلوب عنه كل مايخطر بالبال ويدخل فى الوهم، والسلام هو المسلوب عنه العيوب، والغنى هو المسلوب عنه الحاجة، والأحد هو المسلوب عنه النظير .

(٣) وإما أن يدل على الذات مع إضافة(كالعلى العظيم والأول والآخر والظاهر والباطن) فإن العلو والعظمة والأولية والآخرية وهكذا كلها بالاضافة إلى أمور أخرى . فالأول مثلا هو السابق على الموجودات والآخر هو الذى إليه مصير الموجودات وهكذا .

(٤) وإما أن يرجع إلى الذات مع سلب وإضافة (كالملك والعزيز) فالملك لايحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء . والعزيز هو الذى لانظير له وهو مما يصعب نيله والوصول إليه .

(٥) وإما أن يرجع إلى صفة (كالعليم والقادر والحى والسميع والبصير) .

(٦) وإما أن يرجع إلى العلم مع إضافة(كالخبير والحكيم والشهيد والمحصى) فالخبير يدل على العلم مضافا للأمور الباطنة ، والشهيد يدل على العلم مضافا إلى مايشاهد . والحكيم يدل على العلم مضافا إلى أشرف المعلومات. والمحصى يدل على العلم من حيث يحيط بمعلومات معدودة .

(٧) وإما أن يرجع إلى القدرة مع زيادة إضافة(كالقهار والمقتدر والمتين) لأن الاقتدار تمام القدرة والمتانة شدتها والقهر تأثيرها فى المقدور بالغلبة .

(٨) وإما أن يرجع إلى الإرادة مع إضافة أو مع فعل (كالرحمن والرحيم والرءوف والودود) فإن الرحمة ترجع إلى الإرادة مضافة إلى قضاء حاجة المحتاج الضعيف . والرأفة شدة الرحمة وهى مبالغة فى الرحمة والود يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان والإنعام وفعل الرحيم يستدعى محتاجا وفعل الودود لايستدعى ذلك بل الإنعام على سبيل الابتداء يرجع إلى الإرادة مضافا إلى الإحسان وقضاء حاجة الضعيف وقد عرفت وجه ذلك فيما تقدم .

(٩) وإما أن يرجع إلى صفات الفعل (كالخالق والبارئ والمصور والوهاب والرزاق والفتاح والقابض

والباسط

والباسط والخافض والرافع والمعز والمذل والعدل والمقيت والمجيب والواسع والباعث والمبدئ والمعيد والمحيي والمميت والمقدم والمؤخر والوالى والبر والتواب والمنتقم والمقسط والجامع والمانع والغنى والهادى ونظائرها) .

(١٠) وإما أن يرجع إلى الدلالة على الفعل مع زيادة (كالمجيد والكريم واللطيف) فان المجيد يدل على سعة الاكرام مع شرف الذات والكريم كذلك واللطيف يدل على الرفق فى الفعل فلا تخرج هذه الأسامى وغيرها عن مجموع الأقسام العشرة فقس ماأوردناه بما لم نورده فان ذلك يدل على وجه خروج الأسامى عن الترادف مع رجوعها إلى هذه الصفات المحصورة المشهورة . انتهى باختصار من الكتاب المذكور .

يقول المؤلف . أنا أكتب هذه المقالة ليلة الخميس (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ولعلك تقول أيها الذكى لقد جاوزنا فى تفسير القرآن ثلثيه . فلماذا لم يفسر (الله الرحمن الرحيم) على هذا الوجه والتطويل إلا فى هذه السورة ، ولماذا أعقبنا ذلك بإجمال تفسير الأسماء كلها على وجه الاختصار ولم اختصت هذه السورة بذلك مع أن هذا كانت الأولى به سورة الفاتحة . فاذا كانت الاجابة على ذلك بأن كل سورة تأخذ بسملتها بعض العلوم فهذا لايجدى لأن السؤال لم اختصت هذه السورة بذلك ؟ والجواب عن ذلك أننى أنا لم يخطر ببالى هذا السؤال إلا بعد تمام ماتقدم . والذى ورد فى خاطرى فى الجواب عن ذلك الآن أن ذلك لم يكن قصدا منى ولا أنا الذى خصصت هذه السورة بذلك . وإنما الحكمة فى ذلك أن هذه (سورة لقمان) والله فيها يقول «ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله» الخ. ولاجرم أن الحكمة هى العلم بأشرف المعلومات كما تقدم وأشرف المعلومات معرفة الله عز وجل وصفاته وأفعاله . فالله عز وجل هو الذى حرك قلبى وأجرى بذلك قلمى . وأنا لا أقصد هذه الفكرة وإنما عرفتها بعد ما أتممت هذه المقالة ذلك ليتفكر قارئ هذا التفسير فى أسماء الله وفى صفاته وفى أفعاله ويرى مجمل ذلك فى البسملة حتى يلم بأشرف العلوم وهو الحكمة التى أعطاها الله لقمان . وهنا يدخل روضة العلوم الحكمية . فاذا قرأت أيها الذكى فى أثناء هذه السورة حكم الحكماء وعلم العلماء فى معنى الحكمة فها أنت ذا قرأت أشرف علوم الحكمة . وياليت شعرى إذا رأينا علماء اليونان قد جمعوا علوم الحكمة كلها فى عشر كلمات سموها (المقولات) وهى (الجوهر والكم والكيف والاضافة والزمان والمكان والملك والوضع والفعل والانفعال) وقد تقدم شرحها فى أثناء هذا التفسير . فكيف جهل أكثر المسلمين أن أسماء الله الحسنى وهى عشرة فى عشرة إلا واحدا قد جمعت العلوم كلها بطريقة ألطف وأعلى وأجمل فان معانى هذه الأسماء ترجع إلى الذات والصفات الالهية والله هو المعلم للأمم والعالم كله آثار صفاته . فاذا قلنا فى غير هذا المكان إن الفاتحة تشير إلى مجمل العلوم وهى أفضل من تلك المقولات لأنها سهلة جعلت للتعبد بخلاف المقولات فهى معقدة ولا تصلح للتعبد . فهكذا هنا نقول هذه الأسماء كذلك تصلح للتعبد كما أن فيها أصول العلوم . انتهى والحمد لله رب العالمين .

ملخص سورة لقمان

(الذى تضمنته الرحمة فى بسم الله الرحمن الرحيم فى أولها)

تقدم الكلام على الرحمة العامة فى سور كثيرة لاسيما فى أول (سورة الروم) وأول هذه السورة واستبان من جملة ذلك كله أن الآلام والمرض والكسر والجرح كل ذلك لم يقصد منه إلا الانذار . إذن الرحمة لابد لها من جنود وهى تلك الآلام وقد تم شرح هذا فى أول (سورة الروم) لأنه لوحظ هناك قتال الفرس والروم والمسلمين ، فهناك وبل وحرب وحوادث فهى مقيسة على آلام الأفراد . إذن آلام الأفراد وآلام

الأمم جميعا من الرحمة العامة ، فكما أننا نرى الجرح والكسر والاحساس بالحمى ونحو ذلك كلها منبئات منذرات بالهلاك إن لم يتلاف أمرها كما أن الجوع منذر بالهلاك أو المرض إن لم يتدارك الجسم بالغذاء هكذا أحوال الأمم فالعالم كله على قاعدة واحدة ووتيرة ثابتة يسير على منوال واحد من حيث إن كل ألم شرطى وجندى من جنود الرحمة .

هذا أصبح لمن قرأ هذا التفسير مما هو مبرهن عليه لاشك فيه وعليه فقس ماستراه من الرحمة فى نفس هذه السورة التى ابتدئت بالبسملة المشعرة بالرحمة فيما يقرؤه الناس فيها وبيانه أن نقول : ياسبحان الله . الله خلق الخلق ووجههم إلى مقاصدهم ، فلم كان إنزال الكتب السماوية والإنذار والتحذير ، فهلا كان توجيههم كتوجيه الحيوان بالغرائز فلا نسمع وعيدا ولا زواجر ولا أمورا مشكلة ولا خلافا ولا تكفيرا ولا شيعا مختلفة فى كل أمة من الأمم قديما وحديثا . والجواب على ذلك أن نقول :

اعلم ألهمك الله الحكمة أن العقل الإنسانى من السعة والجولان والخواطر ماليس للحشرات والطيور فهى فيما يبدو لنا ليس لها من الحرية الفكرية مالنا . فلهذا العقل من التحليق فى جو الأفكار ما يجعله ذا طرق متباينة لا طريق واحد ، فهو إذن يعتريه الصحة والمرض فى الآراء كما يعترى الجسم صحة ومرض جسمان ؛ فكما قدر لهذا الجسم أمراض من داخله وأخرى من خارجه وأحيط فى الأول بالحيوانات الكاسرة والأعداء والحشرات وتخلله فى الثانى مئات من الجيوش الجرارة من الحيوانات الذرية تفتك به تارة وتحافظ عليه أخرى وكلها ذات حياة حقيقية ، هكذا قدر لعقله (جيشان) جيش من الحكمة والارشاد والأصحاب والعلم يهديه إلى الهدى . وجيش آخر من قرناء السوء ظاهرا وباطنا يسولون له مايرديه ويوقعه فى هوة الهلاك . وكما أننا أعوزنا فى الجسم الأطباء والعقاقير لنصر الجيوش الجرارة من الكرات البيضاء المحافظة عليه المقاتلة لجيوش الجدرى والحمى والحصباء الخ . هكذا أعوزنا فى طب العقل والروح كتب وعلوم وأساتذة وأنبياء ينصرون جيوش النور التى تحيط بالمرء فى بيته وخاصة جبلته على جيوش الرذيلة والذنوب التى تحيط به كل حين من أنصار السوء والآراء الخبيثة التى ملكت قياده . فإذا جاء فى أول هذه السورة «بسم الله الرحمن الرحيم» فالرحمة فيها مذكرة بالحكمة ، وما هى الحكمة ؟ هى التى سترى تقسيمها قريبا إلى علمية وعملية والعلمية منها الرياضى والطبيعى والإلهى والعملية ترجع إلى الأخلاق ونظام المنزل ونظام الأمم وقد تفرع على علوم الطبيعة جميع الصناعات إذن الحكمة المذكورة فى هذه السورة هى جميع النعم الظاهرة والباطنة ولذلك أعقبها بقوله «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» إذن الرحمة فى هذه السورة موجهة لاسباغ النعم علينا ظاهرة وباطنة وذلك بالحكمة فنعمها الظاهرة علوم الكائنات الطبيعية التى ستقرؤها هنا . ونعمها الباطنة منها علم الأخلاق . هذا هو السر الذى أنزله الله فى هذه السورة . وهذه الحكمة بأقسامها هى الجيوش الجرارة المقاتلة لجيوش الجهل والأدوية المزيلة لأمراض الجهل وخراب العمران . الله كما أنزل الأغذية والأدوية لنمو الأبدان وإرجاع صحتها أنزل الحكمة العلمية لارتقاء النفوس وتهذيبها ونموها . فالنفس والجسم فى ذلك سيان كلاهما تحوزه رحمة الرحمن الرحيم لاعتداله وجماله . فيارب أنت أنعمت علينا بالعلم وبدأت السورة بالرحمة وأريتنا أن الرحمة هنا ترجع للحكمة لذلك بدأتها بقولك (تلك آيات الكتاب الحكيم) فكان هذا براعة استهلال استهللت به السورة لتدل القارئ أن هذه الرحمة ذكرت هنا الحكمة التى ستفصلها وذكرت (فريقين) فريقا اهتدى وأحسن ، وفريقا يعبث باللهو والباطل فهو بعيد عن الحكمة ثم وصفت نفسك بالعزة والحكمة فكتابك حكيم وأنت العزيز الحكيم . هنالك استعدت نفوس قراء كتابك لتلقيها ، فبدأت بذكر خلق السموات والأرض بلا عمد وكلها عجيب لمن له فى الأرض عادة ، ثم ذكرت الجبال وإنزال الماء من السماء وإخراج النبات ، كل هذا خلقته

بحكمة

حكمة . هنالك أخذت تصف حكمة لقمان وأنها ترجع إلى علوم وأعمال فهى من نور حكمتك التى ذكرتها وأتبعتها بأن نعمك أنت أسبغتها على الناس ظاهرة وباطنة وأن علمك لا حصر له ، ثم ذكرت سير الشمس والقمر والفلك فى البحر ووعدت وأوعدت وكل هذا يحويه علم الحكمة ويعقله الحكماء، وكل هذا تتضمنه الرحمة فى قولك (بسم الله الرحمن الرحيم).

وبالجملة فإن أجسامنا فى الذوبان والتلاشى ونفوسنا دائما فى الاضطراب والوساوس والشكوك والأوهام فالروح والجسم متفقان إذن فى الاضطراب ولا يمسك الجسم عن سيلانه وذوبانه إلا الأغذية والأدوية ولا يمسك النفس عن اضطرابها وأوهامها إلا علوم الكائنات الرياضية والطبيعية والإلهية وعلوم الأخلاق والسياسات العامة والخاصة كل هذا من رحمتك المذكورة فى البسملة ؟ فبعلوم الكائنات غذاؤها وبعلوم الأخلاق دواؤها وهذه هى الحكمة التى أنزلت لها (سورة لقمان) . فهل من سبيل إلى سعادة هذا الإنسان إلا بالوصول إلى ما استقر من الحكمة فى هذا المقام بحيث يصبح المكروه والمحبوب معا جندين من جنود الرحمات فى «بسم الله الرحمن الرحيم» وأى سعادة فى الدنيا والآخرة أعظم من أن تصبح النفس مطمئنة إلى أن المقادير كلها رحمة وأن كل ما يصيبنا من مكروه هو مقدمات ضرورية للرحمة كما سبق تقريره ؟ أوليس من أعظم بل أعظم سعادة لكاتب هذه السطور ولإخوانه قراء هذا التفسير أن تصبح نفوسنا مستقرة على أن كل ما فى هذا العالم وما فى نفوسنا من المكروهات أعمدة تقام عليها الرحمات . اللهم إنى أحمدك على ما أنعمت به من العلم الآن وعلى ما أريته لى فى المنام منذ (٤٠) سنة .

ذلك أنى كنت إذ ذاك مجاورا بالجامع الأزهر وتوجهت إلى قريتنا (كفر عوض الله حجازى) أيام العطلة وبينما أنا ذات ليلة مساء أمشى فى بعض الحقول قريبا من القرية وأنا أفكر فى شرور هذا العالم وكيف تخلق فيه ثم نمت تلك الليلة إذا قائل يقول لى اقرأ قوله تعالى «ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا» وقوله تعالى «يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن» الخ فاستيقظت وأدركت أن المقصود أن المعذب رحمن وأن ما فى قصة الإفك من الإيذاء ونحوه كلها رحمات لمن أوذوا وأن التزكية والتطهير يكونان بحدوث المصائب والآلام ، ولقد تبدت هذه المعانى فى علوم الأمم الحكمية وظهرت فى هذا التفسير ، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات . انتهى القسم الأول من السورة ليلة الاثنين (٤) نوفمبر سنة ١٩٢٩

﴿ القسم الثانى ﴾

(الكلام على معنى «الم»)

تقدم الكلام على هذه الحروف فى أول (آل عمران) ولكن ربما كانت الإشارة هنا فوق ما تقدم هناك إلى قوله «ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» وإذن تكون (الم) هنا وفى (الروم) وفى (العنكبوت) لفت نظر للأمة الإسلامية المستقبلة إلى دراسة كل العلوم الكونية فى السماء والأرض فإنك رأيت أن (ا ل م) جاءت فى العنكبوت فى قوله «أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده» وفى (سورة الروم) قال «واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين» (وهنا قال) «ألم تروا أن الله سخر لكم» الخ فكل هذه السور جاءت فيها الحروف الثلاثة مرتبة متصلة تارة ومنفصلة أخرى فى موضوع واحد وهو النظر فى العوالم المحيطة بنا ، فتارة تذكر على طريق كيف كان بدء الخلق وتارة ذكرت بطريق اختلاف الألسنة والألوان ، وتارة على سبيل أن النعم ظاهرة وباطنة

إن الله يذكرنا بهذه النعم من كل وجوهها بدءا وإعادة وظاهرة وباطنة وكثيفة فى مادة أولطيفة فى صوت وهو ألطف للمادة ورمز لذلك العلم بالنطق بالحروف إشارة إلى تحليل العوالم والوقوف على الحقائق الثابتة وهى مرتبة بحيث تكون اللغات مقدمة على العلوم لأنه ذكر الألوان بعد اللغات لتصقل العقول بالحقائق بعد الخيال فى اللغات كما ذكر اليقظة بعد النوم فتظهر به الحقائق وتزول أضغاث الأحلام وليتأمل المفكرون فى هذه السور :

(١) كيف ابتدأ السورتين بمثل ماختمهما فذكر فى أول العنكبوت الجهاد وختمهما به فقال «والذين جاهدوا فينا» وابتدأ (سورة الروم) بالوعد بغلبة الروم الفرس أو المسلمين الروم وختمها بقوله «فاصبر إن وعد الله حق» .

(٢) وكيف كانت السورتان السابقتان كما قلنا لحوز العلم والحكمة وكيف قال فى آخرهما (ولا يستخفنك الذين لايوقنون) .

ذلك أن الإنسان إذا لم يكن ثابتا فى إيمانه بالحكمة استخفه كل مايطرأ عليه من أقوال الذين لايقين عندهم وهذا شأن أكثر المتعلمين اليوم يقرءون ولايقين عندهم لأنهم ليسوا ثابتين فى الحكمة ولايعرفون نفس الحقائق التى يدرسون قشورها وظواهرها كما قال سبحانه فى (سورة الروم) «يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا» فلهذين السببين أتى بهذه السورة ذاكرا حكمة لقمان مشيرا إلى أن الإنسان لايصده عن الخفة وعن الشك إلا تمام الحكمة باليقين فلذلك أتى بهذه السور فهى تمام الحكمة ودراسة حكمة الحكماء حتى يقف على سر هذا الوجود . هذا وأذكرك أيها الذكى بما تقدم فى (سورة الروم) من بعض أسرار (ا ل م) فى هذه السورة . انتهى القسم الثانى من السورة .

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ)

الم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ * خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا

خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِى عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ * وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا بُنَىَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمٰوٰتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَىَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) معناه ظاهره مما تقدم فى نظيره (هدى ورحمة للمحسنين) أى هو هدى الخ ، ثم بين هؤلاء المحسنين فقال (الذين يقيمون الصلاة) صلة بينهم وبين ربهم (ويؤتون الزكاة) صلة بينهم وبين الخلق مع مراعاة الإخلاص لله (وهم بالآخرة هم يوقنون) حتى ينالوا جزاءهم فيها (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) لجمعهم بين العلم والعمل (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) مايلهى عن الحديث النافع كأن يأتى بالأحاديث التى لاأصل لها والأساطير والخرافات والمضاحيك وفضول الكلام كالنضر بن الحارث كان يشترى كتب الأعاجم ويحدث بها الناس ويقول إن كان محمد يحدثكم بعاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم واسفندار والأكاسرة ، وربما اشترى القينات وأمرهن بمعاشرة من أسلم ليحملنه على ترك الإسلام (ليضل عن سبيل الله بغير علم) أى ليضل عن قراءة كتاب الله وهو غير عالم بفضله ومكانته العالية (ويتخذها هزوا) أى ويتخذ السبيل سخرية (وأولئك لهم عذاب مهين) لأنهم أهانوا الحق باختيارهم الباطل (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا) لايعبأ بها (كأن لم يسمعها) أى تشبه حاله فى ذلك حال من لم يسمعها وهو سامع (كأن فى أذنيه وقرا) ثقلا ولا وقر فيها (فبشره بعذاب أليم) أى أعلمه بذلك (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم ، خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز) الذى لايغلبه شىء فيمنعه (الحكيم) الذى لايفعل إلا لحكمة (خلق السموات بغير عمد ترونها) قد تقدم تفسيرها فى سورة

الرعد(وألقى فى الأرض رواسى) جبالا شوامخ تقدم شرح هذا فى سورة الأنبياء وغيرها وتبيان معنى الرواسى فى علم طبقات الأرض حديثا وهو معجزة ظهرت فى العصر الحاضر ، كراهة (أن تميد بكم) أى تميل (وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج) أى من كل صنف (كريم) حسن ، ومثل المطر والنبات قد تقدم فى كثير من السور وهو فى البقرة وغيرها (هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه) أى آلهتكم التى تزعمونها (بل الظالمون فى ضلال مبين) وهذا إضراب عن التبكيت إلى إثبات أنهم ضالون ضلالا ظاهرا . ولما كان القول المتقدم اشتمل على ذكر من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم أعقبه بذكر النعم الظاهرة فى السموات والأرض والنعم الباطنة بالعلم والحكمة فى قصة لقمان ثم أردفها بأنه أسبغ علينا النعم ظاهرة وباطنة على الترتيب الذى تراه وهذا مبدأ قصة لقمان (ولقد آتينا لقمان الحكمة) العلم والعمل به ولا يسمى الرجل حكيما حتى يجمعهما، وسيأتى الكلام على ماقاله العلماء فيه ، وقوله (أن اشكر لله) أن بمعنى أى المفسرة ، ومعلوم أن الشكر ثناء باللسان على الله تعالى وإصابة الحق وحب الخير للناس بالقلب وتوجيه الأعضاء وجميع النعم لما خلقت له ، فسرت الحكمة بالشكر لله ولا جرم أن الشاكر لله هو من جمع الخصال المذكورة فى القلب واللسان والجوارح وجميع النعم فيكون حكيما فى قوله وفعله ومعاشرته واعتقاده وصحبته (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) لأنه معرق لها (ومن كفر) النعمة (فإن الله غنى) لايحتاج إلى الشكر (حميد) حقيق بالحمد ومحمود من أهل السموات والأرض ثم ذكر بعض حكمه التى هى من جملة الشكر لله منه وهى نعمة اللسان المعبر عن حكمة الجنان وهى نصيحته لابنه قال تعالى (و) اذكر (إذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى) تصغير إشفاق (لاتشرك بالله) وقد كان كافرا فيقال إنه أسلم (إن الشرك لظلم عظيم) فانه تسوية بين من لانعمة له ومن له جميع النعم ؛ ثم ذكر الله جملة معترضة بين وصايا لقمان تذكيرا للناس بأن الوالدين اللذين يتلوان الله فى التعظيم والإجلال لايصح أن يطاعا فى الإشراك بالله ، فانه يوصى عليهما ويوصى أن لايعصى سبحانه بسببهما لأنه خالق الجميع وهذا قوله (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه) حال كونها تهن (وهنا على وهن) ضعفا على ضعف يتزايد كلما ازداد الحمل ثقلا (وفصاله) وفطامه (فى عامين) وقوله (أن اشكر لى ولوالديك) فيه مثل ماتقدم فهو تفسير للتوصية كما كان ماتقدم تفسيرا للحكمة ، وصى الله الإنسان بشكره وشكر والديه (إلى المصير) فأجازيك على الشكر والكفر (وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم) أى باستحقاق الإشراك تقليدا لهما (فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا) صحابا (معروفا) يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم (واتبع) فى الدين (سبيل من أناب إلى) بالتوحيد والإخلاص (ثم إلى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازيك وأجازيهما على الإيمان والكفر (يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل) أى أن الخصلة من الإساءة والإحسان إن تك فى الصغر مثلا كحبة الخردل (فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض) أى فى أخفى مكان أو أعلاه أو أسفله على الترتيب (يأت بها الله) يحضرها فيحاسب عليها (إن الله لطيف خبير) يصل علمه إلى كل خفى كما رأيت فى وزن العناصر وانتظامها وجمال إتقان نسبها فى [سورة العنكبوت] فهناك تبين سر هذه الآيات وأن الحبة من الخردل وأقل منها آلاف آلاف فى الصغر قد وضعت بحساب ونظام كما عرفته وأن الله يأتى بها كما عرفت فى [جدول منديليف الروسى] فإن للذرات أوزانا فى العناصر لاتدع صغيرا ولا كبيرا إلا أحاطت به والعنصر الذى لايراه الناس وجىء به يضعونه فى موضعه من الجدول لدقة الحساب الإلهى . فإذا كان هذا فعل العلماء من أهل الأرض وقد هداهم النظام الإلهى فى الذرات فما بالك بمن حسب ذلك ونظمه قبل خلقهم ؟ فهذا تعرف « إن الله لطيف خبير » لأنه عالم بكنه كل شىء ، ولقد تقدم شرح هذا المقام فى أول [سورة

آل عمران] وغيرها وذكرت هذه الآية بنصها هناك (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك بعد كمال نفسك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد كلها لاسيما فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (إن ذلك) أى الصبر وما تقدمه (من عزم الأمور) أى معزومات الأمور أى مقطوعاتها أو خير الأمور أو حزم الأمور (ولا تصعر خدك للناس) ولا تعرض عنهم تكبرا، وقرىء تصاعرا أى أقبل على الناس بوجهك ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون (ولا تمش فى الأرض مرحا) ولا تمش لأجل المرح والبطر (إن الله لايحب كل مختال فخور) والفخور راجع لقوله ولا تصعر خدك ومختار راجع للمشى مرحا (واقصد فى مشيك) توسط بين الدبيب والإسراع ، وقد قالت عائشة رضى الله عنها : كان عمر إذا مشى أسرع وقال صلى الله عليه وسلم « سرعة المشى تذهب بهاء المؤمن » فاذن يكون إسراع عمر معناه أنه لايدب دبيب المتماوتين كدبيب النصارى فى ذلك الزمان ولايسرع كخبب اليهود (واغضض من صوتك) وانقص منه (إن أنكر الأصوات) أوحشها (لصوت الحمير) والحمار مثل فى الذم وأول صوته زفير وآخره شهيق . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة .

ولنذكر هنا (لطيفتين : الأولى) فى معنى قوله تعالى «وإذ قال لقمان لابنه» الخ (والثانية) فى الكلام على لقمان عليه السلام .

﴿ اللطيفة الأولى : فى معنى آية «وإذ قال لقمان لابنه» الخ ﴾

ابتدأ لقمان فنصح ابنه بنصائح مبتدئا بأهمها وهو التوحيد ، فأمره بألا يشرك به وعلل ذلك بأن الشرك خلاف العدل وأعقب ذلك بوصف الله بصفة العلم العام للعالم العلوى والسفلى وأنه لاتخفى عليه خافية فى صخرة أو سماء أو فى أرض فهو يعلم كل خافية ويقدر أن يأتى بأدق الأشياء أين كانت . ولما أتم ذلك أخذ يأمره بتكميل نفسه وذلك بالعبادات التى أهمها الصلاة لمن يعلم مافى قلبه ولا يخفى عليه خافية ، فلما عرف ربه وكمل نفسه لم يبق بعد ذلك إلا إفاضة الخير على الناس وذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فان العظيم من يكون مثلا أعلى للناس ينفع نفسه وينفعهم فيكون كالكواكب المشرقة على الناس . ولا جرم أن الهداة معرضون لأذى الناس فلذلك أمره بالصبر على مايصيبه منهم وما يبتلى به فى جسمه أو ماله أو أهله فمن لاصبر له لايكون كاملا ثم مدح الصبر مدحا كبيرا، فإذا كمل الإنسان وكمل غيره واعتصم بالصبر على أذاهم فانه لاجرم يستهدف لذنوب عظيمة وهى الخيلاء والكبرياء فأمره بعدم التكبر وعدم الخيلاء والاعجاب بالنفس فيقول من ذامثلى علم وعمل وهداية للناس وصبر تام ، فمن فى الناس مثلى . ولما كان الإنسان قد يحمله طلب الكمال على الاسراع فى قضاء الحاجات فيمشى لها مسرعا وقد يحمله الإعجاب والكبرياء أن يدب دبيبا متعاظما أمره أن يكون مشيه وسطا والوسط حسن فى كل شىء وهو العدل . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

اضطربت أقوال علماء التفسير فى لقمان من هو ؟ ومن أى الأمم هو ؟ تبعا لعلم التاريخ وأقاصيص الأمم ودياناتها ، فبنوا إسرائيل عدوه من أنفسهم وقالوا إنه كان فى زمن داود وإنه خير بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة ، وقال قوم إنه كان عبدا حبشيا ، وقال قوم إنه كان خياطا ، وقال آخرون إنه نجار ولم يذكروا من أى الأقوام هو ، وآخرون قالوا هو راعى غنم ، وقال قوم كان عبدا أسود عظيم الشفتين .

فهذه الأقوال منقولة عن الأمم التى قبلنا ولكن الجميع متفقون أن حكمته ذاعت فى الأمم كلها وذكروا بعضها . واعلم أن هذا الحكيم الذى ذاع ذكره فى جميع الأمم قال عنه اليونان إنه منهم وهذا كتابه بين يدى فرأيت مشابهة بين الحكم المنقولة عنه وبين ماذكره المفسرون منها ، وكانوا يسمونه (ايثوب) من قرية

تسمى (امرتوم) وكانت ولادته بعد تأسيس [مدينة روما] بمائتى سنة ، ويقولون إنه كان من سقط المتاع فى الجسم مشوه الخلقة والوجه معقود اللسان ، ولما اشتراه أحد الفلاحين أرسله إلى الحقل ليريح الناس من قبح وجهه ولكن الله لما خلط القبح فى وجهه عوضه حكمة فى عقله كما عوض العمى عن البصر ذكاء فى الأفئدة ، ولقد بقى هذا العبد معقود اللسان أمدا طويلا ولا يتكلم إلا بالإشارة ، وبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى ملكا جاءه فى صورة إنسان وحل العقدة من لسانه ووهبه علم الحكمة، فلما استيقظ أحس بانطلاق لسانه وصار من فرحه يحدث نفسه فسمعه رئيس الخدم يتكلم مع نفسه بفصاحة فذهب إلى سيده وقال هذا العبد خبيث لأنه يدعى انعقاد لسانه وهو فصيح فأمره ببيعه ، فلما عرضه على تاجر ليشتريه أعرض عنه احتقارا لشأنه ، فقال له [ايثوب] اشترنى وأنا أنفعك ولا أضرك بشىء ، فان كان لك أولاد تخوفهم بى كأنى عفريت من العفاريت ، فاشتراه بثمن بخس ، وأخيرا باعه هذا لرجل فيلسوف وله معه نوادر .

《 النادرة الأولى 》

سأل الفلاح فى البستان الفيلسوف (سيد ايثوب) فقال له . لماذا أرى القطعة التى لا أخدمها من هذا البستان تنبت أكثر وأكبر من القطعة التى أخدمها ، فقال الفيلسوف سيد ايثوب (لقمان) هذا فعل الطبيعة فضحك (ايثوب) وأخذ سيده على جانب وقال له قل للفلاح إن هذه مسألة صغيرة لاقيمة لها وعبدى هو الذى يجيب عليها ففعل سيده فذهب (ايثوب) للفلاح وقال له إن الأرض تشبه امرأة ذات أولاد فتزوجت برجل آخر ذى أولاد من امرأة غيرها فهى تلتفت إلى أولادها ليكونوا أحسن من أولاد الزوج .

《 النادرة الثانية 》

إن امرأة سيده غضبت فاشترى أصنافا من الحلوى إرادة صلحها وقال أعطها الحبيبة فأعطاه لكلبة عند سيده وكان يحبها ، فلما رجع سأل زوجته عن الحلوى فقالت لم يأتنى شىء فسأل لقمان فقال أنا أعطيتها لحبيبتك كما أمرت لأنها تتحمل الذل والإهانة وتضرب ثم ترجع لك ، فأما المرأة فانها غير حبيبة لأنها تطلب الطلاق لغير سبب .

《 النادرة الثالثة 》

إن زوجة سيده غضبت وأبت الرجوع من بيت أهلها ، فقال له اشتر أشياء لوليمة وادع لها من أحببت وأشع أنك تريد الدخول بامرأة غيرها فلابد أنها ترجع عنادا أو غيره .

《 النادرة الرابعة وقد ذكرها المفسرون 》

جاء لسيده ضيوف أعزاء فقال له اشتر أحسن كل شىء ، فاشترى ألسنة الدواب كالثور والكبش والجاموس وأمر الطباخ أن ينوع الطعام ، فلما أكل الضيوف دهشوا لأنهم وجدوا أول الطعام وآخره اللسان ، فقال له ألم أقل لك اشتر أحسن كل شىء ؟ قال وأى شىء أحسن من اللسان ، هو رابطة العائلات ، ومفتاح العلوم وآلة الحق ، وبه تبنى المدن وتضبط ، وبه يحصل التعليم وإلزام الحجة ، والحكم فى الأمم . فقال لك الحق . وفى اليوم الثانى دعاهم وقال اشتر أقبح كل شىء فى السوق ، فأعد الطعام كاليوم الأول . فلما سألوه قال إن اللسان أقبح كل شىء . هو أبو التناقضات ورأس المشاكل والدعاوى ومنبع الشقاق والحروب وإن قيل عنه آلة الحق فهو آلة الغلط والنميمة ، وبه تخرب المدن ، وبه المسبة ، وبه العار . فقال بعض الضيوف إن هذا فى إمكانه أن يقنع كل فيلسوف . ثم علا أمره وعظم شأنه حتى صار يحضر مجالس الأعيان ويشاورونه فى أمر الحرب والصلح وله حيل فى ذلك عظيمة جدا وكم أنقذ سيده من مشكلات حتى إنه أعتقه . وقد كان فى أهل ساموس فتحرك يوما ملك (الديان) على أهل (ساموس) وأرسل لهم رسولا يخيفهم من بطشه فيدخلون تحت طاعته فالوا إليه

وخافوا

وخافوا من الحرب فقال لقمان [إن الدهر فتح للناس طريقين : طريقا للحرية كثير الصعوبات والأهوال ولكنه هنيء العاقبة . وطريقا للاستعباد أوله سهل وآخره لايطاق] فرجع السفير وأخبر الملك فطلبه فأرسل إليه خفره لمارآه وكان أراد قتله ولكن حكمه وحسن تخلصه جعله يعفو عنه وبقى عند ذلك الملك المدة وألف حكايات على ألسنة الحيوانات ستأتى وتركها عند الملك . وأخذ يسيح فى الأرض فقابل ملك بابل وغيره ونال شهرة عظيمة ونالت حكمه ذيوعا فى الأرض ومن هذه الحكايات كتاب [العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ] وهى مائتا حكاية على ألسنة الحيوانات ترجمها المغفور له المرحوم محمد بك عثمان جلال وطبعت بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ سنة ١٩٠٦م بمطبعة النيل بمصر أولها (الصرار والنملة) وآخرها (الرجل والحية) وفيها حكم بديعة ومنها (حكاية الغراب والثعلب) و (حكاية الضفدعة) و (حكاية بغلة الأثقال وبغلة المال) و (حكاية الكلب والذئب الخ) وهاك الحكاية الأولى :

﴿ الصرار والنملة ﴾

(حكاية موضوعها صرار أودى به الجوع والاضطرار)

وكان قضى الصيف فى الغناء	وما سعى فى ذخرة الشتاء
وحين جاء زمن الثليج	ومنع القوم من الخروج
شاهد بيته بلا مئونة	فراح يوما يطلب المعونة
وقال للنملة أنت جارتى	مالى سواك فى قضاء حاجتى
هل تصنعين معى المعروفا	لا ذقت من أيامنا صروفا
وتقرضينى صواعا غله	وطبقا ومتردا وحله
فان أتى الصيف فقبل الصبح	أردها عليك قبل الربح
قالت له النملة وهى تجرى	عذرك يامسكين مثل عذرى
ماذا فعلت فى حصيد قدمضى	قال لها كان زمان وانقضى
قالت ومادخرت فيه للشتا	قال لها مستهزئا مبكتا
كنت أغنى للحمير القمص	قالت له ياصاحبى الآن ارقص
واعلم بأن السعى فى الذخيرة	يدفع كل غمة وحيرة
والدرهم الأبيض وهو فى يدى	ينفعنى فى كل يوم أسود

***

﴿ الحكاية التى قبل الأخيرة ؛ وهى حكاية الرجل وزوجته واللص ﴾

حكاية عن رجل وزوجته	إذا نسبتها فبنت عمته
يحبها المسكين حبا جما	ويجتنى منها الأسى والهما
فطالما سبته أو ذمته	وقلما ناجته أو ضمته
وزوجة عاشت بلا محبه	فتلك كالنعجة أو كالدبه
قال فجاء اللص ذات ليله	وجر من بعد العشاء ذيله
فألقت المرأة خوفا نعلها	وأقبلت تجرى تضم بعلها
فضمها لصدره وقالا	ياالص كل ليلة تعالى

قربت لى كثيرة النقار فاحرق جميع ماترى فى الدار
فسرق اللص جميع مارأى وانفض عنهما مساء ونأى
وقصها الزوج على فى الغد فقلت مامن عجب ياولدى
ألا ترى أن امرأ قد عشقا غانية وبينها قد سرقا
وجاءها وقت الحريق والضرم فسلمت له قيادها وضم
فالخوف قديكون للوصل سبب وربما أخيف ظبي فانغلب

﴿ذكر الحكمة: فى ذكر لقمان الحكيم مع أن أمره غير بين من حيث النسب﴾

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر نعمه الظاهرة ونعمه الباطنة . فالأولى بما فى السموات والأرض . والثانية بالحكمة والعلم اختار للثانية رجلا لايعرف نسبه على التحقيق تتنازعه الأمم ليرينا أن الحكمة ليس لها مكان وأن الله يأمرنا أن نأخذ الحكمة أنى وجدناها من عبد وحر ومعلوم الأصل ومجهول وقديم وحديث وبهذا نعلم أن النفوس الإنسانية كلها متعاونة قديمها وحديثها وأولها وآخرها وجميلها وقبيحها وسيدها ومسودها على العلم ونشره وأن نفوس الأولين مشوقة لتعليم نفوس الآخرين بالكتب والتآليف والنقش على الأحجار والأخبار . كل ذلك ليعلمنا الله أن الأرواح جميعها متصلات من ملك ونبي وحكيم وعالم وأن ما نراه من اختلاف الناس وأن زيدا يكره دين عمرو لأنه ليس من معتقدي ذلك الدين وما أشبه ذلك . كل ذلك نقص فى نوع الإنسان فعليهم جميعا أن يأخذوا الحكمة أنى وجدوها لأنهم لله راجعون وهو الحق ولا يقوم شيء إلا بالحق وأن عالم الأرواح أشبه بعالم الأجسام من حيث التعاون والارتباط . فاذا رأيت الشمس تضيء على الأرض بلاجزاء ولا شكور والأرض وماعليها كل يعين الباقي كما سترى إيضاحه فيما سيأتى وأن زيدا لا يعيش إلا بنظام دولته وأسرته وحكومته وأمم الأرض المساعدات لأمته والشمس والأرض ودورانها على الشمس وهكذا عوالم متلاحقة متعاونة «وأن إلى ربك المنتهى» .

فالعلوم ترسل من العقول الكبيرة إلى الصغيرة ومن المتقدمة إلى المتأخرة لتلاحق الأرواح وتحاب النفوس وأن العظيم العالم حريص على سعادة الجاهلين . ولما كانت الأرواح بهذا الوصف أمرنا الله فى الصلاة أن نسلم على عباد الله الصالحين وأن نصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأن نذكر ابراهيم وآله وأن نسلم فى ختام الصلاة على كل روح يمينا وشمالا ذلك للصلة بين الأرواح ، ويقول «اهدنا الصراط المستقيم» ويقول «الذين أنعمت عليهم» ويقول «اهدنا فيمن هديت» وذلك كله ليستأنس بالأرواح قبل مقابلتها بالموت . تم الكلام على لطيفة القسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

(الْقِسْمُ الرَّابِعُ)

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ * وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ

الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور * ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ * ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد * ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم * ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير * ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير * ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير * ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور * يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور * إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير *

﴿التفسير اللفظي﴾

قال تعالى (ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات) من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمطر (وما في الأرض) من الشجر والدواب (وأسبغ عليكم نعمه) وأتمها عليكم (ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة وما تعرفونه وما لا تعرفونه (ومن الناس من يجادل في الله) في توحيده وصفاته (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من رسول (ولا كتاب منير) أنزله الله وإنما ذلك بالتقليد (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) تقليدا يتبعونهم (أولو كان الشيطان يدعوهم) الضمير لآبائهم (إلى عذاب السعير) أي إلى الكفر والشرك وكل ما يجب به العذاب (ومن يسلم وجهه إلى الله) أي يخلص دينه لله بأن يفوض أمره إليه ويقبل عليه بكليته كما تقول أسلمت المتاع إلى الزبون (وهو محسن) في عمله (فقد استمسك بالعروة الوثقى) فهو كمن يتدلى من جبل فتمسك بأوثق عروة من عرى الحبل المتدلى منه (وإلى الله عاقبة الأمور)

فهى صائرة إليه فيجازى كل على مافعل (ومن كفر) ولم يسلم وجهه إلى الله (فلا يحزنك كفره) فهو لايضرك (إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور) أى يعلم ما فى صدور عباده فيفعل بهم على حسبه (نمتعهم) زمانا (قليلا) فى الدنيا (ثم نضطرهم) نلجئهم (إلى عذاب غليظ) شديد (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) لأن الدليل واضح (قل الحمد لله) على إلزامهم الحجة وإلجائهم إلى الاعتراف (بل أكثرهم لا يعلمون) أن ذلك يلزمهم وإذا نبهوا إليه لم ينتبهوا (لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى) عن حمد الحامدين (الحميد) المحمود يحمده من فى السموات والأرض وإن لم يحمده هؤلاء وهو مستحق للحمد ، قال المفسرون لما نزلت بمكة «ويسئلونك عن الروح» الآية وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا بلغنا أنك تقول «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» أتعنينا أم قومك؟ فقال صلى الله عليه وسلم : كلا عنيت قالوا ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شىء فقال صلى الله عليه وسلم هى فى علم الله قليل وقد أتاكم بما إن علمتم به انتفعتم به فقالوا كيف تزعم هذا وأنت تقول «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» فكيف يجتمع علم قليل مع خير كثير؟ فنزل قوله تعالى (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام) تبرى أقلاما (والبحر يمده) يعطيه المدد (من بعده سبعة أبحر) أى مدادا والخلائق يكتبون به كلام الله (ما نفدت كلمات الله) لأنها لا نهاية لها (إن الله عزيز حكيم) لا يعجزه شىء ولا يخرج عن علمه وحكمته أمر بعد أن ذكر الله أنه خلق نعما كثيرة ظاهرة وأنه أجرى الحكمة على لسان لقمان وأتبعهما بأنه أسبغ النعم ظاهرة وباطنة وأنه له ما فى السموات وما فى الأرض ، بعد ذلك كله ناسب أن يبين أن تلك النعم والمخلوقات لا تحصى كما قال سبحانه «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها» ولما كانت تلك النعم غير محصورة ربما ظن الإنسان أنها مبعثرة لا قانون لها وأنه يصعب على الله قيادتها فقال (ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) أى إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغله شأن عن شأن (إن الله سميع بصير) يسمع كل مسموع ويبصر كل مبصر (ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل) من النيرين (يجرى إلى أجل مسمى) إلى منتهى معلوم (وأن الله بما تعملون خبير) فهو يعلم سير الشمس والقمر والكواكب وحسابها وحساب عناصر الأرض والنتائج الحاصلة بينهما ومنها أنتم وأعمالكم (ذلك بأن الله هو الحق) المستحق للعبادة (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أى لا يستحق العبادة (وأن الله هو العلى الكبير) المرتفع على كل شىء المتسلط عليه (ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله) بإحسانه فى تهيئة أسبابه (ليريكم من آياته) دلائله (إن فى ذلك لآيات لكل صبار) على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى الآفاق والأنفس (شكور) يعرف النعم ومعطيها . وكل مايرد على الإنسان فى الدنيا لابد فيه من أحد أمرين : إما صبر إن كان مبغضا . وإما شكر إن كان محبوبا ، فأشرف النوع الإنسانى لا يخلون من صبر وشكر فى جميع الأوقات (وإذا غشيهم موج) أى علاهم وغطاهم (كالظلل) كل ما يظل من جبل أو سحاب أو غيرهما (دعوا الله مخلصين له الدين) لأن الفطرة إذ ذاك زال عنها ما يضادها من الهوى والتقليد (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) مقيم على طريق القصد الذى هو التوحيد (وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار) غدار فإنه نقض عهد الفطرة (كفور) للنعم (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده) لا يقضى عنه ولا يغنى (ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) ومعنى هذا أن الشفقة والرحمة فى الوالد والولد أوفر من غيرهما . فالوالد والولد كل منهما عادة يجزى عن الآخر فى الدنيا فأما يوم القيامة فكل يقول نفسى نفسى (إن وعد الله حق) لا يمكن خلفه (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجسركم على المعاصى (إن الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها (وينزل الغيث) فى إبانه المقدر له والمحل المعين له فى علمه (ويعلم ما فى الأرحام) أذكر أم أنثى

أنام أم ناقص (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) من خير أوشر ، وربما تعزم على أمر وتفعل خلافه (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) كما لاتدرى فى أى وقت تموت (إن الله عليم) يعلم الأشياء كلها (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة .

روى البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مفاتيح الغيب خمس : إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير » اهـ .

﴿ شذرات على هذه الآية ﴾

(الأولى) جاء فى الإسرائيليات التى كان يقصها بنو إسرائيل على شعبهم أن ملك الموت مر على سليمان فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه فقال الرجل من هذا ؟ قال له ملك الموت قال كأنه يريدنى وسأل سليمان عليه السلام أن يحمله على الريح ويلقيه ببلاد الهند ففعل ، ثم قال ملك الموت لسليمان كان نظرى إليه ودوامه تعجبا لأنى أمرت بقبض روحه ببلاد الهند وهو عندك فوصل إلى الهند فى الوقت المعلوم فتم أمر الله .

(الثانية) أن المنجم يحسب الخسوف والكسوف وغيرهما فيكون حقا ، فهذا إنما يقول بالقياس والنظر وما يدرك بالدليل لايكون غيبا ، ومنه مايعرف ظنا والظن غير العلم .

(الثالثة) رأى المنصور فى منامه صورة ملك الموت وسأله عن مدة عمره فأشار بأصابعه الخمس فعبرها المعبرون بخمس سنوات وبخمسة أشهر وبخمسة أيام فقال أبو حنيفة رضى الله عنه هو أشار إلى هذه العلوم الخمسة لايعلمها إلا الله .

(الشذرة الرابعة) قد جاء فى علم الأرواح الحديث أن الأرواح لاتعلم مستقبل الناس القريب ولا البعيد ولما سئلت عن ذلك قالت لأن الأمور فى العالم الأرضى مرتبطة بأمور أخرى أقرب إليها وهناك أمور بعيدة لاندرك ، فالأرواح الجاهلة تخبر بالعلامات القريبة وهى تجهل البعيد فتخطىء فى خبرها ولما سئلت فقيل لها إننا نعلم أن أناسا من أهل الأرض يخبرون بموعد الساعة واليوم الذى يموتون فيه ويقولون قد أخبرنا فى المنام به أجابت الأرواح قائلة أولئك قوم علم الله أنهم لايحزنون للموت وقد زهدوا فى الدنيا فيخبرهم بذلك فيستبشرون بالموت وهؤلاء قليل فى النوع الإنسانى .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» وفى قوله «ماخلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة» وقوله «ولوأن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم» ﴾

لقد قدمت لك فى أول السورة أنها بدئت بحروف (الم) وقلت لك إن هذه إشارة منه تعالى إلى أمر عظيم فى هذه السورة مبدوءا بهذه الحروف وفيه إسباغ النعم ظاهرة وباطنة وقد تبعه أن خلقنا وبعثنا كنفس واحدة وأن كلمات الله لاتنفد ونعمه لاتحد . ولاجرم أن هذا أمر عظيم لابد من التشمير والجد فى التفكير حتى يتضح فأريد الآن أن أسمعك قولا يظهر منه أمران : النعم التى لاتتناهى وانتظامها كأنها نفس واحدة فأقول :

أنت تعلم أن النعم التى تحيط بنا كثيرة ولست أريد التطويل بذكرها فإنها شرحها كل العلوم فلأذكر لك أربع نعم فقط : وهى الغذاء والدواء والكساء والبناء ولست أعرض إلا للغذاء وأترك البقية وأذكر منه قبضة من القمح تصنع رغيفا يخبز فنأكله فنجعل هذا الرغيف محل بحثنا فنقول إن هذا الرغيف له خباز وعاجن وناخل وطاحن ومغربل وخازن وبائع ومخلص التبن من القمح فى الجرن ودارس وحاصد وساق

وزارع وحارث بهذه ثلاثة عشر صانعا إجمالا ، فلندع هؤلاء كلهم ولنقص الكلام على الآلات التى يعملون بها ولانذكر منها إلا الحديدة التى فى المحراث (السلاح) فنقول :

هذه الحديدة لابد لها من حداد سواها على مقدار الحراثة ونجار ركب الخشب للقوس عليها وتاجر جلب الحديد من أرض بعيدة وعامل حفر فى المناجم فاستخرج منها الحديد . فلنترك هؤلاء كلهم ونتكلم على التاجر من بينهم فنقول إن هذا التاجر لايمر بالطرق البرية والبحرية إلا إذا كانت مأمونة ولا أمان إلا إذا كانت الأمم التى على وجه الكرة الأرضية منتظمة الحكومات قائمة بحراسة الطرق ، ولولا ذلك ماأمن التجار الطرق ولم يجلبوا ذلك الحديد من أرضه. فلولا حسن النظام والأمن فى أكثر الأرض ما انتظم أمر التجارة وليصل الحديد للفلاح وهو فى حقله ، ثم إن هذه الأمم على الأرض لانظام لها ولاثبات إلا إذا كانت الأرض جارية بنظام حول الشمس حتى يكون الليل والنهار منتظمين فلو اختلت المواعيد لم يكمل نظام أهل الأرض ولو وقفت الأرض فلم تدر حول نفسها لتقبل ضوء الشمس لمات كل من على الأرض إذ لا يكون إلا ليل فى جهة ونهار فى أخرى ولو أن الأرض لم تدر حول الشمس دورتها السنوية لم يكن صيف ولا شتاء ولاختل أمر الحياة ولم تعرف السنون والحساب ، فهذا كله لابد منه لانتظام أمم الأرض لتحفظ التاجر فى طريقه بالحديد المذكور ، ثم إن الشمس تجرى حول كوكب آخر لابد من ثباته وإلا لاختل أمرها هى وما حولها من الكواكب وهكذا إلى حد ينقطع الفكر دونه . كل ذلك لحفظ الأمم على الأرض. وأيضا لولم تكن الكواكب السيارة فى مداراتها الخاصة بها لم تعرف الطرق البحرية لأن الربان يرصد تلك الكواكب فيهتدى برصدها إلى الطريق

فانظر كيف اشتركت الدول والأرض والشمس والكواكب وانتظام أمكنتها ومداراتها فى حفظ التاجر الذى أحضر الحديد للمحراث الذى يحرث القمح لغذائك .

هذه نبذة يسيرة من سلسلة النعم التى جعلها الله للرغيف قبل أن يكون لديك . ولم نذكر الريح والمطر ولانظام الحكومة التى يكون فيها الحقل ، ولاهؤلاء العاملون الذين ذكرناهم ، ولامايلزم كلا منهم من غذاء ودواء وحكومة حتى يعيش فيخدمك كل هؤلاء ضربنا الذكر صفحا عنهم لأن هذا لايتناهى الكلام فيه فلنبحث إذن فى الرغيف بعد وجوده لديك .

إن الإنسان يأخذه بيده ويعضه ولابد من أسنان طواحن كما يطحن الحب بالحجارة وحادة كالسكين للقطع وهى القواطع ومحدود به كالرمح للتمزيق بحيث تكون كل طائفة لنوع من المأكول وإلا تعطل الأكل ولم تكن الثمرة المطلوبة ، ثم يجرى من تحت اللسان عينان تخرجان مادة لعابية تساعد على هضم الطعام ثم يكون اللسان مستعدا لتحريك الطعام من جانب إلى جانب ، ثم يمر الطعام فيجد أمامه الحلقوم المفتوح الذى يخرج منه النفس الوارد إلى الرئتين فى الصدر فيمر عليه ولوبقى مفتوحا لمات الإنسان حالا ولم يمش فخلق له صمامة تسمى (صمامة المزمار) فمتى أحست باللقمة أقبلت إلى المزمار حلاقفطته فتمر اللقمة إلى المرىء ولذلك يجد الإنسان نفسه غاصا بالماء أوبالطعام إذا كان يتكلم وهو يأكل فإن الكلام يعوزه النفس والنفس يؤخر الصمامة فيندفع شىء من الطعام فى الحلقوم فيتأذى الإنسان ، فإذا مر الطعام إلى المعدة قابلته هناك سوائل فيها كالتى فى الفم يقال لها (العصير المعدى) تتساعد على هضم الطعام ، فإذا استحال إلى الكيموس نزل إلى الأمعاء وجدها تبلغ فى الطول (٧) أمتار وبعض سنتمترات منها (٦) للأمعاء الدقاق ومتر واحد وبعض سنتيمترات للأمعاء الغلاظ ، وفى أثناء ذلك يصير كيلوسا مستعدا لأن تجتذبه الشرايين ويستحيل دما شيئا فشيئا فيجرى إلى الكبد ومنه إلى القلب وهناك أربعة تجاويف أعليان يسميان (الأذينين) وأسفلان يسميان (البطينين) تصغير أذن وبطن والدم يجرى فى هذه الأربعة بنظام بصمامات بين كل أذين وبطين

وهناك

وهناك يلاق مع الهواء الجوى فى الرئتين فيأخذ منه الهواء المادة الفحمية أى التى احترقت فى النسيج الجسمى لأن الدم يجرى فى سائر الشرايين والأوردة وهى متفرعة فروعا وراءها فروع تدق شيئا فشيئا حتى تصل إلى مالا يدركه الطرف من الفروع الشعرية ، وهذه كلها تعطى الأنسجة دما ينقلب إلى لحم وعظم ودهن وظفر وجلد وشعر وصفراء وسوداء وبلغم وكبد وطحال وحالب وقلب ورئة ومعدة ومخ وعصب وعظام وهكذا ولا يتحول الدم إلى شئ من هذه إلا بعملية كيمائية بحيث يحصل الاحتراق والاحتراق يتبعه مادة محترقة ، ذلك هو الكربون الذى لو ترك ثوانى لمات الإنسان .

فمن الحكمة إدخال الهواء، والهواء يلاق الدم فى الرئة فيعطيه مادة الحياة وهو الأكسوجين ويأخذ منه مادة الموت وهو الفحم أى (الكربون) وهذا الفحم متى تسلمه الهواء سار به فى الجو وأعطاه للنبات فكان منه الخشب والورق والعشب والفاكهة والأب . ففساد أجسامنا صلاح نباتنا وصلاح نباتنا صلاح أجسامنا فما به فساد يصلح فيرجع لنا صلاحا كرة أخرى .

إنى لعلى يقين أنك أيها الذكى الآن عرفت النعم الظاهرة بقسميها وهى التى خارج أجسامنا والتى هى داخل أجسامنا ولم أذكر لك منها إلا رغيفا واحدا وهذا الرغيف قد اشتركت فيه العوالم كلها الأرضية والسماوية حتى وصل إليك وهكذا إشتركت فيه سائر أعضاء الجسم حتى صار لحما ودما وعظما ومخا وطبقات العين من صلبة ومشيمية وشبكية وسائل زجاجى وجليدية وتسمى (عدسية) ورطوبة مائية وعنكبوتية وقزحية وقرنية شفافة وفوق ذلك كله الملتحمة . فهذه كلها نسيج نسج من الدم والدم يجرى فى الجسم ويعطى كلا ما يناسب من المواد التى حملها من العناصر الأرضية ومركباتها . ألست بهذا عرفت كيف كانت النعم لانهاية لها . وإذا كان الرغيف الواحد حرنا فى أمره حتى اشتركت فيه العوالم العلوية والسفلية وجميع أعضاء الجسم وهكذا النبات من حيث إنه يأخذ الفحم . بهذا عرفت الأمرين : كون النعم لانهاية لها وكون العالم الذى نحن فيه كجسم واحد والله هو المدبر له ، فهو واحد ونحن فى ذلك الجسم العام وأرضنا وشمسنا أشبه بعضو صغير منه ونحن ودولنا عبارة عن ذرات فى ذلك العضو ولنا اتصال بالجميع . إن تكرار هذه المعانى يعرفنا مركزنا فى الحياة ويفهمنا نظام الوجود ويعرفنا معنى قول الناس (وحدة الوجود) .

إن وحدة الوجود لايفهمها أحد إلا الذين يقطعون العمر بالتفكير ، وإياك أن تقول إنى عرفت وحدة الوجود بمثال مثل هذا ، بل لابد من عشقك أولا للعلوم ثم البحث فيها والنظر وتكرار ذلك لأن مثلا وأمثلة لاتكفى لإشراق هذا النور فى القلب . أليس من العجب أن النمل الذى ندوسه بأقدامنا خلق ليقتل الدود الذى ينخر أشجارنا فتحفظ تلك الأشجار من العطب ، فنحن فى مساكننا ودورنا نعيش تحت السقوف ولا ندرى أن النمل هو الذى حفظ لنا بعض الخشب لأنه كان يقتل الدود كما تراه فى (سورة البقرة) هناك .

فظهر معنى إسباغ النعم ظاهرا وباطنا ، وظهر معنى كون خلقنا وبعثنا كنفس واحدة ومعنى كون نعم الله لايحصيها الكاتبون ولو كان البحر يمده سبعة أبحر والأشجار كلها أقلام . ماأجمل العلم وما أبدع الحكمة «وفوق كل ذى علم عليم» .

وإنى أسأل الله تعالى أن يحيى بهذا القول قلوبا ويرقى به أمما ويفتح به عيونا . ولتعلم أيها الذكى أن المسلمين لم تدخل عليهم الأمم من كل جانب إلا بجهلهم العلوم، ولو علموها لحفظوا عقولهم وديارهم وأموالهم ونظموا مدنهم ، فان أمثال هذه المباحث إذا درست دراسة نظامية انفتحت لها العقول وذكت بها البصائر وارتقت ونشطت من عقالها وطلبت المعالى وحفظت الثغور ورقت نظام الجمهور .

وستقرأ النعم الباطنية عند الكلام على لقمان قريبا فى آخر الكلام على هذه السورة .

﴿ ذكر العجائب فى أسماء السور ﴾

لقد سميت السور بأسماء تذكر المسلمين بما تفيده ، فسميت سورة الأنبياء والحج ومنها المؤمنون والنور والفرقان والقصص والنمل والشعراء والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة الخ .

فالأنبياء قد تبين لك فيها أنها تجمع خصائص الأمم حتى يأخذ المسلمون بجميع فضائلهم كما قدمته وإذن تكون مدنية أرقى من كل مدنية لو فهمت . والحج معلوم أمره لأنه يجمع الأمة ، وأما المؤمنون فالمقصد من التسمية بها استكمال الايمان بخصال الكمال . وفى التسمية بالنور تشويق المؤمن لربه وأنه لا يمكن أن يعرف جل جلاله إلا بألطف وأجمل الأشياء التى نراها وهو النور فقال سبحانه «الله نور السموات والأرض» والنبى صلى الله عليه وسلم قال فى حق الله «إنه نورانى أراه» ورأى أنوارا ليلة الاسراء عظيمة والفرقان لتبيان الحقائق بالنور العقلى . والقصص للاعتبار . والنمل ليكمل المسلمين عجائب الحيوان فانه فى سورة النور قال «ومنهم من يمشى على أربع» فذكر لفظ النمل ليبين مايمشى على ست وهى سائر الحشرات ومنها النمل ، والشعراء سمى بها ليلفت نظر المسلمين إلى الشعر وأنه وسيلة لانتيجة وهو ظل غير ظليل من استظل به هلك . والعنكبوت تذكرة بالحيوانات العنكبوتية ذات الأرجل الثمانية ، والروم ليذكر المسلمين بهم فانهم أعداؤهم إلى يوم القيامة فليحترسوا منهم . ولقمان لإذاعة الحكمة بين الأمم بغض النظر عن أقدارهم وأنسابهم والسجدة لتعليم العبد كيف يقرب من ربه ، والأحزاب ليعرف الانسان أن الأحزاب إذا تألبوا على مخلص نصره الله . وسورة سبأ تذكير للأمة العربية بسابق مجد سبأ وأنهم كانت لهم دولة ولكنها رجعت القهقرى بإهمالها . فمن العار على أمة الإسلام أن لا يكون مجدها كأمة جاهلية هنالك ، ولتذكير الناس بسد العرم والمدنية العظيمة ليبنوا كما كانت تبنى أوائلهم ، انتهى الكلام فى أسماء بعض السور فى الربع الثالث من القرآن .

(الكلام على ذكر لقمان خاصة)

لقد تبين لك فوائد أسماء السور فى العلم . ولما كانت السورة التى نحن بصددها هى (لقمان) أحببت أن أخصها بالبحث فأقول :

لقد اطلعت على نعم الله التى أسبغها علينا ظاهرا فيما تقدم وقد وعدتك أن أذكر شيئا من النعم الباطنة هنا وها أناذا منجز الوعد فأقول :

إذا كانت النعم الظاهرة قد اتصلت من مبدأ الأجسام الإنسانية فى داخلنا وأدهشنا كثرتها ثم إنها امتدت فى الخارج إلى كل ماحولنا حتى وصلت إلى مالا تدركه أبصارنا وعقولنا من عوالم متتالية متتابعة متواصلة ممتدة إلى عالم أرقى وأرقى ، فهكذا النعم الباطنة فهى تبتدىء من داخل نفوسنا فنرى عقولا مشرقة ونفوسا صافية وللعقول حواس ظاهرة وحواس باطنة والنوعان يستنتج منهما علوم ومعارف تشمل العالم الذى تقدم ذكره فى العجائب الظاهرة ، وليس المقام مقام الإطناب فى العلوم ففى هذا التفسير مايكفيك إذا رجعت إلى مامضى ولكن المقام مقام أن الآية ذكر فيها النعم الظاهرة وقد قرنت بالنعم الباطنة بعد أن ذكرت العجائب السماوية والأرضية وذكر لقمان ، فلقمان يشار به للنعم الباطنة وههنا بيت القصيد فلننظر فى الأمر ونقول :

عرفت قصص لقمان وعرفت أنه قد فتح الله عليه بالأمثال على لسان الحيوان وقرأت بعد هذا وأنا الآن أزيدك فأقول : كم من قارىء للقرآن يمر على هذه السورة مر النسيم على الهشيم . كم من قارىء يقرأ القرآن وهو غافل نائم جاهل . ذكر الله لقمان وذكر أنه آتاه الحكمة . فأى حكمة ؟ هى حكمة الأمثال على ألسنة الحيوان وإلام ترمى تلك الأمثال ؟ ترمى للأخلاق ، للمعاشرة ، للسياسة لنظام الدولة ، للجد ، للاجتهاد

لطلب العلم : للاحتراس من الماكرين ، وهكذا . ذلك مايرمى إليه تلك الأمثال . إذن القرآن يحضنا على حكمة لقمان وهو كما عرفت مجهول الأصل ، مجهول الحال ، أنبي هو أم حكيم ؟ على خلاف بين الناس ، وحكمته راجعة لحسن السلوك ولكن ليس هذا كل النعم الباطنة المذكورة فى الآية بل هذه بعضها . إذن نقول :

لقد تقدم قبل هذا ذكر العنكبوت وذكر النحل تسمية ودراسة فى نفس السورة . ذكر الله الحيوان والنبات فى أكثر السور السابقة تكرارا كما قدمناه وقدمنا أن ذلك لمعرفة علومها وللانتفاع بها . فالانتفاع كما قال الله تعالى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها » وأما معرفتها فواضحة من كثير من الآيات كقوله تعالى « قل انظروا ماذا فى السموات » وكقوله « أولم يتفكروا » الخ وأمثال ذلك . فإذن الحيوان يعرف إما للتفكر فى علومه . وهذا من علم الطبيعة وإما لمنافعه وهذا فيها أيضا مع مشاركة الجهال فى بعض تلك المنافع . وإما بضرب الأمثال بها كما فى أمثال لقمان. فسبحانك اللهم ، أنزلت الحكمة على قلب لقمان وألهمته أمثال الحيوانات لتعلمنا السير فى الحياة ونفس هذه الحيوانات متع لأجسامنا ولأغذيتنا ولحملنا وهى هى غذاء لعقولنا ونمو لثروتنا وارتقاء لمدنيتنا . فالحيوان :

(١) مثال تفقهه عقول الحكماء لأخلاقنا .

(٢) ومنفعة للغذاء والحمل والمعاش .

(٣) ورقى للعقول بعلوم الطبيعة .

إذن فى الحيوان (ثلاث خصال) اثنتان منها عرفت قبل سورة لقمان والثالثة بسورة لقمان . بهذه يوصى الله الأمة الإسلامية قائلا [آتيت لقمان الحكمة والحكمة مستخرجة من المخلوقات التى أمامكم] فالدنيا كأنها لوح وصور الحيوانات حروف وكلمات ولايعقل ذلك إلا الحكماء، وهم هم الذين يشكرون الله فإن شكر الله بمعرفة محله وقبول صنعه .

هذا هو الذى تفيده قصة لقمان ولذلك سميت السورة باسم لقمان تنويها إلى ماذكرناه وتبيينا لما الدهر طواه .

وعلى ذلك يكون المسلمون مقصرين فى ترك العلوم وحكمة الحكماء ، إن هذا كلام الله وهو الذى يؤتى الحكمة من يشاء وقد شوقنا إلى الحكمة وقال « ولقد آتينا لقمان الحكمة » إن الله لم يقفل باب الحكمة إنه فتحه على مصراعيه ، إنه هو الذى علم لقمان ويعلم المسلم ويشوق المسلم إلى قراءة الحكمة ، فكل حكمة قرأتها فاتعلم أن الله شوقك إليها وهو الذى ألهم قائلها على شريطة أن تكون صادقة لاتنافى العقل ولا الدين . وحسبك إذا قرأت فى أمثال (لقمان) حكاية الغراب والثعلب وأن الثعلب أخذ يتملق للغراب وأخذ منه غذاءه :

فاعتبر الغراب من ذى النوبه وتاب ولكن لات حين توبه

أو قرأت حكاية الكلب والذئب وقول الذئب للكلب الذى يذله صاحبه :

ومالفتى لم يك لى افتتان مادام فيه الذل والهوان

أوقرأت حكاية الجدى والنعجة والعجلة والسبع إذ استبد بالجميع وأخذ الغزالة التى لم يصدها هو فكان هذا المثل :

فاجتنبوا السلطان عند الشركة فليس فيها للشريك بركة

أو حكاية الذئب والخروف إذا ادعى الأول عليه دعاوى كاذبة ثم أكله بالقوة :

وقل لأهل العقل والفتوه   أحسن ما احتج الحق بالقوه

أو حكاية الذئب والبطة إذ أغاثته وطلبت الأجر فقال احمدى الله على السلامة :

وأدركت حقائق المعانى   والشهد ليس من فم الثعبان

أو حكاية السبع والحمار إذ نهق الحمار فخافت الحيوانات فافترسها السبع ثم قال للحمار محتقرا له :

جنسك معروف بغير قافيه   كثير صوت وقليل العافيه

أوحكاية الحصان والذئب وقد أراد الذئب أكل الحصان مدعيا علم الطب فرفسه الحصان وهو يعالج رجله

وهكذا فى الناس كل من بدا   بالخبث لا يخرج إلا نكدا

أو حكاية (الثعلب والعنب) وأنه أراد أكله فلم يستطع لارتفاعه عنه فأخذ يذم العنب بعد اليأس منه فقال القطف :

طول لسان فى الهوى   وقصر فى الذنب

أو حكاية الطاوس إذ أراد تقليد البلبل فى صوته ، فقال صاحبه كفاك ما زينت به ولكل طير نعمة خاصة به ثم نتف ريشه وجرده لعدم عفته، وهكذا الغنى يحسد الفقير على أى نعمة .

تلك عيون جنها خراب   فإنما يحاؤها التراب

أو حكاية الغراب المقلد للنسر إذ هجم على كبش فأخذه الراعى بيده هو وأولاده .

وقصها على قلت سيدى   ما أضيع البرهان للمقلد

هذه بعض الحكايات التى نقلت عن لقمان عليه السلام .

﴿ جوهرة فى أن الكلام على ذى القرنين يشبه بعض المشابهة الكلام على لقمان ﴾

ارجع إلى ما تقدم فى (سورة الكهف) عند الكلام على ذى القرنين فقد ذكرت لك هناك أن الخضر عليه السلام لما أقام جدار الغلامين اليتيمين ولم يأخذ أجرا يشبه ذا القرنين لما أقام السد ولم يأخذ من الذين طلبوا بناءه خرجا وإنما قبل منهم الاعانة بالقوة وحدها لا بالمال وأبنت لك أن هاتين القصتين إنما نزلتا للأمم الاسلامية لتهتدى بهما فتساعد المحتاجين من الأمة ولا تأخذ أجرا منهم كما فعل الخضر وتساعد الأمم عالما إذا كنا ملوكا ولا نأخذ من تلك الأمم أجرا . وملخص هاتين القصتين أن نكفل الأفراد ونكفل الأمم بقدرنا ونتعفف عن المال ما استطعنا . هذا مارمى إليه القصتان . هذا ملخص ماذكرته هناك .

وقد ذكرت فى غير ماموضع أن القرآن لايجعل حقائق التاريخ هى المقصودة بل يعمد إلى المقاصد والنتائج ويشير لذلك قوله تعالى «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب الخ» ونرى القرآن لم يبين العدد حرصا على المقصود من التنزيل وهى (الموعظة الحسنة) وما عدا ذلك فهو كالقشر فلندعه ولنصل إلى اللب . هذا مايؤخذ مما ذكرته هناك . وذكرت فى الكلام على ذى القرنين قولا مطولا فى تعيين الأمة التى نسب إليها أهى أمة اليونان أم أمة اليمن ؟ وهناك حللت أسماء الأمتين بقدر الامكان فوجدت أن ذا القرنين واضح فى اليمن وهناك (أذواء) كثيرون فى نظم واضح هناك فثبت أن (ذا القرنين) من اليمن ولكنه مبهم لم يعين ، وإنما لم يعين للحكمة المتقدمة إذ أننا لانهتم بذاته نفسه وإنما نهتم بنعته الذى نتشبه به . ولا جرم أن صفته القرآنية هى الأخلاق العربية التى نزل القرآن موافقا لأحاسنها، منابذا لسفسافها ، فالعرب فى البادية مفطورون على إعانة الضعيف والتجاوز عن الأجر فى مقابلة المعروف ، وهذه صفات شريفة أثبتها القرآن وأبقاها . وهذه الصفات لا تتوقف على أن نعرف عين الذى اتصف بها أهو يمنى أم هو يونانى ؟ وإذا كان يمنيا فأى الأذواء هو ؟ كل ذلك لايهتم به التنزيل كما علمت .

هذا

هذا ملخص ما تقدم وهو موافق لأمر لقمان سواء بسواء ، فلقمان قد ادعته غير أمة والقرآن ترك الأمر ولم يبين من أى الأمم هو كما لم يبين ذا القرنين .

هذا ماكنت وصلت إليه فى (سورة الكهف) وكتبته هناك . أفلا تسمع اليوم مافتح الله به وأنعم علينا فلعمرى لم يكن ليخيل لى إذ ذاك أن أطلع فى موضوع ذى القرنين على بيان أبهى وكمال أجمل وحكمة أرفع وسعادة أتم وبهاء أوفى ونور باهر وعلم ساحر وزهر عاطر .

كيف لا وقد عثرت فى كتاب (الأدب والدين عند قدماء المصريين) المؤلف حديثا فى زماننا أن قدماء المصريين اتخذوا القرنين رمزا لهم فى أعلامهم على شكل قرنى الكبش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس المعبود (أمون رع) لأنهم رأوا أن الكبش كثير التناسل والبركة وقد لقبوا بهذا اللقب ملوكهم لأنهم من نسل ذلك المعبود فى عرفهم وهاك نص ماجاء فيه :

(القرنان)

اتخذ المصريون القدماء رمزا لهم فى أعلامهم على شكل قرنى الكبش بلون لامع ووضعوا رسم القرنين على رأس للمعبود (أمون رع) .

﴿ استطراد ﴾

بمناسبة ذكر القرن رأينا أن نستطرد هنا بذكر المعانى الكثيرة التى وضعتها اللغة العربية للفظة (قرن) خصوصا أنها مستعملة الآن فى معان عدة يحتاج إليها الإنسان أحيانا كثيرة نذكر منها ماهو متداول استعماله فنقول (القرن) معناه فى اللغة العربية العظم النابت فى أعلى رءوس كثيرة من الحيوانات الوحشية والمستأنسة كالبقر والمعز وجمعه قرون ، والحيوان المعروف بالكركدن (وحيد القرن) لأن له قرنا واحدا فى مقدم رأسه ينطح به الفيل فيشقه . ومن العجيب أنه مخالف لسائر الحيوانات لأن له مع القرن حوافر مع أن القرن والحافر لايجتمعان فى غيره . والقرن أيضا ضفيرة شعر الرأس ومنه قولهم (له قرون طويلة) والقرن الخصلة من الشعر وإن لم تكن مضفورة . وقرن الجبل أعلاه . وقرن السيف حده . وقرن القوم سيدهم . وقرن الشمس حاجبها وقد قيل مايبدو منها عند طلوعها . القرن مائة سنة ومنه قول المؤرخين القرن التاسع أو العاشر مثلا وكقولهم كان فلان فى قرن فلان أى فى عصره ومدته . القرن الميل (المرود) الذى يكتحل به وهو أيضا اسم لجبل مشرف على عرفات . وقرن الشىء طرفه . وقالوا قرنى الأرض أى مشرقها ومغربها . وعلل بعضهم تسمية (اسكندر بن فيلبس المقدونى) بذى القرنين أى صاحب قرنى الأرض بمعنى مشرقها ومغربها ؛ ولكن الصحيح أن السبب فى تلقيبه بذلك أن قدماء المصريين كانوا قد وضعوا فى رأس المعبود آمون قرنى كبش كما تقدم لأنهم رأوا الكبش كثير التناسل والبركة ، ولا تزال صورة هذا المعبود موجودة على هذا الشكل بالمتحف المصرى بالطبقة السفلى وسط الطرقة الشرقية ، ولما كان عصر الملك (تانوت أمن) من الأسرة الخامسة والعشرين لقب نفسه بالسيد ذى القرنين (نب أبوى) جريا على مبدئهم من أن الملوك من سلالة هذا المعبود وهم أحق بأن يتخذوا شعاره ، ثم لما استولى (إسكندر المقدونى) على مصر ورأى أنه قد آل إليه ملك هؤلاء الفراعنة اتخذ هذا اللقب عنهم ليمثل به نفسه أمامهم فى عقائدهم وشعائرهم) اه .

وأنا أحمد الله حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم ونعمة التوفيق ، سبحانك اللهم وفقت وعلمت فإنى كتبت ماتقدم فى (سورة الكهف)

بطريق الاستنتاج . فلما قرأت ما تلوته عليك الآن وجدت أن ذا القرنين مبدؤه مصر ، ومصر قريبة من اليمن وأهل اليمن سموا بالأذواء ، ومن الأذواء ذوا القرنين كما تقدم هناك ، ثم جاء إسكندر المقدونى فسمع بلقب القرنين فسمى نفسه به . إذن أصبح (ذو القرنين) لا يختص باليونان ولا باليمن ولا بمصر . فقوله تعالى (ويسألونك عن ذى القرنين) وإجابته تعالى بقوله (قل سأتلوا عليكم منه ذكرا) يشير إلى ماقلنا فإنه قال (سأتلوا عليكم منه ذكرا) فأنا لا أدون حوادث التاريخ التى تحوم حول كل من سمى بهذا الاسم بل أتلوا عليكم ما يكون ذكرا لكم وحكمة وعلما لأن القرآن لهذا أنزل أما التاريخ فغير مقصود لذاته ولا فائدة فى تحقيقه ولا غرض فى تفصيله . وإنما أذكر لكم صفات الكمال والجمال التى اتصف بها (وذو القرنين) سواء أكان باليمن أم بمصر أم باليونان فتعيينه لا يفيد . وعلى هذا ربما كان (ذو القرنين) المذكور فى القرآن من قدماء المصريين وربما كان من أهل اليمن فأما كونه من اليونان فلا لأنا قدمنا أن تاريخ الاسكندر ليس فيه تلك الفضائل التى ذكرها القرآن . وإنما كتبت هذا هنا لمناسبة ذى القرنين للقمان . وقد جاء ذكرهما معا فى كتب التوحيد كما قيل :

وذو القرنين لم يعرف نبيا   كذا لقمان فاحذر من جدال

هذا ما أردته فى هذا المقام والله أعلم . أقول إذا قرأت ذلك كله فقل سبحانك اللهم سبحانك ، أنت الذى خلقت الروح وخلقت الطيور ، أنت يا الله خلقت القلوب وأنت الذى ألهمتها أن تصور الحكمة من صور الطيور ، إنك يا الله قد علمتنا فى القرآن أن المقلد لا يجئ وأ كثر سور القرآن مشحونة بذم المقلدين . مشحونة بالمعاندين والجاهلين الذين يقلدون ولا يعقلون . وأنت يا الله الذى ألهمت عبادك هذه الصورة الحكيمة التى توافق كتابك وفيها إنعاش النفوس وإحياء القلوب أنت الذى أنزلت القرآن لعلمنا الحكمة والقرآن أشار إلى ما صنعته لقرأه ونفهمه والقرآن فتح لنا الباب وقال ادخلوا فمن سمع القرآن وعقله دخل الباب واحتمل الحكمة ومن لم يعقل ولم يفهم وقف وقال كفانى الترنم بألفاظ القرآن . لك يا الله العقول والحيوان ولك الإنجيل والقرآن ولك قلوب نوع الإنسان وأنت دللتنا بالقرآن على الروح وعلى الحيوان وعلى ما أنتجته العقول فتحت لنا الطرق ولكن الجهال أقفلوها أمام المسلمين . أناموهم طويلا . لالا ، بل كفنوهم ودفنوهم فى اللحود وأوقفوا نوبا على مدافنهم ليحرسوها خيفة أن يرجع أحدهم لكونه دفن خطأ فى لحده فعلوا ذلك وهم لا يشعرون وقد آن أوان مجدهم وأيام سعدهم وسيكون فيهم مرشدون صالحون وحكماء محققون وعلماء نابغون .

ولما اطلع على هذا صاحبى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى الأمور الهامة فى هذا التفسير قال لقد أحسنت فيما قصصت من حكم لقمان ومن أمر ذى القرنين وبهما تشابها ولكن الآن أريد أن تذكر عشر حكم أخرى منظومة من الكتاب المتقدم ذكره لتكون تفكهة للقارئين وموعظة للمؤمنين فقلت نعم سأذكر لك (عشر مواعظ) كما قلت وهاك بيانها :

﴿ الحكمة الأولى فى الحمار حامل الملح والحمار حامل الاسفنج ﴾

حمار بولاق له حمير   وفى البلاد شغله كثير
حمل جحشا حمل ملح قاسى   وكان لا يرقى ولا يواسى
وحمل الآخر بالسفنج   وقال سبحان الإله المنجى
فحامل السفنج صار يسعى   وحامل الملح النهيق قطعا
وحين أقبلا على الوادى   ونزلا الماء ببطن الوادى

امتلأ السفنج صار مثقلا   والملح حين ذاب خف محملا
فغطس الحامل السفنج   كغطسة البذرة فى النارنج
ولفت الماء عليه بالكسا   ففارق الدنيا وعاف النفسا
وطلع الملاح وهو ينهق   وهكذا رب أسير يختنق
فاصبر على أهوالها ولا تضجر   فربما فاز الفتى إذا صبر
وربما جاءك بعد اليأس   روح بلا كد ولا التماس

﴿ الحكمة الثانية فى شجرة البلوط والسنبلة ﴾

حكاية عن شجر البلوط   نقلتها عن شيخنا السيوطى
قال إلى سنبلة من فول   ليتك فى العلو تحكى طولى
ليتك لو غرست تحت رجلى   وكنت فارقت الحمى من أجلى
وكنت فى أمن من العواصف   قالت له مامسنى من تلف
إنى وإن كنت نحيف القامة   وفى الهوى لا أملك استقامة
فإن ماعندى من الليونه   وقت الرياح يوجب المرونه
وأنثنى تيها على أمثالى   وبالرياح قط لا أبالى
وبينما الاثنان فى تنازع   إذ نفخت منافخ الزعازع
واغبرت الآفاق والبطاح   وجلجلت فى الشجر الرياح
وقد أصابت قامة البلوط   ونزلت به إلى الهبوط
وسنبل الفول يميل تارة   ويثنى أخرى مع الإماره
ولم يصبه من أذى ولا ضرر   وربما كان الهلاك فى الكبر

﴿ الحكمة الثالثة فى البغلة ﴾

حكاية وقعت فى سالف الأمم   عن بغلة خدمت شاهبندر العجم
وغرها العز والإقبال فارتفعت   فى رتبة المجد والأنساب والشيم
ياطالما ذكرت أن أمها فرس   قد ألبستها الموالى أشرف اللجم
وأنها ذكرت من قبل فى كتب   وضمها صاحب التاريخ بالقلم
وبعدما خدمت يوما الحكيم رأت   ذا دونها فبدت تشكو من الخدم
وحين شابت وفى الطاحون قد دخلت
وأصبحت شبحا فى حيز العدم
والذل أورثها ضعفا وألبسها   على الجراح على ثوب من الورم
قد فكرت فى الحمار النحس والدها   وحققت نسبا عنه من القدم
وسلمت لليالى عند شدتها   إن الشدائد لا تبقى على الشمم

﴿ الحكمة الرابعة فى الضفادع وزواج الشمس ﴾

سمعت عن لقمان أنه حكى   وبالذى رواه قد تمسكا
وقال إن الشمس يوما قالت   نفسى إلى حب الزواج مالت

فخرجت تشكوله الضفادع | وهى تقول كيف بعد نصنع
أما إذا جاز وجوك أهلك | ثم دنا فى الجو منك يحلك
لابد من أن تلدى شموسا | وتحرق الضفدع والجاموسا
إنك فى جو السما وحيدة | وعن بحار أرضنا بعيدة
ومع هذا فالظلى لا يخفى | فكيف ذا لو تلدين ألفا
تنشفين البحر والأنهارا | وتحرقين الليل والنهارا
أسألك اللهم لا تحذر | وأنت يا لقمان لاتنفر
فالشمس كالظالم إن تزوجا | أنتج ألفا مثله وأخرجا

(الحكمة الخامسة)

(حكاية الكلب الذى ترك الرغيف واتبع خياله)

كلب على النهر رأى رغيفا | فجاءه من جوعه ملهوفا
ونزل الماء وصار يسبح | وفى الهوا على الكلاب ينبح
ومذ دنا منه رأى خياله | فترك الرغيف جهلا باله
واتبع الخيال وهو الجانى | ظنا بأنه رغيف ثانى
فكبر النهر وثار الموج | ومن يد الكلب تلاشى الزوج
واضطر للرجوع والنجاة | محبة فى طلب الحياة
وازداد من غروره ضلالا | لا حصل العين ولا الخيالا
ومثله بين الورى كثير | من شأنهم فى العيشة الغرور
ماحصلوا بالجهل فى أى زمن | لاعنب الشام ولا كرم اليمن

(الحكمة السادسة فى الشيخ وحماره)

شيخ له جحش وص فى الخلا | به على روض تجلى وانجلى
أطلقه فى الروض حتى يرعى | من الحشيش ولذيذ المرعى
فانشرح الجحش به وقمصا | وفى الهوا برجله قد رفصا
وبينما الجحش به يدب | إذ جاء من بطن الفيافى دب
عاينه الشيخ فراح يمشى | وقال قم واجر بنا ياجحشى
قال له الجحش ولم قال العدو | من يلقه فشمله مبدد
فضب الجحش بلا تأنى | وقال قم يابن الكرام عنى
فالموت لا يكون إلا مره | والموت خير من حياة مره

(الحكمة السابعة : حكاية الرجل والبرغوث)

رجل من الرجال يستغيث | فى فرشه يأكله برغوث
فهم يشكو بصياح عالى | وهو ينادى سيد الموالى
يقول يامن خلق البريه | بعونك ارفع هذه البليه

وأنت يا أستاذ يا شيخ العرب   خده أسيرا فى الحديد والخشب
ويا مغيثى من أذى البرغوث   خذ عنى الكرب وكن مغيثى
قالت له زوجته ما نابك   ومن أذى البرغوث ما أصابك
امسكه بين الأصبعين باليد   واظفر به لا تستغث بأحد
عجائب عجائب عجائب   إنك والله العظيم خائب
مثلك فى الناس كثير العدد   فى كل حلة وكل بلد
من طبعهم ودأبهم حب الكسل
أنبيك عن أخلاقهم إذا تسل
فى أى عارض صغير زائل   يرجون فى تصريفه كل ولى
إن العظيم يدفع العظيما   كما الجسم يحمل الجسيما

﴿ الحكمة الثامنة : حكاية الثعبان والمبرد ﴾

حكاية الثعبان ذى حكايه   قد بلغت من حسنها النهايه
أذكره إذ مر وهو آتى   بمبرد لرجل ساعاتى
وكان جوعانا فرام يقرضه   فلا تعنفه فهذا غرضه
قال له المبرد ياثعبان   ماتبتغى قال أنا جوعان
قال له كل إن يطعك نابك   والله قد شرفنى جنابك
فإنما تأخذ من صماطى   ما يأخذ الريح من البلاط

﴿ الحكمة التاسعة : حكاية الديك الخصى والصقر ﴾

حكاية إن تستمعها ترقص
عما جرى للصقر والديك الخصى
الديك يوما فر فوق السطح   خوفا من الطباخ وقت الصبح
ووقفت تطلبه الصغار   وهو يخوف ماله قرار
حتى لقد غروه بالصفير   وأسمعوه صيحة الطيور
ومع هذا لم يسلم أبدا   ولم يقرب بل نأى وأبعدا
فجاءه الصقر وقال هل صمم   فى أذنيك أيها الديك الأصم
كم ذا ينادون وأنت غافل   إنك يا أحقل الدجاج جاهل
وإننا يا معشر الصقور   أعقل ما يوجد فى الطيور
نصطاد فى البر وبعد نرجع   وإن تنادينا الرجال نسمع
قال له الديك كذاك أسمع   وبدل الأذنين عندى أربع
لكن تأمل وانظر المنادى   فإنه من أعظم الأعادى
هذا هو الطباخ يا ابن ودى   يرغب فى ذبحى وأكل كبدى
إنك لا تؤخذ مثلى للشوا   دع عنك تعنيفى وذق طعم الهوى

﴿ الحكمة العاشرة : فى حكاية الكلبين وجيفة الحمار ﴾

كلبان كانا عند شط النهر   فاسمع حديثا لهما بالشعر
قد نظرا رمة جحش عائمه   بالماء والطير عليها حائمه
وأخذت تبعدها الرياح   فقال كلب منهما نباح
تعرف ماذا فى المياه نصنع   نشربها والجحش بعد يطلع
قال له أخوه ياحبيبى   صدقت ليس ذاك بالعجيب
وإن شربناه بتلك الهمه   ينشف هذا البحر تحت الرمه
ونزلا فى البحر شربا شربا   طورا بلعق ثم طورا عبا
حتى امتلا كلاهما وانكبا   وفارقا الدنيا وعافا النفسا
وقد رأيت فى الرجال مثل ذا
من مسه الطيش فأورث الأذى
يطلب نيل المجد والفخار   ورأسه قدر من الفخار
لاعقل فيها بل بها مأمول   يطمع فيه وهو مستحيل
فبئست العادة فاحذرها لشره   وقس بما رأيته مالم تره

فقال صاحبى . إن هذه الحكم عجيبة . فهل من مزيد ؟ فقلت كفى من القلادة ما أحاط بالعنق ، ومن لم يقنع بالقليل لم يفده الكثير . فقال ولكنى أريد أن تبحث فى حكم لقمان عن بعض الحكم التى مرت فى (سورة الروم) وهى قوله تعالى «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس» الخ فإنك هناك ذكرت أن أعمال الناس وحربهم وظلمهم أنتج هذه المصائب فى الأرض كالطاعون والحصباء الخ فهل فى كلام لقمان مايشير لذلك . فقلت نعم وذلك فى الحكاية الآتية وهى :

﴿ حكاية الصياد والطائرة ﴾

قد نشب الصياد بالنبال   طائرة كانت بسطح عالى
فوقعت لوقتها وصاحت   وسكبت دموعها وناحت
ونظرت السهم وهو فيها   وأخذت تعضه بفيها
وهى تقول كيف ياابن آدم   أكون عونا لك فى سفك دمى
سهمك قد أرشت من جناحى
وكيف أثخنت به جراحى
ماذا فعلت ياغبى فيكا   حتى أذوق الموت من يديكا
لكن ربى ذو انتقام أبدا   لم ينج قط من يديه أحدا
أقاتكم أعداء فوق الأرض
وبعضكم يسعى لقتل بعض
وكل باغ شأنه التعدى   فهو إذا لواقع من بعدى

فالبغي داء ماله دواء ليس لملك معه بقاء

وليس من عقل الفتى وكرمه

إفساد شخص كامل لقرمه

فلما سمع هذه الحكاية قال إذن هذا تحريم الحلال ، هل يحرم الصيد ؟ فقلت هذا ضرب مثل والأمثال تراد غاياتها لامانطق به منها ، فقال لقد ازدادت دهشتى من هذه الأمثال . فقلت اقرأ قوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » فهذا عين المثل وهذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » ولقد رأيت كثيرا من هذه الحكم فى كتب الأوروبيين . فقال حسن وكفى هذا . فقلت الحمد لله رب العالمين .

(كتاب كليلة ودمنة)

ومن هذا القبيل كتاب [كليلة ودمنة] الذى ألفه الحكيم (بيدبا) الفيلسوف لملك الهند المسمى (دبشليم) إنه ينحو منحى كتاب لقمان ، إنه يصوغ الحكمة على لسان الحيوان ، فإذا قال الله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) فليس معناه أنه لم يعط الحكمة لسواه . كلا ، ثم كلا ، إنه قال (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) إن الله لم يخص لقمان بالحكمة ، بل إنه جعلها فى أناس اختارهم هو من أمم شتى ومنهم (بيدبا) المذكور ، إن الله لم يعط الحكمة للأمم السابقة وللصدر الأول من أمتنا الإسلامية ويحرم المسلمين اليوم منها . كلا . ثم . كلا . إن الله خلقنا وهو الذى خلق الحيوان والنبات والعقول وألهمها الحكمة وعقولنا مستعدة لها . فلنا أن نقرأ ما أجراه على قلوب الحكماء من الأمم والحكماء من الإسلام ليكون فى الأمة حكماء فى مستقبل الزمان وهذا الذى سيكون . إنه لافرق بين حيوان فى القفر ونبات فى المرج وعقل فى الإنسان، إن الله شوقنا إلى دراسة كل هذا . لماذا ؟ ليكون فينا نابغون وهولا يعطى الحكمة إلا لمن هو أهل لها ولا أهل لها إلا من قبلها واستعد لها والاستعداد من أهم المؤهلات له قراءة الكتب ونظر العالم ودراسة عقول السابقين واللاحقين . فإذا قرأ المسلم (باب الأسد والثور) من ذلك الكتاب عرف سر السياسة وكيف يكون الغدر وكيف يحتال المغتاب على الإفساد بين الأصحاب والايقاع بالشر بينهم وكيف أمكن دمنة أن يوغر قلب الأسد من الثور ويهلكه وكيف ظهر الأمر بعد ذلك وشهد الشهود على (دمنة) أنه غدار وأن الثور لم يذنب فحكم عليه القضاة بالقتل فقتله الأسد .

وإذا قرأت (الحمامة المطوقة) عرفت كيف يتحد المختلفون فى الطباع والأخلاق والأحوال ، وكيف يكون الاتحاد سبب نجاتهم ، وكيف اتحدت الحمامات المتفقات النوع على التخلص من الهلاك فنجحن .

وإذا قرأت (باب البوم والغربان) عرفت كيف تكون حيلة المحتالين من أهل السياسة وأن تملق العدو لاينبغى أن يغتر به وإن أظهر تضرعا وملقا ، وكيف مكر الغراب بجماعة البوم فهلكت .

وإذا قرأ الإنسان (باب القرد والغيلم) عرف مثل الرجل الذى يطلب الحاجة فإذا ظفر بها أضاعها فإن الغيلم طلب من القرد قلبه بإشارة زوجته فاحتال القرد عليه وخدعه ثم فر وتمت حيلته وندم الغيلم .

وإذا قرأ (باب الناسك وابن عرس) عرف مثل الرجل العجلان فى أمره من غير روية ولانظر فى العواقب وكيف قتل الناسك ابن عرس الذى نجى ولده من الحية وهو مخضب الفم بالدم فظن أنه قتل ابنه ، فلما علم أن ابنه حى وأن ابن عرس هو الذى نجاه بقتل الثعبان ندم .

وإذا قرأ (باب ابن الملك والطائر فنزة) وأن ابن الملك قتل ابن الطائر المذكور لما زرق فى حجرة فجاء الطائر (فنزة) ففقأ عين ابن الملك ثم طلب الملك من الطائر المذكور أن يصاحبه ثانيا فأفهمه الطائر أن ذلك مستحيل لأن الأعداء الذين بينهم (ترات) يجب أن يتقى بعضهم بعضا .

وهكذا أبواب أخر كباب الأسد وابن آوى وباب الأبوة والأسوار والشهر وباب الناسك والضيف وباب السائح والصائغ وباب ابن الملك وأصحابه ، فهذه جملة أبواب الكتاب إذا قرأها المسلم فإنما قرأ حكمة الحكماء وليست هي حكمتهم بل هي حكمة آتاهموها الله كما أن النبات لله والحيوان لله وقال تعالى «وأنفقوا مما رزقناكم» فكما أن المال من عند الله فالحكمة من عند الله ونحن عباده ، والله تعالى يقول «قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق» فهل يبيح الله لنا الزينة والطيبات من الرزق ويحرم علينا العلم والحكمة أحل الله لنا الرزق والزينة ، بل أحل لنا غنائم الأمم إذا حاربناهم حربا شرعيا أن نأخذ مالهم ، فهل يبيح لنا ذلك ويحرم علينا اجتناء علومهم وحكمتهم ؟ كلا كلا . بل الله سبحانه وتعالى عادة يزهدنا في متاع الدنيا ويرغبنا في زاد الآخرة ، وزاد الآخرة لايكون إلا بالعلم والعمل تابع له .

فز بعلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء
وقيمة المرء ماقد كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء

﴿ حكمة قدماء المصريين ﴾

وهل أتاك نبأ حكمة قدماء المصريين . إن هؤلاء قد ظهرت حكمتهم في هذه الأيام وقد فتحت كنوز وظهرت رموز وأثيرت من القبور عجائب وصناعات ، وكذلك ظهرت كتابات على الأحجار وفي ورق البردي ، قد قصدها الناس من كل فج عميق كما استبان في (سورة البقرة) عند قوله تعالى (إن في خلق السموات والأرض ، والكلام على قوله (يحبونهم كحب الله) فترى اليوم أهل أوربا وأمريكا يقصدون بلادنا من كل فج عميق ليشهدوا حكما يقرءونها وهاك منها (فصلين : أحدهما) ماجاء في جرائدنا المصرية يوم الجمعة (٩) فبراير سنة ١٩٢٣ م تحت العنوان التالي مانصه .

﴿ أقدم كتاب في العالم ﴾

منذ (٥٥٠٠) سنة عثر أحد الفلاحين على أوراق بردية وهو يحفر مقبرة بناحية (زراع أبي النجا بطيبة) فباعها العالم الأثري الفرنسي (بريش دافين) الذي أذاعها سنة (١٨٤٧) ثم قدمها هدية لدار الكتب الأهلية بباريس لذلك اشتهرت بورقة (بريس البردية) وهي أقدم كتاب في العالم لأنها كتبت منذ (٥٥٠٠ سنة) وقد كانت كتب الأولين كلها من هذا النوع وهي تشتمل على ١٨ صحيفة مكتوبة بالخط الهراطيق بالحبر الأحمر والأسود متضمنة نصائح ومواعظ وحكما وضعها (رجلان : الأول) يدعى (قاقمة) وهو وزير الملك حوني من الأسرة الثالثة (والثاني) يدعى فتاح حتب وهو وزير الملك أسي من الأسرة الخامسة ، كتبها وله من العمر (١١٠) سنوات ، اقتبسها من السلف وجعلها موعظة للخلف ، ولذا قال لابنه : إذا سمعت هذه الحكم السامية عمرت طويلا وبلغت أوج الكمال وتدرجت إلى معالي العلا والمجد (ثم اعتنى بترجمتها من اللغة المصرية القديمة إلى الفرنسية العالمان شاباس دفيرى وباللاتينية العالم لوث وبالألمانية العلامة بروكش باشا وبالإنجليزية الأثري (المسترجن) ومن هؤلاء نقلت إلى العربية) .

ولأهمية هذه النصائح الدرية اعتنى بها الإنكليز اعتناء عظيما حتى قرروها في برنامج الدراسة للأطفال فأكسبتها المبادئ الشريفة التي أشربتها قلوبهم في الصغر فسادوا العالم وقادوا الأمم وذلك بفضل اتباعهم مناهج أجدادنا العظام التي دونوها لنا وكنزوها لأجلنا فكان نفعها لغيرنا . وياحبذا لو اهتدينا إليها واقتدينا بها فنحن أحق بها وهذا بيانها :

(نصائح ذقما الحكيم المصرى القديم)

(١) اسلك طريق الاستقامة لئلا ينزل عليك غضب الله .

(٢) احذر أن تكون عبدا فى الخصام فتستوجب عقاب الله .

(٣) الابن الذى ينكر الجميل يحزن والديه .

(٤) متى كان الإنسان خبيرا بأحوال الدنيا سهل عليه قيادة ذريته .

(٥) إن قليل الأدب لبليد ومذموم .

(٦) إذا دعيت إلى وليمة وقدم لك من أطايب الطعام الذى تشتهيه فلا تبادر إلى تناوله لئلا يعتبرك الناس شرها ، واعلم أن جرعة ماء تروى الظمأ ولقمة خبز تغذى الجسم .

(٧) احفظ هذه النصائح واعمل بها تكن سعيدا ومحمودا بين الناس .

(أمثال «فتاح حتب» الحكيم المصرى القديم)

(١) إن التعرف بأعاظم الناس نفحة من نفحات الله .

(٢) لاتوقع الفزع فى قلوب البشر لئلا يضربك الرب بعصا انتقامه .

(٣) إذا شئت أن تعيش من مال الظلم أوتغتنى منه نزع الرب نعمته منك وجعلك فقيرا .

(٤) إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ، لأن بيده مقاليد الأمور فمن العبث التعرض لإرادته تعالى .

(٥) إذا كنت عاقلا فرب ابنك حسبما يرضى الله تعالى ، وإذا شب على مثالك وجد فى عمله فأحسن معاملته واعتن به ، أما إذا طاش وساء سلوكه فهذب أخلاقه وأبعده عن الأشرار لئلا يستخف بأمرك .

(٦) إن تدبير الخلق بيد الله الذى يحب خلائقه .

(٧) إذا نلت الرفعة بعد الضعة وحزت الثروة بعد الفاقة فلا تدخر الأموال بمنع الحقوق عن أهلها فإنك أمين على نعم الله والأمين يؤدى أمانته ، واعلم أن جميع ما وصل إليك سينتقل منك إلى غيرك ولايبقى فيه لك إلا الذكر .

(٨) ما أعظم الإنسان الذى يهتدى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

(٩) من خالف الشرائع والقوانين نال شر الجزاء .

(١٠) لاينجو الأثيم من النار فى الحياة الآخرة .

(١١) إن حدود العدالة ثابتة وغير قابلة التغيير .

(١٢) إذا دعاك كبير إلى الطعام فاقبل ما يقدمه لك ، ولا تطل نظرك إليه ، ولا تبادره بالحديث قبل أن يسألك لأنك تجهل ما يخالف مشربه بل تكلم عند ما يسألك فحينئذ يعجبه كلامك .

(١٣) إذا كلفك كبير بحاجة فأنجزها له حسب رغبته .

(١٤) إذا تعرفت برجل رفيع فى المقام فلاتتعاظم عليه ، بل احترمه لمركزه .

(١٥) إذا جلست فى مجلس رئيسك فاستحضر الكمال والصمت فلاتتوفق فى الكلام لئلا يعارضك من هو أكبر منك نفوذا وأكثر منك خبرة ، واعلم أن من الجهل أن تتكلم فى مواضيع شتى فى آن واحد .

(١٦) لاتعق كبيرا عن عمله متى رأيته مشغولا فانه عدو لمن يعوق أعماله .

(١٧) لاتخن من ائتمنك لتزداد شرفا ويعمر بيتك .

(١٨) من الحمق أن يتشاجر المرءوس مع رئيسه فإن الانسان لايعيش عيشة راضية إلا إذا كان مهذبا لطيفا ظريفا .

(١٩) إذا دخلت بيت غيرك فاحذر من الميل إلى نسائه فكم أناس تهافتوا على هذه اللذة القصيرة التى تمر كالحلم فأودت بهم إلى المخاطر والمهالك ، واعلم أن بيت الزانى آيل الخراب والزانى نفسه أيضا فاقد الرشد وممقوت عند الله والناس ومخالف للشرائع والنواميس .

(٢٠) إذا كنت عاقلا فدبر منزلك وأحب زوجتك التى هى شريكتك فى حياتك وقم لها بالمؤنة لتحسن لك المعونة وأحضر لها الطبيب وأدخل عليها السرور ، ولا تكن شديدا معها ، إذ باللين تملك قلبها وقم بمطالبها الحقة ليدوم معها صفاؤك ويستمر هناؤك .

(٢١) لاتعجب بعلمك لأن العلم بحر لايصل إلى آخره أى متبحر مهما خاض فيه وسبح ، واعلم أن الحكمة أعلى من الزمرد لأن الزمرد تجده القعلة فى الصخور بخلاف الحكمة فانها نادرة الوجود .

(٢٢) لاتترك التحلى بحلية العلم ودماثة الأخلاق .

(٢٣) إذا كنت زعيم قوم فنفذ سلطتك المخولة لك وكن كاملا فى جميع أعمالك ليذكرك الخلف ولا تسرف فى المواهب والنعم التى تقود إلى الكبرياء وتؤدى إلى الكسل .

(٢٤) إذا كنت قاضيا فكن لين الجانب مع المتقاضين ولا تجعل أحدهم يتردد فى كلامه ولاتنهره ودعه يتكلم بحرية لكى يعبر عن مظلمته بصراحة ، أما إذا لم تنصفه فيكون سببا لسوء سمعتك ، فحسن الإصغاء أفضل طريقة لكشف الحقيقة .

(٢٥) ليكن أمرك ونهيك لحسن الإدارة لا لإظهار الرياسة والإدارة .

(٢٦) لا تستبد لئلا تضل .

(٢٧) لاتكن يابسا فتكسر ولا لينا فتعصر .

(٢٨) إذا شئت أن تطاع فسل ما يستطاع .

(٢٩) إذا حكمت بين الناس فاسلك طريق العدل ولا تتحيز لفريق دون آخر وإلا نسبوك للجور والتعسف .

(٣٠) إذا عفوت عمن أساء إليك فاجتنبه ولكن اجعله ينسى إساءته إليك حتى لايذكرها مرة ثانية .

(٣١) بقدر الكد تكتسب الثروة فمن جد فى طلبها أنجح الله مسعاه .

(٣٢) اجتهد دائما فى عملك ولاتترك فرصة اليوم للغد فمن جد وجد .

(٣٣) إذا كنت منتظما فى حياتك صرت غنيا وحسنت سمعتك وتحسنت صحتك وطار صيتك وملكت حاجتك ، أما الذى ينقاد لشهواته فإنه يصير ذميا سمجا وعدوا لنفسه .

(٣٤) إذا وقفت أمام الحاكم فاخفض جناحك واحن رأسك ولا تعارضه وجاوبه بوداعة لينجذب قلبه إليك .

(٣٥) إذا فاه أخوك بالشر فازجره لتكون خيرا منه .

(٣٦) اصغ لكلام غيرك فإن السكوت من ذهب .

(٣٧) لاتحتقر فقيرا وإذا زارك فلا تتركه سدى لئلا تخذله ولا تغضبه . ولا تحتقر رأيه فإن هذا ليس من شيم الكرام .

(٣٨) احذر من تحريف الحقيقة بين الناس لئلا تزرع الشقاق بينهم .

(٣٩) لا تخبر أحدا بما صرح به لك غيرك لئلا يفضك الناس .
(٤٠) من ساءت سيرته ضل الصراط المستقيم .
(٤١) إذا كنت في مجتمع فاسلك دائما حسب قوانينه .
(٤٢) إذا عاشرت قوما فاجذب قلوبهم إليك .
(٤٣) ليكن كلامك دائما سديدا مفيدا .
(٤٤) اذا شئت أن تسلك سبيل الرشاد فابتعد عن الشر واحذر الطمع فإنه داء دفين لادواء له والمتصف به قليل الحظ لأن الطمع مجلبة الشحناء والشقاق بين الأهل والأقارب وهو سبب كل الشرور والرذائل، أما القناعة فهي أساس النجاح والفلاح ومصدر الخير والبر .
(٤٥) لاتتطرف في الكلام ولا تصغ إلى الوقاحة لأنها صادرة عن التهيج والغيظ ، وإذا تطرف أحد أمامك في الكلام فأطرق رأسك إلى الأرض لترشده بذلك إلى طريق الحكمة.
(٤٦) من يزج بنفسه في متاعب الدنيا ويستغرق فيها كل أوقاته لايجد لذة في حياته .
(٤٧) من يعكف طول نهاره على شهواته ضاعت مصالح بيته .
(٤٨) إذا شئت أن تعرف طباع صديقك فلا تسأل أحدا عنه ، بل استنتج ذلك بانفرادك معه في المحادثة المرة بعد المرة ولاتغضبه ومتى أخبرك عن أصل ماضيه عرفت جميع أخلاقه ، وإذا فاتحك الحديث فسايره ولاتجعله يتحفظ في حديثه وإياك أن تقاطعه في الحديث أو تزدريه ، وبهذا يمكنك أن تستطلع جميع أحواله .
(٤٩) كن بشوشا مادمت حيا .
(٥٠) من زرع الشقاق بين الناس عاش حزينا ولايصحبه أحد .
(٥١) من طابت سريرته حمدت سيرته .
(٥٢) متى كبر الإنسان في السن عادت إليه حالة صغره ، فيعمش بصره ، وينقص سمعه ، ويصمت فمه ، ويستخف كلامه ويظلم عقله ، وتضعف ذاكرته ، وتخور قواه ، وتقف حركة قلبه ، وترق عظامه . ويهزل جسمه ، ويفقد ذوقه . وثمه حقا إن الشيخوخة آفة الإنسانية ، انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني

(أقدم كتاب في العالم أيضا)

نصائح الحكيم المصري القديم . (آني)[1]

لتلميذه خونسو هتب في عصر مصر الذهبي في عهد الملك العظيم (توت أنخ أمون) أي منذ ٣٣٠٠ سنة تقريبا :

(١) أخلص لله تعالى في أعمالك لتتقرب إليه وتبرهن على صدق عبوديتك حتى تنالك رحمته وتلحظك عنايته فإنه يهمل من توانى في خدمته .

---

(١) نقلا عن ورقة بولاق البردية التي عثر عليها (ماريت باشا) مؤسس مصلحة الآثار المصرية في أحد مقابر الدير البحري بطيبة بالأقصر سنة ١٨٧٠م المحفوظة بالمتحف المصري بالطبقة العليا بالقاعة حرف س وترجمها من (الخط الهيراطيقي) إلى الفرنسية العالمان الأثريان شاباش ودي روجيه ، وللالمانية العالم الأثري (أرمن) وللانكليزية الأستاذ ماسبرو ، وللعربية أخيرا أنطون أفندي زكري الأمين بالمتحف المصري ، وقد اشتهرت بورقة بولاق البردية، حفظت بالمتحف المصري وقت أن كان في بولاق وهي تشتمل على ٩ صحائف.

(٢) لاتقرب إلى ربك بما يكرهه ولاتبحث أسرار ملكوته فهى فوق مدارك العقول واحفظ وصاياه وإرشاداته فإنه يرفع من يمجده .
(٣) احترم الأعياد وأدِ شعائرها وإلا قد خالفت أوامر الله .
(٤) لا تستعمل الغوغاء والضجيج فى بيت الله أيام أعيادك وادع ربك تضرعا وخفية بقلب مخلص فذلك أقرب للاجابة .
(٥) إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزلة .
(٦) تهذب النفوس بالحسنات والترتيلات والسجود .
(٧) من اتهم زورا فليرفع مظلمته إلى الله تعالى فإنه كفيل بإظهار الحق وإزهاق الباطل .
(٨) اجعل لك مبدأ صالحا وضع نصب عينيك فى جميع أحوالك غاية شريفة تسعى إليها لتصل إلى شيخوخة حميدة وتهيء لك مكانا فى الآخرة فإن الأبرار لاتزعجهم سكرات الموت .
(٩) صن لسانك عن مساوى الناس فإن اللسان سبب كل الشرور ، وتحر محاسن الكلام ، واجتنب قبائحه فإنك ستسأل يوم القيامة عن كل لفظة .
(١٠) تزوج حديث السن لترى لك ولدا فى ريعان شبابك يكون سببا فى احترامك وإجلالك وبرهانا على صلاحك وتقواك .
(١١) لاتهمل الترحم على والديك وتحر لهما من أعمال الخير والبر أكثرها نفعا وأرجاها قبولا . ومتى قمت لهما بهذا الواجب قام به لك ولدك .
(١٢) إن الله سخر لك أما كابدت كل مشقة حين حملتك وولدتك وأرضعتك ثلاث سنوات وربتك ولم تأنف من فضلاتك ولم تسأم معاناة تربيتك ولم تكل أمرك لغيرها يوما ما وكانت تبر أساتذتك وتواسيهم كل يوم ليعتنوا بتعليمك والآن صار لك أولاد فاعتن بهم كما اعتنت بك أمك ولاتغضبها لئلا ترفع يديها إلى الله فيستجيب دعاءها عليك .
(١٣) اترك لأخيك البيت المشترك بينكما متى رأيت ماينغصك حرصا على الرابطة العائلية واستبقاء لمودته حتى يكون معوانا لك فى مصالحك الأخرى المشتركة معه .
(١٤) إذا كانت زوجتك كاملة مدبرة فلا تعاملها بالخشونة والغلظة وراقب أطوارها لتكتشف أحوالها ولا تتسرع معها فى الغضب لئلا تزرع شجرة الشقاق والنزاع فى بيتك فتكون ثمرتها التنغيص فإن كثيرا من الناس يضعون أساس الخراب فى بيوتهم لجهلهم حقوق المرأة .
(١٥) إذا كنت قوى الإرادة فلا تدع المرأة تتسلط على قلبك .
(١٦) إذا وقعت عينك على جارتك فإياك أن تتمادى أو تتعمد رؤيتها ثانيا واحذر أن تخبر بذلك غيرك فتستوجب الهلاك .
(١٧) إياك أن تميل إلى امرأة تخلب بدينك وشرفك ولاتحدث ضميرك بشأنها فإنها كالماء العميق الذى لايعرف له قرار . وإذا كاتبتك امرأة تعرف أن زوجها غائب عنها لتوقعك فى شباكها فإياك أن تصبو إليها لئلا توقع نفسك فى حبائل الهلاك فإن الشهوات طريق للموبقات .
(١٨) لاتدخل بيت السكير ولوأغناك مجدا وشرفا .
(١٩) لاتتردد على محال الخمور احتراسا من عواقبها الوخيمة لأن شارب الخمر فلتات يستفظع صدورها

من نفسه مقاماً وأدق . وهو دائماً مبتذل محتقر عند الناس حتى عند إخوانه الذين يشاركونه في غروره وشروره .

(٢٠) النظام في البيت يكسبه حياة حقيقية.

(٢١) اسلك سبيل الاستقامة دائماً تصل إلى الرتب العلية .

(٢٢) كن شهماً شجاعاً فإن الجبان لا يستفيد من الحياة غير ما وهب الله له .

(٢٣) لا تجلس في حال وقوف من هو أكبر منك سناً ولو كنت أرقى منه رتبة.

(٢٤) الزم بيتك ولا تغادره إلا لموجب . وإذا لقيت في طريقك من يتجاهلك فغض طرفك عنه . وزر أصدقاءك وأحباءك .

(٢٥) إذا فاتتك فرصة فترقب غيرها .

(٢٦) لا تعاشر الأسافل لئلا تذهب هيبتك .

(٢٧) لا تكثر الكلام ولا تتظاهر بالفصاحة في التحقيق وتكلم بحجتك بعد التروي والتفكر فذلك أدعى لخلاصك .

(٢٨) لا تجرح بكلامك شعور الناس فيستهان بك .

(٢٩) لا تنطق بالشر فتعود عاقبته عليك .

(٣٠) إذا قاومت نفسك في مسراتها استطعت ردعها عن شهواتها .

(٣١) إنك لا تجني من الشوك العنب .

(٣٢) ليكن حديث كل إنسان في شئونه ولا يشتغل بشئون غيره .

(٣٣) إذا تخلقت باللطف والسكينة صرت محبوباً عند الناس ووجدت منهم عضداً ونصيراً في جميع شئونك.

(٣٤) ليست السعادة بالثروة وحيازة الأموال إنما هي في استنارة العقول بالفضيلة والتخلق بالقناعة والرضا والكفاف .

(٣٥) من تعود الجد والنشاط لا يحتاج إلى حث واستنهاض .

(٣٦) إذا رأيت مالا ترضاه في مجتمع فاجتنبه ولا سيما إذا كنت لا تستطيع التغلب على عواطفك .

(٣٧) إذا خاطبك رئيسك بحدة وانفعال فابتعد عنه حتى يسكن غضبه واستعمل اللين والرفق مع كل من يخاطبك بتهيج . فهذا هو الدواء الوحيد لذهاب غيظه . وعلى العموم إن الكلام اللين يجذب القلوب .

(٣٨) لا تستسلم إلى اليأس والقنوط مهما قام في سبيلك من العقبات والشدائد .

(٣٩) الزم الصمت إذا لم يكن داع للكلام

(٤٠) إذا اتخذت وكيلا فانتخبه أميناً عاقلا وثق به مع مراقبته، فإذا كان حازماً نسب لك هذا الحزم .

(٤١) لا تثق بالناس المجهولة مبادئهم ولو خدعوك بتقديم أنفسهم لخدمتك متظاهرين بالإخلاص فإنهم يجرونك إلى الخراب العاجل .

(٤٢) تنبه إلى أعمالك ولا تتهاون فيها فإن التهاون عاقبته الخيبة والفقر .

(٤٣) إذا كنت متبحراً في العلم فانقش علمك في صحيفة فؤادك .

(٤٤) إذا وليت منصباً فأظهر براعتك فيه فتؤهل نفسك لأرقى منه .

(٤٥) العالم ذو منزلة عند الكبراء وإن كان فقيراً، فعز العلم ثروته وجد العلم حمايته .

(٤٦) إذا جاء ضيف فأنزله منزلته من التحية والإكرام وتلطف معه لتعرف الغرض من زيارته ، ثم حادثه ببشاشة ولا تسمح له بالتطرف فى الحرية حتى يخرج عن حدود الاحتشام .

(٤٧) إذا أكلت وحولك من ينظر إلى طعامك فأطعمه منه ولوشيئا يسيرا ، فكم رجل كان فى نعمة ورئاسة فأصبح فى بؤس وتعاسة ، والنعمة لاتدوم إلا مع المحسنين .

(٤٨) لاتكن شرها فإن الإنسان لم يخلق ليأكل بل يأكل ليحيا حياة طيبة يجعلها طريقا للحياة الأبدية .

(٤٩) كل شيء يأتى عليه الدهر لابد أن يتغير وضعه حتى يفنى أثره ، ومن كان مطيته الليل والنهار فلا بد أن ينهار ، فكم تغيرت الأنهار بالجزر والمد من مبدأ خلقتها ، وإذا كان التغير والتحول من لوازم الطبيعة فلا يوجد رجل واحد ذو إرادة ثابتة .

(٥٠) الحب أعمى لأنه يصور قبيح المحبوب جميلا لشدة ميل النفس إليه ، فهذه وما قبلها ١٢٠ حكمة وقد جاء فى كتاب [الأدب والدين عند قدماء المصريين] غير ماتقدم مانصه .

﴿ ورقة لندن البردية . أمثال وحكم مروية عن الأديب المصرى القديم (أمنبت بن كانخت) منذ (٣٠٠٠) سنة تقريبا ، وجدت على الورق البردى المحفوظ بالمتحف البريطانى وتاريخها يرجع إلى الأسرة الثانية والعشرين ﴾

(١) احفظ هذه الوصايا واعمل بها تعش سعيدا ولا تهملها لئلا تحل بك النكبات والمصائب .

(٢) لاتسرق مال غيرك لئلا يقبض الله روحك فى لمحة بصر ويبدد أموالك ويخرب بيتك وتصير عبرة لمواطنيك ومضغة فى أفواههم فى حياتك وبعد مماتك .

(٣) إذا أذل الغنى فقيرا أذله الله تعالى فى هذه الدنيا وأذاقه عذاب النار فى الآخرة .

(٤) اجتنب سيء الخلق فإنه أحق بمقوت من الله والناس .

(٥) سبح الله تعالى واعص الشيطان .

(٦) لاتغالط شريكك أو زميلك فى الحساب فيبغضك الله وتشتهر بالغدر والخيانة .

(٧) لاتظهر أمام الناس غير ماتبطن فتخدعهم واجعل باطنك كظاهرك فإن الله يبغض الكذوب المخادع .

(٨) قيراط تحرزه من حلال خير من ألف تملكه من حرام .

(٩) لاتضيع أيامك فى مجال الفجور لئلا تعجل حتفك .

(١٠) اعلم أن لقمة خبز تأكلها فى بيتك فى حرية واطمئنان خير من أفخر طعام تأكله فى قصر غنى بذل وهوان .

(١١) لاتشغل قلبك بحب المال ولاتهلك قواك فى تحصيله فإن الرزق مقسوم وميسر لصاحبه بالحظ والنصيب

(١٢) لاتفرح بمال الظلم فإنه سريع الزوال .

(١٣) لا تذكر أحدا بسوء واجعل كلامك دائما فى الخير وابتعد عن الشر .

(١٤) كن دائما كريما مهذبا تكن محبوبا ومحمودا عند الناس .

(١٥) لاتتعمد رؤية جارتك وإلا كنت كالذئب فى خبثه .

(١٦) ولا تشته مال غيرك .

(١٧) لتكن جميع أعمالك صالحة فى هذه الدنيا .

(١٨) احترس من الأشرار واحذر عداوتهم .

(١٩) لاتتعد على مزرعة جارك ، وإذا أدت الحال إلى النزاع فخير أن تتخلص منه بحسن التفاهم .

(٢٠) كن ثابتا فى أعمالك ثبات الصخرة فى مكانها لايزعزعك شىء فى هذه الحياة الدنيا .
(٢١) إذا أطعت رئيسك جذبت قلبه إليك ، وا كتسبت ثناءه ، وا كتفيت شر عنفه وشدته .
(٢٢) لاتصادق على قول الكاذب لئلا يصدقه الناس بسببك فتكون شرا منه .
(٢٣) إذا كنت محبوبا ومحمودا عند الناس وأنت فقير خيرلك من أن تكون ممقوتا ومبذولا مع غناك .
(٢٤) لاتستمر فى مضجعك حتى مطلع الفجر .

وجاء فى صحيفة (٢٩) من هذا الكتاب أيضا مانصه :

(ورقة ليد البردية منذ ٢٥٠٠ سنة)

(١) لاتجعل كل همك فى تحصيل المال فإن الله يعطيه لمن يشاء .
(٢) إن الله يعطى القوة للعاقل لتدبير شئونه .
(٣) يرضى الغنى الله إذا أشبع الفقير لأنه ائتمنه على نعمه .
(٤) من أعطى الفقير أرضى الله عليه .
(٥) لاتخدع أحدا فيخدعك الناس .
(٦) لاتكلم الشرير ولا تعامله .
(٧) تعرف الأمين إذا أودعته مالا .
(٨) تعرف العادل إذا قلدته منصبا .
(٩) تعرف الصاحب عند الشدة .
(١٠) تعرف ابنك متى احتجت إليه .
(١١) الكثير الكلام تسهل معرفة باطنه .
(١٢) لاتعامل الكذوب فتسبب لنفسك إحنا .
(١٣) لاتقلد حقيرا أو صغيرا على المناصب فيستخف بك الناس .
(١٤) الرجل الصالح دائما يتذكر آخرته .
(١٥) أيام الفاقة كنز للعاقل .
(١٦) أعدت الجنة لمن يضحى حياته للفقير .
(١٧) ليست سعادة الإنسان فى تغذية جسمه بل فى تغذية روحه .
(١٨) اللياقة تقضى ألا تفخر بغناك أمام الفقير وألا تظهر الفرح أمام الحزين .
(١٩) لاتحرم الفقير من مالك فى حياتك حتى ترحم به بعد مماتك .
(٢٠) لاتغتب أحدا ولا ترفض نصيحة من حنكته التجارب .
(٢١) لاترفض كلام العاقل ولا كلام الرجل المنزه عن الغرض .
(٢٢) لاتكن مكثارا الكلام بل اصغ دائما لمن يكلمك ولا تقاطعه .
(٢٣) لاتتشاحن مع من لايعرف قدرك .
(٢٤) لاتنطق بهجر القول فى بيتك لئلا يقتدى بك أهلك .
(٢٥) لاتعلق قلبك بامرأة تذهب بحنانك .
(٢٦) المرأة الجميلة توصف بالعقل إذا لم تمل إلى التكبر .
(٢٧) المرأة العاقلة تسعد زوجها ، والمرأة الشريرة تجعله دائما فقيرا .

(٢٨) ابتعد عن كل طريق يقربك من الشيطان .
(٢٩) قليل فى حوزتك خير من كثير يبعد تناوله .
(٣٠) لا تطمع فى ادخار المال لأنك تجهل هذه الحياة ، ستترك غدا مالك فيتمتع به غيرك .
(٣١) لا تقدم على أذى ولو أدى لتمليكك الدنيا ومافيها .
(٣٢) لاتهم فى ارتكاب المحرمات فإنها تضيع نصيبك فى العالم الثانى .
(٣٣) العاقل من ادخر المال لأيام البؤس .
(٣٤) لاتعنف سيء الخلق أمام الناس لئلا يهينك . انتهى ماأردت ذكره من حكم قدماء المصريين .

﴿بهجة الحكمة فى قوله تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة) الخ﴾

(مقدمة)

هذه الآية أفهمتنا سر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء . أوتى لقمان الحكمة ويقول الله تعالى «يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» إذن الحكمة ليست خاصة بلقمان ، الحكمة نور من الله كنور الشمس والقمر والكواكب ولو حصرت فى لقمان لكان ذلك مخالفا لناموس الله فى عوالمه فهو واسع الرحمة رءوف بالناس . إذن الحكمة يعطيها الله لمن يشاء ، يقول الله (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) فها هو ذا سبحانه مدح الحكمة بأنها تنتج الخير الكثير . إذن أصبحت الحكمة من علوم الدين الإسلامى ، ومعنى هذا أن كل حكمة ألهمها الله لأى امرئ فى الأرض من عربى وعجمى قديما وحديثا هى من علوم الإسلام وكفى بهذا حكمة وعلما . وإياك أن يصدك عن هذا أيها الذكى مايقال لك إنه لم يرد فى كتاب الله ، أو يقال لك إذن إذا خالفت الحكمة كتاب الله فلانتبعها فهذا قول من لا محصل عنده فأما ورودها فى كتاب الله فها هى ذه الآية التى نحن بصددها ، وأما مخالفتها لكتاب الله فهو مستحيل لأنا قلنا إنها حكمة والحكمة لاتقبل النقض ولا الشك وما كان معقولا موافق لكتاب الله تعالى ، فأما ما لايقبله العقل فليس حكمة والقرآن حض على التعقل والتفكر (مثال ذلك) جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والنفسية فهى حكمة والحكمة خير كثير ودين الإسلام يدعو إليه . إذن المسلمون يقبلون كل حكمة من أى أمة من أمم الأرض وتكون تلك الحكمة علما من علوم الدين . وهذا أصل بديع أورده الله فى هذه السورة حتى إذا قرأنا حكم قدماء المصريين وآدابهم وآراءها معقولة قلنا هذه الآراء ترديد لصدى صوت الإسلام وهى من ديننا لأن ديننا جاء لتعليم العالم كله ورسولنا خاتم النبيين والله يقول « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » فالديانات والمعقولات كلها قد اتحدت فى هذا الاسلام ، فالاسلام كما جمع الديانات جمع العلوم ، وليس معنى جمعه للعلوم أنه شرحها فهذا مستحيل ولو شرح الديانات فى آلاف المجلدات لم يكن دينا بل هو شيء آخر غير الدين نسميه بحسب ما نراه ، وإنما معنى جمعه للعلوم أنه يدخلها فى ضمن معتقداته وأعماله . إذن المسلم فى المستقبل بعد هذا التفسير يقرأ كل حكمة وكل علم فى الشرق والغرب . ويقرأ علوم الألمان والإنجليز وأهل سويسرا والرومان ويدرس علوم حكمائهم ثم يصبح هو له رأى خاص فى ذلك كله فيكون إذن ممن أوتى الحكمة وإذن له خير كثير . فإذن الله عز وجل لم يفتح على الناس كلها بالحكمة ويحرم المسلمين منها . كلا . إن الله يقول « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » والرحمة ليست خاصة بغير المسلم ولا الحكمة ، بل المسلم أولى بها من كل الأمم لأنه يدعو الناس إلى سعادتهم وإلى رقيهم .

يا أمة الإسلام ، أنت بعد اليوم راعية الأمم ، مهذبة الشعوب ، إن آباءنا بعد العصور الثلاثة التي هي خير العصور قد تفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فلم يتفرغوا لإسعاد الأمم تفرغا تاما « ثم خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » وأنا أرجو أن يكون خلفنا خيرا من سلفنا الأقربين فيقرءون حكم الأمم وعلومها وسياساتها وصناعاتها وهم يعتقدون أن ذلك من الدين ويقرءون « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » ويقرءون « قل هو يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

إذن لا حاجة إلى أنبياء بعد نبينا ، لماذا ؟ لأن الأنبياء يأتون لتذكير الناس بما نسوا والله سبحانه أخبر أنه اختص أناسا بالحكمة يخلقهم حيث يشاء . والحكمة الملقاة على الناس في الأزمان المختلفة قد أصبحت جزءا من علوم الاسلام . إذن كل حكمة صدرت من حكيم أيا كان هي إسلامية ، إذن إرسال الرسول بعد هذه الآية عبث ، فإذا قيل إن الأمم تختلف أطوارها باختلاف أزمانها قبل لنا وما فائدة الحكمة التي يلقيها الله على قلوب عباده . ولا جرم أن هذا هو كمال الإنسانية لأنها إذا كان تعليمها بواسطة حكمائها المتبعين لوصية نبي كان ذلك ارقى وأشرف من إرسال رسول لأن الرسول إنما يرسل لقوم ناقصين جهلوا الحكمة . أما هذه الأمم فإنها تعترف بالحكمة وتعمل بها وتقول هي من وصايا كتابنا وديننا وهذا معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين . ألا ترى أنا إذا رأينا رجلا منا نظر إلى الغابات والحقول والمعادن فقال هذه لكم فانتفعوا بها وعلمنا كيف يكون ذلك قلنا هذا الرجل رحمة لنا ، فإذا رأينا آخر حرم علينا ذلك الانتفاع أو منعنا منه فاننا نقول ذلك الرجل نقمة لا رحمة . ولا جرم أن نتائج العقول كنتائج الأرض ، فإذا سمعنا الله يقول « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وسمعناه يقول « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وسمى سورة باسم لقمان تشريفا للحكمة أيقنا أن هذا الدين يسوقنا إلى الحكمة جميعها برغبة وشوق وهذه الحلة الواحدة جعلت ديننا يبتلع كل علم في الأرض وكل حكمة . إذن نقول هذا النبي رحمة لأنه أشبه أفضل الرجلين في مثالنا إذ به أغتنما كل فرصة للانتفاع بالمنافع الأرضية ، فهكذا هنا في الحكمة فانها قد أصبحت جزءا من ديننا وليس ينقصنا إلا المجالس العامة التي سأذكرها حتى تروجها وتنفعها .

هذا معنى كونه ﷺ رحمة للعالمين وأي رحمة أعظم من الحكمة العامة . وبناء عليه تصبح الأمم الإسلامية في المستقبل خيرا من تلك الأمم الحالية رافعة للانسانية خافضة للهمجية .

ولعلك تقول إذن كل مسلم له الحق أن يتبع أي حكمة وينسى القرآن . أقول لك أنسيت قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون » .

لكن هناك مجلس عام في مكة وغيرها . وهذا المجلس لا يصح التئامه إلا بعد شيوع التعاليم العامة في بلاد الإسلام . وهذا المجلس ينظر في الأمور العامة لأمم الإسلام ولا يصلح لهذا المجلس إلا من قرأ فوق علوم الإسلام علوم الأمم والرياضيات والطبيعيات لا غير لأن الذين لا يقرءون تلك العلوم يجهلون نظام الله ونظام الأمم والجاهلون بذلك لا يصلحون للقيادة في هذه الشعوب ، وهؤلاء الأعضاء ينتخبون من المجالس العلمية الخاصة في كل إقليم من أقاليم الإسلام ، فهؤلاء هم الذين لهم الرأي الحق وهم هم الحكماء الذين قال الله فيهم « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا » وهذا الخير الكثير يفيض منهم على الناس . إن الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك .

فقل لي رعاك الله ، أليس هؤلاء الذين سيكونون بعدنا خيرا من أولئك الذين ناموا على الوضوء والنجاسة والطهارة والحيض والنفاس والبيوع وتركوا بقية كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . اللهم إني أحمدك على العلم والحكمة . أنت اللهم المنعم المتفضل الرءوف الرحيم .

﴿ بهجة الحكمة أيضا فى هذه الآيات، وبيان أنها تشمل سائر علوم الحكمة وأنها مقسمة « ستة أقسام » ثم أذكر نموذجا مما أنتجته عقول الفلاسفة قديما وحديثا وأنه تفصيل لهذه الآيات (كما ذكرت سابقا آداب قدماء المصريين التى ظهرت حديثا) وأجمل ماجاء عندفلاسفة اليونان والرومان وهكذا . ثم نقفى ببيان الطرق التى استعملها آباؤنا فى التشويق للفلسفة بالحكايات اللطيفة والروايات الظريفة ﴾

يقول الله « ولقد آتينا لقمان الحكمة » آتى فعل ماض وآتا فاعل والحكمة مفعول ، فهذه الحكمة آتاها الله لقوم فى الزمان الماضى ، ولا جرم أن التكلم على الماضى ما هو إلا تاريخ . إذن هذه الآيات بها يقص علينا الله تاريخ الفلسفة لأن الحكمة بالعربية هى الفلسفة باليونانية . وحينئذ ننظر هل هذه الآية فيها أقسام الحكمة التى عند الأمم . فنظرنا فوجدنا أن هذه الآيات فيها :

(١) توحيد الله « يابنى لا تشرك بالله » الخ .

(٢) وأنه عالم قادر « يابنى إنها إن تك » الخ .

(٣) وأنه سخر لنا مافى السموات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وهذا فى قوله تعالى « ألم تر أن الله سخر لكم » الخ .

(٤) وأن يكون عابدا « يابنى أقم الصلاة » .

(٥) ذا أخلاق حميدة « واصبر على ما أصابك » «ولاتصعر خدك للناس» الخ .

(٦) عاما نفعه للناس « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » الخ .

إذن ملخص الآية أن يعتقد المرء أن ربه واحد . وأنه عام القدرة والعلم ، وأن نعمه سابغة ، وأن جميع السموات والأرضين مسخرات لنا ، وأن يكون المرء حسن الأخلاق كالصبر وعدم الكبر ، وأن يفيض على الناس مما آتاه الله فالله نعمه عامة فليكن العبد منعما بقدر توفيقه .

فهذه الأقسام التى عددنا ستة ، يجب أن نعرض عليها أجمل ما جاء فى تاريخ الفلسفة الحديث فإن وافقتها كان ذلك فتوحا جديدا فى الاسلام وكان هذا دليلا جديدا على أن أمة الاسلام فى القرون المتأخرة كانت عاجزة عن دراسة هذا القرآن وأن الأجيال المقبلة ستعلم علم اليقين أن حكمة الأمم هى الحكمة القرآنية وإليك البيان .

فيا الله أنت خلقت أمما قبلنا وأودعت فى عقولهم حكما فأخذنا نقرؤها اليوم ونظرنا فى كتابك فدهشنا يا ربنا وأى دهش . وكيف لا ندهش ونحن نسمع الناس قديما وحديثا يقولون : الدين يخالف العلم ، فإذا كانت هذه الآيات منطبقة على آراء الأمم فما أكذب القائلين وما أجهل أمما تقرأ القرآن وتجهل علوم الأمم يقرءون سورة لقمان ويسمعونك تمدح الحكمة وكأنهم فى واد والقرآن فى واد . فها أنا ذا أجتزئ بنبذ من تاريخ الفلسفة ولكنى لا أجهد أذكياء القراء بعويصات المسائل بل أعطى اللب وأنبذ القشر وأبتدئ بالكلمة التى اعتاد الناس أن يجعلوها مرادفة للحكمة وهى الفلسفة .

إن كلمة الفلسفة أصبحت اليوم تطلق عند الناس فيما كان من قبيل المناقشات التى لا نفع فيها أومن قبيل ما خرج عن متناول العقول وهذا خطأ ، وإنما هى والحياة أمران متلازمان ، فإن الإنسان منذ خلق ورأى شمساه وقمرا ونجما وسحابا تنبهت قواه وفكر فى الكون ومبدئه ونهايته وظن المخلوقات الكثيرة آلهة كثيرة ثم اهتدى فوجد أن الإله واحد . يقول الأستاذ (كنجمهام) فى كتابه (مسائل الفلسفة) مانصه :

لكل

لكل إنسان (ولو لم يكن له نصيب وافر من التعليم) نوع من الفلسفة . فله رأيه في معنى الحياة وطبيعتها وغايتها . وفي الوجود والعدم . وفي العقل والجسم . وعلاقة كل واحد منهما بالآخر . وفيما قد يصيب الانسان في هذا العالم من سعادة أو شقاء وفقر أو غنى وصحة أو ضعف ، وفي الحياة بعد الموت ، وفي الخير والشر والطيب والخبيث من الأفعال ، وفي الإله وصفاته وعلاقته بالطبيعة عامة من جماد ونبات وحيوان ، ولا شك أن هذه فلسفة . غير أن عقله لم يتناولها بالتحليل والتمحيص ولم يقم الدليل على صحتها .

لقد جعل (فرانسيس بيكون) العلم ثلاثة أقسام : قسم يتعلق بالذاكرة ، وآخر بالمفكرة ، وثالث بالقوة المخيلة ، والذي يتعلق بالقوة المخيلة هو الشعر والموسيقى والنقش والتصوير لأن هذه ترجع إلى الخيال والقسم المتعلق بالذاكرة هو التاريخ والتاريخ أثرى وبشرى : فالبشرى هو التاريخ المعروف ، والأثرى هو المذكور في الكتب السماوية ، ومن التاريخ البشرى تاريخ العلوم الرياضية والطبيعية وهكذا ، فجميع ما يدرس في مدارس العالم من الطبيعة والفلك والحساب وأمثالها كلها داخلات في قسم التاريخ مندرجة في ضمن أعمال الذاكرة ، فأما العلم المتعلق بالمفكرة فهو نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، وهذا القسم هو المسمى فلسفة ، فإدراك ارتباط العوالم بعضها ببعض وتحقيق ذلك الارتباط ونسبة ذلك إلى الحقائق العقلية التي غابت عن الحس ومعرفة النفس وقواها والمنطق وعلم الجمال وعلم الأخلاق والسياسة . كل ذلك داخل في علم الفلسفة .

هذا رأى (فرانسيس بيكون) فيا سبحان الله ، إذا كانت هذه هي أقسام الفلسفة عند (بيكون) وهذا هو الرأى الحديث فلننظر في القرآن وفي الأقسام الست المتقدمة وهذه الآيات . أليست هذه الأقسام هي عين القسم الثالث من المذكور في الآيات المتقدمة . يقول الله « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ولا جرم أن ما في السموات وما في الأرض المسخر لنا لم يخرج عن الأقسام التي قالها (بيكون) أليست العلوم الطبيعية والفلكية والرياضية التي جعلت علوما هي مقدمة للفلسفة مما في السموات والأرض ومن النعم التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة فهي نعم ظاهرة لأجسامنا ونعم باطنة لعقولنا بالحكمة . ألم تذكر هذه في حيز الكلام على الحكمة ، أليس نظام الطبيعة ونفس الانسان مما في السموات والأرض الخ .

هذا ما نقوله من حيث الرأى الحديث للتقسيم العام ، فاذا أردنا أن ننظر آثار العقول فها كها :

(١) ﴿ شذرة من فلسفة الصين ـ رأى (كنفيوشس) هو فيلسوف صيني ﴾

وجد القوم معرضين عن إصلاح أنفسهم فقال لهم : إن في هذه الموجودات عالما روحيا لا يحيط به عقل الإنسان ولا يدرك فهمه ، ألا أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم وفي استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الذكاء أن يلج بابه ؟ ذلك هو عالم الواجب الذي يسلك بصاحبه سبيل السعادة والواجب هو ما يتطلبه منك يومك وساعتك .

(٢) ﴿ شذرة من فلسفة الهند ﴾

لقد تقدم في سورة (آل عمران) وغيرها ذلك كثيرا .

(٣) ﴿ شذرة من فلسفة اليونان ﴾

لقد تقدم كثير منها وسنشرحها شرحا وافيا عند قوله تعالى . «فاعلم أنه لا إله إلا الله » ولأ كتف الآن منها بما قاله (اكسنافنس ٥٧٠ ـ ٤٨٠ ق م . تقريبا) .

ولد هذا الفيلسوف في (ايونيا) ولما احتلها الفرس هاجر منها مع من هاجر ، ومازال يضرب في الأرض

ورحل من مكان إلى مكان حتى ألقى عصا التسيار فى (أليا) بعد أن زار (صقلية) وبلاد اليونان ورأى فيها انحطاطا فى الأخلاق وضلالا فى العقائد الدينية ، وانبرى لهومر وهزيود وأنحى عليهما باللائمة وسخر من شعرهما واستخف بآرائهما لأنهما يصفان الآلهة بأوصاف شائنة كالسرقة والزنا والخداع ونحوها . وأعلن أن الله لا أول لوجوده ولا مثيل له وجميع العوالم فى قبضة يده ، لاشريك له فى ملكه ، فهو الواحد الذى يتصف بجميع صفات الكمال لا إله إلا هو تعالى عن شبه الحوادث ، فليس له يد ولا عين ولا أذن ولكنه يسمع ويرى ويبطش ويدبر شئون العالم بحكمته وعلمه ، وقد يتبادر إلى ذهن القارىء أن هذا الفيلسوف وصل إلى الايمان الحقيق بوحدة الله ، ولكن كلامه مضطرب يدل بعضه على أن الإله والعالم شىء واحد وعلى أنه أعظم الآلهة ، وقد يشعر بعض عباراته بالتعدد اه .

أليس هذا القول الذى عرفه هذا الفيلسوف بعقله بلا وحى ولا نبى هو الذى جاء فى هذه الآيات فى قوله تعالى «ولقد آتينا لقمان الحكمة» إلى قوله «يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم» .

يا سبحان الله ، هذا نبى عربى فى جزيرة قفراء أنزل الله عليه الوحى بما كدح فيه وجد ونصب فيلسوف نزه الله بعقله ، سبحانك اللهم أنزلت القرآن وتلطفت وقصصت لنا قصة التوحيد عن لسان فيلسوف حكيم ، ترشدنا أن نكون فلاسفة حكماء ، وتقول لنا أنا قلت لنبيكم ولكم «فاعلم أنه لا إله إلا الله» وقد عرف هذه الحقيقة قبلكم حكماء رمزت لكل منهم بلقمان ، فهم وحدونى ولم أوح إليهم ، ففكروا ياعبادى واعرفونى بعقولكم كما عرفنى هؤلاء لأن هذه حكمة ومن خير كثير ، فهذه الفلسفة التوحيدية التى نفت التعدد ونفت الأصنام هى نفس القسم الأول من الأقسام الستة فى الآيات المتقدمة .

ومن عجب أن الفلاسفة الطبيعيين من الأمم السابقة الذين يقولون إن العوالم كلها ترجع إلى ذرات دقيقة جدا تتصادم وتتكون منها جميع هذه العوالم ، فهؤلاء اضطروا أخيرا أن يبحثوا عن الخير والشر وماهية السعادة وسبيل إدراكها فعرفوا الشر بأنه كل مايصدم النفس ويسبب اضطرابا فى ذراتها ذات الحركات الحادثة المؤتلفة ، ولهذا يجب على الإنسان أن يجتنب كل التجارب التى تثير فيه أنواع الشهوات المختلفة وضروب الانفعالات القوية ، وعندهم أن السعادة غاية الحياة وقد قالوا إنها ليست فى امتلاك الماشية والضياع الواسعة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وإنما مقامها المقدس ومقرها الأمين نفسك التى بين جنبيك ووسيلتها الذكاء والحكمة ، وأجدر شىء بالإنسان أن يرغب فى الجميل اللائق ويستمتع به ويتغالب على شهوات نفسه ويكتفى بالقليل من العيش ويكف عن فعل الشر وإرادة الشر .

ألست ترى هذا المذهب داخلا فى قوله تعالى فى هذه الآيات السابقة «ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك» الخ فان هذه ترجع إلى الأخلاق وهذه الفلسفة شرحتها . إذن هذه فى القسم الخامس المتقدم من الأقسام الست .

وإذا تتبعنا الفلاسفة وجدنا سيدهم (سقراط) الذى وقف حياته على الفلسفة . وهاك شذرة من تاريخه

﴿ سقراط — ٤٧٠ — ٣٩٩ ق . م ﴾

هو زعيم الفلسفة اليونانية وشيخ المفكرين والمثل الأعلى للبطولة والنبوغ ، ولد فى عصر كانت (أثينا) تموج فيه برجال الأدب وأساطين العلم وأبطال السياسة ومصاقع الخطباء ، وتلقى التربية الأثينية حين كان غلاما ولم يمنعه نسبه أن يصل إلى منصب من أكبر المناصب فى (أثينا) .

وقف يوما أمام القضاة وقد اتهمه أعداؤه بأنه مخالف لدينهم ، مفسد لشبانهم ، فقال «لو أنكم قلتم ياسقراط إننا لن نسمع دعوى (أنيتس) هذه المرة ، وسندعك تغدو وتروح فى ربوع (أثينا) ولكن على

شرط أن تترك تعاليمك وأبحاثك وفلسفتك ، فإن وجدناك بعد اليوم مشتغلا بمناقشة الشبان والبحث معهم في مسائل فلسفية ما كان لك من الموت منجى. لو أنكم قلتم هذا لقلت لكم أيها الأثينيون انى أحترمكم وأحبكم وأعرف لكم منزلتكم ولكنى أوثر طاعة الله على طاعتكم ، ولن أكف عن الفلسفة والاستماتة فى الحق وإسداء النصح إليكم ما دام فى عرق ينبض ونفس يتردد بين أحشائى حتى إذا لقى الرجل أخاه قال له فى صراحة أليس من العار أن تكون (أثينا) عظيمة عامرة ولا يعنى أهلها إلا بالمال وحب الشهوة ويتركون الحكمة وسبيل الحق ولا يهتمون بتهذيب أنفسهم » .

وقد حكى لنا التاريخ أن واحدا من أصحاب (سقراط) المخلصين له وجه إلى كاهنة (دلفى) السؤال التالى [هل بين بنى الإنسان أحد أعقل من سقراط ؟] وكان الجواب [حقا إن سقراط أكثر الناس علما وحكمة] فلما بلغ (سقراط) الجواب دهش له وكان بين أمرين لا ثالث لهما ، فاما أن يكذب قول الإله وهذا مالا يستطيع فعله وإما أن يعتقد فى نفسه العلم والحكمة وهو لا يرضى ذلك لأنه يجهل كثيرا من الحقائق ولهذا أخذ ينتقل من مكان إلى آخر ويقصد الذين اشتهروا بالعلم والحكمة ويناقشهم فى المسائل المختلفة حتى يعرف مبلغ ما وصل من العلم . وتبين له فى النهاية أن الجهل المطبق غلب على قلوب الناس وأعماهم عن إدراك الحقائق وخدعهم حتى اعتقدوا فى أنفسهم العلم وهم عنه بعيدون . وعندئذ أدرك (سقراط) أن الناس مغرورون كاذبون فى دعوى العلم . أما هو فجاهل معترف بجهله . ولعل هذا هو السبب الذى جعله عند الله الحكيم المفرد . لذلك لم يترك مسألة إلا حاور فيها . فقد تناول السياسة العامة والآراء الشائعة فى زمنه ، والمبادىء الخلقية ، ونظام الحكومة ، وأساليب التربية والغرض منها ، والموت وما بعده ، والنفس وما أعد لها من نعيم مقيم أو عذاب أليم ولذ له الحوار فيها كلها وتشعبت به الطرق حتى أن الانسان ليجد صعوبة فى تحديد موضوع فلسفته .

وانظر إلى نوع محاوراته . فإليك ما دار بينه وبين أحد تلاميذه .

« محاورة بين سقراط وتلميذه سمياس »

(سقراط) وما رأيك يا سمياس نبأ بأنى [هل تعتقد أن هناك شيئا اسمه العدل المطلق . والجمال المطلق والخير المطلق ؟] .

(سمياس) نعم إن لهذه الأشياء وجودا .

(سقراط) هل رأيت واحدا منها بعينك ؟

(سمياس) كلا .

(سقراط) هل تفهمها بإحدى الحواس ؟ وهل ندرك المعانى الذهنية ونتأملها بجسومنا ؟ أليس من الضرورى أن نغض الطرف عن حاجات البدن وقت التفكير ؟ ألست تعتقد أن المعانى الذهنية وحقائق الأشياء إنما تتجلى للانسان إذا تجرد عن عالم الحس والمشاهدة واعتمد على العقل الخالص .

(سمياس) لقد وفقت إلى الصواب فيما تقول .

(سقراط) إن هذا يحتم على الفلاسفة الذين ينشدون الحكمة أن يفكروا فى السبيل التى تصل بهم إلى غايتهم مسترشدين بهدى العقل المحض . وليس فى استطاعتنا أن نصل إلى الغاية مادامت الأجسام مقترنة بالنفوس فإن تحصيل حاجات الجسم يستغرق فى الوقت كله ويعوقنا عن التفكير ومتابعة البحث وراء الحقيقة والآفات والعلل تعترينا بسببه . هذا إلى أنواع من البلاء والمحن

تدفعنا إليها الشهوات والمطالب المادية . وإذا كان لنا أن نحصل العلم وندرك الحقائق فإن ذلك لا يكون إلا إذا تجردت النفس عن جميع المشاغل الدنيوية وتحصيل حاجات البدن اهـ .

هذه شذرات من فلسفة (سقراط) فإذا نظرنا إلى صبره وأناته وأمره ونهيه فهذا كله جاء في قوله تعالى « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك » .

أليست هذه فلسفة (سقراط) رجل يأمر وينهى ويصبر على الأذى حتى ذاق الموت في سبيل هداية الناس . إذن الآية أدخلت فلسفة سقراط فيها . وإذا فكرنا في أنه هو أول من حقق مسألة وحدانية الله وأنه محيط بالعوالم الكلية والجزئية . فهذا أيضا من القسم الأول والثاني من أقسام الآيات المتقدمة .

وإذ فرغنا من الكلام على فلسفة (سقراط) فلنتبعها بفلسفة تلميذه أفلاطون فنقول :

(أفلاطون ٤٢٧ - ٣٤٧ ق . م)

ولد في (أثينا) وهو من نسل (سولون) الحكيم المشترع المشهور ، وفي أيامه نشأت الحرب (البلوبونيسية) قبل أن يولد هذا الفيلسوف بنحو أربعة أعوام ، دارت رحاها بين (أثينا) و (أسبرطة) ثم امتد لهيبها حتى شملت بلاد اليونان جميعها واستمرت زمنا طويلا يقرب من ربع قرن وصحبها مايصحب الحروب العامة من سفك الدماء وإزهاق الأرواح وتخريب الأبنية وتبديد الثروة وتغير أنظمة الحكم ، وكان من جرائها أن فقدت (أثينا) تلك المنزلة السامية التي كانت لها بين الولايات اليونانية .

شب أفلاطون في هذا العصر وجرب ويلات الحرب وشاهد كثيرا من النزعات السياسية وعرف مايقاسي الناس من أنواع الحكومة . ولم يفته أن ينتفع بهذه التجارب ويسوقها للإيضاح في كتبه ، ولو انك تأملت كتابه [الجمهورية] لتبين لك أن الأمثلة الكثيرة التي يؤيد بها دعواه مستمدة من تجاربه المتعددة النواحي وانقطع للتعليم مدة (٤٠) عاما كان في أثنائها بعيدا عن الأمور العملية ومشاغل السياسة ومستغرقا في تأملاته ونظرياته الفلسفية . ولعل هذا هو الذي جعل فلسفته منقطعة الصلة بالحياة وضاربة إلى الجانب الخيالي على العكس من فلسفة (سقراط) ابن الشعب وربيبه . ولما استكمل إحدى وثمانين سنة من عمره مات ودفن بالبساتين في (أكاديميا) وتبع جنازته كل من كان بأثينى .

وقد كان يرى أفلاطون أن المجتمع الكامل يتكون من (ثلاث طبقات : الأولى) طبقة المنتجين وتشمل الزراع والصناع ووظيفتها تحصيل الغذاء ومؤن الجماعة (الثانية) طبقة الجند وعملها توسيع رقعة المملكة وحفظ كيانها ودفع الغارات عنها (الثالثة) طبقة الفلاسفة . ولها الزعامة الفكرية وولاية الحكم وعليها أن توفق بين العناصر المختلفة حتى ينقطع كل واحد لتأدية الواجب عليه . وإذ ذاك يسود العدل وتتحقق السعادة : هذا هو العدل في المجتمع . أما في الفرد فهو ائتلاف قوى النفس وتعاونها وقيام كل قوة بعملها .

وللنفس قوى ثلاث قياسا على المجتمع (أولاها) القوة الشهوانية وعملها تحصيل حاجات الجسم من طعام وشراب وفيها جماح وميل إلى الشر ومركزها البطن وفضيلتها العفة (وثانيتها) القوة الغضبية ووظيفتها الدفاع عن الجسم وحفظه من الأذى ومقرها القلب وعدتها الشجاعة والصبر (وثالثتها) القوة الفكرية وموطنها الرأس وهي التي تستجلي الحقائق وتدبر شئون الإنسان العامة والخاصة وفضيلتها الحزم والحكمة . وإذا تأملنا الناس وجدناهم (ثلاثة أصناف) صنف تتغلب عليه القوة الشهوانية ويقضي حياته في تحصيل المال وما يتبعه من اللذات . وصنف تسوقه القوة الغضبية إلى محبة الخصومة واستكمال أسباب الشهرة وبعد الصيت . وصنف تدفعه القوة الفكرية إلى استجلاء الحقائق . ولكل صنف من هؤلاء نوع من السرور يستمتع به . ولو أنك سألت واحدا من كل صنف عن مبلغ ما يلاقي في حياته من سرور لوجدته يفضل حياته على غيرها . فجامع المال

يرى فى انقطاعه إلى عمله سرورا لاحد له . ومحب الشهرة يرى أن المال عرض زائل وأن العمل متعب باطل إلا إذا كان من ورائه شهرة واسعة وذكر بعيد ، وطالب العلم يحقر المال والشهرة معا ويجد السعادة فى استجلاء الحقائق والوقوف على أسرار الله فى خلقه ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أين لنا أن نتبين الرشد من الغى ونهتدى إلى مكامن السعادة ؟ إن صحة الحكم تتوقف على سعة التجارب ورقى المدارك والحكمة ، فطالب العلم هو الذى يستطيع أن يقضى فى هذا الموضوع بالعدل ، فقد تملك الأشياء وجمع المال وهو صغير ، وجرب احترام الناس له وأفاده علمه الحكمة ، وعلى ذلك أحسن أنواع السرور ماينبعث فى النفس ويملأ جوانبها إذا وجدت لذة العلم ، وحياة العالم مليئة بالسرور الذى لايعقبه ألم . أما الذين لايعرفون للحكمة طعما ، ولا يذوقون الفضيلة حلاوة ويقضون حياتهم فى الاستكثار من ألوان الطعام والشراب وصنوف اللذائذ فإنهم كالأنعام يملئون بطونهم ويتناسلون ويشعرون بقوة فى جسومهم فيعتدى بعضهم على بعض ويقتتلون حتى لاتبقى منهم باقية .

هذا ماأردت ذكره فى فلسفة (أفلاطون) فلأتبعه بذكر [المذهب الأبيقورى] وينسب إلى أبيقور (من ٣٤١ — ٣٧٠ . ق . م) ويتلخص فى أن الخير الأسمى نوع من السرور يملأ النفس ، وفى أن السرور (قسمان) جسمى مملوء بالاضطراب سريع الزوال ، وعقلى هادئ دائم ، ولا يستطيع الثانى إلا من قللوا رغائبهم وجعلوا مطالبهم محصورة فى الضرورى دون سواه وقد أساء فريق من الناس فهم هذا المذهب وظنوا أنه يدعوهم إلى الأخذ بأنواع السرور والتمتع باللذة العاجلة فاستباحوا لأنفسهم كل شىء وجروا وراء شهواتهم البهيمية . وأختم القول بما جاء فى حكمة الرومانيين على لسان حكيمهم (سنيكا) وهذا نصه :

سأقابل الموت بوجه باسم ، وأرى مشاهد الحياة ، وما يجلبه القدر ، خيره وشره ، مطمئن النفس ، هادئ البال ، وسأقوم بنصيبى من أعباء الحياة مهما كان ثقيلا مستعينا بمالى من قوة عقلية إذا وهن الجسم وعز النصير ، وسأحتقر الغنى واليسار سواء أكان لى منه نصيب أم لم يكن ، ولن يملأ قلبى السرور إذا أقبلت الدنيا على بخيرها . ولن تغيض النفس أسا إذا أدبرت عنى وتولت بزينتها ، وسأعتبر جميع بقاع العالم وطنالى ووطنى ملكا لبنى الانسان جميعا . وسأذكر دائما أنى خلقت لغيرى وأشكر الله على ذلك إذ ليست هناك غاية أشرف من هذه فقد وهبنى للجماعة ووهبت الجماعة لى وسيدفعنى إلى خير العمل ضميرى وذمتى وسأصفح عن المذنب قبل أن يسألنى الصفح . ولن يغيب عنى أن الدنيا بأسرها مدينتى التى ولدت فيها . وسأجيب داعى الموت طائعا وأشهد الناس جميعا أنى أحب طهارة الضمير ونبل الغاية اه .

هذا مااصطفيته من فلسفة الأجيال الفائتة وهى كلها فى تهذيب الأخلاق ومعرفة العالم ونفع الأمم ، وتأمل كلام (سنيكا) فهو ينطق بقوله تعالى فى هذه الآيات « واصبر على ما أصابك » وقوله « ولا تصعر خدك للناس » الخ . وههنا أقول لأمم الاسلام هذه عيون حكمة الأمم التى عرفوها بعقولهم ، فلما جاء الاسلام وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم القرآن أدرك هذه المعانى أصحابه كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ففتحوا الأمم شرقا وغربا ثم نام المسلمون نوما عميقا ، نبى جاءه وحى لخص فلسفة الأمم التى لم يقرأ عنها حرفا ولم يدرس كتابا فهز الأرض هزا بعلمه وأصحابه بعده ، أليس هذا هو قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهؤلاء الفلاسفة عرفوا الصبر والثبات ومحاسن الأخلاق وحب الله ونفع الناس والخوف من ربهم بمجرد بحثهم بالعقل فلما جاء نبينا صلى الله عليه وسلم أوحى الله إليه هذا كله ، إذن هذه أكبر معجزة ولقد تبين لى حقا وصدقا أن الأجيال المقبلة بعد هذا التفسير هى التى تفهم معنى قوله تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » وهم هم الذين يعقلون آية « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وهم المؤمنون الأعلون شرفا ، فياليت شعرى ماذا حل بآبائنا الأولين بعد العصور الأولى ، كرهوا العلم وكرهوا الحكمة فانقطعت صلتها بينهم وفرت هاربة إلى أوروبا وبقى الصوفية وعلماء ظواهر الدين و « سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

والنجم من بعد الرجوع استقامة   وللشمس من بعد الغروب طلوع

ولما وصلت إلى هذا المقام اطلع على هذا أخى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير فقال لقد أحسنت صنعا وأجدت وضعا وأبنت كيف كانت نتائج العقل الانسانى فى القرون الأولى هى هى نتائج الوحى المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم وكيف يفهم الناس « ولقد آتينا لقمان الحكمة » وكيف يدركون مغزى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» وانى ليدهشنى أن أرى أبا بكر وعمر وأمثالهما ساروا فى حياتهم وطرق أعمالهم على النهج الذى رسمه القرآن وكانت النتائج أشبه بما يقوله هؤلاء الحكماء ، فها هو ذا عمر رضى الله عنه قد جاهد فى الله والحق حتى قتله أبو لؤلؤة غيلة ، ومثله سيدنا على لقيامه فى أعماله بالقسط والعدل قتل غيلة ، وهانحن أولاء نرى (سقراط) قام بالحق حتى حكم عليه بالقتل لا لشىء سوى أنه يعلم الناس الحكمة ، وهكذا نجد (سنيكا) الرومانى عاهد الله ألا يقول إلا الحق وألا يبالى بالمرض ولا الموت ولا الفقر ولا يفرح بالغنى وهكذا .

إن هذا والله هو العلم وهو الصدق إذا لم يكن فى دين الاسلام سوى (سورة لقمان) لكفت فى صدق النبوة أولا وفى نظام الأمة ثانيا . فياغفلة الأمم الإسلامية المتأخرة ، ويا حسرة على المسلمين ما يأتيهم من علم إلا كانوا به يستهزئون .

ثم قال : والآن خطر لى سؤال أحب أن أسألكه ، فقلت حبا وكرامة ، فقال هذه هى الحكمة التى أنتجتها عقول الأولين وهذا هو دين خاتم المرسلين ، هما اتفقا أصولا ، فلماذا رأينا أمثال أبى بكر وعمر قد شادادولة ونظما أمما وأدارا دولاب نحو نصف الكرة الأرضية ولم تر لسقراط ولا لأفلاطون ولا لأرسطاطاليس مثل هذا العمل العظيم ، ولقد اطلعت على جمهورية أفلاطون وقد سبق فى هذا التفسير جمل منها كالتى جاءت فى (سورة النحل) عند قوله تعالى « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » الخ فيها علم غزير وبحث وتنقيب ولكن لم نجد لذلك ثمرات كالتى رأيناها فى أمم الإسلام ، فقلت ان هذا السؤال حسن وكثيرا ما يخطر لى ، وأجيبك عليه بعون الله ، إن دين الاسلام (قسمان) إسلام وإيمان ، فالإيمان يرجع للبواطن كالصدق والإخلاص واليقين وما أشبه ذلك ، فإن الإنسان متى أيقن بأن له خالقا وله أوامر جد فى التشمير عسى أن يلقاه ، فأما الإسلام فهو العبادات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والنطق بالشهادتين ، فهذه الظواهر تجمع الناس فى عمل واحد فهم يصلون معا وتكون الزكاة رابطة بين الغنى والفقير والحج يجمعهم ، فهذه الشرائع الظاهرة التى يكلف الناس بها نتائجها نظام الدولة والملك ، فأما إصلاح البواطن وحده الذى شاركت الفلسفة فيه الدين فهو لايعدو إزالة الجهل ، فأما إصلاح الظواهر ونظام الأمم فهذا دواؤه : فاذا أرادت أمة إسلامية أن تلم شعثها وتقوم من رقدتها . فها هو ذا الباب مفتوح على مصراعيه ، وها هوذا عبد العزيز بن السعود النجدى يقوم بنشر شعائر الإسلام كأيام الصحابة ، فها هوذا عزيز الجانب مرهوب مع أن الأمم كلها مدججة بالسلاح والكراع والحمد لله رب العالمين ، كتب يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٩٢٩ .

﴿ زهرة من بساتين الحكمة ﴾

وهى فيما كان يلقيه آباؤنا الأولون على مسامع الشبان ليشوقوهم فى الحكمة ويحببوهم فى جمال هذه الدنيا وبهائها وعجائب الله عز وجل أيام صولتهم فى إبان دولتهم وقيام عزهم وظهور مجدهم فى العالمين .

فهاك ما جاء فى (إخوان الصفاء) المؤلف فى القرون الأولى صفحة ١٩٦ فى المجلد الرابع فى الطبعة الهندية فلألخصه لك حتى تأخذ زبدته ولبه وترمى بقشره « والله هو الولى الحميد » .

قال : ذكروا أن ملكا من ملوك الهند كان واسع المملكة عظيم السلطان وكان يعبد الأصنام ولا يعرف الأنبياء ولا اليوم الآخر ولا رب الأرباب ولم يرزق بولد إلا في كبره وأخبره المنجمون بأنه يطول عمره وينال ملكا وسلطانا وسلطانه لا يشبه ملك الأرضين ولا سلطان الجسمانيين ، بل ملك السماويين وسلطان الروحانيين فلما تربى ذلك الغلام وترعرع أفرد له أبوه منزلا وبنى له قصرا أسكنه فيه ووكل به الحفظة وشحنه بالخدم ومنع أن يصل إليه أحد من العامة ، فلما نشأ الغلام وترعرع رزق من الفهم والذكاء مالم يرزق أحد غيره من أهل بلده ، ثم علم آداب أبناء الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والنجوم والهندسة وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب ، وكان صافي النفس حي القلب ، كثير التفكر في ملكوت السماء وأمر الصانع وكيفية المبدأ وأمر المعاد وأحوال القرون الذين مضوا وانقرضوا ، أترى إلى ماذا صاروا وإلى أين ذهبوا حتى منعته الفكرة عن الأكل والنوم والتمتع بلذات النعيم في الدنيا وشهواتها فأسهر ليله وأطال نهاره وتمنى أن يجد أحدا يسأله عما في نفسه ويذاكره بما في قلبه فلم يجد أحدا حتى فشا حديثه في الناس وكثر الثناء الجميل عليه ، وانتشر ذكره في الآفاق ، فسمع خبره حكيم من حكماء بلاد (سرنديب) فطمع في رشده ورجا أن يكون هاديا رشيدا وفيلسوفا حكيما فقصد نحو بلاده واحتال حتى دخل إليه ففرح به الفتى ، وكان مما جرى بينهما أن قال له [أخبرني لم يذم الحكماء أمور الدنيا ويزهدون في نعيمها وهي دارهم التي نشئوا فيها ومسكن آبائهم الذين ربوهم » . فأجاب لأنها تصغر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء ، ويستقلون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم أهل الآخرة كما صغر حال ذلك المسكين في أعين الملك ووزيره قال كيف الفتى كان ذلك ؟ قال الحكيم ذكروا أنه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن عزيز السلطان واسع المملكة حسن التدبير والسياسة عادل السيرة في الرعية ، وكان مع ذلك يعبد الأصنام تقليدا . يقرب لها القربان ويعظم شأنها ويحسن إلى أهلها على عادة جارية قد اعتادها من الحداثة والصبا من غير فكر وروية في شأنها وكان له وزير خير عارف بصير قد عرف ملكوت السماء وبناء الملأ الأعلى وأمر المعاد والمبدأ وكيفية الوحي للأنبياء عليهم السلام وعلل سنن الديانات ومرامي مرموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع وما الغرض الأقصى منها ؟ وما حقيقة معانيها وخفيات أسرارها ودقائق إشاراتها وما قصد واضعوها وما النفع العاجل منها ؟ وما المطلب والمغزى في الأجل منها . ثم إن ذلك الوزير مكث دهرا طويلا يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد ما فرغا من النظر في أمر الرعية وتدبير السياسة [هل لك أن نخرج الليلة متنكرين لنعرف حال المدينة ونتجسس أحوال الرعية ، وننظر إلى آثار المطر وكيفية حال البلاد ومصالح العباد فخرجا يطوفان حول المدينة متنكرين : بينما هما كذلك إذ هما بضوء من بعيد فامتدا نحوه حتى دنيا منه فإذا هما بمزبلة شبه رابية عظيمة عليها جيف مرمية وسماد طرية منتنة الرائحة وإذا في أسفله ثقبة شبه المغارة وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوه الخلقة على دكة قد أصلحها من بين سماد ورماد تلك المزبلة وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقعة وفي رجليه تبان [1] وعلى رأسه شملة مثل ذلك وإذا بحذائه امرأة تشبهه في الخلقة والتشوه وعليها كسوات شبه درع وخمار ومقنعة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة وإذا بين يديها سراج من خرق فوق آجرة شبه منارة وبجنبه جرة مكسورة فيها دردي كالخل وقد مزجه بيسير من ماء ، وإلى جنبه سلة خوص فيها باقات كرفس وكراث وبيد كل واحد منهما مشربة مكسورة يغترفان من تلك الجرة ويشربانها وإذا على فخذه قصبة قد مد عليها خيطا شبه قوس الندَّاف

(١) التبان كرمان سروال صغير يستر العورة .

وهو ينقر عليها بقضيب فى يده ويغنى بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع وإذا به يذكر فى تلك الأبيات حسن تلك المرأة ويصف جمالها وشدة عشقه لها وإفراط محبته إياها وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة قد مدت عليها قطعة جلد غير مدبوغ جائفة منتنة الرائحة شبه الدف وهى تنقر إذا غنى هو وترقص وتثنى بين يديه وإذا شرب كل واحد منهما سار صاحبه وحياه بتاقة من ذلك الكرفس والكراث وهى تثنى عليه بالحسن والجمال كأنه يوسف الصديق وتسميه (شاهنشاه) ملك الملوك وهو يسميها كديانوية سيدة النساء ويشرب ويسر بها ويثنى عليها ويصفها بالحسن والجمال مايقصر وصف الحور العين فى جنب ذلك وإذا شربا سألا الله ألا يعدمهما ما هما فيه ولا يغير ما بهما من نعمة وأن يقيمهما على تلك الحال أبداً ما بقى الدهر . فلما أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللذة والسرور والفرح طال وقوفهما متعجبين من حال ذينك المسكينين ثم قال عند ذلك الملك للوزير ما أظن أنى فى طول حياتى وعز سلطانى ونعيم ملكى وأيام شبابى ومجالس الهوى مع تمكنى من شهوتى بلغ منى الفرح واللذة والسرور ما يصف هذان المسكينان الحقيران الوضران من حالهما ومع هذا كله أظن أنه لايفوتهما هذه الحال كل ليلة إن أرادا لأنه لايعرض لهما شىء من العوائق التى تعرض لنا من الأشغال المانعة عن فراغ مجلس اللذة واللهو مثل خروج الخوارج فى أطراف المملكة واضطراب النواحى وشغب الجند وطلبهم الأرزاق وما شاكل ذلك .

ولكنى أظن أنه لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا ولبسا ثيابنا وأبصرا مجالسنا وذاقا من طعامنا وعاينا أحوال ملكنا وشاهدا عز سلطاننا وعرفا لذة نعيمنا مرة واحدة مقدار ساعة ثم ردا إلى حالهما لما تهنيا بالعيش بعد ذلك ولا وجدا لهذه الحال النكرة التى هما فيها لذة أبدا وصغر فى أعينهما ما هما فيه من اللذة والفرح والسرور ، فلما فرغ الملك من هذا الخطاب وسمع الوزير قول الملك قال الوزير للملك أخاف أيها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عز سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خولنا مغرورين كغرور هذين المسكينين بما هما فيه ونحن محقرون و جميع أحوالنا فى أعين قوم آخرين كاحتقار هذين المسكينين بالنسبة لأحوالنا ، فلما سمع الملك قول الوزير استكبره واستعظمه ، فقال له وهل تعلم فى الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا أو سلطانا أعز من سلطاننا أو بلداً أكثر نعما من بلدنا أو مروءة أحسن من مروءتنا ، قال له الوزير لا ، قال الملك فمن هؤلاء القوم الذين زعمت أنه يصغر حالنا فى أعينهم ويستحقرون أمرنا قال قوم يقال لهم النساك فقال الملك أين بلدهم ومن أى ناس هم قال من قبائل شتى متفرقين فى المدن وفى الآفاق والبلاد يجمعهم دين واحد ومذهب واحد ورأى واحد قال صف لى مذهبهم وحالهم قال هم أمناء الله فى خلقه وخلفاء أنبيائه وأئمة لعباده وليس فى الناس منهم إلا نفر يسير لأنهم فى الأنام كالملح فى الطعام ، بسؤالهم ينزل الله القطر من السماء والبركات فى الأرض وبدعائهم يرفع الله عن العباد القحط والغلاء والوباء ومنهم حفاظ كتب الله وعلماء تأويلها فقال الملك ومن أنبياء الله فقال الوزير هم طائفة من بنى آدم اصطفاهم من عباده وقربهم وناجاهم وكشف لهم عن مكنون أسرار غيبه وجعلهم أمناء وحيه وسفراء بينه وبين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح الذى فى ملكوت السماء إلى عالم الكون والفساد فى الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره فى الجنة التى كان أبوهم آدم فيها ، فقال الملك وما آراء هؤلاء الأنبياء قال آراؤهم يعرفها أتباعهم وأفضل أتباعهم فتيان أذكياء لهم نفوس صافية وقلوب واعية بريئون عن الآراء الفاسدة غير معتادين للعادات الردية أومشايخ مهذبون فى العلوم الرياضية ، مجربون الأمور السياسية ، محبون للعلوم الإلهية ، غير متعصبين فى المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة ، أو نفوس ملكية لها همم عالية فى طلب مراتب الملائكة والأمور السماوية والمعقولات الروحانية والوجود المحض والبقاء الدائم والدوام السرمد . قال له أخبرنى ماذا يصفون الحكماء من أصناف الخلائق هناك

قال

قال يقولون لايعلم عددهم إلا الله كما لايحصى عدد الخلائق الذين هم فى الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطيور والهوام والحشرات والدواب وحيوان الماء والبحار أجمع وأصناف بنى آدم من أجناس الأمم من: الترك والحبش والزنج والنوبة والعرب والعجم والفرس والروم والهند والسند والصين والنبط والزط والأكراد ويأجوج ومأجوج والسيسان وأمم أخرى غير معروفة عند كثير من الناس وكل هؤلاء مختلفو الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبرارى نحو من سبعة عشر ألف مدينة تملكها نحو من ألف ملك . هذا فى الربع المسكون من الأرض . على أن الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبرارى والأنهار والعمران والخراب ما هى فى فسحة سعة الهواء إلا كحلقة ملقاة فى برية صحراء، وفضل سعة كل واحد من الأفلاك التسعة على الهواء كفضل البرية على تلك الحلقة ، أفترى أيها الملك أن الخالق تعالى ترك تلك الآفاق الواسعة مع شرف جوهرها وشرف جوهر تلك الأجرام وطيب نسيم تلك الأمكنة فارغة خالية لم يجعل فيها أهلا وسكانا وخلائق تليق بها وهكذا أنه لم يترك البحار الأجاج الأمواه حتى خلق فى قرارها الزاخرة أجناسا من الحيوانات وأنواعا من السمك والحيتان وهكذا جوهر الهواء الرقيق لم يترك فارغا حتى خلق فيه أجناسا من الطيور كما يسبح السمك فى الماء وكذلك هذه البرارى اليابسة الجافة لم يتركها خاوية حتى جعل فيها أجناسا من الوحوش والسباع والأنعام وكذلك الآجام والآكام ورءوس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتى خلق فى لب النبات وفى ثمر الشجر وفى جوف الحب حيوانات مختلفة الصور والأشكال . انتهى ملخصا من كتاب « إخوان الصفاء » والحمد لله رب العالمين .

(آثار الحكمة فى الأمم الحاضرة)

لقد تبدت لك أيها الذكى آثار الحكمة فى الأمم القديمة ورأيت روضا نضيرا وعلما غزيرا نبع من قلوب اصطفاها الله وقال لنا « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب » وقال « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » .

حيا الله الحكمة والعلم ، أسبغ الله النعم على الناس ظاهرة وباطنة وملأ الأصقاع فى زماننا بالحكمة فهل فى شرعة الإنصاف أن يكون المسلمون أول أمة نبغت فى أن تحصن من مهاجمة جنود الحكمة بلادها لتعمر أحياءها وتصرتها شياطين الإنس والجن على انهزام تلك الجيوش الجرارة التى أرسلها الله فى كل مكان . المسلمون وحدهم هم الذين قهروا الحكمة وصدوها عنهم . نعم قبلوا أن يقرءوا ألفاظ حكمة لقمان ولكنهم امتنعوا امتناعا عن تناول معناها . أفلا ترى أيها الذكى والأسى يملأ الأفئدة أن هذه الأمم الاسلامية فعلت ما تفعله حشرة (الأرضة) التى سيأتى شرحها فى (سورة سبأ) إذ تذهب جنودها إلى الأشجار العظيمة الباسقة وسقوف المنازل وشبابيكها فتأكل ما فى داخلها ولا يبقى إلا ظواهرها تدليسا على أهل المنازل والحقول حتى إذا جلس الإنسان إلى جانب تلك الأشجار مثلا رآها بمجرد الملامسة تنهار انهيارا لأنها من داخلها خاوية .

هذا والله مثل أضربه لأمم الإسلام من حيث الحكمة . البلاد جاهلة خالية من الحكمة ولكن الناس يقرءون القرآن ويقرءون سورة لقمان أى يقرءون ألفاظها ولكنهم لا يعيرون معانيها التفاتا وبالمعانى والعمل تكون الحياة ولا آخرة إلا بدنيا وأين دنيانا ؟ ترك المسلمون علوم الحكمة كلها واكتفوا بالتغنى بألفاظها فى القرآن فأحكموا الظواهر وخلت البواطن . اللهم إليك المشتكى . أنا من الأمة المصرية التى تبلغ الآن ما ينوف عن (١٤) مليونا كلهم لم يتعلموا ولم يتعلم فى بلادى إلا أمة القبط الذين لم يبلغوا مليونا

ويكادون يكونون جميعاً متعلمين رجالاً ونساء ، فأما المسلمون فقد يمر الإنسان فى بلاد كثيرة فلا يجد فيها من يحسن الكتابة والقراءة اللهم إلا قارئ القرآن بلا عقل ولا فهم . لم يتعلم من المسلمين اليوم أكثر من بضعة أفراد فى المائة والبقية جهلاء مع اشتهار مصر الآن بأن التعليم فيها راق . وهذه هى الحقيقة المؤلمة . فإذا كانت نسبة المتعلمين فيها اليوم عدالأصابع فى المائةفهذه أكثرها أبناءالأقباط الذين هم الأقلون . أماالأكثرون فإنهم جاهلون .

كل ذلك بسبب ما رسخ فى العقول من آراء صغار الشيوخ الجهلاء وبعض رجال الصوفية الذين اتخذوا التصوف حرفة يعيشون بها . هذه هى الأمة الإسلامية الآن .

أيها الذكى . لاتعجب إذا أسمعتك ماجاء فى جرائدنا المصرية عند كتابة هذا الموضوع فى حوادث فلسطين فهل تصدق أن أمة من أمم أوروبا تأتى باليهود المشتتين فى الأرض وتجعل لهم وطنا قوميا فى فلسطين مسكن العرب إلا إذا كان أبناء العرب جهالا ، فهم فى نجد والحجاز واليمن ومصر وشمال أفريقيا والسودان لارابطة تربطهم ببعضهم ولا بأمم الإسلام الأخرى . ذلك كله من عدم الحكمة التى قال الله إنها خير كثير ومن عدم العلم الذى لم يسو الله بين المتصف به وغير المتصف به بل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا ذلك لنكون على بينة . حقا أسكن الإنجليز اليهود فى بلاد فلسطين . لماذا ؟ لأن أمة العرب لاسلاح عندهم كسلاح أوروبا وأوروبا متحدة علينا . لماذا لأننا جهلاء . فاقرأ ما سأكتبه هنا الآن ولا تعجب لأن الله يقول « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وإياك أن تظن أنى أكتب هذا وأنا يائس كلا . والله لو تطرف اليأس لقلبى ما كتبت حرفا ولكنى أقول إن هذا التفسير وأمثال هذا التفسير وأحوالا أخرى سترفع هذه الأمة إلى العلا مرة أخرى ولكنها ستكون فى المستقبل أعلى وأغلى وأدوم . فهاك ما جاء فى جريدة الأهرام فى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

حوادث فلسطين

﴿ التحقيق فى حوادث فلسطين والحقائق التى ظهرت للآن ﴾

أثبت التحقيق الذى تقوم به الحكومة فى فلسطين إلى الآن ما يأتى ملخصا عن تقرير رفع إلى حكومة فلسطين:

(١) إن الذين قتلوا وجرحوا من العرب فى القدس أصيبوا برصاص بندقيات ومسدسات وشظايا قنابل يدوية .

(٢) إن اليهود وحدهم كانوا يستعملون القذائف اليدوية .

(٣) إن أول امرأة قتلت هى امرأة على مطاوى ، وأول طفل قتل هو طفلها ، وأول عائلة هوجمت منفردة هى هذه العائلة .

(٤) إن حوادث الخليل لم تبدأ إلا بعد قتل العائلة العربية المنفردة فى القدس وذيوع خبر الفظائع التى اقترفت معها وأن تقرير الأطباء البريطانيين الرسمى أثبت أن قتلى اليهود فى الخليل لم يمثل بهم .

(حول رجال التحقيق)

راجع الجمعية الإسلامية بحيفا جماعة من عربان الحدون وأبلغوها أن البوليس فى (زمارين) قد داهم بيتى محمد المحمود وحسن السليم من عرب الحدون أيضا للتفتيش عن الأسلحة ولما لم يجد شيئا ألقى القبض على الرجلين وزجهما فى غياهب السجون وأخذ يسيمهما كثيرا من أنواع العذاب ليدفعهما إلى الإقرار بأن

لديهما الأسلحة التي يزعم وجودها . والحال أوفدت الجمعية الإسلامية من قبلها الدكتور رشدي افندي التميمي لمعاينة الرجلين فأبى بوليس زمارين السماح له بذلك لولا أن تصادف وجود قومندان البوليس تيودور عبود هناك فأذن له فأجرى معاينة الرجلين بحضوره فإذا به يكتشف آثار فظيعة من الضرب والتعذيب تقشعر منها الأبدان فوضع بذلك تقريرين مفصلين ختمهما بقوله «إن الرجلين سيبقيان معطلين مدة عشرة أيام يلزم بعدها معاينتهما ثانية لينظر في حالة العوارض المرضية المحتمل حدوثها ».

وكتب أحد سجناء الخليل الوطنيين يصف الآلام المبرحة التي قاسيها ومن معه والمعاملة السيئة التي يلاقونها من سجانيهم قال « مضى لي ١٦ يوما وأنا موقوف لسبب لا أدريه ، وإنما بلغني أن أحدهم قد وشى بي بأني كنت أحض الأهلين على قتل (المستر كفرانا) ضابط البوليس في أثناء الاضطرابات ؛ وقد بقيت الثلاثة الأيام الأولى بدون طعام وشراب حتى كدت أهلك جوعا وعطشا لولا أن قدم لي مأمور السجن في اليوم الثالث قطعة من الخبز الجاف وبعد إلحاح شديد جاء إلى طبيب مع ضابط وطني لمعاينتي ، فبعد أن نظر آثار الضرب المبرح والتعذيب القاسي ظاهرة على جسدي لم يسعه إلا أن يحول وجهه عني متمتما قائلا «لا حول ولا قوة إلا بالله» وكذلك اقشعر وجه الضابط من هول ما رأى » .

أما باقي السجناء ويبلغ عددهم المائتين فلا تسألوا عن حالتهم المؤلمة فقد حشروا في غرف ضيقة وهم ينامون أكداسا وكلهم جائع ويلاقون صنوفا من العذاب اه . ويقال إن حالة الموقوفين العرب في السجون الأخرى لا تقل عن حالة مسجوني الخليل وزمارين .

﴿ عطف السلطة على اليهود ﴾

طلب فخامة المندوب السامي من وزارة المستعمرات أن تصادق على صرف عشرة آلاف جنيه لمنكوبي اليهود ، وقد وافقت الوزارة على هذا الطلب وصرف منه بصورة مستعجلة مبلغ ألفي جنيه كما أن فخامة المندوب السامي قد صادق على قرار إعفاء بلدية (تل أبيب) اليهودية من مبلغ (٧٥) ألف جنيه كان دينا عليها لخزينة البلاد كما أنه عمم على كافة دوائر الحكومة نشرة جاء فيها أنه يرغب في أن تساعد هذه الدوائر المؤسسات والسلطات اليهودية على عمل الإسعاف والبناء الجديد الذي أصبح ضروريا بعد الاضطرابات الأخيرة . هذا عدا أن هناك نحو (٩) آلاف يهودي في القدس وأكثر من ألف يهودي في حيفا من سكان المستعمرات الذين تعتبرهم الحكومة لاجئين وهم في الحقيقة نجدات جاءت لمقاتلة الوطنيين . وهناك أيضا مطالب بالتعويضات عن الخسائر قدمها اليهود وينظر فيها المستر ابراسون الصهيوني القح . وهناك دعاوى واتهامات من اليهود على العرب ينظر فيها المستر (بنتويش) رئيس النيابات العامة والمشرع الفلسطيني الصهيوني .

هذا ومن حوادث عطف الحكومة على اليهود أن مفاوضات جرت بين الجمعية الصهيونية والحكومة قرر فخامة المندوب السامي بعدها أن ترسل قوة إلى غزة مع منكوبي غزة اليهود الذين لجئوا إلى (تل أبيب) في الاضطرابات الأخيرة ليتفقدوا بيوتهم ومحلاتهم ويحضروا ما فيها إلى (تل أبيب) حيث قرروا أن تكون سكناهم نهائيا . ولذلك روع الغزيون عند ما رأوا رجال البوليس يرابطون في بعض شوارع البلد يحملون العصي الطويلة ثم فهموا السر عند ما رأوا القطار يصل مقلا عددا من اليهود يحرسهم الجند الانجليز فيذهبون إلى بيوتهم ويأخذون ما فيها ويعودون من حيث أتوا .

﴿ معاملة العرب في فلسطين واحتجاج اللجنة التنفيذية في القاهرة ﴾

تلقت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني تقارير مطولة من جميع أنحاء (فلسطين) تثبت بالوثائق والأرقام أن السلطة تقبض على العرب زرافات زرافات مستندة على أقوال الصهيونيين حتى غصت السجون

بالأبرياء وأنها تعامل المعتقلين بقسوة لامثيل لها وتهاجم القرى الآمنة وتسوق سكانها إلى السجون بلا مبرر حتى استولى الرعب على أهالى البلاد وسادها حكم الإرهاب من أدناها إلى أقصاها مما اضطر كثيرين من سكان البلاد إلى الالتجاء إلى الجبال . وعلى أثر ورود هذه التقارير أبرقت اللجنة التنفيذية إلى المندوب السامى فى فلسطين الاحتجاج التالى .

« فخامة المندوب السامى بالقدس . كانت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السورى الفلسطينى تأمل فى فخامتكم أن تظهروا من العدل فى معاملة العرب ما يمحو التأثير السيء الذى أحدثه منشوركم الصادر على عجل فى أول سبتمبر ، ولكن الأنباء التى ترد إلينا بلا انقطاع من جميع أنحاء فلسطين تدل على أن هذا الأمل لم يحقق لسوء الحظ . فاعتقال العرب زرافات لمجرد افتراءات خصومهم وقبل كل تحقيق ، والقسوة التى يعامل بها المعتقلون فى معتقلاتهم والظلم الواقع على قراهم الآمنة والرعب الذى استولى على نفوس الأبرياء من جراء سلوك البوليس وتوالى اعتداءات الصهيونيين . كل ذلك كنا نرجو من فخامتكم تلافيه مراعاة للعدل وحفظا لسمعة بريطانيا فى الشرق ، فاللجنة التنفيذية تحتج بشدة على هذه الأعمال المخالفة للعدل والقانون وتلفت نظركم بالحاح إليها آملة من عدالتكم الإسراع فى وضع حد لها اهـ » . السكرتير العام

ولما كتبت هذا حضر صاحبى الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير فقال هذا حادث يبكى ويحزن ويجعل فى القلب يأسا . فقلت أين أنت من قوله تعالى « ولا تيأسوا من روح الله إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » هذه أمراض تنتاب الأمم ، ولولا هذه الأمراض لم تستيقظ الأمم ، نحن نجوع وجوعنا ضربة لازب لصحتنا ، الجوع ألم ولكن هذا الألم نعمة وعدم هذا الألم نقمة ، الأمة كلها جسم واحد وإصابة فرد أو أفراد منها إصابة لأعضائها وبهذه الاصابة يكون الألم وهو كألم الجوع ، فلاسبيل لرقى الأمة واستيقاظها إلا بألم تحس به الأمة فى أفرادها كما يحس الإنسان بألم فى أعضائه . إذن هذا الألم بالتعدى على فلسطين نعمة لانقمة ، ولن يكون نعمة إلا إذا أدرك المسلمون الخطر وأخذوا يتعلمون الحكمة والعلوم وإلا كان نقمة ، وهذا إن شاء الله لا يكون كما قدمناه . ولقد جعل الله الجوع لسان صدق يخبرنا بالحاجة إلى الطعام فنحن نأكل اتقاء ألم الجوع واستلذاذا بالطعام ومتى أخذنا حاجتنا سمعنا مناديا ينادينا من الداخل أن اتركوا الطعام وهو المسمى بالشبع ، هذا هو الجوع الملازم للانسان ولكل حيوان عند افتقار الجسم لما يقويه ، وهناك ألم أعظم للمحافظة على الجسم كله وهو المرض الكثير الأنواع يظنه الناس نقمة ولكنه نعمة ، إنه كالجوع فنسبة آلام المرض إلى تعاطى الدواء كنسبة آلام الجوع إلى تعاطى الغذاء ، ولو أن الناس لم يجوعوا لم يأكلوا أو لم يتألموا من المرض لم يتداووا ، فالألمان نذيران وماعليهما إلا البلاغ ، ومن اطلع على طبقات اليد وهى (١٢) فى (سورة المؤمنين) مرسومة وقرأ أن تحت طبقة الجلد طبقة الأعصاب (وما الأعصاب إلا جنود الجسم) أدرك السر المصون وعرف أنه لولا هؤلاء الجنود لمات أكثر الحيوان بالعوارض ، فهذا النذير هو العاصم من تمام الاتلاف ، ثم إن الجوع كالشرطة لحفظ الجسم من داخله ، وألم الأمراض الذى تحمله الأعصاب وتوصله إلى محل الإدراك من الجسم أشبه بالجند المحاربين ليدافعوا عن الدولة ، ثم ان الأمة كالجسم والأفراد كالأعضاء والأخبار المنشورة فى الجرائد مثلا كالإحساس السارى فى الأعصاب إلى مركز الإحساس فى المخ ، فأمم العرب وبقية المسلمين اليوم يألمون لما أصاب طائفة منهم بجهة فلسطين ، فإذا فعلوا ما فعل الجائع من الأكل والمريض من التداوى فقد أفلحوا وهم فائزون . ومثل الجوع والمرض الغيرة والحسد والغبطة وأمثالها كالعداوة فهذه كلها خلقت للمسابقة فى الحياة .

فقال صاحبى أراك اليوم تلهج بالحكمة كثيرا فهل للحكمة مدخل فى مثل هذه الحوادث ؟ وأى مناسبة بين

استيطان اليهود ربوع (فلسطين) وبين الحكمة ؟ فقلت الحكمة تقدم إيضاحها وبيان أنها نظام العلوم كما أن الشمس نظام المجموعة الشمسية ، فمن الشمس تستمد السيارات ومنها الأرض ومنها يكون الليل والنهار فهكذا الفلسفة أو الحكمة كما تقدم عن (بيكون) الفيلسوف إذ جعل العلوم الرياضية والطبيعية مسماة باسم التواريخ وجعل نظام الطبيعة وعلم النفس والأخلاق ونظام الدول والسياسة وعلم الجمال كلها علم الحكمة وهكذا معرفة صانع العالم الخ فالحكمة تشرف على العلوم وتنظمها . إذن لابد لنا من العلوم والعلوم بها حفظ كيان الأمم . فلو عرف المسلمون العلوم كما عرفها اليهود المشتتون النابغون فى حوز المال والاقتصاد والعلم والحكمة ما حقرهم الانجليز وأنزلوا اليهود بساحاتهم ، ولكن هو الجهل المخيم فى ربوع الإسلام قد فتك بهذه الأمم وأطمع فيها الأمم الحكيمة التى سلطها الله علينا لإيقاظنا .

فقال صاحبى . إن اتصال الحكمة التى شرحتها هنا تفسيرا للآية بأحوال الأمم الإسلامية وغيرها ما هو إلا قول مجمل . فلو أنك ذكرت طرفا مما أبدعت الحكمة فى الأمم الآن لكان لها أثر وكان ذلك نورا وبهجة وجمالا . فقلت انظر ما يلى :

﴿ عجائب الضباب فى العصر الحاضر . وقدرة الإنسان على الطواف حول الأرض فى أقل من شهر وعجائب « جراف زبلن » وغيرها ﴾

ها أنا ذا أحدثك عن بعض نتائج العلوم الطبيعية فى رقى الأمم وغلبها وقد حرمها المسلمون (انظر ماجاء فى تلغراف من برلين فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩ حين كتابة هذه الأسطر وهذا نصه :

(نتائج تجربة الضباب الصناعى)

[أجريت التجربة الثانية بنشر الضباب الاصطناعى فى (ترافيموند) وقد حلقت فى الجو سبع طيارات لمراقبة فعل الضباب ، ولما بدأت التجربة أطلق ضباب كثيف ، فبعد اثنتى عشرة دقيقة غطى جو الأماكن التى أطلق فيها حتى اضطرت السيارات إلى الوقوف عن السير لعدم تمكنها من رؤية الطريق ، وظهر للطيارات المراقبة أن هذا الضباب يستر وجه الأرض حتى لو كانت هناك طيارات مهاجمة لما استطاعت أن تصيب هدفا] اهـ ولئن عجبت مما تقدم ليزيدنك عجبا ما يأتى فقد جاء فى مجلة كل شىء ما نصه :

﴿ تاريخ التطواف حول العالم ﴾

(من ماجلان إلى إكنر أول رحلة حول العالم تستغرق أكثر من ثلاث سنوات وآخر رحلة تتم فى بضعة أيام)

بمناسبة رحلة (جراف تسبلن) الأخيرة حول العالم

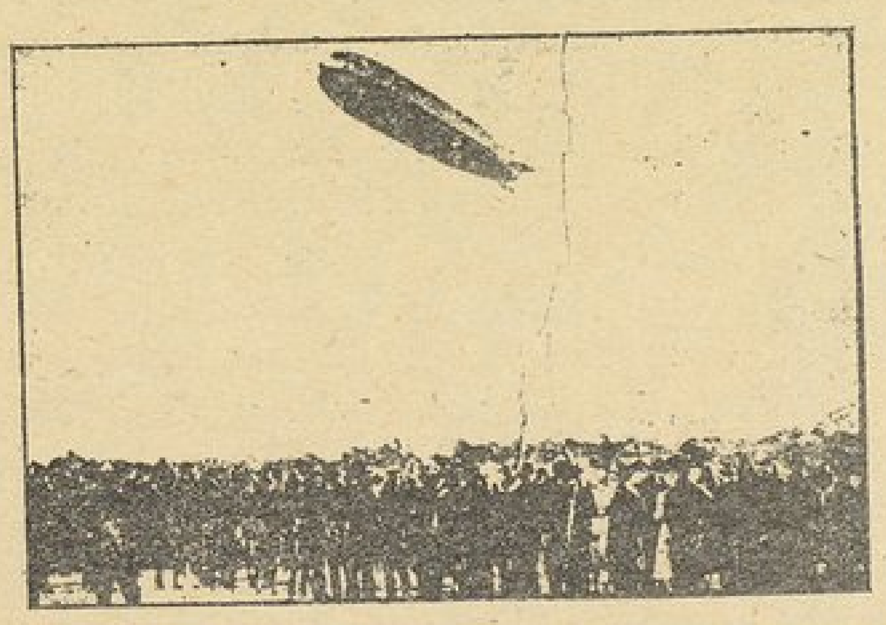
دار البالون الألمانى (جراف تسبلن) حول العالم فى بضعة أيام وكان يحمل المسافرين من قطر إلى قطر أو من قارة إلى قارة ومازال فى مطافه حتى رجع إلى (فردر يكسهافن) البلدة التى خرج منها واتجه نحو الشرق ، ومازال فى هذا الاتجاه حتى بلغها ثانيا ، ومثل هذه الرحلة تذكر الإنسان بتلك المحاولات النظرية والعملية التى حاولها كثيرون لإثبات كروية الأرض والدوران حولها بالاتجاه فى ناحية واحدة ثم الارتقاء العظيم فى السرعة وأول المحاولات العملية فى الدوران حول الأرض كانت محاولة (ماجلان) الأسبانى الذى خرج من أشبيلية (الميناء الإسبانية) فقد غادر (ماجلان) هذه الميناء فى ١٠ أغسطس سنة ١٥١٩ ومعه خمس سفن بها ٢٣٧ رجلا ، ومازالت السفن تتجه نحو الغرب حتى بلغت جنوب أمريكا وهناك دارت حول الجزء الجنوبى من أمريكا حيث مضيق (ماجلان) الآن ثم اتجهت نحو الغرب حتى بلغت جزر (فيلبين) وهناك قتل (ماجلان) فى شجار مع الأهلين ، وكانت الأمراض تفتك بالبحارة ولذلك لم يعد إلى (إشبيلية) سوى سفينة واحدة ولم يبق من البحارة سوى ١٨ رجلا من (٢٣٧) ولما بلغوا الميناء الإسبانية نزلوا من السفينة

يحملون الشموع وساروا إلى الكنيسة حيث صلوا لله شكرا على نجاتهم . وقد احتاجوا لقضاء ثلاث سنوات وسبعة وعشرين يوما فى الدوران حول العالم وبعد نصف قرن تقريبا خرج (السير فرانسس دريك) الإنجليزى فى خمس سفن أيضا وكان رجاله (١٦٨) فاتخذ طريق (ماجلان) الأسبانى ودار حول جنوب أمريكا ثم سار فى المحيط الهادى إلى أن بلغ (جاوة) ودار حول جنوب (إفريقية) حتى بلغ سيرا (ليون) ثم اتجه نحو الشمال حتى بلغ انجلترا التى خرج منها وعاد ومعه من البحارة خمسة أشخاص فقط ، واحتاجت رحلته إلى أقل قليلا من ثلاث سنوات . وألف (جول فرن) قصته المسماة (حول العالم فى ثمانين يوما) وفرض أن المسافر يستعمل كل أنواع المراكب من سفن إلى عربات إلى فيلة إلى زلاقات .

وجاء عصر (الطيارات والبالونات) فجعل الناس ينسون البواخر والقطرات وصاروا يعدون الأيام للتطواف حول العالم بدلا من السنين أو الأشهر ، وآخر من استعمل الطيارات والبواخر والقطرات هو (أدوارد ايفانز) ورفيق آخر له طافا حول العالم فى (٢٨) يوما و(١٤) ساعة و(٣٦) دقيقة و (٥) ثوان ، وكان متوسط سرعتهما (٣٠) ميلا فى الساعة وكان ذلك فى سنة ١٩٢٦ ،

وفى سنة ١٩٢٨ طاف (هنرى ميرز) وهو أمريكى حول العالم فى (٢٣) يوما و(١٥) ساعة و(٢١) دقيقة و(٣) ثوان ولم يحسب للآن عدد الأيام والساعات التى قطعها البالون تسبلن فى تطوافه حول العالم وإنما المفروض الآن أن السبق فى المستقبل سيكون للطيار الذى يستعمل البالون فوق المحيطات ويستعمل الطيارات فوق اليابسة ، فالطيارة أسرع من (البالون) ولكنها غير مأمونة مثله فى الأسفار الطويلة فوق المحيط الهادى أو المحيط الأطلنطى .

وقد عاد المنطاد الألمانى (جراف زبلن) إلى (فردير كسهافن) بعد أن طاف حول العالم وفتح فتحا مبينا فى عالم الطيران ، وتراه فى الصورة عند وصوله إلى المطار وقد وقفت الجنود صفوفا تمنع تدفق الجماهير المتحمسة على المنطاد عند هبوطه (انظر شكل ٢١) .



(شكل ٢١ (جراف زبلن)

ثم انظر ما نشر يوم ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٢٨م وهذا نصه :

﴿ أعجوبة البحار ﴾

تحت هذا العنوان نشرت جريدة (الإيفنن بوست) النيويوركية برقية تلقتها من (برلين) نلخصها فيما يلى

«ليتصور القارىء عمارات من البوارج الحديثة تتقدم مسرعة إلى الأمام نحو ثغر العدو ثم تنتشر على سطح الماء فى صفوف منظمة تأهباً للقتال ولاتلبث أن تصوب نيران مدافعها إلى المدينة فتدس العمارات بقنابلها تدميرا ثم تنقلب إلى الوراء متراجعة أمام حركة مضادة من بطاريات ساحلية وليتصور فوق هذا تحطم البعض وغرق البعض الآخر من تلك البوارج ولكن دون أن يقتل أو يغرق إنسان، ومع هذا فإن بارجة قائد الأسطول تقف على بعد مئات الأميال من البوارج المحاربة وتتلقى أخبار المعركة بواسطة الراديو من طيارات محلقة فوق البوارج ثم تبعث إليها بتعليمات لإدارة حركتها بواسطة الراديو كذلك وبدون أن تغامر بحيات نوتى أو ضابط من القوى المهاجمة .

إن ماتقدم بسطه هو الحقيقة لما يمكن أن يحدث فى الحروب البحرية المقبلة وهذا بناء على الاختراع المدهش الذى أسفرت التجربة عن نجاحه فإن الطرادة (زيهرنجن) الألمانية القديمة وحمولتها أحد عشر ألف طن قد ركبت فيها أجهزة كهربائية سيرتها بسرعة كبيرة فى طول البحر الشمالى وعرضه دون أن يكون فيها أى إنسان . وقد عادت هذه الطرادة إلى المرفأ الذى غادرته فى الموعد المحدد لعودتها دون أن تضل الطريق ولم يطرأ عليها أى خلل أثناء رحلتها . ويؤكد الخبراء الفنيون أن الاختراع الألمانى الجديد سيؤدى إلى إحداث انقلاب عظيم فى نظام الحروب البحرية المقبلة . وقد أجمعوا على أن الطرادة (زيهرنجن) هى اليوم أعجوبة البحار لما تشتمل عليه من الآلات الكهربائية الحديثة التى تسيرها حيث تشاء وهذه الآلات والأجهزة مركبة فى غرف للوقاد وهى بمثابة اليد التى تحركها والسواعد التى تديرها نحو الاتجاهات المطلوبة بواسطة التعليمات التى تتلقاها من سفينة أخرى أو من طيارة محلقة فوقها على مسافات فى الجو بعيدة ، وهكذا تكون الأساطير البحرية القديمة التى تشير إلى وجود سفن بدون (نوتية) وسيرها بدون قيادة قد تمثلت فعلا للعيان عندما قامت الطرادة (زيهرنجن) برحلتها الأولى فى البحر الشمالى وبمناورة حربية قبالة ساحل (هيلوجلندا) أما النفقات لتجهيز هذه الطرادة بالآلات الحديثة فبلغت (٥٠٠) ألف دولار . وأذاعت حكومة ألمانيا أن الغرض من عملها هذا هو أن تكون (زيهرنجن) هدفا لتمرينات الأسطول الألمانى . وفى بيان لوزارة البحرية الألمانية أن النتائج التى ظهرت من التجربة الآنفة الذكر تفوق كثيرا ماكانت تنتظره لأنها لم تدل على تسيير البوارج الحربية والبواخر التجارية بدون نوتية وقائد فقط . بل دلت على إمكان إطلاق المدافع من البوارج بمنتهى الدقة فى إصابة المرمى بواسطة الأجهزة الكهربائية . ويؤخذ من النشرة التى أذاعتها وزارة البحرية الألمانية بشأن التجربة للطرادة (زيهرنجن) أنه بعد أن ركبت فيها الأجهزة الكهربائية الحديثة ركب ظهرها جميع ضباطها ونوتيتها وعدد كبير من الضباط البحريين الذين حضروا لمشاهدة التجربة ثم أبحرت الطرادة وبجانبها السفينة (بليتز) التى رافقتها على مسافة (٥٠) ميلا ، وعندما وصلت إلى عرض البحر انتقل من كان على ظهر الطرادة (زيهرنجن) إلى السفينة (بليتز) وإذ ذاك بدت (زيهرنجن) للعيان كأنها سفينة مهجورة لا حياة فيها ثم بدأت التجربة بأن ضغط قائد السفينة (بليتز) على زر فى جهاز خاص داخل سفينته وسرعان ما تصاعد الدخان من مداخن (زيهرنجن) وأخذت تتحرك ثم زادت سرعتها فى بضع دقائق إلى مسافة (١٠) أميال فى الساعة ثم ضغط القائد على زر آخر فتحولت (زيهرنجن) عن وجهتها وأخذت تدور على محورها ثم وقفت وتراجعت إلى الوراء ثم تقدمت إلى الأمام فاليمين فالشمال حسب الاشارات التى

كانت تتلقاها من قائد السفينة (بليز) وحدث أثناء هذه الحركات المختلفة أن تصاعد من جوانبها فجأة دخان كثيف أخفاها عن الأبصار ثم تصاعد من ظهرها سهم نارى رمزاً إلى إطلاق مدافعها ، وبالإجمال أن التجربة استغرقت مدة ساعتين والطرادة (زيهرنجن) قائمة بمناورات تشتمل على جميع الحركات الحربية البحرية بمنتهى الدقة والنظام . أما التفاصيل الفنية الخاصة بالأجهزة الكهربائية الحديثة فلم تزل سراً من الأسرار التى تحرص ألمانيا على كتمانها كل الحرص اه

وقد جاء فى جريدة الأهرام يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

﴿ رحلة المنطاد تسبلن إلى القطب الشمالى ﴾

لم يصل (المنطاد تسبلن) من رحلته حول الكرة الأرضية حتى اتجهت الأنظار إلى الرحلة التى عزم على القيام بها إلى القطب الشمالى فى شهر إبريل القادم ، وسيبدأ الدكتور (أكنر) بعد عودته إلى برلين فى التأهب لهذه الرحلة وإعداد معداتها ، ولا ينتظر أن يصحبه فيها إلا عدد قليل من الذين يكون وجودهم فى المنطاد مفيداً .

أما شركة (هرست) التى تكفلت بالقسم الأكبر من نفقات المنطاد فقد قررت انتداب اثنين من مراسليها ولا يكون للصحف الأخرى كلها غير مندوب واحد . وسيسافر المنطاد من ترونسو (نروج) متجها نحو الجانب الأمريكى من القطب إلى أن يصل إلى الاسكا حيث يعد له مكانا للنزول ، وستكون بلدة فيربانكس فى (الاسكا) القاعدة الحقيقية لرحلة المنطاد فيقيم فيها بضعة أيام ثم يحلق فوق القطب فإذا وجد مكانا يصلح لأن ينزل فيه على الجليد فعل ذلك لتمكين العلماء من القيام بأبحاث مفيدة . ويعود المنطاد بعد طوافه حول القطب الشمالى إلى (فيربانكس) ثم يتجه نحو الجانب الأسيوى . وسيقوم بحركة التفاف تنتهى فى بردينو وتبلغ مسافة هذه الرحلة (١٨) ألف كيلو متراً وتستغرق من (٢٠) إلى (٢٥) يوما . وسينقل المنطاد معه علاوة على المؤن اللازمة وأدوات الراديو والملاحة أجهزة كاملة تمكن كلا من ركابه من الحياة فى القطب كالعربات الصغيرة والكلاب والأسلحة وأدوات نقالة للتلغراف اللاسلكى وماشا كل ذلك مما يحتاج اليه الركاب إذا طرأ عطل على المنطاد . وستكون الغاية من هذه الرحلة درس الحالة الجوية فى الجهات القطبية توطئة لانشاء خط جوى يصل أمريكا بأوروبا وآسيا بطريق القطب الشمالى . وسيرأس البعثة التى تهتم بهذه الأبحاث الأستاذ نالش يساعده الأستاذ برسون والكبتن برونى . ويعتقد الدكتور (اكنر) أن النزول على الأرض بجوار القطب ممكن بشرط ألا تكون الرياح شديدة اه .

هذا ماوصل إليه العلم الآن من استخدام الضباب وجعله حصونا بدل الحصون الحجرية ومن الطواف حول الأرض والسير فوق القطب بالطيارات . أفليس لهؤلاء القوم الحق أن ينظروا للأمم الجاهلة نظرهم إلى أمر ضئيل لايؤبه له . النحل حمة والزنبور حمة أشد وللعنز والغزال قرنان وللأسد صولة وأنيابه المحددة وأظفار لم تقلم والإنسان سلاحه يستنتجه من الحكمة التى حض الله عليها . طمع العلماء فى أوروبا بعد ماتبينت لهم هذه العجائب ورأوا أن المستقبل غير الحاضر وأن العلم إذا سار على هذا المنوال أخرج أمما لم نحلم بها الدهور . فانظر ماجاء فى بعض المجلات العلمية التى تخرجها دائرة (مجلة الهلال) وهذا نصها :

﴿ قوى

﴿ قوى الطبيعة لاتنفد ﴾

(القوى التى فى أشعة الشمس ، وفى باطن الأرض ، وفى المياه المنحدرة)

كلما انقضى عام شعر العالم بحاجته إلى قوى جديدة يستخدمها فى إدارة آلاته وفى إيجاد الحرارة والنور ولقد ثبت أن الفحم والزيت لايكفيان كثيرا ولا طاقة لهما على احتمال طلباتنا المتعددة . وقوى الطبيعة لاتقتصر على الفحم والزيت فقط إذ هناك أيضا المياه المنحدرة والرياح المتناوحة ، وقد عرف أجدادنا قيمتها فاستخدموها فى إدارة الطواحين وتسيير السفن ، ولكن هناك قوى أخرى فى بعض عناصر لم تستثمر كما يجب فرض (الراديوم) قوة إلا أن الناس يجهلونها وقد يحلون لغزها بعد مضى عدة قرون . وأشعة الشمس قوة لايستهان بها ، ونحن إذا وفقنا إلى تسخيرها ربحنا كثيرا واستغنينا بها عن قوى أخرى مهددة بالزوال وباطن الأرض يضطرب بالقوى الهائلة ، فهل من سبيل إلى إخراجها والتمتع بخيراتها وبركاتها ، ولقد وقف بعض العلماء جهودهم على درس مسألة الحرارة الأرضية الكامنة فتوصلوا إلى نتائج قد يظهر أثرها فى المستقبل القريب ، ولاريب أن مجال العمل فى ذاك المضمار واسع أمام دولة إيطاليا ؛ فأرضها نارية وبراكينها أصدق برهان على ذلك . وفى الواقع أن إيطاليا استخدمت بعض القوى الطبيعية فظفرت بما لم تظفر به دولة سواها .

وفى مقاطعة (كوسكانيا) بين مدينتى (تيزا) و (سينا) فى الإقليم الواقع حول (فولتيرا) تنبعث العيون بالماء الحار الملتهب . ولماء تلك العيون خصائص عظيمة فاستعان الطليان بالبخار البركانى الذى استخرجوه من بعض ثقوب عميقة مجاورة على تبخير الماء وبذلك أخرجوا منه حمض البوريك ، وكانوا فيما مضى يستخدمون البخار البركانى فى إيجاد الحرارة فقط . أما الآن فحركوا به الدينامو واستخرجوا الكهرباء فكأن البراكين ومايتصل بها تقوم الآن بمهمة الفحم أو الزيت وذلك تقدم عظيم فى عالم الصناعة . ولعل الناس فى الأزمان القادمة لايفرقون كثيرا إذا نضب معين الفحم أو الزيت من بين أيديهم إذ سيجدون فى الحرارة الأرضية أو فى أشعة الشمس نعم العوض اه .

﴿ ماذا سيحدث فى عام ٢٤٢٨ ؟ ﴾

(الكيمياء تخلق رجالا ونساء)

قال المستر (ه . ت . ف . رودز) السكرتير العمومى لجمعية الكيميائيين البريطانيين مايأتى :

إن كيميائى عام ٢٤٢٨ سوف يصنعون رجالا فى معاملهم لاتختلف عنا فى شىء لأن علم الكيمياء كشف الآن عن خواص التحليل والتركيب واستطاع أن يبنى ويخلق أشياء ثمينة من مواد ضئيلة حقيرة ، وترى أثر ذلك فى صناعة الصبغة والحرير .

وعلماء الكيمياء يعلمون الآن كيف تتكون (البروتو بلاسم) المادة التى هى أساس الحياة وملاكها وهى كربون وهيدروجين ونتروجين ، ولا يستبعد أن كيمائى الأجيال المقبلة يخلقونها ويصنعون منها حياة ، وعلى مر الأيام سوف يكتشفون طريقة يعالجون بها (البروتو بلاسم) لتخرج أناسا مثلنا ، فاذا تحقق ذاك الأمر واستطاع الإنسان أن يخلق أناسا دفعنا الأخير إلى عالم الصناعة والزراعة وما إلى ذلك واقتصرنا نحن على البحوث العلمية علنا نعثر على فتح جديد اه .

هذا مايتخيله القوم ، وأشد الخيالات إغراقا فى الوهم أن يكون هناك إنسان على يد إنسان . وهذا من الخيالات التى لايمكن تعقلها ولو أمكن حصولها لم تزد على ما يفعله الزراع فإنهم يضعون البزرة فى الأرض فينزل

المطر عليها فتحيا وتنمو بعمل خارج عن طاقتنا ، وليس هذا خلقا منا . كلا . ثم كلا . فهذا مع أنه خيال أو وهم أو فكرة خطرت ليس من عملنا بل هو من عمل الإله عز وجل كظهور النبات والحيوان فما نحن بخالق هذا الحيوان ولا هذا النبات مع إننا نحن الذين نتعهدهما بل نحن نعلم التلاميذ وما نحن لهم بخالقين بل نحن نلد الأولاد وما نحن لهم بخالقين .

فقال صاحبي هذا البيان حسن ولو أنك تركته بلا بيان لظن الجهال أن ما كتبه القوم ونقلته قد أرضاك وأنك تؤمن بأن الإنسان الجهول الكفار المسكين الضعيف يخلق ويرزق ، فأنت بهذا ألجمت الأفواه التي يستخدمها الحقد والحسد فتعترض بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

هذا وإن هذه النبذ التي ذكرتها الآن حسنة جميلة تشوق المسلمين وتزيدهم حبا في العلم والحكمة فالأجمال لاتشويق فيه ، فها أنا ذا أطلب منك نبذة أخرى من هذا القبيل وكفى ؛ فقلت انظر ما نشر في إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

﴿ المكتب الدولي للصحة العامة بباريس ﴾

وجه رئيس اللجنة الدائمة للمكتب الدولي للصحة العامة بباريس الدعوة إلى وكيل وزارة الداخلية للشئون الصحية لحضور جلسات هذه اللجنة التي ستعقد بباريس في المدة (٢١) إلى (٣٠) اكتوبر سنة ١٩٢٩ مندوبا عن الحكومة المصرية في اللجنة المشار اليها ، وسيتناول البحث الموضوعات الآتية :

(أولا) تطبيق معاهدة سنة ١٩٢٦ الصحية الدولية والمسائل المتعلقة بها وهي :

(١) تقرير مجلس الصحة البحرية والكورنتينات بمصر عن الحج إلى مكة المكرمة سنة ١٩٢٩ ومتابعة درس المسائل المختلفة المتعلقة بالحج كجواز سفر الحاج ومراقبة الحجاج المارين من بعض البلاد مراقبة صحية وغير ذلك .

(ب) الشروط التي يسير بموجبها العمل فيما يختص بشهادة إبادة الجرذان أو الإعفاء من إبادتها (المادة ٢٨ من المعاهدة) وإبادة الجرذان في السفن الجديدة .

(ج) إرسال البلاغات الصحية بواسطة التلغراف اللاسلكي (ووضع أورنيك موحد لهذا الغرض) .

(د) الشروط الواجب توفرها في حواجز الجرذان لاعتبارها وافية بالغرض الذي أنشئت لأجله .

(هـ) الاحتياطات التي يمكن اتخاذها لمنع ما قد يحدث من انتشار الأمراض الوبائية بواسطة الطيارات .

(ثانيا) تقرير لجنة الأفيون عن المسائل المقدمة للمكتب الدولي للصحة العامة تنفيذا لأحكام معاهدة سنة ١٩٢٥ بشأن الأفيون .

(ثالثا) (الحمى الصفراء) معلومات جديدة عن السم النوعي وطريقة انتقاله . وعن تأثير المرض من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية منه .

(رابعا) معلومات حديثة عن تأثير الكوليرا والطاعون من الوجهة الوبائية ومنشأ الإصابة بهما وعن مفعول اللقاح ضد الطاعون .

(خامسا) الجدري واللقاح المستعمل ضده والإصابات التي تعقب التطعيم به .

(سادسا) التدرن : نسبة الوفاة بالتدرن بين الأطفال المقيمين في وسط ملوث بهذا المرض وإكساب المناعة ضد التدرن . معلومات خاصة في الأوساط الصناعية .

(سابعا) الحمى المتموجة وقوة باشيلس بانج فيما يتعلق بإحداث المرض في الإنسان والوقاية منه .

(ثامنا)

(ثامنا) التهاب مقدم مادة النخاع الشوكى السنجابية الحاد . تأثير المرض من الوجهة الوبائية وسبب الإصابة به .

(تاسعا) الالتهاب السحائى الناشئ عن الميكروب النوعى لهذا المرض وتأثيره الحالى من الوجهة الوبائية وطرق الوقاية به .

(عاشرا) المستشفى المصرى عدد المستشفيات وتوزيعها الجغرافى بالنسبة لعدد معين من السكان .

(حادى عشر) استعمال الملونات والمواد الحافظة للأغذية .

(ثانى عشر) بحث مقارنة بين نسبة الوفيات فى لندن والريف بشأن الاحتياطات الواجب اتخاذها لتحسين الحالة فى الريف .

(ثالث عشر) الصحة الاجتماعية : التشريع الخاص بالتدرن وبالأمراض الزهرية والاسعاف الطبى للشعوب المتوطنة .

(رابع عشر) تعدد حدوث إصابات الزهرى الأولى فى الوقت الحاضر ونتائج الاحتياطات الوقائية التى اتخذت ضد الأمراض الزهرية .

(خامس عشر) الاحتياطات الواجب اتخاذها ضد التسمم بالكحول اهـ .

أفلا ترى أيها الذكى أن هؤلاء القوم كما نبغوا فى إحداث الآلات المهلكة هكذا هم نبغوا فى علم الطب وعلم الطب فرع من العلوم الخاصة بالجسم الإنسانى والجسم الإنسانى والنفس الإنسانية يذكران فى العلوم الطبيعية عند القدماء ، فأما عند المحدثين فلقد أريتك ماذكره العلامة (بيكون) أن علم النفس من العلوم الفلسفية، أما علم التشريح فمن العلوم المسميات بالتاريخ الطبيعى، فأهل أوروبا بهذا المكتب يبحثون عن الصحة العامة فى الأرض كلها وحكومتنا المصرية تشاركهم . أفليس من العار على أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذى نشر العلم فى الأرض كلها أن تكون ذيلا للأمم وعالة على دول أوروبا ، أفلا يحق لهم إذا رأونا عالة عليهم أن يفعلوا معنا مايشاءون ؟ هاهم أولاء يخافون أن تكون الطيارات من الناقلات للوباء كما تقدم ذكره فى هذا التفسير . إن البراغيث تركب متون الفيران وهذه تنقلها من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية لتوزع الأمراض عيانا على الناس بلا تمييز بين صالح وطالح ، فهكذا هنا الطيارات يخافون أن تفعل هذا الفعل فهاهم أولاء منه يحترسون . ومن عجب أن هؤلاء يطلبون مشاركة الأمم . عمل والله عظيم . ولو أن دين الإسلام وجد أمما بعد القرون الثلاثة الأولى تحمل هذا الدين وتفعل فعله صلى الله عليه وسلم إذ كان يود أن يجعل الناس أمة واحدة كما تقدم فى أول (سورة العنكبوت) عند قوله تعالى «ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه» وأنه أرسل إلى الملوك والأمراء شرقا وغربا يطلب أن يكونوا معه يدا واحدة . أقول لو أن الإسلام وجد أمة على هذا النمط لكانت هى القائمة بالنفع العام (وبعبارة أخرى) لخففت العبء عن أهل أوروبا فى حفظ الإنسانية ولكان لها مركز سام شريف يمنع الأمم من التدخل فى شئونها ولكن «لله الأمر من قبل ومن بعد» .

فقال صاحبى العالم المتقدم ذكره . إن اتصال هذه الأعمال الصناعية من حربية وطبية بالعلوم والحكمة لايزال يحتاج إلى بيان . قلت حقا وهذا البيان سيأتى إن شاء الله فى (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى «فاعلم أنه لا إله إلا الله» الخ إذ سأذكر هناك إن شاء الله (رسالة مرآة الفلسفة) التى أشرت لها سابقا فى هذا التفسير ، وقد كنت أريد كتابتها فى آخر (سورة النحل) أو فى آخر (سورة القصص) ولكنى وجدت أن ذلك يورث السآمة هناك فأخرتها إلى تلك الصورة الآتية :

فقال صاحبي هذا حسن ولكن هي أليق بهذا المقام . قلت نعم ولكن هذا الوعد قد تقدم في (سورة النمل وغيرها) فلا أخلفه . فقال إني علمت منك أن تلك الرسالة تشتمل على مقدمة وبابين والمقدمة مشتملة على قواعد تنفع في فهم هذا الوجود (الباب الأول) في ذكر مذاهب الفلاسفة إجمالا . (الباب الثاني) في تقسيم العلوم ، وإني أرى أن تذكر الباب الثاني هنا لأنه أمس بهذا الموضوع لأنه جمع أقسام علوم الحكمة قديما وحديثا إجمالا ، غاية الأمر أن القدماء جعلوها كلها حكمة ، والمحدثين سموا العلوم الجزئية (تواريخ) والعلوم الكلية سموها فلسفة ، ومتى ذكرت هذا التقسيم اتضح لنا كيف يكون الضباب الذي حجب السفن مفرعا على العلوم وكيف تكون الصناعات كالطب والزراعة وكالحياكة والنجارة والحدادة مفرعة على العلوم ، فالأول تبع علم الإنسان ، والثاني تبع علم النبات . والثالث تبع قسم من النبات . والرابع تبع قسم آخر من علم النبات . والخامس تبع قسم من علم المعادن . وهذه العلوم كلها طبيعية والعلوم الطبيعية من الحكمة على رأي القدماء أو من مقدماتها الجزئية على رأي (بيكون) الانكليزي كما تقدم الذي اتبعه جميع أهل العصر الحاضر . ومن هذه الصناعات الضباب المتقدم وعلم الطيران بقسميه وهي (البالونات) التي ترتفع بالغازات الخفيفة كالهيدروجين والطيارات المرتفعات بالمحركات . فالأولى ارتفاعها إلى أعلى بالخفة كسقوط الحجر إلى أسفل بالثقل . والثانية بآلات محركة كما يطير الطير . وهذا كله من علم الطبيعة والكيمياء لأن الغازات من الثاني والمحركات من الأول وبهذا يكون السير إما على اليابسة أو في سائل أو في غاز .

ثم قال : إذا كتبت هذا هنا كان ذلك نعم الذخيرة لقراء هذا التفسير وتحضر لهم صورة واضحة للحكمة المذكورة في الآية وبها يفرح المسلمون بل هم بذلك سريعا يرتقون . فقلت أنا الآن انشرح صدري لأن أكتب تقسيم العلوم هنا وأدع آراء الفلاسفة ليذكر هناك في تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهناك يقال إن القسم الثاني قد ذكر في (سورة لقمان) وهذا القسم الذي أنقله الآن من (رسالة مرآة الفلسفة) نقلتها فيها من كتابي بهجة العلوم في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم الحديثة . وهذا نص ما جاء فيها ملخصا :

الفلسفة العربية

(مقدمة)

(في قبول الفطرة الإنسانية للفلسفة وفي تاريخ علومها)

بسم الله الرحمن الرحيم

جبلت النفوس على حب الاستطلاع وشغفت بالبحث عما تشاهده من مناظر بهجة ومحاسن باهرة ، وشاقها ذلك السقف المرفوع ، المزين بالنجوم المتلألئة ، المختلفة الأشكال ، الجلية الألوان ، السارة للناظرين ثم راعها ما على الأرض من زينة وجمال وحسن وبهاء واعتدال وكمال من سحاب ماطر وبرق لامع ورعد قاصف وهواء لطيف ، ونور شريف وجبال شاهقات وأنهار جاريات وبحار واسعات ومعادن نافعات ونبات متسق الأوراق بديع الأزهار يانع الأثمار زين الأرض بمحاسنه وزوقها بأنيق بدائعه عاش به الانسان والحيوان فكان منه غذاؤهما ودواؤهما وبهجتهما . وأودع فيه من الغرام به والشهوة له ماساقها إلى السعي والبحث عنه كل حين .

الحيوان مكتف بما لديه من غذاء حاضر وجلد قوي ووبر وشعر وصوف وأنياب محددة ومخاليب قانصة وقوة جثمان وعدو سريع وإلهام يهدي إلى سبل المعاش .

أما الإنسان فإنه خلق عاريا ، كثير الحاجات ، يسعى لغذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه وسفره فضعفه ظاهر ووهنه حاضر . لذلك اقتضت الحكمة أن يمتاز بالعقل فيسعى به لمآربه من الغذاء والدواء واللباس والسكن والتعليم والتهذيب والمعاشرة ونظام الجمعية الانسانية ، فما أكثر حاجة الإنسان ، وما أحوجه إلى العلم والمعرفة وما أقل حاجة الحيوان ، وما أحراه بالحرمان من معارف الإنسان ، إن النتائج تتبع المقدمات والثمار على حسب النبات ، فمن كفاه غيره السعى والطلب عاش خاملا ومات جاهلا ومن قام بأمر نفسه وسعى لها سعيها أكسبها قوة وأنالها حرية وكانت حرية بالإجلال والإعظام .

هذه هي المزية التي اختص بها الإنسان وبها سعادته ، ألا ترى أن كمال كل شيء فيما اختص به ، فالفرس كماله في العدو السريع وأن يكون مكرا مفرا مقبلا مدبرا معا . وإذا عجز عن ذلك نزل إلى مرتبة الحمير وعومل معاملتها في الحمل والأعمال الخاصة بها . هكذا السيف كماله أن يكون صارما سريع القطع فإن تنزل عن هذه الدرجة الرفيعة استعمل استعمال السكين ونبذه الشجعان وخرج من الميدان . هكذا الإنسان لم يمتز إلا بالعقل والعلم فإذا ما كان غافلا نزل إلى رتبة أدنى من الحيوان ، أولئك كالأنعام بل هم أضل منها لأنها كاملة في ذاتها لقيامها بما يناسبها فاذا انحط إليها الإنسان وشاركها في منازلها فهو في خسران مبين .

إن الفطرة الإنسانية شاهدة بما قلنا فإنه وإن نال الإنسان ما يبتغيه من المال وما يحب من الجاه لا يفتأ يفرح بحلو الحديث وجمال العلم وتاريخ الفضلاء ويشتاق لذلك ويحرص عليه . ولقد ترى أكثر الناس جهلا وأبعدهم عن العلم مجلسا إذا عيروا بالجهل عدوه إثما عظيما وناوءوا من عيرهم وشاكسوه وذلك لأن فطرهم شاهدة أن كمالهم بالمعرفة ونقصهم بالجهل .

وترى الصبي يسأل أبويه عما حوله ليعرف أسباب الأشياء ومسبباتها ، كل ذلك شواهد ناطقة على ما قررناه وترى جميع الناس في مشارق الأرض ومغاربها من أي دين أو نحلة يجلون العظماء ويعظمون الحكماء وإن كانوا هم أنفسهم جاهلين لما ركز في طبائعهم ووقر في نفوسهم من شرف العلم وجماله واختصاصه بالإنسان .

تطابقت فطرة الإنسان وحاجته ، فكماله النفسي بالعلم وسعادته في الحياة بالعلم ، نظر الإنسان فرأى في نفسه شهوات لازمة وحاجات قائمة وعادات متراكمة فاحتال في تهذيبها وجد في تكميلها فكان علم الأخلاق ثم رأى زوجة وولدا وخدما فكانت سياسة المنزل ثم كان اجتماع أهل المدينة وكان لابد لهم من نظام وقوانين وحكام فكان سياسة المدينة .

قرأت الأمم العلوم الرياضية لتعرف السنين والحساب والمعاملات ثم الطبيعية لتستخرج بها ما في الأرض من منافع ، ونظرت في العوالم فأقرت بإله نظمها وحكيم أبدعها .

أهل المدينة كلما كانوا بالعلم مغرمين وعلى الفضيلة عاكفين ، كملت مدنيتهم وازدادت سطوتهم ، وكلما غفلوا عن ذلك ساءت حالهم وبئس المصير .

وأقدم أمة عرفها التاريخ في الحكمة قدماء المصريين وهكذا السريانيون وقس على آثارهم الكلدانيون ثم الفرس واليونان . وقد حمل الحكمة من هؤلاء أساطينها مثل (سقراط) وتلميذه (أفلاطون) وتلميذه (أرسطو) ولقد كان هذا أرسخهم في العلوم ولذلك يسمى المعلم الأول .

ولما انقرض أمر اليونانيين وصار الأمر للقياصرة نالوا من حكمة اليونان حظا عظيما ونبغ فيهم نابغون مثل (سنيكا) و (شيشرون) ولما تنصروا وهجروا تلك العلوم بقيت كتبهم في خزائنهم . ثم جاء الاسلام وظهر أهله عليهم وامتد سلطانهم . وعظمت شوكتهم ودانت لهم الأمم شرقا وغربا فاشرأبوا إلى ما نالته الأمم السالفة من روائع الحكمة وبدائع العلم والإحاطة بما في هذا الوجود على ما يقتضيه العمران ويتطلبه

الملك وتنظم به الدولة . وكان خالد بن يزيد بن معاوية ويسمى حكيم آل مروان رجلا فاضلا محباً للعلوم فأحضر جماعة من الفلاسفة وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة وغيرها من اليونانى إلى العربى وهذا أول نقل فى الإسلام .

ولما نسخت الدولة العباسية الدولة الأموية ودانت لها البلاد واستتب الملك أرسل أبو جعفر المنصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب (أقليدس) وبعض كتب الطبيعيات وقرأها المسلمون وفهموها وزادوا حرصا وشوقا إلى علوم الحكمة كما روى « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » فلما كان أيام المأمون وقد كان أشرب قلبه حب العلم وأغرم بالحكمة أرسل إلى ملك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك فأخذ منها واستوعب فترجموا منها الكثير وتلقاها النظار من أهل الاسلام بالقبول وعكفوا عليها ونبغوا فى فنونها . ولقد خالفوا المعلم الأول فى كثير من المسائل وردوا عليه ودونوا فى ذلك الدواوين وكثرت التآليف ، ثم إن العلماء الذين ترجموا الكتب للمأمون كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة جاءت كتبهم مخالفة مخلوطة غير ملخصة ولا محررة ولم توافق ترجمة واحد منهم الآخر فبقيت تلك التراجم غير معمول بها ولا نافعة إلى زمن منصور بن نوح السامانى فالتمس من أبى نصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ ﻫ أن يجمع تلك التراجم ويجعل من بينها ترجمة ملخصة محررة مهذبة مطابقة لما عليه الحكمة فأجاب الفارابى وفعل كما تقتضيه وسمى كتابه بالتعليم الثانى فلذلك لقب بالمعلم الثانى وبقى هذا فى خزانة المنصور إلى زمن السلطان مسعود من أحفاد منصور بن نوح كما هو مسودا بخط الحكيم الفارابى إذ لم تكن له عناية بجمع مصنفاته وإنما يغلب عليه السياحة على هيئة الصوفية مع الزهد والقناعة . وكانت تلك الخزانة بأصفهان وتسمى « صوان الحكمة » وكان الشيخ أبو على الحسين بن عبد الله بن سينا الطبيب الفيلسوف المولود (سنة ٣٧٥ ﻫ) المتوفى سنة ٤٢٨ ﻫ (سنة ١٠٣٦ م) وزير المسعود وتقرب إليه بسبب الطب حتى استوزره وسلم إليه خزانة الكتب فأخذ الشيخ الحكمة من هذه الكتب ووجد فيما بينها التعليم الثانى ولخص منها [كتاب الشفا] ثم إن الخزانة أصابها آفة فاحترقت وقد اتهم بعض الناس الرئيس بأنه أحرق الكتب لئلا يطلع الناس على الحكمة التى نقل عنها وهذا باطل لما يرى فى (كتاب الشفا) من تصريحه بأنه تلخيص التعليم الثانى .

ومن الحكماء فى هذه الأمة أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندى الفيلسوف من أمراء بنى كندة ، وكان من المكرمين لدى الخلفاء من المأمون إلى المتوكل ، ولد سنة ٢٤٠ فى البصرة ثم سكن بغداد واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية وبتأليف كتب فى الفلسفة والرياضات والطب والهيئة والموسيقى . وعدد مؤلفاته (٢٦٥) وأكثرها ضائع الآن .

ومن المترجمين ابن البطريق فى أيام المنصور بن يحيي الذى نقل المجسطى وإقليدس للمأمون وحسين ابن بهريق فسر للمأمون عدة كتب وكثير غيرهم . هؤلاء فى المشرق [1] أما فى المغرب فكان القاضى أبو الوليد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالأندلس ، فهؤلاء نشروا كتبهم فارتقت الدولة واستبحر العمران حتى إذا تغير الزمان وقلب ظهر المجن وذهبت الدولة نادى ابن خلدون فى مقدمته بالويل والثبور وقال « أيها الناس لا تغفلوا عن الصنائع والعلوم فقد ركدت ريح مدنيتكم وخر عليكم السقف من فوقكم فأصبحتم من الخامدين » .

(١) انظر ملا كاتب جلبى وابن أبى أصيبعة والقفطى إن أردت الاستيعاب اﻫ .

ولما فتح الترك (القسطنطينية) وقد نالوا حظا وافراً من العلم حرم بعض علماء الدين كتب الحكمة على المسلمين فآلت شمس الحضارة هناك إلى الغروب ونادي عالمهم (ملا كاتب جلبي) المتوفى فى القرن الحادى عشر الهجرى بالويل والثبور وقال ما ملخصه [كان شرف الرجل فى الأعصار السالفة بمقدار تحصيله وإحاطته بالعلوم العقلية والنقلية] وكان فى الدولة فحول ممن جمع بين الحكمة والشريعة كالعلامة شمس الدين الفنارى والفاضل قاضى زاده الرومى والعلامة خواجه زاده والعلامة على قوشجى والفاضل بن المؤيد وميرجلبي والعلامة ابن الكمال والفاضل ابن الحنائى وهو آخرهم . ولما حل أوان الانحطاط ركدت ريح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض المفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكمل فاندرست العلوم بأسرها إلا قليلا من رسومه فكان المولى المذكور سببا لانقراض العلوم من الروم كما قال العلامة شهاب الدين الخفاجى فى خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارة انحطاط الدولة اه .

فانظر كيف شكا علماء العرب والترك قديما من الجهالة العمياء والداهية الدهماء الحالة بالأمم الاسلامية من ترك العلوم الفلسفية . ولما كانت الأمم الاسلامية اليوم مستعدة للنهوض السارى فى أمم الشرق وأخذت تجد فى أسباب الرقى وأولها أمتنا المصرية فإنها قد استيقظت من رقدتها وقامت من نومتها من أيام المصلح الكبير المغفور له الحاج محمد على باشا رأيت أن أؤلف كتابا يجمع شتات العلوم الحكمية الباقية فى الكتب الموروثة عن القدماء خاليا من الشوائب ، سهل العبارة ، حاويا خلاصة الفن لا هو بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، واصلا القديم بالحديث بحيث يعرف القارئ إلى أين انتهى القدماء ، ومن أين ابتدأ المحدثون ، ليستغنى به عن سواه فان بعض الكتب القديمة معتاصة الفهم بعيدة الغور على المتوسطين فأقول ومن الله التوفيق :

﴿ تعريف الفلسفة ﴾

قد استبان فى المقدمة أن الإنسان محب للبحث والمعرفة ، مغرم بالاطلاع وكل له غرض يسعى ليدركه على مقتضى همته ومقصوده ودرجته فى الفهم ، وليس يعرو من هذه الصفة الشريفة إلا من غمرته اللذات وانغمس فى العداوات فاستعبدته الشهوتان البهيمية والسبعية ، فينحطون إلى أسفل الدركات فى البحث ويعكفون على معرفة عيوب الناس والحكايات المبتذلة ويتسلون بذلك عما تطالبهم به نفوسهم من المعرفة والعلم ويسرون بثلب أعراض الباحثين ليكون ذلك تعزية لهم وليسدلوا أستاراً وحجبا على مطالب أنفسهم وهم لها ظالمون .

لا يفتأ الإنسان يسأل ؟ من أين وإلى أين ؟ ولم ذلك ؟ طلب دائم . قال أرسطاطاليس [إن الدهشة أول باعث على الفلسفة] والكلمة المستعملة عند الأمم وهى (فيلسوف) تدل على ما تقدم ، فان كلمة (فيلو) معناها محب و (سوفيا) معناها الحكمة ، فالفيلسوف محب الحكمة . وقد أطلق لفظ فيلسوف فى هذا العصر عند العامة ببلادنا على من برع فى علم أو نبغ فى قوة الحجة والجدل أو أنكر الديانات أو أخذ يذم علماء زمانه ويقدح فى كفاءتهم فى المجالس فيقول الناس لولا أنه أعلم منهم ما سفه أحلامهم ولا رماهم بكل كريهة شنعاء . ويقابل لفظ الفلسفة عندنا الحكمة . ويقال [الفيلسوف الحكيم] .

الحكمة لا يتصف بها إلا من استكمل قوتى العلم بالرياضيات والطبيعيات والإلهيات والعمل بالأخلاق وتدبير المنزل وتدبير المدينة أو السياسة العامة . وباطل ما دار على ألسنة الناس فى زماننا من المعانى السابقة ولم ينل هذه المزية إلا قليل والتعريف المشهور لعلم الحكمة أنه علم يبحث عن حقائق الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية والمعتبر فى تلك الطاقة أوساط الناس الذين لا هم فى غاية العلو ولا فى نهاية السفل .

وأنت ترى أن هذا التعريف لا يشمل إلا القوة العلمية فمن كان عالما بتلك العلوم فهو حكيم . وقد خرج منها التنقل بالأخلاق وتدبير المنزل والسياسة . وقد جعل الرئيس (ابن سينا) ذلك العمل غاية الحكمة العملية . واعلم أن الحكمة لها (ثلاث درجات : الأولى) حب البحث . (الثانية) استكمال العلم (الثالثة) العمل به وهو الثمرة . والتعريف المتقدم شمل أهم هذه الدرجات وهو العلم . وقد جاء في [إخوان الصفاء] ماشمل الدرجات الثلاث وهو أن الفلسفة أولها محبة العلوم . وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم . وليس المعنى أن يعرف الإنسان كل شيء وإنما يزاول المعارف ويحيط بالكليات في العلوم التي سنذكرها ثم يختص بفن كالطب أوالهندسة مثلا. فأما أولئك الذين يقرءون بلا نظام مسائل شتى في المجلات والكتب فقط فهم عن الحكمة معرضون لأن العلوم الجزئية والمسائل الداخلة فيها لانهاية لها . ولو أن أمرأ قرأ علم الحيوان أوالنبات وأضاع فيه عمره لم يحط به ولم يأت على آخره وإنما بقراءة العلوم الجامعة الآتية يصبح هذا العالم عنده حاضرا في عقله بصفة عامة حتى إذا صادفه شيء من مسائل العلوم الجزئية زادته علما وعرف مكانتها من نفسه وضمها إلى أخواتها ، وليس يكون ذلك النظام إلا بالاطلاع على علم الفلسفة ودرس علومها ، ومامثل الحكماء مع العلماء والأمم إلا كمثل الملوك مع الوزراء والأمراء وجبية الدولة أوكمثل رئيس الجيش بالنسبة للقواد .

﴿أقسام العلوم الحكمية﴾

العلوم الحكمية (أربعة أنواع) : الرياضيات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات ، فالرياضيات (أربعة أنواع) : الارثماطيقي وهو علم العدد ، والجومطريا وهو الهندسة ، والأسطرونوميا ، والموسيقى .

فالإرثماطيقي هو علم العدد وماهيته وكيفيته وخواصه . وهذا العلم أصل الحكمة ومبدأ المعرفة ويبحث فيه النسب العددية والهندسية والتأليفية وثمرتها التوصل إلى حقائق المعارف وتبيان أن هذه العوالم المختلفة الأشكال ، والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة انتظمت واتحدت وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية أما إذا جمعت على النسبة التي لم تعتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولاتتفق ، فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلالها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذي لايهتم به إلا الفلاسفة وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاف اهـ . ومنفعة هذا العلم أنه يعود الذهن على النظر في المجردات عن المادة ولواحقها ولذلك كانت القدماء تقدمه في التعليم على سائر العلوم وأن الأعداد كما نشأت من الواحد وهو ليس بعدد هكذا نشأ العالم عن الله . ومن الكتب المختصرة فيه سقط الزند في علم العدد ومن المتوسطة الارثماطيقي الذي من كتاب الشفاء ومن المبسوطة كتاب نيقوماخس الجهراسيني . وهذا الفن يدخل فيه براهين الحساب وقد ألف فيه المتقدمون وأدخلوه في التعاليم ولم يفردوه بالتأليف كما فعل (ابن سينا) في الشفاء والنجاة وغيره . أما المتأخرون فهو عندهم مهجور وليس بمتداول لأنهم أخذوا مايحتاجون إليه منه في الحساب البرهنة فحسب كما فعله (ابن البنا) في رفع الحجاب مثل المتوالية العددية والمتوالية الهندسية. وأما المهجور فمثل مايأتي هنا. إن عدد (٥) دائر أي يحفظ الآحاد والعشرات وهي (٢٥) إذا ضرب في نفسه مرات بالغا مابلغ ، وإن هذه الخاصة لايشاركه فيها سواه .

﴿الهندسة﴾

وأما الجومطريا فهو فن الهندسة وبيان ماهيتها وكمية أنواعها وأحوال المقادير ولواحقها وأوضاع بعضها عند بعض وموضوعه الجسم التعليمي والسطح والخط ولواحقها من الزاوية والنقطة والشكل . وأول ماترجم من اليوناني للعربي في هذا العلم (كتاب الأركان) لإقليدس أيام أبي جعفر المنصور . واختلفت نسخه باختلاف المترجمين كحنين بن إسحاق وثابت بن قرة ويوسف بن الحجاج ويحتوي على خمسة عشر مقالة وقد

اختصره الناس اختصارات كثيرة كما فعله ابن سينا فى تعاليم الشفاء ومثله (ابن الصلت) فى كتاب الاقتصار .

وكما أن فن خواص الأعداد المتقدم يرقى الذهن فى فهم الأمور العالية والمجردات من المادة ويوقظ الذكر هكذا الهندسة يشرق عقل المشتغل بها ويستقيم رأيه لما يرد عليه من البراهين البينة والأحوال المنظمة والأشكال المتقنة والعقل يعتاد ما عود ويكون مزاجه بحسب ما ارتسم فيه وهو هنا الدقة والنظام والصدق والحق كما أن الجسم يصح ويستقيم إذا جاد غذاؤه وتباعدت عنه أسباب الفساد .

﴿ علم الفلك ﴾

وأما (الأسطرونوميا) فهو علم النجوم وصفة البروج وسير الكواكب ويتبين فيه تاريخ آراء الفلاسفة فى العصور المختلفة فى سير الشمس ويبين ماذكره القدماء من الرأيين ، الرأى القائل بدوران الأرض حول الشمس والرأى القائل بدوران الشمس حول الأرض وأدلة الفريقين المبسوطة فى المواقف وبيان ترجيح الرأى الأول وأن ذلك كان قبل ظهوره للافرنج بنحو مائة وخمسين سنة ، ويبين فيه حساب الشمس والقمر والسنين الشمسية والقمرية وسير الكواكب والفصول الأربعة ، ويذكر المذاهب الحديثة بطريق الإجمال من أن فى العالم شموسا كل شمس لها سيارات ونحن فى مجموعة من تلك المجموعات وبعضهم كان يلحق بهذا الفن علم تخطيط البلدان .

﴿ الجغرافيا ﴾

وهو صورة الأرض والأقاليم السبعة والدرجة الأرضية التى تنتهى إليها ومعرفة الجبال والبرارى والأنهار والمدن والقرى ومسالكها وعلم الهيئة عند القدماء والمحدثين إنما يتم بالرصد وكلما أتقن ازداد العلم وكلما قل كان العلم على حسبه ، وكتاب المجسطى الذى ألفه بطليموس جامع لمقصود هذا العلم وقد اختصره (ابن سينا) فى الشفاء وابن رشد وابن السمح وكذلك ابن الصلت فى كتاب الاقتصار .

﴿ الموسيقى ﴾

وأما الموسيقى فهو علم يتبين فيه قوانين النغمات والألحان وتأثيرها فى نفوس السامعين تأثيرا بينا يضارع ما تفعله العقاقير الطبية فى الأجسام الحيوانية ويبين فيه النسب العددية والتأليفية وثمرتها التوصل إلى حقائق المعارف وتبيان أن هذه العوالم المختلفة الأشكال والصور والصفات إذا جمعت على النسبة المتعادلة اتحدت وكان منها ثمرتها ونتائجها المرضية . أما إذا جمعت على النسبة التى لم تعتدل فإنها تتنافر وتتباعد ولا تتفق . فاعتدال الأشياء بالنسبة الصحيحة واختلافها بالنسبة المنحرفة . وفيه ذكر الحساب الذى لا يهتم به إلا الفلاسفة وليس لكتاب الدواوين فيه من خلاق . وهذا الفن كفن الشعر تتركب أصولهما من (ثلاثة) : السبب والوتد والفاصلة (الأول) مثل : (هل . بل) (والثانى) مثل: (نعم بلى) ومثل : (نحن وكنت وشئت) (والفاصلة) مثل : (فهمت ورضيت) . والذى تركب من الغناء فى اللغة العربية ثمانية أنواع : الثقيل الأول وخفيفه والثقيل الثانى وخفيفه . والرمل وخفيفه . والهزج وخفيفه. وسنفصله. وهذا الفن يحتاج إلى(ثلاثة علوم): النحو والحساب والشعر . وألف فيه أبو نصر الفارابى وابن سينا فى جملة كتاب الشفاء وصفى الدين بن عبد المؤمن وثابت بن قرة الصابى وأبو الوفا البورجانى .

ومنفعة هذا العلم بسط الأرواح وتعديلها وتقويتها تارة وقبضها تارة أخرى . أما الأول فيكون فى الأفراح والحروب وعلاج المرضى وبه يظهر الكرم والشجاعة ونحوها . وأما الثانى فيكون فى المآتم وبيوت العبادات فيقبض النفوس عن هذا العالم ويحركها إلى مبدئها فتفكر فى العواقب وهذا آخر ما يحدث من الصناعات فى الدولة لأنه كمالى وأول ما ينقطع من العمران عند اختلالها .

(ملحقات الرياضيات)

قد تفرع عن الارثماطيق من العلوم: علم الحساب المفتوح. والتخت. والميل. وعلم الجبر. والمقابلة وعلم الدرهم والدينار وما شابه ذلك وتفرع عن الهندسة علم : البنكامات (آلات قياس الزمن) وعلم جر الأثقال . وعلم استنباط المياه. وعلم الآلات الحربية. وعلم المساحة. وعلم مراكز الأثقال. وعلم المرايا المحرقة. وعلم عقود الأبنية لمعرفة أوضاع الأبنية وشق الأنهار. وتقنية القنا لعمارة المدن والقلاع. ويتفرع على علم الفلك: علم الزيجات والتقاويم. (تنبيه) الفيلسوف إنما يدرس العلوم الأصلية . أما الفروع كعلم المساحة وعلم الآلات الحربية فإنما تدرس فى مدارس خاصة للأعمال النافعة . انتهى فن الرياضيات .

(المنطق)

(وهو القسم الثانى من علوم الفلسفة الأربعة)

المنطق قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد فى الحدود المعرّفة للماهيات والحجج المفيدة التصديقات والطرق الموصلة للتصور والتصديق، إما أن تكون صحيحة وإما أن تكون فاسدة وتمييز أحدهما من الآخر إنما يكون بتلك القوانين ، وقد كان المتقدمون يتكلمون به جملاجملا لم يهذب طرقه ولم ترتب أصوله حتى ظهر (أرسطو) فهذب مباحثه ورتب مسائله وجعله أول العلوم الحكمية والنظر فى هذا العلم على (قسمين) : نظر فى صورة القياس، ونظر فى مادته ، فالنظر فى صورة القياس يكون (أربعة أقسام : القسم الأول) الكليات ويسمى إيساغوجى وهى الجنس والفصل والنوع والخاصة والعرض العام. (القسم الثانى) الأجناس العالية وتسمى (قاطيغورياس) وهى المقولات العشرة مثل: الجوهر والكم والكيف وكل واحد منها إسم لجنس من الأجناس وجميع ما فى العوالم من أجسام وعناصر وصفات وأحوال داخلة تحت هذه الألفاظ وبمعرفتها يتصرف عقلاء المنطق بالدليل فى كل ماشاهدوه أوعقلوه وإليها ترجع جميع الأجناس وفصولها وأعراضها وخواصها. (القسم الثالث) القضايا التصديقية وتسمى (باريمنياس وأنواعها) وبيان النقيض والممكن والممتنع والعكس والإيجاب والسلب. (القسم الرابع) القياس ويسمى (أنولوطيقيا الأولى) والنظر فيه على (قسمين : الأول) فى صورته من أنه حملى وشرطى وصورة إنتاجه سواء أكان ظنيا أم يقينيا أم غيرهما وأنه ميزان الحكمة يزن به الحكماء حججهم فى المناظرات والآراء والمذاهب ، وضعه الفلاسفة إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل وهذا آخر النظر للمنطق فى صورة القياس وهو ينتج إنتاجا صحيحا إذا استوفيت الشرائط ويكون على حسب المادة التى صيغ منها فقد يفيد اليقين وقد يفيد الظن وقد يكون كاذب النتيجة وإن وقع فى الوهم أنها صادقة . (القسم الثانى) النظر فى مادة القياس وهو (خمسة أنواع : النوع الأول) البرهان ويسمى (أنولوطيقيا الثانية) وسنذكر له شروطا ككونه ذا مقدمات يقينية كالبديهيات والمشاهدات والمجربات ، ويذكر فى هذا المقام المعرفات والحدود لأن المطلوب بالبرهان اليقين فى التصديقيات وبالحدود اليقين فى التصورات فجعلها القدماء فى كتاب واحد . (النوع الثانى) الجدل وهو لايقصد منه اليقين وإنما يراد منه قطع الشاغب وإفحام الخصم ويستعمل فيه المسلمات والمشهورات كالمناظرات الفقهية المذهبية ، كل يرد على صاحبه باعتبار ماهو مسلم عنده . (النوع الثالث) الخطابة وهى القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم كجميع مقالات الوعاظ الحاثة على الصدق ونحوه إلخ. (النوع الرابع) السفسطة وهى القياس الذى يفيد خلاف الحق ويغالط به المناظر صاحبه وإنما يتعلم لأنه يعرف به قياس المغالطة فيحذر منه كقولك فى صورة فرس هذا فرس وكل

فرس صاهل . (النوع الخامس) الشعر . وهو القياس الذي يفيد التخييل والتشبيه خاصة للاقبال على الشيء والنفرة منه كأن تقول فى العسل هذا قيء الزنابير فينفر منه السامع .

﴿ ضرب مثل لمادة القياس وصورته ﴾

ولنضرب مثلا لمادة القياس وصورته بالدينار وغشه . إن الدينار المصنوع من ذهب له مادة وصورة ، فالصورة هي الإستدارة والنقش وجمال الصنعة والمادة هي الذهب والفضة . والذهب إما أن يكون إبريزا لا غش فيه . وإما أن يكون قليل الغش وإما أن يكون ذهبا كثير الغش وإما ألا يكون ذهبا أصلا هكذا الاعتقاد وهو مادة القياس إن كان لا يخطر نقيضه بالبال فهو البرهان كقولك عدد (١٦) عدد مربع مجذور وكل عدد مربع مجذور إذا زيد عليه جذراه وواحد فهو مجذور وإذا نقص منه جذراه إلا واحداً فالباقى عدد مجذور ينتج عدد (١٦) وإذا زيد عليه جذراه وواحد فالعدد المجتمع مجذور وإن نقص منه جذراه إلا واحد فالباقى مربع مجذور . فهذا قياس حملى مقدمتاه يقينيتان ونتيجته كذلك . وإن كان الاعتقاد مقاربا اليقين مقبولا فى الظاهر ولا يشعر بإمكان نقيضه إلا دقيق الفكر فهو الجدل . وإن كان ظنيا إقناعيا مع خطور نقيضه بالبال بسهولة فهو الخطابة . وإن كان مشبها اليقين أو المشهور فى الظاهر وليس كذلك بالحقيقة فهو السفسطة .

ثم إن الخامس وهو القياس الشعرى ليس يدخل فى إفادة يقين ولا ظن ولا مغالطة فالمخاطب قد يعلم حقيقته وإنما يذكر لترغيب الجمهور أو لتنفيره أو تشجيعه كما ينفر من الحلو الأصفر بتشبيهه بالمذرة وكما ينفر من شرب العسل فى المحجم النظيف . ومن هذا القبيل الحض على الفتك بقول القائل :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد   وشفت أنفسنا مما نجد
واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد

فهذا القول حمل سامعه على الإسراع بالفتك بأعدائه ، وكالحض على التهور وعدم الحزم فى الحرب كقول المتنبي رحمه الله تعالى :

يرى الجبناء أن الجبن حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم

فإنه جعل الحزم جبنا كما ذكره الامام الغزالى ولذلك فتكت بقائله يد المنون واغتالته غوائل الموت وهو يناوئ من هم أقوى منه بطشا وأكثر جمعا وأوفر عددا فطاح بتهوره وورى فى الرمس وذلك جزاء المتهورين انتهى القياس الشعرى .

هذا ، ولقد ترجمت هذه كلها فى الملة الاسلامية ، فترجم المقولات (حنين) وفسرها (فرفوريوس) والفارابى ، وترجم حنين القضايا من اليونانى إلى السريانى . ونقل (متى) نقل إسحاق إلى العربى وشرحه الفارابى وتداول المسلمون هذه الكتب بالشرح والتلخيص . وألف فيها الفرابى وابن سينا فى كتاب الشفا وابن رشد .

ولقد تصرف المتأخرون فى المنطق فنقلوا الحدود من البرهان إلى الكليات الخمس وحذفوا المقولات العشرة ولم يبشوا بعلوم المادة الخمس كما هو متداول الآن فى الأقطار الاسلامية مع أن المنطق بغير ذلك شجر بلا ثمر وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الجهل عنده فأوقعه فى الخبال

ثم إن هذه الصورة المنقوصة من المنطق أطال المتأخرون فيها الكلام كأنه علم مستقل بنفسه مع أنه آلة لغيره . وأول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده (أفضل الدين الخونجى) ويدرس فى زماننا كتاب إيساغوجى لأثير الدين الأبهرى المتوفى فى حدود المائة السابعة الهجرية وكتاب الشمسية فى القواعد المنطقية لعمر بن على الكاتبى القزوينى من أهل القرن السابع الهجرة تلميذ (نصير الدين الطوسى) المطبوعة ولها شراح كثيرة ، وكتاب الخبيصى وغيرها من الكتب فيجب العدول عن هذا النهج إلى ماهو أتم وأكمل . انتهى الكلام على العلوم المنطقية .

﴿القسم الثالث العلوم الطبيعية من العلوم الفلسفية العملية﴾

العلم الطبيعي مايبحث فيه عن الجسم من جهة مايلحقه من الحركة والسكون في العوالم العلوية والسفلية من السموات والعناصر وما يتولد عنها من نبات وحيوان وإنسان ومعدن وما في الأرض من زلازل وعيون وما في الجو من سحاب وبخار ورعد وبرق . وقد ألف فيه (أرسطو) وقد ترجمت كتبه مع غيرها من العلوم أيام المأمون وحذا الناس حذوها كابن سينا في كتاب الشفا وفي النجاة والإشارة . ويخالف (أرسطو في كثير من المسائل بخلاف (ابن رشد) فإنه لخص كتبه تابعا له غير مخالف، وقد شرح كتاب الإشارات الإمام ابن الخطيب والآمدي ونصير الدين الطوسي .

﴿أقسام العلوم الطبيعية﴾

العلوم الطبيعية (ثمانية): سماع الكيان، السماء والعالم، الكون والفساد، الآثار العلوية، المعادن، النبات، الحيوان الانسان :

(١) سماع الكيان : يبين فيه الهيولى والصورة والحركة والزمان والمكان وما يخص الجسم من الأعراض الزائلة واللازمة .

(٢) السماء والعالم : يبين فيه هيكل العالم ونظامه العام في أفلاكه وكواكبه وطبقاته .

(٣) الكون والفساد : يبين فيه كيف يتكون المعدن والنبات والحيوان من العناصر ، ثم يبين الرأى الحديث القائل (إن المعادن السبعة غير مركبة من العناصر) ثم ينظر أي الرأيين أقرب للصدق .

(٤) الآثار العلوية : يبين فيه ما في الجو من حوادث الحر والبرد والسحاب والمطر والثلج والبرد . والرعد والبرق وقوس قزح والهالات ، وكيف كان منشأ السحب من البخار ثم يدفعها الهواء إلى الأودية فتصدها الجبال فتمطر على اليابسة ، وغير ذلك من النور والظلمة وتصاريف الرياح من الأنهار والبحار ، وما يكون منها من الغيوم والضباب والطل والندى والشهب وذوات الأذناب وما شاكل ذلك .

(٥) تكوين المعادن : مما في التراب والطين والأرض السبخة كالكباريت والأملاح والشبوب والزاجات أو في قعر البحار كالدر والمرجان ، أو في كهوف الجبال وجوف الأحجار وخلل الرمل كالذهب والفضة والنحاس .

(٦) علم النبات : يذكر فيه أجناسه وأنواعه وخواصه ومنافعه ومضاره ، وأن مرتبة النبات متصلة بالمعادن من أدناها مرتبطة بالحيوان من أعلاها ، وبيان أن منه ماينبت في البرارى والقفار ومنه ماينبت على رءوس الجبال ، ومنه ماينبت على شطوط الأنهار ، ومنه مايكون في الآجام ، ومنه ما يغرسه الناس في القرى والبساتين، ومنه مايكون تحت الماء ، ومنه ماينبت على وجه الماء ، ومنه ماينسج على الشجر ، ومنه ماينبت على وجه الصخور ، وهكذا من الأحوال والأوصاف والأشكال والأزهار والأوراق والقضبان وماأشبه ذلك ، ويبين فيه القوة الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والنامية والغاذية والمولدة وماأشبه ذلك من الأوصاف الظاهرة والباطنة .

(٧) علم الحيوان وعجائبه وطبائعه . إنه متصل بالنبات من أدناه مرتبط بالإنسان من أعلاه وبيان أن الحيوانات الناقصة الخلقة مقدمة بالوجود على الحيوانات التامة الخلقة، وأن حيوان الماء متقدم بالوجود على حيوان البر ، وأن الحيوان متقدم الوجود على الإنسان ، ثم بيان أن التي تلد أعلى

من التي تبيض والتي تبيض أعلى من التي تتكون في العفونات ولاتعيش سنة كاملة لأنها يهلكها الحر والبرد . وكيف كان بعضها آكلا كالآساد وبعضها مأكولا كالأرانب والغزلان ، وما حكمة ذلك ؟ ومافوائده ؟ ثم بيان تناسلها وتوالدها واختلافها في ذلك وتربيتها أولادها واتخاذها أعشاشها وبيان سكان الماء والهواء والبر والتراب كالسمك والطير والأنعام والهوام وبيان قوة الحس والحركة في سائر الحيوان .

(٨) الإنسان : وتركيب جسده ، وبيان حواسه الخمس من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وأن صور محساتها تصل إلى الحس المشترك في الدماغ وبيان أن تلك الحواس جسمانية من جهة الظاهر معنوية روحية من جهة الباطن لاتصالها بالأجسام أولا وبالحس المشترك آخرا . فأما الحس المشترك الذي هو كالمركز للحواس المؤدية إليه فهومعنوى روحانى . ثم بيان أن معارف الإنسان من (ثلاث طرق): الحواس والعقل والبرهان الذي يختص به العلماء والحكماء . وأن للمدركات بطريق اللمس (عشرة أنواع) وبطريق الذوق (تسعة أنواع) وبطريق الشم (اثنان) وبطريق السمع (خمس) وبطريق البصر (عشرة أنواع) فجميع ماتدركه الحواس ست وثلاثون نوعا من المدركات وبيان أسباب خطأ الحواس وكيف احتاجت إلى العقل ليذلل سبلها وتستبين السبل وتظهر الحقائق وغير ذلك من عجائب العلم وبدائع الحكمة . ثم الكلام على إجمال العلوم الطبيعية .

﴿ القسم الرابع العلم الإلهى أو الكلى ﴾

ـ وهو علم يبحث في كل الموجودات من حيث تعينها وتكونها وتحقق حقائقها وما يعرض لها ونسب ما بينها وما يخصها من حيث هي موجودات وهو أنواع :

[النوع الأول] في الأمور العامة مثل الوجود والماهية والوحدة والكثرة والوجوب والإمكان والامتناع والقدم والحدوث والأسباب والمسببات .

[النوع الثانى] النظر في مبادئ العلوم كلها وتبيين مقدماتها .

[النوع الثالث] النظر في إثبات وجود الإله الحق والدلالة على وحدته وتفرده بالربوبية وإثبات صفاته وبيان أنها لاتوجب كثرة في ذاته .

[النوع الرابع] النظر في إثبات الجواهر المجردة من العقول والنفوس والملائكة ومأأشبه ذلك .

[النوع الخامس] أحوال النفس البشرية بعد الموت ومفارقتها الهياكل الإنسانية وحال المعاد وكيفية ارتباط الخلق بالأمر .

هذا آخر القسم العلمى ، وهذا العلم يسمى أيضا (علم ماوراء الطبيعة) ولخصه (ابن سينا) في كتاب الشفا والنجاة والإشارات وكذلك لخصه ابن رشد من علماء الأندلس . ولقد حدث في الأمة الإسلامية بدع ومقالات خالطت العقائد فأورثت شيا أدت إلى انقسام الأمة شيعا وأحزابا كل يؤيد رأيه ويقوى مذهبه ، ومن أسباب ذلك انتشار الفلسفة اليونانية ، ألا ترى أن الإمام الغزالى ألف كتابا سماه (تهافت الفلاسفة) يدحض به بعض المسائل الفلسفية وهى قليلة جدا ، ثم هو أيد أن باقيها موافق للدين غير مخالف له ورد عليه ابن رشد بكتاب سماه (تهافت التهافت) ثم جاء آخر ووضع كتابا ليحكم بينهما ، فهذا وأمثاله أدى إلى تدخل مسائل العلم الإلهى في علم الكلام المسمى بعلم التوحيد أيضا الذى وضعه علماء الاسلام لرد الشبه والبدع التى استهوت الكثير من الأمة الاسلامية ، ولقد تجاوز الحد قوم من الذين لاتحقيق عندهم فظنوا كل ماتسب للفلسفة زورا وذلك منهم جهل وغرور ، ولقد صار علم الكلام فيما يحوى كثيرا من علوم الفلسفة كما ترى

فى كتاب المواقف وأمثاله ، وتراهم مزجوا العلم الطبيعى بالإلهى وأصبح من لاعلم عنده يظن أن علم الكلام والعلم الإلهى واحد وليس كذلك . إن علم الكلام أدلته شرعية جاءت عن صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، أما أدلة الإلهيات فانها صادرة عن العقل البشرى بعد قراءة الرياضى والطبيعى . فأما تخلل مسائل الفلسفة من الطبيعى والإلهى فى علم الكلام والاستدلال بأدلتها فذلك ليس مقصودا لذاته ، وإنما ذكر ليقوى ماورد فى الدين السمعى فتكون تلك الأدلة العقلية لتقوية النقلية ولإفحام الخصم وإثبات العقائد عند من لايصدق بالسمع وإنما دعا المتكلمين إلى ذلك مقالات الذين ادعوا الفلسفة وهم لم يستوعبوها فعارضوهم بأدلة من القبيل الذى استهواهم ، وعلى ذلك كان إدخال الطبيعيات والالهيات فى هذا العلم وتصحيح مسائلهما وإبطالها ليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس أنظار المتكلمين ، وإنما الموضوع هو الرد على المعارضين والملحدين ، ثم إن الصحابة والتابعين كانوا على سنن الحق وطريق الهدى والإعراض عن زخرف الدنيا . ولما كثر الإقبال على الدنيا اختص أولئك المتبتلون باسم الصوفية نسبة للبس الصوف كما قيل فكان لهم كلام فى المجاهدات والأذواق والمقامات والكشف وعلم الغيب والتصرف والشطحات والقول بوحدة الوجود كما فى كلام ابن دهقان والوحدة كما فى كلام الهروى فى كتاب (المقامات) وغيره ، وتبعهم ابن العربى وابن سبعين ومن تبعهم كابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلى فى قصائدهم وكلامهم ككلام الإسماعيلية المتأخرين من الرافضة القائلين بالحلول ، وبأن الأئمة آلهة لأن سلف الطائفتين كانوا قد اختلطوا من قبل هؤلاء فدخل المذهبان وتشابه الرأيان فهؤلاء الصوفية خلطوا كلام علماء الكلام الإسلامى بالعلم الإلهى الفلسفى من الوجدانيات الذوقية الخاصة بهم وليس عليها دليل سمعى ولا عقلى . فثبت إذن أن العلم الإلهى مستمد من العقل وعلم الكلام مستمد من الشريعة وعلم التصوف مستمد من ذوق أربابه وليس للدليل العقلى ولا النقلى فيه من سبيل ، فهذا تحقيق المقام ، فاذن هذه العلوم الثلاثة متباينة .

﴿ العلوم العملية ﴾

أما العلم العملى فهو (ثلاثة أقسام : الأول علم الأخلاق) فى البحث عن (القوى الثلاث) الشهوية والغضبية والعاقلة ثم العفة للشهوة ، والشجاعة للغضب ؛ والحكمة للعقل ثم العدل ومايتفرع على ذلك كله من الرذائل والفضائل من البخل والتبذير والكرم والحلم وماأشبه ذلك . (الثانى) علم تدبير المنزل فى معرفة معاشرة الأهل والخدم وسياستهم ونظامهم مثل أنه يجب على رب الأسرة أن يسير معهم على نمط واحد ووتيرة لايغيرها حتى لاينهدم إذا تغيرت أخلاقهم إلى غير ذلك . (الثالث) السياسة المدنية ، هو علم يبحث فيه عن أنواع الجامعة الانسانية كالجنس والدين والوطن واللغة والملك الجامع للأمة ، وكيف كانت هذه تنافى حال المدينة الفاضلة ثم النظر فى أن سياسات الأمم مبنية على عقائدها ، ثم بيان المدينة الفاضلة والمنحرفة والجاهلة مما أوضحه الفارابى فى كتابه كتبيان أن نظام المدينة الفاضلة يرجع إلى نظام الجسم الإنسانى مقيسا عليه فى الأعضاء الخادمة والمخدومة المفصلة فى علم التشريح ، وبيان أن نظام الأمة يرجع إلى الزراعة والتجارة والصناعة والإمارة وأن الإمارة على العامة للوعاظ وعلى الخاصة للحكماء وعليهما معا للأنبياء وعلى الأجسام فقط للملوك والأمراء انتهى الكلام على العلوم العملية .

فهذه (سبعة عشر علما) أربعة فى الرياضيات . فالمنطق فثمانية فى الطبيعيات والعلم الإلهى فالعلوم العملية الثلاثة وإلى هنا تم الكلام على (سورة لقمان) والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة السجدة

هى مكية

إلا من قوله تعالى «فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين» إلى قوله تعالى «ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون» فمدنية)

(آياتها ثلاثون ــ نزلت بعد المؤمنون)

هذه السورة قسمان

(القسم الأول فى تفسير البسملة)

قد تقدم فى (سورة الفاتحة) الكلام على الرحمة العامة وفى (سورة هود) الكلام على رحمة الحيوان وتقصير بعض الأمم الإسلامية فى رحمته بسبب الصيد بلا قيد وبلا شرط وهناك الأحاديث الواردة فى تلك الرحمة ، وفى (سورة الروم) بيان أن مايعترى الحيوان من الألم والمرض والجوع والعطش ، كل ذلك يقصد به نفعه فالجوع هو اللغة التى يخاطب بها الحيوان ليأكل والمرض إنذار ليطلب الدواء وهكذا ، وفى (سورة لقمان) استبان الكلام على معانى (الله . الرحمن . الرحيم) وأن الله والرحمن اسمان خاصان بالله تعالى، وبيان أن من عرف أسماء الله ولم يفهم معناها أو فهمه بلا بحث فهو جاهل ، بل هو لم يفق فى ذلك البدوى القح فى البادية وإنما معرفة أسماء الله تعالى يجب أن نلحظ فيها معرفة الآثار التى تقتضيها تلك الأسماء . ومن اطلع على ماجاء فى هذا التفسير أو أكثره حصل عنده علم لاشك فيه ووثق وثوقا بالمشاهدة أن الرحمة عامة شاملة وأن هذا الوجود منظم نظاما مدهشا ، وأن هناك عناية تفوق كل وصف وتقدير ، فبهذه وحدها تكون السعادة النفسية والحكمة العقلية العملية ويكون هذا الاعتقاد كالمحسوس المشاهد ، بل كالقضايا البديهية التى لاتقبل الشك . وهناك ترى كيف تؤثر تلك المشاهدة فى الآثار رحمة فى قلب المؤمن فإن من أعجب بصفة لامحالة يود الاتصاف بها ، وعلى ذلك تراه يعطف على الفقير والمسكين كأن ذلك غريزة فيه لأن الصفة التى شاهد آثارها قد أثرت فيه فهولذلك رحيم ، وهذا هو التخلق المطلوب إذ يتخلق بأخلاق الملائكة فيقرب من ربه ، وهناك ترى البحث الهام (كيف يتخلق العبد بأخلاق ربه والله ليس كمثله شىء؟) وبيان أن هذه الشبهة إنما تحضر عند العامة وصغار العلماء وهى شبهة واهية داحضة لأن الله موجود والناس موجودون ، حى ونحن أحياء . وهكذا نقول فى الصبر والشكر والقدرة والعلم والسمع والبصر والكلام . كل ذلك لاينكره مسلم فى الأرض ، فهذه الصفات مشتركات بين العبد والرب ، فلو كان هذا الاشتراك يوجب المماثلة المنوعة لكان جميع المسلمين مشبهة وهو باطل ، إذن المشاركة الممنوعة هى التى تكون فى نفس مقومات الذوات وذات الله وصفاته لايعرفها إلا هو . وإذا كان الساحر لايعرف سحره على وجه الحقيقة إلا ساحر مثله فما بالك بالنبى صلى الله عليه وسلم وما بالك بالله تعالى ؛ فاذاكان الناس جميعا قد يئسوا من النبوة بعد الأنبياء فلايمكن أن يدركوا معنى النبوة على وجه التحقيق ، وإذاكان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم وجميع الناس فى الأرض لايمكن أن يتصفوا بصفة الله ولايكونون آلهة فمحال عليهم أن يعرفوا الذات الإلهية ولاحقيقة الصفات وإنما تتجلى لهم المعانى التى دلت عليها الأسماء الدالة على الصفات السبع وعلى الذات الواجب الوجود الخ . وعلى مقدار علمهم بتلك المصنوعات يكون إشراق نفوسهم كل بقدره . راجعه هناك فإنه واضح ولكن لابد أن أوضح مالم أكن

لأوضحه هناك فإن صاحبي العالم الذى اعتادمناقشتى فى هذا التفسير قال لى إنه ليحسن بك أن تبين معنى كون النبي ﷺ رءوفا رحيما فى قوله تعالى «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم» وهاهنا فى البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) فالله رحيم والنبي رحيم والله سميع وبصير ونحن كذلك . فقلت إن الشمس سراج كما قال الله تعالى «وجعلنا سراجا وهاجا» والسراج أيضا مانوقده فى منازلنا . قال نعم . قلت فالذى فى منازلنا سراج يوقد إما من (البترول) وهو السائل المستخرج من الأرض ، وإما من الغاز المستخرج من الفحم ، وإما من شمع العسل ، وإما من زيت الزيتون وغيره ، وإما من شحم الحيوان ، وإما من الكهرباء . فكل سراج فى الأرض إما من معدن أونبات أو حيوان وأنت تعلم أن الأرض قطعة من الشمس وأن كل نبات وحيوان مستمدات أنوارها وحرارتها المخزونة فيها من نور الشمس مع أنا نسمى ذلك سراجا والشمس سراج . فإذا كانت الشمس الحادثة تسمى سراجا باسم القنديل الذى نضعه فى منازلنا وما القنديل إلا أثر من آثار الشمس وضوؤه بالنسبة لها كالعدم بالنسبة للوجود . أوكالخيال بالنسبة للحقائق . أفلا يسهل هذا المثال علينا كيف يكون الله رحيما والنبي صلى الله عليه وسلم رحيم . وكيف يكون الله سميعا بصيرا ونحن كذلك ؟ وهنا ظهر المقام ظهور الشمس لأولئك الذين لايفقهون العلم إلا بضرب الأمثال ؟ وبهذا زالت الشبهة التى تخفى على عقول أكثر الناس وهذا قول الله تعالى « ليس كمثله شئ وهو السميع البصير » فعدم المماثلة فى الحقائق الذاتية ، وليس إثبات السمع والبصر له مقتضيا للمماثلة بل ذلك مجرد مشاركة فى أوصاف نسبة صفات العبد فيها إلى صفات الله تعالى كصفات سراجنا إلى الشمس. فسراجنا ثمرة من ثمرات الشمس وهو بالنسبة لها كالخيال بالنسبة للحقيقة هكذا قدرتنا وعلمنا وكلامنا وحياتنا فكلها على هذا النمط مشاركة فى الاسم وضرب مثل لاغير . وإنما ذكرت هذا الملخص هنا لتعلم أن ما أكتبه الآن غير ماتقدم كله . ولأقدم لك مقدمة فأقول أنا أكتب هذا المقال ليلة الاثنين ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ م أذكر فيه مازاولته من العمل يوم الجمعة (١٨) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وإنما أذكر ذلك لأنى كنت فى نفس العمل أفكر فى هذه المعانى ياسبحان الله اللهم إنى أحمدك وأشكرك على نعمة العلم والحكمة . خرجت من القاهرة صباح ذلك اليوم ولست أقول إلا ماقلته من قبل وهو أنى إذا ركبت قطار سكة الحديد الواصلة من القاهرة إلى محطة المرج أنتهز فرصة الذهاب إلى مزرعتنا وأمشى على قدمى علما منى بأن الله عز وجل هيأ لى هذه الفرصة لأنتهزها طلبا للصحة واستنشاقا للهواء ونظرا للحقول ودرسا يقرؤه المسلمون . فبهذا المشى تكون صحة البدن ودرس العلم. وبيانه أنى فى ذلك اليوم لم أرد أن أسير فى الطريق المسلوك ولا أدرى لهذا الميل فإنى كثيرا ماأميل إلى السير فى وسط تلك الأرض تحت النخيل تارة وفوق الأعشاب تارة أخرى . إن هذه الأرض سبخة وكنت أشاهد فوقها مواد ملحية طافية فوقها تارة وتارة أجدماء آسنا أشبه بالزيت فى لونه وأكثر الأرض مغطاة بحشائش ترعاها الغنم والبقر والجاموس. وهنا أخذت أتأمل فى هذا الوجود وأقول هذه الأرض لاتصلح للزرع . لايمكن زرع القطن ولا القمح ولا الأرز ولا برسيم البهائم . فهى أرض قال الله فيها (والذى خبث لايخرج إلا نكدا) ولكن ماأشد دهش العاقل إذ يرى أن الحشائش التى تنبت فيها تخرج قوية خضراء لاتبرح الأنعام تتردد عليها صباحا ومساء لاتقرها وكلما أكلت منها حشائش نبت غيرها على الأثر ولم يقم بيذرها ولاحرثها ولاسقيها أحد ولاتضرها الحشرات ولاالحر ولاالبرد ولاالآفات السماوية والأرضية ونظرت فى تلك المجارى (التى تتخلل تلك الأرض المملوءة بالماء الآسن الذى جاء من سقى الأرض بالماء ويسمونه الرشاح ؛ أى الذى جعل لاجتماع الماء الذى تغسل به هذه الأرض السبخة عسى أن تصلح للزراعة فيما بعد) نباتا مرتفعا قويا متينا أجمل وأبهى من مزارع الفلاحين فى الأرض الطيبة وقدسمدوها بالسماد وحافظوا على مواقيت سقيها . فهذا

النبات الذى يسمون بعضه (الديس) وبعضه يسمونه (البردة) النابت فى ذلك الماء الآسن فى تلك المجارى لا يعتريه اصفرار ولاضعف مثل مايعترى المزارع التى قام الناس بحفظه ، هاهنا تذكرت الرحمة التى وسعت كل شىء وأن الله لايذر شيئا فى الوجود بلامنفعة . فإذا رأينا الزرع لايجود ولايثمر أحسن ثمر إلا إذا سمد وخير السماد ماكان من جوف حيوان . فهذه القاذورات التى يأنف الناس منها هى التى عليها مدار ثروتنا وحياتنا ، فإذا كان الأمر كذلك فيا ازدريناه مما خرج من الإنسان والحيوان . فهكذا فعل فى الأرض السبخة فقال لنا الأرض الطيبة لكم فاعملوا فيها ، أما الأرض السبخة وهى الخبيثة فهى الحيوان والحيوان لاقدرة له على التسميد والسقى فأنا الذى زرعت الأرض له وجعلت هذه الحشائش ذات قوة لتحتمل ماتحمل من ظمأ ومن ماء ومن حر ومن برد ولايعوزها سماد ولايؤذيها دوس الحيوان صباحا ومساء عليها فأنا المتكفل برزقها ، فهكذا كانت حكمتى فحكمتى أن أجعل البرد على قدر الغطاء ، وههنا تذكرون أيها الناس أن من النبات مالا يعيش إلا فى الماء وهو الأرز ، ومنه مايعيش فى الماء وغيره كنبات على شاطىء النيل ، ومنه ما لايعيش إلا فى البر ويسقى وقتا بعد وقت ، فأنا لطيف أعطى لكل مقام مقالا .

أقول : خطرت فى نفسى هذه المعانى فحمدت الله عز وجل إذ جعل نظرى عبرة وصمتى فكرة ، فبينا أنا كذلك أفكر فى هذه الرحمة الواسعة التى شملت الإنسان والحيوان إذ خطر لى أن فى كتاب [علوم للجميع] الذى ترجمت منه كثيرا فى هذا التفسير نباتات مرسومة نابتة تحت الماء على أعماق مختلفة ، فها أنا ذا الآن أراجعه والرسوم أمامى ، فأنا الساعة أشاهد العجب ، أشاهد فى المجلد الثالث مقالا عاما فى نبات البحر وحيوانه وإنه لاحد لوجود الحيوان فى البحر ، وقد وجدوا الإسفنج على بعد (١٠٠٠) قامة عند شواطىء البرتغال والبرازيل ، أما فى شمال المحيط الباسفيكى فإنه يكون على عمق (١٨٧٥) قامة وعلى بعد (٢٩٠٠) قامة بساق طوله ستة أقدام ، وترى عمق المحيط الاطلانطيقى قد يبلغ (٣٨٧٥) قامة فأكثر ، وفى البحر الأبيض المتوسط يصل العمق إلى أربعة آلاف قامة فأكثر ، وترى فى صحيفة ١٦٥ من ذلك الكتاب فى الجزء الثالث صورة شجرة نوع من (الزنبق) نابتة فى قاع البحر ، وبعد ذلك ترى شجرة عجيبة يسمونها (بنت البحر) بهيئة غريبة بحيث تميل أغصانها إلى الجوانب وتظهر للناظر كأنها طبق بيضاوى الشكل ، وهكذا من النباتات العجيبة النابتة فى قاع البحر وفوقها ألف قامة أو ثلاث آلاف وهكذا . كل تلك ماء فوقها وهى خضراء بديعة قوية متينة . كل ذلك أذكره لمناسبة هذه المناظر التى شاهدتها فى العراء وأنا ذاهب إلى مزرعتنا ، أشاهد رحمة الله فى تلك الأرض السبخة وأشاهدها فى حقولنا ونحن ننصب ونتعب وكأن الله يقول لنا : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير » الله خبير وبصير وبهذه الخبرة والبصر أعطى كل شىء خلقه ثم هدى فقال أيها الفلاحون انصبوا واتعبوا فإن أجسامكم وعقولكم إذا لم أشغلها بذلك انحطت وسفلت وجعلت الحياة لاتطاق ، لذلك جعلت مآكلكم وملابسكم كلها بنصب وتعب وهذه هى الرحمة ، أما أنت أيتها البهائم ، وأنت أيتها الطيور ، وأنت أيتها الأسماك فى البحار فاعلمن جميعا أنى أنا الراحم لكن بنفسى فأنبت الحشائش فى الأرض السبخة وأنبت حشائش وأشجارا فى أعماق البحار التى تبلغ آلاف القامات ليكون ذلك منفعة لمخلوقاتى الحيوانية فى الماء ، فهذه رحمتى ، وهنالك أخذت ألحظ أن كثيرا من أسماء الله الحسنى تطبق على تلك المناظر ، فالله رحمن رحيم وهو ملك لأنه يحتاج إليه كل أحد وليس محتاجا هو إلى أحد فنجد حاجات الفلاح والبهائم والسمك كلها متجهة إليه ، وهو بها قائم وهى كلها آمنة فى سربها فرحة بحياتها وهو مؤمنها ، فالله هو (المؤمن) الذى يعزى إليه الأمن والأمان فإنى أمر فى تلك الأرض السبخة الواسعة فأرى أسرابا من الخطاطيف تطير بفرح وسرور . وهكذا أنواع العصافير والغربان

والدواب ترعى وهى آمنة مطمئنة وهو (السلام) لأنه سلمت أفعاله من الشر وكل شر فى الوجود لم يخلق إلا لخير كامن فيه ولا يعقل هذا إلا من درس أكثر هذا التفسير أوقرأ كتبا نظيره وهو (العزيز) الذى يقل مثله وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، ولاجرم أن جميع الخلق محتاجون إليه فى كل لحظة وهو (الجبار) فهو الذى ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار فى كل أحد ومن ذلك مخلوقات البر والبحر التى ذكرتها لك ، وهو (الخالق البارىء المصور) فهو الذى قدر هذه النباتات وعلى مقتضى التقدير (بحيث يكون هذا فى الأرض السبخة وهذا فى الماء، وهذا فى الأرض الطيبة وهـذا فى البحر) يوجد ذلك النبات وليس للإيجاد تمام إلا بالتصـوير فهذه المعانى واضحة فى هذه المشاهدات (الخالق البارىء المصور) وهكذا إلى آخر أسماء الله الحسنى وعلى ذلك أبدا فقس . ولما كان وقت المغرب نظرت وأنا فى القطار إذا الشفق فى الأفق بعد الغروب . فماذا رأيت ؟ رأيت منظرا بديعا بهجا ، شفق لونه الصفرة البهجة التى بنظرها ابتهجت نفسى ، ولكن من ناظر الشفق وبعوزه هو الإشـفاق عليه ، ذلك لأن ما اعتاده الناس غالبا لايحسـون بجماله . وأكثر الناس مغمورون فى الجمال ولا يشعرون به . هنالك أخذت أفكر فى نفسى كيف أحسست بالجمال فى الشفق بعد الغروب ، ماهو الشفق ؟ إن هو إلا شعاع جرى من الشمس تحت الأفق وانتشر فوقه مختلطا بالهواء الجوى ، ثم ماهو الهواء، وما هو الضياء ؟ الهواء مادة مركبة من عناصر قليلة مثل (الأكسوجين) و (الأزوت) وهناك مادة الفحم وبخار الماء . ولا جرم أن ذلك كله إما عنصر أو راجع للعناصر والعناصر جميعها ضوء والضوء حركة . إذن كل هذا حركات، ونفس ضوء الشمس المذكور هنا ماهو إلا حركات فيما سماه الناس (الأثير) وهكذا الزرع والشجر والحيوان وأجسام الناس . كل هذه ماهى إلا عناصر (اقرأ ماتقدم فى سورة النور عند آية النور واقرأ الكشف الحديث هناك موضحا فى قطرة ماء] إذن هذا الكون كله ضوء والضوء حركات والحركات فى الأثير، والأثير (كما اتضح وضوحا تاما عند علماء الأمم عموما) أمر فرضى فرضوه ولم يعرفوه ، ولكن لنا الحق نحن (إذا عجز جميع العقلاء فعلا) أن نقول فلنسم هـذا الذى به كان الخلق (رحمة الله) لأننا لانعرف الأثير بل هو فرض فرضوه فقط ولنقرأ قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه » الخ وهذه خير مايقال فى هذا الزمان .

فإذا كانت المادة لاوجود لها وما تخلوه فسموه (الأثير) أمر موهوم ، إذن يكون أصل هذا العالم أمر يرجع إلى آثار الرحمة وإلا فنحن ننظر لهذه الصور الأرضية والسماوية بعيوننا فنراها ظاهرة ونلمسها ونشمها والحقيقة أنه لاشىء هناك (كما هى نظرية اينشتين) الذى تقدم فى هذا التفسير وأن الـكون سكون فى سكون وماهى إلا حركات والحركات باختلاطها وبتنوعها صارت أشكالا . إذن الفضل كل الفضل لأرواحنا وحواسنا وعقولنا فهى التى ظهرت لها هذه المشاهدات وصارت فيها على هذا النمط .

الله أكبر . إذن درس النهار فى الحشائش وتذكر الحقول وأشجار البحار العميقة ظهرت ثمرته بعد الغروب إذكان الشـفق هو الذى ذكرنى أن كل مارأيته فى النهار ماهو إلاحركات لاترى وبالذى شع منها حصل تنوع صار نباتا وحيوانا وأرضا وسماء . إذن المدار على إحساس حواسنا ولاعبرة بالخارج فلو أحست نفوسنا وحواسنا بأمر سار أو ضار تم الأمر ، وعليه أصبح أمر الموت أمرا صوريا لاغير ،لأن الناس الآن ليسوا فى مادة بإجماع علماء الطبيعة فى عصرنا وبالموت قد تجردوا مما توهموه مادة . إذن نحن بالموت نخرج من الوهم الذى غشى على عقولنا . إذن العلم الحديث أظهر لنا سر مايروى « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » وبهذا نفهم ماتقدم فى هذا التفسـير عن أفلاطون إنه يرى [أنه إذا كانت المادة لاثبات لها فهى لايصح أن تكون مناط العلم لأن العلم ثابت فى نفوسنا وهى غير قارة وغير القار لايكون مناط القار الثابت]

فلا مخلص عنده إلا بأن يقال إن المادة صورها صور مطابقة (لمثل) معنوية جوهرية لطيفة سماها الناس (المثل الأفلاطونية) .

ولقد طال الجدال فيها بين علماء الأمم . ولكن الذى يهمنا الآن أن نقول : إذا كانت المادة يقول فيها أفلاطون إنها لا يصح أن تسمى موجودة فضلا عن أن تكون مناطا للعلم حتى اضطر إلى تلك المثل . أفليس من العجب أن علماء العصر الحاضر قد نفوها بتاتا . كأن الرجل كان ذا نظر ثاقب حتى ظهر الآن ظهورا علميا كلامه .

فهذا بلا ريب يفسر قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » وإذن نقول . إذا كانت السموات والأرض وما فيهما لا تصلح مناطا للعلم وليست موجودة موادها وإنما الوجود ماهو إلا ظواهر اخترعتها حواسنا : أى أن هذا وجود بالنسبة لحواسنا لاغير فهو وجود نسبى . إذن الوجود الحقيق هو الذى ينبغى التعويل عليه، والوجود الحقيق هو الله والله لم نعرفه إلا بآثار صفاته، وصفاته ظهرت بأسمائه التسمية والتسمين ومنها (الله الرحمن الرحيم) فى أول هذه السورة ، وهذا بعض السر فى تكرير البسملة فى أول كل سورة . فهذا التكرار عند الجاهل أشبه بما ينظره كل يوم فى الحقول والحدائق والفلوات من العجائب فلا يعقلها ، أما العالم فإنه يقول . كلا . ألم يظهر عند العلماء قاطبة فى عصرنا أن المادة لا وجود لها، وهذه الظواهر موجودة عند حواسنا وحواسنا هذه الظواهر معها منسوبة إلى من نظمها، وهو الثابت الدائم وصفاته التى رأينا آثارها . إذن بها نستغنى عن (المثل الأفلاطونية) وهذا هو سبب تكرار هذه الأسماء الثلاثة فى أول كل سورة . يقول : أيها الناس الخلق كلهم من رحمتى أما الأثير فكلمة جوفاء. ألم تقرءوا « ورحمتى وسعت كل شىء » ألم تقرءوا « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » فالرحمة لابد معها من العلم حتى تتم نتائجها على الوجه الأكمل، فقولى « رحمة وعلما » يغنيكم عن المثل الأفلاطونية وعن العالم الأثيرى ، فكل هذه فروض لا دليل عليها ويغنى عن هذا كله أن تقولوا « رحمتى وعلمى » .

أقول : يعجبنى قول من قال فى عصرنا [إن العوالم ماهى إلا فكر مجسم] أى أشبه بخيالنا إذا تجسم مافيه أمام أعيننا لاغير « فتبارك الله أحسن الخالقين » وهو أرحم الراحمين .

اللهم إنى أحمدك على العلم وعلى الحكمة ، أحمدك على أن ماتراه فى المزارع مفسر لمعنى الرحمة ، ويقول علماء التربية فى عصرنا [إن العلم والدراسة كلما كانا أقرب إلى الأحوال المشاهدة والأمور المحسوسة المحيطة بالناس كانت أقرب إلى رقى الأمم ، وكلما كانت العلوم متباعدة عما يزاوله الإنسان كانت أقل فائدة وأبعد عن رقى المتعلمين] وهذه الفكرة هى التى أوضحها العالم فى علم فن التعليم (البيداجوجيا) الذى أوفدته حكومتنا المصرية فى هذا العام سنة ١٩٢٩م لدراسة أحوال الأمة المصرية من حيث التعليم فذكر أن التلاميذ إذا دخلوا المدرسة فقد انقطعت صلتهم بأحوالهم المعتادة الخ .

فهل تحب أيها الذكى أن أقص عليك ماخطر لى يوم الأربعاء ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٩م وإنما أقصه عليك تبيانا لمعنى الرحمة وبعبارة أخرى تفسيرا البسملة . هذا الخاطر خطر لى فى القاهرة لا فى الحقل كالخاطر المتقدم . ذلك أنى كنت متوجها إلى محطة القاهرة ماشيا على قدمى كما كنت أمشى فى الحقل قبل ذلك فأخذت أفكر فى معنى الرحمة وأقول سبحانك يا ربنا أنت القدوس السلام . أنت الرحيم . أنا الآن أمشى فى شوارع القاهرة الجميلة ولكنى أعتقد أن هواء هذه الشوارع مملوء من المواد الفحمية فهو ضار لصحتى . أنت خلقت ذلك الضرر فى أنفاسنا وجعلته سببا للأمراض والموت بحيث لو نام جماعة كثيرون فى حجرة ضيقة وأقفلوها ليالى فإن وجوههم تصفر ويضعفون كما هو معلوم فى كل أمة . إذن سيرى على القدمين فى الحقول صحى

وفى المدن قليل الفائدة لأن الفائدة من المشى هو كثرة التنفس ولا فائدة فى التنفس إلا فى الأكسوجين وهو المادة الحيوية التى تدخل فى أجسامنا وتسرى فى دمائنا . أنت ياربنا لم ترد بهذا الضرر إلا الخير . ذلك أنك خلقت هذه الأرض وأوسعتها وخلقتنا عليها ، وكان من سياستك فى خلقنا أن جعلت ذكرا وجعلت أنثى جريا على نظامك فى النبات والحيوان . فالإناث يلدن والآباء يربون، وهناك تملأ المنازل ووضعت فى نفوس الأبوين رأفة ورحمة بالذرية ولكنك وضعت الغبطة والحسد والحقد والضغائن بين بعض الذرية . فالشفقة فى الأبوين للعناية بالذرية والبغضاء والشحناء والعداوات فى الذرية والأقارب نعمة كبرى، لأن هذه العداوة وهذه المنافسة وهذه الغيرة وهذه الغبطة ماهى إلا مسوقة إلى تدبير العيش ونظام الأسرات . وبهذه المنابذة والمشاحنة والمقاطعة يتفرقون وتفرقهم هو عين الرحمة ليجد كل واحد لنفسه ولا يتكل على غيره . وأيضا ليتفرقوا فى أرض الله فإذا بقوا فى مكان واحد، قل الغذاء وكثرت الأنفاس والمضار والأمراض . إذن الحكمة قضت بالمحبة وقضت بالعداوة رحمة بالناس فى الأمرين فيتفرقون ويستخرجون من الأرض النعم الجزيلة . سبحانك اللهم أودعت الرحمة فى قلوب الأبوين لتسوقهما لتربية الذرية، وألقيت العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة فى قلوب الذرية والأمم ليتفرقوا فى الأرض ويستخرجوا منافعها وليتنافسوا كما يقول الشاعر :

عداتى لهم فضل على ومنة فلا أبعد الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاجتنيت المعاليا

وهذان البيتان مع غيرهما تقدما فى هذا التفسير وقد حسنتهما ؛ العداوة اشتركت فى ترقية النوع الإنسانى غاية الأمر أن العداوة ليست مقصودة لذاتها بل لغيرها كما أن الجوع لم يقصد منه إضرارنا بل قصد منه الحث على ارتقائنا ، ولا عمل لعلم الأخلاق إلا تهذيب المحبة وتهذيب العداوة فلا إفراط فى الأولى لئلا يكون الميل المجحف بحقوق غير المحبين وتهذيب العداوة بحيث تقف عند حدها فلا إفراط ولا تفريط . هذه وظيفة علم الأخلاق مهما طال الخطب فيها فهو مشذب لما فينا من الأحوال كما يشذب البستانى شجر البستان .

ثم إن الأمم لما ارتقت فى عصرنا الحاضر ازدحمت المدن بالسكان وعرفوا مضار الازدحام . إذن هناك (زاجران) للناس عن الازدحام (الزاجر الأول) ماغرس فى النفوس من العداوات والمنافسات وغيرها (الزاجر الثانى) ماطبع عليه الهواء الجوى من التعفن بسبب الازدحام وامتلائه بالحيوانات الذرية والمواد الفحمية القاتلة المتنفسين من الأحياء المزدحمين .

وإن أردت إلا البيان فاسمع ماجاء فى (الزاجر الأول) من كتاب « إخوان الصفاء » ثم اسمع بعد ذلك ماجاء فى (الزاجر الثانى) من آراء علماء الإحصاء فى العالم المتمدين الآن . أما ماجاء فى (إخوان الصفاء) فهاهو ذا نصه :

﴿ فصل : فى بيان كمية أنواع الخيرات والشرور فى هذا العالم ﴾

اعلم أن الخير والشر على (أربعة أنواع) فمنها ماينسب إلى سعود الفلك ونحوسه ، ومنها ماينسب إلى الأمور الطبيعية من الكون والفساد ومايلحق الحيوانات من الآلام والأوجاع ، ومنها ماينسب إلى مافى جبلة الحيوانات من التآلف والتنافر والمودة والتباغض ومافى طباعها من التنازع والتغالب ، ومنها ماينسب إلى مايلحق النفوس التى تحت الأمر والنهى فى أحكام النفوس من السعادة والنحوسة فى الدنيا والآخرة جميعا، ثم اعلم أن لهذه الأنواع من الخيرات والشرور التى ذكرناها أسبابا وعللا يطول شرحها ، وقد ذكرنا طرفا فى [رسالة العلل والمعلولات] ولكن نذكر فى هذا الفصل منها مالابد منه فنقول :

إن الخيرات التي تنسب إلى سعود الفلك فهي بعناية من الله تعالى وقصد منه لاشك فيه . وأما الشرور التي تنسب إلى نحوس الفلك فهو عارض لابالقصد ، مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة وتسخينها الماء مدة ومغيبها عنها تارة أخرى كيما تبرد تلك البقاع مدة ما فهو بعناية من الله تعالى وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع العموم كما قال تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون » وقال « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » وإنما ذكر الله تعالى إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وأفضاله عليهم ، فأما الذي يعرض لبعض الحيوانات ولبعض النبات من الحر المفرط والبرد المتلف في بعض الأوقات وفي بعض الأحايين وفي بعض البقاع فليس ذلك بالقصد الأول، وهكذا أيضا حكم الأمطار فإنما يرسلها لكيما يحيي بها البلاد ويصلح بها شأن العباد فإن عرض من ذلك أذية لبعض الحيوانات أو تلف النبات أو تهدمت به المحاثر فليس ذلك بالقصد الأول ، وعلى هذا القياس حكم جميع ماينسب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان والنبات والمعادن ومواليد الناس وما يحكم في تحاويل من السنين وأحكام القرابات وماشاكل ذلك وما ينسب إلى نحوس الفلك من الشرور والفساد جميعا عارضا لابالقصد الأول . وأما الخيرات التي تنسب إلى الأمور الطبيعية فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء المبلغة لها إلى أتم حالاتها وأكمل نهاياتها فهي كلها بقصد من الله تعالى وعناية من تفضله وإنعامه . وأما الشرور التي هي الفساد والبلى الذي يلحقها بعد الكون والفساد والأسباب التي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال فهي عارض لا بالقصد الأول ولكن بالقصد الثاني . وذلك أن هذه الكائنات التي دون فلك القمر لما لم يمكن أن تبقى أشخاصها في الهيولى دائما في هذا العالم تلطفت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن يكون بقاؤها بصورها وإن كانت الأشخاص في الذوبان والسيلان دائما والمثال في ذلك صورة الإنسانية التي هي خليفة الله في أرضه فإنها باقية منذ خلق الله تعالى آدم أبا البشر إلى يوم القيامة وإن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء فهكذا حكم سائر الحيوانات والنبات والمعادن وأنواعها باقية بصورها وإن كانت الأشخاص في السيلان والذوبان . وإنما كان ذلك بواجب الحكمة لأن في القوة فضائل وخيرات بلا نهاية لايمكن خروجها من القوة إلى الفعل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأن الهيولى لاتتسع لقبولها إلا شيئا بعد شيء على التدرج وممر الأوقات والزمان دائما أبدا . والمثال في ذلك أنه لو خلق الله بني آدم كلهم من مضى منهم ومن هو موجود الآن ومن يجيء من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يمكن أن تسعهم الأرض برحبها فكيف حيوانهم ونبات غذائهم وأمتعتهم ومايحتاجون إليه في أيام حياتهم ؟ فمن أجل هذا خلقهم قرنا بعد قرن وأمة بعد أمة لأن الأرض لاتسعهم والهيولى لاتحملهم دفعة واحدة، فقد تبين بما ذكرنا أن النقصان ليس من قبل الله تعالى وعلة أخرى أيضا لأسباب الشرور . وذلك أنه لما كانت هذه الكائنات يبتدئ كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى مترقية إلى أتم الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو ومبلغة إلى أكمل غاياتها بعناية من الله تعالى سميت تلك الأمهات خيرات، وكذلك كل سبب عارض بلوغها عن ذلك يسمى شرا وهي عارضة لابالقصد الأول والمثال في ذلك ماتقدم ذكره من أمر الشمس والمطر .

﴿ فصل : في بيان القصد الأول والقصد الثاني على قول الحكماء ﴾

أما الخيرات التي تنسب إلى جبلة الحيوان ومافي طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لابالقصد الأول . ثم اعلم أن معنى قول الحكماء القصد الأول والقصد الثاني ، فالفرق بينهما هو أن ما كان من قبل الباري تعالى من الإبداع والإيجاد والاختراع والبقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك

من الأوصاف يسمى القصد الأول . والقصد الثانى هو كل ماكان من قبل نقص الهيولى أنه لم يجئ منها إلا هذا ولم يقبل إلا هذا وماشاكل ذلك من الأوصاف .

وأما بيان أنواع الشرور المنسوب إلى بعض الحيوانات وإلى الجبلة المركوزة فيها فنقول : إن الشرور التى تنسب إلى جبلة الحيوانات ومافى طباعها هى ثلاثة نواع : فنها الآلام التى تعرض لها دون سائر الموجودات ، ومنها العداوة التى فى جبلتها ، ومنها أفعالها التى يقصد منها وإرادة . فأما آلامها فتكون من (ثلاثة أوجه : أحدها) ألم الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى المادة والغذاء (والثانى) ألم الضرب والصدم والكسر الضر بأجسادها المتلف لهياكلها (والثالث) ألم الأمراض والأسقام المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها إلى آخر ماتقدم (فى سورة الروم) فى تفسير البسملة ثم قال بعد كلام طويل مانصه :

﴿ فصل : فى بيان الشرور التى فى جبلة الحيوانات المختلفة الصور والأشكال التى هى بالقصد الثانى ﴾

أما الخيرات التى فى جبلة الحيوانات وأخلاقها التى هى الإلف والمحبة والشرور التى هى العداوة والغلبة والقهر فهى أيضا بالقصد الثانى . وذلك أنه لما كانت الحيوانات مختلفة الصور والأشكال والطباع والعادات والأخلاق والأفعال لأسباب يطول شرحها ، وقد بينا طرفا فى [رسالة العلل والمعلولات] جعل بين بعضها وبعض ألفة ومحبة ومودة لكيما يكون ذلك سببا لاجتماعها واتفاقها لما فى ذلك من صلاح الكل والنفع على العموم ، وجعل أيضا بين بعضها وبين بعض نفورا وعداوة ليكون سببا لتباعدها وتفرقها لما فى ذلك أيضا من صلاح الجميع والنفع العام . مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للانسان وانقيادها الطاعة كالبقر والغنم والخيل والبغال والحمير والجمل والفرس لما فى ذلك من صلاح ونفع الناس مما هو معروف مشهور فلا حاجة إلى تفصيل كيفية ذلك . ولما لها أيضا من النفع فى مراعاة الناس بالعلف والسقى والسكن من الحر والبرد ومنع السباع عنها ومداواتها من الآفات العارضة لها وماشاكل ذلك . ومثال نفور بعض الحيوانات من الإنسان وتباعدها عن طاعته مثل السباع والحيات وجملة الحيوانات القليلة النفع الكثيرة الضر لما فيه من صلاح الكل والنفع العام . وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضها مع بعض فيما بينها من الإلف والمحبة والبغض والعداوة لما فيها من النفع والصلاح . وأما الشرور التى تنسب إلى بعض أفعال الحيوانات بالقصد منها والإرادة فنها أيضا عارضة من أجل الهيولى التى هى مادة لأجسادها وقوام لهياكلها . وذلك أن للنافع لما كانت مشتركة بين الجميع وكانت فى جبلتها طلب المنافع ودفع المضار بالقصد الأول من الله تعالى كما تقدم ذكره وقعت بينها هذه المنازعة فى طلب تلك المنافع ودفع تلك المضار بالعرض لابالقصد . وأما علة كون الحيوانات بعضها آكلة وبعضها مأكولة فقد بينا طرفا منها فى [رسالة الحيوانات] والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردت تلخيصه من [إخوان الصفاء] وأما ما أشار إليه من الكلام على أكل الحيوان بعضه بعضا فانظر ماجاء فى [رسالة العلل والمعلولات] فهذا نص المقصود منه :

(١) إن الله تعالى لما خلق أجناس الحيوانات التى فى الأرض وعلم أنه لاتدوم بذاتها أبد الآبدين جعل لكل نوع منها عمرا طبيعيا أكثر مايمكن منه ثم يجيئه الموت الطبيعى إن شاء أو أبى ، وقد علم الله تعالى بأنه يموت كل يوم منها فى البر والبحر والسهل والجبل عدد لايحصيه إلا الله تعالى . ثم جعل بواجب الحكمة جثة جيف موتاها غذاء لإحيائها ومادة لبقائها لئلا يضيع شئ مما خلق الله تعالى بلا نفع ولا فائدة وكان فى هذا منفعة لأجسادها ولم يكن فيه ضرر على الموتى .

(٢) « وخصلة أخرى » لو لم يكن الأحياء تأكل جيف الموتى منها لبقيت تلك الجيف واجتمع منها على ممر الأيام والدهور كثير حتى تمتلىء منها الأرض وقعر البحار وتنتن ويفسد الهواء والماء من نتن روائحها فيصير ذلك سببا لكونها هلاكا للأحياء ، فأى حكمة أعظم من هذه ؟ إن البارى تعالى جعل فى أكل الحيوانات بعضها بعضا من المنفعة للأحياء ودفع المضرة عنها كلها وإن كانت تنال بعضها الآلام والأوجاع عند الذبح والقتل وليس قصد القابض والقاتل من ذبحها وقبضها إدخال الألم والوجع عليها بل لينال المنفعة فيها لدفع مضرّة بها .

(٣) ثم إن الله جعل الناقص منها علة الكامل وسببا لبقائه والأدون خادما للأشرف ومعينا ومسخرا له ، وبيان ذلك من النبات الجزئى أنه لما كان أدون رتبة من الحيوان الجزئى وأنقص حالة منه جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وجعل النفس النباتية فى ذلك خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها وهكذا أيضا لما كان رتبة النفس الحيوانية أنقص وأدون من رتبة النفس الإنسانية جعلت خادمة ومسخرة للنفس الإنسانية الناطقة، وهذه الحكومة التى ذكرناها كلية بينة ظاهرة للعقول السليمة فنقول على هذا الحكم والقياس لما كان بعض الحيوانات أتم خلقة وأكمل صورة كما بينا قبل هذا جعلت النفس الناقصة منها خادمة ومسخرة للتامة منها الكاملة وجعلت أجسادها غذاء ومادة للأجساد التامة منها وسببا لبقائها لتبلغ إلى أتم غاياتها وأكمل نهاياتها كما جعل جسم النبات غذاء لجسم الحيوان ومادة لبقائه وسببا لكماله ، وكما أنه لما كانت النفس النباتية إذ هى أدون رتبة من النفس الحيوانية جعلت خادمة للنفس الحيوانية ومسخرة لها فى رتبتها غذاء لها ومادة لأجسادها . فهكذا جعل حكم نفوس الحيوانات الناقصة خادمة لنفوس الحيوانات التامة الخلقة الكاملة ومسخرة لها لكيما تربى جسمها وتنميها وتسلمها إلى الحيوانات التى هى أكمل منها وأشرف ليكون ذلك غذاء لأجسادها ومادة لأبدانها وسببا لبقاء أشخاصها زمانا ما أطول ما يمكن وعلة لتوالد نسلها وبقاء صورتها لأن هيولى الأشخاص دائما فى الذوبان والسيلان فيحتاج إلى بدل ما يتحلل من الأشخاص فإذن قد تبين بما ذكرنا ما العلة فى أكل الحيوانات بعضها بعضا . فالأسباب إذن ثلاثة : ألا تبقى الرمم بلا فائدة ، وألا يفسد الجو ، وأن يكون الأدنى خادما للأعلى . انتهى من [إخوان الصفاء] والحمد لله رب العالمين .

وأما ماجاء عن علماء الإحصاء فى عصرنا فى (الزاجر الثانى) وهو تعفن الهواء بالازدحام وأن هذا السبب والذى قبله جعلهما الله مهمازين يسوق بهما الناس للتفرق على وجه الأرض ليتم العمران . فهاك ماجاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم الثلاثاء (٢٩) أكتوبر سنة ١٩٢٩م وهذا نصه :

﴿ من سنة ٢٠٠٠ الى سنة ٢٥٠٠ ﴾

يقول الإحصائيون إن سكان العالم يزدادون ازديادا متواصلا وأنه سيأتى يوم تضيق عليهم الأرض برحبها . أجل إن هذا اليوم لايزال بعيدا عنا ولايبصر نوره إلا أحفاد أحفادنا . فسكان العالم يبلغ عددهم الآن مليارا وتسعمائة وستين مليونا . وسيصبح فى سنة (٢٠٠٠) ستة مليارات . ولابد من القول إن هذا العدد هو أقصى ماتستطيع الأرض أن تعوله . ومن حسن حظنا أن ماتنتجه الأرض من المطعم والمشرب يزيد على حاجتنا إليه . ويقول العارفون [إن أعقابنا يستطيعون بما سيكون لديهم من الوسائل العلمية فى الزراعة أن ينتجوا غذاء لثمانية مليارات من البشر] وعليه لاخوف على الأجيال الآتية من الموت جوعا ولكنها لاتبقى على ماهى عليه الآن من السعة فى العيش لأنه لايبقى إلا كيلومتر واحد لكل مائة وأربعين نفسا . وإذا اعتبرنا الأراضى

العامرة رأينا أن متوسط عدد السكان فى الكيلومتر الواحد من الأرض العامرة يبلغ (٢٣٧) أى أكثر مما فى نيويورك فإن متوسط عدد السكان فى هذه المدينة العظيمة (٢١٧) فى الكيلومتر المربع . وقد أصبح الموقف حرجا فى أوروبا، فإن مساحتها التى تبلغ (٣٧٥٠٠٠٠) ميل مربع لاتنتج من الغذاء إلا لخمسمائة وخمسين مليونا من البشر وفيها الآن منهم (٤٨٠) مليونا . أما أمريكا الجنوبية ففيها أراض واسعة مهجورة سيكون لها شأن كبير فى المستقبل وسيتحول قسم كبير منها إلى أراض منتجة بقوة اليد العاملة .

وليس الخوف على الجنس البشرى من المجاعة بل من تكاثر عدد الناس وتزاحمهم على شواطىء البحار وعلى قمم الجبال وفى السهول والآجام والغابات . ومن الراجح أنه لاتبقى غابات ولا آجام فى سنة (٢٠٠٠) فتزول جميعها وتشيد عليها مدن كبيرة تأوى إليها الملايين من البشر .

وقد تتخذ الأرض شكلا خاصا وتمتلىء من السكان بين سنة (٢٠٠٠) وسنة (٢٥٠٠) وهذا مجال للافتكار فى حالة أصحاب البيوت فى ذلك الحين فإن أزمة المساكن تبلغ معظمها فلايكتفون فى المكاتب المخصصة للايجار بالسؤال عن الحى الذى يطلبون فيه مسكنا بل يبحثون فى المصور الجغرافى العالمى للاهتداء إلى ضالتهم المنشودة فيأتى أحدهم مثلا إلى أحد هذه المكاتب ويطلب أن يستأجر شقة فى أوربا فيجيبه أحد الموظفين فى المكتب بعد أن يلقى نظرة على الجداول والدفاتر التى لديه [يشق علينا أن نعتذر عن تعذر إجابة سؤالك فلم يبق عندنا شقق للايجار فى أوربا ولكن عندنا شقق تلائمك فى الأناضول] .

وليس الغذاء شيئا مذكورا بالنسبة إلى الهواء الذى سينقص الناس حينئذ ، ولا أعنى بذلك الهواء الذى يستنشقونه فى محال العمل والمسارح والشوارع ، بل أعنى الهواء الطليق الذى يخرجون إلى العراء لاستنشاقه فى العزلة فإنهم أنى وأيان ساروا يلقون الناس أمامهم يملئون البقاع والبطاح والهضاب والأغوار والأنجاد وقد ضربنا عدد سكان المعمورة فى (٥) فنضرب أيضا المضايقة التى سيلقونها حينئذ فى (٥) ويكون سببها تكاثر عدد الناس .

يقول الآن سكان المدن [لانحب أن نتنزه فى الشوارع الكبيرة فى أيام الآحاد لأن فيها عددا كبيرا من الناس . وخير لنا أن نقصد إلى الضواحى والرياض حيث نروح النفس بالهواء العليل] .

ويقولون أيضا [لانبتغى الذهاب إلى دور السينما فى هذه الأيام لأنها مكتظة بالنظارة] ولكنهم بعد سنة (٢٠٠٠) يفوهون بمثل هذا الكلام فى كل مكان ينزلونه فأيان ذهب الإنسان يرى الناس يتزاحمون بالمناكب

ويقولون [إن رجال المستقبل البعيد لايكفيهم ماعندنا الآن من الوسائل الطبيعية للمعيشة فيحتاج الواحد منهم إلى أعصاب أمتن من أعصابنا ورئتين أقوى من رئاتنا وقدمين أشد من أقدامنا وذراعين أشد صلابة من أذرعنا] اه .

إن ماتقدم نظرية نشرها الأستاذ (البرخت بنك) وهى والحق يقال نظرية تدعو إلى إعمال الفكرة وإطالة الروية .

أقول . أنا الآن لم أكتب هذه المقالة إعجابا بها ولا اعتقادا فما قيل فيها ، ولكنى ذكرتها لتعلم أن النوع الإنسانى قديما وحديثا يعلم أن الازدحام يورث الأمراض بالموت وأن هذا السبب هو الدافع الأقوى لتفرق الناس حول الأرض . فإذن تفرق الناس على الأرض سببه أمران : أمر نفسى وهى العداوات والمشاجرات وأمر جسمى طبيعى وهو تعفن الهواء بالازدحام واستضرار الناس فيكون التفرق ثم الاستمتاع بالخيرات والنعم .

لعلك أيها الذكي وقفت في تفسير البسملة هنا وفيما تقدم قريبا على شذرة من رحمة الله التي وسعت كل شيء ولعلك أيضا تعرف كيف أدرك آباؤنا الأولون منذ ألف سنة بعض هذه الحكم ودونوها في (إخوان الصفاء) وكيف وصلوا إلى الحقائق وصولا لم يظهر نظيره فيما جاء عن الفرنجة مما بيناه لك هنا، فالعبارتان أمامك وأنت تدرك ببداهتك وذوقك ومعرفتك الفرق بين الحكمتين وتعجب إذ ذاك من الأمم الإسلامية التي خلفت تلك الأمم في الألف سنة الماضية كيف ذهلوا عما في هذه الكتب ولم تنشر هذه الآراء في أممنا الإسلامية، وذلك بسبب بعض رجال الدين الجهال وبعض رجال الصوفية الذين وقفت عقولهم كما فهموا من شيوخهم فأوحوا إلى تلاميذهم الذين يخلفونهم أن العلم خاص بما لقنوه لهم . هنالك أخذ العلم يهرب من بلاد الشرق إلى بلاد الغرب ، ولكن ليستبشر المسلمون اليوم قراء أمثال هذا التفسير فهم يجمعون بين خلاصة القديم وخلاصة الحديث، وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » وإذا قرءوا « بسم الله الرحمن الرحيم » عرفوا معنى الرحمة كما أوردناه . انتهى القسم الأول من السورة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٣١ أكتوبر سنة ١٩٢٩ .

(القِسْمُ الثَّانِي)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

الم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ * ذٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ * قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ * وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ * وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا

إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ
عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ
الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ
فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ * وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا
الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) قد تقدم بعض سر (الم) فى [سورة الروم] والإشارة بها هنا للحض على النظر فى أحوال الأمم السابقة وعجائب الطبيعة وذلك فى قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون . أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فإذن هذه السور متلاحقة موصى فيها على النظر فى كل كائن طبيعى أو صناعى ، وقوله (تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) أى منزل الكتاب لاريب فيه حال كونه من رب العالمين (أم يقولون) أى بل أيقولون

أى المشركون (افتراه) أى اختلقه محمد من تلقاء نفسه (بل هو الحق من ربك) وههنا ست مراتب : الإشارة إلى الإعجاز ولذلك هو منزل من الله ، ثم قرره بنفى الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى التعجب من قولهم فيه على خلاف ماتقدم، ثم أثبت أنه الحق ، ثم ذكر المقصود وهو الانذار ، فالأول بذكر «الم» والثانى بذكر أنه منزل من رب العالمين ، والثالث بنفى الريب ، والرابع بقوله « أم يقولون افتراه » والخامس بقوله (بل هو الحق من ربك) والسادس بقوله (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك) لأنهم أهل فترة (لعلهم يهتدون) بانذارك إياهم ، وقوله تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد عرفت فى سورة الفرقان ما الحكمة فى ذكر ستة أيام ، وكيف كان العدد المذكور من عجائب الحكمة تخصيصه ، وفى سورة يونس وهود الاستواء على العرش، وفى سورة العنكبوت والروم عجائب هذه الدنيا ونظام العناصر التى بلغت فوق الثمانين . وكيف كان بينها نسب عجيبة فوق مستوى الفكر إذ كان كل عنصر منسوبا لما فوقه فى الجدول وما تحته وما عن يمينه وشماله إلى آخر مامضى . وهذا سيدهش العقلاء عندما يرون أن بين العناصر نسبا عجيبة كالنسبة العددية والنسبة الهندسية والتشابه فى الصفات الكيمائية من جهة والصفات الطبيعية من أخرى . وإذن تعلم أن عالمنا مخلوق من الجمال والبهاء والحسن كعالم الكواكب (مالكم من دونه من ولى) ينصركم إذا جاوزتم رضاه (ولاشفيع) يشفع لكم (أفلا تتذكرون) المواعظ (يدبر الأمر) بحكم الأمر وينزل القضاء والقدر (من السماء إلى الأرض ثم يعرج) يصعد (إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى يدبر أمر الدنيا إلى أن تقوم الساعة ثم يصير الأمر كله إليه ليحكم فيه فى يوم مقداره ألف سنة وهو يوم القيامة . وقد جاء أن يوم القيامة خمسون ألف سنة فى سورة المعارج وتكون على بعض المختصين من عباده بقدر صلاة المكتوبة أو كما بين الظهر والعصر (ذلك عالم الغيب والشهادة) فيكون تدبيره على مقتضى الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) العباد فى تدبيره . ولما ذكر العلم والقدرة المصحوبة بالرحمة أردف ذلك بما نشأ عن تلك الصفات من الآثار الشريفة متصلا لما أجمل من التدبير ، إذ بين تدبير الإنسان ثم عروجه ليعرفنا نسخة من التدبير العام فقال (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان) أى آدم (من طين . ثم جعل نسله) ذريته لأنها تنسل منه أى تنفصل (من سلالة) أى من نطفة تنسل من الإنسان (من ماء مهين) أى ضعيف (ثم سواه) سوى خلقه (ونفخ فيه من روحه) أضاف الروح إلى نفسه لتشريفها (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا . وهذا هو بعض تدبير الأمر الخاص بالإنسان لأنه أهم لتذكره . وأما عروج الأمر إليه وصعوده فنى قوله (وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض) أى صرنا ترابا مخلوطا بتراب الأرض لايتميز منه (أئنا لفى خلق جديد) استفهام إنكارى . ثم أضرب عن ذلك إلى أنهم ليسوا بكافرين بالبعث فحسب بل كفرهم شامل لجميع مايكون يوم القيامة فقال (بل هم بلقاء ربهم) الذى هو أهم مافى يوم القيامة (كافرون) وهاهنا ابتدأ إيضاح عروج الأرواح فى قوله (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) للحساب والجزاء . وهذا نهاية الكلام فى العروج والصعود . ثم أعقبه بذكر الطائفتين المجرمين والمؤمنين فقال فى الأولى (ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم) من الحياء والخزى قائلين (ربنا أبصرنا) ماوعدتنا (وسمعنا) منك تصديق ما أتت به رسلك (فارجعنا) إلى الدنيا (نعمل صالحا إنا موقنون) إذ لم يبق لنا شك بعد المعاينة وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمرا عظيما (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) ماتهتدى به إلى الإيمان والعمل الصالح وإنما تدبيرى للخلق ونظامى لاتغير فيه ، وكيف يتغير وهو النظام التام فإنى أضع كل نفس فى مرتبتها على حسب استعدادها كما أضع فى جسم الإنسان العين فى موضع لايصلح له الظفر

والأصبع ، وكذا المعدة في موضع لايصلح له القلب ، هذا هو نظام الله . وهذا قوله تعالى (ولكن حق القول مني) ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو (لأملأن جهنم من الجنة) وهي النفوس التي لا أجسام لها وهي لاتزال ناقصة كهيئة الأشرار من بني آدم (والناس أجمعين) وإنما ملأها بهم لأنهم مستعدون لها ولايصلحون لدخول الجنة كما لايعيش الناموس، ولا الذباب إلا في الأماكن القذرة لتخلص الجو من العفونات . ولو جعل الناموس والذباب في القصور النظيفة المونقة النقية ماعاش فيها إذ لايجد له فيها غذاء ولا فائدة . هكذا هؤلاء إذا رأوا العالم المضيء المشرق والأنوار المتلألئة والحياة الطيبة في الجنة لم يتهيأ لهم دخولها وعجزوا عن ذلك لمثلهم كمثل السمك لايعيش في البر وكمثل ذوات الأربع لاتعيش في البحر . هذا معنى قوله « العزيز الرحيم . الذي أحسن كل شيء خلقه » فهذا هو حسن الخلق ، فالحسن في الجنة وفي جهنم وفي الحشرات في الأرض وفي الحدائق ، واعلم أنك لاتوقن بما قلته إلا بدراسة العلوم ، ومن كان ذا فطنة كفاه هذا التفسير. ثم أبان بعض الأسباب الموجبة لدخولهم جهنم وهما [سببان : الأول] عدم التفكر [والثاني] الذنوب أي ظلمة الفكر علما وعملا بالجهل والذنوب، فأشار إلى الأول بقوله (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) لأنكم تركتم مواهبكم العقلية فلم تنالوا الحكمة (إنا نسيناكم) جعلناكم كالمنسي المتروك (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) السيئات كما تركتم المعقولات، وإنما كرر الذوق لتعدد المذوق ولأن العذاب على الجهل وعلى الذنب يتنوع كما تتنوع الآلام في الدنيا بتنوع المرض . وأشار إلى الفريق الثاني بقوله (إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها) وعظوا بها (خروا سجدا) سجدوا لله تواضعا وخشوعا وشكرا على مارزقهم من الإسلام (وسبحوا بحمد ربهم) ونزهوه عما لايليق به وأثنوا عليه حامدين له (وهم لايستكبرون) عن الإيمان والسجود (تتجافى جنوبهم) ترتفع وتتنحى (عن المضاجع) أي المواضع التي يضطجع فيها وهي الفرش . وهؤلاء هم المتهجدون بالليل حال كونهم (يدعون ربهم خوفا) من سخطه (وطمعا) في رحمته أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته (ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخير (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم) لاملك مقرب ولانبي مرسل (من قرة أعين) مما تقر به عيونهم (جزاء بما كانوا يعملون) أي جزوا جزاء عدلا . ولما أخفى القوم أعمالهم أخفى الله لهم الجزاء بحيث لايعلمه أحد كما كانوا يخفونه في الدنيا . ثم بين الفرق بين الطائفتين وأنهما لايستويان (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أي كافرا (لايستوون) حمل الأول على لفظ من والثاني على المعنى (أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) يقال إنها الجنات التي يأوي إليها أرواح الشهداء ويقال إنها عن يمين العرش (نزلا بما كانوا يعملون) أي عطاء بأعمالهم والنزل عطاء النازل ثم صار عاما (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) أي ملجؤهم ومنزلهم (كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم) أي تقول لهم خزنة النار (ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) ثم بين سبحانه أن عذاب الآخرة المذكور له مقدمات في الدنيا وفي القبر لأن الذنب مستوجب لنتائجه عاجلا وآجلا فقال (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى) كما عذب أهل مكة بالجدب سبع سنين إذ دعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعلها الله عليهم سنين كسني يوسف . وكما يعذب الناس في الدنيا بالمحن والأهوال والأمراض وهم في ذلك غير موقنين بثواب ولا آخرة فيكون العذاب أليما لايخفف له (دون العذاب الأكبر) أي عذاب الآخرة (لعلهم يرجعون) يتوبون (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) فلم يتفكر فيها كالوليد بن عقبة فاخر عليا يوم بدر فنزلت هذه الآيات (إنا من المجرمين منتقمون) ولاجرم أن من كان أظلم منهم أحق بالانتقام (ولقد آتينا موسى الكتاب) كما آتيناك (فلاتكن في مرية) في شك (من لقائه) من لقائك الكتاب فانا آتيناك الكتاب كما آتيناه فليس ذلك ببدع وهذا كقوله تعالى « قل ماكنت بدعا من الرسل » (وجعلناه) أي المنزل على

موسى (هدى لبنى إسرائيل . وجعلنا منهم أئمة يهدون) الناس (بأمرنا) بتوفيقنا (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) لأنهم نظروا وعقلوا (إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة) أى يقضى ويحكم (فيما كانوا فيه يختلفون) من أمر الدين ، جهلوا وكفروا وعموا عن الحقائق (أولم يهد لهم) أى أو لم يبين الله لهم (كم أهلكنا من قبلهم) أى من قبل أهل مكة (من القرون) الماضية (يمشون فى مساكنهم) أى يمر أهل مكة فى متاجرهم على ديارهم . وقوله (كم) مفعول أهلكنا (إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون) سماع تدبر (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) التى جرز نباتها أى قطع وأزيل وكل أرض يابسة غليظة لانبات بها جرز (فنخرج به زرعا) أى بذلك الماء زرعا (تأكل منه) من الزرع (أنعامهم وأنفسهم) كالتبن والورق والحب والفاكهة (أفلا يبصرون) فيعرفون كمال قدرته تعالى (ويقولون متى هذا الفتح) النصر كقوله تعالى «ربنا افتح بيننا» (إن كنتم صادقين) فى الوعد به (قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون) وذلك يوم القيامة يوم يفصل بين المؤمنين وغيرهم ويوم فتح مكة ويوم بدر وحقا كان ذلك فإن الذين قتلوا يوم بدر وغيره لم ينفعهم شىء بل ماتوا كفارا (فأعرض عنهم) ولاتبال بتكذيبهم (وانتظر) النصر عليهم (إنهم منتظرون) الغلبة عليك . انتهى التفسير اللفظى .

﴿ لطائف هذه السورة ﴾

(١) فى قوله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة»

(٢) فى قوله تعالى «الذى أحسن كل شىء خلقه» الخ .

(٣) فى قوله تعالى «تتجافى جنوبهم عن المضاجع» إلى قوله «جزاء بما كانوا يعملون» .

(٤) فى قوله تعالى «أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون» إلى قوله «أفلا يبصرون» .

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

إن هذه اللطيفة يراد منها (أولا) معرفة تنزل الأمر الإلهى من حضرة القدس الأعلى إلى غاية تمامه وكماله (ثانيا) رجوع الأمر إليه سبحانه وتعالى (ثالثا) بيان جمال الأمر وحسنه ونظامه (رابعا) ذكر المقصود من ذلك وهو نشأة الإنسان ثم عروجه إلى خالقه . وهذه المقاصد الأربعة فى الآية مرتبة على ما ذكرناه . فالله سبحانه هو الأول من حيث أنه خلق ونظم والآخر من حيث رجوع الأمر إليه أيضا . ولأقدم مقدمة فى الكلام على الله من حيث تقديسه وتنزيهه فأقول :

إن الأمم قديما وحديثا لايبرحون يفكرون فى الحق سبحانه وتعالى . ومعلوم أنه ليس بجسم ولاعرض فى جسم منزه عن الحوادث . فهم إذا ذكروه حضر فى أذهانهم النور وذلك مشهور فى الديانات . ومعنى ذلك أن الله إذا ذكر يخطر ببالهم النور ، فالنور مضروب مثلا لذاته . وكيف يكون النور هو الله والنور حركات فى الأثير وحركات الأثير تختلف فى السرعة ، والنور له مقادير خاصة متى وصل إليها ظهر النور فى العين ومتى قل عنها أو كثر لم يكن نور فإذن النور مذكر بالله عند الأمم القديمة بل كان الصابئون يعبدون الكواكب . وترى ذلك فى لغة العائلة الآرية أو الهند الجرمانية العظمى فإن الله عندهم هو النور أو الشمس وتجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور أو اللامع ويشتق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله . ففى لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذيوس) وعند اللاتين (دووس) إلى آخر ماتقدم فى (سورة النور) فارجع إليه إن شئت .

فانظر كيف رجعت الأمم القديمة وألهم علماؤها ولو كانوا ضالين أن يعبروا عن الخالق جل وعلا باسم

النور وهذا المقام يناسب ماتقدم في (سورة النور) من قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» وإنما ذكرناه هنا لأننا سنبحث في دائرة الوجود كما سترى .

ولما كان الله هو الأول والآخر حسن أن نذكر ما يناسب المقام من قدسه ونزول العالم في جماله وكماله .

ولما كانت تلك الأمم قد سارت على الدرب ولكنها أخطأت النهج جاء الاسلام فقال الله فيه « الله نور السموات والأرض » وأعقبه بقوله « مثل نوره » الخ فأدخل فيه المثل وقال في نهاية الآية « ويضرب الله الأمثال للناس » الخ ، وفي الحديث « قيل له عليه الصلاة والسلام هل رأيت ربك ؟ قال نوراني أراه » وفي حديث الإسراء « لما قرب صلى الله عليه وسلم من سدرة المنتهى غشي السدرة من النور ماحجب بصره من النظر إليها » وفي كتاب مسلم « ان لله حجابا من نور لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه » وفي بعض روايات الحديث «سبعين حجابا من نور» قال ابن رشد إن هذا المثال شديد المناسبة لله سبحانه وتعالى لأنه يجتمع فيه أنه محسوس تعجز الأبصار عن إدراكه وكذلك الأفهام مع أنه ليس بجسم والوجود عند الجمهور إنما هو المحسوس والمعدوم عندهم هو غير المحسوس ، والنور لما كان أشرف المحسوسات وجب أن يمثل به أشرف الموجودات ، وهاهنا أيضا (سبب آخر) وذلك أن حال وجوده من عقول العلماء والراسخين في العلم عند النظر إليه بالعقل هي حال الأبصار عند النظر إلى الشمس بل حال عيون الخفافيش وكان هذا الوصف لائقا عند الصنفين من الناس ، وأيضا إن الله تبارك وتعالى لما كان سبب الموجودات وسبب إدراكنا وكان النور مع الألوان هذه صفته أعني أنه سبب وجود الألوان بالفعل وسبب إدراكنا ورؤيتنا لها فبالحق ماسمى الله تبارك وتعالى نفسه نورا ، ولقد سكت الشرع عما هو فوق ذلك فإن البحث العلمي يقضي أن الله ليس بجسم ولاعرضا في جسم ولكن لايعقله إلا من أدركوا ذلك بالبراهين وعرفوا حقيقة النفس الإنسانية وأنها مجردة عن المادة ثم ينتقلون إلى ماهو أرقى من ذلك هذا ملخص ماقاله رحمه الله تعالى .

فشريعتنا المطهرة ورد فيها التعبير عن الذات العلية بالنور وذلك مقبول عند العوام بلا بحث وعند الخواص على سبيل المثل ، وورد « إن المؤمنين يرون ربهم كما يرى القمر ليلة البدر » فالعامة لايجوز للعالم أن يبحث معهم في أكثر من هذا ، فأما العالم فإنه يفهم أن العروج إلى الله إنما يكون بانكشاف الحقائق وإدراك الدقائق حتى يعرف الإنسان ربه ، فالنور أحسن مثال في كل مقام عند العامة وعند الخاصة ، فينتج من كل ماتقدم أن العلم وانكشاف الحقائق هي المعارج لمعرفة الله تعالى ولقائه والحظوة بشرف الوصول إليه وإذن فلنبحث في المقام الأول من المقامات الأربعة في اللطيفة الأولى وهو مقام تنزل العالم من مقام القدس إلى تمام غاياته فأقول :

يقول الله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » إن تنزيل الأمر من السماء إلى الأرض يقتضي البحث في [غرضين : الغرض الأول] النظر في منشأ هذا العالم من مبدئه فإن أصله الأثير وفيه تكونت المادة الأولى التي اضطرب العلماء في معرفتها وقر قرارهم أنها حركات في الأثير ، فكل عنصر من العناصر المعروفة يخالف الآخر في نوع حركاته التي هي في تركيبه وباختلاف هذه الحركات اختلفت الخواص واختلفت المركبات ، إن هذه العناصر لم تظهر في بادئ الأمر ، إن الشمس كانت كرة نارية وبقيت هكذا ملايين من السنين وهي تدور بحركات دورية كما هو المعول عليه الآن ثم انفصلت منها السيارات الدائرة حولها ومنها الأرض وذلك بالتبريد المستمر لتلك الحرارة ، وهذه الأرض خلق عليها المعدن والنبات والحيوان والإنسان بالتدريج فهذا الترتيب هو المقصود من الغرض الأول في هذا البيان [الغرض الثاني] أن هذه العوالم أثناء تنزلها من العالم الألطف إلى العالم الأكثف جاءت صفا صفا ، ومعنى هذا أنها ليست في مرتبة واحدة فإن العناصر ومركبات العناصر ليست كلها في درجة واحدة في صفاتها بل اختلفت الصفات لاختلاف الأغراض .

فاذا عرفت تزيل الله العوالم من حالها الأول حال البساطة والنور إلى حال الكثافة والتركيب طبقا عن طبق ودرجة بعد درجة حتى تصل إلى الحال الإنسانية والإنسان يصل إلى حال الموت فإن العالم أشبه بجيوش مختلفة وكل منها له تعالم مخصوصة وحركات تناسبه ، أو كتلاميذ فى مدرسة وكل منهم له استعداد خاص ودرجات فى العلم تخالف إخوانه فيكون لهم ترتيب حسب درجات علمهم فاذا خرجوا من المدرسة كان لكل منهم شأن على حسب تعليمه ، ولأوضح لك ذلك (بأربعة أمثلة) من علم الطبيعة حتى ترى جمال الله وحكمه وكيف جعل الأشياء مختلفة ليرحمنا بها ولو كانت متفقة فى تنزلها لنا لهلكنا . واعلم أن هذه المسائل الأربعة الآتية يدرسها علماء الطبيعة ولكنهم لايفطنون إلى هذا الجمال والنور الذى سأذكره لك ، إن علماء الطبيعة لايهمهم منها إلا مايهم الطبيب من جسم المريض . يبحث فيه عن علة يداويها ولكن لايخطر بباله النظام والجمال فى تركيبه كما لايخطر ببال الزارع بهجة النظام الداخلى فى الزرع بل كل مهمامهتم بما فيه عمله . وإياك أن تظن أن ماأذكره من عويص مسائل الفن بل هو من متناول أكثر الأفهام فأقول :

انظر إلى الحديد فى شباك منزلك . والنحاس فى أوانيك ، والذهب والفضة فى نقودك ، والرصاص فى البنادق وفى أنابيب الماء الجارى فى منزلك . إن هذه المعادن ينتفع بها الناس كما ينتفع الزارع بزرعه والطبيب بتشريحه الجسم ولكنهم قط لايفكرون فى نظامها إلا قليلا ، وأما فكر الكيماوى فللدراسة البحتة .

إن هذه المعادن تختلف من حيث قوة المتانة ومن حيث قابليتها الطرق أى لإحالتها إلى صفائح ومن حيث توصيلها الحرارة ومن حيث صهرها (انظر هذا الجدول) :

المعدن	المتانة	توصيلها الحرارة	صهرها
الحديد	٢٥٠ كيلو جرام	١١ر٩	٢٥٠٠
النحاس	١٣٧ »	٧٩ر٥	
البلاتين	١٢٥ »	٨ر٤	
الفضة	٨٥ »	١٠٠	١٠٠٠
الذهب	٦٨ »	٥٣ر٢	٤١٢
الخارصين	٥٠ »	١٩ر٣	
الرصاص	٥ر٥ »	٨ر٥	٣٢٤
الصوديوم			٩٥
البوتاسيوم			٦٢ر٥
الزئبق			٤٠

وقابليتها الطرق على هذا الترتيب (ذهب . فضة . ألومينيوم . نحاس . رصاص . خارصين . بلاتين . حديد) لعلك تريد إيضاح هذه الجداول ، فاعلم أن المتانة هى مايكون فى الفلز من المقاومة عند قطع سلك منه قطره اثنان من المليمتر ، ويلزم لقطع كل فلز وزن مختلف مقدر بالكيلوجرام ، فلو أنك أتيت بسبعة أسلاك كل منها قطره مليمتران ، وهذه الأسلاك السبعة من المعادن السبعة المذكورة فانه يكفى (٥ر٥) كيلو جراما

لقطعه إذا كان رصاصا والحديد يلزم (٢٥٠) كيلوجراما لقطعه فيكون الحديد أمتن من الرصاص نحو (٤٥) مرة ، ومن الخارصين نحو (٥) مرات . ومن النحاس نحو مرتين ، ومن الفضة نحو ثلاث مرات . ومن الذهب نحو أربع مرات . فأما توصيل الحرارة فان الفضة أكثرها توصيلا لها . فاذا جعلناها مائة أى جعلنا قوة توصيلها الحرارة مائة درجة فالنحاس نحو ثمانين من هذه المائة والذهب نحو النصف والخارصين نحو الخمس والحديد نحو العشر والرصاص قريب من العشر والبلاتين كذلك .

وأما قابليتها للطرق بأن تجعل صفائح فالذهب أولها وهكذا مابعده والحديد آخرها . وأما صهرها فان الزئبق أسرعها صهرا والصوديوم ضعفه تقريبا والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب . قدره نحو عشر مرات والفضة قدره (٢٥) مرة لأنها ألف درجة بميزان الحرارة المعتاد والزئبق (٤٠) به، والحديد قدر الفضة مرتين ونصف ، والعبرة فى الصهر وحده بميزان الحرارة المعلوم . وهاهنا أيضا أمر خامس وهو التطاير فالزئبق يطير على درجة (٣٦٠) والصوديوم على درجة (٨٠٠) والخارصين على درجة (١٠٠٠) بميزان الحرارة المعلوم . فإذن ميزان الحرارة معتبر فى الصهر وفى التطاير ومعتبر فى توصيل الحرارة وفى الطرق وفى المتانة النسبة بينها كما وضحناه .

فانظر أيها الذكى إلى الحديد مثلا . ألا ترى أنه أمتنها كلها . ألم تر أنه أمتن من الرصاص (٤٥) مرة كما قدمته لك ، ثم إنه هو نفسه لايصهر إلا على درجة (٢٥٠٠) فهو أبعدها عن أن يسيل وأيضا توصيله الحرارة ضئيل فهو نحو عشر الفضة فى التوصيل وهو آخرها فى الترتيب لقابليته الطرق ليجعل صفائح . إذن الحديد هو أمتنها وأبعدها عن الصهر ومن أقلها توصيلا للحرارة وأقلها كلها الطرق . أفلا ترى أن هذه المزايا فيه جعلته عاما فى كل الصنائع وعلى ذلك تراه كثيرا فى الوجود ، ألست ترى أن الحكمة متقنة بحيث يكون ما منفعته أكثر والناس إليه أحوج فى الأمور العامة كثر وجوده .

هذه هى العلوم وهذه هى الحكمة . انظر إلى الذهب . انظر إلى جماله ، إياك أن تقول إن جماله مايفهمه العامة وبعض الخاصة من شكله البهج ولونه الظريف المفرح . كلا . ولا من غلو ثمنه وارتفاعه . كلا . إن كل ذلك إلا متاع يشترك فيه الناس ولكن الجمال هنا مانسمعه من صوته الرخيم ووجهه الجميل فى العلم ، فلو أنه نطق لقال : أنا أقل متانة من الحديد نحو أربع مرات ، إن المتانة كالحديد فى قوته لا منفعة لها عندى . وإنما متانتى على مقدار الحكمة ، ألست زينة للغانيات ، ونقودا فى المعاملات . فما عندى من المتانة يكفينى فهل أحمل أثقالا أو أجعل فى سقف أو فى محراث ؟ أو أى آلة من الآلات ؟ لذلك لم تكن المتانة إلا على مقدار المنفعة والعمل ، ثم إنى أول قابل للطرق والفضة بعدى ليسهل على الناس جعلى نقودا وحليا ، فلو أنى عصيت عن ذلك ولم أقبل الطرق ولم أسهل على الناس كالحديد لتعطلت نقودهم وزينتهم . هكذا الفضة بعدى فأما توصيلى للحرارة وصهرى فانهما على قدر الحاجة ، لذلك ترانى فى المعادن تحت الجبال وفى الرمال أقل وجودا ولو كثر وجودى لضاعت معاملات الناس ! ولم يجدوا حكما يحكم بينهم فى معاملاتهم ، إنى وضعت على قدر الحاجة فى الأرض ، فأنا القاضى فى المعاملات والقضاة عندكم قليل على قدر الحاجة وحفظ النظام ، فأما الفضة فإنها فى معدنها أوفر لشدة حاجة الناس إليها فى المعاملة ولاضطرار الناس إليها فى صغيرات الأمور ودقيقاتها .

ويقول النحاس : أنا أقل متانة من الحديد ، وأنا من أسرع الفلزات كلها توصيلا للحرارة وإنما كان ذلك لأصلح لطبخ الطعام وغلى الماء ، فأنا سريع التوصيل لها ، ولست سريع الصهر ، أما الماء فانه يغلى ويبخر فى الأمتعة التى تصنع منى ، فأنا سريع التوصيل لأحيل غيرى من لحم الحيوان والخضر والماء وجميع مايصنع الناس فىّ فهو يحول إلى صور أخرى ، أما صورتى النحاسية فهى باقية ، فالتوصيل للحرارة سريع

وصهرى غير سريع ، لذلك كنت أثاثا ومتاعا إلى حين ، وكثر وجودى، فأنا أكثر من الفضة ومن الذهب لحاجة الناس إلى .

إن هذا هو الذى تنطق به المعادن إذا نطقت . إن هذه هى الحكمة التى يسمعها الحكماء إذا مروا فى هذه الأرض ليحملوا ذلك إلى عالم آخر ينظرون فيها ويتفرجون على مافيها من هذه النظم الشارحة الصدور المسعدة العقول «إن ربك حكيم عليم» وبهذا تم الكلام على المقام الأول .

﴿ المقام الثانى : رجوع الأمر إلى الله تعالى ﴾

اعلم أن هذا العالم كله سائر من الكثافة إلى اللطافة كما أنه تنزل من اللطيف إلى الكثيف . فانظر كيف ترى الإنسان وهو بعض هذا العالم قد خلق من المواد المظلمة الأرضية ثم إنها تلطف فيه حتى يرى منها مواد كالزجاج فى العين ومواد أخرى فى المخ . وبهذه الوسائط قبل أن يتخيل ويعرف هذا العالم ويتصور السموات والأرض فيصبح عقله كأنه العالم كله . أليس العالم بعد أن كان كثيفا فى خارج الحواس أصبح عالما لطيفا داخل النفس بل هو ألطف من الأثير بل هو أشبه به لما كان فى علم الغيب وكأنه رجع سيرته الأولى وإن كان هنا مختلفا باختلاف العقول لنقصها وهناك لاتغير لنظامه . فهذا هو المقام الثانى .

فالمقام الأول يشار إليه بقوله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» وقد عرفت التدبير بالنشوء أولا وترتيب الدرجات ثانيا . والمقام الثانى «ثم يعرج إليه» وذلك بالرجوع إلى العالم اللطيف ومبدأ ذلك الرجوع تعقلنا وفهمنا فى الأرض وعملنا . وهناك بعد الموت مفاوز ومسالك يختلف الناس فيها اختلافا كثيرا وهم سائرون وسيأتى شرحه .

﴿ المقام الثالث هو الجمال ﴾

والجمال قد عرفت أنه فى حسن الوضع وإتقان الصنع وإيجاد النسب بين المخلوقات كما سمعته فى حديث الذهب والحديد والنحاس ، وأن الإنسان يسمع نطق تلك المعادن إن كان من أولى العلم العاقلين ، فهذا هو حسنها اه .

﴿ المقام الرابع . نشأة الإنسان وعروجه ﴾

وهذا هو قوله تعالى «وبدأ خلق الإنسان من طين» إلى آخر هذا المقام كأن الله عز وجل بعد أن ذكر العالم إجمالا من حيث تنزله من الألطف إلى الأكثف بالتدبير وعروجه ثانيا أراد أن يبين لنا مايهمنا نحن فى الأرض ويقول إن المهم للانسان البحث فى حاله هو فإنه نموذج العالم كله . فلئن تنزلت العوالم من كونها أثيرا إلى أنها صارت سموات وأرضين إلى معدن إلى نبات إلى حيوان . فأنتم كنتم نطفا فصرتم أجنة فمولودين فرضعا وأطفالا فمراهقين ولكم سمع وأبصار وعقول فهذا النشوء فيكم كنشوء العالم الذى حولكم « ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة » .

ثم إنكم بعد ذلك تعرجون إلى العالم الأعلى فان فيكم الروح وهى تنمو كما رأيتم الجسم ينمو . ألا ترون إلى الأطفال لا ينظرون إلا إلى شهواتهم . ألا ترون إلى الشيوخ والكبار فى السن . ألا ترون أنهم يهتمون بأبنائهم وبناتهم . أليس ذلك رقيا فى العواطف وحبا وكمالا ، ذلك نموذج لرقى الأرواح فى الأرض ثم إنكم تسيرون فى الأرض وأنتم مختلفون فى طباعكم . فكما أنكم ترون أن الزئبق أسرعها صهرا بحيث يذوب على درجة (٤٠) بميزان الحرارة المعتاد والرصاص مقداره ثمان مرات والذهب قدره نحو عشر مرات والفضة قدره (٢٥) مرة والحديد قدره نحو (٦٢٫٥) بحيث يحتاج إلى حرارة الزئبق مضاعفة اثنتين وستين مرة ونصفا هكذا يكون الناس وهم سائرون إلى ربهم فمنهم البطىء كالحديد وهم كثير كما كثر الحديد ، ومنهم السريع وهم

ينقلون كما ينقل الذهب والناس فى الأرض سائرون إلى الكمال ولكن درجاتهم كدرجات المعادن كما قال النبى صلى الله عليه وسلم «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة» وهذا هو سر الحديث وبه نفهم قوله تعالى «قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون» وهذا الرجوع مقدر بألف سنة وبخمسين ألف سنة وبأقل وبأكثر، والعبرة فى ذلك باستعداد الإنسان نفسه، إن نفس الإنسان فيها ذلك وفيها استعدادها فهى إما كالذهب استعدادا وإما كالحديد وإما كالزئبق فى السهولة. وترى المصلحين للأمم أشبه بالراديوم الذى يحول المعدن إلى معدن آخر وهم قليل وترى الحكماء ينقلون عن العلماء على ترتيب المعادن.

إن الناس اليوم يشاهدون نظام المعادن مغروسا فى فطرهم فيه يختلفون. وبعد الموت يرى الإنسان إلى أين وصل. بل لو آتاه الله ذكاء لعرف فى الدنيا أن الوصول لله على مقدار العلم والحكمة والبعيد عنه على مقدار التمسك بالأرض وحبها. وهذا المقياس هو الأصل والناس درجات فيه. فهذا هو الجهاد الذى يخص كل نفس. فإذا جاء يوم القيامة وقفوا هناك للحساب وكان طول الموقف لكل على مقدار ما كسبت كما تفيده الآيات والأخبار فمن مقدار صلاة ركعتين إلى ألف سنة إلى خمسين ألف سنة «والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم» ولنذكر هنا (شذرتين).

﴿الشذرة الأولى﴾

اعلم أن الصلاة فيها مايذكر الإنسان بالنشأة الأولى وبالنشأة الآخرة يقول المسلم «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا» وهذا هو قوله «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» ويقول المسلم أيضا «إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين» وهذا هو العروج الى الله. ويقول المسلم «الحمد لله رب العالمين الخ» وهذا هو تدبير الامر وتنزله، ويقول «اهدنا الصراط المستقيم» ويذكر المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالين وهذا هو المثال المضروب فيما تقدم بالمعادن واختلافها وأن الأكثر للأعمال الجسمية كالحديد والنحاس والأقل العلم والخلوص من المادة كالذهب والراديوم، ويقول المسلم «اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال» وهذا أشبه بتسليط الحرارة على المعدن حتى يذوب، وهذه الأدعية تسلط على الأرواح عسى أن تصفوا فتخرج من المادة فلا موت ولاحياة جسمية ولا كذب ودجل كما هو حاصل الآن فى الأرض بين الشرق والغرب من الأكاذيب والضلالات والجهالات والظلم وهكذا مابعد الموت فيدعو المسلم أن يخلص من هذه الأرض بالعمل الصالح والكمال.

﴿الشذرة الثانية﴾

(محاورة بينى وبين بعض أصدقائى من مفتشى وزارة المعارف)

قال لى إذا كان أكثر الناس فاسقين جهلاء فأين ارتقاؤهم؟ إن ذلك أمر درسته فى أوروبا وفى الشرق «إن الناس جميعا لا يسيرون إلا على حسب المصالح لا الأخلاق، بل الصالحون فتش عنهم تجد فى قلوبهم خبثا وشهوة إلا قليلا، فقلت هكذا يكون النظام. فقال إذن أين الرقى؟ فقلت الرقى بهذا يكون. قال وكيف ذلك قلت إن هذه النفوس المنحطة هى شياطين الإنس وهم كشياطين الجن قال وأى ذنب جنوه قلت المقام ليس مقام ذنب بل هو نظام. فقال بين ماتقول. فقلت ألست ترى للذباب فائدة وهكذا الناموس إنهما يلتقطان العفونات من الأرض والرطوبات إنهما خلقا ليطوفا بأنحاء البرك والرطوبات فيصفو الجو ثم ينقلان العدوى من زيد الى عمر وليموت من لم يكن مستعدا للبقاء ويحيا من هو أهل للبقاء وهذا حسن فى النظام، وترى العين القذرة يضع فيها الذباب بيضه فيصير دودا إيقاظا للناس أن ينظفوا أماكنهم وأجسامهم

فكان

فكأنه يقول « أنا آكل القذى من أعينكم حرصا عليكم ولكن لابد من الفائدة لى وهى أنى أرتى أبنائى فى أعينكم ولو أضرها ذلك لأن النفع بالغرم ، وها أناذا عملت لى ولكم فلو تظفتم أجسامكم وثيابكم ما آذيتكم .

فقال . هلا كانت العملية كعملية علم الجبر إن الزائد والناقص يتمحيان فلا قاذورات . ولاذباب . ولماذا هذا فقلت له إذن يكون معنى كلامك أن الحياة لايكون فيها هذه القاذورات قال نعم . قلت ولايكون فيها نمل والنمل يأكل الدود والدود يأكل الخشب وبسبب النمل تعيش أنت تحت هذا السقف فإن الخشب إذا كان متينا كالسنط فإن الفضل فيه إنما هو النمل الذى يأكل الدود الذى يضربه قال كان يكفى أن يخلق الخلق بلادود . قلت أنت تريد الايكون هذا الوجود . قال وكيف ذلك ؟ قلت لأنى الآن أرى فى جسمى معامل تعمل صناعات تعد بالآلاف فكأنك تقول يجب ألاتكون عين ولاأذن ولاأسنان ولاريق ولامعدة ولاأمعاء ولا كبد ولاطحال لأن أكثر هذه إنما هو العمل فى الطعام . ولماذا يكون الطعام ونحن نجد أن الصبار الذى يزرعه الناس على مقابرهم يعيش بالهواء وبالبخار فيه ولا يحتاج إلى الأرض ولا الماء فكان خيرا لنا أن نعيش كما يعيش ذلك النبات . وإذا قلت ذلك فإنك لاتريد أن أكون إنسانا بل أكون نباتا وأيضا لاتريد أن يكون هذا العالم الذى أعيش فيه عالما منظما بل تريد أن يرجع إلى السكون والموت فإن هذه الأعمال معناها الحياة وماتقوله موت . والحياة تقتضى الماء والهواء والماء تبقى منه رطوبات وهذه الرطوبات لابد لها من ناموس يلتقطها ودود فى الأشجار فإذامنعت الرطوبات فمعناها أنك لاتريد أن يكون فى الأرض ماء والماء من لوازمه أن تبقى له آثار فى الأرض . وإذاكان الذباب ومثله ضروريا فى عالمنا الناقص الأرضى فلنقل كذلك إنه يلزمه شياطين الإنس والجن ومايفعل الشياطين إلاأنهم يمرضون العقول ويؤخرون ارتقاء الناس وهذا مقصود من العناية الإلهية فإن النفوس المنحطة فى أرضنا أشبه بالحديد أو النحاس لابد منهما . فتأخير هؤلاء عن الرقى من متممات العالم الأرضى ، وأن الدول القوية تؤخر الضعيفة وتمنع عنها العلم ، وهذا فعل شياطين الإنس والوجود يحويه كما يحوى شياطين الجن .

فلما سمع ذلك صاحبى سر سرورا عظيما وقال هكذا يجب أن يكون يقين الإنسان ، يجب أن يكون يقينه مبنيا على الحكمة كما سمعت . ثم قال وما نتيجة ذلك كله . قلت نتيجته الصعود إلى عالم أعلى فإن الناس يسيرون فى عوالم وراءها عوالم وأن الجنات درجات بعضها فوق بعض ، وقد قال علماؤنا فى قوله تعالى «ولدينا مزيد» هو زيادة الانكشاف ولقاء الله وأهل الجنة يرون ربهم من وقت إلى وقت على مقدار ما كانوا يذكرونه فى الدنيا ثم يرتقى منهم طائفة فيغادرون هذه الطبقات ويكونون أعلى منها فى عالم كعالم الملائكة وهو عالم أعلى من عالم الجنة المعتاد عند العامة . قال وهل قال ذلك أحد من المفسرين . قلت نعم قال الفخر الرازى فى قوله تعالى «والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا» فالروح إما أن تخرج بشدة ، وإما أن تخرج بسهولة ؛ وهى المعبر عنها بالناشطات نشطا ، ثم إنها تسبح فى تلك العوالم ثم تسبق ثم تكون فى عالم كعالم الملائكة بحيث يكون الإنسان فى الدنيا يؤهل بعض أفراد منه إلى عالم على مقدار علمه وخلقه والباقى أقل من ذلك ولايسعد الإنسان بلقاء الله على الوجه الأكمل إلا إذا أحب نوع الإنسان كله وسعى له فى الخير على مقدار مكانه وأحب العلوم وهو مغرم بها . فهذا الإنسان ربما يكون فى مصاف تلك الأرواح « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى «الذى أحسن كل شىء خلقه» ﴾

اعلم أيها الذكى أن فى هذا المقال (مقامين ، المقام الأول) فى إحسان خلق النبات (المقام الثانى) فى إحسان خلق أفضل الحيوان وهو الإنسان .

﴿ المقام الأول فى إحسان خلق النبات ﴾

تباركت يا الله ، أحسنت كل شىء ومن أحسن وأبهر ما أحسنت من مصنوعاتك مناظر النبات الجميلة البهية الحسنة الأشكال التى إذا نظرها الحكيم المغرم بالجمال أنشد قول ابن الفارض رحمه الله :

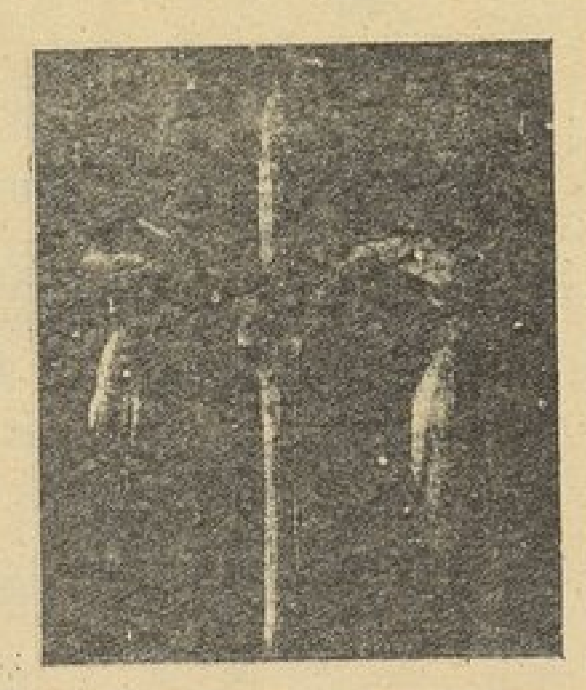
تبارك الله ما أحلى شمائله ... فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
وأرحم البرق فى مسراه منتسبا ... لثغره وهو مستحى من الفلج
تراه إن غاب عنى كل جارحة ... فى كل معنى لطيف رائق بهج
فى نغمة العود والناى الرخيم إذا ... تألفا بين ألحان من الهزج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى ... برد الأصائل والإصباح فى البلج
وفى مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى إلى سحيرا أطيب الأرج
لم أدر ما غربة الأوطان وهو معى ... وخاطرى أين كنا غير منزعج
فالدار دارى وحبى حاضر ومتى ... بدا فمنعرج الجرعاء منعرجى
ليهن ركب سروا ليلا وأنت بهم ... بسيرهم فى صباح منك منبلج
فليصنع الركب ما شاءوا بأنفسهم ... هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

كأنى بابن الفارض وقد بهره البرق فى مسراه والغزال فى مرعاه والمطر فى مجراه والندى فى مجلاه والزهر فى بهاه ، قد رسمت هذه المناظر فى لوح خياله فامتلأ جمالا وابتهج إشراقا فنطق بما قرأته الآن .

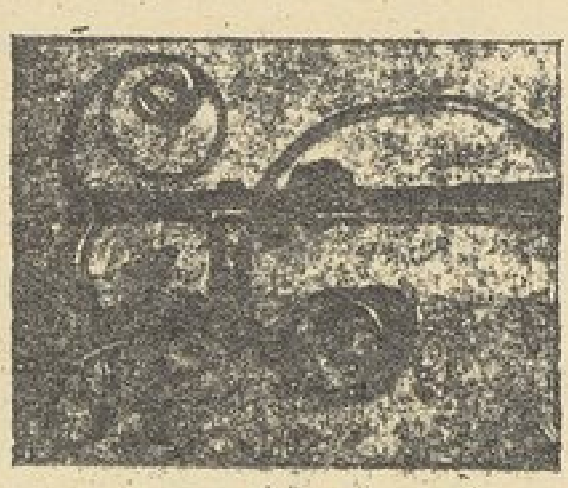
وها أناذا أيها الذكى أرسم لك صورا بهجة جميلة حسنة المناظر بديعة المحاسن لينشرح صدرك برآها ، وتبتهج روحك بمنظر حلاها ، والمناظر التى تراها الآن على (قسمين : القسم الأول) ما تسر العين بهجته (والقسم الثانى) ما يبتهج القلب بحكمته ، فالقسم الذى تسر العين بهجته ما نظرته فى بعض المجلات الطبية وهى «مجلة الجديد» (انظر الأشكال الآتية) :



(شكل ٢٢ ـ ما أبدع أن تنقش هذه الحلية من الخشب أو الحجر أو الحديد
ولكنها ليست بحلية بل هي ورق شجرة سكسيفرانا وبلسكومانيا!!)
وقد كبرها المصور ثماني مرات)



(شكل ٢٣ ـ نبات ال (فورسيثيا) وله شكل سنان الرمح)



(شكل ٢٤ ـ هذه الحلية البديعة لم يصنعها فنان ماهر بل هي من صنع الله ، إنها سيقان وجذور نبات القرع ، مكبرة أربع مرات)



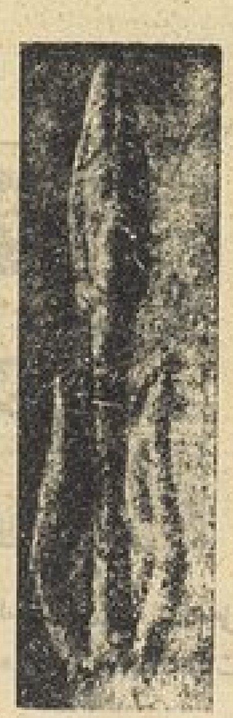
(شكل ٢٥ ـ نبات أمريكي يعرف بشعر العذراء واسمه العلمي (اديانتم بيدانم) وقد كبره المصور ثماني مرات ، ألا ترى هذا النبات الغريب فتظنه قضبان الحديد التي كانت تسور الحدائق والقصور في القرن الخامس عشر)



(شكل ٢٦ ـ نبات ال (دلفنيوم) وشكله يحاكي (النجفات) التي كانت تستعمل قديما



(شكل ٢٧ ـ هذه صورة ورق قد جف على عود، ولك أن تتخيلها مقبض سيف أو حلية تنقش على الأسلحة ويعرف باسم «حوض فينوس» مكبرة أربع مرات)



(شكل ٢٨ ـ صورة سنان رمح من صنع الله)



(شكل ٢٩ ـ ماذا ترى ؟ أحلية لإحدى نوافذ القرن الثالث عشر، أم شعبة من شعاب الماء ؟ لا هذا ولا ذاك بل هي ورقة من شجرة «إرنجو بورقى» قد كبرها المصور خمس مرات)



(شكل ٣٠ ـ نبات « اسبليم فليكس ماس » مكبر أربع مرات
ألا تراه يشبه حلية صليب الأسقف وسواها)



(شكل ٣١ ـ صورة غصن من شجر « الزبيب الأسود » ولعمرى إن حلية تصنع على طراز
هذا الغصن المزهر لتدل على ذوق سليم وجمال فن ظاهر ، مكبرة خمس مرات)



(شكل ٣٢ - روح الرقص وشكله ،
نبات البيش «خانق الذئب»)



(شكل ٣٣ - نبات السرخس)

وبهذا انتهى الكلام على القسم الأول من المناظر التي تسر العين بهجتها .

(القسم الثاني مايبتهج القلب بحكمته)

وذلك مثل ماجاء في كتاب الأستاذ (بول برت) في العلوم الطبيعية الذي كان أستاذا في (السوربون) بفرنسا ، وقد ترجمته إلى الإنجليزية زوجته (مدام بول برت) فالقسم الأول يعرفه الإنسان بمجرد النظر إليه أما هذا القسم فلا بد له من علم وحكمة ودرس وطول تجربة ، وفي هذا العصر قد قرب رسم الصور المعاني الدقيقة التي سترى بعضها هنا ، فانظر كيف يقول في (صفحة ٨٥) ومابعدها ماترجمته من كلامه في علم النبات

قال عند الكلام على ساق الشجرة وقد رسم هذا الرسم (شكل ٣٤) .

لنتكلم أولا عن جذع الشجرة ونشقه ، فإننا نراه مقسما (ثلاثة أقسام) (ا) و (ب) و (ج) فالقلب (ا) وهو أبيض وناعم، ويليه الخشب (ب) وهو صلب ويليه (ج) وهو القشر وهو أخضر ولطيف وفي الإمكان أن يشق فيجعل سيورا وهذا الامتحان في الشجرة الحديثة العهد من أشجار (الكمثرى) التي نبتت في العام الماضي من جذور شجرة قديمة العهد أهلكها برد الشتاء القارس وساقها بلاريب لدن طري ولكن إذا نظرنا إلى هذا الشكل الذي يمثل شجرة قديمة (انظر شكل ٣٥) في الصفحة التالية .

(شكل ٣٤ - (ا) القلب
(ب) الخشب (ج) القشر)



(شكل ٣٥ – رسم قطعة من ساق شجرة الكمثرى القديمة)

(ا) قلبها الذى لا يزيد بازدياد العمر .

(ب) الخشب المركب من دوائر ملتف بعضها على بعض وكل دائرة تقابل سنة من سنى الشجرة .

(ج) القشر .

وإنما رسمناها هنا للموازنة بين الحديث والقديم من شجر الكمثرى ويلحق به غيره ، فأول مانلاحظه فى هذا الشكل أن جذع الشجرة الكبيرة أكبر من جذع الشجرة الصغيرة فإن قطر الكبيرة يبلغ نحو ٤٠ بوصة ، ومن المدهش أن نقول إن قلب الشجرة الكبيرة لم يكن أكبر من قلب الشجرة الصغيرة ، وهذا وإن كان يدهشك هو الحقيقة عينها فليس للقلب نمو والشجرة دائمة النماء ، أما القشر فإنه لاهو أخضر ولا ناعم ولكنه خشن وأغلظ من السابقين هنالك سأل أحد تلاميذه قائلا . هاهو ذا قطع من جذع الشجرة القديمة هل تقدر أن تعد هذه الدوائر المنتظمة المنتشة أمامك كم فيها ياجورج ، فقال هذه نحو (٦٥) ياسيدى فقال الأستاذ ولماذا تقول إنها (٦٥) يابنى ؟ فقال لأن الحلقات (وهى تعد بكل سهولة عند القلب) مندمجة مضغوطة أشد الضغط بالقرب من القشر بحيث لا أتمكن من تمييزها إلا بصعوبة عظيمة . فقال الأستاذ ولماذا هذا ؟ فقال التلميذ إذا أصغيتم إلى ما سأشرحه الآن ظهر لكم الجواب ، إن كل دائرة من هذه الدوائر تدل على سنة واحدة من حياة الشجرة ، وإذا كانت هذه الدوائر (٦٥) فهذا عدد سنى عمر هذه الشجرة ، ولاريب أن ماتنموه الشجرة فى كل سنة لابد أن يتخذ له مكانا وهذا المكان لايخلو إما أن يكون بقرب القلب وهذا لايمكن لأن هذه الدائرة إذا خلقت بين القلب وبين الدوائر الخشبية (وهى كلها صلبة لقدم مدتها) حصل هناك تشقق فيها وتلف وإما أن يكون بين الخشب وبين القشر . وهذا هو الحاصل فعلا ، إذن الدائرة الجديدة تكون بعد آخر دائرة وتحت القشرة وههنا أفاد بعض الطلاب وهو ابن نجار أن هذه الدائرة الجديدة التى تتولد بين القشر وبين الخشب تكون لينة بخلاف القلب فإنه يابس جدا ذلك لأن الأخير قديم العهد والأول حديثه وعلى ذلك يكون إيقاد النار بالقلب أتم من إيقادها بالدائرة الجديدة لأن القلب كثير الاندماج غزير المادة بخلاف الثانى ، ثم انظر الأشكال الآتية :



(شكل ٣٦) (شكل ٣٧) (شكل ٣٨) (شكل ٣٩) (شكل ٤٠)

إيضاح الأشكال السابقة إجمالا

(شكل ٣٦) (ا) الخشب (ب) القلب.
(شكل ٣٧) هو شجرة النخل وهى اسطوانية الشكل مستو أعلاها وأسفلها.
(شكل ٣٨) جذع النخلة وهو مقطع الجريد.
(شكل ٣٩) جذع النخلة المقطوع عرضا، فلا قلب لها ولا دائرة خشبية يوافق أحدها الآخر ولا قشر لها.
(شكل ٤٠) جذع النخلة المشقوق طولا مظهرا المادة الليفية المقوية له.
ولما كانت هذه الصور يعوزها الإيضاح وجب أن أذكر ما قاله المؤلف فى شأنها فأقول:

هيكل شجرة النخل

ثم قال المؤلف «ها نحن أولاء قد أتممنا الكلام على شجرة الكمثرى وتاريخها الطبيعى وثمراتها فلأمتحن معكم شجرة أخرى تختلف كل الاختلاف عن جميع الشجر وهى (شجرة النخل)، ومن سوء الحظ أن هذه الشجرة لاتنمو إلا فى البلاد الحارة، فإذا أردنا شجرة من هذا النوع فلامناص لنا من استحضارها من البلاد الحارة وستسألون قائلين لماذا خصصت شجرة النخل بالبحث؟ ألم يكن لك فى أشجارنا الكثيرة فى بلادنا مايكفى للدراسة؟ حسن جدا أيها الأبناء، ولكن مافصلته لكم فى هيكل شجرة الكمثرى ينطبق انطباقا تاما على جميع الأشجار التى تنبت فى بلادنا.

(١) فكلها ذات جذع أغلظ عند قاعدتها منه عند قمتها فهو جذع مخروطى الشكل كما يقوله علماء الهندسة.
(٢) وأيضا لكل منها قشر على ظاهرها.
(٣) وخشب تحت القشر وهو فى قلب الشجرة أصلب منه فى الذى بين القشر والقلب وهذا الخشب حلقات متوافقات منتظمات.
(٤) وقلب. ولسوق جميع هذه الأشجار.
(٥) أغصان.
(٦) أو فروع خارجات من.
(٧) البراعم اللاتى يكن عند آباط الأوراق.
(٨) وهكذا لهن حبوب ذوات فلقتين.

﴿ وصف النخل ﴾

أما النخل فإنه مختلف كل الاختلاف عن ذلك كله وذلك لسبب يجب على أن أخبركم به، ومن حسن الحظ أنى قد هيأت لى الفرص أن أحوز صورا له تساعدكم على أن تفهموا ماوصفته لكم. فانظروا إلى هيئة شجرة النخل (شكل ٣٧) ألستم ترونها تختلف عن أشجار غاباتنا اختلافا مبينا (أولا) أنكم لاترون غصنا ما على جذعها وإنما ترون على أعلاها حرف (ا) فقط خصلة من الجريد والخوص الطويلات القويات المتينات (ثانيا) إن الجذع حرف (ب) من قمته إلى قاعدته معتدل المقدار متساوى الأجزاء فهو إذن اسطوانى الشكل لامخروطيه فهو كهيئة المداخن. ثم إنكم ترون تحت الجريد والورق عراجين مدلاة وهى ثمرات النخل النافعات. وإنكم إذا أردتم أن تعرفوا طول هذه النخلة فاحكموا عليها بموازنتها بهذا العربى الذى

تروته على ظهر الجمل . إذن علوها (٤٥) قدما (ثالثا) إنها لنخلة طويلة ولكن بجانبها نخلة صغيرة جدا وهى حرف (ح) لاتزيد على تسعة أقدام ارتفاعا . ولكن جذعها فى غلظه كجذع أختها الكبيرة . ومن العجب العجاب أن النخلة تنمو طولا ولكنها لاتنمو عرضا ولا تزيدعن الحالة الراهنة ، وهذه فارقة أخرى بين شجرة النخل وما لدينا من الشجر مثل الصنوبر وشجر الدردار والتفاح وهكذا ، ثم انظروا إلى جذع النخلة فى (شكل ٣٨) إنكم لتجدون عليه سلاسل منتظمة تشبه السلالم . فما هذه إلا آثار الجريد الذى أزيل عن الجذع فى سنين مختلفات ولم يبق من الجريد إلا مافوق القمة ، فهذه هى الحصلة الخصبة البهجة التى تزدهى النخلة بحليها وبجمالها . إن هذه الشجرة لابرعوم لها إلا مافى قمتها كما رأيت وهناك فقط يكون نموها وأثمارها . فهناك لاترى عسلجا جانبيا . فلا يكون جريد ولا أغصان .

(الجذع)

فهيا بنا الآن نمتحن هذه القطعة الصغيرة من جذع النخلة المشقوقة عرضا (شكل ٣٩) المتقدم ماأدق نسيج قوامها المحكم الصنع المتقن الأجزاء . هاهنا لاقلب ، لاحلقات خشبية دائرات بعضها على بعض ، لاقشر ولكن بدل الوضع المنتظم الذى اعتدنا أن نراه فى الأشجار نرى هنا كتلة ناعمة يبدو بها مالا يحصى من القطع السود الصلبة اللاتى وضعت وضعا لانظام له . ولكن لننظر ماهذه القطع السود ؟ إننا لأجل أن نحققها وجب علينا أن نقطع الجذع فى الوسط (شكل ٤٠) طولا لا عرضا لنقف على حقيقتها . انظروا إلى هذه المادة الليفية الصلبة السوداء التى ترونها ممتدة فى وسط المادة الناعمة التى تشبه قلب أشجارنا فيما قدمناه شبها قليلا أو كثيرا . فهذه المادة هى التى تظهر هيأتها أشبه بنقط سود فى القطعة المقطوعة عرضا التى امتحناها قبل هذه (شكل ٣٩ المتقدم) إن هذه المادة الليفية إذا نظرنا لها نظرا سطحيا تظهر كأن وضعها غير منتظم وأنها تضل فى وسط هذه الكتل الناعمة اللاتى وضعت هى فيها وتخللتها ، ولكن إذا دققنا النظر فإننا نلاحظ أن هذه الخطوط الليفية تأتى أولا من تحت قحف الجريد على ظهر النخلة وتمتد فى داخل الجذع ، ومن هناك ترجع ثانيا إلى سطح الجذع وهناك يكون انتهاؤها .

إن هذه العروق الليفية ليست شيئا أكثر من خشب النخلة المرتب ترتيبا غريبا خاصا كما رأيت .

إن هذه العروق الليفية الكثيرة العدد لتعطى جذع النخله قوة المقاومة الكافية لأن تستعمل استعمال الخشب فى منافع الناس ، وعلى ذلك يكون هناك فرق كبير جدا بين النخلة وبين (شجرة الحور) مثلا فى (أمرين) مظاهرها وتركيبها . ثم إننا بينما نرى البذرة فى (الحور) وفى كل ما شاكله فى التركيب لها فلقتان نرى أنها فى النخل لها فلقة واحدة ، وعلى ذلك يجعل النبات كله (قسمين) ذو الفلقة الواحدة وذو الفلقتين اه .

معجزة نبوية وعجيبة محمدية

(فى النخل وموازنته بالأشجار)

أيها المسلمون . هاهو ذا العالم الفرنسى نظر فى الأشجار وهو يدرس لتلاميذه كما نظر علماء النبات فى جميع الكرة الأرضية . هؤلاء الذين حدثوا بعد آبائنا الأولين وتلقوا مبادىء العلم عنهم كيف نبغوا فى العلم ثم كيف كان هذا العالم هو المؤلف للكتاب بالفرنسية وزوجته هى المترجمة له باللغة الانجليزية لغة قومها . فواعجبا الرجال والنساء معا يتعاونون على العلم ونحن قوم لم يتعلم أكثر رجالنا فى الشرق وجميع النساء فماذا

يقول

يقول ؟ يقول إن شجرة النخل تخالف جميع الأشجار فى هيئتها وفى جذعها وإنه اسطوانى الشكل وإنه لا أغصان له إلا فى أعلاه . وفى أن الخشب فى جميع الأشجار قد حل بدله هنا ألياف . وفى أن القلب فى الأشجار جىء بدله هنا بمادة ناعمة . وفى أن الألياف القائمة مقام الخشب لم تكن حلقات بعدد السنين كما فى الخشب كلا بل وضعت وضعا غريبا .

هذه هى آراء علماء النبات فى كرتنا الأرضية ، فلننظر إذن فى حديث البخارى فى كتاب العلم قال حدثنا قتيبة ، حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم فحدثونى ماهى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى ، قال عبد الله ووقع فى نفسى أنها النخلة فاستحييت ، ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله . قال هى النخلة » . ثم قال باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ماعندهم من العلم . حدثنا خالد بن مخلد حدثنا عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم حدثونى ما هى قال فوقع الناس فى شجرة البوادى ، قال عبد الله فوقع فى نفسى أنها النخلة ثم قالوا حدثنا ماهى يارسول الله ؟ قال هى النخلة» اهـ .

ها أنا ذا أيها الذكى ذكرت نص ما فى البخارى فقد ذكرها فى كتاب العلم وكرر الحديث لاختلاف الرواة . فانظر كيف ذكره فى باب العلم وكيف استدل به على طرح الأستاذ الأسئلة على تلاميذه أو الملك أو الخليفة على رعيته .

عجب وألف عجب . نرى الأستاذ الفرنسى أظهر أن النخلة ماليس الشجر فهى تخالفه من الوجوه المذكورة سابقا فأفردها بالذكر .

فها هنا (بابان من العلم : الباب الأول) علم النبات وأن النخلة تخالف كل شجر فى الأرض حتى أن هذا العالم الفرنسى لما لم يجد شجرة نخل فى بلاده استحضرها من مصر عند الهرم موضع نباتها وعلم التلاميذ وهم يشاهدون صورتها (الباب الثانى) أن النبى صلى الله عليه وسلم فى أسلوب تعليمه استعمل السؤال والجواب وهذا هو الأسلوب الذى يشحذ أذهان التلاميذ فى علم (البيداجوجيا) وهكذا فعل هذا الأستاذ الفرنسى فى الفرق بين النخلة وبين جميع الأشجار ، أما أنا فأقول : إن الله لما علم أننا نحن المسلمين سنكون جهلاء بكل علم فى الأرض وندر العلوم تفر إلى أوروبا ، فمنها ما أحرق أيام خراب الأندلس ومنها مابقى عند الفرنجة فتعلموا وارتقوا حتى إذا كانت هذه الأيام أحاطت بنا هذه الأمم من كل جانب فأخذنا نلم شعثنا ونقرأ كتبهم وإنى أنا وأمثالى سنقرأ أمثال هذه المسألة فى كتب الفرنجة ، أقول إنه تعالى لما علم ذلك ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحادث أصحابه فى شجر البوادى وفى النخلة حتى إذا قرأنا كلام الفرنجة فى علمهم الواسع الذى يطلبه القرآن فى النبات وغيره واطلعنا على هذا الحديث نحسرنا على مجد ذهب وأمم هلكت ولا نصيب لها من دينها فهل فى خطة الإنصاف أيها الأمم الإسلامية أن يحرمكم صغار الشيوخ والجهلاء من الأمراء من أن تفتحوا أعينكم لأشجار هى فى نفس بلادكم وأنتم أحق بدراستها ودراسة غيرها من النبات فى الأرض من الفرنجة فتمرون عليها معرضين وهى تنبت فى جزيرة العرب وصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم من نفس بلادكم وقد أنزل عليه «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » وأنزل عليه أيضا «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» الخ وأنزل عليه أيضا « الذى أحسن كل شىء خلقه» وهذه هى المحاسن الباطنية للأشجار ، ولم يكتف الله بذلك بل ألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعطى أصحابه ـ وهم لامدارس عندهم ولا قراءة ولا كتابة ـ درسا فى النبات كله وفى النخل ، وبهذا الدرس فكر القوم

فى أعجاز البوادى . إن هذه النبوة والله يشهد لم يقم حاملوها بما يجب لها وإلا فكيف يمر هذا الحديث على المسلمين قرونا وقرونا ولا يفطن أحد لدرس علم النبات ومن فطن له وللعلوم الأخرى كابن رشد كفروه وقالوا له أنت مارق من الدين . اللهم إن هذه النكبة الإسلامية بهذا الجمود المعيب قد جعلتها سبحانك لنا عظة لنكتب لأبنائنا هذا القول حتى لا يقعوا فيما وقع فيه الآباء بسبب جهل كثير من شيوخهم واتكالهم على مشايخ طرقهم وأنا يارب قد أديت ما على بقدر طاقتى وأنت لا تكلف نفسا إلا وسعها ، فألهم اللهم أناسا يهدون هذه الأمم ويعلمونها ويرشدونها إلى سواء الصراط ، فلم يبق فى القوس منزع ، ولا عطر بعد عروس ، وحم الأمر واشتد الخطب ، وأنت تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . وأنت على كل شىء قدير . انتهى يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م والحمد لله رب العالمين .

﴿ بهجة العلم فى هذا المقام ﴾

هاأنت ذا أيها الذكى شاهدت الرسوم الجميلة البديعة فى القسم الأول والحكم المستخرجة بالدراسة من القسم الثانى . فياسبحان الله ويا سعدانه . إن المسلم فى أقطار الأرض شرقا وغربا يمر بالأشجار فى الحقول والحدائق والطرقات ويراها تمد له أيديها تارة بالأزهار وتارة بالفواكه والثمار وتارة بالروائح العطرية وتارة تعطيه خشبا لصنع أبوابه وشبابيكه وأسرته وكراسيه وسفنه وكثير من آلاته . ألا حيا الله العلم ، فياليت شعرى كيف يمر المسلمون على هذه العجائب وأكثرهم لا يشعرون أنها عجائب . كلا . وكيف يشعرون وهم لا يعلمون من الثمر إلا لذته ولا من الخشب إلا أن يكون سقوفا لمنازلهم وسفنا لمسافرهم وعمدا لخيامهم وآلات لأعمالهم ، أما الجمال وأما الإبداع فهم عنهما معرضون .

أيها الناس : إن الله قادر أن يعطينا ذلك بلا عمل ولا نصب كما أعطى (حشرة أبى دقيق) ورق قطنتا بمصر تأكله أكلا لما ، ونحن الزارعون «ولا يظلم ربك أحدا» فهو الزارع وهى الآكلة وعمل المخلوق من آثار رحمة الله . فإذن لماذا جعلنا الله فى وسط هذه العجائب . إنما فعل ذلك ليوقظنا إليها ويحثنا عليها ؟ وإلا فما هذا الجمال ؟ وما هذا الحسن . وما هذا الإبداع ؟ أواه ، أهو رمية من غير رام حتى نكون عنها معرضين كلا والله فهذا مستحيل بعد ما ظهر ظهور النجم فى هذا الكتاب بأجلى برهان وبالحس والعيان .

انظر أيها الذكى إلى ما رسمته لك هنا آنفا من تلك الصور النباتية البديعة ، فما هذه الزينة ، وما هذا الزخرف ؟ ثم تأمل قطع الخشب من الكمثرى وكيف كانت الشمس وهى تجرى فى السماء بحسب ظاهر النظر قد تركت فى بواطن الأشجار آثارا وقدار تسمت دوائر وراءها دوائر حافظات بأعدادها كرور السنين ومرور الشهور والأيام .

كم جلس بنو آدم فى وارف الظلال ، تحت الأشجار والنسمات تلاعب بالأغصان وتثنى على الأوراق والشجرات تمايل ذات اليمين وذات الشمال وضوء الشمس قد ملأ الحقول والبقاع وكسا تلك الشجرات ملاءة بيضاء مركبة من (سبع طبقات) ذات ألوان من الحمرة والصفرة إلى آخره كلهن منسوجات نسجا عجيبا وبه صرن لونا واحدا وهو ذلك الجلباب البديع ، كل هذا وابن آدم لا يعلم أن فى باطن هذه الشجرة دفترا يحصى فيه حركات الشمس وتكتب فيه السنون سنة بعد سنة . وإذا أحصى الله كل شىء عددا فها هو ذا أرانا الإحصاء واضحا فى حقولنا وبساتيننا ، وكم فى الأرض من كتاب نسخ بيد القدر وأحصى السنين الشمسية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فكل شجرة كتاب حساب كما أن كل طبقة من طبقات الأرض عند علماء (الجيولوجيا) سجل سجلت فيه القرون التى قطعتها أرضنا فى تاريخ حياتها البعيد المدى ؛ إن هؤلاء العلماء يستنتجون من هذه الطبقات وتركيبها مقدار عمر الأرض كما يقدر علماء النبات فيما رأيت مقدار عمر نفس

الشجرة بالسنين ، فعمر الأرض وعمر الشجرة تابعان لمسير الشمس الظاهرى حول الأرض . وإذا سمعنا الله يقول «وكل شيء أحصيناه كتابا» فها هو ذا أبرز لنا من الإحصاء مايوافق عقولنا ويكون كنموذج لما عنده في اللوح المحفوظ . أفلا يحق لى بعد هذا البيان أن أقرأ «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة» ظهر الجمال فى ظواهر النبات بالإبداع والحسن والزينة ، وظهر الإبداع فى بواطن النبات والأرض ، وهذه نعم تذكرنا بالنعم الباطنة فى نفوسنا من الصحة والعلم والسرور والبهجة «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

﴿ فصل ﴾

هاأنا ذا أكتب صباح يوم الجمعة (٢٧) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وهذه السورة وما معها مقدمات الطبع . فهاهو ذا حضر صاحبى . قد حضر الآن وقرأ ما كتبته فقال ياسبحان الله ماأجمل هذه الصور وما أبدع هذه الأشكال ، لقد سرت بها القلوب وانشرحت الصدور وحق لى أن أذكر أول قصيدة ابن الفارض التى تمثلت بأبياتها هنا وأنشد :

مابين معترك الأحداق والمهج	أنا القتيل بلا إثم ولا حرج
ودعت قبل الهوى روحى لما شهدت	عيناى من حسن ذاك المنظر البهج
لله أجفان عين فيك ساهرة	شوقا إليك وقلب بالغرام شجى

ومنها :

أهفو إلى كل قلب بالغرام له	شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمع عن اللاحى به صمم	وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج

ومنها :

عذب بما شئت غير البعد عنك تجد	أوفى محب بما يرضيك مبتهج

ومنها :

من مات فيه غراما مات مرتقيا	مابين أهل الهوى فى أرفع الدرج

ومنها :

أعوام إقباله كاليوم فى قصر	ويوم إعراضه فى الطول كالحجج
فان نأى سائرا يامهجتى ارتحلى	وإن دنا زائرا يامقلتى ابتهجى

فلما فرغ صاحبى من إنشاد هذه الأبيات من نفس تلك القصيدة قلت له كأنك تحفظ هذه القصائد ؟ قال أكثرها وذلك من أيام صغرى . فقلت ، إن الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى لما ذهبت دولة العرب وانتقل الملك من أمة إلى أمة وتحكم بعض صغار العقول من الفقهاء والصوفية فى عقول هذه الأمة المسكينة ومنعوا دراسة العلوم الحكمية تحول أصحاب العقول الكبيرة إلى علم التصوف فظهر فيهم أمثال الأستاذ محيى الدين ابن عربى ومن نحا نحوه كابن الفارض ودرجت الأمة على ذلك واكتفوا بهذه الوجدانيات وناموا عن نفس العلوم وبدائع التكوين ومجالى النظر فى السموات والأرض واتبع الخلف السلف و«كل حزب بما لديهم فرحون»

أذلك خير أم الابتداء أولا بالنظر فى عجائب النبات والسحاب والشمس والقمر إذ يقول الله تعالى « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها» ويقول « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب »وهل زين الله أرضه وسماءه للعميان ؟ أم أبرزها للغافلين ؟ كلا ، فإنه يقول « وزيناها للناظرين » فإذا رأيت أيها الذكى ميلا إلى النظر وفرحا بالعلم فاعلم أنك أنت من المقصودين بهذه المناظر وبهذه الزينة ، وستكون أمم الإسلام بعد هذا التفسير أسبق الأمم إلى هذا الجمال البديع وإذن يكونون « خير أمة أخرجت للناس » .

الله أكبر لاتزف العروس لبعلها إلا بعد إصلاح شأنها وتزيينها بالحلي والحلل وإلا فلا عرس ولازفاف. القاعدة واحدة جمال في المرأة فزفاف فوئام فذرية وحياة. وجمال في السموات والأرض وزينة بالنبات والشجر فحب بالجمال فعلم بالنظام فغرام بصانع هذه المخلوقات. فلاغرام إلا بعلم ولاعشق إلا بعد النظر. فأما عشق الحسان فما أيسره لكل إنسان وحيوان، وأما عشق المعاني والبدائع فما أبعده عن عقول صغار الأحلام ومرضى النفوس عباد الأوهام.

ثم قلت فليبدأ المسلم بهذا الجمال الظاهري وليدرس تلك العلوم. وهنالك يحق له أن يترنم بأبيات ابن الفارض التي ذكرناها. ولست الآن في مقام أناس اصطفاهم الله فلم يحتاجوا لهذه العلوم لأن نفوسهم صافية وقد أفيض عليها العلم. فنحن لم نؤلف هذا التفسير لهذه الطبقة فإنها من طور آخر وإنما هذا التفسير لعموم الأمم الإسلامية، أما هؤلاء فليسوا في حاجة إلى كتب يقرءونها ولا مدارس يدخلونها بل كأنهم ليسوا من عالمنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما كان يخاطب العموم.

فقال صاحبي والله لقد أجبت على ما اعترضت به عليك في سري فما كاد ذلك يجيش بصدري حتى كأنك أحسست به فبادرت بالجواب ولكني أريد أن أسألك في الصور التي نقلتها في مظاهر النبات الآن. إنك تقول إنك نقلت صورها من مجلة مصرية فقلت نعم. فقال وكيف ترسم تفسير القرآن صورا رسمها أناس في مجلات ونشروها بين العام والخاص. أليس هذا داعية للازدراء والانتقاص. أليس الذين قرءوا تلك المجلات ورأوا تلك الصور فيها يقولون إن هذا التفسير ليس بعيد المدى ولا هو عظيم الشأن. وكيف يضع المؤلف فيه صورا اطلع عليها الجهلة وصغار العقول. ولو كان التفسير ذا بال لم يرسم فيه إلا ما يجهله الطغام ولايعرفه إلا أولوا الألباب. إن كل مبذول مرغوب وكل ممنوع مقبول.

فقلت إن ماظننته أيها الأخ مانعا أراه أنا موجبا. ألاترى رعاك الله أنه كلما كان الشيء ألزم للحياة وأقوم لهذا الوجود كان أكثر انتشارا وأكثر صورا. وكلما كان أقل لزوما للحياة كان أقل وجودا فهاك الشهوات الإنسانية والحيوانية والصور النباتية والحيوانية بذلت الشهوات لكل حيوان. فجوع وشبق لازمان لهذه الحيوانات ولولاهما لم يعش حيوان ولا إنسان بل القوة الغضبية لم تذر حيوانا ولا إنسانا إلا لزمته قلة وكثرة محافظة على الأبدان بل إن القوة الشهوية بنوع ما مركوزة في النبات بها امتص من الأرض ومن الماء والهواء الغذاء بل إننا نرى له أثرا ما من القوة الغضبية وإن كانت غامضة علينا. ألم تره مدججا بالسلاح كالشوك في شجر السنط والقرطم وغيرها من الشجر والنبات ذلك ليدرأ عنه مايهلكه ويصد مايقصده بالأذى من الحيوان.

هذه حال القوة الشهوية والغضبية. إنهما عامتان وعمومها لبقاء كل نبات وحيوان وإنسان فهما إذن نعمة وحكمة كبرى لايعقلها إلا الحكماء المفكرون وليس الوعاظ والخطباء فهما من نظر إلا قبائح تجلى للناس من سوء استعمالهما كالسرقة والقتل في الشهوة والغضب اللذين جعلا نعمة أولا وبالذات، فاعجب للجمال المحجوب عن الجهال في قوتي الشهوة والغضب العامين، وأعم منهما الضوء والحرارة والهواء والماء والتراب ثم الجير والحديد والنحاس. فهذه عامة على مقتضى الحاجة إليها. فلا غرو إذا رأينا القرآن يقرؤه الأطفال في المكاتب والجهلاء والعامة في سائر الأزمنة والأمكنة والجهات لعموم الحياة عمت الشهوات والهواء والماء، ولعموم الحاجة إلى العلم والحكمة عمت قراءة القرآن وأكثر القراء في الأرض لايعقلون. فلا بدع إذن إذاعم الجمال في صورة النبات والحيوان وبرز ذلك الجمال للجهال والعلماء على حد سواء. فكما عمت الشهوات سائر الأحياء لينالوا نصيبهم من الحياة بلا استثناء هكذا نشرت صور الجمال في جميع الأصقاع برا وبحرا وسماء وأرضا ليقول الله للناس هذه هي صور الجمال أبحتها لكم فلاغل اليوم ولاتبذير، أنا سويت بينكم أيها الأحياء في سوقكم

حياتكم

لحياتكم بهماز الشهوات وسويت بينكم فى سوقكم إلى بهجة العلم بنشر صور الجمال فى النبات والحيوان والنجوم والشموس . عمت الشهوات وعم الهواء والماء فكانت الحياة وانتشرت صور الجمال فبرز فى أرضكم رجال حكماء علماء فلا حكيم إلا وهو مغرم بالجمال فإذا فقد الجمال انقرض من الأرض الحكماء .

يقرأ القرآن الجهلاء والعلماء كما ينظرون صور الجمال والإبداع ولكن القراءة شىء والفهم شىء آخر كما أن نظر الجمال شىء والإعجاب به بعد الإحساس أمر آخر ، عموم الصور أمر اقتضته الحكمة كما أن عموم قراءة القرآن كذلك وإن لم يعقله القارئون فإذا رأينا بذور النباتات ملأت السهل والجبل وإن لم يرها الناس لشدة الدقة والصغر وليست تنمو وتثمر إلا فى الأماكن الصالحة لها كالأرز لاينمو إلا فى الماء وكالقمح لاينبت إلا فى الحقول تسق وقتا بعد وقت وكنوع من النبات فى طرفه الأعلى مايشبه الشعرات البيض أوالريش الأبيض يبلغ طول ذلك نحو قدمين وارتفاع النبات نحو ثلاثة أمتار وهذا نراه على شاطىء النيل بجهة مصر القديمة فهذا ينمو ويعيش فى الماء وفى اليابسة . فبذور هذا النبات وغيره من الحشائش فى اليابسة تملأ السهول والقفار ولكنها لاتنبت إلا فى أماكنها الصالحة لها وكثرة البذور تشبه الحيوانات كثرة المنوية فى ماء الرجل وكثرة حبوب الطلع فى أعضاء التذكير فى النبات فتلك الكثرة فيهما جعلت للاحتياط فى إيجاد الحيوان والنبات ذلك لأن عالمنا الأرضى عالم متأخر فاحتيط له حتى لايحرم من الحياة فكثرت أسباب الحياة فى أرضنا وهذا هو العجب العجاب . أقول فإذا رأينا الأمر هكذا فهكذا فانقل فى حفاظ القرآن وفى العباد (بتشديد الباء) الذين يقرءون القرآن فى الصلاة ، فكثرة هؤلاء ككثرة البذور وكثرة الحيوانات المنوية . فما كثر أولئك إلا ليتحقق وجود بعض المفكرين والحكماء كما تحققت الحياة بكثرة أسبابها التى لاتحصى وهكذا عموم صور الجمال ونشرها فى الكرة الأرضية والكرات السماوية لايقصد بها إلا الألوف الذين يعقلونها فهلاك آلاف الآلاف من الحيوانات المنوية والبذور النباتية فى سبيل خلق حيوان واحد ونبات واحد كهلاك آلاف آلاف الصور الجميلة فى إيجاد حكيم واحد فى أمة من أمم الأرض يملؤها جمالا وكمالا ويحبوها عزا وإقبالا .

وهذا هو عين جوابى لك أيها الأخ ، فليس عموم الصور فى المجلات المنشورة فى الأقطار الاسلامية بمانع من رسمها فى هذا التفسير بحجة الابتذال فلو كان هذا مانعا من النشر لكانت قراءة القرآن فى الطرقات وعموم قراءة الفاتحة بين رجال الطرق فى كل مناسبة يقرءونها وأكثرهم لايعقلون معناها مانعة من اعتباره كتابا مقدسا فهو مقدس وإن قرأه صغار العقول كما أن السماء جميلة والأرض مزينة بالنبات والحيوان وإن برزت للجاهلين .

- عمت صور الجمال فى أرضنا وعمت قراءة القرآن عند المسلمين لتقام الحجة على الأرواح عند مفارقة الأبدان إذ يرتفع أقوام بأجنحة العلم والأخلاق فوق الملا فيقول آخرون لماذا ساد هؤلاء علينا ؟ فيقال بالعلم والحكمة سادوا ، فيقال ولماذا حرمنا من ذلك فيقال لهم صور الجمال وعموم البيانات والعلوم لم تدع عذرا لمعتذر ولاحجة يحتج بها المقصرون . فالجمال وإن عم والعلم وإن ملأ الأصقاع والدين وإن قرأه الخاص والعام يعوزها كلها الاستعداد ، فالاستعداد هو الذى جعل الناس فى مراتبهم وأنزلهم منازلهم فى الدين والدنيا ، فكم من جمال يراه الناظرون بهجة تعمى عنه عقول القاصرين ، وكم من قارىء لسور القرآن غافل عن معانيها وقليل من يتعظ بها وهم شاكرون .

فكما أن قراءة القرآن فى المقابر والطرقات وبألسنة الجهلاء ليست بمزرية بأمثال الغزالى والرازى وابن رشد فى الشرق ولا بأمثال (توماس كارليل) و (عبد الله كويلم) و (هنرى الفرنسى) و (اللورد هيدلى)

فى الغرب إذ قال هؤلاء (إنه فوق متناول الفلسفة والعلم وإنه هومناط الكمال والجمال) هكذا ليس عموم الصور النباتية والحيوانية فى الأصقاع والحقول والغابات ودوس الناس عليها وعلى ماجل من الحشرات ، وهكذا عموم صورها التى صورت بالصور الشمسية المنتشرة فى المجلات . بمزرية بما أرسمه منها فى هذا التفسير فهنا لها مغزى أشرف من مغزاها عند الجهلاء كما أن القرآن معنى عند الحكماء المتقدمين فوق مايعرفه جهلة المسلمين أضعافاً مضاعفة ، وكما أن الحشرات من النمل والنحل لهما مزايا عند العلماء بها يجهلها جميع العامة من نوع الانسان .

إن الجاهل يضحك من العلماء ، ولو أنك قلت لعامى : إن لله حكمة فى النمل وإن النملة (٤٠٠) عين كما تقدم فى سورة النمل لعدها منك خرافة وسخر واستهزأ وهو من المكذبين ، ولولا الاستهزاء والاحتقار لم يكن الناس طبقات .

فقال صاحبى إن للعامى الحق كل الحق أن يسخر من قول العالم إن النملة (٤٠٠) عين وإن الذبابة أربعة آلاف عين كما تقدم فى هذا التفسير لأنه لادليل لها عنده ولم يجالس العلماء، وله الحق فى الإنكار بل إذا صدق كان مخدوعا . فقلت ليس كل مالايظهر برهانه بمكذوب . ولو أن الناس جميعا عولوا على ماقويت صحته وظهرت براهينه لهلك نوع الإنسان وأصبح فى مرتبة الحيوان ، فليست نتائج الزراعة ولا التجارة ولا الصناعة ولا السياسة يقينية . لايقين فى هذا كله . ولو كانت النتائج يقينية لم نسمع بهلاك دولة بسبب واقعة حربية اكتسحتها ولا بزارع هلك زرعه بآفة سماوية ولا بتاجر غرقت بضاعته فى البحر بزوبعة جوية ولا بصناعة أصبحت فى السوق مزجاة فأفلس صانعها ، فهذه النتائج لم يكن لأصحابها فيها إلا الظن فلو كان الناس لايعيشون إلا باليقين لهلكوا .

ومن هذا الباب كثر الفقراء فى نوع الانسان لأنهم أرادوا اليقين فى المكاسب . فتراهم لا يخاطرون فى متاجر عظيمة ولا مكاسب رفيعة حرصا منهم على الدرهم والدينار اللذين عندهم وطلبا ليقين المكاسب، فالحياة مخاطرة لا أقل ولا أكثر ، وما نوع الناس وما ميزهم مراتب إلا مافيهم من استعداد فى الفطرة ضعفا وقوة . فلئن أحجم القاصرون من نوع الإنسان عن المخاطرة بالأنفس والأموال فى سبيل المجد والشرف فى الحياة وفرحوا بما عندهم من المال القليل المتيقن ضنا منهم بمالهم وأنفسهم ليحجمن الجهال عن البحث فى عيون النملة وعيون الذبابة إذا سمعوا قائلا يصف لهم ذلك . وذلك لأنهم فرحوا بما عندهم من العلم واستغنوا عن سواه كما فرح ذلك الفقير بماله وقوته ولم يبذلهما فى المكاسب البعيدة طلبا لليقين ، فالمال الذى حازه ذلك الفقير متيقن عنده وجوده والمكاسب يعوزها سعى ومناظر الحشرات والمخلوقات ظواهرها متيقنة عند الجاهل ولكن بواطنها التى يسمع عنها ليست متيقنة يعوزها البحث وهو لاهمة له فى ذلك ولا شوق . وليست تبحث للمكاسب ولا لحقائق العلم إلا نفوس اصطفاها الله . فهؤلاء قواد الأمم فى المال والعلم وهم يقلون فيها كما يقل الملوك ورؤساء الجمهوريات وقواد الجيوش «وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون» .

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا غرضا

«وقليل من عبادى الشكور» وبهذا تم الكلام على (بهجة العلم) فى المقام الأول وهو إحسان خلق النبات والحمد لله رب العالمين .

﴿ المقام الثانى فى إحسان خلق افضل الحيوان وهو الإنسان ﴾

لقد تقدم فى (سورة المؤمنين) رسم القطاع العمودى لجسم الإنسان المشتمل على عشرين عضوا وفيه مجاورة الأعضاء بعضها لبعض ثم جهاز الحركة المشتمل على (٢٩) عضوا وهكذا صورة اليدين وطبقاتهما (١٢) وصورة العين والأذن والأولى فيها (١٩) جزءا مشروحا والثانية فيها (١٣) جزءا كذلك وصورة الدورة الدموية . فاذا علمت هذا فانظر لما أقوله لك الآن واعجب من جمال الله تعالى وحكمته تتميما لما تقدم .

(١) واعجب من جهاز التنفس إذ ترى :

(١) الرئتين والشعب والقصبة الهوائية . (٢) والحويصلات الرئوية وأوعيتها الدموية الشعرية .

(٣) وتركيب الرئتين .

(ب) (١) ومن أعضاء الهضم . (٢) وهيئة الجلد .

(ج) والمجموع العصبي .

(د) وعضو الذوق وهو اللسان .

(هـ) وعضو الشم وهو الأنف .

(و) وعدد الأسنان وبعض صورها .

فهاهنا (ستة فصول : الفصل الأول) فى جهاز التنفس (الفصل الثانى) فى أعضاء الهضم . (الفصل الثالث فى المجموع العصبي . (الفصل الرابع) فى اللسان . (الفصل الخامس) فى عضو الشم . (الفصل السادس) فى الأسنان وعددها . كل ذلك ملخص من كتاب [قانون تدبير الصحة] تأليف الدكتور (جون سايكس) .

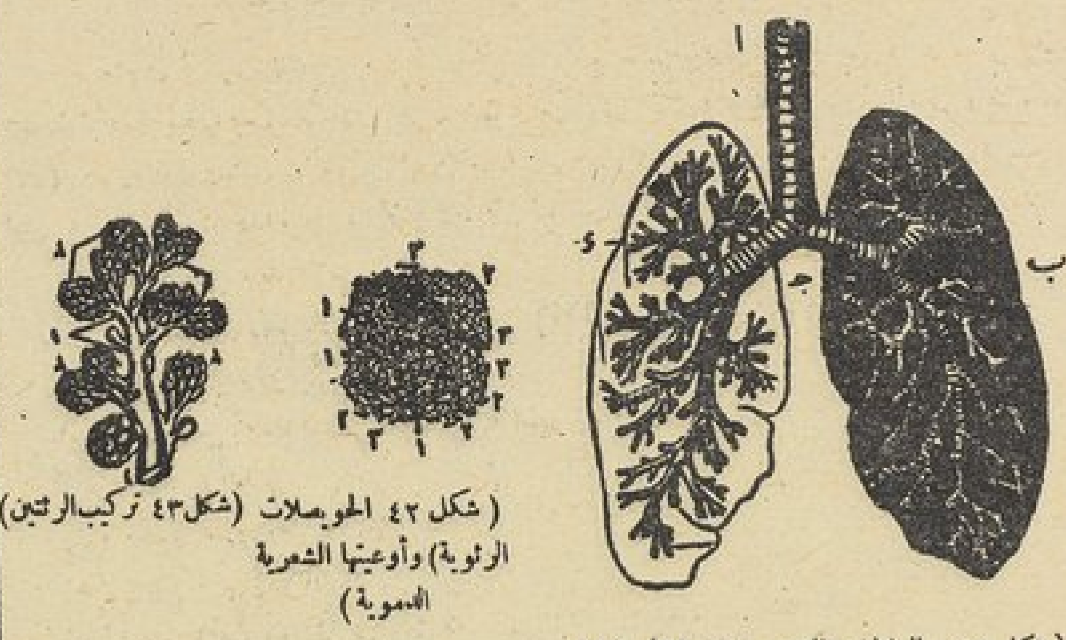
﴿ الفصل الأول : فى جهاز التنفس ﴾

(أعضاء التنفس)

يدخل الهواء من الأنف أو الفم فيصل الحلق ويمر بالحنجرة ثم بالقصبة الهوائية ومنها إلى الشعب التى تنقسم إلى فروع صغيرة تنتهى فى تجاويف صغيرة تسمى بالحويصلات الرئوية وهى تشبه العنبيات المجوفة وتجرى فى جدرانها أوعية دموية وهى التى يحصل فيها التبادل بين غازات الدم والهواء ويدخل الهواء إلى الرئتين بحركة تسمى بالشهيق ويخرج منها بحركة أخرى تسمى بالزفير وذلك بانبساط وانقباض جميع جدران الصدر الحاجز من أسفل والأضلاع والعضلات التى تحركها والتى بينها من الجوانب والأمام . انظر أشكال (٤١ و ٤٢ و ٤٣) .

﴿ ميخانيكية التنفس ، أو كيفية التنفس ﴾

يدخل فى تركيب الحنجرة والقصبة الهوائية والشعب ماعدا الدقيق منها حلقات أو قطع من حلقات غضروفية وبهذا لا ينطبق بعضها على بعض بل تبقى دائما مفتوحة ومحتوية على هواء .



(شكل ٤٢ الحويصلات الرئوية) وأوعيتها الشعرية الدموية)

(شكل ٤٣ تركيب الرئتين)

(شكل ٤١ ـ الرئتان والشعب والقصبة الهوائية)

(ا) القصبة الهوائية (ب) الشعبة اليسرى (ج) الشعبة اليمنى (د) الأنابيب الشعبية الصغيرة .

﴿ الفصل الثانى : الجهاز الهضمى ﴾

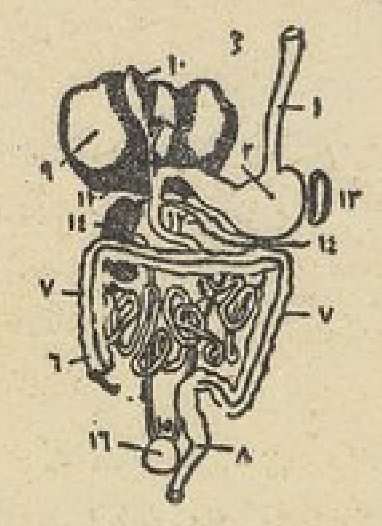
(أعضاء الهضم)

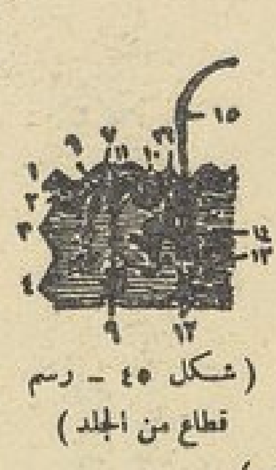
تتكون هذه الأعضاء من الفم والأسنان وغدد اللعاب ، ومن البلعوم والمرىء والمعدة والكبد والبنكرياس والأمعاء الدقاق والغلاظ التى تنتهى بالمستقيم ، ويبطن الجهاز جميعه غشاء يفرز مخاطا ويندمج فيه أو تحته غدد عديدة تختلف فى تركيبها بنسبة وظيفتها (انظر شكل ٤٤) .

الغذاء مركب من عناصر كيماوية يحولها الهضم إلى مواد سهلة الامتصاص بواسطة الأوعية الشعرية للجهاز الهضمى فتصل إلى الدم وتمتص الأوعية الشعرية الليمفاوية المواد الدسمة وتصبها فى القناة الصدرية وهذه تصبها فى الوريد تحت الترقوة اليسرى ، ويؤثر فى الغذاء أثناء الهضم قبل استحالته نهائيا إلى مادة قابلة التمثيل جملة من أعصرة هضمية وهى اللعاب وعصير المعدة والصفراء وعصير البنكرياس .

شكل ٤٢ (١) جدر الحويصلة الرئوية (٢) الأوعية الشعرية الشريانية .
(٣) الأوعية الشعرية الوريدية .

شكل ٤٣ (١) الشعب الصغيرة (٢) حويصلات رئوية .





(شكل ٤٥ ـ رسم قطاع من الجلد)

(شكل ٤٤ ـ رسم أعضاء الهضم)

﴿ الكلام على الجلد ﴾

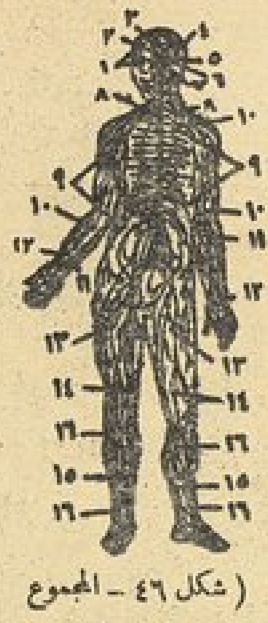
كما أن السطح الباطن لأعضاء الجسم مبطن بغشاء مخاطى فظاهر الجسم مغطى بالجلد ، والجلد يحتوى على طبقة سطحية تسمى بالبشرة وأخرى تحتها تسمى بالجلد الحقيقى وتحتها طبقة من نسيج خلوى تعرف بالطبقة التى تحت الجلد ، والمادة الملونة للجلد توجد فى أعمق جزء من الطبقة السطحية التى طبقاتها السطحية تتقلص دائما ويتكون منها أيضا الأظافر والشعر ، ويبرز سطح طبقة الجلد الحقيقية فى البشرة على شكل زوائد تسمى بالحلمات وفيها توجد جسيمات اللمس وفيها تنتهى أعصاب الإحساس للجلد ، وفى طبقة الجلد الحقيقى توجد شبكة من الأوعية الشعرية (انظر شكل ٤٥) .

ويخزن الشحم فى الطبقة التى تحت الجلد ليقوم بوظيفة وقاية الجسم ، ويوجد بها أيضا غدد العرق التى تخرج إفرازها (العرق) بواسطة فتحات دقيقة على سطح الجلد ، وقد نشعر به أولا نشعر لقلته .

شكل ٤٤ (١) القناة الهضمية المرىء . (٢) المعدة . (٣) الاثنى عشرى .
(٤) الأمعاء الدقاق . (٥) الأمعاء الغلاظ . (٦) الأعور .
(٧) الأمعاء الغلاظ . (٨) المستقيم . (٩) الكبد .
(١٠) المرارة . (١١) القناة الصفراوية .
(١٢) البنكرياس . (١٣) الطحال . (١٤) الكليتان .
(١٥) الحالبان . (١٦) المثانة .

شكل ٤٥ (١) (البشرة) الطبقة السطحية للجلد . (٢) شبكة مليبجى .
(٣) الجلد الحقيقى أو الأدمة . (٤) الطبقة تحت الجلد . (٥) خلايا دهنية .
(٦) حلمات الجلد . (٧) الحلمات العصبية . (٨) الخيوط العصبية .
(٩و١٠و١١) غدد العرق وقنواتها وفتحاتها . (١٢) الشريان لبصلة الشعر .
(١٣) بصلة الشعر . (١٤) ساق الشعر . (١٥) الشعر .
(١٦) الغدد الدهنية .

﴿ الفصل الثالث : المجموع العصبي ﴾



(شكل ٤٦ ـ المجموع العصبي)

يتكون المجموع العصبي من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل والنخاع الشوكى وهى الأعضاء المركزية وتمتد الأعصاب منها لجميع أجزاء الجسم وهى الأعضاء الدائرة والأعصاب إما حساسة أو محركة . (انظر شكل ٤٦) .

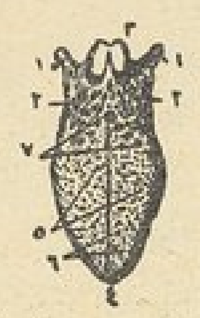
فالحساسة هى التى تحمل التأثيرات الدائرية إلى الأعضاء المركزية ، والمحركة هى التى تحمل التأثيرات من المركز إلى أجزاء الجسم فتحركها أو توقفها ، وهناك أعصاب سمبائوية تخرج من عقد عصبية موجودة على جانبي العمود الفقرى وتتصل بالنخاع الشوكى بفروع دقيقة ، ووظيفتها تنبيه العضلات غير الإرادية للأعضاء وتنظيم الوظائف التى لا يشعر بها الإنسان .

﴿ الفصل الرابع : فى عضو اللسان ﴾
(حاسة الذوق)

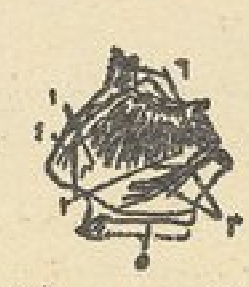
عضو الذوق هو اللسان ، ويحتوى على جسيمات الذوق فى حلماته ، والأشياء التى تذاق تكون حلوة أو مرة أو حامضة أو ملحية مثلا ، وإذا أريد معرفة طعم الشيء جيدا يذاق ذائبا ولا يعرف طعمه إذا كان حارا جدا لأن الحرارة الشديدة تميت حاسة الذوق (انظر شكل ٤٧) .

شكل ٤٦ (١) الدماغ . (٢) الشق العظيم للمخ . (٣) المخ .
(٤) الفص المؤخر للمخ . (٥) قاعدة المخ . (٦) المخيخ .
(٧) البصلة الشوكية . (٨) النخاع الشوكى . (٩) أعصاب الجذع آتية من النخاع الشوكى .
(١٠) أعصاب الذراع . (١١) العصب الزندى .
(١٢) عصب الإبهام . (١٣) العصب المقدم السفلى للساق (١٤) العصب الخلفى العلوى للساق
(١٥) العصب الخلفى العلوى للساق . (١٦) العصب العلوى المقدم للساق

﴿ الفصل



(شكل ٤٧ - رسم اللسان)




(شكل ٤٨ - رسم الأنف)

(الفصل الخامس عضو الشم)

عضو الشم هو الأنف وفيه الانتهاءات العصبية الخاصة بذلك ، وتؤثر الأجسام الغازية أو الصلبة فى حاسة الشم بذرات دقيقة جدا ، والسوائل لاتشم جيدا مالم تكن طيارة أو بها مواد طيارة كالروائح الذكية ولا تشم جيدا إذاكان الأنف رطبا ومصابا بزكام (انظر شكل ٤٨) .

(الفصل السادس : فى عدد الأسنان)

عدد الأسنان عند الأطفال الذين دون السابعة من العمر عشرون سنا وتسمى بأسنان اللبن ، وتسقط هذه الأسنان فى السنة السادسة أو السابعة وتخلفها تدريجا إلى الثامنة عشرة تقريبا من عمرهم اثنتان وثلاثون سنا (ست عشرة فى كل فك) وتتركب أسنان كل فك من قواطع عددها أربعة ، وهى لتقطيع الأغذية ، وأنياب عددها اثنان وهى لتمزيق الأغذية وأضراس عشرة لطحنها وتسمى هذه الأسنان بالثابتة .

فإذا لم تحفظ الأسنان فى حالة مرضية اختلت عملية المضغ ، وينتج من ذلك عسر فى الهضم ، وبعض الأطعمة الصلبة تضر الأسنان كتكسير البندق بها أولىّ الأسلاك أو اختبار المعادن ، لأن ذلك يفصل عنها طبقة المينا التى تغطيها وتجعلها فى استعداد للتسويس بسهولة . انتهى ما أردته من (كتاب قانون الصحة) .

شكل ٤٧ (١) قاعدة اللسان . (٢) اللوزتان . (٣) لسان المزمار .
(٤) أسلة اللسان (قمته) . (٥) الحلمات الخيطية . (٦) الحلمات الفطرية .
(٧) الحلمات الكأسية .

شكل ٤٨ (١) الحفر الأنفية . (٢) فروع من العصب الشمى . (٣) العصب الأنفى الحلقى .
(٤) العصب الأنفى (٥) قبوة الفم .
(٦) العظام والخلايا العظمية للحفرة الأنفية .

روضات الجنات

في تفسير قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه » إلى قوله تعالى « ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون »

لك الحمد اللهم على نعمة العلم والحكمة ، ولك الشكر على ماأوليتنا من آلائك وحبوتنا من فضلك ، وأذعت الحكمة في ربوع بلاد الإسلام بعد ماجمدت القرائح وماتت الهمم واندرست العلوم وعم الوجوم وصارت علوم الحكمة أشباحا بلا أرواح فعم الجهل وساءت الحال ؛ فهاهى ذه أيامها قد أقبلت وبشائرها تترى في بلاد الإسلام . فهي التي بها أدركنا بعض أسرار كتابنا في هذه الأيام على مقدار طاقتنا ، وأى حكمة أشرف وعلم أجلى من معرفة نفوسنا وجمالها ومناسبتها العوالم المحيطة بنا تفسيرا لقولك « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » وقولك « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » . ذكرت ذلك تتميما لما ذكرته في السورة السابقة من حكمة لقمان . أنت جعلت تلك السورة باسم لقمان وقفيت على آثارها بسورة (السجدة) التي كلامنا فيها ولم تشأ أن ترهق العقول بجعلها في سورة واحدة فأخذت تشير لنا هنا أن وضع العوالم الأرضية على طراز وضع السموات ، وهذا من أجل علوم الحكمة التي سنشرحها هنا .

أدب اللغة العربية : أدبيات اللغة

وموازنة هذين العلمين بما قاله الحكماء أن الإنسان عالم صغير
على مثال العالم الكبير مطابقة لهذه الآيات

لقد جاء في العلوم اللسانية في اللغة العربية علم يسمونه « أدب اللغة العربية » وهذا العلم يقرأ في كتاب الأمالى لأبي على القالى ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الأغانى للأصبهانى وكتاب العقد الفريد لابن عبدربه ، وكتاب المثل السائر لابن الأثير . وملخص هذا الفن يرجع إلى الأحاديث المستملحة والأشعار وسير الشعراء والخطباء ومجالس الملوك وطريف التاريخ .

أما علم أدبيات اللغة فهو علم مستحدث لم يعرفه أهل الشرق إلا في زماننا هذا نقلوه عن أهل أوروبا من الإنجليز والفرنسيين والألمان وأمثالهم ، وملخصه أن يدرس الشاعر ويعرف تاريخ حياته وأحواله وبيئته وما الذى أثر فيه حتى نطق بهذه الأشعار ، وما أثر حكومته فيه ، وهل كان هناك ضغط عليه أوذل أم كان في غبطة وعدل ؟ وبهذا يكون درسا أخلاقيا سياسيا إجتماعيا وتكون نتيجته إصلاح المجتمع الإنسانى بمعرفة آثار المتقدمين عزا أو ذلا ورفعة وانحطاطا حتى كانت نتائج تلك الأحوال أقوالا منظومة . فبهذه الآثار يزنون ذلك المجتمع البائد ويبحثون في إصلاح المجتمع اللاحق .

هذه هي أدبيات اللغة التي يدرسها الأوروبيون ، وليس في ذلك اهتمام بالحفظ كاهتمام علماء أدب اللغة عند أسلافنا بل الهمة منصرفة في هذا إلى التعقل والتفكر « ولكل وجهة هو موليها » فأدب اللغة العربية يعلم الفصاحة والبلاغة والخطابة والشعر وحفظ الحكم والأمثال ولكن صاحب هذا العلم كف عليه لن يكون وزيرا خطيرا ولا أميرا عظيما وإنما يصلح أن يكون جليس الأمراء وسمير العظماء كما اتفق للأصمعى في الشرق وأمثاله ولن يصلح أن يكون أميرا يصلح أعمال الدولة . ولقد أصاب (كافور الإخشيدى) إذا أبى

أن يستعمل المتنبي في عمل من أعمال الأمة المصرية لأن الشاعر غير الحكيم فهذا خيالي وذاك مفكر . ونظام الدولة لا يصلحه الشاعر ، وإنما يقوم به المفكر ولذلك سقطت الأندلس لما تولى وزارتها أمثال (لسان الدين الخطيب) وابن جهور وأمثالهما (انظر هذا في سورة الشعراء عند آية «والشعراء يتبعهم الغاوون» الخ)

هذا هو الذي أريد أن أجمله تنظيرا لأجل ما في الحكمة وهو معرفة الإنسان نفسه وموازنتها بالعوالم العلوية والسفلية . انظر إلى ما ذكرته لك في آخر السورة السابقة من أقسام الحكمة وتفصيل علومها ونعم الله التي أسبغها على عباده ظاهرا وباطنا . تأمله وانظره ، فهذه ملخصات علم الحكمة كما أن النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والخط والتاريخ وما أشبه ذلك كلها علوم اللسان العربي ، فكما كان هناك علوم لما تنطق به من القول هكذا هناك علوم لما خلقنا فيه من الكائنات . وإذا وجدنا لعلوم اللغة أدبا وأدبيات هكذا وجدنا لعلوم الحكمة العامة ما يشبه ذلك وإن لم يسموه أدبا وأدبيات . وهم قد فعلوا به ما فعلوا في آداب اللغة ولكن أدب اللغة الذي هو ثمرات علوم اللغة عام يقرأ في المحافل والمجالس في العالم قاطبة . أما نظيره من ثمرات علم الحكمة فليس يعرفه إلا الفوقة الأكابر وأعاظم الأمم وهم «رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» . قوم قلوبهم مشرقة والعالم كله يصبح لديهم كأنه نسخة صغيرة مختصرة . وما هي النسخة المختصرة ؟ هي أجسامهم التي فيها نفوسهم . فهذه الأجسام التي تتباهى بها المرأة وتزينها بأنواع الأصباغ والحلي والحلل ويتبارى أكثر الرجال في لذاتها وشهواتها وملء بطونها كسائر الحيوانات ويقتتلون على اقتناء الأموال لأجلها هي هي أنفسها كتاب مكنون يقرأ فيه صاحبه علوم العوالم كلها . علم الله ضعف هذا الإنسان وقد جعل بين العوالم مناسبات ، وأودع في الأشكال الاتأنس إلا بأشكالها وحرم على السوقة مجالس الملوك ، فمن باب أولى يمنع الجهال وصغار العقلاء من الأنس به ومشاهدته ، وإذا كان الملوك الذين هم من ضعاف خلقه لن يجالسهم السوقة لعدم المناسبة والمقاربة فكيف برب العوالم كلها ؟ فليس يليق لمشاهدته إلا النفوس التي حازت وصفين معا ، صفاء الأخلاق وإشراق الحكمة ، وأجل الحكمة هذا الكتاب وهو الجسم الإنساني الذي هو صورة مصغرة للعوالم كلها .

واعلم أيها الذكي أن هذا القول يسمعه العامة وأكثر المتعلمين في ديار الإسلام وأنصاف المتعلمين في المدارس الذين درسوا ظواهر العلوم فتنبوا نفوسهم عن سماعه ويحسبونه أقوالا لا طائل تحتها ، ومعلوم أن من جهل شيئا عاداه ، وأقرب الناس إلى فهم ما أقول الآن من قرؤا علوم الحكمة سواء أكانت قديمة أم حديثة ، أما علماء الأدب أو أدبيات اللغة أو علماء الفقه والأصول المقتصرون عليها فهؤلاء في معزل عن فهم هذه المعقولات ولكن أرجو أن أوفق إلى أن يكون ما أكتبه الآن قريبا من فهم سائر طوائف الأذكياء في العالم الإنساني لا سيما المسلمين .

جاء في «إخوان الصفاء» وهو الكتاب المؤلف في القرن الرابع الهجري (٥١) رسالة في فنون الفلسفة وذلك أيام ازدهار العلوم وصولة الدولة العباسية وارتقاء الأمم العربية ، ولقد اخترت في هذا التفسير من كل شيء أحسنه قديما وحديثا ، فها هي ذه الرسالة التي عنوانها « قول الحكماء الإنسان عالم صغير » فهذه الرسالة وأمثالها قد جعلت كأنها أدبيات الحكمة ، فترى أن القول فيها لا يقتصر على الفلك ولا علم المعدن ولا النبات ولا الحيوان كما أن علم أدب اللغة لا يقتصر على الشعر ولا على النثر ولا على الخطب ولا على الخط ولا على التاريخ بل تجد هذه العلوم كلها قد استعان بها الأديب فيه ، هكذا هنا في هذه الرسالة التي سألخصها لك الآن بأسلوب هذا الكتاب ليأنس بها الأذكياء . ويفرح بها العقلاء .

واعلم أنار الله قلبك بالحكمة أن الناس منهم الصبيان والعقلاء والعلماء والحكماء ولكل طائفة من

هذه الطوائف آراء تخالف الطائفة الأخرى . فالصبيان عقلاء بالقوة فإذا بلغوا صاروا عقلاء بالفعل والعقلاء بالفعل علماء بالقوة ومتى تعلموا صاروا علماء بالفعل والعلماء بالفعل حكماء بالقوة وفلاسفة فإذا قرءوا الحكمة صاروا حكماء بالفعل والحكماء هم مصابيح الأمم ينيرونها بعد عروج أنبيائهم لربهم وتشرق أنوارهم على أهل الكرة الأرضية ، وأرجو أن تكون أيها الذكى منهم حتى تلحق بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وأمثال هذه الرسالة وما تقدمها من فنون الحكمة والعلوم فى هذا الكتاب تنقل العلماء إلى درجة الحكماء والتفاوت بينهم يكون بالتوفيق والإلهام والإشراق الإلهى والاستعداد النفسى وصدق العزيمة والتقوى ومحاسن الأخلاق .

لقد نظر الحكماء فى هذا الجسد وفكروا فى تركيبه وحسن هندامه وجندرته ونظامه وأخذوا يخاطبون الناس بما شعروا به ، فأولا أخذوا يضربون له الأمثال ليفهم أكثر الناس . وثانيا غاصوا على جواهر الحكمة وعلومها ونظموها فى قلادة وجعلوها حلية لهيكل الانسان ، فالأول تعريف للمتوسطين ، والثانى تعليم لمن هم أرقى عقولا وأذكى أفهاما ، فهاهنا (فصلان) فصل الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد ، وفصل قياس الجسد على نظام العوالم العلوية والسفلية وهى العلوم التى تقدم تفصيلها فى السورة المتقدمة .

(الفصل الأول فى الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد وهى (١٢) مثلا)

(المثل الأول) قالوا لما كان الانسان جملة مجموعة من جسد ظلمانى ونفس روحانية صار إذا اعتبر حال جسده ومافيه من غرائب تركيب أعضائه وفنون تأليف مفاصله يشبه كأنه دار لساكنها .

(المثل الثانى) إذا اعتبر حال نفسه وعجائب تصرفاتها فى بناء هيكل جسده وسريان قواه فى مفاصل بدنه يشبه كأنها ساكن فى منزله مع خدمه وأهله وولده .

(المثل الثالث) إذا اعتبر الإنسان ، وجد بنية جسده مع اختلاف أشكال أعضائه وافتنان تأليف مفاصله يشبه دكانا للصانع .

(المثل الرابع) هكذا إذا اعتبر نفسه من أجل سريان قواها فى بنية هيكل جسده وعجائب أفعالها من أعضاء بدنه وفنون حركاتها فى مفاصل جسده يشبه كأنها صانع فى الدكان مع تلامذته وغلمانه .

(المثل الخامس) إذا اعتبر بنية جسده مع كثرة تأليفات طبقات بناء هيكله ، وغرائب تركيب مفاصل بدنه وكثرة اختلاف أعضائه وتشعب فروع عروقها وامتدادها إلى أطراف أعضائه ، وتباين أوعيته التى فى عمق جسده ، وتصرف قوى النفس يشبه كأنه مدينة مملوءة أسواقها من الصنائع .

(المثل السادس) إذا اعتبر من أجل تحكم النفس على أحوال الجسد وحسن سياستها وسريان قواها وتصرفاتها فى بنية هذا الجسد يشبه كأنها ملك فى تلك المدينة بجنوده وخدمه وحاشيته .

(المثل السابع) إذا اعتبر حال الجسد وتكوينه وحال النفس ونشوئها مع الجسد يشبه الجسد الرحم والنفس كالجنين .

(المثل الثامن) إذا اعتبر الجسد من وجه آخر وجد أنه كالسفينة والنفس كالملاح والأعمال كالأمتعة للتجار والدنيا كالبحار والموت كالساحل والآخرة كمدينة التجار والله تعالى الملك المجازى هناك .

(المثل التاسع) إن الجسد كالدابة والنفس كالراكب والدنيا كالميدان والعاملون كالسباق .

(المثل العاشر) إن النفس كالحارث والجسد كالمزرعة والأعمال كالحب والثمر والموت كالحصاد والدار الآخرة كالبيدر .

(المثل الحادى عشر) إن النفس كالصبى والجسد كالمكتب فيدرس فيه عجائب الأعضاء وتشريحها وغرائب صنعها وبدائع أشكالها .

(المثل الثانى عشر) إننا إذا اعتبرنا تركيب الجسد وسريان قوى النفس وتصرف أحوال الإنسان فيه وجدنا أنه دفتر مملوء من العلوم ويقال إنه مختصر من اللوح المحفوظ . انتهى الفصل الأول فى الأمثال المضروبة للنفس مع الجسد .

﴿الفصل الثانى: فى قياس الجسد على نظام العوالم﴾

لقد ضربت الحكماء لذلك أمثالا كثيرة ، ونريد أن نذكر من ذلك طرفا مرموزا مختصرا حسب مايليق بنا .

﴿ الإنسان مختصر اللوح المحفوظ ﴾

(حكى) أنه كان ملك من الملوك حكيم من الحكماء سيد من السادات، وكان له أولاد صغار محبوبون له مكرمون عليه فأراد أن يؤدبهم ويهذبهم ويروضهم ليقومهم قبل إيصاله إلى مجلسه لأنه لا يليق بمجالس الملوك إلا المهذبون بالآداب والمرتاضون فى العلوم ، المتخلقون بالأخلاق الجميلة ، البريئون من العيوب فرأى من الرأى الرصين أن يبنى لهم قصرا على أحكم مايكون من البنيان فأفرد لكل واحد منهم مجلسا، وكتب كل علم أراد أن يعلمهم إياه فى جوانب ذلك المجلس ، وصور فيه كل شىء أراد أن يهذبهم به ثم أجلسهم فى ذلك القصر وأفرد كل واحد منهم فى حصته المعدة له ووكل بهم الخدم والجوار والغلمان وقال لأولئك الأولاد : انظروا إلى ماصورت فيه لكم بين أيديكم واقرءوا ما كتبت فيه من أجلكم وتأملوا مابينته لكم وتفكروا فيه لتعرفوا معانيه وتصيروا من ذلك حكماء أخيارا فضلاء أبرارا فأوصلكم إلى مجلسى فتكونوا من ندمائى مكرمين سعداء منعمين أبدا مابقيت وبقيتم معى ، وكان مما كتب لهم فى ذلك المجلس من العلوم أن صور فى أعلى قبة المجلس صورة الأفلاك وبين كيفية دورانها وأبراج طلوعاتها وكذلك الكواكب وحركاتها وأوضح دلائلها وأحكامها وصور فى صحن المجلس صورة الأرض وأقسام الأقاليم وخطط الجبال والبحار والبرارى والأنهار ، وبين حدود البلدان والمدن والمسالك والممالك وكتب فى صدر المجلس علم الطب والطبائع وصور النبات والحيوانات والمعادن بأنواعها وأجناسها وأشخاصها وبين خاصيتها ومنافعها ومضارها وكتب فى الجانب الآخر علم الصنائع والحرف وبين كيفية الحرث والنسل وصور المدن والأسواق وبين أحكام البيع والشراء والربح والتجارات وكتب فى الجانب الآخر علم الدين والملل والشرائع والسنن وبين الحلال والحرام والحدود والأحكام وكتب فى الجانب الآخر السياسة وتدبير المملكة، وبين كيفية جباية الخراج والكتاب والدواوين، وبين أرزاق الجنود وحفظ الرعية والثغور بالجيوش والأعوان ؛ فهذه (ستة أجناس) من العلوم يراض بها أولاد الملوك وهذا مثل ضربه الحكماء ، وذلك أن الملك الحكيم هو الله تعالى والأولاد الصغار هى الانسانية والقصر المبنى هو الفلك بأسره والمجالس المتقنة هو صورة الإنسان والآداب المصورة هى عجيب تركيب جسده والعلوم المكتوبة فيه قوى النفس ومعارفها . ونحن نبين هذا فصلا فصلا فيما بعد بأوجز الوجوه .

وهاهنا شرع يبين الأنواع الستة من العلوم وسأشرحها لك شرحا مختصرا تبتهج به نفسك وينشرح صدرك ولكنه بدأه أولا بمقدمة ذكر فيها فضيلة جوهر النفس فأبان أن منزلتها عندالله كبيرة لأن نسبة الأجسام اليه بعيدة ونسبة النفس إليه قريبة لأنها حية بذاتها وعلامة وفعالة والمادة بخلاف ذلك

ولما كان الله عز وجل لاشبيه له ولا نظير ولا مثيل ، ضرب لنا الأمثال فقال « مثل نوره كمشكاة » فلننسج على هذا المنوال ونضرب المثل لله بالشمس والضوء بالعقل والنفس بضوء القمر ، ومعنى هذا أن الله

الذى لامثيل له ولا شبيه كالشمس والعقل العام كضوئها والعقل العام خلقت منه النفوس الجزئية الأرضية وكما أن ضوء القمر من نور الشمس هكذا النفس فيض من العقل ، وكلما كانت نفوسنا أعلم وأحكم وأعدل كانت أقرب إلى تلك العقول التى هى قريبة من ربها وبضدها تتميز الأشياء ، كما أن القمر إذا امتلأ من نور الشمس تحاكى ضوءه ضوءها وصارت هناك مناسبة . ولن تنال النفس الإنسانية تلك الرتبة وتحظى بتلك المزية فتتم فضائلها وتحاكى العقول العالية المجردة القريبة من الله المشبهات ضوء الشمس بالنسبة للشمس إلا إذا عرفت ذاتها وحقيقة جوهرها . ولن يتم للنفس الإنسانية حقيقة جوهرها إلا إذا عرفت أحوال عالمها وأحوال عالمها كلها مصورة فى الصورة الإنسانية لأن الله خلق الإنسان فى أحسن تقويم وجعل صورته مرآة لنفسه ليرى فيها صورة العالم الكبير . قال وذلك أن البارى جل جلاله لما أراد أن يطلع النفس الانسانية على خزائن علومه ويشهدها العالم بأسره علم أن العالم واسع كبير وليس فى طاقة الإنسان أن يدور فى العالم حتى يشاهده كله لقصر عمره وطول عمران العالم فرأى من الحكمة أن يخلق لها عالما صغيرا مختصرا من العالم الكبير وصور فى العالم الصغير جميع مافى العالم الكبير وأشهدها إياه فقال عزوجل «وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ » قالوا بأجمعهم (بلى) فمن كان منهم شاهدا عالما عارفا حقيقته كانت شهادته عليه حقا ومن كان جاهلا كانت شهادته مردودة لأنه قال عز وجل « إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » ألا ترى أنه لايقبل إلا شهادة أهل العلم ثم اعلم أن افتتاح جميع العلوم فى معرفة الإنسان نفسه ومعرفة الإنسان تكون من (ثلاثة أوجه : الأول) أن يعتبر أحوال جسده وتركيب بنيته وما يتعلق عليه من الصفات خلوا من النفس (والثانى اعتبار أحوال نفسه وما يوصف من الصفات خلوا من الجسد (والثالث) اعتبار أحوالهما مقترنين جميعا ومايتعلق على الجملة من الصفات . انتهت المقدمة .

وهاهنا آن أن أشرح لك أيها الذكى اعتبار أحوال الإنسان بأحوال الفلك فأقول ناحيا منحى علم الفلك الحديث سبحانك اللهم وبحمدك وتعالى جدك ولاإله غيرك ، جسمى ياإلهى على نمط المجموعة الشمسية وهل هذا الجسم الذى أشقى فى تحصيل مايحتاجه هو صاحب هذا الكمال ؟ إذن كل ماابتلينا به من هموم الحياة والشقاوة والإستكثار من اللذات والمال والجاه والعداوات والحروب ماهى إلا حجب حجبتنا وسدود جعلتها أنت سبحانك بيننا وبين معرفة هذا الجسم الممتلىء جمالا وحكمة . أنت يا الله الذى رحمتنا بجهلنا بجمال هذا الجسم لأن هذا الجمال وهذا الإبداع الذى سأذكره فيه يجعلنا نعتقد أننا عظماء وكبراء وإذن لانسعى لكمال أنفسنا ولو أن كل امرىء فى الأرض عرف ماسأذكره الآن فى جسمه لأصبح مشغولا بجماله معجبا ببهائه لايطلب له كمالا . فهناك يحتاج إلى من يذكره بأنك جئت لهذه الأرض لتكون أكمل من هذه الحال . فإياك أن تغتر بأنك قد أعد لك منزل لاينزله إلا من هم مثل الملائكة الكرام لأن هذه المنزلة العالية صغيرة بالنسبة لعوالم أعلى منا فبدل أن يقال له هذا حكم عليه أن يسعى فى تحصيل الرزق ومدافعة الأعداء هنالك ينسى هذا الجمال فى جسمه ويحصل أخلاقا وأعمالا ترقى نفسه فوق منزلتها حين سكنت هذا الجسم . وأماجمال هذا الجسم المحكم فذلك لأن روحه قبسة من نور الله . والمنسوب لرب العالم لايسكن إلامكانا يناسب ذلك المقام وإذا كان وزراء الملوك لاينزلون إلا القصور المناسبة لهم فليكن المنسوب لإفاضة الأنوار الإلهية أولى بأن تكون مرتبته أشرف المراتب فى سكناه هذا هو السبب فى أحكام وبدائع الهيكل الجسمى بدون عمل من الناس بل هبة من رب العالمين . ولذلك نجد أكثر أهل الأرض يجهلون غرائب الجسم التى سأذكرها هنا ومن عرفها منهم كعلماء التشريح تكون معرفته أشبه بمعرفة الإنسان علم النحو أوالصرف . وكما أن معرفة النحو والصرف

لاتفيد

لاتفيد جمال أدب اللغة وبهاؤها هكذا معرفة تشريح الجسم لاتفيد نظامه المقيس على نظام الفلك وعوالمه . والذى يحظى بهذا فى العالم كله قليل جدا وهذا القليل وهم حكماء الأمم لايعطون هذه المنحة إلا بعد أن أصبحت العبادة والتفكير ديدنا لهم وصفة لازمة فلا يخاف عليهم من ترك الأعمال بناء على ماعرفوا فى أنفسهم من الجمال بل يعملون فى خدمة الإنسانية وترقية العقول كما تفعل الأم مع ذريتها لا تطلب جزاء ولاشكورا . فهذه الطائفة التى ارتقت عن هذا الإنسان وهم خواص الحكماء فى أرضنا هذه وقد أدركوا جمال أجسادهم وأن نظامها كنظام العالم كله يصبحون كالمفطورين على العلم والعمل فلايغرهم بالله الغرور ولايكون للشيطان عليهم سلطان .

(طبقات جسم الإنسان وطبقات المجموعة الشمسية)

إذا عرفت هذا أيها الذكى فهاك نظام جسم الإنسان وقياسه على نظام المجموعة الشمسية اللهم إنك أنت جعلت الشمس مركزا وأدرت حولها كواكب فى تسع مدرات وهى عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل . وهناك كوكب بين كوكبين من الكواكب المتقدمة فى مدار خاص قد حطمت أجزاؤه وتلك القطع الطائرات منه لا تزال إلى الآن تدور فى مداره وقد تقدم شرحه شرحا مسهبا فى هذا التفسير ثم أورانوس ونبتون

فهذه الكواكب التسع تجرى حول الشمس فى مدارات وتلك المدارات يحيط بها طبقات الأثير وتلك الطبقات طبعا تسع طبقات عينتها تلك المدارات . فأنت يار بنا لما جعلت المجموعة الشمسية على هذا المنوال جعلت جسمى على مقتضاها حذو القذة بالقذة .

ألا ترى أيها الذكى أن جسمى وجسمك مركبان من نفس هذه الطبقات التسع وهى العظام والمخ واللحم والعروق والدم والعصب والجلد والشعر والظفر . فجعل المخ فى جوف العظام مخزونا لوقت الحاجة ولف العصب على المفاصل كيما يمسكها فلاينفصل ، وحشى خلل ذلك باللحم صيانة لها ومد فى خلل اللحم العروق والأوردة الضاربة لحفظها وصلاحها وكسا الكل بالجلد سترا لها وجمالا لها وأنبت الشعر والظفر من فضل تلك المادة المار بها فصار مماثلا لتركيب الأفلاك بالكمية والكيفية جميعا لأنها تسع طبقات وهذه تسع جواهر وتلك بعضها فى جوف بعض وهذه مثال ذلك .

هذه أيها الذكى طبقات جسمى وجسمك ، فإذا كانت الشمس أحيطت بهذه الطبقات فها هى ذه نفسى أحيطت بهذه الطبقات المماثلة لها من حيث هذا الاعتبار .

(بروج السماء ونظيرها فى جسم الإنسان)

ثم انظر معى إلى جسمى وجسمك باعتبار بروج السماء بعد اعتبار طبقاتها فإننا نجد الله يقول «ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين » ونجد الأمم كلها اعتبرت الفلك مقسما (١٢) قسما كل قسم يسمى برجا تنزله الشمس فى (٣٠) يوما . ولما نظر الحكماء فى جسم الإنسان وجدوا فيه العينين والأذنين والمنخرين والثديين والفم والسرة والسبيلين فهذه (١٢) ثقبة ثم نظروا فوجدوا البروج ستة منها شمالية وستة منها جنوبية فهكذا وجدوا تلك الثقب فى الجسم ستة منها فى الجانب الأيمن وستة فى الجانب الأيسر تماثلها فى الكيفية والكمية جميعا والفم به الغذاء للناس فى الحياة الدنيا والسرة كان بها غذاء الطفل فى الرحم هذا مايقولونه ، ولكن الفم والسرة والسبيلان ليسا فى الجانبين ولعل الكلام باعتبار الأكثر وقد ترك ذلك لحكم اقتضاها النظام ولايعزب عنك أيها الذكى أن هذا أشبه بالأدبيات فى اللغات لاينبغى التعمق فيه وإنما هو أشبه بضرب الأمثال وكفى فيه المقاربة .

(الكواكب السبعة وآثارها الجسمية والروحية وموازنتها بقوى الإنسان الجسمية وقواه الروحية)

إن فى الفلك سبع كواكب سيارة وهذه الكواكب أخرجت منها الأرض ، لأن هذا المقام يراد به ذكر العوالم التى تفيض بأنوارها على أهل الأرض التى نعيش عليها وليس منها أيضا الشمس لأنها ليست من السيارات ولأنها هنا أشبه بالنفس صاحبة هذه المملكة فالسيارات فوق الأرض وتحتها حول الشمس (٧) وهى المتقدمة بإخراج الأرض منها وبإخراج ذلك الكوكب الذى خرب من آلاف آلاف السنين فهكذا فى الجسد (سبع قوى) لاحداث آثار جسمية وسبع أخرى لاحداث الهداية كما أن الكواكب محدثات آثارا فى الاجسام بأضوائها وآثار فى النفوس لهدايتها ففى مقابلة آثار أضواء الكواكب الجسمية لإصلاح العوالم الأرضية خلقت للانسان القوى السبعة الجسمية وهى الجاذبة التى تجذب الطعام كما يحس به الآكل عند إزدراد الطعام والماسكة التى تمسك الطعام فى المعدة إلى حين وهناك تتولاه الهاضمة لهضم الطعام فإذا فرغت من عملها تولته القوة الدافعة فتدفعه من المعدة إلى الأمعاء وهنالك يكون خالص الطعام بعد دفع فضلاته معدا لتغذية الجسم فيسير مع الدورة الدموية للتغذية . وهذه هى القوة الغاذية . ومتى تغذى الجسم بخلاصة الطعام فلابد من نموه . وهذه هى القوة النامية بها يمتد طولا وعرضا وعمقا بنظام بديع . ولما كانت الأجسام تفنى أحدث فيها مادة من خالص الدم وهو التى لتكون متناصورة حى آخر ليبقى النوع .

فهذه هى القوة المصورة ، فهذه هى القوى السبع الجسمية فى مقابلة قوى الكواكب من حيث أفعالها فى الأجسام . فأما السبع التى فى مقابلة الهداية بأضواء الكواكب فهى (الباصرة والسامعة والذائقة والشامة واللامسة ثم القوة العاقلة والقوة الناطقة) ولكل حاسة من الحواس الخمس مجريان عن يمين وشمال فى البدن فالباصرة فى العينين والسامعة فى الأذنين والشامة فى المنخرين واللامسة فى اليدين والذائقة الشهوية مجراها فى الفم والفرج ، والفم بالجانب الأيمن أشبه والفرج بالجانب الأيسر أنسب ، أقول لأن شهوة الطعام يحتاج إليها الضعيف والقوى والصغير والكبير بخلاف شهوة الفرج . ولعل أمثال هذا الجواب يناسب ماتقدم فى البروج من حيث مقابلتها بثقب البدن ، وهاهنا ذكر لكل حاسة من الحواس الخمس المملكة التى تعمل فيها تحت أمر النفس ، فالقوة الباصرة تولت إيصال أخبار الأصوات الحيوانية وغير الحيوانية كالطبل والرعد والحجر والحيوانية منطقية وغير منطقية كصهيل الخيل والمنطقية دالة وغيردالة . والقوة الباصرة تأتى بأخبار (عشر ممالك) وهى (الأنوار والظلمات والألوان والأشكال والسطوح والأحجام والقرب والبعد والحركات والسكنات) .

فهذه الممالك تولت أخبارها القوة الباصرة ، فهذه القوة أشبه بالديدبان الواقف على باب قصر الملك أو صاحب البريد إلى الملك يأتى بالأخبار اليه كما أن القوة السامعة تولت إيصال أخبار الأصوات ، ومن عجب أن كلا منهما لاتشارك الأخرى فى عملها ، فالباصرة تجهل الأصوات والسامعة لاعلم عندها بالألوان والأنوار ولكن القوة المتخيلة فى مقدم الدماغ هى التى تتقبل أخبار هذه الممالك العشر ، كما تقبلت من القوه السامعة عالم الأصوات وهى التى توصلها إلى صاحب العرش وهى النفس ؛ ومثل هذا يقال فى القوة الشامة والذائقة واللامسة ، فالشامة الروائح الطيبة والمنتنة وما تحتهما مما لاحصر له ولا أسماء للمشمومات على كثرتها إلا بنسبتها إلى حاملها كرائحة المسك والورد وهكذا ، فهذه الممالك لاحصر لأفرادها كما لاحصر لأفراد الألوان فى العالم والأشكال والسطوح وألفاظ اللغات وأصوات الأحجار والأشجار وهكذا ، والذائقة ومجراها اللسان الحلاوة والمرارة وأولهما ملائمة للطبع . وثانيتهما منافرة أشد المنافرة ، وهناك وسائط وهى (٧) الحموضة والملوحة والدسومة والعفوصة والحرافة والقبوضة والعذوبة . والقوة اللامسة ومجراها اليدان لها عشرة أنواع (الحرارة

والبرودة والرطوبة واليبوسة واللين والخشونة والصلابة والرخاوة والثقل والخفة . ولكل واحد من هذه أنواع وتحت الأنواع أصناف وهكذا مما لا يحصى .

أفلا يعجب الإنسان من أمر نفسه الجالسة على عرش مملكته ، وقد فوضت أمرها إلى خمسة أمراء لكل أمير ممالك ونواح كثيرة وليس يعرف أمير ما عند غيره من الأمراء .

﴿ الكلام على القوى الخمس الباطنة ﴾

إن النفس الإنسانية خمس قوى أخر نسبتهن إلى النفس غير نسبة هذه الخمسة التي تقدم ذكرها وسريانهن في أعضاء الجسد خلاف سريان أولئك ، أفعالهن لا تشبه أفعالها . وذلك أن هذه الخمس هن كالشركاء المتعاونات في تناولهن صور المعلومات بعضهن من بعض ، وثلاثة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الندماء من الملك الحاضرين مجلسه دائما المطلعين على أسراره المعينين له في خاصة أفعاله ، وهي القوة المتخيلة التي مجراها مقدم الدماغ والثانية القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ والثالثة القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الحاجب والترجمان عن الملك ، وهي القوة الناطقة المخبرة عن معاني ما في فكرها من العلوم والحاجات ومجراها في الحلقوم إلى اللسان . وواحدة منها نسبتها إلى النفس كنسبة الوزير إلى الملك المعين له في تدبير مملكته وسياسة رعيته ، وهي القوة التي بها تظهر النفس الكتابة والصنائع أجمع ومجراها في اليدين والأصابع . فهذه القوى الخمس هي كالمتعاونات فيما يتناولن من صور المعلومات (بيان ذلك) أن القوة المتخيلة إذا تناولت رسوم المحسوسات من القوى الحاسة إذ أدركت وأدت إليها فإنها تجمعها كلها وتؤديها إلى القوة المفكرة التي مجراها وسط الدماغ حتى تميز بعضها من بعض وتعرف الحق من الباطل والصواب من الخطأ والضار من النافع ثم تؤديها إلى القوة الحافظة التي مجراها مؤخر الدماغ لتحفظها إلى وقت الحاجة والتذكار ، ثم إن القوة الناطقة تتناول تلك الرسوم المحفوظة وتعبر عنها عند البيان القوة السامعة من الحاضرين في الوقت . ولما كانت الأصوات لا تمكث في الهواء إلا ريثما تأخذ الأسماع حظها ثم تضمحل اقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية واحتالت الطبيعة بأن قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة . وذلك أن القوة الصناعية إذا أرادت تقييدها صاغت لها صورا من الخطوط بالقلم وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيدا فائدة من الماضين الغابرين ، وأثرا من الأولين للآخرين ؛ وخطابا من الغائبين للحاضرين ، وهذا من جسيم نعم الله تعالى على الإنسان ، كما ذكر في كتابه فقال : « اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » وبهذا تم الكلام على الحواس الخمس الظاهرة ونظائرها الباطنة .

فأما القوة الناطقة فمجراها الحلقوم إلى اللسان ، والقوة العاقلة مجراه اوسط الدماغ ، ونسبة القوة الناطقة إلى القوة العاقلة كنسبة القمر إلى الشمس ، وذلك أن القمر يأخذ نوره من الشمس في جريانه في منازل القمر الثمانية والعشرين والقوة الناطقة من العقل تأخذ معاني ألفاظه بجريانها في الحلقوم فيعبر منها بثمانية وعشرين ونسبة (٢٨) حرفا للقوة الناطقة كنسبة (٢٨) منزلة للقمر . انتهى الكلام على موازنة أطباق الأفلاك والبروج والمنازل والكواكب لنظائرها في جسم الإنسان وهو المقصد الأول من المقاصد الست .

﴿ المقصد الثاني ﴾

(الموازنة بين تركيب جسد الانسان ، وطبقات العوالم السفلية وهي الأرض والماء والهواء وفوق الجميع المشرقات النيرات)

فكما أن الكواكب والشموس والأقمار أعلى هكذا الرأس في أجسادنا أعلى موازية المشرقات النيرات لما فيها من الحواس والعقل ، والصدر يوازي الهواء الذي هو أسفل تلك المشرقات . وما النفس إلا جزء

من الهواء متصل به كما أن العين متصلة بشعاع الكواكب فى الرأس ، والبطن لما فيه من الرطوبات يوازى الماء وهو تحت الهواء ، وماتحت البطن إلى القدم يوازى الأرض لأنه عليها استقر الثلاثة المتقدمة كما استقر الثلاثة الأخرى على الأرض . وكما أن من هذه الطبقات الأربع تتحلل البخارات وتتكون الرياح والسحاب والأمطار والحيوانات والنبات والمعادن ، كذلك بهذه الطبقات الأربع تحلل البخارات فى بدن الانسان ، مثل مايخرج المخاط من المنخرين والدموع من العينين والبصاق من الفم ، والرياح التى تتولد فى الجوف والرطوبات التى تخرج مثل البول والغائط وغيرهما . فبنية جسده كالأرض وعظامه كالجبال والمخ فيه كالمعادن وجوفه كالبحر وأمعاؤه كالأنهار وعروقه كالجداول ولحمه كالتراب وشعره كالنبات ومنبته كالتربة الطيبة وحيث لاينبت الشعر كالأرض السبخة ووجهه إلى القدم كالعمران وظهره كالخراب وقدام وجهه كالمشرق وخلف ظهره كالمغرب ويمينه كالجنوب ، ويساره كالشمال وتنفسه كالرياح وكلامه كالرعد وأصواته كالصواعق ، وضحكه كضوء النهار وبكاؤه كالمطر وبؤسه وحزنه كظلمة الليل ونومه كالموت ويقظته كالحياة وأيام صباه كأيام الربيع وأيام شبابه كأيام الصيف وأيام كهولته كأيام الخريف وأيام شيخوخته كأيام الشتاء ، وحركاته وأفعاله كحركات الكواكب ودورانها وولادته وحضوره كالطوالع وموته وغيبوبته كالغوارب . انتهى المقصد الثانى .

﴿ المقصد الثالث ﴾

فى أن العناصر التى على هذه الأرض من خواصها الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهذه الصفات يشاركها فيها الإنسان .

﴿ المقصد الرابع ﴾

فى أن المعادن يحصل لها كون وإفساد ، هكذا الإنسان .

﴿ المقصد الخامس ﴾

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت والإنسان شاركه فيها .

﴿ المقصد السادس ﴾

فى أن الحيوان يحس ويتحرك والإنسان شاركه فيهما ، وزاد على ذلك بالعقل والنطق .

﴿ زيادة شرح لبعض ماتقدم ﴾

ذلك أن الحيوانات لها أنواع كثيرة ، ولكل نوع منها خاصية دون غيره . والإنسان يشاركها كلها فى خواصها ، ولكن لها خاصيتان تعمها كلها وهى طلبها المنافع وفرارها من المضار ، ولكن منها مايطلب المنافع بالقهر والغلبة كالسباع ، ومنها مايطلب المنافع بالبصبصة كالكلب والسنور ، ومنها مايطلب بالحيلة كالعنكبوت وكل ذلك يوجد فى الانسان ، وذلك أن الملوك والسلاطين يطلبون المنافع بالغلبة والمكديون بالسؤال والتواضع والصناع والتجار بالحيلة والرفق . وكلها تهرب من المضار والعدو ولكن بعضها يدفع العدو عن أنفسها بالقتال والقهر والغلبة كالسباع ، وبعضها بالفرار كالأرانب والظباء والطير ، وبعضها يدفع بالسلاح والجواشن كالقنفذ والسلحفاة . وبعضها يتحصن فى الأرض كالفأر والهوام والحيات ، وهذه كلها توجد فى الإنسان . وذلك أنه يدفع عن نفسه العدو بالقهر والغلبة ، فإن خاف على نفسه لبس السلاح وإن لم يطقه فر منه فإن لم يقدر على الفرار تحصن بالحصون ، وربما يدفع الإنسان عدوه بالحيلة كما احتال الغراب على البوم فى كتاب (كليلة ودمنة) انتهى الكلام على مشاركة الإنسان الحيوانات كلها فى الطلب والهرب .

فأما مشاركته لها جميعها فيما تختص به ومشاركته لسائر الكائنات فى خواصها فاعلم أن لكل نوع من الحيوانات خاصية مطبوع عليها وكلها توجد فى الإنسان . وذلك أنه يوجد شجاعا كالأسد وجبانا كالأرنب

وسخيا

وسخيا كالديك وبخيلا كالكلب وعفيفا كالسمك وفخورا كالغراب ، وحشيا كالنمر إنسيا كالحمام محتالا كالثعلب سليما كالغنم سريعا كالغزال بطيئا كالدب عزيزا كالفيل ذليلا كالجمل لصا كالعقعق تائها كالطاوس هاديا كالقطاة ضالا كالنعامة ماهرا كالنحل شديدا كالتنين مهينا كالعنكبوت حليما كالجمل حقودا كالحمار كدودا كالثور شموسا كالبغل أخرس كالحوت منطقيا كالهزاردستان والببغاء مستحلا كالذئب مباركا كالطيطوى مضرا كالفأر جهولا كالخنزير مشوما كالبوم نفاعا كالنحل .

وبالجملة ما من حيوان ولا معادن ولا نبات ولا ركن ولا فلك ولا كوكب ولا برج ولا موجود من الموجودات له خاصية إلا وهى توجد فى الإنسان أو مثالاتها كما يتقابل من كل شيء طرفا ، وهذه الأشياء التى ذكرنا فى أمر الإنسان لا توجد فى شيء من أنواع الموجودات التى فى هذا العالم إلا فى الانسان ، فمن أجل ذلك قال الحكماء (إن الإنسان وحده بعد كل كثرة كما أن البارى جل ثناؤه وحده قبل كل كثرة) ومن أجل ما عددنا من عجائب تركيب جسد الإنسان وغرائب تصاريف نفسه ، وما يظهر من جملة بنيته من الصنائع والعلوم والأخلاق والآراء والطرائق والمذاهب والأعمال والأفعال والأقاويل والتأثيرات الجسمانية والروحانية سموه (عالما صغيرا) .

ولم يقتصر القدماء على موازنة جسم الإنسان بالأفلاك والكواكب والبروج والعناصر والمعادن والنبات والحيوان بل تمادوا فى ذلك حتى قالوا إنه لا يموت كما أن الملك لا يموت فهو كما يشبه البهيمة والنخلة هكذا يشبه الملك لأنه ملك بالقوة إذا كان حكيما فإذا مات صار ملكا بالفعل ، وهكذا استمر القوم فى درس أعضاء الجسد الانسانى والعوالم العلوية وغيرها حتى إنهم غاصوا فى باطن الهيكل الإنسانى على (القلب والطحال والكبد والمرارة والمعدة والدماغ والرئة) ووازنوا هذه السبعة بالشمس وزحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد والقمر . فكل واحد من تلك الأعضاء عندهم فيه خواص نظيره من الكواكب ؛ فالقلب يجرى الدم منه إلى أطراف الجسد فى الأوراد والشرايين فهو كالشمس المشرق نورها على جميع المجموعة الشمسية والطحال فيه الخلط السوداوى على حسب اعتقاد المتقدمين وهو بارد يابس فيجرى مع الدم فبه يكون جمود رطوبة الدم وتماسك أجزائه ، كما أن زحل فيه روحانية تنبث فى العوالم تورث حفظ الأجسام وتماسكها ، وجرم الكبد مناسب لجرم المشترى من حيث أن المشترى له روحانية يكون من آثارها النظام والترتيب والاعتدال . وجرم المرارة كجرم المريخ الذى بشعاع روحانيته يظهر الهمم العالية والعزمات وبلوغ النهايات هكذا الصفرة يخرج منها الخلط الصفراوى ويجرى مع الدم فيلطف الأخلاط لتصل إلى غاياتها ومنتهى نهاياتها . وهكذا المعدة كالزهرة . فالمعدة فيها القوة الشهوية الطالبة دائما بالغذاء الذى هو مادة الجسد وبه تكون الحياة ولذة العيش وقوام البدن والزهرة لها روحانية تنبعث منها إلى عوالم كثيرة وبها زينة الموجودات ومحاسن الكائنات وبها الفرح واللذة والمسرة فى العوالم الروحانية والجسمانية والدماغ فيه الشعور والحس والفكر والروية والذهن ومثله عطارد فشعاعه الروحانى ينبعث منه الحس والشعور فى جميع العالم الإنسى والجنى والملائكة وهكذا الرئة كالقمر وذلك أنه ينبث من جرمه مع شعاعه قوى روحانياته وتسرى فى عالم الأركان تارة وفى عالم الأفلاك تارة أخرى كما هو بين ظاهر ، وذلك أن جرم القمر نصفه أبدا ممتلىء نورا ونصفه الآخر مظلم وهو تارة يقبل بوجهه الممتلىء من النور نحو عالم الأركان من أول الشهر وتارة نحو عالم الأفلاك من آخر الشهر . ويعرف حقيقة ما قلناه وصحة ما بيناه الباحثون فى علم المجسطى والهيئة . فهكذا ينبث من جرم الرئة قوة تجذب الهواء تارة من خارج الجسد وترسله إلى القلب ومن القلب تنفذه فى العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد ، وهو الذى يسمى النبض وبها يكون حياة الجسد وتارة ترد من ذلك الهواء من داخل وبها

بكون التنفس والأصوات والكلام أجمع ، فانتبه أيها الذكى من نوم الغفلة ورقدة الجهلة وفقك الله وجميع المسلمين للسداد وهداك إلى سبيل الرشاد إنه رءوف بالعباد . اهـ .

هذا ماأردته من [إخوان الصفاء] مع الحذف والزيادة والشرح والإيضاح والتقديم والتأخير والإيجاز تارة والإطناب أخرى ليشاكل ماذكر فيه أبحاث هذا الكتاب ليناسب الأمم التى نعيش معها وأسلوبها، ولقد بدلت أسلوب الفلك القديم بالأسلوب الحديث ولكنى عند الكلام على موازنة الكبد والطحال الخ بالكواكب لم أجد له نظيرا فى علوم أهل زماننا فى العوالم التى تحيط بنا فنقلته مختصرا على علاته التى تحيط بنا .

وذلك لأن الطحال عند أطباء زماننا لم يجدوا له أولا وظيفة ، ثم قالوا إنه تربى فيه الكرات البيضاء المساعدة للكرات الحمراء لتحارب الحيوانات الذرية المهاجمة . وهكذا علم أحكام النجوم اليوم غير شائع وهو علم ظنى لايقينى . فأمثال هذا نكتبه مع ما قبله ليطلع أهل العلم فى بلاد الإسلام وغيرها على مبلغ ماوصل إليه القدماء من الحكمة والإبداع، وكيف جعلوا الجسد الإنسانى نموذجا للعالم كله من كوكب وفلك وبرج وعنصر ومعدن وحيوان ونبات وملك .

فياليت شعرى كيف يفهم المسلم قوله تعالى « يدبر الأمر من السماء إلى الأرض » إلى قوله « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » أو يفهم قوله تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » أو قوله « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » إلا بأمثال هذه المباحث والعلوم العجيبة ، أو قول المسلم فى الصلاة فى الرفع والاعتدال « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شىء بعد» وقوله فى الركوع «خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين» وقوله فى السجود « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين » وقول المصلى فى صلاة الفجر « فلك الحمد على ماقضيت ولك الشكر على ماأنعمت به وأوليت » اهـ .

اللهم إنى أعجب من هذا الثناء فى صلواتنا كيف كان هو ملخص علوم الحكمة وملخص رسالة [الإنسان عالم صغير] فالسمع والبصر والمخ هى المذكورات فى الآية هنا وهو قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة» الخ فكأن المسلم وهو فى الرفع والاعتدال يشرح أطباق السموات والأرض اللاتى توازى طبقات جسمه التسع المتقدمة من العظم والدم وهكذا إلى الظفر ، ومن الرأس والصدر والبطن وماتحت ذلك، وهى الأربعة الموازية لطبقات الأرض والماء والهواء والأضواء، وكأنه وهو فى ركوعه وسجوده يشير إلى الحواس الموازيات إلى السيارات ، ويزيد طبقات الجسم إيضاحا فيذكر العظم والعصب وهكذا وكأنه وهو فى قنوت الصبح يعبر عن ملخص معنى هذه الآية هنا إذ يقول الله تعالى « قليلا ماتشكرون » وهناك يقول « ولك الشكر على ماأنعمت به وأوليت » .

إن المصلى بوقوفه وركوعه وسجوده وجلوسه يوضح معنى كونه عالما صغيرا ، فإنه لما كان ثناؤه على الله باللسان مشيرا إلى قسمين من الأقسام الست فى رسالة [الإنسان عالم صغير] وهما السموات مع كواكبها وإلى قسم ثالث وهو طبقات العالم السفلى أشار إلى عالم الحيوان بالركوع ، لأن الحيوان كالراكع وإلى عالم النبات بالسجود لأن النبات رأسه كالساجد ، وإلى عالم المعادن الذى يقبل الكون والفساد كما يقبله الإنسان بمجموع الحركات الدالة على ذلك التغير المستمر ، فصلاة المسلم نسخة مصغرة من العوالم تذكر المسلمين جميعا بدراسة أنفسهم حتى يسودوا فى الدنيا ويلحقوا بالعالم الأعلى وهم فى أعلى عليين .

هذا ولابد قبل ختام هذا المقام من ذكر معجزة نبوية وحكمة إسلامية فى تفسير هذه الآية «وجعل لكم

السمع

السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » فقد جاء في (الرسالة الثالثة عشرة) من إخوان الصفاء تحت العنوان التالي مانصه:

كيفية نشوء الأنفس الجزئية في الأجساد البشرية الطبيعية

اعلم أن من سنة الناموس والآداب الحسنة تناول الطعام الذي هوغذاء الجسد بثلاثة أصابع ، فهذه السنة كأنها إشارة من واضع الناموس للنفوس والتنبيه لها وحث على أنه واجب طلب العلوم من (ثلاث طرق) لأن العلم غذاء النفس كما أن الطعام غذاء الجسد وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدة اقتران مابينهما ، فأحد الطرق التي تنال بها النفس العلوم قوة الفكر الذي تدرك به النفس الموجودات المعقولات ومن هذه الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة . . والطريق الثاني السمع الذي به تقبل النفس معاني اللغات وما تدل عليه الأصوات من الأخبار الغائبة . والطريق الثالث النظر الذي به تشاهد النفس الموجودات الحاضرة فهذه الطرق الثلاث يجب أن يتناول العلوم بها كما نبهنا وكما نبهنا الله عز وجل إذ قال « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » وذم من لاينتفع بالنعم فقال « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل » وقال أيضا « صم بكم عمى » فهم عمى عن الحقائق بكم عن الدقائق ، عمى عن المبصرات المنوية العقلية بعين القلب . وليس يريد بها الذم من حيث إنهم لايسمعون الأصوات ولايبصرون الألوان ولا يعرفون ولا يفقهون أمر المعاش بل إنما ذمهم من حيث إنهم لايعقلون أمر المعاد كما قال تعالى « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

واعلم أن العلم قنية للنفس كما أن المال قنية للجسد لأن المال يراد لصلاح أمر الجسد ، والعلم يراد لصلاح أمر النفس . فمتى لم تنل النفس العلم من هذه الطرق الثلاثة وذلك تناولها بثلاثة أصابع إلا من طريقة واحدة أي بأصبع واحد ، فمثله كمثل المريض الذي ليس له حظ من ماله إلا الثلث لأن المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات ، وهذا مثل أهل التقليد الذين لايعرفون أمر الدين إلا من طريق السمع فهم موقوفون بين الشك واليقين والشك مرض النفوس واليقين صحتها ، فهؤلاء ليس لهم من العلم إلا الثلث من أجل مرض نفوسهم . انتهى .

أقول هذا الكتاب ألف منذ نحو ألف سنة وفي أكثر هذه المدة كان المسلمون محصورة علومهم في المذاهب التقليدية .

فياليت شعري هل تعاهدوا جميعا على نبذ الحقائق حتى أصبحنا عالة على أمم الأرض الآن . نعم ظهر فيهم نابغون ولكنهم مقتوهم وكفروهم وحقروا آراءهم ، ولكن الآن ها أنا أبشركم أيها المسلمون أن ذاك زمان مضى وانقضى .

بشرى فقد أنجز الإقبال ماوعدا وطالع السعد في أفق العلا صعدا

والدليل على ذلك أني أكتب الحكمة في هذا التفسير ولا أتخذ التقية بإلباسها لباس التصوف بل الحكمة هنا واضحة والمسلمون قبلوها فبشرى ثم بشرى للمسلمين . انتهى صباح يوم السبت ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٩

كشف واستبصار

(فى معنى « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الخ)

(كتب قبيل فجر يوم الأحد ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٩)

كنت أصلى العشاء فى أواخر الليل وقرأت (سورة الملك) فلما وصلت إلى آية « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » كررتها مرارا لأنها هى الآية التى وردت فى المقالة السابقة ولاتزال عالقة بالذهن . هنالك عجبت من تكرير القرآن لهذه الثلاثة فى القرآن، وكيف يتبعها بقوله « قليلا ماتشكرون » أو بقوله « لعلكم تشكرون » ثم كيف قدم السمع على البصر مع أننا بالبصر نرى الشمس والقمر وندرك كل ما على الأرض وتذكرت ماقاله (طماوس الحكيم) فيما مضى من هذا التفسير : إن الله خلق البصر لندرك به الليل والنهار وتفتح لنا أبواب الفلسفة والحكمة . وهذا وحده أجل نعمة فى هذه الأرض ، إذن البصر مقدم على السمع ، فلم قدم الله السمع عليه فى هذه الآية : ولماذا يكون هذه الحواس بلفظ واحد، وترتيب واحد فى الآيات المتقدمة ؟ والإجابة على هذا تستبين لك من وجهين : (الوجه الأول) لم قدم السمع على البصر والفؤاد ؟ مع أن البصر والفؤاد أهم من السمع (الوجه الثانى) لم تكرر هذه الآيات فى سور كثيرة على هذا النمط .

(الوجه الأول : لم قدم السمع على أخويه)

اعلم أن الله عز وجل جعل العلم لنا فى هذه الدنيا من (طرق ثلاثة) كما تقدم سابقا (١) طريق الألفاظ (٢) وطريق صور المعانى الواصلة من البصر (٣) وطريق البحث العقلى المستخرج للمعانى الكلية من الصور الذهنية ، وهذا واضح مما تقدم . فالألفاظ أشبه بالنواب والوكلاء . فالمعانى فى النفس سواء أكانت من طريق البصر أومن طريق العقل يعبر عنها بالألفاظ . فالألفاظ إذن عالم قائم مقام عالم المبصرات والمشمومات والمذوقات والملموسات والمعقولات (وبعبارة أخرى) العالم عالمان : عالم طبيعى وعالم وضعى اصطلاحى . والعالم الطبيعى المبصر والمذوق والمشموم الخ والمعقول والعالم الاصطلاحى هو عالم الألفاظ المعبر عن تلك المعلومات كلها . فالألفاظ فى الهواء عوالم قامت مقام العوالم كلها قائمات بأذهاننا فإذا كانت المخيلة والمفكرة والحافظة قدصورت فيها جميع العوالم الحسية والمعنوية فها هو ذا اللسان عبر عنها كلها وقذفها فى الهواء وجرت فيه وحفظها بأمانته أى العلوم حتى وصلت إلى الآذان . وهذه الألفاظ ماهى إلا اصطلاح اصطلح عليه الناس ، فلفظ شجرة وحجر ونور كلها أصوات اصطلحنا على دلالتها على المعانى القائمة بأذهاننا المصورة بصور تلك الثلاثة فهنا لفظ دل على صورة فى الذهن وهذه الصورة دلت على مانراه بأعيننا أوعقلناه بأدلتنا . هذه هى وظيفة السمع . فوظيفة السمع متعلقة بوظيفة اللسان والرسول بينهما الهواء، وهو أمين . والدلالة هنا وضعية السمع لا طبيعية فلوأن السمع زال من الوجود ولم يخلق الله الأسماع لم تخلق إذن الألسنة . لأن اللسان خلق لنسمع به، فإذا فقد السمع فليفقد نطق اللسان وليخصص هذا اللسان بخاصة الذوق لاغير ، أما الإفهام والتعليم فلا ، فإذن يكون الناس جميعا صما بكما ولكنهم مبصرون وإذن لا نبى يرسل ولا عالم ولاحكيم ولاخطيب ولا كتاب يؤلف ، فإذن تكون الإنسانية غير الإنسان بل تكون إلى الحيوانية أقرب . إذن خلقت الآذان وخلق اللسان لنسمع هذه الأصوات الاصطلاحية ومتى سمعناها أخذنا ندرس هذا الوجود بأبصارنا (وبعبارة أخرى) إن المسلم يسمع القرآن يذكرنا بالآداب وبالعبادات والمخلوقات . هنالك يفتح لنا (أمران) الأبصار والبصائر . فبعد أن كان

المسلم يرى الأشياء ولايفكر فيها ، فبعد سماع الآيات يجتهد في الابصار اجتهادا أشد ويستبصر ويفهم ما أبصره فهذا وجه تقديم السمع على أخويه والله أعلم .

(الوجه الثانى)

(فى تبيان حكمة تكرار هذه الثلاثة فى القرآن وأن شكرنا عليها قليل)

علم الله قبل خلق العالم وقبل إنزال القرآن أن المسلمين سيعتريهم مااعترى الأمم السالفة من ظهور شيوخ في العالم الإسلامى يقولون لتلاميذهم : كرروا هذه الأوراد صباحا ومساء ، وإياكم والعلم ، فيعيش التلميذ على هذا ويموت . أويقولون : متى قرأتم التوحيد والفقه فهذا كاف ، أويقولون : متى أخذتم شهادة العالمية فقد كفى فالتصدروا فى المجالس . وهذا هو القصد الأسمى من الحياة ، أويقولون : إن الكتب المصطلح عليها بين أهل البلاد فى الدين كافية .

أقول علم الله ذلك بل هو الذى رتب هذه العقول على ماعلم « ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك » لذلك أنزل لهذا الداء العياء دواء ، وأخذ يذكرنا به فى مواضع كثيرة «فذكر إن نفعت الذكرى» « إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر» «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» .

ولا جرم أن هذا الكتاب مؤلف للمؤمنين . فالتذكير بهذه النعم نافع لهم وأنا موقن بذلك . ذلك أن المسلمين متى قرءوا هذا القول هنا يقولون «لاتكفينا قراءة الأوراد وحدها فهى لم تجعل إلا لحبس النفوس الشريرة عن أذى الناس بالغيبة والنميمة والإضرار بالناس وفرق بين حبس المجرم وبين تعليمه ، فهل المسلم الذى جعله الله من «خير أمة أخرجت للناس» يحبس لنكتفى شره . إنه وضع فى الأرض ليكون خيرا وأفضل من جاء إلى الناس فيها لا أنه شرير نحبسه فى قفص الأوراد صباحا ومساء ، ونقول له لاتعد الورد أو هذا الحزب وكرره صباحا ومساء . نعم الذى لايصلح لشىء في الإسلام نأمره بذلك ، فأما أكثر المسلمين فهم أقل ما فيهم أنهم كعباد الله فى الأرض خلقهم الله وخلق لهم الأسماع والأبصار والأفئدة ، فلماذا يقصر على مجرد اللفظ بالورد وعلى مجرد سماعه ويحجب بصره عن النظر وعقله عن الفكر .

فلما اطلع على هذا صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير قال حياك الله . أما البيان فهو جميل ولكن عندى شبهة فقلت وماهى ؟ فقال الله يقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس » ولكنك فى بيانك هذا قلت إنهم قد حبسوا فى الألفاظ أو فى علوم ضئيلة وأكثر كلامك فى التفسير ينحو هذا المنحى ، فالحق والحق أقول إن هذه الشبهة أنت الذى أثرتها فى نفسى وفى نفوس كثير من القراء . أليس وعد الله حقا . وعدنا الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس ولكنك أبنت أننا لسنا خير أمة أخرجت للناس بل نحن قوم أعظم مافينا أننا نسمع ولا نعقل كما قال الله تعالى « لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها» ثم شبههم بالأنعام فقال «أولئك كالأنعام بل هم أضل» غاية الأمر أنك أبنت أنهم يسمعون وحكمت بأن الأبصار والعقول غير مستيقظة . فقلت إن الخير فى الأمة من أيام النبوة إلى الآن ولكن كلامى منصب على الأكثر ومع هذا كله نحن «خير أمة أخرجت للناس» فقال هذا هو التناقض بعينه ، وما أنت فى هذا إلا مقلد والمقلد يعتقد المتناقضين . فقلت بل موقن . فقال «هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين» فقلت له حياك الله ، أليس الاسلام قد انتشر بالأمة العربية ، قال نعم ولكن ذاك زمان مضى وانقضى . قلت اصبر قليلا ولا تعجل . اعلم أن الأمة أشبه بجسم واحد ، فالأمة الإسلامية من العصور الأولى إلى الآن جسم واحد ، وهذه الأمة الآن فى سنتها الرابعة عشرة فالقرن فى حياة الأمة أشبه بسنة كما ستراه فى [سورة سبأ] عند الكلام على التقليد فى آية «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخ فهى فى القرن الأول والثانى

كانت فى الرضاع والرضاع حولان كاملان والرضاع كان من ثدى الأثداء العلمية الإسلامية والعلم عبر عنه باللبن فى حديث الإسراء لهذه النكتة فإنه صلى الله عليه وسلم اختار اللبن ونبذ الخمر فى ذلك الحديث وأمته شربت هذا اللبن ولبن الأم يغذى الطفل سنتين وجدهما يتولاه المعلمون فالأمة فى القرنين الأولين نشرت الدين إلى قلب البلاد الفرنسية وإلى داخل بلاد الصين . ذلك لأنها قامت بنشر الدين . فلما انقضى القرنان وقفت الفتوحات وأخذت الأمة تقرأ العلوم وتترجم الكتب من اليونانية وغيرها إلى العربية ، هكذا الطفل بعد مدة الرضاع يتعاطى الطعام مما يحيط به على حسب البيئة التى هو فيها ولكن هذه الأمة يتيمة لأن نبيها صلى الله عليه وسلم رفع إلى السماء ، والأمم كلها تتحفز لها وتقاومها فقيض الله لها أئمة مجتهدين وحكماء وعلماء فصاروا يلقون إليها نبذ من العلوم كما يعطى الطفل أنواع الطعام بعد الفطام . ومعلوم أن اليتيم تتقاذفه الحوادث فحصلت هذه الأمراض فى جسم هذا الطفل ولكن أصله كريم . فأخذ يكبر وإن كان جسمه هزيلا . ولكن حدثت حوادث رجت الأرض رجا ، هى حوادث الحرب الكبرى فى زماننا فاستيقظ هذا الطفل المراهق من القلاقل والإذلال والمدافع والغازات الخانقة فرفع عينه إلى خالقه فأجابه : أيها المراهق لا تخف إن وعدى حق ، والآن وإن كنت لم تبلغ بالسن فقد بلغت بالحلم والبلوغ بالحلم يرجع فى الطفل لقوة الجسم ، أما هنا فهو القوة العلمية العقلية التى حدثت فى مصر وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش وبلاد السودان والشام والفرس والعراق والهند وبلاد جاوه فإن هذه الأمم كلها استيقظت مرة واحدة وأصبحت كلها تنطق بلسان واحد : العلوم العلوم . الفكر الفكر ، والدليل الذى ألمسه أنا بيدى هو هذا التفسير ، فلقد قبله المسلمون جميعا مع أن القرآن فيه قد ابتلع العلوم التى فى الشرق والتى فى الغرب فحكمت حكما لا أشك فيه أن هذا المراهق بلغ الحلم وأن هذا المراهق كان ضعيفا مريضا لأنه يتيم واليتيم إذا بلغ الحلم زال عنه وصف اليتم . وأنا أرفع صوتى بهذا للمسلمين فأقول : أيتها الأمة أنت قد ارتقيت فجأة وزال عنك الآن الوصمة السابقة والمرض والضعف فإن هذا التفسير وأمثاله لم يصادفه ما صادف كتب الإمام الغزالى رحمه الله تعالى إذ أحرقت أيام على بن تاشفين فى بلاد المغرب كما سأوضحه فى [سورة سبأ] ولا ما صادف كتب ابن رشد إذ ابتلى رحمه الله بالإيذاء وانتقل علمه من بلاد الإسلام إلى أوروبا فعاقبنا الله بجهلنا . أما الآن فهذه الأمة قد عقلت وفهمت . وإنما فعل الله ذلك اتباعا لسنته وجريا على طريقته ، فهو هكذا خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، وهذا الضعف فى الأمة الاسلامية بسبب الصغر قد انتهى اليوم . فنحن خير أمة أخرجت للناس غاية الأمر أنا كنا مرضى وصغارا جهالا فعوفينا وأدركنا وبلغنا . ولا جرم أن المريض إذا شفى يعتبر بما آذاه من المرض بالتجارب فيحترس مما وقع فيه ، أفلا تتذكر أن الرجل الذى يأكل المأكل الدسمة إن عاش ولم يمرض مات فجأة لأن جسمه لم يقدر أن يستخرج منه الفضلات بطريق الجروح ونحوها وأن الرجل الذى يأكلها ثم مرض فإن حياته تطول لأنه هو القوى لأن من تخرج منه الفضلات خير ممن بقيت فى جسمه تنهك قواه فيموت ، فمرض الأمة الإسلامية السابقة ثم رجوعها إلى الصحة دليل على متانة تركيبها ، فهى إذن أشبه بخير الرجلين السابقين والأمة فى أول أمرها أتخمتها الغنائم وتفرقت لتحكم الأمم شرقا وغربا ثم كانت هذه الحرب العالمية ، والأمة العربية على وجه الخصوص التى نزل القرآن بلسانها هى أول الأمم التى شرفها الله بأنها « خير أمة أخرجت للناس » لأنها تفرقت فى الأرض لنشر الدين ثم غلبت على أمرها فى زمن صغرها ، وهاهى ذه الآن أخذت ترجع كرة أخرى لمجدها وذلك بطريق السمع والأبصار والأفئدة والشكر ولهذا كررت الآية فى سور كثيرة فقال تعالى مثلا فى [سورة الملك] «وهو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون» وسيأتى لهذا المقام إيضاح فى [سورة سبأ] عند آية « ولو ترى إذ الظالمون » الخ كما قلت لك [وفى سورة الزخرف] فى أولها عند قوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » .

فلما سمع صاحبى العالم ذلك قال لقد ثلج صدرى وانشرح لما ذكرته من أن الأمم الإسلامية اليوم قد أصبحت مشبهة لمن بلغ الحلم وأنها أخذت تعقل واستدللت بما علمت من أحوالها ولكنى أقول إن هذا الدليل يعوزه دليل آخر ليكونا شاهدين على هذه القضية ، يقول الله تعالى « وأشهدوا ذوى عدل » وهذا شاهد واحد ، وخير الشواهد ما كان من التاريخ فى هذا المقام، فلو أنك بحثت عن أمة ذات دين اعتراها ما اعترى أمتنا من هذا الضعف ثم أخذت تعقل فى القرن الرابع عشر بعد فراق نبيها لها بطريق أرقى من سابق أيامها كان ذلك شاهدا حسنا فى هذا الموضوع. فقلت لقد طلبت منى مرتقى صعبا وأمرا عسيرا فإن ديانة البوذية قديمة العهد وبنو إسرائيل مشتتون فى الأرض مقطعون قطعا فلا نهتدى لبحث تاريخهم ولم شعثهم ، على أن دين موسى دين قومى لا عمومى لأنهم حصروه فى بنى إسرائيل فليس لدينا إلا دين المسيح الذى نسخ بعد نزوله بست قرون إذ نزل الدين الإسلامى فهؤلاء النصارى لما جاء الاسلام كان الباباوات يتحكمون فيهم وقدمنا فى هذا التفسير ، وأن بابا (روما) كان هو الذى يعزل ويولى ملوك أوربا وأذلهم وقهرهم وقد ضرب (ملك جرمانيا) برجله وقد أوقفه ثلاثة أيام وهو يتزلل فلا يغفر له وكم عذب وكم قتل . كل هذا تقدم فى (سورة التوبة) ولازالوا فى هذا الذل حتى كانت الحروب الصليبية وحروب الأوروبيين مع أهل الأندلس الذين حقروا علم الحكمة وأهل أوروبا قد سئموا حكم رجال الدين فكان المسلمون أشبه بالطفل الذى بلغ سبع سنين أو ثمانيا وأهل أوروبا أشبه بطفل قد بلغ الرابعة عشرة فأخذوا علوم المسلمين وارتقوا بعد أن حقرها المسلمون كما يحقر الطفل كل ما لم يكن حلوى يأكلها وكما يحقر الديك الجوهرة ويلتقط الحبة لاغير . وعليه نقول إن أوروبا المسيحية حوالى القرن الرابع عشر من تاريخ دينها أخذت ترتقى فى حياتها والمسلمون اليوم أخذوا يقرءون علومهم وهم فى قرنهم الرابع عشر كما فعل أولئك سابقا. فهذا هو دليلى . إذن المسلمون اليوم أخذوا فى الرقى لأنهم أشبه بمن بلغ الحلم فى سن (١٤) كما فعلت أوروبا من قبل، والمقام ليس مقام نسخ الدين وعدم نسخه وإنما المقام فى أن التاريخ أخذ يعيد نفسه ويفعل المسلمون ما فعل المسيحيون من الرقى العظيم اهـ.

ثم إنه لما اطلع على المقال المتقدم فى جسد الإنسان وموازنته بالعالم السماوى والأرضى قال لقد ظهر بهذا من العلم ما كان محجوبا عن الكثيرين من أمم الإسلام فإن كون الإنسان نموذجا للعالم يظنه من لا تحصيل عنده أمرا خياليا «كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا» ولكن ظهر الآن أنه حقيقة ثابتة وأن الله عز وجل رحمة منه بعباده جعل أجسامهم وأرواحهم عنوانا ونموذجا للعوالم كلها حتى تحضر فى عقولهم بأقل نظرة فتكون العوالم كأنها حاضرة عند الإنسان، وهذا خير ما جاء فى هذا التفسير بل خير ما يعرفه الناس من العلوم ولكنى أريد منك درسا مختصرا الآن على هذا المقال بحيث نفهم به من جسم الإنسان وروحه قبل فوات الفرصة :

(١) نظام علم التوحيد .

(٢) ونظام الملوك والأمراء أو رؤساء الجمهوريات مع ممالكهم وتصور امتحانهم لها .

(٣) ونظام الحكماء مع أممهم أيضا وامتحانهم لها ودراستهم لنظمها .

(٤) وهل هذا الجسم الإنسانى يعطينا نموذجا لاحتلال الدول القوية بلاد الأمم الضعيفة؟ وأى نموذج لذلك فى جسم الإنسان .

هذه هى النظم الأربعة التى أردت أن أعرفها من نظام الجسم الإنسانى حتى تكون العلوم بسبب النظام الأول حاضرة عند الإنسان، وسياسة الدول كذلك بالثانى وسياسة الحكماء وسياسة الأمم الغالبة مع المغلوبة بالثالث والرابع وإذن نفهم قوله تعالى «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

﴿ النظام الأول ﴾

قلت : أما نظام التوحيد فهو يرجع إلى جميع العلوم ، أما التوحيد الجدلي فهو للعامة وصغار العلماء ، وقد مر كثير منه في هذا التفسير بل هذا التفسير أعان الله عليه لهذا وأمثاله ، ولكن أقول منه الآن قلا من كل إجابة عن سؤالك .

إن العاقل ينظر إلى نفسه فيجد له روحا لم يرها وعقلا مدبرا وحافظة وذاكرة ومخيلة وحسا مشتركا ، كل هذه لم يرها ولكنها تتصرف في جميع أمور حياته ، فروحه وهي رئيسة هؤلاء ، وهو لم يرها ضربها الله مثلا «وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم» لسلطانه في العوالم ولم يره أحد ، وهذه القوى المتصرفة في جسمه ضربها الله مثلا للملائكة الذين أوجب علينا أن نؤمن بهم ليفتح لنا بهذا الإيمان هذه العلوم ، والحواس الخمس التي تشرف على العوالم الخارجة المسخرات للعقل ولجنوده الباطنة لكل حاسة منها مملكة لا تعرفها الحاسة الأخرى ، فالبصر يجهل : الحلو والمر . والسمع يجهل : الأخضر والأحمر الخ . والذوق يجهل : النور والصوت والنغمات وهكذا ، إذن هذه ممالك متجاورات لكل مملكة أعمال لا يمكن حصرها كما مر شرحه في موضوع الجسم العام وهي في حسابها ونظامها ترجع إلى الروح المدبرة التي لم نرها . والروح وحدها لها الأمر فهي تخاطب البصر الذي مقره العين ظاهرا بخطاب في أمر الألوان كقوس قزح والأنوار الكوكبية بما لا تخاطب به الذوق الذي مقره اللسان بحسب الظاهر في أمر الحلاوة والمرارة : والحرافة والعذوبة والملوحة وأمثالها وبما لا تخاطب به السمع في أمر صوت الرعد وأصوات الرياح والأمواج وتستفهم الروح من العين عن البرق ومن الأذن عن الرعد ومن الذوق عن العسل ومن اللمس عن الحرارة في الجو أو البرودة فالحرارة وقوس قزح والرعد التي تظهر في الجو آيات منفصلات على الآيات المبدعات في الأجسام من قوة اللمس في اليد والبصر في العين والسمع في الأذن .

هذه هي حال الروح مع عالمه وهذا هو إيضاح المثل الإنساني الذي ضربه الله لنظام عالمه ، فهو يعلم نظام السمك في البحر ونظام حيوان البر وكل منهما لا يعلم شيئا عن الآخر إلا قليلا . ولقد خلق ممالك في الأرض وكل منها ذات قوانين لا تسرى إلا في بلادها وهم بها راضون . وهكذا أرسل رسلا وكل له شرع وجميعهم يرجعون في حسابهم إلى ربهم على مقتضى شرائعهم التي لم تنسخ قبل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم كما رجعت عوالم الأبصار والأسماع والأذواق إلى الروح والعقل وأدت حسابها وأخذت الروح تنظم عوالمها على مقتضى النتائج الواصلة إليها وهكذا خلق عالم الأرض وعالم المريخ وعالم زحل وعالم الكواكب الثابتة وعالم السدم (جمع سديم) وعالم المجرات . وكل عالم يجهل ما عند الآخر ولكنها كلها متجهة إلى ربها كما اتجهت الحواس اللاتي وكلها العقل والروح بالعوالم الخارجة إلى العقل والروح فأدت حسابها وامتحانها . وإنما قلنا إن كل عالم يجهل العالم الآخر ، لأن ذلك كأهل الأرض فإنهم يبحثون عن عالم المريخ ويجدون في الوصول إلى مخاطبتهم ومع ذلك وجدوا الطريق وعرا فرجعوا بخفي حنين كما أن العين لو كانت مستقلة لقالت أنا أجهل علوم اللغات والأذن لو نطقت لقالت ويلي ما أعظم جهلي بعلوم المناظر والألوان . انتهى الكلام على نظام التوحيد والمثل الذي ضربه الله بأجسامنا لنظامه في عوالمه .

﴿ النظام الثاني ﴾

(وهو أن الله جعل الجسم الإنساني مثلا للأمراء والملوك ورؤساء الجمهوريات مع ممالكهم ورعاياهم)

انظر إلى القوى الباطنة الإنسانية والقوى الظاهرة والمعلومات الإنسانية تجدها هي بنصها وفصها منطبقة على الممالك ، فكأننا نجد الدولة فيها وزراء ومجالس نواب ورجال استشارة هكذا نجد بجانب العقل الحاكم

في الإنسان

فى الإنسان قوى باطنة من حافظة ومتخيلة ومفكرة وذاكرة مطابقة لما نراه فى دواوين الحكومات من العقول الراجحة والنفوس المفكرة والدفاتر المسجلة والنظم الثابتة وأن كل دائرة من دوائر الحكومات تجهل ماعند الدائرة الأخرى ، ألاترى رعاك الله أن وزراء الزراعات ووزراء المالية ووزراء المعارف لايعلم كل ماعند الآخر إلا قليلا ، ولكن الملك والأمير أورئيس الجمهورية أومجالس نواب الأمة هؤلاء هم المحاسبون المطلعون على كل نظام على حدته وليس لأحد من أرباب تلك النظم أن يتعدى حده . فلايتدخل وزير الزراعة فى أعمال وزير المعارف لئلا يحصل الاختلال فى نظام الدولة كما لاتتدخل العين فى علم الموسيقى والألحان وفى علوم اللغات

﴿الكلام على النظام الثالث وهو نظام حكماء الأمم معها﴾

فكما رأيت نظام الأمراء مع الدول هكذا ترى نظام الحكماء مع الأمم ، فحكماء الأمم هم المشار إليهم بما روى « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » ولقد بعث الله فى الإسلام رجالا معروفين وعنهم ومن آثارهم تلقينا العلم فهؤلاء هم حكماء الأمة الذين يدرسون نظمها ويعطون لها تعاليم توافق عصرهم لأن كل عصر له مقام معلوم مع اتصال الأعصر كلها بالشريعة المرسومة والطريقة المعهودة ، فالحكيم الحقيقى لأمم الإسلام هو الذى يدرس جميع النظم بقدر إمكانه ، ومتى ظهر أنه موافق للاصلاح ألقى الله حبه فى قلوب الناس فأخذوا برأيه وساروا على سبيله واتبعوا طريقته وفكروا بعقولهم فى آرائه ثم انتهجوا سبلا بحسب عقولهم واجتهادهم على مقتضى مايرونه ، فإذا رأينا الأمم قبلت حكمة حكمائها ونصائح فضلائها وأعظمهم كان ذلك دليلا على حياتها وإن هى غمطت حقهم وأنكرت فضلهم وخاصمتهم وأهانتهم دل ذلك على أنهم آخذون فى الاضمحلال لأن الحكماء منزلتهم من الأمم بمنزلة الإبصار من الجسد ، فإذا نبذت الحكماء فقد أصبحت عمياء والأعمى لايهتدى إلى السبل فهو يحتاج إلى الهداة ، وهذا بعينه مثل هذه الأمم الإسلامية المتأخرة لما غربت شمس حضارتها وولت أيام شبابها وأدبرت سنين سعادتها وأقبلت أيام هرمها ودنت من موتها بالمرض المزمن الذى شل أعضاءها وذلك أيام الدولة العباسية لما قتل بعض ملوك بنى عباس ابن السكيت مثلا وأيام دولة المرابطين إذ أحرق بعض (بنى تاشفين) فى المغرب كتب الغزالى وأذل بعض ملوك الموحدين العلامة ابن رشد وحبسه وحقره فى أعين الأمة وهكذا فعل ملوك بنى عثمان مع هذه الأمة كلها بعد ذلك فإن السلطان سليم نقل الصناع المصريين الحاذقين فى صناعاتهم لما فتح مصر وأخذهم إلى بلاده ولما توسطوا البحر غرقت المراكب بهم ففاتت الصناعات من مصر علما منه بما للصناعات من آثار فى قوة الأمم . وهكذا جمال الدين الأفغانى لما كان فى الأستانة أتاه مرض السرطان هو والكاتب المشهور (محمد نديم المصرى) .

ولقد أشاع الناس أن ذلك بأمر الخليفة العثمانى ، والأمة متى ذهب بصرها ولم يبق إلا اسمها عاشت عمياء لاتبصر عليه تصبح وليس عندها من العلم إلا ثلثه لأن قوة التفكير ضائعة لأنها محصورة ، وقوة البصر لاوجود لها لأن الحكمة هى البصائر للناس وهى التى أنزل الله لها (سورة لقمان) وهو القائل « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب » والحكماء إذا جهلتهم أمم الإسلام كما حصل فعلا فقدت بصرها فأصبحت تتخبط فى ديجور الظلام ، وإنما الذى عندها من العلم هو القرآن يحفظه الأطفال ويعيشون أطفالا وهم كبار ، أما الأبصار وأما العقول فهى المختوم عليها ، وعليه نقول لننظر فى النظام الرابع .

﴿النظام الرابع وهو نظام الأمم القوية المستعبدة للأمم الضعيفة﴾

إن الأمم التى أصبحت عمياء بسبب احتقار حكمائها والمفكرين من أبنائها كالأمم الإسلامية فى القرون الأخيرة تصبح لاعلم عندها إلا ما سمعته والعقول محجوبة ، ولاجرم أن اللسان إنما يعبر عما فى العقل والعقل جاهل فتكون كتبا غير مشتقة الحكمة وخطباؤها لايؤثرون فى الشعوب إلا آثارا قليلة على مقدار بضاعتهم

الزجاة ، وهذه الأمم إما مريضة أمراضا تشبه أمراض السل والجدرى والحصباء وإما ميتة ، والمرضى يعوزهم أطباء يستفيدون منهم نقودا ويعطون لهم عقاقير وأدوية ، ولاجرم أن العقاقير والأدوية قد ثبت أن ضررها أكثر من نفعها إذا اعتمد الناس عليها وتمادوا فيها كما تقدم فى سور كثيرة كسورة (طه والشعراء والبقرة والأعراف) بشهادة أعظم أطباء ألمانيا والنمسا وغيرهم ، والأموات يعوزهم من يدفنونهم بعد موتهم إراحة للناس من ريحهم الضارة بالهواء وقد اعتاد الناس أن يتخلصوا من رمم الموتى إما بأكل أجسامهم إن كانوا بوذيين أو بإبقائها وتحنيطها إن كانوا من قدماء المصريين وإما بدفنها فى الأرض إن كانوا مسلمين أو مسيحيين أو يهود ، والنتيجة لذلك كله أنهم تخلصوا من رمم أحبائهم الذين لم يكونوا ليحبوا مفارقتهم فى هذه الحياة هكذا الأمم القوية متى رأت أمما ضعيفة فلا مناص لها من (أحد أمرين) : إما أن تحتل بلادها إن كانت مريضة وتدعى أنها تداويها وهذا هو البلاء المبين. وذلك ككثير من الدول المستعمرات لبلاد الإسلام . وإما أن تهلك حرثها ونسلها وهذا هو الحاصل الآن فى بلاد أمريكا فقد انقرض الشعب الأصلى وهم سكان الأرض الأولون وهكذا أهل (استراليا) فهؤلاء وهؤلاء تعتبرهم ميتين أمام الفاتحين . ويقرب منهم أهل الأندلس الذين تفرقوا عشرين دولة كما تقدم إيضاحه فى هذا التفسير عند آية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» فى (سورة النمل) فهؤلاء كانوا كجسم تمزق عشرين قطعة فلابد من دفنه فبطشوا بهم بطش الجبارين .

إن أكثر الأمم الاسلامية المستعبدة اليوم ليسوا بميتين وإنما هم مرضى وأدواؤهم (أحد أمرين) : إما عقاقير الفاتحين وأدويتهم وهذا يحدث فى أجسامهم أمراضا جديدة كما قرره كبار الأطباء وشرحناه فى هذا التفسير. وإما بالأدوية الطبيعية التى تشابه الاستشفاء بالهواء النقى والماء والأغذية والرياضيات المختلفات وهذا هو الدواء الوحيد الناجع فى المرضى وهذا هو الدواء الوحيد لأمم الإسلام المتأخرة . وما هو ذلك ؟ هو قراءة أمثال هذا التفسير من كل مايرجع الأمة إلى حال فطرتها وإلى النظام الذى كان فى عصر الصحابة والتابعين من دراسة هذه الدنيا والنظر فيها وفى القرآن . فهذا هو الدواء الذى جعله الله عز وجل لهذه الأمة فى هذا الزمان «والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم»

هاهنا سألنى قائلا : هل تسمح لى أن أذكرك بأمر هام فى هذا المقام ؟ فقلت حبا وكرامة ، فقال يؤخذ مما ذكرته فيما تقدم قريبا أن الإنسان لوح محفوظ . فذكر هذا فى التفسير يجعل فى النفوس انقباضا ويذكرها بهؤلاء الأقوام الذين يجلسون فى حلقات القوم وينطقون بألفاظ لاهم يفهمون معناها ولاالسامعون . اللوح المحفوظ هو لوح الله لالوح هذا الإنسان الذى هو جهول ظلوم . وهل ترى أنت أن اللوح المحفوظ نزل من عند الله إلى الأرض واختلط بهذا الطين وأصبح فى هذه الظلمة ؟ وأيضا إذا كان اللوح المحفوظ عند الله واحدا فكيف أنزله إلى الأرض فصار آلاف آلاف الآلاف بعدد الناس ؟ وإذا كانت هذه النفوس هى ألواح الله فأين البهجة والرواء والجمال والعظمة التى يتذكرها الإنسان فى ذلك اللوح . اللوح المحفوظ فيه علم ماكان ومايكون فهل أنا وأنت نعرف ماكان وما يكون ؟ هذا القول بعد هذا البيان يلقى إلى الجهلاء لا إلى العلماء وهذا التفسير يكتب للطبقة الراقية لا للعامة والجهلاء. ثم سكت فقلت هل فى نفسك شىء ؟ فقال وهل ماسمعته لايكفى فى الإعراب عما جاش بخاطرى ، فقلت حياك الله وبياك .

اعلم أن هذا الإنسان أمره عجب . إن الناس يعيشون ويموتون وهم هم أنفسهم لا يدركون أنهم نور وبهجة وكمال وحكمة. يجيش بنفسى أن هذه الأجسام الإنسانية والأرواح الحالة فيها وكثرة عددها على الأرض أشبه بحبات اللقاح الكثيرة فى النبات فإنها لافعل لها فى إلقاح الإناث إلا آحادا منها ، وهكذا الحيوانات المنوية فى ماء الرجل فإنها تعد بالآلاف ولكن واحد منها وحده هو الذى يتحد بالخلية المنوية التى أقبلت من ماء الأنثى فيكون الحمل كما تقدم فى (سورة طه) .

أعجب من هذا الإنسان ، هو يأكل ويشرب وينام ويتعلم ويعقل ويتذكر وينسى ، وهو نفسه نموذج الجمال والحكمة ثم يموت وهو لايعلم من هذه الدنيا المحزنة إلا أنه قاسى الأهوال وأغرم بالأموال وعذب بالأبناء والبنين ودولته حاربت دولا أخرى ثم مات ، هذا هو الانسان .

خطاب لنوع الإنسان

أيها الناس : لو أن عقولا كبيرة خلصت من أجسامها ثم نظرت هذا الإنسان يعيش ويأكل ويشرب ويكسب ويحارب وينصب ويشتهى رأت أمرا عجبا ، فماذا ترى ؟ ترى أن الأرض والكواكب وما على الأرض من المخلوقات إن هى إلا حركات فى الأثير ، وما هو الأثير؟ هو موجود أدهش العلماء ، وأول من تخيله (إسحاق نيوتن) وقد أجمع هو والعلماء بعده أنه ليس مادة، ولكنه هو اضطر أن يقول [إنه ذرات صغيرة جدا] وقد جعل هذا مجازا فقط ، ولقد عبر عنه (هو يجنس) بقوله (موجات) وهذا من أقوال الفلاسفة فيه وآخرهم (انيشتين) العالم الألمانى فى زماننا فانه يقول [هو خيال من الفضاء ، والوقت يصعب على غير المتعمق فى الرياضيات فهمه] .

هذه أقوال ثلاثة من تسعة أقوال يقولها العلماء فى الأثير الذى هو أصل المادة التى منها هذا الإنسان . فآخرها أنه خيال يفهمه المتعمقون فى العلوم الرياضية . إذن الأثير أمر موجود وليس بمادة والتعبير عنه بعيد عن العقول ، وغاية الأمر أن العلماء وصفوه (بعشرة أوصاف) نذكرها هنا لتكون مبدأ منه نبحث فى الإنسان وكيف صار لوحا محفوظا . وهذه العشرة هى :

(١) إنه شفاف .
(٢) عديم الاحتكاك بالمواد .
(٣) عظيم الكثافة .
(٤) تام المرونة .
(٥) عديم الحرارة .
(٦) عديم الصوت .
(٧) موصل جيد للجاذبية والنور والأمواج الكهربائية والمغناطيس .
(٨) وهو وسيط لتلاحق دقائق المادة وتماسكها .
(٩) وهو وسيط للألفة الكيمائية .
(١٠) وهو يملأ كل فراغ .

هذه هى الصفات العشر التى يعرفها علماء زماننا للأثير الذى هو أصل للمادة التى خلق منها الإنسان الذى يقال إنه لوح محفوظ تتوقف معرفة لوحيته وحفظها على هذه المقدمات فى زماننا . ويقول العلماء : إن معنى كون الأثير عظيم الكثافة أنه لو فرض وتحول إلى مادة تراها ونلمسها لكانت كثافتها فى الليمتر الواحد المكعب بمقدار (ألف طن) ومعلوم أن الطن الواحد وزنه نحو (٢٢) قنطارا فيكون لليمتر المكعب وزنه (٢٢) ألف قنطار ، والمرونة المذكورة تساوى ضرب هذه الكثافة فى مربع سرعة النور ، هذا ما يقال فى الأثير ، فهذا الأثير عجب كيف يكون غير مادة ثم تكون هذه حاله فيكون الليمتر المكعب بمقدار هذا الوزن .

أقول إنما قالوا هذا لأنهم رأوه يتحمل من الأثقال ما لاحد له . فهذه جاذبية الشمس للأرض فهى تأتى بواسطته وهكذا النور والكهرباء والمغناطيس . وهذه لها أفعال هائلة قوية فأى موجود يتحمل هذه كلها أمد الدهر إلا إذا كان بهذه المقادير وهذه المقادير ليس يحسبها إلا أرباب الفن . فهم هم الذين لهم هذا الحساب المتقدم .

هذا آخر ماعند العلماء فى الأثير ، فهو موجود قوى متين عظيم يحمل مالا تحمله المعادن التى نراها فلننتقل بالبحث الآن إلى المادة التى خلقت من هذا الأثير (إنهم يقولون ما المادة إلا حركات فى الأثير) أو هى كهرباء موجبة وسالبة يدور سالبها حول موجبها (انظره فى سورة النور عند آية « الله نور السموات والأرض ») وماهذا الذى نراه من جبل وشجروشمس وقمر وماء وأرض إلاحركات قد اختلفت كمياتها وكيفياتها وباختلافها نظرناها مناظر مختلفات . ولما كانت كذلك لم نر لها استقرارا فهى سريعة التغير ، فالأرض والكواكب كلها متحركات لاتقف فى مكان لحظة واحدة والإنسان والحيوان والنبات متحركات دائما إما فى نموهن وإما فى ذبولهن وذهابهن من الوجود ، فهذه العوالم التى يعيش الناس فيها كلها متغيرات وتقدم قول أفلاطون إن المادة لاثبات لها فليست تستحق اسم الوجود وليست تصلح مناطا للعلم لأن العلم ثابت والمادة لاثبات لها فكيف يتعلق بها العلم ؟ فاذا كانت هذه الدنيا على هذا النمط ورأتها روح عالية وهى تنظر لها من بعيد فإنها ترى أن هذه الأرض وماحولها أشبه بالنار بل إن باطن الأرض نار وسطحها نار قد دبرت ولكن بأدنى عمل تتقد نارا فالأشجار والنبات والحيوان قابلة للاشتعال والحجارة تتقد نارا بالقدح لأنها جميعها نار تجمدت كباطن الأرض وكقرص الشمس بحسب مايتجلى لنا منها والنارسريعة الحركة لاقرار لها وهذه الروح العظيمة ترى آثار الناس فى أخلاق البهائم والحشرات والإنسان . الناس فى حرب وضرب وعداوات وشهوات وفراق وحزن وموت وحسرات وخصومات . فكل هذه نيران محرقة بل نفس الحب والشوق نوع من الحرارة ، فهذه العوالم تحترق نارا إما ظاهرة وإما باطنة غاية الأمر أن الذين يعيشون فيها لايعلمون أنهم يعيشون فيما يشبه النار وقد غفلوا عنها كما يغفلون عن أنهم يعيشون فى وسط جسم هو الهواء فلا يفطن له إلا العلماء . وهاهنا وصلنا إلى المقصود فلننظر فى هذا الإنسان . هل امتاز عن هذه المخلوقات بشىء ؟

ننظر فنراه — وإن كان متغيرا من صغره إلى كبره — ثابتا ثبات رضوى . يأكل ويشرب ، ويفرح ويحزن ويغتم ويسر ويلد ويولد ويجهل ويعلم ويمرض ويصح ويفتقر ويغتنى ويجتمع ويفترق ويحب ويكره ويعز ويذل ولكن هذه الحوادث كلها تخزن عنده فى خزانة لا هو يعرفها ولا أحد من الناس معه فإنه بعد أن تمر (٨٠) سنة على حادثة رآها فى صغره يصفها وصفا دقيقا كأنه يشاهدها بل إن الكبير السن يكون أنبغ فى الوصف والذكرى حتى وصف فقيل فيه (إنه كنتى) بضم الكاف وسكون النون أعنى أنه يقول كنت وهذه النسبة شاذة لأنها نسبة للفعل مع الفاعل . فهذا الشيخ والهرم يقول كل منهما (كنت فعلت كذا وكذا فى زمان كذا) فمن أين أتى بهذه الأوصاف إلا إذا كانت هذه الروح العجيبة لها خزانة معنوية لا يمكننا إدراكها قد رتبت بها هذه الحوادث وكتبت وأخذ الإنسان ينقل عنها . الأرض والسموات وما على الأرض كلها ألواح ولكنها ليست محفوظة ، فالشجر والماء وظواهر الأرض كلهامتغيرات لاثبات لها . أما هذا الإنسان فإنه لوح محفوظ هو مسجل . هو كتاب يسجل الله فيه الحوادث الأرضية والسماوية تسجيلا جزئيا لا كليا . فهذه ألواح صغيرة جعلت لهذه الأجسام الصغيرة وما هى إلا كسراج صغير من البترول والشحم وشمع العسل والزيت فى أرضنا ، فالمحفوظات والمعلومات المخزونات فيها لاتعدو أنها أشبه بالسراج الذى نوقده فى منازلنا بالزيت أو بالشمع ولاجرم أن سرجنا نورها ضئيل كذلك المعلومات التى عندنا لأن علومنا غير تامة على حسب معدن

هذه النفوس . وهل ضوء البترول كضوء الكواكب والشموس . أفلا نقول على سبيل القياس فى أمثال هذا المقام إن هناك نفوسا أرقى من نفوسنا عقولها وعلومها أشبه بضوء شمسنا مثلا بالنسبة لضوء مصباح البترول فى منازلنا . وبعبارة أخرى إن علومنا بالنسبة لعلوم تلك الأرواح تكون قليلة مختلطة على وزان مصباح البترول الذى هو ليس شيئا إلا أنه من الأرض والأرض من الشمس فتكون أرواحنا مشرقة عليها أرواح أكبر منها عندها علوم أوسع والله فوق الجميع لايعلم علمه أحد ولوحه المحفوظ فوق هذه الألواح كلها فلاهو كلوحنا الضعيف ولا كلوح الأرواح العالية لأنها ضئيلة بالنسبة له تعالى . ثم إن الأرواح العالية المحيطة بعوالمنا لانعرفها إلا بالقياس على أنفسنا قياسا مع الفارق . ثم نقول : إذا كان الأثير الذى هو أصل المادة قويا متينا إلى هذا الحد أفليست أرواحنا والأرواح التى هى أعظم منها أمتن وأمتن من الأثير فالأثير عظيم القوة مع أنه لاثبات له أفلا تكون أرواحنا التى هى ألواح محفوظة أمتن منه وهى باقية بعد الموت ولها محفوظاتها ؟ أقول بعد هذا كله . إخوانى سكان هذه المعمورة من أبناء آدم . أليس لى الحق بعد هذا كله أن أقول إننا جميعا نعيش ونموت وكأننا ألواح يقرؤنا سوانا لانحن ، فنحن مقرئون لاقارئون . نعم نحن نقرأ ألواحا غير محفوظة وهى المخلوقات أمامنا فى كر الغداة ومر العشى ، وهذه المخلوقات منع بقاءها تقلب الشمس وطلوعها من حيث لانحس . فنحن نخزنها وبهذا الحزن تكون أرقى منها . فإذا خزنا هذه المحفوظات عندنا وعلمنا أن المخ والجسم يتغيران كل ثلاث سنين مرة حكمنا وجزمنا أن عندنا لوحا محفوظا حفظ العلوم عندنا والحوادث الجزئية وأن هذا الحفظ ليس يكون بلاعلة والعلة فيه أنه باق فى سطور النفس للانتفاع به إما فى الحياة وإما بعد الموت ثم إننا نلاحظ أن هذا الإنسان كله مقلد لعظمائه سائر على خطواتهم فهو أبدا مقلد التابغين فيه أولمن لهم السيطرة العلمية ، فالقانون أوالصناعة يبرزها واحد فتتبعه أجيال . أفلانقول إن أكثر الناس تابعون لامتبوعون ونقول ماهو أليق بمقامنا . إذا كان أكثر الناس لايعلمون فإن قليلا منهم من تظهر لهم حقائق نفوسهم ويدركون المقصود منها ويعرفون نسبة نفوسهم إلى العوالم وأنها باقية لبقاء معلوماتها . وإنما قل هؤلاء فى الإنسان وقرءوا أنفسهم لأننا أسلفنا أن هذا الإنسان يقل فيه النابغون فى الفنون فأجدر بالندرة من يدرك هذا السر المصون إذن ثبت بالدليل الإقناعى أوالقياس التمثيلى أن النادر من نوع الإنسان من يدرس نفسه ويعرف بعض سرها ويعقل أن الإنسان عالم صغير هوظل للعالم الكبير .

وبهذا وحده يفهم الناس قوله تعالى فى هذه الآية « ثم سواه ونفخ فيه من روحه » فاضافة الروح إلى الله يفسرها ما ذكرناه فى هذا المقام تفسيرا مقدرا بمقدار قصور نفوسنا الأرضية « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم — وأن إلى ربك المنتهى » والحمد لله رب العالمين . كتب قبل وبعد فجر يوم الاثنين ١٦ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الخ ﴾

ورد فى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة التى فيها السجدة فيسجد ويسجدون حتى ماكان أحد يجد مكانا لوضع جبهته فى غير الصلاة » .

وفى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لويعلمون مافى العتمة والصبح لأتوهما ولو حبوا » اهـ .

يقول بعض العلماء « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » نزلت فى انتظار صلاة العتمة . ويقال كانوا يصلون بين المغرب والعشاء وهى صلاة الأوابين . ويقول عطاء لاينام الإنسان حتى يصلى العشاء الأخيرة والفجر فى جماعة .

وفى حديث مسلم « من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ، ومن صلى الصبح فى جماعة فكأنما قام الليل كله » .

هذه أقاويل ولكن أشهرها أن المراد بذلك صلاة الليل ولكل فضل ، ألا ترى إلى حديث مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » وإلى حديث البخارى ومسلم عن عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، فقلت لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال أفلا أكون عبدا شكورا » اه .

ومعنى هذا أن الإنسان يجب أن تكون عبادته لله ليتقرب إليه أى تكون العبادة حبا لاخوفا والشاكر لنعمة صاحب مروءة وهذه هى المحبة فلا معنى لحياة تكون كلها خوفا فيكفى الإنسان من الخوف ما أوجبه الإيمان وليصعد إلى العلوم بالمحبة وأن صلاة الليل تحدث شعورا نورانيا وإشراقا خاصا به تستعد النفوس للعلم والعلم هو المقام الأعلى وبه لقاء الله اه .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن فى الجنة غرفا يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها أعدها الله لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وتابع الصيام وصلى بالليل والناس نيام » أخرجه الترمذى .

وجاء تفسير قوله تعالى « فلا تعلم نفس ماأخفى لهم » الخ من رواية البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تبارك وتعالى أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اقرءوا إن شئتم : فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين » اه .

﴿ اللطيفة الرابعة ﴾

(فى قوله تعالى « أو لم يهد لهم كم أهلكنا » الخ وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء » الخ)

ولقد تقدم فى أول السورة أن (الم) تشير إلى أمر مهم فى السورة وهو النظر فى آثار الأمم وآثار رحمة الله وعلى ذلك تصبح هذه السور المتلاصقة المبدوءة بهذه الحروف (الم) تدعو حثيثا إلى علم الكائنات ونظام الأمم وهذا هو الأمر الذى نام عنه المسلمون وأضاعوا بلادهم وخربوا حصونهم ، فياعجبا لأمة الإسلام الساهية النائمة ، يوبخها الله على ترك النظر فى القرون الخالية وعلى ترك النظر فى الحقول والمزارع والأمة ساهية لاهية نائمة . اللهم إنى شرحت هذا المقام فى السور السابقة . فتبين فى هذا الكتاب نظام الحقول والزهر وعجائب الزرع ليفرح الشبان المسلمون وليحفظوا بلادهم وليرقوها وليتمتعوا بنعمة العلم والحكمة . وكذلك جاء فيه مايفيد النظر فى آثار الأمم السابقة ونظام المدن فى الشرق والغرب . فليعلموا أن أمريكا ذهب أهلها الأولون وأفناهم الأوربيون لأنهم لم يقاوموا تيار المدنية بل المدنية أفنتهم وليس يبقى فى الأرض بعد الآن إلا أمم قوية تعمر أرض الله وتستخرج كنوزها ، فان لم يفعل المسلمون ذلك غضب عليهم غضبة فلا يرضى عليهم بعدها وينقل هذا الدين لقوم آخرين .

أيها المسلمون : كيف يتمتع أهل ألمانيا بجمال الطبيعة وأنتم محرومون ؟ وكيف علمهم الأساتذة فى كتبهم أن يخرجوا صيفا للغابات البعيدة ليكونوا فى الهواء الطلق أياما وأياما ، وكيف يخرجون أيام الثلج المتراكم فى الشتاء إلى الآكام والجبال والقفار المكسوة كسا غليظة من القطع الثلجية ويرون فى هذا سرورا وحبورا وجمالا ، وذلك كله الرجال والنساء على حد سواء . أليس هذا قوله تعالى « قل سيروا فى الأرض » وقوله « أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا » وقوله « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز » فهذا وأمثاله

يشعر بإنعاش النفوس وإخراجها من حضيض النوم والكسل إلى النشاط والجد والعمل . انتهت اللطيفة الرابعة .

﴿ بهجة الحكمة : فى قوله تعالى «وأما الذين فسقوا فمأواهم النار» الخ ﴾

اعلم أن هذه الأرض نار متجمدة ، وكما أن جهنم فيها أماكن باردة وأخرى حارة هكذا أرضنا فكأن أرضنا جهنم مصغرة ، ولقد تبين لى أن الناس فى هذه الأرض معذبون عذابا معجلا وهم لايعلمون أنهم معذبون ، وعذاب الناس فى الدنيا نموذج ومقدمة لعذاب الآخرة ، ألا ترى أن أكثر آيات العذاب فى القرآن جاءت لإهلاك الأمم فى الدنيا بالصواعق والخسف تارة وبالإغريق بالماء وبالإهلاك بالحواصب تارة أخرى .

نسمع الله يقول لنا «أغرقوا فأدخلوا نارا ــ لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» ويقول : «سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

إذن الأرض قطعة من النار متجمدة فعذابها مخفف ملطف ، فإذا مات الناس ظهرت لهم جهنم الحقيقية ألست ترى أن باطن الأرض ملتهب وما هى إلا كالبطيخة سواء بسواء ، فالقشرة التى نعيش عليها كانت نارا فأصبحت جامدة لملاقاتها للجو ، وهذا المقام مستوفى فى غير هذا المكان كسورة (آل عمران) وهذه القشرة تحتها نار متقدة . نعم إن علماء عصرنا قالوا [لكنها مع هذا متجمدة أيضا مع شدة التهابها لشدة ضغط القشرة عليها] مخالفين فى ذلك علماءهم السابقين ، ولقد ذكرت لك هناك أنها وصلت فى حرارتها بمقدار نار الدنيا نحو (٧٠) مرة كما ورد فى الحديث وقلنا إن هذا من آيات النبوة . ولما كان هذا شأن أرضنا ألفينا ماعليها يلتهب متى قربنا منه اللهب كالأشجار والنبات والفحم ، بل الطين نوقد عليه النار فيصير محرقا وتبقى الحرارة كامنة فيه تتقد شررا عند القدح ، وفى الأحجار شرر يستخرج بالقدح . والله يقول « إن الله سريع الحساب » ومن سرعة الحساب ماجاء فى قوله تعالى « سرابيلهم من قطران» وستقرأ فى أول (سورة النبأ) تفصيل الكلام على أن الفحم يستخرج منه القطران . وقد تقدم ذلك أيضا . وهذا القطران قد استخرجت منه أمة الألمان مئات الألوان وهى التى نراها فى الملابس والأزياء وبها تنفق الأموال جزافا فى الأسواق شرقا وغربا للزينة وهذه الزينة هى التى بها استنزفت الثروة ، وبها وحدها استعبد الغربيون الشرقيين ،أولئك الذين جنتهم كجنة المسيخ الدجال ،ظاهرها جنة وباطنها نار. فترى الرجال والنساء يلبسون أفخر الثياب بألوان زاهية من قطران الفحم كاستراه موضحا فى أول (سورة سبأ) كما قلنا ثم يتماديان فى تبذير مالهما ومال الأمة والأفراد فتهلك وتذل بهذه التجارة ، وهذا هو سر حديث الدجال الذى نهينا فيه عن دخول جنته وأمرنا بدخول ناره وأن جنته نار وناره جنة ، ألا ترى أن هذا من سرعة الحساب ؟ وترى أحدنا إذا أكثر من الكلام أو الأكل أو شهوة الفرج أحس بألم فى النفس وهو لايعلم أن ذلك عقاب سريع تفسيرا لقوله تعالى « إن ربك لسريع العقاب » وهذا العقاب السريع تذكرة بالعقاب الكبير وهو مخفف سبعين مرة ، فلئن عذب الناس بهذا العذاب الخفيف فى الدنيا فهذا سينمو فيكون سبعين ضعفا أو نحوها كما فى الحديث .

وأذكرك بما نقلته عن نابغة الهند (غاندى) الزعيم الشهير فى آخر (آل عمران) وفى خلال (سورة النساء) من أن التجارة هى التى بها هلك أهل الشرق واستعبدوا وأن الاستقلال فى السياسة مع الاستعباد بالتجارة لاثبات له وفى استعباد التجارة الذل والهلاك ألا ترى أن هذه الآراء فى زماننا تفسير لقول الله تعالى « إن ربك سريع العقاب » ولقوله « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

ومما يحجلنى أن أمتنا المصرية أكثر الأمم ولوجا لنار الفرنجة بالتغالى والتهافت على الزينة والترف، وهاهم

أولاء أخذوا يفكرون فى الخلاص من ذل التجارة وذل الاحتلال اللذين هما العقاب السريع الذى يعقبه عذاب أشد «والله غفور رحيم» .

عجب أن تكون النار والماء عليهما حياتنا وسعادتنا، فلولا الحرارة فى أرضنا ولولا الماء فيها ما عشنا طرفة عين فبامتزاج الحرارة الشمسية والماء تنمو نحن وينمو نباتنا ولكن الماء إذا طغى علينا أهلكنا والنار إذا طغت تحرقنا . فما به الحياة هو نفسه به الهلاك ، إذا لم يكن ماء كان القحط وإذا لم تكن حرارة معتدلة كان البرد المهلك فباعتدال الحرارة والماء نعيش وبالإفراط والتفريط فيهما نهلك عذاب الأمم فى القرآن بالإغراق أو بالصواعق فهل من عجب إذا كانت أصباغ القطران وهى الألوان فى التجارة اليوم من أنواع العذاب المعجلة لما فيها من الإفراط والإسراف الذى يزيد النفوس حسرة على ما لا ينالون من تلك الملابس فيبذرون أموالهم فيذلون ثم يستعبدون أفرادا وأمما . انتهى ليلة الخميس قبل الفجر فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ م .

﴿ خاتمة السورة ﴾

(فى مناسبة السورة لما قبلها ، وفى أن ما نكتبه فى هذا التفسير هو من مقصود القرآن وبعض أسراره التى ظهر بعضها ، وسيظهر أكثر من هذا بعد مفارقتنا هذه الدار على أيدى قوم أبرار)

اعلم أيها الذكى أن الله قد جعل سورة السجدة بعد لقمان تذكيرا لنا بأن سعادة الدنيا والآخرة لن تتم إلا بالعلم أولا والعمل ثانيا على ترتيب (سورة الفاتحة) فأولها ذكر العوالم وهو العلم وآخرها العبادة والهداية وهو العمل فلقمان كأول الفاتحة والسجدة كآخرها ، فالعلم أجله علم الحكمة ولقمان حكيم ، وقد شرحت مجمل الحكمة هناك ، وأما العمل فمن أعمه السجود الذى وردت فيه أحاديث كثيرة فانظر ما جاء فى (الإحياء) تحت عنوان (فضيلة السجود) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما تقرب العبد من ربه إلى الله بشىء أفضل من سجود خفى» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة» وروى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة . فقال صلى الله عليه وسلم ، أعنى بكثرة السجود» وقيل «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا» وهو معنى قوله عز وجل «واسجد واقترب» وقال عز وجل «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود» وهو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ، وقيل هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء ، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار» .

وروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد ، وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن أسباط يقول : يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شىء من الدنيا إلا على السجود . وقال عقبة بن مسلم : ما من خصلة فى العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجدا .

هذا نص ما جاء فى الإحياء ومعلوم أن فى الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف فى فضائل الأعمال ، انتهى والله أعلم .

فلما اطلع على هذا صاحبى قال يا سبحان الله . نعم هذا حسن ولكنه حسن فى ذاته . أما هذا التطويل فى التفسير فليس تفسيرا بل هو علم وخير لك أن تقول هذا كتاب علوم لا كتاب لتفسير القرآن . فقلت بل هذا تفسير . فقال قل ما تشاء ولكنى على رأيى . فقلت انظر أيها الأخ إلى نظام الطبيعة . أليس هذا النوع

الإنسانى ؟ كما تعمق فيه أتى بفوائد جميلة ، نحن كنا نكتفى بركوب الدواب فتعمقنا فى بحث المادة فاستخرجنا الكهرباء والمغناطيس فكانت أنفع لنا فنفعنا ، وهكذا اللاحق من المنافع الطبيعية أشرف وأرقى من السابق وأعم نفعا فقال أتريد بهذا أن تطويلك فى التفسير وإدخالك عجائب الجسم الإنسانى والروح فيه وانتظامها ومشابهتها الكواكب والمنازل والعوالم الأربعة وهى الأرضية وما فوقها . وما خلق فوق الأرض من معدن ونبات الخ . أتريد بهذا أن تقول إن هذا التطويل وشرح العوالم كلها وقياسها على جسم الإنسان ثم العروج من ذلك كله إلى معرفة عظمة الله فى ملكه التى شرحتها آنفا . أقول أتريد أن هذا العمل منك خير من الاقتصار على التفسير اللفظى للقرآن وفهم بلاغته وصرفه ونحوه ورد الاعتراضات الواردة فى مصطلحات العلوم على الآيات ، ثم إنك تجعل هذا كله تفسيرا لقوله تعالى « الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » .

فإذا كان هذا رأيك ، وأن مافعلته أنت أفضل من غيره مما ذكرته لك وأن نسبة هذا القول منك إلى نظام التفسير اللفظى وما يحيط به فيما تقدم كنسبة نور الكهرباء ومنافع الآلات الحديثة إلى آلاتنا القديمة وأدواتنا الموروثة . أقول إذا كان هذا رأيك فلتعلم أنى خالفتك وجميع المسلمين على خط مستقيم . ياعجبا لك وألف عجب ، عندى على رد قولك ألف دليل ودليل . ألم تسمع ماقيل : وخير ما فسرته بالوارد : أين أنت من تفسير الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين والعلماء والمجتهدين . ألم تعلم أن التفسير بالرأى ممنوع ، أنت مفسر بالرأى لاغير والله شهيد على ماأقول . فوالله إذا أنا كتمت هذا فلينطقن به كل الناطقين بالضاد ولتعلمن نبأه قريبا وبعد حين والله هو الولى الحميد .

فقلت له : أولو جئتك بشئ مبين ، فقال وأى بيان بعد وأنى لك أن تدحض هذه الحجج الدامغة ولكن سأسمع ماتقول ، فإن كانت لديك حجج فأت بها إن كنت من الصادقين ، فقلت سألخص لك ماجاء فى (الإحياء) فى [الباب الرابع فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل] وإن كان قد تقدم بعضه فى هذا التفسير ، فقال لابأس بإرادته ، فقلت هذا نص ماقاله :

لعلك تقول عظمت الأمر فيما سبق فى فهم أسرار القرآن ومايتكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف فى تأويل كلمات فى القرآن على خلاف مانقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر ، فإن صح ماقاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ، وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » فاعلم أن من زعم أن لامعنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب فى الإخبار عن نفسه ولكنه مخطئ فى الحكم برد الحق كافة إلى درجته التى هى حده ومحطه ، بل الأخبار والآثار تدل على أن فى معانى القرآن متسعا لأرباب الفهم . قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبدا فهما فى القرآن ، فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « إن القرآن ظهرا وبطنا وحدا ومطلعا » ويروى أيضا عن ابن مسعود موقوفا عليه وهو من علماء التفسير فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع . وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فما معناه ؟ وتفسير ظاهرها فى غاية الاختصار ، وقال أبو الدرداء : لايفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم ومابقى من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف . إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع . وترديد رسول الله صلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » عشرين مرة لايكون إلا لتدبره باطن

معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لايحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن ، وذلك لايحصل بمجرد تفسير الظاهر .

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته وهذه العلوم لانهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها والمقامات فى التعمق فى تفصيله راجع إلى فهم القرآن ومجرد ظاهر التفسير لايشير إلى ذلك بل كل ماأشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق فى النظريات والمعقولات ففى القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفى بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «اقرؤا القرآن والتمسوا غرائبه» وقال صلى الله عليه وسلم فى حديث على كرم الله وجهه «والذى بعثنى بالحق نبيا لتفترقن أمتى عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار ، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ مايأتى بعدكم وحكم مابينكم من خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه لايعوج فيقوم ولايزيغ فيستقيم ولاتنقضى عجائبه ولايخلقه كثرة الترديد » الحديث.

وفى حديث حذيفة «لما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال فقلت يارسول الله فماذا تأمرنى إن أدركت ذلك؟ فقال: تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال فأعدت عليه ذلك ثلاثا فقال صلى الله عليه وسلم ثلاثا تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بمافيه ففيه النجاة » وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جمل العلم . أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها. وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا» يعنى الفهم فى القرآن. وقال عز وجل «ففهمناهاسليمان وكلا آتينا حكما وعلما» سمى ما آتاهما علما وحكما وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدما على الحكم والعلم ، فهذه الأمور تدل على أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فأما قوله صلى الله عليه وسلم «من فسر القرآن برأيه» ونهيه عنه صلى الله عليه وسلم وقول أبى بكر رضى الله عنه: أى أرض تقلنى وأى سماء تظلنى إذاقلت فى القرآن برأيى، إلى غير ذلك مماورد فى الأخبار والآثار فى النهى عن تفسير القرآن بالرأى فلايخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم، أوالمراد به أمرا آخر وباطل قطعا أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه لوجوه (أحدها) أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسندا إليه وذلك مما لايصادف إلا فى بعض القرآن ، فأما مايقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغى أن لايقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذا غيرهم من الصحابة رضى الله عنهم (والثانى) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا فى تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لايمكن الجمع بينها وسماع جميعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم محال ولو كان الواحد مسموعا لرد الباقى فتبين على القطع أن كل مفسر قال فى المعنى بما ظهر له باستنباطه حتى قالوا فى الحروف التى فى أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لايمكن الجمع بينها فقيل إن (الر) هى حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غيرذلك والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعا (والثالث) أنه صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنهما وقال «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فإن كان التأويل مسموعا كالتنزيل ومحفوظا مثله فما معنى تخصيصه بذلك (والرابع) أنه قال عز وجل «لعلمه الذين يستنبطونه منهم » فأثبت لأهل العلم استنباطا . ومعلوم أنه وراء السماع . وجملة مانقلناه من الآثار فى فهم القرآن يناقض هذا الخيال ، فبطل أن يشترط السماع فى التأويل وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله .

وأما

وأما النهي فإنه ينزل على أحد (وجهين: أحدهما) أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى، وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه ، وتارة يكون مع الجهل ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه فيكون قد فسر برأيه أي رأيه هو الذي حمل على ذلك التفسير ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه ، وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار فيستدل بقوله صلى الله عليه وسلم «تسحروا فإن في السحور بركة» ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله عز وجل « اذهب إلى فرعون إنه طغى » ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون ، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للكلام وترغيبا للمستمع وهو ممنوع وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعا أنها غير مرادة به ، فهذه الفنون (أحد وجهي المنع) من التفسير بالرأي ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي (والوجه الثاني) أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي ، فالنقل والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير أولا ليتقي به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة] اهـ .

فلما سمع صاحبي ذلك قال والله لقد أجبت بعلم وفهم . فقلت إذن أقول لك ما وقر في نفسي منذ أيام الصبا ذلك أني رأيت هذه الأمم الإسلامية كثيرة الاختلاف ، وقد ظنوا أن هذا الخلاف يفصل بينهم فقلت في نفسي إن التفسير على هذا النمط يكون أشبه بالقدر طبخت فيه جميع المذاهب ، فهل يقدر الشافعي أو الحنفي أو الحنبلي أو الشيعي أو الزيدي بل والبهائي والأحمدي . أقول هل يقدر أحد من هؤلاء أن يقول إن عجائب صنع الله عز وجل وجمال حكمته تناقض مذهبه ؟ كلا ثم كلا . ألست توافقني وأنا منشرح الصدر مبتهج النفس موقن بما أقول إن أمثال هذا التفسير مما يكتبه العقلاء في الإسلام اليوم أشبه بما جاء في حديث حذيفة إذ يقول له صلى الله عليه وسلم «تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك» ولما أعاد عليه ثلاثا الحديث أعاد اليه الجواب ثلاثا وذلك في مقام المخرج من الاختلاف والفرقة ، فإذا رأينا المسلمين اليوم مفترقين فإنا نقول هذا الافتراق وهم . فهاهو ذا القرآن فوق مذاهبكم ؛ فالحق والحق أقول : إنني واثق بما أقول موقن أن الله عز وجل أراد ارتقاء هذه الأمة ولم شعثها وستجتمع قلوب المسلمين على أمثال هذه المعاني في أمثال هذا التفسير ، فقال هذا البيان قد شرح صدري . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة السجدة .

(تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الخامس عشر من كتاب (الجواهر) في تفسير القرآن الكريم

ويليه

الجزء السادس عشر : وأوله تفسير سورة الأحزاب

فهرس

الجزء الخامس عشر

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء السادس عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

عباشرة محمد أمين عمران

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »
« قرآن كريم »

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأحزاب

(هى مدنية)

(وآياتها ثلاث وسبعون . نزلت بعد آل عمران)

وهى ثلاثة أقسام

[القسم الأول] فى تفسير البسملة .

[القسم الثانى] فى مقدمة السورة ، وفى مناسبتها لما قبلها ، وفى غزوة الأحزاب من أول السورة إلى قوله تعالى «وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا» .

[القسم الثالث] فى أحكام أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وما أشبه ذلك من قوله تعالى «يأيها النبى قل لأزواجك» إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

سأذكر هنا تفسيرها من وجهين : الوجه الأول بيان كيف كانت الرحمة فيما ملخص سورة السجدة السابقة على هذه لتوازن الرحمة فيما هناك بالرحمة فى هذه السورة وأن ذكرها فى أول كل منهما لمناسبة الرحمة التى جاءت فى أثناء آيات السورة وما قدمناه فى أول سورة السجدة فى تفسير البسملة لم نذكر فيه بيان هذا المعنى ، بل ذكرنا هناك أولا الفرق بين صفة العبد وصفة الرب وضربنا مثلا بالبترول والشمس وأبنا الرحمة فى الحقول والطيور والأنعام والأشجار فى البر والبحر ومعانى أسماء الله الحسنى فى نفس الحقول ، وأن الانسان يدهش من عجائب المادة ، وأن الشرور كلها مقدمات للرحمات ، وأن الشرور لم تكن إلا بالقصد الثانى لا الأول ، وأن العداوات وامتلاء الجو بالمواد الفاسدة إنما ذلك ليتفرق الناس على الأرض فتكون الحياة والسعادة هذا هو الذى تقدم فى تفسير البسملة فى سورة السجدة . ولما تم الكلام على سورة السجدة وجب أن نبين

كيف

كيف كانت الرحمة فى البسملة مثيرة لما فيها من الرحمات والنعم ، لذلك نقول :

تقدم فى تفسير البسملة فى أول سورة الروم ماتبتهج به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، وتطمئن له الألباب من الحكمة العجيبة والآيات البديعة إذ استبان هناك أن آلام الكسر والضرب وآلام الجرح والجوع وآلام سائر الأمراض إن هى إلا مذكرات ومنبهات لما يجب عمله من الدواء والغذاء .

وأقول الآن : إن ذلك البيان هناك مناسب لاعتباره قتال الأمم فى تلك السورة جراحا وأمراضا لها .

وتقدم فى سورة لقمان فى تفسير البسملة هناك أن للعقول آلاما وأمراضا كما للأجسام فكما أن الأجسام فى ذوبان وسيلان مستمر هكذا العقول مضطربات اضطراب الأجسام ، فالجسم والروح فرسا رهان فى الذوبان واللاشاة والأغذية والأدوية للأجسام والعلوم الكونية أغذية الروح وعلوم الأخلاق وتهذيب النفوس أدويتها وهذا هو الذى جاء فى سورة لقمان ، أما فى سورة السجدة المتقدمة فانى أقول ماياسب ماجاء فيها من الرحمات . ابتدأ سبحانه بذكر أن الكتاب لاريب فيه ، وبذكر خلق العوالم فى أيام معدودات . ثم إنه أخذ يدبر تدبير الملك المستوى على عرشه ، لرعيته العظيم الجلال فلا يعوزه نصير وليس لشفيع عنده مقام إلا باذنه ، واسع العلم وقد استوى عنده الباطن والظاهر والغائب والحاضر ، بخلاف ملوك الأرض فهم لايعلمون الغيب ، وهو غالب قاهر عزيز الجانب . ذو رحمة واسعة ، لم يدع فى ملكه مخلوقا إلا أحسن صورته وزوقه وجنده وسواه ، ومن أعجب العجب أن هذا الإنسان البديع الصنع ، الجميل الوجه ، الواسع العقل ، الحسن الإتقان ، لم يكن إلا من طين وذلك الطين عجن بماء وامتزج به الهواء والنور وعناصر كثيرة ، وبإرسال أنوار الكواكب المشرقات وأهمها الشمس ودورانها حالا بعد حال ، سويت خلقته ونظمت أعضاؤه ، فالسموات والأرض المذكورات فى أول السورة ودوران الكواكب بتدبير من استوى على عرشها ، ذلك كله مقدمات وأسباب جعلت لإبداع النظام وإظهار الحسن والجمال فى صور الانسان ، ومن هذه الأجسام الانسانية اتخذت خلاصة مائية بها كان النسل أجيالا وأجيالا ، ومن أبدع مافى تلك الصورة الانسانية الحواس التى جعلت فى هذه الأجسام فى مقابلة الكواكب فى السماء ، فالكواكب تشرق بنورها فتضىء السبل والحواس بها يمتاز الظلام من النور والحلو من المر والطيب من الخبيث . فتدبير الملك المستوى على عرش هذه الأكوان قضى أن يكون فى جسم الإنسان نظير مافى الجسم العام . الجسم الكلى مشرق بالنور وبالأرواح العالية وهذا الجسم الحيوانى والانسانى له مشرقات مبينات لما هو فى حاجة اليه ومن أهمها الأسماع والأبصار .

ولا عجب فى ذلك فان الأصول تتبعها الفروع ، فكما كان فى الكواكب أنوار هكذا فى أرضنا أنوار : إما من الأرض بالبترول والغاز ، وإما من النبات كالزيت ، وإما من الحيوان كالشمع والشحم ، وإما من الكهرباء وهكذا ، فهذه أنوار جزئية تحاكى الأنوار الكلية المشرقة من الشمس . فهنا شابه الفرع وهى الأرض أصله وهى الشمس بعض المشابهة ، وهكذا مافى الأرض من صناعة غالبا إلا وهى فى حاجة إلى آلات بدورات كما تدور الأرض حول الشمس . الأرض تدور حول الشمس كما تدور الشموس ، وتدور حول نفسها لتقتبس الأنوار منها ليحيا ماعليها ؛ فهكذا ترى الإنسان يدير نواعير وسواقى وعجلات القطر الجاريات فى الطرق الحديدية وعجلات أخرى فى آلات الحرث والطحن والدرس والخياطة ، وهكذا جميع أحوال الحياة آلاتها كلها دائرات دوران الأرض حول نفسها ، فالأرض تدور لأجل استمداد الحياة لما عليها والآلات تدور لإكمال تلك الحياة بالصناعات المختلفات ، إذن لاعجب إذا قلنا إن فى جسم الإنسان والحيوان حواس مشاكلة لما فى السماء ، ولكن المشاكلة هنا لحواس الملائكة . ومعنى هذا أن الأرض كما كان فيها أنوار كأنوار الشمس تضىء بالليل كالكهرباء ، هكذا فيها نفوس تدبرات لها حواس مشاكلة لما فى تلك العوالم الكوكبية من ملائكة

مدبرات لها ، وكل هذه المعانى تؤخذ من قوله تعالى «يدبر الأمر من السماء إلى الأرض» فهناك شموس مدورات دائرات تديرها أرواح عالية أضواؤها منتشرة لإيجاد وإسعاد مخلوقات على أمثال أرضنا هكذا هنا مصابيح كما تقدم ونفوس بنى آدم مدبرات وآلات مدورات دائرات لإحداث صنائع ، فالتدبير الثانى يشبه التدبير الأول فالتدبير إذن من السماء إلى الأرض .

ومن عرف الأنوار الكلية فى السموات والأنوار الجزئية فى الأرض وفى جسم الإنسان فهو حرىّ أن يشكر مبدعها بالعلم والحكمة أولا ثم بالعمل بحيث يكون هو نفسه مشرق نور للناس نافعا لهم وإلا لكانت روحه أدنى مرتبة وأخس من حاسة من حواسه التى تبين له ماهى منوطة به من الفرق بين الحر والبرد والمر والحلو الخ .

ومما يدهش له اللب وتحار فيه العقول أن هذا النوع الانسانى قليل الشكر لجهله بهذه النعم وغفلته التامة عن هذا الابداع ، وقد ظن هذا الجهول أننا خلقناه وخلقنا السموات والأرض عبثا بلا فائدة . كلا . فالمقدمات لها نتائجها فاذا أنكر البعث فذلك لضلاله ، وسيقف هذا المسكين خاضعا ذليلا خاشعا أمام خالقه وهو كليل الطرف حسير ، وهناك يقول: ها أنا ذا أبصرت وسمعت فارجعنى لأعمل صالحا ، ولكن ليعلم الناس أنى وضعت كلا فى مركزه وجعلت له سبيلا يسلكها وطريقا يسير فيها ، فالمؤمن نفسه استعدت للإيمان والكافر لا يخالف استعداده وأنا عدل أمنح كل امرىء فيما استعد له ، ولو كان هذا ظلما لكانت المعدة والأحشاء فى الحيوان مظلومة بالنسبة للحواس . كلا . فلكل رتبة وخاصة بها انتظم العالم ، وللمؤمنين علامات منها أنهم يحبوننى ولذلك يودون أن تزاح الأستار بينى وبينهم فلذلك يقومون بالليل ليناجونى وهناك أعطيهم فى حال التهجد أنوارا وأسرارا وحبا لا يعرفه سواهم ، وقد أخفيت لهم مالا يعلمه أحد ، بخلاف أصحاب النار وهذا قانون عام فى الأمم . ويقول: ألم تر إلى بنى اسرائيل وقد كان منهم هداة صبروا فنالوا إذ أيقنوا .

فلما اطلع على هذا صاحبى العالم قال حسن مااختصت به أكثر هذه السورة ولكن أين أهم مايدور البحث عليه فيها . قلت: ثلاث مسائل: تسوية خلق الإنسان وموته وبعثه ، ولا جرم أن هذه الثلاث متلاحقات متصلات آخذ بعضها برقاب بعض . فلأحدثك عن التسوية أولا ثم عن أخواتها ، الله أكبر ، هاهو ذا جسمى مم ركب ؟ أهمّ ماركب منه الفحم والأكسوجين والهيدروجين والنيتروجين وهو الأوزوت ، هذه الأربع أعمدة تقام عليها هياكل كل حيوان ونبات فى الأرض وما هو الفحم (الكربون) ؟ إن هو إلا جسم إذا عرضناه للنار اتحد مع الأكسوجين فأصبحا جسما غازيا يشبه الهواء فى أنه غاز ولا يشبهه فى طبعه فهو جسم سامّ محرق ، وأما الأكسوجين فهو جسم غازى يشبه الهواء من حيث هيئته ولا يشبهه من حيث طبعه ، فادخل أى معمل من معامل الطبيعة فى الشرق والغرب وقل لهم أرونى الأكسوجين فحينئذ يرونك زجاجات فيها غاز كالهواء تماما . فهنالك إذا أوقدت شمعة وأدخلتها فى زجاجة من تلك الزجاجات اتقدت حالا وأضاءت ضوءا مشرقا وإذا أدخلت هذه الشمعة المتقدة فى قارورة لاشىء فيها سوى الهواء فإنها يقل ضوءها لا أنه يزدهى كما هى الحال فى زجاجة الأكسوجين ، وأما الهيدروجين فهو شفاف كالأكسوجين ولكنه أخف منه بل أخف من جميع العناصر المعروفة ومتى اتحد بالأكسوجين تكوّن الماء ، وأما النيتروجين فهو مثلهما معا من حيث إنه غاز شفاف ولكن خواصه تخالفهما معا . وإذا اتحد بالأكسوجين تكون من اتحادهما حوامض شديدة الفعل ومن أهمها وأعظمها (الحامض النتريك) أى ماء الفضة أى الذى يذيب الفضة ويذيب أكثر المعادن ويميت الأنسجة الحيوانية والنباتية ، هذا هو النيتروجين فهو باتحاده مع الأكسوجين يكون متلفا مهلكا بخلاف الهيدروجين فإنه باتحاده مع الأكسوجين يعطى الحياة وذلك هو الماء : الله أكبر

سبحانك

سبحانك اللهم خلقتنا وعلمتنا من أجمل التعليم ، فاذا سمعنا فى الآثار أن لله ملكا نصف جسمه من ثلج ونصفه من نار فلا الثلج يطفئ النار ولا النار تذيب الثلج ، فهاهى ذه أجسامنا معاشر أهل الأرض فيها عناصر منها مايهلك ومنها مايحيي وهى مجتمعات فى جسمي ، ولا جرم أن شرط الاحياء والاماتة موجود وهو الاتحاد ، فهذه العناصر الأربعة متحدة فى جسمى . فالأكسوجين متحد بالأيدروجين وبهما معا كان الماء فى جسمى والنيتروجين متحد بالأكسوجين وبهما معا ماء الفضة ، وهذا هو الكنز الذى كشفه الألمان أيام الحرب العظمى فإنهم استعملوا هذا المركب وهو (حامض النيتريك) فى المفرقعات والمهلكات فى الحرب ثم حولوا ذلك كله بعد الحرب إلى سماد .

عجبا يارب ، جسمى فيه مابه الحياة وهو الماء من أكسوجين وأودروجين ، وجسمى فيه مابه الموت وهو الأكسوجين المتحد مع النيتروجين فكان منهما ماء الفضة وهو (حامض النيتريك) ذلك المهلك المميت مخرب الحصون والقلاع ثم إنه يحول إلى سماد فيكون مصلحا للزرع جالبا للرزق ، وهاك ملخص تلك المركبات :

(١) الأكسوجين مع الهيدروجين يكون منهما الماء .
(٢) الأكسوجين مع النيتروجين يكون منهما ماء الفضة .
(٣) الأكسوجين مع الفحم يكون منهما غاز سام .
(٤) الهيدروجين بالكربون يتكون منهما غاز قابل للاشتعال .

فليس فى هذه المتحدات مافيه حياة إلا حال واحدة وهى اتحاد الأكسوجين بالأودروجين والبقية مهلكة سامة محرقة ، فلما اجتمعت الأربعة حدث منها أمر عجب . حدثت حياة دائمة بالتناسل والنظام المدهش ، فياعجبا تسوية وانتظام وإبداع وبهجة منظر وحسن اتساق نشأ كله من مواد سامة مهلكة : إذن الحياة مشتقة مما به الموت . فياللعجب غازات سامة تتحد وتتكاثف فتصير أشكالا منظمة فيها عقول منظمة لهذا العالم ، هذه تسوية الإنسان وهذا قوله تعالى «ثم سواه ونفخ فيه من روحه» وأنا أيها الذكى بعد هذا البيان لم أعطك سرا ما من أسرار التكوين لأن ذلك السر لم أطلع عليه ولو اطلعت عليه لمنعت من إفشائه لك لأنه فوق متناول العقول . فما علاقة الروح الحية المشرقة النور المنبعثة من جانب ذى الجلال القدسى بهذه المواد السامة وأى شئ هو غاز الاكسوجين والادروجين والاوزت والفحم حتى تطمئن النفس فيها وتسكن . سبحان من علمنا وأطلعنا على عجائب أجسامنا ، أنا أكتب هذه الساعة وأنا أعجب من جسمى المجموع من أجسام هوائية غازية لا تستقر على حال مهلكة ، فيا أيتها الروح الساكنة فى جسمى هاأنا ذا أخاطبك وأنا القائل وأنا السامع لأن لى لسانا ولى أذنين ، فأنا القائل باللسان وأنا السامع بالأذن . فأقول لك أنت لست من هذا العالم ، انه عالم مضطرب قد استقررت فى هذا الجسم المضطربة المتنبهة أجزاؤه ، وهل هو إلا تلك العناصر المرقعة المهلكة جندرتها ونظمتها يد قاهرة غالبة إلى حين ثم ترجع هذه العناصر إلى حالها مع جنسها ، ثم بك أنت ترجعين إلى عالمك تستقرين هناك فسمعك وبصرك اللذان جعلا لك ماهما إلا بصيص نور من نورك تـ ـقنا. لك فى الأرض وتمام نورك يكون بعد الموت ، ألم تسمعى قوله تعالى «وجعل لكم السمع والأبصار» الخ وقوله حكاية عن الأرواح فى تلك الحال إذ تقول « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » إذن سمعك وبصرك الآن ليسا كسمعك وبصرك هناك ، فالسمع والبصر هناك يورثان اليقين لأن السمع أتم والبصر أتم لانتزاعهما من هذه العناصر المتشاكسة المتحاربة المهلكة .

هذه ياروحى أسرار ماتحسين فيك من اللذة والألم . والألم واللذة إحساسان ناريان . تألمين بالجوع وبالعطش

وبإيذاء الأعداء وبالأمراض وتستلذين بالغذاء والماء والنصر المبين ، وما اللذة والألم إلا لغتان من اللغات التى أنزلت فى هذه الأجسام وهما نطق وإفصاح أصرح وأبين من إفصاح اللسان ، اجتمعت هذه العناصر فى جسمى وأسكنت فيها فأخذت هذه العناصر تنطق لك بنطق فصيح بعد أن كانت بكماء خرساء وهى ملقاة فى الأرض . فقالت لك تارة احذرى البرد وتارة أخرى احذرى الحر ، فاحساسك بالبرد نطق أفصح من نطق اللسان وإحساسك بالحر كذلك ، وهكذا ذوقك الطعام والشراب واستلذاذك بهما إفصاح وتبيان لك .

فبهذا استبان أن كل ذلك رحمات لأنها بيان وكلام ، فاللذة كلام والألم كلام وجميع النقم والنعم والموت والحياة كلها كلمات مفصحات مبينات مذكرات . وأى رحمة أجل من الذكرى والبيان إن حياتنا كلها رحمة استوى فيها الألم واللذة وموتنا رحمة لاخراجنا من هذه المواد المضطربة ، هذا هو بعض سر التسمية فى أول هذه السورة ، فهذه العوالم فى جسمك وفى خارجه ناطقات اليوم مفصحات مبينات ، ألم تقرأ «قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء» هذا نوع من النطق ، نطق جاء من الكائنات بلا حرف ولا صوت ونحن نسمعه لامن طريق الأذن بل نسمعه من سائر أجسامنا .

اللهم إنك علمتنا وأريتنا نطق المخلوقات ، وأفهمتنا نزرا يسيرا من كتابك وفهمنا ذلك الكلام الصحيح الذى أودعته فى أجسامنا وفى الطبيعة وأدركنا بعض سر مانطقت به الجلود والأيدى والأرجل إذ يقال للجلود «لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء» فهاهى ذه الأشياء تنطق للبار والفاجر منا وكل يسمع ذلك النطق ولكن لايعقله إلا الأقلون . وهذا سر قولك «قليلا ماتشكرون» .

لا يحيط بما تنطق به هذه العناصر إلا أرواح أرقى من أرواحنا القاصرة لأنها أرواح جزئية فلذلك احتجنا لمن يذكروننا من الأنبياء ولمن يعلموننا من الحكماء ولمن يداوون أجسامنا من الأطباء وهكذا فتختص كل طائفة بعمل عسى أن يقربوا من الكمال وماهم ببالغيه فى هذه الأرض فكان لابد عندنا من كل علم ولابد من طوائف تخصص لها ، كما أنه لابد بعد الموت من نفوس أعلى منا تقرأ نفوسنا وأخلاقنا وتعاملنا على مقتضى ذلك فى تلك الدار بأمر خالقها وعلمها بسبب ضعفنا عن الاستيعاب لأننا محبوسون فى أقفاص نارية حمية منعتنا عن تمام الحرية والاستقلال ، ومنا فى هذه الأرض من اختصوا بدرس الجلود والأيدى فعرفوا مسامها وخطوطها فشهدت على المجرمين فى هذه الحياة الدنيا كما تقدم فى هذا التفسير . وهذا أمر شائع فى جميع حكومات العالم ومنها حكومتنا المصرية . شهدت جلودنا فى حياتنا الدنيا ، وشهدت خطوط أيدينا وذلك من التسوية العجيبة . أليس أمر هذا القرآن عجبا ؟ يذكر التسوية فى خلق الانسان هنا ويذكرها فى (سورة القيامة) فى قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوى بنانه» ويقرأ هذه الآية أحد علماء الألمان فى هذه السنين فيسأل لم أسلمت أيها العالم ؟ فيجيب قائلا قرأت فى القرآن المنزل على ذلك النبى العربى الأمى « بلى قادرين على أن نسوى بنانه » وقد أصبحت جميع الحكومات لايستقر قرار الأمن فيها إلا بدراسة نظام البنان ومسامه ، ولم يجد الناس رجلين فى الكرة الأرضية تتشابه أناملهما فى مسامها ونظامها ، فلم اختص البنان بالذكر وعلم البنان ، لم يكن ليعرفه الناس إذ ذاك ولم تدركه الحكومات السابقة ؟ بل لو عرفوا ذلك لم يعرفه أهل الحجاز ومنهم هذا النبى الأمى ، فهذا القول إنما جاء من مصدر أعلى من عقولنا التى فى الأرض فلذلك آمنت به وصدقت . انتهى كلامه .

وهذا الإفصاح والبيان من العناصر فى أجسامنا يدخل فيه جميع خواص العقاقير فى الأدوية ونواميس الوجود فاذا خرجنا من هذه المادة أشرقت عقولنا وظهرت لها الحقائق على ماهى عليه كل على قدر طاقته الفاجر والصالح

وهذا قوله « ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون » أى أما فى الحياة فانا كنا محجوبين ولم ندرك سر الوجود ولذلك يقال هناك أيضا «فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ويقال «اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

هذه شذرة من قصة هذا الإنسان ومبدأ خلقه وأحواله وموته وبعثه ، والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ٦ من شهر نوفمبر سنة ١٩٢٩ ميلادية .

انتهى الكلام على البسملة مع تلخيص سورة السجدة .

فلننظر فى الكلام الآن على تفسير البسملة فى أول (الأحزاب) للموازنة بين السورتين من حيث الرحمة التى تضمنتها البسملة وتخللت آيات السورة .

لقد تكررت البسملة فى أول كل السورة ودرج المسلمون قديما وحديثا على التسمية فى طعامهم وشرابهم ثلثمائة وألف سنة ، فترى جهلاءهم وعلماءهم كبارهم وصغارهم لايعملون عملا إلا بالتسمية ، سنة محمدية وشريعة إسلامية طلبا لثواب الله وتقربا إليه وزلفى لديه ، فتلك سنة من خير السنن ، وخصلة من أجل الخصال .

لقد تقدم الكلام على البسملة فى الفاتحة وفى غيرها من السور مثل (الروم ولقمان والسجدة) ولكن بقى لها جهة لابد من تداركها . وحكمة يجب إظهارها ، ونعمة حق على إبدائها لهذه الأمة المسكينة المضطهدة لفشو الجهالة وظهور الخطل فى آراء عامتها ، والغفلة فى نظام دراستها ، والنوم على التقليد الأعمى ، وتخيؤ ظل الكسل والجهل المبين الذى هو من يحموم لابارد ولا كريم . أبت النبوة المحمدية الشريفة أن تذرنا نتخبط فى ديجور الظلام فعلمتنا أن الأعمال لا تصح إلا بالنيات وأن لكل امرئ مانوى ، وما هى النية ؟ هى ربيبة العلم ووليدة الفهم فمن تعلم فهم ومن فهم أحب ومن أحب الكمال ومحاسن الفضائل شاقته ومن اشتاق هم بالعمل ونواه وهناك تكون الأعمال على مقتضى تلك النيات والمعارف السابقات ، فليس فى مجرد التسمية بلاعلم بمواطن الرحمات ومحاسن الجمال فى المخلوقات وبهجة العوالم الربانية والآيات الحكمية والابداع وحسن التصوير والتنسيق ، منتهى مقاصد النبوة ولا يبلغ ما تريده من العلماء العاملين . لئن اكتفينا من العامى فى صلاته وصيامه ومأكله ومشربه بالتسمية والحمدلة اللفظيين لنقولن لعلماء الأمة وعقلائها ونابغيها ليكن الدرس وأعمال الفكر ومعرفة الجمال فى هذه العوالم حتى توقنوا بالرحمات إيقانا علميا تفصيليا كالذى فى هذا التفسير .

علم الله أن المسلمين سينامون نحو ألف سنة عن التفكر فى مخلوقاته وينسون جميل صنعه فأنزل البسملة فى أول كل سورة وكررها مائة وأربع عشرة مرة فى القرآن ويكررها المسلمون فى صلاتهم فقرأناها تعبدا وقلنا كفى . لاتقوم الأمم بمجرد الكلمات وإنما قيامها بما تضمنته من المعانى وماحوته من حكمة ومعنى جميل لما وقف أكثر المتقدمين من العامة وصغار العلماء على القشور وجمدوا على الألفاظ جمودا معيبا نسى أكثر الناس فى العصور المتأخرة روح معنى التسمية واكتفى الخطباء على المنابر والوعاظ فى المساجد بذكر نعيم الجنة وعذاب جهنم حتى استقر لدى كثيرمنهم أن ربنا تجب العبادة له خوفا من ناره وخشية من سطوته فحسب لاحبا فيه ولا ابتهاجا برحماته الواسعة فأصبح المسلم إذ ذاك مابين حاكم يسطو عليه لإخافته مثل ماحصل بمصر أيام المماليك البرية والبحرية وغيرهم من أبنائهم الذين تحكموا بأبناء البلاد أيام حكم الترك إلى أن أبادهم محمد على باشا ، ومابين خطيب لايجد سبيلا للوعظ غير جهنم فى الآخرة بحيث لايرى ما أمامه من الرحمات ولا ماحوله من النعم التى أسبغها الله على الإنسان والحيوان ، وما بين المعلم والمؤدب الذى يضربه بالعصا أيام

التعليم . ياسبحان الله إن الأمة أيام تقهقرها يكون أحوالها فى الدين وفى الحكومة وفى نظام التعليم على وتيرة واحدة ، فلقصور الحكومات عن تمام النظام لا تجد لها مناصا من الاضطهاد ، ولجهل المعلم لا يعرف غير العصا ولسوء الملكة وقلة العلم يقتصر الوعاظ فى أكثر أقوالهم على التحذير من عذاب جهنم وبئس القرار .

علم الله ذلك لأنه قدره قبل أن يخلق العالم فأنزل البسملة فى أول كل سورة وعممها بالسنة الشريفة المحمدية ليقول لنا اليوم :

[أيها المسلمون . لئن كنت أنا ذا رحمة وغضب فى الآخرة بالجنة والنار لقد أسبغت النعم عليكم فى الدنيا ظاهرا وباطنا وأحطتكم فيها بالمنفرات والمخاوف والآخرة فى نعيمها وجحيمها نتيجة حياتكم هذه فمن غفل عن رحمتى الواسعة فى الدنيا وجهل ما أحطته به من الجمال والنعم فإنى عدل حكيم أذله فى الدنيا جزاء وفاقا ، وليس هذا الاذلال للانتقام . كلا . وإنما هو نتائج . ألم تقرءوا « ويعطى كل ذى فضل فضله » فكيف أهب رحمتى لمن لم يكن أهلا لها . بل كيف أسبغ نعمتى على من لم يطلبها ؟ ولا طلب إلا بنية ، ولا نية إلا بالعلم ، فالعلم بالمخلوقات حولكم يجعلكم لها عاشقين والعشق تتبعه نية التحصيل والنية يتبعها العمل] .

هذا سر من أسرار تكرار البسملة فى أول كل سورة ، وإنه ليخيل إلىّ الآن أن عقلا كبيرا من العقول العظيمة فى البرزخ اطلع على هذه الأمة الإسلامية فقال عجبا أليس فى هؤلاء رجل رشيد ، كرر الله البسملة وكررها عامتهم وخاصتهم ، ألم يتفكر منهم رجل فى حكمة هذا التكرار ، أليس التكرار لعظم المقدار والحاجة إلى هذا المكرر ، تكرار القرآن ليس كتكرار كلام البشر . فأين الباحثون عن حكمته ؟ هنا كررت آية « ويل يومئذ للمكذبين » فى (سورة المرسلات) . ذلك لأن جرم التكذيب عظيم . وكررت آية « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فى (سورة الرحمن) لأن أمر النعم عظيم فهو كتكرار البسملة فى أول السور . تهويل العقاب على التكذيب ناسبه تكرار الآية المتقدمة وجمال النعم والرحمات عظمت العناية بها فى (سورة الرحمن) وغيرها فتكررت آية الآلاء وجعلت البسملة فى أول كل سورة من القرآن .

رتب الإمام الشافعى رضى الله عنه أعضاء الوضوء كما رتبت فى الآية وهذه دقة فى الملاحظة واستمساك بالدين ، فهل فى خطة الانصاف ومهيع العدل ونور العقل أن يحرص أوائلنا هذا الحرص على آى التنزيل حتى إنهم يوجبون فرائض لأمر معنوى وهو التقديم والتأخير . ثم إننا نحن المتأخرين نرى آلاء الله قد عمت الكرة الأرضية ونسمع البسملة وآية الآلاء تكرر تكرارا كثيرا ثم لا نفكر فى الحكمة ولا نقول لماذا هذا التكرار ولم يقف مسلم عالم من أهل الاسلام يوما ويقول تقديم وتأخير فى آية الوضوء أنتج وجوبا شرعيا ، وتقديم وتأخير فى آية ذكر الله فيها المهاجرين والأنصار احتج بها أبو بكر الصديق يوم سقيفة بنى ساعدة وقال « أسلمنا قبلكم وقدمنا فى القرآن عليكم فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء الخ » وبنى على ذلك أمرا واقعا وهو خلافة الخلفاء الأربعة والأمويين والعباسيين وبنى الحسن والحسين وغيرهم من آل البيت وبقية قريش . كل ذلك لتقديم وتأخير . يحصل هذا كله أيام آبائنا الأولين . ثم إننا اليوم نسمع البسملة تذكر فيها الرحمة مكررة مرتين وفيها كلمة الرحمن التى لا تطلق إلا على الله . ونسمع آية سورة الرحمن المكررة . ومن عجب أن آية الآلاء المكررة عشرات المرات لم تكن إلا من السورة المعنونة باسم (الرحمن) والرحمن مذكور فى البسملة . إذن هذه النعم المذكورة فى (سورة الرحمن) إيضاح لمعنى البسملة كأن الله يقول البسملة المكررة فى غدوكم ورواحكم تفسيرها يكون بنعمى ، وابتدأها بأعظم نعمة وهى :

(١) تعليم القرآن ، فأعظم نعمة إذن هو العلم .

(٢) ثم خلق الإنسان والشمس والقمر والنجوم والشجر والسماء والأرض والفاكهة والنخل والحب والمشارق والمغارب والبحار واللؤلؤ والمرجان والفلك فى البحر .

ياعجبا . أيها المسلمون . أليست هذه النعم فى [سورة الرحمن] والرحمن اسم من أسماء ثلاثة فى البسملة فوا أسفاه على أمة ضاعت ودول هلكت ونعم ذهبت . الرحمة التى فى البسملة فصلت فى [سورة الرحمن] ولقد ابتدأها الله بنعم الدنيا ثم أتبع ذلك بنعم الآخرة ، وتخلل ذلك التخويف بالعذاب فى آيات قليلة ليدلنا أولا أن نبتدئ بتعليم الناس هذه النعم الدنيوية مثل مافى هذا التفسير . أقول أنا بأعلى صوتى أيها المسلمون يجب وجوبا لاشبهة فيه أن أول تعليم العلم من الآن يكون فى كتب يذكر فيها جمال هذه العلوم بحيث يلذ الطالب منظرها وجماله من شجر وحجر وكوكب ونهر . هذا واجب فى الكتب وفى الحقول وعلى شطوط الأنهار كما أنزل الله فى [سورة الرحمن] فى سورة الرحمن ذكر الله نعم السموات والأرض والبحار وليس معنى هذا أن نكتفى بمعانى هذه الآيات . كلا . وإنما المقصد أن ندرس علوم السموات والأرض بهيئة جميلة لاسيما لأطفالنا الصغار ، لا أننا نقول لهم أيها الأطفال المساكين احفظوا سورة الرحمن ونحوها فحسب بل نريهم صورا مما ذكرت من الجمال والبهاء والأزهار والأنهار ونفهمهم ذلك بعبارة رشيقة جميلة ثم نتبع ذلك بذكر الآية وإذن نكون أدينا ماوجب علينا . الله أكبر . أفليس تكرار البسملة فى أول السور وتكرار آية الآلاء فى [سورة الرحمن] وسرد نعم الدنيا أولا ثم نعم الآخرة فى نفس السورة التى ابتدئت بالرحمن . ثانيا أقول أليس ذلك كله يوجب علينا أن نفعل ما تقدم فى تعليم الناشئين ويكون ذلك الوجوب ألزم وألزم بحسب الدليل وبحسب النتيجة من وجوب ترتيب أعضاء الوضوء ومن وجوب كون الأمراء من قريش اللذين استنتجا من مجرد التقديم والتأخير وإذا وجب ذلك اليوم بهذا الدليل فليس لنا فضل فى استنتاجه لأنه آيات واضحات لايعوزها إعمال فكر . فى آيات [سورة الرحمن] مستندات إلى ذلك الاسم الذى فى البسملة يكرره المسلم صباحا ومساء فى غدوه ورواحه . فأما أبو بكر رضى الله عنه والشافعى فقد أتيا بما يدق عن الأفهام لعظم منحة الله لهما . والله ذو الفضل العظيم .

اللهم إنك أنت الذى صرفت عقول الأمم الاسلامية المتأخرة المتفرقة فى الأرض بعد القرون الثلاثة التى هى خير القرون عن الخطة المثلى فى التعليم التى يقتضيها القرآن لأنك عدل ، فانك أعطيت الغنائم لهم ليصرفوها فى منافع أهل الأرض . وحاد الخلف عن طريق السلف الصالح فلم يفعلوا مافعله أبو بكر وعمر وعثمان وعلى من التجافى عن المال والزهد فيه وصرفه فى مصارفه الحقة وهى إسعاد أهل الأرض وعمارتها لأنهم خلفاؤه فيها . وعكف الذين سموا أنفسهم خلفاء بعد تلك القرون وكذلك الأمراء التابعون لهم على الخمر والفسوق وأشاعوا ذلك وأذاعوه فى أواخر دولهم فى الشرق وفى بلاد الأندلس فى الغرب . لذلك صرفت عقول العلماء عن هذه المباحث العالية غالبا لأن الأمم التى تقرأ العلوم الأرضية والسماوية تفتح لها أبواب الرحمات على مقدار ما يعلمون ويعملون . فأعطيتهم نعما علمية وعملية على مقدار أخلاقهم ولم تفتح الباب لهم على مصراعيه لئلا يستبدوا بعبادك فانطبق على كثير من متأخريهم آية « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ، وتمادوا فى ذلك حتى أحرق (على بن تاشفين) من المرابطين كتب الغزالى وآذى المنصور بالله يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الرابع من خلفاء الموحدين ببلاد المغرب ابن رشد . ذلك الذى نادى بأعلى صوته بين المسلمين بقول [أيها المسلمون . علم التوحيد على هذا النمط ضار بكم أجمعين لماذا حدتم عن طريق القرآن الذى وصف هذه الأفلاك والأشجار ، وما هذه الطرق العقيمة فى التوحيد .

وهل من جادة الصواب أن يكون التعريف أخفى من المعرّف والله يدركه العامى بغريزته . وهذا التوحيد الممزوج بالفلسفة الصعبة يشكك المسلم فى دينه] ثم أخذ ينشر آيات من القرآن من [سورة النبأ] ليدلهم عن طريق التوحيد الحق . وقد نقلت ذلك بالتطويل فى كتابى [نظام العالم والأمم] فاقرأه هناك .

فهذا العالم المخلص للأمة الإسلامية هو وأمثاله اضطهدهم المسلمون ، فلما مات بعد أن أخرج من محبسه بسنة طلق المسلمون علوم الحكمة وصاروا غالبا صوفية ذوى وجدان منذ سبعة قرون . ذلك أن تلاميذ ذلك العالم حملوا علمه إلى أوروبا كما أوضحته فى غير هذا المقام من هذا التفسير حتى إننا نحن الآن قد حرمنا من أكثر كتبه فاننا وإن عثرنا على خمسة كتب مطبوعة بالعربية مثل (التهافت) و(فصل المقال) و (الكشف عن مناهج الأدلة) والقسم الرابع من كتاب (ما وراء الطبيعة) و(بداية المجتهد) فانا حرمنا من كتبه التى باللاتينية أو العبرية وهى (٣٨) كتابا كلها فى الحكمة ذكرها الأستاذ (لطفى جمعه) المحامى فى كتابه (تاريخ فلاسفة الإسلام فى المشرق والمغرب) لا نطيل بذكرها . انتشرت كتبه فى أوروبا إذ ذاك وأخذ القوم يدرسونها ثم انتقلوا من هذه الكتب إلى أصولها وهى باللغة اليونانية ثم ارتقوا بعد ذلك فأخذوا يفكرون بعقولهم ويستنتجون من نفس الطبيعة . الله أكبر . هذا مقصود القرآن وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ترك متأخرو المسلمين النظر فى جمال الله ولم يسمعوا نصح حكمائهم فهربت الحكمة إلى أوروبا فعقلوها وفهموها وانتقلوا إلى أصولها فى اليونان ثم إلى الأصل الحقيقى وهو هذا العالم الذى خلقه الله فرتبوا تعاليمهم على مقتضاه ودرسوا لصبيانهم فى مدارسهم على مناهج هى بعينها التى ذكرها الله فى سورة الرحمن وهى الآلاء ، أى آلاء الله فى الأرض والسماء من شجر ونبات ونهر وحجر ونجم . فهذا هو الذى يدرسه الأمريكى والانجليزى والألمانى والمجرى واليونانى والصينى الآن . لماذا هذا كله ؟ لأنهم فكروا فى الدنيا ، ولماذا لأنهم اطلعوا على أصول فلسفة اليونان التى بنى عليها فلسفته ابن رشد ، التى استثيرت من مكامنها بسبب ظهور خاتم الأنبياء الذى أرسل رحمة للعالمين . يا عجبا . نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» فهو رحمة لأنه علمنا وتعليمه أثار فلسفة أهل الأرض وامتدت الحركة العلمية إلى وقتنا الحاضر فقرأنا كتب أوروبا فوجدنا تعليمهم على مقتضى [سورة الرحمن] . فاقرأ أيها الذكى كتبهم تجدها كسورة الرحمن التى هى فى الحقيقة كبيان لاسم الله الرحمن التى يتبرك بها المسلم كل صباح وكل مساء ، فهو صلى الله عليه وسلم رحمة من الله الرحمن الذى علم القرآن وشرح فى نفس هذه السورة عجائب السموات والأرض .

إنى أنا وأنا أكتب هذا القول فى غاية العجب ، فوالله لم تكن هذه الموافقات وعجائب الحكمة القرآنية لتخطر لى عند ما أمسكت بالقلم ولكن الله عز وجل هو الملهم المتفضل ، بأمثال هذا عرفت أن فى القرآن من السر مالم تحط به الآن « إن ربى لطيف لما يشاء » .

ومن ألطف ما فى القرآن والعبادات أن الفاتحة مبتدأة بالثناء على الله وذكر رحمته وهو كابتداء [سورة الرحمن] والرحمات المفصلة فيها ، وتجد المسلم فى التشهد يصلى على نبينا صلى الله عليه وسلم وعلى إبراهيم ليكون ذلك أولا مزرعة للثواب الراجع للعبد من طريق العبادة للخاصة والعوام وتذكرة عند العلماء باتجاه إبراهيم للذى فطر السموات والأرض بعد نظره فى الكواكب ، فهو على منهج [سورة الفاتحة] نظر أولا وعبادة آخرا ، وبهذا كسر الأصنام وهذه الملة ملة إبراهيم ولذلك درج على طريقه نبينا صلى الله عليه وسلم فكسر الأصنام ، فهذا تذكرة بأمرين : الابتداء بمحاسن الطبيعة كالخليل ونبذ العادات الجامدة والارتقاء بالعقل كالخليل ومحمد صلى الله عليه وسلم .

(ملخص

﴿ تلخيص ما تقدم ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبي العالم الذي اعتاد مناقشتي في التفسير فقال لقد أجدت فيما شرحت هنا فإنك قد أبنت أن النظام عند متأخري المسلمين كان استبداديا غالبا ، فظلم من حكامهم وجهل من خطبائهم وغباوة من صغار المعلمين ، يضربون صغارهم بالعصي وأن هؤلاء لم يفتح لكثير منهم باب الرحمة على مصراعيه لأنهم حادوا عن طريق آبائهم لأنهم جعلوا أن حكم الأمم لشهوات أنفسهم ، وأنهم تمادوا في الجهل حتى أذلوا حكامهم . وأن ابن رشد أفاد كيف يتعلم الأطفال في مدارسهم وأن تعليمه على نمط القرآن وأن علمه انتقل إلى أوروبا ولما قرءوه فهموا وقرءوا أصله باليونانية ثم فكروا بأنفسهم . وها هي ذه تعاليمهم الآن أصبحت هي نفس ما طلبه (ابن رشد) من المسلمين بقراءة هذه العوالم المحيطة بأهل الأرض وهي هي نفس ما جاء في سور كثيرة ومنها سورة الرحمن . والله تعالى جعل النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، وهذه هي الرحمة العامة إذ تتعلم أوروبا الآن وأمريكا واليابان بالطريقة الحديثة بسبب ابن رشد وغيره من المسلمين الذين لولاهم لم ترجع هؤلاء القوم إلى كتب اليونان ولا إلى العقل الإنساني والاجتهاد الفردي وهذه من أجل المعجزات في زماننا . وكل هذا تقتضيه البسملة ولماذا تكررت في سور القرآن وما فعلوه موافق لما فهمته أنت الآن من وجوب ابتداء التعليم شرعا في الإسلام في كتب جميلة فيها صور العوالم السماوية والأرضية تبيانا لمعنى سورة الرحمن وسورة النبأ وغيرهما وهذه الكتب تكون فيها مواضيع مختلفة جميلة يفرح بها الشبان ثم تخرجهم الأساتذة فينظرون نفس هذه المناظر بأنفسهم في الخلوات وشطوط الأنهار والحقول . هذا يؤخذ من كلامك . ولقد جعلت لك في ذلك إمامين أبا بكر الصديق رضي الله عنه والشافعي عما استنتجنا من تقديم وتأخير (مسألتين) سياسية وعملية وأفدت أن دليلك أنت لا يعوزه طول تفكير لوضوحه . أما دليلاهما ففيهما دقة لا يعرفها إلا من على شاكلتهما .

أقول ، والله إن هذا كله حسن ونعمة عظمى لأن المسلمين اليوم هم الأمة الوحيدة في العالم التي تباعدت عن طريق كتاب الله تعالى في أساليب التعليم ، وأنا أقول والله ما من عالم أو أمير أو عاقل في أمة الإسلام يقرأ هذا إلا وهو يسارع حالا إلى هذا النظام لأن هذا القول حجته قائمة ونتائجه واضحة ولكني أسألك سؤالين : الأول أنك قلت إن الفرنجة لما قرءوا فلسفة [ابن رشد] رجعوا إلى أصلها باليونانية ، والرجوع لليونانية جعلهم ينظرون بعقولهم . فهل الرجوع لمثل هذه الأحوال لابد منه . الثاني : أنك قلت إن كتب الفرنجة في تعليم أطفالهم جميلة ترجع إلى سور القرآن بوجه عام وإلى [سورة الرحمن] بوجه خاص وهي مبتدأة بالرحمة المذكورة في البسملة التي كلامك الآن فيها . وأن من قرءوا على هذا النمط يفتح الله لهم أبواب رحمته في الدنيا على مقتضى ما وصلوا إليه ، فأريد أن تذكر نموذجا من كتبهم . ثم إن المقام طال ولكن المقام يحتاج إيضاحه إلى إجابة على هذين السؤالين . فقلت أما رجوع الفرنجة إلى الفلسفة اليونانية فهو واجب على كل من قرءوا الفلسفة العربية . فقال ولماذا ؟ قلت لأن كتبهم كثيرة وعلماؤهم أكثر والترجمة يدخلها التحريف بل التخريف . فلذلك وجب الرجوع إلى أصل اليونانية على من درس الفلسفة بالعربية متى أمكن ذلك في ذلك الزمان . فقال هل تذكر مثالا واحدا مما جاء في العربية ضارا بالعقول مع أنه باليونانية كان نافعا . فقلت أظن أن هذا خرجنا عن الموضوع . فقال ولكن هو حسن ومفيد الآن . فقلت أنت تعلم أن الفلسفة التي نقلت إلى العربية من اليونانية قد جاء فيها إن العالم قديم . فقال هذه محور فلسفتهم فقلت : هذا من عجائب الدهر . فقال وكيف ذلك . قلت ألم تقرأ ما ذكرته سابقا عن طيماوس الحكيم مع سقراط فإنه برهن على أن العالم حادث مع أن الرجل قبل الميلاد بخمسمائة سنة . ولو أن هذا القول نقل

إلى اللغة العربية لم يكن هذا الخلط فى علم التوحيد والجدال ، ولم نسمع أبا العلاء يقول وهو لا يعلم برهان طيماوس ما معناه :

قالوا إله بلا مكان ولا زمان ألا فقولوا

هـذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

فقال إى والله هذان البيتان أسمعهما من جميع الشبان فى الأندية ومحال شرب القهوة والخمور والمطاعم الفرنجية فى مصر والشاب منهم معجب بملابسه ومآكله الفرنجية وفسوقه وخمره فهو فرح طرب لأنه عثر على كنز ثمين وهو أن الديانات كلها خاطئة بسبب هذين البيتين . فقلت ولكن هذا القول الذى قاله علماء التوحيد هو نفسه الذى قاله طيماوس فيما تقدم وقد رأيناه نحن فى كلام الفرنجة الذين اطلعوا على الفلسفة باليونانية . ألم تر إلى طيماوس فيما تقدم كيف يقول [إن العالم حادث] والله لم يكن فى زمان ولا فى مكان لأن الزمان ماهو إلا بحركات الفلك فإن الليل والنهار نعرفهما بالشمس ولا شمس ولا قمر قبل خلق الأفلاك وهكذا لامكان لأن المكان ما هو إلا سموات وأرضون ولا سموات هناك ولا أرضين . وهذه المسألة أصبحت اليوم معروفة لأن علماء العصر الحاضر كلهم أجمعوا على أن هذه العوالم كلها كانت غازا منتشرا ثم صارت سموات وأرضين . ورأى طيماوس هو رأى علماء العصر الحاضر . إذن كون الله لا يحكم عليه زمان وليس فى مكان قضية واضحة ظاهرة لأنه لم يكن زمان قبل هذه الأفلاك ولامكان . إذن هذان البيتان اللذان جعلا للتهكم والسخرية خاطئان خياليان والعقل هو الذى يحكم على أرباب الخيال . فلولا اطلاع القوم على آراء اليونان باللغة اليونانية لم نعرف ماذا قالوه وبه أدركنا الحقيقة ودفعنا تلك الآراء التهكمية التى يتسلى بها صغار العقول من الشبان والشابات فى بلاد الإسلام . هذا جواب سؤالك الأول .

وأما نموذج كتب المطالعة لأطفالهم تطبيقا على ماتقدم وموافقة للقرآن ولسورة الرحمن وللبسملة لكون نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . فإن ما تقدم فى هذا التفسير فيه غنية لأولى الألباب . وسترى فى [سورة يس] عند آية « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » رسم ورقة شجرة وكيف كان فيها آلاف وآلاف آلاف من الفتحات وتحتها ما يشبه الحجرات . وأن الحيطان الشفافة والسقوف المرصوصة مما يشبه اللبنات فى أبنيتنا المعتادة . وفى وسط تلك الحجرات مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء تلون تلك السقوف . فهناك ستشاهد تلك الحجرات البهجة التى تعد عشرات الألوف فى الورقة الواحدة وترى أن الورقة هى رئة النبات وإبداعها فى غاية الاتقان والجمال والغرابة فكيف تكون عشرات الملايين منها فى شجرة واحدة ؟ ثم كيف تكون هى معدة لتغذية الشجرة بالمواد الكربونية على شريطة أن يساعدها ضوء الشمس .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا أمر عجيب جدا ولكنى الآن أسألك فى أمر غير هذا . أسألك فى نفس كتب الأطفال ، وأما هذه فإنما هى تعاليم الكبار تناسب أمثال هذا التفسير فلنرجئها إلى أن نطلع عليها فى [سورة يس] فقلت هاك نموذجا وهو كتاب صغير يسمى (القراءة الملوكية) كان يدرسه التلاميذ فى بلادنا المصرية فى عهد الاحتلال على أساليب تعاليمهم فى بلادهم . ولست أذكره إلا على سبيل المثال فإنى أريد أن توضع كتب الدراسة فى بلاد الإسلام بعد الدرس والتمحيص من ذوى العقول الكبيرة الذين اصطفاهم الله من قراء أمثال هذا التفسير . فهاك مواضيع ذلك الكتاب بحسب ترتيبها .

(١) العنكبوت (٢) الصبى والعصفور (٣) الأرنب (٤) الغزلان (٥) التبكير فى الاستيقاظ من النوم (٦) النحل (٧) نظم فى النحل (٨) الأوز (٩) قل الصدق (١٠) أنعم صباحا أيها الطائر (١١) الذئب

(١٢) صدى الصوت (١٣) أنعم صباحا أنعم مساء (١٤) القط وطائر الكنارى (١٥) الزنبار والنحلة (١٦) الحصان (١٧) الكلب والمصباح (١٨) معلومات عامة نافعة فى الحيوان (١٩) الجمل (٢٠) تاريخ كلب (٢١) القانون الذهبى (٢٢) الحمار (٢٣) قصة النعجة والحمل ولدها (٢٤) الدب الأحمر (٢٥) الأسد والفأر (٢٦) الحروف (٢٧) الغراب والابريق (٢٨) الجندى والحصان (٢٩) الدب الأبيض (٣٠) الثعلب والمعز (٣١) معارف نافعة (٣٢) الدب فى المدرسة (٣٣) القيطس، وهو حوت عظيم جدا (٣٤) الأرنب والسلحفاة (٣٥) السريع والبطىء (٣٦) الصبى والخوخ « البرقوق » (٣٧) العصفور الدورى (٣٨) الأسد (٣٩) النمر (٤٠) الفهد (٤١) حمار الحبشة (٤٢) المعادن (٤٣) الأطفال (٤٤) الملك والملكة (٤٥) طائر بحرى (٤٦) نبات الشاى والقهوة .

هذه المواضيع هى مواضيع الكتاب الانجليزى المذكور ولم أترك منه إلا عد الأصابع لعدم أهميته . فهذا أيها الأخ هو النهج الذى تهجه القوم فى مدارسهم لأطفالهم بحيث يشرحون الحيوان أو النبات ثم يستخرجون بعض حكمه كأن يذكروهم بنشاط النحلة واتكال الأرنب على سرعة جريه واجتهاد السلحفاة وكأن يذكروا عند ذكر عوم صغار الطيران الله هو الذى علمهن بلا أساتذة وهكذا فلا يتمون كتابا صغيرا مثل هذا حتى يكونوا قد علموا مبادىء العلوم بحكايات ومناظر مشوقة وأحبوا الحيوان والبحث فيه وعكفوا عليه وتعلموا أخلاقا مما يذكرهم به المدرسون .

فلما سمع ذلك صاحبى قال لقد أحسنت أيما إحسان وشرحت صدرى . ولكنى أسألك آخر سؤال، وهو لم اخترت هذا الموضوع فى هذه السورة فى تفسير بسملتها . فقلت إن فى هذه السور آية « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيها آية « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا » وفى سورة التوبة أنه صلى الله عليه وسلم « بالمؤمنين رءوف رحيم » فهو ﷺ رحيم بالمؤمنين وسراج للناس منير، وأول السورة بسم الله الرحمن الرحيم. فالله رحمن رحيم وهو ﷺ رءوف رحيم بالمؤمنين، بل هو خاتم الأنبياء مرسل للناس قاطبة وباب رسالته مفتوح لجميع الأمم فيكون لهم رحمة . فتفسير الرحمة فى هذه السورة بإظهار العلوم المخزونة فى خزائن الأمم الأوروبية منذ أيام اليونان ونشرها بين المسلمين وتعلم المسلمين للأوربيين ثم تنقيح هؤلاء لها بالبحث ثم رجوعها ثانيا لنا الآن لنستيقظ بعد نومنا العميق . كل ذلك رحمة بنا نحن المؤمنين بل رحمة بالعالم قاطبة فهو آية أخرى يقول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» .

فقال صاحبى : هذه رحمته للناس صلى الله عليه وسلم فأريد الساعة أن تذكر لى رحمته بالحيوان حتى يعلم المسلمون أن درس المسلمين على منهج يقرب من النهج المتقدم خير وأعظم .

فقلت جاء فى كتاب [تيسير الوصول إلى جامع الأصول] مانصه :

كتاب الرحمة : وفيه ثلاثة فصول

﴿ الفصل الأول : فى الحث عليها ﴾

عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الراحمون يرحمهم الله تعالى . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن

قطعه قطعه الله تعالى » أخرجه أبو داود إلى قوله من فى السماء والترمذى بتمامه (الشجنة) بكسر الشين المعجمة وفتحها بعدها جيم : القرابة المشتبكة كاشتباك العروق .

وعن جرير رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يرحم الله من لا يرحم الناس» أخرجه الشيخان والترمذى . وفى أخرى لأبى داود والترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة إلا من شقى» .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : «قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن بن على رضى الله عنهما وعنده الأقرع بن حابس ، فقال الأقرع إن لى عشرة من الولد ماقبلت منهم أحدا ، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال من لا يرحم لا يرحم» أخرجه الخمسة إلا النسائى . وزاد رزين « أو أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة » .

﴿ الفصل الثانى : فى ذكر رحمة الله تعالى ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قضى الله الخلق ، وعندمسلم : لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى تغلب غضبى» أخرجه الشيخان والترمذى . وعند البخارى رحمه الله فى أخرى «إن رحمتى غلبت غضبى» وعند الشيخين فى أخرى «سبقت غضبى» .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين وأنزل فى الأرض جزءا واحدا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» أخرجه الشيخان والترمذى .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلائق بينهم وتسعة وتسعون ليوم القيامة» أخرجه مسلم. وله فى أخرى «إن الله تعالى خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طباق مابين السماء والأرض ، فجعل منها فى الأرض رحمة واحدة فبها تعطف الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها الله تعالى بهذه الرحمة» .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبى فإذا امرأة من السبى تسعى قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته . فقال صلى الله عليه وسلم أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ قالنا لا والله وهى تقدر على أن لا تطرحه ؟ قال فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها» أخرجه الشيخان .

﴿ الفصل الثالث : فيما جاء من رحمة الحيوان ﴾

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج وإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله تعالى له فغفر له ، قالوا يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال فى كل كبد رطبة أجر» أخرجه الثلاثة وأبو داود . وفى أخرى « إن امرأة بغيا رأت كلبا فى يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فغفر لها به» لهث الكلب وغيره : إذا أخرج لسانه من شدة العطش والحر وكذا أدلع لسانه ،

والثرى

والثرى : التراب الندي والمراد هنا التراب مطلقا ، والكبد الرطبة : كل ذات روح ولا تكون رطبة إلا إذا كان صاحبها حيا ، والبغيّ : المرأة الزانية ، والموق : الخف .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض » أخرجه الشيخان ، (خشاش الأرض) هوامها وحشراتها .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال « كان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدف أو حائش نخل ، فدخل حائطا لرجل من الأنصار فاذا فيه جمل ، فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم حن وذرفت عيناه فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراه فسكت ، فقال من رب هذا الجمل ؟ فقال فتى من الأنصار هو لى يارسول الله . فقال أفلا تتق الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؟ فانه شكى إلىّ أنك تجيعه وتدئبه » أخرجه أبو داود ، الهدف : ماارتفع من الأرض من بناء وغيره ، وحائش النخل : نخلات مجتمعات ، والحائط : البستان . وذفرى البعير : الموضع الذى يعرق من قفاه خلف أذنيه ويجعل فيه القطران وهما ذفريان ، وتدأبه : تتبعه بكثرة استعماله .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لاتتخذوا ظهور دوابكم منابر إنما سخرها الله لكم لتبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض فعليها فاقضوا حاجتكم » أخرجه أبو داود . (شق الأنفس) جهدها وشدة ماتلاقيه عند مقاساة الأمور الصعبة

وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبيه رضى الله عنه قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر فرأينا حمرة معها فرخان لها فأخذناهما فجاءت الحمرة تعرش، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها ، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال من أحرق هذه ؟ قلنا نحن . قال إنه لاينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار » أخرجه أبو داود .

(الحمرة) بضم الحاء المهملة وتشديد الميم : نوع من الطير فى شكل العصفور ، وقوله (تعرش) بالعين المهملة والشين المعجمة أى ترفرف وترخى جناحيها وتدنو من الأرض لتقع عليها ولا تقع ، وروى تفرش بالفاء من فرش الجناح وبسطه .

وعن محمد بن إسحاق ، عن رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور عن عمه عن عامر الرام أخى الخضر قال « إنا لببلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية فقلت ماهذا ؟ فقالوا لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته وهو جالس تحت شجرة وقد اجتمع إليه أصحابه فجلست إليهم فذكر النبى صلى الله عليه وسلم الأسقام والأمراض ، فقال إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله عز وجل منه كان كفارة لما مضى من ذنوبه وموعظة له فيما يستقبل ، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفى كان كالبعير عقله أهله ثم أرسلوه فلم يدر لم عقلوه ولم أرسلوه فقال رجل ممن حوله يارسول الله وما الأسقام والله مامرضت قط ؟ فقال له قم فلست منا » أخرجه أبو داود ، والألوية جمع لواء : وهى الراية الكبيرة دون الأعلام ، وأعفاه وعافاه بمعنى واحد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قرصت نملة نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فحرقت فأوحى الله تعالى إليه أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح » أخرجه الخمسة إلا الترمذى (وقرية النمل) مسكنها . اهـ ماجاء فى الكتاب المذكور .

ثم قال صاحبى : لقد استوفيت هذا المقام وشرحت صدرى . فقلت الحمد لله رب العالمين :

كتب فى ليلة الخميس (٥) سبتمبر سنة ١٩٢٩ م وبهذا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير **البسملة** .

(القسم الثاني)

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما *
واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا * وتوكل على الله
وكفى بالله وكيلا * ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم
اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم
بأفواهكم، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل * ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله
فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم، وليس عليكم جناح فيما
أخطأتم به، ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما * النبي أولى بالمؤمنين
من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم، وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من
المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك في الكتاب
مسطورا * وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى
ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين
عذابا أليما * يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا
عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا * إذ جاءوكم من فوقكم
ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا *
هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم
مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا * وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام
لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة
إن يريدون إلا فرارا * ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها

وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً ● وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لاَ يُوَلُّونَ الأَدْبَارَ
وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً ● قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا
لاَ تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ● قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا ● قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ
مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً ● أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ
فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ
فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ
اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ● يَحْسَبُونَ الأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ
الأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ
مَا قَاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً ● لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ
وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ● وَلَمَّا رَءَا الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيماً ● مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ●
لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
غَفُوراً رَحِيماً ● وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ● وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ● وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ●

﴿ التفسير اللفظي ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(يا أيها النبي اتق الله) أى يا أيها المخبر عنا المأمون على أسرارنا اثبت على تقوى الله ودم عليها (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ولا تساعدهم على شيء واحترس منهم . روى أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل

وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة بعد قتال أحد فنزلوا على عبد الله بن أبيّ وأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم الأمان على أن يكلموه، فقالوا ارفض ذكر آلهتنا وقل إنها تنفع وتشفع وساعدهم المنافقون على ذلك فهمّ المسلمون بقتلهم فنزلت : أى اتق الله فى نقض العهد ولا تطع الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا ولذلك لما قال عمر ائذن لى يارسول الله فى قتلهم قال إنى أعطيتهم الأمان . قال عمر اخرجوا فى لعنة الله وغضبه (إن الله كان عليما) بالمصالح والمفاسد (حكيما) لا يحكم إلا بما تقتضيه الحكمة (واتبع مايوحى إليك من ربك) فى الثبات على التقوى (إن الله كان بما تعملون خبيرا) أى لم يزل عالما بأعمالهم وأعمالكم (وتوكل على الله) وكل أمرك إلى تدبيره (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا إليه الأمور كلها: أى اكتف بالله وكيلا . وإذا كان الله لك وكيلا فلا تخف من أحد فهو ناصرك فلست فى حاجة إلى المنافقين والكافرين إذ لا يجمع بين المتضادين إطاعة غير الله وإطاعة الله إذ ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر . وإذا كان للانسان قلب فمتى اتجه لأحد الشقين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه وهو يقوم بأمر من توكل عليه ، هكذا ليس تجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة والبنوة الحقيقية والتبنى فى إنسان واحد ، فاذا ظاهر الرجل زوجته أى قال لها أنت على كظهر أمى فلذلك حكم سيأتى فى [سورة المجادلة] فإما أن تحرم عليه إلى أداء الكفارة وإما أن تطلق ، فهذا القول ليس بحق إذ لا يجتمع كونه زوجها وكونها أما ، فإما أن تكون زوجة وإما أن تكون أما . هكذا التبنى لا يكون ابنا حقيقة . وذلك أن زيد بن حارثة وهو رجل من كلب سبى صغيرا فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فلما تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له فطلبه أبوه وعمه فخير فاختار رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعتقه وتبناه ، وكانوا يقولون زيد بن محمد فلما تزوج صلى الله عليه وسلم زينب وكانت تحت زيد قال المنافقون تزوج محمد امرأة ابنه وهو ينهى عنه ، فقال الله ليس يجتمع النقيضان بنوّة ولا بنوّة فزيد ليس ابنا بل هو دعيّ جمعه أدعياء وهو فعيل بمعنى مفعول وهو الذى يدعى ولدا وهذا الجمع شاذ لأن بابه ماكان بمعنى فاعل كشقى وتقى وأشقياء وأتقياء وهذا قوله تعالى (ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن) فى تظاهرون قراآت وفيها معنى التجنب فعدى بمن (أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم) لا حقيقة له فى الأعيان كما يقول الهاذى (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل) والله يقول ماله حقيقة مطابقة له وهو يهدى السبيل إلى الحق . وسيأتى بعد تمام السورة فى الرسالة المسماة [السر العجيب] حكمة زواج النبى صلى الله عليه وسلم زينب وحل زواجها وما يترتب على ذلك من نظام التشريع مع الحكمة فى تعدد الزوجات فى الاسلام وزوجات النبى صلى الله عليه وسلم (ادعوهم لآبائهم) أى انسبوهم إليهم (هو أقسط عند الله) وهذا تعليل له (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم أى فهم إخوانكم (فى الدين ومواليكم) أى فسموهم بأسماء إخوانكم فى الدين وأوليائكم فيه وقولوا هذا أخى ومولاى بهذا التأويل (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) ولا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين قبل النهى أو بعده نسيانا أو سبق لسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) أى ولكن فيما تعمدت قلوبكم الجناح (وكان الله غفورا رحيما) لعفوه عن المخطئ . ولما كان المؤمن أخا المؤمن فى الدين كما مر وكان صلى الله عليه وسلم ليس أبا لزيد بن حارثة أعقب ذلك بتبيان منزلة النبى صلى الله عليه وسلم من الأمة كلها . يقول الله ليس محمد أبا مختصا بواحد منكم بل أبوته عامة وأنتم إخوة فى الدين وأزواجه أمهاتكم بل هو أولى بكم من أنفسكم لأن أهل الأرض خلقوا فيها وهم غافلون عن العالم العلوى الذى هو الحياة الحقيقية فأنزل الملائكة بالوحى على الأنبياء فهم فى الحقيقة آباء لكم ومحمد صلى الله عليه وسلم منهم وأبوة الأنبياء أشرف من أبوة الآباء إذ بها الحياة الحقيقية والأخرى بها الحياة الفانية ، لذلك كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهى منزلة لم ينلها الآباء الجثمانيون ، فإذا حضهم على الجهاد فذلك

لارتقائهم

لاوبقائهم الروحى وهذا قوله تعالى (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) لما تقدم بيانه، فإذن كيف يستأذن الناس آباءهم وأمهاتهم لما أمرهم صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك وهو أشفق من الآباء بل هو أولى بالمؤمنين الخ (وأزواجه أمهاتهم) منزلات منزلتهن فى التحريم واستحقاق التعظيم . روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة اقرءوا إن شئتم ـ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ـ فأيما مؤمن ترك مالا فترثه عصبته من كانوا ومن ترك دينا أو ضياعا بفتح الضاد أى عيالا فليأتنى فأنا مولاه » ومعنى عصبة الميت من يرثه سوى من له فرض مقدر . وقد تقدم فى [سورة النساء] وهذا قوله تعالى (وأولوا الأرحام) وذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) فى التوارث (فى كتاب الله) أى فيما فرضه الله (من المؤمنين والمهاجرين) أى وأولو الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين والمهاجرين بحق الهجرة وذلك نسخ لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين فهذه الآيات فيها رجعت الأمور إلى نصابها فليس للانسان وجهتان معا مع أن له قلبا واحدا ، وليس للمرأة أن تكون أما وزوجة ، وليس الدعىّ ابنا . وليس المهاجر والمؤمن أولى بالميراث من ذوى الأرحام (إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا) لما نسخ الله الميراث بالحلف والمؤاخاة والهجرة وأصبحت الوراثة بالقرابة أباح الوصية لهؤلاء كما أباحها لغيرهم بالثلث فقال ولكن أن توصوا لمن تتولونهم من المعاقدين أى ولكن توصيتكم لهؤلاء مشروعة أو جائزة (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اى كان ما ذكر فى الآيتين ثابتا فى اللوح المحفوظ . ولما كان ما تقدم مفيدا أن النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم لأنه يرفعهم إلى عالم الأرواح أعقبه بذكر الأنبياء السابقين الذين هم آباء للأمم السابقين فقال (و) اذكر (إذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) على الوفاء بما حملوا (ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) فهؤلاء أشهر أرباب الشرائع وآباء الأمم ، وقدم عليهم إيذانا بأن أمته ستكون أرقى الأمم أدبا وأخلاقا لأن رقى الأمة تبع لنبيها (وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) مؤكدا وإنما فعلنا ذلك (ليسأل الصادقين عن صدقهم) فيسأل الأمم كما يسأل الأنبياء ، فالأنبياء صادقون فى التبليغ والأمم التابعة لهم صادقة فى تصديق الأنبياء . فكل هؤلاء مسئول . فالأنبياء عما قالوه لقومهم والمصدقون لهم عن تصديقهم وهل قاموا بما وجب عليهم ؟ فأثاب المؤمنين (وأعد للكافرين عذابا أليما) واعلم أن سؤال الأمم عن صدقها يدعو إلى السؤال عن أعمالها لأن الايمان وحده لا يكفى كما قال تعالى « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » وعليه لابد من الأعمال والجد ومن أهمها الجهاد والجهاد أمر عام يشمل فروع الحياة كلها . فالعلم جهاد والأعمال كلها جهاد وقتال العدو جهاد . لذلك أعقبه بذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب . والكلام عليها منحصر فى [ثلاثة فصول : الفصل الأول] فى ملخص الكلام عليها [الفصل الثانى] فى تفسير الألفاظ [الفصل الثالث] فى ربط هذه الغزوة بما قبلها من الآيات وأنها أشبه بما كان فى الأمم السابقة من امتحان الأمم وتذكيرها وفقا لما جاء فى قصص الأنبياء فى القرآن .

﴿ الفصل الأول ﴾

إن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة أربع من الهجرة بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا لهم إن دينكم خير من دينه ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه فخرجت قريش وقائدها أبو سفيان وغطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر والحارث بن عوف ومسعر بن رخيلة بن نويرة بن طريف وغيرهم . فلما سمع رسول الله صلى الله

عليه وسلم بذلك خط الخندق حول المدينة باشارة سلمان الفارسي وهو يومئذ حرّ ، إذ قال يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا ضربنا خندقا علينا فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون وأحكموه وقد أقطع لكل عشرة أربعين ذراعا فخرجت لهم صخرة بيضاء من بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم . فلما علم بها صلى الله عليه وسلم أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابتيها يعني المدينة حتى كأنه مصباح في جوف بيت مظلم فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضيء وكان التكبير . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت ضربتي الأولى فبرق البرق الذي رأيتم فأضاء له منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب . وأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت ضربتي الثانية فبرق البرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذي رأيتم أضاء لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها فأبشروا . فاستبشر المسلمون — وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده — فقال المنافقون ألا تعجبون يمنيكم ويعدكم الباطل ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون أن تبرزوا فنزل ما سيأتي : وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض — الخ : ونزل « قل اللهم مالك الملك » الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الأحزاب الذين حزبهم اليهود وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها فقالوا والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها وهناك كانت مصادمات بين القوم كرا وفرا . فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ويقتل . ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيصيبه الموت وهكذا . ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك فقال صلى الله عليه وسلم إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة فأتى قريظة وقال لهم لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا أخذتم منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً لأنهم رجعوا وشئموا حربه فإنكم لا تقدرون عليه . وذهب إلى قريش وإلى غطفان فقال لهم إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونه لمحمد فيضرب أعناقهم وهم يتحدون معه على قتالكم لأنهم ندموا على ما فعلوا معه من نقض العهد وتابوا وهذا هو المخرج الذي اتفقوا عليه . فهناك تخاذل اليهود والعرب وحصل الفشل بسبب ذلك وفي ذلك الوقت بعث الله ريحا في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آنيتهم وقد قام صلى الله عليه وسلم يصلي هونا من الليل ثم يلتفت ويقول هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم فعل ذلك ثلاث مرات ولم يقم رجل واحد من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد فدعا حذيفة بن اليمان فذهب إلى القوم فسمع أبا سفيان يقول يامعشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون فارتحلوا فإني مرتحل . فلما رجع أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت أنيابه في سواد الليل . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثاني ﴾

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود) أي الأحزاب المتقدم ذكرها وهم نحو اثني عشر ألفا (فأرسلنا عليهم ريحا) هي ريح الصبا (وجنودا لم تروها) الملائكة وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم في ثلاثة آلاف والخندق بينهم ومضى على الفريقين شهر لا حرب بينهم إلا الترامي بالنبل والحجارة حتى أرسل الله عليهم الريح كما تقدم فأخصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأطفأت نيرانهم وقلعت

خيامهم وماجت الخيل بعضها فى بعض فقال طليحة الأسدى أما محمد فقد بدأكم بالسحر فالنجاء النجاء كما تقدم (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق (بصيرا) رائيا . وقوله (إذ جاءوكم) بدل من « إذ جاءتكم » (من فوقكم) من أعلى الوادى من قبل الشرق وهم بنو غطفان (ومن أسفل منكم) من أسفل الوادى من قبل المغرب وهم قريش (وإذ زاغت الأبصار) مالت عن مستوى نظرها حيرة وشخوصا (وبلغت القلوب الحناجر) هذا إما تمثيل أو أن الرئة تنفتح من شدة الروع فتكاد ترتفع إلى رأس الحنجرة ويرتفع القلب بارتفاعها إليها . والحنجرة منتهى الحلقوم وهو مدخل النفس الذى وراءه الرىء وهو مدخل الطعام والشراب (وتظنون بالله الظنونا) الأنواع من الظن . فالمؤمن يعلم أنه امتحان فيخاف الزلل ، والمنافق وضعيف القلب يقولان ما حكى الله عنهما . وألف الظنونا أثبتها بعضهم تشبيها للفواصل بالقوافى ولم يزدها بعضهم وهو القياس (هنالك ابتلى المؤمنون) فظهر المخلص من المنافق والثابت من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من شدة الفزع (وإذ يقول المنافقون) عطف على الأول (والذين فى قلوبهم مرض) هم قوم لا بصيرة لهم فى الدين كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم (ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) كما تقدم (وإذ قالت طائفة منهم) وهم عبد الله بن أبىّ وأصحابه (يا أهل يثرب لا مقام لكم) أى يا أهل المدينة لا قرار لكم هنا (فارجعوا) من عسكر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (ويستأذن فريق منهم النبى) وهم بنو حارثة (يقولون إن بيوتنا عورة) أى ذات عورة أى خالية من الرجال نخاف عليها سرق السراق (وما هى بعورة) بل هى حصينة (إن يريدون إلا فرارا) أى ما يريدون بذلك إلا الفرار من القتال (ولو دخلت عليهم) المدينة أو بيوتهم (من أقطارها) من جوانبها سواء أكان الداخل هم الأحزاب أم غيرهم (ثم سئلوا الفتنة) أى الردة ومقاتلة المسلمين (لآتوها) لأعطوها (وما تلبثوا بها) أى وما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الفتنة (إلا يسيرا) إلا قليلا حتى يهلكوا (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار) وهم بنو حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا ثم تابوا ألا يعودوا لمثله أبدا (وكان عهد الله مسؤلا) عن الوفاء به مجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل) فإن لكل امرئ موتة سبق بها القضاء فلابد من نفاذه على حسب ماسبق به القضاء من قتل أو غيره (وإذن لا تمتعون إلا قليلا) أى وبعد الفرار لا تمتعون إلا مدة آجالكم وهو قليل (قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا) أى يصيبكم بسوء (أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع الضر عنهم (قد يعلم الله المعوقين منكم) المثبطين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لإخوانهم) من ساكنى المدينة (هلم إلينا) أى ارجعوا إلينا ودعوا محمدا صلى الله عليه وسلم فلا تشهدوا معه الحرب فإنا نخاف عليكم الهلاك والقائلون هذا القول هم اليهود أرسلوا إلى المنافقين فقالوا لهم ما الذى يحملكم على قتل أنفسكم بيد أبى سفيان ومن معه فإنهم إن قدروا عليكم هذه المرة لم يبقوا منكم أحدا وإنا نخاف عليكم وأنتم إخواننا وجيراننا فهلموا إلينا فأقبل عبد الله بن أبىّ ابن سلول وأصحابه يثبطون الناس فلم يزد المؤمنون إلا ثباتا واحتسابا . وقوله (ولا يأتون البأس إلا قليلا) أى لا يأتى الحرب المنافقون إلا إتيانا قليلا حال كونهم (أشحة عليكم) بخلاء عليكم بالمعاونة النفسية والمالية (فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم) فى رءوسهم من الخوف والجبن (كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران عين الذى قرب من الموت وغشيته أسبابه فإنه يذهب عقله ويشخص بصره فلا يطرف (فإذا ذهب الخوف) أى زال (سلقوكم) آذوكم ورموكم فى حال الأمن (بألسنة حداد) ذربة تفعل فعل الحديد إذ يطلبون الغنيمة ويقولون إنا شهدنا معكم القتال فلستم أحق بالغنيمة منا . وقوله (أشحة على الخير) حال أى خاطبوكم حال كونهم أشحة على المال كما هم أشحة بأنفسهم ومالهم فلا قتال لديهم ولا إنفاق وهم شديدو الحرص على الغنيمة (أولئك لم يؤمنوا)

حقيقة بل هم مسلمون بالظواهر (فأحبط الله أعمالهم) أى أبطلها باضمارهم الكفر (وكان ذلك) إحباط أعمالهم (على الله يسيرا) هينا (يحسبون الأحزاب) لجبنهم وجزعهم (لم يذهبوا) أى لم ينهزموا ولم ينصرفوا مع أنهم قد انصرفوا (وإن يأت الأحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب) أى يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية عائشون بين الأعراب ليأمنوا على أنفسهم ويعتزلوا مافيه الخوف من القتال (يسألون) الركبان والقادمين إليهم من المدينة (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) ولم يرجعوا إلى المدينة وكان قتال (ماقاتلوا إلا قليلا) رياء وسمعة (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) الأسوة القدوة وهو المقتدى به والمؤتسى فاقتدوا به اقتداء حسنا فانه كسرت رباعيته وجرح فى وجهه وقتل عمه ، وأوذى بضروب الأذى فصبر ، وقوله (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) متعلق بقوله « حسنة » أى حسنة لمن يرجو ثواب الله ونعيم الآخرة (وذكر الله كثيرا) وقرن بالرجاء كثرة الذكر وهى تؤدى إلى ملازمة الطاعة (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله) إذ قال تعالى «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » الخ ، وأيضا «أحسب الناس أن يتركوا» الخ ، وقال صلى الله عليه وسلم « سيشتد الأمر باجتماع الأحزاب عليكم والعاقبة لكم عليهم » وقوله أيضا « إنهم سائرون إليكم بعد تسع أو عشر » (وصدق الله ورسوله) وظهر صدق خبر الله ورسوله (وما زادهم) الخطب والبلاء (إلا إيمانا وتسليما) أى إيمانا بمواعيد الله وتسليما لمقاديره (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول والمقاتلة لتكون كلمة الله العليا (فمنهم من قضى نحبه) أى فرغ من نذره ووفى بعهده وصبر على الجهاد حتى استشهد والنحب الذى هو بمعنى النذر استعير للموت لأنه كنذر لازم فى رقبة كل حيوان ، وذلك مثل حمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر (ومنهم من ينتظر) الشهادة كعثمان وطلحة (وما بدلوا) العهد (تبديلا) شيئا من التبديل كما بدل المنافقون . روى « أن طلحة ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال صلى الله عليه وسلم أوجب طلحة » فملخص ما تقدم أن قوما صدقوا ما عاهدوا الله عليه وقوم بدلوا بنقض العهد (ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) فيهديهم إلى الايمان (إن الله كان غفورا رحيما . ورد الله الذين كفروا بغيظهم) ولم يشف صدورهم فهم فى حنق (لم ينالوا خيرا) ظفرا (وكفى الله المؤمنين القتال) بالريح والملائكة (وكان الله قويا) فى ملكه (عزيزا) فى انتقامه (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب) أى عاونوا الأحزاب من قريش وغطفان وهم بنو قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهى ما يتحصن به ، ويقال أيضا لقرن الثور والظبى ولشوكة الديك لأن ذلك كله للتحصن من العدو (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف (فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) . روى « أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الأحزاب فقال يا محمد أتنزع لأمتك والملائكة لم يضعوا السلاح ؟ إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة وأنا عامد إليهم فأذن فى الناس أن لايصلوا العصر إلا ببنى قريظة فحاصرهم إحدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم ، فكبر النبى صلى الله عليه وسلم فقال حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة أو أكثر وأسر منهم سبعمائة » .

واعلم أن هذه الرواية ذكرها المفسرون ولم ترد فى الصحاح كلها ثم قال تعالى(وأورثكم أرضهم) مزارعهم (وديارهم) حصونهم (وأموالهم) نقودهم ومواشيهم وأثاثهم (وأرضا لم تطئوها) بعد كخيبر ومكة وفارس والروم والقسطنطينية وغيرها من كل أرض تفتح المسلمين (وكان الله على كل شىء قديرا) فيقدر على ذلك .

روى البخارى عن سليمان بن صرد قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين أجلى الأحزاب « الآن نغزوهم ولا يغزونا ، نحن نسير إليهم » .

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شئ بعده » انتهى الفصل الثانى فى تفسير الألفاظ .

﴿ الفصل الثالث: فى اتصال هذه القصة بما تقدمها فى أول السورة وفى سور القرآن كله ﴾

لقد ذكر الله فى القرآن قصص الأنبياء وأمرهم أن يذكروا قومهم بأيام الله ومنهم موسى عليه السلام وقصته ذكرت غير مرة فى القرآن وآخرها ذكرا ما جاء فى آخر ﴿ سورة السجدة ﴾ قبل هذه إذ قال تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن فى مرية من لقائه » الخ . ثم جاء فى أول هذه السورة ذكر موسى إذ قال « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح » الخ . ثم سوى بين الأنبياء وتابعيهم فى سؤالهم عن عهودهم التى عاهدوها ، فالأنبياء مسئولون لتوبيخ المكذبين والمؤمنون مسئولون عما عاهدوا الله عليه هل صدقوا وثبتوا فى إيمانهم فجاهدوا وصبروا أم هم منافقون مذبذبون ، ولقد جاء فى [سورة إبراهيم] « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله » فذكرهم بالشدائد التى لاقوها من فرعون ، وبالنعم التى أنعم بها عليهم كخروجهم من ذل العبودية وأنهم ورثوا الأرض التى وعدوا بها ، هكذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يذكر المسلمين بغزوة الأحزاب والإنعام عليهم بنجاتهم منهم كما أنعم على بنى إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، فانظر كيف يقول لموسى « وذكرهم بأيام الله » ويقول الله للمسلمين فى القرآن « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم » ويقول موسى « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون » وهنا يقول الله سبحانه « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها » .

إن السورة قد ابتدئت بذكر الدوام على طاعة الله وعدم الميل مع المنافقين والكافرين أى اتحاد الوجهة النفسية والعملية فى الاعتقاد وفى الدعى وفى الزوجة ، فان اعتبار الزوجة أما واعتبار الدعى ابنا جمع بين المتناقضين كاجتماع طاعة الله وطاعة غيره . إن الله تعالى أرسل الرسل وهم صادقون وأتباعهم مسئولون عن عهودهم فهل يوفون بعهودهم ، أم يكونون كالمنافقين الذين يجمعون بين المتناقضين ؟ قول مصدق وعمل مكذب كما يجعل الدعىّ ابنا والزوجة أما . إن هذه القاعدة عامة فى الرسل وأتباعهم وهكذا هذه الأمة . إن الله لا يترك الناس أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . إن الله ابتلى المسلمين بالغزوات ومنها غزوة الأحزاب فمنهم من صدقوا ما عاهدوا الله عليه ومنهم من بدلوا ، فهذا الامتحان والابتلاء فى الاسلام تطبيق على القاعدة العامة فى قوله « وأخذنا منهم ميثاقا غليظا . ليسأل الصادقين عن صدقهم » .

يقول الله . إن هذه القاعدة عامة فى الأرض فلابد أن تنالوا حظكم منها فننظر أتصدقون ، وإذا كنا « آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا» . هكذا يا محمد ستكون أنت وأتباعك من صبروا منهم يكونون أئمة . وقوله « فلا تكن فى مرية من لقائه » فيه إشارة إلى هذا المعنى من طرف خفى كأنه قال آتيناك الكتاب كما آتيناه وسيكون لك نصر وأتباع هداة كما نصرناه وأيدناه .

﴿ أمة الإسلام اليوم ﴾

فعلى المسلمين أن يتدبروا هذه الغزوة ويتفكروا فيها فانها لم تذكر فى القرآن لمجرّد التبرك . إن الله خلق الناس على هذه الأرض ليعدهم إلى الرقى إلى عالم أرقى من هذا العالم ولا رقىّ إلا بأمرين : تهذيب جسمى وتأديب عقلى ، فلابد من نعم ونقم وخير وشر وعزّ وذل وصحة ومرض ، والمرء بين ذلك يربى ولا علم

له بالتربية ويؤدب ولا علم له بالتأديب . إن كل عمل نعمله فى الحياة يبعدنا عن المادة ويقربنا من عالم الأرواح فكل صناعة نتقنها وعلم ندرسه وعمل نتقنه يرقى نفوسنا فيجعلها صانعة ذات حكمة ما . ولقد جاء الاسلام وأمرنا الله بالجهاد وأمر نبينا نفسه أن يجاهد فكانت حياته كلها جهادا . فعلينا أن نقتدى به . علينا أن تكون حياتنا كلها جهادا يحرم علينا التوانى والكسل . الجهاد يستلزم جميع العلوم والصناعات . يستلزم علم الرياضيات والطبيعيات والإلهيات . يستلزم علم السياسات وعلم الاقتصاد وعلوم الحرب كلها واستخراج المعادن من الأرض وعلم الزراعة وعلوم العالم قاطبة . إن العلوم كلها والصناعات أشبه بحلقة مفرغة لايدرى أين طرفاها . فاذا اطلعت على ما كتبته فى [سورة البقرة] عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » وأن العلوم كلها والصناعات لاينفك بعضها عن بعض عرفت أن الجهاد يكون بها كلها وأن الأمم عليها أن تخص كل امرئ فى الصناعة أو العلم الذى هو أليق به . فالجهاد فى الإسلام يشمل جميع دوائر الحياة . ألا ترى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف قال لنعيم بن مسعود لما جاءه وقد أسلم سرا « إنما أنت فينا واحد فخذل عنا » فخصه بما هو أقوى عليه وهو التخذيل وقد نفذ الأمر فذهب إلى بنى قريظة وإلى قريش وغطفان وأوقع بينهم الفشل . أليس هذا بعينه هو علم السياسة . أليس علم السياسة اليوم هو هذا بعينه . أليست الأمم تفتح المدارس لتربية الشبان لأمثال هذا . أليس هذا من الجهاد ؟ لا لا بل هو سر الجهاد . أو ليس صانع المدفع وسائق القطر وسفير الدولة وكاتب الجيش وأمثالهم مجاهدين . إن الجهاد يشمل سائر فروع الحياة ومتى بطل فرع منها بطلت كلها . فاذا لم يكن قطرات تسير بالجنود لم يكن جهاد ولاقطرات إلا بالحديد ولا حديد إلا بالتجارة ولا تجارة إلا بالزراعة ولازراعة إلا بالأمن ولا أمن إلا بحكومة منظمة ولا حكومة منظمة إلا بعلاقاتها مع الأمم ولا علاقة لها مع الأمم إلا بحفظ كيانها والذب عن حياضها .

اللهم إن هذا هو دينك . وإنى قد أوضحت الأمر فى هذا التفسير . وإنى قد أديت ما علىَّ ، فألهم اللهم قراء هذا التفسير وأمثاله أن يجاهدوا فيك حق جهادك ويرجعوا مجد هذه الأمة ويكونوا رحمة للعالمين ويعدوا الأمة لمستقبلها الزاهر وسعدها الباهر ومجدها الفاخر وليعلموا الأمة أنها خلقت لانارة البصائر وتطهير السرائر وإقامة الشعائر وإسعاد الأمم وحفظ الذمم وأنهم خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين وهذا نتيجة ظهوره على الدين كله لأن الله لايظهر دينا على الديانات إلا إذا كان رحمة عامة وهذا هو ديننا فى مستقبل الزمان ، انتهى القسم الثانى من السورة .

(القسمُ الثالثُ)

يا أيُّها النَّبيُّ قُل لأزواجِكَ إن كُنتُنَّ تُرِدنَ الحيوةَ الدُّنيا وزينتَها فتعالَينَ أُمتِّعكُنَّ
وأُسرِّحكُنَّ سراحاً جميلاً * وإن كُنتُنَّ تُرِدنَ اللهَ ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ فإنَّ اللهَ أعدَّ
للمُحسِناتِ منكُنَّ أجراً عظيماً * يا نساءَ النَّبيِّ مَن يأتِ منكُنَّ بفاحشةٍ مُبيِّنةٍ يُضاعَفْ
لها العذابُ ضِعفَينِ وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً * ومَن يقنُتْ منكُنَّ للهِ ورسولِهِ وتعمَلْ
صالحاً نؤتِها أجرَها مرَّتَينِ وأعتَدنا لها رِزقاً كريماً * يا نساءَ النَّبيِّ لستُنَّ كأحدٍ مِنَ
النِّساءِ إنِ اتَّقيتُنَّ فلا تخضَعنَ بالقولِ فيطمعَ الذي في قلبِهِ مرضٌ وقُلنَ قولاً معروفاً *
وقَرنَ في بُيوتِكُنَّ ولا تبرَّجنَ تبرُّجَ الجاهليَّةِ الأولى وأقِمنَ الصَّلاةَ وآتينَ الزَّكاةَ وأطِعنَ
اللهَ ورسولَهُ إنَّما يُريدُ اللهُ ليُذهِبَ عنكُمُ الرِّجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِّرَكُم تطهيراً *
واذكُرنَ ما يُتلى في بُيوتِكُنَّ مِن آياتِ اللهِ والحكمةِ، إنَّ اللهَ كانَ لطيفاً خبيراً *
إنَّ المُسلمينَ والمُسلماتِ والمؤمنينَ والمؤمناتِ والقانتينَ والقانتاتِ والصادقينَ والصادقاتِ
والصابرينَ والصابراتِ والخاشعينَ والخاشعاتِ والمتصدِّقينَ والمتصدِّقاتِ والصائمينَ
والصائماتِ والحافظينَ فُروجَهُم والحافظاتِ والذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكراتِ أعدَّ
لهُم مغفرةً وأجراً عظيماً * وما كانَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُهُ أمراً أن
يكونَ لهُمُ الخِيَرةُ مِن أمرِهِم ومَن يعصِ اللهَ ورسولَهُ فقد ضلَّ ضلالاً مُبيناً * وإذ
تقولُ للذي أنعمَ اللهُ عليهِ وأنعمتَ عليهِ أمسِكْ عليكَ زوجَكَ واتَّقِ اللهَ وتُخفي
في نفسِكَ ما اللهُ مُبديهِ وتخشى النَّاسَ واللهُ أحقُّ أن تخشاهُ فلمَّا قضى زيدٌ منها وطراً
زوَّجناكَها لكَي لا يكونَ على المؤمنينَ حرجٌ في أزواجِ أدعيائِهِم إذا قضَوا منهُنَّ
وطَراً، وكانَ أمرُ اللهِ مفعولاً * ما كانَ على النَّبيِّ مِن حرجٍ فيما فرضَ اللهُ لهُ سُنَّةَ اللهِ
في الذينَ خلَوا مِن قبلُ، وكانَ أمرُ اللهِ قدَراً مقدوراً * الذينَ يُبلِّغونَ رسالاتِ اللهِ
ويخشونَهُ ولا يخشَونَ أحداً إلا اللهَ وكفى باللهِ حسيباً * ما كانَ مُحمَّدٌ أبا أحدٍ مِن
رجالِكُم ولكن رسولَ اللهِ وخاتَمَ النبيِّينَ وكانَ اللهُ بكلِّ شيءٍ عليماً * يا أيُّها الذينَ

ءامَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً * تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا * وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِى ءاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِى أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا * تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً * لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ رَقِيبًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنْكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمًا * إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيماً * لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِى ءابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ

وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا • إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا • إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا • وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا • لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا • مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا • سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا • يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا • إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا • خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا • يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا • وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا • رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا • يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا • يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا • إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا • لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا •

إن القسم السابق قد مضى فى جهاد الرجال وحفظ الثغور . فلما أتم الكلام عليه أخذ سبحانه يشرح جهاد النساء كأن يتركن الفاحشة ، وأن يقنتن لله ولرسوله ، وأن يفيض أزواج النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على الأمة العلم الذى عرفنه من النبوة ، وكأن يأمرن جميع النساء بالحجاب الشرعى والآداب العامة وما أشبه ذلك من كل حكم يختص بالنبى صلى الله عليه وسلم أو بأزواجه أو بما يحوم حول ذلك من احترامه وحفظ حرمته واجتناب أذاه ،

وفى هذا فتح باب للجهاد الأكبر بعد إتمام الكلام على الجهاد الأصغر كما قال صلى الله عليه وسلم «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» فان التدبير المنزلى ونظام العائلات وإقامة الشعائر كل ذلك جهاد عظيم أكبر من جهاد العدو . ألا ترى إلى قول (أرسطاطاليس) للاسكندر (إن الناس يحتملون الشدة ولكنهم لا يحتملون الرخاء) يريد أن الناس يقدرون على مكافحة الحروب ولكنهم إذا أبطرتهم النعماء لا يتحملونها بل تفتر قواهم وتضيع نخوتهم ويذهب مجدهم ولذلك أكد عليه أن يراعيهم فى أحوالهم ويشغلهم فان لم يشغلهم أيام الأمن هلكوا وضاعت دولهم ، فهكذا ههنا لما أتم الله الكلام على الجهاد أخذ يشرح الآداب المنزلية والأحوال الاجتماعية ، فاذا لم تنتظم فلا حياة للأمة .

ولقد مضى مثل هذا فى (سورة البقرة) فانه بعد أن ذكر أحكام الطلاق والعدة والرضاع والخمر والميسر واليتامى وما أشبه ذلك من كل عمل للناس فى أممهم ، أعقبه بذكر القتال فقال «ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف» الخ فهناك ذكر القتال بعد النظام الداخلى وهنا عكس الأمر إشارة إلا أن كلا منهما فى نفسه مطلوب فى وقته لا فضل للآخر عليه ، فان لم يكن نظام داخلى فلا نظام للحرب ، ومن أهملوا الدفاع عن مدنهم اختلت أحوالهم وضاعت مدنهم ، وفى هذا القسم فصول :

﴿ الفصل الأول فى خطاب النبى ﷺ لأزواجه بالزهد فى الدنيا ، والإخلاص لله وأن وزرهن وأجرهن ضعف غيرهن ، ووجوب ملازمتهن البيوت ، وعدم التبرج وإقامتهن الصلاة . وإيتائهن الزكاة ﴾

قوله تعالى (تردن الحياة الدنيا) أى السعة والتنعم فيها (وزينتها) زخارفها (أمتعكن) أعطكن المتعة . ومعلوم أن المتعة تستحب لكل مطلقة إلا المفوضة قبل الوطء (وأسرحكن سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وبدعة (أجرا عظيما) أى تستحقر دونه الدنيا وزينتها (فاحشة) كبيرة (مبينة) ظاهر قبحها (ضعفين) ضعفى عذاب غيرهن أى مثليه لأن الذنب منهن أقبح فزيادة قبح الذنب تتبع زيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعفى حد العبد ، وجعل ذنب العالم أشد من ذنب الجاهل ، وعوتب الأنبياء على مالا يعاتب عليه غيرهم (وكان ذلك على الله يسيرا) لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبى (ومن يقنت منكن) ومن يدم على الطاعة (نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة ومرة على طلبهن رضا النبى صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة (وأعتدنا لها رزقا كريما) فى الجنة (لستن كأحد من النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ، وهو فى النفى عام للمذكر والمؤنث والواحد والكثير ، أى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء (إن اتقيتن) مخالفة حكم الله ورضا رسوله (فلا تخضعن بالقول) فلا تجبن بقولكن خاضعا لينا مثل المريبات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) فجور (قولا معروفا) حسنا بعيدا عن الريبة (وقرن فى بيوتكن) من وقر يقر وقارا أو من قر يقر مع تصرف بحذف الأولى من راءى اقررن ونقل كسرتها إلى القاف فتحذف همزة الوصل ، ويصح أن يكون من قار يقار إذا اجتمع (ولا تبرجن) ولا تتبخترن فى مشيتكن وتتكسرن أو لا تظهرن زينتكن وتبرزن محاسنكن (تبرج الجاهلية الأولى) تبرجا مثل تبرج النساء فى أيام الجاهلية القديمة وهى جاهلية الكفر قبل الاسلام ، أما الجاهلية الأخرى فهى جاهلية الفسوق فى الاسلام (وأطعن الله ورسوله) فى سائر ما أمركن به ونهاكن عنه (الرجس) الذنب المدنس لعرضكن (أهل البيت) نصب على النداء أو المدح (ويطهركم) من المعاصى ، واعلم أن تخصيص أهل البيت بعلى وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم أجمعين لم يقم عليه دليل ، وإذا ثبتت الأحاديث الواردة فى ذلك فهى لا تفيد التخصيص وقوله (من آيات الله والحكمة) أى من القرآن والسنة (إن الله كان لطيفا) عالما بغوامض الأشياء (خبيرا) عالما بحقائقها

أى

أى هو عالم بأفعالكن وأقوالكن . انتهى تفسير مايحتاج إليه من الألفاظ فى هذا الفصل من قوله تعالى «ياأيها النبى قل لأزواجك » إلى قوله «إن الله كان لطيفا خبيرا» .

﴿ لطيفة ﴾

ورد أن سبب نزول آية التخيير أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يأذن يوما لأحد بدخول منزله إلا أبا بكر وعمر فدخلا فوجداه جالساء حوله نساؤه وهو واجم ساكت فأخذ عمر يضحكه ويقول: يارسول الله لقد رأيت بنت خارجة سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها فضحك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال هن حولى كما ترى يسألننى النفقة ، فقام كل من أبى بكر وعمر إلى عائشة وحفصة يوبخانهما ويضربانهما ويقولان تسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماليس عنده ثم اعتزل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه شهراً أو ٢٩ يوماحتى نزلت هذه الآية «ياأيها النبى قل لأزواجك» إلى قوله «للمحسنات منكن أجرا عظيما» قال فبدأ بعائشة ، فقال ياعائشة إنى أريد أن أعرض عليك أمرا أحب أن لاتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت وما هو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، فقالت أفيك يارسول الله أستشير أبوى ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله فنزل «لايحل لك النساء من بعد» .

﴿ حكم الآية ﴾

إذا خير الرجل امرأته فاختارت زوجها

(١) لايقع شىء عند عمر وابن مسعود وابن عباس وأكثر الأئمة .

(٢) ويقع طلقة واحدة عند زيد بن ثابت ، وفى رواية عن على .

(٣) وإن اختارت نفسها وقع طلقة واحدة رجعية عند عمر بن عبد العزيز وابن أبى ليلى وسفيان والشافعى رضى الله عنه .

(٤) وطلقة بائنة عند أصحاب الرأى ، وفى رواية عن على .

(٥) وثلاث طلقات عند زيد بن ثابت والحسن ومالك .

﴿ الفصل الثانى: فى الصفات التى يجب على الرجال والنساء أن يكونوا عليها من المسلمين ، وفى قصة زينب بنت جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم من قوله «إن المسلمين والمسلمات» إلى قوله « وكفى بالله حسيبا » ﴾

ههنا ذكر الله عشر (صفات) للرجال والنساء ، وهى (الاسلام) وهو الانقياد لحكم الله (الإيمان) أى التصديق بما يجب أن يصدق به (القنوت) أى المداومة على الطاعة (الصدق) فى القول والعمل (الصبر) على الطاعات وعن المعاصى (الخشوع) أى التواضع لله بالقلوب والجوارح (التصدق) بما وجب على الانسان من ماله وبما هو مستحب (الصيام) المفروض أو هو وغيره (حفظ الفرج) عما لايحل (كثرة الذكر لله) بالقلب واللسان ، فهؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات العشر « أعد الله لهم مغفرة » لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات لها «وأجرا عظيما » على طاعتهم .

﴿ ذكر أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها وزواجها لزيد بن حارثة ثم طلاقها منه وزواجها للنبي صلى الله عليه وسلم ﴾

خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بنت عمته أميمة على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله ، ولقد كانت رضيت فى أول الأمر إذ ظنت أنه صلى الله عليه وسلم خطبها لنفسه ، فلما علمت بالحقيقة أبت وهذا قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أى وما صح لرجل مؤمن ولا امرأة مؤمنة (إذا قضى الله ورسوله) أى رسول الله (أمرا) من الأمور (أن تكون لهم الخيرة من أمرهم) أى أن يختاروا من أمرهم ماشاءوا بل عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه والخيرة مايتخير (ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) بين الانحراف عن الصواب . واعلم أن الله عز وجل يعلم مستقبل الأمم الإسلامية وأن للنسب دخلا عظيما ، وأن الأمم يعتريها الاضمحلال والخراب بسبب تفرق أهوائها ، وتفرق أهوائها إنما يكون بالدواعى المتشعبة وأنه لا مصيبة أنكى ولا فتق أوسع ولا صدع أعظم من تصدع المسلمين وتفرق شملهم وتفرق كلمتهم باتباع ذوى الأنساب المتصلين بذوى الشرف والعلم لاسيما المتصلين بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم . علم الله ذلك فقطع الأمر قبل حصوله وبته قبل وجوده وأظهره بمظهر لا مدخل للشك فيه ، إذ أوحى إلى نبيه أنى مزوجك زينب ابنة جحش بعد أن يطلقها زيد ، ألا وإن الله يعلم أن ابنا سيكون لأسامة اسمه زيد وأنه سيكون له القدح المعلى فى الغزوات أيام أبى بكر ، فلو أن الأمر بقى بلا إيضاح عملى وتشريع فعلىّ لجاز لأسامة أن يدعى الخلافة وسيأتى تفصيل هـذا وأمثاله فى (رسالة تعدد الزوجات) التى ستذكر فى آخر هذه السورة .

أقول : لمـا أوحى الله إلى النبى صلى الله عليه وسلم أن زينب ستكون زوجته ألقى الكراهة فى قلب زيد لها كما أنها كارهة له ، فلما جاء زيد وقال إنى أريد أن أطلقها قال له « أمسك عليك زوجك واتق الله » فعاتبه الله تعالى وقال له لم قلت «أمسك عليك زوجك» وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ تقول للذى أنعم الله عليه) بالاسلام (وأنعمت عليه) بالاعتاق والتبنى وهو زيد بن حارثة حين قال لك إنى أريد أن أفارق صاحبتى ، وقلت له أرابك منها شىء ، فقال لا والله يارسول الله مارأيت منها إلا خيرا ولكنها تتعظم علىّ بشرفها وتؤذينى بلسانها (أمسك عليك زوجك) زينب ، وهو مقول لقوله تقول (واتق الله) فى أمرها فلا تطلقها ضرارا وتعللا بتكبرها (وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) وهو أنك ستنكحها وأن زيدا قبل ذلك سيطلقها (وتخشى الناس) تعييرهم إياك به (والله أحق أن تخشاه) إن كان فيه مايخشى فترى من هذا أن الله عاتبه على إخفاء ماأعلمه الله وهوأنها ستكون زوجته ، وإنما أخفى ذلك استحياء أن يخبرزيدا أن التى تحتك وفى نكاحك ستكون زوجتى وذلك مقدمة لذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ليس أبا أحد من الرجال .

روى مسلم عن أنس قال « لما انقضت عدة زينب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد اذهب فاذكرها علىّ » ، فانطلق زيد حتى أتاها وهى تخمر عجينها فأبلغها ، فقالت ماأنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى فقامت إلى مسجدها ونزل القرآن وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليها بغير إذن ، قال أنس فلقد رأيتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أطعمنا الخبز واللحم حتى امتد النهار فخرج الناس وبقى أناس يتحدثون فى البيت بعد الطعام فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجت معه فجعل يتتبع حجر نسائه وابتعته وهو يسلم عليهن فانطلق يدخل البيت وذهبت لأدخل معه فألقى الستر بينى وبينه ونزل الحجاب » انتهى المقصود من الحديث ملخصا .

ولقد كانت زينب تقول للنبي صلى الله عليه وسلم إني لأدل عليك بثلاث ، مامن امرأة من نسائك تدل بهن : جدى وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله في السماء، وإن السفير جبريل عليه السلام، وهذا قوله تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا) حاجة بحيث ملها ولم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها (زوجناكها) أى جعلناها زوجة لك بلا واسطة عقد (لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا) لأن حكم النبي صلى الله عليه وسلم وحكم أمته واحد إلا فيما خصه الدليل (وكان أمر الله مفعولا) قضاؤه ماضيا وحكمه نافذا (ماكان على النبي من حرج فيما فرض الله له) قسم له وقدر كما تقول فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العسكر لأرزاقهم ، سنّ الله ذلك (سنة الله في الذين خلوا من قبل) من الأنبياء وهو نفي الحرج عنهم فيما أباح لهم (وكان أمر الله قدرا مقدورا) قضاء مقضيا وحكما مبتوتا ، ثم وصف الذين خلوا بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) تعويض بعد التصريح (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف أو محاسبا فينبغي أن لا يخشى إلا منه .

(لطيفة)

هذه الآية تفرض على الناس الشجاعة الأدبية ، وقول الحق ، وإعلان الأمة بالحقائق ، وإذا أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بأن لا يكتم أمرا لابد من ظهوره ، لاضرر في كتمانه ، فكيف يكتم الناس العلوم ولا يظهرونها للأمة وها نحن أولاء الآن في زمان أحوج إلى إظهار الحقائق في كل زمان .

يا أمة الإسلام . نزلت هذه الآية وعوتب النبي صلى الله عليه وسلم في أمر لاضرر في كتمانه . انظروا انظروا . كم مصيبة نزلت بالاسلام والعلماء يخافون أن يجهروا بالحقائق . إن الله جعلنا تابعين للنبيّ صلى الله عليه وسلم فالله هو الذي يؤمننا من المخاوف. قولوا للمسلمين كفى خمولا وجهالة كفى نوما . فكروا في هذه الدنيا ونظامها . اقرءوا العلوم التي عرفتها الأمم . إن القرآن طافح بها . قولوا للرؤساء كفى تعاظما . كونوا أيها الرؤساء خادمين للأمة . كفى تخاذلا وتهاونا . لاتتعالوا بالأنساب لتجعلوا الناس عبيدكم حتى أصبحتم عبيد الفرنجة . قولوا لأبناء النبي صلى الله عليه وسلم الذين لهم ملك أن لا يناموا عن رقيّ الأمة فإن هذا الملك لن يدوم وستأخذه الفرنجة لجهل الشعب . حرام أن يجعل الناس جهلاء لأجل أفراد من الأمة . الشعب كله يجب أن يتعلم . يجب التصريح بذلك وإذاعة الحقائق ، وإلا فالعلماء معاقبون أشدّ عقاب ولا سيما من قرأ مثل هذا التفسير فإنه مسئول عن إذاعته بين الناس .

(الفصل الثالث : في فضل النبي صلى الله عليه وسلم وعموم رسالته)

(من قوله تعالى « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم » إلى قوله « وكفى بالله وكيلا »)

قال تعالى (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم) على الحقيقة فإذن لاتثبت حرمة المصاهرة كما في زيد بن حارثة ، وهو وإن كان أبا للطاهر والطيب وإبراهيم والقاسم فهم لم يبلغوا الحلم (ولكن رسول الله) فهو إذن أبو أمته من حيث إنه شفيق ناصح لهم واجب التوقير والطاعة عليهم (وخاتم النبيين) فهو آخرهم الذي ختمهم أو ختموا به . قال ابن عباس يريد لو لم أختم به النبيين لجعلت له ابنا فيكون بعده نبيا ، وعنه قال إن الله لما حكم أن لانبي بعده لم يعطه ولدا ذكرا يصير رجلا (وكان الله بكل شيء عليما) فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة، وكيف ينبغي أن يكون شأنه . يقول مؤلف هذا التفسير إن تكرار القول في عدم بنوة زيد وخلق السبب العملي الموجب لذلك ذو شأن عظيم في قضية النبوة لولا هذا التأكيد والتكرار والتقوية لادعى قوم أن زيدا نبي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن الله احتاط لذلك أشد الحيطة . ومن العجب أن أمة الإسلام مغرمة بالأنساب وبالأشخاص في بعض الجهات وهذا من أضل الجهالات التي ابتلى بها

المسلمون . فكم دخل فى آل بيت النبوة من دعى . وكم ادعى قوم أنهم من السلالة الهاشمية وبنوا على ذلك الرياسة على الناس وأضلوا كثيرا إذ لم يكونوا أهلا للرياسة بالعلم والعمل المؤهلين لها . إن فضل المؤمن بعمله وباتباعه وبصدقه وبعدله ، والنسب أمر ثانوى. إن الله لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وقد أمرنا أن نحمده على ذلك لأن الولد يشغل عن غيره فلا ولد ولا شريك ولا ناصر له بل هو رب العالمين ، فهو عدل حكيم ، ولما أراد تكميل رسوله صلى الله عليه وسلم قال « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله» وإنما هو أب للجميع منه يستضىء كل مستعد للاضاءة فأما الأبوة البشرية فليس فيها هذا النظام إذ قد يلد الفاضل فاسقا ولذلك أعقبه بقوله (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) . قال ابن عباس «لم يفرض الله عز وجل على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فإنه لم يجعل له حدا ينتهى إليه ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على عقله » وأمرهم به فى الأحوال كلها فقال تعالى « فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم » وقال تعالى « واذكروا الله كثيرا » يعنى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى الصحة والسقم، وفى السر والعلانية . وقيل الذكر الكثير الاينساه أبدا (وسبحوه بكرة وأصيلا) أول النهار وآخره خصوصا ، والمقصود من التسبيح أن يكون الذكر على وجه التعظيم والتنزيه عن كل ما سواه ، والمقصد من ذكر طرفى النهار المداومة لأن ذكر الطرفين يفهم منه الوسط أيضا ، ويدخل فى ذلك صلاة الصبح والعصر ، ومن أدخل فى الأصيل صلاة الظهر وما بعدها إلى العشاء فقد توسع فى المعنى ويدخل أيضا « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » ويكون من التكثير هنا أن الطاهر والجنب والحائض والمحدث يقولها (هو الذى يصلى عليكم وملائكته) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة استغفار للمؤمنين ، ومن رحمته تعالى إشاعة الذكر الجميل للعبد فى عباده والثناء عليه (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) يعنى أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان (وكان بالمؤمنين رحيما) حتى اعتنى بصلاح أمرهم واستعمل فى ذلك ملائكته المقربين (تحيتهم) أى تحية الله تعالى للمؤمنين (يوم يلقونه) يوم لقائه عند الموت وعند الخروج من القبر وعند دخول الجنة (سلام) أى يسلم الرب عليهم ويسلمهم من جميع الآفات . روى عن ابن مسعود قال « إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال ربك يقرئك السلام » واعلم أن السلامة من الآفات فى هذه الدنيا مستحيلة ولذلك جعلوا مبدأها عند الموت اللهم إلا قوما أدركوا سر هذا الوجود ودرسوه وعرفوا أن الرحمة تعم ظاهره وباطنه وظاهر الآخرة وباطنها وفهموا ذلك وتحققوه حتى صار ممزجا بنفوسهم ، فمثل هؤلاء يرون الوجود كله سعادة ، وكل ما يحل بهم أو بغيرهم أو يسمعونه من أنواع الآلام فإنهم يفهمونه كله على وجه يشرح صدورهم ، ويرون أنه حكمة تامة ونظام جميل، ويوقنون أنه ليس فى الإمكان أبدع من ذلك ، وهؤلاء قد سمعوا السلام من الله فى الحياة قبل الموت فى هذه الدنيا وأنسوا بربهم ولكن هذا الوجدان عزيز الوجود لأنه يعز على الناس أن يعقلوا شياطين وجنا وأبالسة ونيرانا جهنمية ويقولوا إن هذه رحمة ، فأما أولئك الأفذاذ فلهم دراسة أتم ومعرفة أهم وعلم أكمل وعرفان أعم ويصبح الوجود عندهم كأنه إنسان واحد وحيوان واحد ، وهذه من لوازمه أو عمل من أعمال هيئته لابد منه « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وقوله (وأعد لهم أجرا كريما) هو الجنة (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا) على من بعثت إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتهم وضلالهم وهذه حال مقدرة (ومبشرا) لمن آمن بالجنة (ونذيرا) لمن كذب بالنار (وداعيا إلى الله) أى إلى توحيده وطاعته (باذنه) بأمره (وسراجا منيرا) يستضاء به فى ظلمات الجهالات ويقتبس من نوره أنوار البصائر ، فراقب أحوال أمتك (وبشر المؤمنين بأن لهم من

الله

الله فضلا كبيرا) على سائر الأمم فإنهم سيغيرون نظام النوع الإنسانى من الظلم إلى العدل كما فى نهضة الإسلام الأولى ، وسيصلحون شأن الأمم المنهمكة فى الضلالة فى مستقبل الزمان بعد زماننا كما قال تعالى « ليظهره على الدين كله » وبهذا يكون ثوابهم فى الآخرة عظيما (ولا تطع الكافرين والمنافقين) ودم على مخالفتهم (ودع أذاهم) إيذاءهم إياك ولا تحتفل به (وتوكل على الله) فإنه يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) حافظا وموكولا إليه الأمر فى الأحوال كلها .

﴿لطيفة﴾

اعلم أن الله عزوجل لما قرر أمر النبوة وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس أبا لأحد من الرجال ، وأن النبوة أبوة عامة ، وأكد ذلك بالقول وبالفعل لقطع أطماع الرجال فى الاعتزاز بذلك أعقبه بذكر ما به يتفاضل الناس وتعظم أقدارهم ويشرفون فى الدنيا والآخرة فأمر بذكر الله كثيرا وتسبيحه وأنه سبحانه يرحم المؤمنين رحمة خاصة بالهداية وأنه يحييهم بالسلامة والأمان ويدخلهم نعيما مقيما ، وأتبع ذلك بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم أنه سراج والسراج تقتبس منه السرج ، فالأنبياء يستضاء بهم وتعرف بأنوارهم المشكلات فى دياجى ظلمات الجهالات كما يستضاء بالسراج فى الطرقات ويقتبس من أنوارهم كما يقتبس من السراج سرج أخرى ، ولذلك تجد العلماء فى كل أمة تابعين لأنبيائهم مقتبسين من أنوارهم مرشدين لأممهم وليس الأب الجسمى كذلك ، إن الأب الجسدى يلد ابنا ولادة مادية ، والأنبياء يلدون ولادة نورية ، هذا هو الذى يرشد له ذكر السراج فى هذا المقام ، فالأنبياء يلدون بهذا المعنى وخلفاؤهم هم المقتبسون منهم وعليه فليس أحد أولى بالأنبياء ممن اقتبسوا من أنوارهم وإلا فإن نوحا قد كفر به ابنه وقال الله له « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » فرجعت ولادة الأنبياء إلى الاقتباس منهم وإلى الاهتداء بهديهم ، فمن اكتفى بالنسب الجسمى للأنبياء فهو ضال مضل كاذب على الله ، فإذا ادعى أحد إخواننا وأبناء أعمامنا الشرفاء أن النسب وحده يرفعه عند الله فإن هذه الآية تكذبه وإلا فلماذا هذا التأكيد كله والتذكير ، فلا شرف لامرئ إلا باقتباس من الأنوار العلمية ، ذلك هو الشرف الحقيق فى الدين « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

إن العرب فى الجاهلية وأكثر الناس فى هذه الحياة الدنيا شرقا وغربا لا يصدقون بعالم غير عالم الأجسام ولا يعقلون أن هناك أرواحا لطيفة تدبر أهل الأرض وتهديهم ، فانظر كيف ذكر الله هنا أنه هو يرحم المؤمنين ورحمته عامة لهم ولغيرهم من حيث الحياة الجسمية ، فأما رحمة الهداية فهى خاصة بهم ، فهكذا أرشدنا إلى أنه سبحانه لم يدع هذا العالم بلا أرواح شريفة تقوم بالتدبير والتعليم كما نرى أنفسنا على هذه الأرض تقوم بالأعمال الجسمية والعقلية ، إن جميع الأرواح لها عمل فلا شىء فى الوجود معطل ، وإذا كانت أرواحنا اليوم قائمة بتدبير هذه الأجساد فإن لها بعد الموت أعمالا تناسب تربيتها فى هذه الدنيا ، فالضالون هنا يضلون غيرهم إما طبعا وإما قصدا لقصد الشر والايذاء ، وهكذا النفوس الطيبة هنا ترجع إلى عالم الأرواح وهى فى مركزها الذى خلقت فيه فى الدنيا من حيث الاصطلاح والتعليم بالالهام والتى قبلها بالوسوسة .

ولعلك تقول ومالنا ولهذا المبحث ، إن الآية فيها ذكر الملائكة وإنهم يصلون على المؤمنين أى يستغفرون لهم ، فأى مناسبة لذلك ؟ أقول لك على رسلك . اعلم أن هذا القرآن نزل للناس بأمور غائبة عن العقول لا يصدقها الناس تصديقا حقا ولكنهم يؤمنون به إيمانا والإيمان شىء واليقين شىء آخر ، ولقد ظهر اليوم فى العالم الغربى هذا العلم . وقد تقدم فى هذا التفسير أنى نقلت لك ما ذكره العلامة (أولفرلودج) الذى هو أشهر عالم طبيعى فى أوروبا إذ قال [إنه أصبح موقنا بسبب تحضير الأرواح أننا نعيش فى عوالم من الأرواح نسبتنا إليهم كنسبة النمل إلينا من حيث الإدراك والعقل ، وهم يهتمون بأمرنا ويسعون فى مصالحنا ، وعلم

الأرواح اليوم شاع وذاع بأوروبا ، وقد اتضح فيه أن أرواحنا بعد الموت صائرة إلى نحو ذلك فهي إما ملهمة الخير أو ساعية للشر فكأنها ملحقة بعالم الملائكة وعالم الشياطين ، وتجد نظير هذا في تفسير الإمام الرازي في سورة إبراهيم وسورة النازعات إذ قال في الثانية [إن الروح الانسانية هي التي تصير من المدبرات أمرا] أي أنها قد تلحق بعالم الملائكة ، وقد قسم العلم الفيلسوف (الان كاردك) الأرواح إلى طبقات ثلاث وهي الأرواح السفلية والعلوية والنقية ، وقال إن السفلية هي التي في مؤخر الدرجات والمادة متسلطة عليها، فهي في الحياة محبة الشر والفساد وفي الموت ملقية الشر والعداوات بالوسوسة ، فقال في العلوية إنها متسلطة على المادة ومحبة الخير . ومنها الصالحة وهي تحب الصلاح العام وعمل البر وإلهام البشر أفكارا صالحة ومعارفها محدودة وأدبها أكثر من علمها . ومنها الأرواح الحكيمة وهي ذات أخلاق حسنة ولكن علومها أوسع. ومنها الأرواح الرفيعة وهي التي جمعت بين الكمال العلمي والأدبي ، وهذه لاتعطى تعليمها إلا لمن يطلب الحق بخلوص نية وقال في النقية إنما هي التي بلغت ذروة الكمال وتجردت من كل نقص ولم يعد للمادة أدنى تأثير فيها فأصبحت ناظرة لله مغتبطة به ، ولن يناجيها الانسان إلا إذا كان ذا فضيلة سامية وقلب مجرد من كل أمر ذميم ونفس أرضى مادى ، واستنتج العلماء من ذلك أنه ليس كل إلهام نأخذ به لأن معارف الأرواح الملهمة ليست في درجة واحدة فكم من إلهام ناقص يضر العمل به اهـ .

هذا ما يدور في محافل العالم الأوروبي اليوم ، فانظر كيف يخبر الله أن الملائكة يصلون علينا أي لاخراجنا من الظلمات إلى النور ، وانظر كيف ترى أن علماءنا رحمهم الله قالوا [إن هناك وسوسة وإلهاما من الملائكة] وكيف يقول الإمام الرازي والغزالي ورجال إخوان الصفاء [إن أرواحنا ملحقة بعد الموت بعالم الشياطين والملائكة إلهاما ووسوسة] وكيف يقرر ذلك نفسه العلامة (الان كاردك) في أوروبا والمسلمون لايعلمون .

انظر كيف يظهر سر القرآن في أوروبا والمسلمون في الشرق نائمون ، كيف يقول (كاردك) المذكور [إن الأرواح النقية التي لم يبق لها مأرب في المادة تعاين الله وهي به مغتبطة] يقولها هذا الافرنجي من علم الأرواح وهو لم يسمع قول الله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » فعبر الله سبحانه عن نقاوة الروح من كل رجس بنضارة الوجوه ، ومتى نضرت الوجوه نظرت الله فكأن أرواحنا ترتقي من عالم إلى عالم درجات وراء درجات وتتخطى في الجنان درجة بعد درجة حتى تصل إلى أعلى الدرجات وتكون إلى ربها ناظرة ، وفي أثناء مرورها على النيران تكون موسوسة شريرة ، وفي أثناء مرورها على الجنان تكون ملهمة الخير معلمة وتصعد إلى أن ترى ربها ، ولا معنى لرؤية الله والنظر إليه إلا بزيادة الكشف المعبر عنه في الحديث بأننا نراه كما نرى القمر ليلة البدر، فالعامة يظنونه نظر بصر والخاصة يرونه أرقى وأوسع من نظر البصر بل نظر البصر ضعيف ضئيل مادي ، أفليس المسلمون أولى بهذه العلوم وبمعرفة الأرواح حتى يدركوا سر هذه الآية .

أما أنا فأقول : الحمد لله الذي جعل في قدمائنا من بحثوا ودققوا وذكروا مثل هذا القول ، ولولا أنهم ذكروه كما قلته لك لم يتجاسر أحد أن ينقل عن أوروبا مثل هذا لئلا يعد ذلك خروجا عن الدين ، والأمة اليوم في مبدأ نهضة جديدة ، فلن تقبل حديثا إلا إذا وصل بقديمها ثم تأتي أجيال يستقلون بالرأى ويكونون أوسع حرية إذ يرون الجو فسيحا والعلم منتشرا ، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وصلى الله على نبينا وآله وصحبه وسلم .

﴿الفصل الرابع: فى المطلقة قبل الدخول، وفيما يحل للنبى صلى الله عليه وسلم من النساء . وفى بعض الأحكام المناسبة لذلك من قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات » إلى قوله « واتقين الله إن الله كان على كل شىء شهيدا »﴾

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) تجامعوهن (فمالكم عليهن من عدة تعتدونها) تستوفون عددها . وليس تخصيص المؤمنات مخصصا للحكم بل هو عام وذكرهن بفائدة تخير النطف لاتخصيص الحكم (فمتعوهن) أى أعطوهن ما يستمتعن به، وقد تقدم إيضاحه فى [سورة البقرة] وذلك التمتيع إما فرضا إذا لم يكن سمى لها مهرا وإما ندبا إذا كان سمى لها المهر فيكون التنصيف وجوبا والتمتيع سنة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم لأنهن ليس عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا منع حق .

﴿لطيفة﴾

إذا طلق الرجل امرأة قبل النكاح لايقع الطلاق لظاهر الآية لأنه سبحانه قال « إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن » ولم يقل طلقتم ثم نكحتم ، فلو علق الطلاق قبل النكاح عليه سواء أكان لامرأة معينة أم لكل امرأة فإن الطلاق لايقع ، وهذا رأى الأكثرين كابن عباس وعلى وجابر ومعاذ وعائشة والشافعى ، وقال ابن مسعود وأصحاب الرأى والنخعى يقع الطلاق ، وقال مالك وربيعة والأوزاعى : إن عين امرأة وقع وإلا فلا اه .

ثم قال تعالى (ياأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) مهورهن لأن المهر أجر على البضع، وليس التقييد بإيتاء المهر معجلا إلا لإيثار الأفضل وإلا فالحل ليس متوقفا على ذلك التعجيل كما لايتقيد إحلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) من السبى مثل صفية وجويرية ، وإنما كان القيد بذلك لأن المشتراة لايعرف بدء أمرها وما جرى عليها ، وقوله (وبنات عمك وبنات عماتك) وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) المعية هنا ليست للقرآن بل لوجودها فحسب كقوله تعالى حكاية عن بلقيس «وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين» فيحل له صلى الله عليه وسلم بنات العم والعمة من بنى عبد المطلب وبنات الخال والخالة من بنى عبد مناف بن زهرة بشرط أن يكن هاجرن من مكة إلى المدينة، والتقييد بالهجرة إما للحل وإما للأفضل، ويؤيد الأول قول أم هانىء بنت أبى طالب « خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت إليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لأنى لم أهاجر معه» ثم عطف على ماسبق قوله (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) يقول الله أحللناك حل امرأة مؤمنة تهب لك نفسها ولا تطلب مهرا كأم شريك بنت جابر العامرية أو ميمونة بنت الحارث أو زينب بنت خزيمة الأنصارية أو خولة بنت حكيم وذلك مشروط بأن يريد النبي نكاحها فان لم يقبله فلا تحل ، وقوله «خالصة لك» أى بلا مهر وهى حال من الضمير فى وهبت . وقوله «لك من دون المؤمنين» أى أنه يجب المهر على غيرك وإن لم يسمه أو نفاه .

﴿حكم من تهب نفسها﴾

إذا وهبت امرأة نفسها للنبى صلى الله عليه وسلم فالأمر ظاهر أنه ينعقد نكاحا بلا ولى ولا شهود ولامهر لقوله تعالى «خالصة لك» وأيضا له الزيادة على الأربع ويجب عليه تخيير النساء وحده . وقال بعض العلماء بل لا ينعقد له إلا بلفظ النكاح والتزويج كما فى حق سائر الأمة لأنه عبر بلفظ الاستنكاح ، فالاختصاص إنما هو

فى ترك المهر، فأما من وهبت نفسها لغيره صلى الله عليه وسلم فانه لا ينعقد نكاحها بل لابد من لفظ الإنكاح أو التزويج وهو قول سعيد بن المسيب والزهرى وربيعة ومالك والشافعى. وقال النخعى وأهل الكوفة ينعقد بلفظ التمليك والهبة، وقوله تعالى (قد علمنا مافرضنا عليهم فى أزواجهم) أى من شرائط العقد ووجوب القسم والمهر بالوطء إذا لم يسم (وما ملكت أيمانهم) أى ما أوجبنا من الأحكام فى ملك اليمين. وهذه الجملة معترضة بين قوله تعالى «خالصة لك من دون المؤمنين» وقوله (لكى لايكون عليك حرج) أى أحللنا لك أزواجك وما ملكت يمينك والموهوبة، واختصصناك بذلك لكيلا يكون عليك ضيق والجملة الاعتراضية تفيد أن ذلك ليس للتوسيع عليه وحده والتضييق على المسلمين بل هناك معان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة وبالعكس أخرى وسترى إيضاحه فى [رسالة تعدد الزوجات] الملحقة بهذه السورة. وقوله (وكان الله غفورا) أى لما يعسر التحرز منه (رحيما) بالتوسعة فى مظان الحرج (ترجى من تشاء منهن) أى تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوى إليك من تشاء) وتضم إليك وتضاجعها (ومن ابتغيت) طلبت (ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالارجاء فلا ضيق عليك فى ذلك (ذلك) التفويض إلى مشيئتك (أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى أقرب إلى قرة عيونهن وقلة حزنهن ورضاهن جميعا لأنهن إذا علمن أن هذا التفويض من عند الله اطمأنت نفوسهن وذهب التغاير وحصل الرضا وقرت العيون (والله يعلم مافى قلوبكم) وهذا وعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله فى ذلك (وكان الله عليما) بما فى القلوب (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فعلى الناس أن يحذروه.

روى عن أبى رزين قال «لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقن فقلن يانبى الله اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ودعنا على حالنا فأرجأ منهن خمسا وآوى إليه أربعا» انتهى باختصار، وسنوضحه فى رسالة [تعدد الزوجات] الآتية. وكذا مابعده مفصلا هناك وهو قوله تعالى «لايحل لك النساء من بعد» من بعد التسع (ولا أن تبدل بهن من أزواج) فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى (ولو أعجبك حسنهن) حسن الأزواج المستبدلة وهى أسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبى طالب لما استشهد جعفر أراد صلى الله عليه وسلم أن يخطبها فنهى عن ذلك (إلا ماملكت يمينك) وقد ملك بعد هؤلاء مارية القبطية (وكان الله على كل شىء رقيبا) أى حافظا وهذا يدل على جواز النظر إلى من يريد الانسان نكاحها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل» أخرجه أبو داود. وعن المغيرة بن شعبة قال «خطبت امرأة فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم هل نظرت إليها؟ قلت لا قال انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما».

هذا، وقد تقدم حديث أنس بن مالك. وقوله فى الحديث ما ملخصه «إن القوم طعموا فى وليمة زينب بنت جحش وخرج قوم وبقى آخرون. فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وخرج معه أنس حتى جاء حجرة عائشة ورجع فاذا هم جلوس فرجع حتى بلغ حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا فرجع ورجع معه أنس فاذا هم قد خرجوا فضرب النبى صلى الله عليه وسلم بينه وبين أنس بالستر وأنزل الحجاب وسمع أنس النبى صلى الله عليه وسلم يقول (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم) أى إلا وقت أن يؤذن لكم (إلى طعام) متعلق بيؤذن حال كونكم (غير ناظرين إناه) أى غير منتظرين نضجه ووقت إدراكه (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا) تفرقوا ولا تمكثوا، والآية لأولئك الذين يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون ويقعدون منتظرين لادراكه فهى لهم ولأمثالهم ولولا ذلك لمنع من يدخل بيته بالاذن لغير الطعام ومن يمكث بعد الطعام لهم ولا قائل به فافهم (ولا) تمكثوا (مستأنسين لحديث) لحديث

بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له (إن ذلكم) اللبث (كان يؤذى النبي) لتضيق المنزل عليه (فيستحي منكم) من إخراجكم (والله لايستحي من الحق) يعنى أن إخراجكم حق فينبغى أن لايترك حياء كما لم يتركه الله ترك الحيى فأمركم بالخروج (وإذا سألتموهن متاعا) شيئا ينتفع به (فاسألوهن) المتاع (من وراء حجاب) ستر . روى «أن عمر رضى الله عنه قال يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت هذه الآية (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) وما صح لكم (أن تؤذوا رسول الله) أى تفعلوا معه ما يكرهه (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) من بعد وفاته أو فراقه ، وخص التى لم يدخل بها لما روى أن أشعث بن قيس تزوج المستعيذة فى أيام عمر رضى الله عنه فهمّ برجمها فأخبر بأنه صلى الله عليه وسلم فارقها قبل أن يمسها فترك من غير نكير (إن ذلكم) أى إيذاءه ونكاح أزواجه (كان عند الله عظيما) ذنبا عظيما ، ثم بالغ فى الوعيد لحرمته صلى الله عليه وسلم فقال (إن تبدوا شيئا) كنكاحهن على ألسنتكم (أو تخفوه) فى صدوركم (فان الله كان بكل شىء عليما) فيعلم ذلك فيجازيكم به (لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن) يعنى النساء المؤمنات (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد والإماء أو من الإماء خاصة . انظره فى [سورة النور] (واتقين الله) فيما أمرتن به (إن الله كان على كل شىء شهيدا) لايخفى عليه خافية . روى « أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب يارسول الله أو نكلمهن من وراء حجاب فنزلت » ولم يذكر العم والخال لأنهما بمنزلة الوالدين . انتهى الفصل الرابع .

﴿ الفصل الخامس : فى وجوب تعظيمه صلى الله عليه وسلم ومن تعظيمه أن يصلى عليه ، وأن لا يؤذى فى أهله ، وضرب مثل بالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وذكر التكاليف التى لم يكلف بها أحد إلا الانسان لشهوته وغضبه ونوازعه الكثيرة وهى الأمانة ، وهو من قوله تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبيّ » إلى آخر السورة ﴾

أعلم أن العالم الشاهد كله منتظم ، فالأعلى يسبغ النعمة على الأدنى ، والأدنى مطيع للأعلى . ومثال ذلك الملوك والوزراء والأمراء ومن دونهم . فكل من هؤلاء يستمد الأمر ممن هو فوقه ثم يصل الأمر إلى الزارع والتاجر والعامل . فهؤلاء جميعا يعطون مالا للمحافظين عليهم ويعيشون فى أمن بتدبيرهم . فالأمراء يتناولون أجورهم من الرعية والرعية محفوظة بتدبيرهم . فالأمة كالجسم . فالعين تستحسن أزهار الربيع فيساعد القدم والساق على النقلة إلى هناك فى الحقول والبساتين . فالعين والرجل تشاركتا فى العمل . هكذا الأمة عليها وسافلها متشاركون وإن كانوا لا يعلمون بل الأمم كلها فوق الأرض مشتركة ولكن أكثر الناس لايعلمون .

إذا عرفت هذا فى العالم الشاهد فانظر إلى ما نحن فيه وتأمل . ألم تقرأ فيما مر فى هذه السورة ان الله يصلى علينا وملائكته . أليس معنى ذلك أنه سبحانه يرحمنا وملائكته يستغفرون لنا . ورحمة الله العامة تشمل البهائم والكافر . وإنما القصد رحمة الهداية . فالله يهدينا ورسله ، فأما الملائكة فهم الملهمون لنا بلا واسطة كالالهامات التى نحس بها كل منا . وهذه الإلهامات لابد لها من قانون ولا قانون إلا الدين والدين بالوحى والوحى من الملائكة إلى الأنبياء . فاذا قال الله إنه يرحمنا وملائكته وسائط فى إيصال رحمة الهداية لنا فذلك يدخل فيه الأنبياء ، ألا ترى إلى قوله تعالى «ليخرجكم من الظلمات إلى النور» فلم يذكر النبى صلى الله عليه وسلم اكتفاء لوضوح المقام وإلا فمن المخرج لنا من الظلمات إلى النور المصرح بها غير مرة فى القرآن سوى الأنبياء فإذن الله وملائكته ورسوله يصلون علينا . فالنور من الله والملائكة وسطاء والأنبياء مبلغون

وهكذا العلماء بعدهم إلى أن يصل إلى جميع المسلمين كما قال تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط » . إذا علمت هذا فانظر فى قوله تعالى هنا (إن الله وملائكته يصلون على النبى) كما صلوا عليكم وصلى هو عليكم أيضاً ، وعلى من أنعم عليه بنعمة أن يشكرها وشكر النعمة أن تدعو له . فمن لم يشكر الناس لم يشكر الله ، وخير الناس المنعمين الأنبياء ولذلك قال (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) لأنه صلى عليكم: أى أعلمكم بوحى الملائكة ، والعلم يوجب مغفرة الذنب إذا عمل به ويخرج الناس من ظلمة المادة إلى نور عالم الأرواح فتكون الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم أى الدعاء له شكراً على نعمة العلم التى جاءت على يديه . فاذا أضيف إلى ذلك انقياد المسلم وتسليمه لما جاء على لسانه من الشرائع كان قائماً بالشكر خير قيام ولذلك قال (وسلموا تسليما) أى انقادوا لأوامره انقياداً كما قال تعالى « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » أى التقرب لله . ولا جرم أن امتثال أمر الله فى شريعته وصلاة المسلم على نبيه قيام بالشكر لأن ذلك هو المطلوب . إن مقصود الأنبياء رقى أممهم بانقيادهم للأوامر والنواهى ، وتجوز الصلاة على غيره تبعاً له وتكره استقلالا لأن الصلاة فى العادة شعار الرسل كما لا يقال « محمد عز وجل » ثم وجوب الصلاة إما فى العمر مرة أو فى كل صلاة فى التشهد الأخير أو كلما ذكر ، والأول قول الأكثر والثانى قول الشافعى وإحدى الروايتين عن أحمد ، والثالث قول الطحاوى من الحنفية والحليمى من الشافعية وهو ضعيف . والجمهور أن هذا مستحب ، والواجب « اللهم صل على محمد » وما زاد سنة . والمعنى الآخر فى السلام التحية أى حيوه بتحية الاسلام . يقول الله ادعوا له بالرحمة وحيوه تحية الاسلام أى قولوا « السلام عليك أيها النبى » .

إن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم والانقياد لأوامر الله والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم مما يرفع الدرجات ، كيف لا وهو فى حال الصلاة عليه قد ترك القية ولامست روحه ذكر نفس طاهرة فى عالم الكمال ، إن الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم عمل من الأعمال الجيدة له حسنات مذكورات مشهورات فى الأحاديث ، إن الدعاء للنبى صلى الله عليه وسلم بالرحمة التى هى معنى الصلاة يزيده رفعة وهو ومن تبعه متواصلون فى عالم الأرواح ، وكلما زاد رفعة ازداد أتباعه لعلاقة الرابطة ، إن بين الأرواح عاليها وسافلها لصلة متناسبة كالصلة بين الكواكب والشموس ، وبين جميع ما حولها ، إن تذكر الأنبياء والسلام على الصالحين وعلى آل الأنبياء كل ذلك تذكرة لعلاقة النفوس الطاهرة بعد الموت فى العالم الروحى ليؤهل نفوسنا إلى المقام معها هناك حتى لا تستوحش النفس عند مفارقة الدنيا ، إن كل هذا يطلب به الاستيحاش من هذه المادة والائتناس بعالم الأرواح ، يقول المسلم « السلام عليك أيها النبى » ثم يسلم على نفسه وعلى الصالحين من جميع الأمم ويصلى على نبينا ويذكر إبراهيم وأمثال ذلك ، كل هذا ليأنس بتلك الأرواح ، إن عالم الأرواح عالم الحياة كما أن عالم المادة عالم الموت ، ولذلك يختم المسلم الصلاة فيستعيذ من عذاب القبر وعذاب النار وفتنة الحياة وفتنة الممات وفتنة الدجالين والكاذبين ، وهذه كلها من علائق الدنيا والمادة ، فأما عالم الأرواح فهو عالم الجمال والبهاء والكمال . ولما كان إعظام النبى صلى الله عليه وسلم يقضى بالأولى ألا يؤذى أعقبه بقوله (إن الذين يؤذون الله ورسوله) بأن يرتكبوا ما يكرهانه من الكفر والمعاصى ومنهم من كسر رباعيته ، ومنهم من قال هو شاعر ومجنون (لعنهم الله) أبعدهم من رحمته (فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) يهينهم مع الايلام (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا) بغير جناية استحقوا بها (فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) ظاهراً وذلك كما حصل فى مسألة عائشة وكايذاء على رضى الله عنه ، وكما كان الزناة يمشون فى طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حاجتهن ولم يكونوا ليعرفوا الحرة من الأمة . ولذلك نزل قوله تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) جمع جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار

أو

أو هى كل ما يستتر به من كساء وغيره . قال ابن عباس « أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ليعلم الناس أنهن حرائر » وذلك قوله تعالى (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى لا يتعرض لهن أحد (وكان الله غفورا) لما سلف (رحيما) بعباده إذ يراعى مصالحهم فى الجزئيات كما فى الكليات (لئن لم ينته المنافقون) عن نفاقهم (والذين فى قلوبهم مرض) ضعف إيمان (والمرجفون فى المدينة) يرجفون أخبار السوء مثلا إذا خرجت سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوقعون فى الناس أنهم قتلوا أو هزموا ، أويقولون قدأتاكم العدو ونحوذلك (لنغرينك بهم) لنحرشنك بهم ولنسلطنك عليهم (ثم لايجاورونك فيها إلا قليلا) أى إلا زمانا قليلا حال كونهم (ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) سن الله ذلك (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) من الأمم الماضية وهو أن يقتل الذين نافقوا الأنبياء وأرجفوا أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا . يسألك الناس عن الساعة) تعنتا (قل إنما علمها عند الله) لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) شيئا قريبا (إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا) نارا شديدة الاتقاد (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يدفع العذاب عنهم (يوم تقلب وجوههم فى النار) تصرف من جهة إلى جهة كاللحم يشوى على النار (يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فى الدنيا (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا) وهم رءوس الكفر الذين زينوه لهم (فأضلونا السبيلا) أى عن سبيل الهدى (ربنا آتهم) أى السادة والكبراء (ضعفين من العذاب) أى ضعفى عذاب غيرهم (والعنهم لعنا كبيرا) لعنا متتابعا (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) فطهره الله مما قالوه فيه (وكان عند الله وجيها) كريما ذا جاه وقدر . أو حظيا عنده لايسأل شيئا إلا أعطاه فهو مستجاب الدعوة . فقد اتهمه قوم بقتل هارون لما خرج معه إلى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به عليهم حتى رأوه غير مقتول أو أحياه الله فقال لهم ذلك . وأيضا قد مر فى [سورة الشعراء] أن قارون حرض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، أو قذفوه بعيب فى بدنه كبرص أو أدرة وكان كثير التستر حياء فأطلعهم الله عليه ، فبرأه الله مما قالوا ، وقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) فى ارتكاب مايكرهه فضلا عما يؤذى رسوله (وقولوا قولا سديدا) صوابا عدلا صدقا (يصلح لكم أعمالكم) يتقبل حسناتكم (ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) أى ظفر بالخير العظيم .

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال « لما كان يوم حنين آثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ناسا فى القسمة كالأقرع بن حابس مائة من الابل ومثله عيينة بن حصن ، وأعطى ناسا من أشراف العرب وآثرهم فى القسمة فقال رجل والله إن هذه قسمة ماعدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم تغير وجهه كأنه الصرف بكسر الصاد وهو صبغ أحمر يصبغ به الأديم ، ثم قال فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ ثم قال يرحم الله أخى موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر » انتهى ملخصا ، ثم قال تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) خفن منها (وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا) اعلم أن للمفسرين [رأيين مشهورين] فى هذه الآية [أولهما] أن الله خلق فى هذه الأجرام فهما وقال أتحملن هذه الأمانة بما فيها وذلك أنكن إن أحسنتن جوزيتن وإن عصيتن عوقبتن ، قلن يارب نحن مسخرات لأمرك لانريد ثوابا ولا عقابا . وتلك الأمانة هى الوفاء بالعهود والودائع وجميع ماحمله المكلف من التكاليف القولية والفعلية وهذا القول يناسب قوما [الرأى الثانى] أن هذا القول من المجاز المركب ، يقول الله إن هذه السموات والأرض والأنهار والجبال والدواب والنبات كلها وكذلك الملائكة . كل هؤلاء مسخرون لأعمال على مقدار الاستعداد ، فالشمس والقمر والجبال والأنهار والأرض

كلها قائمات بما خلقت له لاتحيد عنه شعرة «إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا» والبهائم ليس عندها من العقل مابه يصح التكليف ، فهذه المخلوقات كلها تأبى طباعها أن تكلف بعمل ما ، وإنما عملها يكون على حسب جبلاتها ، والجبلات والغرائز غير عاصية ، فان النحل والنمل والعنكبوت والطيور كل جماعة من هذه قائمات بأعمالهن بلا خلل فى النظام كما ترى فى مسدسات النحل وفى نسيج العنكبوت وفى تربية الطيور لأفراخها ، وفى أن كل طائر إذا خرج من البيضة اتبع أمه وسار معها كأنه تعلم ذلك قبل خلقه وهكذا تسير الكواكب كلها وكذا الأرض لا اختلاف لسيرها ولا اختلال لنظامها فليس شىء من ذلك كالإنسان «بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره» ويخرج من بطن أمه ضعيفا ثم يتعلم شيئا فشيئا حتى يبلغ أشده وله اختيار فى الأعمال يتصرف بعقله فى الأمور ولذلك تختلف أفراده اختلافا كثيرا لتنوع تعاليمهم وقدرهم وتهذيبهم وأخلاقهم واجتهادهم وإنما كلفناه لأنه ابتلى بقوتى الغضب والشهوة اللذين هما صفتا البهائم وهو بعقله يرقى عنها إلى ذروة الكمال ، فالشهوة والغضب يصرفانه فى أمور كثيرة ، ويوقعانه فى الفجور والكبرياء وغيرهما وتتنازعه الأهواء . فاذن كلفناه بالشرائع لأنه كان ظلوما بأنواع الشهوات وفنون الغضب التى تقذف به فى المهاوى ، جهولا بما يجب عليه ، فهذه الأمانة وهى التكاليف والأمانات والودائع كالحواس الخمس والأعضاء والمواهب كلها حملها الإنسان لحاجته إليها فى ردع ظلمه وجهله ، وتكون نتيجة ذلك أمرين تعذيب المنافقين والكافرين والمنافقات والكافرات لأنهم لم يقوموا بحمل الأمانة حق القيام وإنابة الله المؤمنين والمؤمنات وأن يتوب عليهم وهذا قوله تعالى «ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما» حيث عفا عن فرطاتهم وأثاب على طاعتهم . وههنا [سبع لطائف] :

(اللطيفة الأولى) فى سر تعدد الأزواج وتعدد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وهى رسالة ألفها المؤلف وطبعت سنة ١٣٣٣ هجرية للرد على قوم اعترضوا على الاسلام .

(اللطيفة الثانية) فى قوله «وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما» .

(اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا»

(اللطيفة الرابعة) فى قوله تعالى «يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا» .

(اللطيفة الخامسة) فى قوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم»

(اللطيفة السادسة) فى ملخص السورة كلها وفيما قبلها ومابعدها .

(اللطيفة السابعة) فى معنى «وحملها الإنسان» .

(اللطيفة الأولى : فى سر تعـدد الأزواج فى الإسلام ، وتعدد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وهى رسالة ألفها المؤلف للرد على قوم اعترضوا على الإسلام فى هذا المقام وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

المجلس الأول

(محاورة دارت بينى وبين صديق محمود أفندى طلعت أبو مسلم القاضى بالمحاكم الأهلية)

(الدرة) أيها الأستاذ . كثر القيل والقال فى أمر تعـدد أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ونحن معاشر المسلمين ولاسيا علماء القانون لانزال بعضنا فى شك مريب مما ذكر ويذكر فى كل آن فى المسألة ، ولقد تربصنا قولك فلم نحس لك من خبر ، ولم نسمع لك من ركز ، فأقبـل بعضنا على بعض متسائلين متخافتين بيننا قائلين : لولا أن الأمر عسير عليه ليس له فيه مقنع ، وعقبة كأداء ليس لديه لهـا مطلع ، ما أغمض الجفن على القـذى ، ولا بقى فى غطاء عن الأمر مع كثرة الطلب والإلحاح المتوالى عليه من الفرق المختلفة عزين .

(الأستاذ) لم أذر القول فيا مضى إلا لأعمال متراكة ، ودروس مترادفة ، يتخللها سآمة ، تتبعها كلالة . ولم أشأ أن أقف موقف الرادّ على فريق معـين ، أو قائل متهور ، أو مدع يتبين جهله . فالقرين لقرينه منسوب والشىء يذكر بضده ، والمرء يتحدث مع نده . إنما تربصت هذه المدة حتى تبين الحقيقة واضحة ناصعة وتكون رسالتى قائمة بنفسها : ولأقف على أكثر مايجول فى الخواطر حتى يكون الدواء على مقدار الداء والجواب على مقدار السؤال .

(الدره) كيف تزوج النبى صلى الله عليه وسلم تسعا وقد حرمت الشريعة مازاد على الأربع ، وأنت خبير بأن من مرن على القانون يختلجه الشك والريب إذا رأى أن المشرع قد اختص بما لم يبحه لغيره ؟ وكيف يتزوج تسعا ويمنع غيره مما زاد على الأربع وسنن الأنبياء تأبى ذلك . ألم تر إلى ماحكى الله تعالى عن شعيب « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح مااستطعت » وههنا المخالفة واضحة ؟

إنا معشر المتعلمين يستعصى علينا أن نفهم جواز مخالفة القانون ولو بحجة الخصوصية التى كثيرا ما سمعناها من شيوخنا وقرأناها فى الكتب فنبينا صلى الله عليه وسلم يتبعه نحو خمس النوع الإنسانى وسيرته قدوة للأمة .

(الأستاذ) لعل النبى صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء السيدات قبل تحريم مازاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وحفصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة .

(الدره) مامنعه أن يفعل معهن مثل ماأمر الحارث بن قيس ، قال « أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعا » أخرجه أبو داود . وهلا فعل هو كما أخبر غيلان بن سلمة الثقفى ؟ أسلم وله عشر نسوة فى الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا أخرجه الترمذى ، وروى أن نوفل بن معاوية أسلم وتحته خمس نسوة فقال عليه الصلاة والسلام أمسك أربعا وفارق واحدة » والنبى صلى الله عليه وسلم كان عنده تسع فهو وسط بين ابن قيس وبين ابن سلمة . أفما كان الأجدر أن يفارق خمسا ويبقى أربعا ؟ .

(الأستاذ) قد أعددت ثلاث إجابات لك فى كلهن (١) شاهد مقنع .

(المدره) هات أولاها .

(الأستاذ) لقد حرم الله عليه أن يتزوج غيرهن وأن يستبدل بهن من أزواج ؟ فكان المسلم بكل من الأربعة غيرها بحيث يتزوج غيرها ويطلقها والرسول محرم عليه ذلك ، قال الله تعالى « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك » . قال البيضاوى لا يحل لك النساء بعد اليوم حتى لو ماتت واحدة لم يحل له نكاح أخرى « ولا أن تبدل بهن من أزواج » فتطلق واحدة وتنكح مكانها أخرى . وقال ابن عباس : إن النبى صلى الله عليه وسلم لما خيرهن فاخترن الله ورسوله شكر لهن الله ذلك وحرم عليه النساء سواهن ونهاه عن تطليقهن وعن الاستبدال بهن ، فيتبين منه أن القانون قد اشتدت وطأته عليه فجعل لهن أن يأمن الطلاق والاستبدال وسواهن لايأمن طلاقا ولا استبدالا ، فكثرة العدد له تقابل الحصر والمنع ، وقلة العدد عند المسلمين مقرونة بالتوسعة استبدالا وطلاقا ، فلئن ضيق على المسلمين فى الكم فقد ضيق عليه فى الكيف ، ولئن وسع عليه فى الكم فقد وسع عليهم فى الكيف . فالمساواة متعادلة ضيقا وسعة .

(المدره) لقد قال هذا القول قبلك أحد الكتاب ولم يكن لدينا واقعا موقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فالقانون لم يزل كالمحترم وهو عند الله والناس المحترم ، فليكن منهج المساواة أقرب من هذا وأدعى للطمأنينة ، فانا قد أصبحنا فى زمن لانعرف فيه المحاباة معنى ولا نعد مثل هذا إلا تلمسا لجواب من أى باب . ثم هذا فيه مساواة فى الحقيقة ولكن يصبح القانون نوعين لاقانونا واحدا .

(الأستاذ) لو طلق نساءه صلى الله عليه وسلم لكان ذلك خللا فى السياسة . وسوءا فى التدبير ، وتفريقا للكلمة ، ومخلا بالجاه على مستحقه ، والأنبياء أحق الناس بالكياسة والفضل والسماحة . من ذا ترى أحق بالطلاق من نسائه ، عائشة بنت أبى بكر . أم حفصة بنت عمر بن الخطاب ، أم زينب ابنة جحش الأسدية ، أم أم سلمة بنت أبى أمية المخزومى ، أم أم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب ، أم صفية بنت حيى بن أخطب ، أم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، أم سودة بنت زمعة بن الأسود ، أم جويرية بنت الحارث المصطلقية ؟ فوالله لئن طلق عائشة بنت أبى بكر لزلزلت القلوب ولكان ذلك أمرا إدًّا تكاد الأفئدة تتفطر منه وتنشق المرائر ، أنى يكون ذلك وأبو بكر رفيقه فى الغار ، وداعى أهل الضلال والكفر للاسلام ، وصاحبه الأول ، ومؤاسيه بنفسه وماله . لئن فعل ذلك لكان أسوة سيئة لنا ، ولكان الغدر بالأصحاب ، من خلال أولى الألباب ، ولئن طلق حفصة بنت عمر بن الخطاب لكان ذلك نقطة سوداء فى جبين الشرف . وسبة شنعاء فى وجه الأدب وكفرانا للمنعمين ، وطغيانا على الصحابة الصادقين . فيالها من فضيحة يخجل لها وجه الزمان ، ويسود لها الحدثان ، ويندى لها جبين الفضيلة ، وينتصر بها جنود الرذيلة ، ويشمت لها جماعة الأعداء ، ويتمزق بها عن المصلح شمل الأخلاء . ألم تر إلى ما ورد فى السيرة الحلبية ومثله فى البخارى بزيادة وحذف فى مختلف الروايات عن عمر رضى الله تعالى عنه أنه ذكر أن بعض أصدقائه من الأنصار جاء إليه ليلا فدق عليه بابه وناداه قال عمر فخرجت إليه ، فقال حدث أمر عظيم ، فقلت ماذا ؟ أجاءت غسان ، لأنا كنا حدثنا أن غسان تنعل الخيل لغزونا ، فقال لابل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ، فقلت خابت حفصة وخسرت ، كنت أظن هذا كائنا حتى إذا صليت الصبح شددت على ثيابى ودخلت على حفصة

---

(١) كلة بضم الكاف وتشديد اللام للمؤنث فى بعض اللغات .

وهى

وهي تبكي ، فقلت أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت لا أدري هو هذا معتزلا في هذه المشربة .
وفيه أنه استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وفي كل منهن يجيبه الغلام بقوله ذكرتك له فصمت ،
قال فلما كانت المرة الرابعة وقال لي مثل ذلك وليت مدبرا . فاذا الغلام يدعوني ، فقال ادخل قد أذن لك
فدخلت فسلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا هو متكيء على رمل حصير قد أثر في جنبه صلى الله
عليه وسلم ، فقلت أطلقت يارسول الله نساءك؟قال فرفع رأسه إلي وقال لا. فقلت الله أكبر الحديث مطولا .
وفيه قال عمر فقلت أستأنس يارسول الله . قال نعم ، فجلست وقلت يارسول الله قد أثر في جنبك رمل هذا
الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لايعبدون الله فاستوى صلى الله عليه وسلم جالسا وقال : أفي شك
أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قد عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا فقلت : أستغفر الله يارسول الله (وقد
اقتطفنا من الحديث مايليق بالمقام)فانظر كيف كان عمر وصاحبه يظنان أن طلاق نسائه أشد من غزوة الأعداء
وحلول البلاء ، ثم يفرق ويدهش ويستأذن ، ثم تجده وهو يوجس في نفسه خيفة وكأنه ظن أن غضب الله
ولعنته ، وجهنم وخزنتها ، والزبانية وسلطتها تحيط به وبابنته لو طلقها النبي . وروى« أنه كانت جفوة بين
حفصة والنبي صلى الله عليه وسلم فبلغ أباها عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم طلقها فحثا التراب على رأسه وقال
مايعبأ الله بعمر وابنته بعدها . فنزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم من الغد وقال : إن الله يأمرك أن
تراجع حفصة رحمة لعمر» أي تصالحها. وقال عمار بن ياسر رضي الله عنه «أراد النبي أن يطلقها فقال له جبريل
عليه السلام إنها صوامة قوامة وإنها زوجتك في الجنة»فهل ترى بعد هذا طلاق عائشة أم حفصة ؟ فقال أما هاتان
فطلاقهما فتنة ومحنة ومفسدة أي مفسدة .

(الأستاذ) فهل ترى طلاق أم سلمة المسماة هندا زوج أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن عمة النبي صلى
الله عليه وسلم وهي برة بنت عبد المطلب وكان زوجها أخاه من الرضاع ،مات أبو سلمة ومعها أربع بنات برة
وسلمة وعمرة ودرة فآواها النبي صلى الله عليه وسلم إليه وتزوجها بعد أن اعتذرت إليه وقالت إني امرأة مسنة
وإني أم أيتام ، وإني شديدة الغيرة فأجابها على لسان رسوله بقوله : الأيتام أضمهم إلي وأدعو الله
أن يذهب عن قلبك الغيرة ، ولم يعبأ بالسن بل كانت تلك المزهدات والعقبات من أقوى الدواعي للاسراع
في طلبها عطفا عليها ، ورحمة ببناتها ، وصلة لرحمها ، ومعرفة بحق أخيه من الرضاع ، وإيواء لصغاره من بعده
أفتراه يطلق بعد ذلك ، ولو أنه فعل لكان أمرا نكرا ، واستضعافا للأيتام ، واستخفافا بصلة الأرحام ، واحتقارا
لشأن اللاجئات إليه اللاتي يستحققن معونته ؟ أم يطلق زينب ابنة جحش امرأة زيد الذي تبناه صلى الله عليه
وسلم وتزوجها بعد طلاق زيد رمزا إلى مايقع في بلاد المسلمين كل آن من بعده ، إذ يصطفي الدعي بعد النسب
ويقصي القريب ، فيكون الخلل في السياسة والخطل في الرياسة ، والاسلام وإن سوى بين الناس وجعلهم
أخوة في أعمالهم الدينية والدنيوية فقد نظر من وجه آخر إلى الكياسة في السياسة ، فلقد يصدق للولي ، ولقد
يكذب ، ثم صدق زيد وصدق ابن زيد أسامة ، ثم هؤلاء وأضرابهم كانوا من أجل الأنصار بل قواد الجيوش
للدافعين عن حوزة الاسلام وبيضته بالقنا والسيف ، كل ذلك مسلم ولكن نظر النبي نظرا أدق وعلمه الله
بالوحي ماجهله الملوك العباسيون كالمعتصم والترك فجعلوا للموالي أولى بالمناصب ، وأحق بالكراسي ، وأجدر
بحفظ السياسة ، والاستبداد بالرياسة ، فحق القول على أكثرهم فهم يعمهون . نظر ذلك كله النبي فأمره
الله أن يتزوج زينب وألقى في روعها بغض زيد فلما شكا زيد أنفتها منه ، وجفوتها له ، وشمخها بأنفها خيلاء
وكبرا ، إذ كانت من صميم قريش وهو مولاهم قال له «أمسك عليك زوجك واتق الله » ولامه الله على ما كتم

فى نفسه من أنه أمر قبل ذلك وأخبر بأنه سيتزوجها فقال له « وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » .

ذلك لأن يصدع بالأمر ولا يخاف فى الله لومة لائم فكيف يخجل من تغيير ماظهرت عواقبه الوخيمة بعد ذلك واستبان ضرره ، فلقد كان للترك فى دولة بنى العباس من الفتك بالملوك ، وتسميل العيون ، وقطع الرقاب ماتقشعر منه الجلود، ولكم شدخوا الرءوس واستنزلوا قرابة النبى بعد عز من مراتبهم بشهوة عرضت، وعيد بدت ، وضغينة كاذبة يتدعونها وأغراض ذميمة يتبعونها ولآثام يقترفونها . وكذلك أولئك الجنود المختلفون والفرق المتشاكسون للسمون الانكشارية علموا أنهم من وشيجة غير الترك ومن عنصر لايتصل معهم ولا يلتئم فاتحدوا للمنفعة ثم أتوا صفا وأهلكوا الحرث والنسل فى أنحاء الدولة وقد استنام الترك لتلك العقارب والحيات كما استنام العرب قبلهم لغلمان المعتصم الذين تناسلوا وتكاثروا وأوقعوا الدولة فى حيص بيص ، فتفرقت شذر مذر ، ومزقت كل ممزق ، وأصبحوا أحاديث للأمم الحاضرة والغابرة ، ذلك ماكان يرمز إليه زواج زينب ابنة جحش ، ذلك هو السر المصون ، والجوهر المكنون ذلك أصل سياسة الله فى الاسلام جهلها الناس ، ولئن علموا فلقد غشى على أعينهم الطمع ، وذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون .

وها هنا قال المدره للأستاذ : آن أوان الانصراف ، فلنعد غدا صباحا ، وإن موعدنا الصبح ، « أليس الصبح بقريب » .

المجلس الثانى

جاء الأستاذ والمدره وقال الأستاذ هانحن أولاء فرغنا من الكلام على زينب ابنة جحش أم المؤمنين رضى الله عنها ، فنقول اليوم أترى أن يطلق أم حبيبة وهى رملة بنت أبى سفيان بن حرب ، وهى التى نبذت دين أمها هند وأبيها أبى سفيان خل قريش زعيم القوم وكبير العشيرة أبى معاوية . هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فولدت له حبيبة وبها كانت تكنى فتنصر زوجها هناك وثبتت هى على الاسلام ، فانظر كيف رزئت بهجر أبويها ثم بفراق أهلها وقومها وعاشرت قوما سود الألوان مخالفونها فى العقيدة وهم الحبشان ثم تنصر زوجها فهل بعد ذلك من محن تصب وإحن وعذاب واصب ؟ فماذا فعل النبى صلى الله عليه وسلم فيكافئها ؟ أرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى رحمه الله ، فزوجه صلى الله عليه وسلم إياها ، وأصدقها النجاشى عن النبى صلى الله عليه وسلم أربعمائة دينار ، والذى تولى عقد النكاح عثمان بن عفان ، وجهزها النجاشى من عنده وأرسلها مع شرحبيل بن حسنة فهل يكافئها بمثل هذا ويرفع عنها الضيم الذى توالى عليها بسبب الاسلام ويشرفها ويرفع رأسها بين قومها ثم بعد ذلك يفارقها ؟ إن هذا لعار وأى عار ، بل إثم كبير ، وزلة لايغفرها الدهر ، ولا يرضاها الصعلوك الغر ، فما بالك بمن هو القدوة الأعظم ، والسيد الأكرم ؟ أم يطلق جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق واسمها برة التى تزوجها صلى الله عليه وسلم بعد أن أعتقها ، ولما رأى المسلمون أنه صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية قالوا فى حق بنى المصطلق أصهار رسول الله فأعتقوا ما بأيديهم منهم ، قال فى الإمتاع : ولما تزوجها صلى الله عليه وسلم خرج الخبر إلى الناس وقد اقتسموا رجال بنى المصطلق وملكوهم ، ووطئوا نساءهم ، فقالوا أصهار رسول الله فأعتقوا ما بأيديهم من ذلك السبى فهل يطلقها بعد أن شرفت قومها بزواجه فرفعوا رءوسهم بين القبائل ؟ أفيجوز فى شرعة الفضيلة أن ينكسوا رءوسهم بين الملأ صاغرين ، ويعيروا بالخيبة والتعاسة خاسئين ؟ ! .

(المدره) هذه المعاذير التي ذكرتها إقناعية لا تروى من غلة ولا تشفى من علة ولكنها تقوم حجة وقتية ، ويجتزئ بها أواسط الناس ، فأما الأذكياء فإنهم يبقون وعندهم بعض ريب وقلق واضطراب .

(الأستاذ) ولماذا ؟

(المدره) إن ما جاز أن يكون شأنه مع نسائه يجوز أن يكون مع سراة العرب وأشرافهم ، فلقد يحتج كل بما يرزأ نساءه من المصائب ، وما ينتابهن من النوائب ، وما يعترى أحبابهن والحبائب : من تنكيس الرءوس ، وحلول البؤوس ، وذل النفوس ، وشماتة الأعداء ، وحزن الأخلاء .

(الأستاذ) ليس شأن سراة العرب وصعاليكهم كشأن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا وقائعهم كوقائعه ، فالطامة هنا كبرى وهى متوجهة للأمة ونظامها كما أوضحته لك فيما مضى ، وكيف تدمى عمر وما حثا من التراب على رأسه وهو ركن مهمّ في الاسلام . وكيف قال هو وصاحبه إن طلاق نسائه أشد من احتدام وطيس الحرب وضرب الهام ، وإعمال السيوف ، والقنا يقرع القنا ، وأمواج المنايا تتلاطم .

ثم قال الأستاذ فماذا كنت تفعل لو كنت مكان النبي صلى الله عليه وسلم ؟

(المدره) أنتهج خطة الحيلة بحيث أسلط القانون على الناس ثم لا أمس شرف هؤلاء السيدات بسوء .

(الأستاذ) وكيف ذلك ؟

(المدره) أملكهن زمام أنفسهن ، وأخيرهن . فأكون قد مهدت لنفسي العذر ، وقطعت لسان العذل ، فلو طلقت إحداهن نفسها لمسود وجهها بما يقول الناس إن النبي أبغضها فنبذها وليس نقام النبوة بمسه سوء من فراق سيدة لم تختره .

(الأستاذ) قد فعل النبي ذلك إذ قال الله له (يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما) . فبدأ بعائشة فقال ياعائشة إنى أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك ، قالت وما هو يارسول الله ؟ فتلا عليها الآية ، قالت أفيك يارسول الله أستشير أبوى؟ . بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت ، قال لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها . إن الله لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا ، ولكن بعثنى معلما وميسرا .

(المدره) هذا كلام حسن ، فماذا كان بعد ذلك ؟

(الأستاذ) اختاره نساؤه كلهن ، وحرم عليه استبدالهن وطلاقهن كما تقدم ، وسمين أمهات المؤمنين ، وأعطين هذه المنزلة السامية في التاريخ والأمم جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا .

(المدره) هل كان نساء النبي يقدرن هذا المجد قدره . وهل يرين أن المجد والشرف والاسم والصيت فضلا عن الدار الآخرة أرقى وأرفع وأعز من المال والشهوات الحيوانية . وهل من حوادث تؤيد ذلك حتى نقول إنهن كن يردن الله والعزة والشرف والآخرة ؟ وحتى نضرب الذكر صفحا عما نعلمه من أنهن كن يطلبن منه النفقة وأن ذلك كان من أسباب هجره لهن شهرا كاملا لمغاضبتهن له ، فكان ذلك من أسباب نزول آية التخيير .

(الأستاذ) نعم كن يقدرنه حق قدره ، ألم تر إلى أخت دحية التي ماتت من الفرح لما علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بها . ولما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن فقلن يانبي الله اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ودعنا على حالنا . ألا إن للنساء نفوسا كما للرجال : يحببن الشرف كما يحبون ، ويسمين للحياة والذكر والأجر وعلوّ الهمة كما يسمون . لقد برهنت النساء في كل زمان على أن فيهن من تفضل الموت على العار بل إنهن أرقى

شعورا ، وألطف أفئدة ، وأشد قبولا لموعظة ، وأكثر تقديرا لفضيلة ، وأوفى ذماما إذا صدقن العشير .
فانظر كيف قضت أخت دحية الكلبي نحبها لما فاجأها من خبر زواجها بالنبي، قل لى رعاك الله . أكان ذلك للمال والنبي صلى الله عليه وسلم كان ينام على حصير ، ويأكل الشعير ، ولا يبالى بالحطام ، ونساؤه يطلبن منه النفقات ، ويحلن له كل يوم هات . أم لشهوة وعنده كثير من المقبلات الفريدات وهو قائد حرب ، ومعلم شعب وقائم ليل ، وصائم نهار ، وقاض بين خصوم ، ومفرج هموم . فماذا يكون حظ النساء منه . كلا ، وإنما ذلك الشرف والمنزلة الرفيعة فى الدين والدنيا، فلا عجب إذا قالت سودة بنت زمعة دعنى حتى أموت تحت كنفك وقالت هى والباقيات لا تقتلنا بالفراق والطلاق ، رضينا بالقوت ورضينا بما تصنع معنا من ترك قسمة على أننا أمهات المؤمنين وأننا لاننكح بعدك حتى نزل قوله تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما) قال البيضاوى: ترجى من تشاء منهن تؤخرها وتترك مضاجعتها وتؤوى إليك من تشاء وتضم إليك وتضاجعها . وهناك أقوال أخرى غير هذا لاحاجة لها فى موضوعنا . وقال مخاطبا المؤمنين (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) فكان له بعد ذلك على ما ارتضين واشترطن معه أن يترك القسمة لمن يشاء ، ويرضين منه بما يرضاه فكانت الآية على وفق مااشترطن وعلى ما رضين عليه لما نلن من شرف ، وما أحرزنه من فخر ، إلى أبد الدهر .

(المدره) فلم حرمت أزواجه على المسلمين من بعده . وهلا أباح الله زواجهن أسوة بالناس ؟

(الأستاذ) إن من الحكمة التى أودعت ذلك أن فى التحريم سدا لباب الفتنة وحفظا للسياسة وتوحيدا للكلمة . فلو أن إحداهن تزوجت برجل لتطاول التدخل فى السياسة ولفعل بأدنى سبب ولأى وسيلة مافعلته عائشة فقد أداها اجتهادها إلى محاربة علىّ مطالبة بدم عثمان يوم الجمل، ولاناقة لها فى الخلافة ولا جمل، ولكنها رضى الله عنها أداها اجتهادها إلى النهى عن المنكر فى نظرها واجتهادها . فلو أن إحداهن تزوجت برجل لتطاول للرياسة بحجة زوجية أم المؤمنين . ولكان له قدم صدق فى الخلاف فى مواطن السياسة . هذا فضلا عن إكرام النبى صلى الله عليه وسلم وتعظيمه. فكان التحريم لحكمة بالغة وحجة نيرة وآية باهرة وبينة، للباطل دافعة وللحق جامعة . فهل بقى فى صدرك أيها المدره حرج ؟ ألم يعذر الله والنبى وقد فصل مالا مطمع بعده إعذار ولا بقيت سبيل لعالم نطاسى وخريت لوذعى فيختار . بل قطعت الأسباب ، ولا ملجأ لعاقل بعد ذلك أن يلج من أى باب ؟

(المدره) لم يبق لى إلا باب واحد ألجه، وحجة واحدة أسلكها. فهلا اتخذ ذلك فرصة ونحى منهن جماعة العبادة، خاصة والدراسة العلم والحكمة . واصطفى منهن أربعا ليكون جامعا للخصلتين مؤديا لفرضين محيا للسنتين . فالمتزكات للدين والعبادات وذكر القرآن ومدارسته وفهم الأحاديث وحفظها على أن يقمن بهداية الخلق، وإرشاد الناس إلى الحق . والمصطفيات يكنّ على عدد الزوجات لسائر الناس ليكون ذلك قاطعا الألسنة للملحدين ، وإرشادا للضالين . وحجة فى هذا الزمان .

(الأستاذ) قد كان كل ذلك ، واختص النبى بأربع ولم يزد عليهن . وأبقى الباقيات يتذاكرن القرآن والحكمة . ففى النسفى والخازن والسيرة الحلبية مايفيد ذلك . قال فى السيرة الحلبية مانصه [وقد كان أرجأ النبى صلى الله عليه وسلم من نسائه خمسا سودة وصفية وجورية وأم حبيبة وميمونة . وآوى إليه أربعا عائشة وزينب وأم سلمة وحفصة . ألا تعجب لم اختار أربعا ولم يزد عليهن ؟ فأما فى ذكرهن الحكمة واحترامهن وعبادتهن فاقرأ ماقال الله ﴿ وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة

وأطعن

وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا . إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » . أمرهن بالصلاة والزكاة وأن يعلمن الحكمة ويذكرنها عسى أن يعلمن الناس ويكن قدوة كما كانت أم سلمة وعائشة يعرفن كثيرا من الأحاديث وتروى عنهن . وكما كانت زينب بنت جحش صناع اليد ماهرة في الخرز وصنع الخفاف ، فكانت بعده صلى الله عليه وسلم تخرز وتدبغ الجلود وتبيع وتتصدق بالثمن على الفقراء والمساكين فكانت قدوة] ويا ليت بنات المسلمين يعلمن ذلك ، ليتهن يعلمن أن بعض الصناعات كانت مما قام به زوجات النبي صلى الله عليه وسلم كما تفعل الأمم المتمدينة الآن في أوروبا والشرق واليابان .

(المدره) عجب . إذن كانت تلك مدرسة ؟

(الأستاذ) نعم هما مدرستان ، فأول مؤسس لمدارس المعلمين والمعلمات في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وهنا انفض الاجتماع وانصرفا على أن يعودا من الغد .

المجلس الثالث

(الأستاذ) ذكرنا أمس أن أول مؤسس في الاسلام لمدرسة المعلمين والمعلمات النبي صلى الله عليه وسلم وهذه مدرسة السيدات أما مدرسة الرجال فهو المسجد والرجال هم الطلاب وهم أهل الصفة منهم أبو هريرة وصهيب وسلمان وعمار وأمثالهم ، ويقال إنهم يبلغون أربعمائة يأخذون الصدقات ويحفظون القرآن ويتعلمون الدين عسى أن يكونوا معلمين كما كانت أمهات المؤمنين معلمات فيما بعد : فهل بقي بعد ماتقدم قول لقائل ؟ أليس في إبعاد تلك السيدات عنه بحجة أو بغير حجة بعد ماذكر قسوة وشدة لاعمل لها . ؟ ألم يبين للشعب أن لا مطمع له في الاختصاص ولو كان جائزا له فساواهم في الأربع وأرضى الباقيات أن يرجأن اختيارا منهن وقصرهن على العبادة والتعليم ، فالطلاق إذن طريق وعر ومسلك خبيث بل معرة يأنف منها العاقل والجاهل فضلا عن الصالح والعالم ، والنبي صلى الله عليه وسلم لو أنه فاجأهن بالطلاق قسرا لكان ذلك أشبه بما صنع عمر من بعده إذ فاجأ جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغسانيين بالشام ، وقال له لتقتص منك لهذا الأعرابي الصعلوك فلتكسر سنك كما كسرت سنه ، ولم يتئد عمر في ذلك ولم يترقب حتى يجد له مخرجا من عفو أو قبول أرش ، ولم يطاوله ففر جبلة ومعه ستون ألفا من رجاله إلى بلاد الروم فتنصروا ، ذلك لصرامة عمر في القانون ولم يتربص حتى تتيح له الفرص مخرجا . فما فعل النبي صلى الله عليه وسلم لا مفر منه ولا مخلص . فليس في الإمكان أبدع مما كان .

(المدره) واها لك ثم واها واها . لقد أتيت بالعجب . وعلمت منك مالم يكن ليخطر على بال . وإن في بيانك لسحرا . فما الجواب الثاني ؟

(الأستاذ) أما الجواب الثاني فقيل : إن أولئك النفر وهم غيلان ونوفل بن معاوية والحارث بن قيس أسلموا بعد نزول آية التحريم فيكونون قد اعتنقوا الدين بجميع نواهيه وأوامره ، فتحديد العدد واجب عليهم . فأما أولئك الذين أسلموا قبل التحريم وهم جموع وافرة وألوف مؤلفة وربيون كثير . فما قرأنا ولا

ورؤينا أن أحدا منهم فارق مازاد على الأربع . ولو كان ذلك لنقل إلينا واتصل بنا . وأمر تعدد الزوجات ليس يسير وإنما هو أمر اجتماعى يؤثر فى أحوال الأمة ونظام الأسرات . بل نظام الاجتماع ليس يصح إلا بعد نظام الأسرات . فلو أنه أمر بفراق مازاد على الأربع جميع من أسلموا قبل التحريم ماخفى علينا ولتعدد النقل وكثرت الشواهد والدلائل ، وعليه يكون صلى الله عليه وسلم واحدا من جم غفير من المسلمين أسلموا وعندهم جمع الكثرة من النساء ولم يطلقوهن فليس يعقل أن تكون تلك الألوف المؤلفة والجموع المختلفة والفرق المتفرقة المنتشرة فى جزيرة العرب يتمتعون عما زاد على الأربعة قبل التحريم من القحطانيين والنزاريين ويختص بذلك أربع النبى وأولئك الثلاثة ويكون كل أولئك الذين أسلموا قبل نزولها غير متجاوزين الأربع وفيهم السراة المثرون والشجعان الجحاجيح والقروم القماقم والسادة الصناديد وذوو البأس والشدة الذين هم أقدر الناس على الشهوات وإحراز العقيلات الفاتنات ، فهذا كاف وحده لمنع هذه الشبهة .

ثم قال الأستاذ : أما الجواب الثالث فلنضرب الذكر صفحا عما تقدم ، وكأن الجوابين السابقين لم يكونا لاسيما أن الاجماع قام على أن ذلك خاصية له صلى الله عليه وسلم والاجماع حجة فيسقط الجواب الثانى بذلك ونقول : إنه مامن دين إلا وقد أحاطت بالقائم به شكوك فى لفظه أو فعله أو نتائجه ، فانظر فى سير الأنبياء السابقين واللاحقين تر أن لكل واحد منهم ولكل قائم بعمل من سائر الناس فى أحواله وأعماله [وجهين] وجه يتلألأ نورا وتستبين فيه الحقائق واضحة جلية . وآخر تنعكس فيه الحقائق على طائفة من الناس وتسود وجوههم فيلج الشك . فى قلوبهم ولا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم ، وهذا فى المشاهدات معلوم . يرى الناس الأشجار على شواطىء البحار ذات ظل فى الماء منعكس أعلاه أسفله وأسفله أعلاه ولا حقيقة لهذا وإنما ظله مرتسم على سطح الماء فيخيل للناس أنه متدل إلى أسفل ويرون النار المتقدة من بعيد كبيرة وهى صغيرة ، ويرون الشبح فوق الجبل صغيرا وهو كبير ، ويرون الزجاج الصدوع أبيض ولا بياض وإنما هو ضوء الشمس أو غيره ، وتتبين الحقائق عند التدقيق ومثل هذا فى المسموع عن الأنبياء . ألا ترى إلى قصة الخضر عليه السلام إذ اقتلع لوحا من السفينة فلامه موسى عليه السلام ، فلما أن تبينت الحقيقة أدرك أن «فوق كل ذى علم عليم» وأن الوجه الذى تراءى له أسود ، وأن المقصد إغاثة اليتامى بعيب السفينة لئلا يأخذها الملك غصبا .

وما كان ذلك إلا للأخذ بظواهر الأمور ، وانعكاس الحقائق فى المرويات كما عكست فى المرئيات . وفى قصة داود وسليمان معتبر فقد كان لأولهما (٩٩) امرأة ولآخرهما المئات من الحور الحسان «كأنهن الياقوت والمرجان» مما ماج به قصره . وازدانت بهن حجره ، وحكم سليمان ومزامير داود عمت أرجاء المعمورة ، وأنت تعلم أن اليهود والنصارى والمسلمين يعمرون الأرض نحو نصف النوع البشرى نحو سبعمائة مليون ، يؤمنون بداود وزبوره ومزاميره ، وترى اليهود والنصارى يتلونها آناء الليل وأطراف النهار ، يناجون ربهم بكرة وعشيا ، متضرعين بما فى المزامير من الآيات ، ولا يجدون فى صدورهم مايجد الناس اليوم مما تموج به بحار الأنفس ، وقواميس العقول ، وتغلى به مراجل التعصب اليوم لبضع من النساء كن عند آخر الأنبياء صلى الله عليه وسلم ، علمت الأنفس بفطرتها أن الديانات والملل لاتتصدع بمثل هذه المتشابهات التى قد يعوزها الدليل والبحث فلا يعبأون بمثل تلك الشكوك ، إذ هو مما يبدو لبعض النفوس وجها أسود بادىء الرأى ، ولو حقق الأمر الأديب ، ودقق الأريب ، لوجدا العالم كله ليس يخلو من الوجهين فى ظواهر الأمر وعند التحقيق يتجلى لاعوج فيه ولا شبه «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» ولأضرب لك مثلا بالشمس ترسل أشعتها الذهبية فيكون منها حياة الحيوان ، وقوام النبات ، واستضاءة الطرق والمسالك ، وجرى الأنهار بحرارتها ، ومع ذلك لاتعدم زاريا عليها ، عائبا لها لوجهها المسود فى نظره لحكمة لم يفقهها ، وآية لم يدركها

لهاجرة لدغته ، أو ريح سموم آذته ، أو ضربة شمسية فى رأسه أصمته ، أو زيادة حرارة فى عينه أعمته .
لاستعداد فى نفسه ، وضعف فى جسمه ، وخلة فى المزاج .

ومن يك ذا فم مرّ مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

فلا عيب على الشمس المضيئة ، إنما العيب على القوابل الرديئة ، فيعمى إذ ذاك عن فضائلها ، ويحكم بالجزئى الموهوم على الكلى والعموم ، وقد دق ذلك الجزئى فلم يحط به علما ، فكان النظر جزئيا لا كليا ، بل وهميا لا عقليا . فالأنبياء والمصلحون كالشموس ، وعلومهم كالأضواء والأنوار ، وللمحدون أصابهم حرها لضعف عقولهم وإدراكهم .

ومن يتطلب جاهدا كل عثرة ... يجدها ولم يسلم له الدهر صاحب

فلا ضرورة إذن لما صح من الجوابين السابقين إلا ردا لما يقال على ألسنة أولئك الثرثارين وإلا فبالله قل لى كتاب الله بين أيدينا ومالنا ولهذه الأضاليل والسخافات . مضت الرسل وكانوا يتزوجون العدد الجم من النساء ، ولا اعتراض عليهم حسب شرائعهم وأزمانهم وأممهم لا تعترض ولا تسخط . قتل الإنسان ماأجهله . قتل الإنسان ما أظلمه . قتل الإنسان ماأقل علمه ، وما أتعس نفسه ، يتركون مالديهم ، ويأتون بخيلهم ورجالهم وصفوفهم ليحاربوا دينا فى مسئلة عرضية لاجوهرية ، وثانوية لاأولية اللهم إن عبادك فى الأرض يصلون وأكثرهم فاسقون ؛ يتبعون الشهوات فى لهجة . فوالله لا يريدون وجه الله ، إنما هو وجه الشيطان وخبث النفوس ، وجهل العامة . اللهم إن أكثر الناس ظلوم كفار . اللهم إنا خلقنا فى أمم يسير سوادهم مع الأهواء يساقون كما تساق الأنعام . ماحججهم إلا المغالطات . كل يسعى لملء بطنه ، وسد نهمته ، وشهوة فرجه ، وسلخ جلود الأمم الضعيفة وذبحها على أنصاب الأمم القوية ، فسلاح العلم أذكى سلاح وأمضاه ، وهو طليعة جيش المدافع والسهام .

(المدرس) قد تجلت الحقيقة ، وتلألأ نورها ، ووضح الحق ، واستبان السبيل ، وإنى أريد الكلام على تعدد الزوجات وجعلها أربعا .

(الأستاذ) لها وقت آخر ، وانصرفا وهما فرحانان مستبشران .

المجلس الرابع

(المدرس) قد اتفقنا فى الاجتماع الفائت أن نأخذ بأطراف الأحاديث بيننا فى أمر تعداد الأزواج للمسلمين ولكنى اليوم تبدت لى شبهة فلأقدمها بين يدى ذلك السؤال .

(الأستاذ) أنا لا أفهم أأنت مؤمن أم كافر ؟ فان كنت كافرا فلا شأن لى معك ، وإن كنت مؤمنا فلندع القال . ألا وإن نبوته ثابتة عقلا ، ألا ترى إلى ماقاله كارليل المؤرخ الانجليزى فى كتاب الشجاعة والشجعان وكيف برهن كما برهن شراح العقائد النسفية بالنتائج والثمرات . قال كارليل . [رجل بنى بيتا حسن البنيان متين التركيب . قائم الجدران منتظم الأركان ، ثم بقى البيت ألفا ومائتى سنة لم ينهدم منه ركن ، ولم تسقط من أعلاه شرفة ، وهو لايزال يزداد جدة مهما تقادم عهده ، وبعد أمده ، فهل بينه دعى فى البناء] البانى محمد صلى الله عليه وسلم والبيت الاسلام ، فاذا ثبتت لديك نبوته فاضرب بالشكوك عرض الحائط ، وهناك أدلة التجربة فجرب قوله فى الحديث وفيما أنزل عليه من القرآن وانظر هل تكون النتيجة كما أخبر الدين أو ماذا تكون ؟ فان صدقت النتائج فالقول حق ، فاذا قال «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين»

فاعمل بها وانظر النتائج ، هذه أمور قد فرغ العلماء والكتاب منها، وجربوها وصدقوها، فكن على آثارهم واقتد بأعمالهم تحز كنوزهم .

(الدره) أنا مؤمن ولكن أسألك ليطمئن قلبي ولأحاج الجاحدين .

(الأستاذ) الجاحدون إذا لم يؤمنوا فلنترك الجدال معهم .

(الدره) حقا، ولكن بعض الشبان يحار فيها لعموم المضلين ، أذناب الأوروبيين فى بلادنا . إذ قد أتوا صفا ، وقالوا لقد أفلح اليوم من استعلى .

(الأستاذ) وغلا دمه، ماذا يقول أذناب الأوروبيين .

(الدره) يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم كان مغرما بشهوة النساء وقد استدلوا بحديث فى طبقات ابن سعد أنه جيء له بقدر فأكل منها فأعطى قوة أربعين رجلا فى الجماع وهذا الكتاب يسمى كتاب الطبقات الكبير تصنيف محمد بن سعد كاتب الواقدى رحمهما الله وطبع فى مدينة ليدن بمطبعة بريل وهو خمسة عشر جزءا وصححه علماء ألمانيون بأمر من الجمعية الكبرى الأكاديمية الملوكية البروسيانية سنة ١٣٢٢ فيه أن المؤلف روى عن محمد بن عمر عن رجل يسمى موسى بن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال إن النبى صلى الله عليه وسلم قال كنت من أقل الناس فى الجماع حتى أنزل الله على (الكفيت) تصغير الكفت فما أريده من ساعة إلا وجدته وهو قدر فيها لحم . وفى رواية لقينى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت الكفت قوة أربعين فى الجماع .

(الأستاذ) تبسم ضاحكا وقال : أهذا حديث النبى ؟

(الدره) نعم . ضحك الأستاذ ثم استهزأ بالقول وسخر . وقال إما أن تصدق ما فى القرآن من آيات : وإما أن تصدق هذا الكلام . يقول الله «وإنك لعلى خلق عظيم» ويقول «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ثم يأتى أذناب أوروبا . وصغار العقول وذبان العلماء . يقولون إنما جاء يعلم الناس قوة الجماع بأكل لحم فى قدر. وفى المثل العامى : إذا كان المتكلم مسلوب العقل فالسامع فؤاد بعقل ونهى وارب . يميز الحق من الباطل . نبى يقول الله على لسانه «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون» ثم يقال كان يعلم الناس علم الشهوات . هذا ضلال مبين .

(الدره) ماقلت معقول ، فماذا تصنع فى الحديث .

(الأستاذ) الحديث مزوّر مكذوب وقد أخطأ ابن سعد فى كتاب الطبقات الكبير .

(الدره) إن هذا الكتاب أجمع وأحسن كتاب فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، وإذا لم نثق به فبم نثق .

(الأستاذ) الحديث مكذوب موضوع .

(الدره) غضب غضبا شديدا كيف تقول مكذوب ومابرهانك ؟ .

(الأستاذ) تبسم ضاحكا، هذا الحديث مروى عن عمى نصار بائع الفول المدمس أمام باب الصعايدة بالأزهر

(الدره) أتخرج من الجد إلى الهزل .

(الأستاذ) ما قلته لك حق .

(الدره) الحديث فى طبقات ابن سعد . وهو فى القرن الثالث وهذا الرجل فى أوائل هذا القرن الرابع عشر فليس ما تقول مقبولا .

(الأستاذ) اسمع أيها الصديق ، إذا أثبت لك أنه مروى عن رجل يشابهه فى صنعته أراد أن يشتهر ببيع الهريسة ، القمح المدقوق المطبوخ فى القدور كالمدمس فماذا تقول ؟

(الدره) أقول : إن أذناب الأوربيين جميعاً قوم لاخلاق لهم ، وإنهم صعاليك الأمم يريدون بنا شرا

ولسنا نذم إلا الكذابين الضالين منهم . فأما حكماؤهم وعظماؤهم وأجلاؤهم فلهم عندنا مقام عظيم .

(الأستاذ) أتعطيني عهدا ؟

(المدره) قال نعم .

(الأستاذ) قال العقيلي : حدثنا معاذ بن المثنى ، حدثنا سعيد بن المعلى ، حدثنا محمد بن الحجاج عن عبد الملك بن عمير عن ربعي بن خراش عن معاذ بن جبل قال : قلت يارسول الله هل أوتيت من الجنة بطعام؟ قال نعم ، أوتيت بهريسة فأكلت فزادت في قوتي قوة أربعين وفي نكاحي نكاح أربعين . قال وكان معاذ لايعمل طعاما إلا بدأ بالهريسة . قال العقيلي : هذا حديث وضعه محمد بن الحجاج اللخمي وكان صاحب هريسة وغالب طرقه تدور عليه وسرقه منه كذابون . أليس ياصديق هذا نصا على أن هذا الرجل هوالمخترع وأخذه كثير عنه بأسانيد اخترعوها وألفاظ غيروها . أو لم أكن صادقا في قولي لك إنه مثل عمي نصار بائع المدمس ، فهذا اشتهر بالمدموس ، وذاك اشتهر في هريسة فكسب مالا عظيما بهذا الكذب . وذبان أوروبا يتبعون ذلك الفحش والحقارة والدناءة ليضحكوا على عقول الجهال . وقال ابن عدي : هذا الحديث روى عن سلام بن سليمان عن نهشل ونهشل وسلام متروك مرمى وأن أحدهما سرقه من محمد بن الحجاج وركب له إسنادا . وقال الأزدي: هذا حديث روى من طريق إبراهيم بن محمد وإبراهيم هذا ساقط . فترى أنه سرقه وركب له إسنادا .

(المدره) الآن قد اكتفيت فلك الشكر والثناء على ما أوفيت . إذ قد حصحص الحق . وانقشعت غياهب الشك « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » وإني لأعجب كيف يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(الأستاذ) للوعد غدا في المجلس الخامس إن شاء الله تعالى .

المجلس الخامس

(انتظم المجلس وتناجى الأستاذ والمدره)

(المدره) وعدت أيها الأستاذ أن تفيض في الكلام على الأحاديث الموضوعة وكيف تسنى لامرىء أن يكذب على رسول الله ﷺ .

(الأستاذ) لاتعجب من قولي . فكم من عجب في هذا الإنسان ، فلقد طغى وبغى وكذب قديما وحديثا ، ولم يذر من شيء إلا أحاطه بشروره وألبسه من أثواب زوره ، ونسج بعناكب بهتانه على حقائقه ، ولكم أنبت في طيب أرض الحقائق من شوك قتاده وحسك عناده وعضاه اختلاقه . فإذارأيت الأمم الحاضرة والجرائد السائرة تختلق إفكا وتفترى إثما فهكذا كانت فرق من السابقين وعزون من الأولين يتقولون على النبي صلى الله عليه وسلم لأغراض يقصدونها وآثام يجترحونها ومقاصد يؤمونها ومناصب يرتقونها وممالك يحكمونها وظلامات يقترحونها . ألم تر إلى ماروى عن عبد الله بن يزيد المقرى قال :

(١) رجع رجل من أهل البدع عن بدعته فجعل يقول : انظروا هذا الحديث عمن تأخذونه فإنا كنا إذا تراءينا رأيا جعلنا له حديثا .

(٢) وعن ابن لهيعة قال : سمعت شيخا من الخوارج تاب ورجع فجعل يقول : إن هذه الأحاديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم فإنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا .

(٣) وعن حماد بن سلمة قال : حدثني شيخ من الرافضة . قال : كنا إذا استحسنا شيئاً جعلناه حديثا

(٤) وعن أبي أنس الحراني قال : قال المختار لرجل من أصحاب الحديث : ضع لي حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كائن بعده خليفة مطالبا بترة ولده وهذه عشرة آلاف درهم وخلعة ومركوب وخادم ، فقال له الرجل : أما عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا ، ولكن اختر من شئت من الصحابة وحط من الثمن ماشئت

(المدره) إن شئت أن توضح هذا الأخير فإني لفي حاجة إليه .

(الأستاذ) إن المختار كان أميرا على الكوفة مطالبا بثأر الحسين رضى الله عنه ظاهرا طالبا للملك باطنا ، وفي المثل « أسرّ حسوا في ارتغاء » وفيه أيضا « بعلة الورشان يأكل رطب المشان » وفي المثل أيضا « فلان محز نبق لينباع » أي يطرق ليثب . ولقد كان من خدعته أنه يخلق إفكا ويتظاهر بخوارق العادات . وكان من حديثه أنه يوما ما كان محاربا فقال لقومه ستفرون من العدو بذنوبكم ، فإذا كانت الهزيمة فستأتي الملائكة في صورة الحمائم البيض دون السحاب فيها تنصرون ، ثم أعطى بعض خواصه تلك الحمائم البيض التي رباها فلما كان الفدوقعت الواقعة وانشقت جموعهم وكانت واهية لكثرة العدو فأطلق أصحاب الحمائم البيض فاجتمعوا وأتوا صفا وغلبوا العدوّ ومزّقوه شر ممزّق ، وكان من جملة احتياله ونصب شراكه ورصد خلاخه ومبرم حبال أشراكه أن جعل لذلك العلامة في الحديث مالا وافرا وهدايا ثمينة توافق مرامه وتواتي أن يقول إنه خليفة بعد النبي صلى الله عليه وسلم مطالب بثأر ولده (يعني سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه) فأبى الشيخ عليه ذلك حفظا للدين ورضاء لله عزّ وجل .

(٥) ومن الوضاعين قوم وضعوا الأحاديث في الترغيب والترهيب ليحثوا الناس بزعمهم على الخير ويزجروهم عن الشر ومضمون هذا أن الشريعة ناقصة وتحتاج إلى تتمة بزعمهم . فعن عبد الله النهاوندي قال : قلت لغلام خليل ، هذه الأحاديث التي تحدث بها من الرقائق ، من أين أتيت بها ، فقال وضعناها لنرقق بها قلوب العامة . قال ابن الجوزي : غلام خليل كان يتزهد ويهجر الشهوات ويتقوت الباقلاء صرفا وغلقت أسواق بغداد يوم موته فحسن له الشيطان هذا الفعل القبيح . وسئل عبد الجبار بن داود النخعي فقال كان أطول الناس قياما بليل وأكثرهم صياما بنهار وكان يضع الحديث وضعا . وكان أبو بشر أحمد بن محمد الفقيه المروزي من أصلب أهل زمانه في السنة وأذبهم عنها وأخفهم لمن خالفها، وكان مع هذا يضع الحديث ويقلبه . وعن أبي عمار المروزي قال : قيل لأبي عصمة بن أبي مريم المروزي من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضائل القرآن سورة سورة وليس عند أصحاب عكرمة هذا ؟ قال إني رأيت الناس أعرضوا عن القرآن واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي ابن إسحاق فوضعت هذا الحديث حسبة . وكان وهب بن حفص من الصالحين مكث عشرين سنة لايكلم أحدا . قال أبو عروبة كان يكذب كذبا فاحشا . وعن يحيى بن سعيد القطان : ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير . فإذا كان هذا حال الزاهدين والأتقياء فما بالك بالفجرة الأشرار ؟

ومن الوضاعين قوم كانوا يتقربون للملوك والأمراء كغياث بن إبراهيم ، فإنه حين دخل على المهدي وكان المهدي يحب الحمام فقيل له حدّث أمير المؤمنين ، فقال حدثنا فلان عن فلان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا سبق إلا في خف أو حافر أو جناح ، فأمر له المهدي ببدرة . فلما قام قال المهدي إنه كذاب وأنا حملته على ذلك ثم أمر بذبح الحمام ورفض ما كان فيه .

ومن الوضاعين من كان يضع الحديث في ذم من يريد أن يذمه كما حكى عن سعد بن طريف أنه رأى ابنه يبكي فقال مالك ؟ فقال ضربني المعلم فقال أما والله لأحدثنهم حدثني عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : معلمو صبيانكم شراركم وقيل للمأمون بن أحمد الاترى إلى الشافعي وإلى من تبعه بخراسان؟

فقال

وقال حدثنا أحمد بن عبد الله بن معدان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون فى أمتى رجل يقال له محمد بن إدريس أضر على أمتى من إبليس . وقيل لمحمد بن عكاشة الكرمانى : إن قوما يرفعون أيديهم فى الركوع وبعد رفع الرأس من الركوع فقال أنبأنا المسيب بن واضح حدثنا عبد الله بن المبارك عن يونس عن يزيد عن الزهرى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفع يديه فى الركوع فلا صلاة له .

(أقسام الوضاعين)

إن الوضاعين ثمانية أقسام :

(١) الزنادقة قصدوا إفساد الشريعة وإيقاع الشك فى قلوب العباد والتلاعب بالدين كعبد الكريم بن أبى العوجاء . قال ابن عدى لما أخذ ابن أبى العوجاء إلى محمد بن سليمان بن عامر فأمر بضرب عنقه قال : والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحلل فيها الحرام وأحرم فيها الحلال . وعن جعفر بن سليمان قال سمعت المهدى يقول عندى رجل من الزنادقة وضع أربعمائة حديث فهى تجول فى أيدى الناس .

(٢) قوم كانوا يقصدون بوضع الحديث نصرة مذهبهم كما تقدم عن عبد الله بن يزيد المقرى .

(٣) قوم وضعوا الترغيب والترهيب كما ذكرته لك إجمالا فيما تقدم والمثال فى ذلك ما يروى عن ابن عدى حدثنا أحمد بن حفص السعدى حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا خاقان السعدى حدثنا أبو مقاتل السمرقندى عن عبد الله بن نافع عن ابن عمر مرفوعا من زار قبر أبويه أو أمه أو عمته أو خالته أو أحد من أقربائه كانت له حجة مبرورة ومن كان زائراً لهم زارت الملائكة قبره ، قال ابن حبان ليس لهذا الحديث أصل وأبو مقاتل حفص بن سلم يأتى بالأشياء المنكرة . وقال ابن عدى حدثنا عبد الرحمن بن عبد المؤمن حدثنا أحمد بن صالح المكى حدثنا على بن عباس الحمصى حدثنا سليمان بن أرقم عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حسنوا أكفان موتاكم فإنهم يتزاورون فى قبورهم قال بعض العلماء هو موضوع وصححه آخرون من طريق غيره . وقال عبد الوهاب بن المبارك الحافظ أنبأنا شهر بن حوشب بن عبد العزيز الجيلى أنبأنا أبو حامد محمد بن همام حدثنا محمد بن سلم حدثنا إبراهيم بن هدبة عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شيع جنازة فلما صلى عليها دعا بثوب فبسط على القبر وهو يقول : لا تطلعوا فى القبر فإنها أمانة فلعل وعسى يحل العقد فينجلى له وجه أسود ولعله يحل العقد فيرى فيه حية سوداء مطوية فى عنقه فإنها أمانة وعسى أن يقبله فيعود إليه دخان من تحته فإنها أمانة . هذا موضوع وأكثر رواته مجهولون وإبراهيم بن هدبة كذاب . وقال الخطيب أخبرنى أبو الفرج الطناجيرى أنبأنا عبد الله بن عثمان الصفار أنبأنا أبو محمد بن الحسن بن أبى الحسين بدر بن عبد الله مولى المعتز بالله حدثنا أبو القاسم أنس بن محمد بن على الطحان حدثنا محمد بن بشر الأرطبانى حدثنا محمد بن معمر حدثنا حميد بن حماد عن مسعر بن كدام عن عبد الله عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دفن البنات من المكرمات . قال لا يصح ، وحميد يحدث عن الثقات بالمناكير وروى من طريق آخر وهو منكر قال الشيخ السيوطى سمعت شيخنا عبد الوهاب بن الأنماطى الحافظ يحلف بالله عز وجل إنه ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا قط .

(٤) قوم استجازوا وضع الأسانيد لكل كلام حسن كما حكى عن محمد بن سعيد أنه قال : لا بأس إذا كان كلام حسن أن نضع له إسناداً .

(٥) قوم كان يعرض لهم غرض فيضعون له الحديث كالتقرب للملوك كما تقدم عن غياث والمهدى .

(٦) قوم وضعوا أحاديث قصدا للأغراب ليطلبوا ويسمع منهم، قال أبو عبد الله الحاكم منهم إبراهيم بن اليسع وهو ابن أبى حية كان يحدث عن جعفر الصادق وهشام بن عروة فيركب حديث هذا على حديث ذاك تستغرب تلك الأحاديث بتلك الأسانيد .

(٧) قوم شق عليهم الحفظ أو رأوا أن المحفوظ معروف فأتوا بما لا يعرف مما يحصل مقصودهم وهؤلاء منهم القصاصون الذين لا رغ لهم إلا بالأحاديث الموضوعة .

(٨) الشحاذون وأغلبهم يحفظون الموضوع ، وروى الدارقطنى عن أبى حافظ البسق دخلت تاجردان [مدينة بين الرقة وحران] فحضرت الجامع فلما فرغنا من الصلاة قام بين أيدينا شاب فقال حدثنا أبو خليفة حدثنا الوليد حدثنا شعبة عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قضى لمسلم حاجة فعل الله به كذا وكذا فلما فرغ من دعوته قلت له رأيت أبا خليفة ؟ قال لا ، قلت له كيف تروى عنه ولم تره فقال إن المناقشة معنا من قلة المروءة أنا أحفظ هذا الاسناد الواحد وكلما حفظت حديثا ضممته إلى هذا الاسناد .

﴿ فصل ﴾

قال ابن الجوزى والوضاعون خلق كثير من كبارهم وهب بن وهب القاضى ومحمد بن السائب الكلبى ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب وأبو داود النخعى وإسحاق بن نجيح الملطى وعباس بن إبراهيم النخعى والمغيرة ابن شعبة الكوفى وأحمد بن عبد الله الجويبارى ومأمون بن أحمد الهروى ومحمد بن عكاشة الكرمانى ومحمد ابن القاسم الطالكانى ومحمد بن زياد اليشكرى .

وقال النسائى : الكذابون المعروفون بوضع الحديث أربعة: ابن أبى يحيى بالمدينة . والواقدى ببغداد . ومقاتل بن سليمان بخراسان . ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام . وقال الحافظ سهل بن البراء، ثم وضع أحمد بن الجويبارى ومحمد بن عكاشة الكرمانى ومحمد بن تميم الدارى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من عشرة آلاف حديث .

﴿ اعتراف الكذابين ﴾

قد أقدم جماعة من الكذابين على كذبهم وتنصلوا من ذلك . عن ابن أبى شيبة قال كنت أطوف بالبيت ورجل ورائى يقول : اللهم اغفرلى وما أراك تفعل . قلت يا هذا قنوطك أكثر من ذنبك ، فقال دعنى فقلت له أخبرنى فقال إنى كذبت على رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين حديثا فطارت فى الناس وما أقدر أن أرد منها شيئا . وقال ابن لهيعة دخلت على شيخ وهو يبكى فقلت وما يبكيك؟ قال وضعت أربعمائة حديث أدخلتها فى الناس فلا أدرى كيف أصنع فعند ذلك قال :

(المدره) : كنى قد شربنا من هذا النهر حتى ارتوينا فحسبنا ما علمنا .

﴿ الكلام على تعدد الزوجات بين المسلمين ﴾

وإنى أرجو أن تفيض الكلام على تعدد الزوجات عند المسلمين فليس على الاسلام والمسلمين أشد انتقاداً ولا أمرّ مذاقاً ولا أعظم وقعا من هذه، فهى التى أطالت ألسنة القادحين وأطمعتهم فى هذا الدين فأوضح القول فيه إيضاحا والتمس فى القول نهجا وسطا لا رمزا ولا شططا بين ذلك متخذاً المساواة سبيلا، وإن شئت فليكن الإيجاز أحسن تأويلا .

(الأستاذ) لقد غصت المجالس بهذه الكلمة واستفاض بها الحديث من الشرقيين والغربيين ولن تجالس امرأ من بنى التاميز أو السين أو الطونة أو من الألمان أو الطليان وكان من المغرمين بالديانات إلا فاجأك بهذا

الحديث، ولقد والله عجبت لهذا الانسان كيف يتعالى حتى يصل مستوى الفضيلة والشرف وينحط حتى يتنزل عن دركات البهائم والدواب والحشرات . هذا الإنسان أيها العزيز مخلوق غريب ؛ ترى الأوروبى عالما بكثير من الشئون طائرا فى الجو جاريا على الأرض بالصناعات عائما فى البحر سابحا فيه بجمله حتى إذا دخل فى مجادلات الدين هالك أمره فأيقنت أن هذا الإنسان المسمى بالمتمدين مقلد يستقى كما تستقى الجنينة .

عاب الإسلام بمسألة عمرانية من آلاف المسائل الصحيحة، وياليت شعرى لو أنها كانت ثلمة فى الدين لم تغن فتيلا فى الاعتذار ولم تقم حجة على ضعفه ولم يكن ثمة سبيل لاعتقاد وهنه فكيف وهى كما ستوضح من مستلزمات الاجتماع ومقومات هذا النوع الإنسانى . التعدد المعتدل على ماسترى من أحمدة المدنية المقبلة ومن عقاقير الأمراض الاجتماعية المزمنة تعدل مزاج هذا النوع أيما تعديل ، وتقومه أحسن تقويم ، فمزاج الإنسان اليوم منحرف من الضرر وإصابة الحمى من تعفن الأخلاط وتراكم أدرانه وتتابع آلامه ومسألة اجتماعه المنزلى من عويصات المسائل وكبرياتها، فلأفض فى القول ولتسمع ولتع ولأقدم المقدمة قبل ذلك فأقول :

(١) اعلم أن المقرر فى الطبيعة كما هو المعلوم فى سائر الدول والممالك أن عدد الذكور فى الميلاد يساوى عدد الإناث تقريبا كما أوضحت فى كتابنا [أين الإنسان] وعليها بنينا نظام الأمم المقبلة إن صحت عزيمة الإنسان وأراد التخلص من حطته والتخلص من شططه وخطيئته، فلو أنك استقصيت مواليد الأمم أمة أمة والبلدان بلدة بلدة لرأيت هذه العجيبة الغريبة وهى التساوى بين الجنسين محكمة مطردة صادقة، فلتقرأ مواليد بلدتك أو أى بلدة تجاورك أو أى مملكة أحصت ذكورها وإناثها تجد التساوى تماما إلا قليلا لخلل عرض ، وضعف ومرض وأحوال استثنائية وأمور فجائية، هذا هو القانون العام وهذه أس بنينا عليه مالهذا الإنسان من نظام طبيعى فى أخلاقه وسياسته وصناعته وحكومته وكيف زاغت الحكومات وضلت السيادات واضمحلت الجماعات واكفهرت الأجواء واختلفت الأنواء وتواثبت الشبات ونقضت العهود والأمانات كل ذلك لجهل الإنسان بفطرته وزيغه عن جادته فاقرأه فى كتاب « أين الإنسان » تر العجب العجاب مما لامحل لذكره هنا وإنما نريد من ذلك أن هذا الإنسان تساوت ذكرانه بإناثه فلم تتطلب أمة من أخرى نساءها اضطرارا ولم يكن من زلة طبيعية واحدة من هذا السبيل بل كل ذلك بمقدار، فلم نسمع أن أمة من الأمم القديمة أو الحديثة مهما طال عليها القدم كانت مواليدها يوما ما جميعا إناثا أو ذكورا بل العدل مستمر دائم فهذه أول مقدمة .

(٢) المقدمة الثانية إنى قرأت فى إحدى صحائف (اللورد كرومر) الذى كان عاملا للانجليز فى مصر فى صحيفته السنوية أن تعداد الزوجات بين المسلمين لايزيد عن خمس فى المائة ثم نقل عن آخر من السائحين من بعده فقال إنهم لايزيدون عن ثلاثة فى المائة ، هذان هما الأصلان اللذان أبنى عليهما النتائج الآتية . فإذا تقرر هذان الأصلان نقول : منذ سنين معدودة عدت أمة الإنكليز نساءهم فزاد مقدارهن خمس عشرة امرأة فى كل ألف رجل وامرأة فتكون من هذه الزيادات آلاف ومن الآلاف مئات الآلاف وصاحوا وولولوا وندبوا حظهم من الطبيعة وقسطهم من العدل وقالوا إن هذا الإتباب ، أين نضعهن ومن يعولهن وماذا نصنع فيهن وزلزلت أرض نادى العموم زلزالها وأخرجت أرض الهموم أثقالها وقال سادات الانجليز مالها؟ فيومئذ حدثت الجرائد أخبارها أن عدد النساء ازداد وما تغنى المدافع والجنود. هذا ما كان من أمة الانكليز فى التعداد العام، ولعمرك مامن أمة إلا أصابها موت الأبطال فى ساحات الوغى وفقد الرجال مما يقل تعداد رجالها عن نسائها وهذه الحرب المستعرة الآن شاهد عدل فكم من نساء أيمات قد فقدن النصير وأعزهن العشير فقلت الرجال وكثرت النساء ، وقد بلغنا عن التعايشى خليفة للمهدى السودانى أنه ذبح الرجال واستحيا النساء فكنت ترى فى القرية الواحدة بضعة شيوخ وأطفال وآلافا من النساء وقد صح فى الحديث عن سيد الرسل صلى الله عليه وسلم إذ

قال فى أشراط الساعة: «وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون للخمسين امرأة القيم الواحد» عجب ! أمر النبوة يذكر أيام المسيح الدجال، وإن أول أيامها يساوى سنة وثانيها يساوى شهرا وثالثها يساوى أسبوعا الخ مشاكلة لحال الكرة الأرضية حذو القذة بالقذة كما فى رسالتنا على هلال رمضان فانظرها ، وها هنا تذكر أشراط الساعة ويذكر أنه يكون للخمسين امرأة القيم الواحد مطابقا لحالنا الحاضرة فى هذه الأيام السود، إذ يفنى الرجال ويبقى النساء ولا عائل لهن ولقد علا صراخ الانكليز وعويلهم من خمس عشرة امرأة زادت فى فى كل ألف رجل، وامرأة لعلة عارضة فى النسل وطارئ من الضر على أرحام النساء وأصلاب الرجال ومناهج التربية وطرق الأغذية وماشاكل ذلك فما بالك بهذه الحروب الطاحنة والأضغان الظاهرة وقد جندل الأبطال وعم النكال واصطدم أعظم الأمم قوة وأشدهم بأسا فى العراك والقتال فطاحت تلك القماقم الجحاجح وبادت تلك الصناديد الفواتك والصماصيم الصوائل فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم وحرمهم الفواتن الحرائر والبوائر العوانس .

(للدره) لقد أطلت فى هذا المقام وخرج القول إلى الإبهام ، فإن حاصل الأمر يرجع إلى أن الرجال وإن سادوا النساء عددا فقد يقصون عنهن بالطبع كما حصل نادرا بانجلترا، وقد يكون بالمصائب فى الحروب والأحوال العارضة العامة لسائر الناس وأنا لا أرى هنا مجيزا لتعدد الزوجات فإن القانون العام لايكون لمثل هذه الأحوال العارضة والأمور الطارئة على أنه لو أن ذلك يكفى فى التشريع لعارضه تشتت الأسرات وتفرق الجماعات بتعدد الأمهات فى الأسرة الواحدة . وهل أتاك حديث الأزواج وبؤسهم والزوجات ونكد عيشهن وأبناء الضرائر وضنكهم وسوء العيش والشجار والعراك والتقاضى فى المحاكم وسوء العشرة . كل ذلك الشر لايقاوم الخير الناجم من زواج تلك الأيامى اللائى مات أزواجهن ، وإذا اجتمعت علتان يتبع الأخف وهذه الشرور الكثيرة فى الأسرات أنكى من ضرر عدد من النساء فقدن العائل وعشن على غير طائل وهن أرامل .

(الأستاذ) لقد تعجلت ولم تمهل حتى أتم القول فاصغ لما أقول موجزا: إن أكثر الرجال سائرون على هذا النهج الطبعى يتزوجون بامرأة واحدة والقليل انقسموا قسمين ففريق أصبح شديد الشهوة قوى البنية كثير المال مغرما بالنساء بالطبع . وفريق ترك النساء إما زاهدا دينيا كالرهبان، وإما ضعفا عارضا، وإما فقرا مدقعا، وإما غما وهما . وهذا صنف دائم ثابت فى نوع الإنسان فضلا عن الحرب والنكال فى الأمم ، فهذا يدحض ما أشرت إليه من أنه نادر أو عارض يزول فلا مناص من جواز التعدد لأن النساء اللائى لاعائل لهن يقابلن الفريق الأول من القسمين السابقين وهم الشهوانيون ؛ فلو أنا حرمنا التعدد لأصبحنا وجها لوجه أمام الخطر الداهم الذى طغى سيله وطم وعم فساده من أوروبا فأغرق الشرق سيله الجارف ألا وهو الزنا الرسمى كما هو فى مصر الآن وسمى له سائر الممالك المتمدينة لأن ذلك الغنى يطلب أكثر من امرأة وتلك النسوة البائسات الجيلات يتطلبن الرجال للقوت والشهوات ، فلو حجرنا عليهم وعليهن وجب أن نخصص أماكن للفجور كما هو حاصل الآن فطاحت العفة وضاع الشرع وذهبت المروءة . أما الإسلام فتعجب ولتنظر أباح تعدد الزوجات فزال الخطر المحدق وكانت العفة والشرف والنسل الشريف . انظر أليس التعداد كان خمسة فى المائة أو ثلاثة فى المائة أى ثلاثين فى كل ألف ومن عجب أن هذا العدد الاحصائى يوآتى ماقدمناه فإن هذا المقدار فى الألف يقابل المتقاعدين فى كل أمة من الزواج وهو القدر الذى يجتمع فيه الخصال الثلاثة الشباب والفراغ والجدة وهى مفسدة للمرء أى مفسدة .

فانظر وتعجب كيف جعل الإسلام هذه المفسدة مصلحة واستبدل الزوجات بالبغايا وأبناء الرجال الأشراف المتطهين العاملين بأبناء الزنا المتردين والمخنوقين والعفة بالخنا والأمانة بالخيانة والصيانة بالإهانة، أباح الإسلام تعدد

الزوجات فماذا جرى ؟ تقدم أولئك الأقوياء أولئك الأغنياء المسرفون فمدوا أيديهم إلى من عندنا من النساء اللاتى لاقيم لهن فتزوجوهن وأقفلوا بيوت الخنا ومحال العهر والفحش . شهد (اللورد كرومر) فى تقريره أن هذا العدد لم يزد . جعل الله لكل رجل امرأة فضعف بعض الرجال أو مات فقام غيره فاتخذ نظيره من النساء وعالهن ؛ وهل جل المسلمين يعددون أو كلهم وهل المعددون استوعبوا النساء حتى فقد عددهم ؟ كلا ثم كلا . لسببين : الأول أنه لم يخلق الله إلا امرأة واحدة نظير كل رجل ، فالمتروكات نظير الهالكين والضعفاء . الثانى أننا لم نسمع أن رجلا ما أراد أن يتزوج فوق واحدة من النساء فلم يجدها ، لم نسمع هذا فى تاريخ أمة من الأمم حتى التى أباحت العدد المطلق إلى مالا يحصى فعلمنا أن الحكمة الالهية حفظت نظام العالم .

أما ما يقال من سوء العشرة وفساد المنازل بين الإخوة فهذا كلام ناشىء من جهل القائلين به وعدم تبصرهم ، فليس كل أخوين من أمين متشاكسين ولا كل أخوين من أم واحدة متحابين . إن واحداً من ذوى قرابتى رأيته يحب أخاه لأبيه ، ولما مات ذلك الأخ بكى عليه قريبى أكثر من أخى الميت الشقيق فعجبت لكذب القوم الصراح وجهلهم الفاضح ، على أن الحسد فى الإخوة أمر طبيعى وإنما يهذبه العلم والتربية والأدب والدين ، ولو كانت المشاجرة والعداوة بين الأسرة علة لمنع التعدد لقلنا فليزل نوع الانسان من فوق سطح الكرة الأرضية فالأمم كلها فى ضغائن والأفراد متشاكسون ، ولو سلمنا جدلا أن العداوة كائنة فالأبناء خير والشر العارض لايمنع الخير العظيم وهو ازدياد عدد الأمة وظهور الرجال فيهم ، على أن أكثر من نراهم فى الأمة هم أبناء أولئك الأقوياء المترفين الأغنياء الذين يعيشون ليلدوا ، كما أن آخرين يعيشون ليعلموا ويؤلفوا . قوم يلدون أجساما وآخرون يلدون عقولا ، كم من رجل فى البلاد المصرية خلف ثلاثين ذكراً أو أربعين ومنهم من بلغ أبناؤه وأبناؤهم عدداً وافراً فاختلطت عليه الأسماء . ما أسوأ الأمم الغبية الجاهلة التى تقول لأقويائها لا تتزوجوا علنا وتزوجوا سراً لتموت أبناؤكم فى المراحيض ما أجهل تلك الأمم ، ما أقل علمهم ، ما أكثر جهلهم ، ما أوضح العلم وما أجهل أولئك فى علم الاجتماع . فالحق والحق أقول إن العالم الانسانى اليوم يعوزه الفلاسفة والحكماء ليعرف كيف يعيش ، فان نظرياته ضئيلة ضعيفة يحيا ويموت على عادات موروثة ومناهج مرسومة يقلدها تقليد العميان ويتبعها اتباع الصبيان ويذم ما ليس من عادته ، وفى التنزيل « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » يقولون تعدد الزوجات أفسد المجتمع الاسلامى ويا للعجب لو أن التعدد إفساد لم يكن الثلاثون فى الألف شيئا مذكوراً حتى يفسد الألف ومن ذا الذى ضل عقله وزاغ بصره فحكم بفساد الألف إذا فسد منهم ثلاثون ، هذا قول من فى قلبه مرض وعلى عينيه غشاوة فكيف وقد استحال الفساد صلاحا وأضحى الثلاثون فى الألف أو الخمسون منها إصلاحا لباقيها يلدون لهم البنين والبنات ويخرجون القواد والعلماء والعقائل والفتيات وهم أقدر فى الغالب على التربية والتعلم لما أحرزوا من ثروة وما أوتوا من مال فياليت شعرى كيف تسنى للأمم أن يقولوا للمرأة افعلى الخنا إذا اخترته سبيلا وكونى زانية إذا راق لديك وصفا وقتك ويأيها الرجل أبحنا لك الزنا واخترنا لك الخنا وآتيناك منا قوة القانون على أن تغازل من تشاء من الفتيات فأى فتاة فضحتها وأفزعتها ، وأى امرأة أزلت صونها ومددت يديك إلى سترها فمزقته وإلى بيت شرفها فهدمته وكان ذلك على اختيار منها ورضا فانا لكم معينون وإن أثمر ذلك وأد البنين والبنات وقلة النسل العام فى الأمة وإن فاق أعداؤها عددا فاعتلوا عليها عند الغلبة بكثرة عددهم وصفوف جيوشهم ثم تقول تلك الأمم أنفسها أيتها المرأة ويأيها الرجل إياكما أن تجتمعا اجتماعا شرعيا فلا يكن عندك أيها الرجل منهن ثلاث أو أربع احذروا ذلك فانها عادة المتوحشين ولو صينت الأعراض وأقفلت بيوت الخنا وقت أيها الرجل على امرأتك فأقتها وكسوتها ورحمتها ونحن نحرم عليك ذلك وعليك أيتها المرأة نحرمه

تحريما بإنا ولكنا فى الوقت نفسه نبيحه على سبيل الفجور والخنا فاجمع يارجل من شئت من النساء ولو ألفا مادام ذلك سفاحا وإياكا أن تجتمعا اجتماعا شرعيا ولو أدى ذلك إلى حياة البنين والبنات وكثرة القواد والمؤلفين والعلماء وتكاثر النسل حتى يغلب العدو الفاجىء الداهم رضينا بالخنا رضينا بالزنا رضينا بقلة النسل وكثرة العقم رضينا أن يكون نسبتنا إلى عددنا العام كنسبة عدد الفرنسيس إلى الألمانيين لما فى الأولين من إهمال أمر الزواج وفى الآخرين من الحرص عليه وإنما علينا إذا حكمنا أمة من الأمم ورأيناها تتكاثر ولادة بقوانين بلادها علينا أن نحسدها ونتطير منها ونشفق ونسومهم سوء العذاب ونوجس شرا من كثرة نسلها ونرسل رسلنا وطلائع استعمارنا ونصطفى الحكام من صغار النفوس المتواضعين ونوحى إليهم أن قبحوا لهم هذه الشريعة البيضاء سودوها فى وجوههم افحموا أفئدتهم بالسوء والجدل والمناقشة وهوشوا عليهم لعلهم يرجعون عن التعدد بل لعلهم يزنون ولعله يقل نسلهم فنتمكن من حكمهم كما قال هنرى الفرنسى فى كتابه عن الجزائر إذ قال: [قعدنا لهؤلاء المسلمين كل مرصد وسددنا عليهم السبل وأحطناهم بسرادق من نار لعلهم يقلون فلم نقدر حق الحر سلطناها عليهم وهى السلاح الفذ لمحاربة الشرقيين فمنعه الاسلام أن تشرب حبه فى قلوبهم أو يفتت أكبادهم فهم يتناسلون والفرنسيون لايتناسلون] حارت والله تلك الأمم. حارت فى محاربة النسل فى الأمم المستعمرة، حسدوها على الفضيلة وعلى النسل وعلى السعادة، ولقد أخبرنى صديق أن إحدى الأمم لما رأت الزنوج الافريقيين والوثنيين يتزوج الرجل نساء كثيرات وليس عليه إلا أن يجلس فى خيمته طول نهاره يتمتع بما تكسب النساء له من كدهن وعملهن وهو قوى البنية ولا يصرفها إلا فى إحبالهن وإيلادهن وإنجاب الذرية فكثر النسل ولم يقدر الأوروبى أن يحاربه. ضربت الحكومة على المتزوجين من هذا القبيل الخراج عسى أن يقل نسلهم فما أشأم هذا الإنسان «قتل الإنسان ما أكفره. إن الإنسان لظلوم كفار. ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لهم يرجعون».

(المدرة) والله لقد شفيت صدرى وأزلت الغمة وكشفت النقاب عن وجه الحقيقة الجميل. تمت الرسالة فى صباح يوم الأحد ٢٧ سبتمبر سنة ١٩١٤ فى ميدان القلعة بالقاهرة، ولما أضيفت هذه الرسالة إلى السورة تمت فى يوم السبت ٢٢ مارس سنة ١٩٣٠ م و ٢١ شوال سنة ١٣٤٨ هـ بقسم السيدة زينب.

الإسلام وتعدد الزوجات

جاء فى [مجلة الرشد] مانصه:

إن قوانين الاقتصار على زوجة واحدة أكثرت فرائس العزوبة فى الغرب، وزيادة عدد الإناث على الذكور أوقعت العقلاء فى مشكلة ينادون منها بالويل والثبور ويطلبون الخلاص «ولات حين مناص».

جاء فى المجلد السابع من العرفان مانصه: إن عدد النساء فى إيطاليا يزيد على عدد الرجال بمليونى نسمة وفى ملزمة (٣٤) من [الهلال] فى ضمن مقال بقلم (أميل زيدان) عن جريدة الماتان الافرنسية عن الأستاذ (بيتار) الطبيب الكبير الذى هو اليوم عضو مجلس النواب فى فرنسا إنه يقول [إن فى فرنسا الآن ٠٠٠ر٥٠٠ر١ فتاة لن يجدن لهن أزواجا على افتراض أن كل شاب افرنسى يتزوج بفتاة واحدة، وإنى أقول بصراحة ما أنا واثق من صحته أن المرأة لاتتمتع بصحة جيدة مالم تصبح أما، وفى اعتقادى أن القانون الذى يحكم على تلك الفرقة الكبيرة بأن تعيش على نقيض ناموس الطبيعة إنما هو قانون وحشى بل مناف لكل عدالة]

وفى م (٣٧) منه أيضا [تزيد عدد الإناث على الذكور فى انجلترا بمليون ونصف مليون ، أما زيادة الإناث على الذكور فى ألمانيا فتبلغ مليونين ، ولكن هذا الفرق أقل من النسبة الحاضرة فى عدد المتزوجين ، ففى انجلترا نحو ثلاثة أو أربعة ملايين فتاة غير متزوجة مع أنهما فى سن الزواج] وقال (شوبنهور) الفيلسوف الألمانى الشهير فى رسالته [كلمة عن النساء] تعريب حسن رياض مانصه : [إن قوانين الزواج فى أوروبا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا وضاعفت علينا واجباتنا ، على أنها مادامت أباحت للمرأة حقوقا مثل الرجل كان من اللازم أن تمنحها أيضا عقلا مثل عقله] إلى أن قال [ولا تعدم امرأة من الأمم التى تجيز تعدد الزوجات زوجا يتكفل بشئونها ، والمتزوجات عندنا نفر قليل وغيرهن لايحصين عدا تراهن بغير كفيل بين بكر من الطبقات العليا قد شاخت وهى هائمة متحسرة ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب ويتحملن مشاق الأعمال وربما ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزى والعار ، ففى (مدينة لوندره) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحة الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة ، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل ، أما آن لنا أن نعد ذلك تعدد الزوجات حقيقة لنوع النساء بأسره إلى أن قال [على أنه من العبث الجدال فى أمر تعدد الزوجات مادام منتشرا بيننا لاينقصه غير قانون ونظام] أمعن النظر فى هذه الفقرة ، إلى أن اعترف بقوله [بل إننا لاننكر أننا فى بعض أيامنا أو معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيرا من النساء ، ومادام الرجل محتاجا لزوجات كثيرة يجب أن يكفل شئون هذه النساء] .

وعن مؤلف كتاب [العشيقة الشرعية] الذى حاز السبق فى مضمار الزواج فى فرنسا وغيرها وطبع منه أكثر من (٥٠٠,٠٠٠) نسخة [أنه ذهب إلى أن يكون لكل رجل إلى جانب زوجته خليلة تكون لها صفة قانونية فلا تحتقر ولا تمتهن فى نظر الشريعة أو فى نظر الرأى العام . قال : هذا هو الأمر الواقع اليوم فى آدابنا الاجتماعية ، ولم يبق علينا إلا أن نعترف بهذه الحالة وندخلها رسميا فى عرفنا] . قلت من هذا نعلم أن القوم لايأنفون من تعدد الزوجات ومعترفون بإباحته الشرعية ولكنهم يطالبون بقانون يبيحه لهم بعدأن ذاقوا مرارة الاقتصار على زوجة واحدة ورأوا المفاسد الناشئة منه كالتعدد غير المشروع وأمثاله . هذا ولايخفى أن التعدد الذى يسبه الجاهلون اليوم قد أباحه بالأمس المصلح الكبير فى النصرانية (لوثر) فسمح لأمير الألمان (هس) بأن يتزوج ثانية لأن امرأته كانت شوهاء ، و(ادوارد السابع) وهو من علت أصدر فى أواخر ايامه منشورا يبيح فيه تعدد الزوجات ، وكانت أمه من قبل معارضة لهذا الرأى أشد المعارضة ، وسيأتى يوم يدرك فيه الناس فوائد التعدد [1] فيميلون إليه ميلة واحدة ويعترفون بفضل القرآن الكريم . اه ما جاء فى المجلة المذكورة .

***

فى يوم الثلاثاء (١٤) يناير ١٩٣٠م سألنى أحد المدرسين بمدرسة عابدين الخيرية . فقال : قد حصل بينى وبين ناظر المدرسة جدال فى أمر تعدد الزوجات ، وأن فى الاسلام هذا ضد المدنية . قال وأنا أجبته بأن العدل

---

(١) من فوائد التعدد تكثير النسل وتقليل الزنا والتكفل بمن ليس لها كفيل والمحافظة على الأعراض عند ازدياد النساء وقلة الرجال ، وحفظ الزوجة الأولى لدى عقمها أو مرضها مثلا . وأما قول إن التعدد ينغص العائلة فهو غير مقبول لأن قلب الرجل يسع التعدد سيما مع استعمال العدل المطلوب .

إذا لم يتم فانه يمتنع التعدد بمقتضى الآية وهكذا . فقلت له أريد أن تسمع منى ماأقوله لك بعقلك وتتخلى عن كل مالديك من الآراء المحفوظة وتخلى بينى وبين عقلك وحده . ثم لتكن حرا فى أن تعترض بما تشاء والعقل هو الحكم . فقال أحب ذلك ، فقلت أولا إن هذا المقام مستوفى فيما تقدم قريبا ، فلندع هذا الآن ولأقل لك اعلم أن بنى آدم على وجه هذه الأرض قد وضع لهم نظام لااختلال فيه وهو أن يكون الذكور والإناث متساويين وهكذا كل حيوان لأن اختلاف العدد خلل فى النظام ، ولذلك تجد الناس فى كل بقعة من بقاع الأرض يكادون يتساوون فى عدد الرجال والنساء، والذى يمنع هذه المساواة عوارض تعرض للحياة فتختل هذه الموازنة اختلالا يسيرا . قال نعم . قلت إن المسلمين أطلق لهم العنان فيما مضى فتزوجوا ما يشاءون . أتدرى ماذاحصل قال لا ، قلت لم يعدد من الرجال فى الاسلام إلا (٣) فى المائة أو (٥) فى المائة ، وهذا القدر صغير جدا . قال نعم والله . قلت وهنا نسأل : إذا أراد رجل أن يتزوج امرأة فى أى قطر من أقطار الاسلام فهل يجد امرأة يتزوجها مع هذا التعدد ؟ قال نعم والله يجد ، قلت فهل جاء فى تاريخ الأمم أن الناس بحثوا عن النساء فلم يجدوا لأن الآخرين قد استحوذوا عليهن ؟ قال كلا ورب الكعبة . قلت إذن المسألة واضحة تساوى الرجال والنساء عددا ولكن قد يموت بعض الرجال فى الحرب أو بالمرض أو لايتزوج الآخر للفقر فيلهم الله بعض الأغنياء الأقوياء أن يتزوجوا بعض الباقيات . فقال هذا والله عجب ، فقلت إذن النوع الانسانى اليوم مقلد كالطفل ، فلولا اتباع الانسان للتقاليد الجاهلة لم تبق النساء البائسات بلا أزواج فى أمة من الأمم ، فالمسألة كلها مسألة القسيسين الذين ملأوا الأمم صياحا والأمم لاتفكر بل تتبع آراءهم ولا يفكر إلا العقول الكبيرة عندهم (كما تقدم قريبا) فالنوع الإنسانى اليوم لايزال فى حال المراهقة وسيأتى يوم يعرف الحقائق . فقال هذا والله حق وليس لى عليه رد . فقلت الحمد لله رب العالمين . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية : فى معنى قوله تعالى «وخاتم النبيين» ﴾

(الجواب الكافى)

وهو ما أجاب به (عبد الله كويليام) الانجليزى المهتدى للاسلام عن سؤال أحد علماء أوروبا فى الشريعة المحمدية الغراء . وقد أتى فى الجواب بالأدلة الفنية والبراهين العقلية على أن الديانة الاسلامية أكمل الأديان وأرجح الشرائع وناسخة لجميع ماسبقها وأنه لن ينسخها شىء بعدها أبدا مادامت الأكوان وبقى الإنسان .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(السؤال) ماهو البرهان العقلى والدليل الفنى على أن الشريعة المحمدية أفضل الشرائع وأكملها وأنها ناسخة لكل ماسلفها ولا ينسخها شىء بعدها أبدا ؟

(الجواب) لو أنعمنا النظر ذات ليلة (وكان الهواء صافيا والجو من الغيم خاليا) فى الفضاء الذى لايتناهى لرأينا لأول وهلة شموسا تدور حولها سيارات كثيرة كمنظومتنا الشمسية ، تظهر لأبصارنا من أبعد المواقع فى هذا الفضاء تسير منقادة كل الانقياد للقانون المسنون لها لا تحيد عنه مادامت ، فاذا انقضت تلك الليلة نرى الشمس تطلع من المشرق . وما أسرع ماتنتشر أشعتها على هذا العالم فيتمثل بين تلك الأشعة صور متتالية بديعة الجمال ، ولو لفتنا النظر إلى الكرة الأرضية التى نحن عليها، التى إذا نسبت إلى سائر الأجرام العلوية لاتكون إلا كذرة صغيرة ، نراها كتلة تألفت من البحار والأنهار ، من الأودية والبراكين والجبال ، من الصحارى

والفلوات

والعلويات ، من الأتربة والمعادن والرمال ، من الأشجار والأزهار والأثمار ، من النباتات والجمادات وذوى الحياة ، من الانسان والوحوش والحشرات .

وإن عقل البشر على مابلغ من الارتقاء وماوصل من الدرجات العالية لعاجز عن اكتناه هذه الأجناس التى تألفت منها الكتلة الأرضية ومايعتورها من الأشكال والهيئات وقاصر عن إدراك حقيقتها لما بين أشخاصها من الاختلاف وبين خواصها ونفعها وضرها من التغاير والانحراف .

كثيرا ما يكون جو السماء صافيا ، والهواء راكدا ساكنا ، فيفاجئنا هبوب ريح شديدة تثير السحاب ثم تحيطنا بالأمطار حتى نظن أننا فى وسط البحار ، وإذا بحثنا فى هذه الحادثة الجوية وخصصناها النظر علاخصوصها بمقتضى القواعد الفنية نرى أن حرارة الشمس قد مست وتدخلت برطوبة الأرض فتجعل تلك الرطوبات بخارا ثم تتصاعد تلك الأبخرة إلى الجو كما هو شأنها وتجتمع وتتكاثف حتى تصير سحابا ثم تتحلل فتصير ماء وتتساقط مطرا ، وأيضا لما كان فى بعض ذلك السحاب بالضرورة كهربائية سالبة وفى البعض الآخر كهربائية موجبة كما هو الحال فى سائر الأجسام يحصل فى الهواء من احتكاك تلك السحب بعضها ببعض صوت يقال له الرعد ، ولا ريب أن الحكمة فى هذه التحولات والتركبات الجوية هى حصول المطر لتزدان الأرض وتنشط الحيوانات وتروى النباتات وبالإجمال لتحى الأرض بعد موتها . ولو أردنا أن نبين مافى هذا الفضاء الذى لا نهاية له من العجائب والغرائب بيانا يشفى الصدور ونفصلها حق التفصيل لوجب علينا أن نملأ الأسفار . ولخرجنا عن بيان المقصد فيكفينا ما تقدم ذكره ، ولنرجع إلى ما نحن بصدده ، ماذا يخطر لنا عند مشاهدة هذه المصنوعات بما فيها من عجائب الترتيب وبدائع النظام ، لا ريب أن أول ما نجده فى نفوسنا هو الميل إلى البحث عن مظهرها من العدم إلى الوجود ، عمن جعلها منقادة وخاضعة للقوانين والسنن الفطرية التى لايعتريها تغير ولا يشوبها خلل ولاتشويش ، عمن جعل كل فرد من أفراد هذه الكائنات مختصا وممتازاً بخاصة من الخواص وسر من الأسرار الطبيعية ، عمن يحفظ على هذه الكائنات تأثيراتها وتأثراتها فى كل آن وزمن .

فاذا سرنا وراء تلك الخواطر القلبية وتأملناها كل التأمل ، فلا محيص لنا من أن نصدق بالقلب والوجدان ونقر وننطق باللسان بأن ما نشاهده من العوالم وما لا نشاهده [وما لا نشاهده أكثر] ليست إلا آثارا للذات المقدسة ، ألاوهى ذات واجب الوجود جلت قدرته وعظم سلطانه وأن هذا التصديق ينادينا نداء بليغاً ظاهرا وباطناً بقوله : إن ظهورى بين هذه الكائنات بين مالا نهاية له من الآيات البينات لدليل واضح على أننا من آثار قدرة ذلك الفاطر المعظم ، وبراهين جلية على وجود الخلاق الذى يفعل ما يريد .

وبعد أن ندرك وجود ذات الواجب على هذه الصفة نجد بأنفسنا سائقاً وجدانياً يسوقنا لمعرفة كيفية تكون الكرة الأرضية التى نحن عليها ، وهنا نحس أنه يجب أن نرجع إلى الفن فقط إذ الفن إنما هو قوانين وقواعد مستنبطة بالعقل الموهوب للانسان من القوانين التى اندمجت فى هذه الكائنات . فاذا رجعنا إليه رأينا أن ما يوجد فيه من النظريات الفنية فى تكون العالم ترشدنا إلى أن الخلاق الأزلى والموجد الحقيق أوجد هذه الأرض من البخار فجعلها مائعا ناريا واستمرت أزمانا كثيرة على حالها هذا تنتشر حرارتها وكانت حرارتها تنقص زمانا بعد زمان وكلما تناقصت الحرارة تبردت الأرض وكلما تبردت تكاثفت حتى حصل عليها قشرة وصارت صلبة على كر الأزمان ثم بدأ الخلق فيها فأول ما خلق النباتات ثم سائر المخلوقات وكان يعرض التبدل والتغير على النباتات والحيوانات على ممر العصور وتعاقب الأزمان ، فكما أن ازدياد تصلب الأرض يوما فيوما سبب لتناقص الحرارة فكذلك تناقص الحرارة سبب لتغير القوة الانباتية . ولهذا التبدل والتغير تختلف أصول الخلقة والقوانين الطبيعية دائما . نعم إن هذه الدعوى صحيحة فانه كما أن حياة المخلوقات التى وجدت فى بداية

تكون الأرض مستحيلة بعد مرور عصور وأزمان على تلك البداية فكذلك حياة ما وجد من المخلوقات فى الأعصر البدائية خارجة عن حيز الامكان أيضاً بعد ذلك، فان مايعيش فى الماء من المخلوقات لايعيش فى التراب وما يعيش فى التراب لا يعيش فى الماء إذ ليس لها إلا ذلك الاستعداد وتلك القابلية التى وهبت لها . وخلاصة القول أن أشكال طبائع المخلوقات ومهاياها كانت ولا تزال تتغير بتغير الأزمان والأحوال والأمكنة .

ومما لامرية فيه أن المخلوقات بقسميها النامى والجامد خاضعة لناموس طبيعى فى تكونها ونشوها ونموها وتكاملها وبقائها وفنائها ، فلا يخطرن بالبال أن ما يشاهد فى الخلقة من التكامل آنىّ . كلا[1] إن مايحصل جميعه ليس إلا تدريجيا وتابعا لناموس التكامل المسنون فى هذا العالم ومع هذا فلا ريب فى فنائه إذا بلغ الغاية فى كماله لوجوب زوال كل شىء عند انتهائه . وفى هذا يقول الشاعر :

إذا تمّ أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل تم

فالشرع يقول لهذا الزوال « القيامة » والحكماء يعبرون عنه بالانقراض . ثم إن كل شىء إذا فنى وزال لابد أن يتكون ثانيا إذ ليس هناك ماتنعدم أجزاؤه كليا فما نظنه قد فنى وزال من المخلوقات إنما استحال شكله الأول وماهيته الأولى فيظهر فى شكل آخر وماهية أخرى . وأيضا فانه كما أن الأحوال الطبيعية التدريجية كالتكون والنمو والمرض والموت تعرض للحيوان والنبات، فكذلك تعرض تلك الأحوال للأجرام السماوية وهذا الذي يقول له أرباب الفن ناموس التكامل وبالافرنسية « ثه وولسيون » والانكليزية « ثه وليش » .

وإلى هنا أكتفى بما ذكرته من المقدمات لما للسائل الفاضل من التبحر وطول الباع فيها وما ذكرتها إلا لتوقف الجواب عليها فأرجع إلى المقصد وأقول :

إن ظهور الانسان فى هذا العالم متأخر عن تكون سائر المخلوقات كما هو مشاهد لنا ومع هذا ينبغى أن لايرتاب فى أنه أشرفها وأفضلها خلقة وطبعا مادة ومعنى، إذ أن قانون التكامل يقضى بأنه أتمها من حيث توجيه الأشياء نحو الرقى إلى الكمال . فالانسان فى الظاهر جرم صغير وفى الحقيقة عالم كبير. الانسان مهبط السجايا القدسية وقطب الخصال البهيمية ومركز الخير والشر وقرارة الأنس والوحشة ، فهو مجتمع الأضداد ومكمن الغرائب، فمهما كان الانسان مدنيا بطبعه لابد أن تقضى عليه حيوانيته باتباعه القانون الطبيعى ضرورة فلا يتسنى له أن يعرج بنفسه من حضيض الذلة والوحشية ودرك السفالة والجهالة إلى منصات العلم وذرى السعادة . على أن الانسان فى بداية الخلقة كان كسائر الحيوانات والبهائم متوحشا يضرب فى الأرض عارى الجسم مكتسيا ثياب الغفلة . الجهل رفيقه والعمى قائده . يتجول صباح مساء فى الصحارى والقفار . لا يفقه من الحقائق شيئا ، ولا يفرق بين القبيح والحسن وبين الغث والسمين . تتجاذبه شهواته حيث توجهت فهو مغلوب لها خاضع لقيادتها . لا يعرف الليل إلا بغروب الشمس، ولا النهار إلا بطلوعها ولا يدرك ما هو الأكل والشرب والنوم والقيام والقعود . كان يتجول فى مواقع كثيرة وأمكنة متعددة من الأرض وهو لا يدرك أين يتجول وأين يوجد وما هى ذاته . نعم إنه كان يشاهد مالا يتناهى ولا يحد بالبصر من الصحارى والقفار والبحار وسائر الحيوانات والطيور لكنه لا يفرق بين الحيوان والنبات وبين النبات والجماد وبين الجماد والانسان . ترى هل كان الانسان إذ ذاك يتخيل شيئا عند ما يرى ما تمثله الأجرام السماوية كل ليلة من المناظر العجيبة والأشكال البديعة أو كان يلفت نظره ما يراه من صور القمر حينا يظهر هلالا ثم يكون بدرا ثم يتناقص حتى يمحق ثم رجوعه إلى منواله السابق أو كان يمعن نظره فيفكر فى كسوف الشمس وخسوف القمر ؟ كلا . إنه لم يكن

---

(١) هذا هو مذهب النشوء وقد أبطله علماء القرن العشرين (انظره فى أول سورة المؤمنون) .

يدور فى خياله أو يخطر بباله شىء من ذلك . إذن ماذا كان يتصور الانسان ، وحول أىّ شىء كان يجول فكره ؟ إنه كان لا يفكر فى شىء سوى أن يفترس كل ما يصادفه من الحيوانات الضعيفة ليدفع بها بلية جوعه وأن يهرب مما هو أقوى منه من الحيوانات لئلا يكون غذاء لها فيلتجئ إلى الكهوف والمغارات ومقعرات الأشجار لينجو بنفسه منها ، ومع هذا لم يكن همه وفكره منحصرا فى ذلك بل كان لا ينسى أيضاً التعارف بمن يلاقيه ليسكن شهوته إذا ثارت عليه . وخلاصة القول أنه كان لا يتوانى فى التوسل بما يفضى إلى قضاء حاجاته الحيوانية والشهوانية فكان لا يحجم عن قتل أخيه الشقيق فى هذا السبيل . ليتحتم إذن احتياج الانسان لقانون آخر غير القانون الطبيعى ليهتدى به إلى الصراط المستقيم فى معاشه ويصون من الخلل نظام حياته ويسلك أعدل السبل فى واجباته وكل شئونه ويعلم علو شرفه على سائر الحيوانات ومكانة فضله فان الانسان من حيث هو حيوان ميال بالضرورة لاتباع الهوى وترتيب المكائد والحيل والكذب والظلم والعدوان وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ، فلو ترك الانسان وشأنه لبقى حليف التوحش أليف الجهل أبد الآبدين ودهر الداهرين لكنه إذا وجد من يرشده إلى النافع والصواب فى أمره ، لا ريب أنه يصعد إلى ذرى درجات المدنية لغلبة السجايا القدسية فيه على الطبائع البهيمية . إن كل ذى عقل سليم وفكر مستقيم يدرك مما سبق حتما أن ما نشاهده فى عصرنا من الترقيات العظيمة وما نراه يوما فيوما من الاكتشافات الجديدة ، وما تحار فيه العقول من الاختراعات العجيبة ، وما امتاز به الانسان على غيره من إدراك آثار الصانع المختار البديعة لهو بقانون وراء القانون الطبيعى وبسائق غيره وهو الذى يقول له الحكماء [القانون المدنى] ويسميه أهل الشرع (الدين) .

وقد اختار الحق تعالى أناسا [متصفين بوفرة العقل وجودة الفكر يفوقون معاصريهم بسلامة الفكر والتصور والعواطف الوجدانية وباتباع الحق والتزام الحقيقة] ليؤسسوا هذا القانون المدنى وينشروه بين البشر لحفظ سلامته وإقامة سعادته . هؤلاء الرجال هم الذين أرشدوا البشر إلى مايوجبه الزمان والمكان وتقتضيه المصلحة والحاجة ، هم الذين بلغوا بالبشر تدريجا إلى مانشاهده من الأحوال المستحسنة والأخلاق الفاضلة ، هم الذين أخرجوه من الوحشة إلى التمدن بقدر مااختصوا به من الحس الصادق للتناسب باستخدام ومامتازوا به من القدرة . وبعبارة أخرى بقدر ما أوتوه من الوحى الإلهى والنور القدسى .

فهؤلاء الرجال هم الذين يقال لكل واحد منهم « مؤسس المدنية » عند الحكماء ، ونبى لدى الشرائع والأديان ، ومن هذا يتضح أن الفن والشرع متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، فالشريعة مجموع فنون كثيرة لا تخالف الفن بل الفن شعبة منها .

إن أول نبى أو مؤسس للمدنية أتى ليسوق البشر إلى نهج الهداية قد جعل فاتحة أعماله وباكورة إرشاداته الأمر بستر الجسم والنهى عما كان عليه الإنسان من كشف البشرة وأكل كل ما يصادفه كسائر الحيوانات ، وقد جد فى سبيله حتى تمكن أن يسن عادة التستر بين البشر ولو بأوراق الأشجار وبحصر الغذاء عليها فإن المجتمع البشرى كان محروما إذ ذاك من كل حاجات المدنية ولوازم الإنسانية ، فالمعامل مفقودة والصناعة والتجارة مجهولة ، فلم تكن الأقمشة والأصواف ولا شىء من المنسوجات ، ثم اتسعت الأفكار بمرور الزمان فوجد فى الإنسان قابلية التعلم والتعليم واستعداد لمعرفة الأمور الحسنة ومنافعها ، فيأتى النبى الثانى والعالم فى حاجة شديدة إلى ظهوره فيوسع ماوضعه سلفه المحترم من القانون ويعلم البشر ماعجز عن إدراكه بعبارة أوسع من سابقتها فتتوسع ساحة الادراك حتى تصير أمة النبى الثانى تهزأ من الأمة السالفة كلما تذكرت وحشيتها وضيق إدراكها ، وهذا من أحكام التكملات الأرضية والترقيات الزمانية فإنها تولد فى الأفكار انتباها يعين النبى

الثاني على تبليغ كثير من الأحكام وتلقين كثير من الحقائق التي لم يتسن تبليغها السابق لعدم الاستعداد ، فإذا زاد توسع الأفكار على مرور الأزمان ننتظر ظهور نبي آخر ، فإذا أتى ذلك النبي سهل عليه تبليغ الأحكام التي لم يبلغها النبي السابق أيضا لضعف إدراك البشر حينئذ ، ومع هذا لم يكن مفقودا من له قابلية الأخذ واستعداد القبول لما أتى به النبي إلا أن هذا الفريق كان لايجيب دعوة النبي لعناده وتمرده حبا في البقاء على التوحش والهمجية وهؤلاء هم الذين أطلقت عليهم الكتب القدمة اسم الكفار ، ثم يفيض العالم نورا بظهور النبي الرابع فيقسم الحيوانات لما يركب وما يؤكل ويأمر بقتل المضرّ منها ويترك غيرها على حالها ، وعلى هذا المنوال قد جاءت أنبياء كثيرة ساروا بالبشر تدريجا إلى ماوراء من الترقيات العظيمة وقطع المراحل في سبيل المدنية الفاضلة ، ولما جاء موسى عليه السلام اتسع نطاق المدنية بالنسبة للأزمان العابرة وتكاثرت أفراد الجمعية المتمدنة ووجدت الصناعة والتجارة . وفي زمن عيسى عليه السلام تقدمت الجمعية تقدما يفوق ماقبله بالضرورة ، ويمكن أن يقال إن زمن هذين النبيين العظيمين كان متفوقا على أزمان سابقتهم ، وهذا التفوق لايحط من قدر الأنبياء السابقين ولا من شرفهم لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا يبلغون في زمن رسالتهم إلا ماكان ملائما لعقول المرسل إليهم ، فإذا أهمل أحدهم الأمر بشيء أو النهي عنه ثم جاء نبي آخر وقرر فيه حكما فليس من الصواب أن يقال أن النبي الأول حرم ذلك الشيء أو حلله . فإن قال قائل لماذا إذن تركه ذلك النبي ولم يشرع فيه حكما وإعلام تحمل ذلك أجبناه بأن عدم تكلم النبي الأول في أمثال ذلك الشيء لاشتغاله إذ ذاك بالأهم منه والأعظم نفعا [مثاله] أن عدم تحريم الخمر في زمان نبي وعدم النهي عن نكاح الأخت في في زمان آخر لايدلان على أن الخمر حسنة مباحة ، وأن نكاح الأخت جائز عندهما ، وإنما لم يرد النهي في ذلك لعدم استعداد القوى العقلية لادراك مضرات تلك الأشياء ، فلو حرم شيء منها قبل وقته لنجم عنه فتن عظيمة ومنازعات طويلة ومقاتلات شديدة ولذلك لم تحرم ولم تمنع حينئذ ، فلا يفهمن من هذا الكلام أننا نعتقد أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متساوون فضيلة وعرفانا ، فإن من الحقائق التي لاتنكر أن بعضهم مفضل على بعض حيث كان تجدد الزمان من العوامل في نمو وازدياد القوى المدركة ، فالنبي المتأخر أعظم تكاملا من السابق وهذا قطعي لا سبيل للارتياب فيه ، وقد يقول بعض من استولى عليهم الوهم واستهواه [إن الحمق والسذاجة التي عند البعض في عصرنا لهي أعظم وأشد منها في بعض من كان في العصور الأولى] فيقال لهم [إن هذا صحيح ولكنه لاينقض مدعانا فإن الحكم دائما يكون على الأغلب ، فاستيلاء التوحش على مدينة لايقتضي عدم التمدن في إقليم آخر ، وارتقاء المدنية وعدم خلو إقليم منها في يومنا هذا هو ارتقاؤها من حيث العموم وإلا فليس المراد أن المدنية عمت كل مكان ولم يبق للتوحش أثر في كل الجهات ، فإنه لايستبعد وجود من هو أخش توحشا ممن سبق في الأعصر الخالية] .

ولما تشرف العالم بظهور سيد البشر [الذي هو الوسيلة العظمى ، والواسطة الكبرى ، لارتقاء الإنسان إلى أعلى درجات المدنية] محمد صلى الله عليه وسلم أكمل للانسان حاجاته الضرورية على نهج مشروع ، وما أسرع ماوصل به إلى أرفع مراتب السعادة ، إذ كل من ينعم نظره ويحكم وجدانه فيما كان عليه الإنسان قبل بعثته صلى الله عليه وسلم من الضلالة والغواية والسفاهة والجهالة ، ثم يتأمل في حال الإنسان وترقياته منذ البعثة لاشك أنه يرى مابين الحالين من البون العظيم والفرق الذي لايتأتى معه القياس والتقريب .

نعم نعم ، إن محمدا صلى الله عليه وسلم قد عرف الناس بخالقهم وزجرهم عن عبادة الأوثان والشمس والنجوم والنار وما أشبه ذلك وهداهم إلى سبيل النجاة والفلاح ، وكانت دعوته باللطف واللين تارة والعنف والشدة أخرى حسب مايقتضيه الحال حيث كان بعض الناس للعاندين يستعمل أنواع التهديد مرة ويحاربه أخرى ليثني

عزمه

عزمه ورجعه عن دعوته ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل بعضهم بالترغيب وبعضهم بالإرهاب والتخويف كما توجبه المصلحة ويقتضيه الحال . فما لبثت أنوار المدنية الاسلامية أن سطعت فى جميع أنحاء العالم وأزاحت ظلمات التوحش عن كل ما وصلت إليه ، ولعمرى إن انتشار تلك الأنوار بسرعة برقية وتكاثر أتباعها فى أزمان قصيرة لمما أدهش أولى الألباب ، وإذا بحثنا عن سر ذلك التقدم السريع والنجاح العاجل لانرى له سببا إلا كون أوامر الاسلامية ونواهيها موافقة للعقل ومطابقة للحكمة ، فها هو القرآن المبين الذى كل كلة منه عين الحكمة ، من يمعن نظره فى إعجازه وأسلوبه وبدائعه وأحكامه يرى نفسه مضطرا للحكم بأنه قد أنزل فى يومنا هذا رغما عن نزوله قبل ثلاثة عشر عصرا فإنه بليغ معجز مع سهولته ومفيد لجميع مايرمى إليه من المقاصد مع إيجازه ، وموافق لأسلوب كل زمان ، ومهما ارتقت الكتابة وارتفع شأنها لا يزال فى أعلى مراتبها ، يعلم ذلك كل من له دراية بالمزايا القرآنية ، وإنه كما أعجز البلغاء وتركهم يتيهون فى مهامه الحيرة فكذلك قد جمع أسباب سعادة الدارين ، سعادة الدنيا والآخرة ، ولو بحثنا فى الأحكام التى جاء بها وأدركنا ما فيها من المنافع والحكم لوجدناه جامعا لكل ما يحتاج إليه البشر فى بقاء حياته وتهذيب أخلاقه وبلوغه الكمال ، فهو يأمر بالاخلاق الحسنة والخصال العالية وبكل ما يكفل للبشر سعادته فى الدنيا والآخرة ، وللبيان أذكر نبذة من أوامره :

يأمر بالعدل والتواضع وحسن المعاشرة والتعاون وحسن الخلق وترك المرء مالا يعنيه وقدر النعمة حق قدرها والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإصلاح ذات البين والاحسان بالوالدين والترغيب فى طلب العلم والسعى وراء المعيشة وعيادة المريض وقبول النصيحة والاعتراف بالجهل واحترام أهل العلم واتباع الحق والتأنى فى الأمور وملاطفة الأيتام ومجاملتهم وإعانة المحتاجين وحب الخير والشجاعة والعفو والاحسان والاعتناء بالطهارة والنظافة وإطاعة أولى الأمر وعدم المبالاة بالحياة الشخصية لأجل الحياة العمومية ، والحلم والصبر وعدم الغش وعدم الغدر والسخاء ومعرفة الحقوق والثبات عند مشكلات الأمور ، والقناعة وحفظ الأمانة والتعلم والتعليم والاستقامة والعفة والصدق والمروءة وصفاء النية وعلو الهمة والاعتراف بالتقصير والاذعان للحق والانصاف والرأفة وصيانة العرض والشرف والدلالة على الخير وفصل الدعوى ومجانبة الهزل والسعى لتهذيب النفس وصلة الرحم وحفظ المحبة والوفاء بالوعد وإيفاء الدين والشورى والتزام الحقيقة وتوقير الكبير والرأفة بالصغير وغير ذلك من الأمور المستحسنة التى كل واحد منها ركن عظيم من أركان سعادة البشر .

وأما مانهى عنه فهى الأفعال القبيحة والأخلاق السيئة التى قد ثبت بالتجارب العديدة أنها مضرة بالانسان ومفسدة لمعاشه ومعاده . ومن تلك المنهيات الزنا واللواطة وشرب الخمر وأكل الربا والظلم والغدر والكبر والحسد والبغض والحقد والحرص والكذب والغيبة والنميمة والرشوة وسوء النية وقتل النفس والعناد وعقوق الوالدين وإكثار الكلام فيما لا فائدة فيه والميل للقبائح والرياء والجبن وإعانة الظالم والحيلة والغرور والغصب وكتم شهادة الحق وشهادة الزور والتجسس وسوء الظن والميسر (لعب القمار) والتفاخر وتطفيف الكيل والميزان واحتكار الطعام وعدم إعانة المحتاجين وقطع المودة والتعادى والقذف فى عرض الناس ونقض العهد وخلف الوعد .

وفى القرآن أحكام أخرى جلية لا يمكن إنكار فوائدها : منها ما يتعلق بسياسة الملك والدولة وعمران البلاد ورقيها . ومنها ما يحفظ أمن الرعايا واستراحتها ، ومنها ما يتعلق بتقسيم المواريث وإيتاء كل ذى حق حقه ، وفيه أحكام غير هذه لم تكن فى غيره من الكتب السماوية ، وأن كل ذى عقل وإذعان يعلم أن أحكام الشريعة المحمدية واسعة بقدر سعة العقل وامتداد الفكر متكفلة بصيانة كل حقوق متبعها أحياء وأمواتا .

وكم فى القرآن من أحكام غامضة ومعان دقيقة ولما يكشف الفن نقابها رغما عما بلغه من الرقى ، ولم تستلفت تلك الأحكام أنظارنا فضلا عن إدراكنا ، وسبب ذلك أن عقول البشر لم تزل غير كافية لفهمها حتى إذا ارتقت الأفكار وبلغت كمالها واتسعت العلوم والفنون ووصلت غايتها لاريب أنها تنجلى أيضا [مثال ذلك] حركة الكرة الأرضية لم يتسن لنا إدراكها وثبوتها إلا لزمان قريب من زماننا . والقرآن المبين قد رفع حجاب هذه المسألة قبل ألف وثلاثمائة سنة ولكنا معشر الانسان لم نكن لندرك تلك الحقيقة حتى كشفت بعد ما مضت عليها العصور وتعاقبت القرون .

وفى القرآن من أحكام حفظ الصحة ورعاية أسبابه ، ومن أحوال الأمم الماضية وأخبارها ما يخول لنا الحكم عليه بأنه قانون طبى وكتاب تاريخى أيضا . فاذا قرأنا ما فيه من القصص والحكايات نشاهد أنه ذكرها بأبدع أسلوب وأعلاه بلاغة وإعجازا وأنه يؤثر على نفوس البشر تأثيرا لا نجده فى الكتب الأخلاقية والتاريخية والروايات الأدبية سواء كتبت بالعربية أو التركية أو الافرنسية أو غيرها . وإنه يصور الحقائق بكلام موجز كأن تلك الحقيقة مشاهدة وملموسة وغير ذلك مما يعلن أن هذا الكلام المعجز منزل من لدن حكيم عليم .

ثم إن جل المباحث القرآنية لم توجد فى غيره من الكتب المقدسة وهذا أمر ضرورى فان الانسان فى تلك الأزمنة السابقة كان محتاجا لما هو أهم من هذه الأحكام بداهة ولم يكن من مقتضى الرشد حينئذ أن يشتغل بتبليغ غير ذلك الأهم حتى إنه لو بلغ الأحكام المتأخرة لم يكن ليفهمها أحد فتبليغها إذن عبث وأن كثيراً من المطالب الرفيعة والفنون العالية ذكرت فى القرآن ولما تدركها العقول وستدركها مع ما حوتها من الأسرار على مرور العصور والأزمان . وقد ذكرت آنفاً قاعدة تفيد أن قانون التكامل تدريجى ليس آنياً فيعلم بالضرورة أن القانون المذكور مفتقر إلى كتاب سماوى كالقرآن الحكيم إذ شريعة النبى الأول أكملت بشريعة الثانى وشريعة الثانى بشريعة الثالث وهكذا حتى جاءت شريعة موسى فأكملت بشريعة عيسى عليهم الصلاة والسلام ثم أكملت الشرائع السابقة كلها بشريعة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ظهر أن شريعة موسى عليه السلام أكمل وأرجح مما سبقها وشريعة عيسى أكمل من شريعة موسى عليهما السلام ، فلم يبق مجال للشك فى أن الشريعة المحمدية أكمل الشرائع السابقة وأنها ناسخة لها . فقد أتى الانجيل بأحكام جمة لم تكن فى التوراة حيث كان بعدها ولهذا كان الانجيل أرجح من التوراة ، وللسبب عينه كان القرآن أرجح من الانجيل .

فلو عكسنا القضية وزعمنا أن التوراة أرجح من الانجيل والانجيل أرجح من القرآن لحملنا أنفسنا كلفة القول بأن عقل البشر قد أصيب برجعة قهرية . وبهذا القول الذى لا يتفق مع المنطق ترتكب خطيئة لا تغفر ونظلم النوع البشرى رغما عما يدهش أبصارنا وعقولنا من الترقيات الجديدة والاختراعات الحديثة . ولهذه الأسباب كلها كان المتأخر ناسخا للمتقدم . وبموجب هذه القاعدة كانت الشريعة المحمدية ناسخة لكل ما تقدمها من الشرائع ولن تنسخ بشريعة أخرى فهى باقية إلى الأبد . فان نسخ الشريعة بأخرى لم يكن إلا لأن أحكام الشريعة الأولى غير كافية لسد عوز البشر واحتياجاته التى يولدها الزمان وتزداد يوما فيوما . ومهما تكثرت حاجات الانسان وازدادت لوازمه فلا يحتاج إلى شريعة أوسع من الشريعة المحمدية .

فقد ذكرت لك قسما من الأحكام القرآنية . ولو أنعمت فيها نظرك قليلا لرأيت أن حاجات الانسان ولوازمه المدنية مهما كثرت لا تخرج عن دائرة الأحكام القرآنية . فالقرآن كافل لكل احتياجات البشر فى كل عصر . وأن العقل البشرى مهما ارتقى وتكمل لا يمكنه أن يخرج عن حدود الأحكام التى اشتمل عليها القرآن فأصبح من الضروريات اللازمة التى لا محيص للعقل عنها أن يتبع البشر الشريعة المحمدية الغراء فى كل زمان ومكان .

وظهر

وظهر مما قررناه آنفا ظهورا لاغبار عليه أن القرآن المبين قانون إلهي ونظام سماوي وحكم أزلي لن ينسخ أبدا ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن اتباعه في كل زمان والعمل به في كل مكان لهو السعادة والنجاة والفوز والفلاح ومخالفته لهي الذلة والمسكنة والخسران العظيم وأن من أتى به لهو خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . انتهى بالحرف الواحد من [رسالة الجواب الكافي] لعبد الله كويلم التي ترجمها إلى العربية الأستاذ (زهدي الخماش) أستاذ علوم الدين بالمدرسة السلطانية في (بيروت) .

ويحسن بنا أن نلم بما كتبه المترجم الفاضل ترجمة لحياة المؤلف . قال :

﴿ نبذة من ترجمة المؤلف ﴾

هو عبد الله ويليم كويليام الانكليزي المحامي بالمحكمة العليا (بمدينة ليفربول) يبلغ من العمر نحوا من الخمس والخمسين (حينئذ) نحيف الجسم ربعة وله ولدان اسم أحدهما بلال والآخر أحمد .

نشأ الرجل بين المتمذهبين بمذهب (الوسيليان) وكان من رؤسائه وواعظا لشيعته ، كان يعتني بالعلوم الرياضية ، وله الباع الطويل فيها ، وفي سنة ١٨٨٣ ميلادية الموافقة لسنة ١٣٠٠ هجرية أصيب بمرض عضال جعله طريح الفراش نحو سنة ، فأوصاه الأطباء بالسفر إلى (أسبانيا الجنوبية) لتبديل الهواء فتوجه إلى (جبل طارق) ثم إلى (طنجة) وأقام حينا من الزمان يشاهد محاسن الدين الاسلامي وصفاء المسلمين وإخلاصهم ويتعلم العقائد الاسلامية فكان يزداد بالاسلامية حبا وشغفا كلما ازداد علما . ولما رجع إلى بلاده أخذ نسخة من القرآن مترجمة للانكليزية فكان يقرؤها بتدبر وإمعان ويقرأ كل ما يصل إليه من الكتب الاسلامية ، فعلم علم اليقين أن الاسلامية هي الشريعة الحقة التي لا شك فيها ولا ارتياب، ولم يعجل في اعتناقها بل أخذ يبحث في الشرائع الأخرى وذلك مما زاده إيمانا ويقينا ، فصمم على اعتناق الاسلامية إلا أنه كان يحول بينه وبين ذلك كثرة العيال وما أهمه من الأشغال ، ولما تمكنت تلك العقيدة من نفسه وخالطت حلاوة الايمان مجامع قلبه فاتح أحد أصدقائه بما عزم عليه ، فأجابه ذلك الصديق [إن كنت تأنف أن تعتقد بالثالوث وأزمعت على تركه فادخل في مذهب الموحدين من النصارى] فقال له . كلا ! إنه يتعذر علىّ الوقوف بمنتصف طريق التوحيد ولابد لى من ترك النصرانية بتاتا ، فاعتنق الاسلامية وأقر بالشهادتين ، وأفشى إسلامه بين أقربائه وذويه فسخروا منه وزعموا أنه مجنون، ثم جعل ينظم أحوال معيشته على القواعد الإسلامية ، ولم يأل جهدا في دعوة بنى جلدته إلى طريق الهداية والسعادة إلى الفوز الأبدى والفلاح السرمدي فهدى الله بدعوته من ألهمه الاجابة ؛ ولم يزل يشتغل بالدعوة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ولما اجتمعت كلمته مع من تبعه اتخذوا لهم مسجدا لاقامة الصلوات الخمس والجمعة والعيدين وهو الآن شيخهم ومرشدهم ، ولما اتصل نبؤه بالخليفة الأعظم دعاه إليه وأناله من التفاته ماقرت به عينه وثلج صدره وقد اجتمع بمشاهير العلماء والأفاضل بدار السعادة ، فكل هنأه بما ناله من السعادة والمجد باهتدائه لهذا الدين المبين ، ثم رجع إلى بلده (ليفربول) ولم يزل عاكفا على الواجبات الدينية والشعائر الإسلامية . وقد ترجم محمود أسعد أفندي زيد فضله كتاب [دين الإسلام] للموعى إليه . فقال بعد ماذكرنا من ترجمة حاله [وقد شاد المسلمون هناك مدرستين إسلاميتين إحداهما للذكور والأخرى للاناث يقبل فيهما كل من يأتي من أطفال المسلمين من الخارج بأجرته ، ولهم مجتمع منتظم فيه رئيس وأعضاء ولهم أئمة وخطباء ومؤذنون ، ويجتمعون

فى كل سنة اجتماعا عموميا ينتخبون فيه من يستخدمونه فى مصالحهم، وفقهم الله أجمعين لما فيه الخير والصلاح، إنه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير .

***

من آثار كونه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين (١) أن دين الإسلام لايبيح أن يفضل أحد أحدا إلا بالتقوى ، أما الأنساب فلا . (٢) وأن أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام فارتقوا ، وسترى مثل ذلك فى [سيرة موسى بن ميمون] و [اعترافات جاسوس] أو [ثلاثون عاما فى الإسلام] .

الإنسانية الآن جاهلة متعصبة لكل شىء حتى للون . ألم تر إلى ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩ وهذا نصه :

معاملة الزنوج فى لندن

عاد المستر (ابوت) صاحب الجريدة اليومية فى (شيكاغو) وهو زنجى واسع الثروة إلى الشكوى من معاملة الإنكليز لغير البيض فأبرق إلى المستر (مرلى) العضو البرلمانى يشتكى أنه منع هو وزوجته من حضور حفلة على ظهر إحدى البواخر البريطانية فى دعوتهما إلى أمريكا . وقال المستر (مرلى) إن عددا معلوما من غير البيض كلفوا أخيرا أن يخرجوا من حفلة راقصة فى لندن فرفعوا شكواهم إلى (اللورد باسفيلد) وقد صمم المستر (مرلى) أن يثير هذه المسألة فى مجلس العموم . وقال إنه ورد عليه كتاب من (المستر مكدونلد) عن مسألة تحريم الفنادق على المستر (ابوت) الصحفى الزنجى قال فيه مانصه : [إن هذا من الأمور المزعجة جدا ولا تتفق مع العادات المرعية فى الفنادق البريطانية ، ولكنى لاأرى أية مصلحة من مصالح الحكومة مسئولة عن هذا الأمر ولست قادرا أن أجد أية طريقة تخول الحكومة حق التدخل] اه .

فأين النوع الإنسانى الجاهل من قوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقد أذن بلال فى الكعبة بمحضر قريش عند فتوح مكة بل أين هذا النوع الإنسانى الكافر بالنعمة من النعجات والكلبات والثيران والحمير فانهـا تعيش معا ولا تبالى باختلاف الألوان ، فانا نرى الهرة والكلبة والنعجة والحمارة والبقرة ذوات اللون الأبيض تصاحب القط والكلب والحمار والخروف والثور ذا اللون الأسود أو الأحمر فلا ملازمة بين الألوان والأخلاق ، إذن هذا الإنسان جهول كفار ، نسى الفطرة فذكره الله بالإسلام وأصبح المسلم فى مصر لايفرق بين لون ولون فى صلاته ومجالسه ، إذن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم رحمة للعالمين والانسان جهول كفار ، وأما كون أهل الديانات شربوا من منهل الإسلام وارتقوا فهاك منه مثلا وهو ماجاء فى جريدة المقطم تحت العنوان التالى وها هو ذا .

موسى بن ميمون

(رسالة الحاخام الأكبر)

إنى مغتبط بأن أوفق الآن إلى تحقيق الرغبة التى أبداها أحد الأفاضل فى المقطم فى الاطلاع على نبذة من حياة موسى بن ميمون وسيرته وها أنا أبر بوعدى السابق موجزا مقالى على قدر الاستطاعة ذلك لأن الشروع فى بحث أصله ونسبه يؤدى حتما إلى بحث حياته الشخصية وعلو أخلاقه ومكنونات صدره وحدة ذهنه وعلومه

وكتابه

وآدابه ثم تأليفه وتأثير كل ذلك في الهيئة الاجتماعية وهذه كلها من الأمور التي يتعذر شرحها في مقال واحد مهما روعي الايجاز والاختصار، فقد كتب عنه أكثر من مائة وخمسين عالما من إسرائيليين وغير إسرائيليين ولو جمعت كل الكتب التي أتى ذكره فيها لتألفت منها مكتبة كبيرة، ولذلك أترك جانبا كل ما يختص بالوجهة الاسرائيلية من تعاليمه ومؤلفاته، وهذا ليس بالشيء القليل بالنسبة لما في علومه الدينية والفقهية من الأهمية، وأقتصر على الكلام عن المكانة العليا التي بلغ ذروتها في تاريخ الفلسفة ولاسيما تأثير الآداب الاسلامية فيه باتصاله بعلماء الإسلام المعاصرين له مكتفيا بذكر الدور العظيم الذي مثله هذا العالم الجليل في القاهرة مدة (٣٧) سنة بصفته حجة دينية ورئيسا روحيا للاسرائيليين وطبيبا في البلاط الأيوبي والمجتمع البشري.

﴿ أصله ونسبه ﴾

ولد أبو عمران موسى بن ميمون بن عبد الله يوم (٣٠) مارس (١١٣٥) م. في مدينة قرطبة عاصمة الأمويين باسبانيا وتوفاه الله يوم (٢٠) ديسمبر ١٢٠٤ في مدينة القاهرة. وبعد أيام من وفاته نقل جثمانه إلى مدينة طبريا بفلسطين حيث دفن. وقد حفظت التقاليد الاسرائيلية أسماء أجداده حتى السابع منهم وأسماء ذريته حتى النسل السابع فيهم. وبين مخطوطات الاسرائيليين الأثرية في القاهرة مخطوط على جانب عظيم من الأهمية كتب بالعبرية والعربية، وفيه ذكر لأحد أفراد ذريته من الجيل السابع يدعى داود ميموني كان كجده صاحب الترجمة رئيسا روحيا للطائفة الاسرائيلية في القاهرة سنة (١٤٠٤) م ويغلب على الظن أنه هو الذي قصد في أواخر حياته إلى دمشق الشام ليستوطنها مع عائلته.

وبعد ذلك تشتتت تلك الذرية في أنحاء مختلفة. فقد ورد في التاريخ ذكر اسمين أحدهما عالم يدعى ميمون الفاسي نسبة إلى فاس وذلك في سنة (١٤٣٨) والآخر في سنة (١٥٦٨) كان عائشا في بلدة مورانو بإيطاليا ويكنى بالباز، وفي أيامنا هذه نرى عائلات إسرائيلية كثيرة من أصل اسباني تحمل هذا الاسم إلا أن كلمة الميموني لم تكن في الأصل اسما لعائلة بل لشخص. فوالد صاحب الترجمة كان يدعى ميمون بن عابديا أي عبد الله وكثيرون من إسرائيلي المغرب والجزائر يدعون بهذا الاسم كميمون الدهان وميمون البربلي. والثابت عن أسلاف الميموني أنهم كانوا قد رحلوا من مراكش إلى قرطبة مع غيرهم من الاسرائيليين، وكان ذلك في عصر الخليفة عبد الرحمن الثالث.

﴿ صباه ودروسه الابتدائية وأسفاره ﴾

تولى والده تربيته وتثقيفه وكان منذ حداثته يبثّ في نفسه محبة العلم، ثم سلم زمامه إلى أشهر الأساتذة في قرطبة. فكان يدرس أصول الدين الاسرائيلي على أساتذة إسرائيليين والعلوم على أساتذة مسلمين وكانت العربية والعبرية لسانه القومي. وعدا تضلعه من العلوم العبرية يدرس العلوم اليونانية والعربية والرياضيات والطبيعيات والطب والفلسفة. على أنه لأسباب سياسية اضطر والده للهجرة مع أسرته فغادروا قرطبة أيام كان صاحب الترجمة في الثالثة عشرة من سنيه. وبعد أن تجولوا مدة اثنى عشر عاما في مدن الأندلس عقدوا النية على التوطن في مدينة فاس سنة (١١٦٠) فقصدوا إليها وإذ لم يجدوا فيها راحتهم شدوا رحالهم إلى فلسطين ومنها إلى الاسكندرية حيث أقاموا شهورا ثم جاءوا إلى القاهرة واستقروا فيها. وكان صاحبنا قد بلغ الثلاثين من سنيه، على أن كل هذه الأسفار وما كان يتخللها من مشاق وأخطار فضلا عن العذاب المادي والأدبي الذي كانوا عرضة له في كل آن. كل ذلك لم يوقف صاحب الترجمة عن متابعة سيره نحو الغاية العلمية التي كان يسعى لها، فحياته من هذه الوجهة يجدر تشبيهها بحياة ابن سينا، كما أنها من حيث الجهود والتأليف والشهرة

أعجب شيء بحجة الغزالي . وبالفعل أنه لم يبلغ العشرين من سنيه إلا وكان قد ألف كتابا في التقويم الفلكي وكتابا آخر دعاه مقالة في صناعة المنطق .

أما مؤلفاته العلمية فيمكن حصرها في ستة أقسام وهي :

(١) علم التفسير . (٢) علم الفقه . (٣) علم الكلام .
(٤) الفلسفة وعلم مافوق الطبيعة . (٥) علم التصوف أو الأخلاق . (٦) الفتاوى والرسائل .

﴿ علم التفسير وعلم الفقه ﴾

لانتعرض لبحث مذهبه في علم التفسير العبري لأن ذلك من الموضوعات التي تهمّ رجال التفسير الاسرائيليين دون سواهم ، إلا إنه لامندوحة من القول إنه التزم في كل تآليفه خطة الوضوح والدقة في التعبير وهي الخطة التي ينبغي أن تتوافر شروطها في علم العقليات. أما فيما يختص بعلم الفقه فبوسعنا أن نقول إنه كان أول مهندس شرعي فكر في ترتيب وتبويب جميع أقسام التشريع الاسرائيلي وقد كانت حينذاك مبهمة ومختلطة بموضوعات أخرى لاعلاقة لها بالتشريع وواردة في التلمود، وهو سفر مؤلف من ستين جزءا عدا التفسيرات الكثيرة، فقد كان كالمهندس يبدأ بوضع رسم البناء ثم يقسمه إلى طبقات ومساكن وغرف بحيث يتيسر للزائر الدخول والخروج من غير صعوبة . وكانت هذه خطته في تأليف كتابه الشهير المعروف باسم [اليد القوية] وهو مؤلف من ١٤ جزءا ويقسم إلى فصول وبنود وأبواب ، ولغزارة مادته وتضلعه في جميع العلوم واكتسابه شهرة عظمى لقب بالمنور الغربي والنسر الأكبر كما لقب الغزالي بحجة الإسلام . والآن نشرح للقارئ العلم الكبير مكانة هذا العالم الكبير فيما يختص بعلومه الدينية والفلسفية والأخلاقية .

﴿ علومه الدينية وفلسفته ﴾

إن هذه العلوم مع شدة اتصالها بعلم التفسير مرتبطة به كل الارتباط لأنها ترجع في أحكامها وأدلتها إلى النصوص المقدسة . فانك تجد في كتاب [أنوار التنزيل في أسرار التأويل] للبيضاوي المبادئ الدينية كما تجد مبادئ الزمخشري في كتاب الكشاف فيما يختص بالعلوم الدينية والفلسفية والعقلية ، وتعلم أيضا من أبحاثه في كتابه [دلائل الحائرين] أنه وقف على أسرار فلسفة أفلاطون وأرسطوطاليس وعلى علوم الصوفية وإخوان الصفا وأصحاب العدل والتوحيد، وأنه لم يخف عليه شيء من مبادئ هذه الفرق. وإذ تراه يذكر الزمخشري فلابد من الاعتراف بأنه كان مطلعا كل الاطلاع على كتاب [الملل والنحل] كذلك في كتبه التي بحث فيها عن المعتزلة ومؤسسها واصل بن عطاء . ومن الأمور التي تستوقف الأنظار وجود شبه كلي بين مؤلفاته ومؤلفات الغزالي من حيث الأسماء والموضوعات . ففي كتابه [مقالة في التوحيد] تجد شبها بينه وبين كتاب [العقيدة] وكتابه [دلالة الحائرين] كثير الشبه بكتاب [المنقذ من الضلال] وكذا مقالاته في الأخلاق . انتهى الكلام على موسى بن ميمون .

***

أما ماجاء فى مجلة [المرشد] فهذا نصه :

اعترافات جاسوس
أو
(ثلاثون عاما فى الإسلام)

ندبت الحكومة الفرنسية فى القرن الماضى المسيو (ليون روش) ليكون جاسوسا على الأمير عبدالقادر الجزائرى وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالاسلام وأن يتوصل إلى أن يكون موضع ثقته ومحل أماناته، ففعل ذلك ونجح وأقام فى ديار المسلمين ثلاثين عاما تعلم فى أثنائها اللغة العربية وفنونها والإسلام وعلومه ، واختبر الأوطان الإسلامية المهمة (الجزائر وتونس ومصر والحجاز والقسطنطينية) ثم ألف كتابا اسمه (ثلاثون عاما فى الإسلام) قال فيه مانصه :

اعتنقت دين الإسلام زمنا طويلا لأدخل عند الأمير عبد القادر دسيسة من قبل فرنسا وقد نجحت فى الحيلة فوثق بى الأمير وثوقا تاما واتخذنى سكرتيرا له ، فوجدت هـذا الدين (الذى يعيبه الكثيرون منا) أفضلُ دين عرفته ، فهو دين إنسانى طبيعى اقتصادى أدبى ، ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه ، بل إنى عدت إلى الشريعة التى يسميها (جون سيمون) الشريعة الطبيعية فوجدتها كأنها أخذت عن الشريعة الإسلامية أخذا ، ثم بحثت عن تأثير هـذا الدين فى نفوس المسلمين فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة ووداعة وجمالا وكرما، بل وجدت هذه النفوس على مثال مايحلم به من الفلاسفة من نفوس الخير والرحمة والمعروف فى عالم لايعرف الشر واللغو والكذب ، فالمسلم بسيط لايظن بأحد سوءا ، ثم هو لايستحل محرما فى طلب الرزق، ولذلك كان أقل مالا من الاسرائيليين ومن بعض المسيحيين ، ولقد وجدت فى الاسلام حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا : الأولى فى قول القرآن « إنما المؤمنون إخوة » فهذا أجمل مبادىء الاشتراكية . والثانية فى فرض الزكاة على كل ذى مال وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا وهذا دواء الفوضوية .

إن الاسلام دين المحامد والفضائل ، ولو أنه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعلم ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم أرقى العالمين وأسبقهم فى كل الميادين، ولكن وجد بينهم شيوخ يحرفون كلمه ويمسخون جماله ويدخلون عليه ماليس منه . وإنى تمكنت من استغواء بعض هؤلاء الشيوخ فى القيروان والاسكندرية ومكة فكتبوا إلى المسلمين فى الجزائر يفتونهم بوجوب الطاعة للفرنسيين وبأن لاينزعوا إلى الثورة وبأن فرنسا خير دولة أخرجت للناس . وكل ذلك لم يكلفنى غير الآنية الذهبية اهـ .

***

﴿ جوهرة فى قوله تعالى «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» مع قوله فيماسيأتى « ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا » ﴾

أقول : ومن شأن السراج المنير وهو الشمس أن تتم أشعتها ، ويضم إلى ذلك آية « يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك » الخ وإنما جعلنا هذه الجوهرة مشتركة فى هـذين الموضوعين موضوع عموم شريعته

وجواز تعدد زوجاته فوق الأربعة لأن ذلك كله جاء فى المقال الذى عنوناه بهذه الجوهرة من كتاب العلامة (الكونت هنرى دى كاسترى) المسمى [الاسلام . خواطر وسوانح] قال تحت عنوان الفصل السادس مانصه :

(انتشار الإسلام أيام الفتوحات العربية)

تخطيط ممالك الاسلام . انتشاره فى أفريقيا الوسطى . تجار المسلمين ومستكشفو الأوروباويين . الاسلام فى مبدئه وبعد ذلك . أسباب الانتشار . الرسلون المسلمون . الفولبوسيون والخواصة أسباب انتشار الاسلام الإلهية

قد كشفنا الغطاء عن العلل التى انتحلوها سببا فى انتشار الاسلام انتشارا عظيما وبينا فسادها ووعدنا ببيان الأسباب الحقيقية عند البحث عن تقدمه فى هذه الأزمان لأنا نعتقد أن استطلاع حال هذا الدين فى العصر الحاضر لايبقى أثرا لما زعموه من أنه إنما انتشر بحد الحسام كما فندناه من قبل ، ولو كان دين محمد صلى الله عليه وسلم انتشر بالعنف والإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين مع أننا لانزال نرى القرآن يبسط جناحيه فى جميع أرجاء المسكونة وهذه الحركة المستمرة فى هذه الأيام تحمل على الاعتقاد بأن الاسلام هو الدين الذى جاء موافقا لطبيعة البشر . وظن آخرون بأن الاسلام كان تابعا لتمدن العرب وحضارة الخلفاء التى كانت تأخذ بالنفوس فى دمشق وقرطبة وبغداد وأنه انقضى بانقضاء ذلك قال (بارتلمى صانت هيلير) ما عاد أحد من الناس يعتنق الاسلام . والواقع أنهم أخطأوا فى معرفة حقيقة الأمرين : انتشار الاسلام وتمدن العرب . فأما التمدن فهو أمر يعتبر لغوا فى الاسلام أو هو نقيض له وعلى كل حال فهو عارض فيه وساعدت الظروف على نموه بجانب القرآن ولو أنه استمر لأطفأ نور دين النبى العربى بسقوط الأمراء فى مهواة عدم التصديق وقلة الإيمان وانحياز الأمة إلى عالم التخيل والأوهام . وبينما كان هذا حال مدن الخلفاء الآهلة بالعمران فلا تحصى شعراؤها ولا تعد الأدباء ، وفيها الفلاسفة يتناظرون والعلماء فى المعارف يتناقشون كانت صحارى العرب وليبيا وأفريقيا محتفظة على الدين الاسلامى فى كماله الأصلى ولم تمسه فيها يد أجنبى عن تعاليمه أو خارج عن شرائعه ، هنالك كان منبع رسل ذلك الدين الذين انتشروا فى الأصقاع كما تدل عليه قبورهم البيضاء التى نشاهدها الآن فى أفريقيا الشمالية .

وسنحصر كلامنا فى انتشار القرآن على قارة أفريقيا وإنما نذكر على سبيل العرض أن له فى الصين عشرين مليونا (١) من النفوس وأن المسلمين ويقال لهم عندهم (هوى هوى) منزلة علية فى المملكة الوسطى قال موسيو (وأزيليف) وهو من الذين اشتغلوا بالاسلام فى تلك النواحى أن مصيره القيام مقام مذهب (ساكيامونى) (٢) وأن لمسلمى المملكة السماوية اعتقادا جازما بأن الاسلام لابد أن يسود حتى تزول به تلك الديانة القديمة البودية وهى مسئلة من أهم المسائل إذ الصين آهلة بثلث العالم أو تزيد ، فلو صاروا كلهم

---

(١) كلا . بل هم ٧٠ مليونا الآن (طنطاوى جوهرى) .

(٢) هو أحد ملوك الصين ، تخلى عن الناس فى التاسعة والعشرين من عمره وعكف على العلوم حتى برع فيها وسمى نفسه (بودا) ومعناه العالم أو المتنور ، ووضع المذهب الذى اتخذته الصين والهند دينا وكان ظهوره فى القرن الحادى عشر قبل المسيح ، وقيل فى القرن السابع وهو الأرجح .

مسلمين لأوجب ذلك تغييرا عظيما فى حالة تلك البلاد بأجمعها فيمتد شرع محمد من جبل طارق إلى المحيط الأكبر الهادى ويخشى على الدين المسيحى مرة أخرى ، ومعلوم أن أمة الصين عاملة وإن هدأت أخلاقها وجميع الأمم تستفيد الآن من عملها فلو جاءها التعصب الاسلامى ذو البأس القوى لخشيت بقية الأمم من السقوط تحت سلطانها [1] وقال موسيو (مونطيط) لقد صار من المحقق أن الاسلام ظافر لامحالة على غيره من الأديان التى تتنازع البلاد الصينية [2] والاسلام قليل فى أوروبا ومع ذلك نراه فى شمال تركيا ليطونية وهو أيضا فى أمريكا حيث أدخله الزنوج وغيرهم إلا أن أفريقيا لاتزال بلده المصطفاة فهو فيها كالديانة المسيحية فى أوروبا قال موسيو (بولنياك) يسكن المسلمون جميع الشواطئ من (سيراليون) إلى موزنبيق البرتغالية مارا بمراكش وولايات البربر (المغاربة) وقنال السويس، وأما فى الوسط فيمتد الاسلام من البحر الأحمر إلى المحيط الاتلانطيق ومنه إلى البحر الأبيض المتوسط إلى الدرجة السادسة من العرض الشمالى وتقدم أنه فى الساحل يمتد إلى موزنبيق البرتغالية، أعنى أنه يقرب من الدرجة العاشرة من العرض الجنوبى وفى (مدغسكر) كثير من المسلمين حتى إن بعض المستشرقين ذهبوا إلى أن اسم الجزيرة (مدغسكر) أصله مأخوذ عن العرب قال موسيو (مونطيط) وأكثر انتشار الاسلام فى أفريقيا فهو يتقدم فيها تقدما سريعا وينجح نجاحا كلياً لأن أزر المسلمين فيها مشدود بما لهم من المكنة فى الجهة الشمالية وهم آمنون على سلطتهم الدينية فى تلك البقاع التى تغيب فى الصحراء حتى تبلغ بلاد السودان الواسعة فلا ينازع الدين الاسلامى دين غيره لذلك يكثر عددهم وينمو الدين على الدوام .

وقد تخطى سيره السودان واشرأب نحو أرجاء خط الاستواء وكان له مقر يقرب من أملاك فرنسا فى بلاد النيجر لذلك عرفه ضباط الطلائع وإن كانت معرفة سطحية ولكنا لم نقف على سيره تماما إلا عندما استولينا على الكونغو وشاهدنا القوافل الاسلامية تهرب أمامنا كمن يريد أن يخفى سراً عن أجنبى، والمسلمون اليوم محصورون بين أملاكنا فى شمال أفريقيا ومراكزنا فى الكونغو وسنغال حتى كأنهم فى قرامة نشدها أو نفسح فيها حسب ما تقتضيه سياستنا .

ولانتشار الاسلام فى وسط أفريقيا منبعان الأول فى الغرب وهو قديم امتد أثره إلى الشاطئ الاتلانطيق حيث دخل القرآن واعتقده سكان تلك الجهات ولكنه انثنى أمام تقدم الفرنساويين من ناحية سنغال إلى بلاد النيجر ولم يزل ينثنى آنا فآنا حتى خرج من (تنبكتو) وهى منبعه الأصلى إلى (سقطو) ومنها إلى (كانو) ثم إلى (كوكا) والظاهر أنه استقر فيها ، وأما المنبع الثانى ففى الشرق وهو حديث العهد ويصل أثره بين (وادى) ودارفور بمحركين هما المهدى ورئيس الطائفة السنوسية ويفصل بين هذين المنبعين أنهار (شاد) و (اشارى) و(لوغونى) الجنوبية وأهل الشرق أهل حروب متعصبون أمام قوم الغرب فيميلون إلى التجارة والمسالمة ، وكان الفريقان يتقدمان بالاسلام بين الوثنيين المجاورين لهم على امتداد اثنى عشر ألف كيلومتر حتى تلاقوا بالفرنسويين قبيل الكونغو نواحى نهر شاد فلم تقر أعينهم لهذه اللقيا لأنهم كانوا هجروا البلاد التى هاجها الكفار وظنوا أنهم يأمنون لقاءهم فى الجنود فلا يجدون غير الوثنيين ممن لم يعرفوا للأوروبيين خبرا،

---

(١) راجع كتاب موسيو دابرى المسمى الديانة المحمدية فى الصين وتركستان الشرقية المطبوع فى باريس سنة ١٨٧٨ .

(٢) راجع مجلة تاريخ الديانات فى شهر مايو ويونيو سنة ١٨٨٣

ويقال إن الأوروباويين الذين التقوا معهم أتوا من أقطار بعيدة فى الجنوب حيث تمت لهم فيها السيادة ولهم فيها مراكب ومدرعات تروح وتغدو فى أنهار واسعة تجرى من الشرق إلى الغرب .

ومن الأمور ذات الأهمية الكبرى بالنظر إلى انتشار الاسلام توسط الأوروباويين فى أفريقيا وحلولهم فى نهر الكونغو، لأنهم بذلك قسموا القارة الأفريقية من طرف إلى طرف وربما يخشى على حركة الاسلام الذى كان يمتد رويداً رويداً مخطئاً من الشمال إلى الجنوب كما يخشى على التجارة التى كانت تروح وتغدو مع القوافل الاسلامية فينعكس مجراها فتميل إلى الغرب نحو نهر الكونغو لذلك اشتغل رؤساء المسلمين بهذا الأمر اشتغالا لا مزيد عليه حذراً من انقلاب الحال فى تلك البلاد ؛ ولقد يفيد المتأمل أن يعرف كيف كانت نتائج مقابلة الأوروباويين القادمين من جهة الكونغو مع المسلمين النازلين من السودان لولا أن هذا البحث يبعدنا عن مقصدنا فلنقتصر على البحث عن العلة فى حياة الدين الاسلامى تلك الحياة القوية وما السبب فى انتشاره هذا الانتشار العجيب .

وهنا يجب البحث فيما إذا كان الاسلام دينا عموميا بطبيعته أو هو دين خاص بأمة من الأمم وهو بحث طرق بابه من قبل (موسيو كينان) والجواب عليه صريح لا شك فيه من الجهة العملية فالاسلام دين عام بغير شبهة لأننا نشاهد المسلمين فى كل أمة على اختلاف الأجناس والبلدان ، فمنهم الشرقى والترى والغربى والهندى والزنجى ، بقى علينا أن نعرف مع (موسيو كينان) إن كانت هذه الحالة العمومية ناشئة من طبيعة الدين أو متولدة من أسباب أخرى وهو يرى أن الأمة العربية ليست مهده الطبيعى وإنما هو ينتهى إليها وليس فى طبيعة هذا الدين أنه دين عمومى وهو قيد ناشئ عن نظر فى الموضوع من إحدى جهاته فقط لأن الدين الإسلامى الذى منشؤه القرآن والسنة هو الذى تولد عنه ذلك الإسلام الذى يعترف المؤلف المشار إليه بأنه دين عام ، لامحالة انتقاله من حالته الأولى إلى الثانية حصل تدريجا بطريقة يتعذر ضبطها وذلك بتأثير الزمان والأمم المختلفة التى اعتنقته بحيث يتعسر التفريق بين تقدير تأثيره من حيث هو فى أصله وتأثيره بعد أن صار كما نراه فى هذه الأيام فلا يغضبن (موسيو كينان) إذا حذفت تقسيمه الاسلام إلى أولى ولاحق وقلت فيه كله كما قال فى كتابه إنه دين عمومى على أن الانتقال من حالة أولية إلى غيرها ليس عرضا خاصا بالدين المحمدى بل تشترك فيه جميع الأديان .

فمما يعزى إلى حالة الاسلام الحالية انتشار مذهب الزهد والاعتقاد بالأولياء وبعض الأموات وكثير من التعبدات الأخرى ، وسببه أن المرء طماع فى الدين بأصل الخلقة ولكل أمل خاص ومن هنا تولدت تلك المذاهب والأفكار إرضاء لشهوات تشتد ظهورا كلما تقادم العهد عليها ولم ينج الاسلام من لوازم هذه الضرورة بل خضع إليها وأداها حقها وهذا من أكبر أسباب تقدمه ولكنه أيضا سبب من أسباب تناقضه لأن تلك المذاهب تخالف مبدأه ، ولقد تجد النفوس التى رفعت أعنتها إلى السماء ومالت إلى التجرد عن الحواس ورغبت فى مشاهدة الحضرة الربانية طريقا مسلوكا فى مذهب التصوف يسهل عليها النسك والتعبد وقلما يلومهم بعض المتشددين من العلماء ، وإن كان الزهد بهذه الصفة أى الاعتقاد بالوصلة بين العبد والله مما يخالف مذهب التوحيد ومن الناس من يرى نفسه بعيدا عن ربه فلا يستطيع أن يرفع دعاءه إليه وهو فى بعض الأحيان غريب كقوله إلهى ارزقنى من الأبناء ذكورا ولا تجعل ماشيتى تلد إلا إناثا ولمثل تلك الأفهام وجد فى الاسلام مذهب الواصلين والذين صار بيدهم توزيع كثير من المبرات فى اعتقاد العامة وإليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل فيجتمع إليهم قطاع الطريق والشحاذون والنسوة العاقرات وشبان يريدون الثروة أو الجاه وشيوخ تضب عود قوامهم مع أننا لو رجعنا إلى القرآن لرأينا التصديق بالأولياء غير

شرعي ولوجدنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حرم الاعتقاد بهم « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون » والواقع أن الاسلام في مبدأ ظهوره ما كان يقبل غير الاعتقاد بالله الواحد الأحد، وقد بقي هذا المذهب كما بدا فهو اليوم جامعة تلك المذاهب وإليه ينتهي كل اعتقاد .

ومن مزايا الاسلام أنه دين رحيم، فهو يعد الجنة والنعيم لكل مؤمن من دون تميز على التقريب، فالمحارب يموت شهيدا والعالم يكتفي بتلاوة القرآن والاثنان مقبولان عند الله وللفقير مكان علي وللغني درجة رفيعة .

ولقد كان فكر النبي في الألوهية من أرفع الأفكار وأسماها ولكنه تساهل كثيرا في تقدير الإنسانية لذلك تسامح الناس كثيرا في رغباتهم وما كانوا إليه يميلون . نعم يجب على الرجل أن يعتقد ويعبد الله ولكن لا يجب عليه أن يحارب نفسه ويعذبها العذاب الأليم ليقهرها إذ لا ينبغي له أن يطلب لنفسه الكمال وإن يصل إليه لأن من أراد الكمال فكأنه أراد أن يساوي الإله في جلاله وهو أسوأ الأعمال وأخبث الرغبات وكان رسول الله يميل إلى بعض ما يميل الناس إليه من المشهيات فكان يقول على أسلوب بسيط «حبب إلي من دنياكم ثلاث النساء والطيب وقرة عيني في الصلاة» ولقد يعسر الجمع بين هذا التفضيل وبين الميل إلى النساء حتى يكاد العقل أن يرى في الأمر تهكما ، ولكن هذه الجملة لا تحتوي في الحقيقة على معنى خفي بل ما يفهم من لفظها هو الذي قصدمنها، ومن وعاها فقد عرف الاسلام كما ينبغي وقد ورث المسلمون عن نبيهم ميلهم إلى ما كان يميل إليه فللصلاة في قلوبهم منزلة سامية وليس التعبد بها عندهم خاصا بالنساء والأطفال كما هو عند المسيحيين بل هي مزية من مزايا الرجال وإحدى جهات فضلهم على النساء، ولا يواظب عليها الصبي أو المرأة إلا نادرا لاعتبارها عند المسلمين من أعظم الأمور التي تلزم فيها صفات الرجل التام[1]

ومع ذلك فمن الشهوات ما نهى النبي عنه وأمر بمجاهدة النفس فيه، فقد حرم على المسلمين شرب الخمر وكل شراب يؤثر مثله ، وقد بالغ المسلمون في العمل بهذا النهي فكان من وراء ذلك أن نجت الأمم الاسلامية من مرض المسكرات وهي الداهية التي تفجع اليوم أمما كثيرة من المسيحيين وكانت إحدى الأسباب في اضطراب المجتمع الانساني وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الأمم الاسلامية .

هكذا جذب الاسلام قسما عظيما من العالم بما أودع فيه من إعلاء شأن النفس بتصور الذات الإلهية على صفات فوق صفات البشر تذكرها خمس صلوات في كل يوم وبما اشتمل عليه من الترفق بطبيعة البشر حيث أتاح للناس شيئاً مما يشتهون، وأعظم عامل في انتشار الاسلام خصوصا عند الأمم الزنجية (السود) بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه وهو سبب موجود في القرآن نفسه، فهو بذلك يلائم طباع الهمج كثيرا الذين لم يعرفوا دينا من قبل ذلك . دينا لا أسرار فيه وكلمته أي كلمة الشهادة يعتاض عنها عند الاحتضار بإشارة تدل عليها كرفع السبابة إلى السماء إشارة إلى وحدانية الله تعالى، فكلما وجد الرجل الجاهل أمامه دينين متحدين في حقيقتين وحدانية الله وخلود الروح وهما الاسلام ودين عيسى تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئا عن تينك الحقيقتين ويعتنق الاسلام بلا محالة وهي قوة يفضل بها القرآن الديانة المسيحية في الانتشار وكانت معروفة عند القرن السابع عشر لذلك نقرأ في كتاب القس (ماراتشي) الذي سماه (الرد على القرآن) [ولا يغيبن عن ذهن القارئ أن تلك الطائفة الشريرة أو المحرفة أو ما تشاء من الأسماء لا تزال حافظة لكل ما في الدين المسيحي من الأمور الظاهرة الوضوح القريبة التصديق مضافا إليه ما يوافق نظام الكون وقانون النشأة الدنيوية ، فقد أبعد عنه

---

(١) كلا . فالصلاة واجبة على كل بالغ رجلا وامرأة .

أحاجى الأنجيل التى تخالها فى أول الأمر غير صحيحة لاتدركها العقول ؛ كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر مما جاء فى ذلك الكتاب وبهذه الواسطة تمكن من رفع العقبتين اللتين يحس كل واحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق الصحيح وهما عقبة الروح وعقبة الجسم وهذا هو السبب فى أن الوثنيين الذين يريدن ترك دينهم فى أيامنا هذه يحتاضون عنه بالاسلام دون الديانة المسيحية] .

بق علينا أن نستقصى الأسباب والوسائل المستعملة الآن لانتشار الإسلام، وهنا أيضا نجد سببا عظيما من أسباب انتشار القرآن فرافعوا راية الإسلام هم فى العادة تجار بلد واحد تضافروا على جلب الرزق من بلاد قاصية فالبشر الاسلامى [وليلاحظ أن هذا الاسم غير صحيح عند المسلمين إذ ليس لديهم مبشرون منقطعون لهذا الأمر كالمسيحيين] لايوجب عند الأمم الجاهلية خوفا منه ولا فرقا لمقدمه كما يحصل لهم ذلك من المبشرين المسيحيين وهم كما قال موسيو (مونتيل) يعتنقون دينه لأنه لم يعرضه عليهم ، فما أشبه الأمم بالأطفال ترغب عما يقدم إليها وترغب فيما تحسبه ممنوعا عليها، أما الطرق المستعملة فى انتشاره فكثيرة متنوعة وأحسن موقع نبحث فيه عنها جهات أفريقيا بجانب الأملاك الفرنساوية قرب خط الاستواء، فليس من جهة يشاهد المرء فيها تقدم الاسلام أحسن منها .

والقائمون بهذا العمل هم (الفولبوسيون) وهم الجنس الأبيض فى السودان وله الأولوية على غيره . وهو أعرق فى الاسلام وإليهم أشرنا عندما قلنا بأن أحد منبعى الاسلام أقاليم نهرشادو وقد شاهدهم المكتشفون الفرنساويون فى (شارى) و (لوغونه) والفولبوسيون يقصدون نشر الإسلام وتوسيع متاجرهم ثم هم يرمون إلى غرض آخر هو اتساع نطاق سلطتهم، فلهم خطط سياسية فى الاستعمال مثل أوروبا يعملون لأجلها فى أفريقيا قال موسيو (مستران) إن الذى لفت ذهننا كثيرا لما قدمنا إلى جهات شارى هو النظام السياسى الذى تمكنت ملوك الإسلام فى أواسط أفريقيا من إيجاده بين الأمم التى دانت لكلمتهم، وللفولبوسيين مساعد كبير من عشائر يقال لها الحواصة وهم من الجنس الأبيض وأقرب عهد بالاسلام وأقل منهم منزلة فنسبتهم إليهم كنسبة اليهودى للعربى ، ولقد شبهنا باليهودى لأنه تشبيه قال به جميع الرواد والمكتشفين من الأوروباويين فالحواصة أمة لازمة لكنها محتقرة كما هو شأن اليهودى يحب المال ويتكهن طرق اكتسابه ولا يخاطر بمتجره فيسير خلف (الفولبوس) وهو رجل الحرب والفتوح ولا يستقر به القرار إلا إذا آمن وتمكن والحواصة هم أهل المعارف والعلوم فى السودان حتى كأنهم احتكروها إلا أن علمهم قاصر على شىء يسير كالقراءة والكتابة فى اللغة العربية وهو كاف لنفوذهم فى الوثنيين لأن هؤلاء يعظمون الكاتب والقارىء إلى درجة العبادة تقريبا ومع ذلك فلا يزال الحواص وضيع الدرجة فى عين متبوعه الفولبوس ، فالفولبوسيون هم أنصار الاسلام فى الحقيقة والحواصة منهم بمنزلة الوعاظ والفقهاء، ويعزى امتداد سطوة الفولبوس دينا وسياسيا إلى تدخلهم فى الخصومات التى تتكرر بين القبائل الوثنية المجاورة إليهم فما تخاصم الأهالى إلا وتدخل الفولبوسيون ، أما الجهات التى اجتمعت فيها قلوب الوثنيين وخفت وطأة الشقاق لديهم فلا يدخلون بينهم بدينهم وسياستهم إلا بالعناء ويتوصلون إلى غرضهم فى الغالب عند ما ترتكب جريمة قتل أو سلب حيث يوجد قوم من المسلمين لأنهم يرسلون إليهم الكتائب لتقتص منهم وبذلك ينتشر دينهم وتعلو كلمتهم ، ومهما تنوعت أسباب تدخلهم فان طريقة سياستهم تدل على حذق واقتدار فيها ومرجعها إلى مبدأ الحماية الذى توصلوا إلى وضعه بين الأمم الهمج كما رواه موسيو (مستر) فمن احتمى بهم فقد أمن ومن خرج عن طاعتهم أصبح مهدداً ، ومتى احتمت بهم قبيلة ذهب رؤساؤها إلى ملوك الاسلام فى السودان فيولونهم المناصب ويلبسونهم الخلع ويردونهم إلى أوطانهم يحكمون فيها باسم سلاطين المسلمين وتحت رعايتهم ، فان كانت القبيلة أو القرية عظيمة أرسل السلطان إليها

رسولا

رسولا من قبله ليلاحظ حكومتها بالنيابة عنه والسفراء كلهم من الخواصة يكونون بجانب الحكام مستشارين ذوى كلمة ونفوذ ومعارفهم وما تعلموه من الأحكام بالقرآن تؤهلهم إلى القضاء لمنفعة اللاجئين إليهم وهم كالعلم يجتمع حوله التجار الوافدون من السودان ، وقد يتفق أن بعض القبائل الوثنية لا تخضع من أول ظهور الفولبوسيين بينهم هنالك تسطو عليهم قبائلهم فتسلب منهم وتأخذ أبناء الرؤساء فتبعث بهم إلى السودان حيث يتربون على مبادئهم ومبادئ الخواصة ، وبعد زمن يرجعونهم إلى بلادهم فيقومون فيها كنواب عنهم مثل الحكام الذين ترسلهم الممالك الأوروباوية فى مستعمراتها ، وفى تلك الأثناء ينتشر الاسلام بمجرد الاختلاط والمعاشرة وحب التقليد بدون أدنى إكراه ولا تعيين رسل أو مبشرين ، إذ بمجرد أن يشترى الوثنى خرقة القطن من أحد الخواصة ويستر بها عورته يأخذ فى تقليد البائع فى الصلاة كالقردة ويتعسر بيان اللحظة التى يصير فيها مسلما حقيقيا لأن إسلامه يأتيه تدريجا ، ومتى كثر عدد المسلمين فى بلد أقام فيها الفولبوسيون مدارس يتولى الخواصة التعليم فيها ولكنهم لا يتدخلون فى نشر الاسلام مباشرة بين البقية بل يتركون ذلك للخواصة أو للأهالى أنفسهم .

ونذكر من الوسائل الناجحة فى يد الفولبوسيين لانتشار الاسلام الزواج ، فإن سلاطين السودان يتزوجون من العائلات الوثنية لهذه الغاية ولا تمكث النساء وأولادهن حتى يصير الكل من أقوى الأسباب على انتشار الدين الاسلامى ، وقد أشار موسيو (رونان) إلى ذلك فى بعض كتبه حيث يقول [من الصعب أن يصم المرء أذنه إذا تقدمت إليه النساء والأطفال ومد كل يديه إليه وطلب منه أن اعتقد بمن تعتقد] .

على أن الزواج هو السبب فى وجود أنصار الاسلام الأولين ، وكثيرا ما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم لخدمة دينه لا للشهوة فى نفسه ، فقد صرح بأن الله أباح له الجمع بين عشرة نساء خلافاً لما فرضه لجميع المسلمين وهو اختصاص تدرك غايته لمن تأمل فى الأمور لأنه كان معصوما عن النساء حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره وتزوج بالسيدة خديجة بعد وفاة زوجها الأول وقضى خمسة وعشرين سنة بعد ذلك مع هذه الزوجة وكانت تلده ولم يمل إلى ما أباحته العرب قبل الإسلام وأباحه القرآن بعد ذلك من تعدد الزوجات ولم يتسر ثم توفيت خديجة سنة ٦١٩ م وعاش بعدها اثنى عشرة سنة تزوج خلالها بعشر نساء ليس بينهن إلا اثنتين كانتا بكرا والباقيات مطلقات أو مترملات . قال (رولان) إن كثرة زواج النبى كانت لتزيد فى نشر أوهامه وهو قول يقصد به قائله القدح ولكنه حجة على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن فى تعدد الزوجات شهويا .

هذه هى أهم الأسباب فى انتشار الاسلام ولست أدرى أ كانت تكفى لادراك سر هذا الدين فى انتشاره أو أنه يجب البحث معها عن أسباب سماوية ؟ غير أن الاسلام خرج من ذرية إسماعيل وسرى فى الأرض كما خرجت المسيحية من ذرية إسحاق ، وقد بارك الله فى أبناء الخادمة كما بارك فى أبناء السيدة ، ونحن نعلم أن يهوذا قال لإبراهيم عن إسماعيل إنه سيبارك فيه ويكثر من نسله كثيرا وكرر ذلك بقوله إنه سيبارك له فى ابن الخادمة فتخرج من صلبه أمة كبرى لكونه من أولادك ، وأعاد يهوذا هذه البشرى مرة ثالثة لوالدة ذلك الطفل الذى نجا فى الصحراء حيث رمى ليموت عطشا ، وقصة ظهور الملك إلى هاجر من أجمل الروايات ووصف بادية الظمأ ولهف الأم على ولدها من ألطف ما يقال [نضب الماء فى الزق ورمت هاجر الطفل تحت شجرة وابتعدت قليلا ثم جلست أمامه على مسافة مرمى النبل وقالت لست أصبر أن أرى ابنى يموت ثم رفعت صوتها بالبكاء وقد كان بكاء الطفل قد سبقها إلى السماء فناجاها الملك من قبل الله : مالك ياهاجر ، لا تخافى فقد سمع الرب صوت الطفل من المكان الذى وضعته فيه فقومى وساعديه على القيام وليشتد ساعدك على حمله فسيكون من ذريته أمة كبرى]

ولقد ارتعشت يدى عندما مددتها لأزيل الغطاء عن الكتاب المقدس كى أنقل الآيات التى سطرتها ولولا ما قاله الأب بروغلى من أن تقدم الإسلام أمر مندرج تحت ما بشر به أبو المؤمنين لما تجرأت أن أطبق تلك الآيات على الإسلام ولا ذهبت إلى أن فى انتشار هذا الدين سرا من الأسرار الربانية . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا » إلى قوله تعالى « وأعد لهم أجرا كريما »

فى هذه اللطيفة أربعة فصول :

(١) فى الذكر الكثير . (٢) والتسبيح .

(٣) وصلاة الله وملائكته على المؤمنين . (٤) وفى التحية والسلام .

﴿ الفصل الأول : فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » ﴾

إنى لأعجب كيف أقرأ نفس هذا المعنى فى كتاب [راجايوقا] ومعناه الحكمة التامة المترجم سنة ١٨٩٦ فى أمريكا وقد ألقاه المترجم عدة محاضرات فى تلك الأقطار بعد أن ترجمه من اللغة الهندية القديمة وقد أشرت إلى هذا الكتاب فيما مضى من التفسير مرارا ونقلت عنه ما يناسب الآيات . إن فى الكتاب مسألة الذكر الكثير وقد أوضحها الهنود فيه إيضاحا عجيبا ، يقولون منذ آلاف من السنين قبل النبوة المحمدية ما ملخصه [إن الإنسان لا يعيش إلا بالتنفس ، والدورة التنفسية لها الحكم على الدورة الدموية ، وعلى مقدار الآثار فى الدورة التنفسية تكون الآثار فى الدورة الدموية والدورة الدموية تؤثر فى الأعصاب والأعصاب توصل الآثار إلى العقل ، ولو أن امرأ حكم أمر تنفسه فأخذ يدخل الهواء ويخرجه بالتدريج شيئا فشيئا ثم يحفظه فى الرئة قليلا قليلا بقدر إمكانه ، ثم يخرجه بالتدريج عدة مرات ويكرر ذلك فى اليوم والليلة عدة دفعات بشروط خاصة فإن ذلك يعطيه قوة فى العزيمة والارادة ، ومعنى ذلك أن زمام العقل والتفكير والارادة فى يد أعصابنا وأعصابنا فى يد الدم والدم فى يد التنفس ، فإذا أحكمنا التنفس وذللناه لنا ذل ما بعده وخضع لنا ، وهنالك تكون الارادة والعزيمة طوع تفكيرنا]

ولست أقول لك إن هذا القول يمكن العمل به بمجرد هذا البيان ، ولكنى أقول يمكنك أن تتنفس كل يوم عدة مرات فى الخلاء بحيث تدخل النفس بالتدريج وتحبسه وقتا ما على قدر طاقتك ثم تخرجه وتقفل الفم بقدر طاقتك ثم تتنفس مرة أخرى ، فهذا نافع جدا فى الصحة والقوة الجسمية ، وهذا يمنع الزكام وكثيرا من الأمراض ، وليس هذا مقام الافاضة فى هذا التنفس فإن علم التنفس نقله الفرنجة عن علماء الهند وقد قصدوا به التداوى ونجحوا واستغنوا به عن كثير من الأدوية ، وإنما هذا المقام مقام ذكر الله كثيرا وذكر الله كثيرا إنما يكون بالكلام والكلام بالتنفس والتنفس يصل حكمه إلى الأعصاب الواصلات إلى النخاع الشوكى الآتى بيانه فى [سورة فاطر] عند قوله تعالى « والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » الخ . والأعصاب هناك ﴿ قسمان ﴾ أعصاب حس وأعصاب حركة خارجات كلها من الحبل الشوكى المتصل بالمخ والحبل الشوكى والمخ هما المركز الأصلى للاحساس وللحركة ، وقد وزعت أعصاب الحس وأعصاب الحركة على جانبى الفقرات توزيعا عادلا وهى (٣١) زوجا والزوج عصبان عصب للحس وعصب للحركة ، وهذه الأعصاب تتجه إلى أطراف الجسم كاليدين والرجلين وظواهر الجلد ،

ومتى أحست تلك الأعصاب بطارىء ما وصلت خبره إلى النخاع الشوكى والنخاع الشوكى يطير خبره إلى المخ والمخ حالا يأمر الآمر فيه أعصاب الحركة بالعمل لما يناسب ذلك الطارىء جلبا أو دفعا . أما المخ ففيه (١٢) زوجا من الأعصاب كلها موصلات الحواس التى فى الرأس كالعينين والأذنين والمنخرين ، وكل هذا ستراه فى [سورة فاطر] كما قلته لك الآن مرسوما مشروحا وهو الذى أجله علماء الهند فى ذلك الكتاب الذى قرأته بالانجليزية مترجما عن اللغة الهندية لشرح ذكر الله كثيرا . قالوا إن الأعصاب المذكورة هى الموصلات للأخبار الدوافع المحركات ، وليس لهذا الإنسان ولا الحيوان إلا أمران حس وحركة وبعبارة أخرى علم وعمل ، وهذان النوعان قد تجليا فى أعصابنا وأعصابنا خارجات من النخاع الشوكى والنخاع الشوكى متصل بالمخ وهو مقر الملك وهو العقل المدبر فالمرجع كله لهذا الرئيس المدبر المستوى على عرش مملكتنا ، ولكن هذا الرئيس يتأثر بهذه الأعصاب سلبا وإيجابا ، فإذا أكثرنا من ذكر الله وكررنا مرارا فإن الكلام حركات فى النفس والنفس يؤثر فى الدورة فيصل الأثر إلى هذه الأعصاب وينقل بحكم المجاورة إلى الأعصاب فيحصل الحب ويكون الوصول لله . إذن الذكر الكثير لله يقرب إليه .

وهذا ما أوضحه القوم فى ذلك الكتاب ولكنهم يقولون [إن حب الله ربما يفيد الإنسان ، ولكن مادام محبا للدنيا فإنه يكون ناقص النفس فليس كل من أحب الله ووصل إليه وصولا ما يكون كاملا ، فحب هذه الحياة نقص عظيم] .

أنا لست الآن أقول إن هذا القول كله حق ، ولكنى أقول : العجب أن العرب فى جزيرتهم لايعرفون ما هو ذكر الله والقرآن جاء فيه « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » والعقل ليس عنده براهين تدل على أن الإنسان إذا ذكر الله مرارا يكون له الفلاح وهذا إنما جاء بالوحى وظهور أمم قبلنا كانت عندها هذه المباحث وعللوها وفكروا فيها أمر عجيب ، وهذا معنى قوله تعالى «بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » . فهؤلاء القوم سبقونا ، وقد تقدم أن كتاب الفيدا الهندى الذى سبق الإسلام بعشرات آلاف السنين بل جاء فى آثار الهند كتاب لعالم منهم ألف منذ نحو (٦٠) ألف سنة يقول : إن كتاب الفيدا لايعلم متى وجد فهو مجهول التاريخ والمبدإ . إذن هذه معجزة لدين الإسلام ، وكم فى الاسلام من معجزات ، وهنا فى هذا المقام معجزة ثانية ، ذلك أنهم يقولون [إن فى الفقرات أمرين النخاع الشوكى (الحبل الشوكى) للوصل للحس والحركة وفراغ لامادة فيه وذلك الفراغ يمتد من العصص للتحم الذى لافراغ فيه إلى المخ] قالوا وهذا الفراغ المستطيل الواصل بين هاتين النهايتين ملغى لاعمل له عند أكثر الناس ولكن هناك أناس قد قويت عزائمهم وعظمت مواهبهم بالأعمال العظيمة وممارسة الذكر والفكر أو التنفس للتقدم أو ذكر الله فهؤلاء بهذه الأعمال القويات لعزائمهم تجعل جميع قوى العقل تحت إرادتهم ، ويقولون إن كل عمل من أعمال الناس أعوه يفتح لهم فتحا جديدا فى تلك العظمات الثلاثة التى فى آخر تلك العظمات وتسمى (اللوتس) وهذه يقولون إن فيها سر الانسان وعلمه وحكمته ، وللانسان (فى نظرهم) حالان الحال المعتادة وهى مانحن عليه من وصول الآثار من الخارج إلى نفوسنا بطريق هذه الأعصاب كما هو حاصل للحيوان فلنا وله حس وحركة بهذه الأعصاب الواصلات للنخاع الشوكى الموصل للدماغ . والحال الخارقة العادة بأن يفتح ذلك الثلث وهو (اللوتس) الذى فيه عجب الذنب . ومتى فتح اتصلت العلوم المخزونة فيه بالمخ والموصل بينهما الفراغ الذى فى فقرات الظهر . وهناك يعرف الإنسان علم كل شىء فلا يحتاج إلى تلك الأعصاب حتى يعرف العلوم الفلكية . فكيف هذا وقد أصبح محيطا بالعلوم التى يقدر عليها الإنسان بحسب روحه هو لابحسب ما توصله إليه الحواس كما فى الحيوان .

هذا ملخص ما قرأته فى ذلك الكتاب أوضحته إيضاحا تاما ولم أدع منه شيئاً . فهذا هو المشار إليه بعجب الذنب فى الشريعة الإسلامية ، فإن فى الآثار والأخبار ما يدل أن الروح باقية وعجب الذنب باق فما معنى هذا ولماذا يجىء ذلك فى الأخبار ؟ ولماذا ينزل الله ذلك على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم ونفس هذا المعنى جاء فى كتب الهنود بطريق آخر وهو أن هـذا هو سر الإنسان وعلمه . فإذا ورد أن عجب الذنب باق كبقاء الروح ووجدنا أن علماء الهند قبـل عشرات الألوف من السنين يقولون [إن عجب الذنب متى اتصل بالمخ من طريق هـذا الفراغ فإن العلوم المخزونة هناك يعرفها العقل] فمعناه أن ذلك المكان فى نظرهم مستودع العلوم .

ومستودع العلم بعد العقل فكأنه غدة العلم كما أن البنكرياس غدة المادة الهاضمة والغدد الست فى الفم جعلت لهضم المواد النشوية والصفراء وغدد المعدة والأمعاء كلها لهضم المواد الكربونية والدهنية وهكذا وكالغدة المسماة بالنخامية والمسماة الصنوبرية فى الدماغ فإن لهما تأثيرا على نظام الأعضاء الجسمية ، وسيأتى أيضا فى [سورة فاطر] .

ولست أقول إن ماقاله الهنود مبرهن عليه فى هذا أيضا ، ولكنى أقول العجب أن يتكلم الهنود فى عجب الذنب وأنه غدة العلم فيما كان وما يكون ويجىء فى ديننا أمثال قول علماء التوحيد .

عجب الذنب كالروح لكن حققوا وصوله إلى البلى ودققوا

فللعلماء قولان : قول إنه باق كالروح ، وقول إنه فان كما يفنى الجسد وليس هذا هو المقصود ، إنما المقصود أن يرد هذا فى ديننا ويوازن بالروح تارة وبالجسد تارة أخرى ، فبالأول يحكم ببقائه وبالثانى يحكم بفنائه ، وعلماؤنا رحمهم الله معذورون فى هذا ولهم الحق أن يرجحوا فناءه لأنه من نوع الأجسام ولكن كلام أهل الهند أرجعه إلى العلم المخزون ، وهذه أمور فوق عقولنا لابرهان عليها ولكن المهم أن هذا معجزة ثانية والله يقول « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » فهذه علوم عند أمم خلت وربما كانت لها أسرار لانعقلها الآن ووردت فى الإسلام ليعقلها قوم بعدنا ويشرحوها « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » وبهذا تم الكلام على الفصل الأول فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » .

﴿ الفصل الثانى : فى قوله تعالى « وسبحوه بكرة وأصيلا » ﴾

اعلم أن الانسان إذا ذكر الله كثيراً فتحت بصيرته ، وقد علمت أن أهل الهند سبقوا الاسلام بذلك فى الفصل الأول ، وهذا هو معنى قوله تعالى « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الآية ، وقوله تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » وقد تبين لك أن هذا معجزة إسلامية من حيث تلاؤم الديانات فى الأصول وإن كانت مهجورة بعيدة المدى ، ومن اطلع على طرق الصوفية فى العالم الاسلامى وجد بينها وبين طرق أهل الهند ملاءمة ترجع كلها إلى ذكر الله تعالى ولكن بصبغة الاسلام لابصبغة كتاب (الفيدا) الهندى .

ولقد حقق علماء الاسلام أن هؤلاء الذاكرين لربهم لايصل إلى المعرفة التى يقول بها علماء الصوفية إلا النادر جدا بل كثير منهم يمسهم الجنون فلا تنتفع بهم الأمة وهذه إحدى نكبات الأمم الاسلامية . كثرت فيهم طرق الصوفية وعاشوا عيشة روحية كأهل الهند ولكنهم فى الوقت نفسه لم يصل جميعهم إلى العلوم التى بشرهم بها أشياخهم ، بل ران على قلوبهم التقليد ، وهنالك يحصل لهم شكوك وأوهام فيقول الأذكياء فيهم [كيف يكون الله أرحم الراحمين وهو يمرضنا ويميتنا وأهل الشرق والغرب فى نضال وقتال مستمرين وأصحاب الأسلحة النارية من أوروبا يهجمون على الشرق فيذلون الأمم . ثم ما هذه النظم الأرضية . وما هذه الحرارة

والبرودة والمتناقضات في الأرض . وكيف يكون زيد الصالح فقيرا وعمرو الطالح غنيا. إن هذا لشيء عجاب !] فيقال لهم في القرآن « وسبحوه بكرة وأصيلا » والتسبيح تنزيه عما يظن فيه سبحانه من أنه ترك العوالم تتخبط كأنه لم يعن هو بصغيرها وكبيرها بل هي دائرة بلا نظام ، ولو كان صانع العالم مطلعا على جلائل الأمور ودقائقها لم نجد ناسكا أحرق ثوبه وعجوزا هدم البيت عليها وطفلا ولد مشوّها وامرأة مات طفلها فاحترق فؤادها ، ولاطغت أمة على أمة ولا طغى طوفان الأنهار وحريق النار على فريق من الناس فأهلك الحرث والنسل وهكذا مما لاحصر له . فذكر التسبيح في الآية بعد ذكر الله كثيرا ليكون في الأمم الاسلامية [فريقان : الفريق الأول] فريق العباد (بتشديد الباء) الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا إذ يسمعون قوله تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » وقوله تعالى أيضا « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا » وقوله « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ويسمعون « وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » وقوله « وتسبحوه بكرة وأصيلا » وقوله « سبح اسم ربك الأعلى » وقوله « فسبح باسم ربك العظيم » .

فهذا الفريق المسبح يكون تكرار التسبيح منبها لما يعلق بنفسه من تلك الشبهات ، فكما أن الذكر يفرحه بربه ويقربه له ، فان التسبيح بتكراره بكرة وأصيلا يمرن النفس على أن تتباعد عن تلك الشبهات وتوطن الضمير على أن يعتقد أن الله منزه عن الشرور أو الغفلة ، وأن ما نشاهده من تلك المصائب في هذا العالم هو يعلم نتائجها وله فيها حكم عجزنا عنها ، فالتسبيح إذن أشبه بالحارس الذي يحرس العقل من التعرض لهذه الشبه . فههنا (أمران عجيبان) : الذكر بقوله « اذكروا الله ذكرا كثيرا » وذلك لاستحضار المذكور وتكون النتيجة حبه ، ولكن الحبيب الذي يفسد الواشي حبه معرض حبه للذهاب فتكون القطيعة فجأة بعد ذكر التسبيح وبتكراره يحصل ما يشبه التنويم المغناطيسي فتذهب تلك الوساوس فيبقى الحب على حاله حتى إذا فارق الانسان هذا العالم فهناك يدخل في عوالم يفهم فيها ما جهله هنا . فالذكر تحلية والتسبيح تخلية ولذلك نسمع الله يقول « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم » فالحمد نوع من الذكر والتسبيح تخلية عن تلك الشبهات . ويقول « دعواهم فيها سبحانك اللهم » فجعل التسبيح مع الحمد . وبعبارة أخرى التخلية مع التحلية . هذا هو الفريق الأول وهم العباد (بتشديد الباء) .

﴿ الفريق الثاني في الأمم الإسلامية ﴾

الفريق الثاني في الأمم الإسلامية هم الذين يسبحون الله بكرة وأصيلا كالفريق الأول ولكنهم لهم عقول راجحة فلا يقفون عند الشبهات التي ترد عليهم بتكرار التسبيح لأن العابد درجته محدودة ولكن العارف بالله أرقى من العابد . فيقول هذا الفريق . نحن قرأنا في (سورة آل عمران) « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » فيقولون ههنا جمعنا ذكر النار وعذاب النار بعد الذكر والفكر . وههنا يقولون الذكر للعباد ولكن العارفون بالله لا يقفون عند الذكر فهذه مرتبة ضعيفة بل يفكرون في جمال ربهم وصنعته .

وهذا معنى قوله « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » . نعم نحن نسبح في الركوع والسجود وبعد الصلوات . ففي الأوليين (١١) مرة وفي الثالث (٣٣) وعند النوم كما في الحديث (٣٣) أيضا ، ونسبح بكرة وأصيلا ، ولكنا لا نقف مكتوفي اليدين أمام عظمة ربنا وجلاله . وهذه الطائفة هي التي ستظهر بعد انتشار هذا التفسير . وسيكون في الأمم الاسلامية فطاحل الحكماء الذين لم يخلق في أمة مثلهم وهؤلاء هم

علماء هذه الأمة بل هم علماء الأمم . فهؤلاء يعيشون محبين لربهم ولخلقه ويصلون حياتهم كلها فى درس نظام الطبيعة وجمالها ولا معنى لهذا كله عندهم إلا أنهم أحبوا وعشقوا مبدع الكائنات وأحبوه لما نقش وزوق وأبدع وأحكم ونوع وصنف . وهذا الفريق فقط هو الذى يفهم لم كان المرض والموت والفقر والطوفان والحرب واحتلال الأقوياء أرض الضعفاء فى هذه الأرض . ومستحيل أن ينال هذا الانسان فى الأرض إلا بدراسة مجمل العلوم الرياضية والطبيعية لأنها آثار الصانع الحكيم فان لم ندرس آثاره واكتفينا بقراءة كلامه كنا أشبه بمن قرأ كتاب الملك الذى نشره فى رعيته ولم يعمل به .. وغاية الأمر أنه يكرر الكلمات التى أرسلها فى ذلك الكتاب المنشور . وهذه وإن كانت سخافة وقلة عقل وجهل فى كتب المخلوقين فهى ليست كذلك فى كتاب الخالق لأن كتاب الخالق عز وجل له مزية خاصة . فانظر رحمك الله إلى أجسامنا وأجسام حيواناتنا وإلى نباتنا فانك ترى أكثر نوع الانسان يعيش ويموت وهو لم يدرس هـذا الجسم ولا عقل من عجائبه شيئاً . وهكذا يأكل من الحب والفاكهة وهو لم يدرس ولم يعرف عجائب النبات كما لم يعرف عجائب جسمه ومع ذلك ينتفع بالفاكهة وبالحب وبجسمه المجهولات عنده جهلا تاما . أكثر هذا الانسان هكذا حاله ، لجسمه المملوء من الجمال فى نظام ، وكل ما حوله من مطعوم ومشروب مجهول جماله عنده ، وهذا الجهل لم يمنعه أن يعيش بجسمه عمرا طويلا ولا أن ينتفع بالنبات والحيوان ، وأقل هذا النوع الانسانى هم الذين أدركوا جمال أجسامهم وجمال طعامهم وشرابهم من حيث النظام والابداع . فاذا صح هذا فى أجسامنا وفى كل ما حولنا وكله من حسن الابداع وسعة الرحمة من المبدع الحكيم . فهكذا صح فى تسبيحنا . فالمسبح بقوله « سبحان الله » وهو من العابدين قد نال أثر ذلك التسبيح فى نفسه فتباعدت عنها تلك الشبهات كما انتفع الانسان بجسمه أمد الحياة وبما حوله من طعام وشراب وهو جاهل بذلك كله . فأجسامنا وتسبيحنا وذكرنا أشبه بما قيل فى كتاب كليلة ودمنة « ولله المثل الأعلى » فهو للجهال حكايات تفرحهم وهو للخواص حكمة وعلم وسياسة . هكذا أجسامنا وما حولنا للجاهلين حياة فى الدنيا وللحكماء دراسة بهجة جميلة . فهكذا التسبيح هو للجاهل عبادة تشرح الصدر وللحكيم حث على العلم والحكمة [مثال ذلك] أن ينظر فى جسم الانسان مثل ما تقدم فى سور كثيرة ، ومثل ما ستراه فى (سورة فاطر) كما أنبأتك فى أول هذا المقال إذ قلت لك إنى سأفصل عجائب الجسم الداخلية هناك .

فسترى هناك الدورة التنفسية مرسومة ، ومثلها الدورة الدموية . ثم أعصاب الحس والحركة . وتعجب جد العجب من (غدد) جمع غدة موضوعة فى الفم وهى ست وأخرى فى المعدة وغيرها فى الأمعاء وتدهش أيها الذكى من هـذه الجنود المجندة التى تقف فى طريق الغذاء معدة لاصلاحه مخرجات من خزائنها تلك السوائل الموزعات على أنواع الطعام ، فمنها ما أعد لإذابة المواد النشوية والسكرية كالتى فى الفم ، ومنها ما أعد لاذابة المواد اللحمية أو المواد الدهنية أو المواد الأوزوتية كالتى فى المعدة والأمعاء ، وسترى إيضاحه هناك مع هذه المادة التى يسمونها (الكيموس) أولا ثم تصير كيلوسا بعد ذلك وهى مادة أرق وألطف من الأولى ، فتراها تنتقل من حال إلى حال وتجد لهـا هناك نوعين من العروق . فالنوع الأول عروق تأخذ السائل الدموى أى الذى استحال من الحال الأخيرة وهى الكيلوس إلى الحال الجديدة وهى الدم ، فترى هـذه العروق هناك تحت الغشاء المخاطى فى الأمعاء فتجتذب تلك المادة اللطيفة المستخرجة من الطعام ، وتأتى عروق أخرى فتجتذب السائل المستخلص من الدهن فيكون هناك دورتان : دورة دموية ، ودورة ليمفاوية والثانية تشابه الأولى بعض المشابهة من حيث تفرغ عروقها فى الجسم . ولا أشبه الدورة الليمفاوية إلا بقلاع الجنود وثكنات العساكر ، والمادة التى فيها ليست حمراء ولا فرق بينها وبين الدم إلا أن هذه

ليست فيها كرات حمراء بل تخلق فيها الكرات البيضاء التي تدخل مع السائل الليمفاوى إلى الدورة الدموية، وهذه الكرات البيضاء هي الجنود التي أعدت لمساعدة الكرات الحمراء في الدم التي لونت باللون الأحمر باجتماعهما معا يحاربان الجيوش الجرارة الداخلات على جسم الإنسان والحيوان من الخارج لإحداث الجدرى والحصباء والطاعون وأنواع الحميات المختلفات، إذن دهن السمسم وزيت الزيتون وزيت بزر القطن والكتان والقرطم وشحم الحيوان . كل هذه أعدت لخلق هذه الكرات البيضاء المحاربات لأعدائنا الداخلات في أجسامنا فإذا كنت منذ أيام قد توجهت إلى بلدة (الخانكا) من أعمال مديرية القليوبية وشاهدت الآلة الطاحنة للسمسم وهي آلة بخارية وبها يعصر الزيت وهكذا أمثالها في غيره . فهذا معناه أن هذه الآلات البخارية الفاصلات بين العجينة المسماة (الكسب) والمواد الزيتية التي يأكلها الناس مساعدات لنا على حفظ حياتنا من حيث إن هذا الزيت وأمثاله هو الساعد على خلق الكرات البيضاء في الدم المهلكات للجيوش القاتلات لنا بالأمراض المختلفات . فياسبحان الله . شمس تشرق على الأرض ، وحب يبذر فيها، وماء ينزل عليها . وذلك الحب ينبت فيصير حبا مثل الأول وهو السمسم . ثم تتلقاه تلك الآلات العاصرة فيكون زيتا . لم هذا كله ؟ ليكون لنا حافظا إذ تأكله الكرات البيضاء التي جعل لها في أجسامنا عروق لمفاوية سيأتي شرحها وما هي إلا ثكنات عسكرية . ياسبحان الله : أيكون في أجسامنا ثكنات كثكنات الجنود التي تحمل البنادق والمدافع والغازات الخانقة لتقتل الأعداء . أهذا الزيت المستخرج من السمسم أمامي معد لثكنات العسكر في جسمي .

الله أكبر . هذا معنى « وسبحوه بكرة وأصيلا » انتهى الكلام على الفصل الثاني والحمد لله رب العالمين

﴿ الفصل الثالث: في قوله تعالى « هو الذي يصلي عليكم وملائكته » إلى قوله :
« وكان بالمؤمنين رحيما » ﴾

ولا جرم أن هذا الفصل مرتب على ماقبله . إن صلاة الله رحمة . وصلاة الملائكة استغفار . وقد أبان الرحمة بقوله « ليخرجكم من الظلمات إلى النور » وصرح بها بقوله « وكان بالمؤمنين رحيما » .

ذكر المسلم ربه كثيرا فأحبه بذكره الكثير كما نرى بني آدم يجعلون نظام الجند بتسليم رجالهم على ضباطهم وبتلبيتهم نداءهم واصطفافهم وقوفا أمامهم وتمرينهم على ذلك وعلى كثرة التعظيم لهم من موجبات انتظام الجيش وحسن تدريبه لما يحصل من الآثار بهذه الأقوال والأفعال في الأنفس . ونرى الملوك يزور بعضهم بعضا فترفع أعلام الدولتين متجاورات كما اتفق لملك البلجيك أيام طبع هذه السورة في شهر مارس سنة ١٩٣٠ م فيحدث ذلك في نفوس الأمتين مودة .

فهذا ضرب مثل دنيوى لذكر الله عز وجل وآثاره في النفوس . وهذا الذكر كما تقدم له حارس وهو التسبيح لتنزيه المذكور عن خلق العالم عبثا لعدم قدرتنا على إدراك جميع الحقائق . وهذا وذاك لايتمان إلا برحمة الله ولذلك قال « هو الذي يصلي عليكم » الخ. فرحمة الله هنا جلبت لنا منفعة الذكر وصرفت عنا الشكوك والأوهام المهوشات على ذلك . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل: الرابع في التحية والسلام ﴾ .

وهل بقي بعد ذلك إلا التحية والسلام ؟ وبيانه أن الإنسان لاسعادة له حقيقة إلا بأمر واحد كما اتضح سابقا في مواضع وهو الثقة الحقة بنظام هذه الدنيا وبأن كل ماصنع في هذا العالم إنما هو خير أو آيل للخير وهذا لن يتم وثق به الإنسان يقينا إلا بالاطلاع على العجائب دواما كالتي ذكرنا في الفصل الثاني من عجائب جسم الإنسان ، وهنالك يحس الإنسان بالأمان والسلام في نفسه في الدنيا والآخرة ، ذلك لأنه إذا حصل

ماذكرناه فى الفصل الثانى وزاد على ذلك أن ينظر فى الدائرة العصبية فإنه يرى أمرا عجبا ؟ يرى مثلا أن هناك غدتين فى الدماغ وغدتين بجانبي العينين . فالأولان لتنظم أحوال الجسم والآخران لإفراز الماء اللح الذى يحفظ العين لئلا تتلف ويرى غدة فى الرقبة وأخرى تسمى (التيموسية) وأخريين فوق الكليتين ، ويرى الأنثيين فى الرجل والمبيضين فى الأنثى ، وهناك يعجب جدا من أن بعض هذه الغدد لو أزيل لم يتميز الذكر من الأنثى فى المظاهر كشعر اللحية فى الرجل وانسجام عظام الصدر فى المرأة وكحفظ اللون ، فإن بعض الغدد لو أزيل لصار لونها كلون البرنز أو النحاس ، وبعض الغدد بإزالته تكبر العظام جدا فتصير كالنخلة والعين كالبطيخة ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان تشنج واختلال عقل ، وبعضها لو أزيل لحصل للانسان البول السكرى أو غيره من الأمراض كما سيأتى تفصيله فى [سورة فاطر] .

هذا هو العلم الموجب لليقين الذى يعرفنا تنزيه الله وتسبيحه ، وهو الذى يعرفنا تناهيه فى الرحمة والعناية بنا وبغيرنا وهناك نحس بالسلامة فى الدنيا والآخرة . هذا هو قول المسلم « التحيات لله » فهو يحيي الله أولا ثم يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له مناديا : يأيها النبى إن الله آمنك فأنت عليم برحمته الواسعة وأيقنت بذلك، ومن أيقن بالرحمة فلن يصاب بعذاب . ثم يقول السلام علينا ويعمم عباد الله الصالحين فى الأرض وفى السماء . وفى الحقيقة إن الوجود منحصر فى الموجودات المدركة فأما هذه العوالم فهى كلها كما ظهر فى هذا التفسير أضواء متحركات تبدت لحواسنا على هذا المنهج المشاهد .

المسلمون يسلم بعضهم على بعض . ويسلمون فى الصلاة على كل صالح . ويسلمون فى آخر كل صلاة فإن كانوا دارسين لعجائب الحكم الإلهية كما فى هذا التفسير الذى تكفى دراسته كل عاقل فى الأرض فإنهم فلا يكونون قد أمنوا العذاب من الآن على سبيل الرجاء وإن كانوا مؤمنين ليسوا من المطلعين على العجائب أو اطلعوا عليها وهم لايعقلون جمالها كبعض علماء التشريح وعلماء الطب إذا كان معلومهم غافلين عن الابداع فى التركيب مثلا ، فالسلام لم يعط إلا بمجرد العبادة ولهم عليها ثواب مؤجل .

ومن هذا القبيل أنك تسمع الناس يقولون عند التعزية : لاأراك الله سوءا ، فهذا مستحيل فى الظاهر ولكن فى الحقيقة لاسوء لأن مصائب الناس سبب فى إسعادهم بل هى سلالم ارتقائهم والموت من منازل ارتقائهم . فهم يقولون فى العيد : أبقاك الله لكل عيد ، أو : جعل الله جميع أعيادك سعادة ، وكل هذه أدعية مطابقة للحقيقة لأن الناس لايفنون بالموت بل هم أحياء . إذن السلام والأمان موجودان وإن حجب عنهما الناس . والأولون ثوابهم معجل لأنهم شاهدوا جمال الصانع بمجرد مشاهدة جمال الصنعة وعقلوا حكمة الحكيم فى مظاهر حكمته وذكروه عند مشاهدة بدائعه وصار ذلك سجية لهم . فهؤلاء فى الدنيا سعداء فما بالك بهم بعد الموت ؟ هذه أقصى سعادة لأهل الجنة . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة . كتب صباح يوم الأحد (٢٣) مارس سنة ١٩٣٠ م .

اللطيفة الرابعة

(سر من أسرار التنزيل قد أظهره الله فى أيامنا هذه بالعلوم الطبيعية مع موازنتها بحوادث التاريخ فى تفسير قوله تعالى « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا »)

جاء فى آية أخرى « وجعل الشمس سراجا » وهنا يشبه صلى الله عليه وسلم بالسراج . إذن هو شمس وهذا كلام الله عز وجل . فاذا سمعنا النابغة يقول للنعمان :

كأنك شمس والملوك كواكب   إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

فانا نقول هذا تشبيه لم يكن له أثر فى الوجود . ولا جرم أن أعذب الشعر أكذبه وهذا مستفيض فان الأدب فى جميع اللغات إنما تكون نتائجه الانقباض والانبساط، وعلى مقدار تباعد القول عن الحقيقة بالباسه لباس الخيال يكون أوقع فى النفس . إن نفوسنا المحبوسة فى هذه الأجسام تريد أن تنال الحرية ولو فى خيالها فتفرح بأنواع التشبيه والمجاز والكناية . تفرح أن تسمع قول القائل :

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

فهذا خفض قوم بعد الرفعة بمجرد هذا التخيل . وقول القائل فى بنى أنف الناقة :

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

وتفرح بقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

فمجرد هذا التخيل من بشار رفعه على امرىء القيس القائل يصف عقابا:

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

هذه صورة آثار التشبيه عند العرب . فهل قول الله عز وجل « وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا » كقول النابغة : كأنك شمس الخ ؟ تنظر فى آثار النعمان فلا نجد له أثرا يشبه آثار الشمس . إن الشمس آثارا نراها وهى معروفة عند أهل الشرق والغرب . فهل هكذا آثار النعمان . كلا . ثم كلا . إن التشبيه والاستعارة والمجاز والكنايات كلها ترجع إلى أمر خيالى . وكلما كان الخيال أكذب كان أعذب . هذا هو اصطلاح علماء اللغة العربية ولذلك تجد الشاعر أيام مجد الأمة العربية كالمتنبي وأبى تمام والبحترى وأضرابهم لا يبتدئون القصيدة إلا بالغزل ويصفون فتاة بالجمال والحسن وأنهم هاموا صبابة ووجدا وغراما والسامع يعلم أن كل ما يقوله مكذوب ورواة القصائد جميعا يعلمون ذلك . إذن التشبيه وجميع أنواع التخيل التى فصلت فى علم المعانى ليست تراد بها الحقائق وقد جعل هذا فى علم المنطق ركنا من أركان مادة البرهان الخمسة وجعل هذا الخامس مقصودا لإحداث الاشمئزاز أو المسرة والقائل والسامع شريكان فى العلم بكذبه . إذن لننظر فى هذه الآية . ما آثارها فى الوجود ؟ وما مناسبة النبوة لآثار الشمس ؟ لتدرس الشمس من علم الطبيعة وآثارها فى الأرض . لنمثل هذا المقام برجل ماهر فى اللعب أراد إظهار براعته فوقف فى مكان متسع وقسمه (١٨٠) قسما وعلم الأقسام بعلامات وذلك فى أرض العباسية بمصر ثم وقف فى وسطها بحيث يكون (٩٠) عن اليمين و (٩٠) عن الشمال وكل (٩٠) قسمها ثلاثة أقسام بحيث يكون القسم الذى يليه من كل منهما يبعد بنحو (٢٥) درجة عن موقفه والقسم الذى عند النهايتين قريب من هذا فى اتساعه فيكون مكان اللعب من ناحيتين (٦) أقسام ثلاثة عشرة يمينه وثلاثة عشرة شماله، فلما رتب هذه الأقسام قال مخاطبا الواقفين [أيها الناس أنا سألعب لعبة تدهشكم ولا تقدرون أن تأتوا بمثلها فقالوا وما هى ؟ قال أرمى بكرتين من يدى اليمنى واليسرى [أولا] تذهب إحداهما إلى الشمال وثانيتهما إلى الجنوب ولا تقفان إلا عند نهاية القسم الأول من كل ناحية بحيث لا يحصل خطأ منى مدة حياتى [ثانيا] متى وصلت الكرتان فى الجهتين تنقسم كل منهما إلى قطعتين قطعة ترجع إلى أسفل وقطعة تذهب إلى القسم الثالث من الجهتين ، ومتى وصلت هاتان القطعتان إلى القسم الثالث يرسل رجلان واقفان على آخر الملعب من الجهتين كرتين أخريين فيرميان بهما فيحلان محل هاتين القطعتين المرتفعتين فى القسمين المذكورين وهذه الحركات متصلات متطابقات] فاذا رأينا لاعبا فعل هذا فانه لا محالة يدهشنا لأننا نرى كثيرا من الناس يلعبون لعبة (البلياردو) والمدار فيها على أن الكرة المضروبة بالعصا تصيب كرة أخرى بشروط خاصة ، فهناك يحكم للاعب أو عليه ، أما هذا اللاعب فان حركاته متى صدق فيها تكون من أدهش اللعب الذى لا يأتى الزمان بمثله .

. هذا المثل الذى ضربته تقريب لما ستراه، فالملعب المقسم (١٨٠) قسما هو نصف الكرة التى نحن فيه ووسطه خط الاستواء ، فالشمس مثلنا لها باللاعب وحرارتها مسلطة على خط الاستواء والرياح تخف هناك فترتفع كما يرتفع الهواء فى منازلنا بسبب الحرارة فى تنانيرنا ، ومتى خف هواء منازلنا هبت رياح شديدة من أبواب تلك المنازل داخلة على ساحاتها مع أن الجو فى جميع القرية وما حولها ساكن هادئ ولا رياح إلاهنا لأجل الحرارة .

فهذا المثال الصغير هو الذى يحصل بسبب الشمس ، فهى تجعل الريح عند خط الاستواء يخف فيرتفع فيذهب إلى الجنوب والشمال وهو الذى مثلنا له بالكرتين ، ومتى وصل هذان التياران إلى نحو نيف و ٢٠ درجة من الجانبين ، قلت الحرارة الرافعة للهواء فأرادا النزول إلى الأرض كما تنزل الطيارة إذا قل ما فيها من (البنزين) هناك ينزلان فى تلك المسافة فيقابلان سطح الأرض فتقابلهما حرارتها فيرتفع كل منهما كرة أخرى إلى أعلى ثانيا وهو قسمان، كما أن الكرة المتقدمة ارتفعت وهى مقسمة قسمين فيرجع قسم منه إلى خط الاستواء ليحل محل ما ارتفع هناك من الهواء بخفته وقسم يذهب إلى الدائرة القطبية من الجانبين ، ومتى وصل هناك وقابل وجه الأرض خف ثانيا بسبب الحرارة فيرتفع وهناك يحل محله رياح تأتى من القطبين وهو الذى عبر عنه باللاعب فى آخر الملعب من الناحيتين والرياح التى من جهة القطبين إنما أتت لتحل محل الرياح الصاعدة فى الدائرتين المتقدمتين .

هذه حال الشمس والهواء والبرد والحرارة ، اللهم إن الحرارة والبرودة جنديان سائقان لهذه العوالم وكرة الهواء حولنا هى ميدان العمل ، فما هى حياتنا يا ربنا ؟ حياتنا راجعة لتدبير محكم لو كشف لنا لاحترقت قلوبنا من الحب والدهش ، أمور بديعة ، ما هذه الأعاجيب ؟ شمس وحرارة منها سلطت على خط الاستواء فجرت الرياح فقابلت الأرض حوالى دائرتى الجدى والسرطان فقابلتها الحرارة فارتفعت ثانيا ثم وقعت عند الدائرتين القطبيتين وحلت محلها رياح أخرى ، ثم إن هذه الحركات لامقطوعة ولا ممنوعة .

إن الهواء ساعة وسلكها الذى هو (الزمبلك) هى الشمس . وهذه الساعة لاتفتأ تدور ليلا ونهارا والناس غافلون تائهون . الناس جميعا بالله يعيشون ودواليب هذه الساعة تجرى فوقهم وتحتهم وهم يعيشون فيها وغاية الأمر أنك أنت علمتهم صناعات ليعيشوا بها وما هى إلا ضرب مثل لهذه العجائب المحيطة بهم ومن أجلها حرارة الشمس وتأثيرها فى الهواء الذى لولاه لم تكن هذه الحركات فيه ولم يكن سحاب ولا مطر ولا أنهار ولاحيوان ولا إنسان ولا علماء ، فلو أن هذا اللاعب فى المثال المتقدم زاد على ماقاله فقال إن هذه الحركات يستنتج منها مخلوقات حية وغير حية لكان هذا من أعجب العجب (انظر شكل ١ فى الصفحة التالية) .

شكل



(شكل ١ ـ نقلا من الأطلس الحديث)

إنما رسمت هذا الشكل لك أيها الذكى لتزيد فهمك بهذا الموضوع وما هو ؟ هو المشبه به فى الآية لأنه صلى الله تعالى عليه وسلم سراج بنفس الآية والسراج يطلق على الشمس ، فنريد أن نبين آثار الشمس العامة ثم نتبعه بآثار الإسلام والقرآن فى الأرض ، ثم نبين آثار أعاظم الفلاسفة فعلا فى أرضنا ، وهناك تفقه تفهم أن قول الله هنا «وسراجا منيرا» ليس كقول شعراء العرب فى الجزيرة وفى البوادى للنعمان بن المنذر :

﴿ كأنك شمس والملوك كواكب ﴾

إن حرارة الشمس تقع على خط الاستواء فيرتفع الهواء نحو (٢٠) ميلا، ومعلوم أن الحرارة تمدد الأجسام فتخف كما قدمت لك، ومتى ارتفع الهواء بسبب الخفة تحل محله رياح من الشمال والجنوب ثم هو يتأثر بالحرارة ثانيا ويرتفع وهكذا ، فترى الرياح المرتفعات عند خط الاستواء تجرى إلى الجهتين ورياح أخرى تجرى من تحتها من الناحيتين إلى خط الاستواء فهى دائرة دائما أبدا . وهذه أشبه شىء بالدولاب يجرى ليلا ونهارا وكالنجوم والشمس والقمر ، والتى تهب إلى خط الاستواء من الناحيتين تسمى الرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، والرياح المرتفعة إلى الشمال والجنوب تسمى الرياح التجارية الضدية ، والرياح الآتية من القطبين

تسمى بالرياح القطبية . فهنا رياح تجرى من القطبين ورياح تجرى من خط الاستواء ورياح تجرى من بعد مخصوص إلى خط الاستواء وإلى الدائرتين القطبيتين . هذا هو التدبير والنظام البديع .

يقول الله هنا «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا» .

ها أنت ذا أيها الذكي عرفت المشبه به وهو الشمس وعرفت آثارها وأنها بحرارتها حركت هواء نافارتفع ثم انخفض ثم ارتفع ثم انخفض ثم ارتفع وهو فى ذلك دولاب يجرى والمحرك للدولاب هى الشمس .

الله أكبر . ماذا كانت نتيجة هذه الحركات والدواليب الدائرات نتائجها بديعة وجميلة ، نتائجها سحاب يجرى بجرى الرياح والسحاب أتى بآثار الحرارة فى الماء ، فالحرارة أثارت الرياح من البحار والحرارة أثارت الهواء . فهذان الأثران يلتقيان ويتعانقان وهما أخوان البخار والهواء الجارى كلاهما بسبب الحرارة فتراهما يتعانقان ويحمل أحدهما وهو الهواء أخاه وهو البخار ويجرى به ، لماذا يجرى به ؟ ليسق الأرض فيكون الزرع وكل حى ، عجيب جدا ، حرارة تنبعث منها حركتان . حركة لتيار يؤخذ من الهواء وحركة البخار من الماء ، فيجرى هذان الطائران ويلتقيان ويحمل أقواهما وهو الهواء أخاه وهو البخار الذى صار سحابا فيمطر على الأرض فتكون الأنهار والزروع والثمار والحيوان ، المشبه به جميل جداً بهى حسن . فماذا تقول فى المشبه وهو النبى صلى الله عليه وسلم .

﴿ الكلام على آثار النبوة وهى المشبهة بالشمس ﴾

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صاحبى فقرأ ما كتبته الآن فقال : إن ما كتبته الآن قد تقدم فى هذا التفسير . أفلا يكون هذا تكرارا ؟ مسألة الرياح القطبية . والرياح التجارية المنتظمة ، والرياح التجارية الضدية . كل هذا قد تقدم فى هذا التفسير وأزيد على ما ذكرت هنا الرياح الموسمية ، ذلك أن الأرض تتأثر بالحرارة أكثر من الماء فيصعد الهواء من فوقها إلى الجو والماء طبعا محيط بالقارة فيجىء الهواء الذى فوق البحار ليحل محل الهواء المرتفع فيحمل البخار فيكون المطر على السواحل فتكون إذن حرارة الصيف فى القارة سببا لارتفاع الهواء وحلول هواء البحار محل الهواء المرتفع وقد حمل معه البخار فكانت الحياة فيحصل المطر صيفا على الشواطئ كالذى يحصل فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى وبهذه تعيش أمم وأمم . وهذه هى الرياح الموسمية ، أما فى الشتاء فإن الهواء يخرج من وسط القارة إلى البحار لأنها إذ ذاك تكون أدفأ من الأرض ، وهذه الرياح تهب ستة أشهر إلى جهة وتهب بالعكس ستة أشهر أخرى وهى فى ذلك كنسيم البر والبحر فإن النسيم عند شواطئ البحار بالليل يهب من البحر إلى البر ويسمونه نسيم البر . لماذا ؟ لأن الأرض أسرع برودة من الماء وفى النهار يهب الهواء من البحر إلى البر ويسمى نسيم البحر لأن الأرض أسرع حرارة فيرتفع هواؤها ويحل محله الهواء الذى فوق الماء فتتم هناك دائرة كالدوائر الحاصلة من الرياح الموسمية والرياح التجارية ونحوها . ثم قال : هذا القول منك تكرار لما تقدم . فقلت . كلا بل يجب إيضاحها (لسببين : السبب الأول) إن كثيرا من الأذكياء لم يتصوروا ما كتبته سابقا حق تصوره لذلك رسمت هذا الرسم حتى يعرفوا الحقيقة العلمية التى نعيش بنظامها ، فإعادة القول هنا ليعقلها من صعبت عليه هناك ، والرسم هنا لم يكن له نظير فيما تقدم ، وأيضا هذا لزيادة التثبيت وتذكير بجمال الله وإبداعه وحسن صنعته وجماله وإن لم يكن التذكير تدوم الغفلة ، ومعلوم أن الله يكرر القصة على أنحاء شتى فى القرآن ليكون ذلك أدعى للاعتبار والحكمة إذ فى كل مرة تظهر حكم ليست فى غيرها ، فهنا لابد من ذلك (السبب الثانى) فى أننا هنا نريد أن نفهم الحكمة فى جعله ﷺ سراجا منيرا ، ولسنا نعرف المشبه إلا بعد إدراك المشبه به فإذا لم نفصل الكلام

فيه لم ندرك المشبه بقدر طاقتنا ، فإذا فصلنا الكلام في المشبه به هنالك ندرك المشبه ، ولا جرم أن هذا من التشبيه المركب ، وأعظم التشبيه المركب ماقاله بشار وفخر به وهو :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا .... الخ

فالتشبيه المركب الذي قاله محصله أن غبار الحرب المحيط بالشجعان تتخلله السيوف اللوامع ذاهبات آيبات مرتفعات منخفضات . مشبه هذا كله بليل داج حالك تساقطت فيه الشهب من السماء . تتخلل أكنافه لامعات متقابلات كثيرة الحركات .

هذا أعظم تشبيه عند العرب كما يقول علماء البيان. فلولم نعرف المشبه به هنا لم يمكننا إدراك المشبه . فقال: حسن هذا ولكن المقام هنا صعب كيف نصل إلى أن يكون النبي ﷺ كالشمس في هذه الحركات . فقلت إن الله شبه القرآن بالصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق . فهذا التشبيه المركب أرقى من تشبيه بشار المتقدم ألا ترى أن القرآن شبه بالمطر وهو الصيب . والوعيد في القرآن شبه بالرعد . والبرق شبه بالحجج . ومن يعرض عن سماع الوعيد يشبه بمن يضع أصبعه فى أذنه خوفاً من الرعد ، ومن يسمع الحجج فى القرآن ثم يعرض عنها كمن يمشى فى البرق وإذا أظلم وقف ولم يتحرك . فهذا التشبيه المركب أوسع نطاقاً من تشبيه بشار . وقد تقدم هذا فى (سورة البقرة) .

هنالك قال صاحبي : « أسمع جعجعة ولا أرى طحنا » . ماذا أفدتنا بهذا التشبيه ؟ أنا أعترض عليك من (وجهين : الأول) إن الآية هنا أنه ﷺ سراج منير . ولكن أنت تذكر أن القرآن مشبه بالمطر ورجعت فى قولك إلى ماذكرته أنت فى أول البقرة (الوجه الثانى) إن أول كلامك أفهمنا أنك ستظهر لنا سرا مصونا من تاريخ النبوة يشبه ذلك السر المصون الذى ظهر فى الشمس لأنها بحرارتها وحدها كانت منها الرياح الموسمية ونسيم البر والبحر والرياح الاستوائية والرياح التجارية المنتظمة والرياح الضدية والرياح القطبية . وكل هذه حاملات سحبا وسفنا ونعما . فأنت لم تأت لنا بهيئة فى النبوة تناسب المشبه به، وغاية الأمر أنك رجعت إلى علم التشبيه الذى أنت نهيت عن الوقوف عنده لأنه أمر لفظى . والأمم الإسلامية الآن قد عرفت من آثار النبوة مالم يكن فيما مضى فى الزمان الأول . وقد نقلت أنت عن العلامة السيوطى فى كتابه « الاتقان فى علوم القرآن» فى (سورة العنكبوت) أن الأنبياء كانت معجزاتهم كلها حسية . أما معجزته ﷺ فهى راجعة إلى ماسيظهر فى القرآن للأمم والأجيال من المعانى التى تتجدد بتجدد الأمم والأجيال. وملخص اعتراضى (أمران) أنك لم تذكر النبى ﷺ فى التشبيه بل ذكرت القرآن . وأنك لم تأت بما كنا نترقبه . فقلت له : أليس عندك اعتراض بعد هذا ؟ فقال لا. فقلت من عجب أنك فى هذا الاعتراض أشبه بهؤلاء الذين يقال إنهم يقرءون الأفكار .

إن كل ماقلته هو الذى ستسمعه وغاية الأمر أنى أتيت بهذا التشبيه مقدمة فقط للجواب الشافى ، فلو أنك صبرت على لوجدت الجواب على النحو الذى ترضاه فقال :

أنعم برد جواب ما أنا سائل عنه فنار العلم ذات تشعشع

فقلت إن النبى صلى الله عليه وسلم فى جزيرة العرب وهناك أرسل الجيوش هو وأبو بكر وعمر وبقية الخلفاء إلى أطراف جزيرة العرب والفرس ومصر وبلاد المغرب والأندلس والسودان وهكذا فى جهة الشرق إلى بلاد الهند والصين ، فهذه الجيوش كالرياح والقرآن معها كالسحاب ، فاذا كانت الشمس أرسلت بحرارتها رياحا فى الهواء عند خط الاستواء ، وكانت لها فروع وفروع وكانت الرياح الموسمية ونسيم البر ونسيم البحر وهكذا وحملت تلك الرياح السحب فأمطرت الأرض ، هكذا هذه الجيوش الجرارة المجاهدة والعلماء والفقهاء والحكماء الاسلاميون فهؤلاء كلهم هم رياح مختلفة الأشكال يسمون بأسماء مختلفة ، وهؤلاء يحملون السحاب ، فالقرآن منزل عليه

صلى الله عليه وسلم والجهاد بتعاليمه . ثم إن الدين انتشر بالدعاية ، فلننظر إلى رياح الجهاد الواصلة إلى الأندلس لنجعلها مثالا لنا لنستدل على الباقى ، أليس الاسلام بقى فى الأندلس (٨٠٠) سنة ؟ أليس هو كالرياح التى وصلت إلى أحد المدارين (الجدى والسرطان) وقد قلنا إن الرياح هنالك انقسمت قسمين قسم رجع إلى خط الاستواء ، وقسم ذهب إلى الدائرة القطبية ، فانظر الشكل السابق ؛ هكذا السحب الاسلامية التى وصلت مع رياح الجهاد إلى الأندلس قابلها القوم أيام (ابن رشد) بحرارة التعصب ضد العلم لأن العلم عند هؤلاء قد اعتقدوا أنه ينافى الدين فارتفع عنهم إلى أهل أوروبا وأخذ يرقى القوم وقد نام المسلمون إذ ذاك نوما عميقا . ولأذكرك عسألة وهى أن القرب العالمين لارب المسلمين وحدهم ، وإذا خلق الشمس لم يخلقها للمسلمين وحدهم بل خلقها لأمم ولكواكب كثيرة إذن نبينا صلى الله عليه وسلم جاء لإيقاظ أهل الأرض مهما كانت نحلهم وأديانهم كما أن الشمس لأهل الأرض جميعا لأن الله رحيم ورسوله رحمة للعالمين .

إذا فهمت هذا عرفت السر فى أن أوروبا لما أخذت علم (ابن رشد) كما عرفته فى غير هذا المكان قامت من رقدتها وهنالك حصلت هناك شعبتان شعبة توجهت إلى أمريكا فى أيام اضطهاد المسلمين للعلم ففتحت أمريكا وشعبة رجعت إلى الشرق بالحروب الأوروبية ، فها نحن أولاء نرى أهل أوروبا لما أيقظتهم الحروب الصليبية التى تشبه من كل وجه الرياح التى تأتى من المدارين إلى خط الاستواء رجعوا إلى بلادهم ووجهوا همهم إلى أمريكا من جهة وإلى أمم الإسلام والشرق من جهة أخرى . فهم فتحوا أمريكا فارتقت وهم جاءوا بلادنا يحاربوننا ومعهم تلك العلوم التى تصرفوا فيها وارقوها بعد أن أخذوها من آبائنا . أليس هذا بعينه هو الحاصل من الشمس ؟ شمس تشرق على خط الاستواء فتثير الرياح فتصل إلى مدارى (الجدى والسرطان) فتكون هناك ريحان : إحداهما تتجه إلى خط الاستواء . والأخرى تتجه إلى جهة ضدها . فهنا كذلك اتجه الاسلام إلى بلاد الأندلس ، ولما استقر هناك العلم مدة كره المسلمون العلم فحمله اليهود إلى أوروبا فدهشت من هذه التعاليم فأخذت ترتقى ، وتوجه منها قوم إلى أمريكا وطردوا المسلمين من بلادهم لأنهم جهلوا العلم والدين ، وها هم أولاء يجرون وراءهم فى شمال أفريقيا وفى آسيا . فهذا نفسه هو الذى حصل فى الرياح بحرارة الشمس إذ توجه منها تياران مختلفان لما وصلت الرياح إلى المدارين . فهكذا هنا تياران مختلفان . فأما أمريكا فقد ارتقت وبقى أمر أمم الإسلام فهذا دورهم ولا عيب علينا فى ذلك فان الرياح الجارية من خط الاستواء تحل محلها الرياح الآتية من المدارين . وإذا كان هذا طبيعة ملك الله فلنسر على نظامه ولنعلم أن هذا هو وقتنا وأيام رقينا ، وما مثل هذه الأمم الإسلامية مع دينها إلا كمثل أرض نزل عليها الغيث فأنبتت نباتا حسنا ولكن تركت بركا ومستنقعات هنا وهناك لعدم المصلحين للأرض وهذه البرك أخذت تكثر وتزداد على مدى الأيام فبعد أن كانت الأرض أخذت زخرفها وازينت أصبحت كلها حشائش ومياها مرة قذرة وأرضا مستوخمة كثرت فيها الأمراض والجدرى والحصباء بجهل أصحابها .

هذه حال المسلمين لما نسوا الشمس المحمدية وناموا على كلام شيوخهم المتفرقين وظن كل شيخ طريقة أو عالم مذهب من مذاهب الإسلام أن الدين هو مايعرفه وما عداه لايجب عليه ولا على الناس صار الناس كأنهم فى مستنقعات وبرك ، ولذلك ترى المبتدعين والخارجين وأصحاب المذاهب السقيمة كثروا فى الإسلام فهؤلاء كالماء الراكد أضروا بتلاميذهم وحجبوهم عن العلم فذلوا ، وكما أن الشمس تطهر الأرض هكذا النور المحمدى بالرجوع إليه يستيقظ المسلمون .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا حسن ، ولكن من المسلمين من منع عنهم المستعمرون العلم . فقلت ولكن لايمنعون القرآن ولا هذا التفسير ، وهذا التفسير وأمثاله فى أمم الإسلام كثير منه يفهمه كثير من العقلاء وإن لم يكونوا متعلمين العلوم الحديثة ، وهل للمسلمين عذر بعد الآن ؟ .

فأما أيها الذكى مذهبك الذى تعلمته فى الصبا ، فليس يناقض هذا التفسير لأن المذاهب كلها فى أمور عملية جزئية وهذا فى الأمور العامة ، ومنه تظهر لك بعض أنوار الشمس المحمدية التى بها تعرف أن وقوف المسلمين فى هذه البرك والمستنقعات المملوءة من الحيوانات الذرية الفكرية الضارة بالمسلمين هلاك لهم وهم أجدر بالسعادة والرقى من جميع أمم الأرض .

فقال صاحبى : الآن فهمت ولكن أين موازنة نبينا صلى الله عليه وسلم بأعاظم الفلاسفة . فقلت إن أفلاطون ألف جمهوريته وهى أعظم كتاب ألفه عالم فى الأرض كلها ، وهذا الكتاب علم عرف الأمم كيف تنظم الحكومات والجند والعامة وما الذى يرقيها ، وما الذى يخفضها ، وتقدم تلخيصها فى هذا التفسير ومع ذلك لم نجد لهذا الفيلسوف دولة ، بل إنه مع شهرة كتابه الآن وانتفاع الأمم به لم يحدث جزءا مما أحدثه هذا النبى العربى الذى استحق بمقتضى التاريخ ونتائج أعماله أن يسمى « سراجا منيرا » لأنه حرك الكرة الأرضية كلها حتى إن الحركة وصلت إلى اليابان والصين ، فاليابان ما حركها إلا تعاليم أوروبا والصين كذلك ، لحركات الاصلاح تتجه شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بسبب الحركة الإسلامية . إذن هو صلى الله عليه وسلم شمس منير حقا وبه ارتقت أوروبا وأمريكا واليابان والصين والمسلمون الحاليون الذين جنى عليهم جهل آبائهم المتأخرين سيأخذون دورهم فى الرقى وتهب رياح سعدهم إلى الأمم كرة أخرى تحمل لهم علما غزيرا .

فقال صاحبى : إن هذا البيان عجيب وأنا أحمد الله عليه . فقلت الحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٨ ديسمبر سنة ١٩٢٦ م

***

﴿ زيادة إيضاح فى بعض أسرار قوله تعالى « يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا » ﴾

لقد تم الكلام على تفسير هذه الآية وإيضاحها ولكن لابد من إيفاء المقام حقه من حيث العمل بعد العلم فى بلاد الإسلام . لاجرم أن ضوء الشمس له منافع جمة فى علم الطب . ولقد أكثر الأطباء من تعداد منافع التعرض للهواء والشمس نابذين تعاطى الأدوية من الصيدليات فى أنحاء العالم . ومعنى هذا أن الأطباء فى العالم اليوم رجعوا فعلا إلى منافع ضوء الشمس والهواء والتداوى بما هو طبيعى وهاهم أولاء ينكرون كل الإنكار مازاوله الأطباء غالبا من المداواة بالعقاقير المشهورة ويقولون إنها تحدث أمراضا وأمراضا . وهذا القول نقلته فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » وهكذا ترى كثيرا منه (سورة الأعراف) عند آية « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفى (سورة الحجر) فى أوائلها عند الإشارة إلى قصة آدم وفى (سورة طه) عند قصة آدم أيضا وفى (سورة الشعراء) عند آية « وإذا مرضت فهو يشفين » .

فترى فى هذه المواضع مايغنيك فى علم الطب ويرجعك إلى المعالجة الطبيعية ومن أهمها ضوء الشمس . هذا فى شمس السماء وهى المشبه بها ، أما المشبه فى الآية وهو رسولنا صلى الله عليه وسلم فاننا نريد أن نعرف لماذا كان هذا التشبيه وما فائدته لنا معاشر المسلمين الآن بطريق أجلى بحيث نعرف من هذا التشبيه ماعرفه الأطباء فى علمهم ، فاذا كان الأطباء رجعوا إلى ضوء الشمس ونحوه فى طبهم وهم مصيبون فهل أمراض المسلمين الاجتماعية يكون الشفاء منها بنفس هذا التشبيه وبقوله تعالى « وسراجا منيرا » هذا ماأريد بحثه اليوم فأقول : اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا على نعمة العلم وبهجة الحكمة . اللهم إنك أنت الذى أعنت ووفقت

وشرحت الصدر ودبرت الأمر ووعدت ونصرت وأوفيت العهد، فأنا أسألك اللهم أن تجعلنا وافين بعهدك حتى نستحق منك هذا الوفاء، وهذا الجيل وهذه النعم العقلية التي نحن نقرّ بها ونحمدك عليها .

أيها الذكي : أكتب هذا صبيحة يوم الخميس ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٩ م ذاكرا مااتفق لي أمس الأربعاء (١٨) منه ، ذلك أني أحسست بألم من البرد في كتفي اليسرى ولقد اعتدت أن أتعرض لضوء الشمس متى أحسست بهذا الألم منذ سنين طويلة فيذهب ذلك المرض ، ومن أعجب العجب أني قبل أن أعرف ما لضوء الشمس من الفوائد ولم أقرأه في كتب الأطباء ، وبعد ماجربته صح عندي .

أقول : إذ ذاك قابلت طبيبا مصريا فسألته : لم لم يظهر الأطباء فضل حرارة الشمس مع أني أنا عرفت منفعتها في شفاء جسمي ؟ فكان جوابه : لقد وضعوا الأدوية الحارة وهي من نوع حرارة الشمس فسكت ورضيت بهذا الجواب ، ثم بعد ذلك اطلعت على فوائد الضوء الذي تقدم في هذا التفسير مشروحا شرحا مستفيضا من أقوال نفس الأطباء ، فدل ذلك على أن ذلك الطبيب الذي سألته قبل ذلك كان مقصرا أشد التقصير في جهله الأمور العامة وحصر فكره في العقاقير الطبية لمثله كمثل كثير من علماء الإسلام في القرون المتأخرة الذين حصروا عقولهم وأضاعوا مهجهم ووضعوا نبوغهم في المسائل الجزئية من الطلاق والبيوع والحيض والنفاس ولم يرفعوا رءوسهم إلى الشمس المشرقة المحمدية فيدرسوا نفس القرآن ونفس السيرة المحمدية وسير الصحابة والتابعين ليستخلصوا من ذلك رقي الأمم الاسلامية المسكينة . إن نسبة هؤلاء في علومهم المحصورة كنسبة الأطباء في حصر عملهم في العقاقير المشهورة ونسبتهم في رجوعهم إلى القرآن وتفسيره بالهيئة الحديثة التي رأيتها كنسبة رجوع الأطباء إلى التداوي بالماء وبضوء الشمس وبالهواء النقي .

أقول : لما أحسست بذلك البرد توجهت إلى الخلوات خارج القاهرة وجلست في مكان قصي نحو ساعتين متعرضا للشمس على عادتي ، وبينما أنا كذلك إذ صاحبي قد تتبع خطواتي فسمعت نبأه خلق فسلم وحيا وجلس وقال فيم تفكر الآن ؟ فقلت وإذا عرفت أني أفكر فلماذا قصدت قطع التفكير ؟ فقال قصدتك بعد مدة كافية لتمام الفكر ، فقلت أنا أنظر إلى الشمس وإلى السحاب وأعجب من مهرجان وعرس وأفراح في هذا الجو . أنظر : ألست ترى السحاب يحيط بالآفاق شرقا وغربا . ها أنا ذا جالس على هذا الرمل وأرفع طرفي فأرى قبة زرقاء تحيط بي مهندسة الشكل بديعة الوضع حواشيها موشاة بالسحب المجللة لآفاقها ، وها هي ذه تتمايل ذات اليمين وذات الشمال وتتقارب وتتباعد . أفلست ترى أن هذه هي عين مايفعله الناس في أعراسهم وأفراحهم وولائمهم في عقود زواجهم ، الناس شرقا وغربا قديما وحديثا يصنعون الولائم فيضربون الطبول ويطلقون الرصاص من البنادق بل القنابل من مدافعهم . ولهم أغان ينشدونها ومجالس ابتهاج يجموعهم وأنعام يذبحونها وصدقات يوزعونها وأعلام يرفعونها . لم هذا كله ؟ لاقتران فتى بفتاة أو ولادة ولد . والمظاهر عادة تتبع في ضعفها وقوتها العسر واليسر والغنى والفقر وكل امرئ بقدره .

فإذا كانت هذه طبيعة الإنسان فهي مجمع عليها وإجماع الإنسان على عمل واحد يكون له شأن الفطرة والفطرة صادقة . فلم هذا كله ؟ نظرنا فوجدنا هذا الاقتران نتيجته الولادة والولادة ترجع إلى وجود حي على الأرض .

إذن هذا الانسان إنما يكون فرحه بالوجود ، فلا فرح إلا بموجود ولا حزن إلا على مفقود ، ثم ننظر فنرى أن الذرية التي فرح بها الإنسان ربما تموت وربما يموت الأب قبل كبر الابن . فدلنا ذلك على أن هذا الفرح فرح جزئي لا كلي لأنه ليس بدائم ، وماليس بدائم لاقيمة له ، إذن عواطف هذا الانسان وهذا الحيوان عواطف جزئية جعلت غرائز لأعمال جزئية لادوام لها ، فلننظر إذن في العوالم التي منها خلق هذا

الإنسان فترى هذه الأفراح والأعراس تقام فى السماء دائما فى يوم أن خلقت السموات والأرض ، ولن تقام تلك الأعراس إلا ابتهاجا بالوجود العام كما أقامها الانسان للوجود الخاص ، وعظمة أفراح السماء مناسبةلعظمة الموجودات التى أقيمت الأفراح لها .

انظر أيها الذكى : ألست ترى هذه الشمس تختفى تارة وراء هذه السحابة وتارة تظهر كأنها تفعل فعل الناس فى أعراسهم يظهرون أفانين اللعب ، وبعد الاختفاء يظهر وجهها كرة أخرى وقد رفعت نقابها تحيينى أنا وتحييك بالسلام وهى بسامة ، ثم إن أفراح السماء عامة ، فها هى ذه أمامك فى جميع جوانب السماء لأن هذا الفصل فصل المطر وقد جعل المطر للحياة . فأفراح السماء ترى :

(١) السحاب (٢) والرعد والبرق .

(٣) وأصوات الرياح المغنيات بأعواد الأشجار .

(٤) والأعشاب والزروع الراقصات على تلك النغمات وفيها الطيور المغردات بأنواع النغمات .

(٥) وهل فعل الإنسان غير ذلك فى أعراسه .

مدعوون كالسحاب كثرة وقلة وإطلاق الرصاص من البنادق والمدافع يحدث صوتا مشاكلة للرعد وضوأ مشاكلة للبرق وضرب الدفوف والطبل مشاكل لأصوات الرياح والرقص والغناء كرقص الأشجار وغنائها وغناء الأطيار .

ولكن الفرق بين العرس الذى أقامه الله وأعراس الناس أن عرسه دائم بدوام السموات والأرض براء الآباء والأبناء ، وعرسنا ذاهب جزئى مقدر بمقدار عواطفنا وأحوالنا . ثم إنما مثل المسلمين السابقين بعد العصور الأولى الذين هم خير العصور المقتصرين على دراسة القشور من دين الإسلام فى اقتصارهم على كتب خاصة فى المذاهب المعروفة كمثل أهل الأرض فى إقامة الزينات وإعداد الولائم فى أعراسهم الجزئية وحال المسلمين الذين يقرءون اليوم أمثال هذا التفسير وينظرون فى القرآن ويفهمون هذا الوجود فهما حقا ، إنهم يرون ما أراه أنا وأنت اليوم أيها الذكى فقال وما هو ذلك ؟ فقلت إنى أنظر فأرى أن هذه الأعراس والزينات القامات فى هذه الآفاق مقصودة لدعوتنا أهل الأرض أن نشاهد العرس الأعلى والأوسع نطاقا . فهمة العاقل تتجه إلى المثل الأعلى والمثل الأعلى هنا أن نعرف لم دامت هذه الزينة السماوية دائما ؟ فقال لدوام الوجود من حيث الكليات كالكواكب ومن حيث الجزئيات كالمواليد على الأرض . فقلت إذن سيتجه نظر المسلمين بعدنا إلى هذه الأعراس العامة ولا ينحصر نظرهم فى الأعراس الخاصة . قال إن شاء الله فيدرسون الشمس والقمر والنجوم والجبال والبحار والهواء . وهنالك يفرحون ويقرءون « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » وهنالك يفهمون لماذا قال الله هنا فى الآية « وسراجا منيرا » .

ومتى برزت الشمس قتل ضوؤها كل المكروبات (الحيوانات الذرية) وأزال العفونات من الأرض . فهكذا متى درس المسلمون أمثال ما نكتبه فى هذا التفسير زالت تلك العفونات العلمية والأخلاق الوراثية التى خلفها أناس من قبلنا لم يرفع شيوخهم أعينهم إلى معرفة نفس القرآن ونصوصه ولا إلى جمال الله وإبداع تركيه . وهنالك سيتجه الجميع وجهة واحدة فيعرفون الجمال الأسمى والحكمة فى هذا الوجود . وهنالك يفرحون بالوجود الأعلى وهو الوجود الدائم ، وجود رافع هذه الزينات ومرسل الرياح فى الآفاق ومعلم الطيور أنواع الغناء . ومطلق فى الجو أصوات الرعود ولألاء البروق والجمال فبدل ، أن يفرح الناس بمولود يموت وبزوجات ستفارق وبنعم ستزول . يفرحون بموجود هو الحاضر الدائم الذى لايفارقهم ،

وهنالك يعلمون أن تلك الأعراس وتلك الزينات الجزئية ماهى إلا مدرسة صغرى ومقدمات لفهم الأعراس الكبرى، ومتى عرفوا أن هذه الأعراس والأبناء كلها فانية توجهوا للعرس الأكبر ولمن أقام زينته ونصب خيمته وهو الوجود الذى لا ابتداء له ولا غاية. هنالك يرتقى المسلمون ارتقاء لاحد له وتضمحل تلك الحزازات الحقيرة الصغيرة التى ولدها قصر النظر الذى طال أمده إذ يرون دراسة الوجود كله دراسة القرآن وما الخلاف فى الإسلام إلا كاختلاف الأشجار ورقا وطعما وجمالا لا غير.

وهذه العقول الاسلامية بعدنا التى يكون فرحها وعلومها كلها متجهة إلى نظام هذه الدنيا يسعدون فى الدنيا وفى الآخرة لأنهم يعرفون الرحمة التى تقدم تفسيرها فى أول (سورة الروم) وما بعدها البسملة ويوقنون بأن من جمل هذه العوالم خادمات لكل إنسان ليس برسل آلاما لخلوق إلا لفائدة ذلك المخلوق وهو لايدرك حكمتها، ولأنهم يوقنون بعد دراسة ماتقدم بذلك كل الإيقان. وهنالك فقط يعرفون معنى قوله تعالى «يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون» فلا إيقان باللقاء ولافرح بذلك اللقاء إلا بعد تفصيل الآيات التى جاء بعضها فى هذا التفسير وبدون ذلك لا إيقان بل هو إيمان. فالله أخذ يفصل الآيات اليوم فى الكرة الأرضية. وها نحن أولاء ذكرنا بعضها وسيقوم بباقيها من بعدنا. وها هى ذه أيام اليقين قد أقبلت، ويدرس المسلمون نظام الدنيا ويرفعون شأنها ويرجعون إلى ربهم فرحين به مستبشرين.

فقال صاحبى: فاذكر لنا كلمتين فيما رأيت اليوم من الأفراح كلمة عامة وأخرى خاصة حتى يكون ذلك نموذجا لتفكيرك اليوم. فقلت أما الكلمة العامة فإنى أقول لك إنك يحق لك أن تقول ان هذه القبة السماوية والأرضية وما بينهما. وهذه الأعراس الطبيعية القائمة الآن هى لك أنت. قال وهل الوجود ليس فيه غيرى، قلت إنها لك أنت. فقال ما البرهان، فقلت أنت من الأمة المصرية البالغة ١٤ مليونا وارتقاؤها ينفعك وضعفها يضرك. قال حقا هذا. إذن كلهم نافعون لك إجمالا. قال هذا حق. فقلت والأمة المصرية بينها وبين الأمم علاقات التجارة والبرق والطرق الجوية للطيارات والبريد الجوى والبحرى وهكذا، قال حقا. قلت فكل الأمم نافعات لها. قال نعم. قلت ولك؟ قال ولى. قلت الشمس والهواء والسحاب كلها نافعات لك ولأمتك وللأمم والحيوان والنبات الخ. إذن هذه الشمس وهذا الهواء مسخرات لك لأنها نفعت الأمم النافعات لأمتك النافعة لك. إذن العوالم كلها تخدمك ولا ينافى هذا أنها تخدم غيرك لأن هذا نظام الحى يحار فيه العقل. فكما خدمت الأمم كلها والعوالم نفسك هكذا أنت تعتبر خادما لأمتك ولأمم غيرها بطريق غير مباشر. هذه هى الكلمة الكلية العامة.

أما كلمتى الخاصة فإنى أقول إن هذا الإنسان لن ينال السعادة التامة إلا بعد معرفة الحقائق معرفة تامة والمعرفة التامة فى هذه الدنيا مستحيلة لأنه محبوس فى جسده بل هو محبوس فى سجن مظلم ولم ينل من العلم إلا قليلا لأنه محوط بآلام داخلة وأخرى خارجة كالمسجونين فى سجون المجرمين فى عالم الأرض ولكنه وهو هنا قد يتلمس بعض الجمال من خلال نوافذ السجن كما سأوضحه هنا فأقول:

إنى اليوم لما توجهت تلقاء الهراء وفسيح الخلاء لم أجد هاديا يهدينى إلى الطريق إلا ضوء الشمس، هذا الضوء لولاه لم أعرف الطريق. وهذا الضوء هو نفسه الذى بسببه امتص الورق فى الأشجار مواد الكربون (الفحم) البالغ جزءا من ألف ألف جزء من الهواء كما ستراه موضحا مشروحا فى (سورة يس) عند قوله تعالى «سبحان الذى خلق الأزواج كلها» الخ. فالضوء به كان هذا الورق فى الأشجار المحيطة بنهر النيل حولى

وسترى هناك فتحات الورقات مصورة بالمصور الشمسى وقد شرحها العلماء فقالوا : إن كل فتحة توصل إلى حجرة ذات حوائط شفافة مغطاة بسقف بديع وفى داخلها مادة سائلة يعوم فيها مادة خضراء بها تكون خضرة النبات ، وفى الورقة الواحدة قد يكون نحو مائة حجرة أو مائتين وقد يكون فيها ألوف بل ألوف الألوف فى نفس الورقة الواحدة وكلها بهذا الصنع المتقن ، فاذا أيقن المسلم بذلك وهو لاشك يوقن لأنه يشاهد بعينه تلك الحجرات ويقرأ شرح العلماء لها .

فهذا الإيقان الذى منحه الله لقراء هذا الكتاب ستخرج به طبقات ممتازات فى بلاد الاسلام يرفعون أممهم إلى أعلى درجة فى الكمال ، وهل ينكر الجاهل فى ضوء الشمس ؟ وأنه نعمة ؟ . كلا إن أكبر هذا الإنسان لايرى نعمة إلا مااختص به أو كان ممنوعا عنه فبذل له كالغنى بعد الفقر .

إن من عرف ربه بهذه الرحمة أيقن أن الآلام والمصائب المحيطة بالانسان لم تخرج عما تفعله الحكومات الأرضية فى الناقصين من بنى آدم إذا سجنوهم ، واستنتج من ذلك أن هذا الحكيم لن يفعل ذلك فينا إلا لنلحق بعالم أعلى من هذا العالم الناقص كما تفعل حكوماتنا فى الناقصين منا حتى يصلحوا لأن يعيشوا معنا غير مفسدين لأممنا ، وهنالك تحرض هذه الطبقات الممتازة أمم الإسلام على الاغتراف من الحكمة والعلم . وهذه الطبقات الممتازة فى بلاد الإسلام المؤمنة بهذه الرحمة الواسعة تكون صفاتهم الممتازة أنهم يحبون أممهم بل كل أهل الأرض ويسعون لرقيهم ويفرحون بلقاء ربهم .

فهم إن عاشوا عاشوا سعداء مسعدين ، وإن ماتوا ماتوا فرحين بلقاء ذلك الحبيب الذى أسعدهم بالخيرات وهذبهم بالنقم ، فالنعم والنقم سيان عند قراء هذا التفسير وأمثاله .

واعلم أيدك الله أيها الذكى أن كل ماورد من صفات هذه الأمة وفضلها وأنها خير أمة أخرجت للناس قد تم بعضه أيام النبوة وفى عصر الراشدين ومن نحا نحوهم . وسيتم باقيه بعد نشر أمثال هذا التفسير إذ يتبوأ المسلمون متبوأ العلم والحكمة وحب الله المبنى على الإيقان وإدراك الجمال والحسن والبهاء والاشراق وإسعاد العالم الإنسانى . وسيكون نبراسهم «ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» إلى قوله «وسراجا منيرا» فهذا تفسير هذه الآية وسيظهر أثره للعالم الانسانى « والله هو الولى الحميد » اهـ .

آثار النبوة وانتشارها فى أوروبا

(وكيف نرى العلماء فيها هم الذين يعتنقون هذا الدين وذلك من آثار كونه صلى الله عليه وسلم «سراجا منيرا»)

ذكرنا فيما تقدم قريبا رسالة عبد الله كويليام الانجليزى الذى أسلم مع نبذة من ترجمة حياته وهى الرسالة المسماة [الجواب الكافى] وقد ترجمها إلى العربية الأستاذ زهدى الخاش ، ونزيد على ذلك الآن ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ (١٠) يناير سنة ١٩٣٠ م ، وهذا نصه :

المستشرق الفرنسي المسيو ايتان دينيه

(السيد ناصر الدين دينيه)

المسلم الفرنسي والمصور الشهير

مات هذا المستشرق النابه وقد احتشد حوله لتوديعه الوداع الأخير العدد العديد من كبار قومه الرسميين ومن أصدقائه وعارفي فضله من أهله ومن غير أهله من ممثلي الشعوب الشرقية التي أحبها وخدمها، وقد وجب علينا وإن كنا لم نقف هنالك في باريس مع الواقفين خاشعين أن نبعث إلى روحه الطيبة تحيات السلام والاعتراف بالجميل .

أحب المسيو دينيه حياة العرب وهو ذلك الفنان الكبير فاتخذ له بينهم مقاما محمودا في بلاد الجزائر في تلك الواحة السعيدة الهادئة الجميلة (بوسعادة) ينتقل إليه يسكنه نصف العام كاملا . يرتاح للعرب وجيرتهم ويروح عن نفسه بينهم وينعم بما في حياتهم من جلال تلك المناقب المأثورة عنهم وتلك المكارم المعروفة بهم والتي لا يجيل إليها إلا عشاق الخيال السامي ولا ينشدها إلا أهل الفضائل العالية ، وقد وضع في حياة العرب كتابا جميلا جليلا ملأه باللوحات البديعة من ريشته القادرة ذات البلاغة في تصويرها والبيان في صمتها .

والمسيو دينيه يبلغ من العمر سبعين عاما . وهو من كبار أهل الفن ورجال التصوير، وصاحب اللوحات الكبيرة النفيسة القيمة ، تزدان بها جدران المعارض الفنية وتحتفظ بها المتاحف الفرنسية الكبيرة وغيرها من متاحف العالم، وله في متحف لوكسمبرج (وهو متحف كبار المصورين العصريين بباريس) عدة صور منها الصورة الشهيرة المعروفة باسم (غداة رمضان) وكذلك له صور في متحف (بو) وكذلك في متحف (سدني) باستراليا وغير ذلك كثير .

وجميع صوره تدل على القدرة الفنية الكبيرة في رسم الصحراء وتصوير حياة الصحراء ، كما تدل على دقة التعبير عن الحالات النفسية المختلفة . وهو ذو مركز خاص مشهود به بين إخوانه المصورين وامتاز عنهم بتخصصه في تصوير الحياة الاسلامية وبالأخص ما كان منها في بلاد الجزائر .

وقد درس الروح العربية وفهمها الفهم الصحيح حتى قيل عنه إنه المصور الفريد بين إخوانه الذي يستطيع تمثيلها بالريشة والألوان والأصباغ أحسن تمثيل وهم يقولون عنه إنه المصور (العربي) .

وقد جاءت ترجمة المسيو (دينيه) وأعماله في معجم (لاروس) الكبير وفي معجم (هاشيت) للفنون الجميلة وله عدة مؤلفات منها كتاب حياة العرب الذي ذكرناه، ومنها كتاب السراب، وكتاب حياة الصحراء، وكتاب ربيع القلوب، وكتاب الشرق كما يراه الغرب . وكلها تشير إلى ما في طبيعته من الخلق الطيب وما يحمل في قلبه من الحب والتقدير للشرق والشرقيين .

ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو السيرة النبوية في مجلد كبير جليل وضعه باللغة الفرنسية وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة ، من ريشته الخاصة يمثل فيها للمناظر الاسلامية ومشاهد الدين ومعالمه . وطبعه طبعا غاية في الاتقان والدقة حتى إنه يعد تحفة من تحف الطباعة كل ذلك تقديرا منه لموضوعه . ثم إنه قدمه لأرواح الجنود الإسلامية التي استشهدت في الحرب الكبرى وهي تحارب في صفوف الفرنسيين . ونشره كذلك باللغة الإنجليزية بنفس الحجم الكبير والاتقان التام :

والكتاب

والكتاب فى طبعته قد تحلى بمختلف أنواع اللوحات الزخرفية الملونة ذات الأشكال العربية غاية فى الدقة ، والإبداع . وهى اللوحات التى قام بعملها خاصة لهذا الكتاب السيد محمد راسم الجزائرى أشهر رجال الزخرفة العربية ، والذى أشار إليه المسيو الازار الأستاذ بجامعة الجزائر ومدير متحفها وذلك فى المحاضرة التى ألقاها فى النادى الفرنسى بالقاهرة فى شهر مارس سنة ١٩٢٩ ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية .

وما نظن أن العالم العربى قد قرأ للمسيو (دينيه) شيئا بالعربية قبل تلك الرسالة التى عربناها له (أشعة خاصة بنور الاسلام) والتى نشرت بمصر فى هذا العام ، وهى التى جعلها بحثا عصريا فى مبادىء الدين الاسلامى وأراد إظهار هذه المبادىء واضحة جلية وأنها تفضل مبادىء المدنيات الحاضرة ، ولعل هذه الرسالة هى آخر ما كتب اللهم إلا إذا كان قد فرغ من (رحلة الحج) التى كان قد ذكر لنا أنه يشتغل بتدوينها بهمة ونشاط وذلك عقب عودته من بلاد الحجاز هذا العام بعد أن أدى فريضة الحج ، وإذا صحت لنا الحقيقة أن نقرر شيئا فانه ذكر لنا فى كتابه إلينا أنه لاقى من التعب والمشاق الشىء الكثير رغم مالاقاه من التكريم والعناية الخاصة ورغم نسيانه المشقة فى سبيل الله وهو يدعو إلى إصلاح وسائل النقل والصحة وتنظيم الحياة لأولئك الألوف من الحجاج الذين يأتون رجالا (وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق) .

والمسيو دينيه كاتب رقيق العبارة واسع الاطلاع لذلك هو صحيح الحجة ناهض البرهان ثم هو شديد الهجوم شديد الدفاع ، ذلك لأنه غيور على مبدئه الذى لم يتخذه إلا بعد بحث وتفكير . وقد أعلن إسلامه رسميا بالجامع الجديد بمدينة الجزائر فى اجتماع حافل عام ١٩٢٧ وطلب أن يدفن فى قبر مسلما حنيفيا . وهو القبر الذى شيده لنفسه فى بلدة (بوسعادة) بالجزائر وقد ذكرت الأهرام فى تلغرافاتها الخصوصية أمس أنه سينقل إليها من فرنسا وفق وصيته ، ويقول إنه لم يسلم لمطمع أو مغنم (والرجل غنى موسر الحال) وإنما أسلم إرضاء لنفسه وضميره وأنه ناقش الناصرين والطاعنين فخرج من (دينيه) إلى (ناصر الدين) .

له فى بيان فضائل الشرقيين عامة والدفاع عنهم جولات قلمية ولوحات تصويرية تشهد له باخلاصه فى حب الشرق وتقوم دليلا على حبه للعدل والإنصاف . وقد استفتاه بعضهم عن أمر الشرق والغرب فكتب يقول إن الغرب يخطىء النظر إلى الشرق مع أن للشرق على الغرب أفضالا متواصلة فى مدنيته متغلغلة فى حياته ذلك من أثر المدنيات التى هو مدين فيها للشرق ومن أثر المعاملات والاقتصاديات التى منشؤها اليهودية الشرقية . ومن أثر الحياة الشريفة والهمة القعساء التى منشؤها أنظمة الفروسية العربية . ومن أثر علم البحار وعلم السماء وعلم الأبدان وعلم الكيمياء التى ابتدعت أصولها العقول الشرقية .

ويقول إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة ، وإن الغرب يخطىء إذ يظن أن الشرق لا يستحق العناية مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب وأنه مع ذلك لا يحمل له إلا السلامة .

وهكذا يقوم السيد ناصر الدين دينيه رسولا للسلام بين الشرق والغرب ، وهو المثل الطيب لكل فرنسى يحب بلاده الأصيلة ويحب الشرق الجميل النبيل . ومع أنه قد اعتنق الإسلام وعاش مسلما ومات مسلما فإن ذلك لم يمنعه من أن يكون مقيما على العهد والإخلاص لبلاده المحبوبة وأن يجتمع حول نعشه رجال فرنسا الرسميون من الوزراء يذكرون حسناته ويؤبنونه أحسن التأبين . ذلك لنبالة قصده ومتانة إنسانيته .

(راشد رستم)

هذه هي المقالة التي كتبها الأستاذ المذكور ، وإنما كتبنا تاريخ (المسيو ايتان) لأنه توفي أثناء تقدم هذه السورة للطبع فكتبناه هنا تذكيرا لقراء هذا التفسير ، ويحسن بنا أن نذكر شذرات من رسالته المسماة [أشعة خاصة بنور الإسلام] وهي التي ترجمها الأستاذ المذكور . وإليك بيانها :

(الشذرة الأولى)

مما لا نزاع فيه أن التربة والمكان والوقع لها الأثر الكبير الفعال في نشأة الأمور وحياتها . وأن الشجرة الطيبة التي تزرع في أرض خبيثة تخرج ثمرا أضعف مما تخرج الشجرة الخبيثة التي تنبت في أرض طيبة ، كذلك كان الشأن مع المسيحية : فهي وإن ظهرت أنها تحكم العالم في وقتنا الحاضر فليس ذلك مرجعه إلى تعاليمها دون غيرها ، بل إن مرجع ذلك هو إلى ما تستفيده من القوة المادية التي أوجدتها المستكشفات التي قام بها العلماء « الغربيون » ومن الغريب أن أغلب هؤلاء في ذلك هم من اليهود ، أو من الملاحدة والمعطلين أو المشركين . بل إن منهم من حاربتهم المسيحية واضطهدتهم . خذ مثلا (جاليلة) الفلكي الإيطالي و(أتين دولية) الكاتب الناشر الفرنسي وغيرهما كثيرون ممن ذهبوا ضحية التعصب الذميم .

وأمر غريب آخر . ألم تجد الأمم الأوربية التي تأصلت فيها المسيحية أن الضرورة قضت عليها بالتباعد عن روح مسيحيتها في سبيل المحافظة على ممالكها ومستعمراتها . انتهت الشذرة الأولى .

(الشذرة الثانية . المعجزات)

إن نبي الإسلام هو الوحيد من أصحاب الديانات الذي لم يعتمد في إتمام رسالته على المعجزات ، وليست معجزته الكبرى إلا بلاغة التنزيل الحكيم . وفي ذلك يقول تعالى « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون » .

وقد نسي رينان أن محمدا صلى الله عليه وسلم مع عدم اعتماده على مثل هذه المعجزات التي ينكرها قد جاء بأكبر المعجزات مما هو شاذ في تاريخ الديانات كلها ، جاء بذلك الدين الحنيف الذي لم ينفك تزداد أنصاره كل يوم منذ ثلاثة عشر قرنا حتى بلغوا اليوم ثلاثمائة مليون من النفوس دون أن يكون له دعاة أو مبشرون .

على أن المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن ، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليدا للمعجزات التي تنسب إلى المسيح ، فهي ليست من الدين في شيء .

وأما تلك الخرافات والمعتقدات الغريبة التي نشاهدها في بلدان الإسلام المختلفة فهي غريبة عن القرآن ودخيلة على الدين ولا تتفق مع شيء مما عرف عن رسول الله ذاته ﷺ . فقد جاء في الأثر أنه لما مات إبراهيم حزن عليه محمد حزنا عظيما . وحدث أنه ساعة دفنه كسفت الشمس فقال الذين من حوله إنها لمعجزة يا محمد فقد شاركتك الشمس في حزنك على ولدك . ومع أن النبي كان مأخوذا بالحزن الشديد فقد أبى القائل وقال « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

ومن ذلك يتضح لنا أن الإسلام منذ البداية في أيامه الأولى قد أخذ في محاربة الخرافات والبدع . وهو نفس العمل الذي يقوم به العلم إلى يومنا هذا . انتهت الشذرة الثانية .

(الشذرة الثالثة — التسامح والرفق في الدين)

إن القرآن ، دون الكتب المقدسة الأخرى ، هو الكتاب الوحيد الذي يأمر بالرفق والإحسان في الدين . جاء إلى الرسول أحد بني سالم بن عوف واسمه الحسين ، وقال له يا رسول الله إن

لى ولدين مسيحيين يأبيان الدخول فى دين الله وإنى لجبرهما على ذلك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم « لا إكراه فى الدين » .

وفى هذا الباب ماجاء فى سورة الكافرون : « لكم دينكم ولى دين » كذلك ماجاء فى سورة العنكبوت « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن » .

ومن الحقائق التاريخية أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطى (أهل نجران المسيحيين نصف مسجده ليقيموا فيه شعائرهم الدينية) .

وها نحن أولا نرى المسلمين إذا جهروا بدينهم فإنهم لا يعملون مثل ما يفعل المسيحيون فى الدعوة إلى دينهم ولا يتبعون تلك الطرق المستغربة التى لا تتحملها النفس والتى يمجها الذوق السليم .

وقد أنصف (القس ميشون) الحقيقة فى كتابه (سياحة دينية فى الشرق) حيث يقول : إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب والأمم [1] .

زد على ذلك أن المسلمين يحملون لعيسى فى نفوسهم التبجيل والتعظيم ، فى حين أن أنصار المسيح يمطرون محمداً وابلا من اللعنات والسخطات ، الأمر الذى يدعونا إلى الدهشة والغرابة ، ذلك لأنهم أتباع يسوع صاحب عظة الجبل والقائل بالعفو والإحسان !

بل كيف يكون موقف المسيحية أمام هذا التسامح الاسلامى الشريف إذا ماذكرنا رسالة القديس (أغسطين) إلى الحاكم (بونيفاس) وهو يبرر له فيها اضطهاد المخالفين وقتلهم متذرعاً لذلك بأن الديانات الأخرى تفعل مثل ذلك قائلا إنه لخير أن تقوم الكنيسة نفسها بذلك « لأن الكنيسة إن هى اضطهدت أحداً ، فإنما هى لاتقدم على ذلك إلا مدفوعة بعاطفة المحبة » فما أعظم محبة الكنيسة ! وما أكرمها لأولئك الملايين الذين راحوا ضحية « القديسة » محاكم التفتيش . وضحية القديس بارتلمى وغيرها من « القديسين والقديسات » الذين يستبيحون المذابح والمجازر البشرية . انتهت الشذرة الثالثة .

« الشذرة الرابعة — العلم »

رفع النبى محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم . وفى ذلك يقول « اطلبوا العلم ولو بالصين » يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء . شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء . فضل العلم خير من فضل العبادة [2] .

وقد نظر المسيو (كاز أنوفا) أحد كبار أساتذة كوليج دى فرانس بباريس فى هذه الكلمات التاليات كيف يقولها أحد أصحاب الديانات فعلق على ذلك بقول : « يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لايستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا . يعتقدون ذلك وينسون أن نبى الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة . فأى رئيس دينى كبير ، وأى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذه القول القوى الفاصل المتين ؟ هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .

ثم إن هذا هو مبدؤنا اليوم ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل القول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار وجلبة الشنار .

---

(١) نقلا عن الكونت دى كاسترى فى أبحاثه عن الاسلام (٢) الجزء الأول من كتاب الإحياء للغزالى .

كما أنه سوف يقال بإن أوضح مبادئ الحرية الفكرية قد كشفت أمثال (لوثير) و (كالفين) وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع . ذلك هو صاحب شريعة الإسلام . انتهت الشذرة الرابعة .

﴿ الشذرة الخامسة — الخمر ﴾

ذلك هو الداء الفتاك وهو أحد الأمراض الاجتماعية الوبيلة في عصرنا الحاضر، على أن محمدا هو الشخص الوحيد الذي أحس بالأثر السيء الشديد للخمر في النفوس ففاز به حق حرمه تحريما تاما وقد فاز في ذلك فوزا كبيرا (١) .

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » سورة المائدة .

ثم إن من المسلمين من لم يعمل بذلك فهو يخالف الدين في تحريم الخمر تحريما قاطعا . غير أن الكثيرين من هؤلاء قد تركوها ثم تابوا وأنابوا وهم لم يفعلوا ذلك إلا بتأثير الدين نفسه وبما جاء فيه من النهي عن الخمر والأمر بالتحريم في حين أننا لم نسمع أن أحدا من المسيحيين الذين يدمنون الخمر قد تركوها أو عادوا عنها .

ولا يخفى أن الأناجيل المسيحية ذكرت أن للمسيح في أفراح (قانا) ملأ من النبيذ ستا من قدر الماء تسع كل واحدة منها مايقرب من سبعين إلى تسعين لترا بمكيالنا الحاضر .

كما أن الكنيسة قد جعلت (مونيك) الأفريقية في عداد القديسات ، مع أنها كانت من مدمنات الخمر كما ذكر عنها ذلك ولدها نفسه القديس (أغسطين) في اعترافاته (٢) انتهت الشذرة الخامسة .

﴿ الشذرة السادسة — الوسيلة ﴾

الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الاسلام جميع الأديان ، إذ ليس بين الله وعبده وسيط ، وليس في الاسلام قساوسة ولا رهبان .

إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديان ، وإنهم لكذلك مهما كانت عقيدتهم ومهما كان إخلاصهم وحسن نياتهم .

وقد أدرك المسيح نفسه ذلك . ألم يطرد [باعة الهيكل] غير أن أتباعه لم يفعلوا مثل مافعل ، واليوم إذا عاد عيسى فكم يطرد من أمثال باعة الهيكل ؟

كذلك ما أكثر البلايا والمصائب بل ما أكثر المذابح والمجازر التي يكون سببها هؤلاء الوسطاء سواء كانت بين العائلات وبعضها أو بين الشعوب والشعوب . وهم في ذلك كله يصيحون : باسم مجد الله .

ثم إنهم قد عكسوا الآيات وبدلوا النيات ، وغيروا الأوامر والنواهي ، ولم يدركوا قصد عيسى ولا مرماه النبيل العالي ولافهموا معناه الحقيق حين يقول : [جئت لألقي نارا على الأرض . فماذا أريد لو اضطرمت ؟ أتظنون أني جئت لأعطي سلاما على الأرض . كلا أقول لكم : بل انقساما ، لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين ثلاثة على اثنين ، واثنان على ثلاثة . ينقسم الأب على الابن والابن على الأب . والأم على

---

(١) وأما تجربة الولايات المتحدة في أمريكا في تحريم الخمر فلم تظهر نتائجها بعد ، إذ لم يمض على ذلك إلا بضع سنين .

(٢) عن الدكتور بينه سنجليه ، في كتابه [جنون يسوع] .

البنت والبنت على الأم] (١) .

وقد حرم الإسلام نظام هذه القداسة ومحا الولاية ، فنفى بذلك تلك الخرافات الضارة والمعتقدات الفاسدة وأزال آثارها ونتائجها .

وليس للمسلم أن يدعو الرسول ويتضرع إليه ، وإنما له أن يدعو الله وحده لاشريك له . وقد يكون للمسلم أن يدعو الله للرسول ، ولكن لايدعو الرسول لله ولا لذاته .

كذلك يحرم القرآن الشفاعة وينكر الشفعاء . ويوم القيامة لاتسأل نفس إلا عن نفسها .

وأما ما تراه من الزوايا وأضرحة الأولياء فان ذلك لم يتم إلا بعد الهجرة بنحو قرنين من الزمان تقليدا للمسيحية . على أن ذلك لم يقبله العبيديون كما ألغاه الوهابيون أخيرا من مكة والمدينة وما إليهما . انتهت الشذرة السادسة .

(الشذرة السابعة — الإله)

الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا ، أو ما إلى ذلك من الأشكال .

أما في المسيحية فان لفظ (الله) تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال [فمن تجاعيد بالوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء] .

ونسمع القوم يصيحون (ليحي الله) فلا نرى للغرابة محلا ، ولا نعجب لصيحتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر . فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء وكيف لا يطلبون له الحياة ؟

كذلك (ياهو) (٢) الذي يمثلون به طهارة التوحيد اليهودي فهم يجعلونه في مثل تلك المظاهر المتهالكة وكذلك تراه في متحف الفاتيكان وفي نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما (الله) في دين الاسلام الذي حدث عنه القرآن فلم يجرؤ مصور أو نحات أن تجري به ريشته أو ينحته إزميل . ذلك لأن (الله) لم يخلق الخلق على صورته ، وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة ولاحدود محصورة ، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد ولم يكن له كفوا أحد .

وقد يقال لنا إن تلك الصورة التي وصفناها ، والتي يمثل بها المسيحيون الإله عندهم هي مما لا يرضى عنه أهل التدين السليم منهم . على أننا لو سلمنا بهذا الاعتراض جدلا فماذا هم قائلون؟ وليس في الكنيسة كلها إلا صلاة واحدة وقصيرة يخصون بها الإله (الأب الأزلي الدائم) . وأما الابن والأم وزوج الأم والصلب وقلب يسوع المقدس فلها كل الصلوات ولها آلاف الصور والتماثيل ذات الاحترام والإجلال . وكلها مقدسة عندهم مثل تقديس الوثنيين لأصنامهم التي تمثل معبوداتهم . انتهت الشذرة السابعة .

(الشذرة الثامنة — علو الهمة)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علو الهمة من الايمان » وذلك أنه لما كانت الشريعة الغراء قد ساوت بين الناس ، ولما كان لابد للناس من مراتب ودرجات ، لم تجعل لأحد منهم فضلا على أحد إلا بعلو

---

(١) انجيل لوقا . الاصحاح الثاني عشر . ٣٩ — ٥٣ .

(٢) (ياهو) أي الله . وهي الأصل العبري .

الهمة فى مكارم الأخلاق وبالنبل وبالذكاء . وفى هذا فليتنافس المتنافسون . وأما ماجاء فى الإنجيل من قوله : [من لطمك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضا] فذلك ضرب من ضروب الحطة بالنفس والنزول بها والذهاب بكرامتها ، كما أنه تشجيع ضمنى لأهل السوء والجبانة فى أن يظهروا ويسودوا . وفكرة التسليم هذه والتساهل فى شأن النفس وعدم الأخذ لها بالشدة ترجع إلى أصل هندى . ولذلك تسكن فى طياتها تلك الأسباب المتأصلة التى أخضعت الهند الكبيرة لنير انجلترا الصغيرة ، وليس عجيبا بعد ذلك أن ترى الانجليز يخرجون على تعاليم الكنيسة ولا يعملون بأوامر المسيح فى عظة الجبل من السكون وعدم التعدى . انتهت الشذرة الثامنة .

(الشذرة التاسعة — المساواة)

لقد حقق الإسلام نظرية المساواة هذه بين القبائل والشعوب ، وهى النظرية التى لم تأت أخيرا إلا على يد الثورة الفرنسية . وهذا بلال الحبشى أقامه الرسول مؤذنا للمسلمين فكان العرب ، وهم من الشعوب التى تفخر بالأجداد والأنساب ، تسمع له وتسعى إلى الصلاة إذا ما أذن فيهم هذا العبد الحبشى . انتهت الشذرة التاسعة .

(الشذرة العاشرة — مسايرة الطبيعة)

لايتمرد الإسلام على الطبيعة ، التى لا تغلب ، وإنما هو يساير قوانينها ويزامل أزمانها ، بخلاف ماتفعل الكنيسة من مخالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة : مثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لايتزوجون وإنما يعيشون أعزابا . على أن الاسلام لايكفيه أن يساير الطبيعة وأن لايتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه للرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير والأمثلة العديدة لا تعوزنا ، ولكنا القصد نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع ، والذى جلب للاسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة . ومطاعن كثيرة ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن مالعمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو المحال الذى يستحيل تنفيذه . لم يكن للاسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا . والذى فعله الاسلام أول كل شىء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله تعالى « وإن خفتم أن لاتعدلوا فواحدة » وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات! ولذلك كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الاسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة . ثم انظر هل حقيق أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ، وإلا فهؤلاء مثلا ملوك فرنسا (دع عنك الأفراد) الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام . إن تعدد الزوجات قانون طبيعى ، وسيبقى مابقى العالم . ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه . وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد فى الزوجة وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واضحة شديدة الخطر عصيبة البلاء .

تلك هي الدعارة ، والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين . وأن هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف في البلاد التي طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق . وإنما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية . ومن الأمثلة القائمة على ذلك ما كان من أمر وادي (ميزاب) حيث تسكن القبيلة التي بهذا الاسم في بلاد الجزائر إذ لم تدخلها الدعارة إلا بعد ضمها إلى فرنسا عام ١٨٨٣ وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل . ومما نرويه من هذا القبيل ما جاء في كتاب « الإسلام » تأليف (شمزدومولان) [إنه عند ما غادر الدكتور مافروكورداتو الأستانة سنة ١٨٢٧ إلى برلين لدراسة الطب لم يكن لعاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة . كما لم يعرف فيها داء الزهري (وهو السفليس المعروف في الشرق بالمرض الأفرنكي) فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أي سنة ١٨٣١ تبدل الحال غير الحال] . وفي ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا في حسرة موجعة [إننا نرسل أبناءنا إلى أوروبا ليتعلموا المدنية الافرنكية فيعودون إلينا مرضى بالداء الافرنكي] على أنه من جهة أخرى نرى أن الطلاق قد يخفف بعض الشيء من أضرار هذا التعنت في القصر على زوجة واحدة . ولكن من جهة ثانية نرى أن الطلاق سيئة من السيئات . إذن ماذا ؟ إذن أي الأدواء قد خلا تماما من بعض السميات ، على أن الكنيسة قد أساءت كذلك في مسألة الطلاق بمثل ما أساءت في أمر التوحيد في الزوجة . وذلك بمخالفتها أيضا لقوانين الطبيعة . انظر هل أشد من الحكم على زوجين شابين لم يستطيعا عن بعضهما صبرا ، وقد خاب ظنهما في الزواج ولم يدركا السعادة التي طلباها من وراء ذلك ، هل أشد من الحكم عليهما بأن يخلدا يقضيان بقية أيامهما في عذاب ونكد وشقاء ، كذلك إذا كان أحدهما عاقرا أو كان غير كفء لزميله ، هل يحرم الآخر من أن يبني لنفسه بآخر وأن يقيم له عائلة من جديد ، وأننا ونحن في صدد الطلاق لاتفوتنا حكمة التشريع الإسلامي وهو يرى السوء في فوضى الطلاق فيسمع النبي الكريم يقول «أبغض الحلال إلى الله الطلاق» . انتهت الشذرة العاشرة .

﴿ الشذرة الحادية عشر ـ بساطة الصلاة والنظافة ﴾

إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية هي ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها في صلاة غيرها . كما أنها لاتدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف ، ولا العيون بالشخوص إلى السماء واستنزال الدموع التي تذكرنا بالدموع الجليسرينية التي يصطنعها ممثلو السينما في عصرنا الحاضر . حقا إن الصلاة الاسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التي خصها المسيحيون بالصور المسيحية مما جعلها في غير جمال ولا جلال ولا وقار حقا إن الأقوال والحركات التي في الصلاة الإسلامية هي ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان ، وهي خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخشوع والتظاهر بذلك مما هو غريب في العبادات ، لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما في الصدور وهو الغني العزيز . ثم إن من الأمور الغريبة تخصيص وجود الإله في السماء عند دعوته . وهذه الحال تحمل في طياتها إلحادا ، إذ تجعل السماء . منفاه ، وتنفي بذلك عنه صفة الوجود في كل مكان وحركات الصلاة الإسلامية ، فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم . تقوم الجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية . فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد .وكم من شيخ كبير وبدين سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ، ولا مشقة مما لا يستطيعه مسيحي في مثل هذه السن أو في مثل هذه الحال مالم يكن قد استراض على ذلك من قبل .
انتهت الشذرة الحادية عشر .

(الشذرة الثانية عشر — الأذان)

يتميز الاسلام فى الدعوة إلى الصلاة بأن الإنسان هو الذى يدعو إخوانه إلى تأدية هذه الفريضة . وأن صوت الإنسان صوت طبيعى وهو أدعى إلى حمل العاطفة الإنسانية الصادرة من قلب المؤمن إلى إخوانه المؤمنين للقيام بأهم أركان الاسلام من أى آلة صناعية ومن القلب إلى القلب رسول اﻫ .

هذا ما أردته من رسالة (المسيو ايتان دينيه) المسلم الفرنسى والمصور الشهير . ثم انظر إلى ما جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ يوم السبت أول فبراير سنة ١٩٣٠ م وهذا نصه :

المؤتمر الدينى الدولى

(لخدمة السلام فى العالم)

منذ نحو سنتين قام جماعة من رجال الأديان فى (أمريكا) يسعون لانشاء مؤتمر دينى دولى يمثل مختلف الأديان والمذاهب فى العلم بقصد خدمة السلام العام بواسطة الدين وعقدوا اجتماعهم الأول فى شهر سبتمبر سنة ١٩٢٨ م فى جنيف تحت رئاسة الدكتور (شايلرماثيو) رئيس الكلية الدينية فى جامعة (شيكاغو) فى الولايات المتحدة ، وكان الحاضرون ١٩١ مندوبا من بلدان مختلفة وأديان شتى ، وقد قرر المجتمعون إذ ذاك انتداب لجنة مؤقتة لتنظيم أعمال المؤتمر برئاسة الدكتور (ماثيو) المشار إليه وألفت تلك اللجنة من خمسة وعشرين عضوا وجعل سكرتيرها الدكتور (اتكنسون) من نيويورك ، وكان (١٢) من أعضائها يمثلون المسيحية وعضو واحد يمثل الإسلام ، وعضو يمثل الهندوس ، واثنان يمثلان دين (كونفوشيوس) واثنان لليهودية ، وعضو يمثل البهائية ، وعضو يمثل الشنتوا فى اليابان . وعضو للبوذيين فى سيلان . وعضو للثيوصوفية بهولاندا . وعضو للمجوس فى الهند .

وقد تقرر إذ ذاك عقد مؤتمر عالمى للسلم يبنى عمله ومساعيه على مبادئ الأديان التى ينتمى إليها أعضاؤه بدون أن يجر ذلك إلى المفاضلة بين مزايا هذا الدين على ذاك على أن يكون غرض الجميع واحدا . وأن يبنى هذا الغرض على المبادئ الآتية :

(١) أن يذكر كل ممثل لدين من الأديان تعاليم ذلك الدين فيما يتعلق باستقرار السلام ووجوب إحلاله محل الخصام فى العالم .

(٢) ذكر مجهودات الهيئات الدينية فى سبيل نشر لواء السلام فى العالم .

(٣) وضع القواعد التى يمكن السير عليها بصفة عامة لإزالة العقبات الحائلة دون استتباب السلام وانتصار الحق وضمان العدل بين الدول وازدياد محبة الخير العام .

(٤) انتهاز كل فرصة لاستثارة الشعور الدينى فى كل طائفة ضد روح العدوان والخصام وكل ما يؤدى إلى الشحناء بين الأمم .

وقد عقدت بعد الاجتماع المتقدم اجتماعات متعددة فى أنحاء مختلفة ولاسيما فى أمريكا إذ يظهر أن فكرة المؤتمر الدينى العالمى نشأت من هناك .

وآخر اجتماع للجماعة عقد فى شهر أغسطس الماضى فى مدينة مانسكفورت فى ألمانيا تحت رئاسة الدكتور (شايلرفراثيو) حامل لواء المؤتمر . وقد حضره (٦١) عضوا يمثلون جميع الأديان الحية فى بلدان العالم .

وفى هذا الاجتماع ذكر السكرتير الأمريكى أنه ساح فى بلدان الشرق الأقصى وقابل فيها زعماء الأديان والمذاهب المختلفة وباحثهم فى مسألة اتحاد المؤتمر الدينى العام لمقاومة الخصام وإحلال السلام محله بين البلدان فأيدوا المشروع وحبذوه .

وقد تقرر فى اجتماع (فرانكفورت) انتخاب لجنة لتنظيم المؤتمر القادم وعقده على أن يكون له ستة رؤساء وثلاثة عشر وكيلا انتدبت للتنفيذ ، وأنشئت للمؤتمر سكرتيرية رئيسية مركزها فى (نيويورك) وأنشئت لهـا ثلاثة فروع فى لندن وباريس وبرلين . وتقرر تعيين سكرتير فى اليابان وسكرتير فى الصين وواحد فى الهند وواحد فى الشرق الأدنى وواحد فى البلقان وسكرتير لأوروبا الجنوبية ، ثم أصدرت الهيئة القرار الآتى :

قررت أن يعهد إلى اللجنة اتخاذ التدابير اللازمة لعقد المؤتمر الدينى الدولى فى سنة ١٩٣١ فى إحدى بلدان الشرق وأن يدعى لحضوره ممثلو الأديان الحية فى العالم .

وقد انتهى إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون باشا الذى أصبح علما من أعلام الشرق وقطبا من أقطابه كتاب من المستر عبد الله يوسف على الهندى الذى كان وزيرا للمالية فى حكومة نظام حيدر أباد يلتمس فيه من سموه باسم لجنة المؤتمر أن يقبل رئاسة المؤتمر فيكون فى مقدمة الرؤساء الستة الذين تقرر اختيارهم من كبار الرجال لرئاسته ويكون ممثلا للاسلام فى الرئاسة ، وتلقى سمو الأمير أيضا كتابا من سكرتير المؤتمر الدكتور (نكتسون) الأمريكى يبسط فيه لسموه الأغراض النبيلة التى يسعى إليها القائمون بأمر هذا المؤتمر الدينى الجديد ويقول إن البارون (ساكيتانى) اليابانى والدكتور طاغور الشاعر الهندى الشهير سيكونان من الرؤساء الستة ، وإن الكنيسة الكاثوليكية ستختار عظيما من عظمائها ليكون من الرؤساء وأن الأستاذ (اينشتين) الألمانى العالم المشهور سيكون رئيسا ممثلا لليهود ، والمفهوم أن الأمير الجليل لم يقرر حتى الآن شيئا بهذا الشأن اهـ .

* * *

ومما يناسب قوله تعالى أيضا «وسراجا منيرا» ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ يوم الثلاثاء ٢٨ يناير ١٩٣٠ م وهذا نصه :

حالة العميان فى مصر

وجهت جمعية العناية بالعميان فى سان فرنسيسكو إلى وزارة الخارجية المصرية أسئلة طالبة الجواب عليها وأنها أحالتها إلى الجهات المختصة ؛ وفيما يلى نص الأسئلة وإجابة وزارة المعارف على كل منها :

(س) هل يأخذ العميان إعانة ؟ وما مقدارها ؟ وما وجه استحقاقها ؟ .

(ج) تدفع الحكومة الاعانات المختلفة لبعض معاهد العميان حسب درجة تقدم كل منها كما يأتى : ٧٠٠ جنيه لمدرسة العميان بالزيتون و ٢٥٠ جنيها لمدرسة العميان بالاسكندرية التابعة (لكونتس ميث) و ١٥٠ جنيها لمدرسة العميان الأهلية بالمطارين و ١٥٠ جنيها لمدرسة المكفيفات بالزيتون ، ويدفع بعض أعضاء الجالية البريطانية إعانات لسد نفقات ثمانية تلاميذ بمدرسة الزيتون بمعدل ١٢٠ قرشا فى الشهر لكل تلميذ ، وتدفع سيدتان مصريتان إعانات لسد نفقات تلميذين آخرين بهذه المدرسة .

(س) كم عدد العميان تحت إشراف الحكومة ؟

(ج) يوجد (٨٠٠) طالب تحت إشراف الحكومة منهم (٢٠٠) بمعهد الأزهر بالقاهرة و ١٠٠ بمعهد أسيوط و ١٠٠ بمعهد الاسكندرية و ١٠٠ بمعهد طنطا و ١٠٠ بمعهدى دسوق والزقازيق و ٥٠ بمدرسة الزيتون العميان و ٥٠ بالاسكندرية . أما الإناث فيوجد منهن ١١ تلميذة بقسم العميان الكائن بمدرسة تمرين معلمات بولاق التابعة لوزارة المعارف و ٣ بمدرسة المكفيفات بالزيتون . أما العميان الذين ليسوا تحت إشراف الحكومة فهم ٢٠٠ طالب بمدرستين فى القاهرة إحداهما ببولاق والأخرى بشارع البيطار بالأزهر تحت إشراف لجنة إنكليزية برئاسة (المطران جوين) و ٩ طالبات بكلية البنات الانكليزية ببولاق تحت اشراف اللجنة المذكورة و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان بالزقازيق و ٥ طالبات بمدرسة الأمريكان فى المنصورة و ٤ طالبات بمدرسة الأمريكان بدمنهور و ٩ طالبات بمدرسة الأمريكان بأسيوط و ٨ طالبات بمدرسة الأمريكان بالأقصر وكلهن تحت إشراف كلية الأمريكان، ويبلغ مجموع العميان بالقطر المصرى ١٥٥٠٠٠ منهم ١٠٥٠٠٠ ذكور و ٥٠٠٠٠ إناث منهم نحو ١٠٠٠ تحت إشراف الحكومة وجماعات مختلفة والباقى يحترف قراءة القرآن فى المنازل والجبانات إذا كانوا مسلمين ومرتلين فى الكنائس إذا كانوا مسيحيين .

(س) هل بذلت الحكومة مجهودا لتعليم العميان صناعة ، فإن كان كذلك فما درجة نجاحهم ؟

(ج) ابتدئ فى تعليم العميان الصناعات سنة ١٨٩٦ ولكن نجاحهم فيها متوسط بالنسبة إلى قلة الإعانات .

(س) هل توجد مصانع يقدم فيها العميان على غيرهم ؟

(ج) لا توجد صنائع مشتركة بين الأعمى والبصير بل توجد مصانع خاصة بالعميان فقط وهذه المصانع هى مصنع السلال والكراسى بالمدرسة الاكليريكية القبطية بمهمشة ، ومصنع السلال والكراسى والسجاد بمدرسة العميان بالزيتون ، ومصنع السلال والكراسى والفرش بالاسكندرية تحت رعاية (الكونتس ميث) ومصنع السلال فقط باسكندرية تابع لجمعية أهلية ، ومصنع للشيلان والجوارب والسلال التى تصنع من الخرز والسلك بكلية البنات الانكليزية ببولاق وهو خاص بالبنات فقط ومصنع للسجاد والكراسى والسلال بقسم العميان بمدرسة معلمات بولاق التابعة لوزارة المعارف .

(س) ما نوع الأشياء التى ينتجونها ؟ .

(ج) الأصناف المنتجة هى السلال، وهى تصنع من الغاب الهندى والصفصاف والكراسى الخيزران المصنوعة من الغاب الهندى والصفصاف والكراسى التى تصنع من قلب الخيزران وقش الباسم وقش الأرز

(س) أى الأصناف من أعمالهم وجدت رواجا فى الأسواق ؟

(ج) الأصناف الرائجة هى السلال بجميع أنواعها والكراسى وأطقم القش والفرش .

(س) ماهى الطرق التى تتبع فى عرض منتجات العميان فى السوق ؟

(ج) تعضد الحكومة هذه المصانع بشراء ما يلزم لها من السلال وغيرها لمصالحها وتعرض هذه المصنوعات فى المعرض الدائم لمصلحة التجارة والصناعة .

(س) أى النسبتين أكثر فى العميان نسبة الذكور أم نسبة الإناث ؟ .

(ج) تزيد نسبة الذكور على نسبة الإناث كما هو مبين فى الاجابة عن السؤال الخاص بعدد العميان .

(س) أى الجنسين أكثر استعدادا لتحصيل الكسب ؟

(ج) الذكور أكثر استعدادا للكسب عما يبذل من المجهودات لتعليمهم ، وعند الحكومة مشروع لتوسيع نطاق العميان بالقطر المصرى ، وقد أنشأت الوزارة فصلا خاصا لتخريج معلمات لهذا النوع بمدرسة

للمعلمات

للعلقات الأولية الراقية ببولاق فى سنة ١٩٢٧ م وأتم الدراسة فى هذا القسم (١٣) طالبة سيتخرجن فى نهاية هـذا العام وألحقت بهذا القسم فرقة من الضريرات ليكن بمثابة أداة تمرين للطالبات وعلى ذلك أرسلت الحكومة إلى انجلترا بعثة للتخصص فى فن تعليم العميان مؤلفة من طالب وطالبة .

(س) مامقدار متوسط ما يكسبه أحدهما فى الأسبوع أو الشهر .

(ج) يبلغ متوسط كسب الذكور فى الشهر أربعة جنيهات والإناث جنيهين .

(س) هل تمدون العميان بالاعانة ، وإن كان كذلك فما هى الطريقة التى تتبعونها ؟

(ج) توزع الحكومة إعانات حسب مقدار نجاح كل مدرسة من مدارس العميان .

(س) هل توجد ملاجئ للعميان وأى الجهات تنفق عليها ؟

(ج) لايوجد للعميان سوى ملجأين أنشأتهما الحكومة للأيتام أحدهما بطره ، والآخر بالغربية يقبل فيهما العميان ، وملجأ للعجائز بشبرا تابع للحكومة الإيطالية يقبل فيه العميان أيضا وملجأين للاناث تابعين لكلية الأمريكان أحدهما فى فم الخليج والآخر بأسيوط يقبل فيهما العميان .

(س) أى الصناعات وجدت أكثر فائدة على العميان الذين دربوا تدريبا راقيا ؟

(ج) صناعة الفرش والسلال والكراسى .

هاتان الرسالتان رسالة المؤتمر الدينى ورسالة جمعية العناية بالعميان توجبان دقة النظر والملاحظة ﴿ أولا ﴾ إن خدمة السلام العام لم نقرأها فى التاريخ قبل النبوة المحمدية ، فإن الإسلام هو الذى أيقظ الأمم شرقا وغربا وبنشاط حركته حرك الأمم فى اختراع الآلات والقطارات والطيارات فتقاربت الأمم ، وهذا من أسرار كونه صلى الله عليه وسلم سراجا منيرا ، وأيضا يذكرنا هذا بآية ـ حتى تضع الحرب أوزارها ـ وإن علماء الإسلام يقولون « إن الحرب سيقضى عليها » ﴿ ثانيا ﴾ إن إرسال جماعة من أمريكا رسالة للمحافظة على العميان فى مصر المسلمة يدل دلالة واضحة أن إشراق النور النبوى قد أثر بطريق غير مباشر فى أمم غير مسلمة والأمم المسلمة نائمة وهـذا عار فكان الأحرى بهـذه الأمم الاسلامية أن تكون هى آباء للأمم كلها لا أن يكونوا أذنابا . وسيكون فى أمم الاسلام بعد الآن نهضة فكرية يرقى بها نوع الانسان . تم الكلام على اللطيفة الرابعة .

(اللطيفة الخامسة)

(فى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديدا يصلح لكم أعمالكم »)

اعلم أن بين القول والعمل مناسبة وصلة تظهران فى هذه الآية ، إن الإنسان يعقل الأشياء وتصدر عنه تلك الأشياء من منفذين : منفذ اللسان ، ومنفذ الأعمال ، فهما فرعان لأصل واحد ، ونظام أحدهما يؤثر فى الآخر ، فما من قول نقوله إلا وله آثار فى أعمالنا ، وكلما كان القول أحكم كانت الأعمال إلى الصواب أقرب ، لأن الدربة على الفضائل تكون فى النفس ملكة تكون مصدرا لها من بعد ، فكل فضيلة فى اللسان أو فى الأعمال تحدث فى القلب أثرا وبتوالى الآثار تتأسس الملكات ، ومن الملكات الفاضلة تكون الأعمال الشريفة وملكة اللسان فى الصدق وفى حسن القول تؤثر فى النفس آثارها فيتعدى ذلك الأثر إلى الأفعال فتنتظم ، إن الأعمال والأقوال فرعان للنفس والقول أسهل ونزعاته أشد وجراحاته أنكى وسهامه أنفذ وخطره عظيم . وفى الحديث « وهل يكب الناس فى النار على وجوههم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم » انتهت اللطيفة الخامسة .

﴿ اللطيفة السادسة ﴾

(فى معنى قوله تعالى « وحملها الإنسان »)

جاء فى الفيروزابادى ما نصه : قوله تعالى « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » أى أن يخنها وخانها الإنسان . قال : والإنسان هنا هو الكافر والمنافق اهـ .

وهذا المعنى واضح والحمد لله رب العالمين . انتهت اللطيفة السادسة .

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

(هذه اللطيفة عامة فى السورة كلها وفيما قبلها وبعدها)

ذلك أن الله تعالى يقول فيها « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود » الخ . ذكر الله المؤمنين بنعمة الله عليهم إذ نصرهم فى غزوة الأحزاب ، كما ذكر قوم موسى بنجاتهم من فرعون وهذا تذكر جزئى وإلا فكم لله من نعم ؟ إن الناس يتقلبون فيها صباحا ومساء ، فأجسامهم ملئت حكمة وهم مغمورون فى ضياء الشمس ونور القمر والكواكب والهواء وعندهم نبات وحيوان وما لا يعدّ ولا يحصى وإنما هذه يعرفها العامّة والخاصة لأن أكثر الناس لا يشكرون الله إلا على النعم الخاصة كالنصر فى هذه الغزوة وإلا فالنعم لا نهاية لها ولذلك أردف هذه السورة بسورة سبأ المبدوءة بالحمد لله ، وعلل الحمد بأن له ما فى السموات وما فى الأرض وأنه يحمد فى الآخرة وحده ، ومقتضى هذا أن نعم الدنيا والآخرة له وهو يحمد عليها لأنها كلها واصلة إلينا ، فليس الحمد لله خاصا بالنصر فى الأحزاب (انظر هذا المقام فى أول السورة الآتية) تم تفسير سورة الأحزاب يوم الثلاثاء ٢٤ مارس سنة ١٩٢٥ م ٢٨ شعبان سنة ١٣٤٣ هـ والحمد لله رب العالمين .

﴿ تفسير سورة سبأ ﴾

(هى مكية)

(إلا قوله تعالى « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد » الآية)

آياتها ٥٤ — نزلت بعد لقمان

(هذه السورة قسمان)

[القسم الأول] فى تفسير البسملة .

[القسم الثانى] فى تفسير السورة كلها .

﴿ القسم الأول : فى تفسير البسملة ﴾

لك الحمد اللهم على ما أوليت من نعمة العلم وأوفدت من آثار العرفان ، وهديتنا إلى ما نحن بصدده من تفسير آيات كتابك ، وألهمتنا أن نذكر أنفسنا والأمم الإسلاميـة برحمتك الواسعة التى كررتها فى أول كل سورة من كتابك تفتح بصائرنا إلى عجائب حكمتك وبدائع صنعتك وبواهر خلقتك وجواهر نظمك ، حمدناك على مافى سمواتك وأرضك ، وعلى مافتحت من بصائر هذه الأمم الاسلامية الحاضرة والمستقبلة بما أنزلت فى هـذه السورة من غرائب ماتخرج من أرضك فى زماننا من أنواع المعادن وأصناف الخزائن التى أودعتها أمم قبلنا كأهل سبأ ذوى الجد والتشمير وأصحاب الجنتين اللتين عن يمين وشمال وأنهم لما حفظوا نعمتك وحافظوا على هبتك أبقيتهم، ولما كسلوا عن ذلك الحفظ وتقاطعوا أرديتهم فى حفرة الهلاك وأذقتهم سوء النكال والذى يدلنا على ذلك تلك الرسوم المصورة التى أخرجت من أرض سبأ فى زماننا تذكيرا لملوك اليمن وعلماء اليمن وعظمائه أن فى بلادكم نعما إن استخرجتموها أبقيت بلادى بأيديكم وإلا فأرضى أعطيها لمن يستخرجون منافعها ويحفظون نعمها ويسعدون بها عبادى ، فليس من العدل أن يكون أتباع خاتم الأنبياء أقل شكرا للنعم من أولئك الذين كانوا يعبدون الشمس من دون الله ، كل ذلك الإيقاظ والتحذير من رحمتك الواسعة التى صاحبها العلم بكل جليل ودقيق .

ومن رحمتك الواسعة المذكورة فى البسملة أنك أفدتنا فى قصة داود وسليمان أن شكر نعمتك والقيام بخدمتك ليس قاصرا على العبادة ولو كانت الجبال مؤوبات مع العابدين ، مرددات لتلك الصلوات ، مرتلات لتلك التسبيحات ، فمن حق الشاكر أن يقوم بما يقدر عليه من الصناعات ويتقنها كاذابة الحديد وصنعة الدروع واستخدام الريح ، ومن أجلّ الرحمات على المسلمين اليوم أن يعلموا أن ماتلقيه الأرواح من الأقوال لأهل الأرض أثناء تحضيرها ليس حجة قاطعة فهم لايعلمون الغيب وليس يدعيه منهم إلا أرواح صغيرة ضيقة العطن قليلة الفطن ، ومن الرحمة التى ظهرت آثارها فى الأرض بعد النبوة أنك أعلنت فى هذه السورة أن نبينا صلى الله عليه وسلم مرسل للناس كافة بشيرا ونذيرا وان أكثر الناس لايعلمون وأنك أنت المختص بعلم ذلك ولقد ظهرت تلك الآثار لنا عيانا وصدق وعد الله . ومن اطلع على مؤلفات الفرنجة فى انتشار الاسلام فى أفريقيا عند خط الاستواء وفى شماله وجنوبه يدهش إذ يسمعهم يبرهنون على أن هذا الدين لا ينتشر بالسيف بل بالمحبة

وللودة والاخلاص وأن اتهام قومهم فى أوروبا بأن انتشار الاسلام إنما كان بالسيف ضلال مبين ، ولقد وجدوا فى أفريقيا ملوكا عظاما وأعظمهم قبائل بيض الوجو لهم السلطان والسيطرة وهم فى احتلالهم أرض غيرهم وحمايتهم لهم سياسة أشبه بسياسة الأوروبيين ، فعلم الأمم الإسلامية بهذه المزايا وبما انطوت عليه آيات السورة فى زماننا من أجل النعم التى ستثير العزائم وترفع الأمم الحالية إلى أوج العلا ويخرج جيل إسلامى جديد أعز نفوسا وأرقى عزائم وأعلم بما أبدع الله فى أرضه وماخلق فى سمائه ، هنالك تصلح الأمم الإسلامية لعمارة الأرض ولحب ربهم والهيام به والغرام بعمله ، هنالك يشكرونه فلا يكفرونه ويذكرونه ولا ينسونه ويصبح خاصتهم بما يرون من العجائب فى هذه الطبيعة الأرضية والسموات ناطقين فى قلوبهم بمثل ماذكره (الكونت هنرى دى كاسترى) عن بعض علماء الاسلام [رب إن الجنة لا ترجى إلا لرؤيتك فيها ، ولولا نور ذاتك البهية لمقتناها] وما نقله هو أيضا عما يؤثر عن (الشيخ القشيرى) فى القرن الرابع الهجرى [إلهى إنك تهددنى بفراق يحرمنى على الدوام من تجلياتك البهية ، فيارب اصنع بى ماتشاء ولا تحرمنى من مشاهدتك العلية ، فليس سم أمرّ مذاقا وأشد قتلا من ألم هذا الفراق ، وما حيلة النفس بغير ربها إلا أن تعيش فى فزع وتبقى فى حيرة واضطراب . رب إن النفس لترضى بأن تذوق الموت مائة ألف مرة ولا تذوق حرقة فرقتك مرة واحدة . رب إن مصائب الدهر وجميع الأمراض القتالة لو اجتمعت علىّ لاحتملتها غير متوجع من موقعها ولكن لا طاقة لى على احتمال بعدك عنى ، رب لو احتجبت عنا برهة أقحلت أرضنا وغاضت أنهارنا فماذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب ؟ لولاه لما أحرقت نار الجحيم واشتد لهبها ، رب إن فى تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفى احتجابك عذابنا وجحيمنا] اه الكلام على تفسير البسملة وهو القسم الأول .

﴿ القسم الثانى فى تفسير السورة ﴾

(مقدمة)

اعلم أن فى مبادى السور حكما غالية وإشارات عالية ورموزا شريفة ، ألم تر إلى (سورة الفاتحة) كيف ابتدأها بعد البسملة بالحمد لله على تربيته للعالمين وقد شرحت التربية هناك ونظامها وتناسقها وعمومها فى العوالم كلها ، فهناك تربية العوالم إجمالا ، وأما (البقرة) ونحوها فهناك نكتة لطيفة وهو ابتداء السورة بحروف (الم) ولها فضلا عما ذكر بأول آل عمران [إشارتان بديعتان : الأولى] أن الحروف الهجائية هى العناصر الأولى لكل كلام نظم أو نثر ، ولن يفهم الكلام حق فهمه إلا بالرجوع لحروفه وتحليله وتقطيعه حرفا حرفا ، فلن تكون علوم البلاغة ولا الصرف ولا النحو ولا سائر العلوم العربية إلا بارجاع الكلمات لأصلها وبحثها وتقليبها على جميع وجوهها بالتصريف وغيره . وإذا كان ذلك كذلك فى علوم اللغة فأحرى أن يكون فى علوم الكون من الطبيعيات والرياضيات فلا هندسة إلا بتحليل البراهين والرجوع لأصولها . ولا حساب ولا جبر ولا فلك إلا بتحليل الأعداد ومعرفة الأولية وغير الأولية فيقال عدد (٥) أولى و (٤) زوجى و (٧) أولى وهكذا تعرف جميع الأعداد وبمعرفتها يعرف ماتركب منها . وهكذا فى الكيمياء والطبيعة فهل تعرف المركبات من الحيوان والنبات إلا بتحليلها . وهل يعرف الناس مركبا صناعيا إلا بارجاعه إلى عناصره الأولى .

هذا هو الذى يشير له ذكر الحروف فى أول السورة كسورة البقرة وآل عمران والرعد والروم والعنكبوت وغيرها وهذه النكتة عامة . وهناك لطائف خاصة كأن يقال فى البقرة مثلا (الم) هذه حروف جاءت فى قوله تعالى « ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف » الخ ، وقوله « ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى » وقوله « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه » .

فانظر

فانظر كيف أتى بقوله « الم » للاستفهام الاقرارى فى مسألة الحرب والدفاع عن البلاد وفى مسألة النظر فى العوالم ونظامها وتحليلها كما حلل إبراهيم الطير وركبه وذلك هو العلوم الطبيعية فكأن (الم) تنبيه على ذلك ، فكأن الله يحث المسلمين بهذه الحروف على معرفة الكائنات بحثا وتدقيقا وتفكيرا وتحليلا وتركيبا .

هذا ماأذكره لك فى البقرة وفى كل سورة مبدوءة بالحروف المقطعة كما تقدم بعضه فى الروم وماقبلها وما بعدها. فانظر إلى الابتداء بالحمد . قد رأيت الابتداء بالحمد لله فى سورة الفاتحة ثم فى سورة الأنعام، ففى الفاتحة يحمد الناس ربهم على التربية الاجمالية لأن السورة افتتاح للقرآن ولكن فى الأنعام الحمد لله على نعمة السموات والأرض والظلمات والنور ففيها بعض التفصيل وإظهار الجمال وبدائع النور البهوج البديع المشرق فى العالم كله والحمد فى أول (الكهف) على نور العلم كما كان فى الأنعام على نور الكواكب وإشراقها . وههنا ابتدأ السورة بالحمد على أن لله مافى السموات وما فى الأرض وليس الحمد خاصا على النجاة من الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله والمؤمنين ونصر الله للمسلمين عليهم . يقول الله : إن لى مافى السموات ومافى الأرض وأنا محمود عليهما . إن كل عبد له انتفاع بجميع العوالم . فالنعم المشتركة ينتفع بها الجميع . إن إدراك نعم الله وعمومها أعظم سعادة للمدرس لأنه يرى مالا يراه غيره ولذلك يكون سعادة أهل الجنة باصطلاحهم على خزائن إبداعه ويدركون الحقائق تامة وهو قوله « وله الحمد فى الآخرة » الخ ، وأما قوله « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها» فاعلم أنه كما يشير فى أول سورة الروم والعنكبوت والبقرة بالحروف الهجائية إلى أمور هامة فى السورة كعجائب التحليل المذكورة فى قصة إبراهيم فى سورة البقرة وكيف بدأ الله الخلق فى سورة العنكبوت ونحوها . هكذا هنا قال الله « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » يشير بذلك إلى ماسيذكر فى هذه السورة من الكشف الحديث . يريد الله أن يقول للمسلمين أنا لم ألهم عبادى أيام مجد الأوائل من سبأ وقحطان والتابعة أن يكتبوا على الأحجار ويطمروها إلا لعلمى أنها ستخرج لعبادى فى هذا الزمان . إنى ألهمت الأوائل أن يدخلوا فى الأرض مصنوعاتهم ويكتبوا أخبارهم على أحجارهم لأخرجها لعبادى المتأخرين فيعرف الآخرون ماترك الأولون عظة واعتبارا وحكمة .

ستقرأ أيها الذكى ماكشفه العلماء الألمان والنمساويون والانجليز وغيرهم فى أصقاع (سبأ) والمسلمون لايشعرون . دفن الله ذلك هناك ليرينا آثارهم فقال « يعلم مايلج فى الارض » كتلك الآثار التى أولجها فى أرض (سبأ) وما يخرج منها كما تخرج تلك الآثار اليوم كما ستراه فى هذه السورة . فانظر لماذا ابتدأ هنا بذلك . انظر أنه لم يذكر كذلك فى أول سورة إلا هذه . انظر كيف بدأ بالحمد على أن له مافى السموات وما فى الارض ليدلنا على أنه ليس النصر على الأحزاب هو النعمة وحدها . إن النعم كثيرة فاحمدوا الله عليها . ثم ذكر الولوج والخروج فى الأرض ومنها ليدلنا على ما سيأتى ذكره فى السورة من علوم تلك الأمم فى أرض اليمن . وأما قوله « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » فإنه يشير به إلى نكتة أدق وحكمة أشرف ونور أصفى وعلم أعلى وبهاء أجلى وجمال بهيج .

ذلك أنه قد ذكر فى (سورة النور) أن من الحيوانات مايمشى على رجلين . ومنه مايمشى على أربع وذكر النحل بعد ذلك وهو يمشى على ست ، وذكر العنكبوت بعد ذلك وهو يمشى على ثمانية أرجل ولم يذكر العدد؟ لأن أكثر الناس لايفطنون لذلك ولكن جعل ذلك خزائن مخزونة فى القرآن حتى يأتى هذا الجيل الاسلامى الجديد المقبل فيتغلغل فى الحكمة والعلم ويدرس الوجود ويقول انظر ياأخى . انظر كيف خبأ لنا ربنا

العجائب فى القرآن . انظر كيف جعل (٢) و (٤) من أرجل الحيوان فى سورة النور و (٦) فى سورة النحل و(٨) فى سورة العنكبوت بالترتيب ولم يعلن ذلك لعله جهل الناس وخبأه لنا لنعرفه . ثم انظر كيف جاء فى هذه السورة وقال « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها » وقد عرفت رمزه . ثم قال « وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » ومما ينزل من السماء ويعرج فيها الملائكة . وسيأتى فى (سورة فاطر) بعد هذه أنهم ذوو أجنحة مثنى وثلاث ورباع ثم قال « يزيد فى الخلق مايشاء » .

لم يذكر الله فوق الرباع فى القرآن لأن الناس لم يعرفوا من الأجنحة فوق الأربع ولا من الأرجل فوق الأربع لأنهم لم يدرسوا ولم يفطنوا إلا قليلا فذكر أنه « يزيد فى الخلق مايشاء » كأنه يقول إن للملائكة أجنحة فوق الأربع لاعدد لها والزيادة فى الخلق لاتختص بأجنحة الملائكة فهكذا فى أرجل الحيوان التى ذكر منها أربع يزيد فيها مايشاء .

ومعلوم لك أن هناك من الحيوان ماله أربعون رجلا فأكثر فهذا من زيادة الخلق كما يشاء الله تعالى . انتهى الكلام على المقدمة .

﴿ تفسير السورة ﴾

فلأشرع فى تفسير السورة ولأجعله فصولا ثلاثة [الفصل الأول] فى تفسير الألفاظ بطريق الإيجاز . [الفصل الثانى] فى جعل السورة ستة مقاصد وتفسيرها تفسيرا عاما كنت كتبته منذ عشر سنين فى بعض المجلات العلمية [الفصل الثالث] فى معجزات القرآن التى أظهرها العلم الحديث فى مسألة الجن وأنهم لايعلمون الغيب ، ثم كيف كان سد العرم لاتزال آثاره باقية للآن وكيف أظهر أسرار تلك البلاد علماء أوروبا والمسلمون نائمون هائمون ، إن ذلك كله معجزات للقرآن ، وكيف ظهرت مسألة الجن فى علم الأرواح ولا علم للمسلمين بذلك ، ولعلك تعجب حين ترى خريطة السد المذكور فى القرآن كشفها الأوروبيون (مع أن القرآن كتابهم والبلاد ملكهم) وهم لايعلمون بذلك ولا يشعرون ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الفصل الأول فى تفسير ألفاظ السورة كلها

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ * يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ * لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ

أليمٌ * وَيَرَى الذين أوتوا العلمَ الذى أنزل إليك من ربك هو الحقَّ ويهدى إلى صراط
العزيز الحميد * وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجلٍ ينبئكم إذا مزقتم كل
ممزق إنكم لفى خلق جديد * أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون
بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من
السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن
فى ذلك لآية لكل عبد منيب * ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير
وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير *
ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل
بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له
ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا
وقليل من عبادى الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض
تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب
المهين * لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق
ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم
وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل * ذلك جزيناهم
بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها
قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين * فقالوا ربنا باعد
بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك
لآيات لكل صبار شكور * ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من
المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها
فى شك وربك على كل شىء حفيظ * قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون
مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير *

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ
قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّٰهُ
وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا
نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ * قُلْ
أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللّٰهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ *
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ
الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا
لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا
وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ
إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا
أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ
الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ * وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ
فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا
أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ
لِلْمَلَائِكَةِ أَهٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا

يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ * فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا
وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَاؤُكُمْ وَقَالُوا
مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ *
وَمَا ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ * وَكَذَّبَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * قُلْ
إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ
إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ * قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ
إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *
قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ * قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ
اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ * وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا
مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ
مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ * وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى إن كل نعمة من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه من أجلها (وله الحمد فى الآخرة) كما هو له فى الدنيا لأن النعم فى الدارين كلها منه ، وحمد أهل الآخرة راجع لانكشاف الحقائق لهم فيكون الحمد على مقدار العلم وهو غزير ، ويرمز إليه ما ورد « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والحمد كما تلهمون النفس » (وهو الحكيم) الذى أحكم أمور الدارين فاستحق الحمد لذلك (الخبير) ببواطن الأشياء (يعلم ما يلج فى الأرض) كالغيث ينفذ فى موضع وينبع فى آخر وكالكنوز والدفائن والأموات (وما يخرج منها) كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون وما استخرجه علماء أوروبا من بلاد [سبأ] الآتى ذكرها ، وذلك ما أشار به العالم الألمانى ميخابلس المتوفى سنة ١٧٩١ على ملك الدانمارك أن يرسل بعثة إلى بلاد اليمن ففعل سنة ١٧٥٦ وأرسلها فعرفت بعض النقوش وقال إن اليهود والعرب لا يقدرون على قراءتها ، وأول من فكر فى ذلك الألمان فالانكليز فالفرنساويون ومنهم العلامة أرنو كان فى اليمن سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه ٥٦ نقشا نقلها عن آثار صنعاء والخربة ومأرب وحرم بلقيس ، وأيضا أحضر خريطة سد مأرب وهو أول من تمكن من مشاهدة آثار ذلك السد ، فلهذا ذكر الله هنا ما يلج فى الأرض وما

يخرج منها لعلمه بما سيحصل فى بلاد الاسلام وأن الأمة الاسلامية سيتولاها الانحطاط وتصبح غبية جاهلة ويأتى الفرنجة يبحثون عن أسرارها وأهلها نائمون عابثون جاهلون جامدون كما حصل فى هذه القرون إذ يكون تفسير هذه السورة ومعجزاتها وسد مآرب الذكور فيها والجنتان كل ذلك مطمور مخزون فى الأرض، ومن المسلمين من يقرأ القرآن وهو جاهل « كالحمار يحمل أسفارا » والفرنجة يأتون فيقرءون ويتعلمون تاريخ أسلافنا ويرون أنهم كانت لهم مدنية عظيمة ويرون أبناءهم التابعين لأعظم نبى أصبحوا جاهلين بكل شىء، بتاريخ أسلافهم، بمعانى كتابهم، علم الله ذلك كله قبل وقوعه فقال « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » مشيرا إلى ما سيأتى فى هذه السورة، يقول الله إنهم ما أولجوا آثارهم فى الأرض إلا بعلمى ولا أخرجها الفرنجة إلا بعلمى لأنى لا أفعل إلا الحكمة، انظروا النحم كيف خزنته فى الأرض قبل أيكم آدم وأخرجته لكم الآن. هكذا خزنت عجائب سبأ وشوشهم وأمرت أهل أوروبا فاستخرجوه ووضعت هذه الآية فى أول هذه السورة لأنبه المسلمين أن يستيقظوا فيتعلموا علوم الأمم ويبحثوا على ما خبأته فى الأرض إنى خبأت فى الأرض عجائب طبيعية وصناعية، فلئن لم يتفطن لها المسلمون ويستخرجوها فوعزتى وجلالى لأخرجنهن منها ولأملكنها لغيرهم، إنى لا أعطى النعمة إلا لمن يستحقها فان نام المسلمون فلأمنعن عنهم نسيم الحياة وأسلط عليهم الأمم، أنا كنزت هذه الكنوز كما كنزت لليتيمين فى المدينة كنزا ولما بلغا أشدهما أخرجته لهما، هكذا المسلمون كانوا أيتاما جهالا فاذا بلغوا الرشد فى هذا الزمان سلمتهم الأمانة المخزونة فى الأرض حتى يعرفوا مجد القدماء ويستفيدوا من علومهم ويزيدوا عليها وتكون لهم مدنية أرقى من مدنية أولئك الأقوام، وإلا أسكنت الأرض غيرهم ويكونون خيرا منهم، إنى عدل رءوف رحيم حكيم عليم، ماخلقت خلق عبثا، أنا الحكم العدل لا أحيد ولا أميل وأعطى النعمة لمن يفهمها وأطرد عنها من لا يعقلها.

يقول مؤلف الكتاب: إن هذا التفسير وأمثاله جعل تنبيها للمسلمين حتى يفطنوا وهو أشبه بعتبه عام، فعلى كل ذكى أن يسير على هذا المنوال ويوقظ الأمة فان كل من قرأ هذا القول مسئول عن أمته فليتواصوا بالحق وليتواصوا بالصبر، وإنى لعلى رجاء عظيم أن يهدى الله بهذا التفسير أمما ويحيى قلوبا ويشرح صدورا ويسعد دولا إنه هو الغنى الحميد وقوله تعالى (ومايتزل من السماء) كالملائكة والكتب والمقادير والأرزاق والمطر والأنوار والصواعق، وبالجملة أكثر ماجاء فى علم الآثار العلوية من علوم الفلسفة الطبيعية وعددها ثمانية مذكورة فى كتاب الفلسفة الذى جعلته مختصرا للناشئين (وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والأدخنة والطيارات والمناطيد الجوية (وهو الرحيم الغفور) للمفرطين فى شكر نعمه مع كثرتها (وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة) إنكارا لها واستبطاء واستهزاء (قل بلى) رد لكلامهم (وربى لتأتينكم عالم الغيب) لايفوت عليه شىء من الخفيات (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) الذرة أصغر نملة، والكتاب المبين اللوح المحفوظ، وقد تقدم تفصيل الكلام على هذه المعانى فى أول [آل عمران] وفى سورة [يونس] وغيرها فارجع إليها. وقوله (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات) متعلق بقوله «لتأتينكم» وقوله (أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى لاتعب فيه ولامن عليه (والذين سعوا فى آياتنا) بالإبطال وتزهيد الناس فيها (معاجزين) مسابقين كى يفوتونا (أولئك لهم عذاب من رجز) سيىء العذاب (أليم) مؤلم (ويرى الذين أوتوا العلم) أى ويعلم أولو العلم من مسلمى أهل الكتاب (الذى أنزل إليك من ربك) القرآن (هو الحق) بالرفع والنصب (ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) وهو دين الله (وقال الذين كفروا) أى قال بعضهم لبعض (هل ندلكم على رجل ينبئكم) يحدثكم بأعجب الأعاجيب (إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد) إنكم تنشئون خلقا جديدا بعد أن تمزق أجسادكم كل تمزيق وتفريق

بحيث

بحيث تصير ترابا (أفترى على الله كذبا أم به جنة ؟) جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه (بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى عن الحق فى الدنيا (أفلم يروا إلى مابين أيديهم وماخلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض وإنهما حيثما كانوا وأينما ساروا أمامهم وخلفهم محيطان بهم لايقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ولم يخافوا أن يخسف الله بهم أو يسقط عليهم كسفا لتكذيبهم لآيات الله (إن فى ذلك) النظر إلى السماء والأرض والفكر فيهما وفيما يدلان عليه (لآية) لدلالة (لكل عبد منيب) راجع إلى ربه مطيع له إذ المنيب هو الذى ينظر لآيات الله ويعرف أنه قادر على البعث (ولقد آتينا داود منا فضلا) وقلنا (ياجبال أوّبى معه) من التأويب أى رجعى معه التسبيح: إما بخلق صوت مثل صوته ، وإما بأنها تحمله على التسبيح إذا تأمل عجائبها فهى له مذكرات كما يذكر المسبح مسبحا آخر ، وقوله (والطير) معطوف على محل الجبال وكان الأصل « ولقد آتينا داود منا فضلا » تأويب الجبال والطير فبدل به هذا النظم لفخامته (وألنا له الحديد) وجعلناه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء (أن) بمعنى أى (اعمل سابغات) أى دروعا كوامل واسعات تسحب فى الأرض (وقدر فى السرد) ضيق فى نسيج الدروع ، أو اجعل النسج على القصد وقدر الحاجة (واعملوا) ياداود وآل داود (صالحا إنى بما تعملون بصير ،و) سخرنا (لسليمان الريح غدوّها شهر ورواحها شهر) جريها بالغداة مسيرة شهر وبالعشى كذلك (وأسلنا له عين القطر) النحاس المذاب إسالة من معدنه فنبع منه نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا (ومن الجن من يعمل بين يديه) من يعمل معطوف على الريح ، وقوله «من الجن» حال متقدمة (باذن ربه) بأمره (ومن يزغ منهم عن أمرنا) ومن يعدل منهم عما أمرناه من طاعة سليمان (نذقه من عذاب السعير) عذاب الآخرة (يعملون له مايشاء من محاريب) قصور حصينة ومساكن شريفة ، سميت بذلك لأنه يحارب عنها (وتماثيل) وصورا أو تماثيل للملائكة والأنبياء على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناس فيعبدون على عادتهم . يقال إنه كان له أسدان فى أسفل كرسيه ونسران فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما (وجفان) قصاع (كالجواب) كالحياض الكبار جمع جابية من الجباية وهذه من الصفات الغالبة كالدابة (وقدور راسيات) ثابتات على أثافيها لاتحرك ولاتنزل عن أماكنها لعظمهن وكان يصعد إليها بالسلالم وقلنا (اعملوا) يا (آل داود شكرا) أى اعملوا بطاعة الله شكرا على نعمه والمراد بآل داود إما هو وحده أو هو وسليمان وأهل بيته وليس بهمنا تحقيقه (وقليل من عبادى الشكور) أى قليل العامل بطاعتى شكرا لنعمتى (فلما قضينا عليه الموت) أى على سليمان (ما دلهم على موته) مادل الجن أو آله (إلا دابة الأرض) أى الأرضة ، أضيفت إلى فعلها ، والأرض بسكون الراء أو فتحها ، يقال أرضت الأرضة الخشبة أرضا فأرضت أرضا فالفعل الأول كضرب والثانى كفرح (تأكل منسأته) عصاه ، تقول نسأت البعير إذا طردته وهى يطرد بها (فلما خرّ) وقع سليمان (تبينت الجن) علمت الجن كلهم علما بينا بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم (أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا) بعد موت سليمان (فى العذاب المهين) أى لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته حينما وقع فلم يلبثوا بعد موته حولا فى تسخيره . وروى أن داود أسس بيت المقدس فى موضع فسطاط موسى عليه السلام فمات داود قبل تمامه فوصى به إلى سليمان فاستعمل الجنّ فلم يتم ودنا أجله فأعلم به فأراد أن يعمى عليهم موته ليتموه فدعاهم فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس فيه باب فقام يصلى متكئا على عصاه فقبض روحه وهو متكئ عليها ، فبقى كذلك حتى أكلتها الأرضة فخر ثم بحثوا عنه فوجدوا بحسب مقادير أكل الأرضة أنه قد مات منذ سنة وكان عمره ٥٣ سنة وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وابتدأ عمارة بيت المقدس لأربع مضين من ملكه .

هذا ماجاء فى كتب المفسرين رحمهم الله وسيأتى فى الفصل الثالث مقصود هذه القصة وأنها من المعجزات النبوية لأن هذا المقصود هو نفسه الذى شرحته الأرواح فى الوقت الحاضر وهو عجيب وهذا داخل فى قوله تعالى — يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها .

ثم قال تعالى (لقد كان لسبأ) لأولاد سبأ من نسل قحطان (فى مسكنهم) أو مساكنهم قراءتان أى فى مواضع سكناهم وهى اليمن يقال لها مأرب بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة فراسخ (آية) علامة دالة على وجود الصانع المختار ، والآية المذكورة (جنتان) جماعتان من البساتين (عن يمين وشمال) جماعة من يمين بلدهم وجماعة عن شماله كل واحدة منها فى تقاربها وتضايقها كأنها جنة واحدة أو لكل رجل بستانان بستان عن يمين مسكنه وبستان عن شماله ، قد أظهر الكشف الحديث الآتى الرأى الأول فقال لهم الله على ألسنة أنبيائهم : هذه البلدة التى فيها رزقكم (بلدة طيبة) وربكم الذى رزقكم (ربٌّ غفور) لمن شكره . قال ابن عباس وكانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء ، يقال انها كانت أخصب البلاد ، وأما طيبها فليس بها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حية وسترى تحقيق أهم هذه الأمور (فأعرضوا) عن الشكر (فأرسلنا عليهم سيل العرم) أى السد وهو جمع عرمة وهى الحجارة المركومة كالخزان فى وادى النيل عند اسوان يحجز الماء وكان ذلك بين زمن عيسى ومحمد ﷺ ، وهذا السدّ له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع أمام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل (وبدلناهم بجنتيهم) المذكورتين (جنتين) سميتا جنتين لمشاكلة (ذواتى أكل خمط) الأكل الثمر ، والخمط كل نبت أخذ طعما من المرارة وشجر الأراك وكل شجر ذى شوك (وأثل) هو الطبل وهو أكبر من الطرفاء وأعظم منه (وشىء من سدر قليل) وهو شجر معروف ينتفع بورقه فى الغسل وثمره النبق وهما معطوفان على أكل لاعلى خمطه ، ألا ترى أن الطرفاء لاثمر لها فلا تكون فى حيز المأكول وفى أكل خمط قراءتان الإضافة والتنوين وعلى الثانى يكون بدلا أو عطف بيان (ذلك جزيناهم بما كفروا) أى بكفرهم (وهل نجازى إلا الكفور) وفى قراءة « وهل يجازى » (وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها) بالتوسعة على أهلها وهى قرى الشأم (قرى ظاهرة) متواصلة يظهر بعضها لبعض أوراكبة متن الطريق ظاهرة لأبناء السبيل (وقدرنا فيها السير) بحيث يقيل الغادى فى قرية ويبيت الرائح فى قرية إلى أن يبلغ الشام وقيل لهم بلسان الحال (سيروا فيها ليالى وأياما) متى شئتم من ليل أو نهار (آمنين) لا يختلف الأمن فيها باختلاف الأوقات (فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) أى انهم بطروا النعمة وملوا العافية كبنى اسرائيل فسألوا الله أن يجعل بينهم وبين الشام مفاوز ليتطاولوا فيها على الفقراء بركوب الرواحل وتزود الأزواد فأجابهم الله بتخريب القرى المتوسطة (وظلموا أنفسهم) حيث بطروا النعمة ولم يعتدوا بها (فجعلناهم أحاديث) يتحدث الناس بها تعجبا وضرب مثل فيقولون تفرقوا أيادى سبأ أى كما تفرق أبناء سبأ فى البلاد كما سيأتى تفصيله (ومزقناهم كل ممزق) وفرقناهم غاية التفريق (إن فى ذلك) فيما ذكر (لآيات لكل صبار) عن المعاصى (شكور) على النعم (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه) بالتشديد أى حقق ظنه أو وجده صادقا ، وبالتخفيف أى صدق فى ظنه (فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى إلا فريقا هم المؤمنون لم يتبعوه (وما كان له عليهم) على التبعين (من سلطان) تسلط واستيلاء بالوسوسة والإغواء (إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى ليتميز المؤمن من الشاك (وربك على كل شىء حفيظ) محافظ رقيب . واعلم أن هذه الآيات من قوله « ولقد صدق عليهم ابليس ظنه » جىء بها كما هى عادة القرآن بعد ذكر القصص لاستنتاج العلم من أحوال الأمم لأن المراد تعلم المسلمين لا مجرّد القصص وسردها . يقول الله إن ابليس لا سلطان له على قلوب الناس وانى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على

العيون القذرة والوباء على البلاد التى تستحقه لتعفن جوها، فلست أضل إلا الحكمة فى سمع وسوسة للوسوس فهو المذنب وحده، فإذا حلّ الوباء بأرض مات من لاقدرة له على الحياة لاستعداده للموت وبقى من له استعداد للحياة هكذا فى الوسوسة يفرق الله بها بين الثابت العقيدة ومزلزلها وهكذا جميع حوادث الدنيا من الفتات والتمكن منها والحوادث المؤلمة وحلولها ليثبت القادر ويسقط الضعيف وهكذا الأمم الأوروبية جعلها الله محكا لأهل الشرق فمن صادمهم وصبر على مكاوحتهم فاز بالاستقلال ، ومن جزع منهم وخاف وهلع وخضع أصبح أسيرا لهم وأذاقوه سوء النكال . هذا ماتفيده الآية إذ يقول تعالى « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم » الخ ثم قال تعالى (قل) يامحمد للمشركين (ادعوا الذين زعمتم) أى زعمتوهم آلهة (من دون الله) ليكشفوا عنكم الضر الذى نزل بكم فى سنى الجوع. ثم أفاد عجز الآلهة فقال (لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) يعنى من خير وشر ونفع وضر (ومالهم) أى للآلهة (فيهما) فى السموات والأرض (من شرك) من شركة (وماله) لله (منهم) من الآلهة (من ظهير) معين يعينه على تدبير أمرهما (ولاتنفع الشفاعة عنده) أى لاتنفعهم شفاعتهم أيضا عنده تعالى فلا شفاعة عند الله (إلا لمن أذن له) أى إلا لمن أذن الله له أن يشفع والله لا يأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين فيخرون صعقين عند الموت (حتى إذا فزّع) كشف وجلى (عن قلوبهم) الخوف والفزع (قالوا ماذا قال ربكم) أى قالت الملائكة لهم: ماذا قال ربكم فى الدنيا لإقامة الحق (قالوا الحق) أى قال المشركون الحق فأقروا به حين لم ينفعهم الإقرار (وهو العلى الكبير) أى ذو العلو والكبرياء ، وللآية وجه آخر فى التفسير وهو أن الله تعالى لما قال « ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » ذكر حالا من أحوال الذين يؤذن لهم بالشفاعة وهم الملائكة لا الأصنام لأن الملائكة وسائط الوحى ، وقد تقدم فى [سورة البقرة] أن التعليم بذر الشفاعة فقال إن الملائكة ينتظرون الإذن خائفين فزعين حتى إذا فزع عن قلوبهم بالإذن قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فى الشفاعة ؟ قالوا: قال القول الحق وهو الاذن بها لمن ارتضى وهم المستعدون لها ، وهذا المعنى فصله حديث الترمذى « إن الله إذا تكلم بالوحى سمع أهل السموات صلصلة كجرّ السلسلة على الصفا فيصعقون فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل فاذا جاء فزع عن قلوبهم فيقولون يا جبريل ماذا قال ربك ؟ فيقول الحق ، فيقولون الحق »

واعلم أن حال العلماء والحكماء فى الأرض فيها بعض الشبه بذلك . ألا ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم عند الوحى كان كأنه مغشىّ عليه ويتتابه العرق ثم يكشف عنه ذلك فينطق بما أوحى به إليه . ألا ترى أن الانسان لايعرف علما إلا إذا صرف كل قواه العقلية إلى الفكر وحصر كل همه فى الفهم حتى يعقل ما هو بصدده . إن هذا الذى ذكر فى الآية والحديث يشير إلى أن العلوم والحكمة من عالم مغاير لعالمنا فلاينال ملك ولا نبىّ ولا عالم شيئا منه إلا بأن تكون كل قواه محصورة فى العالم الروحى، وأقلّ الناس فى ذلك العلماء، وأعظم منهم الحكماء، وأرقى منهم الأنبياء والملائكة فاستغراق هاتين الطائفتين أشد والله أعلم .

﴿ الكلام فى محاجة الكافرين والمعاندين والمترفين والمرءوسين وما هو من هذا النحو ﴾

لما تقدم قوله تعالى «لا يملكون مثقال ذرة» الخ أتى هنا بتقريره فقال (قل من يرزقكم من السموات والأرض؟ قل: الله) فلا جواب سواه (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى ما نحن وأنتم على أمر واحد، بل أحد الفريقين مهتد والآخر ضال وذلك على طريق الإلزام والانصاف فى الحجاج، إذ يقول القائل أحدنا كاذب وهو يعلم أنه صادق وصاحبه كاذب فكذبهم من غير تصريح بالتكذيب (قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) وهذا أدخل فى الانصاف إذ أسند الإجرام لأنفسهم والعمل للمخاطبين (قل يجمع بيننا ربنا) يوم القيامة (ثم يفتح بيننا بالحق) يحكم ويفصل بأن يدخل المحقين الجنة والمبطلين النار

(وهو الفتاح) الحاكم الفيصل (العليم) بما ينبغى أن يقضى به (قل : أرونى الذين ألحقتم به شركاء) لأرى بأى صفة ألحقتموهم بالله فى استحقاق العبادة ، استفسر عن شبهتهم بعد إلزام الحجة عليهم فى تبكيتهم (كلا) ردع لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايسة أى ارتدعوا (بل هو الله العزيز الحكيم) الموصوف بالغلبة وكمال القدرة والحكمة ، فأما من ألحقتموهم به فلا قبول العلم عندهم ولا القدرة (وما أرسلناك إلا كافة للناس) إلا إرسالة عامة لهم فهى كفتهم أى منعتهم أن يخرج منها أحد منهم أو إلا حال كونك جامعا لهم فى الإبلاغ والتاء للمبالغة (بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون) فيحملهم جهلهم على مخالفتك (ويقولون) من فرط جهلهم (متى هذا الوعد) يعنون المبشر به والمنذر عنه (إن كنتم صادقين) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين (قل لكم ميعاد يوم) أى وعد يوم (لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) إذا فاجأكم وهو جواب معطوف على التهديد مطابق لما قصدوه من التعنت والإنكار (وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) ولا بما تقدمه من الكتب ، وذلك أن أهل مكة سألوا أهل الكتاب عنه صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم فغضبوا وقالوا ذلك (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم) فى موضع المحاسبة (يرجع بعضهم إلى بعض القول) يتحاورون ويتراجعون القول (يقول الذين استضعفوا) يقول الأتباع (للذين استكبروا) للرؤساء (لولا أنتم لكنا مؤمنين) فأنتم الذين منعتمونا عن الإيمان (قال الذين استكبروا) أجاب المتبوعون فى الكفر (للذين استضعفوا : أنحن صددناكم) منعناكم (عن الهدى) عن الايمان (بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين) بترك الايمان (وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار) أى بمكركم بنا فى الليل والنهار أى لم يكن إجرامنا الذى صدّنا بل مكركم لنا دائبا ليلا ونهارا حتى غيّرتم علينا رأينا (إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) وذلك أن القادة يقولون للأتباع إن ديننا الحق وإن محمداً كذاب ساحر فإذن طاعة الكفار بعضهم لبعض تكون سببا لعداوتهم فى الآخرة كما هو مشاهد فى قطاع الطرق والفسقة إذا وقعوا فى أيدى الحكام والقضاة فإنهم يتعادون (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر الفريقان الندامة على الضلال والإضلال (وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى فى أعناقهم (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى لا يفعل بهم ذلك إلا جزاء على أعمالهم (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) ذلك تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن المتنعمين المنغمسين فى الشهوات هم الذين يحملهم التكبر والمفاخرة بزخارف الدنيا على النفور من الكمال والحكمة والعلم والايمان لأن الضدين لا يجتمعان فمن هو منغمس فى الشهوات واللذات كيف يخلص عقله للكمال ، ثم أخذوا يربطون الكمال النفسى بالكمال المادى (وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً) ولم يكن ذلك إلا لرضاء الله علينا ولو كان ديننا باطلا ما منحنا هذه النعم فنحن مكرمون (وما نحن بمعذبين . قل) ردّاً لزعمهم (إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) يوسع ويضيق امتحانا وابتلاء فلا علاقة للكمال الروحى بالكمال الجسمى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنها كذلك فيخلطون فى أحكامهم ويعلقون أحد الأمرين على الآخر (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى) أى بالتى تقربكم عندنا تقريبا (إلا) لكن (من آمن وعمل صالحا) أى إيمانه وعمله يقربه منى ، فالأموال والأولاد لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح الذى ينفق ماله فى سبيل الله ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح (فأولئك لهم جزاء الضعف) أى أن يجازوا الضعف إلى عشر إلى سبعمائة فأكثر (بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) من المكاره (والذين يسعون فى آياتنا) بالرد والطعن فيها (معاجزين) مسابقين لأنبيائنا أو ظانين أنهم يفوتوننا (أولئك فى العذاب محضرون . قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) هذا فى الانسان الواحد فى وقتين مختلفين وما تقدم فى شخصين مختلفين (وما أنفقتم من شىء فهو

يخلفه

بخلفه) عوضا إما عاجلا أو آجلا (وهو خير الرازقين) ولا رزق من غيره إلا أن يكون واسطة فى ذلك فالرازق حقيقة هو الله (ويوم يحشرهم جميعا) المستكبرين والمستضعفين (ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) تقريعا للمشركين وتبكيتا لهم وإقناطا لهم من توقع شفاعتهم (قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى الذى نواليه من دونهم لا موالاة بيننا وبينهم (بل كانوا يعبدون الجن) أى الشياطين إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم أو يعبدونهم هم أنفسهم، إذ يفهمونهم أنهم هم الملائكة تضليلا فيستغيثون بهم فى قضاء حوائجهم كما هو مشهور عند أرباب العزائم والسحرة ، فأما نحن فاننا ندعوا الناس إلى الخير والفضل ، لجواهر نفوسنا وتائجها مخالفات لجواهر الجن ونتائجها (أكثرهم بهم مؤمنون) أى مصدقون للشياطين إما باستحضارهم بطرق التحضير ، وإما بالوسوسة (فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) بالشفاعة والعذاب أى إنهم عاجزون لا نفع عندهم ولا ضرّ لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار ،لايملك فيه أحد منفعة ولا مضرة لأحد (ونقول للذين ظلموا) بوضع العبادة فى غير موضعها (ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) فى الدنيا (وإذا تتلى عليهم آياتنا) أى قرئ القرآن عليهم (بينات) واضحات (قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا) أى القرآن (إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا) إظهار فى موضع الإضمار للانكار عليهم أى قالوا (للحق) للقرآن أو لأمر النبوة (لما جاءهم) وعجزوا عن الاتيان بمثله (إن هذا) أى الحق (إلا سحر مبين) أى بين ظاهر فكل عاقل يتأمله يسميه سحرا (وما آتيناهم من كتب يدرسونها) تدلهم على صحة الاشراك (وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) يدعوهم إلى الشرك وينذرهم على تركه فمن أين هذه الشبهة ؟ ثم أخذ يهددهم فقال (وكذب الذين من قبلهم) كما كذبوا (وما بلغوا معشار ما آتيناهم) أى وما بلغ هؤلاء عشر ما آتينا أولئك من القوة وطول العمر وكثرة المال (فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أى حين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير فكيف كان نكيرى لهم ، فليحذر هؤلاء مثلهم (قل إنما أعظكم بواحدة) أى أرشدكم وأنصح لكم بخصلة واحدة هى ما دل عليه قوله (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى هو القيام والانتصاب فى الأمر والنهوض بالهمة فتقوموا لوجه الله خالصا ثم تتفكروا فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم اثنين اثنين أو فرادى ، فأما الاثنان فيعرض كل واحد منهما رأيه على الآخر ، وأما الفرد فيفكر فى نفسه أيضا بعدل ومنصفة هل رأينا فى هذا الرجل جنونا . وهذا قوله تعالى (ما بصاحبكم من جنة) أى فتتفكروا هل بصاحبكم من جنون أو مابصاحبكم من جنون ؟ (إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) قدامه لأنه مبعوث قبيل الساعة (قل ماسألتكم من أجر) أى أىّ شىء سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) وهذا وماقبله يرجعان إلى أن دعوى النبوة بلا حقيقة لها إما أن يكون لجنون أولتوقع نفع دنيوى، فأما الجنون فلينظر فيه بالفكر مثنى وفرادى، وأما النفع الدنيوى وهوالأجر فهومنتف أيضا (إن أجرى إلاعلى الله وهوعلى كل شىء شهيد) مطلع يعلم صدق وخلوص نيتى (قل إن ربى يقذف بالحق) يقول بعد نفى كل من الجنون وتوقع الأجر فى الدنيا قل لهم إن ربى يأتى بالوحى من السماء فيقذفه إلى الأنبياء (علام الغيوب) خفيات الأمور (قل جاء الحق) أى القرآن والاسلام (وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى ذهب الباطل وزهق فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده (قل إن ضللت) عن الحق (فانما أضلّ على نفسى) فوبال ضلالى عليها (وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى) فان الاهتداء بهدايته (إنه سميع قريب) يدرك قول كل ضال ومهتد (ولوترى إذ فزعوا) عند الحوادث العظام من هلاك فى الدنيا كما حصل فى حرب بدر وغيرها أو عند الموت أو يوم البعث لرأيت أمرا فظيعا (فلا فوت وأخذوا من مكان قريب) من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو من الموقف إلى النار ، أو من صحراء بدر إلى القليب هناك (وقالوا آمنا به) بمحمد حين عاينوا العذاب

عند اليأس (وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى كيف لهم تناول مابعد عنهم وهو الإيمان والتوبة وقد كان قريبا منهم فى الدنيا فضيعوه ، فاذا سألوا الرد إلى الدنيا يقال : وأنى لهم الرد إلى الدنيا ؟ (وقد كفروا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم (من قبل) من قبل ذلك أوان التكليف (ويقذفون بالغيب) ويرجمون بالظن ويتكلمون بما لم يظهر لهم من الرسول صلى الله عليه وسلم (من مكان بعيد) من جانب بعيد عن الصدق والحق والصواب كقولهم هو شاعر وساحر الخ فهذا منهم تكلم بالغيب والذى لم يشاهدوه فهو من جهة بعيدة عن حاله الشريفة صلى الله عليه وسلم (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من نفع الايمان والنجاة به من النار بعدما فاتت فرصته فى الحياة الدنيا وهم كافرون وقاذفون بالقول بلا روية ولا فكر فى أمر النبوة (كما فعل بأشياعهم من قبل) أى بأشباههم من كفرة الأمم الدارجة (إنهم كانوا فى شك مريب) موقع فى الريبة والتهمة وهو وصف للشك وصف به الشك مبالغة . انتهى الفصل الأول وهو تفسير ألفاظ السورة كلها .

(الفصل الثانى)

نذكر فى هذا الفصل ماكنت كتبته ملخصا لتفسير هذه السورة منذ أكثر من عشر سنين ليجمع المعنى بسهولة عند الأذكياء .

اعلم أن هذه السورة تشتمل على [ستة مقاصد : الأول] إثبات الوحدانية [الثانى] إثبات علم الله . [الثالث] إثبات يوم البعث بما يشاهد من العجائب [الرابع] آراء العلماء فى القرآن وآراء الجهلاء [الخامس] ذكر أمتين عظيمتين غنيتين إحداهما أطغاها الغنى فكفرت وهى سبأ وأخرى شكرت وهم آل داود وسليمان وجوزى كل بما فعل [السادس] تعليم الناس الاستقلال فى الرأى ونبذ الأوهام حتى لاتخدعهم صورة ممثلة ولا رئيس ضليل ولايغرهم مال ولا يطغيهم ترف ولايعبدون ملكا ولا جنا ولكن يكونون أحرارا خالصين مخلصين فينالون السعادة فى الدنيا والآخرة كداود وسليمان عليهما السلام وكالنبى صلى الله عليه وسلم كما ذكر فى سورة الأحزاب .

(المقصد الأول والثانى والثالث)

من أول السورة إلى قوله «من رجز أليم»

ابتدأ السورة بحمد الله عز وجل وبيان اختصاصه بملك العالم العلوى والسفلى وليس فى الآخرة من نعمة إلا من فيض فضله وتمام نعمته فهو المحمود فى الدارين المشكور على النعمتين توطئة لما سيذكر فى السورة من ملك داود وسليمان إذ عرفا لله حق النعمة واعترفا أنها من الله وشكرا عليها وإلماعا إلى سبأ بكفرهم بالنعمة وإعراضهم عن الحمد وتقطيعهم الأرحام وتمزيقهم شمل الأمة « جزاء وفاقا » بما عملوا ومزقوا كل ممزق لما أعرضوا ، وإيذانا بأن من خدعوا بالأصنام أو اغتروا بالرؤساء الذين استكبروا أو عبدوا الملائكة أوقالوا للضعفاء نحن أكثر أموالا وأولادا فان أولئك غافلون وجزاؤهم المقت والغضب والارتطام فى أوحال الشبهات والغرق فى غمرة الجهل واستعباد الرؤساء لهم وتعذيبهم لما غفلوا عن مسبب النعمة ومسديها .

ثم أفاد أنه يعلم أجزاء المادة وإن دقت وصغرت وصفاتها من حركة وسكون وولوج وخروج ونزول وصعود ويعلم مافوق ذلك من ملك .

كيف لا ونحن نشاهد عجائب الكيمياء فنعجب كيف وزن الذرات وزنا بديعا حتى إنك لترى الأكسوجين والأدروجين فى الماء مثلا لاتزيد ذرة منهما أو من أحدهما عما رسم لها فى تركيب الماء وتلك الذرات دقيقة لاترى بالمنظار المعظم . وهكذا العناصر الداخلة فى تركيب الأشجار والزروع ، فلقد وضح أن ما ألف منها النبات بمقدار معلوم فترى الجير مثلا فى القطن وفى القمح وله مقام معلوم فى كليهما لايتعداه . وهذا هو السر المصون العجيب المعبر عنه بقوله «ولا أصغر من ذلك» .

فإن ذرات الكيمياء أصغر من ذرات الهباء صغرا لا حد له . ولا جرم أن الذى يعلم دقائق الأشياء كما نشاهده لايغفل عن أفعال العباد . فاذا وزن الذرات فى تركيب النبات فما أحراه أن يزن أفعال العباد ليوم الميعاد فذكرنا الله بقوله « وربى لتأتينكم » وهذا قسم للتأكيد على نهج البلاغة ، ثم أتبعه بالبرهان العلمى والدليل الطبيعى والكيماوى للحكماء على سبيل الارتقاء فقال «ولا يعزب عنه مثقال ذرة» . . الخ فتعجب وتأمل وادرس العلم واقرأ الحكمة حتى تفهم السر المصون وذلك قوله تعالى « يعلم مايلج فى الأرض إلى قوله من رجز أليم » .

(المقصد الرابع)

إن عقلاء الأمم وعلماء الديانات يرون أن هذا القرآن يوافق ماأوتوا وأنه هدى . وأما الجهال فانهم تائهون فى أودية الضلال لا حجة لهم إلا الاستبعاد . ولا دليل لهم إلا الاستهزاء والايذاء بما يهرفون من جنة يدّعونها وكذبة يفترونها . ذلك لقصر نظرهم عما أبدع فى الأرض والسماء وما وزن فى المركبات من الذرات مما لايفهمه إلا العلماء دارسون لهذا النظام . فما أحرى السماء أن تنزل عليهم كسفا وما أجدر الأرض أن تخسف بهم خسفا فانهم يعيشون عليها وهم لايعقلون ويأكلون خيرها وهم لايدرسون قال تعالى « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد» إلى قوله تعالى « إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب » .

(المقصد الخامس)

فيه غرضان الأول : من أوتى مالا وعلما وحكمة فعرف وشكر وآمن بالبعث وهدى الناس .

والثانى : من أوتوا النعمة ففرحوا وأعجبوا واستكبروا وطغوا فهلكوا هما أمتان ذكرهما الله عز وجل كانتا فى جزيرة العرب فبنوا إسرائيل بالشام ومنهم داود وسليمان عليهما السلام وسبأ كانوا فى اليمن وماأنسب ذكرها بسورة الأحزاب وما أعجب قصص القرآن ! ألم تر كيف أنعم على النبى بنعمة النصر والفتح والهدى . وهل أنسب لذلك من أمر داود وسليمان عليهما السلام ولبلاد سبأ ببلاد الشام علاقة متينة قوية . .

ألم تر إلى قصة بلقيس وسليمان عليه السلام أيام شباب الدولة الاسرائيلية فإن بنى إسرائيل كان لهم أدوار ثلاثة . (الدور الأول) ذلهم فى مصر نحو أربعمائة سنة وعشرات (الثانى) ملكهم تحت حكم الشيوخ السبعين نحوا من ذلك بالشأم . (الدور الثالث) دور الملك والعظمة وذلك فى زمن داود وسليمان عليهما السلام . وذلك أيام بلقيس . ولذلك الإشارة بقصة طالوت وجالوت وداود فى البقرة وقصة بلقيس فى النمل . وأما قصص فرعون معهم فما أوضح ما ذكر فى أول الشعراء فى ذلك . ولقد كانت دولة الحميريين والتبابعة قوية ذات مجد

وسلطان وعظمة لما أشبهها بدولة بنى إسرائيل فى زمن سليمان وداود . [والـكل من الدولتين قدم راسخة فى صناعة التماثيل وبناء المحاريب والأبهة والجلال والعظمة] ولقد أصبح القطران فى حوزة الأمم الإسلامية الآن ، فاليمن معروفة أخبارها مشهورة آثارها خاوية من الصناعة فارغة من العلم إلا قليلا ، وكذلك أرض الشأم . ملك الله المسلمين القطرين منذ أيام العصر الأول وقص عليهم قصص الأمم التى سكنتهما والأجيال التى قطنتهما والملوك التى دبرتهما ليذكر المسلمون وليعتبروا وليعلموا أن التقاطع سفير العذاب ونذير الخراب وأن هذه البلاد سيملكونها ، فإياكم أن تكونوا كسبأ إذ أغدقنا عليهم النعم وملكناهم اليمن وجعلنا بلادهم من الماء والخصب كأنهما جنتان بحيث يراها الذاهب إليها جنتين عن يمينه وشماله أو لكل مسكن جنتان هو قائم بينهما على النظام الأوروبى العصرى الذى حرم منه المثرون عندنا وتمتع به صغار العملة هناك ، وهل كان ذلك النظام البديع إلا بإتقان علم الزراعة والابداع فى فن الصناعة ودرس علم الصحة وكيف تنظم المساكن وكيف تحاط بالبساتين إلا بالهندسة المدروسة وتقويم الصحة ، وكيف بنى السد المسمى بالعرم أو السكر أو النجف أو المسناة ليحجز الماء إلا بإتقان فن الهندسة والبناء وعلم الرى ونظام الجسور . وهل تلك الطبقات الثلاث فى المسناة أو العرم التى تنزل الماء بقدر معلوم فالمنفذ الأعلى يليه الأوسط فالأسفل إلا بحكمة وعلم . وهل تستطيع الأمم الوحشية ذلك ؟ كلا .

لقد كان العمران متواصلا مارا فى تلك الصحارى المقفرة الآن . والآثار الدارسة حتى يصل بلاد الشأم التى بارك الله لأهلها من بنى إسرائيل وغيرهم . ألا تعجب . كيف دمر ملكهم وهل ينزل البلاء ويستعصى الداء . ويعوز الدواء ، إلا إذا جهلوا ما به الحياة وانصرفوا عن الحكمة الموروثة وتقاطعوا وتميزوا طرائق ، وتباينوا خزائق ، فجهلوا الهندسة وتركوها ، وأغفلوا الصناعة ونبذوها وضلوا عن الزراعة فلم يتعهدوها ، وأعرضوا عن علوم الرى فلم يدرسوها ، وانصرفوا عن نعم الله فلم يشكروها ، واتبعوا ما يقول الجاهلون ، ويبتدعه لهم الدجالون فيقولون [سيفتح العرم فأرة فاربطوا هرة تحفظه وترعاه كما فعل المصريون أيام قمبيز إذ أحجموا عن ضرب الفارسيين خوف الهرر أن تصاب] « قتل الإنسان ما أكفره » . فلما أن أهملوا سدهم ، وتركوا أرضهم ، سال الوادى بالماء وبدلوا بالجنتين ما لا ينفع الإنسان من أثل لا ثمر له وشجر مر الثمر ونبق قليل ، وتباعدت أسفارهم ، وتنائت ديارهم ، وخربت القرى المتواصلة المنظمة فى طريقهم إلى الشأم ، فأصبحوا مثلا فى الغابرين فقيل تفرقوا أيدى سبا : أبناء سبأ عشرة تشاءم منهم أربعة ، لخم ، وجذام ، وغسان ، وعاملة : وتيامن ستة : الأسديون والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار ، ولما تفرقوا لحقت غسان بالشام والأزد إلى عمان ، وخزاعة إلى تهامة ، ومر الأوس والخزرج إلى يثرب ولحق آل خزيمة بالعراق .

(موازنة ملك سليمان بملك سبأ بن يعرب بن يشجب بن قحطان)

فوازن رعاك الله هذا الملك العظيم بملك بنى إسرائيل وكيف زال الأول بسيل العرم بعد الأبهة والجلال . والعز والمنعة . والشرف . والفضل العظيم وكيف عظم بنو إسرائيل فبنى داود وسليمان عليهما السلام بيت المقدس إذ رفع على أعمدة بلورية وبنى بالرخام الأصفر والأبيض والأخضر . وسقف بأنواع الجواهر وفضض سقفه وحيطانه باللآلىء واليواقيت وسائر الجواهر وبسط أرضه بأنواع الفيروز وسخر العملة . فبنوا المحاريب وصنعوا التماثيل لكل صنف من الحيوان للمثل للقوة كالأسد والصقر أمام كرسيه وفوق رأسه . واللطيف الشكل كالغزال وغيره . ألم تر كيف زال هذا الملك إذ طغوا وبغوا وسلط عليهم بختنصر من أرض بابل فأخذهم ووضعهم بأرض فارس وما والاها كما فى أول سورة الاسراء . إن ذلك لعبرة للمسلمين كما فى قصص

هود وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين . فما كن هؤلاء جميعا إسلامية اليوم . وقد أعطاها الله المسلمين فنمت وعفوا أيام شباب دينهم فلما أدبروا وأعرضوا أصبحت البلاد عرضة للدمار آيلة للخراب إن لم تقم فيها مصلحون ويسعدها المرشدون وذلك قوله تعالى « ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبي » إلى قوله « لكل صبار شكور » .

المقصد السادس

(الاستقلال والحرية في الآراء)

خراب الأمم وذهاب الدول وخراب بلادنا لايدعو إليه إلا الجهل ولا يحدثه إلا ترك العلم باتباع أخس الآراء وتصديق الترهات كما يحدث في بلادنا من أكاذيب الجهلاء وأضاليل بعض السفهاء من المسلمين الغاوين ، وكما حدث في سبأ من نبذ علوم أسلافهم واتباعهم أهواءهم وربط الهرر بجانب سدهم كأنهن مهندسات ومنظمات ، ويتبع الجهل خلة الظلم والتقاطع والتدابر وذلك هو المعبر عنه في القرآن بالكفران . وشعب الأوهام كثيرة وأوديتها شاسعة وخروق لجاجها واسعة ولكن ترجع إلى ثلاثة أصول ضعف في بصيرة . اغترار برياسة . وضلال يبطر الغنى . فأما ضعف البصيرة فذلك ما ذكره الله عقب قصص سبأ من الأصنام المنصوبة والأشباح الخالية من الأرواح وكيف صور الوهم للناس عبادتها وكيف يعدونها شفعاء ، ومن يشفع إلا بعض المصطفين الأخيار فيخرجون فزعين ويغشى عليهم صعقين ، فإذا زال الفزع تساءلوا فيما بينهم ماذا أنزل ربكم قالوا إنه قال الحق (وهذه الأصنام لاحياة لها فضلا عن الشفاعة) وليس عباد الملائكة بأحسن حالا من عباد الأصنام فكلهم مخلوق وكلهم مربوب . بل يقف للملائكة يوم القيامة ويتبرءون ممن يعبدون ويقولون إن عبدوا إلا الأوهام ، وما اتبعوا إلا الجان لضعف بصائرهم . وذلك قوله تعالى« ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه» « إلى قوله عذاب النار التي كنتم بها تكذبون » .

(الاغترار بالرؤساء)

وأما الاغترار بالرؤساء ، والخضوع للكبراء فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى وداهية الشرق . وداعية اتساع الخرق . وغرور الجهال . وضياع الأموال ودمار البلدان . ولقد قطع الله الحجة وأعذر . وقرر الذنب على المرءوسين كالرؤساء والمحكومين كالحاكمين . وتأمل كيف يقول الضعفاء للمتكبرين أنتم أضللتمونا فهل تنفعونا ؟ فقال المستكبرون كلا فانكم مجرمون ولم تفكروا أفلا تعقلون ؟ فقال الضعفاء كم من حيلة نصبتموها . ومكيدة دبرتموها باذاعة الأخبار ونشر الآثار بالليل والنهار فقال الله : لكل ضعف من العذاب ذلك كما نشاهده اليوم في الأمم التي ذهب مجدها وغاب سعدها وحضر جهدها إذ يقولون على الرؤساء تبعتها ونحن لامال بأيدينا ولاسلاح ولاجند فقطع الله الحجة وأوضح المحجة وأناط بكل عمله وأوجب عليهم أن ينظروا مفكرين ولا يغتروا بالمتكبرين فكم يسمع المرء جعجعة ولا يرى طحنا ، فالصعلوك كالملك في الإسلام على كل التفكير « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ومصداق ذلك ما نراه الآن في بلاد الإسلام من قولهم : ظلم الحكام فساد الأنام ونقول كلنا والله مسئولون وعلينا أن نفكر للمجموع وإلا حقت كلمة العذاب وذلك قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون » إلى قوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » .

(الضلال بالغنى)

وأما الضلال بالغنى والبطر بالمال فما أشبهه إلا بعبادة الأصنام ولن يجادل الأنبياء ويقاوم الرسل والمصلحين إلا الأغنياء لئلا تفوت رياستهم ويعلوهم غيرهم ذلك شأن الإنسان في كل زمان إلا أن عابد الصنم متبع خياله

وخباله والمقتر بالمال أعظم شهوته وخضع للذات كالعجماوات وذلك قوله تعالى « وما أرسلنا فى قرية من نذير ـ إلى قوله آمنون » فالمال كالصحة والسلطان والولد وسائر النعم لادلالة لوجودها على الشرف ولا لعدمها على الضعة فهى تكون للبار كما تكون للفاجر فليست تقرّب بعيدا ولا تبعد قريبا ، ولا ترفع وضيعا ولا تضع رفيعا لذاتها ولكن هذه الأعراض أشبه بالسيف ، ينفع إن أمسكه العاقل الشجاع ويضر إن تناوله المجنون . هذه أهم مقاصد السورة الشريفة وماعدا ذلك فتثبيت لحجة أو تأييد لحكمة كقوله تعالى «قل من يرزقكم من السموات والأرض ـ إلى قوله لاتستقدمون » .

هذا وقبل أن ندخل فى مباحث الفصل الثالث لابد أن نوضح المقام فى قوله تعالى « يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها » إلى آخره وهو مايأتى

(جوهرتان)

(الجوهرة الأولى) فى قوله تعالى « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير » .

(الثانية) فى قوله تعالى « يعلم ما يلج فى الأرض » الخ .

﴿ الجوهرة الأولى فى قوله تعالى « الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ الخ

(كتب فى ليلة الأربعاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم لك الحمد على أنك أسعدتنى بالحكمة وحبوتنى العلم ، إنك أنت الحكيم الخبير ، فها أنا ذا الآن أصبحت على يقين أن من عبادك فى أرضنا أناسا أشهدتهم هذه الأرض وهذه السموات فى حياتهم الدنيا فراديس وجنات النعيم ، إن هذه العوالم فى ظواهرها تمثل الشر ، ففيها الموت والحياة والمرض والظلم والقسوة والفجور والفسوق والخسران والحب والغرام والندامة والحروب والمدافع والبارود والديناميت والاهلاك والتدمير ، فهذه تشبه أن تكون ركنا من أركان جهنم ، اللهم إنك أنت حكيم ، هذا قصرك المشيد أرض وسماء ومشاهد بينهما تمثل فيها الفظائع والآلام والأرزاق والحياة والسرور والغرور ولكنك أنت مع هذا كله جعلت نفس هذه المشاهد روضة من رياض الجنة للحكماء والمفكرين ، أفليس من العجب أن تكون مبادئ النار والجحيم هى بعينها فراديس الجنان ؟ كلا . بل هى مشاهد الحق ومظاهر الجلال والجمال ومبادئ مشاهدة الحق تبارك وتعالى . فى الأرض أقوام معذبون بهذه الحياة وان كانوا لايعلمون أنهم معذبون ، مسخرون وإن كانوا لا يعلمون ، أشقياء وإن كانوا لا يفقهون ، وهؤلاء هم أكثر هذا النوع الإنسانى ، هم فى داخل أنفسهم فى شقاء آلام الأمراض والعواطف والغم ومواجع الأعداء والحساد والحكام والوحوش والحشرات ورذائل الأصدقاء والأقارب والحزن على مصائبهم الحالة بهم والنكتة المتعدية منهم ، الحق أن الناس جميعا فى الأرض مسوقون بعصا من حديد ، هم مسوقون كما تساق الأنعام ، فتربية الولد وكسب العيش وتناول الطعام كلها بواعث وزواجر يحس بها الناس وما هى إلا عصى من حديد تسوقهم وهم مرغمون .

اللهم إن هذا حال أكثر نوع الإنسان ، ولكن النادر منهم ينظرون هذه المشاهد وهم يسمعون كلاما ليس بحرف ولا صوت بل يقرءونه فى نفس المشاهد ويفقهونه والناس من أمرهم متعجبون هازئون وهم فى أنفسهم للناس راحمون ، العالم يرحم الجاهل والجهال هم أكثر نوع الإنسان . فهذه الجموع تستمد من الحكماء والحكماء هم الراحمون لأن الآباء يشفقون على الأبناء ، فالحكيم أب لأمته لأنه أقرب إلى نبيها فإذا استمد منه الناس فهو بهم رحيم ، فماذا يسمع حكماء الأمة من خطاب الله الذى ليس بحرف ولا صوت ؟

يسمعونه يقول : أي عبادي أنا رحمن رحيم ، رحمتي سبقت غضبي ، ألم تسمعوا أني أبتدئ كل سورة باسمي الرحمن الرحيم ، أنا لم أزل مضار في الأرض إلا لسعادة ونعمة ، وغاية الأمر أن أكثر الناس لايعلمون ، هذا العالم الأرضي عالم يسير إلى الكمال ولا كمال إلا بالعلم ولايتم علم إلا بمقدمتين مقدمة المحبوب ومقدمة المكروه ، فكما أن المناطقة منكم يقولون لا نتيجة إلا بمقدمتين هكذا حكمتي قضت أن لاعلم لكم إلا بسابقة مقدمتين ولكن المقدمتان عندي هما المحبوب والمكروه ، أنتم يا أهل الأرض عبيدي وأنا أرحمكم أكثر من رحمة أبويكم آلاف آلاف المرات ، ولن تستطيعوا أن تعقلوا هذه الرحمات إلا بدراسة جميع العلوم ودون ذلك خرط القتاد .

فهاكم أمثلة مما تشاهدون [الأول] حب الصور الجميلة طلبا للنسل ، أنتم جميعا تحبون الحكمة والأشكال الجميلة . فأول مايصادفكم في حياتكم حب الوجوه الجميلة فيرى الرجل أو المرأة أن سعادة كل منهما في الاقتران بالآخر والاجتماع به وغير ذلك لأن صورة خاصة مقبولة في نظره ، ولا معنى لقبولها إلا بأن يكون الخدان والعينان والأنف والفم على مناسبة مقبولة عند هذا المحب .

* إن الطيور على أشكالها تقع *

فهذا التناسب هو الذي يولع به الذكور والإناث فتكون الذرية . إذن الحكمة والنظام وحسن الابداع هنا جعلت للشهوة البهيمية وبقاء الذرية وكان المقصد في ذلك كله هو إتقان تلك الصورة في نظر ذلك العاشق . [الثاني] حب الأعمال الصالحة . فإذا جاوز الناس الدرجة الأولى وهي الخضوع للشهوة البهيمية التي تنتج بقاء الذرية اعتلوا إلى درجة أرقى وهي مزاولة الحكمة العملية فهناك يكون التعاون في الأعمال المنزلية والقيام بما يوجبه الدين والعرف والعادة من المحافظة ماديا وأدبيا على إراحة أهل المنزل من الزوجين والصغار ويلي ذلك نظام القرية ونظام سياسة الجمعية الإنسانية كلها بالنظام العام ، ولا تمام لذلك إلا بالصناعات والأعمال العظيمة فهذا تمرين لكم أيها الناس على أن تكونوا خلفائي في أرضي [المثال الثالث] في الشوق إلى فهم الصناعات الإنسانية المتقنة وهو أعلى مما قبله ، إن نفوسكم تشرئب للحكمة العلمية لأن الحكمة العملية بالسياسة المنزلية والأخلاق الإنسانية والنظم السياسية العامة مقدمات ومدربات لعقولكم حتى تشتاق إلى أن ترقى إلى فهم حكمتي في خلقي ولكن حكمتي فوق حكمة المهندسين ومهرة الصناع في أرضكم ، فأول ما يصادف العقول الشريفة من الشوق العلمي أن تهرع إلى مشاهدات الصنائع الغريبة المتقنة إتقانا أتم فوق ما تصنعون لغرابتها بالنسبة لما نقص من صناعاتكم ، إن أجسامكم هي الحاملات لأرواحكم وأنواع النبات والحيوان كل هذه متقنات الصنع حولكم ، وهذه الشمس وهذه النجوم كلهن باهرات الصنع ولكن لما كانت نفوسكم أرضية [وقد عجزت عن أن تعقل جمال تركيب النبات وإن كانت من غذائه ، وبهجة تركيب أصغر الحشرات وإن كانت من دارسيه ودقة صنع أجسامكم وإن كانت هي الحاملة له] أخذت تسعى إلى صنعة الإنسان لأنها إليه أقرب وعقولكم إلى حكمة أمثالكم أميل ، ألم تروا كيف أقبل علماء أمريكا وأوروبا « من كل حدب ينسلون » على البلاد المصرية لما فتح الباب المختوم بختم الملك (توت عنخ أمون) يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٢٣ وشاع الخبر في الكرة الأرضية أن الغرفة الثالثة قد وجد فيها صندوق بديع داخله جثة الملك المذكور وجواهره الثمينة وهو مذهب ومزخرف ومرصع بالأحجار الكريمة ويبلغ طوله نحو ستة أمتار وعرضه نحو أربعة أمتار وارتفاعه أربعة أمتار تقريبا ، وبعد ذلك وجدت الغرفة الرابعة وهي مملوءة بأثاث من أفخر الفاخر مرتبة ترتيبا حسنا يفوق منظرها في بهائها وعظمتها ماراوه في الغرفتين الخارجيتين ، وحضر لمشاهدة ذلك بعض ملوك أوروبا كملك البلجيك والملكة لمشاهدة صنعة المخلوق لأن صناعها عقولهم أقرب إلى عقول أهل الأرض وأخذت الوفود تترى على مصر وهي عشرات الألوف بل أخذ الناس في دور الصناعات بأوروبا وأمريكا يقلدون

الصناعات التي ظهرت في القطر المصرى ، ويطلبون نماذج للأزياء المصرية الأثرية كالملابس وأثاث المنازل والأواني ليصنعوا نظيرها وهم يصرفون الألوف ومئات الألوف من الجنيهات ، وابتدأت النساء الأمريكيات والأوربيات يلبسن ملابس كالتي ظهرت في عهد (توت عنخ أمون) فإنه في صباح (٨) مارس سنة ١٩٢٣ ظهر في شارع (ففث افنيو) وهو أعظم شوارع نيويرك ثلاث سيدات يمرن معا وقد لبسن من قمة الرأس إلى أخمص القدم ثيابا مصنوعة على مثال ثياب ملكات مصر القديمات واحتذين أحذية على شكل (الصندل) فكن بثيابهن هذه موضع إعجاب وقبلة أنظار الجميع ومثلهن في انجلترا . وأخذ الناس في أوروبا وأمريكا يقرءون تاريخ قدماء المصريين . فلقد هالهم تلك الصناعات العظيمة من :

(١) سرير بديع لذلك الملك من الذهب المطروق .

(٢) وآنية من المرمر منحوتة من قطعة واحدة للروائح العطرية لذلك الملك .

(٣) وآنية أخرى من المرمر أيضا .

(٤) ونوع من الحلي الذي يزين الصدور من الذهب الخالص ، هيئته تشبه هيئة السفينة .

(٥) وتمثالين داخل الغرفة الخارجية يحرسان باب الغرفة الثالثة المختومة التي بها جثة الملك .

(٦) وصندوق لملابسه وعليه صورتان تمثلان شكل (أبي الهول) يطأ أعداء الملك تحت قدميه وعليه نقوش غاية في الإبداع والدقة تفوق سائر ما في المدفن من الإتقان والدقة والجمال .

(٧) وكرسي (عرش الملك) وهو مصنوع من الأبنوس والعاج ومحلى بنقوش جميلة قوائمه على شكل أسد من الذهب .

(٨) ومرآة من الفضة منقوش عليها اسم الملك .

(٩) ولوحة قد كتب عليها تاريخ انتصارات القائد (هوس) النائب عن ملك مصر .

(١٠) وصورة الملك وهو يتلقى أخبار انتصارات القائد المذكور .

(١١) وصور الهدايا والأسرى من بلاد الحبشة .

(١٢) وحذاء الملك المصنوع من الذهب وهو مزين بشكل زهرة (اللوتس) الجميلة .

(١٣) وبرنس من نسيج كتان مصر المتين مع ملابسه ، وقفاز كتاني النسج وهو أول قفاز مصرى قديم كشف ، صنع منذ (٣٠٠٠) سنة .

هذا نموذج من مصنوعات العباد وهي التي يفرح بها الناس ويرغمون على السفر وترك الأهل والوطن وصرف الدرهم والدينار ، كل هذا لحب الصنعة والحكمة الإنسانية التي هي أقل إتقانا وبهجة من الحكمة في السموات والأرض . ذلك لأن عقل الإنسان إلى عقل الإنسان أقرب ولفهم صناعته أسرع مع أنه هو نفسه في جسم أبدع صنعا وأتقن وضعا وأبدع حكمة وأبهج نقوشا وأتم نظاما من ملابس وصنادل وعروش وتماثيل (توت عنخ أمون) « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » إذن هؤلاء العلماء السائحون من أقطار العالم لم يتعجبوا إلا مما يناسب عقول الإنسان من صناعاته لا من صناعات الخالق جل وعلا فإن تمثالا يعقل ويبصر وينطق ويسمع أتم وأكمل من تمثال جاهل أعمى أخرس أصم ، فهذا التمثال الأتم وهو الإنسان لا يفرح بجسمه ولا بما فيه من النقوش ولا بما في الحشرات والحيوانات والنباتات حوله لأنه متقلب فيها صباحا ومساء ، فسقط وقعها من قلبه وهرع إلى مشاهدة مالم يره من قبل ففرح به لغرابته لأنه مما يناسب عقله من حيث إنه منتهى ما يصل إليه الإنسان (المثال الرابع) وهو أعلى من سابقه . هنالك أقوام في هذا النوع الإنساني وهم أعلى ممن تقدمهم لهم إدراك أتم وعقول أكمل ، فهؤلاء يقولون هذه الدرجات الثلاث اثنتان منها إنسانية وواحد منها حيواني إنساني وهو الأول ولكنا نحن

تريد مثلا أعلى وهو مثل الملائكة فليكن نظرنا نظراً كلياً لنوع هذا الإنسان فنكون آباء للدرجات الثلاث فهؤلاء يلدون ويعيشون فى المنازل والمدن ويدرسون الصناعات ويدركون الجمال وكل منهم فى أثناء بحثه يعتريه النحس والسعد والفرح والحزن . فى المنازل وفى المدن وفى الأسفار لمشاهدة الآثار أفراح وأتراح ، فقد يعيش العاشقان فى هناء ، وقد يفترقان فيموت أحدهما كمدا ، وقد يعترى الإنسان الدهش من هذه المصنوعات (الباحات فى دين قدماء المصريين المحرم بعضها على الرجال فى دين الإسلام) فيغره جمالها فيقلدها فيبيع الطارف والتليد من مقتنياته ويصبح خاوى الوفاض بادى الانفاض ، لاءلك شروى نقير ولا يكون فى العير ولا النفير قد مسه الضر وملكه الفقر ، إذن هذه الدرجات الثلاث أبناؤنا فلنبحث نحن عن حكمة هذا الوجود ولن تظهر حكمته إلا فى دراسة السموات والأرضين ، فننظر حولنا فى الحشرات والدواب والنبات وفوقنا فى السموات والأرضين . هل هذه الآلام ، وهذه اللذات التى تعترينا لها نتائج صادقة ، أم هى مصادفات كالتى رأيناها فى الأمثلة الثلاث ، فهؤلاء يحسون بخطاب نفسى بلا حرف ولا صوت وكأن الله يقول لهم : أى عبادى ها أنا ذا أخاطبكم وقد تأهلتم للفهم عنى وبذذتم السابقين من بنى آدم أرباب الأمثلة الثلاثة ، انظروا : ألم تعلموا أن اللذات والآلام مقدمات للعلوم فلو كانت اللذات وحدها والآلام وحدها لم تقم للعلم قائمة ، وهل يمشى الإنسان على رجل واحدة ؟ أم نخلق له يد واحدة أم عين واحدة وأذن واحدة وطاقة أنف واحدة ؟ فكل واحد من هذين الزوجين مكمل للآخر ، فهكذا هنا الآلام واللذات زوجان يكفلان القيام بتعليمكم وإرشادكم ولكن ليس كل إنسان أهلا للفهم عنى . كلا . وإنما الذين يعقلون هم الذين ارتقوا عن الطوائف الثلاث السابقين ، وهذه الطائفة الرابعة لا أجشمها مشاق السفر ولا يعوزها انتقال الحجر ولا توسد المدر ولا بذل البدر وإن كان شعارها (لكل مبتدأ خبر) و (لكل نبأ مستقر) بل هؤلاء ينظرون فى منازلهم وفى قراهم فيجدون أنواع الحيوان كالحشرات وهى تطوف عليهم صباحا ومساء فماذا يرون ؟ يرون مثلا أن هذه الحشرات ونحوها ما هى إلا أساتذة ومعلمون يطوفون على الناس ويقولون : أيها الناس نحن فريقان فريق يؤذيكم كالجراد والزنابير ، وفريق يغذيكم ويشفيكم وينفعكم كالنحل ، فأكثر بنى آدم ينظرون للناموس والجراد نظر الخوف من نقص الأنفس والأموال ، وينظرون للنحل ودود القز نظر الرجاء أن يشتاروا العسل وينسجوا الحرير ، وهذه هى المرتبة الدنيا الحيوانية ولكن حكماءكم أيها الناس وهم فى ذروة المراتب يتشبهون بالملائكة فى مباحثهم ، فهؤلاء يقولون عجبا عجبا ، نظام النحل كنظام الزنابير كنظام الجراد كنظام الأرضة التى سترى رسمها قريبا ، فملكة النحل وملكة الأرضة هاهما تان ذا تراهما مرسومتين أمامك وحولهما جنودهما وخدمهما وحشمهما . وهذا نظام عجيب . وإحدى الملكتين مؤذية والأخرى نافعة لنا ، فإذا لم يعقل الإنسان النافع ولم يفكر عند أكل العسل فى حسن نظامه ودقة صنعه ليدرس الوجود فعسى أن يفكر إذا لدغه زنبور فينظر فى قرصه ويفكر فى مدينته ونظامها وإذ ذاك يفهم « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » فهنا زوجان مؤذ ونافع وأحدهما ضد للآخر كالليل والنهار ولولا الليل لم نعرف قيمة النهار ولولا النهار لم نعرف قيمة الليل ، فبفهم الضدين يدرك الإنسان الفرق بينهما وهناك تكون السوانح العقلية وإدراك العجائب الحكمية .

فإذا شاهد أمثال النحل والنمل والأرضة والجراد وعرف نظامها ألفاها كلها على قاعدة واحدة وإن اختلفت فروعها ، وإذن يفهم معنى « له ما فى السموات وما فى الأرض » لأن هذه الجملة تقتضى الاختصاص بالخالق لأن تقديم الخبر يفيد ذلك ولكن تقديم الخبر يفيد إفادة لفظية . أما هنا فإن قارئ هذه النظامات يقول إن القاعدة واحدة لافرق بين ما يضرنا وما ينفعنا . كلها ممالك مؤسسات على نظام واحد . فملكة النحل وملكة النمل وملكة الأرضة كلهن ذوات أوامر لا ترد وما نظامها إلا كنظام أجسامنا وإن كنا إلى

فهم هذه الحشرات أقرب منا إلى فهم أجسامنا وكأن البوابين والضباط والجنود والمراضع فى جنود ملكات النحل أشبه بما فينا من قلب وكبد وطحال ومعدة وأمعاء وأعضاء حركة وأعضاء حس الخ كل له عمل يخصه .

ولما كان هذا المقام يستلزم إعادة رسم صور تقدمت فى هذا التفسير وهى صورة ملكة النحل وصورة ملكة الأرضة وصورة جسم الانسان رأينا أن نرسمها إتماما للفائدة انظر شكل (٢ و ٣ و ٤)

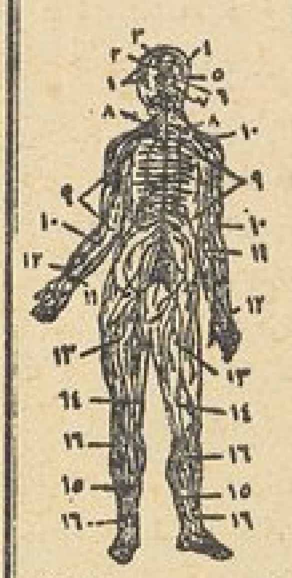


(شكل ٢ ــ ملكة النحل)



(شكل ٣ ــ الأرضة للملكة وأتباعها)

رسمها العلامة الألمانى أزريك كما لها . الكتلة البيضاء الضخمة هى الملكة وإلى جانبها الملك ، ومن حولها العمال يقبلونها ويلحسونها ؛ فالقائمون بتغذيتها يتألبون عند فمها ويبقى فى الطرف الآخر من وكل إليهم التقاط البيض . وبين العمال جند من البوليس صغير الحجم وفى الصف الأول فى شكل نصف دائرة الجند الكبير القائم بحراستها ضد هجمات عدو مفاجىء)



(شكل ٤ — جسم الانسان)

ثم يرفع هؤلاء طرفهم إلى السماء جد أن يعرفوا أن العالم السفلى على وتيرة واحدة فاذا يرون شمسا يحيط بها نبتون وأورانوس وزحل والمشترى والمريخ والأرض والزهرة وعطارد وأكثر هذه حولها أقمار . كل هذه دائرات حول الشمس فيدهش هذا الفريق إذ يرى أن مملكة النحل ومملكة النمل ومملكة الأرضة كلهن سواء فى النظام وهن متشابهات تمام المشابهة للشمس مع سياراتها وأقمارها وهكذا مع (النيازك) التى لاحصر لعدها وبعضها صغير جدا كالبلاطة فى منازلنا وبعضها أكبر وأكبر وهى التى نراها فى الليالى المظلمات تنزل كسهام مضيئة نسميها (شهب) جمع شهاب وهكذا ذوات الأذناب كلهن دائرات حول الشمس كما تدور الشهب (النيازك) وكما تدور السيارات . وهنالك يرون أن الشهب والسيارات إن هى إلا كأعضاء الجسم الإنسانى أو كأفراد من ممالك النحل وممالك النمل . لنا نحن بنى آدم أوامر نلقيها على أعضائنا وأعضاؤنا تمثل تلك الأوامر . والموصل لتلك الأوامر من عقولنا إلى أعضائنا هى الأعصاب فهن قائمات مقام البريد البرقى (التلغراف) وسرعة الفكر فى العصب ميل فى الثانية وبعض العلماء يقول [إن القوة الحاكمة تشعر باللمس على الوجه وتجيب عليه بتحريك اليد فى سبع ثانية من الزمان . وتشعر بالمسموعات وتجيب عليها فى سدس ثانية . وبالمرئيات وتجيب عليها فى خمس ثانية] فبالامتحان ظهر أن الملموسات أسرع حركة من المسموعات وهذه أسرع من المرئيات . ولقد حار الناس فلم يعرفوا كم من الزمن يمر حتى تصدر القوة الحاكمة حكمها . وقد عرف هذا أحد العلماء بآلات دقيقة جدا فقال [إن حركة الفكر تستغرق فى الاحساس والحكم ثم الاجابة خمسا وسبعين جزءا من (١٠٠٠) جزء من الثانية الواحدة وتستغرق الارادة فى إصدار حكمها (٤٠) جزءا من ذلك ولقد جربوا ذلك فى رجل كهل والشاب أسرع فى ذلك من الكهول] .

إذن فى الإنسان قوة حاكمة ، وأوامر تلق ، وأعضاء تأتمر ، وهذه الأعضاء كثيرة جدا كأنها دولة أو كأنها مملكة النحل أو مملكة النمل أو مملكة الجراد أو الأرضة . فهناك تشابه وتماثل بين أعضائنا مع نفوسنا وبين ممالك النحل والنمل والشمس مع سياراتها وتوابع سياراتها . أفليس هناك اتصال ما بين الشمس وما حولها من السيارات والنيازك وذوات الأذناب كالاتصال المقدم بين النفس وأعضائها وبين مملكة النحل مثلا وأفراد مملكتها ، إذ هناك صلة وثيقة بين الملكة والأفراد لاعلم لنا بها . ولنا الحق أن نتصور الصلة بين الشمس وسياراتها الخ كالصلة التى بين نفوسنا وأعضائنا ويكون عالم الأثير قائما مقام أعصابنا . ذلك العالم الذى يقرب من العالم الخيالى أو الروحى الذى قد ثبت أنه وإن يكن غير مادى فيه ثقل لايحسب بجانبه الحديد ولا الذهب شيئا مذكورا فهو أمتن من كل مادة ولولا هذا لم يتحمل قوة الجاذبية التى تقوم به بين الكواكب .

تبين بهذا أن مافى السموات ومافى الأرض من الممالك على وتيرة واحدة . فاذا رأينا ممالك الحشرات لها نظام سياسى عجيب : مملكة آمرة ورعية مطيعة . وإذا رأينا أعضاءنا هكذا مع نفوسنا . وإذا رأينا السيارات وما معها هكذا مع الشمس . فلنفهم إذن الآية هنا فان اختصاص الملك بالله المفهوم من تقدم الخبر يعرفه العقلاء بالبحث . فإنك ترى الخبير بفن الشعر أو الموسيقى أو النقش أو التصوير أو علم النبات أو صناعة النجارة أو الحدادة إذا رأى نموذجا منها عرف أن هذه من صنع فلان . فترى من يسمع شعر شاعر أو نثر ناثر وهو من علماء أدب اللغة يحكم حالا حكما لاشك فيه أن هذا من شعر العصر الأول أو الخامس وهو من قول

فلان كما أخبرنى مرة الأستاذ (ادوارد براون) العالم الانجليزى المستشرق المدرس فى (كلية كمبردج) إذ قال [لما أرسلت الحكومة الانجليزية ثياب رؤساء العشائر المقتولين أيام حرب السودان وكانوا نحو ثمانين أسيرا أخذت أقرأ خطوطهم ونماذج إنشائهم فوجدت منهم من نزحوا إلى السودان فى العصر الأموى ومنهم من نزحوا فى العصر العباسى ، واستدللت على ذلك بمشابهة الخطوط للخطوط والإنشاء للانشاء] .

هذا ماقاله وهكذا كل أصحاب صناعة يدركون لأول وهلة متى رأوا أى نموذج فى أى عصر هو ولأى أمة وهكذا ، إن من ينظر إلى نظام الدجاجة وأفراخها والمرأة وأولادها والحكومة وأفراد شعبها ومملكة النحل ونظام أفرادها والشمس وما حولها يجزم بأن الصانع لم يتغير لأن الطراز واحد لم يتغير وأسلوب الصنعة هو هو بعينه ، وإلا فبالله أى فرق بين هذه الممالك كلها . فبهذا يعرف الحكماء اختصاص ما فى السموات والأرض به ، وإذا عرفوا ذلك الاختصاص بهذا البرهان العقلى العملى انشرحت نفوسهم وفرحوا بالصانع بعد فهم صنعته واشتاقوا إليه وأحبوه ، إذ لاحب إلا بعد المعرفة كما أن أهل أمريكا وأوروبا منذ يوم (١٦) فبراير سنة ١٩٢٣ إلى الآن يفدون زرافات ووحدانا على بلادنا المصرية إذ عرفوا قيمة الحكمة التى كشفت فى المصنوعات الأثرية ، فهؤلاء يفارقون الأهل والوطن ويصرفون المال ويتجشمون المشاقّ غراما بالجمال ولا جمال إلا تبع الحكمة أى النظام المتقن فى الصنعة . إذن هذا النوع الانسانى متى عرف الجمال والنظام والحكمة سارع ليرى ذلك ، ويشاهد ذلك الحكيم كما يشاهد أولئك الزائرون تلك الصناعات ويشاهدون من عملت فى زمانه وهو الملك (توت عنخ أمون) ويكتفون بمشاهدة جثته الهامدة وإن لم يروه هو لأنه هو وعلماؤه وصناعه ليسوا هذه الأجسام بل هم أرواح كانت فى هذه الأجسام ، فهؤلاء العلماء اكتفوا بما أمكن لهم وهو مشاهدة الجسم وإن خرجت الروح ، فهذا مثال ضربه الله مثلا للناس فى الأرض فهو يقول [ياأهل الشرق ويا أهل الغرب إن نظامى جميل فى الأرض وفى السماء ومتى فهمتموه فهما يؤدى إلى شوقكم لى كما اشتاق علماء الأمم عندكم إلى مشاهدة آثاركم والذين عملت فى زمانهم فإن ذلك يحملكم على حبى والشوق إلى مشاهدتى ، فالمعرفة تبعث الشوق والشوق يحث على السعى للمشاهدة ، وهناك لا تكرهون الموت فى حينه] وهذا هو معنى الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

أقول : وليس معنى هذا أن السبيل لحب لقاء الله وعدم كراهة الموت محصور فيما قلناه . كلا . بل هذه إحدى السبل التى نحن بصددها وهذا الحب الذى كانت المعرفة بسببه هو الحامل للحامد على حمده ، فإن متقن الصنعة محبوب والحب يوجب انقياد الأعضاء للعمل وانطلاق اللسان بالثناء . هذا هو السر فى قوله بعد ذلك « وله الحمد فى الآخرة » وإنما خص الحمد لله بالآخرة لأن النفس تكون مجردة عن الجسم فيكون إدراكها أتم لتعقل الحقائق فتزيد حبا . أما فى الدنيا فهى تحمد الخالق والمخلوق وتشاهد أعمال الناس وتحمدهم . ولما كان ذلك كله راجعا للحكمة ختم الآية بقوله « وهو الحكيم الخبير » فالحكمة بها النظام وبالنظام والاتقان كان الحب وبالحب انطلق اللسان بالحمد . هذا هو تفسير الآية بالعلوم المعروفة اليوم .

فلما اطلع بعض العلماء على ذلك وهو من قراء هذا التفسير قال لى : لقد أحسنت فى شرح نظام هذه الكائنات العلوية والسفلية وفى ترتيب الحمد على معرفتها ثم فى تبيان أن الحكمة هى الأصل الذى بنى عليه هذا النظام ولكن العقل لايكاد يفقه المناسبة بين مملكة النحل مثلا والمجموعة الشمسية فهى عظيمة المقدار جدا حتى إن الشهب وذوات الأذناب الجاريات حولها لاتكاد تحصى . يقول علماء العصر الحاضر إنها كعدد

السمك فى الماء . ثم إن المجرة التى منها مجموعتنا الشمسية قد علم أن فيها (٢٢٤) ألف ألف نجم وكل نجمة منها شمس كشمسنا ولها مجموعة شمسية أكبر أو أقل من مجموعتنا الشمسية . فهذه كلها تكون مجرة واحدة وشمسنا منها ، وفوق ذلك المجرة لها أخوات كثيرات كلهن مجرات مثلها فيهن شموس تعد بمئات الملايين ، وفوق ذلك أيضا قد كشف الناس اليوم مجرات أخرى تسمى بالسدم جمع سديم ووجدوها أنواعا : فمنها السدم اللولبية ، ومنها السدم الحلقية ، ومنها السدم المنتثرة ، ومنها التى هى غير منتظمة . وإذا كانت هذه السدم مجرات كمجراتنا المحتوية على شموس تعد بمئات الملايين كشمسنا التى لها مجموعة لاحصر لعددها وإذا كان الذى عرف الآن من السدم اللولبية وحدها بالمنظار المعظم (١٢٠) ألف وأوصلها الأستاذ (بيرن) إلى خمسمائة ألف ، ومن رأيه أنه قد يرى منها أكثر من مليون سديم إذا زادت آلات التصوير إتقانا ، فإذا كان هذا المقدار فى السدم اللولبية وقدرنا السدم الأخرى بهذا المقدار كانت جميع المجرات اللولبية أربعة ملايين مجرة غير المجرات المعروفة ، وكل مجرة من تلك المجرات لها أبعاد ولا يكاد يصدقها العقل ، مثلا مجرتنا التى منها شمسنا تمتد إلى نحو مائتى ألف سنة نورية من جهة ومن جهة أخرى أقل من ذلك فكيف بباقى المجرات وكيف عظمت سعتها فهل بعد ذلك تقاس هذه بمملكة النحل أو بجسم الإنسان ؟

قلت له : إن ماهذ لك من هذه العوالم السماوية يرجع كله إلى مايشبه جسم الانسان . فالمجموعات الشمسية التى تعد بآلاف الآلاف فى كل مجرة من المجرات التى تعد بآلاف الآلاف أيضا أشبه بجسم إنسان واحد أو بمملكة من ممالك النحل ، وكل كوكب سيار فى كل مجموعة شمسية أشبه بعضو من أعضاء الإنسان وسكان الكواكب أشبه بما فى جسم الإنسان من الحويصلات الحية التى كل حويصلة منها لها حياة مستقلة ، ومن لطف الله أنه جعل النظام واحدا متشابها لتسهل دراسته ، ومتى درس الإنسان جسمه فكأنه درس العوالم كلها وعرف نفسه ومتى عرف نفسه عرف ربه فاشتاق إليه . ومن عاش فى الدنيا وهو غافل لم يعشق الحكيم المدبر العوالم ومات فإنه يسكن فى عوالم على مقدار درجته ولا يلاقى ربه إلا من أحبه ولن يحبه إلا الدارس لصنعه وغيرهم يسكنون فى عوالم لاتؤهل لقائه إلاقليلا على مقدار ما اكتسبوا من الحب .

إن الحياة لاسعادة فيها إلا بالحب ولا حب إلا بالعلم ولاعلم إلا بالبحث فى نظام الأرض والسموات المدبرات بتدبير الحكيم الخبير .

انتهت الجوهرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

جمال هذا الموضوع

(كتب قبيل فجر يوم الخميس ٢٧ مارس سنة ١٩٣٠)

يا الله . ما أجمل ما صنعت ! وما أبدع ما أتقنت ! بهرتنا بجلائل أعمالك . وسحرت عقولنا فى دقائق صنعك . وغشيت على هذا الجمال بحجاب من حوادث الأيام ودخان الآلام والمصائب . ولولا ما نصاب به من فواجع الأيام رحمة منك وفضلا لتفطرت قلوبنا وتمزقت أجسامنا واحترقت بإشراق أنوارك الجلية . هذه هى الشمس وهذه سياراتها .

فهذا عطارد الجاثم حول الشمس تجذبه إليها وتعطف عليه حتى لايتبدد فى أطراف هذا الجو الواسع ولا يتيه فى فسيحات المجاهل . ها هو ذا يجرى حولها جريا حثيثا فلايختل نظامه . جريا متواصلا جذبته إليها

جذبا رقيقا بحيث لا يلتصق بها لئلا يهلك سكانه من شدة حرها ولا يظلم وجهه من شدة بعد ضوئها « إنا كل شيء خلقناه بقدر » بحيث كانت سنته مقدرة بعدة (٨٧٫٩٦٩) يوما . فهذه الأيام وأجزاؤها هي المقدرات بعدة الدورة الكاملة حول الشمس منذ خلقت السموات العلا إلى الآن وإلى الأبد . وهذه الزهرة سنتها الكاملة (٢٢٤٫٧٠١) يوما والأرض سنتها الكاملة (٣٦٥٫٢٥٦) يوما والمريخ (٦٨٦٫٩٨٠) والمشترى (٤٣٣٢٫٥٨٥) وزحل (١٠٧٥٩) وأورانوس (٣٠٦٨٦٫٨٢١) ونبتون (٦٠١٢٦٫٧٢٠) .

هذه هي المدد التي تسير فيها هذه السيارات حول الشمس وهي لها جاذبة ، إنهن لمطيعات صادقات في مواعيدهن ، وإن أمهن الشمس لحبها لهن المفرط ورأفتها تجذبهن جذبا لطيفا لئلا يتفرقن ويتبددن في باحات الفراغ الواسع كما تفعل البطة والدجاجة بأبنائهما « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » والله إن رأفتك يا الله بهذه المخلوقات وحكمتك لا حد لهما . فهذا حساب سير السيارات لو اختل ثانية واحدة لأضر ضررا بليغا فهذه الأرض الجارية حول الشمس لو أنها اختل نظام سيرها وقد عاق عليه جرى قطاراتنا براوسفننا بحرا لأورث ذلك خللا في أعمالنا لجرى القطر في غير حينه ، وفتحت الميناء بحرا في غير وقتها فتحطمت السفن بحرا وهشمت وطاحت العربات والركاب برا « تبارك الله رب العالمين » .

ويعجبني يا حكيم يا رحيم بابديع دقة صنعك ، وبهجة الجمال ، وعجائب الاتقان ، وبدائع التصوير في النحلة والأرضة المرسومتين هنا وفي جسم الإنسان ، فها هو ذا النخاع الشوكي هو ومنبعه الرئيسي وهو المخ في الدماغ قد جعلتهما أسا لهذا الجسم الحي بحيث تكون الأعضاء المفصلة حولهما العاملات بما يصل لهما من أوامرها جماعات حولهما جنوم الأرضات والنحلات والنملات والسيارات حول ملكات الأرضات والنحلات والنملات والشمس . إنما مثل السيارات مع شمسها كمثل الأعضاء مع الجسم في الحيوان والإنسان ومثل النحل والنمل ونحوهما مع ملكاتها ، ألا وإن عنايتك بالضعفاء يا الله لقوية متينة إذ كيف تخلق للنملة في العين الواحدة من عينيها المركبتين الموضوعتين في مقدم الرأس (٢٠٠) عين كما تقدم في (رسالة عين النملة) في سورة النمل وتخلق للذبابة الواحدة (٤٠٠٠) عين بسيطة في عينيها المركبتين ؟ .

إن حكمتك ورحمتك لا نهاية لهما فيكون حبنا لك لا نهاية له ، ولكن رحمتك الواسعة وإتقانك البديع وحبك لخلقك قد عمت الوجود كله ومنها نوع الإنسان ، فسترت عن عقله هذا الجمال بأنواع المصائب والحوادث والأمراض والموت والحياة والفقر والغنى والعز والذل فغشى على عقله فلم يدرك فأخذ يتفسه من الملحدين ومن الكتب كما نفعل الآن في هذا التفسير ، ولو أن هذه الرحمات ظهرت للناس فوعتها عقولهم لحرقت الأحشاء من إدراك ذلك الجمال فتقطعت القلوب ، ولكن الرحمة عامة والحكمة شاملة باهرة وأكثر الناس لا يعلمون ، ومن الغرابة بمكان ما نراه من الاتقان في جماعات الحيوان المجتمعات اللاتي تكون أمة واحدة وجماعات الكواكب اللواتي تكون في مجموعة واحدة ، فإن النحل إذا اجتمعن في بيت واحد وحملت الملكة من ذكر من غير مملكتها ألفينا النحل الذي في مملكتها قام قومة واحدة وانقض على ذكران تلك المملكة فأهلكها لأنها لا عمل لها ، فلا هي تجمع العسل ولا هي تفيد في أن تكون سببا في حمل الملكة ، هكذا نرى جموع الأرضة الآتي الكلام عليها في هذه السورة والمتقدم بعضه في سورة النحل أيضا فإن الملكة لها جنود يحمونها ، وهؤلاء الجنود لهم عدد مخصوص ، فإذا زاد المقدار رأينا الجماعات اللاتي تقدم لجميع المملكة الطعام تمتنع عن تقديم الطعام لما زاد عن العدد المحدد حتى يموت . هذا في عالم الأرض . أما في عالم السماء فإنا نرى نفس الاتقان في تقابل الأرض والشمس والقمر . ذلك أننا نرى القمر الذي يدور ٢٧ يوما و٧ ساعات و٤٣ دقيقة و١١ ثانية ونصف ثانية وذلك في دورته النجمية أي التي تمضي بين رجوعين متتاليين للقمر إلى نجمة واحدة بحيث إننا إذا لاحظناه يوما وقت الغروب في دقيقة معينة موجودا بجانب نجمة خاصة من النجوم الثوابت فإننا بعد مضي (٢٧) يوما و(٧) ساعات و(٤٣) دقيقة و(١١) ثانية ونصف ثانية نراه

موجودا فى ذلك المكان عينه بجانب تلك النجمة . فهذا القمر المنتظم السير البديع الصنع والنظام إذا قابل الأرض والشمس فيا يظهر للرائى فى نقطة واحدة فانه يحصل هناك خسوف تارة وكسوف تارة أخرى فان كان القمر بين الأرض والشمس حصل كسوف، وإن كانت الأرض بين القمر والشمس حصل خسوف، والمهم فى هذا المقام أن نقول إن الخسوف والكسوف فى مدة (١٨) سنة و (١١) يوما يكون مجموع مرات الكسوف (٤١) ومجموع مرات الخسوف (٢٩) والمجموع (٧٠) ما بين كسوف وخسوف، وهذه العدد لن تغير ولم تتغير، فهذا هو الإبداع فى الحساب، فحساب الحشرات على وجه الأرض لن يعطله حساب الكواكب فى السماء، فلم تعطل يا الله أعمال النحل أى إنك لاتمنع الهامك لها أن تقتل الذكور لأنها لاعمل لها متى حملت الملكة ولا أعمال الأرضة، فلم تمنع الهامك لحاملات الطعام منها أن تقتل مازاد من الجنود بحرمان الزائدات طعامهن، فالهامك للطائفتين ولغيرهما مستمر منظم كنظام الخسوف والكسوف فى العوالم العلوية بحيث لاتختل أوقات الخسوف بوقوع الأرض بين القمر والشمس، ولا أوقات الكسوف بوقوع القمر بين الأرض والشمس بل النظام هناك لايختل، والنظام فى أصغر الحيوان لايزول، فأنت تحسب الدورات الفلكية بالثانية ونصف الثانية ولا تغيره، وهكذا تفعل فى الحشرات فتحسب لها حسابها وتلهمها.

هذا هو الذى تفهم به معنى قولك « الحمد لله الذى له مافى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير. يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ».

فهذه هى الحكمة، وهذا هو العلم، وهذه هى الرحمة، وهذا هو الغفران، فأى حكمة بعد هذه الحكمة فى الإتقان والخبرة فى الحساب. وأى رحمة ورأفة بهذه المخلوقات أعظم من هذه! ثم إذا كان هذا الإنسان يعيش فى الأرض وأكثره جاهل هذا النظام البديع وهو غافل عنه بل أكثره كافر أى غير شاكر لأن الشكر مبدؤه العلم بالنظام وأكثر الناس لا يعلمون هذا النظام البديع فلولا تجاوزه عن غباوته التى هى مقتضى جبلته الأرضية الطينية لمحاه من الأرض ومنعه الوجود فيها غباوته ولكنه غفور ستر ذلك الذنب الطبيعى وعفا عنه، وأحيا الإنسان فى الأرض لأنه يعلم أن له مستقبلا فى عوالم أخرى وهناك يفهم هذا الجمال من استعد له.

﴿ تذكرة ﴾

إن هذا الإبداع نراه لا يزول وهو محيط بنا ونجد أنفسنا فى هذه الأرض مغمورين فى أنواع الحروب الدولية والمطامع الشخصية والأحقاد القلبية والأمراض الجسمية فنكون مبعدين عن السعادة فى الدنيا، ولكن متى لمحنا الجمال من خلال تلك السحب القاتمة نسينا مصائبنا وأدركنا جمالا فى ضوء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وهناك ننسى مصائبنا الوقتية ونفرح بهذا النعيم وهو العلم والحكمة والاتقان الذى نراه دائما لايتغير وترى قلوبنا به فرحة، هنالك نسعد فى نفس الحياة الدنيا ونرى أنفسنا أشبه بالمراهقين الذين لم يبلغوا السن وقد فرحوا بأنهم قريبا سيبلغون السن القانونية والرشد وتسلم لهم أموالهم. هذا ما خطر لى فى تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين. تم الكلام على الجوهرة الأولى.

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » الخ ﴾

اعلم أن هذه الآية لم تكن فى أول هذه السورة وفى أول سورة الحديد إلا لحكمة، فهذا كلام الله وهو موزون كما وزن كل نبات وكل حيوان وكل كوكب، يقول الله « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها» وقد علم سبحانه ما يلج فى الأرض من الآثار التى تركها الأولون كما ستعرف شرحه فى (قصة سبأ) وترى

ما فعله علماء أوروبا فى بلاد الصين وأنهم استخرجوا منها صورا وعرفوا بها علوما ؛ فهذا بعض ما ولج فى الأرض قديما وما خرج منها حديثا ، وهكذا يقول تعالى « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » والتماثيل قد تكون من المعادن ؛ فهذه مما يخرج من الأرض ، وهكذا فى [سورة الحديد] ذكر الله الحديد وابتدأ السورة بما يفيد هذا المعنى ، إذا عرفت هذا السر العجيب فاسمع الآن لما فى هذه الدنيا من العجائب المناسبة لهذه الآية .

(تفصيل الكلام على الأرض)

لأجمل الكلام فى « مقامين : المقام الأول » وصف نفس الأرض « المقام الثانى » مايقوله علماء الاقتصاد فى مباحث المعادن والفحم وما أشبه ذلك .

(المقام الأول . وصف الأرض)

لقد جاء الحمد فى أول الفاتحة والأنعام والكهف وهذه السورة ، أو ليس من العجب أن يكون مقرونا بالتربية للعالمين تارة، وبذكر الأنوار والظلمات تارة أخرى ، وبنزول القرآن آونة ، وبظهور نتائج الأرض والسموات فى حال أخرى ؟

فقال صاحبى : هذا كلام غامض ! فقلت : اعلم أن الحمد متى ذكر فى أول سور القرآن نجد ذكر العوالم بعده، فالحمد لله رب العالمين فى الفاتحة ابتدئ بذكر الله فى البسملة وأنه موصوف بالرحمة وأن الرحمة تستوجب الثناء بالجميل وأنه مربّ للعالم كله ، فههنا ذكر مبدأ الوجود وصفته وتربيته وكل ماربّاه ، وفى الأنعام ذكر الثلاثة الأول وأبان كيفية التربية بجعل الظلمات والنور ، وبعبارة أخرى دوران الأفلاك ؛ فدوران الأفلاك سبب فى التربية المذكورة فى أول الفاتحة ، فههنا إيضاح للتربية ، وفى الكهف نجد الحمد على العلم الذى رمز له بالقرآن . إذن هنا نور ظاهر لتربية الأجسام ونور باطن لتربية العقول : الأول فى الأنعام والثانى فى الكهف فلم يبق إلا نتائج تلك التربية الجسمية والعقلية للعوالم ـ وهذا هو قوله « يعلم ما يلج فى الأرض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور » ولاشك أن ما يلج فى الأرض وما يخرج منها لا تختص بالأجسام ولا بالعقول بل هو عام . فنور الكواكب ونور العلم يصلان للأجسام كما فى سورة الأنعام وللعقول كما فى سورة الكهف . ومن الأرض يخرج الزرع ونحوه وهو جسمى وترفع الأعمال وهى عقلية . وملخص هذا كله أن هذه السور الأربعة جاء الحمد فيها مرتبا ترتيبا جعلنا نعتقد أنه يفتح لنا بابا لدراسة تواريخ العلوم .

فاذا رأينا الله أول مايبدأ يذكرلنا أوائل الموجودات ثم توابعها وهومرتب لها . فلنقل هذا هو آخرطرز فى نظام التعليم وهو أن العلم الذى يدرس كالفقه والنحو والأصول والتفسير ولا يدرس الناس تاريخه إجمالا ولا يعرفون سلسلة التأليف فى ذلك العلم يكون طلابه فاقدى القرائح كاسدى الأفهام . ألا ترى أن الفلسفة اليونانية المنتشرة فى بلاد الإسلام قديما قد أحدثت آراء وشبها وبدعا وكل ذلك للجهل بتاريخها، فلقد ذكرت لك فيا مضى أن الأوربيين لما ترجموا فلسفة اليونان رأوا طيماوس يحكم وسقراط يجزم بأن العالم حادث كما هو الرأى الحديث فى أوروبا مع أن من قرأ الفلسفة القديمة المنقولة عن اليونان لا يجد فيها غير القدم مذهبا وهذا من الجهل بتاريخ الفلسفة ومن عدم الاطلاع على جميع آراء الفلاسفة هناك . وقد قام كتاب [كشف الظنون] للكاتب القدير (ملاجلبى) بما ينفع فى هذا الصدد .

إذا صح هذا أفلا يجب علىّ أن أقدم للأذكياء صورة الأرض وما قاله العلماء فيها حتى لا تكون آراؤهم جامدة جمود من قرءوا العلوم ولم يدرسوا تاريخها ؟

لقد أطلعنى أحد الفضلاء على موضوع بديع فى وصف الأرض والأقوال التى قيلت فى هيئتها منذ القدم أدرج فى « مجلة الجديد » فأحببت أن أذكره هنا ليكون ذلك تاريخا لمعرفة هيئة الأرض ولنقف على مايقوله الناس فيها . فطالما خطر لى خواطر فكنت أقول : ياليت شعرى . مافائدة باطن الأرض إذا لم تكن فيه نفوس حية؟ فوجدت هذه الهواجس والخواطر والظنون هجست لقوم فى أمريكا كما ستراه وهذا هو الموضوع :

فى زوايا التاريخ

(ليست الأرض كروية)

كان أول تصور للانسان فى شكل الأرض أنها بساط عظيم هائل لانهاية لعمقه ، يعتمد عليه قبو السماء كالسقف المرفوع . ولما تقدم فى الملاحة وقطع البحار الواسعة أخذ يتصور أن الأرض سابحة فى أوقيانوس من الماء لانهاية له كما فى (شكل ٥) وكان ذلك خطوة لتصور أن الأرض محوطة بدائرة وترتكز على جذور طويلة مثل الشجرة كما فى (شكل ٦) .



(شكل ٦)



(شكل ٥)

وساد كذلك اعتقاد قديم بأن الأرض بساط مستدير يقوم على اثنى عشر عمودا كما فى (شكل ٧) ولكن على أى شىء تقوم هذه العمد ؟ فيجيب قساوسة أوروبا فى القرون الوسطى بأنها تقوم على الضحايا البريئة من أهل الفضيلة والتقوى الذين لولا وجودهم هنالك لدكت الأرض وذهبت هباء فى الفضاء ، وقد كان (أناكسيماندر) الإغريقى فى القرن السادس قبل الميلاد يرى أن الأرض كالاسطوانة كما فى (شكل ٨) وأن قطرها يساوى ثلاثة أمثال ارتفاعها ، وأنها سابحة فى مركز القبو السماوى . وأنه لم يسكن منها إلا وجهها الأعلى . وتوجد أوروبا فى النصف الشمالى وليبيا أو افريقيا وآسيا فى النصف الجنوبى .





(شكل ٨)



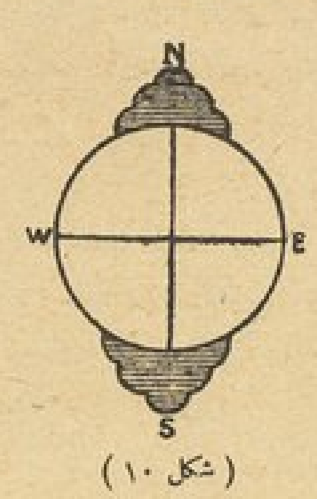
(شكل ٧)

ثم جاء من بعده بقليل الفيلسوف أفلاطون وقال [إن الأرض مكعبة] (انظر شكل ٩) لأنه كان يعتقد أن المكعب أكمل الأشكال الهندسية فيجب أن يكون موطنا لأفضل الكائنات وهو الإنسان . وأنه قبل أن يقول علماء الغرب بكروية الأرض سبقهم إلى ذلك من عهد بعيد علماء الشرق حيث تخيلوا أن الأرض

كروية وتنتهى شمالا وجنوبا بجبال عظيمة الارتفاع كما فى (شكل ١٠) ونرى كذلك فى هذا الشكل إدرا كهم لعمود عظيم تعتمد عليه الأرض وهو الذى تطور فيما بعد إلى مايسمى الآن (المحور) .



(شكل ٩)



(شكل ١٠)

وذهبوا إلى أن جبال النصف الشمالى تخرج من أوقيانوس عظيم وترتفع حتى تبلغ مقر الآلهة فى السماء بينما تتدلى جبال النصف الجنوبى حتى تبلغ الجحيم ومقر الشياطين . ونجد مثل هذه النظرية فى علم الفلك فى الهند مع اختلاف فى المسميات حيث يذكر أن جبل العالم يرتفع فى القطب الشمالى للأرض ليصل مابينها وبين السماء وهو مثل محور تدور حوله الأجرام السماوية (انظر شكل ١١) . ووجدت أيضا نظرية فى بلاد (الهند والكلدان) تقول : [إن الأرض مثل محارة كبيرة مستديرة (انظر شكل ١٢) تقوم على أربعة أفيال] ويرمزون لذلك بالعناصر الأربعة أو الرياح . وتقوم الفيلة على ظهر سلحفاة كبيرة . ويرمزون بها للقوة والبقاء والصبر والجلد والخلود .



(شكل ١١)



(شكل ١٢)

وانتقل إلى الغرب منذ (١٥٠٠) سنة نظرية تقول . [إن الأرض بيضاوية وأنها سابحة فى الأثير] انظر (شكل ١٣) وقال الإدريسى وهو أحد الجغرافيين من العرب فى القرن الحادى عشر للميلاد [إن نصف هذه الأرض البيضاوية مغمور فى الماء] وذلك ليحل مشكلة النصف المجهول ، وكان (بطليموس) فى القرن الثانى للميلاد وهو من أشهر الفلكيين يرى أن الأرض مثل كرة مفرطحة من جانبيها كحبة القوطة انظر (شكل ١٤) .

وجاء



(شكل ١٣)



(شكل١٤)

وجاء (أبيانوس) فى سنة (١٥٢٠) ميلادية فقال [إنها تشبه القلب] انظر (شكل ١٥) وصادفت نظريته ميلا فى قلوب قساوسة الدين فى أوروبا فأيدوه قائلين [إنها قلب الله] وإن هذه الكرة القلبية تشبه أرض المكتشف العظيم (كولمبوس) حيث تصورها مثل الكمثرى ، فالنصف الكروى هو الشرق والنصف المستطيل هو الغربى ، والتمدد الذى أوجده فيه هو (العلم الجديد) الذى اكتشفه ، وأما (دانت) فقد تصورها قبل ذلك بقرن فى مثل هذا الشكل جاعلا هذا التمدد لحجمه الذى صوره فكانت جبال المطهر تحت خط الاستواء بثلاثين درجة انظر (شكل ١٦) بينما جعل (أورشليم) أو (ريون) فى الجهة المقابلة لحفظ التوازن .



(شكل ١٥)



(شكل ١٦)

وظهر فى سنة ١٨١٩ فى (سنت لويز) بالولايات المتحدة القبطان (جون كليفزسيمس) بنظرية عجيبة تعرف باسمه أو بنظرية الكرات المتداخلة ، وهى أن الأرض أو أى كوكب يتكون من عدة من الكرات المتلابسة والمشتركة فى مركز واحد كما فى (شكل ١٧) و (شكل ١٨) وبين كل كرة والتى تليها فاصل مملوء بالهواء ، وعند القطبين فتحة كبيرة فى جميع هذه الكرات . ويرى أن الأرض تتركب من خمس طبقات أو كرات متداخلة وأن فيها فتحتين كبيرتين عند القطبين يبلغ قطر الشمالية أربعة آلاف ميل وقطر الجنوبية ستة آلاف ميل . وأن سطحى كل كرة أو طبقة مسكونان فتوجد سكان فى الأرض على السطوح المحدودبة والسطوح المقعرة . وطلب إلى المجلس النيابى بالولايات المتحدة أن يجهزه بسفينتين ليسافر إلى أحد القطبين ويدخل من الفتحة الموجودة هنالك ليدخل إلى سكان السطح المقعر الذى نعيش فوقه .



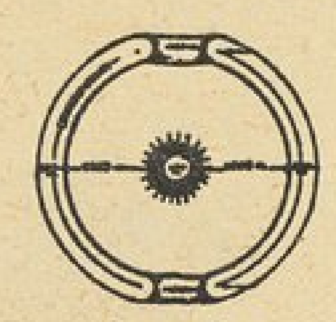
(شكل ١٧)



(شكل ١٨)

وطبع المارشال (جاردنر) فى سنة ١٩١٣ م فى الولايات المتحدة كتابا عنوانه [سياحة إلى داخل الأرض] ذهب فيه إلى أن الأرض مجوفة ويبلغ سمك طبقتها التى نعيش عليها ثمانمائة ميل ، وأنها مفتوحة عند القطبين . ويوجد فى داخلها شمس انظر (شكل ١٩) ويبلغ قطر كل فتحة قطبية ألفا وأربعمائة ميل .

وقال (موريه) فى كتابه [علم الفلك اليوم] إن الأرض على شكل هرم انظر (شكل ٢٠) وهو يرى أن نظريته تبين اختلاف أنصاف أقطارها وتحل كثيرا من النقط المعضلة فى هذا الصدد التى لا يمكن أن تفسرها أية نظرية أخرى .



(شكل ١٩)



(شكل ٢٠)

وهذه النظرية التى نشرها (تيوفيل موريه) العالم الطبيعى الفرنسى إن هى إلا شرح وتأييد لنظرية (لوثيان جرن) العالم الإنكليزى التى كانت مثارا لجدال كبير فى سنة ١٨٧٥ م وهو يذهب إلى أن الأرض هرمية الشكل وأن البحار تشغل بطونا فى سطوحه الأربعة بينما أركان هذا الهرم عبارة عن القارات الحالية وقد بعث (موريه) هذه النظرية الهرمية للوجود بعد رفضها فى ذلك العهد ليحللها العلماء من جديد فى نور ما استكشف من العلم الحديث . والجدال قائم الآن فى كل مكان على قدم وساق . ويقال إنها أحسن نظرية فى بيان حقيقة شكل الأرض . وأن مالا شك فيه أن نظريات كروية الأرض لايؤيدها أحد اليوم من علماء الجيولوجيا والفلك . انتهى المقام الأول فى وصف الأرض .

(المقام الثانى)

(فيما يقوله علماء الاقتصاد فى مباحث المعادن والفحم الخ)

اعلم أن علماء الاقتصاد استقصوا مباحث المعادن والفحم وتربة الأرض، فلأذكر خلاصة مايقولون فى هذا المقام إيقاظا للمسلمين وتعليما للجاهلين .

اللهم إنا نحمدك حمدا يوافى نعمك ، أنت الذى علمت وألهمت ، وأنت الذى جعلت الأمم كلها يخدم بعضها بعضا وكل يساعد كلا وإن كانوا لا يقصدون ، فها نحن أولاء ننتفع بجم الأمم ، فالعالم كله مرتبط بعضه ببعض بطريق الجاذبية التى بين الكواكب والسيارات ، وهكذا الناس مرتبطون بالمصالح والعلوم شاءوا أم أبوا « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ـ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » .

(التربة)

إن التربة قد تكون سوداء وهى التى جلبها (الغرين) أى ما يسمى فى مصر بالطمى ، وقد تكون نباتية ، وقد تكون بركانية كأراضى الدلتا . فالسوداء هى التى تجلبها الأنهار كنهر النيل بمصر وهذه لا تحتاج إلى سقى كثير والرملية تحتاج إلى سقى كثير ، ويزرع فى الأولى أمثال الأرز والقصب وفى الثانية الشعير والفول السودانى والبطيخ . ومن أحسن الأراضى السوداء الهندية فى مقاطعة بنجاب فقد زرعت آلاف السنين بغير سماد . وأما التربة الثانية فهى التى امتزجت تربتها بما تحلل من النباتات قديما فصار ذلك غذاء للمزارع التى تزرع فيها . قالوا ومن أحسن أنواع التربة الخصبة فى العالم التربة البركانية وتقع عادة فى جوار البراكين الحية أو الخامدة وتتكون من بعض الصهورات أو الرماد الذى ينبعث من جوف البركان فتحمله الريح وتنشره على مسافات واسعة حول البركان فيكسبها الخصوبة الكثيرة . ومن أمثلة ذلك الأراضى البركانية القديمة الواسعة فى مقاطعات (الولايات المتحدة) و (شنجتون) و (أريغون) انتهى .

أقول : فإذا كان أحسن أنواع التربة هى التربة البركانية . فهنا ظهر بعض معنى قول الله تعالى هنا « وما يخرج منها » فهو الذى قدر الزلازل والبراكين ليستخرج لأهل الأرض تربة أصلح وأنفع من التربة التى يعيشون بها . إذن المصائب التى يأتى بها البركان والزلزال أقل جدا من المنافع .

هذا من معنى قوله «يعلم ما يلج» الخ . وقد آن أن أبين لك الكلام على الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة من كتاب [الجغرافيا الرشيدة] لمحمد حمدى بك ، فقد جاء فيه ما يأتى :

(الهزات الخفيفة والزلازل العنيفة)

الاهتزازات فى القشرة الأرضية كثيرة حتى يكاد يقع منها نحو ٣٠٠٠٠ هزة فى السنة ، ولكن هذه الاهتزازات التافهة لا يلتفت إليها ، ولا يكاد يدونها السيسموغراف الذى يقضى الشهور الطويلة أبيض الصحيفة لا يحيد فيها عن الخط المستقيم ، ثم تأتى المفاجأة الهائلة فيهيج القلم ويرتجف على الورقة ارتجاف الطائر الحائر حتى ينقضى المقدور وينتهى المسطور . ويظهر أنه على قدر مدة السكون تكون شدة الزلزال المقبل ، إذ أن أشد الزلازل خطورة كانت تعقب أطول الفترات سكونا .

(التغيرات المترتبة على الزلازل العنيفة)

إن حركات القشرة الأرضية الهادئة المستمرة أبعد مدى فى تغيير معالم وجه الأرض من التغيرات الفجائية التى تحدثها الزلازل ، وأهم ما ينشأ عن الزلازل ارتفاع أراض كانت واطئة لجأة ، وانخفاض أراض أخرى وتغير مجارى المياه تبعا لذلك ، وتحطيم القشرة الأرضية وتمزيقها بالشقوق والفتوق الطويلة العريضة فى أقرب وقت .

غير أن الزلازل وإن كانت بمفاجآتها وأهوالها تلفت النظر إليها وإلى آثارها هى من الحوادث الصغيرة فى تاريخ القشرة الأرضية ، وليست شيئا بجانب بنيان الجبال وتغير صورة وجه الأرض شيئا

بهدوء واستمرار . وسرعان ما تتسلط عوامل التعرية على ما تخلفه الزلازل من الآثار فتمحوها وتصيرها كأن لم تكن .

﴿ نشأة البركان ﴾

قد علمت أن جوف الأرض مكون من مواد شديدة الحرارة جدا درجة يبوستها محفوظة بضغط القشرة الأرضية عليها . وفي أثناء تقلص الأرض والتواء قشرتها يحدث أحيانا أن يخف الضغط فجأة على تلك المواد فتنصهر لوقتها وتتحول ، ويهيء وجود فتق أوشق بعيد الغور فرصة لخروج المواد المنصهرة الجائشة فينشأ عن ذلك البركان . وهو جبل مخروطي الشكل ، في قلبه قصبة مجوفة ، على رأسها فوهة وعائية الشكل تخرج منها الأبخرة والصخور والمنصهرات . ويشيد البركان من الأنقاض التي تخرج من فوهته سواء أسالت على جوانبه أم تساقطت من الجو بعد الارتفاع مخروطا بركانيا .

﴿ الحمم البركانية ﴾

تسمى الصخور المنصهرة التي تخرج من فوهة البركان حمما . وقد تبرد أحيانا فتكون سدادا يسد القصبة فتخرج الحمم من الشقوق النافذة إلى أحد جوانب البركان وتعمل لها فوهة صغيرة يشيد حولها مخروط صغير على جانب المخروط البركاني . وتسيل الحمم على جانب البركان في كل ناحية فتشيد فيه وتزيد في بنيانه . وعند ماتبرد الحمم تتشقق كما تتشقق الأرض الشراق فتكون منها أشكال منتظمة كما ترى في أعمدة البازلت . ويحدث أن يتحات المخروط البركاني تاركا سداد القصبة وحشو الفوهة فتبقى صخرة منعزلة .

﴿ الثوران البركاني ﴾

يخرج من فوهة البركان سحب من بخار الماء المتولد من المياه التي تتسرب إلى جوف الأرض وتختلط بالصخور المنصهرة ، فيطرد البخار الصخور المتخلفة في قصبة البركان بعد أن يمزقها كل ممزق ، ثم تخرج سحائب من التراب البركاني الذي يجعل الجو مظلما وينتشر في الآفاق إلى مسافات هائلة ، وتخرج من بعده الحمم والمواد المنصهرة ، فتسيل على الجوانب . ولذلك تجد المخروط البركاني مشيدا من طبقات من الحمم ، وأخرى من الرماد البركاني الذي تنزل به الأمطار الموحلة على البركان . وكلما تكرر ثوران البركان تكرر تكوين الطبقات وتشييد الجبل . ومن أعظم الثورات البركانية ثوران بركان كركتوا في سنة ١٨٨٣ . وجزيرة كركتوا هذه في أرخبيل اللايوبين سومطرى وجاوى ، تكرر فيها حدوث الزلازل ، وفي صباح ٢٧ أغسطس سنة ١٨٨٣ بدأ الثوران البركاني المعظم ، فسمعت أصوات فرقعة الغازات في جنوب استراليا ، وخسف ثلثا الجزيرة فحل محل الجبال العالية بحر عمقه ألف قدم ، وهاجت الأمواج الهائلة فطغت على سواحل الجزائر القريبة ، وهلك ٣٦٠٠٠ نسمة وخربت نحو ٣٠٠ قرية ، وصار الجو مظلما كالليل في الجهات المجاورة من كثرة التراب البركاني الذي كان يرتفع إلى علو ٢٠ ميلا من الفوهة . وقد انتشر هذا التراب في أجواء العالم فجعل الشفق منظرا شديد الاحمرار حتى في غرب أوروبا . وقد علمت أن في قرار المحيطات طينة حمراء مشتملة على بقايا الحيوانات البحرية ، فهذه الطينة مكونة في الغالب من الرماد البركاني . انتهى ما أردته في هذا المقام من كتاب الجغرافيا الرشيدة .

فانظر وتعجب ! إن علم الله بما في السموات والأرض لا يحتاج إلى بيان فكل متدين يعلم ذلك ولكن الله كرره في القرآن كثيرا في كل مناسبة وهو إذا علم كل شيء فهو يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها الخ ولكن لما قرأنا علوم أهل زماننا وجدنا أن ذلك التخصيص بالنص لحكم ظهر بعضها وسيظهر باقيها . علم الله أن المسلمين سيقرءون القرآن وينامون عن العمل ويتركون الأرض لغيرهم فقال لهم [أيها المسلمون :

أنا أعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج من الأرض ولولا نفعه لكم ما أخرجته منها . هذه البراكين مهلكة ولكنها نعمة لأن وجه الأرض كما ضعفت الزراعة فيه فلم تأت بالغرض المطلوب . سلطت عوامل سرية على تربة قوية فأظهرت المكنون فى باطن الأرض فظهر على وجهها بالبركان ثم أمرت الرياح فجرت به وفرشته وفرقته على الجهات المجاورة . إذن هذا الخروج بعلم وحكمة وتقدير . هكذا الفحم والبترول والحديد ونحوها] .

﴿ الفحم ﴾

خزن الله الفحم فى الأرض أجيالا وأجيالا . وما الفحم إلا موادّ نباتية احتجبت فى طبقات الأرض عن الهواء، دهورا طويلة فجرت عليها سلسلة من التغيرات الكيماوية أدت إلى فقد مقدار عظيم من الأيدروجين والاكسوجين وبقاء مقدار من الكربون . والكربون يكون فى الخشب المعتاد بمقدار نصف مايكون فى الفحم العادى ، ولقد يكون منه فى الفحم بنسبة (٨٥) أو (٨٨) فى المائة .

هذا كلام علماء الاقتصاد ، ومعنى هذه العبارة أن الخشب يحتوى على ماء (الأكسوجين والادروجين) المتقدم ذكره ويحتوى على مادة فحمية وهى الكربون ، فبقاء المواد النباتية مئات القرون تحت الأرض يذهب منها أكثر الماء ونحو نصف المادة الكربونية (الفحم الخالص) والباقى من ذلك كثير فى الفحم ، وقالوا من أنواع الفحم :

(١) انثراسيت . وهو لماع صعب الاشتعال لاتتسخ منه اليد ، لهبه قليل أو عديم اللهب ، شديد الحرارة عند الاشتعال .

(٢) الفحم البخارى ، وهو قليل الدخان كثير الحرارة يحفظ للأساطيل .

(٣) فحم الغاز .

(٤) فحم الكوك ، نافع فى المعامل والسكك الحديدية والبواخر، وفى التنانير لاستخلاص المعادن وصهرها ومعامل الغاز .

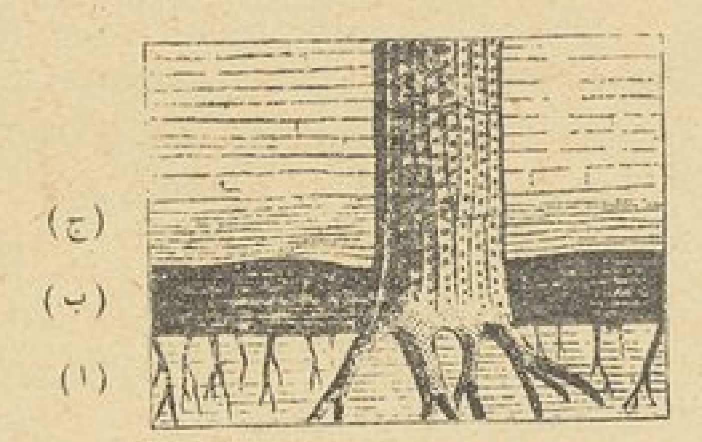
(٥) الفحم على وجه العموم هو المادة الأولية لمئات من الصناعات مثل الكوك المتقدم ، ومنه القار الفحمى ، ومنه زيت القار وهو وقود جيد ، ويعمل من الأول مستخرجات تستعمل فى الصباغة وعمل الفتائل والتطهير ، ومنه البترول وغاز النشادر ، وتصنع منه الأسمدة ، ويستخرج من الفحم أيضا بعض الكيماويات الداخلة فى صناعة الطب مثل (السكرين) وهى العطريات والمفرقعات وهلم جرا .

فاعجب أيها الذكى لفحم أسود اللون منبوذ يكون وقودا وسمادا وعطرا وأداة حربية تهد الحصون وتخرب البلدان وصباغة للثياب وتطهيرا ودواء ، فلئن داوى المريض فقد نما به الزرع وإن صبغ الثوب فقد أهلك المدن « إن الله لطيف خبير » .

فهاك أربع صور للفحم انظر (شكل ٢١ و ٢٢ فى الصفحة التالية) و (شكل ٢٣ فى صفحة ١٤٥) و (شكل ٢٤ فى صفحة ١٤٦) .



(شكل ٢١ ــ منظر رسم هندسى للفحم منظور من معدنه أثناء العمل)



(شكل ٢٢ رسم هندسى بديع)

(ا) هذا هو الجزء الذى تحت الطين مع الجذور الممتدة فيه .
(ب) فرش الفحم وهو أسفل طبقة .
(ج) سقف الفحم مختلطا بالرمل وبنوع من لوح .

هذا هو الفحم الذى خزنه الله فى الأرض وأبقاه مئات الألوف من السنين ثم أبرزه اليوم للناس بعد ما أنضجه وجعله مدار رقى الأمم فى الزراعة والصناعة والعلم والحكمة . ألا ترى أن العقول تزداد بصيرة بمزاولة هذه العجائب ؛ أبرزه للناس فعرفوه بقولهم واستخرجوه من الأرض ، ولما علم أن المسلمين سينامون طويلا كما نام الذين من قبلهم من الأمم قال سبحانه « يعلم مايلج فى الأرض » (كالأشجار والنباتات فى قديم الزمان) « وما يخرج منها » (فهى قد استخرجت اليوم وانتفع بها الناس) لا للمسلمين ، فهو يقول إنها بعلمى دفنت فى الأرض بالزلازل والحوادث الكثيرة وبعلمى تستخرج الآن ، فعلمى متعلق بها فى الحالين وهى التى خزنت فيها ضوء الشمس الذى أشرق عليها أيام نموها ، ثم أنا الآن أظهره لكم لتجنوا ثمره وتعرفوا خبره ومثل الفحم البترول .

(زيت البترول)

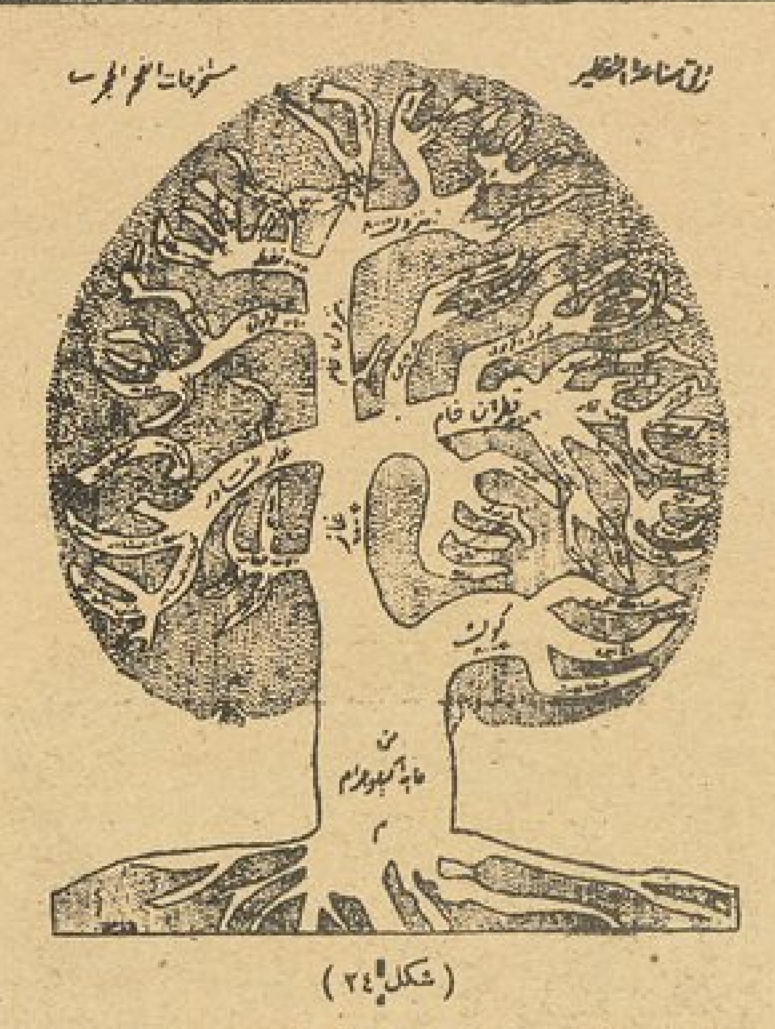
(أنواعه ومستخرجاته ومنافعه : أشهر جهات العالم به ـ القوقاز . الولايات المتحدة . وغيرهما)

(مصر وزيت البترول فيها)

سبحانك يا ألله ! أدهشنا صنعك ، وبهرنا وضعك . جعلت فى الأرض ماء ، سلكته ينابيع فيها ومنها الينابيع الحارة التى رسمت فى [سورة الكهف] فى أولها عند قوله تعالى « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها » فهناك من زينة الأرض قد رسم نوعان من العيون الحارة المرتفع ماؤها عن الأرض : نوع ينبع وسط الثلج . ونوع ينبع وسط الحجارة الصفراء . وهكذا نراك جعلت فى الأرض أيضا المعادن والفحم المتقدم ذكره . وهكذا نراك أجريت منها سائلا ننتفع به فى أعمالنا . فلم يقتصر عملك على الفحم الذى هو جامد بل خلقت لنا جسما سائلا وخزنته فى الأرض . أليس هذا من العجب ! تخلق الزيت فى الزيتون وفى السمسم وفى بزرة القطن وفى غيرهما وتجعله نافعا لنا مضيئا لمنازلنا وهكذا شحم الحيوان . كل ذلك فوق الأرض مشاكلة لما أبدعته من الأنوار التى أرسلتها من علياء سمواتك .



(شكل ٢٣ ـ رسم الأعشاب فى مدة الفحم الحجرى)



(شكل ٢٤)

يا ألله . سموات مشرقات بكوا كبها ، وحيوان فيه دهن يعطينا نورا مشرقا بدهنه ونبات كذلك ، وفحم في باطن الأرض ثم ما نحن فيه وهو البترول ، نعم لاعجب فى ذلك ، لماذا ؟ لأنك نور السموات والأرض ، وهكذا أنرت بصائرنا بالعلم وبالحواس وبالعقل ، نورك فى كل مكان ، وجمالك فى كل مكان . هذا البترول تراه يفيض على سطح الأرض كما نرى الماء ينبع من بعض العيون . وما هذا البترول النابع الظاهر على وجه الأرض . ولا هذا الماء النابع إلا درس لنا . تقول لنا : أيها الناس ، إن فى الأرض الماء فاطلبوه بجدكم ولا تتكلوا على ماظهر منه ، وهو هذا النابع .

سبحانك اللهم . أنت فعلت هذا وفعلت نظيره إرسال الأنبياء . أرسلت أنبياء وأعطيتهم العلم وحيا ، وكأنك تخاطبنا قائلا : أيها النوام ، ويحكم . هاهوذا علمي فاض على بعض عبادي كما يفيض الماء من باطن الأرض بلا عمل . ومعنى هذا أن عندى علوما وقد أظهرت بعضها فالتمسوا علومى بجدكم كما التمستم الماء من باطن الأرض بعملكم وقد رأيتم ماء نابعا منها . وها هو ذا البترول فاض على سطح الأرض أظهرت بعضه بهذا الفيضان . لماذا ؟ لأريكم أن عندى منه كثيرا فالتمسوه . نعم التمس الناس البترول من باطن الأرض فخرج :

(١) زيت طبيعى أسود قاتم ثقيل فأجروا عليه عمليات كثيرة وصفوه بها ، فخرج منه أنواع وأصناف تختلف وزنا وسيلانا وغيرهما من الخواص ، وباختلاف الخواص تختلف الأعمال والمنافع والأسماء . فمنها :

(٢) صنف خفيف يسمى (كيروسين) وهذا مستعمل للاضاءة .

(٣) وصنف آخر ثقيل يستعمل للوقود .

(٤) وصنف آخر يستعمل للصقل أثقل منهما . وتسمى الزيوت المستخرجة من الولايات المتحدة باسم

(٥) زيوت البرافين .

(٦) ومن عجب أن هذا الاسم لايطلق فى انكلترا إلا على نوع الزيوت التى يستخرجونها بالتقطير .

وبينما أنا أكتب هذا إذ حضر بعض الأصدقاء فقال : كيف يكون التقطير هنا ؟ أيقطر من نبات ؟ قلت: كلا. قال أيقطر من باطن الأرض . قلت : كلا . قال إذن مم يقطر ؟ قلت يقطر من صخور قال وكيف ذلك قلت قد كشفه رجل إنجليزى يسمى (المستر جمس يانج) عثر عليه وهو يبحث عن الزيت الطبيعى المتقدم . ذلك أنه رأى ذلك الزيت يسيل من سقف أحد المناجم بمقاطعة (در بشير) بانجلترا فلاحت له فكرة أن يستخرج هذا من الفحم الخالص فاستقطره فنجح وأحرز رخصة بمزاولة هذا العمل سنة ١٨٥٠ فاستخرج زيت البرافين المذكور ثم استخرج مادة البرافين المشهورة . ثم إن هذه الصخور الفحمية تكون بانجلترا وألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا والهند واستراليا، وزيتها كما عرفت يشبه البترول ويستعمل مثل استعماله . وليست طريقة استحضاره بالآلات الماصة كما فى الزيت الآخر . كلا . بل الطريقة هنا أنهم يصهرون الصخور فى أوعية حتى يتبخر زيتها فيستقبلونه ويكثفونه فيكون زيتا خالصا . ومن العجب أن زيوت البترول والبرافين أصبحت ذات شهرة واسعة بل إنها أغنت عن الزيت النباتى والحيوانى . لماذا ؟ لأن الله نور السموات والأرض ولأنه واسع عليم ولأنه لطيف لما يشاء . هو الذى خزن ذلك فى الأرض ووضعه على (نمطين) نمط هو سائل وهو البترول . ونمط هو جامد وهو زيت البرافين . فيستنبط الناس الأول من الأرض ويستنبطون الثانى من الحجارة والنتيجة واحدة . وقد أصبحت تلك الزيوت المستنبطة من الأرض أو من حجارة الفحم تغنى عن زيت الزيتون الذى كانت تفخر به إيطاليا ومعظم ممالك البحر الأبيض الشهيرة من قديم لكثرة أشجاره فيها ، فترى الناس يختارون زيت البترول للصقل لأنه يبقى مدة طويلة بلا تجمد أو لزوجة كما يحصل للزيوت النباتية والحيوانية فإنها بهذا السبب تلتصق بالمواد التى يراد صقلها ولا يتم الانتفاع بها الآن على الوجه الأكمل الأحسن إلا إذا مزجت بمقدار من زيت البترول . إذن الله يقول لنا « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها» والإخراج قد يكون بالآلات الماصة وقد يكون بالاستقطار من الأحجار، فهو يعلم أن مثل هذا النوع المستنبط يساعد فى الأحوال العملية كالصقل المذكور إذ الزيت الذى خلقته على ظهر الأرض فيه نقص فاحتاج إلى الكمال فأخرجت لكم زيت البترول من باطن الأرض لأدلكم على ماوراء ذلك وكذلك أنزل قطرات من الفحم الحجرى ليدلكم على مافيه وأنتم لاتستكملون ذلك بعملكم . إذن هذه مخازن الله خزنها فى أرضه وصخوره ودلنا عليها وعلم منفعتها ثم قال للمسلمين استخرجوها كما استخرجتها الأمم قبلكم لأن هذا من فروض الكفايات وفروض الكفايات لها مقام عال فى الإسلام ، وأيضا أنا سخرت لكم مافى السموات والأرض وهذا مما فى الأرض أفلا تشكرون نعمتى أيها المسلمون ؟ وشكر النعمة بفهمها أولا وقبولها ثانيا ، أما الفهم فها هوذا وأما القبول فبالعمل وبالعمل قد استخرج الناس من زيت البترول ما يأتى :

(٧) زيت الفازولين : وهو زيت خفيف جدا يتولد منه غاز سريع الاحتراق يسمونه (بترول) فقط وهو المستعمل فى تسيير السيارات وما شاكلها .

(٨) والبنزين يحتاج إليه كثيرا فى صناعة المطاط (والفوطابرشا) لما فيه من خاصة إذابتهما .

(٩) والفازولين ويستعمل دهانا ومنافعه شتى فى الشئون الطبية .

(١٠) والريغولين وهو أكثر زيوت البترول تطايرا ، ويستعمل أحيانا فى الطب للتخدير المحلى الذى يحدث فى العضو من البرودة الشديدة التى تعقب تطايره .

(١١) والنفتالين (النفط) وغير ذلك من المواد النافعة .

ثم إن أشهر جهات العالم فى استخراج زيت البترول إنما هى بلاد القوقاز لدى شطوط البحر الأسود وعلى جوانب بلاد القوقاز على حدود فارس عند (مرو) وأشهر مراكزه [الوردان : المورد الأول] على جانب القوقاز الجنوبى ومِيناؤه (باطوم) على البحر الأسود (المورد الثانى) على بحر قزوين ومِيناؤه (باكو) . وآبار هذه الجهة معروفة من قديم الزمان وكان الفرس يزورونها ليعبدوا النار فى غازاتها الملتهبة المندلعة من جوف الأرض ، ولقد تقدم فى (سورة طه) عند قوله تعالى « وقل رب زدنى علما » الكلام على اندلاع النار فى تلك الأقطار فارجع إليه واقرأ صور ذلك هناك واعجب من حكم تجلت فى هذه الدنيا . ثم إن هذا المورد لم ينفع الناس منفعة تامة إلا حين خرج من قبضة الفرس إلى الروس فى أوائل القرن التاسع عشر ، وليس فى الأرض مكان فيه من كثرة الزيت ما فى هذه الأمكنة إذ يتدفق الزيت هناك على جوانب الآبار من غير حاجة إلى استنباطه بالآلات ، وتنبط البئر فى اليوم الواحد (مليون غالون) وقد يتدفق الزيت بغتة فينتزع الأجهزة المركبة على فوهات الآبار ويقذف بها فى الجو مسافات .

ويلى هذه الجهات فى استخراجه (الولايات المتحدة) وفيها الآن (٢٠و٠٠٠) بئر وفيها نحو (٤٠و٠٠٠) برميل من الأنابيب لنقل الزيت إلى المصافى فى بلاد مركزية . ومن هذه يوزع فى طول البلاد وعرضها أو ينقل إلى الموانىء للتصدير ، ثم إن صناعة الحديد والصلب والزجاج وغيرها تقوم بجوار تلك الينابيع .

هذه أشهر البلاد التى يستخرج منها الزيت ، ومن البلاد التى يستخرج منها الزيت المذكور مصر ولكنه قليل ، ففيها (شركة زيت إنجليزية مصرية) جنوب السويس عند البحر الأحمر وانتظم العمل بها سنة ١٩١١ وتحت إمرتها (آبار جمسة) و (آبار هر غادة) .

ويستخرجون منه بترول السيارات وبترول الإضاءة وسائل الحريق وزيوت الصقل وغير ذلك اه .

﴿ عبرة ﴾

اعلم أيها الذكى أن بلاد المسلمين قد خزن الله فيها للناس خيرات . فهل الله عز وجل يمنع النعم عن خلقه لأن المسلمين يجهلونها « إن الله لطيف لما يشاء » حكيم الصنع جزيل الإحسان . هذه دولة الروسيا للملكت منابع البترول استخرجته ، ولما كانت ملك بلاد الفرس كانت محجوبة عن الأمم .

أيها المسلمون : اعلموا أن الأرض خلق الله وأننا عبيد الله والله عز وجل الذى خلقنا وخلق الأمم حولنا لا يمكن أن يرضى بتعطيل منافع ملكه لأجل جهل بعض عباده ، فهل يظن المسلمون أنهم إذا عطلوا نعم الله يرضى هو بذلك . كلا . بل هو ينزع الأرض منهم ويعطيها لغيرهم ، وهل خلق الفحم وزيت البترول مثلا وهكذا المعادن ؟ هل هذه كلها خلقها الله ليحجبها عن الناس . كلا . فالله خلق المنافع وبثها فى الأرض ومتى خلق من يستحقها لا يمنعها عنه كما لم يمنع الذكور عن زواج الإناث لما فى ذلك من المنافع ، فاذا جهل المسلمون منافع أرضهم سلط غيرهم عليها فأخذوها وانتفعوا بها وهو القائل « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين » . لو خلق الله هذه المنافع ثم هو يمنعها إلى الأبد لكان ذلك عبثا والله يجل عن العبث وهو الحكيم ، هو الذى يقول « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » أى ويعلم من يمنع منافعها فينقه ومن يستخرجها فيساعده لأنه حكيم عليم ، والحكيم لا يخلق إلا لحكمة ، ولا يعطى النعمة إلا لمن يستحقها ، فليعلم المسلمون مركزهم من الإنسانية حتى ينطبق عليهم قوله تعالى « خير أمة أخرجت للناس » انتهى .

جمال العلم

في قوله تعالى « وما يخرج منها »

جاء في كتاب « الجغرافيا الرشيدة » تحت العنوان التالى مانصه :

الينابيع المحجرة

كثيرا ما يجرى الماء مذابا فيه الجير فيكسوا كل ما يصادفه من الأشياء بطبقة قد تغير الآثار الحية فتجعلها متحجرة ، ولا شك في أن الغابة المتحجرة في هليوبوليس تكونت بتأثير ينابيع حارة مذاب فيها الرمل .

﴿ الصخور الرسوبية الكيمائية ﴾

فالجبس الذى رأيته في الأعمدة من الصخور الرسوبية المتكونة بتأثير كيميائى ناتج من ذوبان الصخور الجيرية . ومثله صخور الملح . وفي فكلكزة بالقرب من كراكو في تشيكوسلوفا كيا أعظم مناجم للملح في العالم ؛ فهناك مدينة بتمامها منحوتة تحت الأرض في صخور الملح .

﴿ أنواع الصخور الرسوبية ﴾

فمن أنواع الصخور الرسوبية الطين والحجر الرملى وهما من الرواسب العادية ، والجير والمرجان من البقايا الحيوانية ، والفحم من البقايا النباتية ، والجبس والملح من الصخور التى تكونت بعوامل كيميائية .

﴿ الصخور الرسوبية المتحولة ﴾

وقد يطرأ على بعض صنوف هذه الصخور تحول بسبب الضغط أو الحرارة أو حركات القشرة الأرضية ، فيغير شكل الصخر ومميزاته ويزداد صلابة ولمعانا ؛ فمثلا الاردواز أصله الطين والرخام أصله الطباشير .

﴿ الصخور غير الرسوبية والصخور النارية ﴾

هناك نوعا آخر من الصخور مختلفا عن كل ما وصفنا لك إلى الآن . هـذا حجر الجرانيت الذى سمعت عنه كثيرا في الآثار المصرية كالمسلات والتماثيل . خذ قطعة منه وافحصها تجد أنه ليست له حبات مستديرة ، بل يتكون من ثلاثة أنواع من الصخور البلورية المختلفة الشكل : فمنها الفلسبار بلون اللحم الأحمر ، والميكا ذات اللون الأسود اللامع المفضض ، والكوارتز الذى تكونت منه حبات الرمل . وليس لوضع أجزائه أى نظام ، وليس له طبقات ولا فيه حزوز بل هو من صنع الطبيعة ذاتها . وبريق أجزائه يدلك في الحال على تكونه بالحرارة فهذا الصخر نارى من الصخور الأصلية التى تكونت منها قشرة الأرض قبل الصخور الرسوبية . والصخور الرسوبية كلها مشتقة في الأصل من هـذه الصخور النارية . وهناك نوعا آخر من الصخور النارية وهو الطفح الذى يخرج من البراكين وترى فيه فقاقيع غازية ويسمى صخرا بركانيا ، تمييزا له عن مثل الجرانيت الذى تكون بهدوء تحت سطح الأرض . وهذا جدول يلخص لك تقسيم الصخور على أكمل وجه :

﴿ الصخور ﴾

(١) متحولة (ب) ومائية (ج) ونارية

(١) الصخور المتحولة (١) مائية الأصل كالاردواز من الطين (٢) ونارية الأصل كالنيس من الجرانيت
(ب) الصخور المائية (١) تكون عضوية كالجير والفحم (٢) وكيمائية كالملح والجير (هكذا بالأصل) (٣) ورسوبية كالطين والحجر الرملى .

(ج) الصخور النارية (١) البركانية كالبازلت (٢) والباطنية كالجرانيت اهـ .

نموذج التمارين التى اعتاد المدرسون أن يسألوا التلاميذ فيها

(١) صف مجموعة عن الحفريات التى تجدها فى جبال المقطم . ما الذى تستنبطه من وجود هذه الأصداف عالية فى الجبال ؟

(٢) أغلب الآثار المصرية مطمورة بالطين إلى علو أربعة أمتار ، فإذا كان عمر الآثار أربعة آلاف سنة ، فما سمك طبقة الغرين التى ترسب على أرض مصر سنويا من الفيضان ؟

(٣) من أى أنواع الصخور البازلت والرخام ؟ علل وجود الرخام فى جهة أبى زعبل تحت طبقات البازلت .

(٤) فى شرق هليوبوليس غابة متحجرة . ماذا تظن السبب فى وجودها ؟

(٥) بجوار ساحل البحر الأبيض المتوسط فى مصر ملاحات عظيمة . وضح كيف يحصلون على الملح منها وبأى كيفية تكونت صخور الملح العظيمة فى فكلكزة ؟ .

(٦) ما الذى تعرفه عن أصل الفحم الحجرى ؟ وماذا فى هيئة الفحم يؤيد نظريتك ؟

(٧) ما الأدلة على حرارة جوف الأرض وماذا تعتقده بشأن أصل هذه الحرارة ؟

(٨) أى أنواع البحار يلائم النمو المرجانى ، كيف تعلل وجود الجزائر والحواجز المرجانية فى البحار العميقة ؟

(٩) ماسبب تكوين المغارات فى الصخور الجيرية ، أى نوع من أشكال التضاريس يخلف المغارة الطويلة إذا سقط سقفها على أرضها ؟

(١٠) كيف تكونت عمد الجبس فى المغارات الجيرية ؟

(١١) اذكر أمثلة من الصخور النارية الباطنية والبركانية والمتحولة .

حركات القشرة الأرضية

(الزلازل والبراكين والنافورات)

قد اتضح لك أن الصخور الرسوبية تكونت فى قرار الماء ، وأن وجودها فوق ظهر الأرض مثير للعجب ومشوّق لمعرفة السبب ، وبالأخص لوجود هذه الصخور فى أغلب بقاع اليابس . فالسبب لا يمكن أن يكون إلا أحد أمرين : فإما أن ماء المحيط كان فى العصور الحالية فوق جميع اليابس ، وإما أن قشرة الأرض هى التى تتلوّى وتنثنى فى مختلف الاتجاهات . وسنبين لك حالا أن السبب الأخير هو الصحيح .

(السواحل الطالعة والسواحل النازلة)

للمحيط الأطلسى ساحلان : ساحل شرقى وهو المجاور لأوروبا وأفريقية ، وساحل غربى وهو المجاور لأمريكا ، فإذا زرت الأقاليم الشرقية فى الولايات المتحدة تجد السهل المجاور للمحيط الأطلسى مكونا من الصخور الرسوبية الحديثة العهد ، حتى إذا وصلت إلى شرق جبال الليجنى وجدتها محززة بحزوز أفقية متوازية تشبه الحزوز التى تعملها الأمواج فى صخور الشواطئ البحرية فى أيامنا هذه ، وتجد فى الجبال كهوفا ومغارات لا يشبهها إلا الكهوف والمغارات التى تنحتها أمواج البحار . ولا يغيب عنك وجود الحفريات من أشكال القواقع والأصداف والسمك التى تعيش فى المحيط الأطلسى حتى الآن . فلا يمكن أن يبقى فى نفسك أى شك فى أن هذا السهل الساحل قد برز من أعماق البحر . فهل انحسر عنه الماء ، إذا كان ذلك كذلك فينبغى أن يكون الماء قد انحسر أيضا عن شواطئ أوروبا الغربية فتزداد علوا عن سطح الماء ، ويكون انحسار الماء عن السواحل علما مآله انتهاء الماء من هذه الدنيا . ولكن هذا غير صحيح ، والواقع يكذبه ، لأن سواحل أوروبا الغربية

آخذة فى الهبوط التدريجى تحت سطح الماء ، فقد كان الرومان مبان فى غرب إرلندة ، وكانت هذه المبانى مشرفة على ساحل المحيط الأطلسى ولم يكن الماء يطغى عليها طبعا ، وقد أصبحت الآن غائرة تحت مستوى ماء المحيط ، فلا تظهر إلا وقت جزر البحر ، وتغمرها المياه وقت المد . فيتبين لك من ذلك أن البحر لا ينقص ماؤه وأن قشرة الأرض هى التى تلتوى وتنثنى ، وليس ذلك فى جهات قليلة من وجه الأرض بل هى حركات آثارها ظاهرة فى كل موضع على اليابس وتحت الماء .

﴿ الجبال الحديثة والجبال القديمة ﴾

تأمل فى خريطة الدنيا تر أعظم سلاسل الجبال الحالية موجودة فى اتجاهات معينة :- فهى فى الغالب على حافة المحيطات الكبرى ، أو عند مجمع القارات (كما هو الحال فى حوض البحر الأبيض المتوسط) . وفى هذا الوضع المنتظم دلالة على العوامل التى أوجدتها . فالقشرة الأرضية تلتوى وتنثنى فيظهر أثر هذا الالتواء فى أضعف جهاتها . فأعظم جبال الدنيا مثل روكى وأنده والألب وهمالية من الجبال الحديثة التى برزت من قرار البحر فى أزمنة قريبة . والأزمنة الجيولوجية لا تقاس بالسنين ولا بالقرون ، ولكنها أحقاب طويلة يكل عن إدراكها الحاسب .

﴿ عامل الوجود وعامل الفناء وعملية التوازن ﴾

لا يمكن أن تبرز الجبال والسهول من البحر فيزيد سطح اليابس وحجمه بلا مقابل ، فإن من المسلم به فى كل معاملة الموازنة بين الوارد والمنصرف وإلا انتهى الأمر بإفلاس أحد الطرفين المتعاملين ، فما الذى يكسبه البحر عوض ما يخرج منه من الأراضى الجديدة والجبال الحديثة ؟ إن الذى يستفيده فى مقابل ذلك ما تجلبه له الأنهار ، يساعدها فى ذلك عوامل الفناء الأخرى المعروفة بعوامل التعرية التى تتسلط على الجبال من وقت ظهورها بمعاول الفناء فتحتها وتجرفها ولا يهدأ لها بال حتى تكشطها من على وجه الأرض وتبعث بأنقاضها مع الماء الجارى إلى المحيط ، تدفع بذلك ثمن الأراضى الجديدة التى تبرز منه .

﴿ أسباب حركات القشرة الأرضية ﴾

(١) علمت أن الأرض تدور على محورها باستمرار ، وهذا الدوران من شأنه أن يغير شكل الأرض كما تتغير أوضاع حبوب القمح وقت هز الكيلة ، وأن هذا الدوران هو الذى أعطى الأرض شكلها الخاص بها والذى جعل القطر الاستوائى أطول من المحور ، ففى القديم الغابر لما كانت الأرض كلها سائلة أولية كان هذا التغير سهلا ولكنه قد صعب الآن بعد أن جمدت الأرض وتصلبت قشرتها فلا يتم بدون طى الصخور المرنة وكسر الصخور الشديدة الصلابة .

(٢) كانت الأرض قبل أن تفقد شيئا من حرارتها أعظم حجما وكلما نقصت الحرارة يتقلص قلب الأرض فتضطر صخور القشرة أن تنثنى وتتكسر لكى تنطبق عليه كما تنثنى ملابس الرجل البدين إذا هزل جسمه بسبب المرض ، ويدفعها لذلك (أمران : الأول) جذب مركز الأرض لها من تحت (والثانى) ضغط الطبقات الهوائية عليها من فوق .

(٣) إن متوسط الثقل النوعى لصخور الكرة الأرضية أكثر من خمسة أضعاف الثقل النوعى للماء على حين أن الثقل النوعى لصخور القشرة لا يزيد على الضعفين إلا قليلا ، ومعنى ذلك أن الصخور الخفيفة هى الموجودة على وجه الأرض فى حين أن الصخور الثقيلة موجودة فى قلبها وذلك بديهى ، إذ أن الخفيف من طبعه أن يطفو فوق الثقيل ، وقد حصل هذا الترتيب أيام كانت الأرض فى حالة سائلة والصخور مرتبة على وجه الأرض بشكل يحفظ التوازن بمعنى أن الصخور التى فى قرار المحيط ثقيلة النوع وصخور الجبال المجاورة له

خفيفة ، وبذلك أمكن قيام الأخيرة محمولة بضغط الأولى ، لكن عوامل التعرية التى أشرنا إليها آنفا دائبة فى إفناء الجبال والأنهار تحمل الأنقاض إلى البحر أول فأول ، فيزيد الضغط فى قرار البحر ويخف على جبال اليابس باستمرار ويختل التوازن لولا حركات القشرة الأرضية التى تعيده إلى حاله كلما تزعزع .

﴿ نتائج حركات القشرة الأرضية ﴾

ينتج من حركات القشرة الأرضية بنيان السلاسل الجبلية الحديثة وطغيان البحر التدريجى على جهات بارزة كما ينتج منها كسر الصخور الصلبة وتشققها وانزلاق طبقاتها بعضها على بعض فتنشأ عنها تضاريس جديدة وتتغير اتجاهات المياه الجارية وقد تنشأ كسور متقاربة فيترتب عليها وجود أخاديد غائرة أو هضبات مدفوعة .

﴿ بنيان الجبال ﴾

قد رأيت أن أهم السلاسل الجبلية فى الدنيا واقعة فى اتجاهات معلومة فهى من جبال الطى . ومن جبال الطى أيضا سلاسل أصغر منها فى القارات . فاذا فحصت طبقات تلك الجبال رأيتها منحنية تدل على التواء . ثم تنشأ ثلاث طبقات من الصخور الرسوبية مرتكزة على طبقة من الصخور النارية فى وضعها الطبيعى قبل الالتواء ، ومفهوم طبعا أن الصخور العليا هى الحديثة وأن التى تحتها هى القديمة . فالطبقة الثالثة أحدث من الطبقة الثانية وهذه أحدث من الطبقة الأولى والطبقة التى تحت الجميع من الصخور النارية الأصلية . ولكن عوامل التعرية لاتلبث أن تعبث بهذه الجبال فتكشط سطحها وتحتها وتجرف منها .

فاذا رغبت فى ارتقاء الجبل تصادف أولا الطبقة الثالثة ثم الطبقة الثانية ثم الطبقة الأولى حتى إذا ارتقيت إلى أعلى الجبل وصلت إلى الصخور القديمة النارية . ومن ذلك تعرف كيف أن الصخور التى كانت بعيدة عن وجه الأرض قد ارتفعت بحركات القشرة الأرضية ثم انكشف عنها غطاؤها بفعل التعرية فأصبحت ظاهرة قريبة للانسان لينتفع بها فى أغراضه .

﴿ كسر الصخور الصلبة ﴾

يصادف المعدنون أحيانا وهم يتعقبون عرقا من فلزات المعادن أو طبقة من طبقات الفحم عيبا فى الطبقات : أى كسرا ، إذ ينتهى العرق أو الطبقة فجأة فيوجد بدلها صخور أخرى كان ينبغى وجودها فوق العرق أو تحته .

﴿ الأخاديد الغائرة ﴾

فى الصخور التى تصاب بعيوب متعددة قد يحصل أن تنزلق قطعة من القشرة الأرضية فتهبط إلى عمق كبير وينشأ عن ذلك أخدود غائر ، وفى شمال أفريقيا أخدودان غائران يقع البحر الأحمر بأكمله ضمن واحد منهما

﴿ الهضبات المرفوعة ﴾

وقد يحدث أن تغور الأرض من جوانب جزء من القشرة الأرضية وتنزلق عليه نازلة على حين أنها تدفعه صاعدا فيظل قائما بنفسه على شكل هضبة مدفوعة ، وهضبة (مزيتة) المتكون منها أرض إسبانيا والبرتغال من هذا الطراز .

﴿ الجبال المتخلفة ﴾

والهضبة إذا شققتها الأنهار والوديان يتخلف منها سلاسل جبلية تفصل أحواض الأنهار ، فهذه السلاسل الجبلية متخلفة من صخور الهضبة ، وسلاسل جبال شبه جزيرة إيبريا من هذا الطراز .

(الزلازل)

قلما يمر العام من غير أن نسمع بوقوع زلزال فى جهة من جهات الدنيا؛ فمرة نسمع عنه فى غرب أمريكا أو جزائر الهند الشرقية . ومرة نسمع عنه فى اليابان أو فى إيطاليا . ولا يمر خبر الزلزال بهدوء كباقى الأخبار لما يقترن به من الخسائر الفادحة والأهوال الكبار وهلاك الأنفس والأموال . وقد وقع زلزال فى ليلة (٢٦) يونيه سنة ١٩٢٦ م شعر به أهل القطر المصرى فى الساعة التاسعة والدقيقة ٤٨ مساء ومكث نحو (٤) دقائق هلعت له قلوب الأهالى وحدثت بعض إصابات من سقوط المنازل القديمة . ووردت التلغرافات فى الأيام التالية منبئة عن مركز الزلزلة الكبرى فى (بحر الأرخبيل) وهى التى انتشرت هزاتها إلى مصر. وكان من الآثار الهامة لذلك الزلزال انفجار ينبوع كبريتى جديد فى مدينة حلوان على بعد (٩) أمتار من الينبوع القديم . ومن الزلازل التاريخية العظيمة ما يأتى بيانه :

(١) زلزال (سان فرنسكو) فى سنة ١٩٠٦ م وفيه وقعت من هول الرجفة الأولى العمارات والمنازل فأصبحت بعد النضارة والعمران خرائب وأطلالا . وما زالت روادف هذه الرجفة تهز القشرة الأرضية طول ذلك اليوم العصيب حتى بلغت أدوار الارتجاف اثنين وثلاثين دورا . وهاجت أمواج البحر ثم فغرت الأرض فاها لتبلع آثار العمران . واشتعلت النيران فى الحطام وهلكت ألف نفس بشرية وبات مائتا ألف بلا مأوى .

(٢) زلزال (لشبونة) فى سنة ١٧٥٥ وفيه نشأت أمواج عالية طغت على الشاطئ من ارتفاع عشرين قدما فطاحت بالسفن الراسية فى الميناء إلى جهات داخلية بعيدة وبعثرتها كما يبذر الزارع الحبّ على الأرض وأهلكت ستين ألف نسمة غرقا .

(٣) زلزال (مسينا) فى سنة ١٩٠٨ م وفيه تخربت المدينتان (مسينا) و (رجيو) والقرى المجاورة لهما وهلك ثمانون ألف نسمة .

(٤) زلزال (اليابان) فى سنة ١٩٢٣ م وفيه تخربت المدن الكبرى وقامت الحرائق فى (يوقوهاما) و (طوكيو) فأكلت المؤن والأقوات وبات الناس بلا مأوى ولا طعام، وهلك فيه مائتا ألف نسمة . وتبارت الدول العظمى فى مواساة (اليابان) فأرسلت إليها الهدايا من الأقوات والملابس . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور ، والله أعلم .

(جمال هذا المبحث العام)

(فى قوله تعالى « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها » الخ)

لأختم هذا المقال بالكلام على الفحم المخزون فى القطب الشمالى ، وعلى الكهرباء المخزون الآن فى شمالى ألمانيا فأقول :

سبحانك اللهم ، أنت أدرت الأرض وجعلت لها قوانين وحكمت على خط الاستواء قديما أن يصير قطبا كما حكمت على القطب أن يصير خط استواء ، إن جميع أهل الأرض الآن يعلمون أن القطبين لا يصلحان لظهور النبات ولكن العلم والكشف أثبتا أن القطبين قد خبئ الفحم فى باطنهما ، ولكن كيف خبئ ذلك الفحم ، لا وسيلة لظهور الفحم إلا بالشجر ولا ظهور للشجر إلا بحرارة الشمس الكثيرة ، والقطبان لا حرارة فيهما بل الثلج هو الذى يغطى تلك الأقطار ، فلئن تحلى خط الاستواء بالأشجار والمزارع النضرة لتحلين القطبان بالثلج ، تشعّ حوله الأنوار البديعة المتقدم ذكرها ورسمها فى أول (سورة الكهف) أتاك ما شاع وذاع من أن باطن الأرض عند القطبين مملوء فحما ، أفلا تعجب من ذلك وكيف خزنه الله قبل مئات الألوف من السنين ؟ ثم هو الآن قد أخذ يدل الناس عليه ويلهمهم إلهاما ، يقول لهم : أيها الناس ، إن فى القطبين فحما فهلا ذهبتم إلى القطب الشمالى واستغنمتموه ، وهلا جعلتم لكم هناك محطة للطيارات والبالونات

فى القطب الشمالى تكون ملتقى الخطوط الهوائية بين أفريقيا وآسيا وأوروبا ، وإذا كنت فى شك من ذلك فاسمع ما كتبه بعضهم ناقلا عن المجلات الافرنجية وهذا نصه :

(حلم علمى)

(القطب الشمالى ملتقى الخطوط الهوائية)

القطب الشمالى هو قمة الأرض ، وكان يجب أن يكون ملتقى للمواصلات لولا أنه لايصلح للملاحة أو للسكك الحديدية فإنه مغمور بالثلج الذى لايذوب طول السنة ، وقد خطر ببال أحد المهندسين أن يجعل القطب الشمالى ملتقى الخطوط الهوائية بين القارات الثلاث أفريقيا وأوروبا وآسيا ، وبذلك تختصر المسافة اختصارا كبيرا ، فالذى يريد الذهاب إلى اليابان يحتاج الآن إلى أن يقطع نحو نصف الأرض حتى يبلغها ، ولكنه إذا ركب طيارة وصعد إلى القطب الشمالى وانحدر منه إلى اليابان قصرت مسافة السفر ، وفى القطب الشمالى مناجم كبيرة للفحم يمكن منها استنباط الكهربائية المتدفقة والإضاءة فينار القطب وتبنى فيه العنابر الكبيرة لايواء الطيارات وتزويدها بالبنزين وتشيد الفنادق الكبيرة للمسافرين . وهناك يلتقى المسافرون فيبدلون طياراتهم ويذهب كل منهم فى طريقه ، فهل يحقق العلم هذا الحلم ، ولطالما حقق ما هو أشد منه غرابة . انتهى .

هذا بعض سر قوله تعالى « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » فها هو ذا الفحم قد أدخله الله فى الأرض ، وها هو ذا يخرجه منها وينتفع الناس به .

ومن عجائب المخزون فى الأرض [الكهرباء . الكرمان] لقد كنت أيام الصبا أرى الناس يدخنون فى الأعواد بحيث يضعون ورق التبغ فى حق صغير متصل بعود مجوف ينتهى بفم من (الكهرمان) وهذا الفم هو الذى يمتصون به الدخان المستمد من ذلك التبغ المحترق فى ذلك الحق الصغير ، فكنت أتأمله فلا أعرف من أين جاء هذا الكهرمان ، ولا كنت أدرى أن الله خزنه فى الأرض قديما كما خزن الفحم فى الأقطاب الشمالية ، أفلا يجب علىّ أن أحمد الله على العلم بذلك ، فهاك ما رأيته من المقالات العلمية تحت العنوان التالى :

(الكهرباء . الكهرمان)

الكهرباء هو ما يسميه العامة عندنا بالكهرمان وهو ذلك الحجر الأصفر اللامع الذى يصنع منه خرز المسابح ويتزين به النساء ، وقد كان الإغريق يعرفون الكهرباء وكانوا يعرفون منه أيضا (الكهربائية) وهى تلك القوة الخفية التى نستعملها الآن فى دفع الترام والتلغراف والتليفون ، ولم يكن الاغريق يعرفون كيف ينتفعون بالكهربائية كما ننتفع ولكنهم كانوا يعرفونها وقد أطلقوا عليها هذا الاسم لأن من خواص حجر الكهرباء إذا حك به شىء أن يجذب إليه الأجسام الصغيرة ، فالقارىء يرى الآن أن هنالك فرقا بين الكهرباء الذى يصنع منه الخرز وبين الكهربائية إذ هى القوة الخفية التى يسير بها الترام ولكن يوجد لسوء الحظ من يخلط اللفظتين .

وقد قلنا إن الكهرباء حجر ولكن الحقيقة أنه صمغ . أو نقول بعبارة أدق إنه لثى ، واللثى هو مايتزل من الشجر إذا جرحت قشرته كالمادة اللبنية التى تخرج من (شجرة الجميز) عند ما تقطع إحدى أوراقها ، ولكن هناك أشجار الآن يستخرج منها الكهرباء ، وإنما الكهرباء يوجد الآن مدفونا فى الرمال تحت طبقات الأرض فقد عاشت منذ آلاف السنين أشجار ثم طمرتها الرمال فصارت فحما . وهناك أشجار أخرى أيضا كانت تنز الكهرباء فيقع منها طريا ثم يجف وبعضه كانت تطمره الرمال وبعضه لايزال قريبا من سطح الأرض

كثيرا

كثيرا ما تكتسحه الأمطار وتخرجه إلى السطح ، أما أشجار الكهرباء فقد انقرضت من العالم كما انقرضت من قبلها بآلاف القرون الأشجار التي استحالت إلى فحم . ومعظم بل كل مايوجد تقريبا من الكهرباء الآن يرسل من شمال ألمانيا على شواطئ بحر البلطيق ، ففي كل عام يصدر من هذه الشواطىء إلى أسواق العالم نحو مائتى ألف رطل . وقد كان المصريون والإغريق والفينيقيون يستوردون الكهرباء من شمال ألمانيا وكانت طرق الكهرباء معروفة في أوروبا محروسة من القبائل . وكان القدماء يغالون به حتى قال (بلينى) الكاتب الرومانى الذى عاش فى القرن الأول للميلاد [إن تمثالا صغيرا من الكهرباء يزيد ثمنه على ثمن عبد ضخم قوى] وكان شعراء الإغريق يستسلمون للخيال فى كلامهم عن الكهرباء . ومن أجمل ماقاله بعضهم عنه إنه الدموع المتجمدة للطيور . وقد بلغ من شغف الامبراطور الرومانى (نيرون) بالكهرباء أنه أرسل بعثة إلى شاطىء بحر البلطيق فجلبت معها (١٣٠٠٠) رطل من الكهرباء . انتهى وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى .

الفصل الثالث

(فى مبحثين عظيمين)

(الأول) مبحث الجن وهل يعلمون الغيب ؟

(المبحث الثانى) فى سيل العرم وسبأ ، وما جاء فى العلم الحديث مصداقا لهذا كله .

(المبحث الأول : فى مقامين)

(المقام الأول) فى قوله تعالى « مادلهم على موته إلا دابة الأرض » الخ .

(المقام الثانى) فى المبحث الأول فى قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

﴿ المقام الأوّل فى قوله تعالى « مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » ﴾

(الكلام على الأرضة)

اعلم أن هذه الآية قد أعطتنا ﴿ ثلاث فوائد : الأولى ﴾ أنها أبانت أن الجن لايعلمون الغيب ﴿ الفائدة الثانية ﴾ أن أهل الأرض خاضعون للنواميس سواء أكانوا أنبياء أم غيرهم ﴿ الفائدة الثالثة ﴾ أن من أصغر الحشرات ماله سلطان فى هذه الأرض عظيم . يقول الله تعالى « وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » فنحن لولا تدبير الله لانطيق أن نركب الدواب بل لانطيق هذه الحشرات التى أكلت عصا نبى عظيم من الأنبياء ، فاذا كانت هذه الحشرة هذا شأنها فذلك فتح باب لمعرفتها لنحترس منها . اللهم إن القصص فى القرآن لم يكن إلا لتعليمنا لاغير ، وإلا فماذا يفهم الناس فى قصة بلقيس ؟ إذ تقول لقومها «ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » وفى قصة فرعون إذ يقول له الملأ من قومه فى موسى وأخيه هرون حين استشارهم فى أمرهما « أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين » .

أقول : فهل يفهم الناس من ذلك إلا الاشارة إلى الحكومة الشورية وأن الأمة لها القول الفصل ، وما الملوك إذا كانوا فيها إلا منفذين كما يقول « وأمرهم شورى بينهم » فهكذا هنا يقول « مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن» الخ . ونقول أيضا فلما خبرتبينا أيضا أن للأرضة سرا عجيبا فلابد من البحث عن أمرها واستقصاء خبرها ، فأكل الأرضة لعصا سليمان أفهم الجن أنهم لايعلمون

الغيب فيقللوا من كبريائهم ويرجعوا عن غيهم ويتنزلوا عن عتوهم ويخلعوا عنهم لباس الكبرياء والعظمة والتباهي والافتخار ، هكذا يعرفنا أن للأرضة عملا منكرا إن لم نحترس منه خررنا صعقين في هذه الحياة الدنيا بتدميرها وإهلاكها ، وأيضا هي من آيات الله تعالى وعجائب صنعه ، فوجب إذن البحث في أمرها واستقصاء سرها على قدر الإمكان ، وقد تقدم الكلام عليها في [سورة النحل] ورسمت الملكة من هذه الحشرة والملك بجانبها وحولهما جنود المملكة والضباط والعساكر . وتقدم أيضا رسمها هنا (وكذا ملكة النحل) شكل ٢ و ٣ وهي مأخوذة من كتاب (مملكة الظلام) أو (حياة الأرضة) تأليف (مترلنك) تعريب الدكتور (نقولا فياض) وهاك شذرات من الكتاب لنقف على سر ما أشار له القرآن في هذه الآيات . قال :

﴿ الأرضة أو النمل الأعمى ﴾

الأرضة [١] أو النمل الأعمى . ويقال له الأبيض وما هو بالأبيض يرجع تاريخه إلى مائة مليون سنة قبل الانسان على زعم علماء الحشرات والجيولوجيا أي طبقات الأرض . غير أنه من الصعب تحقيق هذا الزعم والإتيان بأدلة ناصعة على صحته . على كل حال هذه الحضارة التي تعد أرقى من حضارة النمل والنحل هي بلا ريب قديمة العهد جدا أي أتى عليها بضعة ملايين من السنين . ولو تقصينا المكتوب عنها لما وجدناه شيئا بالنسبة إلى ما قيل وكتب عن النحلة والنملة مع أنك لا ترى على هذه البسيطة كائنا أقرب إلينا وأبعد عنا في آن واحد من هذه الحشرات التي تتمتع بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية كأنها عالم إنساني يؤاخينا في آلامنا وشقائنا . وهنا مجال واسع للشعراء الذين يحلمون شكلا جديدا للاجتماع البشري ويسمو بهم الخيال والتصور إلى خلق مثال خاص للأجيال الآتية في نظامها وأحكامها فما عليهم إلا أن يقتربوا من هذه المملكة الهائلة فيجدوا من الغرابة مثل ما في أحلامهم وأغرب مما تصوروه في عطارد والمريخ والزهرة .

يقال إنه يوجد على الأرض ألف وخمسمائة نوع من الأرض والمشهور منها لا يتجاوز الأربعين وكل نوع يمتاز عن سواه بصفات خاصة به ؛ فمنه البناء الذي يقيم هضبا فوق الأرض ، ومنه ما يعيش مكشوفا ويجتاز السباسب في خطوط طويلة بين صفين من الجنود تحتمي بها العمال ، ومنه ما تسلح الطبيعة جنوده بما يشبه المحقنة ومنه ما يفتك بالأشجار الحية وينقبها وجنده كالكواسر أو الضواري على جانب عظيم من القساوة ومنه ما تشبه مشافره [٢] قرون التيس فتمدد كالزنبرك وتقذف به إلى مسافة عشرين سنتيمترا إلى آخر ما هنالك .

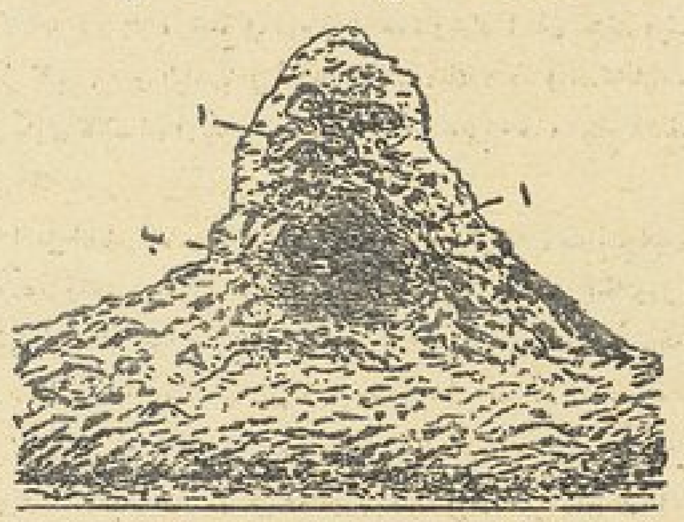
ثم قال بعد كلام طويل ما نصه [بعض هذه الحشرات يعيش في جذوع الأشجار التي يحتفرها ويعد فيها مسالك وأسرابا تذهب كل مذهب ويخترقها من كل ناحية حتى الجذور ويضع بيني عشه في الأغصان ويوطده حتى يقوى على مقاومة الأعصار وحتى يمتنع على الإنسان الاستيلاء عليه فيضطر إلى نشره بالمنشار إلا أن الغالب فيه أن يتخذ مسكنه تحت الأرض ، وبناء هذا المسكن من أغرب ما عرف وهو يتغير حسب

---

(١) الأرضة دودة بيضاء تبني على نفسها بيتا مستطيلا ولها مشفران تنقر بهما الخشب والآجر والحجارة جمعها أرض وهي هنا ترجمة كلمة (ترميت) بالافرنسية لا كلمة (ميت) أي السوسة أو العثة التي تلحس الصوف والثياب .

(٢) المشافر جمع مشفر: وهي من البعير كالشفة من الانسان وقد تستعمل للناس فاستعملناها هنا على المجاز وترجمنا بها كلمة (منديبول) ويمكن أن تسمى أيضا الأحناك .

البلدان والسلائل والأحوال الوضعية والأدوات التى يتاح للحشرة استعمالها بما ركب فى طبيعة الأرضة من التوسع فى الاستنباط والقدرة على ملاءمة الأحوال والاصطباغ بصبغة البيئة التى توجد فيها . وأما هذه المساكن يعزى إلى الأرضة الأوسترالية فيكون تارة شبه نبكة (١) تعلو عن الأرض نحو ٤ أمتار ومحيط قاعدتها ٣٠ قدما كأنها قالب ضخم من السكر وطورا كأكوام من الوحل أو صلصال فى حال الغليان هبت عليه ريح الجليد فجمدته فجأة وحينا كرهط من الخلايا التى يخزن فيها النحل الوحشى عسله وقد كبرت مائة ألف مرة وآونة كطبقات من الفطر أو الاسفنج أو كأكداس من التبن الذى طال عليه سقوط المطر إلى ماشا كل ذلك. وأعظم هذه البنى التى لاتراها إلا فى أوستراليا تختص به الأرضة المغناطيسية وقد سميت كذلك نسبة إلى الابرة المغناطيسية فان ماتبنيه يتجه أبدا من الشمال إلى الجنوب فيتسع فى أوله ويضيق فى الآخر . وقد تعدد الافتراض فى تعليل هذا الاتجاه دون الوصول إلى حل صحيح شاف » انظر شكل ٢٥]



(شكل ٢٥ — قرية الأرض)

(ا) غرفة الفطر .
(ب) خلية الملكة .

« وأعظم ما شوهد من هذه المساكن هو فى أفريقيا الوسطى ولا سيا فى كونغو البلجيك حيث يبلغ العلو من ستة إلى ثمانية أمتار . وفى « مونبونو » قبر أقيم على أحد هذه البيوت كأنه على رابية فيشرف على ما حوله من الجهات ، وفى أحد الشوارع الكبيرة فى مدينة اليزابت من أعمال « كاتانجا » العليا قرية عالية شطرها الشارع إلى شطرين . وقد اضطر عمال سكة حديد سكاتيا أن ينسفوا بالديناميت بعضا من هذه الأبنية فكانت أنقاضها تجاوز فى ارتفاعها مدخنة القطار . ومن هذه المساكن التى خربت ما صار أشبه بالبيوت ذات الطبقتين ولا يتعذر على الإنسان أن يقعد فيها . وقد بلغ من متانة هذه البنايات أن سقوط الأشجار الكبيرة وهو أمر كثير الوقوع فى تلك النواحى لايقلقلها ولا يضعف من جانبها وإن قطيع الغنم يتسلقها ليرعى العشب النامى فوقها دون أن يؤثر فيها . ونمو العشب فوقها راجع إلى خصائص الطين الداخل فى تركيبها فهو يخزن الرطوبة فضلا عن أنه كثير الخصب زكى النبت لأنه مكون من براز الحشرة وفضلاتها . وقد ينمو مع العشب الشجر . والغريب أن الأرضة التى تهدم كل شىء فى طريقها تحترم هذا الشجر كأنه مقدس .

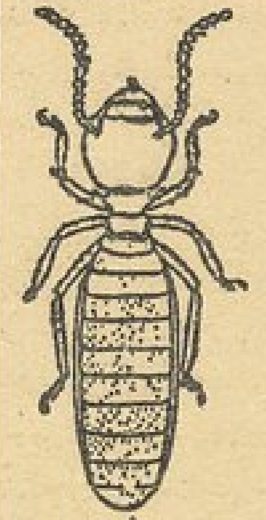
(١) النبكة : أكمة محددة الرأس جمعها نباك .

وبعض أنواع الأرضة يستعمل قسما من الطبقات العليا في الوكر لزرع واستنبات الفطر الخصوصي الذي يقوم مقام الطفيليات (وسيأتي الكلام عنها في الفصل التالي) وله وظيفتها من تحويل الخشب القديم أو العشب اليابس إلى كتلة صالحة للهضم والتمثيل . وبعض الأنواع الأخرى تقيم مقابر حقيقية في أعلى العمارة ووجود هذه المقابر يدعو إلى العجب لما نعلمه من أن الأرض يأكل موتاه ويتغذى بها إلا إذا افترضنا أنه في أيام الوباء (أو طارئ آخر) قد يقصر عن مجاراة الموت لأكل كل ما يمده لمن الرمم فيجمعها ويكدسها لحين الحاجة على سطح المنزل حتى إذا جففتها الشمس أحالها إلى مسحوق وجعلها مئونة يتغذى بها شباب القرية . ومن هذه الأنواع من يذهب إلى أبعد من ذلك فيتخذ مئونة حية . وذلك أن القوة الخفية تدبر أمور هذه المملكة قد ترى لسبب لا نعلمه أن عدد الرعية قد جاوز الحد المطلوب فتفرز الزائد منها في غرف خصوصية بعد أن تقطع قوائمها حتى لا تهزل بالحركة ثم تؤكل بالتدريج تبعا لحاجة المجتمع . وهذا النوع له عناية خاصة بالنظام الصحي فإن فضلات الدودة وبرازها يجمع في موضع على حدة ويترك إلى أن ينشف ويقسو ويصير ألذ طعما . هذا هو نظام الوكر كما يبدو لعين الباحث على أنه قابل للتغير لأنك لا تجد في الكائنات حيوانا مثل هذا يكره التقليد ويعرف أن يكون كالإنسان في لينه وخضوعه للاحوال ومجاراته لها وسيتاح لنا غير مرة في عرض هذا الحديث أن نتحقق ذلك » .

ثم قال وهذا النفق العظيم الممتد تحت الأرض والمرتفع فوقها يتشعب منه أسراب لا نهاية لها تنتهي إلى حيث الأشجار والأدغال والعشب ومنازل الناس فتجد الدودة ما تحتاج إليه من الحلاووز وهي المادة الحويصلية الجامدة التي تتركب منها خلايا النبات وأليافها . وعلى هذا الوجه تغزو أحياء بأسرها كما ترى في أوستراليا وبعض أنحاء جزيرة سيلان فتمد مسالكها إلى كل صوب وتجعل تلك الأرض غير صالحة لسكنى الإنسان . وقد تملأ البلد من جانب إلى جانب كما في الترنسفال وناتال حيث يبلغ عدد القرى نحوا من ١٦ في مسافة لا تزيد على ١٣٥ مترا وفي كاتاشكا العالية نعثر في كل هكتار من الأرض على قرية يبلغ علوها ستة أمتار . والأرضة بخلاف النملة التي تعيش على سطح الأرض وهي حرة طليقة لا تغادر ظلمات قبورها الرطبة الحارة ولا تسير إلا في الخفاء فتعيش وتموت دون أن ترى ضوء النهار فهي دودة الظلام الأبدي ، وإذا مست الحاجة أن تجتاز التموين حواجز لا قدرة لها على خرقها فانها تقوم بتعبئة الجنود والمهندسين وهؤلاء يبنون ممراتهم مركبا من بقايا الخشب الممضوغة ومن البراز ويجعلونه على شكل الأنبوبة ولا يدعون فرصة تفوت دون الاستفادة منها اقتصادا في الوقت والعمل والنفقات فاذا أصابوا شقوقا فيها فائدة أصلحوها وملسوها وجموا بينها ، وإذا فتحوا ممرهم على جدار جعلوا شكله كنصف أنبوبة بالاستفادة من الجدار أو على زاوية مؤلفة من جدارين اكتفوا بغموها [1] فخف عليهم ثلثا العمل . وهذا الممر الذي يفتح فيكون على مقياس الحشرة بالضبط يتسع من حين إلى حين ليتسنى لحاملي المؤونة إذا ما تلاقوا أن يفسحوا المجال بعضهم لبعض بدون عائق وإذا كانت الحركة شديدة والازدحام عظيما فإن الممر يكون أوسع ويجعل منه مدب للذهاب وآخر للاياب . وليسمح لنا القارئ قبل الخروج من هذا النفق أن نلفت نظره إلى خاصة من أغرب وأخفى ما في هذا العالم الكثير الغرائب والأسرار ، فقد أشرنا فيما سبق إلى الرطوبة التي لا تتغير في الوكر على الرغم من جفاف الهواء والأرض المحروقة وعلى الرغم من حرارة الصيف الطويل في تلك الأقاليم التي تغيض فيها الينابيع وتذوى كل الزرع وينشف كل

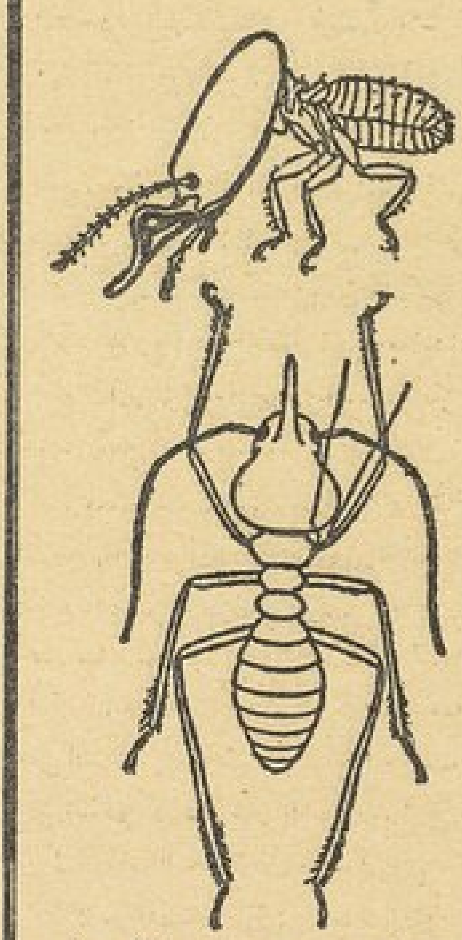
---

(١) غما البيت يغموها غموا : غطاه بالطين والخشب .



(شكل ٢٦ رسم أرضة عاملة)

ذو حياة حتى جذور الأشجار الكبيرة . والحق أن بقاء هذه الرطوبة فى الأحوال التى ذكرناها لمما يدهش له العقل ويقف دونه الفكر وقد أسقط فى يديه حيرة وذهولا حتى إن لونستون العالم الرحالة تساءل هل هناك طرق مجهولة تتمكن بها الأرضة من أخذ أوكسجين الهواء، وجمعه إلى الهيدروجين الموجود فى غذائها النباتى ليتكون بهما الماء الذى تحتاج إليه؟ ذلك افتراض لم يثبته العلم بعد ولكنه غير بعيد الإمكان وسنرى فيما يلى أن للأرضة من العلم بالكيمياء والبيولوجيا مكانا نحسدها عليه » (انظر شكل ٢٧) و (شكل ٢٨) .



(شكل ٢٧ — جنديان من الأرض)
فوق : جندى يقاتل بكفيه — تحت : جندى يقاتل بمحقنته

ثم قال [النملة عدو الأرضة الألد ، وهى عداوة قديمة يرجع عهدها إلى ثلاثة ملايين سنة ولولاها لكانت الأرضة قد اجتاحت القسم الجنوبى من الكرة الأرضية إلا إذا صح الرأى القائل إن ماامتازت به من ثقب الأرض وحفر الأنفاق هو ابن الحاجة والضرورة دفاعا عن نفسها وهربا من النملة . ومن الأرض مالا يعرف البناء فيجعل سكنه فى الأشجار وهو من النوع البسيط فى تركيبه وارتقائه ولا فرق فى وظائفه أو تمييز بين أعماله فيكتفى بسد الثغرة ببقايا الخشب والطين على أن منه ماخلق لنفسه جندا خاصا وهذا الجند يمتاز برأس كبير يستعمله لسد الفتحة كأنه صمامة من الفلين . وترود النملة قرية الأرض دائرة حولها ليل نهار باحثة عن صدع أو شق تنسل منه إليها ولهذا كانت الحيطة لها بالغة أقصى المستطاع وكانت مراقبة الشقوق شديدة ولا سيما الشقوق المصنوعة لتجديد الهواء، فإن هذه المنازل تحتاج إلى الهواء المتجدد وقد لذلك هندسة ونظام ليس من أقيم وراثهما لعلماء الصحة اليوم مأخذ لعائب أو معلق لطاعن . وإذا أتيح للعدو أن يصيب أحد هذه الشقوق فان أول مايرى هو رأس أحد الجنود المدافعين وقد أخذ يضرب الأرض بمشفره إنذارا وتنبيها فيسرع الحرس ثم الفرقة بأسرها وتسد بجماجمها الفتحة وهى تحرك فى الهواء أحنا كها الهائلة كأنها أدغال من الشوك أو تهجم على غير هدى هجوم الكلاب الضارية حتى تصيب العدو فتعض عليه عضا شديدا ولا تتخلى عنه إلا حاملة قطعة منه] .

وجنود الأرض تبقى بعد تقهقر العدو حينا أمام الثغرة ثم تعود إلى قشلاقاتها وترجع العمال الهاربة طبقا لناموس توزيع العمل الذى يضع البطولة فى جانب والخدمة فى جانب شارعة فى ترميم ماتخرب بسرعة هائلة

مقدما كل منها كتلة برازه، وقد حسب أن ساعة من هذا العمل السريع تكفي لسد ثلمة بحجم الكف فتأمل. وقد روي سلفاج أنه دمر منزلا للأرض في المساء ولما عاد عند الصباح وجده قد أصلح وتم ترميمه وعلى بطبقة جديدة من الطين؛ ولا عجب فان السرعة في مسأله حياة أو موت وأقل إهمال في ذلك هو دعوة لأعداء كثار وخاتمة ذلك الاستعمار .

إن هناك قوة خفية تخضع لها جمهورية الأرض فاذا زاد عددها مثلا عن الطبيعي وهو خمس عدد سكان القرية فان تلك القوة المحجوبة التي لاتجهل قواعد الحساب على مايظهر تتكفل حالا بازالة العدد الزائد وإرجاع النسبة إلى ما كانت عليه من قبل ولا تحتاج في ذلك إلى مذبحة كما يجرى في ذكور النحل فان مائة عامل لاتقوى على جندى واحد من هذه الضوارى التي لاتنال إلا من القسم الخلقي الضعيف ، بل تفعل ماهو أبسط وأسهل وذلك بامتناع العمال من إطعام الجنود فتهلك هذه جوعا . أما الطريقة التى يتم بها تعداد الجنود المحكوم عليها بالموت وفرزها ووضعها في مكان منفرد فلا تزال غامضة كالكثيرة من أمور هذه الأحياء العجيبة . وقبل أن نختم هذا الفصل عن جندية مملكة الظلام نذكر للقارئ بعض حالات لها غريبة من الاستعداد أو الميل للموسيقى ، فهناك أصوات خاصة تكون تارة إنذارا وطورا استنجادا أو تحيا أو غير ذلك وكلها ذات إيقاع موزون تجيب عليه جماعة الأرض بزجل خاص [1] مما حمل بعض العلماء على القول بأنها تتخاطب لابالقرون فقط نظير النحل بل بلغة نطق خاصة .

وبديه أن مثل هذا النظام الواسع الدقيق ومافيه من توازن في القوى وتضامن في الأعمال لايمكن أن يكون بغير تفاهم بين أبنائه ، وحسبنا دليلا على وجود هذا التفاهم انتشار المستعمرة الواحدة في جذوع كثيرة قد تكون متباعدة بعضها عن بعض ولكنها ملتفة حول عرش واحد أى ليس لها إلا زوج ملكي فإذا زالت في أحد الجذوع فرقة الاحتياطى التى يحفظها الأرض للتعويض من الملكة في حال الموت أو العجز تسرع سكان الجذع المجاور الى إعداد فرقة جديدة بدلا منها . وسنعود إلى الكلام عن هذا الابدال أو التغيير الذى هو من أغرب وأبدع أشكال السياسة الأرضية .

وليست هذه الأصوات من غبهة واحتكاك أو صفير وإنذار وإيقاع ينم على إحساس موسيقى كل ماعند الأرضة . فان لها أيضا حركات موزونة يشترك بها الجمهور ماخلا المولود الجديد كأنها صادرة عن جوقة رقص وأنغام مما وقف عنده العلماء موقف الدهش والعجز وهى نوع من الرقص الاختلاجى تثبت فيه القدم ويتهادى الجسم متمايلا من الوراء الى الأمام وعلى الجانبين . ويدوم هذا الاختلاج ساعات مع فترات من الراحة قصيرة . وأ كثر مايكون قبيل طيران العرس كأنه حفلة صلاة أو تقديس تفتح الباب لأعظم ضحية تقوم بها الأمة . ومن السهل مرأى هذه الحركات إذا خضضت أو أثرت فجأة أنابيب الزجاج التى تحبس فيها الأرض في المختبرات على أن ذلك شاق صعب لندورة بقائها طويلا في الأنابيب فانها تخرق الصمامة من فلين أو معدن وتصل كأحسن الكميين إلى خرط الزجاج .

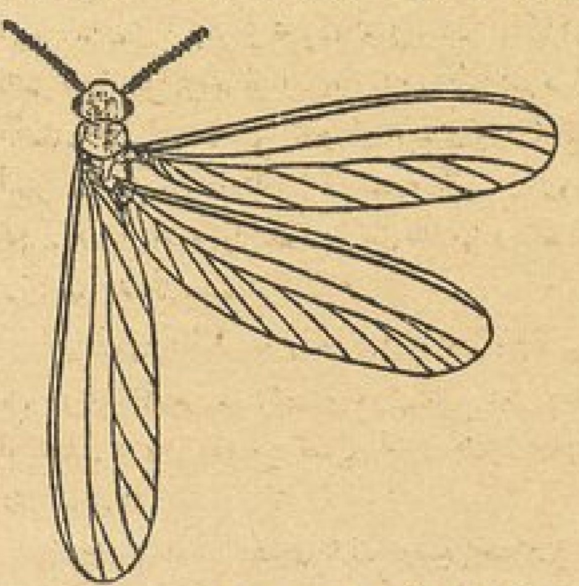
الملك والملكة في حجرة مستطيلة الشكل ملساء الأرض منخفضة السقف منيعة الجوانب يعيش هذا الزوج الحزين المنقول إليه حفظ النوع دون أن يستطيع من موضعه حراكا . أما الملك فهو ملك بالاسم لأنه زوج الملكة، ضعيف حقير صغير جبان خجول لاينفك مختبئا تحت بطن زوجه . وأما الملكة فهى من أغرب مايرى في هذا العالم الكثير الغرائب لأن لها بطنا ضخما هائلا منتفخا بما فيه من البيض يكاد يتفزر لفرط تمدده ،

---

(١) الزجل : اختلاط الأصوات .

وقد يبلغ طولها به نحو ١٠٠ مليمتر حالة كون العامل لا يتجاوز ٧ مليمترات طولا . وهى عاجزة عن الحركة لأنها لا تملك غير قوادم صغيرة فى صدر غارق فى الدهن، ومتوسط ما تضعه من البيض هو واحدة فى الثانية أى ٨٦ ألفا فى اليوم وثلاثين مليونا فى العام . ولا ينقطع وضعها ليل نهار مدة الأربع أو الخمس السنوات من حياتها كما دل الاختبار والمشاهدة .

﴿ فصل ﴾ إذا ولى الخريف ودنا موعد المطر دقت ساعة الحرية فإذا بالقلعة الحصينة المحكمة السدود المنفصلة عن العالم الخارجى كل الانفصال والتى لا منافذ لها إلا ما كان تحت الأرض أو ما هو لتجديد الهواء قد أصابها نوع من الجنون فانفتحت فى جوانبها فجأة نخاريب(١) لا تحصى ومن وراء هذه النخاريب وقفت الجنود تحمى برءوسها الدخول والخروج . هذه النخاريب تتصل بأسراب وأنفاق قد ازدحمت فيها المجنحات وهى تنتظر بفروغ صبر إفلاتها من الأسر . حتى إذا صدرت الإشارة الخفية وأمرت القوة الحاكمة المجهولة انسحبت الجنود من مواقفها فانكشفت الثغور وشق للعرائس طريق الفضاء . وحينذاك يبدو للعين مشهد يفوق مشهد النحل روعة وجمالا فإن البناية العظيمة نبكة كانت أو هرما أو قلعة تصير كالمرجل الغالى يكاد يتفجر . ومن شقوقها العديدة يرتفع ضباب كثيف مؤلف من ملايين الأجنحة الشفافة المضطربة فى الهواء ساعية وراء الحب سعيا يساوره الريب وتصفعه الخيبة . منظر جميل غير أنه قصير العمر ككل ما هو حلم أو دخان فلا يلبث الضباب أن يهبط بأجمعه إلى الأرض جاعلا لها غطاء من تلك الأشلاء، وهكذا ينتهى العيد وقد نكث الحب بعهوده وحل الموت محله . ولا يكاد يسدل الستار على هذا المشهد حتى تعقبه مأساة أخرى أشد هولا فإن الاستعدادات السابقة وإلهام السليقة الذى لا يخدع يدعوان كل مشتاق إلى تلك المأدبة السنوية التى تقيمها عرائس الأرض فتحتشد العصافير والحيات والحررة والكلاب وسائر الحشرات ولا سيما النمل وتهجم على هذه العرائس المحرومة من الدفاع والتى تغطى أحيانا ألوفا من الأمتار وتبتدئ المجزرة الهائلة كل على قدر جشعه وشهوته ، بل ربما أفرط بعضها فى الأكل كالعصافير خرجت من الوليمة وهى لا تستطيع إقفال مناقرها والإنسان نفسه يشترك فى اقتسام الغنيمة فيجمع بالمجرفة ويأكله بعد التحميص أو يعجنه بالسكر فيصير كاللوز ويبيعه فى السوق كما فى جزيرة جافا . وبعد الطيران وخروج آخر مجنح من القرية تقفل هذه بأمر القوة المحجوبة المدبرة وتسد النخاريب فى وجه الخارجين كأنما حكم عليهم بالنفى المؤبد انظر (شكل ٢٨) .



(شكل ٢٨) أرضة بالغة وقد بسط جناحاها اللذان باليمين

(تخريب الأرض)

إن قرى الأرض بانتشارها وتعددها وشرعها القاسية البالغة منتهى النظام وبحوبتها وتناسلها الهائل قد تكون

(١) جمع نخروب: وهو الشق فى الحجر، أو الثقب فى كل شىء .

خطرا عظيما على البشر وربما غطت وجه البسيطة لولا معاندة الأقدار لها وجعلها سريعة العطب شديدة التأثر من البرد ، فهى لا تحتمل من الحرارة إلا ما كان تحت درجة ٣٦ سنتغرادو وفوق ٢٠ وهذا ما جعل بقية المناطق فى مأمن منها . على أنها حيث أقامت كانت عاملا للهدم والتخريب وما أقلت الأرض فى البلاد الحارة حشرة مثلها فى حرب دائمة مع الإنسان فتأكل بيوته من أساساتها وتفنى ما عنده من فراش وكساء وورق ومئونة وخشب ونعال ونبات ولا ينجو شىء من موجوداته من هذا التخريب الفظيع الذى يتم فى الخفاء فنعده من خوارق الوجود . وإنك لتجد أشجارا كبيرة سليمة فى الظاهر فلا تكاد تمد إليها يدك حتى تنهار لتأكلها من الباطن .

تلك هى عادة أعمال الأرضة فى التخريب المنزلى وقد يتسع نطاقها فيشمل مدينة بأسرها . فنى عام ١٨٤٠ أسرت إحدى السفن المعدة لتجارة الرقيق فأدخلت إلى عاصمة سنت إلن (جامستون) نوعا من الأرض البرازيلى الصغير ذى الجنود المسلحة بالمحاقن فهدم قسما من المدينة وفعل بها فعل الزلازل . وعام ١٨٧٩ نشب الأرض بسفينة حربية اسبانية فى ميناء (فرول) فلم يبق ولم يذر . وزعم الجنرال لكرك أن جزر الأنتيل الفرنسوية لم تقو فى سنة ١٨٠٩ على رد الانجليز لأن الحشرة الهدامة كانت قد خربت المنازل وتركت المدافع والذخيرة فى حالة لا تصلح للعمل . ويطول بنا الشرح لو أردنا أن نعدد الجرائم التى يرتكبها هذا العدو الشديد الحول على ضعفه، وقد سبق فقلنا إنه غلب الإنسان على أمره فى بعض نواحى اوستراليا وجزيرة سيلان فأمسك عن الزراعة . وفى جزيرة فورموزا أرضة تخرط حتى الهاون وتدك الجدران إذا لم تمسك بالطين إمساكا شديدا .

وقال أيضا : لو أعطى النحل أن يتصور الجحيم لما كان فى نظره أشد هولا من هذا لأنه يجوز لنا أن نعتقد أن النحلة لا تشعر بتفاسة حياتها ولا تعدم لذة الحبور عند ما ترتوى من ندى الفجر وتعود ثملة من الزهر فتستقبل باكرام فى قصرها العسلى العاطر . أما الأرضة اللاصقة بالتراب تدب دبيبا فى ظلمة خبائها القذر فمن أين لها الراحة أو السرور؟ وأية مكافأة تنتظرها أو ابتسامة تدنيها عملها الشاق؟ وهل عاشت هذه الأحقاب الطوال فقط لتبقى كما هى أو بالأحرى كى لا تموت فتتكاثر بدون لذة وتخلد بلا أمل صورة من أحقر صور الوجود وأشقاها . من يدرى الأسرار الروحانية أو الحيوية أو الأثيرية أو الكهربائية التى تختبئ فى هذه القرى ولا نصل إلى حل طلاسمها ؟ والحق يقال إن الإنسان كلما تقدم فى إدراكه أدرك أنه من أجهل المخلوقات وأضيقها علما .

إن المبادئ التى تديرها هى أعمى وأمتن نظاما من أحسن اجتماع بشرى ولا يمكن التلاعب بالألفاظ للقول بأن حركات الأرض ليست حرة وأنه لا يستطيع الخروج على نظامه الأعمى، فإن العامل الذى يرفض العمل أو الجندى الذى يهرب من القتال يجازى بالطرد أو على الأظهر يقتل ويؤكل ، أفليست هذه الحرية نظير حريتنا ؟

ثم هل كان الذكاء البشرى القالب الوحيد الذى تفرغ فيه قوى الوجود الروحية والعقلية ، وهل كانت أعظم وأغرب وأجمل وأدق هذه القوى لا تظهر فينا إلا بواسطة الذكاء الذى نعتبره تاج الأرض والعلم . إن أهم شىء فى حياتنا أى سرها العميق هو غريب عن الذكاء معاد له ، وما الذكاء إلا اسم نعطيه لإحدى القوى الروحانية التى لا نفقهها . وفى المعنى :

إنما نحن فى اختلاف عقول مثلما نحن فى اختلاف وجوه

فربما كان الذكاء كالحياة صور متعددة ، وليس لنا ما يدل على أفضلية بعضها على بعض ، وما الإنسان

إلا

إلا فقاعة عدم يريد أن يقيس بها العالم . وبعد هذا كله فإننا لاندرك كل ما اخترع الأرض لأنه بقطع النظر عما ذكرنا من عمرانه ونظامه فى الاقتصاد والاجتماع وتوزيع العمل والتموين والكيمياء والصناعة وتوليد الماء وتحويل الصور والأشكال فان هناك أشياء لم يعط عنها اللثام . لقد تقدمنا الأرض فى هذا الوجود بملايين من السنين فليس يبعد أن يكون اعترضه فى طريقه من العقبات ماسيعترضنا يوما فنحتاج مثله إلى تذليله كذلك أن تكون تقلبات الجو والإقليم فى الأعصار الجيولوجية أيام كان يقطن شمال أوروبا كما دلت آثاره المكتشفة فى انجلترا وألمانيا وسويسرا قد اضطرته إلى المعيشة تحت الأرض فأفضى به ذلك إلى تضاؤل بصره وكفه عند السواد الأعظم منه . من يدرى إذا كانت هذه الرزايا لاتنتظرنا فى المستقبل البعيد عند مايجبرنا البرد على الالتجاء إلى الكهوف والغيران فى بطن الأرض أو إذا كنا نقوى عليها مثله . ثم إننا نجهل طريقة المعاملة عند هذه الحشرات ولا نعرف كم اقتضى لها من الوقت والتجربة قبل الوصول إلى هضم السليلوز . أما تحولها العجيب الذى نستطيع به أن نخلق هذا الشكل أو ذاك فهو فضلا عن غموضه يعد خطوة واسعة فى طريق الابتكار والابداع، لم يتسن بعد للانسان أن يخطوها . ألاترى أننا لانستطيع تحديد الجنس وتكوين الجنين كما نشأ بل نجهل حتى ساعة الولادة أكان ذكرا أو أنثى . فلو كان لنا علم الأرضة لاستطعنا أن نوجد عند الحاجة والضرورة أبطالا وعمالا ومفكرين لايكون من عندنا اليوم من أهل البطولة والعمل والتفكير بالقياس إليهم شيئاً مذكورا . ماالذى يمنعنا من الوصول يوما إلى تضخيم الدماغ آلتنا الوحيدة للدفاع فى هذا العالم كما وصل الأرض إلى تضخيم مشافر جنوده ومبيض ملكاته ؟ وهل يتمثل للخاطر مايستطاع عمله يومئذ فان رجلا يبلغ من الذكاء أضعاف أضعاف مابلغه (نيوتن) و (باسكال) مثلا فهو يقطع من مسافة العلم فى ساعات مانحتاج نحن إلى عصور لاجتيازه . ولعله يصل إلى كشف الحجاب عن أسرار هذا الكون فنفهم لماذا كل هذا الشقاء الذى يحيط بنا وهذه الآلام اللازمة لبلوغ الموت .

هذا الإنسان الجديد قد يصل إلى اكتشاف حياة أخرى ، تلك الحياة التى يجذبنا سرابها منذ القدم وقد وعدت بها كل الأديان دون أن تؤيد بالبرهان وجودها، ومهما يكن دماغنا اليوم ضئيلا فانانشعر أحيانا أننا على ضفة هاوية العلم بعيدة الغور وأن دفعة صغيرة قد تكفى لتلقينا فى عبابها ، ولعل هذا التضخم الدماغى يكون خشبة الخلاص فى الأعصار الجليدية التى تهدد البشر ، على أنه يحق لنا أن نفترض أن هذا الإنسان وجد فى سالف الأدهار وأنه كان أوفر ذكاء من إنسان اليوم بما لايقدر ، غير أننا نبحث عنه فلا نجد له أثرا .

لنعد إلى الأرضة ، من يجسر على القول أن الخاصة التى نتكلم عنها لم تنلها إياها الطبيعة . فالطبيعة هى الهادى الوحيد لكل مخلوق قال (أرنست كاب) [كل مخترعاتنا وأدواتنا هى تقليد لعمل الطبيعة من غير أن نشعر ، فمضخاتنا منقولة عن مضخة القلب ، وآلة التصوير هى غرفة العين المظلمة ، والتلغراف هو جهازنا العصبى ، والأشعة المجهولة رؤية الأجسام من خلال الحجب كقراءة الكتاب دون أن يفض عنه الغلاف ، واللاسلكى مناجاة الأرواح بواسطة تموجات غير منظورة، وفى تحريك الأجسام بدون أن تمس (وهذا غير محقق) دلالة على ما يمكن عمله من تغيير شرائع الجاذبية والثقل والانتصار عليها] .

ثم قال [يجوز لنا أن ننسب غريزة الحشرات ولاسيما النمل والأرض والنحل إلى الروح للشركة الخالدة ، فقد قلت فيا مر إن هذه الشعوب هى كذات واحدة أو كائن حى مستقبل أعضاؤه مؤلفة من خلايا كثيرة متفرقة فى الظاهر مجتمعة فى الواقع حول الشرعة المركزية . وهذا الخلود المشترك هو السبب الذى من أجله يموت المئات والألوف من الأرض دون أن يؤثر فى الذات أو الجسم الواحد المستقل لأن غيرها يقوم مقامها؟

كما أن اندثار ألوف الخلايا فينا لا يغير حالة ما نعبر عنه بكلمة «أنا» ولهذا تظل الأرضة عائشة كما هي منذ القدم دون أن يضيع لها اختبار أو ينفصل لها وجود ولا تتشتت تذكاراتها لأن هناك ذاكرة واحدة للجميع . وهذا ما يفسر لك كيف أن ملكات النحل لاتنفك تبيض منذ ملايين من السنين ومن دون أن تزور زهرة أو تجمع لقاحا أو تمتص عسلا تستطيع أن تخرج عاملات تعرف ما جهلته أمهاتها كل هذه العصور، والدقيقة الأولى من طيرانها تفهم كل أسرار الطريق وجمع العسل وتربية العذارى وكيمياء القفير . تعرف ذلك لأن الجسم الذي هي إحدى خلاياه يعرف ذلك فتراها منبثة في الفضاء وهي متفرقة الشمل في الظاهر ولكنها مربوطة بالوحدة المركزية . فهي كخلايا جسمنا تعوم في سائل إلا أن هذا السائل أوسع مدى من سائل الجسم البشري وأكثر ليونة وخفة وروحانية .

هل يمثل الأرض لنا نموذجا للنظام الاجتماعي الآتي ؟ من يدري ما يخبئه لنا الغيب مما لايمر له خيال في في تصوراتنا ، فقد يكفي أحيانا شيء لا يذكر ليقلب نظام الأدب ومقدرات الشعوب . إن غاية ما نصبو إليه اليوم هو حياة جمال ورخاء وسلام ويمن، وقد أتى على الإنسان ساعات من الدهر قارب بها هذه الغاية في أثينا أو الهند أو بعض أدوار المسيحية . لمن يؤكد لنا اليوم إذا كانت الإنسانية تمشي حقيقة في هذه الطريق لا في الطريق المعاكسة لها .

إن ما لاريب فيه أن السعادة الكاملة الثابتة لانجدها إلا في حياة روحية بحتة فهل هذه الحياة ممكنة ؟ نظريا نعم، أما عملا فمن المستحيل ذلك لأننا لانرى من حولنا إلا المادة وبسوى المادة لا نشعر . ودماغنا نفسه مادة فكيف نرجو أن نفهم به غير المادة ؛ كلما جرب الواحد منا أن يفلت من قيود هذه المادة أصابه الدوار وهبط إلى الحضيض. إن المادة عدو الإنسان الوحيد، وقد اتفقت الأديان على ذلك سواء سمي هذا العدو شرا أم خطيئة ولهذا كانت حالة البشر محزنة على الأرض لأنه لاسبيل إلى الخلاص من المادة . وكيف الخلاص وكل ما في العالم هو منها والقوة نفسها والحياة إن هما إلا صورة من صور المادة وشكل من أشكالها، بل الجسم الجامد الذي لاحراك به أو المادة الضخمة الميتة فيها حياة أكثر روحانية من أفكارنا . تلك الحياة الهائلة الخالدة ، حياة الكهارب التي لاتنصب متحركة كالسيارات حول نواتها المركزية . كيفما أجلنا الفكر نرى شيئا وهذا الشيء هو غير العدم ، فاما أن يصير « أنا » عظيما إلى حد أن ينتفي معه ذلك الحيوان الصغير الذي كان يقال له الإنسان أو يبقى حقيرا خاملا على مدى العصور وهي لعنة لايوازيها أكبر عذاب من جحيم المسيحيين . على كل حال يقول ابكتت الفيلسوف: لاينبغي أن نحاول تغيير طبيعة الأشياء فليس هذا بمستطاع ولا بمجد . ولكن على قبولنا بها لنتعلم أن نطبق تصرفاتنا على نواميسها عشرون قرنا مرت على الإنسان منذ رنت في أذنه هذه الكلمات ولم تصل به بعد إلى نتيجة ترضيه . انتهى (يقول المؤلف عمل الطبيعة يريد عمل خالق الطبيعة) اهـ .

(خطاب للمسلمين)

أيها المسلمون : هذا اخترته من كتاب [مملكة الظلام] أو [حياة الأرضة] الذي عربه الدكتور (نقولا فياض) ثم أنا أفضت في الكلام على (الأرضة) ومعيشتها وسياستها ونظامها ، وإنما حركني لذلك قوله تعالى « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » ياسبحان الله : مالنا وللأرضة ، وما لنا وللمنسأة سليمان ، ومالنا ولأكل الأرضة لها ، ومالنا ولكون سليمان لم يعلم اليهود موته إلا بعمل الأرضة ، عجيب والله هذا القرآن ! عجيب والله أن تكون هذه الكلمات باعثة لي على تعقب أحوال الأرضة ، فماذا عرفنا منها ؟

عرفنا أن لله جنودا وجنودا، وتلك الجنود لها ملوك ولها سياسات ونظم اجتماعية عجيبة ، وعرفنا أن فى أمم أوروبا من يدرسون هذه الحشرات ليستخرجوا منها علما عسى أن يرتقى به الإنسان فى مستقبل الزمان، ولقد ظنوا أن هذه الحشرة الحقيرة قدرت أن تستخرج الماء من المواد التى حولها . يا ألله : أنا أتوجه إليك وأسألك أن تبعث فى نفوس قراء هذا التفسير حبا للعمل وحبا للعلم والحكمة حتى يكون للمسلمين نظام مع الأمم حولهم به يعيشون فى حبور وحياة منتظمة ، فأنت الولى الحميد .

أيها المسلمون : إن الناس تمنوا الطيران فطاروا ، وهاهم أولاء يتمنون عقولا أرقى من هذه العقول ويسعون لكسبها فسيروا مع الناس بل أنتم أولى فإن إشارات القرآن تبعث المسلم على العمل ، أولا ترون أيها المسلمون الصادقون كيف كان سليمان فى هذه السورة هو سليمان فى سورة النمل ، ويا عجبا لله وألف عجب !. اللهم إنك أنت المعلم ، أنت الملهم ، أنت الحكيم ، كيف كان سليمان فى [سورة النمل] يتبسم ضاحكا من النملة ، وقصص سليمان فى هذه السورة تدل على موته دابة الأرض .

يا عجبا ! كأن الله يقول لكم : أيها المسلمون إن بين النمل والأرضة علاقة فلتدرسوها ، فعلاقتها فى القرآن قصة سليمان وعلاقتها فى العلم اشتراكهما فى المدنية والسياسة وأن بينهما عداوة فالدرس الدرس .

الله أكبر : قصة سليمان فى هذه السورة وفى سورة النمل يفهمها العامة والخاصة ، شارحة للصدور وهى باب لدراسة النمل ولدراسة الأرضة ، فلئن عجب العامة والخاصة من قصة سليمان مع النمل وقصته مع الأرضة فوالله ليكونن عجبهم أكثر وأكثر حين يدرسون العجائب التى أبدعها الله فيهما « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » انتهى المقام الأول فى المبحث الأول .

المقام الثانى فى المبحث الأول

(فى قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »)

اعلم أن طائفة من الناس يقرءون عزائم ودعوات كفرية أو دينية أو غيرها ويزعمون أنها تقضى حاجاتهم بها وينادون أسماء شيطانية ويبتهلون إليها، وهذا فى الحقيقة نوع من العبادة ، وما الفرق بينهما وبين الأصنام ؟ فالأصنام شفعاء وهؤلاء شفعاء فليحذر المسلمون من هذا، إن الإيمان بالله يعلى الهمم ويرفع النفوس إلى المستوى الرفيع الشريف كما كان الصحابة رضوان الله عليهم . فعلو الهمة هو الذى يرفع الإنسان عن العوالم كلها إلى بارئها فينال ما يريد إذا كان ذا عزيمة صادقة . ثم إن الذين يحضرون الأرواح فى هذا العصر يعلقون آمالا عليها فى أمورهم الدنيوية أو فى معرفة الغيب وهذا كله خروج عن القضايا الدينية ثم لا يفيد فاعله ويكون ذلك أشبه بالعبادة ويحجب الإنسان عن ربه . ومن ذلك ما تقدم فى هذا التفسير من الأوفاق التى كان يستعملها قدماء المصريين كالمثلث والمربع والمخمس إلى المتسع للكواكب السبعة . والمسلمون اليوم هكذا يستعملها بعضهم وهو لا يدرى أنها كالشرك بالله تعالى . ولأورد لك أسئلة من كتاب الأرواح ألقاها العلماء على الأرواح فى أوروبا لما استحضروها . وهاك بيانها :

(س) هل من أسئلة تكرهها الأرواح الناقصة ؟

(ج) لا تكره إلا الأسئلة التى تزيح النقاب عن جهلها وخداعها .

(س) ما قولك فيمن يتخذون المخابرة الروحانية بابا للهو والهزل أو لاستنباء أمور تهم مصالحهم الزمنية ؟

(ج) هؤلاء تسر بهم جدا الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخداعهم .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل ؟

(ج) كلا : إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

(س) ما هى أخص دلائل النبوآت الكاذبة ؟

(ج) هى التى لاتأتى بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص .

(س) لماذا تكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لاتعين زمن حدوثه ؟ .

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة، إن الروح يستشعر أحيانا وقوع أمر إنما زمن وقوعه يكون فى الغالب متعلقا بحوادث لم تتم بعد ولا يعلمها إلا الله ، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقيقة وتحدد الأيام والساعات من دون التفات إلى صحة النبوءة وعدمها ، ومن الواجب هنا أن أكرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتكم وترقيكم الروحى لاالعرافة وفتح الفأل ، فمن أحب هذا تألفه الأرواح الماكرة ويصبح ألعوبة بين أيديها . انتهى المقصود من كتاب الأرواح . .

وهذا يكفيك من ذلك فإن الأسئلة توضح الآية هنا إيضاحا كافيا ، إن هذا من أعظم معجزات القرآن كيف لا ونحن نجد أن أوروبا التى لم تسمع أن فى القرآن هذه القصة لعدم إيمانها به تكون نتيجة حديثها مع الأرواح أن الجن لاتعرف خبر الغيب، ولامعنى للجن إلاالنفوس الناقصة، كما لامعنى للملائكة إلا الأرواح الكاملة وكل منهما درجات ، إن هذا معجزة وأى معجزة ، إن المسلم عبر على مثل هذا مرا ويكتفى بالإيمان أما اليوم فإنه يرى اليقين فى العلم ، فإن كذبت أيها الفطن الفرنجة فدونك العلم فاستعمل الطرق التى أوضحتها فى كتابى [الأرواح] واجعل نصب عينيك الحقائق لا الأمور الدنيوية وهناك تعرف بنفسك لا بأوروبا لكن مع الصبر والجد ، وإن أردت إلا الزيادة فعليك بكتاب الأرواح ، وإن شككت فاستقل بالعلم . واعلم أن الله جعل هـذا الزمن هو الزمان الذى فيه يظهر سر القرآن « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » .

فالمسلمون إن لم يدرسوا فليرحلوا من العالم ويأتى الله بأمم أخرى لهذا الدين أرقى من هذه الأمم النائمة فأما الكسل والتكذيب والاستهزاء فليس يجدى فى زمن العرفان والعلم والحكمة والارتقاء . وبهذا تم الكلام على المبحث الأول بمقاميه معا .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « فلما خر تبينت الجن » الخ ﴾

(تذكرة فى ليلة الخميس ١٣ يناير سنة ١٩٣٠)

فى هذا اليوم حضر عندى رجل عظيم ذكى عالم وقال لى : ألم تطلع على « مجلة الدنيا المصورة » فى هذا الأسبوع : فقلت ماذا فيها ؟ فقال إن فيها أمرا عجبا ، وقص علىّ ما يأتى :

﴿ يد خفية تكتب من وراء المجهول ﴾

(يعمر البرلمان المصرى عاما واحدا ، وتعقد المعاهدة فى خلال ستة أشهر)

بين المنجمين وقراء الطوالع الذين هبطوا مصر رجل هندى له طريقة مدهشة فى الإجابة عن المستقبل حار العقل فى تعليلها ، وهل هى سحر ساحر عليم ، أم شعوذة مشعوذ ماهر فى خداع العقول والأبصار ، ونحن نسرد فيما يلى بعض أعمال هذا الرجل الخارقة للعادة كما شاهدها مندوبنا ونترك القارىء تعليلها .

فى شقة بسيطة الرياش يقيم رجل هندى لاينبئك مظهره عن خبره ، وكانت زيارتى لهذا الرجل حافلة بالمدهشات، ولو أنى حاولت أن أدرك خفى أمره وأستطلع وسيلته التى يتوسل بها لتأدية أعماله فلم أوفق فى محاولتى مع يقينى بأن الأمر مهارة خارقة لاعلاقة لها بالأرواح . لاترى فى شقته مظاهر التأثير والروعة التى تصحب عادة منازل المنجمين وعلماء الروحانيات بل هى ذات فراش بسيط أشبه بمكتب وكيل أعمال أو محام مبتدىء

ورأيته فتى صغير السن هادئ النظرات حليق الوجه يتحدث فى ابتسامة صغيرة وبسيطة . سألنى بالانجليزية : أتريد أن تعرف شيئاً عن مستقبلك ؟ أجبته : نعم . ودخلت حجرة مكتبه وليس فيها إلا مكتب واحد عليه أوراق متناثرة وأقلام ودفاتر عادية وقد طليت جدران الحجرة باللون الأسود ، ولما رآنى أنظر لهذا الطلاء الأسود القاتم مستغربا قال لى فى هدوء : إننى أهيئ الحجرة لاستحضار الأرواح فإنها لاتظهر إلا فى الظلام وسألته : وفى أى ثوب تظهر الأرواح . فأجاب : تظهر متشكلة بشكلها الأرضى فتراها كما عهدتها على سطح الأرض فى الجسم نفسه والملابس نفسها ، ثم طلب منى أن أكتب أربعة أسئلة على أربع ورقات صغيرة عما أود معرفته من شئون المستقبل ، وتناولت ورقة صغيرة قطعتها على أربع أقسام وبينما أنا أقطعها بتأنّ وبطء استأذن منى ليغيب دقيقتين وترك الحجرة وانصرف ، ومضيت أنظر حولى فلم أجد فى الحجرة مايريب ، وتناولت قلمى فكتبت على كل ورقة سؤالا ثم طويت الورق وأودعته يدى ، وعاد الرجل بعد قليل وجلس إلى مكتبه وسألنى : هل كتبت الأسئلة ؟ فأجبته : نعم . وجلس يسطر جداول ورموزا والورق فى يدى اليسرى مطوى طيات عديدة وقد أطبقت كفى عليه ، ثم طلب منى أن أكتب فكتبت بيدى اليمنى على ورق أمامى وأغمض عينيه ثم أملانى السؤال الأول فالثانى فالثالث فالرابع كلمة كلمة وما زالت الأوراق مطوية فى يدى ، وكان يملى على الكلمات وكأن نظره المتعمق يخترق كفى ويخترق الأوراق المطوية ويتلو مافيها . وكان بين الأسئلة سؤال كتبت فيه كلمة ومحوتها وكتبت كلمة محلها ، فلما أملانى هذا السؤال ذكر الكلمة الأولى ثم طلب منى أن أمحوها بالقلم وأكتب بدلها الكلمة الثانية . كتبت الأسئلة وأنا أبتسم وأغالب دهشتى ثم ناولنى القلم من يده وطلب منى أن أضمه فوق الورق فى كفى فوضعته ثم استعاده منى وقال لى ، افتح الورقات فإن الأجوبة مكتوبة فيه . ففتحت الورق فرأيت فى أسفل كل سؤال الجواب عليه مكتوبا بالقلم الرصاص وكانت الأوراق لم تخرج من كفى وهى مطوية فيه طيا محكما . وكانت حقا مفاجأة لطيفة مدهشة . وقلت له : لنتحدث كما يتحدث الأصدقاء . ما سر هذه القدرة العجيبة ، أجابنى بهدوء : سرها بسيط فإنى متصل بالأرواح أسخرها لخدمتى وأستطلع أنباءها ، فهى توحى إلىّ ما يخفى أمره على الناس . ولكنى لم أشاركه القول بأن هذا السرّ أمر بسيط وإنما أعدت سؤالى : ومن أين لك هذه القدرة ؟ وصمت طويلا وكأنما يستعيد ذكريات قديمة ثم قال : سأحدثك بما لم أحدث به أحدا . كنت وأنا فى التاسعة عشرة من عمرى طالبا فى (لاهور) ببلاد البنجاب فى الهند وكنت أقيم وحدى فى شقة استأجرتها فأقضى نهارى فى الجامعة وليلى فى منزلى أراجع دروسى . وفى هذه الأيام تعارفت بفتاة هندية حسناء كانت طفلة صغيرة ولكنها جمعت كل معانى الأنوثة الفاتنة وأسرار الجمال الآخذ . همت بحبها وطغى غرامها على كل حواسى حتى أصبحت ولا تشغلنى إلا فكرة واحدة مستولية على كل مشاعرى ومالئة كل رأسى وهى هذه الفتاة . ولكن الحجاب القاسى كان يحرمنى من لقائها ورؤيتها . وكانت تمرّ بى الأيام دون أن أراها فأذوب وجدا وتضطرب أفكارى وتختل أعصابى . وفى ذات ليلة جلست فى منزلى وحيدا وأنا أفكر فيها بكل قواى ، أفكر فيها وأرغب فى رؤيتها وأحصر كل أفكارى وحواسى فى هذه الرغبة القوية وخيل لى أن كل قوى العالم اجتمعت فى ذهنى ثم تمركزت فى هذه الرغبة القوية وإذ ذاك خيل إلىّ أن قوة تفكيرى وشدة الرغبة الصادرة من روحى تخترق الحوائط والجدران والحوائل وتصل إلى هذه الفتاة فى خدرها وتستدعيها وأنها تجئ ملبية دعوتى الحارة وأنها تقترب من منزلى وأنها تسير تحت نوافذى وأطللت من النافذة فرأيتها تسير فى الطريق وهى تنظر إلى نوافذ حجرتى . وحدث ذلك مرارا فكنت كلما فكرت فيها رأيتها أمامى . ولاريب أن فى تلك إحدى معجزات الغرام والرغبة القوية . ولكنى لم أهنأ بحبيبتى فقد اختطفها الموت وهى فى زهرة صباها وحزنت عليها حزنا شديدا فهجرت الجامعة والدروس وأهملت نفسى ورحت كالمجنون لا أريد من حياتى إلا أن أراها بعد موتها . وكنت أعلم أن بين جبال الهند

وغاباتها يعيش جماعة الفقراء والدراويش الذين يقال عنهم إنهم من طائفة قضت أيامها فى التنسك والعبادة حتى أزيلت عنها الحجب واتصلت بعوالم الأرواح وتجردت من شوائب المادة الدنيوية فبلغت نفوسها درجة فائقة من القداسة . ودعانى شغفى بحبيبق الميتة وجنونى ورغبتى فى رؤيتها إلى الهيام فى الغابات والجبال وإلى غشيان مجامع الدراويش الفقراء فى العراء أملا بأن أستطيع أن أرى روح حبيبق وأخذت عهدا على بعض شيوخهم وكان لابد لى من قضاء مدة التجربة بينهم . ولا أزال أذكر تلك الليالى الطويلة والمحن التى قاسيتها فيها حيث كنا نجلس حلقة كبيرة فى وسط الغابة تحت ضوء النجوم نتلو آيات معينة من القرآن الكريم ونكرر تلاوتها آلافا وآلافا من المرات حتى تتجرد أرواحنا عن أجسامنا ونسبح فى عالم كله هدوء وسكينة وكنت أرى بعض وحوش الغابة تتسلل نحونا ، فهذا فهد ضار يقف عن بعد محملق إلينا وكأن عينيه شعلتان تتقدان فى ظلام الليل ، وهذا أفعوان ضخم يزحف بين الحشائش ويدور حولنا ، وكان الفزع يتولانى فى أول الأمر ، ولكنى أرى الدراويش فى ذكرهم وتلاوتهم لايشعرون بتلك الضوارى ولا يقيمون لها وزنا فأجمع قواى وأشد على قلبى وأستمر فى القراءة والذكر . وفى صباح اليوم التالى أسأل أحد رفاقى عن هذه الكواسر فيجيبنى إنها الأرواح متشكلة فى أشكال مخيفة تحاول قطع قراءتنا حتى لاتتسلط عليها وتسعى لايقاع الرعب فى قلوبنا ولهزيمتنا قبل أن نهزمها ، وقضيت أربعين يوما على هذه الحالة وأنا لاأتناول طعاما ولا أرتدى ثيابا ولا أنطع وقتى إلا بالتلاوة والذكر ، وفى ختام اليوم الأربعين شعرت بأنى بلغت ما بلغ أساتذتى الدراويش وأنى أصبحت سيدا على الأرواح أناديها فتلبى ندائى . وسألته : ومن كانت أول روح استحضرتها؟ قال بهدوء : روح حبيبق طبعا وقد لبت ندائى وحادثتها وحادثتنى .

***

ومما يذكر عن نبوآت رجل الأسرار واسمه الحقيق (مير عبد الحميد) أن أحد النواب الوفديين ذهب إليه ليسأله فى أمور سياسية وكتب الأسئلة وطواها وكان بينها هذان السؤالان :

(١) – كم يعمر البرلمان ؟

(٢) – هل تعقد بين مصر وانجلترا معاهدة فى بحر ستة أشهر قادمة ؟

فكان الجواب على السؤال الأول « يعمر سنة واحدة » والجواب على السؤال الثانى « نعم » ولم يجد النائب فى هذين الجوابين مايشفى غليله فان حل البرلمان لا يمكن أن يحدث إذا أبرمت المعاهدة .

وسأل سؤالا ثانيا : إذا كان البرلمان سوف يعمر عاما واحدا فما هو نظام الحكم الذى يتلوه ؟ وكان الجواب « يكون الحكم فى يد حزب الأغلبية ويبقى فى يده طويلا » وكأن هذا الجواب يدل على أن الحكومة الوفدية سوف تحل البرلمان بعد سنة واحدة ثم تعود الانتخابات فيخرج حزب الأغلبية وهو الوفد فائزا ويتولى الحكم مدة طويلة ، والله أعلم اهـ .

فلما قال صاحبى ذلك وقد قرأه فى المجلة بنصه . قلت له : وهل لهذا علاقة بالتفسير . قال نعم : أذكرك بما تقدم فى (سورة النور) ألم تذكر هناك الأسئلة التى وجهها الناس إلى الشيخ أحمد بن المبارك تلميذ الشيخ الدباغ فى أمر السحاب والمطر والبرق والجبال التى فى السماء ، ولما رأى الشيخ ابن المبارك أن علماء الإسلام قبله لم يعرفوا أغلب تلك العجائب هرع إلى الشيخ الدباغ فأجابه وشرح مسائل لم يظهرها إلا العلم الحديث فكان ذلك معجزة إذ ظهر أن فى الجو جبالا من ثلج ينزل منها برد وقد رسمتها أنت هناك ، وأنت قلت إن طبيعة دين الإسلام أن يسأل الناس علماء عن كل شىء لأن القرآن يذكر أمورا كثيرة ، فإذا قال الله لنا إن

الجن لا يعلمون الغيب فما بالنا نرى رجلا هنديا فى هـذه القصة يخبرنا نحن المصريين بأن المعاهدة ستكون بعد ستة أشهر وأن البرلمان يغير ببرلمان آخر بعد سنة ، وكيف قدرت روحه أن تحضر محبوبته إلى منزله من وراء الجدران والحيطان . وكيف يخاطبها بعد الموت ؛ وإذا لم يكن تفسير القرآن هو الذى يوضح ذلك فمن أين نعرفه ، ثم هذا الفتى الهندى يتمتع الآن بهذه المزية . فهل من المصلحة أن نسعى لنظيرها؟ لأن الناس جميعا عندهم استعداد لأمثال هذا وإن كانوا فيها مختلفين ، فقلت له إن قولك يتضمن ما يأتى :

(١) كيف قويت روح الهندى على أن ينظر الفتاة من وراء حجاب ؟

(٢) كيف قدر أن يحادث الأرواح ؟

(٣) كيف علم الغيب والله يقول إن الجن لا يعلمون الغيب وهو يقول إن الأرواح تعلمه ذلك الغيب؟

(١) أما قوته على رؤية الفتاة من وراء حجاب فذلك يرجع إلى قوة فى نفوس جميع الناس وهذه القوة لا تتجلى إلا نادرا جدا لأن قوانا فى الأرض موزعة على أعمالنا ، ألا ترى أن أرواحنا موزعة قواها على الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة وعلى مافينا من قوى شهوية وقوى غضبية وعواطف وعادات وأحوال لا حصر لها . وكل هذه مفرعات عن النفوس ، فإذا حصر المرء فكره فى أمر ما نال منه على مقدار ماقسم له وهذا الفتى حصر فكره فى الفتاة وجميع السحرة فى العالم من هذا الباب دخلوا ، فنفوسهم حصروها فى أمور خاصة بطريق خاص بهم ناقوه عن غيرهم وقد قللوا الشهوات فأثر على مقدار عزيمتهم ، وهذا الفتى ما حصر فكره إلا الحب الذى استحوذ على جميع قواه ، فصار هذا الجسم وحواسه الظاهرة والباطنة كأنها ملغاة لا عمل لها ، وهذا تقدم تقريره فى مواطن من هذا التفسير .

(٢) وأما محادثته للأرواح فهو مفرع على ماقبله ، وقد تقدم تقريره فى هذا التفسير كثيرا وهو مشروح شرحا تاما فى كتابى [الأرواح] الذى ألفته لذلك . إن النفس متى انصرفت عن أحوال هذا العالم اطلعت على عوالم أخرى .

(٣) وأما جواب السؤال الثالث وهو المذكور سابقا وهو أن الأرواح لا تعلم الغيب سواء أكانت فى أجسامها أم كانت مجردة منها بعد الموت . وهذا الفتى الهندى إما أن يكون إخباره بالغيب فى أمر البرلمان من قوة نفسية فيه . وإما أن يكون بإخبار الأرواح . وكلاهما ينبغى البحث فيه .

نحن الآن لا نعلم هل يصدق ذلك التنبؤ أم يكذب ؟ ولم تمض الستة الأشهر ولم تمض السنة حتى نحكم بصدقه أو كذبه . والذى ثبت فى علم الأرواح أنها لا تقدر أن تعرف الأحوال المهمة فى الأرض . وإذا أخبرت وقع الصدق والكذب فيها إلا إذا كانت أرواحا عالية تسخر بأمر لغرض شريف فهذه يباح لها ذلك الإخبار ، فأما الأرواح الصغيرة فإنها طائشة تخبر بما لا حظ له من الصدق استهزاء بالسائل لأنها تحب الهزء والسخرية .

هذا ، ثم إن منزلة هذا الفتى الهندى فى النوع الإنسانى وأمثاله من أولئك المتبتلين ليست هى المنزلة السامية . نحن خلقنا هنا فى الأرض ولنا أعضاء وقوى وعقول فلابد أن نعطيها حقها من العمل وحولنا عوالم أرضية وسماوية فلابد أن نعطيها حقها من الدرس وحولنا نوع الإنسان فلا بد من أن نكون نافعين له بقدر طاقتنا ، أما تعطيل قوانا واتكالنا على الأرواح فهذا نقص فينا كما هو مفسر فى [كتاب الأرواح] وليس للإخبار بالغيب فى عالمنا مزية شريفة إذا صدق ، ولذلك قل الصدق فى الإخبار بالغيب لأن الإنسان إذا علم المستقبل أهمل الحاضر فنام وكسل ، وهذه هى سنة العوالم الأرضية . الأرواح الصغيرة تخبر صدقا وكذبا ، والأرواح العالية لا تخبر إلا بالأمور العالية للمنافع العامة وذلك قليل ونادر . إن عالمنا يضر به العلم بالمستقبل فالجهل به هو السنة الصالحة فى أرضنا ، وهذا الفتى الهندى هو وأمثاله اليوم لا يفيدون الإنسانية أمورا عملية .

ثم ربما كانت حياتهم مذكرة للناس بعوالم الأرواح ، فهم من هذه الوجهة قد أدوا خدمة وإن لم يقصدوها ، ولكن العرافة والإخبار بالغيب أكثرها كذب لا يصح التعويل عليه ، ولو صح ذلك لكان وبالا على الناس إذ يعلمهم الكسل والاتكال على المستقبل ، ومن عجب أن يقول [إن الأرواح تظهر للنساك في أشكال مخيفة خشية التسلط عليها لهذه العبادات] وهذا دلالة على أنها أرواح من عوالم منحطة ليست راقية ، فاذا سخرت لهؤلاء النساك فهى أشبه بالاستعمار فى الأرض . فالأمم التى عندها أسلحة تغزو التى لا أسلحة لها وهؤلاء ضعاف. إذن ظهورهم وإخافتهم لهؤلاء النساك وقت القراءة أشبه بمحاربة لإحباط أعمالهم ؛ فإذا تغلب النساك على تلك الأرواح استخدموها . إذن هذه الأرواح صغيرة ضعيفة يسخرها كل من قدر عليها وهذه هى الأرواح التى تكذب تارة وتصدق أخرى وإخبارها بالغيب مشكوك فيه لأنها محجوبة عن المستقبل ، إذ العلم بالمستقبل لا يعطى إلا لأرواح عالية إلى حد مخصوص ليساعدها فيما تزاوله من إصلاح العوالم الأرضية . هذا ما يعطيه علم الأرواح . فأما هذه الموهبة التى أعطيها الشاب الهندى فليست مزية شريفة فى الإنسانية .

وإذا قرأت ما تقدم فى [سورة الحج] فى (صحيفة ٤٧) وما بعدها من الجزء الحادى عشر واطلعت على كلام الشيخ الدباغ والشيخ الخوّاص والشيخ الشعرانى وجدت هذا المقام موضحا كل الإيضاح ، وأن أهل الصلاح الذين اطلعوا على الأمور الغائبة ليس لهم حظ فى الآخرة لأنها شهوة نفسية ، وربما يموت الصالح مفلسا لأنه أخذ حظه فى الدنيا . ولذلك ترى الشيخ الخواص يقول : [إياك أن تقبل الفتوح والاطلاع على الغيبيات بل استعذ بالله من ذلك] وترى الشيخ الدباغ فسر لنا آيات وأحاديث بما لم يقله غيره من العلم والحكمة العالية وهو هو نفسه يقول [إن الذين يعبدون الله ويقصدون بالعبادة هذه الأمور يصبحون أخس نوع الانسان] فاقرأ هذا المقام هناك وفى سورة الكهف عند قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضدا » وفى موضع آخر قبله فى نفس السورة . وإذا كان العباد والصالحون إذا قرءوا القرآن وعبدوا الله لهذه المقاصد مذمومين ، فما بالك بهذا الفتى الذى قصد من التجرد أن يخاطب محبوبته . ثم إن القرآن لم ينزل لمثل هذا . كلا ثم كلا . على أن حصر النفس وإحضار الأرواح لا يتوقف على القرآن ولا على كتاب سماوى بل حصر النفس يحصل بأمور كثيرة ومنها اتصاله بذلك الشيخ ومنها تلك العزائم التى تشتمل على ألفاظ لا يفهمها القارئ وهو مشغول بقراءتها ، فليس المقصود من قراءة القرآن أمثال هذا بل هو نزل لتهذيب النفوس وإصلاح الأمم لا لإخراجنا من الجسمية إلى حال الروحية مرة واحدة . هذا ما أعلم فى هذا المقام « وفوق كل ذى علم عليم » فقلت الحمد لله رب العالمين .

كتب نصف الليل يوم ٢٣ يناير سنة ١٩٣٠ م

* * *

فلما أتممت هذا المقال جاء إلىّ أحد الإخوان وقال انظر انظر إلى ما جاء فى مجلة « الدنيا المصوّرة » بتاريخ يوم الأحد ١٣ إبريل سنة ١٩٣٠ م وقرأ ما نصه :

(قوة الإرادة تنتج أعمالا خارقة)

(كيف يسلط المشعوذون قوى إرادتهم فيأتون بالغرائب والمدهشات)

ذلك أن فى الانسان من القوى المعنوية المجهولة ما لم يستطع العلم بعد الوقوف على سرها أو كشف حقائقها ، ففى الناس من سمعنا عنهم أن نافورة من المياه المتدفقة تخرج من بين أصابعهم ساعات وأياما بلا انقطاع ، إلى أن يبلغ حجمها أضعاف حجم الجسم الذى تخرج منه لو فرضنا أنه استحال كله ماء . ومنهم من يضع نفسه

فى صندوق محكم الغلق ويبقى فيه مسدود الأنف والمنافس عدة أيام وليال ، ثم يخرج منه كأن لم يكن فى الأمر شىء ، ومنذ آلاف السنين عرفت قوة الادارة واستعملت ولكن فى دوائر محدودة وبين أفراد قلائل جدا، على النحو الذى يمارسه فقراء الهنود إذ ينامون على المسامير والحراب دون أن يشعروا بألم ويمزقون جلودهم بالمدى والأسنة دون توجع أو أنين .

﴿ عملية جراحية بدون مخدر ﴾

ويقول علماء هذا العصر : إن كل إنسان يملك هذه القوة التى ترى أنها خارقة، وكل مايعوزه هو تنميتها وتدريبها . فقد حدث أخيرا فى أحد المستشفيات أن مريضا رفض أن يتعاطى مخدرا قبل إجراء عملية جراحية خطيرة ، وطلب إلى الطبيب أن يقوم بعمله رأسا ، بعد أن تمكن بقوة إرادته من أن ينام نوما لم يشعر فى غضونه بمبضع الجراح . وقد فحص الأطباء بعض ذوى قوة الارادة فقرروا أنهم استطاعوا أن يزيدوا عدد النبض العادى أو يقللوه كما يريدون، بل تمكن بعضهم من أن يوقف دقات القلب زمنا ما .

﴿ طهرا بك فى لندن ﴾

لقد كان الناس يعدون فقراء الهنود إلى عهد قريب دجاجلة يغشون ويخدعون ويكذبون فيما يظهرونه من الخوارق ، ولكن العلم الحديث يعترف بأنهم ليسوا كذلك ، إنما هم قوم ذوو قوة إرادة نافذة وسيطرة عقلية على الجسم جميعه . ولعل القراء يذكرون ماعرضه « طهرا بك » فى مصر من مدة قريبة . وقد عرض هذا الرجل كثيرا من أعماله الخارقة فى لندن فلم ير الأطباء أن فيها شبهة الكذب والخديعة . ذلك أنه دعا أربعين طبيبا إنجليزيا وأجلسهم معه على المسرح الذى كان يشتغل فيه ، ثم غرز سكينا حادة فى أجزاء من جسمه كان يسيل الدم منها وينحبس تبعا لإرادته . ثم استلقى أمام الأطباء على لوحة من المسامير المدببة ، وأوقف رجلا ضخما على صدره دون أن يشعر بأى ألم ، ولما نزل الرجل جىء بحجر كبير وضع مكانه ووقف رجلان يتناوبان ضرب هذا الحجر بفأس حتى تكسر على صدر « طهرا بك » الذى قام بعد ذلك سليما معافى . وقد فحص الأطباء ظهره فوجدوا به آثار دخول المسامير فيه، ولكنهم لم يروا أثرا لقطرة دم مهراقة . وقد ظهر فى برلين فى العام الماضى رجل قام بأمثال هذه الأعمال جميعا ، وزاد عليها أنه كان يظهر للجمهور صليبا داميا على أديم ظهره ، ثم يخفيه ويعود إلى إظهاره حسب إرادته . وقد قال هذا الرجل إنه رسم بموسى حلاقة صليبا على ظهره بحيث لايمكن أن تراه العين . فحينما كان يريد إظهاره للناس يتسلط بقوة إرادته على الدورة الدموية فتدفع الدم إلى خطوط ذلك الصليب ، فيظهر للناس داميا رهيبا ، ثم يأمر الدورة الدموية بقوة إرادته فتمتص الدم من الصليب فتنمحى آثاره .

﴿ يشنق نائم ﴾

وقد أمكن تعليل مكان عدم الشعور بالألم باستعمال قوة السيطرة العقلية على الجسم ، بما نراه فى التنويم المغناطيسى حيث لايشعر المنوم بأى ألم تحدثه به أو توجع لما يصاب به أثناء نومه .

وأغرب من هذا ماحدث فى مدينة شيكاجو ، إذ شنق شاب اسمه هارى شيرش وهو نائم، فقد حوكم هذا الشاب من أجل حادثى قتل فظيعتين ثبتت إدانته فيهما وقضى عليه بالاعدام شنقا .

وقد غلب الخوف والفزع ذلك السفاح ، فعمد إلى السيطرة على نفسه ببطء إلى أن غدا لايشعر بشىء مطلقا مما حوله ، ولبث نائما فى سبات عميق عدة أيام قبل تنفيذ الحكم . وأخفقت كافة المحاولات لايقاظه . وحمل يوم التنفيذ غائب الوعى إلى المشنقة حيث شنق وهو فى غيبوبة وعدم شعور تامين . وهذا مما يعزز صدق الأعمال التى يقوم بها فقراء الهنود وغيرهم ، إذ أن السيطرة على الجسم بقوة الارادة ، وتركيز القوى

المعنوية الخفية ضد الشعور بالألم ، كل هذا يزعزع اعتقادنا بأن هناك قوة غير طبيعية ، وخوارق شاذة ليس فى مقدور البشر حل مبهماتها .

(تخونه إرادته)

وقد فحصت لجنة طبية فى بومباى « الهند » فقيرا استطاع أن يوقف النبض فى أحد ذراعيه دون الآخر وعكن من أن يوقف دقات قلبه لمدة ستة ثوان حينما أمر قلبه بذلك . وقد استطاع أيضا أن يوقف حركة التنفس بضع دقائق وبقى بعد ذلك حيا . على أن قوة الارادة التى تمهد لهؤلاء الناس التغلب على هذه الأشياء الخطيرة قد تخونهم فى أحرج المواقف فلا يكون نصيبهم منها أقل من الموت ، كما حدث للفقير « بلاكان » . فقد مارس هذا الرجل لعبة المكوث مدفونا تحت الرمل فى أحد المسارح دون تنفس بضع ساعات ، وأجرى هذه اللعبة عشرات ومئات المرات كان يقوم بعدها دون أن يصاب بشيء . ولكن حدث مرة وهى الأخيرة أن أخرجوه بعد المدة المقررة وقد فارق الحياة . فقد خانت الرجل قوة إرادته فى أرهب موقف وأخطر ساعة .

(الموت والحياة بالارادة)

ومن الممكن أن تتأثر الحياة والموت بالارادة ، ويعزز هذا القول مارواه أخيرا الماجور ميث حكدار بوليس مستعمرة الساحل الذهبى فى أفريقيا ، ذلك أن أحد كبار الوطنيين المتعلمين ، تأثر من مشادة وشجار حدثا بينه وبين أحد مواطنيه فأعمل إرادته فى نفسه ومات فى اليوم التالى ، دون أن يكتشف الأطباء أى سبب لوفاته أوأى أثر لمرض فيه . انتهى .

فقلت له : إنك لن تفعل شيئا . ما هو إلا تكرار لما كتبناه هنا وهو ملخص ما كتبناه فى نفس هذا الموضوع فى [سورة الإسراء] وشرحنا نفس هذا الشرح فى (طهرا بك) المذكور وفى الرجل الألمانى . فقال : حقا أنت قلت نفس هذه المعانى . فقلت . فاحمد الله على العلم والحكمة . اللهم إنا نحمدك على الحكمة والعلم وإنارة أمم الإسلام فى هذا الزمان .

(المبحث الثانى)

(من الفصل الثالث)

(فى سبأ وسيل العرم وعجائب العلم والكشف الحديث)

قد ذكرت لك فى أول السورة أن قوله تعالى « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها » واختصاص ذلك بهذه السورة إيذان بما حدث فى هذا العصر من العلم والحكمة وظهور آثار عربية فى البلاد السبئية فبعله نزلت فى أرض سبأ وخبئت فى أرضها وبعلمه سبحانه استخرجت من أرضها وأظهرت النقوش فى أحجارها . سبحانك ربنا ، قد كنت كتبت الفصل الثانى من تفسير هذه السورة منذ سنين وهو موجز السورة ولم أكن إذ ذاك لأطلع على ما عرفه الأوروبيون عن بلاد سبأ فكان القول إجماليا والعلم استنتاجيا . ثم إن العوائق وقفت فى طريق إتمام التفسير ونشره نحو عشر سنين فاطلعت فى أثنائها على الكشف الحديث المصدق للقرآن العجيب البيان . فلما أن أذن الله بالتفسير الآن أخذت أكتب مارأيته وألخص ما علمته .

علم الله بخزائن الأقدمين من أممنا العربية وطمرها فى الأرض أجيالا وأجيالا فعاملنا معاملة الأيتام مات عائلهم والجهال غاب سائسهم وكنز اليتيم لايسلم له إلا عند بلوغه . لقد مضى على المسلمين زمن كانوا فيه غير راشدين

بعد

بعد الخلفاء الراشدين بأجيال ضميت عليهم آثار آبائهم وناموا فى كهفهم لاثلثمائة سنين وازدادوا تسعا بل ستمائة سنين وازدادوا ثمانية عشر .

نام المسلمون واستيقظ الغربيون وأخذوا يحلون الرموز ويكشفون الكنوز وقرءوا التوراة ، قرءوا فيها آثار اليمن فهاموا بالآثار والمسلمون قرءوها فى سبأ فلم يلقوا لها بالا ، فهم كالغلامين فى المدينة والكنز تحت الحائط ، فأمر الخضر عليه السلام أن يظهر الكنز وهو مال مخزون وعلم منقوش ، هكذا المسلمون اليوم يتامى وقد خزن فى بقاعهم العلم والمال فلم يسلمه الله لهم ، ولكنه اليوم أراد سبحانه أن يسلم إليهم الأمانة فأرسل أولا علماء الفرنجة فجاسوا خلال البلاد اليمنية واطلعوا على الخزائن المخفية والنقوش الحميرية والكتابة المسندية فرجعوا لبلادهم ناشرين ولصور أعمال أجدادنا مظهرين وها هو ذا سبحانه أراد ولا راد لقضاه أن يظهر القرآن بالمظهر العلمى للعالم الإسلامى ويعلم أبناء المسلمين أن كتابنا الكريم يحضنا على بحث أعمال الأقدمين وأن من لم يشكر النعمة بتقبلها وحفظها يسلبها الله منه ، بل أقول فوق ذلك إن ذكر هذا المقال فى التفسير الآن من علامات إقبال الدهر على أمة الإسلام ، سيقرأ هذا الشبان المسلمون والشيوخ الشرقيون فتحدثهم نفوسهم أن يرجعوا مجدهم ويحفظوا كنزهم ويدرسوا ما كمن فى أرضهم ، سيكون ذلك فى مصر وفى سوريا وفى العراق وفى اليمن . وسيتولى الحث على هذا علماء الدين ، كيف لا . ألم تسم السورة باسم سبأ . ألم يذكر الله قصتها هنا ، ثم فبعلم الله وضعت الكنوز ورسمت النقوش ، وبعلم الله أخرجت وستخرج وبالوحى على رسول الله أنزل القرآن وفيه هذا السر المصون ، وبعلم الله جاء أمثال هذا التفسير ، فليبشر المسلمون بإقبال الأيام وظهور الحكمة والعلم فى الإسلام ، فلأشرع فى المقصود فى هذا المقال ولأجعله ثلاثة مقاصد : (الأول) فى الكاشفين لآثار سبأ (الثانى) فى الكلام على مدينة مأرب (الثالث) فى الكلام على سد العرم .

(المقصد الأول : في الكاشفين لآثار سبأ)

قد ذكرت لك فى أول السورة أن أول من خطرله ذلك العالم الألمانى (ميخايلس) وهو عالم بالفلسفة واللاهوت ومات سنة ١٧٩١ م وكان يميل إلى نبذ التقليد ويحب أهل النظر وهو المقترح على ملك الدنمارك إرسال البعثة إلى اليمن سنة ١٧٥٦ ليحقق ما فى التوراة من المسائل المتعلقة بجغرافية الشرق وعادات الشرقيين

يا عجبا : انظر كيف ألهم الله الأمم أن تحفظ التوراة التى هى مجموع حوادث وقصص وكم فيها من خلط ، ولكن الله لايبقى شيئا إلا لحكمة . فانظر كيف كانت التوراة سببا فى حب هذا العالم لكشف آثار اليمن . انظر كيف أحب القوم دينهم ولو دخل قصصه التحريف . ومن حب الدين والمطالعة أحب كشف بلاد آبائنا . فماذا يقول المسلم بعد هذا ؟ المسلم الذى يقرأ سورة سبأ والعربى المسلم ربما كان من نسل سبأ . بل العرب فى مصر والشام والعراق والحجاز وشمال أفريقيا يمتون بالنسب والجوار واللغة إلى سبأ إذ الجميع عرب فهذه الأمم كلها لم تفكر فى آبائها ولا فى بلادها ولا فى آثار دينها . يجيء (ميخايلس) فيقول (لفريدريك الخامس) ملك الدنمارك : [شكل لجنة وابحث عن آثار سبأ] فأجابه الملك وأرسل خمسة علماء رئيسهم عالم اسمه (كارستن نيبوهر) لماذا ؟ لتحقيق ما فى التوراة عن اليمن . فماذا تم لهذه اللجنة ؟ سافرت فى سنة ١٧٦١ إلى الاستانة ومرت بمصر ووصلت اليمن سنة ١٧٦٢ م . فماذا حصل ! ماتوا بالتدريج من المشاق والعطب إلا الرئيس فرجع وألف كتابا ونشر فى أوروبا وقال إنه عثر على (مدينة ظفار) و (حدافة) وفيهما نقوش يجهل اليهود والعرب حلها . ثم سافر (زتسن) الألمانى إلى اليمن سنة ١٨١٠ فعثر فى ظفار

على ثلاثة نقوش وفى (محا) على خمسة وهو فى كل ذلك معرض للموت من عرب اليمن . ثم سافر ضابط انجليزى اسمه (ولستد) سنة ١٨٣٨ م فعثر على نقوش حميرية فى قلعة يقال لها (حصن غراب) ووجد هو ومن معه نقوشا من نفس مدينة مأرب التى كان فيها السد المشهور . ثم ذهب العالم (ارنو) الفرنسى سنة ١٨٤٣ وعاد ومعه (٥٦) نقشا كا تقدم من صنعاء والخريبة ومأرب وحرم بلقيس ، وكان (ارنو) هذا صيدليا لإمام صنعاء فأشار عليه أحد أصحابه أن يحتال للوقوف على آثار مأرب التى يتحدث الناس عنها فى أوروبا والمسلمون لا يعلمون عنها شيئا مع أنهم فى أرضها ، فاحتال بحيلة : وذلك أنه أظهر الفقر والمسكنة للبدو واصطحب مع قافلة فقاسى فى تلك الرحلة العذاب والشدائد من الخوف والتعب ، وذلك أنه مع غناه وثروته الطائلة قد تواضع لهؤلاء ، وهم يجهلون أمره فكانوا يكلفونه ما لا يطيق من الأعمال والمشاق ، ولم يتركوا له فرصة ينسخ فيها النقوش أو يطبعها فكان يفعل ذلك سرا تحت خطر القتل حتى أصيب برمد فعاد إلى صنعاء أعمى فأرسل ما كان نسخه إلى صديقه (فرسنل) قنصل فرنسا بجده الذى أشار عليه بذلك ، وقد نشرت أخبار تلك الرحلة بالمجلة الأسيوية ، وفى بعض الأجزاء خريطة سد مأرب ، وهو أول من تمكن من مشاهدة تلك الآثار وقد حل العلماء نقوش (انو) سنة ١٨٤٥ م .

ثم شكلت [جمعية الآثار السامية] واهتم بذلك ناظر المعارف بباريس فأرسل المستشرق (هاليق) سنة ١٨٦٩ مهتديا بمن قبله فرجع ومعه (٦٨٠) نقشا وهو فى ذلك خائف وجل من العرب ، وكان يتظاهر وهو ينقل النقش بأنه راقد أو بأنه يصلى صلاة الإسلام . كل ذلك خوفا أن يقتله العرب . واطلع (هاليق) على بلاد الجوف مع أن علماء الجغرافيا يجهلونها وأهل صنعاء لا يعرفونها مع قربها منهم . ثم اطلع على بلاد (معين) عاصمة دولة المعينيين ولم يأت ذكرها إلا فى كتب اليونانيين .

ثم سافر العالم الألمانى (ادوفارد غلازر) ونقل ألف نقش من مأرب وغيرها وفى بعضها تاريخ سد مأرب وإصلاحه . ثم سافر إلى اليمن غير هؤلاء علماء فاتوا من فرنسا والنمسا . وبالجملة فان فى متاحف أوروبا الآن عددا كبيرا من آثار اليمن منها ما هو منقوش على البرونز والألواح والأحجار تزيد على ألفين قد نشر منها كثير فى المجلات الألمانية والفرنسية والانجليزية .

هذه صورة ما كشفه الأوروبيون من آثار اليمن ذكرتها ليفطن المسلمون وليقوم فيهم النخوة والحمية وليكونوا أمة عالية الشأن وليغاروا على مجدهم ودينهم . انتهى المقصد الأول .

(المقصد الثانى فى الكلام على مدينة مأرب)

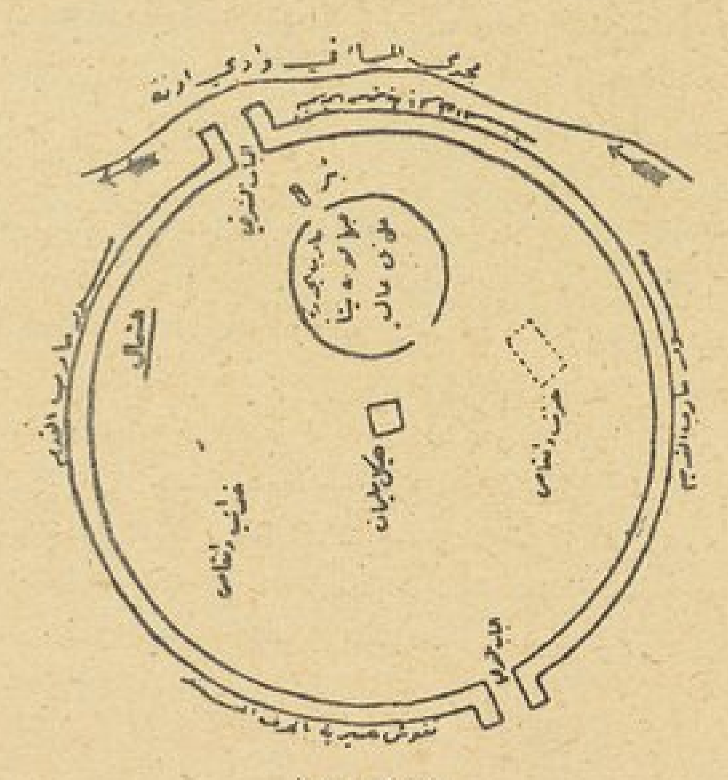
اعلم أن اليعقوبى فى القرن الثالث الهجرى ذكر مخاليف اليمن التى كانت فى عصره . وجاء الهمدانى فى كتابه « وصف جزيرة العرب » ففصل تلك المخاليف وقراها وأوديتها وجبالها وهذا الكتاب أوثق مصادر الكتب العربية وأوفاها ، ولعلك تريد فهم المخاليف فأقول لك :

إن المخلاف وجمعه مخاليف أشبه بما يقال له (مديرية) بالقطر المصرى كالكورة عند قدمائنا أو الرستاق ويحكمه ملك صغير يسمى (قيل) جمعه أقيال . والمخلاف يشتمل على محافد جمع محفد أشبه بالمركز فى بلادنا المصرية ، فكل مخلاف مقسم إلى تلك المحافد والمحفد الواحد عبارة عن قصور والقصر الواحد كالقلعة أو الحصن ويعرف صاحب المحفد بلفظها (ذو) فيقال ذو غمدان وذو معين وهؤلاء الحكام يسمون الأذواء أو الذوين كاللوردات فى أوروبا ، وقد يتغلب رجل منهم فيسمى نفسه ملكا عليهم جميعا ويتوارث الملك بنوه والذى عرف الآن ثلاثة الدولة المعينية والسبئية والحميرية وهى الدول الكبرى . أما الدولة المعينية فلا شأن لنا فيها .

وأما

وأما دولة سبأ فهى الدولة التى نحن بصددها الآن. واعلم أن التاريخ الذى وصل لنا عن تلك الدول غير موثوق به وهو مبتر وغير منظم . وإنما يقال إن قحطان أبو اليمن كلها وقد أتى من جهة بابل وتعلم اللغة العربية من العرب البائدة . ولعل القحطانيين لما جاءوا من بلاد ما بين النهرين وهم لم تدنسهم المدنية والترف اختلطوا بالعرب البائدة وتعلموا منهم على طول القرون والسنين ثم عدوا عربا . وقد ثبت الآن أن أهل سبأ أنشئوا دولة عظيمة وبلغ عدد ملوكها الذين قرءوهم على آثار مأرب ومرواح وغيرهما بضعة وثلاثين ملكا . وقد حقق بعض العلماء أن دولة سبأ تبتدئ سنة ٠٥٨ ق . م وتنتهى سنة ١١٥ ق . م . ثم ظهرت دولة حمير . أما دولة حمير فقد كانت من سنة ١١٥ ق . م . إلى سنة ٥٢٥ ب . م وآخرها ذونواس وحكمها ٦٤ سنة ثم دخل الحبشة .

ودولة سبأ التى كلامنا فيها كانت عاصمتها لما اتسع ملكهم (مأرب) التى كشفت حديثا بعد نقلها من (مرواح) وقد وجد فى نقشها رسم ملك اسمه (يثعمر) وهاك رسم خريطة مدينة مأرب (انظر شكل ٢٩)



(شكل ٢٩)

رسم خريطة مدينة مأرب بعد خرابها

هذه خريطة مدينة مأرب القديمة وتسمى (عاصمة سبأ) وقد عرفت أن لها بابين أحدهما شرقى والثانى غربى . قال الشاعر :

ومأرب قد نطقت بالر　　　خام وفى سقفها الذهب الأحمر

وهناك أشعار كثيرة قيلت فيها أعرضنا عن ذكرها . وهناك على مسافة نصف ساعة من مأرب نحو الشرق الشمالى أنقاض بناء عظيم يقال له (حرم بلقيس) وهو غير قصر بلقيس .

ها أنت ذا رأيت خريطة مدينة مأرب عاصمة سبأ التي ذكرها الله في القرآن ، ثم انظر في كتب التاريخ العربية هل تجد لدولة سبأ ذكرا ؟ هل هناك دولة اسمها سبأ . كلا . انظر كيف يقولون [إن عرب اليمن ينتسبون إلى يعرب بن قحطان] ويعرفون بالعرب المتعربة لأنهم تعربوا أى اقتبسوا اللغة العربية من العرب العاربة وهى البائدة ، ويقولون : إن بنى قحطان لما نزلوا اليمن كان فيها بقية من العرب العاربة والملك والقحطانيون كانوا لايعرفون الملك والترف ثم كثروا وزاحموا العرب العاربة فأبادوهم وأنشئوا الدولة القحطانية على أنقاض البائدة . ويقولون إن أول ملوكهم يعرب بن قحطان غلب على قوم عاد فى اليمن والعمالقة فى الحجاز وولى إخوته على جميع أعماله ، فولى جرهما على الحجاز وعاد بن قحطان على الشحر وحضرموت ابن قحطان على جبال الشحر وعمان بن قحطان على عمان (انظر ابن خلدون) وبعده ابنه يشجب بن يعرب ثم عبد شمس وهو سبأ لأنه كان كثير السبى ، وهو الذى بنى السد المشهور فى أرض مأرب ، وخلف سبأ المذكور أولادا منهم حمير وكهلان ، ولما مات سبأ خلفه ابنه حمير مؤسس دولة حمير ودولة حمير [طبقتان] الملوك والتبابعة ، وملوك حمير آخرهم (الحارث الرائش) وهو أول التبابعة ، ويقول بعضهم إن بين حمير والحارث الرائش (١٥٠) أبا ، وفى القصيدة الحميرية عددهم جميعا (١٦) فقط وجعلها أبو الفداء (١١) وابن خلدون (٨) والمسعودى (٥) .

وأما التبابعة عند مؤرخى العرب قدمائنا فأولهم الحارث الرائش وآخرهم (ذوجدن) وعددهم (٢٦) تبعا حكموا (١٧٠٠) سنة .

وهناك خلط وخبط فى هذه السنين والأعداد كما قاله نفس المؤرخين . ولعلك تقول مالنا ولهذا التحقيق والتدقيق وما لتفسير القرآن وأمثال هذه الجداول . أقول على رسلك : فكر فى أسماء الدول ، رأيت هناك دولة تسمى (دولة سبأ) . كلا . وإنما هى دولة حمير الذى أبوه سبأ ودولة حمير بعد قرون انقلبت إلى التبابعة ، فالمدة كلها تقرب من أربعة آلاف سنة ما بين حميريين وتبابعة ، والتبع هو الملك الذى تبعه ملوك كالأمبراطور الآن ، وليس هناك فى تاريخ أسلافنا دولة سبأ التبعة ، أنظر كيف ذكر القرآن (سبأ) ولم يذكر حمير ؟ خالف القرآن قول المؤرخين ، خالفهم كل المخالفة وجاءنا بدولة (سبأ) إظهارا للحقيقة ، ولقد ظهرت الآن وتبين أن دولة سبأ هى التى أغارت على أمة يقال لها (معين) لم تذكر فى التاريخ وهذه الدولة عمرت طويلا كما رأيت وانتقلت العاصمة من مأرب إلى ريدان وهى ظفار بتغلب الحميريين على الملك . من هنا تبين لك أن القرآن يوافق الكشف الحديث ، وقد كان ذلك مجهولا (١٣) قرنا وظهر الآن فهو من المعجزات للقرآن . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث فى الكلام على سد العرم

قد عرفت مدينة مأرب وأنها كانت عاصمة دولة عظيمة وهى دولة سبأ . ونرى فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال متشعبة من جبل السراة عند مئات الأميال نحو الشرق الشمالى ، وبين هذه الجبال متسع عظيم يتجه إلى واد كبير يقال له (الميزاب الشرقى) فاذا أمطرت السماء على تلك الأقطار انتهت أخيرا إلى وادى (أدنه) وهو يعلو (١٫١٠٠) مترا عن سطح البحر فتسير فيه المياه إلى مكان قبيل مأرب بثلاث ساعات وهو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق : أحدهما الأيمن والآخر الأيسر كما عبر القرآن ، وأخذها عنه المرحوم (جورجى زيدان) والمسافة (٦٠٠) خطوة بينهما ، والسيل يجرى بينهما من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى فى واد هو (وادى أدنه) .

ولما

ولما كان هذا الماء يجرى من الجنوب إلى الشمال بلا فائدة فكر السبئيون فى ذلك فبنوا (سد العرم) فى المضيق بين جبلى (بلق) وبين المضيق والمدينة (٣٠٠) ميل مربع فأصبحت جنات بسبب هذا السد ، وهذا السد طوله من الشرق إلى الغرب ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعا وعرضه (١٥٠) ذراعا .

وثلثه الغربى وهو الأيمن لا يزال باقيا للآن معجزة للقرآن (انظره فى الخريطة) والثلثان الباقيان فاض الماء منهما وعجزوا عن ترميمهما . وترى النقط فى الخريطة لحدبهما . وما مثل العرم إلا كمثل الخزانات التى تصنع اليوم فى مكوار على النيل الأزرق وجبل الأولياء على النيل الأبيض وخزان (أسوان) فيعلو الماء فيسقى الأرض . وإذا ترك ذهب إلى البحر الأبيض المتوسط كما يجرى الماء بين الجبلين هناك ويذهب فى الشمال والرمال بلا فائدة .

هذا ، وقد عثر الباحثون على نقشين : أحدهما على الصدف الأيمن ، وهو [أن يثعمر بين بن سمهعلى ينوف مكرب سبأ خرق جبل بلق وبنى مصرة رحب لتسهيل الرى] والنقش الثانى على الصدف وهو [إن سمهعلى ينوف بن ذمر على مكرب سبأ اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى] فأحدهما ابن الآخر وكانا فى القرن الثامن قبل الميلاد وهكذا يتوالى ملوك سبأ تم بناؤه . ولما أعياهم حفظ السد تفرقوا فى البلاد كما ذكره القرآن .

قال الأصفهانى [إن السد تهدم قبل الاسلام بأربعمائة سنة] وقال ياقوت [إنه هدم فى نحو القرن السادس للميلاد] أى قبيل الاسلام ، ويؤخذ من كلام ابن خلدون أنه تهدم فى القرن الخامس للميلاد ولاطائل فى هذا النقل إلا معرفة ما قاله المؤرخون .

﴿الهمدانى وسد مأرب﴾

إن وصف الهمدانى لسد مأرب مطابق للكشف الحديث وربما كان يقرأ المسند . قد ذكر الآية « لقد كان لسبأ » إلى قوله « ورب غفور » . قال : إن سبأ كثيرة العجائب والجنتان عن يمين السد ويساره وهما اليوم غامرتان أى لازرع فيهما . وإنما عفتا لما اندحق السد فارتفع عن أيدى السيول . وذكر أنه وجد جذع نخلة أسود فقال من معه له إنه بقى من مزارع الجنتين . فأما هو فقال لا أظن ذلك . قال ورأيت مقاسم الماء من مداخر السد فيما بين الضياع قائمة كأنّ صانعها فرغ من عملها بالأمس . ورأيت بناء أحد الصدفين وهو الذى يخرج منه الماء قائما بحاله على أوثق ما يكون ولا يتغير إلا إن شاء الله . قال وقد بقى من العرم شىء مما يلى الجنة اليسرى يكون عرض أسفله (١٥) ذراعا .

وقال تبارك وتعالى « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل » قيل الخمط الأراك ، والأثل الطرفاء ، والسدر المعروف وهو العلب وبها من الأراك مالبس يبلد . ومن الحمام المطوّق فى الأراك ما جلّ عن الصفة . وكان السيل يجمع من أماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن [من عروش وجوانب ردمان وشرعة وذمار وجهران وكومان واسبيل وكثير من مخاليف خولان] والوادى اسمه (أذنة) وفى هذا السد يقول الأعشى :

كفى ذاك للمؤتسى أسوة ومأرب قفى عليها العرم
رخام بناه له حمير إذا جاء ماؤهم لم يرم
فأروى الحروث وأعنابهم على ساعة ماؤهم ينقسم

فعاشوا بذلك فى غبطة فجار بهم جارف منهزم
فطار القيول وقيالها بيهماء فيها سراب يطم

وكان العرم مسندا إلى حائط مابين عضاد بالمذخر بمعاذيب من الصخر عظام ملحمة ملس الأساس بالقطر . انتهى كلام الهمدانى .

وظل الناس مع ذلك فى شك من أمر هذا السد حتى تمكن المستشرق الفرنساوى أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له خريطة نشرت فى المجلة الأسيوية الفرنساوية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفى وغلازر ووافقاه فى قوله وصادق على وصفه وهو يطابق ماقاله الهمدانى من أكثر الوجوه، وعثروا فى أثناء ذلك على نقوش كتابية فى خرائب السد وغيره تحققوا بها خبره وأكثرهم اشتغالا فى هذا السبيل غلازر ، وبين الأساطير التى وقف عليها اثنتان جاء فيهما خبر ترميم السد فى زمن الأحباش بالقرن السادس للميلاد فيدل ذلك على أنه ظل قائما إلى قرب ظهور الإسلام . ولعل السبب فى نسبة بنائه وتهدمه إلى عصور مختلفة وأشخاص مختلفين كثرة تصدعه وترميمه فكانوا يعدون كل تصدع تهدما وكل ترميم بناء .

وبعد ماقدمناه من أقوال المؤرخين والنقابين بشأنه يحسن بنا الاتيان على أصل وضعه وما هو عليه الآن ويوضح ذلك (شكل ٣٠ و شكل ٣١) الآتيان فى صحيفة ١٨١ .

﴿ أصل وضع سد مأرب ﴾

فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال هى شعاب من جبل السراة الشهير تمتد مئات من الأميال نحو الشرق الشمالى . وبين هذه الجبال أودية تصب فى واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى وهو أعظم أودية الشرق تمييزا له عن ميزاب مور أعظم أودية الغرب المتشعبة من جبل السراة المذكور . وشعاب الميزاب الشرقى كثيرة تتجه فى مصابها ومنحدراتها نحو الشرق الشمالى . وأشهر جبالها ومواضعها فى ناحية رداع العرش وردمان وقرن والجبال المشرفة على سويق وفى ناحية ذمار بلد عنس جميعا وهو مخلاف واسع وبه بينون وهكر وفيها المحافد العنسية وبلد كومان وبلد الحدا وجبل أسبيل ورحمة وجبال بنى وابش من مراد وغيرها ومخلاف ذى جرة وجهران وهران ومساقط بلد خولان من جنوبية وما تيامن من القحف[1]

فشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى أذنة وهو يعلو نحو (١١٠٠) متر عن سطح البحر فتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق عبرنا عن أحدهما بالأيمن وعن الآخر بالأيسر والمسافة بينهما ستمائة خطوة (أو ذراع) ويسميهما الهمدانى مأزمى مأرب يجرى السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى فى واد هو وادى أذنة .

واليمن مثل سائر بلاد العرب ليس فيها أنهر وإنما يستقى أهلها من السيول التى تجتمع من مياه المطر . فاذا أمطرت السماء فاضت السيول وزادت مياهها عن حاجة الناس فيذهب معظمها ضياعا فى الرمال . فاذا انقضى فصل المطر ظمىء القوم وجفت أغراسهم فكانوا إما فى غريق أو فى حريق قلما ينتفعون حتى فى أيام السيل من استثمار البقاع العالية على منحدرات الجبال . وقد يفيض السيل حتى يسطو على المدن والقرى فينالهم من أذاه أكثر مماينالون من نفعه . فساقتهم الحاجة إلى استنباط الحيلة فى اختزان الماء ورفعه إلى سفوح الجبال

(١) الهمدانى ٨٠

وتوزيعه

وتوزيعه على قدر الحاجة . فاختار السبئيون المضيق بين جبلى بلق وبنوا فى عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو سد العرم الذى نحن فى صدده لرى ماتجاور مدينتهم (مأرب) من السهول أو سفوح الجبال .

والجبلان المذكوران بعد أن يتقاربا عند بلق ينفرجان ويتسع الوادى بينهما . وعلى ثلاث ساعات منهما نحو الشمال الشرقى مدينة (مأرب أو سبأ) فى الجانب الغربى أو الأيسر من وادى أذنة . فاذا جرى السيل حاذى بابها الشرقى (راجع الخريطة شكل ٣١) وبين المضيق والمدينة متسع من الأرض تبلغ مساحة مايحيط به من سفوح الجبال نحو ٣٠٠ ميل مربع [1] كانت جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسد غياضا وبساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين بالشمال واليمين أو بالجنة اليمنى والجنة اليسرى .

﴿ رسمه وكيف يتصرف الماء منه ﴾

والسد المشار إليه عبارة عن حائط ضخم أقاموه فى عرض الوادى على نحو ١٥٠ ذراعا (أوخطوة) نحو الشمال الشرقى من المضيق وسموه [العرم] وهو سد أصم طوله من الشرق إلى الغرب نحو ثمانمائة ذراع وعلوه بضعة عشر ذراعا وعرضه ١٥٠ ذراعا . لايزال نحو ثلثه الغربى أو الأيمن باقيا إلى الآن كما ترى فى الخريطة شكل ٣١ (ج د ف هـ) وأما الثلثان الباقيان فهما اللذان تفجرا وفاض الماء منهما وعجزت الدولة عن ترميمهما وجرفت السيول أنقاضهما . وقد نقلنا خريطتهما بالخارطة ليظهر امتداد السد على طوله كما كان فى أصله بعرض الوادى ويظهر مما شاهدوه فى جزئه الباقى أنه مبنى بالتراب والحجارة ينتهى أعلاه بسطحين مائلين على زاوية منفرجة تكسوهما طبقة من الحصى كالرصيف يمنع انجراف التراب عند تدفق المياه ولو قطعت ذلك الحائط أو السور قطعا عرضيا لكان شكل مقطوعه على هذه الصورة .



فالعرم يقف فى طريق السيل كالجبل المستعرض ويصده عن المجرى فتجتمع مياهه وترتفع مثل ارتفاعها فى خزان أسوان بأعالى النيل . وينتهى العرم فى طرفيه بمصارف للماء يختلف شكلها وأسلوبها عن مصارف خزان أسوان . وذلك أن الذين هندسوه جعلوا طرفيه عند الجبلين أبنية من حجارة ضخمة متينة فيها منافذ ينصرف منها الماء إلى إحدى الجنتين اليمنى أو اليسرى .

فأنشأوا عند قاعدة الجبل الأيمن (الشرقى الجنوبى) وهو جبل بلق الأيمن بناءين بشكل المخروط المقطوع (١ و ٢) علو كل منهما بضعة عشر ذراعا سموهما الصدفين أحدهما (١) قائم على الجبل نفسه والآخر (٢) إلى يساره وبينهما فرجة عرضها خمس أقدام . وقاعدة الأيمن منهما تعلو قاعدة الأيسر ثلاث أقدام (انظر رسمهما فى طرف الخريطة إلى اليسار) والأيسر مبنى من حجارة منحوتة يمتد منه نحو الشمال والشرق جدار طوله ٤٠ ذراعا ينتهى فى العرم نفسه ويندغم فيه ، وعلو الجدار المذكور مثل علو الصدف ومثل علو العرم .

---

(١) هذا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام نقلا عما رمز له بحروف (أم) صفحة ١٢٧ .

وفى جانب كل من الصدفين المذكورين عند وجهيهما المتقابلين ميزاب يقابل ميزابا فى الصدف الآخر . والميزابان مدرجان أى فى قاع كل منهما درجات من حجارة كالسلم الدرجة فوق الأخرى . ونظرا لشكل الصدفين المخروطى ولما يقتضيه شكل الميزاب السفلى أصبحت المسافة بينهما عند القاعدة أقصر منها عند القمة وقد مثلنا الميزاب فى الخارطة بشكل (ع غ) كأنك تنظر اليه بجانب الصدف .

ويظهر من وضع المخروطين أو الصدفين على هذه الصورة أن أصحاب ذلك السد كانوا يستخدمون المسافة بينهما مصرفا يسيل منه إلى سفح جبل بلق الأيمن فيسقى الجنة اليمنى . وإنهم كانوا يقفلون المصرف بعوارض ضخمة من الخشب أو الحديد تنزل فى الميزابين عرضا كل عارضة فى درجة فتكون العارضة السفلى أقصرها جميعا فوقها عارضة أطول منها فأطول إلى العليا وهى أطولها جميعا . والظاهر أن تلك العوارض كانت مصنوعة على شكل تتراكب فيه أو تتداخل حتى يتألف منها باب متين يسد المصرف سدا محكما يمنع الماء من الانصراف إلا عند الحاجة . فاذا بلغ الماء فى علوه إلى قمة الصدفين رفعوا العارضة العليا فيجرى الماء على ذلك العلو إلى سفح الجبل فى أقنية معدة لذلك وتمر أو أحواض لخزن الماء أو توزيعها فى سفح ذلك الجبل ، فلا يزال الماء ينصرف حتى يهبط سطحه إلى مساواة العارضة الثانية فيقف فمتى أرادوا ريا آخر نزعوا عارضة أخرى . وهكذا بالتدريج وعلى قدر الحاجة .

وفى الطرف الأيسر من العرم وهو الغربى الذى ينتهى بالجنة اليسرى بناء كالحائط (س ط م) دعوناه السد الأيسر عرضه عند قاعدته ١٥ ذراعا وطوله نحو ٢٠٠ ذراع وبجانبه من اليمين مخروطان أو صدفان أيمنان (٣ و ٤) أحدهما (٣) متصل بالعرم نفسه والآخر (٤) بينه وبين السد الأيسر فيتكون من ذلك مصرفان (٦ و ٧) مثل المصرف الأيمن لكل منهما ميزابان مدرجان متقابلان تنزل فيهما العوارض وتنزع حسب الحاجة لصرف الماء إلى الجنة اليسرى . وينتهى العرم من حده الغربى بحائط منحنى الشكل (د ف) مبنى بحجارة منحوتة صلبة لعله الذى يسميه الهمدانى (العضاد) .

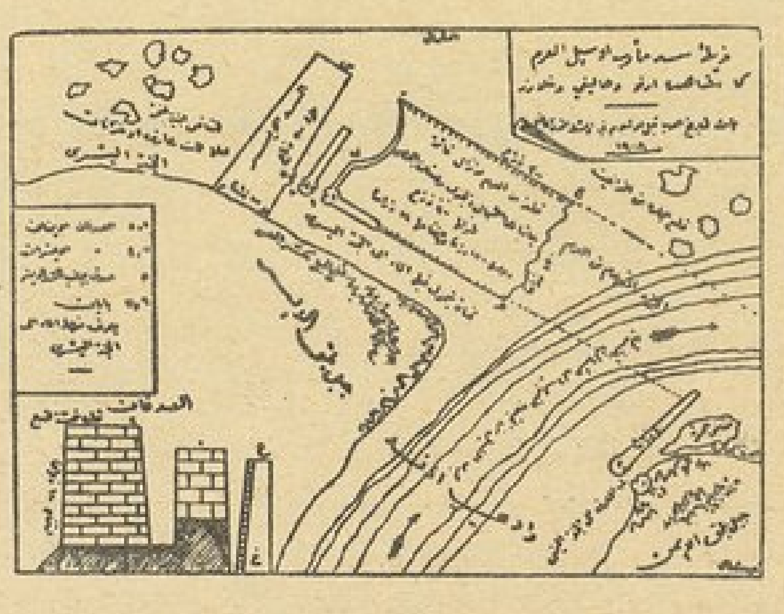
فكان السيل إذا جرى فى وادى أذنة حتى تجاوز المضيق بين جبلى بلق صده العرم عن الجرى فيتعالى ويتحول جانب منه نحو اليسار إلى السد الأيسر . فاذا أرادوا رى الجنة اليمنى رفعوا من العوارض بين الصدفين الأيمنين على قدر الحاجة ، وإذا أرادوا رى الجنة اليسرى صرفوا الماء من المصرفين (٧ و ٨) بنفس الطريقة فيجرى الماء فى أقنية وأحواض فى سفح الجبل الأيسر حتى يأتى مأرب لأنها واقعة إلى اليسار كما تقدم .

وسترى فى (صحيفة ١٨١) وهى الصفحة التالية رسم (خريطة بلاد العرب) فى أيام دول اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده ، وسترى أيضا فى الصحيفة المذكورة رسم خريطة سد مأرب أو سيل العرم (انظر شكل ٣٠) و (شكل ٣١) .



(شكل ٣٠)

(رسم خريطة بلاد العرب في أيام دول اليمن من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى السادس بعده)



(شكل ٣١)

ها أنت ذا أيها الذكي اطلعت على سد مأرب وهو سد العرم وعرفت مدينة مأرب وعرفت أن دولة سبأ لم تكن معروفة في تاريخ أسلافنا، فانظر كيف جاء الكشف الحديث كما في القرآن ، وانظر في كتب التفسير التي وصلت إلينا كالزمخشري والرازي والبيضاوي وأمثالها التي ألفها الفحول من العلماء ، كيف مروا عليها رحمهم الله ولم يذكروا غير تفسير يرجع أكثره إلى لفظ القرآن .

أفلا ترى أننا جئنا في عصر تسميه بحق عصر القرآن ، هذا العصر الذي يظهر فيه بأجلى بيان هذا السد كما رأيت . فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله . وانظر كيف يقول علماء التاريخ إن اليونان لم يعرفوا اسم حمير قبل السنة العشرين قبل الميلاد ولم يكونوا يعرفون إلا سبأ لشهرتهم . وانظر كيف كان أسلافنا لايعرفون إلا الحميريين والتبابعة وجاء القرآن بما هو حق في التاريخ .

عجائب القرآن في العصر العشرين

يقص الله علينا قصص طوفان نوح . ويقص علينا قصص سد العرم . ويقول إن سبأ أعرضوا وتارة يقول كفروا . فماذا جازاهم ؟ جازاهم بخراب الديار . لماذا هذا الجزاء ؟ لتفريطهم في السد .

سبحانك اللهم أنت الرب المحمود ، فماذا هذا في دين الإسلام ؟ هذا هو المسمى فرض كفاية وما هو فرض الكفاية ؟ هو أن يقوم في الأمة أناس لكل عمل من أعمال الحياة فيحسنونه وإلا عوقب الجميع . ويقول إمام الحرمين [فرض الكفاية أفضل من فرض العين] وأي منفعة للأمم أكثر من الماء والأنهار .

فانظر ماذا كتبت بعض مجلات مصر لما طغى النيل سنة طبع هذه السورة ؟ إذ ذكرت أن نهر المسيسبي كاد يهلك الأمة فاجتمعوا لدرء خطره . أليس هذا هو الذي أنذره نوح قومه . وهذا هو الذي أهلك سبأ ، إذن القرآن يجعل إهمال أعمال الدولة تارة كفرا وتارة إعراضا ويجازي بالهلاك . والمراد بالكفر كفر النعمة وجزاؤه في الدنيا الهلاك وفي الآخرة العذاب . إذن في القرآن أسرار تظهر اليوم بالعلم ، فانظر المقال التالي وهاك نصه :

عبرة لمصر والمصريين

(كارثة فيضان نهر المسيسبي ـ بمناسبة ارتفاع مياه النيل في نحو سنة ١٩٢٩)

مضت أسابيع والأنباء تترى بارتفاع مياه النيل ارتفاعا لم تألفه مصر من قبل وقد بات يهدد المدائن والقرى والأرواح والأملاك . ولقد اتخذت الحكومة لهذا الأمر الخطير أهبته بقدر ماتستطيع حكومة أن تفعل وإنا لنسر إذ نراها تعمد إلى بعث قانون (العونة) لحراسة الجسور وإلى إنشاء خط دفاع ثان يقي البلاد غوائل الفيضان ، ولكنا إلى جانب ذلك نحزن إذ نرى الأهالي يتبرمون بهذين الاحتياطين ويرون في الأول تسخيرا للناس فيما لايليق بكرامتهم أن يسخروا فيه ويرون في الثاني تبديدا لأموال طائلة في سبيل اتقاء خطر مزعوم ولاشك أن أولئك المتبرمين لايدركون ماقد يصيبهم من الرزايا في أموالهم وأرواحهم لوفاض النيل وتقطعت جسوره وتدفقت مياهه تغمر الأرض وتكتسح الزرع والضرع ولاتبقي ولاتذر ، ويجهلون أن جسور النيل الرخوة قد تكون أوهى جسور الأنهر الكبيرة في العالم وأن أراضي مصر سهل إذا جرى فيه الفيض لايجد جبلا يصده أو تلا يحمي وراءه قرية أو مدينة . والواقع أنه أصبح من أوجب الأمور على الحكومة أن تنظم من الآن طرق وقاية البلاد بتدعيم الجسور تدعيما يضمن دفع ذلك الخطر كما أصبح من أوجب الأمور على سكان وادي النيل أن يلبوا دعوة الحكومة متى دعتهم ليعاونوها بكافة مايستطيعون لتقوية الشاطئين . ولكي يدرك الناس

أهمية ماندعو الحكومة وندعوهم إليه نصف لهم كيف حلت بالولايات المتحدة الأمريكية منذ عامين تلك الكارثة الهائلة التى ترتبت على فيضان نهر المسيسبى حتى إذا ماأدركوا مدى الأخطار التى تنجم من إهمال الجسور هرعوا إلى القيام بما تمليه عليهم تلك الأخطار من الاحتياطات .

نهر المسيسبى أكبر أنهار الدنيا طولا وعرضا . يبلغ طوله خمسة آلاف كيلو متر . ويبلغ عرضه من ألف إلى ألف وخمسمائة متر ولكنه يتسع فى بعض الأماكن حتى يبلغ خمسة وثلاثين كيلو مترا . وتسير مياهه سيرا وئيدا من الشمال إلى الجنوب فتشطر الولايات المتحدة شطرين متساويين وتقطع الموجة السائلة بين المنبع والمصب فى ستة أسابيع وتتجمع هذه الكميات الهائلة من المياه عند المصب الضيق الذى لايتجاوز عرضه سبعمائة وخمسين مترا ثم تنصب فى خليج المكسيك بمعدل ثمانين ألف متر مكعب فى الثانية الواحدة . أما الخطر الذى يهدد الولايات المتحدة كل عام فناشىء عن غزارة مياه النهر واتساع مساحة حوضه مع ضيق مصبه ضيقا يجعل تلك الكميات العظيمة من الماء تتجمع بوفرة مخيفة عند هذا المصب فتصب ماوراءها فترتفع المياه وتفيض على الجانبين أحيانا وأحيانا لاتقوى الجسور على تحمل ضغطها فتتقطع وعندئذ تتدفق المياه بقوة تجرف كل ماتصادفه فى طريقها . ولقد حدث فى عام ١٩١٣ أن فاض المسيسبى فبلغت الخسائر فى (مقاطعة الاوهيو) وحدها أربعة وعشرين مليونا من الجنيهات وهلك من الأنفس البشرية خمسمائة ، وهذه الكارثة مع فداحتها لاتعد شيئا يذكر إذا قيست إلى الكارثة التى حلت بأمريكا عام ١٩٢٧ م والتى نحن بصددها فى هذا المقال :

لاحظ السكان فى ربيع سنة ١٩٢٧ م أن الأمطار تهطل بغزارة لم يروا مثلها من قبل وأن الثلوج تنهار من أعالى الجبال وتذوب بسرعة غير مألوفة ثم تهوى إلى نهر المسيسبى فتزيد مياهه ارتفاعا ، ولاحظوا أيضا أن فروع النهر قد علت مياهها بنسبة لم يعهدوا لها مثيلا ولكنهم ظلوا رغم هذه العلامات الخطرة آمنين مطمئنين معتمدين على متانة الجسور وقوتها . والحقيقة أن جسور المسيسبى من أضخم وأقوى المشروعات التى حققتها يد الانسان فى العصور الحديثة . فهى تمتد على طول النهر وترتفع إلى عشرة أمتار فوق سطح الماء فى الأوقات العادية وتتسع حتى يبلغ عرضها خمسين مترا . ويسهر على رعايتها ومراقبتها بضعة آلاف من العمال . وقد نصبت بين كل مسافة وأخرى آلات التلغراف والتليفون وأقيمت محطة رئيسية تتصل بجميع المحطات الأخرى فى وقت واحد لتنبهها إلى الخطر فى الوقت المناسب ، ولا يمر أسبوع إلا ويطوف المهندسون يرتادون الجسور لفحصها . وقد خصصت الحكومة عدة ملايين من الجنيهات تقتطعها كل عام من ميزانيتها لحساب تلك الجسور

ظل السكان آمنين مدة أربعة وعشرين عاما حتى كانت سنة ١٩٢٧ فخاب اعتمادهم على قوة منشآتهم وأيقنوا أن قوة الطبيعة أكبر من أن تغالبها قوة الإنسان ، ففى السادس عشر من شهر إبريل نقل البرق إلى واشنطون أن النهر قد خرج من مجراه فظن أولوا الأمر أن الخطب يسير وأملوا أن يتداركوه ، ولكن الفيضان كان يزداد من ساعة إلى أخرى حتى أضحت الوسائل المقامة لصيانة الجسور عديمة الجدوى لاتفيد ، وتحول الفيضان إلى كارثة لم يسمع بمثلها بنو الانسان ، لم يمض يومان حتى غمرت المياه سبع ولايات وحتى باتت مساحات كبيرة من الميسوري والاركنساس وكنتوكى وتنيسى ولويزيانا وتكساس تحت الماء ، ثم انحدرت مياه النهر على الأراضى الزراعية فغطتها وكونت فوقها طبقة مائية ذات ارتفاع يبلغ ثمانية أمتار ، وقد انجلى السكان عن ثلاثين مدينة وتركوا مئات من القرى نهبا للماء الذى ظل يرتفع ويغذى فروع النهر حتى انهارت جسورها هى الأخرى وعند ذلك جلّ الخطب وعظم المصاب (انظر شكل ٣٢) و (شكل ٣٣ فى الصفحة التالية) .



(شكل ٣٢ ـ مياه نهر المسيسبي ترتفع على الجانبين بالقرب من [نيو أورليانز] وقد ارتفعت على المنازل وأغرقت القرى)



(شكل ٣٣ ـ نسف أحد جوانب المسيسبي حتى تتدفق المياه من الفتحة التي يحدثها النسف إلى سهل مجاور للنهر فيخف الضغط عن [نيو أورليانز] وتنجو من الغرق)

وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تتعاون في التخريب والتدمير فقامت زوابع وهبت عواصف قطعت أسلاك التليفون والتلغراف وعطلت وسائل المواصلات بين الولايات المنكوبة وجاراتها فقضت على كل محاولة للانقاذ، أفرغت الحكومة قصارى جهدها لحصر الكارثة وتخفيف آثارها فسيرت القطارات السريعة تحمل

فيالق كاملة من الجيش تحفظ النظام بين المنكوبين وتعاون السكان والعمال فيما يحتاجون إلى المعاونة فيه . وسيرت أسراب الطيارات تحمل الأطباء والعقاقير والمؤن لإسعاف الضحايا والمصابين . ولكن الحالة تفاقمت باطراد ارتفاع الماء حتى أبلغ المهندسون حكومتهم [أنها إذا لم تبذل أكبر الجهود وأضخم النفقات لتحاصر الفيضان فستبلغ الخسائر فى الأرواح والأموال مبلغاً لا تحصيه الأرقام] .

وقد كان ما خاف المهندسون أن يكون وبلغ الفيضان أشده وتدفقت سيول النهر تكتسح فى طريقها المدائن والقرى والكبارى والعمائر والجسور حتى بات أكثر من مائتى ألف نفس من سكان مناطق المسيسبى بلا مأوى ولا مأكل وطفت الجثث البشرية تغطى سطح الماء .

رأت الحكومة الأمريكية نفسها عندئذ عاجزة عن مقاومة هذه الكارثة إذا هى اقتصرت على ما لديها من الوسائل فأصدر الرئيس (كوليدج) نداء ناشد فيه الشعب الأمريكى أن يهب بأسره ليشترك فى عملية الانقاذ فتقاطر المهندسون والبناءون والعمال والأطباء والممرضون من كل صوب وأقبلوا جميعاً يلبون نداء الحكومة ويسعفون إخوانهم المنكوبين وأشرف رئيس الجمهورية ووزراؤها على إجراءات المقاومة والاعانة وظن الناس أن هذا الجهد العظيم لامحالة منتج خير النتائج ، ولكن ما الذى تستطيعه حيل الانسان إذا تألبت عليه عناصر الطبيعة العمياء ؟

أخذت الأمطار تهطل طوفاناً فى المناطق الشمالية فتزيد مياه النهر ارتفاعاً ، والريح الصرصر العاتية تهب بعنف فتعدم كل وسائل المواصلات بين المناطق المنكوبة وسائر بلاد الدولة ، فاشتدت وطأة الفيضان على الأرض ، واشتدت أيضاً وطأة المجاعة على الناس وارتدت أسراب الطيارات على أعقابها بما حملت من أقوات وملابس وعقاقير وهى لا تقوى على مقاومة العواصف والأعاصير الهوجاء ، وهكذا بقيت مئات الألوف من الناس لا يجدون كهفاً يلجئون إليه ولا لقمة يتبلغون بها ، وكأنما أبت عناصر الطبيعة إلا أن تمعن فى التنكيل بهم فأرسلت عليهم موجة من البرد أودت بحياة الكثيرين . ولقد كان السكان يفرّون أمام الماء ، والماء يتعقبهم حتى التجأ ستة آلاف شخص إلى لسان من الأرض ظنوه يعصمهم من الطوفان الذى يطلبهم ولكن سرعان ما أحاط بهم الماء ، وكاد يبتلعهم لولا أن تداركتهم همة الحكومة بفيلقين من الجيش أنقذاهم من بين براثن الموت . ولكى يدرك القارئ ضخامة الوسائل التى عمد إليها الشعب لمعاونة الحكومة نقول : إن جمعية الصليب الأحمر وحدها استخدمت أربعين ألف سيارة وخمسين ألف سفينة ما بين تجارية وذات شراع ، وإن الأهالى قدموا للحكومة كل ما يملكون من سيارات وعربات وخيول وزوارق وسفن حتى أصحاب اليخوت الجميلة لم يضنوا بها ووضعوها تحت تصرف المنقذين ، ولقد كان المنقذون يخاطرون بأرواحهم كما زجوا بأنفسهم فى المناطق المغمورة بالمياه حتى إن سفينة كبيرة غرقت بربانها وبحارتها وهى تحاول إنزال كمية من الأسمنت لمحاصرة الفيضان . وإلى هنا قدرت الخسائر المادية بمائتى مليون من الجنيهات ، ولو وقف الخطب عند هذا الحد لهان ، ولكن ما وافى اليوم السابع والعشرون من شهر إبريل حتى بدأ الفيضان يهدد المدن الكبرى فانتقل رئيس الجمهورية ووزراؤه إلى مكان الفاجعة وهناك ألفوا مدينة أركنساس غارقة لايبدو منها غير سطوح المنازل والقباب وألفوا المياه تنذر مدينة (نيو أورليانس) بنفس هذا المصير ، عندئذ استولى الذعر على النفوس ووجدت الحكومة نفسها بين [أمرين] إما أن تترك المدينة العظيمة فريسة لطغيان النهر ، وإما أن تحول جريان السيل إلى الأراضى الزراعية فتضحى بثروة لا تحصى ومحاصيل إذا ضاعت آذنت البلاد بنقص فى الأقوات لا يقدر ، وكان الفيضان يقترب والآزفة تأزف ، وقد عجز مائة وخمسون ألف عامل عن تحويل مجرى الماء ، ورأت المنازل تتهدم مئات مئات ، وارتفع الماء فوق سطح الأرض خمسة أمتار ، ورفرف الموت

بجناحيه على (نيو أورليانس) الزاهرة الغنية بما تحويه من الثروات وكنوز الفنون ، عندئذ لم تتردد الحكومة في اختيار أخف المصيبتين فأصدرت الأوامر بنسف الجسور بالديناميت حتى تتدفق منها المياه إلى المزارع والحقول ولكن الحكومة إذ أصدرت تلك الأوامر لم تفكر فيما ستلقاه من مقاومة أصحاب هذه المزارع والحقول . فلما اتصل بالزارعين والملاك نبأ اعتزام الحكومة نسف الجسور في سبيل المحافظة على مدينة لا زرع لهم فيها ولا ضرع حتى هبوا اصفوفاً مسلحة ينذرون حكومتهم بالحرب إذا هي لم تعدل عن عزمها الخطير . ولكن الحكومة بادرت فاتخذت لهذا الطارئ الجديد عدته فأرسلت الجنرال (باركر) على رأس جيش كبير . وأعلنت الأحكام العرفية ونصبت قائد جيشها حاكماً بأمره يحكم بما يقتضيه الموقف من الحزم والصرامة وصرحت أنها ستحل النظام محل الفوضى مهما كلفها الأمر وأمهلت الثوار نصف يوم ليلقوا السلاح . ولكن ذهبت كل هذه الاجراءات سدى وهب المزارعون يدافعون عن أموالهم فنشبت بين الفريقين معارك حامية استعمل فيها الفلاحون القنابل والتراليوزات وانتهى الأمر بانتصار جيش الحكومة ونسفت الجسور في ثمانية وأربعين مكاناً وعلى طول بضعة كيلو مترات وقد استخدم في هذه العملية وحدها عشرة آلاف من العمال . وهكذا استطاع أولو الأمر أن ينقذوا مدينة (نيو أورليانس) بتضحية مائة وخمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع من الأرض ملأى بالمحاصيل والخيرات وبحرمان خمسمائة ألف من الأقوات والأرزاق وبمحو عشرات من المدن ومئات من القرى من فوق سطح المعمورة وبتحويل هذه المساحات الشاسعة العامرة الآهلة إلى بحر ما كان نوح ليجرأ أن يجرى عليه بسفينته ، وها قد مرت على الفاجعة سنتان وقد أقلعت السماء وبلعت الأرض ماءها وعاد الناس يستوون على هذه الأرض التي كانت بالأمس غمراً فغدت قفراً يحاولون أن يصلحوا ما أفسد الدهر ولكن كم يمضى من السنين حتى تسترد هذه الخرائب عزها البائد وزهوها الزائل وكم تنفق أمريكا من المال لتحيي بيد الانسان ما أودت به عناصر الطبيعة العمياء .
انتهى ماجاء في المجلة المذكورة والله أعلم .

***

فلما اطلع على ذلك صاحبي الذي اعتاد أن يسألني في هذا التفسير . قال لقد جعلت طوفان أمريكا كطوفان سد العرم ، وأبنت أن أهل أمريكا قوم ذوو جد ونشاط وأن الحكومة قوية ومتينة وأن حكومة سبأ كانت ضعيفة جاهلة فتهدم سدها . وإني والله لفي عجب أن تكون الحكومات الاسلامية في بلاد اليمن وغير اليمن لم تفكر كما فكر أهل سبأ فضلا عن أن تكون كأهل أمريكا . فهل لك أن تفيض القول في أمر سد العرم فتبين لي [أمرين : الأول] هل هناك أسداد غير سد العرم ببلاد اليمن [الثاني] من هذا الذي بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم ؟ .

إذا ذكرت لي ذلك فانك تكون خدمت أمم العرب المسلمين إذ يعلمون أن الكافرين قبلهم كانوا أعمر لبلاد الله منهم فيفكرون إذن ويجتهدون في ذلك . فقلت : أما الأسداد فاسمع ماقاله مؤلف كتاب « تاريخ العرب قبل الاسلام » وهاك .

﴿ الأسداد ﴾

ومن أدلة العمارة في (بلاد اليمن) الأسداد وهي جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاوديه لحجز السيول ورفع المياه لرى الأراضي المرتفعة كما يفعل أهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، وإنما عمد العرب إلى بناء الأسداد لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في إحياء زراعتها ، فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء إلا حجزوا سيله بسد ، فتكاثرت الأسداد بتكاثر الأودية حتى تجاوزت المئات ، وذكر الهمداني في محصب العلو

من

من مخاليف اليمن وحده ثمانين سدا وإلى ذلك أشار شاعرهم بقوله :

وبالبقعة الخضراء من أرض يحصب ثمانون سدا تقذف الماء سائلا

وكانوا يسمون كل سد باسم خاص به أو بالإضافة إلى بلده ، فمن كبار هذه الأسداد قصعان وربوان وهو سد قتاب وشحران وطمحان وسد عباد وسد لحج وهو سد (عرايس) وسد سحر وسد ذى شهال وسد ذى رعين وسد نقاطة عند قرية ذى ربيع وسد نضار وهران وسد الشعبانى وسد المليكى وسد النواسى وسد المهاد وباقيها لطاف .

وأشهر أسداد اليمن (العرم) وهو سد مأرب الشهير الذى تقدم الكلام عليه ، وسد الخانق بصعدة بناه نوال بن عتيك مولى سيف بن ذى يزن فى القرن السادس للميلاد ومظهره فى الحنفرين من رحبان . وقد خرّبه إبراهيم بن موسى العلوى بعد هدم صعدة ، وسد ريعان لابن ذى مأذن وسد سيان . وأسداد بلاد عنس منها سد خيرة وسد بيت كلاب فى ظاهر همدان وآخر فى ظاهر دعان وسد شبام قرب صنعاء على ثمانية فراسخ منها ، ولم يقتصر بناء العرب للأسداد على مابنوه فى جزيرة العرب . ففى مكران وبلوتشستان فى عدوة خليج فارس الشرقية آثار أسداد كثيرة لايعرف عنها أهل تلك الناحية شيئا فلعل بعض العرب نزحوا إلى تلك البقاع قديما وابتنوا فيها تلك الأسداد .

وأما الذى بنى سد العرم بطريق أوضح مما تقدم فاسمع ما جاء فى الكتاب المذكور وهاك نصه : وقد عثر النقابون فى أنقاض سد مأرب على نقوش كتابية بالحرف المسند استدلوا منها على بانيه أهمها نقشان أحدهما على الصدف الأيمن اللاصق للجنة اليمنى تفسيره « إن يثمر بيين بن سمهلى ينوف مكرب سبا خرق جبل بلق وبنى مصرف رحب لتسهيل الرى » والآخر على الصدف الآخر تفسيره « ان سمهلى ينوف بن ذمر على مكرب سبا اخترق بلق وبنى رحب لتسهيل الرى » وسمهلى هذا هو والد يثمر المذكور وكل منهما بنى صدفا أو حائطا وكلاهما من أهل القرن الثامن قبل الميلاد . فهما مؤسساه ولم يتمكنا من إتمامه فأتمه خلفاؤهما وبنى كل منهم جزءا نقش اسمه عليه . فعلى المخروط أو الصدف فى اليسار نقش قرءوا منه « كرب أيل بيين بن يثمر مكرب سبأ بنى » وعلى جزء آخر من السد اسم « ذمر على ذرح ملك سبأ » وفى محل آخر اسم « يدع ايل وتار » وعلى السد الأيسر مما يلى الجنة اليسرى عدة نقوش بمثل هذا المعنى مما يدل على أن هذا السد لم يستأثر ببنائه ملك واحد تلك هى العادة فى تشييد الأبنية الكبيرة بكل زمان .

أما تهدمه ، فالعرب يقولون إنه حدث فجأة فتفرقت قبائل الأزد وغيرها فى جزيرة العرب بسبب ذلك . ويؤخذ من مجمل أقوالهم أن ذلك وقع حوالى تاريخ الميلاد أى نحو ظهور دولة حمير (ملوك سبأ وريدان) وانتقال عاصمة السبائيين إلى ظفار . فالظاهر أن السد تصدع حينئذ للمرة الأولى فرمموه وظلوا خائفين منه فتحولت عنايتهم إلى تعمير ظفار وقل تمسكهم بالبقاء فى مأرب فصاروا ينزحون بطونا وأفخاذا لأسباب مختلفة ومنها القحط وغيره ، وأخذت مأرب بالتقهقر وكلما انفتق العرم من ناحية رمموه إلى قبيل الإسلام فتهدم وأهملوه .

ووفق غلازر فى أثناء زيارته أنقاض ذلك السد إلى اكتشاف أثرين عليهما كتابة مطولة تتعلق بتهدم السد بعد دخول اليمن فى حوزة الأحباش أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ م والآخر سنة ٥٦٥ م وهما من أهم ماوقفوا عليه من آثار تلك الدولة لما فيهما من الإشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية أحدهما كتبه أبرهة الحبشى وهذه خلاصة : « بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان أبرهة عزيز الأحباش الاكسوميين ملك أراحميس زبمان ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم فى نجد وتهامة قد نقش هذا الأثر

تذكارا لتغلبه على يزيد بن كبشة عامله الذى كان قد ولاه كندة ودى، وعينه قائدا ومعه أقيال سبا الصحاريين وهم مرة وثمامة وحنش ومرثد وصنف ذو خليل واليزنيون أقيال معدي كرب بن السميفع وهفان وإخوته أبناء الأسلم فأنفذ الملك إليه الجراح ذا زنبور فقتله يزيد وهدم قصر كدار وحشد من أطاعه من كندة وحريب وحضرموت وفر هجان الذمارى إلى عبران . وبلغ الملك الاستصراخ فنهض بجنده الأحباش والحميريين الوفا فى شهر ذو القياظ ٦٥٧ (من تاريخ اليمن) فنزل أودية سبأ . فجاء يزيد وبايع وخضع للملك بين يدي القواد . وهم فى ذلك جاءهم النبأ بتهدم السد والحائط والحوض والمصرف فى شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو . وبعث إلى القبائل باتخاذ الحجارة للأساس والحجر الخام والأخشاب ورصاص الصب لترميم السد فى مأرب فتوجه أولا إلى مأرب صلى فى كنيستها ثم عمد إلى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا إلى الصخر وبنوا عليه ، وعلم وهو فى ذلك أن القبائل تضايقت من العمل ورأى إعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم أحباشهم وحميريهم وأذن بانصرافهم . ورجع الملك إلى مأرب بعد أن عقد تحالفا مع الأقيال الآتى ذكرهم : اكسوم ذو معاهر ابن الملك ومرجزف ذو فرناح وعادل ذو فائش وأذواء شولمان وشعبان ورعين وهمذان والكلاع الخ . وجاء إليه وفد النجاشى ووفد ملك الروم ورسول من المنذر وآخر من الحارث بن جبلة وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون موده . فى أواخر شهر داوان وبعثوا إليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه وسمكوه حتى بلغ طوله ٤٥ ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (ثم ذكر ما أنفق فيه من الحجارة والأطعمة للعملة والحيوانات للعمل واستغرق العمل فى ذلك ٥٨ يوما و ١١ شهرا وكان الفراغ منه فى شهر ذو معان سنة ٦٥٨) .

وهذه السنة فى حساب الحميريين تعدل سنة ٥٤٣ للميلاد لأنهم كانوا يبدءون تاريخهم سنة ١١٥ قبل الميلاد وللملازم كلام فى هذا الشأن سنأتى عليه فى الكلام عن التوقيت عند العرب ونكتفى هنا بالإشارة إلى تاريخ الفتح من نقش حصن غراب. فقد رأيت أنه سنة ٦٤٠ حميرية أو حبشية، والمعول عليه أنه كان سنة ٥٢٥ ميلادية والفرق بينهما ١١٥ سنة . انتهى من كتاب تاريخ العرب قبل الإسلام .

﴿ تذكرة ﴾

أما آن للمسلمين أن يستيقظوا . إيه يا أمة الإسلام . إيه يا أمة الإسلام . أهكذا يكون المسلمون . هاأنتم أولاء رأيتم أعمال الأمم الغابرة والدول الفائقة وشاهدتم سد العرم صنع الجاهلية الأولى ، صنع أهل سبأ قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون ، هل بهذا أمر القرآن ؟ أيجمل فى دين المروءة والنجدة والشرف أن يكون الجاهليون يعمرون أرض الله أكثر من المسلمين ، هل لهذا جاء نبينا صلى الله عليه وسلم ؟ ألم يجىء نبينا رحمة للعالمين وكيف يحفظ الجاهلية الماء بين البلقين ويسقون به الأرض والجنتان هناك عن يمين وشمال فالجنتان ثم يجىء الإسلام فلا يساوى أهله فى العمران الجاهلية مع أنهم كانوا الأولى بحفظ نعم الله ، هم الأولى بشكر النعمة ، وشكرها بحفظها والقيام بها لا لا ، إن أمة الإسلام ستأخذ دورها عن قريب ، أمة الإسلام النائمة قد انقضى دورها . وستأتى أمة الإسلام اليقظة التى تحفظ نعمة الله فلا تضيع الماء يذهب فى الرمال .

أيها المسلمون : إن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم لم تقف رسالته عند هذا الحدّ . كلا . إن لرسالته شأنا بعد أيامنا هذه ، ومن دلائلها ما ترونه فى هذا التفسير من عجائب القرآن ، وإنه يعلم المسلم شكر النعم وحفظها .

ياليت شعرى : لم ذكرت سورة سبأ ، ألقصة تذكر . كلا . والله ذكرت لنا الآن ، ذكرت لمن

يعقلون

يتعظون دفن الله المال والعلم فى الصخور والألواح وعلى الجدران ، ثم أخرج ذلك الآن كأنه يقول للمسلمين : هاكم اقرءوا كتابيه ، انظروا فى علوم آبائكم ، هل تقومون بالأمر ، هل تحفظون النعمة ، هل تقومون بالشكر هل تبحثون عن نعمى فوق الأرض وفى باطنها ، إن لم تفعلوا بعد هذا كله فها هم أولاء الفرنجة أحاطوا بكم من كل جانب ، فإن لم تقوموا من غفلتكم وتعمموا التعليم لآخذن منكم أرضكم وأسلمها لهم كما فعلت مع بنى إسرائيل ، إذ سلطت عليهم بختنصر فأخذهم إلى فارس ودولة الرومان فأسروهم فى بلاد الروم .

أتظنون يا أهل اليمن أنى سلمت لكم الأرض لتمنعوا نعمى فيها عن عبادى انظروا حولكم فى شمسى وقمرى وكواكبي وهوائى ومائى . ألم أجعل العوالم كلها متجاذبة بحيث تجرى الأرض حول الشمس وهكذا كواكب أخرى وهكذا العوالم تتجاذب ، فهكذا فليكن نوع الإنسان . لتكن كل أمة مستخرجة من أرضها كنوزها وزراعة أرضها ليعيشوا بذلك وليرسلوا ما فضل بالتجارة لغيرهم وهكذا غيرهم يفعلون ، فان غفلت أمة عما لديها أو عزت إلى غيرهم فسلطتهم عليهم لأنى عدل ولأنى رحيم ومن رحمتى أن الناس يخدم بعضهم بعضا ، وهذا المطر النازل فى بلادكم إذا لم تحفظوه فقد ضيعتم نعمتى فأعاقبكم على ذلك الضياع .

هذا ، وإن آية سد العرم تدل على أن الأمة كلها معذبة إذا فرطت فيما لديها من النعم . والآية الآتية وهى وهى « ولو ترى إذ الظالمون » الخ مثلها فى أن الرؤساء لا ينفعون المرءوسين إذا تركوا مواهبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فقصة سبأ وآيات التقليد متقاربتان من حيث إن كلا منهما منذر بالوبال والهلاك لمن تواكلوا .

هذا ما ألهمه من ذكر هذه السورة التى ظهر أثرها فى هذا الزمان ، والحمد لله على نعمة العلم والحكمة والدين ، والحمد لله رب العالمين .

(جوهرة يتيمة)

(فى آية — ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم — الخ)

(بيان خطر التقليد والاغترار به)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، وأسألك جبر الخلل واجتناب الزلل وإجادة الدليل وفهم التأويل وصدق القول وحسن العمل .

اللهم إنى أرى اليوم فى بلاد الإسلام حالا أحسن ، ورجالا أكمل ، وعقولا أبهى وأبهر ، نام المسلمون قرونا وقرونا بعد الصدر الأول والقرون الثلاثة الأولى خير القرون ، ثم جاء هذا الزمان الذى اشتدت فيه الإحن وكثرت المحن وظهر الخطر والخطل وزالت الخلافة اللفظية من البلاد التركية وقد أنامت الأمم العربية نحو أربعة قرون فلم تقم لهم فيها قائمة ولا سمعت لهم فيها كلمة ، ولكن ها أنا ذا الآن فى هذا اليوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ أسمع أن بلاد العراق رفعت الصوت جهارا نهارا إلى الأمم العربية قائلة : أيتها الأمم اسمعى . إياكم أن تهينوا إخوانى فى فلسطين وتقدموا عليهم اليهود الذين وعدتموهم بالوطن القومى ، وهاهم سكان شرق الأردن وبلاد سوريا وجميع المسلمين فى الشرق والغرب يطلبون بلسان واحد إزاحة الكابوس

والظلم عن أهل فلسطين . سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الذى أخذت تغير حال المسلمين من ضعف إلى قوة ومن ذلة إلى عز ومن جهل إلى علم ، أليس هذا مصداق قولك فى التنزيل « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين » وقولك « ليظهره على الدين كله » إن هذا زمانه وهذه أيامه، وكما تجلت أنوارك فى قلوب الأمم الاسلامية برباطة الجأش وقوة البأس وعزة النجدة وعلوّ الشمم ورقى الهمم ، هكذا أخذت التآليف تتغير أساليبها وتتجدد أصولها وتختط خططا جديدة وأحوالا سديدة وأقوالا مفيدة وانتشرت الصحافة وقامت الخطابة وظهرت بوادر جيل جديد وقد تقدمه أمثال هذا التفسير ليكون فيه لقطة عجلان ويقظة وسنان وبهجة ندمان وحديث خلان ، ومجالسة علماء وأنس حكماء وسمر فضلاء وهدى وبشرى للمؤمنين ولقد بسطت لى فيه القول وشرحت لى الصدر ويسرت لى الأمر ، لأن الأمم الاسلامية اليوم أجدر بالفهم وأقبل للعلم وأحق بالإقبال، فأسألك اللهم أن أكون لك من الشاكرين .

أما بعد : فانى أريد إفاضة القول فى التقليد ، ذلك الذى ختم على عقول كثير من الأمم الإسلامية فى الأحقاب الغابرة والأيام الحالية وأضل سعيهم وأحبط كثيرا من أعمالهم .

كانت الأمم الاسلامية فى القرون الأولى طفلا ترعرع وتغذى بألبان النبوة المحمدية ، إذ القرن فى حياة الأمم سنة واحدة فى حياة الفرد . وعلى هذا الحساب صارت هذه الأمة الآن فى سن الرابعة عشرة كما أشرت إليه فى السور السابقة فهى كانسان مراهق شارف البلوغ ، ومتى بلغ بالسن أو بالقوة أخذ يظهر على الأمم الأخرى .

كان المسلمون فى القرنين الأولين يتغذون بلبن النبوة فرضعوا أفاويق أيام الصحابة والتابعين فنفعوا عباد الله من بلاد الصين إلى جنوب بلاد فرنسا، فدانت لهم أمم من آسيا وأوروبا وأفريقيا . ذلك أنهم كانوا محمديين . ثم لما كان الفطام بعد الحولين (هما قرنان) تحولت الحال شيئا فشيئا وخمدت جذوة الحماسة وأخذوا يفكرون بأنفسهم فعل الصبي بعد سن الرضاع يلتمس الطعام بنفسه . هنالك يحضر له المؤدبون والمعلمون والمربون ،وفى هذه الأجيال التى اعتبرناها سنين لم تكن هذه الأمم إلا عالة على الملوك والعلماء ورجال الدين وشيوخ الطرق . فهم كانوا كأيتام إن أحسن الوصى القيام عليهم استقاموا وإن أساء التصرف ولم يقم بالأمانة نامو ا، فقامت دول فارسية وأخرى تركية وثالثة إمارات عربية . ولا زالوا يتدهورون المرة بعد المرة . ولقد مضى فى هذا التفسير نبأ من بعض أمارتهم وممالكهم ، وكيف اختلت الحكومات وبارت النظم وضاعت الأمم . لماذا هذا ؟ لأنهم كانوا بعد سن الفطام قبل سن المراهقة والبلوغ . ولا جرم أن الطفل فى تلك الأيام يعلله المربون بالآمال ويوارون عنه الحقائق ويخيلون له مستقبلا سعيدا وعمرا مديدا ويعطونه الحلوى والمضرب والكرة ويقولون له أقوالا لذيذة ويغرونه بكل ما لذ وطاب فيستنيم لأقوال المربين وتستهويه أكاذيب المواعيد وتخدعه خرافات الأسانيد وهذه السن خليقة بذلك . لذلك كثرت الفرق وتباينت الطرق وظهرت الخوارج ، وادعى المهدوية كل من أحس من نفسه بقوة اللسن وسعة العقل ورجاحة الفطن . ومن قرأ كتاب (الفرق بين الفرق) عرف تلك الأضاليل أو قرأ ما تقدم فى (سورة الشعراء) من أكاذيب الدجالين فى الاسلام واستوائهم على عرش الإمارة، عرف كيف تخدع كواذب الأقاويل واحتيال المحتالين . ذلك كله لأن الأمة كانت لا هى فى سن الرضاعة من أفاويق النبوة المحمدية . ولا هى بلغت السن التى تؤهلها لتسلم زمام أمرها والقيام بشئونها . فلا محيص لها من التقليد ولا مفر لها من اتباع من تتوسم فيه مخايل النجابة فتسلم زمامها أقوام منهم الصادقون ومنهم الخادعون وكل يعاملهم معاملة ذلك الطفل الصغير .

لذلك

لذلك كثرت فيها الخرافات وشاعت الضلالات واتكلوا على الشيوخ فعطلت العقول وسادت النقول فجاء جيلنا الذى نحن فيه فماذا أقول ؟ أقول : أحدثكم أيها المسلمون بحديث أحد المهديين فى الاسلام أجعله مثلا من أمثال أسلافنا السابقين أريد بذلك استنارة الشبية الاسلامية، ومتى عرفت الشر أقلعت عنه أو الخير اجتليته فأقول :

لقد كان يوسف بن تاشفين أمير المرابطين قد استوثق له الأمر فى الأندلس بعد القبض على أبى القاسم ابن عباد المعتمد على الله بعد أن تولى الملك ٢٠ سنة وذلك سنة (٤٨٤) هجرية . ولقد قام بالأمر خير قيام إذ آثر الجهاد والغزو وقمع ملوك الروم والحرص على المصلحة فى جزيرة الأندلس إلى أن توفى سنة ٤٩٣ ، وقام بالأمر بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين وسمى أصحابه المرابطين فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد وإخافة العدو وحماية البلاد . وكان حسن السيرة . جيد الطوية . نزيه النفس . بعيدا عن الظلم حتى كان إلى الزهاد والمتبتلين أقرب منه الى أن يعد فى الملوك المتغلبين . وأخذ يكرم الفقهاء والعلماء ولا يفعل أمرا إلا بمشاورتهم ولكنه تمادى فى الغفلة واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالا شديدا فظهرت فى بلاده مناكير كثيرة . وأخذ أكابر المرابطين يدّعى كل منهم صريحا أنه أحق بالإمارة منه واستولى النساء على الأحوال وصارت كل امرأة من أكابر (لمتونة) تحمى شريرا وقاطع طريق وصاحب خمر وماخور وأمير المؤمنين يزداد غفلة، واكتفى بإمرة المسلمين وبصيام النهار وقيام الليل . فماذا فعل الله بالمسلمين إذ ذاك ؟ قوم لا قوام لأمرهم إلا بالأمراء فان صلحوا صلحت الأمة وإن فسدوا فسدت . فهم على حسب من يديرهم . ألم أقل لك أيها الذكى إنهم فطموا من الرضاعة أولا فهم الآن فى السنة الخامسة وهى سن الطفولة وهذه سن الغفلة واليتم ولم يصلوا لسن الرشد . لما طغى أمراء الأندلس وشربوا الخمر وأولعوا باللهو والزهو أرسل الله لهم يوسف بن تاشفين فأدخل ملكهم تحت إمرته ، فلما قام ابنه أضاع الأمة من طريق الاشتغال بالعبادة كما أضاعها أولئك من طريق الفسوق والجور والجهالة . هنالك قيض الله لهم رجلا آخر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . فبينما عمال الأمير على بن يوسف بن تاشفين يعثون فى الأرض فسادا ويهتكون أعراض الرعية علنا بلا احتشام جهارا بعد الخمسمائة إذ ألهم الله رجلا يقال له (محمد بن تومرت) ينتسب إلى الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب من أهل (سوس) من قبيلة تسمى (هزغة) من أقوام شرفاء هنالك أحب العلم فرحل إلى المشرق سنة ٥٠١ هـ أى فى السنة التى ابتدأ فيها فساد الدولة وانتهى إلى بغداد أى كما ينتهى المسلمون اليوم إلى أوروبا، ولقى أبا بكر الشاشى فدرس عليه الفقه والأصول وسمع الحديث على أكابر الشيوخ، ويقال إنه لقى أبا حامد الغزالى بالشام أيام تزهده وذكر له ما فعله أمير المسلمين بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها وابن تومرت حاضر ذلك المجلس فقال الغزالى [ليذهبن عن قريب ملكه] وأشار إلى أن ذلك يتم على يد حاضر بالمجلس أى ابن تومرت، وهذه الحكاية سواء صحت أم لم تصح لاحرج فى روايتها، ويقال إن هذه الإشارة قوت طمعه فى ذلك فرجع إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب . وبينما محمد بن تومرت كذلك إذا رجل آخر هناك يسمى عبد المؤمن يعلم الصبيان فى موضع اسمه (فزارة) من بلاد (متيجة) واتفق أنه رأى فى النوم كأنه يأكل مع أمير المسلمين (على بن يوسف بن تاشفين) فى صحفة واحدة ثم زاد أكله على أكل أمير المؤمنين ثم زاد فيه الشره فاختطف الصحفة وانفرد بها وحده ، وفسرها له المفسر بأن هذه تكون لرجل غيرك يكون أهلا لأن يشارك فى الملك ثم ينفرد به . فهذه الأحاديث والرؤى قد أعدت الرجلين لعمل عظيم فتلاقيا ، فيقال إن محمد بن تومرت عرف عبد المؤمن بعلامات رآها فى نفسه وعرفها من كتب المتقدمين . وقد كان عبد المؤمن عند المقابلة متوجها إلى المشرق فى طلب العلم فاستصحبه محمد بن تومرت

للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأقاما بمدينة (ملالة) أشهرا ، ورحلا ورحل معهما رجل آخر اسمه عبد الواحد ، وقد كان محمد بن تومرت شديد الصمت كثير الانقباض لا ينطق إلا فى مجلس العلم . ورحل مع صاحبيه فى (تلمسان) وقضى بها مدة ثم توجه إلى (فاس) فأظهر عقيدة الأشعرية فى التوحيد وأخذ بعظ الناس فاجتمع الفقهاء عليه فوجدوه رجلا قوىّ العارضة فأشاروا على الوالى باخراجه لئلا يفسد عقائد العوام فأخرجه . وإنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا جميعا صائمين عن جميع العلوم ماعدا الفقه فتوجه إلى مراكش وكتب إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين . ولما دخل عليه أحضر له الفقهاء فناظروه فغلبهم ومنهم رجل يقال له (مالك بن وهيب) له معرفة بعلوم كثيرة حتى الفلسفة فأشار على الملك بقتله لأنه فصيح حسن العبارة وهو مفسد لاتؤمن غائلته فلم يقتله الملك خوفا من الله فقال له اسجنه حتى يموت فقال الملك لاذنب له . هنالك نفاه عن أمر مراكش وهناك كانت الطامة الكبرى فتوجه إلى (سوس) فشرع فى تدريس العلم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وأخذ يذكر المهدى ويسوق إليه (كما فعل المهدى السودانى محمد أحمد فى زماننا سواء بسواء) فكلاهما ابتدأ أمره بالتشويق للمهدى من غير أن يذكر نفسه وجعل له أنصارا يستميلون له رؤساء القبائل . هنالك تقرر فى نفوسهم فضل المهدى ونسبه ونعته . فلما تم ذلك قال أنا محمد ابن عبد الله ورفع نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصرح بأنه معصوم وأنه المهدى المنتظر . فلما استقر لهم ذلك بايعوه على أنه المهدى وألف لهم كتبا فى العلم وعلمهم فكان يبطن التشيع . وأول درجة من أصحابه كانوا عشرة وهم المهاجرون الأولون سماهم الجماعة وهم أول من صدقوه والطبقة الثانية سماهم الخمسين . ثم قال لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم « لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى ابن مريم . ولا تزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة . ويقال إنه كان يخبر ببعض الحوادث فتقع . وكان يقول [لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة] ولقد جاء هذا القول فى نظر رجل من أهل الجزائر من مدينة من أعمال (بجاية) وقد وفد على أمير المؤمنين أبى يعقوب وهو (بتينملل) فقام على قبر محمد بن تومرت بمحضر من أتباعه الموحدين وأنشد قصيدة بليغة وهاك نصها :

سلام على قبر الإمام الممجد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه	وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحي علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنابه البشرى بأن علا الدنا	بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقا ومغربا	ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وأنه	علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان اسم والمكان ونسبة	وفعل له فى عصمة وتأيد
ويلبث سبعا أو فتسعا يعيشها	كذا جاء فى نص من النقل مسند
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا	فذلكم المهدى بالله يهتدى
وتتبعه للنصر طائفة الهدى	فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
هى الثلة المذكور فى الذكر أمرها	وطائفة المهدى بالحق تهتدى
ويقدمها المنصور والناصر الذى	له النصر حزب إذ يروح ويغتدى

وهو

هو المنتقى من قيس عيلان مفخرا ... ومن مرة أهل الجلال الموطد

خليفة مهدى الاله وسيفه ... ومن قد غدا بالعلم والحلم مرتدى

به يقمع الله الجبابرة الأولى ... يصدون عن حكم من الحق مرشد

ويقطع أيام الجبابرة التى ... أبادت من الإسلام كل مشيد

ويغزون أعراب الجزيرة عنوة ... ويغزون منها فارسا وكأن قد

ويفتتحون الروم فتح غنيمة ... ويقتسمون المال بالترس عن يد

ويغدون للدجال يغزونه ضحى ... يذيقونه حد الحسام المهند

ويقتله فى باب لد وتنجلى ... شكوك أمالت قلب من يوحد

وينزل عيسى فيهم وأميرهم ... إمام فيدعوهم لمحراب مسجد

يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم ... بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد

فيمسح بالكفين منه وجوههم ... ويخبرهم حقا بعز مجدد

وما أن يزال الأمر فيه وفيهم ... إلى آخر الدهر الطويل المسرمد

فابلغ أمير المؤمنين تحية ... على النأى منى والوداد المؤكد

عليه سلام الله ماذر شارق ... وماصدر الوراد عن ورد مورد

فهذه حال (محمد بن تومرت) الذى هو المهدى المنتظر وأصبح القوم مفتونين به حتى لوقال لرجل اقتل أباك أوأخاك لقتله . وكان إظهاره المهدوية سنة ٥١٥ هـ وفى سنة ٥١٧ هـ جهز جيشا عظيما من المصامدة جلهم من أهل (تينملل) ومعهم قوم من أهل (سوس) وأمرهم بحرب المرابطين وأن يدعوهم إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واتباع المهدى المعصوم ، فإن أجابوا فهم إخوانكم وإلا فقاتلوهم . وأمر عليهم عبد المؤمن وقال أنتم المؤمنون وهذا أميركم ، وقاتلوا المرابطين قريبا من مراكش بموضع يسمى (البحيرة) وأمير المرابطين الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فدعا الموحدون المرابطين لما التقى الجيشان إلى ما أمروا به فردوا عليهم أسوأ رد ، وهكذا كتب عبد المؤمن إلى على بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت فرد عليه ردا يحذره فيه من سفك الدماء . ولما التقى الجمعان قتل من المصامدة خلق كثير ، وانهزم الجيش ولكن نجا عبد المؤمن . ولما رجعوا إلى ابن تومرت هون عليهم أمر الهزيمة وبشرهم بالشهادة والجنة . ومن ذلك الوقت أخذ المصامدة يشنون الغارات على نواحى مراكش وهو يزداد تقى وصلاحا وتشددا فى دينه وإقامة للحدود كلها حتى مات سنة ٥٢٤ [1] وقام بالأمر بعده عبد المؤمن فبايعه المصامدة ، ولد بضيعة من بلاد تلمسان . وقد ولد سنة ٤٨٧ وتوفى سنة ٥٥٨ وقد ملك بلاد المغرب وأكثر بلاد الأندلس . وقد خلفه فى الملك ابنه أبو يعقوب يوسف ومات سنة ٥٨٠ هـ . وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وتوفى سنة ٥٩٥ هـ الذى أهان الفيلسوف ابن رشد وحبسه ثم عفا عنه ، ولم تقم للحكمة بعد ذلك قائمة فى الاسلام . وبعده ابنه محمد بن أبى يوسف أمير المؤمنين وتوفى سنة ٦١٠ ، وتولى بعده ابنه أبو يعقوب يوسف بن محمد .

---

(١) هذا التاريخ لايوافق ما جاء فى القصيدة التى أنشدت على قبره أنه عاش (٩) سنين مع أنه أظهر المهدية سنة (٥١٥) ومن عجب أن المؤلف أهدى إليه كتابا فيه تاريخ (ابن تومرت) وأن وفاته كانت سنة (٥٢٢) وهذه أقرب إلى الصواب فلعله مات سنة (٥٢٣) اهـ ، والله أعلم .

هذا ملخص كتاب تاريخ الأندلس المسمى [بالمعجب فى تلخيص أخبار المغرب] تأليف الشيخ محى الدين عبد الواحد بن على التميمى المراكشى .

أقول : إن هذا العالم كان فى زمان تلك الدولة ، فلم تطل مدته إلى انقضائها حتى يعرف ما آل إليه أمر هذه الدولة ، وأيضا أنه كان تحت حكم ملوكها فلم تكن له الحرية التامة فى إبانة الحقائق الناصعة عن المهدى (ابن تومرت) ووظيفة هذا التفسير امتحان الحوادث العامة وعرض نتائج الامتحان على أمم الاسلام بعدنا، أما مجرد سرد التاريخ فقيمته زهيدة ضئيلة ونحن الآن فى تفسير آيات قرآنية تنبذ التقليد وهذا التاريخ الذى سردته هنا مسوق لتبيان أن الوقوف على التقليد بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير هو الشؤم الأكبر والخطب الجلل والموت الزؤام .

فلأذكر إذن فى هذا الصدد ماعثرت عليه فى الكتب الأخرى وماذكره أيضا العالم الفرنسى (سديو) ليحق الحق ويبطل الباطل . وإذن يفرح المؤمنون والعلماء الخاصون والأمم المحمديون بنصر الله بالهداية العلمية ، والله هو الولى الحميد .

جاء فى كتاب [خلاصة تاريخ العرب] للعلامة سديو ماملخصه :

إن العرب باسبانيا انشقوا على المرابطين أيام على بن يوسف الذى ظهر عجزه كما تقدم القول عنه ، وأنه كان مشغولا بالصلاة والصيام واكلا أمر الرعية للنساء مع إكرامه للعلماء . وقد كان هؤلاء العرب لايفكرون إلا فى محاربة أمرائهم المرابطين ولم يعرفوا كيف يتحدون ويتخذون لهم مركزا عاما حربيا لصد النصارى المحيطين بهم من سائر الجهات، وغاية الأمر أن الفرص قد سنحت لأناس منهم استقلوا بالامارة من سنة ١١٤٤ فى مرسية والنسة وغرناطة واشبيلية وقرطبة وغيرها فادعى كل هذا المنصب بلاحق وانفصل عن الآخر فذهب المرابطون من اسبانيا سنة ١١٤٦ وغاية الأمر أن عبد الله بن غانية بقى تحت يده جيش ضعيف وقد اضطر إلى مساعدة النصارى له فساعدوه حتى أخذ قرطبة وأشبيلية حتى إذا ماجاء جيش عبد المؤمن فقتل ابن غانية وذهب أمر المرابطين . ثم إن الأميرين يوسف ويعقوب المتقدم ذكرهما أبليا بلاء حسنا فى منع غارات النصارى عن مدن الاسلام ثم بعد ذلك أغاروا على من جاورهم من النصارى ، وهنالك تجدد الرونق والعز فى بلاد الأندلس . وقد زاد ذل النصارى وعز المسلمين بما فعله الأمير يعقوب حتى مات وخلفه ابنه محمد الناصر سنة ١١٩٩ م .

هذا، وقدهزمه النصارى فى واقعة (طولوسة) سنة ١٢١٦ م وهنالك ضعف أمر الموحدين فانقطعوا عن محاربة النصارى ، ولما مات الأمير محمد خلفه أبو يعقوب وقدعصته الأقاليم بالمغرب واسبانيا لأنه غير كفء .

ثم إن أرباب المشورتين الذين أنشأهم المهدى كما تقدم (وهم العشرة الذين سماهم المهاجرين الأولين والخمسين الذين سماهم الجماعة) كانوا متشوقين إلى الاختصاص بالحكم لما رأوا فساد الأمر فى البلاد فهددهم المأمون ، وقد قام بشد أزره حزب ذو قوة وبطش وجعلوه أميرا عليهم ، فنصب أرباب المشورة المذكورون يحيى بن ناصر فتغلب عليه وعليهم المأمون وعلق رءوس هؤلاء الشيوخ على أسوار مراكش وألغى المشورتين ونسخ سياسة المهدى ومنع ذكره فى الخطب وعامل أهل المغرب بقسوة لم يقدروا بعدها على العصيان سنة ١٢٢٨ ثم إن محمد بن هود من ذرية قدماء ملوك سرقسطة أوقع البغضاء بين مغاربة اسبانيا ومغاربة افريقيا وأخذ منهم جيشا جرارا هزم به المأمون سنة ١٢٢٩ قرب (مدينة طاريفة) وألزم المأمون الاقامة بمراكش .

هنالك اضمحلت دولة الموحدين شيئا فشيئا، فانهم لما انتزعت منهم الأندلس أخذت بلاد المغرب تنسلخ منهم شيئا فشيئا ، فقد عصى الموحدين فى أيام خلفاء المأمون والى تونس سنة ١٢٤٢ م وعائلته هم بنو حفص

وفى

وفى سنة ١٢٤٨ أسس بنوزيان فى تلمسان والجزائر سلطتهم الممتدة إلى نواحى فاس ، وكذلك بنومرين فى جهات كثيرة و « لله الأمر من قبل ومن بعد » .

هذا ملخص ماجاء فى كتاب سديو ، وأزيد عليه ماقرأته سابقا فى المطولات من أخبار ابن تومرت ثم أتبعه بالنتائج العلمية التى هى المقصودة بالذات فى تفسير هذه الآيات فأقول :

إن محمد بن تومرت كما قلت جعله الله لهذه الأمم أشبه بمربى الأطفال ، ولقد جاء فى كلام علماء الفقه أن الكذب جائز فى سياسة الأطفال ، وقد قلنا إن الأمم الإسلامية فى القرون الأولى كانت فى أيام الرضاعة فكل قرن سنة واحدة فى عمر الأمة. ولما كان الفطام أخذ الناس ينظرون شئونهم بأنفسهم ولكنهم لقلة العلم سخر الله لهم أناسا يفعلون معهم فعل المربى مع الطفل . فماذا فعل محمد بن تومرت ؟ لزم الخلوة كما تقدم، وإنى أقول أنا معتقد فى الرجل حسن مقصده وأنه يريد للمسلمين فى تلك الأصقاع خيرا ، ولقد رأى أن يسوسهم بالدعوة المشهورة وهى المهدوية . فماذا يفعل ؟ نصب له دعاة وأعلن العصمة كما أعلنها غيره من الفاطميين بمصر وأعلنها أيضا (أغا ممنون) بالهند فى زماننا وغيره ، ولقد كان من أمر (محمد بن تومرت) أن بث الأرصاد والعيون والجواسيس ليستطلعوا أسرار القلوب ومن المصدق للمهدى ومن المكذب ؛ وأخذ يوازن بين الشهادات الواردة إليه عن عظماء أتباعه ، فمن ذكائه وفطنته لم يحكم على أحد بالكفر بمهدويته إلا إذا توافرت الشهادات المختلفات بذلك من بطانته الذين جعلهم عيونا عليهم . أما الذى اختلف فيه الشهود ومعلوم أن أحدهم لايعلم مايقوله الآخر فانه لايحكم بكفره به . فهنالك اجتمع له من أسماء أتباعه جدول حفظه عنده لوقت الحاجة .

وبينما هو يبث الأرصاد والعيون والجواسيس لمعرفة أسرار أتباعه كان قد أسر لرجل من أتباعه يدعى على ماأذكر (الونشريشى) فهذا الرجل كان عالما فأظهر الجذب وأخذ يهيم على وجهه ويمر فى المجالس فلا يأبه له أحد لأنه مجذوب لايعى . وكان إذا مر على (محمد بن تومرت) يقول إن فى هذا الرجل لسرا . وبقى الأمر هكذا إلى أن كان ذات يوم محمد بن تومرت يصلى الفجر نظر فرأى رجلا وراءه يصلى وعليه ثياب بيض بهيئة جميلة فأظهر الدهش إذ سأله من أنت ؟ فقال أنا الونشريشى . إنى فى هذه الليلة أتانى النبى ﷺ يقظة وعلمنى كذا وكذا وعرفنى العواقب وأهل الجنة وأهل النار . ولا جرم أن هذه هى الحيلة التى تكررت كما تقدم فى هذا التفسير إذ ذكرت نظيرها فى [سورة الشعراء] عند آية السحر فليتفطن المسلمون وليستيقظوا ، فقال ابن تومرت له بدهشة ولهفة: سبحان الله . أخبرنا بأمرنا من أنا ؟ فقال أنت المهدى ومن كذب بك فى النار [ولا جرم أن الجدول الذى فيه الأسماء قد سلم إليه سرا حتى عرف جميع الكفار بأشخاصهم] فهنالك قال له المهدى : أخبرنا بأهل النار وأهل الجنة . فأمر المهدى فاجتمع القوم وصفهم الونشريشى صفين صفا أمام صف فنظر إلى صف اليمين فقال هؤلاء أهل الجنة وصف جهة اليسار فقال هؤلاء أهل النار . ثم قال ليقتل أهل الجنة أهل النار فضرب صف اليمين صف اليسار حالا بالسيوف واستولوا على مايملكون ، ولكن هؤلاء المقتولون وإن كان أمر قتلهم سماويا على حسب الاعتقاد بقى له أثر سيء فى النفوس فشغلهم المهدى بالحروب المتقدم ذكرها ضد المرابطين أيام (على بن تاشفين) كما عرفت وصار يعدهم ويمنيهم بملك فارس والروم وأنهم هم الذين يبقون حتى أيام نزول المسيح إلى آخر ماتقدم . هذا هو الذى وعته الذاكرة مما قرأته من الكتب ، والله أعلم .

﴿ امتحان هذه السير والأحوال ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك . أنت ناظم الأمم والجماعات ومعط كل ذى حق حقه . أنت الذى علمت أن هؤلاء قوم جهال مشتتون فهيأت لهم محمد بن تومرت لمنع الظلم عنهم فقام وادعى المهدوية . اللهم إن المهدوية قد تقدم الكلام عليها فى أول (سورة الحج) وقد ذكرنا هناك أمر المهدى وأن الأحاديث كلها مطعون فيها . سبحانك اللهم وبحمدك . إن أحاديث المهدى قد سرت إلى نفوس أكابر الأمة ، وإن محيى الدين بن عربى قد وقع فيما وقع فيه غيره وسرت عقيدة المهدى فى الأمم الاسلامية وقلت هناك إنها لا تزال باقية لم ينقص منها شىء حتى ظهور المهدى السودانى . فما نتيجة ذلك كله ؟ نتيجته ضعف العقول والاتكال على الشيوخ ونوم القوى العاقلة ، نام المسلمون آمادا وآمادا ، تركوا مواهبهم ، تركوا عقولهم ، كما تركت الحيوانات المنزلية تدبير أنفسها للانسان بخلاف الحيوانات البرية الوحشية كالغزلان . إذن المسلمون المتكلمون على المهديين أو على الشيوخ والذين استناموا لمن ملكوا قيادهم من الظالمين مسلمين وغير مسلمين أصبحوا كالعنز والبقرة اللتين ضعفتا عن تدبير أنفسهما وفاقتهما الغزالة والبقرة الوحشية ، فصارت الأمة ذليلة والعضو الذى لا عمل له يضمر ويضعف ، وليس الأمر قاصرا على محمد بن تومرت ، فهو رجل نفع القوم بأسلوبه ومنهجه واستمان بالكتمان والصبر وبعلوم السيمياء وبإيهامهم أنهم خير أمة أخرجت للناس وأنهم هم الذين يفوتون إلى نزول عيسى عليه السلام وقد فعل ذلك معهم ولكنه فى الوقت نفسه علمهم الصدق والاخلاص والشجاعة والعلم على حسب زمانه ، الرجل مزج الحق بالباطل وقد أفاد القوم . ولا يزال بعض شيوخ الطرق الآن فى أمم الاسلام يرفعون نفوسهم إلى مقام العظمة ويجعلون أنفسهم وسائط بين الله وبين خلقه . وقد أنام كثير منهم المسلمين ، إذ أفهموهم أنهم بتعاليمهم مع جهلهم الفاضح ينجون من العذاب يوم القيامة .

تعليم ابن تومرت وغير ابن تومرت نافع وضار . النفع مؤقت على مقدار همته . انظر الفرق بين هؤلاء الصالحين وبين الأنبياء . أنظر إلى الأنبياء كيف دامت دياناتهم آمادا وآمادا . كثر المهديون فى الاسلام ولكل مدى أيام تنقضى ولكن الاسلام باق لم ينقص منه شىء وما يفعله هؤلاء الشيوخ تمحوه كرور الأيام لأنه لا ثبات له وهل لغير العلم ثبات ؟ الأمم الاسلامية يجب تعليمها وترقية عقولها ونشر التعليم والثقافة العامة فيها ليكن التعليم إجباريا فى جميع الأقاليم ليتعلم الرجال والنساء .

هذا هو الهدى . فأما إنى أومن بفلان أنه المهدى ومتى ذهب ذهب ذلك الايمان (كما فعل المأمون فأبطل اسم المهدى ونسخ تعاليمه وقتل الشيوخ) فان الدولة تضمحل وتذهب كما رأيت فى دولة الموحدين .

لا لا ، أيها المسلمون : (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — قال موسى ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين) .

تذكر أيها الذكى ما جاء [فى سورة طه] وأن بنى إسرائيل لما رأوا العصا قلبت حية آمنوا وهم فى مصر ، ثم لما خرجوا منها ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون » ولما رأوا عجل السامرى المصنوع من الذهب « قالوا هذا إلهكم وإله موسى » فهذا الايمان المشئوم الذى لا يرجع إلى تمام العلم يكون عرضة للتقلب فان من رأى عصا انقلبت حية لحرىّ أن يكفر إذا رأى عجلا له خوار مصنوعا من ذهب فانه أجمل وأبهى وأعظم هيئة من الحية .

وهل وردت تلك القصص فى القرآن إلا لهذه النتائج . ألم يقل الله تعالى « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك

الكتاب يتلى عليهم » وهو القائل « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » والآيات المذكورة هي خوارق العادات . إذن القرآن في ناحية وجمهور المسلمين في ناحية . القرآن يدعو إلى التعقل والعلم وتعليم الناس . وإذا كنت قد خلقت في الرمم الميتة دودا وسلطت على الأحياء منها الأسود والنمور الخ رحمة مني وعدلا وحكمة أفلا أخلق في رمم الأحياء بالهند وبلاد الاسلام ما يشبه هذا الدود ويشبه الأسود والفهود والنمور من رجال الدين ومن الأمم المستعمرين ؟ أولا ترون أني أخلق العنكبوت تنصب الخيام لاصطياد الذباب . أفلا أفعل كذلك في الانسان الذي أشبه الذباب . فأسلط عليه عنكبوت الشيوخ والبراهمة والدجالين. هذا فعلى وأنا الحكم العدل . أنتم أيها الناس جميعا اليوم في حال تشبه حال الأطفال من حيث مجموعكم والأطفال لا يستعدون غالبا لما يعقله البالغون . ملأت أرضكم بالأصنام وبالخرافات لأنكم لا تعقلون سواها . ثم أرسلت رسلا وآخرهم خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم فسرت دعوته في الأرض ووصلت الهند وفيها نحو خمسين مليونا من المسلمين وهم أرقى الجميع . وهذا العدد لم يسلم إلا بعد حروب دامت قرونا وقرونا . ثم مضت فترة ولم يقدر المسلمون على إزالة الأذى عن عباد البقر والأصنام هناك فأرسلت دول أوروبا فأخذوا يمنعون بعض تلك العادات تتميما لما فعل المسلمون قبلهم . وكل ذلك اليوم تمهيد للزمان المقبل القريب إذ يظهر الجيل الجديد من المسلمين لا سيما قراء هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يرون أن الناس جميعا إخوانهم وأنهم خلفاء الله في أرضه . فهؤلاء هم الذين يرقون الانسانية كلها بعلمهم وحكمتهم وامتزاجهم بالأمم وهنالك يزيلون الخرافات أولا من بلاد الاسلام وثانيا من بلاد غير المسلمين من أهل الهند وغيرهم . هنالك يفهم المسلمون معنى قولي في القرآن « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقولي « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » وقولي « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

هنالك يفهم الناس لماذا ذم الله التقليد في هذه الآيات التي نحن بصدد الكلام عليها ، وما فوائد الهدى والعلم والاستبصار .

فلما سمع صاحبي ذلك . قال : والله لقد شفيت ما في نفسي . فقلت الحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأربعاء ١١ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

* * *

جمال العلم وبهجة الحكمة

في ذم التقليد

أيها المسلمون: إني بينا أنا أكتب هذا الموضوع يوم الاثنين (١١) نوفمبر سنة ١٩٢٩ وقد اختمرت هذه الفكرة في نفسي طلع « الأهرام » وفي صدره هذه المقالة الآتية من بلاد الهند ، فأدهشني صدور هذا القول اليوم وفكرت في أمر الإسلام وأمة الإسلام وقلت إن هذه من المصادفات العجيبة . كيف يظهر اليوم هذا المقال وقد ظهرت فيه أحوال الهند المقسمين إلى أربع طبقات وأن البراهمة أو همومهم أنهم نواب الله الأرض وعاشوا عالة على الشعب ، وأن هذا هو أكبر سبب في خضوع الهند التي تعد بمئات الملايين إلى عشرة آلاف من الانجليز . اللهم إن هذه المقالة سيتجلى بها هذا المقام حقا وصدقا كيف لا والبراهمة قد نبغوا في احتقار الشعب وإدخال الغفلة عليه ، وبعض النصارى والمسلمين قد قلدوهم في ذلك الاحتقار ، فيا للعار ، ويا للشنار .

أيليق بخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأتباع النبي العربي صلى الله عليه وسلم (ذلك الذي قال «لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى» والذي أمر بلالا أن يؤذن على الكعبة بحضرة من قريش والذي نزل عليه «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» ذلك النبي الذي منع الاستشار ونبذ كل خوارق العادات وحكم عليها بأنها كهانة ، وجاء بالانصاف والعدل ، وأتى بمدنية تحتقر بجانبها مدنية بعض الأوروبيين ، أولئك الذين يحقرون أن يكونوا مع السودانيين في مكان واحد كمطعم أو ملعب ، ذلك هو الذي سمعناه اليوم عن بلاد الانجليز) أن يكونوا كالبراهمة فيفسدوا عقول الشعوب الاسلامية بمهدويتهم أو بمشيختهم . كلا والله لا يليق .

فهذا هو المقال الذي به نعرف معنى قوله تعالى «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» ووصفه صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير وأنه خاتم الأنبياء ، فقد ضرب للمدنيات القديمة ضربة زلزلت الأرض ولكن لا تزال الأمم في حاجة إلى إرشاد المسلمين الذين سيظهرون بعد ظهور أمثال هذا التفسير ، فالاسلام لا تزال أمامه مشاق وأعمال ملقاة على عاتق الأجيال المقبلة قراء أمثال هذا التفسير .

إن أكثر المسلمين يهوّش على عقولهم قوم بظواهر أحوال أو بأخبار بالغيب صدقا أو كذبا أو بالتقشف والزهد ، كل ذلك أمره قد مضى في حال طفولية الأمم الإسلامية ، ولقد قلت لك أيها الذكي إن الأمم الاسلامية اليوم في القرن الرابع عشر قد أزف زمان بلوغها بالسن وقد صارت كمن بلغ بالحلم ولعلها ترى الحقائق في زماننا هذا وتخرج من حضانة أولئك الذين لا يرون لها سياسة إلا بالابهام وحجبهم عن الحقائق وإبعادهم عن سواء السبيل .

أيها المسلمون : لا عطر بعد عروس . ولا مخبأ بعد بوس . هذا كتاب التفسير (الجواهر) هاهو ذا بين أيديكم فتفكروا فيه وقلبوا صحائفه وسيظهر جيل جديد سائر على منواله . فويل لمن تركوا مواهبهم وعقولهم واتكلوا على شيخ من غير تعليم ، وويل ثم ويل لمن نسوا نعم الله عليهم بالعقل والحواس والنعم الجلية ثم انتظروا مجيء المهدى ليهدى أبناء أبنائهم وهم لا يهتدون كأن الله عز وجل ليس هاديا للناس الآن مع أن من أسمائه تعالى (الهادى) وكأنّ النبي صلى الله عليه وسلم ليس من أسمائه الهادى . الله جعل الهدى في الأرض في كل زمان ومكان ولا يحجبه إلا التقليد الذي ذمه الله في هذه الآيات إذ يقف المستضعفون أمام المستكبرين ويقولون لهم أنتم سبب جهلنا فيقول المستكبرون . كلا . بل أنتم قوم مجرمون أي لأنكم لو كانت لكم عقول ماأطعتمونا ، وكيف تركتم مواهبكم وعقولكم ؟

اللهم إنا نحمدك على ظهور حقائق القرآن في التاريخ الذي جعل نبراسا ونورا لمن بعدنا . فانظر أيها الذكي إلى أهل الأندلس كيف قصرت أنظارهم أيام علي بن يوسف بن تاشفين ، إذ أنهم بعد أن عصوا عمال المرابطين لم يتفطنوا أن الفرنجة من خلفهم بل استقل كل بمملكته . لماذا هذا ؟ لأن العقول خمدت بسبب الجهل . ثم انظر إليهم بعد أن طردوا الموحدين من بلادهم كما تقدم فانهم تفرقوا شيعا وذاق بعضهم بأس بعض وذلك من نقص العلم والنفقة إما بالفسوق والاكتفاء بالشعر كما تقدم ، في (سورة الشعراء) . وإما بجمود القرائح بتعليم شيوخ يجعلونهم بالأماني قانعين وعلى الرؤساء متكلين « والله لا يهدى القوم الظالمين » .

إن الله قد أذن في هذا الزمان بظهور الحقائق ونشر المجلات والصحف فسهلت على مؤلف هذا التفسير الأمر واستبانت حقائق كثيرة كانت مطوية التفصيل عن أنظار الجمهور . فهذا المقال الذي سأذكره هنا عن الهنود يريكم أيها المسلمون مضارّ التقليد بأوضح سبيل وهذا عار على أمم الاسلام الذين بعدنا الدارسين العارفين أما أكثر الأمم الاسلامية المتأخرة فان شيوخهم ضلوا معهم بعض ضل البراهمة مع الهنود وكان من حقهم

أن

أن يكونوا مرشدى جميع الأمم لا أنهم هم يتبعون الشهوات كأولئك البراهمة القدماء والحاليين . فهاك نص المقال المذكور .

حديث الهند

(من عرف العلة فى جسم غيره دفع شرها عن جسمه)

مصر مع العالم تنظر إلى الهند وتصغى بأسماعها لشكواها . ومصر دون العالم يهتم بأمر الهند لأن شأن تلك البلاد شأنها ولأنها تشاركنا بآلامنا كما نشاركها بآلامها . وتتمنى خلاصها كما هى تتمنى خلاصنا وإذا قلنا الهند فقد أردنا الهند المفكرة العاملة الناهضة ، ولكن ما هى الهند ؟ أهى كمصر أمة واحدة بلغة واحدة وعنصر واحد بجو واحد وتقاليد واحدة وآداب واحدة ؟ وهل هى تحيا حياة ديموقراطية كمصر لا يفضل فيها المصرى المصرى إلا بعمله وبما يقدمه لوطنه ؟ لا . إنها ليست مثلنا ولا نحن مثلها فما هى الهند إذن ؟ وما هى أدواؤها لندفع شر تلك الأدواء عن أنفسنا إذا نحن أحسسنا بها . إن أصدق الجواب على هذا السؤال لهو بالأرقام .

فالهند التى أسماها الإغريق باسم أحد آلهتها لبندرا كعادتهم فى التسمية إذ كانت شطرا من القارة الأسيوية فهى تكاد تكون بيسا منفصلا عن العالم بالماء من جهات البحار وبالجبال الشامخة جدا حتى لا تجاز من جهات البر . مساحتها ٤٩٢٤٥٥٩ كيلو مترا مربعا يسكنها ٣١٩ مليونا منهم ٢٤٧ مليونا هم المستعمرة الانكليزية والآخرون ١٢ إمارة خاضعة للانكليز ، وهذا المجموع من الأهالى مؤلف من ٣٠ عنصرا وهم يتكلمون بـ ٢٢٢ لغة أو لهجة وليس لهذا المجموع لغة عامة وللغاتهم ٥٠ نوعا من الكتابة ولكل كتابة من ٢٠٠ حرف إلى ٢٥٠ حرفا كذلك تعدد أديانها . وجو بلادهم يختلف باختلاف المناطق فعلى مقربة من السواحل يهبط مستوى الأرض ٢٠٩ متر فوق سطح البحر فيكون الجو محرقا بدرجة ٤٧ بميزان سنتغراد وفى أعلى القمم على ارتفاع ٨٨٩٠ مترا يجمد البرد الدم بالعروق ، جميع الفاتحين الكبار غزوا تلك البلاد وملكوها ، من سزوستريس الفرعون المصرى إلى الاسكندر المقدونى إلى غزاة التبت الآريين الذين ملكوا ناصية تلك البلاد وأسموا أهلها بالبارسيين النجسين ثم تفرقوا بعد ذلك قبائل وصلت إلى أوروبا وملكتها وإلى العرب إلى الهولنديين والبرتغاليين الذين فتح قائدهم البحرى فاسكودى غاما طريقها سنة ١٤٩٨ إلى الفرنساويين إلى الانكليز الذين تملكوا ناصيتها من الفرنساويين واتخذوها مزرعة لشركة من شركاتهم إلى أن ابتاعتها حكومتهم من تلك الشركة فى سنة ١٨٣٣ وأخذت بتوسيع حدودها . وظلت حتى الآن لتلك الدول التى تقدمت انكلترا أملاك وجزر فى جوانبها .

والانكليز يستعمرونها للرزق والتجارة ، لأن مبادلاتها التجارية من الصادر والوارد لا تقل فى السنة عن ٥٠٠ مليون جنيه وكل استعمار للرزق ولرخاء العيش . وأقدر الدول على الاستعمار من قل رزقها فى وطنها ولا يتعب الانكليز كثيرا فى حكمها وجيشهم باحصاء ١٩٢٦ لا يزيد فيها على ستين ألفا . وكبار الموظفين على ٣٤٣٣ موظفا ورجال البوليس منهم على أربعة آلاف ، كما أن عدد الأوروبيين وأكثرهم من الانكليز لا يزيد على ٢٠٠ ألف ، فهل من المعقول أن يحكم هذا العدد القليل مثل ذلك العالم الضخم ؟ إن الجواب على ذلك يجده الباحث فى حياتهم الاجتماعية والأدبية : فالمسلمون وهم أرقى العناصر كانوا عضد الدولة الحاكمة وهم خمسون مليونا ، لأن حكم التفريق كان سائدا بينهم ثم الجهل الذى ترك فيه الأهالى ولا يزيد الآن عدد الذين يعرفون القراءة على ٨ بالمئة . ولأنهم يقسمون الأمة إلى طبقات بحكم شرائعهم القديمة ، فالطبقة العليا هى طبقة البراهمة نواب (الإله الأرضى) فى خلقه ، وهم فوق الجميع . ثم طبقة الكشاترياس أى المجاهدين والمقاتلة ثم طبقة

الفاشياس أى الفلاحين والزراع . ثم الطبقة الأخيرة الحقيرة النجسة وهى السودرا التى خلقها الله لخدمة الآخرين . وعند البراهمة نص فى شريعة (باها كافلا) بأن من قتل برهمانا حوله الله إلى حشرة من حشرات الأقذار إلى أن يولدثانية بعد موته فيأتى من عنصر باريا أى السودرا ويظل أعمى عدد شعر البقرة من السنين ولا يغفر له ذنبه إلا إذا أطعم ٤٠٠ ألف برهمانى، أما إذا قتل أحد البراهمة واحدا من السودرا فيكفى للغفران أن يرتل الغويالى وهى من أناشيدهم المقدسة ليطهر . فانظر إلى قيمة هذا وذاك فى شريعتهم المقدسة ثم اسأل أين المساواة ؟ البرهمة من آفة الهنود منذ عهد بعيد لا يقل عن ستة آلاف سنة . كان العلم محصورا بهم دون سواهم قبل دخول الغزاة بلادهم ، لذلك زادوا على الكتب المقدسة ماعزز نفوذهم وبوصفهم وكلاء (إله الأرض) وجد البغاء المقدس فى الهياكل لأجلهم . وحكم على الناس أن يقدموا لهم جميع حاجاتهم دون أن يقوموا بعمل ، فاذا ولد الطفل الهندى أعطوا الجعل وإذا بلغ اليوم السادس عشر من عمره أعطوا الأتاوة ليطهروه من رجس الولادة، وإذا بلغ الشهر الثالث أعطوا الأجر لقص شعره . وإذا بلغ الطفل الشهر السادس أعطى البرهمانا الأجر عن فطامه . كذلك إذا أتم السنة . ومن السنة الواحدة الى السنة السادسة عشرة وهى سن الزواج يعقد البرهمانا الزواج مقابل الأجر وكذلك فى حالة الموت واحتراق الجثة ووضع الرماد بالحق وفى كل شهر من السنة الأولى بعد الوفاة يقدم للبرهمانة كل ما هو عزيز على الميت على اعتقاد أنه يتمتع به فى آخرته وفى كل حفلة من هذه الحفلات يغسلون أقدام البرهمانة ويشربون ماء الغسل . تلك طبقة ليست عاطلة فقط بل كالعلق تمتص دم الأمة وتقتل هممها ونفوسها لما ابتدعته من الأحكام والشرائع . كذلك تقديس البقر حتى إنه لا يموت منهم ميت إلا إذا هو أمسك بذيل بقرة من تلك الأبقار المقدسة . وهم فى الصحة والمرض يلتقطون روثها وبولها ويمزجونه بلبنها ويضمونه فى أحقاق ليؤكل ويشرب فيشفى من كل داء ويدخل الآكل والشارب إلى الجنة وقد بلغ عدد البقر فى سنة ١٩٣٠ مليونا و١٤٦ ألف بقرة، وبلغت النفقة عليها ١١٧٦٠٠٠٠[1] جنيه أى أربعة أضعاف غلة الأرض، ومن هذه الأبقار ٧٠ ألف بقرة لايجوز الانتفاع بلحمها وعظمها وجلدها. وفى كل سنة تقوم المعارك بين المسلمين والهندوسيين من أجل ذبح البقر والذين يزورون الهند قد يشاهدون تلك الأبقار المحترمة المقدسة والناس يتراكضون لالتقاط بولها بأوعيتهم . إلى ذلك فى زعزعة رقى تلك الأمة ما يؤخذ أيضا من إحصاء ١٩٣٠ أن عدد الشحاذين والدجالين خمسة ملايين و ٨٠٠ ألف وعدد الدراويش والأولياء ٥٢١٧٤ شخصا فأى جسم يتحمل مثل هذا العلق ويظل قويا ؟ الهنود يقدسون الزواج والأطفال يصلحون له عندهم من سن الواحدة فصاعدا فإذا أتم الطفلان فعل الزواج قبل البلوغ قدمت الهدايا لوكلاء «الإله الأرضى» أى البرهمانا. وإلههم «سيفا» يصورونه فى كل مكان بصورة أحد أعضاء التناسل وإلههم «فيشنو» بصورة فعل الزواج . فلما قرر مؤتمر جنيف فى سنة ١٩٢٣ أن تحرم الدول نشر الصور المغايرة للآداب وأن تنص قوانينها بالعقاب الشديد قابل مسلمو الهند هذا القرار بالارتياح بل بالفرح والسرور . وقابله الهنود بالسخط والغضب، فنص فى القانون الذى يحرم نشر الصور القذرة على اشتراط مخالفة الدين وسن قانون الزواج بعد ذلك على أن يكون سن الشابين بين العاشرة والثانية عشرة ونادى غاندى بهذا الإصلاح ولم يكتف به وأعلن تاغور شاعرهم حربا على هذا القانون الذى عده فوزا للمادة على الروح وأصر على تزويج الأنثى قبل أن

---

(١) هذه العبارة نقلتها من الأصل وهذا الأصل خطأ لأن غلة الأرض أضعاف هذا بعكس ما جاء فى هذه العبارة انتهى .

تصير بالغة عجة أن الأنثى فى هذه الحالة لاتعرف أنها أنثى إلا وهى مزوجة . أما حجة غاندى فكثرة الوفيات وضعف النسل وشيخوخة الرجال وهم فى الخامسة والعشرين ووهن النساء فى سن الشباب وكانت حربا شعواء وانتهت بأن اقترح مجلسهم فى سنة ٢٥ رفع سن الزواج إلى ١٤ سنة ودل الإحصاء على أن البنات اللاتى يمتن فى سن الطفولة بسبب الزواج يبلغ متوسط عددهن فى السنة ثلاثة ملايين و ٢٠٠ ألف وقد عرف الناس أنهم رفعوا السن فى تشريع هذا العام إلى ١٦ سنة، أما الأرامل وعددهن فى الهند ثلاثون مليونا فلا يمكن أن يتصور الإنسان على ما وصف داس وغاندى ، والمس مايو الأميركية حالا أسوأ من حالهن مرضا وسقما وضعفا . فالمرأة إذا مات زوجها كانت تحرق نفسها على قبره أوهم يحرقونها إلى أن أبطل الإنجليز ذلك بعد جهد جهيد . أما اليوم فإنها تحلق شعر رأسها ولا تطعم إلا العيش اليابس مرة فى اليوم ولا تخاطب إلا بعبارات التحقير والازدراء ولا تقابل أحدا ، وقد نادى غاندى بالهنديات الراقيات لينشرن الدعوة لزواج الأرامل ولإكرامهن وكانت فكرة هذه الجمعية موجودة منذ سنة ١٨٩١ ولكنهم لم يفلحوا حتى الآن ، كما أنهم لم يفلحوا بإبطال البغاء المقدس ، وهو أن يقدم الرجل بنته وهى طفلة للإله فيقوم وكيل الإله الأرضى مقامه وهكذا تصير الفتاة بغيا مقدسة لمن يدخلون الهيكل . وفى معبد كالى إلهة الدم المسماة كالكوتا باسمها ألوف منهن . ومن أسباب انحطاط الهند طبقة السودرا أى الطبقة النجسة وعددها ٦٠ مليونا فهم فى نظر الطبقات الأخرى الثلاث دون الناس فلا يجوز لهم دخول المدارس ولا دخول الهياكل ولا المحاكم ولا المخازن ولا المستشفيات، حتى إنه لايجوز لهم امتيار المياه من الآبار العمومية ، وفى بعض الجهات لا يجوز لهم السير بالطرقات العمومية، وإذا وقع ظل واحد منهم على شىء أو على إنسان نجسه، وإذا وقع على مأكل أو مشرب حرم أكله وشربه . وإذا رأى أحدهم برهمانا مقبلا وجب عليه الابتعاد عن طريقه نحو مئتى متر على الأقل . كما أنه يجب عليه الابتعاد عن الطبقات الأخرى نحو ٣٠ مترا ولم يتعرض الانكليز لهذه الحالة احتراما لأمر ملكتهم فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٥٨ بألا يتعرض أى الإنكليز لأحكام الدين والعقائد، وهؤلاء التعساء يعتقدون أن ذلك حكم الله عليهم . ولكن غاندى هب للدفاع عنهم بحجة أن الدين لم يحرم رفع هذه الطبقة إلى مصاف الطبقات الأخرى ، فمن الواجب أن ترفع إليها فعقدوا فى بمباى مؤتمرا ضخما لمحاربة هذا المبدأ . ولما صدر القرار فى مارس بأن يكون تعليم الهنود جميعا إجباريا خصصوا ٦٩ مكتبا لأولاد هؤلاء النجسين وعينوا ٨١٥٧ مكتبا للآخرين وفى سنة ١٩٢٦ أصدر مجلس الشورى ببومباى قرارا بقبول أطفالهم بالمدارس وبالسماح لهم بتناول الماء من الآبار العمومية ، ولما أوفدت انكلترا المستر مونتاغو إلى الهند فى سنة ٩١٧ ليسأل الهنود عما يريدون لبلادهم جاءه أناس من هذه الطبقة وقد تنورت أذهانهم من الاحتكاك بالأجانب وقالوا إنهم يرفضون الحكم الذاتى لأنه لايكون إلا أداة لتسليم الضفدع للثعبان ، ولما نزل ولى عهد انجلترا فى بومباى سنة ١٩٢١ وأذاع غاندى رسالة قال فيها إن هذه الزيارة إهانة للهنود واحتقار أضرب الناس عن مقابلة الأمير وسادت الاضطرابات فى شوارع تلك المدينة مدة أربعة أيام فقتل ٥٠ وجرح ٤٠٠ ولكن لما أراد الأمير السفر من بومباى إلى دلهى ركب من القصر إلى المحطة وهى تبعد ثلاثة كيلومترات فاجتمع ألوف الألوف على طريقه يحيونه وسبقه ألوف إلى دلهى للغرض ذاته وكان هؤلاء جميعا من طبقة السودرا لأنهم يحبون رجلا قويا وكل قوى إله وهكذا حملهم جماعة منهم على تحية ذلك الأمير فهل رأى القارىء ما هى الأمراض الاجتماعية التى تجعل ٣١٩ مليون إنسان خاضعين خائفين لستين ألفا وهم هم الذين كان من أبنائهم ٩٨٥ ألفا فى ميادين القتال للدفاع عن الامبراطورية فظهروا فى ذلك الدفاع أبطالا أشداء ، تلك أمراضهم ومن عرف مرض سواه وقى نفسه . وإذا أردنا وصفا للهند جامعا وجدنا هذا الوصف الجامع

بين شق قلم غوستاف ليبون القائل : إن الهند حلقات أولها مع أول عهد الإنسانية وآخرها مع آخر مرحلة وصلت إليها المدنية . فهى سجل صادق لتاريخ الإنسانية وأديانها . وتقاليدها وأطوارها وضعفها وقوتها وتدينها ورقيها اهـ .

هذه صورة أهل الهند قد وضحت الآن فى هذه المقالة وظهرت حقائق يتوق لمعرفتها العقلاء فى الإسلام . ولقد تقدم فى هذا التفسير مافعله (ابن الصباح) فى قلعة الموت وكيف تعلم تلاميذه شرب الحشيش فصاروا حشاشين وخيل لهم أن الجنة تحت أقدام رؤسائهم . وهكذا ما فعله كثير من رؤساء الصوفية . وكيف كان التدليس فى أمم الإسلام . ألا إنما مثل هــذه الأمم كمثل نوع من الطير يعيش فى بعض الفصول فى بحيرات مصر بالوجه البحرى وسياسته هكذا : ينام الطير ليلا ويحرسه أربعة طيور من الجهات الأربع والقدم هو الرئيس ، وهذه الطيور النائمة لا تطير إلا بأمر ذلك الرئيس إذا صرخ عليهن . وقد اعتاد الصيادون أن يقتلوا ذلك الرئيس بطريقة ، وهى أن يلبس الرجل على رأسه ما يشبه وجه هــذا الطائر ومنقاره وهو مختف وراء تلك الصورة وتعوم هذه الصورة على وجه المــاء فيظن الطير أن هذا من جنسه حتى إذا وصل إلى ذلك الرئيس جره من رجليه تحت الماء فقتله ، فإذا أحس بذلك أحد القواد فى اليمين واليسار والخلف من الحراس الأربعة أسرع وصار رئيسا بدله ، وعليه يأتى الصيادون أربعة رجال فيقتلون هؤلاء الأربعة مرة واحدة وتبقى تلك الطيور بلا قائد ، ثم يأتون إلى أرجل تلك الطيور النائمة فيكسرونها تحت الماء حتى لا تطير .

هذا فعل الصيادين فى بحيراتنا كبحيرة المنزلة مع ذلك الطائر ، وهذا العمل عينه هو الذى حصل فى تلك الأمم الإسلامية المحكومة برجال أناموا عيونهم وأقفلوا قلوبهم .

ألم تر إلى مافعله المرابطون؟ إذ أحرقوا كتب الغزالى واقتص له محمد بن تومرت . ألم تر إلى الموحدين فى آخر دولتهم لما حرموا الفلسفة وأهانوا ابن رشد كما تقدم فى غضون هذا التفسير وبعد ذلك لم تقم للعلم قائمة حتى أوائل هذا الزمان .

ولقد أذن الله عز وجل بالاقبال والعز والنصر المبين . لقد نصر الله أمم الإسلام ، والدليل على ذلك نشر هذا التفسير ، فانا والحمد لله نكتب فيه آراء الأمم قديما وحديثا ولم ندع حكمة قلت أوجلت مما تفتخر به الأمم قديما وحديثا إلا أدرجناه فيه ومع ذلك قبله المسلمون جميعا فى أقطار الأرض إلا طوائف ضئيلة لايعتد بهم ، وإنى أقول بأعلى صوتى : إن المسلمين فى هذا القرن الرابع عشر قد صاروا أشبه بغلام بلغ بالحلم . ذلك لأن الحروب والحوادث المريعة فى الشرق والغرب أيقظتهم وإن لم يبلغوا القرن الخامس عشر الذى اعتبرناه السنة الخامسة عشرة، لجدير بأن تسمى هذه الأمة قد بلغت الحلم والله أذن لها بالارتقاء والسعادة، والحمد لله رب العالمين . كتب مساء يوم الثلاثاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩٢٩ .

نور على نور

(الكلام على البراهمة)

تفسيرا لقوله تعالى «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخ
التى تحض على التفكير ونبذ التقليد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

حضر صاحبى اليوم (الأربعاء) بعد الظهر (١٣) نوفمبر سنة ١٩٢٩ واطلع على ما كتبته وأخذ يقرأ طوائف البراهمة والظلم والحيف والخرافات . فقال: إن هذا التفسير قد عودنا أن يبحث فى الشبه التى تعرض لنا فى أثناء المباحث العلمية ، وهاهى ذه الشبه تترى عند قراءة مقال البراهمة ، ذلك المقال الممتع فأقول :

إن قراءتى لأكثر هذا التفسير قد جعلتنى لاأرى طائرا ولا حشرة ولا غزالة ولا كوكبا ولا شمسا ولا قمرا إلا تمثل أمامى كأنه حكمة مجسمة وقبسة نورية وبهجة للأبصار، ينظر الانسان فيرى الحشرات الطائرات مملوءة حكمة مزدانة بالاتقان . أليس من أعجب العجب أن يمر فى هذا التفسير نقلا عن علماء الأمم فى الأرض بلانكير أن للذبابة أربعة آلاف عين كل عين منها مستقلة . ألم يتقدم فى (سورة النحل) أن للنحلة خمسة أعين منها عينان مركبتان كل عين منهما مركبة من نحو مائتى عين . فياليت شعرى ماهى النحلة ، وما هى عينها ؟ وما هى الذبابة ؟ وما هى عينها ؟ وما هذه الحكم البديعة الجميلة الكثيرة التى لاحصر لها فى مخلوقات منبوذات قذرات محقورات ؟ وما هذه العناية بها حتى سمعنا الله فى القرآن يقول : «إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها» ثم أعقب ذلك بما يفيد أن الناس [قسمان] قسم يعلم أن هذا حق ، وقسم جاهل مستهزئ . وأيضا سمعناه سبحانه وتعالى يسمى سورا بأسماء الحشرات من نمل ونحل وعنكبوت .

هذه عناية الحكمة الإلهية بأقذر المخلوقات وأحقر الحشرات ، فكيف عمت رحمته هذه المخلوقات كلها ثم هو نفسه سبحانه يدع أمما من نوع الانسان فى الضلال والوبال والخسار والجهالة العمياء ، وإذا منح الذبابة أربعة آلاف عين باصرة قد ثبتت فعلا ورؤيت بالمنظار المعظم بشهادة جميع العلماء فى الأرض ، أفليس من رحمته أن يمنح أمثال هؤلاء الهنود قوى عقلية ترفعهم عن هذه الجهالة والذل والحرمان وضلال العقول الذى أورثهم ذل الأبد وضياع البلد والخزى المبين .

قلت : حياك الله . لقد أجدت فى إيراد هذا السؤال وحسن منك أنك أوردته لأنك فتحت لى بابا واسعا من الحكمة لولا سؤالك لم يخطر بنفسى معناه . إن الله فعل مع هؤلاء الهنود من الرحمة أكثر مامنح تلك الحشرات وأعطى كل ذى فضل فضله . فقال أريد الايضاح . فقلت : إن الله بهذه الأحوال الهندية كأنه يخاطب الناس قاطبة يقول : أى عبادى ، أنا حكم عدل فى الدنيا والآخرة ، فهل أخرت الشمس ثانية واحدة عن موعدها ؟ أم سيرت القمر فى غير طريقه ؟ أم أخللت بأى جسم من الأجسام السماوية ؟ هل نسبت حقيرا لحقارته ، أم حابيت عظيما فى نظركم لعظمته ؟ أما ماتظنون مما يشبه الجور منى فى هذه الأمم الإنسانية فذلك ليس جورا منى وإنما هى الحجب أسدلت على عقول أكثركم فلم تفهموها ، وظلمات الذنوب غشت على أفئدة أكثركم فلم تعقلوا ما نحن بأهل الهند وبغيرهم صانعون .

« أيها الناس : أنا لا أعطى ولا أمنع إلا بحق : فلست أعطى الأطفال علم العلماء ولا أمنع مستحق الحكمة علم الحكماء ، والناس فى الأرض ليسوا على شاكلة واحدة بل هم طوائف وفرق وأصناف لكل طائفة شأن يغنيها وحال تواتيها . إن هذه المادة قد قبلت الصلابة والسيولة والحال الغازية كالحديد والماء والهواء فلم أبخل عليها بجميع هذه الأحوال ، هكذا الحيوان اختلفت أجناسه وأنواعه وأصنافه . فمنه بقة ومنه فيل ومنه حيوان ذرى لا ترونه بأعينكم ومنه جمل كبير . أنا واسع . أنا حكيم ، وكل طائفة من هذه الحيوانات سعيدة بحالها فرحة بحياتها شاكرة لخالقها فتكون المخلوقات كلها خوادم لى ، فهل من العدل أن أوسع نطاق الحيوان والمعادن والنبات والجوامد ثم أعمد إلى أرقى حيوان وهو الإنسان فأجعله فى دوائر ضيقة . كلا . أنا واسع . أنا حكيم . تعجبون أيها الناس من قوم عبدوا البقر وهذا البقر يطوف عليهم آناء الليل وأطراف النهار . تعجبون أنهم تركوها فى سبلهم وحقولهم ترتع وتأكل ما تريد . تعجبون من ذلك كله وتقولون أيضا إن البراهمة استحوذوا على عقول القوم وغشوا على أبصارهم واستعبدوا (٦٠) مليونا وحقروهم وعدوهم فى الأذلين وهم الفريق الرابع . كلا . لاظلم اليوم ولاظلم فى المخلوقات كلها من حيث النظام العام ، هؤلاء أناس استعدادهم ببيئتهم وأخلاقهم وتركيب عقولهم لايسع أكثر من هذا . نظرت إلى تركيب عقولهم وإلى نظام أمورهم فوجدتهم لم يتجاوزوا المحسوسات وهذا لا عيب فيه ولاظلم ، ألم أخلق فى البرارى والقفار مالا يحصى من الحيوان؟ ألم أخلق فى الغابات فى خط الاستواء طوائف من الحيوانات والطيور ولكل منها مكان خاص : إما فى أسفل الشجرات وإما فى أواسطها وإما فى أعلاها ، وكل سعيد فى مكانه ، مقيم فى بيته ، راض عن ربه . فهكذا من نوع الإنسان طوائف ارتقوا عن الحيوان ولكنهم لم يصلوا منتهى الكمال وأحبوا القرب منى ، ولكنى أنا لست كمخلوقاتى . وإذا كنتم أنتم لاترون الهواء ولا الكهرباء فكيف تروننى ! فمن رحمتى إذن أن أقيض لهم أناسا يضربون لهم الأمثال المجسمة إما بالأصنام وإما بالحيوان ومنه هذا البقر . فإذا رأيتم البقر يطوف عليهم ليلا ونهارا وهم يعظمونه فما هذه إلا أصنام متحركة ، بمنظرها يخضعون لما يتوهمون فيها من القوة القدسية فيعيشون معا بسلام وأمان لأنهم يتذكرون الحلال والحرام فى نظركم بالأصنام فى المدن وبالبقر فى الحقول والسبل . أصنام متحركة اخترعوها وعجول سائبة عظموها . فهؤلاء ليس فى طاقتهم ولا فى إمكانهم أن يفكروا فى جمال شمسى وقمرى وكواكبى ولا فى تركيب نفوسهم تفكيرا جديا ويعرفوا بذلك مقدار عظمتى فأعطاهم رؤساؤهم تلك الصور والأشكال لتكون تذكرة لهم كما قلت لكم فى القرآن حاكيا عن الكفار « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وإذا كنت أنا قد سلطت الذباب على قذرى العيون ومتسخى الأجسام وأرسلت طوائف المكروبات (الحيوانات الذرية) على ضعيف الأجسام ليفارقوا الحياة فى هذه الأرض رحمة بهم ، وخلقت الدود وسلطته على أجسام الناس فى قبورهم فذلك لأنى حكيم أضع الأشياء مواضعها ولا أعطل موجودا ، وكيف أعطل الأجسام الميتة وهى جديرة أن تكون قوتا لأمة من أمم الحيوان ، وتعطيل النافع إخلال بحكمة الوجود ، فهكذا إذا ضلت أمة من أمم الإنسان على مقتضى سنن الكون وأخذت تقترب من أخلاق الحيوان فأنا أعطيها ما يشبه العلم رحمة بها ويكون ذلك أشبه بالهواء الفاسد يعيش فيه الناس والحيوان إذا لم يكن سواه ، وهواء فاسد خير من الاختناق والموت السريع بعدم الهواء ، وبعض الشر أهون من بعض . وليس فى طاقة أرضكم وعوالمها بحسب النظام أن تكون على غير هذا النظام . ألم تروا يا معشر المسلمين أنكم فى حال جهالتكم (كان ذلك منذ خمسين سنة وأنا مجاور بالجامع الأزهر وحصل فى قريتنا كفر عوض الله حجازى شرقية وشاهدته بنفسى) إذا قل العلم وكثر الجهل تضلون فضل الهنود مع أنكم مسلمون وأنتم بذلك

فرعون ، ألم تبنوا عجولا من البقر ومن الجاموس وتطلقوها فى الحقول والغيطان باسم ولى من أوليائى عندكم ذلك كان فعلا فى بلادنا فيقولون هذا العجل للسيد البدوى وهذا للعزب وهكذا، فما كان الناس ليقدروا على طرد تلك الدواب من حقولهم خوفا من السيد ومن العزب بل اللصوص جعلتك لا يجسرون على سرقة تلك العجول لا خوفا منى بل خوفا من عبادى الميتين (وقد تنورت بلادنا اليوم بالعلم وأنتهت تلك الأحوال) .

« تقولون أيها المسلمون إن البراهمة غشوا على عقول الهند ، أو لستم ترون شيوخ الطرق والمتشبهين بهم يغدون ويروحون فى طول بلاد الاسلام وعرضها لشدة جهالة المسلمين وقلة العلم عندهم ، وهؤلاء الشيوخ أنتم تغدقون النعم عليهم وتطلبون منهم الدعاء كأنى أنا أطلب منكم وسطاء بينى وبينكم مع أن النمل والنحل والذباب أنعمت عليها بلا واسطة بينى وبينهن ، ألم تروا بأعينكم فى جميع أقطار الاسلام فى جهالتها (ذلك رأيته بنفسى فى قريتنا أيضاً منذ خمسين سنة) شيوخا معممين يطوفون على منازلكم وينصبون حلقات الذكر ويغنى مغنيهم وأنتم تعطونها(الساعة) من أموالكم (وهذا اليوم قد ألغى ، إذ تنور أهل بلادى الآن) وإنما طاف عليكم هؤلاء لأنكم لما حرمتم من العلم سخرت لكم قوما يعطونكم ما يشبه العلم من القصص الخرافية وجعلت هيئاتهم تدل على الصلاح لتعيشوا فى بلادكم بسلام على قدر الإمكان ، فاذا كان جهلة الشيوخ عندكم. أيها المسلمون يأكلون من أموالكم ولا عمل لهم إلا هذا ، وإذا كان البراهمة يحقرون الشعب وينيمون عقوله وليس لهم عمل إلا هذا ويعيشون من أموال مريديهم فذلك أن هؤلاء الشيوخ وهؤلاء البراهمة أشبه بالحكام الظالمين الذين أسلطهم على الأمم المجرمة فيكون نفعهم أكثر من ضررهم فى الحياة الدنيا لئلا يقتل بعضهم بعضا إذا لم يكن لهم حاكمون ، قوم جهلاء لم يستعدوا للعلم فلتكن لهم صورة الصلاح يرونها بأعينهم وليأخذ أولئك الشيوخ من أموالهم ليرزقوهم عسى أن يفكر مفكر فيخرجهم من الجهالة إلى مرتبة العلماء، هذا هو نظامكم فى الدنيا أيها الناس .

أما نظام الأرواح ومراتبها بعد الموت فأمره عنكم مستور ، ولكنى أقول : أيها الناس إن الأعمى هنا أعمى هناك، إنى خلقت (حشرة الأرضة) ذات المملكة الواسعة وهى عمياء ، أفلا أخلق إنسانا أرقى منها بما لا حد له وأضعه فى مرتبته بعد الموت لا يستحق سواها ، فان كان أعمى البصيرة هنا أعميتها له هناك ، وإن كان مفكرا هنا جعلته مفكرا هناك . إذن لا ظلم اليوم . أنا خلقت النمل وخلقت الأرضة وما قالت إحداها لماذا لم تخلقنى كالأخرى بل كل يعمل على شاكلته . هكذا أهل الهند الذين ضلوا ببقرهم وأصنامهم وجهال المسلمين الذين اتكلوا على شيوخهم وأتباع (أغا خان) فى الهند من الاسماعيلية الذين قدسوا رئيسهم . وكذلك رجال البهائية اليوم الذين انتشروا فى الفرس وفى غيرها وأمريكا وأوروبا . وكذلك أتباع (غلام أحمد) بالهند وغيرها . فهؤلاء وأمثالهم يقولون إن رئيس مذهبهم هو المسيح . وعزتى وجلالى لئن لم ينته المسلمون عن التوانى والكسل لأسلطن عليهم أقل الرؤساء الحاكمين عدلا وأجهل الوعاظ علما ، وهذا فى الحقيقة عذاب الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . أهل الهند معذبون بشيوخهم . معذبون ببقرهم وهم لا يعلمون أنهم معذبون . والمسلمون معذبون بجهالة شيوخهم وبأساطيرهم وهم لا يعلمون أنهم معذبون » .

فلما سمع صاحبى ذلك قال: لقد وفيت المقام حقه وأزاح الله عز وجل بقولك خرافات أسدلت على العقول حجبا ، ولكن أرجو أن تبين هنا المقام (أولا) أن تفيض القول فى أمر الهنود الذين خضعوا البراهمة فتضرب مثلا لما أضرهم من التقليد (ثانيا) أن تبين لى نموذجا من كتب أكابر المسلمين تدعو إلى ما يشبه بعض

الشبه ما فعله البراهمة حتى يظهر لنا بامتحانها أنها لاتصلح لهذا الزمان ، ومتى فعلت ذلك انصرف المسلمون عن هذه الأحوال (وثالثا) أرجو أن تضرب مثلا لما تفعله بعض الأمم التى لم يقتلها التقليد فى زماننا حتى يوازن المسلمون بين من قتلهم التقليد الجاهل وبين من أحياهم العلم . فقلت : إذن ذلك (ثلاثة فصول : الفصل الأول) فى بيان الضرر الفعلى فى بلاد الهند من سوء التقليد (الفصل الثانى) فى نموذج من كتب منسوبة لبعض عظماء الاسلام تدل على الطريقة التى كانت متوارثة فيما بين الملوك ورجال الدين (الفصل الثالث) فى ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا . وهاك بيانها .

الفصل الأول

(فى بيان المضارّ الحاصلة فى بلاد الهند فى هذه الأيام بسبب سوء التقليد تفسيرا لهذه الآيات)

جاء فى جريدة « الأهرام » بعنوان (رسالة الهند بالبريد الجوى) من مدراس بتاريخ (١٧) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م ما نصه :

كانت الجمعية الهندية التشريعية فى خلال الأسبوع منهمكة بمشروع إصلاحى اجتماعى نال الشىء الكثير من اهتمام أعضاء الحكومة والزعماء الوطنيين وهذا المشروع هو من اقتراح رأى (هربيلاس سردا) أحد الأعضاء الخصوصيين وهو عبارة عن مشروع قانون عقوبات على زواج الذكور قبل سن الثامنة عشرة والاناث قبل الرابعة عشرة وقد اجتاز هذا المشروع المصاعب الأولية بفوز ونجاح . وذهبت جميع مساعى المدافعين عن تقاليد المذهب الهندى وبعض المسلمين أدراج الرياح ، وتقرر النظر فى المشروع مادة مادة . ولا ريب أن مالقيه هذا الموضوع من التأكد المظم سيقنع العالم الخارجى أن الرأى العام فى الهند قد بدأ يثور على العادات القديمة وهذه علامة تبعث على الرجاء . إن الزواج فى الهند يكون عاما للنساء والرجال . فالهندوكيون يبكرون فى الزواج أما عنصر البارسى فلا يتزوجون إلا كبارا وهناك شيعة من الهندوكيين تجيز تعدد الزوجات وطائفة الكولين من مذهب البراهمة يتزوجون أكثر من زوجة واحدة والمسلمون وإن كانت ديانتهم تبيح زواج أربع نساء فانهم لايتزوجون عادة أكثر من زوجة واحدة . ولا تزال عادة الزواج بالأسير شائعة فى طائفة الحول فى أواسط الهند . والهندوكيون يعتبرون الزواج سرا مقدسا والزوجة الهندوكية تعتبر شريكة مساوية لزوجها . ولاتزال سيتا زوجة راما بطل لامايانا لدى الهندوكيين المثل الأعلى للزوجة ، وحسبنا أن نقتبس هنا ماوصف به جنكا والسيتا ذلك الملك الحكيم ابنته عندما زفها إلى عروسها البطل (السرراما) فجاء وصفه مطابقا لما يعده الهندوكيون المثل الأعلى للزوجة فى كل عصر ، وقد قال مخاطبا (السيرراما) شعرا مؤداه : (هذه هى سيتا ابنة جنكا التى هى أعز عليه من الحياة . وستكون من الآن فصاعدا شريكة فضيلتك أيها الأمير وزوجك الأمين . وستشاركك فى السراء والضراء فى كل بلاد . فأكرم مثواها وتلطف بها فى البهجة وفى الأحزان وضع يدك فى يدها . إن الزوجة الأمينة يجب أن تكون كالظل لزوجها لاتفارقه . وبنى سيتا خير النساء ستتبعك فى الموت والحياة .

إن مراسيم الزواج فى الهند بديعة يعقبها الشىء من الأفراح والمسرات ، والطلاق نادر عند الهندوكيين ولكنه شرعى جائز عند المسلمين . أما البارسيون سواء من المسيحيين أو البوذيين فنسبة المتزوجين منهم الى غير المتزوجين هى ٤٣٨ فى الألف من الذكور و ٤٦٧ فى الألف من الإناث . وتكاد تكون هذه النسبة ذاتها فى الطوائف الأخرى . والزواج المبكر شائع لدى بعض طوائف الهندوكيين والاقتران قبل سن العاشرة أكثر شيوعا فى باهار وأوريسا وبمباى وأواسط الهند وحيدر آباد ، وهو نادر جدا فى عسام وبورما وولايات الحدود الشمالية الغربية والسند ، ولكنه على كل حال قاصر على الطبقات الدنيا غير المثقفة . فكثيرا مايتفق أن يقترن شيخ فان بفتاة فى ربيع العمر وهذا نوع خاص عند الهندوكيين . فالوالد الذى يهب بنته لقاء قبضة من الذهب للشيخ بقية أيام حياته معدودة يكون بعبارة أخرى قد ابتاع لها الترمل الأبدى وهو نوع من قتل الأطفال ،

ولسوء الحظ لا ينهى عنه القانون إلا في ولاية ميسور الراقية حيث لا يجوز قانونا أن يقترن رجل في الخمسين من العمر بفتاة دون الرابعة عشرة من عمرها وفي باروداقانون يمنع زواج البنت دون الثانية عشرة من العمر والغلام دون السادسة عشرة. وهذه الأعمار ليست طبعا آخر ما يقال ولكن بقية الولايات الهندية حتى الهند البريطانية لم تقتد بهاتين الولايتين الراقيتين اللتين يحكمهما أمراء متنورون أحرار المبادئ من الهندوكيين ولم ينسج على منوالها لعدة أسباب ، والذى زاد هذا النظام ضررا هو ما يتبعه الهندوكيون فى مسألة الأرامل لأن مذهبهم لا يجيز زواج الأرملة وإن كانت فى زهرة صباها حتى ولو كان الزواج لم يعد عقد الخطبة . ويبلغ عدد النساء الأرامل فى الهند ثلاثين مليونا ، ومعنى ذلك أن بين كل مائة امرأة ١٩ أرملة مع أن نسبة الأرامل فى أوروبا لا تزيد على ٩ فى المئة ، ولكن بينما لا يوجد بين أرامل أوروبا سوى ٧ فى المئة دون سن الأربعين من العمر يوجد بين أرامل الهند ٢٨ فى المئة دون هذه السن ، ومما يدهش قراءكم أن هناك ١٦٠٠٠ أرملة فى الهند لا تتجاوز سنهن خمس سنوات ، وهناك نحو ألف أرملة لا تزيد سنهن على سنة واحدة . فالقضاء على هذه المخلوقات البريئة أن تقضى العمر فى الترمل مع ما فيه من الحرمان عند الهندوكيين سخافة جنائية .

وقد اهتمت الطبقة المتعلمة أخيرا وبذلت كل ما فى وسعها لالغاء هذا النظام المتعلق بالأرامل . وتبذل الآن مساع عظيمة من عدة مصادر لتشجيع مشروع زواج الأرامل الذى أبيح قبل الآن بفضل جهود المصلحين ومن مجموع أرامل الهند عشرون مليون أرملة من الهندوكيين فهذه المسألة وغيرها من المسائل الاجتماعية كزواج الأطفال والأمومة المبكرة قد انتقدت أشد انتقاد ولاسيما من الكتاب الغربيين ، وأخص بالذكر منهم (الس مايو) الكاتبة الأمريكية الشهيرة التى صورت هذه المسائل تصويرا مجسما وأفاضت فى وصف هولها وشناعتها ، وقد ذكرت فى رسائلى الماضية الجهود التى يبذلها زعماء الهند لتحسين حالة المرأة الهندية . والحقيقة ترغمنى على القول أنه حتى نهار أمس كانت حكومة الهند أكبر حليف للرجعيين الذين يأبون إصلاح النظام الاجتماعى من جميع الطوائف . وبالرغم من هذا كله فان الحوادث سائرة سيرا سريعا شطر الاصلاح وشعرت الحكومة بأنها مرغمة لأن تعين لجنة تمثل الهندوكيين والمسلمين للنظر فى مشروع تحديد سن الزواج . وقد كان العضوان المسلمان فى هذه اللجنة كلاهما من معارضى المشروع ولكن أحدهما وهو منان شاو وأخان رأى نفسه أخيرا مرغما بالأدلة الساطعة التى قدمت إلى اللجنة على أن يغير اعتقاده فاعترف فى الساعة الأخيرة أن زواج الأطفال المتبع حتى الآن يجب أن يحرم وتفرض على مرتكبيه العقوبات وأن معارضة المتمسكين بحرفية أصول المذاهب يجب ألا يأبه بها بتاتا . وكانت سيدة هندية ضمن أعضاء هذه اللجنة . وقد أصدرت هذه اللجنة قرارها قبل انعقاد جلسة الجمعية التشريعية الحالية . ومما استوقف الأنظار فى أثناء التحقيق الذى كانت تقوم به اللجنة هو ازدياد الرأى العام الذى يؤيد فكرة وجوب تغيير مشروع قانون عقوبات زواج الأطفال واعتبار البغاء الخارج عن دائرة الزواج جريمة خطيرة قبل سن الثامنة عشرة وهى السن التى يمكن اعتبار المرأة فيها راشدة وأن ما ترتكبه يكون برضائها . وفوق ذلك فان البعض طلبوا بالحاف أن يعتبر البغاء جناية بصرف النظر عن سن المرأة . وقد أوصت اللجنة بوضع قانون يحدد النهاية الصغرى لسن زواج البنات ١٤ سنة ، وأوصت بأن يكون سن الرضا بدخول الزوج على عروسه ١٥ سنة . وأن يكون سن الرضا لصيانة البنت من إغواء شخص غير زوجها الشرعى ١٨ وأن يعتبر دخول الزوج على عروسه قبلما تبلغ سن الخامسة عشرة جريمة تدعى سوء استعمال حقوق الزواج . وأنه لما كان كل شىء يتوقف على سن البنت أوصت اللجنة بوجوب اتخاذ تدابير فعالة لتسجيل المواليد وتسجيل عقود الاقتران وإصدار شهادات بالولادة والزواج . فى جو مثل هذا عقدت الجمعية التشريعية جلستها أمس للنظر فى مشروع قانون زواج الأطفال المعروف بمشروع سردا .

انتهى الفصل الأول .

الفصل الثانى

(فى ذكر نموذج من نماذج الكتب الإسلامية التى تدعو إلى مايشبه بعض الشبه مافعله البراهمة فى الهند)

ها هو ذا أمامى كتاب [سر العالمين] لأستاذى وأستاذ المسلمين جميعا (الإمام الغزالى) وهذا الكتاب يخالجنى فى نسبته إليه شكوك بل جحود لأن فيه مايخالف طريقته ، ولكن الكتاب فيه آراء هى هى التى ظهرت فى كل زمان ومكان بأمثال المهدويين كابن تومرت المتقدم ذكره وشيوخ الطرق ، الكتاب صفحة واضحة بها يتجلى للشبان بعدنا كيف كان رجال الصوفية ، وكيف كان الملوك يوهمون الشعب ويخضعونه ، ويفعلون بعض مايفعله البراهمة أيام أن كان آباؤنا فى أزمان طفولية الأمم الإسلامية فحجبوا عن العلم ، الكتاب كله يرجع إلى جملة واحدة ذكرها العلامة (ابن المقفع) فى كتاب [كليلة ودمنة] الذى ترجمه من الفارسية إلى العربية وهى : يجب أن تكون أحد رجلين ملكا عظيما أو ناسكا عابدا ، وهذه الآراء بانتشارها فى الاسلام أضلت الأمة ، فكل متعلم يتعالى على الشعب إما بالعظمة العلمية وإما بالعظمة الروحية والزهد . وهذه العظمة يأباها الاسلام . فالأمة كلها متعاونة . وعلى كل أن يكون له عمل يوافق قدرته فتكون الأمة كجسم واحد ، ولأسمعك شذرات من الكتاب تبين مقاصده . وهاك نصها :

قال السيد الامام زين الدين حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى قدس الله روحه ونور ضريحه : لما رأيت أهل الزمان هممهم قاصرة على نيل المقاصد الباطنة والظاهرة وسألنى جماعة من ملوك الأرض أن أصنع لهم كتابا معدوم المثل لنيل مقاصدهم واقتناص الممالك وما يعينهم على ذلك استخرت الله فوضعت لهم كتابا ، وسميته بكتاب [سر العالمين ، وكشف ما فى الدارين] وبوبته أبوابا ، ومقالات وأحزابا . وذكرت فيه مراتب صوابا . وجعلته دالا على طلب المملكة وحاثا عليها ، وواضعا لتحصيلها أساسا جامعا لمعانيها . وذكرت كيفية ترتيبها وتدبيرها . فهو يصلح للعالم الزاهد ، وللعالم المالك بتطبيب قلوب الجند وجذبهم إليه بالمواعظ . فأول من استحسنه وقرأه على بالمدرسة النظامية سرا من الناس فى النوبة الثانية بعد رجوعى من السفر رجل من أرض المغرب ، يقال له محمد بن تومرت من أهل سلمية ، وتوسمت منه الملك ، وهو كتاب عزيز لايجوز بذله لأن تحته أسرارا تفتقر إلى كشف إذ طباع العالم نافرة عنها وتحته علوم عزيزة وإشارات كثيرة دالة على غوامض أسرار لا يعرفها إلا فحول الحكماء ، فالله يوفقك للعمل به فانه دال على كل ماتريد إن شاء الله تعالى .

وقال أيضا [فاركب بسر علو الهمة وحصل الانتهاء لينم لك كبارها وصير عندك نديما كاتما مطلعا على كتبها أعنى بها كتب سر العالمين ، ثم حصل أرباب صناعة التقليب الذين هم علماء تقلب الكيمياء قادرين على صبغ الأحمر والأبيض ، فان كنت قليل الرجال ضعيف العضد وقليل المال ، فكن كثير الفضل والعلم واتخذ لنفسك زاوية على طريق الزهد واجذب إليك تلاميذ وكثر عددهم واتخذ طريق الكرامات لينصبوا إليك واستهو الكبار واسلك طريق الصلاح وزنها لنفسك واحتل . فاذا هب نسيم سعادتك فاكشف لتلاميذك ما الناس عليه من الفسق والفجور وارتكاب مالا يجوز من كل أمر منكر ، وأمر أصحابك تستهوى وتجذب كل طائفة منهم قوما آخرين] .

وقال أيضا : وقد شاهدت محمد بن الصباح إذ تزهد تحت حصن الموت . وكان أهل الحصون يشتهون

أن

أن يطلع إليهم فلم يفعل وهو يحصل المريدين ويعلم طريق الارادة والتلمذة وشيئا من الجدل . ثم جعل يهذر بكلام على قدر عقولهم . ثم جذب الناس وجعل يقول للمريدين : أما ترون الناس قد تركوا الشريعة ، فلما كبر الأمر خرج إليهم بطريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فصبا إليه خلق كثير . وخرج صاحب القلعة إلى الصيد والتلامذة أكثرهم أهل القلعة ففتحوا الحصن ودخلوه وقتل الملك فى الصيد وفشا أمره ومذهبه حتى صنفت فى الرد عليهم كتابا وسميته [قواصم الباطنية] ومنتظرهم فلا بد فى آخر الزمان أن يهجروا الشرائع ويبيحوا المحرمات .

وقال أيضا « ولما مات هارون استخلف الأمين وفر المأمون إلى مدينة أصفهان ومعه الحسن بن سهل وكان المأمون ذا فنون وعلوم وآداب فقعد المأمون فى المسجد الجامع وقد فرشه باللبد زهدا والناس يهرعون إليه لتعلم العلوم ، وابن سهل يومىء إلى الطوائف ويقول لهم ألبس هذا هو الخليفة حقا فبايعوه . ويقول لهم سنة هذا سنة الأولين الطاهرين . فلم يزل يستدرك الناس حتى حوى عسكره ثمانين ألفا ، وكانت الأعاجم تسمع بطريق الأمين الفاسد ففروا وطلبوا المأمون حتى عقد الجيوش لطاهر بن الحسين فدخل على الأمين فقتله واستولى المأمون . فكم من هذه السير المنقولة وإنما نسمعك بعضها تقوية وإعانة لهمتك » .

ها هو ذا حين ما فى الكتاب . وقد ذكر إظهار الكرامات وذكر حسن بن الصباح . وأنت إذا قرأت الجزء الأول من الكتاب أيقنت أنهما فعلوا فعله محمد بن تومرت . وأذكرك بما مر فى : (سورة الشعراء) من أن كثيرا من الأمراء كانوا مشعوذين والأمم تتبعهم بالتقليد . وانظر نبذة مما جاء فى الجزء الثانى من كتاب (سر العالمين) المذكور وهاك نصها .

[واعلم أن الإنسان حبيب أهله وطائفة تخترع لها مذهبا فى الناموس بطريق الزهد كالسبح والمرقعات وجلود الغنم والبرانس وأذان الليل والانقطاع فى الكهفان وكبر الأمور بحيث أن يقول لصاحبه اذهب فى الموضع الفلانى كذا وكذا وطائفة تظهر النور وأخرى تقعد بين القبور وإظهار الخزعبلات والنيرنجيات بعرض الكرامات ودهن الأقدام والخوض فى النار وإظهار الحرق من سندل الصين التى يذهب وسخها النار ومد الشعبذة وضرب طلسم على النعل فيعبر الماء ووقوف السجادة فى الهواء وشعلة القناديل وإشعال السراج بالماء دون الدهن وكثير من ذلك لا عدد لها . والفرق بين المعجزة والسحر والكرامة هو دوام الشىء وإظهاره للناس كالقرآن المجيد فهو المعجز الأكبر والناموس الأعظم] اه .

إن هذا الكتاب أكثره أو كله مدخول على الامام الغزالى . وقد قلت لك إنه صفحة من تاريخ المهدويين وكثير من الأمراء والرؤساء الروحانيين وغيرهم .

فقال صاحبى : ياسبحان الله . إنك إذن تنكر كرامات الأولياء (وبعبارة أخرى) إن كتابك هذا إنكار لأعز شىء عند المسلمين وهى الولاية . فقلت حاشا لله أن أنكر الولاية والله سبحانه وتعالى يقول « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » . فقال نعم ولكنك وازنتهم بالبراهمة وقلت إن هؤلاء الأكابر يسيطرون على الشعوب بأحوالهم وبأعمالهم . فقلت : أنا أقول لك إن هذه الحياة غير ثابتة ونحن على الأرض أياما معدودات ولابد لنا من السفر منها وتوديع أهلها والحياة بدون حب حياة مملولة ، والمحبة للجمال وللمال وللولد وللملك وللصيت وللذكر الحسن لا تدوم ، لأن الجمال وما بعده فى الأرض كلها زائلات سريعات العطب ، والعلماء لما فكروا لم يجدوا محبوبا أجل من كل محبوب إلا من هو منبع الجمال والمال والملك والصيت ، وليس يعطى الجمال ولا الملك إلا من يملكه فلولا أن صانع العالم أجمل من كل جميل ، وأحكم من كل حكيم ، وأعظم من كل عظيم

ما خلق الجمال ولا الحكمة الخ لأن فاقد الشيء لايعطيه . هنالك جعلوا حياتهم كلها وقفا على [أمرين] العلم بذلك الجميل المحبوب بدرس مصنوعاته ، والعمل لاسعاد أشرف من على الأرض وهو نوع الانسان . فالولى هو الذى اتصف بهاتين الصفتين وهما العلم بهذه العوالم حتى يحب الصانع والسعى فى إسعاد الأمم ، إن ذلك الولى يرى أن محبوبه الذى عرفه بمصنوعاته له عناية تامة بكل مخلوق على الأرض ، فهو إذن يحب ما أحبه ويسعى فى إسعاد عباده وأقربهم إليه بنو آدم ، فالله عليم وحكيم فى صنعه ، فهذا أيضا يعلم وتكون له أعمال صالحة متقنة إتقانا تاما بنظام بديع . وكل صانع متقن صنعته سواء أكانت الصنعة تأليفا أو آلة نافعة للناس كان قربه على مقدار إتقان صنعته بمقتضى درجته .

فقال صاحبى : هذا حسن ، ولكن ما تقول فى الكرامات ؟ فقلت : هذا هو بيت القصيد . لقد تقدم فى هذا التفسير ما نقلته عن الشيخ الخواص والشعرانى والدباغ من كبار الأولياء فى الإسلام إذ أجمعوا أن الكرامات ليست مقصودة لذاتها . وأن الصالح إذا ظهرت على يده خوارق العادات إن فرح بها واطمأن كانت سببا فى حرمانه وإذلاله وطرده ، لأنه لافرق بين المال وبين تلك الكرامات حتى قال الشيخ الدباغ : [إن من كشف له عن العوالم العلوية يكون فى خطر شديد ، وهذا الفتوح أكثره عذاب واستدراج وبعد عن الله فالحجاب خير من هذا لأن هذا الفتوح يغر النفس فتقف عن الرق فيكون استدراجا قال الله تعالى «سنستدرجهم من حيث لايعلمون» فهذا القول إجماع من القوم] .

فقال صاحبى : ولكن النفوس الإنسانية يدهشها أن ترى إخبارا بالغيب أو أمورا خارقة للعادة ، فمن حقها أن تتبع أولئك الذين ظهرت على أيديهم تلك الخوارق : فقلت : هذا هو الذى جاء الرسل لمنعه وإنكاره . إن خوارق العادات المنقولة عن الشيوخ أكثرها كاذب ، والذى صدق منها ليس يدل على الفضيلة لأن الفضيلة كما قدمت فى العلم والعمل ، وأما هذه الخوارق فليست من خواص دين الإسلام بل هى أمر عام عن المجوس واليهود والنصارى وعباد الأوثان . فكم فى البراهمة من مخبرين بالغيب . وكم فى الأمم الوثنية من لهم أعمال خارقة للعادة . وهؤلاء وهؤلاء يموتون ولا فضل لهم إلا أن الناس يهدونهم الهدايا ويقدمون لهم القرابين . فجزاؤهم قد أخذوه فى الدنيا . وقد قدمت لك قول الشيخ الخواص للشعرانى [إن الولى يجب عليه أن لا يأخذ من الناس شيئا] وأنه إذا أقبل الناس عليه كان هذا الاقبال جزاء معجلا فى الدنيا فيموت مفلسا لا له ولا عليه ، وربما مات مدينا ولا ثواب له بعد الموت » .

وإنما ذكرت لك كلامهم (وأيضا أحيلك على كتبهم) لأنى أعلم أن الأمم الإسلامية توقن اليوم إيقانا تاما بما يقوله نفس هؤلاء الأولياء رحمهم الله ولن يقدر أحد أن يقول . كلا . وأعظم الكرامات العلم وإحساس النفس بحب صانع العالم ثم الشوق إلى لقائه . ومن لم ينل هذه المرتبة وهى الشوق إلى لقاء ربه وحبه والغرام به وانتظار الموت للقائه فهذا ليس وليا . ومن قعدت به همته عند إعظام الناس له بسبب كراماته فهذا رجل جاهل مسكين أحب الدنيا وانقطع لها بقلبه والناس من غفلتهم يقبلون يده . فقال : وما دليلك ؟ فقلت قوله تعالى « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

فقال صاحبى : إن هذا القول منك حسن وأنا نظرت ما نقلته أنت فى هذا التفسير عن هؤلاء الأولياء ، ولكن لماذا لم يقل القرآن ولا النبى ﷺ هذا ؟ القرآن مملوء بخوارق العادات فحسبنا ذلك فيها وفيمن ظهرت على أيديهم . فقلت القرآن هو الذى نزل لإقفال هذا الباب ، ألم تر إلى عجل السامرى إذ عبده بنو إسرائيل إذ رأوه أفضل من عصا قلبت حية وإلى سحرة فرعون كيف آمنوا لأنهم علماء ، إذن المدار على العلم

لا على هذه الخوارق والله يقول «أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم» الخ وأذكرك بحديث الدجال ذلك الذى تظهر على يديه خوارق العادات ، فانظر حديثه الذى رواه البخارى بسنده عن المغيرة بن شعبة «أن المغيرة قال له يارسول الله إنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء قال هو أهون على الله من ذلك» ويقول الشيخ محيى الدين النووى عن القاضى عياض [إنه شخص ابتلى الله به عباده فأقدره على أشياء من المقدورات من إحياء الميت الذى يقتله ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه وجنته وناره واتباع كنوز الأرض له]. إلى آخر ماقاله انظره فيما نقله الخازن فى تفسير آية «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون» فى تفسير (سورة المؤمن) وهى سورة غافر .

وأنا أقول : إنما جاءت مسألة عجل السامرى فى القرآن وجاء أمر الدجال فى الحديث وحذر النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين منه وأفادهم أن الأنبياء حذروا قومهم منه . أقول إنما جاء ذلك كله ليعرف قراء هذا التفسير وأمثاله أننا نحن الآن قد خدعنا الدجالون فى داخل الاسلام وفى خارجه ، وقد يكون الرجل دجالا ولا علم له بحاله . وكل من صد الناس عن الحكمة والعلم وأرجعهم إلى طريقته وحده فهو دجال علم أو لم يعلم . فماذا يصنع الله للمسلمين بعد هذا . ذكر لهم فى القرآن أن المدار على التعقل والفهم . إن عجل السامرى عبده الجهال وأما العلماء فلا . وأخبرهم صلى الله عليه وسلم أن الدجال تكون على يديه خوارق العادات ، وأن جنته يجب الاحتراس منها ، وأن ناره تصير بردا وسلاما على داخلها .

وأنا أقول كما قلت فى مواضع كثيرة من هذا التفسير [العلم والعمل صعبان على الناس والجهل والخلوة والذكر مع إهمال أعمال الحياة سهلة على الناس] فليزجّ المسلم بنفسه فى العلم والعمل وإن كانا شاقين عليه فهما سعادة له فى الدنيا والآخرة . أما الكسل فانه معطل للمواهب وهو جنة ظاهرا وجهنم حقيقة . وإذا وجدنا أن عيسى قتل الدجال فلنقتل نحن الدجالين فى [أمم الاسلام قتلا أدبيا بأن نعمم التعلم فى ديار الاسلام ، فالعلم وحده يقضى على الخرافات ويحيى النفوس . فالمسيح رمز للعلم والدجال رمز لأولئك الذين أضلوا الأمم وهم جاهلون . لادجل أكثر من الجهل . انظر إلى الأمير عبدالقادر الجزائرى . ذلك الرجل الحكيم كيف حارب الفرنسيين سنين وسنين . ولكن لما عم الجهل بلاده جاء عالم فرنسى وصار مطلعا على أسراره . ومن هنا غلب المسلمون على أمرهم لأنهم لم يقرءوا تواريخ الأمم فقلّ احترامهم . ثم انظر إلى محمد أحمد المهدى السودانى ظهر للناس بالكرامات ولكن لنقص العلم بأحوال هذه الدنيا لما أسلم رجل نمساوى كان فى الجيش الانجليزى (اتمنه) وبه وحده فتح السودان ، ولقد كان ينام على باب المهدى ويبيت به يقول (لا إله إلا الله محمد رسول الله محمد أحمد المهدى ولى الله» وهكذا .

فقال صاحبى : أنا الآن اكتفيت أن تلك الخوارق لا تقيم أمة وأن المدار على العقل . فهل لك أن تحدثنى عما رأيته أنت منها ؟ فقلت انظر كتاب الأرواح تأليفى . فلقد مر فى هذا التفسير منه كثير وهو مملوء بعجائب الخوارق العجيبة على يد الأرواح المحضرة من إحضار الفاكهة فى غير أوانها ومن الإخبار بالغيب الخ .

وإنى أحدثك حديثا حصل فى مصر . وذلك أنى يوما كنت جالسا مع المرحوم صديق حسن باشا جلال فى منزله بالاسكندرية فحضر صدفة مستشار كبير فى محكمة الاستئناف وقال أنا أريد أن أحدثكما حديثا عجيبا أنا كنت قاضيا فى قنا بصعيد مصر فحضرت عند عمدة البلدة وكان هناك رجل يسمى الشيخ سليم فقالوا له أظهر شيء (للبك) أى القاضى فرفض وأبى فألحوا عليه ثم قالوا للبك اطلب شيئا فقال أطلب منك أن تحضر لى زجاجة (فيها روائح عطرية) قال وهذه لاتكون إلا بالاسكندرية ، فقال له : حالا أعطنى (٢٥) قرشا فأعطيتها له فرماها فى الجو وصار يضرب على عجب ذنبه فى مؤخر ظهره ثلاث دقائق . ثم قال ضع يدك

فى جيبك قال فوضعت يدى فى جيبى فوجدت الزجاجة فدهشت وقرأتها وهى باللغة الفرنسية وعجبت أشد العجب، فقال المرحوم حسن باشا جلال دينى يمنع ذلك وكنت لم أطلع على علم الأرواح الحديث اطلاعا تاما ولم أؤلف كتاب الأرواح . فقلت إن كتاب الاشارات لابن سينا فيه أن بعض النفوس الانسانية تقدر على أعمال عظيمة وعلى إخبار بالغيب ، وضرب مثلا لذلك بأن الترك يأتون برجل يعرفونه ويربطون حبلا فى رقبته ويذهبون به ويجيئون فيغشى عليه فيخبر بالغيب . وهكذا يقول : إن قوما يضعون قطرة حبر فى زجاجة فيها ماء ويأمرون شخصا مخصوصا فينظر إلى تلك النقطة نظرا طويلا فيخبر بالغيب] وانتهى المجلس على ذلك . ثم إن الشيخ سليما المذكور سمعت بعد ذلك عنه من كثير من القضاة والمستشارين والمحامين والعلماء والمدرسين غرائب تفوق التصور ومع ذلك كان رجلا جاهلا . ثم إننى لى أصحاب من شيوخ الطرق أخبرنى غير واحد منهم أنهم يتظاهرون بالإخبار بالغيب إيهاما للعامة واستحواذا على عقولهم .

فقال صاحبى : أنت الآن علمتنى علما إقناعيا أن هذه الخوارق ليست مقصودة ولا نافعة بل قد تكون ضارة فهل يوافقك علماء الاسلام على ذلك ؟ فقلت إنهم يقولون [إن خوارق العادات كما تكون على أيدى الأنبياء تكون على أيدى العامة وعلى أيدى الكاذبين والفاسقين وتسمى على يد ولى كرامة وعلى يد النبى معجزة وعلى يد الجاهل معونة وعلى يد الفاسق استدراجا] فقال والله هذا عجب فأرجو الآن أن تختم هذا القول بحادثة تكون مدونة فى الكتب موثوقا بها عند الأمم التى تعيش معنا حتى تكون مقوية لما ذكرته أنت لأن ما ذكرته أنت يسمى خبرا لإنسان واحد ولكن ما تذكره عن أهل العصر يكون قد اطلعت عليه الأمم وأقرته . فقلت : أحدثك عما جاء فى [مجلة الجديد] تحت العنوان التالى وهذا نصه :

أشعوذة أم علم ؟

اعلم أن (هوديني) رجل ساحر أمريكى كان يعيش فى عصرنا هذا واشتهر بأعماله الغريبة التى بزَّ بها كل ساحر سبقه حتى إذا مات منذ سنوات دفن معه سر كثير من أعماله التى لم يجد لها الناس تعليلا ، فمن ذلك أنه يأتى بكرة ضخمة يدخل فيها رجلا ثم يربط شرائط الكرة إلى بعضها ويطلب من الرجل أن يخرج من الكرة دون أن يمزقها ودون أن يفك الشرائط ، وهذا العمل مستحيل كما هو ظاهر ، ولكن هوديني استطاع أن يفعله بكل بساطة وسهولة ، ويحبس (هوديني) نفسه فى تابوت من الرصاص أحكم إغلاقه ثم يدفن على عمق ستة أقدام من سطح الأرض فاذا بك تراه أمامك بعد لحظة ، وقد يدخل أيضا إلى الخزائن الحديدية الهائلة التى تستعملها البنوك الكبيرة وتوصد الأبواب الضخمة عليه ولكنه لا يلبث أن يبدو لك كأنما هبط من السماء ، وهزأ (هوديني) بجميع سجون أمريكا وأوروبا كما أن الأغلال لاتستمر فى يديه إلا ريثما يمضى ثوان معدودة فاذا يداه طليقتان وإذا هو حر يمرح ، والآن بعد أن مات يتساءل الناس : كيف تسنى له أن يمارس كل هذه العجائب ؟ ويقول (السر ارثر كونان دويل) إنه يعلل هذه الظواهر الغريبة بأن لهوديني القدرة على التحلل من الحالة المادية ، ولكن هوديني نفسه سخر من هذا الرأى الذى يريد أن يقرره (السر ارثر كونان دويل) فقد كتب هوديني يقول :

[لست أتحلل أو أتجسد ، وكل ما فى الأمر أنى أتحكم فى إرادتى وأسيطر على الأشياء المادية على طريقة أفهمها وحدى ولا يستطيع أن يفهمها سواى ممن قد أبوح لهم بأسرارى ، على أنى أرجو أن أدفن بأسرارى معى لأنها لاتفيد الإنسانية ، وإذا عرفها بعض عديمى الذمة تسنى لهم بواسطتها أن يسيئوا إخوانهم] .

ولقد بلغ من ركون (هوديني) إلى كفايته وقدرته الشاذة أنه سجن نفسه فى سجن (سيبريا) الشهير

الذي يفخر به البوليس الروسي باستحالة الهرب منه على أي سجين، ولكن (هوديني) استطاع أن يرى الضوء بلا مشقة، ولقد قيد (هوديني) بالسلاسل الضخمة وربط إلى فوهة مدفع تنطلق منه قنبلة بعد ربع ساعة ولكن هوديني تخلص من قيوده في ست دقائق.

وجملة القول أن (هوديني) أتى بعجائب يحار فيها العقل وما زلنا حتى الساعة نجهل شأنها. انتهى ماجاء في المجلة المذكورة، والله أعلم.

فلما سمع صاحبي ذلك قال: لقد وضح الأمر وعرفنا لماذا ذم الله التقليد؟ والله لقد كنت في حيرة وشك في أمر أمة الإسلام، فبينما أنا أقرأ تاريخ النبي ﷺ وأصحابه فأجدهم قد تفانوا في خدمة النوع الإنساني وهدايته فمات عمر مقتولا وعثمان كذلك وعلى كل هؤلاء كانوا صادقين صالحين لم يحبوا الدنيا، ومع ذلك لم تنقل عنهم هذه الحوادث المدهشة. أقول: فبينما هؤلاء كذلك إذ أنا أجد جميع مشايخ الطرق إلا قليلا وكذلك المهديين كابن تومرت وغيره، كل هؤلاء تنقل عنهم أحوال لم ترد عن الصحابة والتابعين فيحار الإنسان. أيرجع إلى الصدر الأول وإلى فعل رسول الله ﷺ فيكون بلا كرامة ولا يقبل عليه الناس إقبالا روحيا، أم يترك الدنيا ويزهدها عسى أن يتبعه الناس ويقبلوا عليه ويكونوا له أعوانا وأصحابا؟ فان لم يصل لهذا فقد أراح نفسه من الناس واستراح في منزله وتعبد لربه وصار وليا وانتهى الأمر. قال: فأقول الآن إن هذا كله أصبح في نظري جهالة، وأنا أقول أنا الآن مطمئن لقولك وسأرفع صوتي بين المسلمين قائلا لهم بالبرهان لا بالتقليد.

« أيها المسلمون جميعا: نحن اليوم مغرورون فكونوا جميعا عاملين علماء مفكرين، وإياكم أن يخدعكم قوم عن طريق النبي ﷺ وأصحابه وصلوا بالليل لتقربوا من ربكم، ولا تشغلوا أنفسكم بما لا يفيد دنيا ولا أخرى. فقلت له: لقد فتح الله عليك وأرشدك يقينا بأن هذه الطرق القديمة ضارة بالمسلمين قاتلة لهم وإنها طرق دجل وخداع وإن كان بعض أصحابها مخلصين على مقتضى تعليم شيوخهم كحسن بن الصباح وأمثاله. أذكرك بأمبراطور اليابان وهو جد الأمبراطور الحالي فانه كان من أسرار دياناتهم أن جدته التي مضى عليها أربعة آلاف سنة كانت امرأة نازلة من السماء. فكان يعتبره اليابانيون نصف إله باعتبار أمه وهي إلهة وعلى ذلك كان لا يراه أحد لأن من رآه احترق بالنار. فماذا فعل؟ نظر الرجل فوجد أن أوروبا أكلت الشرق (أكلا لما). فماذا يصنع؟ نزل إلى الشعب وسار في الشوارع وقال للناس أنا الأمبراطور انظروني لاتخافوا فأزال هذه الخرافة. ثم إنه أمر بالتعليم العام وقرأ الشعب علوم أوروبا كلها وحاربوا الروس فانتصروا فعظموا هم وعظم الشرق في أعين أهل أوروبا. فهل يليق لعظماء الإسلام وشيوخ الطرق أن يبقوا على هذه التقاليد العتيقة التي أهلكت المسلمين والتي هي فعل المسيخ الدجال. فليعلموا أن من الجهالة أن ينتظر المسلمون ذلك الدجال والمسيح الذي يقتله وإن كان هذا لامانع منه ولكن المهم لنا الآن أن نقتل الدجل والكذب بالعلم كما فعل الصحابة والتابعون، أولئك الذين رأوا الفرس والروم حولهم وهم أولو حول وطول فناموا فأضاعوا الدولتين ليرجعوا العالم إلى الصلاح.

فليعلم المسلمون قاطبة الآن أن الدجل والكذب الحالين في بلاد الإسلام يجب محوهما وذلك بالروح العلمية العامة وبغير ذلك لا سبيل لإسعادهم. لهذا جاء ذكر الدجال، ولهذا جاء ذكر عيسى قاتله، بل لهذا جاء رسول الله ﷺ ولهذا ألف هذا التفسير في الزمان الملائم و (لله الأمر من قبل ومن بعد).

(تذكرة)

(المهديون وبعض شيوخ الطرق وماذا يفعل المسلمون بعدنا إذا فقوهم ؟)

لقد ذكرت فيما تقدم فى هذا التفسير فى (سورة مريم) ما سطره صديقنا (اللورد هيدلى) الإنجليزى الذى يقول فى كتابه [إيقاظ الغرب للإسلام] ما يأتى :

« إن جماعة من الألمانيين عثروا على كتابة فى بلاد آشور تاريخها قبل المسيح بنحو (٩) قرون مسطورة فى الألواح ، ملخصها : أن ابن الله البكر قد صلب ، وهذا الصلب يشبه صلب المسيح من كل وجه . فقال لأهل الغرب : بأى أبناء الله أقتدى ؟ أبابن الله الذى كتب تاريخ صلبه قبل المسيح بتسعة قرون منقولا عما كتب عنه قبل ذلك بأكثر من ألفى سنة ، أم بابن الله الذى حدث بعد ذلك وهو المسيح ابن مريم ؟ فأنا لا أتبع هذا ولا ذاك بل أقول إن عيسى نبى الله وروحه وأتبع دين الاسلام لاغير . هذا هو أول الأمر وآخره » اه .

هذا فحوى ما تقدم فى (سورة مريم) وأقول الآن : يظهر لى أن العالم الانسانى عالم كله مقلد جاهل إلا قليلا « وقليل من عبادى الشكور ـ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ـ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى له مافى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون » تبين لى من أحوال هذا الانسان أنه يشبه :

كرة طرحت بصولجة فتلقفها رجل رجل

فإنه قبل الاسلام أدخلت عليه الغفلة فى جميع أنحاء الكرة الأرضية فقال له الأحبار والرهبان وأمثالهم «إن لله ابنا فاتبعه» وكلما تقادم العهد جددوا له ابنا آخر . وفى الاسلام حوّروها وقالوا هذا هو المهدى ، فمن السفاح وهو أول خليفة عباسى أزال الدولة الأموية وأخذ بثأر الحسين رضى الله عنه واستمر ملكهم عدة قرون إلى المهدى الفاطمى الذى ظهر فى بلاد الغرب وجاء مصر . والمهدى بن تومرت . والمهدى السودانى . والمهدى الفارسى وهو بهاء الله . والمهدى الهندى وهو غلام أحمد وغير هؤلاء كثير .

ويقول الأستاذ (هنرى دى كاسترى) الفرنسى فريبا فى هذا الكتاب : « إنه لمثل هذه الأفهام وجد فى الاسلام (مذهب الواصلين) والذين بيدهم توزيع كثير من الميراث فى اعتقاد العامة وإليهم صار يرحل الجمع العديد من القوم الذين ضلوا سواء السبيل الخ » انظره فى (سورة الأحزاب) عند الكلام على أنه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وأنه سراج منير .

أقول : فإذا رأينا هؤلاء الأوروبيين يفرّ علماؤهم ويهرب حكماؤهم من دين اخترعته عقول للأمم إذ كانوا أطفالا . فهكذا سيقول المسلمون بعد قراءة هذا التفسير « بأى المهديين نقتدى ؟ أبالمهدى السودانى أم بالمهدى الفاطمى ؟ أم بالمهدى (محمد بن تومرت) ؟ أم المهدى العيسوى البهائى ؟ أم المهدى الذى انتهى أمره من ولد العباس ، أم المهدى الهندى ؟ لاهؤلاء ولاهؤلاء بل أقرأ القرآن وأتخلق بأخلاقه وأهتدى بهديه . هذه هى الأمة الاسلامية المستقبلة . أما تلك الفرق المتشاكسة والأقوال المتضاربة فانما هى من اتباع أمة الاسلام الأمم كما فى الحديث «لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » ومما يحزننى وآسف له أنك إذا قرأت القصيدة المتقدمة التى قرئت على قبر (محمد بن تومرت) وأنه هو المهدى المنتظر وأن أتباعه يبقون إلى زمان عيسى بن مريم وأن الحديث الوارد فى المهدى أنه يبقى سبعا أو تسعا وأنه هو يبقى تسعا محمول عليه .

أقول: إذا قرأت ذلك فإنك تجد هذا بعينه هو الذي يكرره الإمام « محي الدين بن عربي » في الفتوحات بعد موت (محمد بن تومرت) بعشرات السنين . ولايعتبر رحمه الله بما تم له وأن ملكه زال وأتباعه انفضوا من حوله وبشر هو بمهدي آخر وعين زمانه وظهر اليوم عدم صحته « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون » .

واعلم أيها الذكي أني أكتب هذا وأنا أعلم أن كثيرا تحدثهم أنفسهم بأنهم المهدي المنتظر ومنهم واحد كان صديق في مدرسة (دار العلوم) ولكنه عاقل فإنه بعد أن أراد إظهار أنه المهدي ترك ذلك .

إن هذه الأمة الإسلامية بعد اليوم ستقرأ التاريخ والعلوم الرياضية والطبيعية وسياسة الأمم وأحوالها . وهناك سيظهر فيهم مصلحون مجددون حقا . وهؤلاء هم الذين سيزيلون الخرافات والدعاوي من بلاد الإسلام وسيكون ظهورهم عقب تمام نشر هذا التفسير . وهؤلاء هم الذين يظهر الإسلام ظهورا أتم على أيديهم فيعيش لهم من لايعرف دين الإسلام ويعيش لهم من يتبعه ولكنه متحير في أمره يجد البلاد قد ملأها الشيوخ :

« وكل له غرض يسعى ليدركه »

هذا آخر ماخطر لي في تفسير آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » الخ حوالي فجر يوم الأربعاء (٢٣) إبريل سنة ١٩٣١ م . والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع صاحبي ذلك قال : لقد اتضحت آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا » الخ . هذا هو أهم سرها ومقصودها في زماننا وكل من قرأ هذا من المسلمين يصبح وقد صار موقنا بهذه الفكرة عاشقا للعلم مكبا على العمل والله هو الولي الحميد . فقلت الحمد لله رب العالمين .

فقال هذا قد أفهمني أمر خوارق العادات وأن التقليد ليس مفيدا ، فهل تذكر لي شيئا من التقليد في أمور أخرى كالطب ولو حادثة واحدة . فقلت له : أذكرك بما مضى في (سورة الشعراء) عند قوله تعالى : «وإذا مرضت فهو يشفين» . انظره هناك فإنك تجدني نقلت من كتاب فيه تراجم الأطباء لابن أبي أصيبعة : أن الهرة كانت تقاتل أفعى وكلما لدغتها رجعت إلى نبات فتمرغت فيه فيزول ألمها فترجع كرة أخرى وتقاتل قال في الكتاب المذكور (وهو الذي نقله هناك) إن ذلك الذي رأى هذا قلع هذه الشجرة ، فلما رجعت الهرة لم تجد تلك الشجرة فماتت . أقول لك : لما ظهر ذلك (في الجزء الثالث عشر من هذا التفسير) كتب كاتب في [جريدة الأهرام] يقص هذا القصص بنفسه ويدعي أنه رأى ذلك رأي العين وهو كاذب ، لأنه قرأه في هذا الكتاب وطلب من الأطباء بحث هذا الموضوع فبحثوا وردوا عليه وقالوا إن هذا النبات هو المسمى في مصر (رعراع أيوب) وليس فيه هذه الخاصية مع أنه هو يقص نفس ما كتبته في هذا الكتاب بطريق النقل ، فهذا القول عن الأقدمين غير صحيح وليس هناك بحسب ماعرف الناس نباتا على هذه الشاكلة ، فهنا كذبان بحسب ما ظهر ، كذب القدماء في ذكر هذه الحكاية ، وكذب هذا الشاب الذي ادعى أنه رأى وهو مارأى إلا ما كتبناه هنا . وبعد أن كتبت هذا عثرت على نفس المقالة المكتوبة في الأهرام فهاك نصها :

حول ترياق سم الأفعى
(ولعاب القط)

سيدي الفاضل رئيس تحرير جريدة الأهرام الغراء :

تتبعت بامعان وشغف ما كتبتموه تحت هذا العنوان سواء ما كان منه بقلم تحريركم أو بما وصل إليكم من حضرات قرائكم الأفاضل وأنا لايسعني إزاء سعة صدركم في متابعة هذه الحركة العلمية ومناهضتها على صفحة جريدة كبيرة كجريدة الأهرام الواسعة الانتشار . أقول لايسعني إلا إبداء شكري لكم بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن كثيرين غيري ممن يهمهم أمر هذا البحث المفيد . ويهمني بصفة خاصة ككيماوي خبير في هذا النوع من الأبحاث أن ألفت النظر بأني قمت بالتجربة التي نوهتم بها في هذا الصدد للتثبت من لعاب القط وهل في الخلايا اللسانية أو اللعاب الذي يفرزه عند المقاومة ما يصح أن يكون ترياقاً لسم الأفعى يتقي به غائلته . الواقع ينكر ذلك بتاتاً والتجربة تنفيه، إذ المفروض في اللدغة أن يتسرب السم إلى الدم ويسير معه في دورته المعتادة، فلا مقاومة والحالة هذه إلا من دفاع الكريات البيضاء وعلى قدر هذه الكريات البيضاء ونشاطها يكون التأخر أو التقدم في التسمم، فاذا كان للعاب القط والحالة هذه من فائدة (وهو ما لم يؤيده البحث بعد) فمهمته في هذه الحالة أن يكون وسيطاً ليس إلا ليثير في الكريات البيضاء حركة النشاط المطلوبة للمقاومة . هذا تعليل . وثم تعليل آخر أن لعق القط لمكان اللدغ ما هي إلا حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الذي عساه أن يكون قد تلوث بالسم قبل سريانه وهذه هي نفس الاسعافات الأولى التي يتبعها العامة عادة من عمل تشريط لاستنزاف الدم الملوث أو المص في مكان اللدغ على شرط خلو الفم من أي جرح يتسرب إليه السم وهذا التعليل الأخير هو الذي أراه أقرب إلى الصواب في مسألة لعاب القط . ثم مسألة التمرغ في نبات الغبيرة أو الرعراع (رعراع أيوب كما يسميه العامة) للتمسح به كواق من تسرب السم فهذا مدفوع من جملة وجوه فليس لنبات الغبيرة أي ذكر في المادة الطبية ولا في النباتات الافرباذينية ولم نسمع باستعماله في عقاقير ما كعلاج لأي داء وما هو إلا نبات طفيلي كالحشائش التي تنبت في وسط البقول عادة دون التماس ولو أنه تدور حوله أساطير خرافية غريبة والمادة الفعالة فيه لزجة حريفة قلوية ذات رائحة خصوصية وقد أجرينا على هذا الرعراع المذكور الصفة التحليلية فوجدناه خالياً من الجواهر السامة والمخدرة وبالبحث في تأثير كعلاج لما ذكر له كأن يفيد في حالات التسمم وذلك باحداث اللدغ في خنازير غينا (كوباي) ومعالجتها بالمادة المستخلصة منه فكانت النتيجة سلبية بحتة . فالقول بأن نبات الغبيرة أو الرعراع له أي فائدة كترياق في سم الأفعى والعقرب قول مردود لا أساس له من الصحة، وإذا كان حقاً ما رواه شاهد عيان على صفحات [الأهرام] من أنه رأى القط يلعق مكان اللدغ ويتمرغ في نبات الغبيرة فهو كما ذكرت آنفاً حركة فسيولوجية بحتة يقصد بها امتصاص الدم الفاسد وما تمرغه في نبات الغبيرة . على فرض صحة وجوده مصادفة وقت اللدغ إلا من قبيل تخفيف الألم كما لو كنا نفرك محل الألم عندما يشكنا دبوس أو نرتطم بشيء صلب . هذا ما عن لي أن أسطره بخصوص ترياق الأفعى والعقرب ولعلي قمت ببعض الواجب المفروض على نحو قراء [الأهرام] الغراء ممن يهمهم أمر هذا البحث . انتهى ما جاء في الجريدة المذكورة .

هذا ما جاء في [الأهرام] أفلا نحمد الله إذ جعل في أمة الاسلام في مصر من نراه يبحث هذا البحث ولا يشكل على آراء القدماء، وإذا رأينا علماءنا يقولون لكل من قلد في التوحيد إعانه لم يخل من ترديد فهكذا

نقول

تقول فيمن قلد فى الطب أو فى السياسة أو غيره بل يجب البحث حتى تستبين الحقيقة . فبحث المتقى الكبادى المصرى (أمير زاده) فى هذه المسألة قد أظهر لنا الحقيقة فيما قرأناه فى كتاب (ابن أبى أصيبعة) فهكذا نفعل فى كل علم . اهـ والحمد لله رب العالمين .

فقال صاحبى : وهل تذكر لى مسألة واحدة أيضا فى نظام الأمم قلد الناس فيها وهم مخطئون كالمسألة الطبية قلت : قلد أمان الله خان مصطفى كمال باشا منذ سنة واحدة فى أنه قتل علماء الدين الذين عارضوا فى الاصلاح فقام الشعب عليه فنزل عن الملك إذ اغتصبه رجل كان ابن سقا بحجة المحافظة على الدين ثم قام عليه الشعب فأزالوه عنه وقتلوه ، وتولى الإمارة (نادرخان) الذى كان قائد الجيش أيام أمان الله خان ، فأمان الله قلد مصطفى كمال فى إدخال الاصلاح بدون تدرج ولكن التقليد خطأ لأنه هناك فرقا بين الأمتين ونفس مصطفى كمال انتقده المنتقدون فى تسرعه وتغييره نظام تركيا سريعا ، فانه بينما هو يترك الحروف العربية ويكتب الشعب كله باللاتينية ترى أوروبا تتبرم من الحروف اللاتينية وهذا عجب أن يقلد الناس بلا برهان . وهاك ماجاء فى إحدى المجلات العلمية وهى [مجلة الجديد] فقد جاء فيها مانصه :

الحياة الاجتماعية

(تبرم أوروبا من حروفها الكتابية)

ظهرت فى الشرق من هذا العهد نزعة إلى مجاراة الغربيين فى حروفهم الكتابية ، ويعرف القراء أن تركيا بأجمعها قد دخلت المدرسة من جديد لتعلم الحروف الأوروبية كما أمر الغازى مصطفى كمال ولافرق بين العجوز والفتاة والهرم والغلام . فان العقوبة الزاجرة تترقب من يتوانى فى تنفيذ هذا الأمر المشدد ويذكرون أيضا ماتعتزمه فارس من تركها للحروف العربية واعتناق الحروف الأوروبية وماكان ينويه جلالة الملك المخلوع أمان الله خان فى بلاد الأفغان ، ولو نظر مقتبسو الاصلاحات الأوروبية إلى الجوهر دون المظهر لرأوا أن نقل المظاهر الشكلية لايفيد شيئا فى تقدم الأمم وفى وسعهم أن يحتذوا مثال اليابان التى أبقت تراثها القديم وأدخلت فى بلادها الاصلاحات الجوهرية كالتعليم والصناعات والفنون والزراعة والتجارة وإعداد الجيوش البرية والبحرية . ولقد كان من رأينا من زمن أن الحروف العربية تفضل الحروف الأوروبية من عدة وجوه لأنها فى الحقيقة نوع من الخط المختزل الذى يدل على الكلمات بأقل رسم وأوجز حروف . وقد كان الأوروبيون ينشدون مثل هذا الخط لكتابة كلماتهم فأوجدوا الخط المختزل ولكن طريقة ابتكاره لم تكن ناضجة ولم يتيسر استعماله للدلالة على الكلمات بالضبط ولذلك قل من يكتب به على كثرة مايعانيه متعلمه من آلام دراستها ومشاقها ، ولذلك لايزال الأوروبيون ينشدون نوعا مختصرا من الخط لأنهم يرون أن استمرارهم على الكتابة بحروفهم القديمة ضياع للوقت الثمين وعبء ثقيل ينآى دونه كاهل المتعلمين . ونسوق للقراء فقرة مما كتبه رئيس تحرير مجلة (النيشن) الانكليزية فى هذا الصدد .

وإنى أتساءل لماذا يستمر أبناء هذا العصر فى حمل هذا العبء الثقيل وهو الكتابة بالحروف المطولة ؟ يقال إن الكتابة من أعظم الاختراعات التى توفق إليها الإنسان . ولكن هل يلزم من هذا أن نلبث إلى الأبد ما كفين على مااخترعه الإنسان الأول فى عصور التأخر ثم نزعم أننا شعوب الثقافة فى المدنية ؟ ألا يعد ذلك من أكبر وأشنع سقطات مدنيتنا الحاضرة التى لايقوم مظهر حضارتها وجوهرها إلا بالكلمات المكتوبة فهناك جيوش لايمكن أن تحصى من الرجال أو النساء لاتكتسب أقواتها إلا بالأعمال الكتابية ولايمكن أن تجد

أحدا فى دوائر الأعمال تخلو يده من قلم الحبر أو الرصاص ليدون ماهو منوط به من الأشغال . وربما كانت مدة الكتابة تستغرق على الأقل نصف الوقت . ويرى المستر اسبندر أن مايكتبه الصحفى فى اليوم لا يقل عن ٢٠٠٠ كلمة .

هذا مايقوله الناس اليوم فى التقليد فى أمور النظام العام . ولو شئنا لشرحنا التقليد فى العلوم كدوران الشمس حول الأرض الذى كان يقوله الناس قديما وكيف دحضه العلماء بعد ذلك وكمسألة الكواكب السيارة وأنها سبعة فظهر بعد ذلك أورانوس ونبتون ولم يكن يعرف الناس إلا شمسا واحدة حتى عددوها فعرف الناس اليوم آلاف آلاف الشموس وشمسنا بالنسبة لها كأنها برتقالة أو أصغر فان كوكب الجوزاء أكبر من الشمس (٢٥) ألف ألف مرة . إذن التقليد جريمة ولهذا نزلت هذه الآيات «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم» الخ انتهى الكلام على الفصل الثانى .

الفصل الثالث

(فى ضرب مثل لمن صاروا أحرار الآراء وماذا فعلوا)

أذكر فى هذا الفصل [حادثتين : الحادثة الأولى] الحرية السياسية . فانظر ماجاء فى جريدة الأهرام بتاريخ يوم الاثنين (١٨) فبراير سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

﴿ رجل إنجليزى يفعل فى السياسة مافعله مؤمن آل فرعون فى سورة غافر ﴾

(مظاهرة ضد الكولونيل لورنس فى انجلترا)

نظم المستر (سكلاتفالا) العضو الشيوعى فى مجلس العموم البريطانى مظاهرة كبيرة فى لندن ضد (الكولونيل لورنس) المعروف على أثر الاشاعات التى راجت بأنه أضرم نار الثورة فى قبائل الأفغان ضد الملك (أمان الله) فسارت المظاهرة مسافة طويلة تحمل صورة (لورنس) وأخيرا أضرموا النار فيها على صوت الخطباء الذين وصفوه بأقبح الأوصاف ، انتهت الحادثة الأولى .

الحادثة الثانية نبذ التقليد فى الزراعة

(البحث عن السعادة الزراعية بطريق خارج عن التقليد الذى ذمه الله فى القرآن)

اعلم أيها الذكى أن هذا قد أشرنا إليه سابقا فى هذا التفسير ، ونزيد عليه الآن ماجاء فى جريدة الأهرام يوم الخميس (١٣) أكتوبر سنة ١٩٢٩ م وهذا نصه :

الزراعات فى الماء

(طريقة جديدة لانمائها)

ظهر فى الولايات المتحدة اقتراح عظيم الشأن ينتظر أن يخلص الفلاحين وزراعى الفاكهة والأزهار من متاعب الزراعة وخدمة الأرض ومن قيود المواسم والأحوال الجوية وأجور الأطيان ، ويحدث انقلابا عظيما فى فن الزراعة . فقد أعلن قسم فسيولوجية النبات فى جامعة كلفورنيا أنهم توصلوا إلى إنتاج غلال وخضروات من مزروعات زرعوها فى حياض رقراقة الماء ، وتعهدوها بأقراص كيمائية أسموها (أقراص النبات) فى جو جاف خال من الرطوبة أشبه بجو الصحراء، وتسنى لهم إنتاج الفاكهة والخضروات الشبيهة بالفاكهة قبل أوانها المعتاد . كذلك زرع أنواع مختلفة من الأزهار التى لاتينع إلا فى أواسط الصيف فازدهرت وقطفت أزهارها

فى غرة فصل الشتاء . وتبين أن القمح والشعير والأرز إذا زرعت على هذا النمط يزيد محصولها من ٢٥ فى المئة إلى ٥٠ فى المئة ، أما البنجر والجزر والكرنب وغيرها من الخضروات التى من فصائلها فقد نمت نموا أسرع من نموها المعتاد بمدة تتراوح بين عشرين وثلاثين يوما . وقد زاد متوسط حجمها العادى ٩٠ فى المئة بغير أن تفقد شيئا من رسمها ونضارتها . وزرعت (الطماطم) بهذه الطريقة الجديدة فزاد محصولها ٤٠ فى المئة وتسنى زرع الورد فى جو المنازل فى فصل الشتاء القارس فنما وازدهر فى مدة لاتزيد على الستين يوما . وزرعت (الباذلة) فى فصل الشتاء داخل المنزل ودرجة الحرارة فى الخارج دون الصفر فنمت وبلغ طول أصولها خمسة أقدام وازدهرت وأتت ثمارها فى مدة تتراوح بين الستين والسبعين يوما . وقد بلغ عدد التجارب التى أجريت نحو خمسة آلاف تجربة فى خلال خمسة أعوام أسفرت عن هذا الاكتشاف العجيب الذى وصفه الدكتور جاريك رئيس قسم تشريح النبات فى جامعة كلفورنيا بأنه أعظم منحة وأفضل هبة لفن الزراعة منذ بدء تطبيق علم تسميد المزروعات حتى الآن ، وتؤيده فى هذا الرأى كلية الزراعة فى تلك الجامعة وعدد كبير من الخبراء فى الزراعة وخريجى كلية الزراعة وتجار الأزهار الذين ساعدوه فى تجاربه ، وخلاصة السر فى هذا الاكتشاف المؤدى إلى سرعة الانماء وزيادة المحصول هى إعطاء النبات مقادير مركبة تحوى العناصر السبعة التى يتألف منها غذاء النبات وإعطاء كل نوع مايلزمه من الغذاء بالدقة والضبط ، وهذه العناصر مركبة فى أقراص اسطوانية الشكل تذاب فى الماء أو فى التربة التى ينمو فيها النبات ، وهى تجمع معا فى أنبوبة قصيرة أو اسطوانة بمادة كلسية تشبه الجوصين ، وتحتوى هذه الأقراص على أجزاء معلومة من النتروجين والفوسفور والمغنزيا والحديد والبوتاس والكبريت والكلس (الجير) . وقد وجد فى أثناء إجراء هذه التجارب والاختبارات أن كل نوع من الشجر والحبوب والخضراوات والأزهار يتطلب تركيبا مخالفا من حيث الكمية من العناصر السبعة كلها أو بعضها .

فالتركيب الذى يغذى (الباذلة) ويعجل نموها ويزيد إنتاجها مثلا لايفيد الورد وفصيلة البنفسج . وقد دلت التجارب على أن عدد التراكيب اللازمة يمكن حصره فى عشرين نوعا . ومع أن أقراص النبات استعملت بنجاح للمزروعات فى التربة ، فقد أسفرت التجارب أن خير وسيلة للانماء هى الماء بمقدار لتر لكل نباتة . فقد جىء بشتلة ورد زرعت حديثا فى الأرض ولم تكد جذورها تمتد ، ووضعت فى الكمية اللازمة من الماء بعد أن أذيب فيه المقدار اللازم من أقراص النبات المختصة بفصيلة الورد ، فنمت وترعرعت وتفتحت أكمامها عن ورد نضير كبير الحجم فى خلال ثمانين يوما . وأجريت مئات من التجارب من هذا القبيل فى الحبوب والخضروات وشجيرات الفاكهة وأشجارها فكان النجاح فى زراعة الحبوب والخضروات عظيما جدا ، فتبين أن حجم الهليون (أسبارجوس) قد تضاعف تقريبا من غير أن يطرأ أى تغير فى غضاضته أو عدد فروخه ، وكذلك البطاطس زاد حجم محصولها خمسين فى المئة بغير أن يزيد نمو شجيراتها . وتبين أيضا أنه إذا زرعت النباتات الغذائية فى الماء بدلا من زرعها فى التراب يزداد معدل نموها نحو مئة فى المئة ويزداد حجمها ويتسنى زرع عدد كبير منها فى مساحة واحدة . وأسفرت التجارب فى زرع القمح وافية . وختم الدكتور جاريك حديثه قائلا « إن أهم ما فى اكتشافه هذا أنه يمكن ملايين من الناس أن يعيشوا على محاصيل تنتجها المياه فى أراض كانت لاتنتج سوى الشوك » والقطن والتبغ لهما نتائج باهرة . فقد نما القطن من البذور حتى طرح اللوز فى مدة تسعين يوما . وظهر أن القمح إذا زرع فى الماء المذابة فيه أقراص النبات يزيد نموه خمسين فى المئة أكثر منه إذا زرع فى التراب المغذى بأقراص النبات . وحملت نتائج هذه التجارب الدكتور جاريك ومساعديه على الشروع فى إجراء تجارب زراعة النباتات الغذائية فى الماء لمعرفة نفقاتها إذا زرعت على قياس تجارى فوجد

أن الحياض التى عمقها من ست إلى ثمان بوصات هى أصلح مايكون لزراعة الحبوب والخضروات ، وقد استعملت حياض طول كل منها عشرون قدما وعرضها خمسة أقدام مصنوعة من الخشب ومبطنة بورق مدهون بالقار وترك الورق زائدا من كل جهة ليصلح غطاء للحوض وجعل فى هذا الغطاء ثقوب صغيرة قريبة بعضها من بعض وأدخل فى كل ثقب منها شتلة من النباتات بحيث تصل جذورها إلى الماء الذى وضع فيه عدد من أقراص النبات . وقد تبين أنه يتسنى بهذه الطريقة زرع ضعفى أو ثلاثة أضعاف ما يزرع فى المساحة ذاتها من الأرض مع سرعة النمو وزيادة المحصول كما ذكرنا آنفا . وقد أدت مواصلة هذه التجارب الاقتصادية إلى أن هذه الحياض الخشبية المسقوفة بالورق المدهون بالقار أو بالأسلاك الوثيقة هى خير الوسائل وأقلها نفقة لزراعة الحبوب والخضروات فى الماء ، وقد رأى الدكتور جاريك ومساعدوه أن نفقة حياض من هذا النوع تغطى مساحة فدان مع ترك طرق بينها تبلغ على الأكثر ٢٥٠ ريالا فى أية ناحية من أنحاء الولايات المتحدة حيث المواد غالية الثمن وأجرة العمل باهظة . أما فى الأنحاء الأخرى من العالم فالمعتقد أن النفقة لا تزيد على ١٥٠ ريالا وإذا زادت المساحة إلى خمسة أفدنة أو أكثر فإن نفقة الحياض اللازمة لتغطيتها لا يمكن أن تزيد على مئتى ريال فى الولايات المتحدة ، وهكذا تبلغ نفقة حياض خمسة أفدنة ألف ريال أو ثلاثة أضعاف ما يلزم لتصليح الأرض للزراعة كل عام ، ولكن متى أنشئت هذه الحياض فإنها تعمر على الأقل خمسين عاما ولا تحتاج إلى حراثة أو رى ولا عزق أو تنظيف من العشب وكل ماهنالك أن الحياض تملأ ماء وتوضع الأقراص الكيمائية فيها مع سرعة النمو وزيادة المحصول ، والتخلص من آفات الزراعة التى تنشأ من الأرض .

وعلى هذا المنوال يتسنى للزارع أن يربح نفقة صنع الحياض فى عامين . ثم إن مسألة المناخ ورطوبة الهواء أو جفافه وخصب الأرض أو عدم خصبها كل هذه العوامل الهامة فى زراعة الأرض يظهر أن لاتأثير لها فى التجارب التى قام بها الدكتور (جاريك) ومع أن طريقة الزراعة فى الماء لا يمكن بها زرع نباتات فى غير إقليمها فإنها تعجل نمو النباتات وتزيد محصولها فى منطقتها الخاصة بها . فقد قام الدكتور (جاريك) ومساعدوه بتجارب اكتشافه فى جو درجة حرارته ورطوبته مضارعة لدرجة حرارة ورطوبة جو صحراء الاريزونا والمكسيك الجديدة والجنوب الشرقى من كلفورنيا فزرعوا الفجل واللفت والبنجر والخس والسبانخ والطماطم والباذنجان وغيرها من النباتات الغذائية فتبين أنه فى الامكان زرع ٢٠٠٠٠ شجرة من شجيرات الطماطم فى حياض مساحتها تعادل فدانا بمحصول يزيد على محصول عدد مثلها فى الأرض من خمسة وعشرين فى المئة إلى ستين فى المئة . ويرى الدكتور (جاريك) أن أهمية اكتشافه الحقيقية هى استخدام طريقة زراعة الحياض فى المناطق القاحلة القفرة فى جميع أنحاء العالم إذ يمكن أن يزرع فيها الشىء الكثير من النباتات الغذائية . ويقول الدكتور (جاريك) إنه يعلم أن رمال الصحراء يمكن جعلها صالحة للزراعة إذا تسنى ريها بالماء العذب ريا وافيا ، ولكن يوجد ملايين وألوف الملايين من الأفدنة التى لا يمكن أن تصل إليها المياه العذبة لريها وزرعها ، على أن كمية ضئيلة من الماء تكفى لاستعمال طريقته وزرع النباتات الغذائية فى صميم أجدب الصحارى وأقفرها فأى نبع صغير أو بئر ارتوازية أو صهريج يجمع فيه ماء المطر ويكفى لتغطية قاع حوض طوله عشرون قدما وعرضه عشرة أقدام يكفى مئة قدم مكعبة من الماء ، وهذا الحوض يمكن أن يزرع ١٧٠ شجيرة من الطماطم ، وإذا فرضنا أن نصف هذه الكمية تلزم لتعويض ما تمتصه الشجيرات فى أثناء النمو وما يتبخر منه ويتسرب منافذ الحوض كان مجموع كمية الماء اللازم لهذا الحوض طول موسم الزراعة ٣٠٠ جالون أو ثلاثة صفيحة من حجم صفائح البترول مع أن هذه الكمية من الماء لاتكاد تكفى لرى نصف هذه المساحة من الأرض موسما واحدا مع العلم أن مساحة من الأرض معادلة لهذه المساحة إذا تعهدت بالرى الوافى لا تتسع لزرع أكثر

من

من خمس مايزرع فى الحوض وكل نباتة تزرع الأرض لا تنتج من المحصول إلا ستين فى المئة مما تنتجه النباتة التى تزرع فى الحوض وينظر الدكتور (جاريك) إلى مستقبل اكتشافه لهذا فيرى أن كل نبع ضئيل أو بئر أو صهريج فى الصحراء والأراضى القفرة القاحلة سيكون محوطا بحياض فيها ماء رقراق يغطى قيعانها إلى ارتفاعها ثلاث بوصات أو أربع وكل منها مزروع نباتا ذا محصول غذائى ومانتنجه زراعة هذه الحياض كاف لمعيشة عدد كبير من السكان . ويرى سطوح المنازل المرتفعة بدلا من أن تترك بلا نفع ولافائدة حدائق غناء بالرياحين والأزهار أو بساتين تزرع فيها الفاكهة والخضراوات ، ويرى كل صاحب منزل فى المدينة يستعمل جزءا من فناء داره أو حديقته لانتاج مايلزمه من الخضراوات والأزهار بربح وافر وأنه يصبح فى وسع أى إنسان مقيم فى أقصى بقعة من بقاع الأرض القاحلة أن يزرع كل مايلزمه ومن معه من الخضراوات والنباتات والأشجار المثمرة التى يلائمها الإقليم . والعمل الذى يتطلبه الزرع على هذه الطريقة الجديدة لايبلغ عشر معشار ماتتطلبه خدمة الأرض اهـ .

***

﴿ تذكرتان ﴾

[الأولى] تذكرة فى سورة الأحزاب فى قوله تعالى «والصائمين والصائمات» [والثانية] تذكرة فى سورة سبأ فى قوله تعالى «يعلم مايلج فى الأرض» الخ وسر من أسرار الفحم المستخرج من الأرض .

[التذكرة الأولى] فى قوله تعالى «والصائمين والصائمات» وهى سر من أسرار الطب فى الصيام المذكور فى الآية فوق ماتقدم فى (سورة البقرة) من المسائل الطبية والصحية فى آية «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» وفى سورة الأعراف عند آية «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» وفى سورة الحجر عند التلميح إلى قصة آدم ، وفى سورة طه عند قصة آدم أيضا ، وفى سورة الشعراء عند آية «وإذا مرضت فهو يشفين» . فهم هذه المواضع من التفسير أهم مافى علم حفظ الصحة من التحاشى عن الأدوية المشهورة والاكتفاء بالمداواة الطبيعية ، وكذلك مر فى سورة القصص عند قوله تعالى «ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار» الخ بيان كيف يكون الهواء الطلق وضوء الشمس حبورا وسعادة وصحة ، وهكذا فى أول (سورة العنكبوت) عند ذكر الجهاد كيف كان الصوم أصبح نافعا فى العلاج بإيضاح تام ، أما هنا فإنى أقول : جاء فى سورة الأحزاب فى هذا المجلد أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير بنص الآية وأن ضوء الشمس هو الذى يفتك بالحيوانات الذرية المهلكة الحادثة من العفونات المتسلطات على أهل الأرض ، فهكذا آى القرآن التى هى أشعة من نور الله أشرقت على أهل الأرض يجب أن يرجع إليها المسلمون اليوم مع أمثال هذا التفسير لتزول من بلاد الإسلام تلك الغفلة التى استحكمت بالآراء المنحرفة عن إدراك جمال هذا الوجود الذى حرمه المسلمون أجيالا وأجيالا ولا جرم أن ماذكرته هناك فى القرآن على هذا النحو يمثل له فى الحياة المادية الدنيوية بما يفعله أهل أمريكا اليوم من التعرض للشمس والصوم أى ترك الطعام مع شرب الماء أمد أربعين يوما فيزول من أبدانهم فقر الدم ، فاذا كان الصيام الطبى (الذى له شبه ما بالصيام الشرعى وليس من كل الوجوه) قد اتحد مع ضوء الشمس والهواء النقى على إعادة الصحة وإزالة فقر الدم والمرض الناشىء عن المداومة بأكل اللحم فى ذلك المرض هكذا أمم الإسلام باعراضها عن الخرافات والبدع وتمسكها بنفس كتاب الله الذى يحرضهم على معرفة مافى هذه الدنيا من الجمال والابداع يرجع لها مجدها وشرفها القديم المعظم ، فهاك ماجاء فى إحدى المجلات العلمية وهى (الصور) بتاريخ (٢٨) مارس سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالى وهذا نصه :

فقر الدم ومعالجته بالصوم

جاء فى بعض الصحف الأمريكية أنه طرأ تحول فى الطب عند كثيرين من الأطباء ، فإنهم بعد ١٠ كانوا يصفون اللحم الدامى للمصابين بفقر الدم أصبحوا يصفون لهم الصوم الآن ، وفى الولايات المتحدة مستوصفات ومستشفيات يعالج فيها من يصف لهم الأطباء الصوم . ومن أوصافها وقوعها فى مكان طلق الهواء نقيه ، تعرض غرفها وسطوحها للشمس وإحاطتها بحدائق تعطر الهواء بأريجها الطيب ، ولا يتغذى فى المستشفى إلا بالماء ومع ذلك لا يكون مايطلب منه فى مقابل إقامته فى المستشفى مبلغا يستهان به ، وتتفاوت مدة المعالجة بين (٤٠) يوما و ٥٠ يكون المستشفى فى خلالها تحت مراقبة الطبيب ، أما نتيجة هذا الصوم فتكون جلاء بصر من يشكو ضعف البصر وزوال ما يسببه من فقر الدم ، وشفاؤه من مرض البول السكرى واندمال قروح معدته وعودة القوة إلى الذين هجرتهم من جراء الإفراط فى العمل ، ويكفى الإنسان مدة ثلاثة أيام ليتعود الصوم ويتخلص الجسم من السموم العالقة به بعد ستة أسابيع أو سبعة ، ويقول العارفون (إنه إذا لاحظ الإنسان الحيوانات وجد أنها حين تكون مريضة تمتنع عن تناول الطعام ، وعند الانسان نفسه يكون فقدان الشهية للطعام دليلا على اضطراب صحته ، وعلى كل حال ينبغى للمرء ألا يعمد إلى الصوم بدون أن يستشير الطبيب انتهى .

هذا ماجاء فى مجلة [المصور] وبه تم الكلام على التذكرة الأولى والحمد لله رب العالمين .

﴿ التذكرة الثانية ﴾

(خواطر فى صلاة العصر فى قوله تعالى « يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها »)

(كتب يوم ٩ رمضان سنة ١٣٤٨ هـ)

لقد علمت فيما ذكرناه مشروحا ومرسوما موضحا أن أكثر الألوان التى تصبغ ثياب الناس فى الشرق والغرب اليوم إنما تكون من القطران ، وذلك القطران من الفحم والفحم مما يخرج من الأرض . ومن عجب أن هذا الفحم مكث مئات الآلاف من السنين وهو يتلظى ويتقلب ويحترق فى النار الحامية فى جوف الأرض ، فهناك حرارة عظيمة جعلت الخشب فحما ، فلما أن أخرجه الناس اليوم كشفوا أمره فوجدوا فيه مئات الألوان فصبغوا بها الثياب فأكب عليها الناس فى الشرق والغرب وكان هذا التهالك سببا فى هلاكهم فى الدنيا وعذابهم « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

وقد تجد جميع الأمم التى استعمرها الفرنجة مكبين على الزخارف والزينة التى تبهرهم ببريقها ولمعانها فتزول ثروتهم وتضيع بلادهم . مثال ذلك بلادنا المصرية أيام المغفور له إسماعيل باشا ، فإنه استدان واستدانت البلاد فكثر دين الأمة وكثر دين الحكومة . فقد ضلت الأمة ودخل الانجليز البلاد بحجة المحافظة على الدين وهل هذا كله إلا بتلك الثياب التى صبغت بالقطران المستخرج فى تلك الدول العظيمة من الفحم الحجرى ؟ أو ليس هذا هو ماتشير له قصة المسيح الدجال إذ يأتى بجنة ونار وقد أمرنا أن نترك جنته وندخل ناره فتكون جنته نارا وناره جنة ، فهذه الأمم المتأخرة الاسلامية لما بهرها بهرج الفرنجة استحلته فوقعت فى الذل وساءت الحال ، ومتى ذلت الأمة ذهبت منها الأمانة والشرف والشجاعة والعفة فصاروا عبيد الفاتحين وصعيدا جرزا تذروه الرياح فإذا ماتوا كانت أرواحهم ناقصة ، وهل للناقص إلا جهنم لأن جهنم للناقصين

والمسلم الناقص يكون فى جهنم بتم مدة عذابه ، أليس هذا هو سر قوله تعالى « سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار» . أو ليس هذا هو سر القرآن ظهر الآن ؟ وإن كنت فى شك مما قررته لك الآن وقلت هذا القول غامض بعيد عن الصدق . أقول : أفلا أذكرك بما نقلته لك فى آخر (سورة آل عمران) عن الزعيم الهندى (غاندى) عن مجلة الجامعة الهندية ، إذ يقول فيها فى الفقرة الثانية مانصه : (إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وماهو أقبح من هذا ألا وهو العار على كثير من العائلات) اهـ .

فها هوذا (الزعيم غاندى) من المعاصرين لنا يقول : إن للمنسوجات الأجنبية تجلب العبادية وماتبعها ، (وبعبارة أخرى) أنها تكون مثارا لأنواع الذل والشقاء ويتبع ذلك الخسة وهذه تجمع أنواع المعاصى أفليس هذا من أسرار القرآن ؟ إذ ذكر أن سرابيل أهل النار من قطران ؟ وها هى ذه السرابيل ملونات بألوان من القطران الفحمى فتهافت الناس عليها كما يتهافتون على جنة المسيخ الدجال وهذا التهافت أورث ضياع البلاد والاسراف والله لايحب المسرفين فتهلك الأمم وتضيع البلاد ، فهذه النفوس الناقصة تعذب (عذابين) عذابا فى الدنيا وعذابا فى الآخرة لأن ذلك هو استعدادها ، وذلك كله سر آية «سرابيلهم من قطران» وهو مستخرج من الفحم الحجرى وهذا الفحم مما يخرج من الأرض فى قوله هنا «يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها» الخ . تم الكلام على التذكرة الثانية والحمد لله رب العالمين .

خاتمة السورة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

أيها المسلمون : انظروا معى نظرة عامة إلى هذه السورة ، هى مبتدأة بنعم الله الجزيلة وبأنه مستحق للحمد عليها وبأنها من السماء ومن الأرض والجنة خارجة نازلة صاعدة وهى مع ذلك لا تعزب عن علمه ، وأن هذه الحياة لاتقف عند حد الموت فهى ممتدة لتكون أواخرها نتائج أوائلها ونهاياتها مبنية على بداياتها ، وأن علم العلماء فى جميع القرون وكشف الكاشفين للمعلومات فى الأرض يبين لهم أن هذا القرآن حق وهاد إلى صراط العزيز الحميد .

هذا مبدأ السورة ، ثم إنه أخذ يبين لنا حال أمتين شرقيتين أمة اليهود وأمة العرب ، فهما أمتان متجاورتان . فأما أمة اليهود فإنها ازدهرت بالعلوم والعرفان والعمران أيام داود وسليمان عليهما السلام وكان ذلك الازدهار والعز موجبين لشكر الله على من أعطوا هذه النعم ، فأما أمة العرب وسبأ فإنهم بطروا النعمة وكفروها فلم يشكروها فحاق بهم العذاب وساعدوا ابليس على تلبيسه عليهم وإضلاله فكفروا فحق عليهم الوعيد . لذلك أرسل الله النبى صلى الله عليه وسلم لجميع الناس من عرب ويهود وعجم فانتشر دينه فى أقطار المعمورة وازدهر العمران .

ثم أخذ يقص علينا نبأ النوع الإنسانى من حيث التقليد واستقلال الرأى وأن المقلدين الخاملين لاينفعهم عند الله الاحتجاج بأنهم غرهم الرؤساء ، فكل عن عمله مسئول وأن الرؤساء الضالين أشبه بالذباب يطوف على الوجوه والعيون فيبيض فى القذرة منها فيخرج فيها بيضه دودا فيحصل الرمد للعين . فالعيب على من أصابه الرمد لأنه مستعد لوقوع الذباب على عينه وهذا هو قوله تعالى «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون» وقوله هنا « وقال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ

جاءكم بل كنتم مجرمين » رداً على قولهم «لولا أنتم لكنا مؤمنين» كما تقول العين الرمداء للذبابة لولا أنت لكنت سليمة من المرض ، فتقول الذبابة : إن استعدادك لوقوعى عليك أغرانى بذلك فأصبت بالرمد بسبب بيضى الذى وضعته فيك ، فأنا وقعت عليك لأضع البيض فيك وهذا طبعى الموافق لطبعك ، فنحن معاً نشترك فى خلق واحد ، بيننا جامعة تجمعنا ، فأنت مرتعى الخصيب ، وأنا الراتعة فيه ، فأى فرق أيتها العين بيننا وبين الأنعام ، ترعى فى الرياض النضرة والحقول الخضرة ذات الأزهار البهجة ، ألست أنت روضى وجنتى ونعيمى لأن القذارة محبوبة لى وأنا بها قريرة العين سعيدة .

فهذه المحاورات بين الذبابة وعين الأرمد أشبه بالمحاورة بين الرؤساء والمرءوسين إذ يقلد الآخر الأولين كما اتفق فى أمم الإسلام المتأخرة إذ استسلم المجموع الإسلامى لبعض من قل علمهم وضعف يقينهم فاستنزلوهم بعد عز من مراتبهم حتى عموا عن آيات القرآن كالذى جاء فى هذه السورة ، وغاية أحدهم أنه ربما يقرأ فى أمثال هذا التفسير فيفرح بمعجزاته صلى الله عليه وسلم التى ظهرت فى هذا الزمان كآثار سد العرم المرسومة فيما تقدم وأن ذلك يوجب تصديق أهل العلم ، فإن من يقرأ هذا ويعلم أن المؤرخين كانوا يشكون فيه فظهر لهم الحق بكشف أولى العلم فإنه لامحالة يصدق بالقرآن وبمن أنزل عليه ، ولكن أيها المسلمون ليس التصديق بأن القرآن حق هو كل مايطلب منا ، فهذه مرتبة الرجس المبخوس المنزلة الضئيل المعرفة ، فبلاغة القرآن ومعجزات العلم كل منهما يرشد قوما إلى صدق القرآن ، ولكن التصديق بالقرآن بعد هذا الجد يشاركنا فيه العامى والصبى فهما مؤمنان والايمان شىء والتشمير لمقتضى الإيمان شىء آخر ، يقول الإمام الغزالى رحمه الله تعالى : (إن من لم يكن له حظ من القرآن إلا لفظه وتفسيره واعتقاده بالقلب فهو مبخوس الحظ نازل الدرجة فإن ادراك اللفظ بسلامة حاسة السمع وفهم المعنى يكون بمعرفة اللغة العربية التى يشارك العارف بها الأديب اللغوى بل الغبى البدوى ، وأما التصديق بأن كلام الله حق فهذه مرتبة يشاركنا فيها العامى الجاهل بل الصبى . قال : وهذه درجات كثير من العلماء فضلا عن غيرهم) اه .

إذن فلتعرنى أذنك أيها الذكى ولتجلس معى دقائق أحدثك فيها حديثى عن أمم الإسلام التى أعيش معها مدة ما ثم أترك الأرض ومن عليها وأتوجه إلى لقاء ربى . فأقول :

يارب أنت أرسلت نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم للناس كافة وقلت لنا « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وأسكنتنا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لنا فى آثارهم كيف فعلت بهم وضربت لنا الأمثال ، ومن الأمم المذكورة أهل سبأ وقد ملكتنا أرضهم . فماذا فعل المسلمون لما ملكوا ؟ هاهم أولاء تركوا مواهبهم العقلية والجسمية وتركوا نعمك التى أنعمت بها عليهم ولم يبالوا بنعم المطر النازلة عليهم من السماء . فماؤه يجرى بلا سد يصده ولا عرم يحفظه فعطلوا نعمك . ثم إن جمهورهم اليوم لايعلمون إلا ماورثوه عن آبائهم من العلم وهذا تقليد والتقليد مذموم . وهاهم أولاء يا ألله يقرءون فى سورة سبأ فى التى أنزلتها باسم بلادهم التى أهلها (مدينة مأرب) التى تقدم رسمها والتى تسمى باسم سبأ أيضا . وقد قلت فيها لا فى صنعاء كما يقول الجمهور من المفسرين « بلدة طيبة ورب غفور » وقرءوا أن هؤلاء الوثنيين لما أعرضوا عن حفظ السد وترميمه أنزلت عليهم عقابك فى الدنيا ففرقتهم فهم لم يشكروا النعمة ولم يحفظوها كما حفظها داود وسليمان عليهما السلام . فهم قوم غير شاكرين والذى لايشكر النعمة بحفظها تزول عنه . ثم أقول يا ألله : قرأ المسلمون هذا فى القرآن ولكنهم وقفوا على القشور وجمدوا على الألفاظ ولم يفطن أكثرهم لما نزل من هذه الحكم وهى أن يعمروا أرضك ليكونوا « خير أمة أخرجت للناس » كما كان سلفهم الصالح أيام الصحابة والتابعين لا أن يعكفوا على جمع المال وادخاره وعلى الملك والاكتفاء بالمجد الكاذب الذى هو كسراب بقيعة

يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » ووجد الأمم الحيطة بنا تتغلب على أطراف البلدان الاسلامية الجهل أهلها وقلة تبصرهم وعدم تعقلهم أمثال هذه الحكم فى القصص القرآنية حتى إنك ألهمت محمد بن ومرت فى بلاد المغرب فظهر لهم بهيئة المهدى الذى يتبعون قوله أمدا ما ثم دالت دولتهم بعد مائة سنة وكانت هذه سنة تلك الأمم إذ اقتعدوا غارب التقليد الأعمى بمن سيطروا عليهم من الرؤساء الذين سخرهم الله لهم لما عميت البصائر عن القرآن الهادى إلى طرق الحقائق وأخذوا يتخبطون فى ديجور الظلام الحالك حتى جاء زماننا فوجدنا بلادك التى سلمتها لنا خاوية على عروشها، فها هى ذه بلاد شمال أفريقيا فى القرون المتأخرة نضب معين الحضارة منها فأرسلت لها أمم أوروبا أمة بعد أمة، وهاهى ذه بلاد العرب التى كانت منبع حضارة الأمم شرقا وغربا قد حل بها البوار ولحقها النكال ، وهاهى ذه بلاد اليمن وحضرموت وما والاها من البلدان لم نجد فيها ملكا اليوم يعادل ولا يقارب ملك السبئيين الوثنيين الذين عيرتهم بأنهم أعرضوا عن نعمك وضربت لهم مثلا بإهمال سد العرم الذى هو واحد من مئات الأسداد فى تلك البلاد ، فلم يفطن عالم من علمائهم إلى هذه العبر وقد أحاطت بهم النذر من كل جانب ، وهاهى ذه أوروبا واقفة لهم بالمرصاد ، أنت يا ألله خاطبت المسلمين بكلامك القديم اليوم منذرا ومحذرا . فكلامك القديم لايتسنى لنا أن نعرفه إلا بأحد طريقين إما بألفاظ ترد على لسان نبى كالذى جاء فى هذه السورة ، وإما بفعلك أنت لأن المعانى تظهر بالقول تارة وبالفعل أخرى ، فأما القول فنى القرآن، وأما الفعل فهو ماظهر اليوم فى العالم قاطبة . فكم يا ألله من نعم ببلاد العراق ونجد والحجاز واليمن وحضرموت مخبوءة فيها . وكم من سحائب ماطرات مطرا يحيى الأرض بعد موتها ثم ترك ذلك كله وشأنه فلم يحفظ فى زمن الإسلام بالاستخراج وبالأسداد كما حفظ أيام الجاهلية فانتفع الناس به] .

هذه حال المسلمين اليوم يا ألله . وها هو ذا التفسير قد كتبته وهم يقرءونه وهو آخر إنذار للمسلمين، فان فكروا فهموا وانتفعوا وإن أغمضوا أعينهم عن الحق أهلكتهم الأمم .

أيها المسلمون : ها أناذا أنذرتكم وحذرتكم . ويا أبناء العرب إخوانى وأصدقائى فكروا فى قصص هذه السورة ، فكروا فى قول ربكم « فأعرضوا » ولما أعرضوا أرسل عليهم سد العرم أليس هذا إصلاحا دنيويا . ألم يكن خراب سبأ أو (مدينة مأرب) من نتائج الجهل الذى وقعنا فيه الآن . أنتم يا أبناء العرب إخوانى قد أزيل الغطاء عن أعينكم فأخذتم تفكرون وهذا كتابى بين يديكم وأنا أعلم أنكم تقرءونه ومستحيل أن يمر هذا القول بلا نتائج ، بل أقول فوق ذلك إنكم سترجعون المجد القديم الذى يجعلكم « خير أمة أخرجت للناس » كما كان آباؤكم الأولون ، وإنما خصصت الخطاب لكم الآن لأن مدينة مأرب وهى سبأ لا تزال فى حوزتكم . فالفرصة سانحة لكم جميعا فى العراق والحجاز ونجد وغيرها من البلدان . أنا أذكركم بقول الله تعالى فى (سورة الأعراف) « لتنذر به وذكرى للمؤمنين » فالقرآن إنذار لقوم وتذكير لآخرين . وجاء فى نفس السورة « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون » إلى قوله « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لايسمعون » .

فما من أمة من أمم الإسلام إلا حلت محل أمم بائدة . وأهل اليمن حلوا محل أهل سبأ وأولئك أهملوا الماء فلم يحفظوا السدود وكفروا . وهؤلاء المسلمون أذنبوا وأعرضوا عن حفظ هذه النعم أفلا يحق لى وأنا أكتب هذا أن أخاف عليهم . فأنا أنذرهم وأقول لهم إن الذنوب على [قسمين] ذنوب ترجع إلى إهمال

النظام فى الدولة وهذه جزاؤها الهلاك فى الدنيا أو الذل . وذنوب جزاؤها فى الآخرة غالبا وهى الأمور الاعتقادية . وبيانه أن أكثر الأمم التى هلكت قراهم فى القرآن كانوا غير منتظمين فى أمور الحياة . ونسمع الله يقول «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» فاذا أصلحوا نظام بلادهم وهم كافرون فلاهلاك يلحقهم ، فالكافرون المعمرون لبلاد الله العادلون يكون عذابهم فى الآخرة غالبا . انظر إلى أمة الصين وأمة اليابان . فهؤلاء ذاقوا عذاب الخزى فى الحياة الدنيا لما كانوا غير مفكرين فى أمر نظام مدنهم العام ، فلما أن عرفوا ذلك ونظموا البلاد خرجت أوروبا من بلادهم هاربة .

فيا أبناء العرب ، ويا أهل الجن ، هذا كتاب الله وهذا فصله . يعذب الأمم فى الدنيا بجهلها وإهمالها كما جهلت وأهملت سبأ وأنتم ورثتم الأرض من بعدهم ، فوعيد الله لكم ظاهر واضح . ولا سبيل لكم من النجاة إلا بصرف آخر درهم من أموالكم فى تعليم الشبان تعلما عاليا وهم هم الذين يقومون بنظام البلاد . والله لقد أنذرت وحذرت وأنت يا ألله تشهد «وكفى بالله شهيدا» . فهل لكم أن تسمعوا ماجاء فى كتاب [التجارة الاقتصادية والجغرافية البشرية] فقد جاء فيه مايأتى :

الانسان ونهضة الاستعمار

(هذه نقط الموضوع)

(١) معنى الاستعمار . (٢) أقسام العالم الطبيعية طبقا لنظرية هربرتسن ممثلة بخريطة .
(٣) الهجرة . (٤) موقف المستعمرين . الأمم المستعمرة وميزاتها .
(٥) أنواع المستعمرات . (٦) ما يجب على المستعمر معرفته .
(٧) أوروبا بعد الحرب الكبرى .

يدل معنى لفظ الاستعمار على عمران الأقطار وسكنى البوادى بعد إصلاحها واستيطان القفار بعد استنباتها واستثمارها ، فيتبدل وحشها أنسا ويستحيل جدبها خصبا فينعم أهلها ببسطة فى الرزق ووافر من الخيرات والثمرات، ثم يرقى المجموع الانسانى تباعا باستكماله أسباب الراحة المعيشية وهى كل مراميه فى حياته الدنيوية .

قام الإنسان فى عصور الكشف الجغرافى بنهضة جلى كان غرضه منها تعرف جهات العالم جميعها فزج نفسه فى المحيطات واخترق ظلمات القارات واستهدف للخطر وركب الغرر فهلك من هلك ولكن نال بغيته وأصبحت الأرض جميعا قبضته فانقسمت إلى أقسام سياسية ترجع إلى مختلف المجهودات وما احتدم من قتال وما شجر من خلاف ، ثم تريث وأمعن فانكشف العالم أمامه أقساما طبيعية لاتحول ولا تحور .

عمد إلى كل جهة جديدة وأقبل عليها بخيله ورجله يحدث فيها من الحرف والأعمال بما دلته عليه تجاربه فى الجهات القديمة المماثلة لها والتى أقام عمرانها من قبل ، فأنبت القمح فى أمريكا فى الجهات الصالحة لزرعه وفى الأرجنتينة واستراليا وزيلنده، وأوجد القطن بالنيجر والسكر بالبرازيل وناتال واستراليا والبن والكاكاو والتبغ والفاكهة أشكالا وألوانا . غرس كلا فى النبت الملائم له . ثم استثمر الغابات والأحراج الجديدة على نمط القديمة ، وسبر غور الأراضى وانتزع من معادنها، وغاص أعماق البحار وانتفع من لآلئها فعمت هذه الخيرات العالم وأثرى المستعمر وأترف فنزعت النفوس إلى العوالم الجديدة الفائضة لبناً وعسلا وخفت إليها الرحال واتجهت إليها الآمال فأنتم بالاستعمار ؟ هاجر الناس من مواطنهم على حبها وشدة تعلقهم بها فانتجعوا هذه الأقاصى طمعا فى المال أو فرارا من شدة التزاحم ووطيس النضال وأقبلوا يزفون على مزارع عذراء ومناجم لم تطمث

وأرض

وأرض لم توطأ فصالوا وجالوا وطبق صيتهم الخافقين وأصبحوا قدوة لبني جلدتهم فأحبوا جميعا حب الهجرة وأشربوها في نفوسهم وجرت منهم مجرى الدم حتى ليهذي بها الصغير في غضاضة الإهاب ويصبو إليها الضل القوى في زمن الشباب ويحن إليها شيخهم إذا هرم وشاب .

إلى أن قال : فاذا لم يكن في الاستعمار غير تثمير أجزاء الأرض قاصيها ودانيها والأخذ بيد الشعوب المتأخرة للنهوض بها إلى مستوى الحضارة لكفى لأن كثيرا من المستعمرات قد بلغ من الثروة الطبيعية أقصاها ولكن أهله الوطنيين للأسف غير قادرين عليه وعلى الانتفاع به لتأخر حالهم العلمية والكثير منهم همج وحشيون يعيشون على الفطرة ، فموقف المستعمرين في ذلك حرج . فلاهم بمنصفين إذا تركوا هذه الكنوز الثمينة طلاسم في يد من لا يعرف أن يرعاها ، ولاهم بمنصفين إذا تدخلوا فلا يسلمون من الثلب والقدح ورميهم بالطمع والجشع والتصدي لغير شأنهم والتدخل فيما لا يعنيهم . وإذن فليتدخل المستعمرون لا للامتلاك بل لغرض الإصلاح وإرشاد الوطنيين حتى يبلغوا بهم من المستوى العلمي والأدبي ما يؤهلهم إلى الانتفاع بعالمهم وبلادهم ، فاذا تم ذلك كان الاستعمار نعمة ، والمستعمرون ملائكة الرحمة ، ولكن الإنسان وما فطر عليه من حب الذات والسعي لها كثيرا ما يحيد عن المبادئ القومية العالية ويغفو عن واجبات الانسانية السامية فتشوهت صبغة الاستعمار وخرج عن معناه إلى معنى الاستعباد والاذلال .

امتازت الأمم المستعمرة : (أولا) بشدة البأس والسطوة والجبروت . فهي تعد الجيوش وتبني الأساطيل لتحمي ذمارها وتحفظ حقوقها وتضرب بها العصاة الوطنيين إذا جنحوا إلى العداء ، ورفضوا منهج الاستعمار الذي وضعته . وامتازت (ثانيا) بكثرة المال تنفقه فيما تشاء وعلى من تشاء فتفتح به المناجم والمصانع وتزهو به الزرع ، وتشق القنوات . وتذلل الطرق . بل تذلل كل صعب . وامتازت (ثالثا) بأنها الأمم العالمة المخترعة المتفننة في أساليب الرقي والحضارة . فمنها المهندسون والزراع والصناع والكيميائيون والأطباء ، ولفيف العالم الراقي جميعا . فأي قطر يحتله هذا النوع من الانسان وما وهب من المزايا ثم لا يرقى إلى معارج الفلاح والنجاح أو لا يفيض على المستعمر والمستعمرة أرضه بالخيرات والبركات .

والمستعمرات (قسمان) نزلية واستغلالية . فأما الأولى فينزل فيها الأجنبي لغرض الاستيطان إذا كان جوها مما يلائم مزاجه وطبيعته لوجه الشبه بينه وبين بلاده الأصلية فيتسنى له إذا استوطنها أن يقوم بالعمل الجسماني فيها ويرتزق من هذا الطريق إن شاء . ويقع عادة مثل هذه المستعمرات في الأصقاع المعتدلة . فمنها كندا واستراليا وزيلاندا وأمثالها . وأما الثانية فهي التي يفد عليها الأوروبيون لا للاستيطان بل لغرض الاستغلال والاستفادة من طيب أرضها وصيب خيرها حتى إذا جمع ما يكفيه قفل إلى وطنه الأول وعاش فيه بقية حياته منعما بما كسبت يداه ، فهو لا يستطيع القيام بالعمل الجسماني في ذلك الوطن الثاني لعدم صلاح جوه له وإنما يضطر إلى استخدام أهله الوطنيين في ضروب الاستغلال والاستثمار على أجر معلوم بينما تكون له الزعامة العليا بفضل ما امتاز به من العدة والمال والعلم . انتهى ما أردته من كتاب (الجغرافيا التجارية الاقتصادية) والحمد لله رب العالمين .

أيها المسلمون : أليس هذا فعل ربكم سبحانه وتعالى . جاء نبينا صلى الله عليه وسلم فقام معه العرب ونشروا العلم والأمن في الأرض ثم خمد المسلمون إلا قليلا وناموا فلم يتركهم بلا منذرين .

فها هو ذا القرآن يدرسونه . ولما غفلوا وقلدوا أثار الله أهل أوروبا وحركهم لاستخراج ثمرات أرضه التي جهلها المسلمون فأحاطوا بكم من كل جانب . إنهم من مخلوقات الله تعالى وهو الذي أوعز إليهم أن يجعلوا

المستعمرات (قسمين) زلية واستغلالية ، ولا جرم أن بلادكم أيها المسلمون بلاد استغلالية ، فهم يدخلونها للاستغلال لا للاستيطان . فدونكم كلام الله ودونكم فضله . فان لم تفهموا القول أفلا تعقلون الفعل ؟ فاياكم أيها المسلمون أن تذروا التمر فى بلادكم لئلا يستعمرها قوم غيركم . وإياكم ياأهل اليمن أن تتركوا الغابات والأشجار كأشجار الخروع الكثيرة فى بلادكم فلا تنتفعوا بها . وكذلك الكنوز والآثار المطمورة ، فقد حذرت وأنذرت وبينت «ولله عاقبة الأمور» .

كتب فى صباح يوم الاثنين الموافق (٢١) إبريل سنة ١٩٣٠ م ، وبهذا تم الكلام على (سورة سبأ) والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء السادس عشر من كتاب (الجواهر)
فى تفسير القرآن الكريم

ويليه

الجزء السابع عشر : وأوله تفسير سورة فاطر

فهرس

الجزء السادس عشر

من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صفحة

صحيفة

اليهود خلاصات من علوم كتابه الملل والنحل وإخوان الصفاء ، وتحقيقات الغزالى وغيره من علماء الإسلام .

٧١ من الدلائل الساطعة على أنه صلى الله عليه وسلم سراج منير ماشهد به الجاسوس الفرنسى الذى أرسلته فرنسا لعبدالقادر الجزائرى وقدصار من خواصه وقرأ الإسلام فأفاد أن دين الاسلام حق ولكن العلماء لايصلحون لبثه بين الناس .

٧٤ بيان أن الاسلام دين عمومى .

٧٥ من مزايا الإسلام أنه دين رحيم ، فهو يعد بالجنة أصحاب الأعمال الصالحة المختلفى الأشكال والألوان لافرق بين عابد وعالم وتال للقرآن الخ . وقد حرم المسكرات لحفظ المسلمين من غوائلها التى منها طوائف الفوضوية وأعلى شأن النفس الانسانية بالصلوات الخمس . وهو دين ذو بساطة يلائم كل نفس حتى أبسطها وهم الزنوج .

٧٨ (اللطيفة الثالثة) فى قوله تعالى «ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله» الخ . وفيها أربعة فصول :

(الفصل الأول) فى الذكر وبيان أن فضائل الذكر عرفها الهنود قبل آلاف السنين وهذا من المعجزات والقرآن آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم .

٨٠ (الفصل الثانى) فى قوله تعالى « وسبحوه بكرة وأصيلا » .

٧٨ (الفصل الثالث) فى قوله تعالى «هو الذى يصلى عليكم » الخ . ولاجرم أن الصلاة من الله الرحمة فلولا الرحمة ماكان نظام تلك الدورات بانواعها وهكذا .

(الفصل الرابع) فى التحية والسلام .

٨٤ (اللطيفة الرابعة) فى قوله تعالى «ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا» إلى قوله «وسراجا منيرا» وبيان أن تشبيه النبى صلى الله عليه وسلم بالشمس ليس كتشبيه النابغة النعمان بالشمس .

تشبيه النبى صلى الله عليه وسلم بالشمس والشمس بها حياة كل شىء ولكن فى المخلوقات ماحجبت عنه الشمس فخلقت فيه حيوانات ضارة ولايقتلها إلا التعرض للشمس كما هو الطب الحديث .

٩٥ آثار النبوة وانتشارها فى أوروبا .

٩٦ الكلام على السيد ناصر الدين (دينيه) المسلم الفرنسى والمصور الشهير الذى مات وهو يبلغ من العمر ٧٠ سنة .

٩٨ بيان أن الاسلام لايبالى إلا بالعقل وينبذ خوارق العادات فهو بهذا خالف جميع الأديان . والمسلمون أشد الناس تسامحا والمسيحيون اليوم يتعلمون التسامح من المسلمين .

إن المسلم يعظم عيسى والمسيحى يذم محمدا ، إن أصل حريتنا العلمية فضلها للنبى العربى .

ومن فضائل الاسلام منع الخمر وانه لاواسطة بين الله وعباده ولا يسأل الانسان إلا عن نفسه .

١٠٤ المؤتمر الدينى الدولى لخدمة السلام العام .

١٠٥ الكلام على حالة العميان فى مصر وسؤال تلك الجمعية الحكومة المصرية فى أمر العميان وهل لهم اعانة ؟ وكم عددهم ؟ وبكم ساعدتهم الحكومة ؟ وما أنواع مصنوعاتهم ؟ وما الرائج فى السوق منها ؟ وهكذا .

صحيفة

صحيفة

صحيفة

١٧٩ رسم سد العرم وكيف ينصرف الماء منه ، والسد عرضه (١٥٠) ذراعا، وطوله ثمانمائة ذراع ، وثلثه الغربى وهو الأيمن باق والثلثان الباقيان تهدما ، والأيسر عرضه عند القاعدة (١٥) ذراعا وطوله (٢٠٠) ذراعا ..

١٨١ خريطة بلاد العرب .

خريطة سد مأرب أو سد العرم .

١٨٢ عجائب القرآن في القرن العشرين، وبيان أن ذكر سد العرم يذكرنا بطوفان نوح عليه السلام وبما حصل فى مصر سنة ١٩٢٩ وماحصل فى أمريكا سنة ١٩٢٧ م وبأن منعه فرض كفاية وأن ذلك الفرض عند بعض العلماء أفضل من فرض العين لاتساع فوائده . وبيان أن نهر المسيسبى أغار على الجسور فقطعها وأن هذا النهر سنة ١٩١٣ م فاض على مقاطعة (الاهيو) فخسرت البلاد (٢٤) مليونا من الجنيهات ، فأما فى سنة ١٩٢٧ م فقد خرج البحر عن مجراه وأغرق سبع ولايات وارتفع على الأرض (٨) أمتار .

١٨٤ (شكل ٢٢) مياه المسيسبى ترتفع على الجانبين وشكل (٢٣) نسف أحد جوانب المسيسبى .

١٨٥ بيان اشتراك الشعب كله فى درء الخطر ، وأن مئات ألوف من الناس باتوا بلا مأوى ، وأن الحكومة أغاثتهم بفيلقين من الجيش وبلغت الخسائر مائتى مليون .

تتمة الكلام على أسداد اليمن وإيضاح من بنوا سد العرم .

١٨٦ الأسداد وأنها تبلغ فى العدد مئات . وبيان أن الذى بنى سد العرم أولا سمهعلى ، ثم ابنه يثمر ، ثم ابنه كرب ايل ، ثم ذمر على ذرح ملك سبأ ، ثم يدع ايل دتار ، وقد تهدم مرارا وأصلح ، ولما ملك الأحباش اليمن ظهرت لهم كتابة عليه سنة ٥٣٩ م وسنة ٥٦٥ م ونص إحدى الكتابتين التى كتبها أمير الحبش (بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه الخ) وفيه تاريخ تغلب ذلك الملك على الخارجين عليه .

١٨٨ (تذكرة) فيها إيقاظ المسلمين إلى هذه النعم المخبوءة فى أرضهم ، وكيف عرف قيمتها الوثنيون ولم يعبأ بها المسلمون ، وهذا فى الحقيقة انتكاس ، فأين شكر النعم إذن وقد أهملناها .

١٨٩ (جوهرة بقيمة) فى آية « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم » وأن أمم الإسلام اليوم استيقظوا وأحس العرب والعجم بما يصيبهم من الخطر ، وأن المسلمين كانوا فى القرنين الأولين يرضعون من أفاويق النبوة ثم فى القرون التى بعدها صاروا أيتاما وأوصياؤهم أمراء وشيوخ إن صلحوا صلحت الأمة والعكس بالعكس .

١٩٢ القصيدة التى قيلت فى ابن تاصرت أنه المهدى المنتظر وأولها :

سلام على قبر الإمام الممجد سلالة خير العالمين محمد

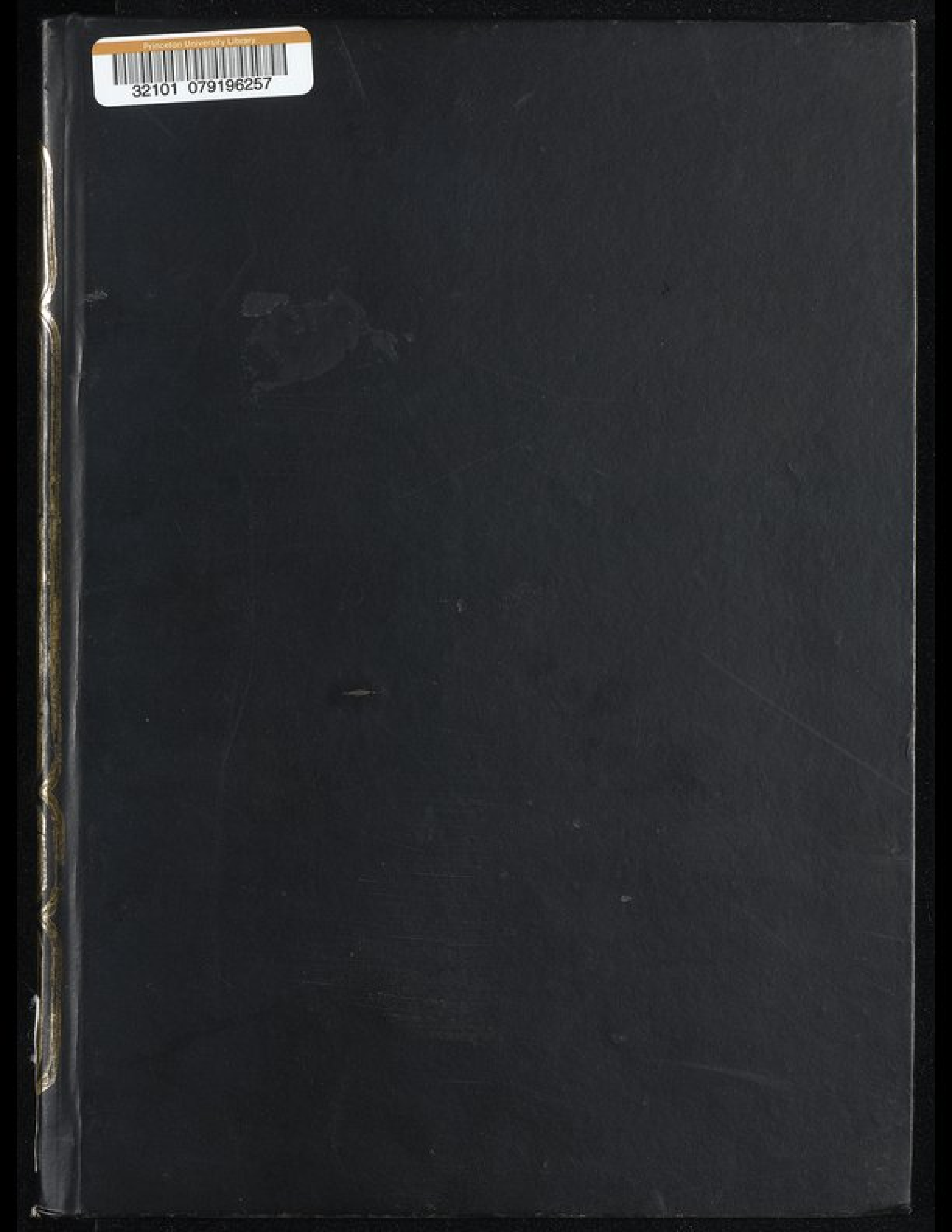
والمذكور هنا ٢٤ بيتا

١٩٣ الكلام على أبى يعقوب يوسف وعلى ابنه يعقوب الذى أهان ابن رشد وعلى ابنه محمد وابنه يوسف والمأمون من هؤلاء .

صحيفة

(تمت)

فهرست تفسير الجزء السادس عشر من كتاب الجواهر


Princeton University Library
32101 079196257